سيمون دوبوفوار

المثقفون

رواية

نقلها الى العربية

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

سيمون دوبوفوار

المثقفون

رواية

الجزء الاول

نقلها الى العربية

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل الأول

١

ألقى هنري نظرة أخيرة إلى السماء : بلور أسود ، كانت ألف طائرة تغتصب هذا الصمت، وكان هذا صعباً على التصور ، ومع ذلك فقد كانت الكلمات تتصادم في رأسه في صخب ومرح : الهجوم أوقف ، الالمان اندحروا، سأستطيع الرحيل. وانعطف من زاوية الرصيف . ستعبق الشوارع برائحة زيت أشجار البرتقال وزهرها ، وسيثرثر الناس على السطوح المضاءة ، وسيشرب قهوة حقيقية على صوت القيثارات . كانت عيناه ، يداه ، وجلده جائعة : ما أطوله من صوم ! وصعد الدرج البارد ببطء .

– أخيراً !

وراحت بول تضمه وكأنها وجدته بعد مخاطر طويلة . ومن فوق كتفيها ، نظر إلى الصنوبرة الساطعة التي كانت تعكسها المرايا الكبيرة إلى ما لا نهاية . وكانت الطاولة مثقلة بالصحون ، والأقداح والقناني . وكانت كتل من العنم والآس منتثرة بلا نظام عند أسفل سلم . وتملص ورمى بمعطفه على الأريكة .

– هل سمعت الراديو ؟ هناك أنباء طيبة .

– آه ! اخبرني بسرعة .

لم تكن تستمع إلى الراديو مطلقاً ، ولا تريد ان تعرف الانباء إلا من فمه .

– ألم تلاحظي صحو السماء ؟ انهم يتحدثون عن ألف طائرة في اعقاب فون روند ستدت .

– يا إلهي ! إذن لن يعودوا .

– لم يكن هناك أبداً أي احتمال في ان يعودوا .

وتوخياً للصدق ، فقد خطرت الفكرة في راسه أيضاً .

وابتسمت بول بغموض : – لقد أخذت احتياطاتي .

– أية احتياطات ؟

– في أعماق القبو: يوجد مخبأ . وقد سألت البوابة ان تفرغه : كنت ستختبىء هناك .

– كان يجب ألا تتحدثي عن ذلك إلى البوابة : فهكذا يُخلق الرعب .

كانت تشد في يدها اليسرى على أطراف شالها ، وكان يبدو عليها انها تحمي قلبها . وقالت :

– كانوا سيعدمونك . انني ، كل الليالي ، أسمعهم يقرعون ، فأفتح ، وأراهم.

كان يبدو عليها حقاً ، وهي ساكنة ، أن عينيها نصف مغمضتين ، انها تسمع أصواتاً . وقال هنري في مرح :

– هذا لن يحدث .

وفتحت عينيها وتركت يديها تسقطان .

– هل انتهت الحرب حقاً ؟

– لن تدوم بعد الآن طويلاً .

ووضع هنري السلم تحت العارضة الضخمة التي تدعم السقف :

– هل تريدين ان اساعدك ؟

– سيأتي آل دوبروي لمساعدتي .

– لمَ ننتظرهم ؟

وتناول المطرقة ، ووضعت بول يدها على ذراعه :

– لن تشتغل ؟

– ليس هذا المساء .

– أنت تقول كل مساء . ها قد مضى أكثر من عام وأنت لم تكتب شيئاً .

ـ لا تقلقي : انني راغب في الكتابة .

ـ هذه الصحيفة تأخذ الكثير من وقتك . انظر في أية ساعة تعود . أنا واثقة انك لم تأكل شيئاً . ألست جائعاً ؟

ـ ليس في هذه اللحظة .

ـ ألست متعباً ؟

ـ كلا .

وتحت عينيها اللتين كانتا تلتهمانه بحنان ، كان يحس بنفسه كنزاً كبيراً هشاً وخطراً : وهذا بالضبط ما يتعبه . وصعد على السلم وأخذ يدق مسماراً بضربات صغيرة حذرة : فالمنزل لم يكن حديثاً .

ـ استطيـع حتى ان أقول لك ماذا سأكتب : ستكون رواية مرحة .

فقالت بول بصوت قلق : ماذا تعني ؟

ـ بالضبط ما أقوله : بي رغبة في كتابة رواية مرحة .

وود لو يخترع هذه الرواية في لحظتها ، فالتفكير فيها بصوت عالٍ كان سيسلّيه ، لكن بول كانت توجه إليه نظرة كثيفة جداً حتى انه قد سكت .

ـ ناوليني كتلة العنم الكبيرة .

وعلق بجذر الكرة الخضراء المثقوبة بعينين صغيرتين بيضاوين ، وناولته بول مسماراً آخر . نعم ، لقد انتهت الحرب : على الأقل بالنسبة له ، وهذا المساء عيد حقيقي . فالسلم بدأ ، وكل شيء بدأ من جديد : الحفلات ، أوقات الفراغ ، اللذة ، الرحلات ، وربما السعادة ، وبالتأكيد الحرية . وانتهى من تعليـق العنم والآس وأكاليل شعر الملائكة على العارضة . وسأل وهو ينزل من على المنصب :

ـ لا بأس ؟

ـ رائع .

واقتربت من الصنوبرة ، واصلحت من وضع إحدى الشموع :

ـ إذا لم يعد هناك خطر ، فهل ستسافر إلى البرتغال ؟

ـ بالطبـع .

– لن تشتغل أيضاً أثناء هذه الرحلة ؟
– لا أعتقد .

كانت تجس بتردد إحدى الكرات المذهبة التي كانت تتمايل على الغصون ، وقال الكلمات التي كانت تنتظرها :

– آسف لعدم اصطحابك .

– أعرف جيداً انها ليست غلطتك . لا تأسف : فرغبتي في رؤية العالم تتضاءل أكثر فأكثر ، ماذا يفيد هذا ؟

وابتسمت :

– سأنتظرك . الانتظار ، في حالة السلم ، ليس مملاً .

وتملكت هنري الرغبة في الضحك: ماذا يفيد هذا؟ يا للسؤال ! لشبونة.بورتو. سنترا . كويمبر. ما أجملها من أسماء ! بل لم يكن بحاجة إلى لفظها ليشعر بالفرح يقفز إلى حنجرته . كان يكفيه ان يقول : لن أكون بعد الآن هنا ، سأكون في مكان آخر . مكان آخر : انها كلمة أجمل أيضاً من أجمل الاسماء . وسأل :

– ألن تذهبي لتلبسي ؟
– اني ذاهبة .

وصعدت السلم الداخلي فاقترب من الطاولة . كان جائعاً لكنه ما إن يظهر شهية حتى يتأكل القلق ملامح بول . وبعد أن قر رأيه ، مدد قطعة من الكبد على شريحة خبز وعض عليها . وقال في نفسه في حزم : « عند عودتي من البرتغال ، سأذهب لأقيم في الفندق » . إنه لمن الممتع جداً أن تعود عند المساء إلى غرفة لا ينتظرك فيها أحد ! حتى عندما كان يحب بول ، كان يصر دوماً على أن تكون له جدرانه الاربعة. كل ما هنالك ، أنه بين ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ، كانت بول تسقط كل ليلة ميتة على جثته المشوهة بفظاعة : فكيف كان سيجرؤ ، عندما أعيد إليها ، أن يرفض لها شيئاً؟ ثم إن اطفاء الانوار كان يجعل هذا الترتيب مناسباً. كانت تقول: « تستطيع دوماً أن تذهب » : إنه لم يستطع بعد. وأمسك بزجاجة ودفع البزال في الفلين المنقبض . ستعتاد بول خلال شهر على الاستغنـــاء عنه : وإذا لم تتعود ،

فهذا شأنها . فبعد أن لم تعد فرنسا سجناً ، والحدود مغلقة ، فإن الحياة يجب ألا تكون بعد الآن سجناً . اربع سنين من التقشف ، اربع سنين من اللااهتمام إلا بالآخرين : هذا كثير ، هذا أكثر من اللازم ! لقد آن أن يهتم قليلاً بنفسه . ومن أجل هذا ، هو بحاجة لأن يكون وحيداً وحراً . ليس من السهل ان يعود المرء إلى نفسه بعد اربع سنين . وهناك كثير من الاشياء عليه أن يخرجها للنور . ما هي ؟ الواقع انه لا يعرفها بوضوح ، لكنه هناك ، أثناء تنزهه في الشوارع الصغيرة العبقة برائحة الزيت ، سيحاول أن يقوم بذلك . ومن جديد وثب قلبه : ستكون السماء زرقاء ، وستطاير غسيل على النوافذ . سيسير ، ويداه في جيبه ، كسائح ، وسط أناس لا يتحدثون بلغته ولا تهمه مشاغلهم . سيترك نفسه تعيش ، سيشعر بنفسه تعيش : لعل هذا سيكفي كي يتوضح كل شيء .

ــ ما ألطف هذا ! لقد فتحت جميع القناني !

كانت بول تهبط الدرج بخطى صغيرة حريرية . وقال مبتسماً :

ــ حقاً ، أنت نذرت نفسك للبنفسجي !

فقالت :

ــ لكنك تعبد البنفسجي !

إنه يعبد البنفسجي منذ عشر سنوات : عشر سنوات ، هذه مدة طويلة .

ــ ألا تحب هذا الثوب ؟ .

فقال بعجلة :

ــ اوه ! إنه جميل جداً . كنت أفكر فقط أن هناك ألواناً أخرى تلائمك : الأخضر مثلاً .

رمى ذلك على سبيل الصدفة .

ــ الاخضر ؟ أتتخيلني في الاخضر ؟

كانت قد وقفت أمام إحدى المرايا ، بادياً عليها اليأس . لا فـــائدة مطلقاً ! سواء في الاخضر أو في الاصفر ، فإنه لن يجدها أبداً ثانية كمـــا كانت قبل عشر سنوات عندما اشتهاهـــا حين مدت إليه في حركة متراخية قفازيها الطويلـــين

البنفسجيين . وابتسم لها : « تعالي نرقص » .

فقالت بصوت حار جداً حتى ان هنري جمد :

– نعم ، لنرقص .

لقد كانت حياتهما المشتركة قاتمة جداً خلال السنة الاخيرة حتى ان بول نفسها قد بدا عليها أنها ملتها . لكنها تبدلت فجأة منذ بداية أيلول . والآن ، في كل كلماتها ، وقبلاتها ، ونظراتها ، توجد رعدة ملتهبة . وعندما طوقها ، التصقت به ، وتمتمت :

– أتذكر ، المرة الأولى التي رقصنا فيها معاً ؟

– في « باغود » [١] ، نعم . وقلت لي انني أرقص سيئاً جداً .

– كان ذلك في اليوم الذي أريتك فيه متحف « غريفان » .

وقالت بصوت حنون :

– لم تكن تعرف متحف غريفان ، لم تكن تعرف شيئاً .

وأسندت جبينها إلى خد هنري : « انني أرانا ثانية » .

هو أيضاً ، كان يرى نفسه ثانية . كانا قد صعدا إلى منصة وسط قصر المرايا ، وفي كل مكان حولهما، كان منظرهما يتضاعف إلى ما لا نهاية بين غابات من الاعمدة: « قل انني أجمل النساء – أنت أجمل النساء – وستكون أعظم رجال العالم مجداً». وأدار عينيه نحو إحدى المرايا الكبيرة : كان تعانقهما يتكرر إلى ما لا نهاية على طول ممر من الصنوبر ، وكانت بول تبتسم له مندهشة . ألم تدرك انهما لم يعودا كما كانا ؟ وقال هنري :

– لقد قرع الباب .

وأسرع نحو الباب . انهم آل دوبروي مثقلين بالسلاسل والاكياس. كانت آن تضم بين ذراعيها باقة ورد،ودوبروي قد ألقى على كتفه عناقيد ضخمة من الفليفلة، ونادين تتبعهما ، متجهمة الوجه .

– ميلاد سعيد !

---

١ – اي الهيكل الصيني او الهندي « المترجم » .

– ميلاد سعيد !
– أتعرفان النبأ ؟ لقد استطاع الطيران أخيراً ان يضرب .
– نعم ، ألف طائرة !
– لقد نظفوا .
– انها النهاية .
ووضع دوبروي على الأريكة حمل الثمار الحمراء :
– هذا لتزيين ماخوركما الصغير .

فقالت بول بلا حرارة : « شكراً » . انه ليغيظها ان يسمي دوبروي هذا الاستديو ماخورها . وكان يقول : بسبب كل هذه المرايا وهذه الفرش الحمر . واستعرض الغرفة : « يجب ان نعلقها في العارضة الوسطى . ستكون أجمل من هذا العنم » . فقالت بول بصوت حازم :
– اني أحب العنم .
– العنم حقير ، انه كروي ، انه تاريخي ، ثم انه طفيلي .
فاقترحت آن :
– علق الفليفلة في أعلى الدرج ، على طول الدرابزون .
فقال دوبروي :
– هنا سيكون أفضل بكثير .
فقالت بول :
– انني متمسكة بعنمي وآسي .
فقال دوبروي :
– طيب ، طيب (وأشار إلى نادين) تعالي ساعديني .

كانت آن تخرج لحم خنزير ، وزبدة ، وجبناً ، وكاتو . وقالت وهي تضع على الطاولة زجاجتي روم : « هذا للبانش » . ووضعت رزمة في يدي بول : « هاك ، هذه هديتك ، واليك أنت » ، قالت ذلك وهي تمد إلى هنري بغليون من الغضار ، على شكل مخلب طير قابض على بيضة صغيرة . انه بالضبط الغليون الذي كان

لويس يدخنه قبل خمسة عشر عاماً .
ـ هذا رائع . منذ خمسة عشر عاماً وأنا أتمنى غليوناً مماثلاً . كيف حزرت ؟
ـ لأنك قلت لي !

وهتفت بول :

ـ كيلو شاي ! أنت تنقذين حياتي ، وما أطيب رائحته : شاي حقيقي !

وأخذ هنري يقطع خبزاً ، بينما راحت آن تدهنه بالزبدة وبول بلحم الخنزير وهي تراقب بقلق دوبروي الذي كان يدق المسامير بضربات قوية من المطرقة . وصاح ببول :

ـ أتعرفين ماذا ينقص هنا ؟ ثريا كبيرة من الكريستال. سأجد لك واحدة.
ـ لكني لا أريد !

وعلق دوبروي عناقيد الفليفلة ونزل الدرج ، وقال وهو يتفحص بعين ناقدة :

ـ ليس سيئاً !

واقترب من الطاولة وفتح كيس توابل صغيراً . منذ سنوات وهو يصنع في أبسط المناسبات هذا البانش الذي تعلم تركيبه في هايتي . وكانت نادين ، وهي مستندة إلى الدرابزون ، تمضغ فليفلة . كانت تبدو ، وهي في الثامنة عشرة ، وعلى الرغم من تسكعها في اسرّة فرنسية واميركية ، في ذروة العمر الجاحد . وصاح بها دوبروي :

ـ لا تأكلي الديكور .

وأفرغ زجاجة روم في صحن السلطة والتفت نحو هنري :

ـ لقد التقيت بسامازيل أول أمس ، وأنا مسرور جداً إذ يبدو عليه انه على استعداد للسير معنا . أأنت حر غداً مساء ؟

فقال هنري :

ـ لا أستطيع ان أترك الجريدة قبل الحادية عشرة .

فقال دوبروي :

ـ مرّ في الحادية عشرة.سوف نناقش المسألة وأود كثيراً ان تكون حاضراً.

فابتسم هنري :

– لست أرى لماذا .

– لقد قلت له انك تعمل معي ، ولكن حضورك سيكون له وقع أكبر .

فقال هنري وهو يتابع الابتسام :

– لا أعتقد ان شخصاً كسامازيل يعلق على ذلك كبير أهمية . لا بد انه يعلم جيداً انني لست رجل سياسة .

فقال دوبروي :

– لكنه يفكر مثلي بأنه يجب الا تترك السياسة للسياسيين . تعال،ولو لزمن قصير . ان وراءه فئة مهمة ، سامازيل هذا ، أشخاصاً شباناً ، نحن بحاجة إليهم .

فقالت بول بصوت غاضب :

– اسمع ، لن تتحدث في السياسة ثانية ! انه لعين هذا المساء .

فقال دوبروي :

– وبعد ؟ أممنوع ، في أيام العيد ، الحديث عما هو مفيد ؟

فقالت بول :

– ولكن لمَ تصرّ على زج هنري في هذه القصة ! انه متعب بما فيه الكفاية ، وقد قال لك عشرين مرة ان السياسة تسئمه .

فقال دوبروي مبتسماً :

– اعلم، أنت تتصورينني شريراً يحاول ان يفسد رفاقه الصغار . لكن السياسة ليست رذيلة ، يا جميلتي ، ولا لعبة جماعية . إذا ما اندلعت حرب جديدة خلال ثلاث سنوات ، فستكونين أول من يشتكي .

فقالت بول :

– هذا شانتاج ! عندما سيفضي الأمر بهذه الحرب إلى الانتهاء ، فلن يرغب أي انسان في اشعال حرب أخرى .

فقال دوبروي :

– اتعتقدين ان لها أهمية ، رغبات الناس !

وهمت بول بالجواب ، لكن هنري قاطعها قائلاً : « حقاً ، دون نيـة سيئة ، ليس لدي وقت ! »

فقال دوبروي :

– الوقت لا ينقص أبداً .

فقال هنري ضاحكاً :

– بالنسبة لك ، كلا ، لكني أنا كائن عادي . لا أستطيع ان أشتغل عشرين ساعة على التوالي ولا ان أستغني عن النوم مدة شهر .

فقال دوبروي :

– لكن أنا أيضاً لا أستطيـع ! انني لم أعدْ في العشرين . (وأضاف وهـــو يذوق المشروب بقلق) اننا لا نطلب كل هذا منك .

ونظر إليه هنري في مرح : سواء كان دوبروي في العشرين أو الثمانين ، فسوف يبدو عليه دوماً انه شاب بسبب عينيه الضخمتين الضاحكتين اللتين تلتهمان كل شيء . يا له من متعصب ! وبالمقارنة ، كان هنري يميل معه غالباً إلى ان يحكم على نفسه بأنه طائش ، كسول ، مائع . ولكن لا فائدة من غضب النفس . عندما كان في العشرين ، كان شديد الاعجاب بدوبروي إلى حد اعتقد معه انه مرغم على تقليده . وكانت النتيجة انه كان يشعر بالنعاس دوماً ، ويحشو نفسه بالمخدرات ، ويغوص في الحماقة . وكان لا بد ان يؤثر هذا عليه : فبعـــد ان حرم من أوقات الفراغ ، فقد أحب الحياة وفي الوقت نفسه أحب الكتابة ، وتحول إلى آلة . خلال أربـع سنين كان آلة ، وهو الآن يصر قبل كل شيء على ان يعود انساناً . وقال :

– انني أتساءل بمَ يمكن ان تفيدك غرارتي .

فقال دوبروي :

– ان لها نواحيها الطيبة ، الغرارة . (وابتسم ابتسامة صغيرة) ثم انك ، في الساعة الراهنة ، لك اسم يمثل الكثير ، لكثير من الناس . (وتعمقت ابتسامته) لقد عاش سامازيل قبل الحرب بين جميع الفئات وفئـات الفئات ، ولكن ليس لهذا أريد الحصول عليه : بل لأنه بطل مقاومة ، واسمه له تأثيره .

واخذ هنري يضحك . فدوبروي لا يبدو له مطلقاً اكثر سذاجة إلا عندما يريد ان يكون ماجناً . ان بول محقة في اتهامه بالشانتاج : فلو آمن بقرب وقوع حرب ثالثة، لما كان في مثل هذا المزاج الحسن. والحقيقة هي انه يرى ان امكانيات العمل تنفتح له وانه يتلظى شوقاً إلى استغلالها . وكان هنري يشعر بنفسه أقل حماسة . فمن الواضح انه تبدل منذ ١٩٣٩. في الماضي كان يسارياً لأن البورجوازية كانت تثير اشمئزازه ، ولأن الظلم يسخطه ، ولأنه يعتبر جميع البشر اخوة له : وهذه هي عواطف طيبة لا تلزمه بشيء . وهو يعرف الآن انه إذا كان يريد حقاً ان ينفك عن طبقته ، فلا بد ان يدفع الثمن من حياته . لقد ترك مالوفيلاتر ، وبورغوان ، وبيكار وجثثهم عند تخم الغابة الصغيرة ، ولكنه سيفكر بهم دوماً وكأنهم أحياء . كان جالساً معهم على المائدة أمام لحم أرنب ، وكانوا يشربون نبيذاً أبيض ، ويتحدثون عن المستقبل ، دون ان يؤمنوا به كثيراً . أربعة جنود عاديين ولكن عندما تنتهي الحرب سيعودون من جديد بورجوازياً ، وفلاحاً ، وعاملي معادن . وقد فهم هنري في تلك اللحظة انه في نظر الثلاثة الآخرين وفي نظره ، سيبدو كصاحب امتياز ، قد يشعر بالخجل قليلاً أو كثيراً، لكنه راضٍ، ولن يكون مثلهم أبداً . فلكي يبقى رفيقهم ، لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة : ان يستمر في العمل معهم. ولقد فهم بشكل أفضل أيضاً عندما عمل في ١٩٤١ مع مجموعة « بوا — كولمب » ولم يسر الأمر في البداية على ما يروم من نفسه . كان فلامان يغيظه وهو يردد في كل لحظة: « أتفهم ، انني عامل ، وأنا أفكر كعامل». ولكن بفضله لمس هنري باصبعه شيئاً ما كان يجهله سابقاً ، وسيشعر بعد الآن انه يهدده دوماً : الحقد . ولقد نزع منه سلاحه : ففي العمل المشترك ، اعترفوا به رفيقاً لهم ، ولكن إذا ما عاد ذات يوم بورجوازياً لا مبالياً ، فان الحقد سيولد ثانية وعن حق . فهو ، إذا لم يثبت العكس ، عدو لمئات الملايين من البشر ، عدو للانسانية . ولم يكن يريد هذا بأي ثمن : وسوف يثبت . والمصيبة هي ان العمل قد بدل وجهه. فالمقاومة كانت شيئاً، والسياسة شيئاً آخر . ان السياسة بعيدة عن ان تثير حماسة هنري . وهو يعلم ماذا تعني حركة كتلك التي يفكر بها دوبروي .

لجان ، ومحاضرات ، ومؤتمرات ، وخطابات ، وكلام وكلام . ولا بد إلى ما لا نهاية من المناورة، والتساهل، والقبول بالتسويات العرجاء. وقت ضائع،وتنازلات مسخطة ، وملل قاتم ؟ لا شيء مقرف كهذا . اما ادارة جريدة، فهذا عمل يحبه. ولكن من الواضح ان الواحد لا يمنع الآخر ، بل ان الاثنين متكاملان . ومن المستحيل ان يستخدم « الأمل » كدليل نفي . كلا ، لم يكن هنري يشعر بأن له الحق في الهرب ، وسوف يحاول فقط ان يقلل من التكاليف ، وقال :

– اسمي ، وبعض افعال حضور ، لا أستطيع ان أرفض لك هذا . لكن يجب ألا تسألني أكثر من ذلك بكثير .

فقال دوبروي :

– سأسألك بالتأكيد أكثر .

– على كل حال ، ليس الآن . فمن الآن حتى سفري ، لدي عمل فوق رأسي .

فثبّت دوبروي نظره في عيني هنري : « ألا يزال قائماً مشروع السفر ذاك؟ » .

– أكثر من أي وقت مضى . بعد ثلاثة أسابيع على أقصى حد ، سأذهب .

فقال دوبروي بصوت غاضب : « هذا ليس جدياً ! » .

فقالت آن وهي تنظر إليه ساخرة :

– آه ! انني مطمئنة ! إذا كنت ترغب في الذهاب للنزهة ، فسوف تذهب وتشرح لنفسك بأن هذا هو الشيء الذكي الوحيد الذي يجب عمله .

فقال دوبروي :

– لكني لست أرغب في ذلك ، هذا هو تفوقي .

فقالت بول :

– يجب ان أقول ان الاسفار تبدو لي أسطورة . وابتسمت لآن :

« ان زهرة تأتيني بها تعطيني أكثر من حدائق الحمراء بعد خمس عشرة ساعة في القطار .

فقال دوبروي .

– اواه ! ان السفر قد يكون شيقاً ، ولكن في هذا الوقت ، البقاء هنـــا

اكثر تشويقاً .

فقال هنري :

– حسناً ! اما أنا ، فانني راغب جداً في ان أكون في مكان آخر إلى حد انني عند الحاجة سأسافر ، على الأقدام ، وحذائي ممتلىء بالحصى اليابس .

– و « الأمل » ، هل تتركها هكذا طوال شهر ؟

فقال هنري :

– سيتدبر لوك أمره جيداً بدوني .

ونظر إلى ثلاثتهم بدهشة . « انهم لا يدركون ! » . دوماً الرؤوس نفسها ، الديكور نفسه ، الأحاديث نفسها ، المشاكل نفسها ، وكلما تبدل الأمر ، ازداد تشابهاً : وعند النهاية ، يشعر المرء انه يموت وهو حي . الصداقة ، والانفعالات التاريخية الكبرى ، لقد قدر كل هذا على حسابه . ولكنه الآن بحاجة إلى شيء آخر : حاجة عنيفة جداً حتى انه من العبث ان يشرحها لنفسه .

– ميلاد سعيد !

وفتح الباب : فانسان ، لامبير ، سينوزاك ، شانسيل ، جهـاز الجريدة . كله . كانوا يحملون زجاجات واسطوانات ، وكانت خدودهم حمراء من البرد ، ينشدون بأعلى أصواتهم أغنية أيام آب :

لن نراهم بعـــد الآن
انتهى الأمر ، وخوزقوا

وابتسم لهم هنري في مرح . كان يشعر انه شاب مثلهم وفي الوقت نفسه كان يخيل إليه انه قد خلقهم جميعاً إلى حد ما . وأخذ يغني معهم . وفجـــأة انطفأت الكهرباء ، وراح البانش يلتهب ، وسنابل الميلاد تطقطق ، ولامبير وفانسان يرشان هنري بالشرر ، وبول تشعل الشموع الصبيانية على الصنوبرة .

– ميلاد سعيد !

– كانوا يأتون أزواجاً ، ومجموعات . وكانوا يستمعون إلى قيثارة جـــانغو رينهاردت ، ويرقصون ، ويشربون ، ويضحكون جميعاً .

وطوّق هنري آن، فقالت بصوت منفعل : « هذا بالضبط مثل عشية الانزال. المكان نفسه ، والناس أنفسهم ! » .

– نعم . والآن ، قد حدث الأمر .

فقالت :

– بالنسبة لنا ، قد حدث .

كان يعرف ما تفكر به : ففي هذه الدقيقة كانت قرى بلجيكية تحترق ، والبحر ينقضّ على الأرياف الهولاندية . ومع ذلك فقد كان المساء هنا مساء عيد : أول عيد ميلاد في السلم . لا بد ان يكون هناك عيد ، في بعض الأحيان ، وإلا فما فائدة الانتصارات ؟ ولقد كان هناك عيد وكان يتعرف رائحة الكحول ، والتبغ ، ومسحوق الأرز تلك ، رائحة الليالي الطويلة . كانت ألف نافورة ماء بلون قوس قزح ترقص في ذاكرته . ولقد عرف ، قبل الحرب ، الكثير من أمثال هذه الليلة : في مقاهي مونبارناس حيث كان يسكر من القهوة بالقشدة ومن الكلمات ، وفي المراسيم التي كانت تفوح منها رائحة الرسم الزيتي ، وفي المراقص الصغيرة حيث كان يضم بين ذراعيه أجمل النساء،بول. ودوماً عند الفجر، مع الضجة المعدنية ، كان صوت عذب الهذيان يتمتم في داخله بأن الكتاب الذي يكتبه سيكون جيداً وان لا شيء أهم من ذلك في العالم . وقال :

– أتعرفين ، لقد قررت ان أكتب رواية مرحة .

فنظرت إليه آن وقد بدا عليها الفضول :

– أنت ؟ متى ستبدأ ؟

– غداً .

نعم ، انه يستعجل فجأة ان يعود ما كانه ، ما أراد دوماً ان يكونه : كاتباً . وكان يتعرف أيضاً ثانية ذلك الفرح القلق : انني أبدأ كتاباً جديداً . وسوف يتحدث عن كل تلك الأشياء التي كانت تولد ثانية : الاشفاق ، والليالي الطويلة، والرحلات ، والفرح . وقالت آن :

– يبدو عليك انك حسن المزاج هذا المساء .

– انني لكذلك .. فأنا أشعر انني خارج من نفق طويل . وأنت ؟
وترددت :
– لست أدري . على كل حال لقد وجدت لحظات طيبة في هذا النفق .
– بالتأكيد .

وابتسم لآن . كانت جميلة ، هذا المساء ، وكان يجدها خيالية ، في ثوبها المتقشف . ولو لم تكن صديقة قديمة وزوجة دوبروي، لغازلها عن طواعية،ورقص معها عدة مرات على التوالي ، ثم دعا كلودي دي بلزونس التي جاءت ، في ثوب عاري الكتفين ، مثقلة بجواهر العائلة ، لتلهو مع النخبة المثقفة . ودعا جانيت كانج ، ولوسي لونوار . جميع هاته النساء ، كان يعرفهن أكثر من اللازم . لكن ستكون هناك أعياد أخرى ، وستكون هناك نساء أخريات . وابتسم هنري لبريستون الذي كان يتقدم عبر الاستوديو ، وهو يترنح قليلًا . انه أول صديق اميركي التقى به هنري في آب ، فوقعا في أذرع بعضهما البعض . وقال بريستون :
– لقد تشبثت بالمجيء للاحتفال معك !
فقال هنري :
– لنحتفل .

وشرب ، وأخذ بريستون يتحدث عاطفياً عن ليالي نيويورك . كان سكراناً قليلًا ، يستند إلى كتف هنري . وكان يردد بصوت آمر : « يجب ان تأتي إلى نيويورك . وأنا أضمن بأنك ستلقى نجاحاً كبيراً .. »
فقال هنري :
– بالتأكيد ، سأذهب إلى نيويورك .
فقال بريستون :
– عند وصولك ، استأجر طائرة صغيرة ، فهذه أفضل طريقة لرؤية البلاد .
– لا أعرف القيادة .
– اواه ! قيادة الطائرة أسهل من قيادة السيارة .
فقال هنري :

ـ سأتعلم الطيران .

نعم ، لم تكن البرتغال إلا بداية ، ثم تأتي اميركا ، والمكسيك ، والبرازيل ، وربما الاتحاد السوفياتي ، والصين : كل مكان . وسيسوق هنري من جديد السيارات ، ويحلق بالطائرات : كان الجو الرمادي الأزرق مليئاً بالوعود ، والمستقبل يتسع إلى ما لا نهاية .

وفجأة . ساد الصمت وتبين هنري في دهشة ان بول تجلس إلى البيانو . وأخذت تغني . منذ زمن بعيد لم يحدث لها هذا . وحاول هنري ان يصغي بأذن متجردة : انه لم يستطع ابداً ان يكون فكرة واضحة عن قيمة هذا الصوت . وبالتأكيد انه لم يكن صوتاً لامبالياً : فبين لحظة وأخرى يخيل إليه انه يسمع صدى جرس من البرونز ، مكسو بالمخمل . ومرة أخرى تساءل : « لماذا بالضبط أهملته ؟ » . لقد رأى في تضحيتها ، آنذاك ، دليلاً محرجاً على الحب . وفيما بعد دهش من ان بول تجنبت كل المناسبات التي تتيح لها ان تجرب حظها ، وتساءل عما إذا كانت قد اتخذت من حبهما ذريعة لتتملص من الامتحان .

ودوى التصفيق ، وصفق مع الآخرين وتمتمت آن : « صوتها لا يزال جميلاً . لو عادت للظهور أمام الجمهور ، فأنا واثقة انها ستنجح » .

فقال هنري :

ـ أتعتقدين ؟ لقد فات الأوان قليلاً ، أليس كذلك ؟

ـ ولماذا ؟ إذا تلقت بعض الدروس ... ونظرت آن إلى هنري بشيء من التردد : « يخيل إليّ ان هذا سيفيدها . يجب ان تشجعها » .

فقال :

ـ ربما ..

وتفرس في وجه بول التي كانت تستمع مبتسمة إلى المديح المتحمس من قبل كلودي دي بلزونس . من المؤكد ، ان ذلك سيبدل حياتها ، فالفراغ لا يفيدها مطلقاً . وقال في نفسه : « وأنا هذا سيبسط لي الأمور ! » . وبعد كل شيء لم لا ؟ إن كل شيء يبدو في هذا المساء ممكناً . ستصبح بول مشهورة ، وستتحمس

لمهنتها ، فيضحي حراً ، وسيتنزه في كل مكان ، وستكون له ، هنا وهنـــاك ، غراميات مرحة وقصيرة . لم لا ؟ وابتسم واقترب مـــن نادين التي كانت تمضغ العلكة بوجه متجهّم وهي واقفة قرب المدفأة :

– لماذا لا ترقصين ؟

فهزت كتفيها : – « مع من ؟ » .

– معي إذا شئت .

لم تكن جميلة ، فهي تشبـــه كثيراً والدها ، ومن المحرج ان يقوم هـذا الوجه الشرس فوق جسد صبية . كانت العينان زرقاوين كعيني آن ، ولكن باردتين جداً إلى حد تبدوان معه مهترئتين وفتيتين في آن واحد . إلا ان القامـة تحت الثوب الصوفي كانت لدنة ،والثديان أكثر متانة مما كان هنري يتصور. وقال:

– انها المرة الأولى التي نرقص فيها معاً .

– نعم . وأضافت : « أنت ترقص جيداً » .

– أهذا يدهشك ؟

– انني فاهمة . ما من أحد من هؤلاء الغِلاظ يعرف الرقص .

– لم تتح لهم الفرصة أبداً ليتعلموا .

فقالت :

– أعرف . لم تتح لنا الفرصة لأي شيء .

وابتسم لها . ان المرأة الشابة ، ولو كانت قبيحة ، تظل امرأة . انـــه يحب رائحتها المتقشفة من ماء الكولونيا والغسيل الجـديد . كانت لا تحسن الرقـص جيداً ، ولكن هذا لا أهمية له ، فهناك تلك الأصوات الشابة ، وتلك الضحكات ، وألحان البوق المتوافقة ، وطعم البانش، وفي أعماق المرايا تلك الصنوبرات المزهرة بالشرر ، ووراء الستائر سماء صافية سوداء . كان دوبري يقوم بنمرة شعوذة ، فكان يمزق جريدة قطعاً ثم يلصقها ثانية بحركة من يديه . وكان لامبير وفانسان يتبارزان بزجاجات فارغـــة ، وآن ولاشوم يغنيان اوبرا كبيرة ، وقطارات ، وطائرات ، ومراكب تدور حول الأرض ، ولم يكن الصعود إليها ممكناً. وقال

في تهذيب :

– أنت لا ترقصين سيئاً .

– انني أرقص كعجل ، لكني لا أبالي ، انني لا أحب الرقص .

وتفحصته في شك : – « المتظرفون الصغار » ، والجاز ، والكهوف المنتنة برائحة التبغ والعرق ، أهذا يلهيك ، أنت ? » .

– من حين لآخر . وسأل : « ما الذي يلهيك ? » .

– لا شيء .

لقد أجابت بصوت شرس جداً إلى حد انه تفرس في وجهها بفضول . كان يتساءل ما إذا كانت الخيبة أو اللذة هي التي ألقتها في مثل ذلك العدد من الأذرع . لعل القلق يلين من تقاطيع وجهها القاسية ? رأس دوبروي على وسادة ، ترى ماذا يشبه هذا ? وقالت في حقد :

– عندما أفكر بأنك ذاهب إلى البرتغال ، أرى انك محظوظ جداً .

فقال :

– عما قريب سيكون من السهل السفر .

– عما قريب ! تقصد خلال سنة ، خلال سنتين ! كيف تدبرت أمرك ?

– انه مكتب الدعاية الفرنسية الذي طلب مني محاضرات .

فتمتمت :

– من البديهي ، ان أحداً لن يطلب مني محاضرات ، أنا . هل ستلقي محاضرات كثيرة ?

– خمساً أو ستاً .

– وستتجول خلال شهر !

فقال في مرح :

– لا بد ان يحصل المسنّون على بعض التعويضات .

فقالت نادين :

– وما التعويضات التي نحصل عليها عندما نكون شباناً ?

وتنهدت بصوت عال :

« لو على الأقل حدثت أشياء » .

– أية أشياء ؟

– منذ الوقت الذي ادعينا اننا في ثورة ! لا شيء يتحرك ...

فقال هنري :

– ولكن الأمور قد تحركت قليلاً في آب على كل حال .

في آب كانوا يقولون ان كل شيء سيتغير ، ولكن الأمور ظلت كما كانت من قبل تماماً : ان الذين يشتغلون أكثر من غيرهم هم دوماً الذين ينالون الأمل ، والناس كلهم يرون هذا حسناً جداً .

فقال هنري :

– ما من أحد هنا يرى هذا حسناً .

فقالت نادين بصوت غاضب .

– ولكن جميع الناس يتدبرون أمرهم . لقد كان من المقرف بما فيه الكفاية ان يرغم الانسان على اضاعة وقته في العمل ، فإذا كان ذلك لا يكفي لآكل حتى الشبع ، فاني أفضل ان أصبح من رجال العصابات .

فقال هنري :

– انني موافق تماماً ، اننا جميعاً منافقون . ولكن انتظري قليلاً ، أنت مستعجلة أكثر من اللازم .

فقاطعته نادين : « أنت تحدثني وكأنهم لم يشرحوا لي طويلاً في البيت انه يجب الانتظار . ولكن لا أثق بالشروح . وهزت كتفيها : « في الحقيقة ، لا أحد يحاول شيئاً » .

فقال هنري مبتسماً :

– وأنت ؟ هل تحاولين شيئاً ما ؟

فقالت نادين :

– أنا ؟ ليس لي العمر اللازم . انني لا أساوي شيئاً .

فأخذ هنري يضحك بصراحة :
– لا تحزني . انه يأتي ، العمر . انه يأتي بسرعة !
فقالت نادين :
– بسرعة ! يلزم ثلاثمئة وخمسة وستون يوماً لتكتمل سنة ! وخفضت رأسها ومضغت في صمت للحظة . وفجأة رفعت عينها : « خذني » .
فقال هنري :
– إلى أين ؟
– إلى البرتغال .
فابتسم :
– هذا لا يبدو لي ممكناً جداً .
– يكفي ان يكون ممكناً قليلاً . » فلم يجب فسألت بصوت ملح :
– « لمَ هذا غير ممكن ؟ »
– أولاً انهم لن يعطوني اذنين بالسفر .
– دعك من هذا ! أنت تعرف جميع الناس . قل انني سكرتيرتك .
كان فم نادين يضحك لكن نظرتها كانت جدية متحمسة . فقال في جد :
– إذا كنت سآخذ أحداً ، فستكون بول .
– انها لا تحب الأسفار .
– لكنها ستسر برافقتي .
– منذ عشر سنين وهي تراك يومياً ، وهي لما تشبع بعد : فشهر يزيد أو شهر ينقص ، ماذا يمكن ان يؤثر عليها ؟
ومن جديد ابتسم هنري : « سآتيك ببرتقال » .
فتصلب وجه نادين ، ووجد هنري أمام عينيه قناع دوبروي المخيف : « انت تعلم انني لم أعد في الثامنة » .
– اعلم .
– كلا . بالنسبة لك سأظل دوماً الفتاة نفسها التي كانت ترفس المدفأة .

– مطلقاً . والدليل انني دعوتك للرقص .

– اواه ! انها سهرة عائلية . لكنك لن تدعوني للخروج معك .

وتفرس في وجهها في ود . ها هي واحدة على الأقل تتمنى ان تغيّر الهواء . انها تتمنى الكثير من الأشياء : أشياء أخرى . يا للفتاة المسكينة ! صحيح انه لم تتح لها الفرصة لشيء . ايل – دي – فرانس على الدراجة ، هذا كل ما فعلته تقريباً كرحلة . شباب متقشف ، ثم موت ذلك الغلام . كان يبدو عليها انها تعزت عنه بسرعة ، ولكنها لا بد ان تكون على كل حال ذكرى قذرة . وقال :

– حسناً ! أنت مخطئة . انني أدعوك .

– هذا صحيح ؟ » وكانت عينا نادين تلمعان . انها تصبح ألطف بكثير للنظر عندما ينتعش وجهها .

– مساء السبت لن أذهب إلى الجريدة : فلنلتق في الساعة الثامنة في « البار الأحمر » .

– وماذا سنفعل ؟

– ستقررين أنت .

– ليس عندي فكرة .

– من الآن حتى ذلك الحين ، ستتكون عندي فكرة . تعالي نشرب كأساً .

– انني لا أشرب ، ولكن سآكل بسرور سندويشاً أخرى .

واقتربا من المائدة . كان لونوار وجوليان يتخاصمان : هذا شيء مزمن . كان كل منهما يتهم الآخر بأنه خان شبابه بالطريقة التي لم تكن طيبة . في الماضي ، عندما وجدا ان تطرف السريالية مدروس أكثر من اللازم ، أسّسا معاً الحركة « شبه الانسانية » . وأصبح لونوار استاذاً للسنسكريتية وأخذ يكتب أشعاراً غير مفهومة . وكان جوليان صاحب مكتبة ، وقد كف عن الكتابة ، ربما لأنه خشي ، بعد النجاح الذي حققه قبل الأوان ، ان يصبح كاتباً عادياً ناضجاً . وقال لونوار :

– ما رأيك في ذلك ؟ يجب ان تتخذ تدابير ضد الكتّاب المتعاونين ،

أليس كذلك ؟

فقال هنري في مرح :

– انني هذا المساء لا أفكر !

فقال جوليان :

– خطة سيئة لمنعهم من النشر . فبينما ستحرر في أسرع وقت مقالاتك ، سيأخذون هم وقتهم كله وسيكتبون كتبا جديدة .

وحطّت يد آمرة على كتف هنري : سكرياسين .

– انظر ما أتيت به : ويسكي اميركي . لقد استطعت ان أدبر منه زجاجتين. أول سهرة ميلاد باريسية : انها مناسبة طيبة لشربهما .

فقال هنري :

– عظيم !

وملأ كأساً من نبيذ البوربون ناولها لنادين ، فقالت هذه وكأنها أهينت:

– انني لا أشرب .

وأدارت عقبيها . ورفع هنري الكأس إلى فمه . لقد نسي تماماً هـذا الطعم . وفي الحقيقة ، كان يشرب سابقاً السكوتش ، ولكنه لما كان قد نسي أيضاً طعم السكوتش ، فانه لم يعد يجد أي فرق .

– من يريد جرعة ويسكي ؟

فاقترب لوك ، وهو يسحب قدميه الضخمتين المصابتين بداء المفاصل ، وتبعه لامبير وفانسان . وملأوا كؤوسهم . وقال فانسان :

– انني أفضل كأس عرق .

فقال لامبير دون اقتناع :

– انه ليس رديئاً » . وسأل سكرياسين بنظرته : « اصحيح انهم يشربون منه اثنتي عشرة كأساً يومياً ، في أميركا ؟ »

فقال سكرياسين :

– هم ، من هؤلاء « هم » ؟ يوجد مئة وخمسون مليون اميركي وهم لا يشبهون

جميعاً ابطال همنغواي . » كان صوته مستاء ، ولم يكن في معظم الأحيان ودياً مع الأشخاص الأصغر منه سناً . واستدار في قصد نحو هنري .

– لقد تحدثت جدياً مع دوبروي . انني شديد القلق .

كان يبدو مهموما . انها هيئته المعتادة، وكأن كل ما يجري حيث هو موجود وحتى حيث هو غير موجود ، يمسه شخصيا . ولم يكن هنري راغباً في مقاسمته قلقه . فسأل بطرف شفتيه :

– لمَ إذن ؟

– تلك الحركة التي يعمل على تأسيسها ، كنت أعتقد ان هدفها الأساسي فصل البروليتاريا عن الحزب الشيوعي . » وأضاف سكرياسين بصوت قاتم :

« وهذا ليس مطلقاً ما يبدو ان دوبروي يفكر به » .

فقال هنري :

– كلا ، ليس هذا مطلقا .

وفكر في ارهاق : « هوذا نوع الأحاديث الذي سأتحمله طول الأيام ، عندما سأترك دوبروي يحسبني وراءه » . ومن جـــديد شعر بأنه مغزو من رأسه إلى قدميه برغبة نهمة في ان يكون في مكان آخر .

ونظر سكرياسين إليه في عينيه : « أتمشي معه ؟ » .

فقال هنري :

– بخطا صغيرة جداً . ان السياسة ليست ميداني .

فقال سكرياسين :

– أنت بدون شك لم تفهم ما يطبخه دوبروي . » وحدج هنري بنظرة عتبى : « انه يجمع يساراً يزعم انه مستقل لكنه يقبل بوحدة العمل مع الشيوعيين » .

فقال هنري :

– نعم أعرف . وبعد ؟

– حسنا ! انه يلعب لعبتهم . هناك كثير من الناس تخيفهم الشيوعيـــة وسيجعلهم يقتربون منها .

فقال هنري :

– لا تقل لي انك ضد وحدة العمل . سيكون شيئا جميلا ان يؤاخذ اليسار بالانقسام على نفسه !

فقال سكرياسين :

– يسار خاضع للشيوعيين ! هذه خدعة . إذا كنتم عازمين على السير معهم ، فسجّلوا أنفسكم في الحزب الشيوعي ، فهذا أصرح .

فقال هنري :

– لا مجال للبحث في هذا . اننا غير متفقين على نقاط عديدة !

فهز سكرياسين كتفيه :

– إذن من الآن حتى ثلاثة أشهر سيفضحكم الستالينيون كاشتراكيين خونة .

فقال هنري :

– سنرى .

لم يكن يرغب مطلقاً في متابعة النقاش، لكن سكرياسين ثبّت نظره في نظره : « قيل لي ان « الأمل » لها قراء كثيرون بين الطبقة العاملة . أهذا صحيح ؟ » .

– صحيح .

– وهكذا : فبين يديك الجريدة الوحيدة غير الشيوعية التي تصل إلى البروليتاريا ! أتدرك مسؤولياتك ؟

– انني مدرك .

– إذا وضعت «الأمل» في خدمة دوبروي، فأنت شريك في مناورة مقرفة. » وأضاف : « مهما كان دوبروي صديقك ، فلا بد من معارضته » .

فقال هنري :

– اسمع ، فيما يتعلق بالجريدة ، فهي لن تكون أبداً في خدمة أحد : لا دوبروي ولا أنت .

فقال سكرياسين :

– لا بد ذات يوم من ان تحدد « الأمل » برنامجها السياسي

فقال هنري :

ـ كلا . لن يكون لها برنامج قبلي مطلقاً . انني أتمسك بقول ما أعتقده ، كما أعتقده ، دون ان أتركهم يدخلونني في جماعة .

فقال سكرياسين :

ـ هذا لن تقوم له قائمة .

وارتفع صوت لوك الوديع فجأة : « اننا لا نريد برنامجاً سياسياً لأننا نريد ان ننقذ وحدة المقاومة » .

وصب هنري لنفسه كأسا من البوربون . ودمدم بين أسنانه : « كل هـذا مسخرة ! » . لم يكن للوك إلا هذه الكلمات في فمه : روح المقاومة ، ووحدة المقاومة. وكان سكرياسين يرى اللون أحمر ما إن يحدثه أحد عن الاتحاد السوفياتي. كان من الأفضل لو ذهب كل منهما يهذي في زاويته . وأفرغ هنري كأسه . انه ليس بحاجة لأن تقدّم له النصائح ، فله أفكاره الخاصة به عما يجب ان تكون عليه الجريدة . يقيناً ، ان « الأمل » ستضطر إلى اتخاذ موقف سياسي: ولكن بشكل مستقل تماماً . وإذا كان هنري قد احتفظ بالجريدة ، فليس لكي يجعل منها صحيفة شبيهة بصحف ما قبل الحرب . ففي ذلك العهد ، كانت الصحافة كلها تخدع الجمهور لحساب السلطة . ولقد ظهرت النتيجة : فالناس قد ضاعوا تماماً ، بعد ان فقدوا نبيهم اليومي . واليوم ، أصبح الجميع متفاهمين تقريباً على ما هو أساسي ، ولقد انتهت المجادلات والحملات المتحزبة ، ويجب الاستفادة من ذلك لتكوين القـراء بدلاً من حشو دماغهم . ليس بإملاء الآراء عليهم ، بل بتعليمهم الحكم بأنفسهم . وهذا ليس سهلًا ، فهم غالباً يتطلبون أجوبة . ويجب ألا يعطَوا شعوراً بالجهل والشك واللاانسجام . ولكن هنا بالذات موضع الرهان : استحقاق ثقتهم بدلاً من سرقتها منهم . والدليل على ان هذه الطريقة ناجعة ، هو ان « الأمل » تُباع في كل مكان قليلًا . وقال هنري في نفسه : « لمَ تحمل مشقة توبيخ الشيوعيين على عصبيتهم إذا كنا متصلبين مثلهم » . وقاطع سكرياسين :

ـ ألا تعتقد أن بإمكاننا ان نؤجل هذا النقاش إلى يوم آخر ؟

فقال سكرياسين :

ـ ليكن . لنتفق على موعد . » وأخرج دفتراً من جيبه . « أعتقد انه من العاجل ان نواجه افكارنا بعضها ببعض » .

فقال هنري :

ـ لننتظر حتى عودتي من السفر .

ـ أذاهب في رحلة ؟ رحلة استعلام ؟

ـ كلا ، سياحة .

ـ الآن ؟

فقال هنري :

ـ اي نعم !

فقال سكرياسين :

ـ أليس هذا هرباً ؟

فقال هنري في مرح :

ـ هرباً ؟ انني لست جندياً .» وأشار بذقنه إلى كلودي دي بلزونس : « يجب ان تراقص كلودي ، تلك السيدة العارية جداً التي ترتدي مجوهرات في كل مكان . انها امرأة دنيوية حقيقية وهي معجبة بك كثيراً » .

فقال سكرياسين بابتسامة صغيرة :

ـ النساء الدنيويات ، إحدى رذائلي .» وهز رأسه « أعترف بأنني لا أفهم ».

وذهب ليدعو كلودي . كانت نادين ترقص مــــع لاشوم ، ودوبروي وبول يدوران حول شجرة الميلاد : لم تكن تحب دوبروي ، لكنه كان ينجح غالباً في إضحاكها .

وقال فانسان بمرح :

ـ لقد صدمتَ سكرياسين بشكل رائع !

فقال هنري :

ـ انهم يستنكرون جميعاً سفري . وأولهم دوبروي .

فقال لامبير :

– انهم فظيعون ! لقد فعلت أكثر منهم . أليس كذلك ? لك كل الحق في أخذ اجازة !

وقال هنري في نفسه : « حقاً ، إنما مع الشباب أتفاهم جيداً » . ان نادين تحسده وفانسان ولامبير يفهمانه : هما أيضاً ، ما إن استطاعا ، حتى أسرعا للذهاب لرؤية ما يجري في أمكنة أخرى ، وسجلا تفسيها فوراً كمراسلين حربيين . وظل طويلًا معهما ورووا فيما بينهم للمرة المئة الأيام المشهورة التي احتلوا فيها مكاتب الجريدة ، حيث كانو يبيعون « الأمل » تحت بصر الالمان ، بينا هنري يكتب افتتاحيته مع مسدس في درجه . وفي هذا المساء ، كان يجد سحراً جديداً في هذه القصص القديمة ، لأنه كان يسمعها من مكان بعيد جداً : فقد كان مستلقياً على رمل حار، والبحر أزرق ، وكان يفكر في تراخٍ بأزمان غابرة، بأصدقاء بعيدين ، وكان مسروراً من انه وحيد وحر . لقد كان سعيداً .

وفجأة وجد نفسه ثانية في الاستديو الأحمر ، في الساعة الرابعة صباحاً . كان كثيرون قد انصرفوا والجميع على وشك الانصراف ، وسوف يبقى مع بول . يجب ان يحدثها ، ان يداعبها .

وقالت كلودي وهي تقبل بول :

– يا ملفوفتي الصغيرة ، لقد كانت سهرتك رائعة . وإن لك صوتاً مدهشاً . إذا أردت ، فستكونين إحدى لبوات ما بعد الحرب .

فقالت بول بمرح :

– انني لا أطلب إلى هذا الحد .

كلا ، انها لا تطمع مثل هذا الطموح . فهو يعرف ما تتمنى : ان تجد نفسها ثانية أجمل امرأة بين ذراعي الرجل الأعظم مجداً في العالم . ولن يكون عملًا سهلًا . ان يجعلها تبدل حلمها . كان آخر المدعوين ينصرفون ، وفجأة أضحى الاستديو مقفراً . وحدثت ضجة على الدرج ، وحطمت خطى صمت الشارع ، وأخذت بول تجمع الكؤوس المنسية تحت المقاعد .

وقال هنري :

– ان كلودي على حق . فصوتك لا يزال جميلا . ها قد مضى زمن طويل لم أسمعك فيه ! لماذا انقطعت عن الغناء ؟

وأضاء وجه بول : « أتحب صوتي ؟ أتريد ان أغني لك ، أحياناً ؟ » .

– بالتأكيد . وابتسم : « أنت لا تعرفين ماذا قالت لي آن : انه يجب ان تعاودي الغناء للجمهور » .

فنظرت إليه بول بوجه مستنكر : « آه ! لا تحدثني عن ذلك . انها قضية منتهية منذ زمن بعيد .

فقال هنري :

– ولماذا ؟ أرأيت كيف صفقوا ؟ لقد انفعلوا جميعهم . هناك كثير من الملاهي تفتح الآن ، والناس يرغبون في نجوم جديدة ...

فقاطعته بول : « كلا ، أرجوك ، لا تلحّ . ان أعرض نفسي على الجمهور . هذا سيسبب لي الاشمئزاز . لا تلح » . كررت ذلك بصوت ضارع .

وتفرس في وجهها في حيرة ، وقال بلهجة مترددة :

– الاشمئزاز ؟ انني لا أفهم : هذا لم يكن يسبب لك الاشمئزاز سابقاً ، وأنت لم تهرمي ، أتعرفين ، بل لقد ازددت جمالاً » .

فقالت بول :

– انه عصر مضى من حياتي ، عصر دُفن إلى الأبد . سأغني لك ، لا لأي انسان آخر » . أضافت ذلك بحماسة شديدة حتى ان هنري سكت . ولكنه وعد نفسه بأن يعود إلى القضية . وساد صمت وقالت : « أنصعد ؟ » .

– لنصعد .

وجلست بول على السرير ، ونزعت قرطيها وخواتمها ، وقالت بصوت قد عاد الهدوء إليه : « أتعرف ، إذا كان يبدو عليّ انني أؤنبك على سفرك ، فإنني أعتذر » .

فقال هنري :

– يا لها من فكرة ! ان لك كل الحق بأن لا تحبي الأسفار ، وان تقولي ذلك .

انه منزعج من التفكير بأنها طوال السهرة كانت تغذي في نفسها هذا التأنيب. وقالت :

– انني أفهم تماماً ان ترغب في الرحيل . بل انني افهم جيدا ان تريد الذهاب بدوني .

– ليس لانني أريد .

فقاطعته بحركة : « لا حاجة بك لأن تكون مهذباً » . ووضعت باطن يديها على ركبتيه . كانت تبدو ، بعينيها الثابتتين ، وصدرها المستقيم جداً ، أشبه بكاهنة معبد هادئة . « لم أفكر أبداً بأن أسجنك في حبنا . لن تكون نفسك إذا لم تتمن آفاقاً جديدة ، وأغذية جديدة ». ومالت إلى الأمام وحطت عليه نظراتها الشاخصة : « يكفيني ان أكون لك ضرورية » .

ولم يجب هنري . لم يكن يريد ان يؤنسها ولا يشجعها . كان يفكر : « ليتني كنت أستطيع فقط ان أغضب منها ! » . ولكن لا ، ليس هناك مأخذ واحد .

ونهضت بول وابتسمت . وعاد وجهها انسانياً . ووضعت يديها على كتفي هنري ، وخدها على خده : « أتستطيع ان تستغني عني ؟ » .

– تعلمين جيداً ان لا .

فقالت بمرح :

– نعم ، اعلم . ولو قلت لي العكس لما صدقتك .

وسارت نحو غرفة الحمام . كان من المستحيل ان يترك لها بين الحين والآخر قطعة من جملة ، ابتسامة . فقد كانت تعطّر ذخائره في قلبها وتغتصب منها معجزات عندما يتزعزع ايمانها صدفة . وقال في داخله ليطمئن نفسه : « لكن على الرغم من كل شيء ، وفي الصميم ، هي تعلم انني لم أعد أحبها » . وبدأ يخلع ثيابه وضم بيجامته . انها تعلم ، حسناً ، ولكن هذا لا يقدم المسألة ما دامت لا تقبل بذلك . وسمع حفيف حرير مدعوك ، ثم صوت ماء وكريستال : هذه الأصوات التي كانت تقطع أنفاسه ، سابقاً . وقال في نفسه باستياء : « كلا . ليس هذا المساء » . وظهرت بول عند فتحة الباب ، وشعرها متناثر على كتفيها ، وقوراً

وعارية . انها كاملة كما في الماضي تقريباً ، كل ما هنالك ان هذا الجمال لم يعد يعني شيئاً بالنسبة لهنري . وانسابت تحت الأغطية وشدت إليه نفسها دونما كلمة : انه لا يجد أية ذريعة لدفعها. وكانت قد أخذت تتنهد في نشوة وهي تزداد التصاقاً به. وأخذ يداعب الكتف ، والخاصرتين المألوفتين ، وأحس بأن دمه يدفق بهدوء في عضوه : هـــذا أفضل . فبول لم تكن على استعداد لتكتفي بقبـلة على الصدغ وارضاؤها يتطلب وقتاً أقل من الشرح لها . وقبّل الفم الملتهب الذي انفتح تحت فمه حسب الروتين المعتاد . ولكن بعد لحظة ، تركت بول شفتيه ، وسمعها محرجاً تتمتم كلمات قديمة لم تعد تعني شيئاً : « ألا أزال دوماً عنقود حلوتك الجميل ؟ » .

– دوماً .

فقالت وهي تضع يدها على عضوه المنتفخ :

– وتحبني ؟ أصحيح أنك لا تزال تحبني ؟

لم يكن يشعر في نفسه الشجاعة على اثارة مأساة. كان مستعداً لكل الاعترافات وكانت تعرف ذلك : « هذا صحيح » .

– أنت لي ؟

– أنا لك .

– قل لي انك تحبني ، قلها .

– أحبك .

وصدرت عنهـــا حشرجة طويلة مصدقة ، وطوقهـا بعنف ، وخنق فمه تحت شفتيها . وبدون انتظار دخل فيها : كي ينتهي بسرعة أكبر . وكان بداخلهـــا ينتشر لون أحمر كما في الاستديو الشديد الحمرة . وأخذت تئن وتصرخ بكلمات ، كما في الماضي . ولكن في الماضي كان حب هنري يحميها . كانت صرخاتها ، وأنينها، وضحكاتها ، وعضّاتها ، أضاحي مقدسة . اما اليوم فهو مستلق على امرأة ضائعة تقول كلمات بذيئة وأظافرها تؤلم . انه مشمئز منها ومنه . كانت ، برأسهـــا المقلوب ، وعينيها المطبقتين ، وأسنانها العارية، قد أعطت نفسها كل العطاء،وتاهت إلى حد مريـع بحيث انه ودّ لو يصفعها ليعيدها إلى الأرض ، لو يقول لها : هـذه

أنت ، وهذا أنا ونحن نفعل الحب ، هذا كل شيء . كان يخيل إليه انه يغتصب ميتة أو مجنونة ولم يكن يستطيع ان يتخلص من لذته . وعندما ترك نفسه أخيراً يسقط على بول ، سمع أنيناً منتصراً . وتمتمت :

– أأنت سعيد ؟

– بالتأكيد .

فقالت :

– انني سعيدة للغاية !

كانت تنظر إليه بعينين مضيئتين تلمع فيهما دموع . وأخفى على كتفه هذا الوجه ذا البريق الذي لا يحتمل ، وقال في نفسه وهو يطبق عينيه : « ستكون أشجار اللوز مزهرة .. وستكون على أشجار البرتقال برتقالات » .

– ٣ –

كلا ، لن أعرف اليوم موتي. لا اليوم ولا في أي يوم . سأكون ميتة في نظر الآخرين ، دون ان أرى نفسي أموت .

لقد اعدت إطباق عينيّ ، ولكن دون ان أستطيع معاودة النوم . لماذا عبر الموت من جديد أحلامي ؟ انه يتسكع ، انني أشعر به يتسكع . لماذا ؟

لم أعرف دوماً انني سأموت . عندما كنت طفلة ، آمنت بالله . كان ثوب أبيض وجناحان بهيان تنتظرني في غرفة ملابس السماء : كنت أتمنى ان أنقب الغيوم . كنت أتمدد على لحافي ، ويداي مضمومتان ، وأستسلم للذائذ العالم الآخر . وأحياناً في نومي كنت أقول في نفسي : « انني ميتة » وكان صوتي القوي يضمن لي الأبدية . ولقد اكتشفت ، باشمئزاز ، صمت الموت . كانت جنية تحتضر على شاطىء البحر . فمن أجل حب فتى تخلت عن روحها الخالدة ولم يبق منها إلا بعض زبد أبيض بلا ذكرى ، بلا صوت . وكنت أقول في داخلي لأطمئن نفسي : « انها حكاية » .

لم تكن حكاية . انني أنا الجنية. لقد أصبح الله فكرة مجردة في أعماق السماء. وذات مساء محوتها . انني لم أندم مطلقاً على الله : كان يسرق مــني الأرض . ولكن ذات يوم ، فهمت انني بالتخلي عنه قد حكمت على نفسي بالموت . كنت في الخامسة عشرة ، وفي الشقة المقفرة ، صرخت . وعندمـا استعدت حواسي ، تساءلت : « كيف يفعل الناس ؟ كيف سأفعل؟ هل سأعيش مع هذا الخوف؟ » .

منذ اللحظة التي أحببت فيها روبير ، لم أعد أشعر بأي خوف ، من أي شيء. لم يكن علي إلا ان ألفظ اسمه فأشعر بالطمأنينة . انه يعمل في الغرفة المجاورة : أستطيع ان أنهض وأفتح الباب ... لكني أظل مستلقية : فأنا لست متأكدة من انه لا يسمع هو أيضاً . وفوق رؤوسنا ، توجد هوة ، وأنا لم أعد أعرف من نحن ، ولا ما ينتظرنا .

لقد انتصبتُ منتفضة ، وفتحت عيني : كيف أقبـل ان يكون روبير في خطر ؟ كيف أسمح بذلك ؟ انه لم يقل لي ما يقلق حقاً ، لم يقل شيئاً جديداً. انني متعبة ، لقد شربت كثيراً ، وهذا هذيان صغير في الساعة الرابعة صباحاً . ولكن من يستطيع ان يقرر في أية ساعة نرى بوضوح ؟ ألم أكن أهذي عندما كنت أظن انني في أمان ؟ وهل كنت أظن ذلك حقاً ؟

لا أستطيع ان أتذكر ، فلم نكن ننتبه كثيراً إلى حياتنا الخاصة . كانت الأحداث فحسب لها حسابها : الهجرة ، والعودة ، والصفارات ، والقنابـل ، والصفوف الطويلة ، واجتماعاتنا ، والاعداد الأولى من « الأمل » . وفي استديو بول كان شمعدان أسمر يبصق حمماً ، وبعلبتين من علب المحفوظات صنعنا موقداً كنا نحرق فيه الورق ، فيلسع الدخان عيوننا . وفي الخارج كانت هناك بقع دم ، وأزيز رصاص ، ودوي مدافع ودبابات . وفي داخلنا جميعاً كان الصمت نفسه ، الجوع نفسه ، الأمل نفسه . في كل صباح كان يوقظنا السؤال نفسه : الا يزال الصليب المعقوف يرفرف على مجلس النواب ؟ وكان العيد نفسه في قلوبنا عندمـا كنا نرقص في ساحة مونبارناس حول نار الفرح . ثم انقضى الخريف ، ومنـذ لحظات ، بينما كنا على أضواء شجرة الميلاد ننسى أمواتنا نهائياً ، تبينت اننـا

نعاود الحياة ، كلٌ لذاته . كانت بول تسأل : « أتعتقدين ان الماضي يمكن ان يبعث ؟ » ، وقال هنري لي : « أريد ان أكتب رواية مرحة ». انهم يستطيعون من جديد ان يتكلموا بصوت عالٍ ، وينشروا كتبهم ، انهم يتناقشون ، وينظمون أنفسهم ، ويُعدّون مشاريع ، ولهذا فهم جميعاً سعداء : أخيراً، تقريباً جميعهم . وليس هذا هو الوقت الذي يجب ان أختاره لأعذب نفسي . انه لعيد هذه الليلة : أول ميلاد في السلم ، آخر ميلاد في « بوشنووله[1] » ، آخر ميلاد على الأرض ، أول ميلاد لم يعشه دييغو . كنا نرقص ، ونتعانق حول الشجرة البارقة بالوعود ، وكانوا عديدين آه ! عديدين جداً من لم يكونوا هناك ، ما من أحد استمع إلى كلماتهم الأخيرة ، ولم يكونوا مدفونين في أي مكان : لقد ابتلعهم الفراغ . بعد يومين من التحرير لمست جانفييف تابوتاً : هل كان الصالح ؟ ولم يجد أحد جسد جاك . وثمة رفيق يزعم انه دفن دفاتر تحت شجرة : أية دفاتر ؟ أية شجرة ؟ ولقد طلبت سونيا كنزة وجوارب حريرية ، ثم لم تطلب شيئاً أبداً . أين هي عظام راشيل وعظام روزا الجميلة جداً ؟ كان لامبير ، في ذراعيه اللتين ضمتا الكثير من المرات جسد روزا اللدن ، يعانق نادين ، وكانت نادين تضحك كما كانت تفعل حين كان دييغو يعانقها بين ذراعيه . كنت أنظر إلى درب الصنوبر في أعماق المرايا الكبيرة ، وأفكر : هي ذي الشموع ، والآس ، والعنم التي لا يرونها . ان كل ما أعطيته ، أسرقه منهم . « لقد قتلا » . من الأول ؟ هو أم والده ؟ لم يكن الموت يدخل في خططه : هل عرف انه سيموت ؟ هل تمرد ، هل استسلم ؟ كيف أعرف ؟ والآن بعد ان مات ، ما أهمية ذلك ؟

لا عيد ميلاد ، لا قبر : لهذا لا أزال أبحث عنه تلمساً عبر هذه الحياة التي كان يحبها في صخب . انني أمد يدي نحو الزجاجة الكهربائية ، ثم اتركها تسقط : في درجي توجد صورة لدييغو ، ولكن مهما أطلت النظر إليها ساعات ، فلن أجد أبداً ثانية تحت كتلة الشعر وجهه الذي هو من لحم ، ذلك الوجه الذي كان كل شيء فيه كبيراً : العينان ، الانف ، الاذنان ، الفم . كان جالساً في المكتب

١ـ مدينة المانية كانت معسكراً كبيراً للاعتقال بين ١٩٣٧ و ١٩٤٥. « المترجم ».

وروبير يسأله : « في حالة انتصار النازية ، ماذا ستفعل ؟ » . فأجاب : « انتصار النازية لا يدخل في خططي » . كانت خططه ان يتزوج نادين ويصبح شاعراً كبيراً . ولعله كان سينجح : ففي السادسة عشرة ، كان يعرف كيف يحول الكلمات إلى جمر ، ولعله لم يكن بحاجة إلا لأقل الوقت : خمسة أعوام ، أربعة أعوام . كان يعيش بسرعة كبيرة . وكنا نتجمع حول المدفأة الكهربائية ، وأتلهى بالنظر إليه يلتهم هيغل أو كانت : كان يقلب الصفحات بسرعة وكأنه يتصفح رواية بوليسية . والحقيقة انه كان يفهم . أحلامه فقط كانت بطيئة .

كان يقضي عندنا كل وقته تقريباً . كان ابوه يهودياً اسبانياً يعاند في كسب المال في الأعمال . وكان يعتبر نفسه محمياً من قبل قنصل اسبانيا . وكان ديغو يأخذ عليه ترفه وعشيقة شقراء بدينة . وكان تقشفنا يعجبه . ثم كان في العمر الذي يعجب فيه المرء بالآخرين ، وكان معجباً بروبير . لقد جاء ذات يوم يحمل إليه أشعاره وهكذا عرفناه . ومنذ اللحظة التي التقى فيها بنادين ، أعطاها حبه بقوة : حبه الأول والوحيد . ولقد أزعجها ان تشعر بنفسها ، ضرورية أخيراً. وجعلت ديغو يقيم في البيت . وكان يميل إلي ، على الرغم من انه كان يجدني منطقية أكثر من اللازم . وعند المساء ، كانت نادين تطلب ان أذهب لأغطيها ، كما في الماضي ، فكان يسألني وهو راقد قربها : « وأنا ؟ ألا تقبلينني ؟ » . وكنت أقبله . في تلك السنة ، كنا صديقتين ، أنا وابنتي . كنت شاكرة لها ان تكون قادرة على حب مخلص . وكانت تعترف لي بالجميل على انني لم أقاوم قلبها . ولمَ أفعل ذلك ؟ لم تكن إلا في السابعة عشرة : لكننا كنا نعتقد أنا وروبير انه ليس من السابق للأوان أبداً ان يحصل المرء على السعادة .

كانا يعرفان كيف يكونان سعيدين بحماسة شديدة ! وكنت أجد، قربهما ، شبابي ثانية . كانا يقولان وكل منهما يشدني من إحدى ذراعي : « تعالي تناولي طعام العشاء معنا ، تعالي ، هذا المساء عيد » . وفي ذلك اليوم كان ديغو قد سرق من والده قطعة ذهب : كان يفضل الأخذ على التلقي ، وكان هذا من طبيعة سنه . وكان قد استبدل كنزه بدون صعوبة أوراقاً مالية وأمضى بعد الظهر مع

نادين على جبال لونابارك الروسية . وعندما التقيت بهما مساء في الشارع ، كانا يلتهمان قرصاً ضخماً من المعجنات اشترياه من مؤخرة دكان خباز : كانت تلك هي طريقتهما في فتح شهيتهما . ورفض روبير ، الذي دعي بالتلفون ، ان يترك عمله . ورافقتهما أنا . كان وجهاهما ملطخين بالمعقود ، وأيديهما سوداء بكل غبار المعارض ، وفي عيونهما كبرياء المجرمين السعداء : لا شك في ان صاحب الفندق قد ظن انهما جاءا ينفقان بسرعة مالاً حصلا عليه بطريقة غير شرعية . وأشار لنا إلى طاولة في المؤخرة وسأل في أدب جليدي : « السيد لا يرتدي سترة ؟ » . وألقت نادين ، على كنزة ديغو العتيقة المثقوبة ، سترتها الخاصة ، كاشفة عن قميص مدعوك ومتسخ : إلا انهم خدمونا . وطلبا أولاً بوظة ، وسردينا ، ثم بفتيكاً ، وبطاطا مقلية ، ومحاراً ، ثم بوظة ايضاً ، وشرحا لي وهما يغرفان بملء فمهما من الزيت والقشدة : « على كل حال ، انها تختلط في المعدة » . كانا فرحين جداً بالأكل حتى الامتلاء ! ومهما فعلت فنحن دوماً أكثر او أقل جوعاً . كانا يقولان لي بلهجة آمرة : « كلي ، كلي » . ووضعا في جيوبهما قطعاً من الفطائر لروبير .

بعد فترة من ذلك الحين قرع الالمان ذات صباح منزل السيد « سيرا » : فقد بدل قنصل اسبانيا دون ان يعلم ، وكان ديغو قد نام في بيت والده ، تلك الليلة . ولم تقلق الشقراء . وقال ديغو : « قولي لنادين ألا تخاف عليّ . سأعود لأنني أريد ان أعود » . وكانت هذه آخر كلمات تلقيناها منه . والكلمات الأخرى كلها قد ابتلعت إلى الأبد ، هو الذي كان يحب الكلام كثيراً .

كان ذلك في الربيع . والسماء شديدة الزرقة ، وأشجار الخوخ لا تزال وردية . وعندما كنا ندور على الدراجة ، أنا ونادين ، في الحدائق المزينة ، كانت في رئاتنا غبطة نهايات الأسبوع في أيام السلم . وكانت ناطحات سحاب درانسي تبقر بوحشية هذه الأكاذيب . وكانت الشقراء قد دفعت ثلاثة ملايين لألماني يدعى فيلكس كان ينقل رسائل من المسجونين ، وقد وعد بأن يساعدهما على الهرب . واستطعنا مرتين بواسطة منظار ان نشاهد ديغو من نافذة بعيدة . كانوا قد حلقوا خصائله الصوفية ولم يكن هو تماماً الذي يبتسم لنا : كانت صورته المشوهة تطوف

خارج العالم .

وبعد ظهر أحد أيام أيار وجدنا الثكنات الكبيرة فارغة . وكان بعض المجاذيب يتنشقون الهواء على حافة النوافذ المفتوحة على غرف فارغة . وقيل لنا في المقهى الذي كنا نضع فيه دراجتينا ان ثلاثة قطارات قد غادرت المحطة في الليل . ووقفنا أمام جدار الأسلاك الشائكة ، وراقبنا طويلاً ، وفجأة لمحنا من بعيد جداً ، ومن علو شاهق ، وجهين منفردين يميلان نحونا . وحرك الأصغر منهما سناً قبعته بحركة عريضة منتصرة : فليكس لم يكذب ، فديبغو لم ينقل . وكان الفرح يخنقنا ونحن نجري نحو باريس .

وقالت لنا الشقراء . « انها في معسكر للأسرى الأميركان . انهما على ما يرام ، ويأخذان حمامات شمس » . لكنها لم تكن قد رأتهما . وأرسلنا لهما كنزات ، وشوكولا . وكانا يشكراننا بفم فليكس . ولكن لم تعد تصلنا منهما أية رسالة مكتوبة . وطلبت نادين علامة : خاتم دييغو ، خصلة شعر . ولكنهم في ذلك الحين بالذات نقلوهما إلى معسكر آخر ، ووضعوهما في مكان ما ، بعيداً عن باريس . وشيئاً فشيئاً كف غيابها عن ان يكون موجوداً في أي مكان : كانا غائبين ، لا أكثر . الا ّ تكون في أي مكان ، الا ّ تكون مطلقاً ، ليس في ذلك كبير فرق . ولم يتبدل شيء عندما قال أخيراً فليكس في مزاج سيء : « لقد ُقتلا منذ زمن طويل » .

وعوت نادين طوال ليالٍ . من المساء إلى الصباح ، كنت أبقيها بين ذراعي . ثم وجدت النوم ثانية . وكان دييغو يأتي في أحلامها في البداية وكانت هيئته خبيثة . وبعد قليل ، تبخر حتى شبحه . انها على حق ، وليس صحيحاً انني ألومها . ما العمل بجثة ؟ انني أعرف : انهم يُستخدمون لصنع أعلام ، وتروس ، وبنادق ، وأوسمة ، وأبواق وكذلك تحف للمنازل : كلا من الأفضل ان يترك رمادهم في سلام . وسواء تحولوا إلى آثار تذكارية أم إلى غبار : فقد كانوا اخوتنا . ولكن لا اختيار لنا : لماذا غادرونا ؟ ليتركونا في سلام هم ايضاً . لننسهم . لنبقَ فيما بيننا . يكفينا ما علينا عمله تجاه حيواتنا . الأموات أموات . بالنسبة لهم ، لا توجد

مشاكل . ولكن نحن الأحياء ، بعد ليلة العيد هذه ، سوف نستيقظ . وآنذاك كيف سنعيش ؟

كانت نادين تضحك مع لامبير : واسطوانة تدور ، وأرض الغرفة ترتعد تحت أقدامنا ، واللهب الأزرق يرتجف . كنت أنظر إلى سيزوناك الذي كان راقداً بكل طوله على سجادة : كان يحلم بلا شك بالأيام المجيدة التي كان يتنزه فيها في باريس متقلداً بندقيته . كنت أنظر إلى شانسل الذي حكم عليه الالمان بالموت ثم بودل في اللحظة الأخيرة مقابل أصد أسراهم . وإلى لامبير الذي وشى أبوه بالخطيبة ، وفانسان الذي قضى بيده على اثني عشر مليشياً . ماذا سيفعلون بهذا الماضي الثقيل جداً ، القصير جداً ، وبمستقبلهم المشوه ؟ هل سأعرف كيف أساعدهم ؟ المساعدة مهنتي : أستطيع ان أمددهم على أريكة وأجعلهم يروون أحلامهم . لكني لن أبعث روزا ، ولا الاثني عشر مليشياً الذين قضى عليهم فانسان بيده . وحتى لو تمكنت من جعل ماضيهم حيادياً ، فأي مستقبل لدي أقدمه لهم ؟ انني أبرر المخاوف ، وأشحذ الأحلام ، واقرض الرغبات ، واوفق ، واوفق ، ولكن بمَ اوفقهم ؟ انني لا أرى أي شيء حولي يقف على قدميه .

حقاً ، لقد شربت كثيراً . لست أنا التي خلقت السماء والأرض ، وما من أحد يسألني حساباً : فلمَ اهتم طوال الوقت بالآخرين ؟ انني أفعل حسناً ايضاً إذا اهتممت قليلاً بنفسي . انني أسند خدي إلى الوسادة . انني هنا ، أنا : السأم ، هو انني لا أجد في نفسي ما أفكر به . اواه ! لو سئلت من أنا ، لاستطعت ان أظهر سجلي . كي أصبح محللة ، اضطررت إلى تحليل نفسي . ووجدوا فيّ عقدة اوديب راسخة جداً تفسر زواجي من رجل اكبر مني بعشرين عاماً ، وعدوانية واضحة تجاه أمي ، وبعض الميول اللوطية التي تصفّت بشكل مناسب . وانني مدينة لتربيتي الكاثوليكية بـ «أنا» عليا شديدة التطور : وهذا هو سبب طهرانيتي ونقص نرجسيتي . وتناقض العواطف التي أحملها لابنتي يعود إلى عداوتي تجاه أمي ، ولامبالاتي تجاه نفسي . ان قصتي من أكثر القصص كلاسيكية ، ولقد انطوت بوداعة كبيرة تحت أطر . متوقعة . وحالتي في نظر الكاثوليك ، عادية جداً : *لقد*

كففت عن الايمان بالله عندما اكتشفت تجارب الشهوانية . وقد انتهى بي زواجي من ملحد إلى الضياع التام . واجتماعياً ، انني وروبير من مثقفي اليسار . لا شيء من هذا كله غير صحيح تماماً . فها انا إذن مصنفة بشكل واضح وراضية بأن أكون كذلك ، متفقة مع زوجي ، مع مهنتي ، مع الحياة ، مع الموت ، مع العالم ، مع فظائعه . انني انا ، انا تماماً ، اي لا احد .

ان لا أكون لا احد ، فهذا باختصار امتياز . كنت أنظر إليهم يذهبون ويأتون عبر الاستديو ، اولئك جميعاً الذين لهم أسماء ، ولم أكن أحسدهم . حسناً، ان روبير مختار مسبقاً . لكن الآخرين ، كيف يجرؤون ؟ كيف يمكنهم ان يكونوا بمثل هذا الصلف أو بمثل هذا الطيش ليلقوا بأنفسهم مرعى لشرذمة من المجهولين ؟ ان اسماءهم تتسخ في آلاف الأفواه . والفضوليون ينهشون فكرهم ، وقلبهم ، وحياتهم : لو كنت معرّضة ايضاً لبخل جامعي الحرق هؤلاء ، لانتهى بي الأمر إلى اعتبار نفسي كومة من القاذورات . انني أهنىء نفسي على انني لست احداً .

لقد اقتربت من بول. ان الحرب لم تقض على اناقتها العدوانية. كانت ترتدي تنورة طويلة من الحرير ذات انعكاسات بنفسجية ، وفي اذنيها عناقيد من الجمشت. وقلت :

– انت جميلة جداً هذا المساء .

فألقت نظرة إلى إحدى المرايا الكبيرة ، وقالت في حزن :

– نعم ، انني جميلة .

كانت جميلة ، ولكن تحت عينيها ، كانت هناك دوائر منسجمة مع لون ثيابها . في اعماقها ، كانت تعرف جيداً ان هنري يستطيع ان يصطحبها إلى البرتغال ، كانت تعلم أكثر مما تدعي .

– يجب ان تكوني مسرورة : لقد أنجحتِ سهرتك .

فقالت بول :

– هنري يحب الحفلات كثيراً .

كانت يداها المثقلتان بالخواتم الكبيرة تصقلان آلياً حرير ثوبها المتبدل الألوان.
– ألن تغني لنا شيئاً ما ؟ انني أسر بسماعك .
فقالت مبغوتة :
– أغني ؟
فقلت ضاحكة :
– نعم ، تغنين . أنسيت انك كنت تغنين في الماضي ؟
فقالت :
– في الماضي ، هذا بعيد .
– ليس الآن . الآن هو من جديد كالماضي .
– أتعتقدين ؟ » وغاصت نظرتها في أعماق عيني ، وكأنها تسأل من خلف وجهي كرة من زجاج : « أتعتقدين ان الماضي يمكن ان يبعث ؟ » .
كنت اعلم اي جواب تنتظر مني ، فضحكت بشيء من الحرج : انني لست عارفة بالغيب » .
فقالت بلهجة متألمة :
– يجب ان يشرح لي روبير ما هو الزمن ؟
كانت على استعداد بأن تنفي المكان والزمان قبل ان تقبل بأن الحب يمكن ان يكون غير أبدي . كنت خائفة عليها . لقد فهمت خلال هذه السنوات الأربع ان هنري لا يمنحها إلا عاطفة سئمة . ولكن منذ التحرير ، لا أدري أي أمل مجنون استيقظ في قلبها .
– أتذكرين أغنية « الزنجي الرومي » التي كنت أحبها كثيراً ؟ ألا تريدين ان تغنيها لنا ؟
وسارت نحو البيانو ، فرفعت الغطاء . كان صوتها أصم قليلاً ، لكنه لا يزال مثيراً للانفعال . وقلت لهنري : « يجب ان تمثل من جديد أمام الجمهور ». وبدت عليه الدهشة . وعندما انطفأ التصفيق ، اقترب من نادين وأخذا يرقصان : انني لا أحب الطريقة التي كانت تنظر بها إليه . هي ايضاً ، لم أكن أملك أية وسيلة

لمساعدتها . كنت قد اعطيتها ثوبي الوحيد اللائق واعرتها اجمل عقد عندي : كان هذا كل ما أستطيع فعله . لا فائدة من استكشاف احلامها : انني اعرف . ان ما تحتاجه هو الحب الذي كان لامبير على أتم استعداد لمنحها إياه . ولكن ما السبيل إلى منعها من هدمه ؟ ومع ذلك ، عندما دخل لامبير إلى الاستديو ، كانت قد صعدت أربعاً أربعاً الدرج الصغير الذي راحت تراقبنا من أعلاه بوجه مؤنب . وجمدت عند الدرجة الأخيرة ، وقد ضايقها انطلاقها . وتقدم نحوها ، وابتسمت له برصانة :

– انني سعيد بمجيئك .

فقالت بلهجة قاسية :

– لقد جئت لأراك .

كان حقاً جميلاً جداً هذا المساء في طقمه الأنيق القاتم . انه يلبس ثيابه في تقشف ابن الأربعين . وله حركات احتفالية ، وصوت رصين ، وهو يراقب ابتساماته ، لكن اضطراب نظرته ، وعذوبة فمه يبينان عن شبابه . ان نادين مزهوة بحديثه ، ومطمئنة لضعفه . وكانت تتفرس وجهه في إعجاب أبله قليلاً :

– هل لهوتَ جيداً ؟ يبدو ان الالزاس جميلة !

– أتعرفين ، عندما يمتلىء احد المشاهد بالسلاح ، يصبح كئيباً .

وجلسا على احدى درجات السلم ، وتحدثا ، ورقصا وضحكا مدة طويلة . ثم كان لا بد ان يتخاصما رغبة في التغيير : ان الأمور تنتهي دوماً مع نادين على هذا النحو . ان لامبير جالس الآن إلى جانب المدفأة ، بادياً عليه الغضب : ولم يكن هناك مجال للاتيان بها من طرفي الاستديو وضم أيديها .

وسرت نحو المائدة وشربت كأساً من العرق . وانسابت نظرتي على طول تنورتي السوداء وتوقفت عند ساقي : كان غريباً ان أفكر بأن لي ساقاً ، ولم يكن أي شخص يشك في ذلك ، حتى ولا أنا . كانت نحيفة وصلبة تحت ثوبها الحريري الذي هو بلون الخبز المحترق ، وكانت تساوي بسهولة ساقاً أخرى . وذات يوم سوف تدفن دون ان تكون قد وجدت ابداً : كان هذا يبدو غير عادل . كنت

غارقة في تأملها عندما جاء سكرياسين نحوي :

– لا يبدو عليك انك تلهين كثيراً ؟

– انني افعل ما استطيع .

– يوجد كثير من الشبان ، والشبان ليسوا أبداً مرحين . وكثيراً جداً من الكتّاب . وبحركة من ذقنه ، أشار إلى لونوار ، وبيلوتيه ، وكانج : « انهم يكتبون كلهم ، أليس كذلك ؟ » .

– كلهم .

– وأنت ، ألا تكتبين ؟

فقالت ضاحكة : – « يا إلهي كلا ! » .

كانت حركاته الجلفة تعجبني . كنت قد قرأت سابقاً كسائر الناس كتابه المشهور « الفردوس الأحمر » ، ولكني انفعلت على الاخص بمؤلفه عن النمسا النازية : كان افضل من ريبورتاج ، كان شهادة متحمسة . لقد هرب من النمسا بعد روسيا وتجنس بالجنسية الفرنسية . لكنه أمضى هذه السنوات الأربع في اميركا والتقينا به لأول مرة هذا الخريف . وسرعان ما خاطب دوبروي وهنري بضمير المفرد ، لكن لم يبد عليه انه لاحظ وجودي . واشاحت نظرته عني : « انني أتساءل ماذا سيصبحون ؟ » .

– من ؟

– الفرنسيون عامة وهؤلاء خاصة .

وبدوري تفحصته . هذا الوجه المثلث ، ذو الغمازتين الناتئتين ، والعينين الحادتين القاسيتين ، والفم النحيف الأنثوي تقريباً ، لم يكن وجهاً فرنسياً . لقد كان الاتحاد السوفياتي بالنسبة له بلداً عدواً ولم يكن يحب اميركا : ليس ثمة مكان على الأرض يشعر فيه بأنه في بيته . وقال مبتسماً ابتسامة صغيرة :

– لقد عدت من نيويورك على مركب انكليزي . ولقد قال لي النادل ذات يوم : « يا للفرنسيين المساكين انهم لا يعلمون ما إذا كانوا قد ربحوا الحرب او خسروها » . هذا يبدو لي انه يلخص الموقف جيداً .

كان في صوته مجـاملة تغضبني وقلت : « ان الاسماء التي تعطى للاحـــداث الماضية ، لا أهمية لها . ان ما هو مطروح على بساط البحث إنما هو المستقبل » .

فقال بحماسة :

ـ بالضبط . لإنجاح المستقبل ، يجب النظر إلى الحاضر وجهـــاً لوجه . وأنا أشعر ان الناس لا يدركون هـذا مطلقاً . ان دوبروي يحدثني عن مجلة أدبيـة ، وبيرون عن رحلة سياحية : يبدو عليهم انهم يتخيلون انهم يستطيعون العيش كما في ما قبل الحرب .

ـ ولقد أرسلتك السماء لتفتح أعينهم ؟

كان صوتي جافاً وابتسم سكرياسين :

ـ أتعرفين لعبة الشطرنج ؟

ـ معرفة سيئة للغاية .

كان يتابـع ابتسامته ، وقـد امحى كل ادعاء من وجهه : لقد كنا دومـــاً صديقين حميمين ، شريكين . وفكرت : ها هو يواجهني بالسحر السلافي . ولكن السحر كان يؤثر ، فابتسمت أنا ايضاً .

ـ في الشطرنج ، عندما أشاهد اللعب من الخارج ، أرى الضربات بأوضح مما يراها اللاعبون ، حتى ولو لم أكن في براعتهم . حسناً ! هنا الحال مشابهة جـداً : انني قادم من الخارج ، إذن فأنا أرى .

ـ ماذا ؟

ـ المأزق .

ـ أي مأزق ؟

على حين فجأة وجدت نفسي أسأله في قلق . لقد عشنا فترة طويلة فيما بيننـا ، جنباً إلى جنب بدون شاهد : هذه النظرة القادمة من مكان آخر كانت تقلقني . وأضاف بنوع من الرضى :

ـ ان المثقفين الفرنسيين في مأزق . انه دورهم . ان فنهم ، وفكرهم لـــن يحتفظا بمعنى إلا إذا نجحت حضارة معينة في البقاء . وإذا أرادوا إنقاذها ، فلـن

يبقى لهم شيء يقدمونه لا للفن ولا للفكر .

فقلت :

– انها ليست المرة الأولى التي يمارس فيها روبير السياسة فعلياً . فهذا لم يمنعه أبداً من الكتابة .

فقال سكرياسين بصوت أنيس :

نعم ، في ١٩٣٤ ضحى دوبروي بالكثير من وقته للنضال ضد الفاشيـــة ، ولكنه كان يبدو له متفقاً اخلاقيـاً مع المشاغل الأدبية . » وأضاف بنوع مـن الغضب : « في فرنسا ، لم تشعروا ابداً بوطأة التاريخ بكل عجلته . في الاتحـاد السوفياتي، والنمسا، والمانيا، كان من المستحيل تجنبه. ولهذا لم أكتب أنا مثلاً».

– لقد كتبت .

– أتظنين انني لم أكن أحلم ايضاً بكتب أخرى ؟ ولكن لم يكن هناك مجال لها . » وهز كتفيه : « لا بد ان يكون وراء المرء تقاليد مقدسة في المـــذهب الانساني حتى يهتم بمشاكل الثقافة تجاه ستالين وهتلر » . وتابـع : « من البديهي انكم ، في بلاد ديدورو ، وفيكتور هوغو ، وجوريس ، تتصورون ان الثقافـة والسياسة تسيران يداً في يد . لقد اخذت باريس مدة طويلة بأثينا ، ولكن أثينا لم تعد موجودة ، لقد انتهت » .

فقلت .

– فيما يتعلق بالاحساس بوطأة التاريخ ، اعتقد ان روبير يستطيع ان يسجل عليك نقطاً .

فقال سكرياسين بابتسامة صغيرة ترفض أي مدى لكلماتي التي كان يحيلها إلى مجرد انفجار للوفاء الزوجي :

– انني لا أهاجم زوجك . » وأضاف : « انني أعتبر ن أكبر عقلين في هذا العصر هما روبير دوبروي وتوماس مان . ولكن بالضبط : إذ كنت أتنبأ بأنـه سيهجر الأدب ، فلأنني أؤمن بذكائه » .

وهززت كتفي . إذا كان يريد ان يجتذبني بالمجاملة ، فهو يخطىء الطريق:انني

أكره توماس مان . وقلت :

– لن يهجر روبير الكتابة أبداً .

فقال سكرياسين :

– ان ما هو ممتاز في أعمال دوبروي هو انه عرف كيف يوفق بين المتطلبات الجماعية الرفيعة وبين الالهام الثوري . ولقد حقق في حياته توازناً مماثلاً : فقد كان ينظم لجان « الطوارىء » ويكتب روايات . ولكن ، بالضبط ، هذا التوازن الجميل هو الذي أصبح مستحيلاً .

فقلت :

– سيخترع روبير توازناً آخر . إعتمد عليه .

فقال سكرياسين :

– سوف يضحي بتطلباته الجمالية . » وأضاء وجهه وسأل بلهجة منتصرة: « هل درست ما قبل التاريخ ؟ »

– ليس أكثر من الشطرنج .

– ولكن لعلك تعلمين انه خلال فترة طويلة تكون الرسوم الحائطية والأشياء التي وجدت في التنقيبات شاهدة على تقدم فني مستمر . وفجـــأة تختفي الرسوم والتماثيل ، ويلاحظ خسوف لمدة قرون يرافقه انطلاق تكنيكات جديدة. حسناً ! اننا نقترب من عصر ستكون فيه الانسانية لأسباب عدة فريسة لمشاكل لن تترك لها ترف التعبير عن نفسها .

فقلت :

– ان المحاكمات العقلية عن طريق التشابه لا تثبت شيئاً كبيراً .

فقال سكرياسين بصوت صابر :

– دعينا من هذه المقارنة . افترض انك عشت هذه الحرب عن قرب قريب جداً كي تفهميها جيداً . انها شيء آخر غير الحرب : تصفية مجتمع بل وحتى عالم . بداية التصفية . ان تقدم العلم والتكنيك ، والتبديـلات الاقتصادية سوف تقلب الأرض بشدة إلى حد ان طرقنا في التفكير والاحساس سوف تتغير : سوف نلقى

المشقة في تذكر ما كنّاه . ان الفن والأدب ، وغيرهما لن تبدو لنا إلا تسلية بالية .

وهززت رأسي وتابع سكرياسين في حرارة :

ـ لنرَ ، اية أهمية ستظل لرسالة الكتاب الفرنسيين عندما تعود الهيمنة على العالم إلى الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأميركية ؟ لن يفهمهم اي انسان ، بل ولن يتحدث أحد بلغتهم .

فقلت :

ـ كأني بهذه النهاية تسرّك .

فهز كتفيه : « هوذا تفكير انثوي . انهن عاجزات عن البقاء فوق أرض موضوعية » .

فقلت :

ـ لنبق عليها . موضوعياً ، لم يثبت ان العالم يجب ان يصبح اميركياً أو روسياً .

ـ آجلاً أو عاجلاً ، ولكن هذا محتم . » وأوقفني بحركة وابتسم لي ابتسامة سلافية جميلة : « انني أفهمك . ان التحرير لا يزال في أوله . أنتم تسبحون جميعاً في شعور من الهناء . خلال أربعة أعوام تألمتم كثيراً . أنتم تعتقدون انكم دفعتم بما فيه الكفاية : ان المرء لا يدفع بما فيه الكفاية ابداً » . قال ذلك في حدة مفاجئة . ونظر في عيني : « هل تعلمين ان في واشنطن فئة قوية جداً تريد ان تمتد حملة المانيا حتى موسكو ؟ من وجهة نظرهم ، معهم حق . فالامبريالية الأميركية كالدكتاتورية الروسية تتطلب توسعاً لا حدود له : لا بد ان تنتصر احداهما » . وغضب صوته : « أنتم تعتقدون انكم تحتفلون بالهزيمة الالمانية : ولكنها الحرب العالمية الثالثة التي تبدأ » .

فقلت :

ـ انها تحليلاتك الشخصية .

فقال سكرياسين :

– أعرف ان دوبروي يؤمن بالسلم وبحظ اوروبا . وابتسم في تسامح : « لقد يحدث حتى للعقول الكبيرة ان تخطيء. سوف يمحونا ستالين أو تستعمرنا اميركا..

فقلت في مرح :

– إذن ليس هناك مأزق . فلا فائدة من الغضب : من تلهيهم الكتابة ليس عليهم إلا ان يتابعوا .

– الكتابة عندما لا يكون هناك من يقرأ . يا لها من لعبة بلهاء !

– عندما يكون كل شيء مقضياً عليه ، لا يبقى إلا اللعب بألعاب بلهاء !

وسكت سكرياسين ، ثم مرت ابتسامة محتالة على وجه ، وقال بلهجة اعتراف : « بعض الظروف ستكون على كل حال أقل سوءاً من غيرها . وفي حالة انتصار الاتحاد السوفياتي ، ليست هناك مشكلة : انها نهاية الحضارة ونهايتنا جميعاً . وفي حال انتصار اميركا . فستكون الكارثة أقل جذرية . وإذا نجحنا في ان نفرض عليها بعض القيم ، ونحتفظ ببعض أفكارنا ، يمكننا ان نأمل بأن الأجيال القادمة ستعقد الصلة ذات يوم من جديد مع ثقافتنا وتقاليدنا : ولكن يجب ان نفكر بالتعبئة الكاملة لكل امكانياتنا » .

فقلت :

– لا تقل لي انك في حالة نشوب حرب تتمنى انتصار اميركا !

فقال سكرياسين :

– على كل حال ، لا بد للتاريخ ان ينتهي إلى قيام مجتمع بلا طبقات : انها مسألة قرنين أو ثلاثة . ولسعادة البشر الذين سيعيشون أثناء هذه الفترة ، أتمنى بحرارة ان تتم الثورة في عالم تسيطر عليه اميركا لا الاتحاد السوفياتي .

فقلت :

– في عالم تسيطر عليه اميركا ، أشعر بأن الثورة سوف تنتظر نفسها بشكل مضحك .

– وتتصورين انها ستكون ثورة يقوم بها الستالينيون ؟ الثورة : لقد كانت جميلة حقاً في فرنسا ، حوالي ١٩٣٠ . اما في الاتحاد السوفياتي فإنني أجيبك انها

كانت أقل جمالاً » . وهز كتفيه : « أنتم تهيئون لأنفسكم مفاجآت غريبة ! في اليوم الذي سيحتل فيه الروس فرنسا ستبدأون وعي ذلك. ومع الأسف سيكون قد فات الأوان ! » .

فقلت :

– احتلال روسي : أنت نفسك لا تؤمن به .

فقال سكرياسين :

– وا أسفاه ! » وتنهد : اخيراً ، ليكن . لنكن متفائلين . لنقبل بأن لأوروبا فرصها . ولكن لن يمكن انقاذها إلا بالنضال كل لحظة . لا مجال للعمل من أجل الذات » .

وبدوري ، سكت . كل ما كان سكرياسين يتمناه هو ان يضطر الكتاب الفرنسيون إلى الصمت ، وكنت أفهم جيداً لماذا . ولم يكن في تنبؤاته ما يقنع . ومع ذلك فقد كان صوته المأساوي يوقظ فيّ صدى : « كيف سنعيش ? » . كان السؤال ينخزني منذ بداية السهرة . منذ كم من أيام وأسابيع ?

وهددني سكرياسين بنظرته : « واحد من أمرين : اما ان ينظر رجال كدوبروي وبيرون إلى الموقف وجهاً لوجه ، ويلتزموا في عمل يستهلكهم كلياً ، واما ان يغشوا ، ويصروا على الكتابة ، فتكون أعمالهم مفصولة عن الواقع ومحرومة من كل مستقبل . انها ستكون أعمال عميان ، مثيرة للأعصاب كشعر الاسكندريين » .

من الصعب التناقش مع مخاطب عندما يتحدث عن العالم وعن الآخرين ، يتحدث بلا انقطاع عن نفسه . لم أكن أستطيع ان اطمئن نفسي دون ان أجرحه . ومع ذلك قلت :

– من العبث سجن الناس في اختيار ذي حدين . فالحياة تنسفه دوماً .

– ليس في مثل هذه الحالة . الاسكندرية أو اسبارطة ، ليس هناك اختيار آخر . » وأضاف بنوع من العذوبة: « من الأفضل ان نصارح أنفسنا بهذه الأشياء اليوم : فالتضحيات تكف عن ان تكون مؤلمة عندما تصبح خلف المرء » .

– أنا واثقة ان روبير لن يضحي بشيء .

فقال سكرياسين :

– سنعاود الحديث عن هذا بعد سنة . فبعد سنة ، اما ان يكون قد هرب أو كف عن الكتابة . ولا أعتقد انه سيهرب .

– لن يكف عن الكتابة .

فتألق وجه سكرياسين : « علامَ نراهن ؟ على زجاجة شمبانيا ؟ » .

– لا أراهن على شيء مطلقاً .

وابتسم : « أنت كجميع النساء . فأنت بحاجة إلى نجوم ثابتة في السماء وإلى انصاب كيلومترية على الطرق .

وقلت وانا أهز كتفي :

– أتعرف ، لقد رقصتْ بشكل غريب خلال هذه السنوات الأربع ، تلك النجوم الثابتة .

– نعم ، ولكنك ما زلت مقتنعة بأن فرنسا ستكون دوماً فرنسا ، وروبير دوبروي ، روبير دوبروي . وإلا لاعتقدت نفسك هالكة .

فقلت في مرح :

– قل إذن ، ان موضوعيتك تبدو لي مشكوكاً فيها جداً .

فقال سكرياسين :

– اني مضطر إلى متابعتك على ارضك : فأنت لا تعارضينني إلا بقناعات ذاتية .

وبعثت ابتسامة الحرارة في عينيه المستجوبتين :

– أنت تنظرين إلى الأمور بجدية كبيرة ، أليس كذلك ؟

– هذا يتوقف .

فقال :

– لقد حُذّرت ، لكني أحب النساء الجديات .

– من حذرك ؟

وبحركة مبهمة أشار إلى جميع الناس وإلى أحد : « الناس » .

– ماذا قالوا لك ؟

– انك متحفظة ومتقشفة ، لكني لا أجدك كذلك .

وشددت على شفتي كيلا أطرح سؤالاً آخر. لقد عرفت كيف أحبط ألاعيب فخ المرايا . ولكن النظرات ، من يستطيع ان يقاوم هذه الهاوية المدوخة ؟ انني ارتدي ثياباً سوداء ، واتكلم قليلاً ، ولا أكتب وكل هذا يشكل لي وجهاً والآخرون يرونه : انني لست احداً ، هذا سهل القول ، انني انا . من انا ؟ اين ألتقي بنفسي ؟ لا بد لذلك من ان أكون في الجانب الآخر لجميع الأبواب ، ولكن إذا كنت انا التي تقرع ، فسوف يخرسون . وأحسست فجأة بوجهي يحرقني ، ووددت لو أسلخه . وقال سكرياسين :

– لمَ لا تكتبين ؟

– هناك ما فيه الكفاية من الكتب .

– انه ليس السبب الوحيد » . كان يحدق بي بعينيه الصغيرتين المنقبتين : « الحقيقة انك لا تريدين ان تعرّضي نفسك » .

– أعرّض نفسي لأي شيء ؟

– يبدو عليك انك واثقة جداً من نفسك ، ولكنك في الحقيقة خجولة للغاية. انت من اولئك الناس الذين يضعون كبرياءهم في ما لا يفعلونه .

فقاطعته :

– لا تحاول ان تحلل لي نفسيتي ، فأنا اعرفها جيداً : انني طبيبة نفسية .

– اعرف . » وابتسم لي : « ألا نستطيع ان نتناول طعام العشاء معاً ذات مساء ؟ ان المرء يشعر بضياع عظيم في باريس هذه الشديدة السواد ، ولا يعود يعرف انساناً » .

وفكرت فجأة : « هوذا رجل ، لي ساقان بالنسبة له » . وأخرجت دفتري الصغير . لم يكن عندي أي سبب للرفض . وقلت :

– لنتعش معاً . هل تريد في ٣ كانون الثاني ؟

– اتفقنا . في الساعة الثامنة ، في بار ريتز . أهذا مناسب ؟

ـ مناسب .

كنت أشعر بانزعاج . اواه ! لم أكن أبالي بما يعتقده عني بعـد كل شيء . فعندما أتبين في صميم وعي غريب صورتي الخاصة ، أشعر دومـاً برعب للحظة ، لكنها لا تدوم ، وأتخطاها . ولكن ما كان يربكني ، هو ان أرى روبير مـن خلال عينين ليستا عيني . هل هو في مأزق حقاً ؟ كان قد أمسك بول من خصرها وأخذ يديرها وبيده الأخرى كان يرسم لا أدري اي شيء في الهواء . لعله كان يشرح لها مضي الزمن ، وعلى كل حال كانت تضحك ، ويضحك ، ولم يكن يبدو عليه انه في خطر. لو كان في خطر ، نعرف ذلك: انه لا يخطىء غالباً ولا يكذب على نفسه ابداً . وذهبت لأختبىء في فرجة إحدى النوافذ ، وراء ستارة حمراء . لقد قال سكرياسين الكثير من الحماقت ، لكنه طرح بعض الأسئلة التي لم أستطع الخلاص منها بسهولة . طوال هذه الأسابيع ، كنت أهرب من الأسئلة . لقد انتظرنا كثيراً هذه اللحظة : التحرير ، النصر ، وكنت أريد ان استفيد منها . وسيكون ابداً أمامي وقت غداً لأفكر باليوم التالي . حسناً ! ها انا أفكر فيه وأتساءل عما يفكر به روبير . لم تكن شكوكه لتعبر عن نفسها ابداً بالجمود ، بل بفرط النشاط : تُرى ، ألا تخفي تلك المحادثات ، وتلك الرسائـل ، وتلك الاتصالات الهاتفية، ومشاريع العمل الليلي تلك، قلقاً ما ؟ انه لا يخفي علي شيئاً، ولكن يحدث له أحياناً ان يحتفظ لنفسه مؤقتاً ببعض الهموم. وفكرت في تأنيب ضمير : « على كل ، لقد قال لبول في هذه الليلة ايضاً : اننا في مفترق الطرق » . كان يقول ذلك غالباً ، وإنما عن جبن كنت أتحاشى ان أعطي هذه الكلمات وزنها الحقيقي : « مفترق الطرق » . إذن فالعالم ، في نظر روبير ، في خطر . والعالم ، بالنسبة لي ، هو : انـه في خطر ! عندما كنا نعود وأذرعنا متشابكة على طـول الأرصفة عبر الظلمات المألوفة ، كان صوته السريع لا يكفي لإعـادة الطمأنينة إلي . لقد رأى كثيراً وكان مرحاً جداً ، وعندما ظل محبوساً طوال أيام وليال كان أقلّ خروج يصبح ملحمة. ولقد أخذتْ هذه الليلة في فمه كثيراً من الرونق إلى حد خيل إلي معه انه قد اجتازها مغلق العينين . لقد كانت له عيون حول

رأسه كله ، واثنا عشر زوجاً من الآذان ، كنت اصغي اليه ولكن خلسة واتابع التساؤل . تلك المذكرات التي كتبها بحماسة طوال الحرب ، لم ينهها ، لماذا ؟ هل هذا عرَض ؟ ولأي شيء ؟

كان روبير يقول :

– يا لبول التعيسة ! انها كارثة بالنسبة لامرأة ان تكون محبوبة من قبل أديب . لقد صدقت كل ما كان بيرون يرويه عنها .

وحاولت ان أركز اهتمامي على بول ، وقلت :

– أخشى ان يكون التحرير قد لعب برأسها . في العام الماضي كانت قد كفّت عن التوهم . وها هي الآن تعود إلى لعب دور العاشقة المجنونة . لكنها تلعب بمفردها .

فقال روبير :

– كانت تريد بإصرار ان تجعلني أقول ان الزمن غير موجود .

وأضاف : « أفضل ما في حياتها هو وراءها . والآن وقد انتهت الحرب، فهي تأمل ان تجد الماضي ثانية » .

فسألت :

– لقد أملنا جميعاً ، أليس كذلك ؟

وخيّل إلي ان صوتي كان ضاحكاً لكن روبير شد على ذراعي :

– ما الذي لا يسير ؟

– فقلت بلهجة طنيقة :

– لا شيء ، كل شيء يسير على ما يرام .

فقال روبير :

– هيا ! هيا ! انني أعرف ما يعني ان تأخذي صوت سيدة دنيوية . انني واثق ان الأشياء تدور بثقل الآن في هذا الرأس . كم كأساً تناولت من البانش ؟

– يقيناً أقل منك . ثم ان البانش لا دخل له .

فقال روبير بلهجة منتصرة :

– آه ! انت تعرفين ! هناك شيء ما والبانش لا دخل له فيه : ماذا إذن ؟

فقلت ضاحكة :

– انه سكرياسين . لقد شرح لي ان المثقفين الفرنسيين مقضي عليهم .

– انه يود ذلك جداً !

– اعرف . ولكنه أخافني على كل حال .

– فتاة كبيرة في مثل سنك تترك نفسها تتأثر بأول نبي قادم ! انني أحب سكرياسين جداً ، فهو يضطرب ، ويهذي ، ويثور ، والعين تتحرك حوله. ولكن يجب ألا يؤخذ على مأخذ الجد .

– انه يقول ان السياسة ستأكلكم ، وانكم لن تكتبوا بعد الآن !

فقال روبير في مرح :

– وصدقته ؟

فقلت :

– ولكن من الصحيح ايضاً انك لا تنهي مذكراتك .

وتردد روبير لحظة ، وقال :

– انها حالة خاصة .

– لماذا إذن ؟

– انني أعطي كثيراً من الأسلحة ضدي في هذه المذكرات !

فقلت في حدة :

– إنما لهذا يساوي الكتاب ما يساويه . انسان يجرؤ على كشف نفسه : هذا نادر جداً ! وعندما يجرؤ نهائياً ، يربح اللعبة .

فقال روبير :

– نعم، بعد ان يموت» . وهز كتفيه: « ها انا قد دخلت في الحياة السياسية، وعندي مجموعة من الأعداء : أتدركين فرصتهم عندما ستظهر هذه المذكرات؟ » .

فقلت :

– ان أعداءك سيجدون دوماً أسلحة ضدك ، هذه الأسلحة أو غيرها .

فقال روبير :

– تصوري هذه المذكرات في يد لافوري ، أو لاشوم ، أو الصغير لامبير . أو في يد صحفي .

لقد وجد روبير ثانية وهو يكتب هذا الكتاب، مقطوعاً عن كل حياة سياسية، عن كل مستقبل ، عن كل جمهور ، جاهلاً حتى ما إذا كان سينشر الوحدةَ الغفل للمبتدىء الذي يجازف بنفسه دون نقاط ارتكاز ، دون حواجز ، في المغامرة . وهو برأيي لم يكتب ابداً أفضل منه . وقلت في نفاد صبر :

– إذن عندما يمارس الانسان السياسة ، ألا يعود يحق له ان يكتب كتباً صادقة ؟

فقال روبير :

– بلى . ولكن ليس كتباً فاضحة . وانت تعرفين جيداً ان هناك ألف شيء اليوم لا يستطيع الانسان ان يتحدث عنها دون فضيحة » . وابتسم : « في الحقيقة ، ان كل ما هو فردي يؤدي إلى الفضيحة » .

وسرنا بضع خطوات في صمت : « لقد أمضيتَ ثلاث سنوأت في كتابة هذه الذكريات ، ألا تبالي بإلقائها في أعماق درجي ؟ » .

– انني لم أعد أفكر فيها . انني أفكر بكتاب آخر .

– ماذا إذن ؟

– سأحدثك عنه خلال بضعة ايام .

وتفرست في وجه روبير في شك: « وهل تعتقد انك ستجد الوقت لكتابته؟ ».

– بالتأكيد .

– اواه ! هذا لا يبدو لي أكيداً جداً : ليس عندك دقيقة لك .

– في السياسة ، البداية هي الصعبة : ثم يتراكم الوقت .

وبدا لي صوته مفرط الصدق . وألحت : « وإذا لم يتراكم ؟ هل ستتخلى عن حركتك أم ستكف عن الكتابة ؟ » .

فقال روبير مبتسماً :

– تعرفين ، لن تكون هناك مأساة إذا توقفت قليلاً . كم سودت من ورق في حياتك !

وانقبض قلبي : « كنت تقول قبل ايام ان عملك امامك ...

– ما زلت أعتقد ذلك . لكنه يستطيع أن ينتظر .

فسألت :

– ان ينتظر : شهراً ؟ سنة ؟ عشر سنين ؟

فقال روبير بصوت مصالح :

– اسمعي ، كتاب أكثر أو أقل على الأرض ، فهذا ليس مهماً للغاية . والموقف مثير للحماسة . ادركي ذلك : انها المرة الأولى التي يمسك فيها اليسار بمصيره بين يديه ، انها المرة الأولى التي نستطيع ان نحول فيها تجمعاً مستقلاً عن الشيوعيين دون ان نغامر بخدمة اليمين : لن نترك هذه الفرصة تفلت ! لقد انتظرتها طوال حياتي .

فقلت :

– انا اجد كتبك مهمة جداً . ان ما تحمله للناس ، شيء فريد من نوعه . في حين ان العمل السياسي ، لست انت الوحيد الذي يستطيع ان يتولاه .

فقال روبير في مرح :

– انني الوحيد الذي يستطيع ان يؤديه حسب فكرتي . عليك ان تفهميني : لجان الطوارىء ، والمقاومة ، كانت مفيدة جداً . ولكنها تظل سلبية . واليوم ، البناء هو الهدف : وهذا مهم بطريقة أخرى .

– انني أفهم كل الفهم . ولكن عملك يهمني ايضاً اكثر .

فقال روبير :

– لقد آمنا دائماً بأننا لا نكتب للكتابة . في بعض الأحيان ، تكون أشكال العمل الأخرى مستعجلة أكثر .

فقلت :

– ليس بالنسبة لك . انت قبل كل شيء كاتب .

فقال روبير مؤنباً :

ـ تعلمين جيداً أن لا . ان ما يهمني قبل كل شيء هو الثورة .

فقلت :

ـ نعم . ولكن أفضل طريقة تملكها لخدمة الثورة هي ان تكتب كتبك .

فهز روبير رأسه : ـ هذا يتعلق بالظروف . اننا في لحظة حرجة : يجب أولاً ان نربح اللعبة في الميدان السياسي .

فقلت :

ـ وماذا يحدث إذا لم نربحها ؟ انت لا تؤمن حقاً بأننا نغامر بحرب جديدة ؟

فقال روبير :

ـ لا اعتقد ان حرباً جديدة ستنفجر غداً . ولكن ما يجب ان نتحاشاه هو ان يُخلق في العالم وضع حرب : ففي مثل هذه الحالة سنعاود القتال آجلاً أم عاجلاً. يجب ان نتحاشى ايضاً ان يُستغل هذا النصر من قبل الرأسمالية . وهز كتفيه : « هناك كمية من الأشياء يجب منعها ، قبل التلهي بكتابة كتب قد لا يقرأهـــا انسان ابدا » .

ووقفت مصدومة وسط الطريق الصاعد : « ماذا ؟ أتعتقد أنت ايضاً ان الناس لن يبالوا بعد الآن بالأدب ! » .

فقال روبير :

ـ أعتقد أن ستكون لديهم قضايا أخرى كثيرة يصرفون نحوها انتباههم !

كان صوته عن حق مفرط الصدق . فقلت في سخط : « لا يبدو ان هـــذا يثيرك ولكن سيكون كئيباً إلى حد فظيـع عالم بدون أدب ولا فن » .

فقال روبير :

ـ على كل حال ، في الساعة الراهنة يوجد ملايين من البشر ، الأدب بالنسبة لهم صفر !

ـ نعم ، لكنك كنت تحسب حسابك بأن هذا سيتبدل .

فقال روبير :

– ما زلت أحسب ذلك ، ماذا تظنين ؟ ولكن بالضبط ، إذا قرر العالم ان يتبدل ، فسنجتاز دون شك مرحلة لن يكون فيها مجال للأدب .

ودخلنا إلى المكتب ، وجلست على ذراع المقعد الجلدي . نعم ، لقد شربت من البانش أكثر من اللازم ، فقد كانت الجدران تدور حوالي . ونظرت إلى الطاولة التي كان روبير يكتب عليها ليل نهار منذ عشرين سنة . لقد بلغ الآن الستين ، وإذا دامت هذه المرحلة طويلاً ، فهو مهدد بألا يرى نهايتها ابداً : هذا لا يمكن ان يكون بالنسبة له سواء إلى هذا الحد .

– حسناً ، انت تعتقد ان عملك ما يزال امامك . كنت تقول منذ خمس دقائق انك ستبدأ بكتاب جديد : هذا يفترض ان هناك أناساً سيقرأونك ...

فقال روبير :

– اواه ! هذا هو الأكثر احتمالاً . ولكن أخيراً هناك مجال ايضاً للنظر في الفرض الثاني . » وجلس على المقعد ، قربي ، وأضاف في مرح : « انه ليس رهيباً إلى الحد الذي تقولين ، ان الأدب مصنوع للبشر ، لا البشر للأدب » .

فقلت :

– بالنسبة لك ، سيكون هذا محزناً جداً . فأنت إذا انقطعت عن الكتابة ، لن تعود سعيداً مطلقاً .

فقال روبير :

– لست أدري . » وابتسم : « ليس عندي خيال » .

كلا ، بل عنده . واني لأذكر كم كان قلقاً مساء اليوم الذي قال لي فيه : « عملي لا يزال امامي ! » . وهو يتمسك بأن يكون لهذا العمل وزنه ، بأن يبقى . ومهما احتج ، فهو قبل كل شيء كاتب . لعله في البداية لم يكن يفكر إلا بخدمة الثورة ، والأدب لم يكن إلا وسيلة . لكنه اصبح غاية ، وهو يحبه لذاته ، وكتبه كلها تثبت ذلك . وعلى الأخص تلك المذكرات التي لا يريد ان ينشرها : لقد كتبها للذة الكتابة . كلا ، الحقيقة انه يمل من الكلام عن نفسه ، ولم يكن هذا النفور بطابع حسن . وقلت :

– اما أنا ، فعندي خيال .

كانت الجدران تدور ، لكني كنت أشعر بنفسي يقظة جداً ، أكثر بكثير مما أكون يقظة قبل الافطار . عندما أكون صائمة أشعر في نفسي بقدرة كبيرة على الدفاع ، وأتدبر أمري حتى لا أعرف ما أعرفه . وعلى حين غرة كنت أرى بوضوح . كانت الحرب تنتهي : ثمة تاريخ جديد يبدأ ليس فيه شيء مضمون . لم يكن مستقبل روبير مضموناً : فمن الممكن ان يكف عن الكتابة ، بل من الممكن ان يبلع الفراغ عمله الماضي كله . وسألت :

– ماذا تعتقد حقاً ؟ هل ستسير الأمور على ما يرام أم لا ؟

وأخذ روبير يضحك : « آه ! لست نبياً ! » وأضاف : « على كل ، بين أيدينا كثير من الأوراق الرابحة » .

– ولكن كم من فرص في الربح ؟

– أتريدين ان ألعب لك اللعبة الكبرى ؟ أم تفضلين طحل القهوة ؟

فقلت :

– لا داعي لتحمل مشقة السخرية بي . يحق لي ان أطرح على نفسي الأسئلة ، بين الحين والحين .

فقال روبير :

– وأنا أطرحها على نفسي ، انت تعرفين .

كان يطرحها على نفسه ، وبأكثر جدية مني . فأنا لم أكن أؤثر عملياً ، ولهذا أصبح بسهولة حزينة . وكنت أتبين اني اخطأت ، ولكن مع روبير لم يكن يكلفني كثيراً ان أخطىء ! وقلت :

– أنت لا تطرح الأسئلة التي يمكنك ان تجيب عليها .

فضحك من جديد : « بالتفضيل نعم . اما الأسئلة الأخرى فليس وراءها كبير فائدة » .

فقلت :

– ليس هذا سبباً لعدم طرحها » كان صوتي يصبح عدوانياً ، ولكني لم أكن

غاضبة من روبير ، بل من نفسي بالأحرى ، من عماي في هذه الأسابيع الأخيرة. وقلت : « أود على كل حال لو أكوّن فكرة عما يمكن ان يحدث لنا » .

فقال روبير :

ـ ألا تعتقدين ان الوقت قد تأخر كثيراً ، واننا شربنا كثيراً من البانش ، وان أفكارنا ستكون أوضح غداً صباحاً ؟

غداً صباحاً ستكف الجدران عن الاهتزاز ، وستعود قطع الأثاث والتحف إلى سابق نظامها ، النظام نفسه دوماً ، وكذلك أفكاري ، وسأعاود الحياة يوماً بيوم ، دون ان أدير راسي إلى الخلف ، بالنظر امامي من مسافة محترمة ، ولن اهتم لتلك الأصوات الصغيرة التي في قلبي . انني متعبة من هذا النظام الصحي . ونظرت إلى الوسادة التي كان دييغو يجلس عليها أمام المدفأة . كان يقول : « الانتصار النازي لا وجود له في خططي » . ثم قتلوه . فقلت :

ـ ان الأفكار واضحة دوماً ! لقد ربحنا الحرب ، هي ذي فكرة واضحة . حسناً ! لقد وجدت انا انها حفلة غريبة ، هذا المساء ، مع كل اولئك الأموات الذين لم يكونوا هناك !

فقال روبير :

ـ ولكن هناك فرقاً على كل حال بين ان يقول الانسان في نفسه ان موتهم قد أفاد شيئاً ما أو لم يفد .

فقلت :

ـ ان موت دييغو لم يفد شيئاً . وحتى لو أفاد ؟ انني أقول في غضب : « انه يطمئن جيداً الأحياء ، ذلك النظام الذي يتجاوز فيه كل شي آخر . لكن الأموات يظلون أمواتاً . اننا نخونهم : ولا نتجاوزهم .

فقال روبير :

ـ اننا لا نخونهم بالضرورة .

فقلت :

ـ بل نخونهم عندما ننساهم وعندما نستخدمهم ايضاً . ان الأسف ، يجب ان

يكون لاجدياً ، والا ما عاد أسفاً حقيقياً .

فتردد روبير ، وقال وقد بدت عليه الحيرة : « أعتقد انني لست مخلوقاً للأسف . ان الأسئلة التي لا أستطيع الاجابة عليها ، والأحداث التي لا أستطيع ان أبدل فيها شيئاً ، لا أهتم بها كثيراً . وأضاف : « انا لا أقول انني على حق ».

فقلت :

ـ اواه ! وانا لا أقول انك على خطأ. على كل الأحوال، فالأموات اموات، ونحن نعيش : ان التأسفات لن تبدل من الأمر شيئاً .

ووضع روبير يده على يدي : « لا تخترعي لنفسك إذن توبيخ ضمير . سنموت ايضاً كما تعرفين . وهذا يقربنا حقاً منهم » .

وسحبت يدي . كانت كل صداقة ، في تلك اللحظة ، عدوة لي . لم أكن اريد ان أتعزى ، ليس بعد . وقلت :

ـ آه ! صحيح ان بانشك الرديء قد أوقع الاضطراب في قلبي . سأذهب لأنام .

فقال روبير :

ـ اذهبي للنوم . وغداً سنطرح على أنفسنا كل الأسئلة التي تريدين ، حتى تلك التي لا تفيد شيئاً .

ـ وأنت ؟ ألن تذهب للنوم ؟

ـ أعتقد انني سآخذ دوشاً وأشتغل .

وقلت في نفسي وانا أرقد : « من الواضح ان روبير أفضل تسلحاً مني ضد التأسفات . انه يعمل ، ويؤثر ، إذن فالمستقبل موجود بالنسبة له اكثر من الماضي . وهو يكتب : كل ما يقع خارج عمله ، كالشقاء ، والفشل ، والموت ، يوفيه حقه في كتبه ، ويشعر بنفسه قد أدى واجبه . وانا ليس لي اي ملجأ . ان ما أفقده ، لا أسترده في اي مكان وما من شيء يكفر عن خياناتي » . وفجأة أخذت أبكي . وفكرت : « انها عيناي انا اللتان تبكيان . انه يرى كل شيء ، ولكن ليس بعيني » . كنت أبكي ، ولأول مرة منذ عشرين سنة كنت وحيدة:

مع تأنيبات ضميري ، مع خوفي . وغت وحلمت انـــني قد متّ . واستيقظت منتفضة والخوف لم يبارحني . انني أصارعه ، منذ ساعة . انه لا يزال هنا، والموت يتابع تجواله . وأشعلت ، وأطفأت . إذا رأى روبير نوراً من تحت بابي، فسوف يقلق . لا فائدة . انه لا يستطيـع مساعدتي هذه الليلة . عندما اردت ان أحدثه عن نفسه ، تحاشى أسئلتي : هو يعرف انه في خطر . إنما انا خائفة عليه حتى الآن، لقد وثقت دوماً بمصيره . ابداً لن أحاول ان آخذ قياسه ; فقد كان هو قياس كل شيء . لقد عشت معه كما أعيش في داخلي ، دون مسافة . ولكن فجأة ، لم تعد لي ثقة ، بأي شيء . لا بنجم ثابت ، ولا بنصب كيلومتري، فروبير رجل، رجل في الستين معرض للخطأ وقابل للأذى ، رجل لم يعد الماضي يحميه ، والمستقبـــل يهدده . وأسندت ظهري إلى الوسادة ، مفتوحة العينين . يجب ان أتدبر امري لأتراجع إلى الوراء ، لأراه ، وكأنني لم أحبه طوال عشرين عاماً دون ان أتردد ابداً .

هذا صعب . لقد كان هناك زمن كنت أراه فيه عن مسافة ، لكني كنت صغيرة جداً ، وأنظر اليه من بُعد عظيم . لقد دلني عليه بالأصابع بعض الرفاق في السوربون ، وكانوا يتحدثون كثيراً عنه في مزيج من الاعجاب والفضيحة . كانوا يهمسون بأنه يشرب وبأنه يواظب على المواخير . ولقد جذبني هذا بالأحرى اليه . فلم أكن قد شفيت بعد نهائياً من طفولتي التقية . ولقد كانت الخطيئة تُظهر في نظري بطريقة مؤثرة غياب الله ، ولو قيل لي ان دوبروي كان يغتصب الفتيـات الصغيرات لرأيت فيه نوعاً من القديس . ولكن رذائله كانت تظل قاصرة وأمجاده المستقرة اكثر من اللازم كانت تغيظني . وعندما بدأت أتبـع دروسه ، كنت قد عزمت على اعتباره رجلاً عظيماً مزيفاً . من البديهي انه كان مختلفاً عن جميـع الأساتذة الآخرين . كان يأتي في عجلة مذهلة ، لأنه كان متأخراً دوماً اربـع او خمس دقائق . وكان يتحرانا لمدة لحظة بعينيه الضخمتين الخبيثتين ثم يأخـــذ في الكلام ، بلهجة اما ودية للغاية أو عدوانية للغاية . كان ثمة شيء يثير التحدي في وجهه الشرس ، في صوته العنيف ، في قهقهاته التي كانت تبدو لنا مجنونة قليـلاً .

وكان يرتدي قميصاً شديد البياض ، ويداه معتنى بهما للغايـة ، وكان حليق الذقن بشكل متقن تماماً ، إلى حد ان ستراته ، وصداريه ، وجواربه الضخمة ، لم تكن تستطيـع ان تعتذر بالإهمال . كان يفضل الراحة على الاناقة بطلاقة كنت أراهـا مصطنعة . ولقد قرأت رواياته ولم أحبها مطلقاً . كنت انتظر ان تسلمني رسالة مثيرة ، فوجدتها تحدثني عن أناس عاديين ، وعن عواطف سريعة ، وعن مجموعـة من الأشياء لم تكن تبدو لي أساسية . امـا دروسه ، فكانت شيقة بالتأكيد ، ولكنه لم يكن يقول شيئاً عبقرياً . وكان واثقاً جداً بأنه على حق إلى حد ان رغبة لا تقاوم كانت تدفعني إلى معارضة كلامه . اواه ! لقد كنت مقتنعة انا ايضاً بأن الحقيقة في اليـسار . ومنذ حداثتي كنت أجد ان للفكر البورجوازي رائحـة حماقة وكذب ، رائحة كريهة جداً . ثم تعلمت في الانجيل ان البشر جميعـاً متساوون ، جميعاً اخوة ، وهذا لا أزال أؤمن به بقوة شديدة كالحديد . كل ما هنالك ، وبالنسبة لروحي التي حُشيت طويلاً بالمطلق ، كان فراغ السماء يفقد كل اخلاق معناها ، وكان دوبروي يتصور انه يمكن ان يوجد سلام على الأرض. وقد شرحت هذا في انشائي الفلسفي الأول . وقلت : « الثورة ، حسناً ، ثم ماذا ؟ » وعندما أعاد لي ورقتي بعد ثمانية ايام عند الخروج من الدرس ، ضحك بجدة مني : كان مطلقي ، برأيه ، حلماً مجرداً لبورجوازية صغيرة عاجزة عن مواجهة الواقع . لم أكن أملك الوسائل اللازمة للرد عليه ، كان يربح كل الضربات ، بالإكراه ، ولكن لم يكن هذا يثبت شيئاً وقلت ذلك له . وعدنا إلى المناقشة في الأسبـوع التالي ، وفي تلك المرة حاول ان يقنعني بـدل ان يرهقني . وقد اضطررت إلى الاعتراف بأنه لم يبد عليه اثناء خلوتي معه انه يعتبر نفسه رجلاً عظيماً . وأخـذ يكلمني غالباً بعد الدروس ، وأحيـاناً كان يرافقني حتى بابي ، مطيلاً الطريق ، ثم خرجنا معاً بعد الظهر ، وعند المساء : لم نعد نتحدث لا عن الاخلاق ، ولا عـن السياسة ، ولا عن أي موضوع رفيـع : كان يروي لي قصصاً ، وعلى الاخص كان يأخذني للنزهـة . كان يريني حارات ، وشوارع ، وأرصفة ، وقنوات ، ومقابر ، ومناطق ، ومخازن ، وأراضي بوراً ، وحانات ، ومجموعة من زوايا باريس لم اكن

أعرفها. وكان كل شيء يأخذ الف معنى معه: الوجوه، والاصوات، وملابس الناس، وشجرة، وإعلان، ولافتة نيون، أي شيء. وعلى اثر ذلك، اعدت قراءة رواياته. وفهمت انني لم افهم منها شيئاً: كان دويروي يوحي بأنه يكتب للنزوة، للذته الخاصة، اشياء مجانيــة تماماً. ومع ذلك، عندما اغلقت الكتاب، وجدت نفسي يهصرني الغضب، والاشمئزاز، والتمرد، وأريد للأشياء ان تتغير. عنـــد قراءة بعض المقاطع من عمله، يخيل للمرء انه اسلوبي محض: فهو يتذوق الكلمات. ويهتم دون فكرة سابقـة بالمطر والطقس الجميل، وبألعاب الحب والصدفة، بكل شيء. ولكنه لا يتوقف هنـا: ففجأة تجد نفسك ملقىً في جمهرة البشر وتمسك بهم كلهم كلها. لهذا أصرّ كثيراً على ان يتابع الكتابة. انني اعلم من نفسي ما يحمله لقرائه. فبين فكره السياسي وانفعالاته الشعرية، لا توجد مسافة. وانما لأنه يحب الحياة كثيراً يريد ان يكون لجميع البشر حصتهم الوفيرة منها. وانما لأنه يحب البشر، فإن كل ما يخص حياتهم يستهويه.

كنت أعيد قراءة كتبه، وأستمع اليه، واسأله، وكنت مشغولة جداً الى حد لم أكن افكر معه بالتساؤل لمَ بالضبط يجد السرور معي: بل لقـد كان الوقت ينقصني لحل ألغاز ما كان يجري في قلبي. وعندما اخذني بين ذراعيه، ذات ليلة، وسط حدائق كاراوسيل، قلت في استنكار: « لن أقبل إلا رجلاً احبه ». فأجابني بهدوء: « لكنك تحبينني! » وسرعان ما عرفت ان هـذا صحيح. واذا كنت لم اتبين ذلك فلأنه حدث بسرعة كبيرة: كان كل شيء معه يسير بسرعة كبيرة! بل هـذا بالضبط ما دوخني في البداية. فالناس الآخرون كانوا بطيئين للغاية، والحياة بطيئة للغاية. اما هو فكان يحرق الوقت ويقلب كل شيء. ومن اللحظة التي عرفت فيها انني احبه، تبعته بحماسة من مفاجأة الى مفاجأة. واخذت اتعلم ان الانسان يستطيع ان يعيش بلا اثاث وبلا مواعيد، وان يستغني عن الغذاء، وألا ينام في الليـل، وان يرقد بعد الظهر، وان يفعل الحب في غابة كما يفعله في سرير. ولقد بدا لي بسيطاً وفرحاً ان اصبح امرأة بين ذراعيه. وعندما كانت اللذة تخيفني، كانت ابتسامته تعيـــد اليّ الاطمئنان ولم يكن يثقل على

قلبي إلا ظل واحـــد : كانت العطلة تقترب وكانت فكرة الفراق ترهبني . ومن البديهي ان روبير ادرك ذلك : ترى ألهـذا عرض عليّ الزواج ؟ في حين ان تلك الفكرة لم تكن قد خطرت لي مطلقاً: ففي التاسعة عشرة ، يبدو من الطبيعي ان تكون الفتـــاة محبوبة من الرجل الذي تحبه او من الوالدين المحترمين او من الله الفائق القوة .

« لكني كنت احبك ! » ، اجابني روبير ، بعد فترة طويلة . ماذا تعني ، في فمه ، هذه الكلمات تماماً ؟ هـل كان سيحبني قبل سنة ، عندما كان غارقاً جسداً وروحاً في النزاع السياسي ؟ وفي تلك السنة ، ألم يكن يستطيـع ، كي يتعزى عن عدم عمله ، ان يختار امرأة اخرى؟ هوذا نوع من الاسئلة لا يفيد شيئاً ، فلنمض. إن ما هو مؤكد هو انه اراد سعادتي بحماسة ولم يخطىء ضربته . حتى ذلك الحين لم اكن تعيسة ، كلا ، ولكني لم اكن سعيدة ايضاً . كانت صحتي جيـــدة ، وكنت أشعر بلحظـــات فرح : ولكني كنت امضي اصفى وقتي في الكتابة . الحماقـة ، والكذب ، والظلم ، والالم : كانت حولي سديماً شديد السواد . وأي عبث كانت تلك الايام التي تتكرر من اسبوع الى اسبوع ، ومن قرن الى قرن ، دون الذهاب الى أي مكان ! الحياة ، كانت ان انتظر الموت خلال اربعين او ستين سنة وانا ادوس في العدم . وهـــذا ما كان يجعلني ادوس باخلاص كبير : لم تكن هناك إلا الكتب والافكار يمكنها ان تقاوم ، وكانت وحدها التي تبدو لي حقيقية.

بفضل روبير، نزلت الافكارالى الارضواصبحت الارض منسجمة ككتاب، كتاب يبدأ سيئاً لكنه ينتهي حسناً . فقـــد كانت الانسانية تسير الى جهة ما ، وكان للتاريخ معنى ، وكذلك وجودي الخاص . وكان الاضطهاد والبؤس يحتويان على وعد زوالها . وكان الشر قـد قهر ، والفضيحة قد كنست . وانطبقت السماء ثانية علىرأسي وغادرتنيالمخاوف القديمة. ولم يخلصني روبير من هذا كله بالنظريات، بل لقد اظهر لي ان الحياة تكفي ذاتها بمجرد العيش . اما الموت ، فكان لا يبـالي به مطلقاً ، ولم يكن نشاطه تسليـــة : كان يحب ما يحب ، ويريد ما يريد ، ولم

يكن يهرب من شيء . وبجمل القول ، لم اكن اطلب إلا ان أشبهه . واذا كنت قد وضعت الحياة موضع اتهام ، فلأنني على الاخص كنت أملّ في البيت : والآن لم اعد امل ابداً . لقد استخلص روبير من السديم عالماً مليئاً ، منظماً ، مطهراً بذلك المستقبل الذي يحدثه : كان هذا العالم عالمي . وكانت المسألة الوحيدة ان اصنع مكاني الخاص بي . لم يكن يكفيني ان اصبح امرأة روبير . فأنا قبل ان اتزوجه لم افكر ابداً باختيار مهنة الزوجة . ومن جهة اخرى ، لم اكن افكر ولا دقيقةبالاهتمام فعلياً بالسياسة. ففي هذا الميدان، يمكن للنظريات ان تستهويني، وعندي بعض عواطف قوية ، لكن الممارسة تنفرني . يجب ان اعترف بأنني افتقر الى الصبر : ان الثورة تسير ، لكنها تسير ببطء شديد ، بخطا صغيرة مترددة جداً ! اما بالنسبة لروبير فهو يعتبر ان حلاً ما صالح اذا كان افضل من غيره ، كما يعتبر ان الاقل شراً خير . انه على حق ، بالتأكيد ، ولكني بلا شك لما صفّ تماماً احلامي القديمة من المطلق : اذ لم يكن هذا يرضيني . ثم ان المستقبل يبدو لي بعيداً جداً ، واني لأرغب بالاحرى في مساعدة من يعيشون في هذه اللحظة بالضبط . لهذا السبب كانت هذه المهنة تغريني . اواه ! انني لم اؤمن ابداً بأنه يمكن ان يؤتى لانسان ما من الخارج بسلام مصنوع مسبقاً ، ولكنها غالباً سخافات تلك التي تفصل الناس عن سعادتهم ، وكنت أريد ان اخلصهم منها . وشجعني روبير ، فهو من هذه النقطة يفترق عن الشيوعيين المتمسكين بعقيدتهم الاصلية : انه يؤمن بأنه يمكن ان يوجد علاج ناجع من التحليل النفسي في المجتمع البورجوازي وانه يمكن ايضاً ان يلعب دوراً في مجتمع بلا طبقات . بل لقد كان يبدو له عملاً مثيراً للحماسة ان يعاد التفكير في التحليل النفسي الكلاسيكي على ضوء الماركسية . والحقيقة ان هذا استهواني . وكانت ايامي مليئة كالارض التي حولي . في كل صباح كان يستيقظ فرح الصباح السابق وفي المساء اجد نفسي قد اغتنيت بألف شيء جديد . انه لحظ كبير في العشرين ان يتلقى الانسان العالم من يد الذي يحبه ! وانه لحظ كبير ان يشغل فيه مكانه بالضبط ! ولقد نجح روبير ايضاً في هذا العمل البطولي : فقد حماني من الانعزال دون ان يحرمني من العزلة . كان

كل شيء بيننا مشتركاً : ومع ذلك فقد كانت لي صداقاتي ، ومسراتي ، وعملي ، وهمومي الخاصة بي . كنت استطيع حسب رغبتي ان امضي الليل في حنان كتف ، او كاليوم وحيدة في الغرفة ، كفتاة . انني انظر الى هذه الجدران ، الى اشعة النور تحت البـاب : كم مرة عرفت هذه العذوبة : ان انام ، بينما هو يشتغل على بعد ، يستطيع صوتي ان يصل اليه ؟ لقد مضت سنوات منذ ان خمدت اللذة بيننا، لكننا كنا متحدين بقوة شديدة حتى ليكون لاتحاد جسدينا اهمية كبيرة. وهكذا استطيع ان اقول اننا لم نفقد شيئاً، بتخلينا عن هذا الاتحاد. انني استطيع ان اؤمن بأنها ليلة من ليالي ما قبـل الحرب . وهذا القلق بالذات ، الذي يبقيني مستيقظة ليس بالجديد . في اغلب الاحيان كان مستقبل العالم اسود جداً . فماالذي تبدل اذن ؟ لماذا عاد الموت يتجول ؟ انه يتابع تجواله : لماذا ؟

يا للعناد المجنون ! انني اشعر بالخجل . خلال هذه السنوات الاربع ، على الرغم من كل شيء ، اقنعت نفسي بأننا بعد الحرب سنجد ثانية ما قبل الحرب . منـذ لحظات ايضاً كنت اقول لبول : « الآن » هو من جديـــد كالماضي » . وها انا احاول ان اقول في نفسي : « المـــاضي » كان بالضبط كالآن . ولكن لا ، انني اكذب : إنه ليس ولن يكون ابداً كالماضي . في الماضي ، كنت واثقة ان اكثر الازمات قلقاً ، سنستطيع الخروج منها . فقـــد كان على روبير ان يخرج منها غصباً ، وكان مصيره يضمن لي مصير العالم ، وبالعكس . ولكن ما هـذا الماضي الذي وراءنا ، كيف نثق ايضا بالمستقبل ؟ لقد مات ديغو ، ومات كثيرون ، وعادت الفضيحة الى الارض ، ولم يعد لكلمة السعادة معنى : انه السديم حولي من جديد . لعل العالم سيخرج منه . لكن متى ؟ انه لزمن طويل ، قرنان او ثلاثة ، وأيامنا نحن معدودة : اذا ما انتهت حياة روبير في الفشل ، في الشك او اليأس ، فلا شيء سيعوض عن هذا ابداً .

ثمة حركة هادئة في مكتبه. انه يقرأ ، ويفكر ، ويضع خططاً . هل سينجح؟ ام ماذا ؟ لا حاجة الى التفكير بأسوأ الاحتمالات ، فما من احد قد افترسنا . كل ما هنالك اننا نعيش احداث تاريخ لم يعد تاريخنا ، ولم يعد لروبير من دور إلا دور

شاهد سلبي : ماذا سيفعل بجلده ؟ انني اعرف الى أي حد يتمسك بالثورة : انها مطلقه الخاص به . ولقد دمغه شبابه الى الابد . وطوال تلك السنوات التي ترعرع فيها بين منازل وحيوات بلون سواد الدخان ، كانت الاشتراكية أمله الوحيد . انه لم يؤمن بها عن كرم ، او منطق ، بل عن حاجة : ان يصبح رجلاً ، كان هذا يعني بالنسبة له كوالده مناضلاً . وقد اقتضاه ابعاده عن السياسة مشقة كبيرة : فشل ١٩١٤ الخانق ، وقطيعته مع « كاشان » بعد سنتين من « تور » ، وعجزه عن بعث الشعلة الثورية القديمة في الحزب الاشتراكي . وعند السانحة الاولى ألقى بنفسه من جديد في العمل . وهو الآن متحمس اكثر من أي وقت مضى . انني اقول في داخلي لأطمئن نفسي ان لديه طاقات كثيرة . لقد كتب كثيراً بعد زواجنا ، طوال تلك السنوات التي لم يناضل فيها ، ولقد كان سعيداً . ولكن في البداية ، هل كان كذلك ؟ ان الايمان بذلك يرتب اموري . وحتى هذه الليلة لم اجرؤ ابداً على مراقبة ما يقول لنفسه عندما يكون بمفرده : انني لم اعد واثقة جداً بماضينا . اذا كان قد اراد بسرعة كبيرة طفلاً ، فهذا بلا شك لأنني لم اكن أكفي لتبرير وجوده . ولعله كان ايضاً يبحث عن ثأر ضد هذا المستقبل الذي لم تعد له عليه سيطرة . نعم ، ان هذه الرغبة في الأبوة تبدو لي كبيرة الدلالة . وذات دلالة ايضاً كانت كآبة حجنا الى « بروي » . كنا نتنزه في شوارع طفولته ، وكان يريني المدرسة التي كان ابوه يعلم فيها ، والبناء القاتم الذي سمع فيه جوريس وهو في التاسعة . وكان يروي لي لقاءاته الاولى مع الشقاء اليومي ، مع العمل بدون امل . وكان يتكلم بسرعة ، بلهجة طليقة جداً . وفجأة قال بصوت مضطرب : « لا شيء تبدل . ولكني انا اكتب روايات » . واردت ان اعتقد بانفعال هروبي ، فقد كان روبير امرح من ان افترض له تأسفات جدية . ولكن ، بعد مؤتمر أمستردام ، طوال الوقت الذي نظم فيه لجان الطوارىء ، رأيت ان بامكانه ان يكون امرح بكثير واضطررت الى الاعتراف في نفسي بالحقيقة : في الماضي كان يكظم غيظه . واذا ما وجد نفسه محكوماً عليه ثانية بالعجز ، وبالعزلة ، فكل شيء سيبدو له باطلاً ، حتى الكتابة . بين ١٩٢٥ و ١٩٣٢ ، كان يكتب ،

نعم وهو يكظم غيظــه . ولكن الامر كان مختلفاً جداً . فقد ظل مرتبطاً مع الشيوعيين وبعض الاشتراكيين . وكان يحتفظ بأمل الوحدة العمالية وبنصر نهائي. انني اعرف عن ظهر قلب كلمة جوريس تلك التي كان يرددها في كل مناسبـة : « انسان الغد سيكون اعقد وأغنى حياة مما عرفه التاريخ اطلاقاً » . لقد كان مقتنعاً بأن كتبه تساعد على بناء المستقبل وان انسان الغد سيقرأها : لذلك كان من البديهي ان يكتب . اما امام مستقبل مسدود ، فهذا لن يبقى له أي معنى . اذا كان معاصروه لم يعودوا يصغون اليه ، واذا كانت الاجيال القادمة لن تفهمه ، فليس عليه إلا ان يصمت .

وعندئذ ؟ ماذا سيصبح ؟ مخلوق حي يتحول الى زبد ، هذا فظيع ، ولكن هناك مصيراً أسوأ : مصير مشلول معقود اللسان . ان الموت افضل . هل سيصل بي الامر الى حد تمني موت روبير ذات يوم ؟ كلا . هذا لا يمكن تصوره . لقد سبق واصابته ضربات قاسية ، لكنه خرج منها دوماً ، وسوف يخرج منها ايضاً . لست ادري كيف ، لكنه سيخترع شيئاً ما . فليس من المستحيل ، مثلاً ، ان ينضم ذات يوم الى الحزب الشيوعي . يقيناً له انه في هذه اللحظة لا يفكر بذلك ، فهو ينتقد بعنف شديد سياستهم : لكن لنفرض ان خططهم تغير . لنفرض انـه لا يوجد خارج الشيوعيين أي يسار منظم : انني لأتساءل ما اذا كان روبير سينضم اليهم بدل ان يظل بلا عمل : انني لا احب هذه الفكرة . سيكون من الصعب عليه جداً اكثر من أي شخص آخر ان يخضع لشعارات لا ينسجم معها . ولقد كانت له دوماً ، بخصوص التكتيك الواجب اتباعه ، افكار خاصة به . ثم انـه مهما حاول ان يجرب المجون ، فأنا اعرف جيداً انه سيظل مخلصاً لأخلاقه القديمة . ان مثالية الآخرين تجعله يبتسم : وهو ايضاً له مثاليته. وثمة طرق شيوعية لا يمكنه مطلقاً ان يرضى عنها. كلا ان هذا الحل ليس حلاً. كثير من الأشياء تفصله عنهم. وانسانيته ليست انسانيتهم نفسها . وليست المشكلة انه لن يستطيع ان يكتب بعد ذلك أشياء صادقة فحسب ، بل سيضطر أيضاً إلى إنكار ماضيه كله .

سيقول لي : « ليكن ! » . ومنذ لحظات كان يقول لي : « كتاب أكثر أو

أقل ، هذا ليس كبير الأهمية » . ولكن هل يعتقد ذلك حقاً ؟ انني أعلق قيمة كبيرة على الكتب ، ولعلي أعلق عليها أهمية أكبر من اللازم . في أيام ما قبل تاريخي ، كنت أفضلها على العالم الحقيقي : ولقد بقي في شيء من هذا . فقد احتفظت بالنسبة لي بطعم صغير من الأبدية . نعم ، انه أحد الأسباب التي تجعلني أتعلق كثيراً بعمل روبير : إذا ما فني ، فسنصبح كلانا فانيين . ولن يعود المستقبل إلا قبراً . ان روبير لا يرى الأشياء على هذا النحو . ولكنه لم يعد أيضاً مناضلاً مثالياً لكي يقر النسيان لنفسه . فهو يأمل كثيراً ان يترك وراءه اسماً ، اسماً يعني كثيراً ، لكثيرين من الناس . ثم الكتابة هي أكثر ما يحبه في العالم ، انها فرحه ، انها حاجته ، انها ذاته . وتخليه عنها سيكون انتحاراً .

حسناً ! ليس عليه إلا ان يستسلم للكتابة حسب الطلب ، فغيره يفعل ذلك : غيره ، ولكن ليس روبير . وعند اللزوم ، سأتخيله مناضلاً بالرغم منه : لكن الكتابة شيء آخر . إذا لم يعد يستطيع ان يعبر عن نفسه كما يشاء ، فسوف تسقط الريشة من يديه .

آه ! انني أراه ، المأزق . ان روبير متمسك تمسكاً شديداً ببعض الأفكار ، ولقد كنا واثقين قبل الحرب انها ستتجسد ذات يوم في الواقع . لقد جند نفسه طوال حياته لإغنائها ولتهيئة تجسدها في آن واحد : ولكن لنفرض ان هذا التجسد لن يحدث أبداً ؟ لنفرض ان الثورة ستتم ضد المذهب الانساني الذي دافع عنه روبير دوماً ؟ ما الذي يستطيع روبير فعله ؟ إذا ساعد على بناء مستقبل معادٍ لكل القيم التي يؤمن بها ، فان عمله عبث . ولكنه إذا أصر على التمسك بقيم لن تهبط أبداً إلى الأرض ، فسيصبح واحداً من أولئك الحالمين الشيوخ الذين يحرص على ألا يشبههم . كلا ، ما من اختيار ممكن في هذا الخيار ذي الحدين : انه على كل حال الفشل ، والعجز : وبالنسبة لروبير ، الموت حياً . هذا هو السبب الذي يدفعه إلى القاء نفسه بهذه الحماسة كلها في المعركة : انه يقول لي ان الموقف يقدم له فرصة انتظرها طوال حياته ، ليكن . لكنها تشتمل أيضاً على خطر أخطر من كل المخاطر التي عرفها ، وهو يعرف ذلك . نعم ، انني متأكدة ان كل ما قلته ، يقوله

في نفسه أيضاً . هو يقول في نفسه ان المستقبل قد يكون بالنسبة له قبراً ، وانه سيدفن فيه ، دون ان يترك أي أثر شأن روزا وديغو . بل ان هذا أسوأ . لعل بشر الغد سينظرون إليه كمتخلف ، كمخدوع ، كمزيف : فهو نفاية سواء أكان لامجدياً أم مذنبـــاً . ومن الممكن ان يغرى ذات يوم بالنظر إلى نفسه بأعينهم القاسية : وعندها سينهي حيـاته في اليأس . بروبير يائساً : انهـا فضيحة لا تحتمل أكثر من الموت نفسه . انني أريد كل الإرادة ان أقبل بموتي ، موتي أنا : وليس بيأسه . كلا . لن أحتمل ان أستيقظ غداً ، وفي الأيام التالية ، مع ذلك التهديد الكبير في الأفق . كلا . ولكني أستطيع ان أردد مئة مرة : كلا ، كلا ، كلا ، ولن أبدل من الأمر شيئاً . سأستيقظ أمام هذا التهديد غداً وفي الأيام التالية . ثمة يقين واحد ، هو اننا نستطيع على الأقل ان نموت . لكن هذا الخوف الذي لا أساس له ، سيتوجب علينا ان نعيشه .

الفصل الثاني

١

في صباح اليوم التالي أكد الراديو الاندحار الالماني. فردد هنري في نفسه وهو يجلس الى طاولته : «انه حقاً السلم الذي يبدأ. ها انني اخيراً استطيع الكتابة !». وقرر : « سأرتب اموري بحيث اكتب يومياً » . ماذا بالضبط ؟ لم يكن يعرف. وكان يهنىء نفسه على انه لا يعرف . ففي المرات السابقة كان يعرف اكثر مما ينبغي . سوف يحاول هذه المرة ان يتوجه الى القارىء دون تصميم مسبق، وكأنه يكتب الى صديق . ولعله سينجح في ان يقول له كل تلك الاشياء التي لم تجد ابداً مكاناً في كتبه المبنية بتصميم قوي . كم من الاشياء يريد ان يحتفظ بها في كلمات وهي تضيع ! ورفع رأسه ونظر من خلال النافذة الى السماء الباردة. من المؤسف التفكير بأن هذا الصباح كان سيضيع . كل شيء يبدو ثميناً للغاية ، هذا الصباح : الورق الابيض ، ورائحة الكحول والتبغ الذي يرد ثانية ، والموسيقى العربية التي تتصاعد من المقهى المجاور . كانت كنيسة نوتردام باردة كالسماء ، وكان ثمة متشرد يرقص وسط الزقاق ، وكان يرتدي طوقاً ضخماً من ريش ديك ازرق ، وفتاتان في ثياب الاحد تنظران اليه ضاحكتين. انه الميلاد ، وانه الاندحار الالماني وشيء يبدأ من جديد . نعم ، كل تلك الصباحات ، كل تلك الاماسي التي تركها تفلت من بين اصابعه طوال تلك السنوات الاربع ، سيحاول هنري طوال ثلاثين سنة ان يستعيدها . انه لا يستطيع ان يقول كل شيء ، بالطبع ، ولكنه يستطيع على كل حال ان يحاول التعبير عن مذاق حياته الحقيقي: لكل حياة مذاق ، ليس

لغيرها ، ويجب التعبير عنه ، وإلا فلا داعي لتحمل مشقة الكتابة : « يجب ان أتكلم عما أحببت ، عما أحبه ، عما انا عليه » . ورسم باقة . من هو ؟ ماذا يجد بعد هـذا الغياب الطويل ؟ ان من الصعب ، من الداخل ، ان يعرف نفسه ويحددها. انه لم يكن مهووسا بالسياسة ولا متعصباً للكتابة، ولا متحمساً عظيماً. كان يشعر بالاحرى انـه شخص ما ، ولكن هذا على كل حال لم يكن ليزعجه . انسان كسائر الناس ، عندما سيتحدث بصدق عن نفسه ، سيتحدث باسم جميع الناس ، من اجل جميع الناس . الصدق : انه الاصالة الوحيدة التي عليه ان يتطلع اليها ، الشعار الوحيد الذي عليه ان يفرضه على نفسه . واضاف زهرة الى باقته . ليس من السهل جداً ان يكون صادقاً . لم يكن يفكر بأن يعترف . ومن يقل رواية يقل كذباً . آه ! سيرى هـذا فيما بعد . اما الآن ، فعليه خاصة الا يحرج نفسه بالمشاكل . عليه ان يرحل بـلا هدف ، ان يبدأ كيفما اتفق : من حدائق « الأود » تحت القمر . لقد كان الورق عارياً ، وعليه ان يستفيد منه .

سألت بول :

– أبدأت روايتك المرحة ؟

– لست ادري .

– كيف لست تدري ؟ ألا تدري ماذا تكتب ؟

فقال ضاحكاً :

– انني أعدّ لنفسي مفاجأة .

فهزت بول كتفيها . ولكن هذا كان صحيحاً : فهو لم يكن يريد ان يعرف . كان يثبت بلا نظام على الورق مجموعة من لحظات حياته ، وكان هذا يلهيه كثيراً، ولم يكن يطلب أكثر من ذلك . ومساء اليوم الذي ذهب فيه للقاء نادين ، ترك عمله آسفاً. لقد قال لبول انه سيخرج مع سكرياسين: فقد تعلم خلال السنة الاخيرة ان يقتصد في صراحته . ان مجرد هـذه الكلمات : « سأخرج مع نادين » كانت ستثير الكثير من الاسئلة والكثير من التفسيرات بحيث انه فضّل ان يقول غيرها. ولكن من العبث حقاً ان يتخفى ليخرج مع فتاة جاحدة ، يعتبرها أشبه بابنة اخ .

ولقد كان من العبث على الاخص ان يعطيها هذا الموعد . ودفع باب « البار الاحمر » . واقترب من الطاولة التي كانت جالسة اليها بين لاشوم وفانسان .

— لا خصام اليوم ؟

فقال فانسان في غضب :

— صفر .

كان الشبان يتجمعون في هذه الصالة الحمراء ليواجهوا خصومهم اكثر مما يجتمعون ليلتقوا برفاقهم : فقد كانت كل الاحزاب السياسية ممثلة فيها . وكان هنري يأتي اليها غالباً ليمضي بعض الوقت . ولقد كان يود لو انه جلس وتحدث حديثاً متقطعاً مع لاشوم وفانسان وهو ينظر الى الناس، لكن نادين نهضت فوراً :

— أتأخذني للعشاء ؟

— لقد جئت لهذا .

في الخارج كان الجو مظلماً ، والرصيف مغطى بوحل متجمد : ماذا سيستطيع ان يفعل بنادين ؟ وسأل : « أين تريدين الذهاب ؟ عند الايطالي ؟ » .

— عند الايطالي .

لم تكن مشاكسة . فتركته يختار طاولتهما ، وطلبت مثله « بوبوروني » و « اوسوبيكو » . وكانت توافق على كل ما يقوله في سيماء من متعة سرعان ما بدت لهنري مشبوهة : في الحقيقة ، لم تكن تصغي اليه ، بل كانت تأكل في عجلة عادتها وهي تبتسم لصحنها . وكف عن الحديث دون ان يبدو عليها انها انتبهت لذلك . وبعد ان ابتلعت اللقمة الاخيرة ، مسحت فمها بحركة عريضة .

— والآن أين تأخذني ؟

— انت لا تحبين لا الجاز ، ولا الرقص ؟

— كلا .

— يمكننا ان نجرب « مدار السرطان » .

— أهو ممل ؟

— هل تعرفين ، انت ، كتابيات مملة ؟ إن في « المدار » مجالاً للكلام .

فهزت كتفيها : « الكلام ، مقاعـــد المترو ملائمة جداً » . وأضاء وجهها : « هناك كباريهات احبها كثيراً : هي التي نرى فيها سيدات عاريات » .

— غير ممكن ؟ أهذا يسليك ؟

— اواه ! نعم . صحيح ان الحمامات التركية أظرف ، ولكن الكباريهات ليست سيئة .

فقال هنري ضاحكاً :

— ألست ماجنة بعض الشيء ؟

فقالت في جفاء :

— هذا ممكن . ماذا تقترح افضل من ذلك ؟

النظر الى نساء عاريات برفقة هـــذه الفتاة الكبيرة التي ليست لا بالعذراء ولا بالمرأة ، ليس بالإمكان تصور شيء غير لائق كهذا . لكن هنري كان قـد أخذ على عاتقه ان يسليها ، وكان يفتقر إلى الالهام . وجلسا « عند عشتار » أمام دلو شمبانيا . وكانت الصالة لا تزال فارغة . وحول البار كانت المدربات يثرثرن . وتفحصتهن نادين ملياً .

— لو كنت رجلًا ، لأتيت كل مساء بامرأة مختلفة .

— كل مساء امرأة مختلفة : سينتهي الأمر إلى ان تكون المرأة نفسها .

— يقيناً لا . السمراء نفسها ، والحمراء التي لها ثديان جميلان مزيفان ، ليستا متشابهتين تماماً ، تحت ثيابها . » وأسندت ذقنها إلى راحة يدها وتفرست في وجه هنري : « ألا تلهيك النساء ؟ » .

— ليس هكذا .

— مثل ماذا ؟

— أحب كثيراً ان أنظر إليهن عندما يكنّ جميلات ، وان أرقص معهن ، أو أتحدث .

فقالت نادين :

— للحديث ، أفضّل الرجال . » وأضحت نظرتها متشككة : « باختصار ،

لمَ دعوتني ؟ انني لست جميلة ، ولا أحسن الرقص ، ولا الحديث » .

فابتسم : « ألا تذكرين ؟ لقد وبّختني على انني لم أدعك أبداً ».

— في كل مرة توبّخ على انك لم تفعل شيئاً معيناً ، تفعله ؟

فقال هنري :

— ولمَ قبلت دعوتي ؟

فرمته بنظرة مثيرة بشكل ساذج جداً إلى حد انه أحرج . هل صحيح ، كما تزعم بول ، انها لا تستطيع ان ترى رجلاً دون ان تعرض نفسها عليه ؟

وقالت بلهجة متكلفة :

— يجب ألا نرفض شيئاً أبداً .

وحركت كأسها لمدة لحظة في صمت . واستؤنف الحديث من جديد ، لكن نادين كانت تصمت بين الحين والآخر في إلحاح وتنظر بثبات إلى هنري ، وكانت على وجهها سيماء تأنيب مندهش وكان يقول في نفسه : « لكنني لا أستطيع على كل حال ان آخذها » . لم تكن تعجبه إلا نصف إعجاب ، فهو يعرفها أكثر مما ينبغي، وكان هذا سبلاً جداً ، ثم انه سيحرج بسبب دوبروي . وكان يحاول ان يملأ فترات الصمت ، ولكنها تثاءبت مرتين عن قصد . كان ، هو ايضاً ، يجد الوقت طويلاً . وكان بعض الازواج يرقصون : وعلى الاخص اميركيون وفتيـات ، ثم زوج او زوجان ريفيان مقلدان. وقرر ان ينصرف ما إن تؤدي الفتيات نمرتهن ، واطمأن عندما رآهن يأتـــين . كنّ ستاً في مشدات للصدور وسليبات عليها نثار ذهبي ، وهن مرتديات قبعات عالية بألوان فرنسية واميركية . وما كن يرقصن حسناً او سيئاً ، وكن قبيحات دون مبالغة ، وكان مشهداً لا يثير الاهتمام ولا يبعث على الضحك. فلمَ كانت نادين تبدو مغتبطة الى هذا الحد؟وعندما نزعت الفتيات مشدات صدورهن ليكشفن عن اثدائهن المدهونة بالبارافـــين ، القت الى هنري بنظرة غامضة : « أيهن تعجبك أكثر من غيرها ؟ » .

— انهن متساويات القيمة .

— الشقراء التي الى اليسار ، ألا تجد لها صرة صغيرة رائعة ؟

– لكن مع وجه حزين جداً .

وسكتت نادين . كانت تتفرس في النساء بنظرة خبيرة ومشمئزة قليــلاً . وعندما خرجن ، متراجعـات ، وهن يحركن بيدٍ سليباتهن ، ويلصقن بالاخرى قبعاتهن المثلثة الالوان بفروجهن ، سألت نادين :

– هل من الاهم ان يكون للفتاة وجه جميل ، ام ان تكون حسنة التكوين ؟

– هذا يتوقف .

– على ماذا ؟

– على المجموع ، وعلى الاذواق ايضاً .

– أية نقطة استحق في المجموع وحسب ذوقك ؟

فحدجها : – سأقول لك هذا بعد ثلاث او أربـع سنين : فأنت لم تنتهي من التكوّن » .

فقالت بصوت غاضب :

– اننا لا ننتهي ابداً قبل ان نموت » . كانت نظرتها تجول حولها في الصالة ، وحطّت على الراقصة ذات الوجه الحزين التي جاءت لتجلس الى البار ، وقـد ارتدت ثوباً قصيراً اسود : « صحيح انها حزينة الوجه . كان عليك ان تدعوها للرقص » .

– ليس هذا بالذي سيسرها كثيراً .

فقالت في حدة مفاجئة :

– ان لزميلاتها رفاقاً . يبدو عليها انها متروكة على الحساب . أُدعها اذن ، ماذا يكلفك هذا ؟ » ولان صوتها واضحى متضرعاً : « مرة واحدة فقط ! ».

فقال هنري :

– اذا كنت تصرّين على ذلك الى هذا الحد ...

وتبعته الشقراء الى ساحة الرقص دون حماسة . كانت ساذجة الى حد مبتذل ، وما كان ليفهم لماذا تهتم نادين بها . وفي الحقيقة ، لقد اخذت نزوات نادين تسئمه . وعندما عاد ليجلس قربها ، كانت قد ملأت الكأسين بالشمبانيا وراحت تتأمــل

فيها ساهمة . وقالت وهي تذبل له عينيها :

ـ انت لطيف جداً . » وابتسمت فجأة: « هل تصبح ظريفاً عندما تسكر؟».

ـ عندما أسكر اجد نفسي ظريفاً جداً .

ـ والآخرون ، ماذا يفكرون ؟

ـ عندما أسكر لا أبالي بما يفكرون .

فأشارت الى الزجاجة :

ـ اسكر ؟

ـ بالشمبانيا لن أسكر .

ـ كم كأساً تستطيع ان تشرب دون ان تسكر ؟

ـ كميات .

ـ أكثر من ثلاث ؟

ـ بالتأكيد .

فنظرت اليه غير مصدقة : « اودّ كثيراً ان أرى ذلك » .

ـ اذا شربت هاتين الكأسين دفعة واحدة ، ألن تؤثرا عليك ؟

ـ مطلقاً .

ـ هيا اذن .

ـ ولمَ ؟

ـ ان الناس يتباهون دوماً : يجب ان نقطع عليهم كل طريق .

فقال هنري :

ـ وبعد ذلك ستسألينني ان أمشي على رأسي ؟

ـ بعد ذلك ، تستطيع ان تذهب لتنام . اشرب بلا توقف .

فجرع احدى الكأسين وأحس بصدمة في جوف معدته . ووضعت الكأس الثانية في يده :

ـ قلنا بلا توقف .

وجرع الكأس الثانية .

واستيقظ راقداً في سرير ، عارياً ، الى جانب امرأة عارية أمسكته من شعره وراحت تهز رأسه . وتمتم : « مَن هنا ؟ » .

– أنا نادين . استيقظ ، لقد تأخر الوقت .

وفتح عينيه . كانت الكهرباء مضاءة ، في غرفة مجهولة ، غرفة فندق . نعم ، انه يتذكر المكتب ، والدرج . وقبل ذلك كان قد شرب شمبانيا ، وكان رأسه يؤلمه .

– ماذا حدث ؟ انني لا أفهم .

فقالت نادين مقهقهة :

– شمبانيتك ، كانت مخلوطة بالعرق ، بنسبة سبعين بالمئة .

– أوضعت عرقاً في الشمبانيا ؟

– قليلاً ! انها حيلة استخدمها غالباً مع الامير كان عندما أكون بحاجة الى ان يكونوا سكارى . » وابتسمت : « كانت هي الوسيلة الوحيدة للحصول عليك »

– وحصلت عليّ ؟

– اذا كنا نستطيع ان نقول ذلك .

ولمس رأسه : « انني لا اذكر شيئاً » .

– اواه ! ليس ثمة ما يدعو الى ذلك .

وقفزت خارج السرير ، وأخرجت مشطاً من حقيبتها وأخذت تمشط شعرها وهي عارية امام مرآة الخزانة . كم كان جسدها فتياً ! هل ضم بين ذراعيه حقاً هذا الصدر النحيف ذا الكتفين المستديرتين ، والثديين الخفيفين ؟ وفاجأت نظرته : « لا تنظر اليّ هكذا ! » . وأمسكت قميصها الداخلي وضمته بسرعة .

– انت جميلة جداً !

فقالت بصوت متكبر :

– لا تقل حماقات !

– لماذا ترتدين ثيابك : تعالي .

فهزت رأسها وقال في شيء من القلق:

ـ هل ثمة ما توبخيني عليه ؟ لقد كنت سكراناً كما تعلمين .
وعادت الى السرير فقبلت هنري على خـــده : « لقد كنت لطيفاً جداً » .
واضافت ، وهي تبتعد : « لكني لا احب ان اعاود . ليس في اليوم نفسه » .
من المؤسف حقاً ألا يتذكر شيئاً . كانت تضم جوربيهـا ، وكان يشعر بعدم الارتياح ، وهو راقد عارياً تحت هذه الاغطية : « سأنهض : استديري » .
ـ أتريد ان استدير ؟
ـ اذا شئت .
ووقفت في زاوية ، وأنفها الى الحائط ، ويداها خلف ظهرها كتلميذة معاقبة.
وسرعان ما سألت بصوت ساخر : « أهذا لا يكفي ؟ » .
وتفحصته منتقدة : « ما اعقدك ! » .
ـ أنا ؟
ـ انك تحدث قصصاً لترقد في السرير ولتخرج منه .
فقال هنري :
ـ أي صداع سببته لي !
كان آسفاً على انها لم تشأ المعاودة . لقد كان لها جسد جميل وكانت فتاة ظريفة.
وعندما جلسا أمام فنجانين من قهوة مقلدة ، في شارع « بيار » الصغير الذي كان يستيقظ إلى جانب محطة مونبارناس ، سأل في مرح :
ـ باختصار لمَ كنتِ تصرّين على ان تنامي معي ؟
ـ لأتعرف إليك .
ـ أبهذه الطريقة تتعرفين إلى الناس دوماً ؟
ـ عندما ننام مع احد ، يتحطم البرود . اننا أفضل الآن معاً من السابـق ، أليس كذلك ؟
فقال هنري ضاحكاً :
ـ لقد تحطم البرود . ولكن لمَ كنت ترغبين إلى هذا الحد في التعرف إليّ ؟
ـ كنت أريد ان تجدني لطيفة .

– انني اجدك لطيفة جدا .

فنظرت إليه بوجه خبيث ومحرج في آن واحد : « أريد ان تجدني لطيفة بما فيه الكفاية لتأخذني إلى البرتغال » .

– آه ! هذا هو الأمر إذن ! « ووضع يده على ذراع نادين : « لقد قلت لك ان هذا مستحيل » .

– بسبب بول ؟ لكنها ما دامت لن تأتي معك ، فأستطيع أنا ان آتي .

– كلا ، لا تستطيعين ، سيسبب لها هذا شقاء عظيماً .

– لا تقل لها .

– ستكون كذبة ضخمة جداً . » وابتسم : « بحيث انها ستعرفها » .

– إذن ، كي تجنبها ألماً ، أتحرمني من شيء أرغب فيه للغاية ؟

– أترغبين فيه للغاية ؟

– بلاد فيها شمس وشيء يؤكل : انني سأبيع روحي للذهاب إليها .

– لقد جعت طوال الحرب ؟

– وكيف ! لاحظ ان ماما كانت رائعة بخصوص ذلك . كانت تسير ثمانين كيلومتراً على الدراجة لتأتينا بكيلو من الفطر أو بقطعة لحم. ولكن هذا لا يمنع، أول اميركي وضع بين ذراعي كيس مؤونته ، كنت مجنونة .

– ألهذا تحبين الأميركان كثيراً ؟

– نعم . ثم ان هذا في البداية كان يسليني . » وهزت كتفيها : « اما الآن ، فهم منظمون أكثر مما ينبغي ، ولم يعودوا طرفاء . وباريس من جديد كئيبة » .

ونظرت إلى هنري بوجه ضارع « خذني » .

انه يود حقاً لو يحقق لها هذه المسرّة . فمنحُ انسان سعـــادةً حقيقية ، شيء مريح جداً ! لكن كيف العمل ليجعل بول تبتلع هذا ؟

وقالت نادين :

– لقد حدث وحصلت لها قصص ، لكن بول عرفت كيف تدبر أمرها .

– من قال لك هذا ؟

فضحكت نادين بطريقة غامضة : « ان امرأة تحدث امرأة أخرى عن غرامياتها ، هذا يطلق اللسان » .

نعم ، كان هنري قد اعترف لبول ببعض خياناته التي سامحتها بكبرياء . والصعوبة اليوم هي انه إذا حاول ان يقدم تفسيراً فسوف يقوده هذا حتماً اما إلى ان يقيد نفسه بكذبة لا يريدها ، أو ان يطالب بحريته في قسوة ، والشجاعة تنقصه لعمل كهذا . وتمتم :

– سفر شهر ، هذه قضية أخرى .

– لكن سنهجر بعضنا عند العودة ، فأنا لا أريد ان آخذك من بول !

وضحكت نادين بوقاحة : « أريد ان أتنزه ، هذا كل شيء » .

وتردد هنري ان يتنزه في الشوارع المجهولة ، ويجلس على أرصفة المقاهي ، مع امرأة تضحك منه في وجهه ، ثم ان يجد عند المساء جسدها الشاب الدافىء ، نعم ، هذا مغر . وما دام عازماً على قطع علاقته ببول ، فما الذي يستفيده من الانتظار؟ ان الزمن لا يسوى شيئاً ، بل على العكس . وقال :

– اسمعي ، لا أستطيع ان أعدك بشيء . قولي لنفسك انه ليس وعداً : لكني سأحاول ان أتحدث مع بول ، وإذا بدا لي ان من الممكن أخذك ، فسوف أفعل .

– ٢ –

نظرتُ في خيبة أمل إلى اللوحة الصغيرة . قبل شهرين قلت للطفل : « ارسم بيتاً » ، فرسم فيلا مع أسطحتها ، ومدفأتها ، ودخانها . ولكن بدون نافذة واحدة ، ولا باب واحد ، وحولها كلها سياج أسود عالٍ ذو قضبان مدببة . « والآن ، ارسم عائلة » ، فرسم رجلًا يعطي يده لصبي صغير . وها هو اليوم قد رسم أيضاً منزلاً بلا باب ، محاطاً بقضبان سود مدببة : اننا لا نتقدم . هل هي حالة صعبة بشكل خاص ، أم أنا التي لا تعرف كيف تعالجه ؟ ووضعت الرسم في

مصنف . ألم أكن أعرف ، أم لم أكن أريد ؟ لعل مقاومة الطفل كانت تعبر عن المقاومة التي أحس بها في نفسي : ذلك المجهول الذي مات قبل سنتين في «داشو» ، كنت أفزع من طرده من قلب ابنه . وقلت في نفسي : « إذن يجب ان أترك هذا العلاج » . ولبثت واقفة بجانب طاولة عملي . كان أمامي ساعتان ، وكنت أستطيع ان أصنف مذكراتي ، لكني لم أزمع . يقيناً ، لقد طرحت على نفسي دوماً كمية من الأسئلة . فالشفاء يعني غالباً القهر . ففي مجتمع ظالم ، ما قيمة التوازن الفردي ؟ ولكن كان يستهويني ان اخترع في كل حالة جواباً . لم يكن هدفي ان أحصل لمرضاي على راحة داخلية كاذبة . وإذا كنت أحاول ان اخلصهم من خيالاتهم الذاتية ، فهذا كي أجعلهم قادرين على مواجهة المشاكل الحقيقية التي تطرح نفسها في العالم . وفي كل مرة كنت أنجح فيها ، كنت أقدر انني قد قمت بعمل نافع . والمهمة واسعة جداً ، وتتطلب تعاون الجميع : هذا ما كنت أعتقده بالأمس . ولكن هذا يفترض ان لكل انسان عاقل دورا يلعبه في تاريخ يقود الانسانية إلى السعادة . انني لم أعد أؤمن بهذا الانسجام الجميل . ان المستقبل يفلت مني وسيتم بدوننا . إذن ما دمنا لا نأبه إلا للحاضر ، فما الفائدة من ان يصبح فردينان الصغير ضاحكاً وطائشاً كسائر الأطفال ؟ وقلت في نفسي : « ان حالي تزداد سوءاً . إذا ما استمر الأمر هكذا ، فلن يبقى أمامي إلا ان أغلق مكتبي » . وسرت نحو غرفة الحمام ، وعدت منها بطست ومجفنة من صحف قديمة ، وركعت أمام المدفأة حيث كانت تشتعل في خمول كرات من الورق . وبللت الأوراق المطبوعة وأخذت أعجنها . ان اشمئزازي من هذا العمل أقل مما كان عليه في الماضي . فقد كنت بمساعدة نادين وأحياناً بمعونة من البوابة أقوم بشؤون البيت على الوجه المستطاع . وكنت واثقة ، على الأقل ، عندما كنت أهرس هذه الصحف القديمة ، انني أفعل شيئاً ما مفيداً . والمزعج ان هذا لم يكن يتطلب العمل إلا من يدي . ولقد نجحت في ان أكف عن التفكير بالصغير فردينان ، وبمهمتي ، ولكني لم أربح من ذلك شيئاً كبيراً . فالاسطوانة قد عادت تدور في رأسي : « في ستافيلو ، لم يعد هناك ما يكفي من التوابيت

لدفن جميع الأطفال الذين يغتالهم رجال المخابرات » . ونحن ، قد هربنا . ولكن هذا حصل في أمكنة أخرى . لقد أخفينا بسرعة الأعلام ، وأغرقنا الأسلحـــة ، وهرب الرجال إلى الحقول، وفي الشوارع المتروكة للمطر سمعنا أصواتهم المبحوحة. انهم لم يأتوا هذه المرة كغزاة شهـام ، بل عادوا والحقد والموت في قلوبهم . ثم رحلوا ثانية . ولكن من القرية المحتفلة ، لم تبقَ إلا أرض محروقة وكوم من جثث صغيرة .

وارتجفت لنفحة برد دخلت : كانت نادين قد فتحت الباب فجأة :

– لماذا لم تسأليني ان أساعدك ؟

– كنت أعتقد انك تلبسين .

– لقد انتهيت منذ مدة طويلة . » وركعت إلى جانبي وأمسكت بصحيفة . « أتخافين ألا اعرف ؟ هذا على كل حال بإمكاني » .

والحقيقة هي انها لم تكن تحسن العمل : فقد كانت تبلل الورق أكثر مما ينبغي ، ولا تعجنه بما فيه الكفاية . ورغم كل شيء كان عليّ ان أدعوهـــا . وتفحصتها . وقالت :

– دعني أصلح هيئتك قليلاً .

– لمن هذا ؟ للامير ؟

وذهبت لآتي من خزانتي بمنديل وبمشبك قديم وناولتها نعلين لهما سيور جلدية كانت زبونة تعتقد نفسها قد شفيت ، أهدتني إياهما . وترددت :

– ولكنك تخرجين هذا المساء : ماذا ستضعين ؟

فقلت ضاحكة :

– لن ينظر أحد إلى قدمي .

فأخذت الحذائين ودمدمت : « شكراً ! » .

ووددت لو أجيب : « لا داعي لذلك ! » . لقد كان اهتمامي وسخائي يحرجانها لأنها لم تكن معترفة بجميلي حقاً ، كما انها كانت تلوم نفسها على ذلك. كنت أشعر بها تتردد بين عرفان الجميل والشك ، بينما كانت تعجن الكرات بشكل أخرق .

وكانت على حق في إرتيابها . فقد كان اخلاصي وكرمي اظلم حيلي : فقد كنت ألقي التبعة عليها في حين انني لم أكن أسعى إلا إلى تخليصها من تأنيب ضميرها . تأنيب ضمير لأن ديغو قد مات ، لأن نادين لا تملك ثوب حفلة ، لأنها تضحك بشكل سيء ، ولأن الشراسة تجعلها قبيحة . تأنيب ضمير لأنني لا أعرف كيف أجعلها تطيعني ، ولأنني لا أحبها بما فيه الكفاية . لعلي كنت أهدئها لو أخذتها بين ذراعي وأنا أقول لها : « يا ابنتي الصغيرة المسكينة ، سامحيني على انني لا أحبك أكثر من ذلك » . لعلي لو أخذتها بين ذراعي ، لحميت نفسي من تلك الجثث الصغيرة التي لم نكن نملك وسيلة لدفنها .

ورفعت رأسها : « هل حدّثت أبي ثانية عن تلك السكرتارية ؟ » .

– ليس منذ أول أمس ، كلا . » وأضفت بسرعة : « المجلة لن تصدر إلا في نيسان ، فأمامنا وقت كاف » .

فقالت نادين :

– لكني بحاجة إلى ان أعرف موضع قدمي . » ورمت بكرة في النار : « انني لا أفهم حقاً لماذا هو ضد ذلك » .

– لقد قال لك السبب : انه يرى انك ستضيعين وقتك .

مهنة ، ومسؤوليات شخص كبير : أعتقد أنا ان هذا سيفيد نادين . ولكن روبير كان أكثر طموحاً . وقالت وهي تهز كتفيها :

– والكيمياء ، أليست مضيعة للوقت ؟

– ما من أحد يرغمك على دراسة الكيمياء .

انما لإهانتنا اختارت نادين الكيمياء ، ولم تكن نتيجة ذلك إلا ان عوقبت هي نفسها أكثر مما ينبغي . وقالت :

– ليست الكيمياء هي التي تسئمني ، بل ان أكون طالبة . بابا لا يدرك هذا: انني أكبر سناً منك عندما كنت في عمري . انني أريد ان أفعل شيئاً ما حقيقياً .

فقلت :

– تعلمين جيداً انني موافقة . وكوني مطمئنة ، إذا رأى والدك أنك لن

تغيري رأيك ، فسوف يقول نعم في النهاية .

فقالت نادين حردة .

– سيقول نعم : لكني أعلم بأية لهجة !

فقلت :

– سنقنعه . أتعرفين ما كنت سأفعله لو كنت مكانك : سأتعلم فورا الضرب على الآلة الكاتبة .

فقالت :

– فوراً ، لا أستطيع . » وترددت ثم نظرت إلي بشيء من التحدي: « هنري سيأخذني معه إلى البرتغال » .

فأخذتُ على حين غرة ، وسألت بصوت لا يخفي استيائي :

– أقرّرتما هذا امس ؟

فقالت نادين :

– منذ زمن طويل قررته . » وأضافت بلهجة عدائية : « بالطبع أنت تلومينني ؟ تلومينني بسبب بول ؟ » .

وكورت كرة رطبة بين راحتيّ : « أعتقد انك ستجلبين التعاسة لنفسك » .

– هذا يخصني .

– بالفعل .

ولم أضف شيئاً . كنت أعلم ان صمتي يغضبها لكنها كانت تغيظني عندما ترفض بلهجة قاطعة التفسيرات التي تتمناها. انها تريد ان أغضبها غصباً وأنا أنفر من الدخول في لعبتها . وبذلت على كل حال جهداً وقلت : « هنري لا يحبك . انه ليس على استعداد للحب ... » .

فقالت في كراهية :

– في حين ان لامبير حمار بما فيه الكفاية ليتزوجني ؟

فقلت :

– أنا لم أدفعك أبداً إلى الزواج . والحقيقة ان لامبير يحبك .

فقاطعتني : « أولاً ، انه لا يحبني . بل انه لم يسألني أبداً ان أنام معه ، حتى في الليلة السابقة ، في السهرة ، مهّدت له فلم يأبه لي » .

– هذا لأنه ينتظر شيئاً آخر منك .

– إذا كنت لا أعجبه ، فهذه قضية تخصه . على كل حال ، انني أفهم ان يكون صعباً بعد ان كانت له فتاة مثل روزا . وأرجوك ان تصدقي انني أعوض عن ذلك . ولكن لا تأتي لتقولي لي انه ملتاع علي » .

كان صوت نادين يعلو . وهززت كتفي ، وقلت :

– افعلي ما شئت . انني أتركك حرة . ماذا تطلبين أكثر من ذلك ؟

فكحت قليلاً ، كما تفعل دوماً عندما تفزع : « بيني وبين هنري ليس الأمر إلا مغامرة . عند العودة ، سنترك بعضنا » .

– بصراحة ، نادين ، هل تؤمنين بهذا ؟

فقالت بقناعة أكثر مما ينبغي :

– نعم ، انني اؤمن .

– بعد ان تقضي شهراً مع هنري ، ستتعلقين به .

– مطلقاً . » ومن جديد اشتعل التحدي في عينيها : « إذا أردت ان تعلمي ، فقد نمت معه البارحة ، وهذا لم يؤثر علي مطلقاً » .

وأشحت بناظري: لم أكن حريصة على العلم. وقلت دون ان أعترف بحرجي: « هذه ليست حجة . أنا واثقة انك ، عند العودة ، ستريدين الاحتفاظ به : ولن يريد » .

فقالت :

– هذا ما سنراه .

– آه ! أنت توافقين : انك تأملين في الاحتفاظ به . أنت مخطئة : كل ما يتمناه في الوقت الحاضر ، حريته .

– هناك جولة للعب : هذا يسليني .

– الحساب، والمناورة، والترصد، والانتظار، هذا يسليك! ثم انك لا تحبينه!

فقالت :

ــ قد لا أحبه ، لكني أريده .

وألقت في المدفأة بقبضة من الكرات :

ــ معه ، سأعيش ، أتفهمين ؟

فقلت في نزق :

ــ ليس الانسان بحاجة الى أحد ليعيش .

ونظرت حولها : « أتسمين هذه حياة ! بصراحة ، يا ماما المسكينة، اتعتقدين انك عشت ؟ ان تتحدثي مع بابا نصف اليوم وتداوي المجانين النصف الآخر ، ثم تتحدثين عن حيـــاة ! » . ونهضت ثانية وضربت ركبتيها . كان صوتها مغيظاً : « يحدث لي ان أرتكب حماقات، لا اقول لا . ولكني أفضل ان أنتهي في ماخور على ان اتنزه في الحياة بقفـازات من جلد جدي عادم الحرارة : ابداً لن ترفعيها ، قفازاتك . انت تمضين وقتك في إعطاء نصائح . وماذا تعرفين عن الرجال ؟ وأنا واثقة انك ابداً لا تنظرين الى المرآة وانك أبدا لا تشاهدين كوابيس » .

كانت خطتها ان تهاجمني في كل مرة تكون فيها مخطئة او تشك في نفسها مجرد شك . ولم اجب بشيء . وسارت نحو الباب ، وعند العتبة توقفت وسألت بصوت اهدأ :

ــ أتأتين لتناول فنجان شاي معنا ؟...

ــ ليس عليك إلا ان تدعوني .

ونهضت وأشعلت سيجارة. ماذا أستطيـع ان أفعل ؟ لم اعد اجرؤ على فعل أي شيء . عندما بدأت نادين تسعى الى دييغو وتهرب منـــه من سرير الى سرير ، حاولت ان اتدخل : لكنها كانت قد اكتشفت التعاسة بفظاعة شديدة ، وظلت ضائعة جداً من التمرد واليأس حتى تمكنت من السيطرة عليها . وما إن حاولت ان اكلمها ، حتى سدّت اذنيها ، وصاحت ، وهربت : ولم تعد الى البيت إلا عند الفجر . وعلى طلبي ، شرع روبير في تقويم صوابها . وفي ذلك المساء لم ترَ ضابطها الاميركي ، وظلت سجينة في غرفتها . ولكن في اليوم التالي اختفت تاركة كلمة :

« انني راحلة » . وطوال ليـلة ، وطوال نهار ، وطوال ليلة اخرى ، فتش روبير عنها . وكنت انا انتظر في البيت . يا له من انتظار فظيـع ! حوالي الساعة الرابعة صباحاً تلفن نـــدل من مونبارناس . ووُجدت نادين ممددة على خوان البار ، شبه ميتة من السكر ، وعينها منتفخة السواد . وقال لي روبير : « دعيها اذن حرة . يجب ان لا نغصبهـــا » . لم يكن لي خيار . لو تابعت النضال ، لأخذت نادين تكرهني ولتقصدت ازدرائي . لكنها تعلم أنني استسلمت بالرغم مني وانني الومها: وهي تأخذ علي ذلك . لعلها ليست مخطئة تماماً . لو كنت احببتها أكثر ، لكانت علاقاتنا مختلفة . لعلي كنت عرفت كيف أمنعها من ان تعيش حياة ألومها عليها . ولبثت طويلاً واقفة انظر الى ألسنة اللهيب وانا أردد في نفسي : « انني لا احبهـا بما فيه الكفاية » .

لم ارغب فيها . انه روبير الذي تمنى فوراً طفلاً وحقدت على نادين انها اقلقت خلوتنا : كنت احب روبير كثيراً ، ولم اكن أهتم بما فيـه الكفاية بنفسي كي يلين قلبي من رؤية ملامحه او ملامحي ثانية عند تلك الدخيلة الصغيرة . ولاحظت بلا عطف عينيها الزرقاوين ، وشعرها ، وأنفها . ووبختها اقل ما بإمكاني ، لكنها شعرت بتحفظي : لقد كنت دوماً مشبوهة عندها . ما من فتاة صغيرة مثلهـــا جاهدت في الانتصار على منافستها في قلب والدها . وابداً لن تستسلم لأن تكون من النوع نفسه الذي انا منه . وعندما شرحت لها انها عما قريب ستبلغ وماذا يعني هذا ، أصغت اليّ في انتباه شارد ، ثم حطمت على الارض اناءها المفضل . وبعد الطمث الاول، كان غضبها قوياً جداً الى حد انها ظلت ثمانية عشر شهراً لا تنزف . ثم خلق دييغو بيننا جواً جديداً : لقـــد امتلكت اخيراً كنزاً لا يخص غيرها ، وشعرت بنفسها مساوية لي وولدت صداقة بيننا. ولكن فيما بعد ، أصبح كل شيء أسوأ . والآن كل شيء أسوأ .

ــ ماما .

كانت نادين تدعوني وبينما انا أسير في الممشى، حسبت : اذا بقيت مدة طويلة جداً ، ستقول انني أستأثر بأصدقائهـــا . واذا انصرفت بسرعة ، ستفكر بأنني

احتقرها . ودفعت الباب . كان هناك لامبير ، وسيزوناك ، وفانسان ، ولاشوم ، ولا امرأة ، فلم يكن لنـــادين صديقة . كانوا يحتسون النسكافة حول مدفأة كهربائية . وناولتني فنجاناً فيه ماء اسود حريف ، وقالت فجأة :

– شانسيل قد قتل .

لم أكن أعرف شانسيل كثيراً . ولكن قبل عشرة أيام ، رأيته يضحك مع الآخرين حول شجرة الميلاد ، لعل روبير كان على حق : ليس هناك مسافة كبيرة بين الاحيـاء والأموات . ومع ذلك ، فقد كان هؤلاء الاموات المستقبلون الذين يشربون قهوتهم في صمت ، يبدو عليهم الخجل ، مثلي ، من انهم أحيـــاء جداً . وكانت عينا سيزوناك أكـــثر فراغاً من العادة ، وتشبهان عيني رامبو مخبول . وسألت :

– كيف حدث ذلك ؟

فقال سيزوناك :

– لا نعرف شيئاً . لقد تلقى اخوه كلمة تقول انه مات في ساحة الشرف

– ألم يفعل ذلك عمداً ؟

فهز سيزوناك كتفيه : « جائز » .

فقال فانسان :

– جائز ايضاً انهم لم يطلبوا رأيه . انهم لا يتباخلون بالمادة البشرية ، جنرالاتنا ، انهم سادة كبار .

كانت عيناه المخنوقتان بالدم تبدوان ، وسط وجهه الشاحب ، كجرحين . وكان فمه يشبه ندباً . وما كان المرء ليتبين في البداية ان ملامحه منتظمة دقيقـة . وكان وجه لاشوم على العكس هادئاً ومخدشاً كصخرة . وقال :

– انها مسألة نفوذ ! اذا كنا لا نزال نريـــد ان نلعب دور الدولة القوية ، فيلزمنا عدد لا بأس به من الموتى .

فقال فانسان ، وقد فغر فاه في نوع من الابتسامة :

– ثم ، قل اذن ، ان نزع سلاح « قوات الداخـل الفرنسية » لم يكن سيئاً :

لكن لو أمكنت تصفيتهم بشكل هادىء ، للاءم هذا أكثر اولئك السادة .
فقال لامبير بصوت قاس وهو ينظر الى فانسان في عينيه :
– إلامَ تلمّح ؟ ديغول أصدر الأمر لدولاتر بالتخلص من جميع الشيوعيين ؟ اذا كان هذا ما تعنيه ، فقله : لتكن لك على الأقل هذه الشجاعة
فقال فانسان .
– لا حاجة للأمر . انهم يتفاهمون بأنصاف الكلمات .
فهز لامبير كتفيه : – « انت نفسك لا تؤمن بهذا » .
فقالت نادين بصوت عدائي : « قد يكون هذا صحيحاً .
– يقيناً انه غير صحيح .
فقالت :
– ما الذي يثبت ؟
فقال لامبير :
– آه ! لقد تعلمت التكنيك. انهم يخترعون حدثاً من كل مصدر، ثم يسألونك ان تثبت انه غير صحيح! من البديهي ، انني لا أستطيع ان اظهر لك ان شانسيل لم يقتل برصاصة في ظهره .
فابتسم لاشوم : « فانسان لم يقل هذا » .
كان الامر يجري هكذا دوماً . وكان سيزوناك يلزم الصمت . وفانسان ولامبير يتشاجران وفي اللحظة المناسبة يتدخل لاشوم . كان بشكل عام يأخذ على فانسان يساريته وعلى لامبير أحكامه البورجوازية الصغيرة المسبقة . وكانت نادين تقف مع هذا المعسكر او ذاك ، حسب مزاجها . وتجنبت الدخول في خصامهم . وكان أكثر حدة من العادة ، بلا شك لأن موت شانسيل قد أزعجهم جميعاً إن قليلاً وإن كثيراً . وعلى كل الأحوال ، لم يكن فانسان ولامبير مخلوقين ليتفاهما . كانت تفوح من لامبير رائحة ابن العائلة . وكان فانسان بسترته المبطنة بالفرو ووجهه الناعم الوسخ أشبه بصعلوك بالأحرى، وكان ثمةشيء لا يبعث على الاطمئنان كثيراً في عينيه ، ولكني لم أكن أستطيع على كل حال التصديق بأنه قد قتل

بشراً حقيقيين، بسدس حقيقي[1]. في كل مرة كنت أراه فيها كنت أفكر بذلك، لكن دون ان أتمكن من التصديق . ولعل لاشوم قد قتل ايضاً ، على كل حال ، لكنه لم يتحدث عن ذلك الى أحد ولم يكن هذا يزعجه .

واستدار لامبير نحوي ، وقال : « حتى مع الرفاق ، لم يعد الحديث ممكناً آه ! إنها ليست ظريفة، باريس في هذا الوقت. انني أتساءل ما اذا لم يكن شانسيل على حق ، لا اقول ان يتركهم يقتلونه ، بل ان يذهب للقتال » .

ونظرت اليه نادين بوجه غاضب . وقالت : « انت لست في باريس ابداً ! »

– انني فيها بما فيه الكفاية لأجد أنها كئيبة . وعندما أتنزه في الجبهة لا أشعر بالفخر .

فقالت بصوت حاد :

– ولكنك فعلت كل ما ينبغي لتصبح مراسلاً حربياً !

– انني أفضل حتى هذا على ان أبقى هنا . ولكن هذا نصف تدبير .

فقالت نادين التي أستشاط وجهها غضباً بشكل صريح :

– اواه ! اذا كنت سئماً في باريس ، فما من احد يبقيك فيها . يبدو ان دولاتر يحب الغلمان الجميلين . اذهب إذن لتلعب دور البطل ، اذهب .

فدمدم لامبير وهو يحدجها بنظرة ثقيلة بالتعريضات :

– انها لعبة تساوي اللعب الأخرى .

فحدجته نادين لحظة : « لن تكون قبيحاً في إهاب جريح محظر ، مع ضمادات في كل مكان » . وقهقهت : « لا تعتمد عليّ لأعودك في المستشفى . فبعد خمسة عشر يوماً سأكون في البرتغال » .

– في البرتغال ؟

فقال بلهجة غير آبهة :

– بيرون سيأخذني كسكرتيرة .

فقال لامبير :

– حسناً ! انه محظوظ . ستكونين له بمفرده، طوال شهر كامل ! فقالت نادين:

– ليس جميع الناس قرفين مثلك .
فقال لامبير من بين أسنانه :
– نعم ، ان الرجال في هذه الأيام سهلون ، سهلون كالنساء .
فقالت نادين :
– أنت غليظ !

كنت أتساءل في غيظ كيف يتركان نفسيهما يقعان في مناورتهما الخطرة ! ومع ذلك فقد كنت واثقة انهما كانا يستطيعان ان يتعاونا على الحياة ثانية . كانا يستطيعان معاً ان ينجحا في قهر تلك الذكريات التي توحد بينهما وتفصلهما . ولكن لعلها بسبب هذا بالضبط كانا ينهشان بعضهما البعض : فكل منهما كان يكره في الآخر خيانته الخاصة . على كل حال ، كان التدخل من أسوأ الخرق . وتركتهما يتشاجران وغادرت القاعة . وتبعني سيزوناك الى الغرفة الملاصقة .

– أأستطيع ان اقول لك كلمة ؟
– هيا .
فقال :
– انها خدمة ، خدمة أريد ان أسألك إياها .

كنت أتذكر كم كانت مشيته طليقة ، في ٢٥ آب ، بلحيته ، وبندقيته ، ومنديله الأحمر : جندي حقيقي من جنود ١٨٤٨ . اما الآن فقد كانت عيناه الزرقاوان ميتتين ، وفمه منتفخاً . وكنت قد لاحظت وانا أصافح يده ان راحتيه نديتان . وقال :

– انني انام سيئاً . وبي .. بي آلام . ذات مرة أعطاني صديق حقنة افيون ، وقد هدأني هذا كثيراً . كل ما هنالك ان الصيادلة يطلبون امراً من طبيب ...
كان ينظر اليّ بوجه ضارع .
– أي نوع من الآلام ؟
– اواه ! في كل مكان . في الرأس . وكوابيس على الأخص ..
وأصبح جبينه ندياً كيديه :

– سأقول لك كل شيء . لي صديقة . صديقة أحبها كثيراً ، وأريد ان اتزوجها . ولكني ... لكني لا أستطيع ان افعل شيئاً معها اذا لم آخذ افيوناً.

فقلت :

– الافيون مخدر خطر . هل تتناول منه غالباً ؟

وبدا عليه الذعر : « اواه ! كلا . مرة فقط من حين لحين ، عندما أمضي الليل مع لوسي » .

– ولو مرة واحدة . ان المرء يتسمم بسرعة هذه الأشياء .

كان ينظر إلي بوجه ضارع ، والعرق يتلألأ على جبينه . وقلت : « تعال اذن لرؤيتي غداً . سأرى اذا كنت أستطيع ان اعطيك هذا الأمر » .

وعدت الى غرفتي . يقيناً لقد كان متسمماً إن قليلاً وإن كثيراً . متى بدأ في تناول المخدرات؟ لماذا؟ وتنهدت . هوذا واحد آخر سأمدده على الأريكة واحاول افراغه . انهم يغيظونني ، احياناً ، هؤلاء الممددين . انهم ، في الخارج ، وهم وقوف على اقدامهم ، يلعبون دورهم كراشدين كيفما اتفق . وهنا يعودون من جديد رضّعاً ، مؤخراتهم كلها براز ، وعليّ ان اغسلهم من طفولتهم . ومع ذلك ، فقد كنت أتكلم بصوت لا شخصي هو صوت العقل ، صوت الصحة . ان حياتهم الحقيقية في مكان آخر : وكذلك حياتي . ولهذا لا عجب اذا كنت متعبة منهم ومن نفسي .

كنت متعبة . كانت نادين تقول « قفازات جدي بلا حرارة » . ولقد قال سكرياسين : «متحفظة ، مخيفة» . أهكذا ابدو لهم ؟ أهكذا انا ؟ انني اذكر غضبي في طفولتي ووجيب قلبي المرهق ، وحمّيات شهر آب ذاك . لكن كل هذا قد أصبح بعيداً . والحقيقة ان ما من شيء عاد يتحرك في داخلي . وأمررت مشطاً في شعري ، وأصلحت رتوش ماكياجي . ان الانسان لا يستطيع ان يثبت الى ما لا نهاية في الخوف ، انه يتعب . ثم ان روبير قد بدأ كتاباً ، ومزاجه الآن ممتاز . لم اعد استيقظ ليلاً وكلي عرق من القلق ، لكني بقيت متداعية . انني لا أرى أي داع لأن أكون حزينة ، كلا . كل ما هنالك ان عدم احساسي بأنني

سعيدة يجعل مني تعيسة ، ولقد دُلّلت بلا شك أكثر مما ينبغي . وتناولت حقيبتي ، وقفازي ، وقرعت باب غرفة روبير . لم تكن بي أي رغبة في الخروج .

– ألا تشعر ببرد شديد ؟ ألا تريد نار ورق ؟

وابعد مقعده ، وابتسم لي : « انني مرتاح جداً » .

يقيناً . ان روبير دوماً على ما يرام . لقد غذى نفسه في فرح طوال سنتين بـ الكرنب مع اللفت وبالسلجم . وما كان يشعر بالبرد ابداً : كأني به ينتج بنفسه حرارته على طريقة اليوغي . عندما سأعود حوالي الظهر ، سيكون لا يزال غارقاً في الكتابة ، ملتحفا بمعطفه الايكوسي ، وسوف يدهش : « ولكن كم الساعة اذن ؟ » . لم يكن قد حدثني إلا بشكل مبهم عن كتابه الجديد ، لكني أشعر انه مسرور منه . وجلست . وقلت :

– لقد جاءت نادين تخبرني بفكرة غريبة : انها مرافقة هنري الى البرتغال .

فرفع عينيه في حدة نحوي : « أهذا يزعجك ؟ » .

– نعم . ان بيرون ليس من النوع الذي يلقط ثم يرمي : سوف تتعلق بـه كثيراً .

فوضع روبير يـده على يدي : « لا تلتاعي كثيراً على نادين . فأولاً سوف يدهشني ان تتعلق ببيرون . وعلى كل حال ، سوف تتعزى عنه بسرعة » .

فقلت :

– انها لن تقضي على كل حال حياتها في تعزية نفسها !

فأخذ روبير يضحك :

– لا يمكن عمل شيء ! سيصدمك دوماً ان تنام ابنتك مع كل رجل دون تمييز مثل صبي . كنت أفعل مثلها في عمرها .

ابداً لم يشأ روبير ان يعتبر ان نادين ليست صبياً . وقلت : « ليست الحالة متشابهة . نادين تتشبث برجل بعد آخر لأنها عندما تكون وحيدة لا تشعر بأنها تعيش . هذا ما يقلقني » .

– اسمعي ، من المفهوم ان تخاف من الوحدة . فقصة ديغو لا تزال قريبة

العهد تماماً .

فهززت رأسي : « ليس فقط بسبب ديغو » .

فقال بلهجـــة متشككة : « انني أعرف ، انت تدعين انها غلطتنا ايضاً » .

وهزّ كتفيه : « انها ستتغير ، لديها الوقت كله لتتغير » .

– لنأمل ذلك . » ونظرت الى روبير في اصرار : « اتعرف ، سيكون هاماً جداً بالنسبة لها ان يكون لديها شاغل تهتم به حقاً . اعطها وظيفة السكرتيرة تلك. لقد جاءت تحدثني عنها مرة اخرى ، انها حريصة عليها جداً .

فقال روبير :

– لكنها وظيفة ليس فيها ما يثير . ان تدق المغلفات وتمسك السجلات طوال النهار : انها جريمة ، وهي ما هي عليه من ذكاء .

فقلت :

– ستشعر بنفسها انها مفيدة ، وهذا سيشجعها .

-- انها تستطيع ان تفعل أفضل من ذلك بكثير ! لتتابع اذن دراستها .

– انها حالياً بحاجة الى ان تفعل شيئاً ما ، وسوف تكون سكرتيرة طيبة » .

وأضفت : « يجب ألا نطلب كثيراً من الناس » .

لقد كانت متطلبات روبير بالنسبة لي مقوية دوماً ، لكنهـا انتهت الى تثبيط همة نادين . لم يكن يصدر اليها أوامر : فقد كان يثق بها ، وينتظر ، وكانت تعتز بهذه اللعبة. كانت قد قرأت وهي لا تزال صغيرة جداً كتباً قاسية جداً، وساهمت قبل الأوان بكثير في أحاديث الراشدين . ثم تعبت من هذا النظام ، وثارت أولاً على نفسها ، وهي تأخذ الآن نوعاً من الثأر باجتهادها في تخييب أمل روبير . ونظر الي في حيرة ، كما في كل مرة يستشعر في كلماتي تأنيباً ، وقال :

– اذا كنت تعتقدين حقاً ان هذا ما يناسبها .. فأنت تعلمين أفضل مني .

فقلت :

– أعتقد حقاً .

– اذن ، ليكن .

لقد استسلم بسهولة كبيرة : هذا يثبت ان نادين لم تنجح إلا أكثر مما ينبغي في تخييب أمله . كان روبير ، عندما لا يعود يستطيع ان يهب نفسه بلا تحفظ الى عاطفة ، او إلى مشروع ، يستعجل في التخلص من الأمر . وقلت : « من البديهي ان مهنة تجعلها مستقلة عنا أفضل لها أيضاً » .

فقال روبير في جفاء : « ولكن ليس هذا ما تريده : انها تريد ان تلعب لعبة الاستقلال » . انه لم يعد راغباً في الكلام عن نادين ولم أكن أستطيع ان أبث فيه الحماسة لمشروع لا يوافق عليه . واستنكفت عن الكلام في الموضوع . وقال روبير بلهجة متحمسة فجأة :

– انني لم أفهم حقاً لماذا يقوم بيرون بهذه الرحلة .

فقلت : « انه راغب في قضاء عطلة » . اني ، أنا ، افهم . وأضفت في حرارة: « أرى ان له الحق كله في ان يتمتع ببعض الوقت الطيب . فقد عمل بما فيه الكفاية ... » .

فقال روبير :

– لقد عمل أكثر مني ، ولكن ليست هذه هي المسألة . ونظر إلي نظرة آمرة . « كي ينطلق « الاشتراكي الثوري الحر » فلا بد لنا من صحيفة » .

فقلت :

– اعرف . » وأضفت في تردد : « انني أتساءل ... » .

– ماذا ؟

– ما اذا كان هنري سيتخلى لكم عن تلك الصحيفة : انه حريص عليها كثيراً .

فقال روبير :

– ليست المسألة ان يتخلى لنا عنها .

– بل المسألة ان يضع نفسه تحت أوامر « الاشتراكي الثوري الحر » .

– ولكنه عضو فيه . وسيكسب عظيم الفائدة من تبني برنامج سياسي : فصحيفة بلا برنامج سياسي ، لا تقف على قدميها .

– انها فكرتهم .

– أتسمين هـذه فكرة ! » وهز روبير كتفيه : « المحافظة على روح المقاومة فوق الأحزاب ! »: ان هذا النوع من السلطـة صالح لذلك المسكين لوك . روح المقاومة ، اليك ، انها تذكرني بروح لوكارنو . ان بيرون لا يستطيـع ان ينتج في الفوضى . انني مطمئن ، سينتهي به الأمر الى ان يسير . ولكننـــا ، بانتظار ذلك ، نضيـع الوقت » .

كنت خائفة من ان يكون روبير يعدّ لنفسه مفاجأة سيئة . فهو عندما يعاند في مشروع ، يرى في الناس مجرد أدوات . تلـك الجريدة ، لقد كان بيرون يهب نفسه لها روحاً وجسداً ، فقد كانت مغامرته الكبرى ، ولم يتركهم عن طواعيـه يلون عليه البرامج . وسألت :

– لماذا لم تحدثه عن الأمر مرة اخرى ؟

– انه لا يفكر إلا بالذهاب للتنزه .

كان يبدو على روبير استياء كبير حتى انني اقترحت :

– حاول ان تقنعه بالبقاء .

لقد كان يناسبني من اجل نادين ان يستنكف هنري عن تلك الرحلة . لكنني سآسف على ذلك من أجله . فهو يرى فيها مصدر سعادة عظيمة . وقال روبير :

– أنت تعرفينه جيداً ! عندما يكون عنيداً ، فهو عنيد ! من الأفضل ان أنتظر عودته .» وشد الغطاء الى قدميه . وقال في مرح : « ليس هذا كي أطردك ! لكنك عادة تكرهين ان تتأخري ... » .

ونهضت : « أنت على حق! فيجب ان أذهب . اواثق انك لا تريد المجيء؟ ».

– اواه ! كلا ليست بي أي رغبة في الحديث عن السياسة مع سكرياسين . أما أنت ، فلعله سيوفرك » .

فقلت :

– لنتمنّ هذا .

في الفترات التي كان روبير يسجن فيهـا نفسه ، كان يحدث لي غالباً ان أخرج بدونه . ولكن في هذا المساء ، عندما انطلقت في البرد ، في الظلام ، كنت نادمة

على قبولي دعوة سكرياسين . اواه ! انني افهم نفسي : انني متعبة قليلًا من رؤية الرؤوس نفسها دوماً . انني أعرفهم أكثر مما ينبغي ، فطوال أربع سنوات عشنا جنباً الى جنب ، وكان هذا يبعث حولنا الدفء . اما الآن ، فان ألفتنا قد بردت من جديد ، وهي تفوح برائحة المكان المغلق، دون كسب . لقد استسلمت لأغراء الجدة . ولكن ما الذي سنجده لنقوله لبعضنا ؟ أنا أيضاً ، ليست بي أي رغبة في الحديث عن السياسة . وتوقفت في دهليز ريتز وفحصت نفسي في المرآة . كي أظل أنيقة رغم بطاقات النسيج فقد كان لا بد ان أفكر فيها دون انقطاع . لكني فضلت ألا أهتم بشيء مطلقاً: وفي الحقيقة لم يكن مظهري حسناً ، بمعطفي الذاهب الرونق وحذائي ذي النعـــل الخشبي . كان أصدقائي يقبلونني كما أنا . لكن سكرياسين قادم من أميركا حيث تعتني النساء بأنفسهن كثيراً ، وسوف يلاحظ قبقابي . وفكرت : « كان يجب ألا أهمل نفسي الى هذا الحد » .

بالطبع، ان ابتسامة سكرياسين لم تخنه. وقد قبّل يدي ، وهذا ما أكرهه . ان اليد أكثر عرياً من الوجه، ويحرجني ان ينظر اليها عن قرب قريب . وسأل:

– ماذا تأخذين ؟ مارتيني ؟

– موافقة على المارتيني .

كان البار مليئاً بالضباط الاميركان والنساء اللابسات بعناية. وصعدت الحرارة ، ورائحة السجاير ، وطعم الجن الممزوج ، الى رأسي فوراً وشعرت انني مسرورة بوجودي هنا . لقــد أمضى سكرياسين أربع سنوات في اميركا ، البلد الكبير المحرر، البلد الذي تبصق فيه الينابيع أمواجاً من عصير الفواكه والكريمة الجامدة: وسألته في شره . وكان يجيب بطيبة خاطر بينما كنت أشرب كأس مارتيني ثانية. وتناولنا العشاء في مطعم اكتظظت فيه دون حرج باللحم الأحمر والملفوف بالكريمة. وبدوره ، جعلني سكرياسين أتكلم : كان من الصعب ان أجيب على أسئلته الدقيقة جداً . كان اذا حاولت ان أتذكر طعم ايامي اليومي – رائحة حساء الملفوف في البيت المطوق بإطفاء الأنوار ، وذلك الصمت في قلبي عندما كان روبير يتأخر في العودة مـن اجتماع سري – يقاطعني بلهجة آمرة . كان يصغي إصغاء حسناً جداً .

فأشعر ان الكلمات تشق فيه درباً طويلاً : ولكن كان يجب ان أتحدث من أجله، لا من اجلي . كان يطلب معلومات عملية : كيف كنا نتدبر أمرنا لصنع اوراق مزورة ، لطبع « الأمل » ، لتوزيعها ؟ وكان يطلب ايضاً تفاصيل واسعة: في اي مناخ معنوي كنا نعيش ؟ واجتهدت في إرضائه ، لكني لم أنجح في ذلـــك كل النجاح : فكل شيء كان أسوأ او أكثر احتمالاً مما يتصور . ان المصائب الحقيقية لم تقع عليّ أنا ، ومع ذلك فقد سكنت حياتي : كيف أتكلم عن موت دييغو ؟ لقد كانت الكلمات حزينة أكثر مما ينبغي بالنسبة لفمي ، وجافة أكثر مما ينبغي بالنسبة لذاكرته . هذا الماضي ، ما كنت أريد بأي ثمن ان ابدأه ثانية . لكنه كان مع ذلك يتخذ عذوبة قاتمة عن بعد . انني أفهم ان يكون لامبير قد مل هذا السلم الذي أعادنا الى حياتنا دون ان يعيد لنا أسبابنا في الحياة . وعندما وجدت ثانية عند باب المطعم البرد ، والظلمة ، كنت أتذكر بأية كبرياء كنا نواجههما في الماضي . اما الآن ، فأنا راغبة في النور ، في الدفء : انا ايضاً أرغب في شيء ما آخر . وكان سكرياسين قد ألقى بنفسه دون دعوة في هذر طويل ، وكنت أتمنى ان يبدل الموضوع سريعاً . كان يأخذ حانقاً على ديغول سفره الى موسكو . وقال لي بصوت متهم :

– ان ما هو خطير ، هو ان البلاد كلها تبدو وكأنها توافقه . ان رؤية بيرون ودوبروي ، وأناس شرفاء يسيرون يـداً بيد مع الشيوعيين ، لهي تمزق لا اسم له بالنسبة لانسان يعرف .

فقلت لأهدئه :

– ان روبير لا يسير مع الشيوعيين . انه يحاول ان يخلق حركة مستقلة .

فقال سكرياسين في إرهاق :

– لقد حدثني عنهـا . لكنه حدد جيداً بأنه لا ينوي العمل ضد الستالينيين الى جانبهم ، ليس ضدهم !

فقلت :

– انت لا تريد على كل حال ان ينتهج عداء الشيوعية في هذا الوقت !

فنظر الي سكرياسين في قسوة : « أقرأت كتابي « الفردوس الأحمر » ؟
– بالتأكيد .
– اذن عندك فكرة عما سيحدث لنا عندما نقدم اوروبا هدية لستالين .
فقلت :
– ليست المسألة على هذا النحو .
– بل انها لكذلك على الضبط .
– كلا! يجب ربح المعركة ضد الرجعية، واذا عاود اليسار الانقسام على نفسه، فهو هالك .
فقال سكرياسين بصوت ساخر :
– اليسار ! » وبدت منه حركة قاطعة: « آه ! دعينا من الحديث عن السياسة. انني أنفر من الحديث في السياسة مع النساء » .
فقلت :
– لست أنا التي بدأت .
فقال في وقار غير منتظر :
– هذا صحيح . انني أعتذر .
وعدنا للجلوس في بار ريتز وطلب سكرياسين قدحي وسكي . ان هـذا الطعم يعجبني لأنه طعم جديد . ولقد كانت هذه السهرة غير متوقعة ولهذا كانت تعبق بعطر شباب قديم : في الماضي كانت هناك سهرات تتشابه مع السهرات الأخرى . كنا نلتقي فيها بأناس مجهولين يقولون عبارات غير منتظرة. وأحياناً، كان يحدث شيء ما . لقد حدثت أشياء كثيرة منذ خمس سنوات : في العالم ، في فرنسا ، في باريس ، لآخرين . ليس لي . ترى ألن يحدث لي شيء أبداً ؟
وقلت :
– ظريف ان نكون هنا .
– لماذا : ظريف ؟
– الحرارة ، الوسكي ، هذه الضجة ، هذه البزات ...

ونظر سكرياسين حواليه : « انني لا أحب هـذا المكان . لقد حجزت لي غرفة لأنني مراسل مجـلة فرنسا – اميركا » . وابتسم : « لحسن الحظ سوف تصبح غالية جداً عليّ ، وسوف أرغم على مغادرتها » .

– ألا تستطيع ان ترحل دون ان تكون مرغماً ؟

– كلا . لهذا أجد المال مفسداً للغاية . » وأعاد الشباب الى وجهه بريقاً من مرح : « ما إن أحصل على شيء منه ، حتى أتعجل في التخلص منه » .

– فيكتور سكرياسين ، أليس كذلك ؟ » كان شيخ قصير أصلع ، وديع العينين للغاية ، قد اقترب من طاولتنا .

– نعم. في عيني سكرياسين كنت أقرأ الريبة، ولكن ايضاً نوعاً من الأمل.

– ألا تتعرفني ؟ لقد شخت كثيراً منذ فيينا . مانيس غولدمان . لقد قطعت على نفسي عهداً بأن أقول لك عندما ألتقي بك شكراً : شكراً على كتابك .

فقال سكرياسين في حرارة :

– مانيس غولدمان ! بالتأكيد ! أتعيش في فرنسا ، الآن ؟

– منذ ١٩٣٥. لقد أمضيت سنة في معسكر (غورس) لكني ، خرجت منه في الوقت المناسب.. » كان يتحدث بصوت أكثر وداعة أيضاً من نظرته، بصوت وديع جداً حتى أنه ليبدو ميتاً . « لا أريد ان أزعجكما . إنني مسرور بمصافحة يد الرجل الذي كتب « فيينا السمراء » .

فقال سكرياسين :

– انني مسرور برؤيتك ثانية .

كان النمساوي القصير قد ابتعد في خطى مكتومة . واختفى من البـاب الزجاجي ، وراء ضابط أميركي . وتبعه سكرياسين بعينيه . وقال فجأة :

– هزيمة اخرى ايضاً !

– هزيمة ؟

– كان يجب ان أجلسه ، وأكلمه : كان يريد شيئاً ما ، ولا أعرف عنوانه ، ولم أعطه عنواني .

كان صوت سكرياسين غاضباً .

– إذا اراد ان يجدك ثانية ، سيتوجه الى هنا .

– لن يجرؤ . كان عليّ أنا ان اباده ، ان أسأله . ولم يكن هذا صعباً ! سنة في غورس ، وأفترض انه اختبأ طوال أربع سنوات . انه في عمري ولكن كأنه هرم . يقيناً انه كان يأمل شيئاً ما . وتركته يمضي !

– لم تكن بادية عليه الخيبة . لعله كان يريد فقط ان يشكرك .

– هذه هي الحجة التي أعطاها لنفسه . » وأفرغ سكرياسين كأسه جرعة واحدة : « ولقد كان بسيطاً جداً ان أقول له اجلس . عندما أفكر بكل ما يمكنني فعله ولا افعله ! بكل الفرص التي أتركها تفلت ! اننا لا نملك الفكرة ، ولا الاندفاعة . وبدل ان نكون مفتوحين ، نحن مغلقون . هذه هي الخطيئة الكبرى : خطيئة الاهمال » . كان يتكلم دون ان يشركني في مونولوجه ، في حماسة من يؤنبه ضميره « اما أنا ، فقد كنت طوال هذه السنوات الأربع في اميركا ، في الدفء ، في الأمان ، وحيث الطعام الوفير » .

فقلت :

– لم يكن بإمكانك البقاء هنا .

– كنت أستطيع ان أختبىء أنا أيضاً .

– لست أرى ما الذي كان سيفيد هذا .

– عندما نُفي رفاقي إلى سيبيريا ، كنت في فيينا . وقد اغتيل غيرهم في فيينا من قبل القمصان السمر وكنت في باريس . وقد كنت في نيويورك أثناء احتلال باريس . المسألة هي معرفة ما اذا كان بقائي حياً يفيد شيئاً .

وأثرت بي لهجة سكرياسين . نحن أيضاً كنا نفكر بالمنفيين . كنا نخجل : لم نكن نوبخ أنفسنا على شيء . لكننا لم نتألم بما فيه الكفاية .

وقلت :

– المصائب التي لا نشارك فيها ، كأننا مذنبون فيها . » وأضفت : « كريه ان نشعر بأنفسنا أننا مذنبون » .

وفجأة ابتسم لي سكرياسين ابتسامة اشتراك سري في الذنب : « وهـــذا يتوقف » .

ولمدة لحظة تفحصت هذا الوجه الخاتل والمغموم : « تقصد ان هناك تأنيبات ضمير تحمينا ضد تأنيبات اخرى ؟ » .

فنظر إلي بدوره : « أنت لست حقاً حمقـــاء . بشكل عام لا أحب النساء الذكيات : ربما لأنهن لسن ذكيات بما فيه الكفاية . فهن يردن آنذاك ان يعطين أنفسهن أدلة ، ويتكلمن طوال الوقت ولا يفهمن شيئاً . إن ما أدهشني في المرة الأولى التي رأيتك فيها ، هي طريقتك في الصمت » .

فأخذت أضحك : « لم يكن لي خيار » .

— كنا نتحدث جميعاً كثيراً، دوبروي، بيرون ، انا نفسي . وكنت تستمعين بوجه هادىء ...

فقلت :

— أتعرف ، انها مهنتي ان استمع .

— نعم ، لكن هناك الطريقة » . وهز رأسه : « لا بد انك محللة نفسية قديرة جداً . لو كان عمري أقل من عشر سنوات ، لوضعت نفسي بين يديك . »

— أيغريك ان تحلل نفسك ؟

— الآن قـــد فات الوقت : رجل مكتمل: رجل استخدم خسائره ونقائصه ليبني نفسه . وقد يكن هدمه ، وليس شفاؤه .

— هذا ما يتعلق بنوع المرض .

كان وجهه قـــد تجرد من قوته فجأة بصدق لا يحتمل تقريباً . ولمست كآبة صوته الواثقة قلبي : وقلت في اندفاع : « هناك من هم أشد مرضاً منك » .

— كيف ذلك ؟

— ثمة أناس يتساءل المرء عندما يراهم كيف يستطيعون تحمل أنفسهم . ويقول في نفسه : لا بد انهم يشمئزون من أنفسهم ، اللهم إلا اذا كانوا ضعاف العقول : وليس هذا هو التأثير الذي تحدثه أنت .

– كلا . وابتسمت : « ولكن علاقاتي مع نفسي نادرة جداً » .

فقال سكرياسين :

– لهذا أنت مريحة جداً . لقد وجدتك فوراً مريحة : كنت تبدين كفتاة رفيعة التهذيب تترك الأشخاص الكبار يتكلمون .

فقلت :

– لي ابنة في الثامنة عشرة .

– هذا لا يعني شيئاً . على كل حال ، انني لا أستطيع تحمل الفتيات ، ولكن امرأة تشبه فتاة : هذا ساحر .

وتفحصني في تدقيق :

– غريب في الوسط الذي تعيشين فيه، جميع النساء متحررات جداً : وانت، انني لأتساءل ما اذا كنت قد خدعت زوجك مرة .

– خدعت : يا لها من كلمة فظيعة ! نحن احرار ، انا وروبير ، ولا نخفي عن بعضنا البعض شيئاً .

– ولكنك لم تستعملي هذه الحرية أبداً ؟

فقلت في شيء من الحرج : « عند المناسبة » . وأفرغت كأس المارتيني لأتماسك . لم تكن هناك مناسبات كثيرة . ولقد كنت مختلفة جداً عن روبير حول هذه النقطة . فقد كان يبدو له طبيعياً ان يلتقط بغياً جميلة من احد البارات ويمضي ساعة معها . وانا ما كنت لأقبل ابداً كعشاق برجال لا أستطيع ان اجعل منهم أصدقاء . ولقد كانت صداقتي كثيرة المطالب . خلال هذه السنوات الخمس عشت طاهرة دون أسف ، وأعتقد انني سأبقى كذلك الى الأبد . لقد كان طبيعياً ان تنتهي حياتي الأنثوية : لقد كانت هناك أشياء أخرى كثيرة قد انتهت ، الى الأبد ...

كان سكرياسين يتفرس في وجهي في صمت :

– على كل حال ، انني على استعداد للمراهنة بأنك لم تعرفي رجالاً كثيرين في حياتك .

فقلت :

– هذا صحيح .

– لماذا ؟

– لم يتوفر ذلك .

– إذا لم يتوفر ذلك ، فلأنك لم تبحثي أبداً .

– بالنسبة لجميع الناس ، أنا زوجة دوبروي او الدكتورة آن دوبروي : هذا لا يوحي إلا بالاحترام .

فضحك : « انني لا أميل كثيراً إلى احترامك » .

وساد صمت قصير وقلت : « لماذا يتوجب على امرأة متحررة ان تنام مع جميع الناس ؟ » .

ونظر إلي بقسوة : « إذا اقترح عليك رجل تشعرين نحوه ببعض الميل ان تمضي الليل معه ، فهل تفعلين ذلك ؟ » .

– هذا يتوقف .

– علامَ ؟

– عليه ، على الظروف .

– لنفترض انني أقترح عليك ذلك ، الآن .

– لست أدري .

كنت أراه يأتي منذ بعض الوقت ، ومع ذلك فقد أُخذت على حين غرة .

– انني أقترح ذلك عليك : أنعم أم لا ؟

فقلت :

– أنت تسير بسرعة كبيرة .

– انني أكره التصنع : ان مغازلة امرأة اذلال لها وللذات . لا اعتقد انك تحبين الملاطفات المتكلفة ...

– كلا . ولكني أحب ان أفكر قبل ان اتخذ قراراً .

– فكـّري .

وطلب قدحين آخرين من الوسكي . كلا . لم تكن بي رغبة في النوم معه ولا مع أي رجل آخر . ان جسدي مقيم منذ زمن بعيد جداً في خمود اثاني : فبأي شبق كنت سأزعج راحتي ؟ على كل حال ، كان هذا يبدو مستحيلاً . لقد ذهلت غالباً من السهولة التي تمنح بها نادين نفسها لمجهولين . ولم يكن بين جسدي المنزوي والرجل الذي يشرب منزوياً إلى جانبي ، أية رابطة . ان أتصور نفسي عارية بين ذراعيه العاريتين ، كان هذا غير لائق كما لو انني أفترض أمي العجوز مكاني . وقلت :

– لننتظر كيف ستتحول هذه السهرة .

فقال :

– هذا عبث . كيف تريدين ان نتحدث في السياسة أو علم النفس مع ذلك السؤال الذي سيجول في رأسنا ؟ لا بد انك تعرفين ماذا ستقررين : قولي ذلك فوراً .

كان نفاد صبره يؤكد لي بعد كل شيء انني لست أمي العجوز . كان لا بد ان أعتقد ، ولو لساعة ، انني قابلة للاشتهاء ، ما دام يشتهيني . ان نادين تزعم انه لا فرق بين التمدد على سرير والجلوس إلى مائدة : لعلها على حق . انها تتهمني انني أتصدى للحياة بقفازات من جلد جدي بارد . هل هذا صحيح ؟ ماذا سيحدث إذا نزعت قفازي ؟ وإذا لم أخلعهما هذا المساء ، فهل سأنزعهما بعد الآن ؟ كنت أقول في نفسي عقلياً : « لقد انتهت حياتي » . ولكن ضد أي عقل كان لا يزال أمامي الكثير من السنوات لأقتلها .

وقلت فجأة : « ليكن ، سيكون الجواب نعم » .

فقال بصوت مشجع أشبه بصوت طبيب أو معلم :

– آه ! هو ذا جواب طيّب .

وأراد ان يأخذ يدي لكني رفضت هذه المكافأة .

– أريد قهوة . أخشى ان أكون قد شربت أكثر مما ينبغي .

فابتسم وقال : « لو كنت اميركية لطلبت كأس وسكي أخرى . ولكنك

على حق : من الجبن ان يكون أحدنا غير محتفظ بكامل رأسه » .

وطلب فنجاني قهوة ، وساد صمت محرج . لقد قلت نعم مودة له إلى حد كبير . بسبب تلك الألفة المؤقتة التي عرف كيف يخلقها بيننا : والآن ان هذه الـ « نعم » تجمد مودتي . وما فرغ فنجانانا ، حتى قال :

– لنصعد إلى غرفتي .

– فوراً ؟

– لمَ لا ؟ ؟ أنت ترين جيداً اننا لم نعد نجد ما نقوله .

كنت أود ان يتاح لي الوقت لأعتاد على قراري ، وآمل ان يولد من حلفنا شيئاً فشيئاً تشاركُك . ولكن الواقع انني لم أكن أجد ما أقوله .

– لنصعد .

كانت الغرفة مزحومة بالحقائب ، وفيها سريران نحاسيان ، احدهما مغطى بالثياب والأوراق . وعلى طاولة مستديرة ، زجاجات شمبانيا فارغة . وأخذني بين ذراعيه وأحسست على فمي بفم عنيف مرح . نعم ، كان ذلك ممكناً ، كان سهلاً وشيء ما يحدث لي : شيء آخر . وأغلقت عيني ، ودخلت في حلم له ثقل الواقع نفسه ، حلم سأستيقظ منه عند الفجر ، خفيفة القلب . وعندئذ سمعت صوته : « لكأن الفتاة خائفة . اننا لن نؤذي الفتاة . سوف نفتض بكارتها ، لكن دون أن نوجعها » . وأيقظتني بقسوة هذه الكلمات الموجهة إليّ . انني لم آت إلى هنا لأمثل دور العذراء المغتصبة ، ولا أي دور آخر . وانتزعت نفسي من عناقه .

– انتظر .

والتجأت إلى غرفة الحمام ، واجريت تواليتاً سريعاً وأنا أدفع كل الأفكار: لقد فات الأوان للتفكير . ولحقني إلى السرير قبل ان يتاح لأية فكرة ان تتملكني ، وتعلقت به : انه الآن أملي الوحيد . ونزعت يداه قميصي الداخلي ، وكانتا تداعبان بطني . واستسلمت لموجة الشهوة السوداء . كنت أُحمل ، وأهز ، وأغرق ، وأُرفع ، وأُرمى . وبين لحظة وأخرى كنت أهوي في الفراغ هوياً . كنت سأسقط في النسيان ، في الليل ، يا لها من رحلة ! وألقاني صوته على السرير

ثانية: «هل يجب ان أنتبه؟ — إذا كان هذا ممكناً . — ألا تضعين مانعاً للحمل؟».
كان السؤال فظاً جداً حتى انني أخذت بغثيان ، وقلت : « كلا . — آه لماذا ؟».
كان من الصعب ان أجيب بسرعة . ومن جديد انكفأت على نفسي تحت يديه ، وجمعت الصمت والتصقت بجلده والتهمت دفئه بكل مسامي . كانت عظامي ، وعضلاتي تذوب تحت هذه النار ، وكان الهدوء يلتف حولي في حلزونيات حريرية عندما قال آمراً : « إفتحي عينيك » .

ورفعت جفنيّ ، لكنهما كانا ثقيلين ، وسقطا تلقائياً على عيني اللتين كان الضوء يجرحهما . وكان يقول : « إفتحي عينيك . هذا أنا ، هذه انت » . وكان على حق ، وانا لا أريد ان أهرب منا . ولكن كان لا بد أولاً ان أعتاد على هذا الحضور غير الاعتيادي : جسدي . ان أنظر الى وجهه الغريب ، وان أضيع في داخلي تحت نظرته : هذا كثير في آن واحد معاً . إنني أنظر اليه ما دام يطلب ذلك : لقد توقفت في منتصف طريق الاضطراب في منطقة بلا نور ولا ليل ، لم أكن فيها لا جسداً ولا لحماً . ورمى الغطاء ، وفي اللحظة نفسها شعرت ان الغرفة ناقصة التدفئة وانه لم يعد لي بطن فتاة . وسلمت لفضوله جثة لا تشعر ببرد او حر . وداعب فمه ثديي ، وزحف على بطني ، وهبط نحو فرجي . وأغلقت عيني بسرعة ، والتجأت بكليتي إلى اللذة التي كان ينتزعها مني : لذة بعيدة ، منزوية ، كزهرة مقطوعة . وهناك ، كانت الزهرة الزابلة تعبق ، وتتورق ، وكان يتمتم لوحده بكلمات أحاول ألا أسمعها . ولكني كنت أشعر بالملل . وعاد نحوي ، وأنعشتني حرارته للحظة . ووضع عضوه في يدي في حزم . ولاطفته دون حماسة فقال سكرياسين مؤنباً :

— ليس عندك حب حقيقي لعضو الرجل .

لا بد أنه استاء مني حقاً هذه المرة . كنت أفكر : « كيف أحب هذه القطعة من اللحم اذا كنت لا أحب الرجل كله ؟ وبالنسبة لهذا الرجل من أين آتي بالحنان ؟ » . كانت كراهية عينيه تثبطني : لكني لم أكن مذنبة تجاهه ، حتى ولا إهمالاً .

لم أشعر بشيء كثير عندما دخل فيّ . وفوراً عاد يتفوه بكلمات . كان فمي مليئاً بالاسمنت ، وما كنت لأستطيع إخراج تنهدة من بين فكيّ . وسكت لحظة ثم قال : « إنظري » . وهززت رأسي في ضعف : كان ما يجري هناك لا يتعلق بي إلا قليلاً جـــداً بحيث انني لو نظرت لخيّل إليّ انني متفرجة . وقال : « أتشعرين بالخجل ! الفتاة خجلة ! » . وشغله هذا الانتظار لحظة ثم تكلم من جديد: « قولي لي ماذا تحسين ؟ قوليه لي » . ولزمت الصمت . كنت احزر حضوراً فيّ ، دون ان أشعر به حقاً ، كما يدهش المرء من فولاذ طبيب الأسنان في لثة مخدرة . « هل التذذت ؟ أريد ان تلتذّي » . كان صوته يغضب ، ويطلب حسابات : « لم تلتذي ؟ لا بأس : الليل طويل » . سيكون الليل قصيراً جداً ، ستكون الأبدية قصيرة جداً : لقد خسرت الجولة ، انني اعلم ذلك . كنت أتساءل كيف سأنتهي: انني مجردة من كل سلاح عندما أجد نفسي ليلاً بمفردي ، عارية بين ذراعين عدوّتين. ورحت أفك قبض اسناني ، وأنتزع من نفسي كلمات . « لا تهتم كثيراً بي . دعني ... » . فقال في غضب : « ألا إنك لست باردة . انت تقاومين بعقلك . لكني سأرغمك . . » .

فقلت : « كلا . كلا ... » . كان من الصعب جداً ان أعبر عن نفسي . كان هناك حقد حقيقي في عينيه ، وخجلت من انني تركت نفسي تؤخذ بسراب عذب من المتعة الجسدية : ان الرجل ليس حماماً ، كنت أتبين ذلك .

كان يقول :

ـ آه ! أنت لا تريدين ! لا تريدين ! يارأس البغل !

ضربني بخفة على ذقني . كنت أكثر تعباً من ان أهرب في الغضب . وأخذت ارتعد : قبضة تهوي ، ألف قبضة... وفكرت : « العنف في كل مكان » . كنت أرتعد ، واخذت الدموع تنساب .

انه الآن يقبّـــل عيني ، ويتمتم : « انني أشرب دموعك » ، وكان على وجهه حنان غاز يعيده الى طفولتــه ، وأشفقت عليه بقدر ما كنت أشفق على نفسي : كنا كلانا ضائعين ، خائبين . ورحت أداعب شعره ، وأفرض على نفسي مخاطبته

بضمير الأنت :

– لماذا تكرهني ؟

فقال في أسف :

– آه ! كان غضباً ! كان غضباً .

– لكني لا أكرهك . انني احب حقاً ان أكون بين ذراعيك .

– هذا صحيح ؟

– صحيح .

على نحو ما ، كان هـــذا صحيحاً . فقد كان شيء ما يحدث : كان فاشلاً ، حزيناً ، سخيفاً ، لكنه كان حقيقياً . وابتسمت :

– لقد جعلتني أمضي ليلة ظريفة : ابداً لم أمض ليلة مماثلة .

– ابداً ؟ حتى مع شبان ؟ ألا تكذبين ؟

كانت الكلمات قد كذبت عني : لقد اخذت كذبها على عاتقي .

– ابداً .

وضمني إليه في حمى . ثم من جديد دخل فيّ . وقال : « اريد ان تتمتعي في الوقت نفسه معي . أتريدين ؟ ستقولين لي : الآن .. » .

وفكرت في غيظ : هذا ما اخترعوه : التوافق ! وكأن هذا يثبت شيئاً ما . وكأن هذا يمكن ان يحل محل التفاهم . حتى ولو تمتعنا معاً ، فهل سنكون أقل انفصالاً ؟ انني اعلم جيداً ان لذتي ليس لها صدى في قلبه ، وإذا كنت انتظرها في نفاد صبر ، فهذا فقط كي أتخلص . ولكني كنت مقهورة : لقد قبلت ان أتنهد وان أئن . ليس بشكل أخرق على ما أتصور ، لأنه سألني :

– أتمتعت ؟

– نعم ، أؤكد لك .

لقد كان مقهوراً هو ايضاً ، لأنه لم يلح . وفوراً تقريباً نام ملتصقاً بي ونمت انا ايضاً . وأيقظتني ذراعه التي كانت في صدري ، وقال:

– آه ! انت هنا ! » وفتح عينيه : « كنت أرى كابوساً . انني ارى دومـــاً

كوابيس » . كان يحدثني من بعيد لبعيد ، من اعماق الظلمات :

– أليس عندك مكان تخبئينني فيه ؟

– أخبئك فيه ؟

– نعم . من المفيد ان نختفي ، ألا نستطيع ان نختفي معاً ، بضعة ايام ؟

– ليس عندي مكان . ولا استطيع ان اذهب .

فقال :

– هذا مؤسف . » وسأل : « ألا ترين ابداً كوابيس ، انت ؟ » .

– ليس غالباً .

– آه ! انني أحسدك . انني بحاجة إلى احد إلى جانبي ، ليلاً .

فقلت :

– ولكن سيتوجب عليّ ان اذهب .

– ليس فوراً . لا تذهبي . لا تتركيني . » وامسك كتفي : كنت طوفاً ، في اي غرق ؟ وقلت :

– سأنتظر ان تنام . أتريد ان نلتقي ثانيةً غداً ؟

– بالتأكيد . سأكون عند الظهر في المقهى – التبغ جانب بيتك . أهـذا مناسب ؟

– اتفقنا . حاول ان تنام بهدوء .

عندما اشتد تنفسه ، انسبت خارج السرير . كان من القسوة ان انتزع نفسي من هذه الليلة التي تلتصق بجلدي . لكن لم اكن اريد اثارة شكوك نادين . كانت لكل منا طريقتها في خدع الأخرى : فهي تقول لي كل شيء ، وانا لا أقول لها شيئاً . وبينما كنت أعيد لنفسي امـام المرآة قناعاً من الاحتشام ، كنت أفكر بأنها أثـّرت على قراري وانني حاقدة عليها لذلك . وبمعنى ما لم أكن نادمة على شيء . فالمرء يتعلم اشياء كثيرة عن رجل ، في سرير ! اكثر بكثير من إجباره على الهذر طوال اسابيع فوق اريكة . كل ما هنالك ، انني ، بالنسبة لهذا النوع من التجربة كبيرة القابلية للأذى .

لقد شغلت كثيراً طوال الصباح . سيزوناك لم يأتِ . لكن جـاءني زبائن كثيرون . ولم استطع ان افكر إلا بشكل اصم بسكرياسين : انني بحاجة إلى رؤيته ثانية . ان ليلتنا تثقل على قلبي ، غير منتهية ، لا مجدية ، وكنت آمل اننا بالحديث سننجح في ختمها ، في انقاذها . ووصلت إلى المقهى قبله : مقهى صغير احمر جداً ، طاولاته مصقولة ، كنت اشتري منه غالباً سجاير،لكني لم اجلس فيه مطلقاً . في المقصورات ، كان ازواج يتهـامسون . وطلبت كأس بورتو مقلد . كنت اشعر انني في مـدينة غريبة ، ولا ادري مـاذا كنت انتظر . ووصل سكرياسين راكضاً :

– انني أعتذر . كان عندي عشرة مواعيد .

– لطف منك ان تأتي على كل حال .

وابتسم لي : « أنت جيداً ؟ » .

– جيداً جيداً .

وطلب هو أيضاً كأس بورتو مقلد ثم مال نحوي . لم يكن قد بقي شيء حاقد في وجهه :

– أريد ان اطرح عليك سؤالاً ؟

– اطرحه .

– لماذا قبلت بسهولة ان تصعدي الى غرفتي ؟

وابتسمت وقلت : « مودّة » .

– لكنك لم تكوني سكرانة ؟

– مطلقاً .

– ولم تندمي ؟

– كلا .

وتردد . كنت أشعر انه يتمنى لكاتالوجه الخاص كلمة نقدية مفصلة : « أريد ان اعرف . في إحدى اللحظات قلت لي انك لم تقضي ابداً ليلة مماثلة : هل كان هذا صحيحاً ؟ » .

فضحكت في شيء من الحرج : « نعم ولا » .
فقال خائباً :
– آه ! هذا ما كنت أظنه . ليس هذا صحيحاً قط .
– انه صحيح في لحظتها . وأقل صحة في اليوم التالي .
وجرع دفعة واحدة النبيذ الممزوج وتابعت : « أتعرف ما الذي جمّدني : انه كان يبدو عليك احياناً حقد شديد » .
فهز كتفيه : « هذا لا يمكن تجنّبه ! » .
– لماذا ? صراع الجنسين ?
– اننا لسنا في نفس الشاكلة . اقصد سياسياً » .
ولبثت مذهولة : « للسياسة مكان صغير جداً في حياتي ! » .
فقال في جفاء : « حتى اللامبالاة هي اتخاذ موقف . ففي هذا الميدان ، كما ترين ، اذا لم يكن المرء معي تماماً فهو بعيد جداً عني » .
فقلت مؤنبة :
– اذن ، كان يجب ألا تسألني الصعود الى غرفتك .
فغضنت ابتسامة مختالة عينيه :
– ولكن سواء عليّ ان تكون المرأة بعيدة عني ، اذا كنت أشتهيها . انني استطيع بكل بساطة ان انام مع فاشية .
– هذا ليس عليك سواء لأنك كنت حاقداً .
فابتسم ايضاً :
– في السرير ، ليس رديئاً ان نتكاره قليلاً .
فقلت :
– هذا فظيع . » وتفرست في وجهه وقلت : « انت لا تخرج بسهولة من نفسك ! انت تستطيع ان تنضم الى الناس في الشفقة ، في توبيخ الضمير : ويقيناً ليس في المودة » .
فقال :

– آه ! انت اليوم التي تحللين نفسيتي . تابعي : انني أعبد هذا .

كان في عينيـــه الشر الأهوس نفسه الذي كان فيهما عندما كان يراقبني ، في الليل : وما كنت لأتحمله إلا لدى طفل او مريض .

– انت تعتقد ان العزلة يمكن ان تتحطم بالضربات الحازمة : ولكن في الحب ليس هناك اخرق من ذلك .

وفهم الضربة !

– مجمل القول ، ان تلك الليلة كانت فاشلة .

– بقدر متفاوت .

– هل تعاودينها ؟

فترددت :

– نعم .. انني لا أحب ان انام على فشل .

فتصلب وجهه وقال : « انها حجة سيئة » . وهز كتفيه : « ان الحب لا يفعل بالعقل » .

كان هذا رأيي ايضاً : اذا كانت كلماته ورغباته قد جرحتني ، فلأنهـا كانت آتية من عقله . وقلت : « أعتقد ان لدينا من العقل أكثر مما ينبغي لكلينا » .

فقال :

– اذن من الأفضل ألا نعاود .

– هذا ما اعتقده ايضاً .

نعم ، ان فشلاً ثانياً سيكون اسوأ . ولم يكن النجـاح معقولاً : إننا لا نحب بعضنا البعض مطلقاً . حتى الكلمات كانت لاجدية، فلم يحدث شيء لينقذ ، وليس لهذه القصة ختام . وتبادلنا أيضاً في تهذيب بعض الثرثرة وعدت إلى البيت .

انني غير حاقدة عليه . ولا أكاد احقد على نفسي . وعلى كل حال ، وكما قال لي روبـــير فوراً ، ليس لهذا أهمية كبيرة : لا شيء إلا ذكرى تجرّ نفسها في ذاكرتينا ولا تخص احداً غيرنا. ولكنني عندما صعدت الى غرفتي ، وعدت نفسي بألا أحاول مطلقاً بعـد اليوم ان انزع قفازي اللذين من جلد جدي بارد. وتمتمت

وانا ألقي نظرة الى المرآة : « لقد فات الأوان . ان قفازي الآن متلحمان بجلدي، ولكي انزعها ، لا بد ان اسلخه » . كلا ، لم تكن فقط غلطة سكرياسين اذا كانت الأمور قد سارت هكذا . انها غلطتي ايضاً . فقد رقدت في ذلك السرير، فضولاً، تحدياً ، تعباً ، ولأثبت لنفسي لست ادري ماذا : ويقيناً انني اثبت العكس . وبقيت منتصبة امام المرآة . كنت أفكر بشكل مبهم انه كان بامكاني ان اجعل حياتي مختلفة . كان بإمكاني ان ألبس ، واعرض نفسي ، وأعرف ملذات الغرور الصغيرة او حميات الحواس الكبيرة . لقد فات الأوان . وفجأة فهمت لماذا يبدو لي ماضيّ احياناً ماضي امرأة اخرى . فأنا الآن امرأة اخرى : امرأة في التاسعة والثلاثين ، امرأة لها عمر !

وقلت بصوت عال : « لي عمر ! » . قبل الحرب كنت أكثر شباباً من ان تثقل علي السنون ، ثم طوال خمس سنوات نسيت نفسي تماماً . وانا اجد نفسي الآن ثانية لأعلم انني محكوم علي : فشيخوختي تنتظرني ، وليس هنـــاك وسيلة للافلات منها. انني منذ الآن ألمحها في أعماق المرأة . اواه ! انني ما زلت امرأة، ما زلت أنزف كل شهر ، ولم يتبدل شيء . كل ما هنالك انني ، الآن ، اعرف. ورفعت شعري : هذه الخطوط البيضاء ، ليست فضولاً ولا علامة ، بل بداية ، سوف يأخذ رأسي وانا حية ، لون عظامي . قد يبدو وجهي انه لا يزال مصقولاً مشدوداً ، لكن بين لحظة وأخرى ، سوف ينهار القناع ، معرّياً عينين مضنكتين لامرأة عجوز . ان الفصول تعود ثانية ، والهزائم تعوّض: لكن ليست هناك أية وسيلة لتوقيف هرمي . وكنت أفكر وانا اشيح عن صورتي : « بل لم يعد هناك وقت لأقلق . لقد فات الأوان للتأسفات . وليس عليّ إلا ان استمر » .

الفصل الثالث

جاءت نادين لتأخذ هنري عدة مرات من الجريدة . بل صعدا ذات ليلة من جديد إلى غرفة في فندق ، دون فائدة كبيرة . لقد كان فعل الحب بالنسبة لنادين شاغلاً مملاً بالتأكيد : وقد مل هنري بسرعة هو ايضاً . لكنه كان يحب جداً ان يخرج مع نادين ، ان يراها تأكل ، ان يسمعها تضحك ، ان يتكلم معها . كانت عمياء بالنسبة لكثير من الأشياء . لكن رد فعلها على ما تراه كان عنيفاً ودون ان تغشّ ابداً . وكان يقول في نفسه انها ستكون رفيقة رحلة ممتعة، وكان متأثراً بشرهها . وفي كل مرة كانت تسأل :

— أتكلمت ؟

— ليس بعد .

فتطرق رأسها في أسف عميق حتى انه كان يشعر انه مخطىء . ها هو يحرمها ايضاً من الشمس ، من الأكل ، من رحلة حقيقية ، من كل ما حرمت منه. وعلى كل حال ، وحتى لمصلحة بول ، كان من الأفضل ان يشرح لها قبل الرحيل بدل ان يتركها تستهلك نفسها في الأمل طوال مدة فراقهما . وكان يشعر ، بعيداً عنها ، انه مصيب : فهو لم يمثل عليها ابداً . وهي تكذب على نفسها عندما تتظاهر بالايمان ببعث ماض مات ودفن . ولكن عندما كان يجد نفسه قربها ، كان يشعر ان له اخطاءه هو الآخر . وكان يتساءل وهو يراها تذهب وتجيء عبر الاستديو : « هل انا نذل لأنني كففت عن حبها ؟ او هل كان غلطة حبي لها ؟ » . كان في « الدوم » مع جوليان ولويس ، وإلى طاولة مجاورة كانت هناك تلك المراة الجميلة

التي بلون نبات الحلوة ، تقرأ « حادث سوء » في تصنع . وكانت قد وضعت على الطاولة قفازين طويلين بنفسجيين . وعندما مرّ من أمامها، قال : « لديك قفازان جميلان حقاً ! – أيعجبانك ؟ انهما لك. – وماذا تريدين ان اصنع بهما ؟ – ستحفظ بهما ذكرى للقائنا » . وتألقت نظرتهما في آن واحد ، معاً . وبعد ساعات كان يضمها إليه ، عارية ، ويقول : « انت جميلة جداً ! » . كلا ، انه لا يستطيع ان يدين نفسه . كان من الطبيعي ان يؤخذ بجمال بول ، بصوتها ، بلغز حديثها ، بحكمة ابتسامتها البعيدة . كانت اكبر سناً منه قليلاً ، وكانت تعرف كمية من الأشياء الصغيرة كان يجهلها وتبدو له أهم من الأشياء الكبيرة . وكان اكثر ما يعجب به فيها، احتقارها لثروات هذا العالم. كانت تحلق في منطقة خارقة للطبيعة، وكان يائساً من اللحاق بها ، ولقد اقلقه ان تتنازل لتصبح جسداً بين ذراعيه . واعترف في نفسه : « يقيناً لقد ركبت رأسي قليلاً » . لقد صدقت إيمان الأبدية ومعجزة ان تكون نفسها . ولا شك في انه مذنب في هذه النقطة : عندما مجّد بول بلا حد كي يأخذ فيما بعد بشكل واعٍ جداً حده . نعم ، لقد ارتكب كلاهما اخطاء ، وليست هذه هي المشكلة : بل المشكلة ان يخرج من هنا . وكان يقلب عبارات في فمه : هل تشك في الأمر ؟ بشكل عام ، عندما كان يلزم الصمت ، كانت تتسرع في سؤاله .

وسأل :

– لماذا تغيرين مكان هذه التحف ؟

– ألا تجد ان هذا اجمل هكذا ؟

– أيضجرك ان تجلسي دقيقة ؟

– هل اغيظك ؟

– مطلقاً . ولكن اريد ان أكلمك .

وضحكت ضحكة صغيرة متشنجة : « كم تبدو وقوراً ! لن تقول لي انك لم تعد تحبني ؟ » .

– كلا .

فقالت وهي تجلس :
– اذن كل ما تبقى سواء عندي . » ومالت نحوه بوجه صابر ، وساخر قليلاً :
« تكلم ، يا حبي ، إني مصغية لك » .
فقال :
– ان نتحاب ، او لا نتحاب : ليست هذه المشكلة الوحيدة .
– بالنسبة لي ، إنها الوحيدة .
– ليس بالنسبة لي ، انت تعرفين ذلك . فللأشياء الأخرى أهميتها .
– نعم ، اعرف : عملك ، الأسفار . انني لم احولك عنها قط .
– هناك شيء آخر انا حريص عليه ، ولقد قلته لك غالباً : حريتي .
فابتسمت من جديد : « لا تقل لي انني لا اتركك حراً ! » .
– حراً بقدر ما تسمح به حيـــاة مشتركة . ولكن الحرية بالنسبة لي ، تعني، اولاً الوحدة. أتذكرين، عندما اقمت هنا ، اتفقنا على ان هذا لمدة الحرب فقط .
كانت قد كفت عن الابتسام وقالت : « لم أكن اظن انني اثقل عليك » .
– ما من احد يستطيع ان يكون اقل ثقلاً منك . لكني أرى ان الوضع كان افضل عندما كان كل منا يعيش لوحده .
فابتسمت بول : « كنت تجدني هنا كل ليلة . وتقول انك بدوني لا تستطيع ان تعيش » .
لقد قال هذا طوال سنة ، ليس اكثر ، لكنه لم يحتج . وقال : « موافق . لكني كنت اشتغل في غرفتي ، في الفندق ... » .
فقالت بصوت متسامح :
– كانت تلك الغرفة احدى نزواتك وانت شاب . لا اختلاط ، ولا تلاصق : اعترف انه كان مجرداً جداً ، دستورك . انني لا استطيع ان أصدق انك لا تزال تنظر إليه بعين الجد .
– كلا . انه ليس مجرداً . ان الحياة المشتركة تؤدي إلى التوتر والتراخي في آن واحد . فأنا أتبين انني غالباً كريه او مهمل وان هذا يؤلمك . فمن الأفضل ألا

نلتقي إلا عندما نكون راغبين حقاً .
فقالت موبخة :
ـ انني دوماً راغبة في رؤيتك .
ـ انا ، عندما اكون متعباً او سيء المزاج ، او عندما اشتغل ، أفضل ان اكون وحيداً .
كان صوت هنري جافاً . ومن جديد ابتسمت بول :
ـ ستكون وحيداً طوال شهر . سنرى عند العودة إذا لم تبدل رأيك .
فقال في حزم :
ـ كلا . لن أبدله .
وفجأة اهتزت نظرة بول وتمتمت : « اقسم لي شيئاً » .
ـ ماذا ؟
ـ انك ابداً لن تقيم مع امرأة اخرى ؟...
ـ انت مجنونة ! يا لها من فكرة ! يقيناً انني اقسم لك .
فقالت في لهجة مستسلمة :
ـ اذن ، تستطيع ان تسترد عاداتك كشاب .
وتفرس في وجهها في فضول : « لماذا سألتني هذا ؟ » .
ومن جديد ، ترنحت نظرة بول . ولزمت الصمت لحظة . ثم قالت بصوت مصطنع الهدوء : « اواه ! انني أعلم ان ما من امرأة أخرى ستحصل ذات يوم على مكاني في حياتك. ولكني أتعلق برموز» . وقامت بحركة لتنهض ، وكأنها خشيت ان تسمع المزيد لكنه أوقفها . وقال :
ـ انتظري . يجب ان أحدثك بصراحة تامة . لن أعيش أبداً مع اخرى ، ابداً . ولكن ، وهذا بلا شك بسبب تقشف هذه السنوات الأربع ، بي رغبة الى الأشياء الجديدة ، الى المغامرات . بي رغبة الى قصص بلا أهمية مع نساء .
فقالت بول في رصانة :
ـ ولكن عندك واحدة ، أليس كذلك ؟ مع نادين .

ـ كيف تعرفين ذلك ؟
ـ انت لا تحسن الكذب .

انها أحياناً عمياء للغــــاية ! وأحياناً ثاقبة النظر للغاية ! كان محتاراً . وقال في حرج : « لقد كنت أبله إذ لم أحدثك عن الأمر . لكن كنت أخشى ان اؤلمك وبدون سبب . لم يحدث شيء ، ولن تدوم القصة طويلاً » .

ـ اواه ! اطمئن ! انني لا أغار من طفلة ، وعلى الأخص نادين ! » واقتربت من هنري وجلست على ذراع مقعده : « لقد قلت لك ذلك ليلة الميلاد : ان رجلاً مثلك لا يخضع للقوانين نفسها التي يخضع لها الآخرون . هناك شكل مبتذل للوفاء لن أطلبه منك ابداً . الله مع نادين ، ومع مـن تشاء » . وداعبت في مرح شعر هنري : « انت ترى انني أحترم حريتك ! » .

فقال :

ـ نعم . » كان قد اطمأن وخاب أمله في آن واحد ، فهذا النصر السهل جداً لا يقوده الى شيء . وعلى الأقل يجب دفعه حتى النهاية . وأضاف : « ليس لنادين ظل عاطفة عليّ . كل ما تريده هو ان أصطحبها في رحلتي . ولكن بالطبـع عنـد العودة سنفترق » .

ـ في رحلتك ؟
ـ سترافقني الى البرتغال .

ـ كلا ؟ » قالت ذلك بول . وفجأة تطاير قناعها الهادىء مزقاً ، ورأى هنري أمامه وجهاً من لحم وعظم ، مرتجف الشفتين ، لامع العينين بالدموع : « لقــد قلت انك لا تستطيـع ان تأخذني ! » .

ـ لم تكوني حريصة على ذلك ، فلم أسعَ .

فصرخت في تمرد :

ـ لم أكن حريصة على ذلــك ! لكني كنت سأضحي بأحدى يدي لأذهب معك . إلا انني فهمت انك تريد ان تكون وحيداً . انني أريد كل الإرادة ان أضحي بنفسي من أجل وحدتك ، وليس من اجل نادين ، لا !

فقال في إقتناع مصطنع :

– وحيداً او مع نادين ، ليس من فرق كبير : ما دمت لا تغارين منها .

فقالت بصوت متهدج :

– بل هناك كل فرق العالم . فلوحدك ، انا معك ، ونظل معاً . اول سفر بعد الحرب : ليس لك الحق في القيام به مع امرأة اخرى .

فقال :

– اسمعي ، اذا كنت ترين في هذا رمزاً ما ، فأنت مخطئة . نادين تود ان ترى العالم ، وهي فتاة مسكينة لم تشاهد شيئاً ابداً . يسرني ان أنزهها : ولن يتجاوز الأمر طويلاً أبعد من هذا .

فقالت بول في بطء :

– إذن ، إذا كان الأمر حقاً لا يتجاوز أكثر من هذا فلا تصطحبها . »

ونظرت إلى هنري بوجه ضارع : « انني اطلب ذلك منك باسم حبنا » .

وتصادمت نظراتهما لحظة في صمت . لم يكن وجه بول كله إلا رجاء ، ولكن هنري شعر بنفسه فجأة انه عنيد كما لو ان عليه ان يواجه ، بدلاً من امرأة يائسة ، معذبين مسلحين . وقال : « لقد قلت لي انك تحترمين حريتي » .

فقالت في لهجة مستفرسة :

– نعم . ولكن إذا كنت تريد ان تهدم حبنا ، فسوف امنعك . لن اتركك تخون حبنا .

فقال بصوت ساخر :

– بتعبير آخر ، انني حر في ان افعل ما تريدينه .

فقالت منتحبة :

– اواه ! ما اظلمك ! انني اقبل كل شيء منك ، كل شيء ! ولكن هنا اعرف انه يجب ألا اقبل . ما من احد غيري يجب ان يذهب معك .

فقال :

– انت التي تسنّين هذا .

ـ ولكن هذا بديهي !

ـ ليس كذلك في نظري .

ـ لأنك تتعامى ، لأنك تريد ان تتعامى ! » وقالت بصوت منطقي: «اسمع، انت غير حريص على هذه الفتاة ، وانت ترى اي ألم تسببه لي : فلا تصطحبها » .

ولزم هنري الصمت . لم يكن هناك ما يستطيع ان يرد به على هـذه الحجة . وحقد على بول لذلك ، وكأنها استعملت ضده اكراهاً جسدياً . وقال :

ـ حسناً ، لن اصطحبها ! » ونهض وسار نحو الدرج : « ولكن لا تأتي بعد الآن لتحدثيني عن الحرية ! » .

وتبعته بول ووضعت يديها على كتفيه :

ـ أحريتك ، هي أن تؤلمني ؟

وتملص بعنف : « إذا قررت انك تتألمين عندما افعل ما ارغب في فعله ، فعليّ ان اختار بينك وبين حريتي » .

وخطا خطوة ونادت بصوت قلق : « هنري ! » . وكان ثمة رعب في عينيها : « ماذا تريد ان تقول ؟ » .

ـ ما قلته .

ـ لن تتعمد تعمداً أن تهدم حبنا ؟

فاستدار هنري نحوها ، وقال : « طيب ! حسناً ! ما دمت تصرين ، فلنتفاهم مرة واحدة ! » . كان غاضباً عليها بما فيه الكفاية ليذهب إلى اقصى حد للحقيقة : « يوجد سوء تفاهم بيننا . اننا لا نكوّن فكرة واحدة عن الحب ... » .

فأسرعت بول تقول :

ـ ليس هناك اي سوء تفاهم . اعرف ما الذي ستقوله لي : ان الحب هو كل حياتي ، وانت تريد ان يكون شيئاً واحداً فقط في حياتك . انني اعرف هـذا ، وانا موافقة .

فقال هنري :

ـ نعم ، ولكن بدءاً من هنا تنطرح اسئلة .

فقالت بول :
– كلا ! آه ! كل هذا بلاهة . » واضافت بصوت مضطرب : « لن تعيــد النظر في حبنا لأنني طلبت منك ألا ترحل مع نادين !
– لن أرحل معها ، اتفقنا . ولكن إنما أعني شيئاً آخر ...
فقالت بول فجأة :
– اواه ! إسمع . لننته من هذا . اذا كنت بحاجة حقاً الى اصطحابها لتثبت لنفسك انك حر ، فانني لأفضل ان تصطحبها . لا أريد ان تعتقد انني أضطهدك .
– لن أصطحبها بالتأكيد ، اذا كنت ستتألمين طوال هذه الرحلة !
– سأتألم أكثر ايضاً اذا تسليت بتهديم حبنا حقداً . » وهزت كتفيها : « وانت قادر على هذا تماماً : لأنك تعلق أهمية كبيرة على أبسط نزواتك » .
ونظرت اليه بوجه ضارع . كانت تنتظر ان يجيب : « لن أحقد عليك » . انها تستطيع ان تنتظر طويلاً . وتنهدت : « انت تحبني ، لكنك لا تريد ان تضحي بشيء من اجل حبنا . يجب ان أكون انا التي تعطي كل شيء » .
فقال بصوت ودي :
– بول ، اذا قمت بهذه الرحلة مع نادين ، فانني أكرر عليك انني سأكف عن رؤيتها عند العودة ، وانه لن يتغير شيء بينك وبيني .
وسكتت . وفكر هنري : « إن ما أفعله شانتاج، انه دنيء قليلاً » . والأقبح من كل شيء هو ان بول تعي ذلك . انها ستمثل دور الكريمة مع علمها انها راضية بساومة قذرة للغاية . ولكن ماذا ؟ يجب ان يريد الانسان ما يريده . وكان يريد ان يصطحب نادين .
وقالت بول :
– إفعل ما تشاء . » وتنهدت : « افترض انني أعلق أهمية كبيرة على الرموز . واذا شئت الحقيقة ، فانه سواء رافقتك هذه الفتاة أم لم ترافقك ، فليس هنــاك أي فرق » .
فقال هنري في حزم :

– صحيح ، ليس هناك أي فرق .

ولم تعد بول الى المسألة في الأيام التالية ، ولكن كل حركة من حركاتها ، كل صمت ، كان يعني : « انني بلا دفاع . وأنت تستغل ذلك » . صحيح انها لا تملك أي سلاح ، ولا ابسط سلاح : ولكن حتى هذا العري كان فخاً . فهو لا يترك لهنري أي مخرج سوى ان يجعل من نفسه ضحية او جلاداً . ولم تكن به أية رغبة في تمثيل دور الضحية . والمزعج انه لم يكن أيضاً جلاداً . ولقد شعر بضيق متن نفسه في المساء الذي انضم فيه الى نادين على رصيف محطة اوسترليتز . وقالت مدمدمة بين أسنانها :

– لم تأتِ قبل الموعد .

– لم آتِ متأخراً .

– لنسرع في الصعود : فقد يمضي القطار .

– لن يمضي قبل الميعاد .

– من يدري !

وصعدا واختارا مقصورة فارغة . ولبثت نادين مغروسة مدة طويلة والحيرة بادية عليها بين المقعدين ، ثم جلست الى جانب النافذة ، مديرة ظهرها للقاطرة . وفتحت حقيبتها وشرعت تتهيأ للاقامة بحركات عانس عجوز مدققة : فضمت روب دي شامبر ، وشبشبين ، ولفّت ساقيها بغطاء ، ووضعت وسادة تحت رأسها . ومن السلة التي كانت تستعملها بدل حقيبة أخرجت حبة علكة ، وعندئذ تذكرت وجود هنري وابتسمت بشكل مغرٍ :

– هل تنازعت مع بول عندما رأت انك مصمم على اصطحابي ؟

فهز هنري كتفيه : « بديهي ان هذا لم يعجبها » .

– ماذا قالت ؟

فقال في جفاء :

– لا شيء يخصك .

– ولكن احب ان اعرف .

– وانا لا احب ان اروي لك .

وأخرجت من سلتها غزلها الأحمر واخـــذت تطقطق الصنارتين وهي تمضغ علكتها . وفكر هنري في استياء : « انها تبالغ » . لعلها كانت تثيره عن قصد ، لأنها تشك في ان تأنيب ضمير هنري لا يزال متخلفاً في الاستديو الأحمر . لقـــد قبلته بول دون دموع : « قم برحلة جميلة » . ولكنها في هذه اللحظة ، كانت تبكي . وقال في نفسه : « سأكتب فور وصولي » . كان القطار يهتز ، ويمخر عبر غسق حزين في الضاحية . وفتح هنري رواية بوليسيـة . وألقى نظرة على الوجـه المتجهم ، تجاهه . انه الآن ، لا يستطيـع شيئاً ضد حزن بول ، فلا داعي لافساد متعة نادين بالاضافة إلى ذلك . وبذل جهداً وقال بانطلاق :

– غداً في مثل هذه الساعة سنعبر اسبانيا .

– نعم .

– انهم لا ينتظرون مجيئي في مثل هذا الموعد المبكر في لشبونة،لهذا سيكون امامنا يومان لنا نحن الاثنين .

ولم تجب بشيء . . وتابعت الغزل للحظة في اجتهاد . ثم تمددت على المقعد ، ودفعت بكرتين من الشمع إلى اذنيها ، وعصبت عينيها بمنديل وأدارت ردفهـــا لهنري . وقال في نفسه في سخرية : « انا الذي كان يأمل ان يجد تعويضاً عن دموع بول في ابتسامات ! » . وانهى روايته واطفأ النور . كان الدهان الأزرق قـــد اختفى من على الزجاج ، لكن السهول كانت سوداء كلهـا تحت سماء بلا نجوم ، وكان الجو بارداً في المقصورة . لماذا هو في هذا القطار ، تجاه هذه الغريبة التي كانت تتنفس بصوت مسموع ؟ وفجأة خيل إليه ان من المستحيل ان يكون المـاضي بانتظاره .

وقال في نفسه صباح اليـــوم التالي في حقد ، على الطريق الذي يؤدي إلى « ايرون » : « انها تستطيـع على كل حال ان تكون اكثر لطفاً ! » . ولم تبتسم نادين حتى عند خروجها من محطة « هنداي » حيث شعرا بالشمس والريح الخفيفة على جلديها . وبينما كان يسجل الفيزا على جوازيها ، كانت تتثاءب بلا تحفظ . وهي

الآن تسير امامه في خطى كبيرة غلامية . كان يحمل الحقيبتين الثقيلتين ، ويشعر بالحر تحت هذه الشمس الجديدة، وينظر دون سرور إلى الساقين القويتين المشعرتين قليلًا اللتين كان الجوربان يظهران عريها الكريه . وكان حاجز قد اغلق وراءهما ، ولأول مرة منذ ستة اعوام كان يدوس ارضاً ليست فرنسية . وارتفع حاجز امامها وسمع صيحة نادين : « اواه ! » . كان هذا الأنين الأساسي هو ما حاول ان ينتزعه منها عبثاً بدعاباته .

– اواه ! انظر !

على حافة الطريق ، قرب منزل محروق ، كانت واجهة دكان برتقال ، وموز ، وشوكولا . واندفعت نادين ، وامسكت برتقالتين وناولت احداهما لهنري . وعند رؤية هذا الفرح السهل الذي يفصله كيلومتران عن فرنسا بشكل حاسم ، شعر في صدره بذلك الشيء الأسود القاسي ، الذي اخذ منذ اربع سنين مكان قلبه ، يتحول إلى خيوط حريرية. لقد نظر دون ان يرف له جفن إلى صور أطفال هولانديين يحتضرون جوعاً : وها هو يشتهي الجلوس على حافة الحفرة ، ورأسه بين يديه ، والا يتحرك بعد ذلك .

كانت نادين قد استعادت مزاجها الحسن . وحشت نفسها بالثمار والسكاكر عبر الأرياف الباسكية والبوادي القشتالية . وكانت تنظر مبتسمة إلى سماء اسبانيا . وامضيا ليلة اخرى نائمين على غبار المقاعد . وعند الصباح تابعا نهراً ازرق شاحباً كان يزحف بين اشجار الزيتون ثم تحول إلى نهر عريض ، ثم إلى بحيرة . وتوقف القطار : لشبونة .

– كل هذه التاكسيات !

كان صف طويل من التاكسيات ينتظر في ساحة المحطة . ووضع هنري الحقيبتين في مكتب المحطة وقال لأحد السائقين : « نزّهنا » . كانت نادين تشد على ذراعه صارخة من الرعب وهما يجتازان ، في سرعة كانت تبدو مدوخة ، الشوارع الوعرة حيث تتدحرج الحافلات : لقد فقدا عادة ركوب السيارة . وكان هنري يضحك هو الآخر وهو يشد على ذراع نادين . كان يدير رأسه ، يميناً وشمالاً ، في

فرح غير مصدق : كان الماضي بالانتظار . مدينة جنوبية ، مدينة حارقة ورطبة وعلى أفقها وعد البحر وريح مالحة تصفع تضاريسها : انه يتعرفها . ومع ذلك فقد كانت تدهشه أكثر مما كانت تدهشه مارسيليا ، واثينا ، ونابولي ، وبرشلونة ، لأن كل جدة اليوم كانت أشبه بمعجزة . لقد كانت جميلة هذه العاصمة ذات القلب الحكيم ، والتلال غير المنتظمة ، بمنازلها الباردة ذات الألوان الدافئة ، وبمراكبها البيضاء الكبيرة . وقال :

– اتركنا في مكان ما في الوسط .

وتوقف التاكسي في ساحة كبيرة محاطة بدور السينما والمقاهي . على الأرصفة كان يجلس رجال في بزات قاتمة : لا نساء . فالنساء كن يتزاحمن في الشارع التجاري الذي يهبط نحو المصب . وعلى حين غرة توقف هنري ونادين مذهولين :

– أترين !

انه جلد، جلد حقيقي سميك ومرن ، تُشمّ رائحته . حقائب من جلد الخنزير، وقفازات من جلد البيكاري ، وعلب تبغ ملسية اللون ، وعلى الأخص هذه الأحذية ، ذات النعال السميكة المصنوعة من الكريب ، أحذية يسير بها الانسان دون ان يحدث صوتاً ودون ان يبلل قدميه . وحرير حقيقي ، وصوف حقيقي ، وبزات من الفلانيل ، وقمصان من البوبلين . وتبين هنري فجأة ان ثيابه المكونة من طقم من الفيبران وحذائين متشققين موحلين ، هي بالأحرى حقيرة . وبين هاته النسوة اللواتي يلبسن الفرو ، والجوارب الحريرية ، والنعال الرقيقة ، كانت نادين أشبه بمتشردة . وقال :

– غداً سنشتري لأنفسنا أشياء ، أشياء كثيرة .

فقالت نادين :

– هذا لا يبدو حقيقياً ! قل إذن ، ماذا سيقولون اذا رأوا هذا ، أهل باريس !

فقال هنري ضاحكاً :

– بالضبط ما نقوله نحن .

وتوقفا أمام مطعم حلويات ، وفي هذه المرة لم تكن الشراهة، بل الفضيحة هي التي جمدت نظرة نادين . ولبث ، هو أيضاً ، مذهولاً من عدم التصديق ودفع نادين من كتفها : « لندخل » .

باستثناء شيخ وصبي صغير ، لم يكن هنـاك إلا نساء حول الطاولات ، نساء مدهونة شعورهن بالزيت ، مثقلات بالفرو ، وبالمجوهرات والانتفـــاخ الجلدي . يتناولن بخشوع وجبتهن اليومية الشرهة . وكانت فتاتان صغيرتان ، ضفائرهمـــا سود ، يتصالب على صدريهما شريط حريري أزرق ، وتتدلى كمية من الميداليات من رقبتيهما ، تلتهمان في تحفظ صحناً من الشوكولا السميك تعلوه كريما مخفوقـــة . وقال هنري :

– اتريدين منه ؟

فأشارت نادين ان نعم برأسها. وعندما وضعت الخادمة الفنجان أمامها ، حملته الى شفتيها ، وانحسر الدم عن وجههـا . وقالت : « لا أستطيـع » . وأضافت في لهجة اعتذار : « لم تعد معدتي معتادة » . لكن استياءها لم يأت من معدتها ، فقد فكرت بشيء ما أو بشخص ما . ولم يطرح عليها أسئلة .

كانت غرفة الفندق ممدودة بالكرتون الفاخر . وكان في غرفة الحمام ماء ساخن، وصابون حقيقي ، وثياب حمام من نسيج المناشف . واستعادت نادين كل مرحها. وطلبت ان تفرك هنري بقفـــاز الليف وعندما أصبح جلده من رأسه الى أخمص قدميه احمر لاهباً ، قلبته وهي تضحك على السرير . وفعلت الحب في مزاج طيب للغاية حتى ان المرء ليظن انهـا تجد فيه متعة . وكانت عيناها تلمعان في صباح الغد عندما كانت تجس بيدها الخشنة الأغطية الصوفية السميكة ، واللحف الحريرية : « هل كان في باريس مخازن بمثل هذا الجمال ؟ » .

– بل كان هناك مخازن أجمل . ألا تذكرين ؟

– لم اكن أذهب الى المخازن الجميلة ، فقد كنت صغيرة جداً . » ونظرت الى هنري في امل : « اتعتقد ان هذا سيعود ذات يوم ؟ » .

– ذات يوم ، ربما .

– ولكن كيف هم أغنياء الى هذا الحد هنا ؟ لقد كنت اظن انه بلد فقير .
– انه بلد فقير فيه أناس أغنياء جداً .

وابتاعا ، لها ولأهل باريس ، أقمشة ، وجوارب ، وقمصاناً داخلية ، وأحذية ، وكنزات . وتنـاولا الغداء في طابق ارضي مزدان بتصاوير ملونة تمثل مصارعين على الخيل يتحدون ثيراناً حانقة . وقالت نادين ضاحكة : « لحم او سمك : لديهم على كل حال قيود ! » . وأكلا بفتيكاً بلون الرماد . ثم تسلقا الشوارع المبلطة بالحصى المستديرة التي تصعد نحو الأحياء المكتظة بالسكان ، وهما ينتعلان احذية بلون اصفر صارخ ، لكنها فخمة النعال . وعند احد مفارق الطرق ، كان اطفال حفاة ينظرون دون ضحك الى اراكوز صغير باهت اللون . وكانت الدرب تضيق ، والواجهات تتناثر ، ووجه نادين يغيم .

– انه لمقرف هذا الشارع ، أيوجد كثير مثله ؟
– أعتقد ان نعم .
– يبدو انه لا يسخطك ؟

لم يكن على استعداد للسخط . وفي الحقيقة ، إنما باندفاع ممتع ، كان يرى ثانية الغسيل المزركش منشوراً على النوافذ المشمسة ، فوق فجوة من ظل . وسارا في صمت في زقاق ، وتوقفت نادين وسط درج ذي بلاط متسخ . وكررت : « هـذا مقرف ! هيا بنا من هنا » .

فقال هنري :

– اواه ! لنتابع ايضاً .

لقد أمضى ساعات في مرسيليا ، ونابولي ، والبيريه ، وباريو – شينو ، يتسكع في مثل هذه الأزقة الصارخة . ويقيناً ، لقد كان يتمنى آنذاك ، كاليوم ، ان ينتهي العالم من هذ البؤس كله . ولكن هـــذه الأمنية تظل مجردة ، ولم يرغب أيضاً في الهرب : كانت هذه الرائحة البشرية العنيفة تدوخه . انه ، من أعلى التل ، إلى أسفله ، الطنين نفسه ، والسماء نفسها تحترق خلف الأسطحة . وكان يخيل لهنري انه بين لحظة وأخرى سيجد ثانية الفرح القديم في كل كثافته . وكان هـــذا ما

يطارده من زقاق إلى زقاق : لكنه ما كان يجده . كانت النساء الجالسات امام الأبواب يقلين سمك السردين على قطع من فحم الخشب . وكانت رائحة السمك المنتن تغطي رائحة الزيت الحار . وكانت اقدامهن حافية . هنا جميع الناس يسيرون حفاة . ولم يكن في الأقبية المفتوحة على الشارع سرير ، او قطعة أثاث ، او صورة : بل حصر ، واطفال ملطخون بالقوبة الصفراء ، ومن بعيد إلى بعيد عنزة . وفي الخارج ما من صوت مرح ، ما من ضحكة ، بل عيون ميتة . هل كان البؤس هنا ميئوساً منه أكثر من المدن الأخرى ؟ أم انّ الانسان ، بدل ان يتصلب ، تزيد حساسيته بالتعاسة ؟ كانت زرقة السماء تبدو وحشية فوق الظل الوسخ ، وهنري يشعر ان تجهم نادين الأخرس يتملكه . وصادفا امرأة في أسمال سود ، يتعلق طفل بثديها العاري ، كانت تجري ساهمة ، وقال هنري فجأة :

– آه ! انت على حق ، لنذهب من هنا .

ولكن لم يفدهما شيئاً ان يذهبا من هناك . وقد ادرك هنري ذلك منذ اليوم التالي اثناء حفلة الكوكتيل التي اقامتها القنصلية الفرنسية . كانت المائدة مليئة بالسندويشات والحلويات الاسطورية ، والنساء يرتدين ثياباً منسية الألوان ، وجميع الوجوه تضحك ، والناس يتحدثون بالفرنسية ، وتل « النعمة » بعيداً جداً ، في بلد اجنبي تماماً لا تمس هنري مصائبه ، وكان يضحك في ادب مع الآخرين ، عندما جره الشيخ ماندوز داس فيرناس إلى إحدى زوايا القاعة . كان يضع قبة قاسية ، وربطة عنق سوداء ، ولقد كان وزيراً قبل دكتاتورية سالازار . وحدج هنري بنظرة مرتابة .

– اي انطباع خلفته فيك لشبونة ؟

فقال هنري :

– مدينة جميلة حقاً ! » وغامت النظرة واضاف هنري مبتسماً : « يجب ان اقول انني لم أشاهد شيئاً كثيراً بعد » .

فقال داس فيرناس في حقد :

– عادة ، الفرنسيون الذين يأتون إلى هنا يرتبون امورهم بحيث لا يشاهدون

شيئاً مطلقاً . خذ فاليري : لقد اعجب بالبحر ، بالحدائق . امـا بالنسبة للباقي ، فقد كان أعمى » . وصمت الشيخ قليلاً ليستريح : « هل انت حريص ايضاً على اغلاق عينيك ؟ »

فقال هنري :

– على العكس ! انني لا أطلب إلا ان استعملهما .

فقال داس فيبرناس بصوت عاد إليه اللطف :

– آه ! بعد الذي قيل لي عنك ، هذا ما كنت آمله . ستأخذ موعداً للغـد وانا أتكفل بأن أريك لشبونة . واجهة جميلة ، نعم ! لكنك سترى ماذا يوجد وراءها !

فقال :

– لقد قمت امس بجولة في تل « النعمة » .

– لكنك لم تدخل إلى البيوت ! اريد ان تلاحظ بنفسك ما يأكله الناس ، وكيف يعيشون : لن تصدقني إذا اخبرتك » . وهز داس فيبرناس كتفيه : « كل ذلك الأدب عن الكآبة البرتغالية وسرها ! لكن الأمر مع ذلك بسيط : من بين سبعة ملايين برتغالي ، سبعون ألفاً فقط يأكلون حتى الشبـع » .

من المستحيل الهرب : هكذا أمضى هنري صبــاح اليوم التالي في زيارة الأكواخ . وقد دعا الوزير السابق اصدقاء له عند نهاية بعد الظهر عن قصد ليرووا له : من المستحيل الرفض . كانوا جميعاً يرتدون بزات قاتمة، وقبات قاسية، وقبات لينة ، ويتكلمون في وقار ولكن بين الحين والآخر كان الحقــد يغير وجوههم العاقلة . كانوا وزراء سابقين ، وصحفيين سابقين ، ومعلمين سابقين، خربهم رفضهم التحالف مع النظام . وكان لهم جميعــاً اقرباء واصدقاء منفيون ، وكانوا فقراء ويائسين . اما من كان منهم لا يزال يعاند في العمل فكان يعلم ان جزيرة الجحيم تنتظره : بل إذا أراد طبيب ان يعالج البائسين مجاناً ، او إذا حاول انـ يفتح مستوصفاً او يدخل بعض النظافة في المستشفيات ، فإنه سريعاً ما يصبح مشبوهاً. ومن ينظم دروساً ليلية ، ومن يقوم بحركة كريمة او مجرد إحسان ، فهو عـدو

للكنيسة والدولة . لكنهم مع ذلك كانوا يعاندون . ويريدون ان يؤمنوا ان دمار النازية سيؤدي إلى نهاية هـذه الفاشية المتصنعة التقوى . ويحلمون بقلب سالازار وبإنشاء جبهة وطنية شبيهة بالتي تأسست في فرنسا . وكانوا يعرفون انهم وحيدون : فالرأسماليون الانكليز لهم مصالح ضخمة في البرتغال ، والأميركان يتفاوضون مع الحكومة لشراء قواعد جويـة في « آسور » . وكانوا يرددون « فرنسا املنا الوحيد » . ويتضرعون: « قل للفرنسيين الحقيقة . فهم لا يعرفون، ولو كانوا يعرفون ، لجاؤوا لمساعدتنا » . وفرضوا على هنري مواعيد يوميـة . وراحوا يرهقونه بالوقائع ، والأرقام ، ويملون عليه الاحصاءات ، وينزهونـه في الأحياء المكتظة الجائعة : لم يكن هذا بالضبط نوع الاجازة التي حلم بها ، ولكن لم يكن له خيار. وكان يعد بأن يحرك الرأي العام الفرنسي بحملة صحيفة: الاضطهاد السياسي ، الاستغلال الاقتصادي ، الارهاب البوليسي ، تجهيـل الجماهير المنظم ، تحالف الكهنـة المخجل ، سيقولون كل شيء . وكان داس فيبرناس يؤكد : « اذا علم كارمونا ان فرنسا مستعدة لتأييدنا ، فسوف يمشي معنا » . وكان قد عرف في الماضي (بيدو) ويفكر بأن يقترح عليه نوعاً من معاهدة سرية : مقابل تأييدها ، فإن الحكومة البرتغاليـة القادمة يمكنها ان تقدم لفرنسا تنازلات رابحة بخصوص المستعمرات الافريقية . وكان من الصعب ان يشرح له دون ان يجرحه الى أي حد كان هذا المشروع خيالياً !

ووعد هنري عشية رحيله إلى « ألغارف » :

— سأرى تورنيل ، الأمين العام لوزارته . إنه رفيق من رفاق المقاومة .

وقال داس فيبرناس :

— سأضع مشروعاً دقيقاً أعطيكه عند عودتك .

كان هنري مسروراً بمغادرة لشبونة . واعارته الخدمات الفرنسية سيارة ليقوم بجولة محاضراته بشكل مناسب،ودعته الى استخدامها ما شاء،وانها ستكون اخيراً اجازة حقيقية . ولسوء الحظ كان أصدقاؤه الجدد يعتمدون كل الاعتماد على انـه سيمضي اسبوعه الأخير في التآمر معهم : لهذا سيجمعون وثائق مستوعبة ويرتبون

اجتماعات مع بعض شيوعيي ورشات « زامورا » . ولا مجال للرفض .

قالت نادين بلهجة سعيدة :

– هذا يعني ان لدينا خمسة عشر يوماً لنتسكع .

كانا يتناولان العشاء في حانة خارج البلدة ، على الضفة الأخرى لنهر « التاج ». وكانت خادمة قد وضعت على الطاولة شرائح من سمك مقدد مقلي وزجاجة خمر لونها وردي كدر . ومن خلال الزجاج كانا يلمان اضواء لشبونة التي تصطف بين السماء والماء .

وقال هنري :

– في خمسة عشر يوماً ، في سيارة ، سنرى كثيراً من البلد ! أتدركين الحظ الذي أتيح لنا !

– بالضبط : من المؤسف ألا نستفيد منه .

– جميع اولئك الأشخاص الذين يعتمدون عليّ ، سيكون من الجبن ان أخيب أملهم ، أليس كذلك !

فهزت كتفيها : « انت لا تستطيع شيئاً من اجلهم » .

– انني استطيع ان أتكلم باسمهم . هذه مهنتي . وإلا لا داعي لأن أكون صحفياً .

– ربما لا داعي هناك .

فقال بلهجة مصالحة :

– لا تفكري من الآن بالعودة . سنقوم برحلة رائعة . وانظري إذن إلى تلك الأضواء الصغيرة على حافة الماء ، ما اجملها .

فقالت نادين :

– ما الجميل فيها ؟ » كان هذا نوع الأسئلة المغضبة التي تتمتع بطرحها . وهز كتفيه . وتابعت : « كلا ، جدياً ، لماذا تجدها جميلة ؟ » .

– انها جميلة ، هذا كل شيء .

وألصقت جبينها بالزجاج : « لعلها تكون جميلة لو اننا لا نعرف ما وراءها .

ولكن عندما نعرف ذلك ... » . واستنتجت في حنق : « انها ايضاً خـــدعة ، انني أكره هذه المدينة القذرة » .

انها خدعة ، دون ادنى شك . ومع ذلك لم يكن يستطيع ان يمنع نفسه من ان يجد تلك الأضواء جميلة . انه لن يترك نفسه تؤخذ بعد الآن برائحة البؤس الحارة ، وزركشاته الفرحة . ولكن تلك الألسنة الصغيرة التي كانت تلمع على طول الميـــاه القاتمة ، كانت تؤثر عليه ، رغم كل شيء وضده : ربما لأنها تذكره بزمن كان يجهل فيه ما يختبيء وراء الديكورات . وربما لم يكن يحب هنـــا إلا ذكرى سراب . ونظر الى نادين . ثمانية عشر عاماً ، ولا سراب واحـــد في ذاكرتها ! لقد كان له هو على الأقل ماضٍ . واحتج في نفسه : « وحاضر . لحسن الحظ لا تزال هناك أشياء تحب ! » .

لا تزال هناك مثل هذه الأشياء، لحسن الحظ ! أية لذة في ان يكون بين يديه من جديد مقود ، وهذه الطرق أمامه ، على مد النظر ! بعد تلك السنوات كلها ، شعر هنري بالخوف ، في اليوم الأول . فقد كانت السيارة تبدو وكأن لها حياتها الخاصة . وبالإضافة الى ذلك فقد كانت ثقيلة ، لا تنطلق بسرعة ، صاخبة وذات نزوات . ومع ذلك ها هي تطيـع تلقائياً كأنها يده .

كانت نادين تقول :

— ما أسرعها ، إنها رائعة !

— لقد تنزهت سابقاً في سيارة ، أليس كذلك ؟

— في باريس ، في سيارات جيب . ولكني لم أسرع ابداً بمثل هذه السرعة .

هذا ايضاً كان كذبة ، الوهم القديم بالحرية والقوة ، لكنها كانت تقبل بـــه دون تشكك . كانت تخفض جميـع نوافـــذ الزجاج ، وتشرب في شراهة الهواء والغبار . ولو استمع اليها هنري ، لما نزلا من السيارة ابداً . فما كانت تحبه ، هو ان تجري بأسرع ما يمكن ، بين الطريق والسماء . وكانت لا تكاد تبالي بالمناظر . ومع ذلك ، ما كان أجملها ! غبار الميموزا الذهبي ، الجنان البدائية الحكيمة التي تكررها الى ما لا نهاية أشجار البرتقال المستديرة الرأس ، هذيان حجارة بتاغليا ،

الدرجان الجليلان اللذان يتصاعدان متعانقين نحو كنيسة بيضاء وسوداء ، شوارع بيجا حيث تزحف الصيحات القديمة لراهبة أصيبت بداء الحب . وفي الجنوب ذي الرائحة الافريقية ، كانت حمير صغيرة تدور حول نفسها لتنتزع شيئاً من الماء عن التربة القاحلة . ومن بعيد إلى بعيد كانا يلمحان ، وسط نباتات الباهرة الزرقاء التي تمزق الارض الحمراء، الرطوبة الكاذبة لبيت مصقول أبيض كاللبن . وعاود الصعود نحو الشمال على طرق تبدو كأنها سرقت من الأزهار أعنف ألوانها: طرق بنفسجية، وحمراء ، وقاتمة . ثم تعود الألوان ازهاراً بين تلال مينهو الوديعة . نعم ، ديكور جميل ، وينبسط بسرعة أكبر من ان يتاح للمرء التفكير بما يختبىء وراءه . وعلى طول شطآن الغرانيت ، كما على طرق ألغارف المحرقة ، كان الفلاحون يسيرون حفاة ، لكن قلما كانا يلتقيان بهم. وفي « بورتولاروج » ، حيث للدرن لون الدم، انتهى العيد . فعلى جدران الأكواخ ، الأشد قتامة ورطوبة من أكواخ لشبونة، والرابلة بالاطفال العراة ، علقت لافتات : « غير صحي . ممنوع السكن هنا » . وكانت فتيات صغيرات في الرابعة او الخامسة، مرتديات أكياساً مثقوبة ، ينبشن في سلال الزبل . ولتناول الغداء ، اختبأ هنري ونادين في مؤخرة مطعم مظلم ، لكنهما كانا يلمحان اوجهاً ملتصقة بنوافذ المطعم . وقالت نادين حانقة : « انني أكره المدن ! » . وظلت حبيسة طوال النهار في غرفتها وفي صباح اليوم التالي ، على الطريق ، لم تنبس تقريباً ببنت شفة . ولم يحاول هنري ان يبعد عنها غمها .

وفي اليوم المحدد لعودتهما ، توقفا لتناول الغداء في مرفأ صغير على بعد ثلاث ساعات من لشبونة . وتركا العربة امام المنزل ليتسلقا إحدى التلال المطلة على البحر . كانت تنتصب ، في القمة ، طاحونة بيضاء ملفحة بقرميد اخضر . وقد علق بأجنحتها جرار صغيرة من الفخار المشوي ، ضيقة العنق ، تغني فيها الريح . ونزل هنري ونادين راكضين من التل بين أشجار الزيتون المورقة واشجار اللوز المزهرة وكانت الموسيقى الصبوية تتبعهما . وتهالكا على رمل الخليج . وكانت زوارق صدئة الأشرعة تتماوج فوق البحر الشاحب . وقال هنري :

- سنكون على ما يرام هنا .

فقالت نادين متجهمة :

ـ نعم . وأضافت : « انني أموت جوعاً » .

ـ بديهي : فأنت لم تأكلي شيئاً .

ـ انني اطلب بيضاً غير مسلوق تماماً فيأتونني بابريق ماء ساخن وبيض نيء .

ـ سمك المورى طيب جداً . وكذلك الفول .

ـ نقطة واحدة من الزيت وتقلب معدتي . » وبصقت في غضب : « يوجد زيت في ريقي » .

وبحركة عازمة نزعت قميصها .

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ ألا ترى .

لم تكن ترتدي مشد صدر ، وإذ تمددت على ظهرها ، كانت تعرض للشمس عري ثدييها الخفيفين .

ـ كلا ، يا نادين : إذا جاء احد .

ـ لن يأتي احد .

ـ يرضيك ان تعتقدي ذلك .

ـ انني لا أبالي . أريد ان أحس بالشمس . » كانت تنظر إلى السماء ، ثدياها للهواء ، وشعرها مهجور على الرمل ، وقالت مؤنبة : « يجب ان استفيد منها حقاً لأنه اليوم الأخير » .

ولم يجب وقالت بصوت يئن :

ـ أتصر حقاً على العودة إلى لشبونة هذا المساء ؟

ـ تعلمين جيداً انهم ينتظروننا .

ـ اننا لم نرَ الجبل . والجميع يقولون انه اجمل شيء : في ثمانية ايام ، اننا نستطيع ايضاً ان نقوم بجولة رائعة .

ـ ما دمت اقول لك ان عليّ ان ارى اناساً .

ـ السادة الشيوخ ذوو القبات القاسية ؟ ان منظرهم سيكون جميلاً في «متحف

الانسان » . ولكن كثورين ، دعني أضحك .

قال هنري :

– اما انا ، فأجدهم مؤثرين . وتعلمين ، انهم يجازفون بأخطار عظيمة .

– انهم يتكلمون كثيراً . » وتركت الرمل ينساب بين اصابعها: « كلمات ، كما يقول الأخ . كلمات » .

فقال في شيء من الغيظ :

– من السهل دوماً ان يتعالى الانسان على الناس الذين يحاولون شيئاً ما .

فقالت في غضب :

– ان ما آخذه عليهم هو انهم لا يحاولون شيئاً عن حق . بدلاً من الثرثرة كثيراً ، فانني افضل ان اغتاله مرة واحدة ونهائية .

– هذا لن يقدم الأمور إلى الأمام .

– هذا سيقدم بأنه سيكون ميتاً . وكما يقول فانسان ، ان الموت على الأقل لا يسامح . » كانت تنظر إلى البحر متأملة : « إذا قررنا ان نقتل انفسنا معه ، فيمكننا بالتأكيد الحصول على جلده » .

فقال هنري مبتسماً :

– لا تحاولي ! » ووضع يده على الذراع الملطخة بالرمل : « سأبدو في منظر جميل ، أتدركين ! » .

فقالت نادين :

– سيكون نهاية جميلة .

– أأنت مستعجلة جداً ان تنتهي ؟

فتثاءبت : « أيسليك ان تعيش ؟ » .

فقال في مرح :

– هذا لا يضجرني .

وانتصبت على مرفقها وتفحصته في فضول : « اشرح لي . ان تكتب كما تفعل من الصباح إلى المساء ، أهذا يملأ حقاً حياتك ؟ » .

فقال :

ـ عندما اكتب، نعم، هذا يملأ حياتي . بل اني لأشعر برغبة قذرة في المتابعة.

ـ كيف حصل لك ان رغبت في الكتابة ؟

فقال هنري :

ـ اواه ! هذا يعود إلى فترة بعيدة

كان ذلك يعود إلى فترة بعيدة ، لكنه لم يكن يعرف اية اهميـــة يعلق على ذكرياته .

ـ عندما كنت حدثاً ، كان يبدو لي الكتاب سحرياً .

فقالت نادين في حمية :

ـ انا ايضاً أحب الكتب . ولكن هناك كثير منها الآن ! فما الفائدة مـن تأليف كتاب آخر ؟

ـ ليست الأشياء التي نريد ان نقولها هي نفسها تماماً التي قالها غيرنا : ان للمرء حياته الخاصة به ، علاقاته الخاصة به مع الأشياء ، مع الكلمات .

فقالت نادين بصوت مغضب وبشكل مبهم :

ـ اولاً يزعجك ان تفكر ان غيرك قد كتب اشياء افضل بكثير مما ستبيضه، انت ؟

فقال هنري مبتسماً :

ـ في البداية، كنت افكر بذلك . ان المرء متعجرف ما دام لا يفعل شيئاً. ولكنه ما إن يغطس في القضية مرة حتى يهتم بما يكتب ولا يضيع وقتـــه في مقارنة نفسه .

فقالت بصوت حرد وهي تتهالك بكل طولها على الأرض :

ـ اواه ! يقيناً ، انه يرتب أموره !

ولم يعرف كيف يجيبها : من الصعب جداً ان يشرح لمَ يحب الكتابة لأحـد لا يحب ذلك . وعلى كل حال ، هل يستطيع ان يشرح هـــذا لنفسه ؟ لم يكن يتخيل انه سيقرأ إلى الأبد ، ولكنه عندما كان يكتب ، كان يشعر انه مقيم في

الأبدية . وما كان ينجح في صبه في كلمات كان يخيل إليه انه انقذ ، اطلاقاً . اي شيء حقيقي في هذا ؟ إلى اي مدى لم يكن هذا ايضاً إلا سراباً ؟ هي ذي اشياء كان عليه ان يوضحها لنفسه اثناء هذه الاجازة ، لكنه في الحقيقة لم يوضح شيئاً مطلقاً . والأكيد ، انه كان يشعر في نفسه بشفقة شبه قلقة على كل تلك الحيوات التي لا تحاول حتى ان تعبر عن نفسها : حياة بول ، وآن ، ونادين . وفكر : « ها ! في هذه الساعة الآن ، كتابي قد ظهر ! » . منذ زمن طويل لم يواجه الجمهور وكان خائفاً من التفكير بأن أناساً يقرأون الآن روايته ويتحدثون عنها . ومال على نادين وابتسم لها .

– على ما يرام ؟

فقالت بلهجة تئن قليلاً :

– نعم . اننا مسروران هنا !

– اننا مسروران .

ومزج أصابعه بأصابع نادين والتصق بالرمل الحار . بين البحر المتماوج الذي كانت الشمس تفقده لونه وزرقة السماء الآسرة ، كانت ثمة سعادة معلقة ، وليستطيع ان يمسك بها ، ربما كانت ابتسامة من نادين تكفي : انها تصبح جميلة تقريباً عندما تبتسم . ولكن الوجه الملطخ بالنمش ظل بلا حياة . وقال : « نادين المسكينة » .

فانتصبت فجأة : « لمَ مسكينة ؟ » .

يقيناً ، كانت تستحق الرثاء ، ولكنه لم يكن يعرف لماذا : « لأن هذه الرحلة قد خيبت أملك » .

– اواه ! أتعلم ، لم اكن انتظر منها كثيراً .

– ومع ذلك كانت هناك اوقات طيبة .

– يمكن ان يكون منها المزيد ايضاً . » ودبت الحرارة في زرقة عينيها الباردة : « دعك من اولئك الحالمين المسنين . اننا لم نأتِ لهذا . لنتنزه . لنلهُ ما دام لنا لحم على العظام » .

فهز كتفيه : « تعلمين جيداً انه ليس من السهل جداً ان نلهو » .

– لنحاول . ان جولة كبيرة في الجبال ستكون رائعة، أليس كذلك ؟ انت تحب التجول . في حين ان تلك الاجتماعات ، وتلك التحقيقات ، تضجرك .

– بالتأكيد .

– اذن ؟ ما الذي يرغمك على فعل أشياء تسئمك ؟ أهي دعوة ربانية ؟

– ادركي هذا : « هل أستطيع ان اشرح لأولئك الشيوخ المساكين ان مصائبهم لا تهم احداً ، وان البرتغال صغيرة جداً ، وان العالم لا يكترث لها ؟ »

ومال هنري على نادين مبتسماً : « هل أستطيع » ؟ .

– تستطيع ان تتصل بهم هاتفياً وتقول لهم انك مريض وتهرب إلى إيفورا .

فقال هنري :

– هذا سيحطم قلوبهم . كلا ، لا أستطيع .

فقالت نادين في حدة :

– قل إنك لا تريد .

فقال في نفاد صبر :

– لكن ، انني لا أريد .

فزمجرت وهي تدس أنفها في الرمل : « انت اسوأ ايضاً من أمي » .

وتهالك هنري بكل جسده الى جانبها . « لنلهُ » . في الماضي ، كان يعرف كيف يلهو . وأحلام المتآمرين المسنين ، كان سيضحي بها باندفاع من أجل تلك الافراح التي عرفها ، في الماضي . وأطبق عينيه . كان راقداً على شاطىء آخر إلى جانب امرأة ذهبية الجسد ، ترتدي تنورة باهتة مزهرة ، اجمل النساء ، بول . وكانت سعف نخيل تتأرجح فوق رأسيهما ، ومن خلال القصب كانا ينظران إلى يهوديات بدينات ضاحكات ، يتقدمن نحو البحر ، متعثرات بأثيابهن ، وبراقعهن ، ومجوهراتهن . وفي الليل أحياناً كانا يرقبان النساء العربيات اللواتي كن يغامرن في الماء ، ملتحفات في ملاآتهن. او كانا يشربان في الحانة ذات الأسس الرومانية قهوة كثيفة . او كانا يجلسان في ساحة السوق وهنري يشرب النارجيلة وهو يتحادث مع « عمور حارسين » . ثم كانا يعودان الى الغرفة المليئة بالنجوم ، ويتهالكان على

السرير . ولكن الساعات التي كان هنري يتذكرها الآن في أشد الحنـــين ، هي الصباحات التي كان يمضيها على سطح الفندق بين زرقة السماء ورائحة الأزهار الهائمة وكان ، في رطوبة النهـار الوليد ، في لظى الظهيرة ، يكتب ، وكان الاسمنت ، تحت قدميه ، حارقاً ، إلى ان يهبط ، بعد ان تدوخه الشمس والكلمات ، إلى ظل صحن الدار ليحتسي عرقاً مثلجاً . كانت سماء « جربا » ، ودفلها ، ومياههـــا العنيفة ، هي التي جاء يبحث عنها هنا ، كانت غبطة لياليها الثرثارة ، وعلى الأخص رطوبة صباحاتها ولظاها . لماذا لا يجد ثانيـة ذلك الطعم الحارق العذب الذي كان لحياته سابقاً ، ومع ذلـك ، فقد اشتهاها هذه الرحلة ، وطوال أيام لم يفكر في شيء آخر . طوال أيام حلم بأنه ينام على الرمل ، تحت الشمس . وها هو الآن هنا ، حيث الشمس ، وحيث الرمل : غير ان شيئاً في داخله كان ناقصاً . انه لم يعد يعرف جيداً ماذا تعنيه الكلمات القديمة : السعادة ، السرور . ليس لنـا إلا حواس خمس ، وهي تسأم بسرعة كبيرة . وكانت نظرته قد أخذت تسأم مـــن الأسباب الى ما لا نهاية على تلك الزرقة التي لم تكن تنتهي من ان تكون زرقاء . وكانت به رغبة في خرق هذا الحرير الأطلس ، في تمزيق جلد نادين اللدن . وقال:

ــ بدأ الجو يصبح رطباً .

ــ نعم . » وفجأة التصقت به . ومن خلال قميصه ، شعر على صدره بالثديين الشابين العاريين : « أدفئني » .

فدفعها في لطف . « البسي . لنعد الى القرية » .

ــ أتخاف ان يرونا ؟ » كانت عينا نادين تلمعان ، وقد صعد قليل من الدم الى خديها . لكنه كان يعرف ان فمها ما زال بارداً . وسألت في اغواء : « ماذا تظن انهم سيفعلون بنا ؟ هل سيرجموننا ؟ » .

ــ انهضي . آن ان نعود .

كانت تثقل عليه بكل وزنها ، وما كان يحسن مقاومة الشهوة التي تخدره . انه يحب صدرها الشاب ، جلدها الصافي . لو انها فقط رضيت بأن تترك اللذة تهدهدها بدل ان تقفز في السرير في صفاقة مقصودة ... كانت تراقبه ، عينـــاها نصف

مطبقتين ، ويدها تهبط نحو بنطلونه الكتاني .

– دعني ... واستسلم .

كانت يدها وفمها ماهرين ، لكنه كان يكره الانتصار المضمون الذي يقرأه في عينيها في كل مرة يستسلم فيها . وقال : « كلا . كلا . ليس هنا . ليس هكذا » .

وتملص وانتصب . كان قميص نادين يرقد على الأرض فرماه على كتفيها . وقالت في غضب :

– لماذا ؟ » وأضافت بصوت متثاقل: « ربما في الهواء الطلق ، كان هذا مسلياً أكثر قليلاً » .

كان ينفض الرمل الذي غبر ثيابه . وتمتم في لهجة متكلفة الحلم :

– انني اتساءل ما اذا كنت ستصبحين امرأة ذات يوم .

– اواه ! أتعرف ، ان النساء اللواتي يحببن ان يوطأن ، أنا واثقة انه لا يوجد منهن واحدة على مئة : إنما هي عادة يسرن عليها ، حباً بالظهور وتقليداً .

فقال وهو يأخذ ذراعيها :

– هيا ، دعينا من الخصام . تعالي. سوف نشتري لك كاتو وشكولا لتأكليهما في السيارة .

فقالت :

– انت تعاملني كطفلة .

– انني أعلم جيداً انك لست طفلة . انني أفهمك أكثر مما تظنين .

فنظرت اليه في ارتياب وتلألأت ابتسامة صغيرة على شفتيها .

وقالت :

– اواه ! انني لا أكرهك دوماً .

وشد أكثر قليلاً على ذراعها ، وسارا في صمت نحو القرية . كان النور يضعف . والزوارق تعود الى الميناء ، ثم تسحبها ثيران الى الشاطىء . كان القرويون ، وقوفاً او جلوساً على شكل دائرة ، ينظرون . كانت قمصان الرجال ، وتنانير النساء

الفضفاضة ، مزركشة بالألوان الفرحة : لكن هذا المرح كان متجمداً في سكون كئيب . وكانت المناديل السوداء تؤطر أوجهاً من حجر ، والعيون الرانية الى الأفق لا تأمل شيئاً. لا حركة، لا كلمة وكأن لعنة قد شلّت جميع الألسنة. فقالت نادين :

ـ انهم يدفعونني إلى الصراخ .

ـ بل افترض انهم لن يسمعوك .

ـ ماذا ينتظرون ؟

ـ لا شيء . انهم يعرفون انهم لا ينتظرون شيئاً .

في الساحة الرئيسية ، كانت الحياة تلجلج في ضعف . وكان أطفال يصيحون . وكانت أرامل الصيادين الذين ابتلعهم البحر ، يتسولن ، جالسات على حافة الرصيف . ولقد نظر هنري ونادين بغضب ، في الأيام الأولى ، إلى البورجوازيات المتدثرات بالفرو السميك اللواتي كن يجبن المتسولين في عظمة : « اصبروا ! » . اما الآن، فإنهما يهربان كلصين عندما تمتد الأيدي نحوهما: كان عددهم كبير جداً .

وقال هنري وهو يوقف نادين امام مطعم الحلويات :

ـ اشتري لنفسك شيئاً ما .

ودخلت . كان طفلان ، حليقا الرأس ، يسحقان انفهما على الزجاج . وعندما ظهرت ثانية ، مثقلة الذراعين بأكياس الورق ، صاحا . فتوقفت :

ـ ماذا يقولان ؟

فتردد : « انك محظوظة إذ تستطيعين ان تأكلي حتى الشبع » .

ـ اواه !

وبحرقة حانقة ، ألقت في أذرعهما الأكياس المنتفخة . فقال هنري :

ـ كلا . سأعطيهم مالاً .

فسحبته : « دعهما ، لقد قطعا شهيتي ، هاتان القملتان القذرتان .

ـ لقد كنت جائعة .

ـ أقول لك انني لم أعد جائعة .

وركبا السيارة وساروا في صمت فترة من الزمن. وقالت نادين بصوت مخنوق:
– كان يجب ان نذهب إلى بلاد أخرى .
– أين ؟
– لست أدري . ولكن انت ، لا بد انك تعرف .
فقال :
– كلا ، لست اعرف .
فقالت :
– على كل ، يجب ان يكون هناك بلد يستطيع فيه الانسان ان يعيش .
وفجأة ، اغرورقت عيناها ونظر إليها في ذهول : كانت دموع بول طبيعية كالمطر ، ولكن ان يرى نادين تبكي ، فهذا محرج كما لو انه فاجأ دوبروي ينتحب. وطوق كتفيها بذراعه وجذبها نحوه .
– لا تبكي . لا تبكي . » كان يداعب الشعر الخشن : لماذا لم يعرف كيف يجعلها تبتسم ؟ لمَ كان قلبه مثقلاً ؟ ومسحت نادين دموعها ومخطت بصوت عالٍ . وقالت :
– ولكن انت ، عندما كنت شاباً ، أكنت سعيداً ؟
– نعم . كنت سعيداً .
– أرأيت !
فقال : « انت ايضاً ، ستكونين سعيدة ، ذات يوم » .
كان يجب بالأحرى ان يضمها إليه بقوة أكثر وان يقول لها : « انا سأجعلك سعيدة » . في تلك اللحظة ، كانت به رغبة : رغبة لحظة في ان يُلزم حياته كلها. لم يقل شيئاً . وفكر فجأة : « الماضي لا يعود . الماضي لن يعود » .
– فانسان !
واتجهت نادين نحو المخرج . كان فانسان يحرك يـــده ميتسماً ،وهو في زي مراسل حربي. وانزلقت نادين على نعليها المصنوعين من الكريب ثم اعتدلت قامتها وهي تتعلق بذراع فانسان : « مرحباً ، انت ! » .

فقال فانسان في مرح : « مرحباً ايها المسافران ! » . وصفر اعجاباً : « ما هذه الثياب ! » .

فقالت نادين وهي تدور على نفسها : « سيدة حقيقية ، أليس كذلك ؟ » . كانت ، بمعطفها الفروي ، وجوربيها ، ونعليها ، تبدو أنيقة وانثوية تقريباً .

وقال فانسان وهو يمسك كيس البحار الطويل الذي كان هنري يسحبه وراءه:

– اعطني هذا ! أهي جثة ؟

فقال هنري :

– خمسون كيلو من الطعام . ان نادين تريد ان تموّن أهلها . ولكن كيف السبيل إلى حملها حتى رصيف فولتير ، فتلك هي المشكلة .

فقال فانسان في لهجة انتصار :

– ليست هناك مشكلة .

فقالت نادين :

– أسرقت سيارة جيب ؟

– لم أسرق شيئاً .

واجتاز في حزم باحة الوصول وتوقف امام سيارة سوداء صغيرة : « انها جيدة ، أليس كذلك ؟ » .

فقال هنري :

– أهي لنا ؟

– نعم . لقد تدبر لوك امره أخيراً .

فقالت نادين :

– انها صغيرة .

فقال هنري وهو يفتح الباب :

– انها ستخدمنا بشكل قذر .

وكوموا الحقائب في المؤخرة كيفما اتفق . وسألت نادين :

– هل تأخذني للنزهة ؟

فقال فانسان :

– هل انت مجنونة ؟ انها اداة عمل . » واضاف بلهجـــة من يسلم بحقيقة : « بديهي ، مع كل هذا الحمل ، سنتضايق قليلاً » .

وجلس امام المقود وأقلعت العربة وهي تشهق شهقات مؤلمة . وسألت نادين :

– أواثق انك تعرف القيادة ؟

– لو رأيتني في تلك الليلة انقض في سيـارة جيب ، دون مصباح ، على طرق ملفوفة ، لما شتمتني مجاناً . » ونظر فانسان إلى هنري : « هـل أوصل نادين ثم أوصلك إلى الجريدة ؟ » .

– اتفقنا . كيف حال « الأمل ؟ » . لم أرَ عدداً واحداً منها في تلك البلاد اللعينة . الا زلنا نصدر دوماً في حجم طابـع بريد ؟

دوماً ، لقد سمحوا بصحيفتين جديدتين ، لكنهم لا يجدون لنا ورقاً . سيروي لك لوك افضل مني ، فأنا عائد لتوي من الجيش .

– لكن الاصدار لم ينخفض !

– لا أعتقد .

كان هنري يستعجل العودة ثانية إلى الجريـــدة . لكن بول قد تلفنت إلى المحطة دون شك ، وهي تعلم انه لم يحدث أي تأخير . انها تنتظر ، وعيناهـــا عالقتان بالساعة ، تترصد كل صوت . وعندما تركا نادين في قفص المصعد وسط حقائبها ، قال هنري :

– بعد ان فكرت ، فإنني سأمر أولاً على البيت .

فقال فانسان :

– لكن الرفاق ينتظرونك .

– قل لهم انني سأكون في الجريدة خلال ساعة .

فقال فانسان :

– انني تارك لك إذن الرولز . » وأوقف السيارة امام كوخ للكلاب وسأل : « أأخرج الحقائب ؟ » .

– أصغرها فقط . شكراً .

وفي أسف دفع هنري الباب الذي اصطدم بسلة مهملات في صوت عالٍ وأخذ كلب البوابة ينبح . وقبل ان يدق هنري ، كانت بول قد فتحت :

– انه أنت ! انت ! » وبقيت لحظة ساكنة بين ذراعيه ثم تراجعت : تبدو في صحة جيدة ، وقد اسمر لونك ! ألم تكن متعبة كثيراً هذه العودة ؟ » . كانت تبتسم ولكن كانت هناك عضلة صغيرة تختلج بحركة تشنجية عند زاوية فمها .

– مطلقاً . » ووضع الحقيبة على الأريكة : « هذه لك ! » .

– ما ألطفك !

– افتحيها .

وفتحتها : جوارب حرير ، نعال أيل ، حقيبة متناسبة ، أقمشة ، مناديل ، قفازات . لقد اختار كل حاجة في عناية قلقة . وخاب أمله قليلاً لأنها كانت تنظر دون ان تلمس شيئاً ، دون ان تنحني ، بطريقة منفعلة وحليمة الى حد ما . وكررت : « أنت لطيف جداً » . وأدارت نظرتها بجدة نحوه : « وحقيبتك انت اين هي ؟ » . فقال بصوت منتعش :

– في الأسفل ، في السيارة . لأنك ربما تعلمين ان « الأمل » قد حصلت على سيارة : لقد جاء فانسان لأخذي فيها .

فقالت بول :

– سأتلفن للبوابة كي تصعد حقيبتك .

فقال هنري :

– لا داعي للمشقة . » وتابع بسرعة كبيرة « كيف أمضيت الشهر ؟ ألم يكن الطقس رديئاً جداً ؟ هل خرجت قليلاً ؟

فقالت في لهجة متهربة :

– قليلاً .

كان وجهها قد تجمد .

– من رأيت ؟ ماذا فعلت ؟ اروي لي .

فقالت :

– اواه ! ليس في ذلك ما يثير الاهتمام . لا تتحدث عني . » وتابعت في حمية، لكن بصوت ساهم : « انت تعرف ان كتابك أصاب نجاحاً كبيراً » .

– لا أعرف شيئاً . أهو يسير حقاً ؟

– اواه ! ان النقاد لم يفهموا منه شيئاً ، بالطبع . لكنهم شموا رائحة الأثر العظيم .

فقال في ابتسامة مغتصبة :

– انني مسرور جداً » كان بوده ان يطرح أسئلة أخرى ، ولكنه ما كان يحتمل مفردات بول. وغيّر الموضوع: «أرأيت آل دوبروي ؟ كيف أحوالهم؟».

– لقد رأيت آن . إنها مشغولة جداً .

كانت تجيب بطرف شفتيها ، وكان متلهفاً جداً لمعاودة الاحتكاك بحياته ! وسأل :

– ألم تحتفظي بأعداد « الأمل » ؟

– لم أقرأها .

– صحيح ؟

– لم تكن تكتب فيها ، وكانت عندي أشياء أخرى أفكر بها . » وبحثت عن نظرته وانتعش وجهها : « لقد فكرت كثيراً خلال هذا الشهر ، وفهمت كثيراً من الأشياء . انني آسفة على الفصل الذي فعلته معك قبل رحيلك . انني آسفة جداً » .

فقال :

– اواه ! دعينا من الحديث عن ذلك ! ثم انك لم تفعلي معي أي فصل .

فقالت :

– بلى ! وانني أكرر لك انني آسفة . أترى ، انني أعرف منذ زمن بعيد ان امرأة لا تستطيع ان تكون كل شيء بالنسبة لرجل مثلك . حتى ولا جميع النساء . لكني لم اقبل ذلك حقاً . والآن انني مستعدة لحبك في كرم مطلق ، من

أجلك ، لا من اجلي . ان لك رسالتك ويجب ان تمر قبل كل شيء .

— اية رسالة ؟

فنجحت في ان تبتسم : « لقد أدركت انني كنت أثقل عليك غالباً . انني افهم ان ترغب في ان تستعيد بعض العزلة . لكن تستطيع ان تكون واثقاً . العزلة ، الحرية ، انني أعدك بهما » . ونظرت الى هنري في إلحاح : « انت حر ، يا حبي ، اعلم ذلك جيداً . وعلى كل ، لقد أثبت ذلك ، أليس كذلك ؟ » .

فقال :

— نعم . وأضاف في وهن : « لكني شرحت لك ... » .

فقالت :

— انني أذكر . لكني أؤكد لك انه لم يعد لديك أي سبب للاقامة في الفندق ، بعد التبدل الذي طرأ عليّ . إسمع ، انت راغب في الاستقلال ، في المغامرات ، لكنك راغب أيضاً فيّ ؟

— بالتأكيد .

— إذن إبق هنا . لن تندم على ذلك . انني أقسم لك . سترى ان العمل قد تم فيّ وكم سأكون خفيفة عليك من الآن فصاعداً . » ونهضت ومدت يدها إلى السماعة : « ابن اخي البوابة سيصعد لك بحقيبتك » .

ونهض هنري ايضاً وسار نحو الدرج الداخلي . وقال في نفسه : « فيما بعد » . انه لا يستطيع ان يعاود تعذيبها منذ اللحظات الأولى . وقال : « سأزيل عني الوسخ قليلاً . انهم ينتظرونني في الجريدة . لقد جئت فقط لأقبلك » .

فقالت في حنان :

— انني افهم جيداً .

وفكر بدون سرور وهو يجلس في العربة السوداء الصغيرة : « انها ستجتهد في ان تثبت لي انني حر . اواه ! لكن هذا لن يدوم ، فلن أقيم عندها طويلاً » . وعد نفسه بذلك في حقد وقرر : « من الغد سأهتم بتسوية ذلك » . اما الآن فإنه لا يريد ان يفكر بها . فهو مسرور للغاية من وجوده ثانية في باريس ! في الشوارع

كان الجو رمادياً، وكان الناس يشعرون بالبرد والجوع هذا الشتاء ، لكنهم أخيراً يحتذون جميعهم احذية . ثم انه يستطيع ان يحدثهم ، ويتحدث عنهم . أما ما كان متعباً جداً للأعصاب في البرتغال فهو انه كان يشعر انه الشاهد اللامجدي تماماً على تعاسة اجنبية . وعند نزوله من السيارة ، نظر في حنان إلى واجهة البناية . كيف سارت « الأمل » ؟ هل صحيح ان روايته أصابت نجاحاً ؟ وارتقى الدرج في حمية وفجأة تعالى هتاف . كانت لافتة تسد سقف الممر : أهلاً بالمسافر . وكانوا يقفون صفاً واحداً ، قرب الجدران ، رافعين أقلامهم كسيوف ، منشدين مقطعاً غير مفهوم تنتهي قافيته من قبيل الصدقة القذرة بكلمة سالازار . كان لامبير فقط غائباً : لماذا ؟ وصاح لوك :

– الجميع إلى البار ! » ووضع يده في ثقل على كتف هنري : « أكانت رحلة جيدة ؟ » .

– انت مسمّر بشكل ظريف .

– انظر إلى هذين الحذائين !

– أجئتنا بريبورتاج ؟

– أرأيت القميص !

كانوا يجسون البزة ، وربطة العنق ، ويهتفون ، ويطرحون سؤالاً اثر سؤال بينما كان النادل يملأ الأقداح . وكان هو ايضاً يسأل . لقد انخفض الاصدار قليلاً ، إلا ان الجريدة ستظهر من جديد في حجم كبير ، وهذا سيعيد الأمور إلى حالتها الأولى . ولقد حدثت قصة مع الرقابة ، ولكن لا خطورة في الأمر . وكان جميع الناس يقرظون كتابه ، وما أكثر البريد الذي تلقاه ، وسوف يجد على مكتبه مجموعة « الأمل » كلها ، وقد يمكنهم ان يحصلوا بوساطة بريستون ، الأميركي ، على مزيد من الورق ، وهذا سيسمح بإصدار مجلة يوم الأحد، وهناك أشياء أخرى كثيرة يجب النقاش فيها . كان يشعر بأنه مدوخ قليلاً بسبب تلك الليالي الثلاث من الأرق ، وتلك الضجة ، وتلك الأصوات . وتلك الضحكات ، وتلك المشاكل . مدوخ وسعيد . يا لها من فكرة ان يذهب إلى البرتغال ليسعى

وراء ماضٍ مات ودفن في حين ان الحاضر حي بهـذا الشكل الفرح . وقال في انطلاق :

– انني مسرور جداً بعودتي !

فقال لوك :

– لسنا مستائين برؤيتك ثانية . » وأضاف : « بل لقد بدأنا نحتاج إليـك . سيكون لديك شغل ، انني انذرك » .

– آمل ذلك جيداً .

كانت الآلات الكاتبـــة تتكتك . وتفرقوا في الممرات وهم يتزلقون ويضحكون : كم يبدون شباناً عند الخروج من بلاد ، جميـع الناس فيها بلا عمر ! ودفع هنري باب مكتبه وجلس على مقعده في غبطة بيروقراطي قديم . وبسط أمامه الأعداد الأخيرة من « الأمل » . التواقيـع المعهودة ، اخراج حسن، بدون هدر بوصة واحدة من الورق . وقفز شهراً إلى الوراء وأخذ يقلب الأعداد الواحد تلو الآخر . لقد استغنوا عنه بسهولة ، وهذا ما يثبت نجاحه : ان « الأمـل » لم تكن مجرد مغامرة حرب ، بل مشروعاً متيناً حقاً . كانت ممتازة مقالات فانسان عن هولندا ، وأكثر ايضاً مقالات لامبير عن المعسكرات . لا شك انهم عرفوا كيف يجدون اللهجة المطاوبة : لا سخافات ، ولا أكاذيب ، ولا قذارات . لقـد كانت « الأمل » تؤثر على المثقفين بنزاهتها وتصطاد الجمهور الواسع لأنها حية للغاية. نقطة واحدة ضعيفة : مقالات سيزوناك كانت رديئة .

– أأستطيـع الدخول ؟

كان لامبير يبتسم في خجل عند فرجة الباب .

– بالتأكيد ! أين كنت مختبئاً ؟ كنت تستطيـع ان تأتي إلى المحطة ، أيهـا المهمل القذر .

فقال لامبير في حرج :

– لقد فكرت انه لن يكون هناك مكان لأربعـــة . » وأضاف في حرد : « وحفلتهم الصغيرة ... » . وقطع كلامه : « لكن ، الآن ، هل أزعجك ؟ » .

– مطلقاً . اجلس إذن .

– أ كانت جيدة تلك الرحلة ؟ » وهز لامبير كتفيه : « لا بد انهم سألوك ذلك عشرين مرة » .

– كانت جيدة ورديئة . ديكور جميل ، وسبعة ملايين من الأموات جوعاً .

فقال لامبير وهو يتفحص هنري في إعجاب :

– عندهم أقمشة جميلة . وابتسم : « أهي الموضة ، هناك ، الأحذية البرتغالية ؟

– البرتقالية او الليمونية . ولكنها من جلد جميل . للأغنياء ، يوجد كل شيء ، هذا أقذر ما في الأمر . سأقص عليك . ولكن هات لي أولاً أنباء هنا . لقد قرأت مقالاتك : انها جيدة ، لو تعلم .

فقال لامبير بصوت ساخر :

– كأنها انشاء في اللغة الفرنسية : صف انطباعاتك خلال زيارة لمعسكر منفيين . اعتقد اننا كنا اكثر من عشرين عالجوا الموضوع . » واضاء وجهه : « أتعرف ما الرائع هنا حقاً : كتابك . كنت متعباً ، وأمضيت نهاراً وليلة دون ان اطبق جفوني عندما بدأته : وقد قرأته دفعةواحدة،لم أستطع ان أنام قبل إنهائه » .

فقال هنري :

– أنت تسرني !

ان التقريظ لمحرج . ولكن لامبير قد سرّه حقاً : فهكذا بالضبط كان حلم بأن يُقرأ : طوال ليلة كاملة ، من قبل شاب عادم الصبر .

وهذا وحده يكفي لتحمل مشقة الكتابة : على الأخص هذا . وقال لامبير :

– لقد فكرت بأنك ستتسلى برؤية النقد . » وألقى على الطاولة مغلفاً أصفر كبيراً : « لقد شاركت بمقال ، انا ايضاً » .

فقال هنري :

– يقيناً ان هذا ليسليني ، شكراً .

ونظر إليه لامبير في شيء من القلق : « أكتبت هناك ؟ » .

– ريبورتاجاً .

– لكنك الآن ستعطينا رواية أخرى ؟
– سأبدأ فيها ما إن يتاح لي الوقت .
فقال لامبير :
– جدْ لك وقتاً . لقد فكرت اثناء غيابك ... » . واحمر : « يجب ان تدافع عن نفسك » .
فقال هنري مبتسماً :
– ضد من ؟
ومن جديد تردد لامبير : « يبدو ان دوبروي ينتظرك في نفاد صبر. لا تترك نفسك تسير في حزبه ... » .
فقال هنري :
– لقد سرت فيه قليلًا او كثيرا .
– حسناً ! اسرع في الخروج منه .
فابتسم هنري : « كلا. لم يعد من الممكن اليوم ان يظل المرء ضد السياسة».
فغام وجه لامبير : « آه ! إذن انت تلومني ؟ » .
– مطلقاً . أعني انه غير ممكن بالنسبة لي . اننا لسنا في عمر واحد .
فسأل لامبير :
– ما دخل العمر في هذا ؟
– سترى . ستفهم أشياء ، وستتغير . » وابتسم : « أعدك بأن أجد وقتاً للكتابة » .
فقال لامبير :
– يجب ذلك .
– لكن قل إذن ، انت الذي يعظ جيداً جداً ، أين هي تلك القصص التي أعلنت لي عنها ؟ » .
فقال لامبير :
– انها ليست بذات قيمة .

– ائتني بها وسنذهب لتناول العشاء معاً ذات مساء وسأحدثك عنها .

فقال لامبير :

– اتفقنا » . ونهض : « افترض انك لن تقابلها ، ولكن هنـــاك الصغيرة ماري – آنج بيزيه التي تصر على إجراء مقابلة معك . انهـــا تنتظر من ساعتين . ماذا أقول لها ؟

– انني لا أعطي أبداً مقابلات وان لدي عمل فوق رأسي .

وأغلق لامبير الباب وراءه وافرغ هنري المغلف الأصفر على الطاولة. على ملف منتفخ ، كانت السكرتيرة قد كتبت : « بريد الرواية » . وتردد ثانية من الزمن. لقد كتبت هذه الرواية أثناء الحرب دون ان يفكر بالمصير الذي ينتظرها ، بل لم يكن واثقاً ان مصيراً ما ينتظرها : والآن قد نشر الكتاب ، وقرأه النـــاس . وها هو هنري يحكم عليـــه ، ويناقش ، ويصنف كما كان غالباً يحكم على الآخرين ويناقش فيهم . وفرق القصصات واخذ يتقرأها. لقد قالت بول : « انتصار » وقد ظن انها تبالغ . ولكن الواقع ان النقاد يستعملون هم ايضاً كلمات كبيرة . مـن الواضح ان لامبير كان محابياً ، وكذلك لاشوم ، وجميع اولئك النقـاد الشباب الذين ولدوا كانوا عازمين على محاباة الكتّاب المقاومين . ولكن الرسائل الحـارة المرسلة من أصدقاء ومن مجهولين كانت تؤكد حكم الصحافة . حقاً ، ان فيهـا ما يستطيـع ان يسر به ، دون ان يركبه الغرور : انـ تلك الصفحات التي كتبت بانفعال كانت قـد أثارت الانفعال . وتمطى هنري في غبطة . انه لشيء فيه بعض من معجزة ذاك الذي حدث . قبـــل سنتين ، كانت ستائر سميكة تخفي النوافذ المدهونة بالأزرق ، وكان مقطوعاً عن المدينة السوداء وعن كل الأرض ، وكانـ قلمه يتردد فوق الورق : أما اليوم ، فان ذلك الضجيج المبهم في حنجرته قـــد أصبح في العـــالم صوتاً حياً . وتحولت حركات قلبه السرية إلى حقيقة في قلوب أخرى . وقـال في نفسه : « كان يجب ان أشرح لنادين اذا كان الآخرونـ لا حساب لهم ، فليس للكتابة من معنى . ولكن اذا كان لهم حساب ، فانه لشيء ضخم ان ينـال بالكلمات صداقتهم ، وثقتهم . انه لشيء ضخم ان يسمع أفكاره

الخاصة به ترن في نفوسهم » . ورفع عينيه : كان الباب يفتح . وقال صوت نائح :
– لقد انتظرت ساعتين . أنت تستطيع بسهولة ان تمنحني ربع ساعة .
وانتصبت ماري – آنج امام مكتبه : « انها مقابلة لـ « الغد » ، مقال كبير على الصفحة الأولى ، مع صورة » .
– إسمعي ، انني لا أعطي مقابلات ابداً .
– بالضبط . ولهذا فان مقابلتي ستساوي ذهباً .
وهز هنري رأسه وتابعت في سخط : « لن تهدم مستقبلي لمسألة مبدأ ؟ » .
وابتسم . ان ربع ساعة مقابلة يعني بالنسبة لها شيئاً كثيراً ، أما هو ، فانه لا يكلفه كثيراً ! بل الحقيقة انه راغب في الحديث عن نفسه . فبين الناس الذين أحبوا كتابه، من يتمنى حقاً ان يعرف المؤلف. انه راغب في تزويدهم بالمعلومات. كي تتوجه مودتهم اليه حقاً . وقال :
– حسناً . ماذا تريدين ان اقول لك ؟
– طيب ! اولاً ، اين نشأت ؟
– كان والدي صيدلياً في « تول » .
فقالت :
– ثم .
وتردد هنري . فليس المناسب ان يبدأ فوراً في الحديث عن نفسه .
وقالت ماري – آنج :
– هيا . قص عليّ ذكرى او اثنتين من طفولتك .
ان لديه ذكريات ، كسائر النـــاس ، لكنها لم تكن تبدو له مهمة مطلقاً : باستثناء ذلك العشاء ، في قاعة الطعام المؤثثة على طراز هنري الثاني ، الذي تخلص أثناءه من الخوف وقال :
– طيب ، إليك واحدة . انهـا ليست شيئاً تقريباً ، لكنها كانت بالنسبة لي بداية الكثير من الأشياء .
ونظرت اليه ماري – آنج مشجعة ، وقد علقت قلمها فوق دفترها ، وتابـع :

– كان أهم موضوع للحديث بين والديّ ، المصائب التي كانت تهدد العالم : الخطر الأحمر ، الخطر الأصفر ، البربرية ، الانحطاط ، الثورة ، البولشفية . وكنت أرى هذه الأشياء كغيلان فظيعة ستلتهم الانسانية كلها . وفي ذلك المساء ، كان والدي يتنبأ كعادته : الثورة وشيكة الوقوع ، الانسانية تأفل ، وكانت أمي توافق وقد بدا عليها الرعب . وفجأة فكرت : « ولكن على كل حال ، ان الذين سينتصرون ، سيكونون بشراً » . ربما لم تكن هذه الكلمات نفسها التي قلتها ، ولكن كان هذا هو معناها » .

وابتسم هنري : « لقد كان تأثيرها عجائبياً . فلم يعد هناك وجود لغيلان : انني على الارض ، بين مخلوقات بشرية ، بين أبناء جنسي » .

وقالت ماري – آنج :

– ثم ؟

فقال :

– ثم ، منذ ذلك اليوم ، رحت أطارد الغيلان .

فنظرت ماري آنج إلى هنري في حيرة :

– ولكن قصتك ، كيف تنتهي ؟

– أية قصة ؟

فقالت في نفاد صبر :

– تلك التي بدأتها .

فقال هنري :

– ليس لها نهاية أخرى . لقد انتهت .

فقالت ماري – آنج :

– آه ! » وأضافت نائحة : « كنت أريد شيئاً مثيراً » .

فقال هنري :

– آه ! لم يكن في طفولتي شيء مثير . كانت الصيدلية تضجرني وكنت سئماً من العيش في الأقاليم . ولحسن الحظ كان لي عم في باريس أدخلني إلى

« الجمعة » .

وتوقف . انه يرى أمامه أشياء كثيرة يستطيع ان يقولها، عن سنواته الأولى في باريس ، لكنه لا يعرف أيها يختار . وقالت ماري – آنج :

– « الجمعة » ، كانت جريدة يسارية . أكانت لك منذ ذلك الوقت أفكار يسارية ؟

– كنت على الأخص أشمئز من الأفكار اليمينية كلها .

– لِمَ ذلك ؟

وفكر هنري : « كنت طموحاً عندما كنت في العشرين . ولهذا بالضبط كنت ديموقراطياً . كنت أريد ان أكون الأول : ولكن الأول بين متساوين . ولو كان السباق مغشوشاً مسبقاً ، لفقد الرهان كل قيمة » .

وكتبت ماري – آنج على دفترها . لم تكن تبدو ذكية . وبحث هنري عن كلمات سهلة : « بين قرد وآخر البشر ، يوجد فرق أكبر بكثير مما بين هذا الأخير وانشتاين ! ان وعياً يشهد على ذاته ، لهو مطلق » . وكان يهم بفتح فمه لكن ماري – آنج سبقته :

– حدثني عن بداياتك .

– أية بدايات ؟

– بداياتك في الأدب .

– كنت أكتب دوماً سواء قليلاً او كثيراً .

– كنت في أي عمر عندما ظهرت « حادث سوء » ؟

– في الخامسة والعشرين .

– أهو دوبروي الذي فتح أمامك طريق الشهرة ؟

– لقد ساعدني كثيراً .

– كيف تعرفت اليه ؟

– لقد أرسلوني لأجري معه مقابلة : فجعلني أتكلم بدلاً منه . وقال لي ان اعود لرؤيته وعدت ...

فقالت ماري – آنج بصوت يشكو :

– اعطِ تفاصيل . انت لا تحسن القص . » ونظرت اليه في عينيه :

– عمَّ تتحدثان عندما تكونان معاً ؟

فهز كتفيه : « عن كل شيء ولا شيء ، كسائر الناس » .

– وقد شجعك على الكتابة ؟

– نعم . وعندما أنهيت « حادث سوء » ، أعطاها لموفان ليقرأها فأخـــذها فوراً ...

– هل أصبت نجاحاً ضخماً ؟

– نجاح تقدير لا بأس به . أتعرفين ، غريب ...

فقالت في انطلاق :

– نعم . اروِ لي أشياء غريبة !

فتردد هنري :

– غريب عندما يبدأ الانسان بتصور أحلام مجد كبيرة : ثم عند اقل نجاح ، يأخذه سرور تام ...

وتنهدت ماري – آنج :

– عناوين كتبك الأخرى وتواريخها عندي . هل جُنّدت ؟

– في المشاة ، في المرتبة الثانية . لم اشأ ابداً ان أكون ضابطاً . جرحت في ٩ أيار في مون ديو ، قرب فوزيه ، وسُرّحت في مونتيليار وعـــدت إلى باريس في ايلول .

– ماذا فعلت على الضبط في المقاومة ؟

– لقد أسسنا ، انا ولوك ، « الأمل » في عام ١٩٤١ .

– ولكن كان لك نشاط آخر ؟

– لا أهمية له . دعك منه .

– لكن . كتابك الأخير ، متى كتبته على الضبط ؟

– بين ١٩٤١ و ١٩٤٣ .

ـ هل بدأت شيئاً آخر ؟
ـ كلا . ولكني سأفعل ذلك .
ـ ماذا ؟ رواية ؟
ـ رواية . ولكنها لا تزال مبهمة جداً
ـ سمعتهم يتحدثون عن مجلة .
ـ نعم . سأهتم مع دوبروي بمجلة شهرية ستظهر عند موفان وستدعى «الطواري» .
ـ ما ذاك الحزب السياسي الذي يعمل دوبروي على تأسيسه ؟
ـ سيستغرق وقتاً طويلاً شرح هذا .
ـ ولكن أخبرني بالمزيد .
ـ اذهبي للسؤال عن هذا من دوبروي .
ـ لا يمكن الاقتراب منه . » وتنهدت ماري ـ آنج : « انتم غريبون . لو كنت مشهورة هنا ، لأعطيت مقابلات في كل لحظة » .
ـ عند ذاك لن يبقى لديك وقت لفعل أي شيء ولن تصبحي مشهورة مطلقاً. والآن ستكونين لطيفة وتتركيني أعمل .
ـ ولكن لا تزال عندي كمية من الأسئلة: أية انطباعات عدت بها من البرتغال؟
فهز كتفيه : « انها مقرفة » .
ـ لماذا ؟
ـ بسبب كل شيء .
ـ اشرح قليلاً ، لا أستطيع ان اقول فقط لقرائي : انها مقرفة . فقال هنري بصوت سريع :
ـ حسناً ! قولي لهم ان ابوة سالازار ديكتاتورية دنيئة ، وان على الأميركان ان يسرعوا في التخلص منه . ولسوء الحظ لن يتم هذا غداً : فسوف يبيعهم قاعدة جوية في « آسور » .
فطبقت ماري ـ آنج حاجبيها وأضاف هنري : « اذا كان هذا يجرحك ، فلا تتحدثي عنه . سوف أفعل ذلك في « الأمل » .

فقالت ماري ـ آنج :

ـ بلى ، سأتحدث عن ذلك ! » ونظرت الى هنري نظرة عميقة : اية اسباب داخلية دفعتك الى القيام بهذه الرحلة ? » .

ـ إسمعي ، انت لست مجبرة للنجاح في المهنة ان تطرحي أسئلة بلهاء . وأكرر عليك ان هذا يكفي : اذهبي الآن في لطف .

ـ كنت أود مفارقات .

ـ ليس عندي شيء منها .

وابتعدت ماري ـ آنج في خطى صغيرة . وشعر هنري ببعض الخيبة : انها لم تطرح الأسئلة التي كان يجب ان تطرح ، ولم يقل شيئاً مما كان يريد قوله . وبعد كل شيء ، ماذا كان لديه ليقوله بالضبط ? « وددت لو يعرف قرائي من انا ، ولكني لست محدداً انا نفسي » . أخيراً ، انه سيبدأ كتابه خلال بضعة أيام ، وسيحاول ان يحدد نفسه منهجياً .

وعاد إلى فتح بريده . كم من برقيات وقصاصات صحف عليه ان يفحصها ، وكم من رسائل عليه ان يكتبها ، وكم من أناس عليه ان يقابلهم ! لقد حذره لوك : ان لديه عملاً . وأمضى الأيام التالية ملازماً مكتبه وهو لا يكاد يجد الوقت لتحرير ريبورتاجه الذي كان عمال المطبعة يأتون لانتزاعه منه ورقة ورقه . ولقد كان مسروراً ، بعد إجازته الطويلة جداً ، من هذا الانهماك في النشاط . وتعرف دونما حماسة صوت سكرياسين على التلفون .

ـ قل إذن ، أيها المتهرب ، ها قد مضت أربعة ايام على عودتك ونحن لم نرك بعد . تعال فوراً إلى « العزبة » ، شارع بلزاك .

ـ آسف ، فلدي عمل .

ـ لا تأسف على شيء ، تعال : إننا ننتظرك لشرب شمبانيا الصداقة .

فقال هنري في مرح :

ـ من ينتظرني ?

فقال صوت دوبروي :

ـ أنا ، بالاضافة الى الآخرين . وآن ، وجوليان . لدي خمسون شيئاً أريد ان اقولها لــك . ما الذي تصنعه إذن ؟ ألا تستطيع ان تخرج من جحرك ساعة او ساعتين ؟

فقال هنري :

ـ كنت عازماً على المجيء إليك غداً .

ـ مرّ إذن على « العزبة » فوراً .

ـ حسناً ، إنني قادم .

ووضع هنري السماعة ، وابتسم . انـه لراغب حقاً في رؤية دوبروي . ورفع السماعة ونادى بول :

ـ هـذا أنا . ان آل دوبروي وسكرياسين ينتظروننا في « العزبة » . نعم . لست أعرف اكثر منك . سأمر لآخذك في السيارة .

وبعد نصف ساعة ، كان يهبط مع بول درجاً يصطف على جانبيه قوزاق في البسة زاهية . كانت ترتدي ثوباً طويلاً ، جديداً ، ولكنه بعد ان تفحصها ، وجد ان الأخضر لا يلائمها . وتمتمت :

ـ ما أغربه من مكان .

ـ مع سكرياسين ، يجب ان نتوقع كل شيء .

في الخارج ، كان الليل مقفراً جداً ، أبكم جداً بحيث ان ترف « العزبة » كان يبدو مقلقاً : كأنها غرفـة داعرة ملاصقة لغرفة تعذيب ، كانت الجدران المبطنة مدهونة بالدم ، وكان الدم يخضب ثنـايا الطنافس وكانت قمصان الموسيقيين الغجر حمراء اللون . وقالت آن :

ـ آه ! ها أنتما ! هل افلتما منهم ؟

قال جوليان :

ـ يبدو انهما سالمان صحيحان .

وقال دوبروي :

ـ لقد هوجمنا من قبل صحفيين .

وقالت آن :

– صحفيين مسلحين بآلات تصوير .

وقال جوليان بصوت متحمس لجلاج :

– لقد كان دوبروي رائعاً . لقد قال ... لم أعد اعرف ما قال، لكنها كانت ضربة بارعة . بل انه همّ بالانقضاض عليهم ...

كانوا يتكلمون جميعاً معاً ، باستثناء سكرياسين الذي كان يتسم في شيء من التفوق . وقالت آن :

– لقد ظننت حقاً ان دوبروي سيصطدم معهم .

وقال جوليان وكأن الإلهام جاءه :

– لقد قال : إننا لسنا قروداً عالمة .

وقال دوبروي في عزة :

– لقد اعتبرت دوماً وجهي ملكيتي الخاصة .

وقالت آن :

– المشكلة ان العري ، بالنسبة لأناس أمثالك ، يبدأ من الوجه . أظهر انفك وعينيك ، فتكون قد أصبت بمرض العرض .

فقال دوبروي :

– إنهم لا يتصورون المصابين بمرض العرض .

فقال جوليان :

– هذا خطأ .

فقال هنري وهو يناول بول كأس فودكا :

– اشربي ، اشربي ، لقد تأخرنا كثيراً . » وأفرغ كأسه وسأله : « لكن كيف عرفوا انكم هنا ؟ » .

فقالوا وهم يتبادلون النظر في دهشة :

– هذا صحيح . كيف ؟

فقال سكرياسين :

ـ افترض ان رئيس الخدم قد تلفن .

فقالت آن :

ـ لكنه لا يعرفنا .

فقال سكرياسين :

ـ انه يعرفني . وعض على شفتـه السفلى في خجل امرأة أمسكت في جرم : « كنت أريد ان يعاملكم حسب مقامكم ، فقلت له من أنتم » .

فقال هنري :

ـ حسناً تبدو لي قد نجحت في ضربة صائبة .

كان غرور سكرياسين الصبيــاني يدهشه دوماً . وانفجر دوبروي ضاحكاً : « لقد فضحنا بنفسه ! ما كنا لنكتشف هذا ! » . واستدار في حدة نحو هنري : « إذن تلك الرحلة ? كأني بك ، بدل الاجازة ، قد أمضيت وقتك في المحاضرات والتحقيقات ? » .

فقال هنري :

ـ اواه ! لقد تنزهت على كل حال .

ـ ان ريبورتاجك يبعث الرغبة بالأحرى في الذهاب للتنزه في مكان آخر : يا لها من بلاد حزينة !

فقال هنري في مرح :

ـ كانت رحلة حزينة، لكنها جميلة. انهاحزينة على الأخص بالنسبة للبرتغاليين.

فقال دوبروي :

ـ لست ادري اذا كنت قد فعلت ذلك عمداً : لكن عندما تقول ان البحر أزرق ، فإن الأزرق يصبح لوناً كئيباً .

ـ لقد كان هكذا أحياناً ، ليس دوماً . » وابتسم هنري : « أنت تعرف كيف يكون الانسان عندما يكتب » .

فقال جوليان :

ـ نعم . لا بد من الكذب كي لا يكون الانسان صادقاً .

فقال هنري :

– على كل حال ، إنني مسرور بالعودة .

– لكنك لا تستعجل رؤية اصدقائك ؟

فقال هنري :

– بلى ، كنت أستعجل كثيراً . في كل صبـــاح كنت اقول في نفسي إنني سأمر عليكم ، ثم فجأة تكون الساعة قد تجاوزت منتصف الليل .

فقال دوبروي في صوت مؤنب :

– نعم . حسناً ! تدبر أمرك غداً لتراقب ساعتك بشكل أفضل . يجب ان أطلعك على كمية من الأشياء . » وابتسم : « أعتقد اننـا في طريقنا إلى الانطلاق انطلاقة طيبة » .

فسأله هنري :

– ابداتم تسجلون ؟ هل قرر سامازيل ؟

فقال دوبروي :

– إنه غير موافق على كل شيء ، لكننا سنتوصل إلى تسوية .

فقال سكرياسين :

– لا أحاديث جديدة هـذه الليلة ؟ » وأشار الى رئيس الخدم الذي كان يضع مونوكلاً متعجرفاً : « زجاجتا نبيذ مز » .

فقال هنري :

– هل هذا ضروري حتماً ؟

– نعم ، إنها الأوامر . » كان سكرياسين يتبع بنظاريه رئيس الخدم : « لقد نحف كثيراً منذ ١٩٣٩ . انه كولونيل سابق » .

فقال هنري :

– هل انت معتاد على هذا الماخور ؟

– في كل مرة أرغب فيها في تحطيم قلبي ، آتي لأسمع هذه الموسيقى .

فقال جوليان :

– هناك وسائل كثيرة اقل كلفة ! » واستنتج بلهجة غامضة: « على كل ، ان جميع القلوب ممزقة منذ زمن بعيد » .

فقال هنري :

– ان قلبي لا يتحطم إلا بالجاز . أما غجرك فهم بالأحرى يكسرون قدمي .

فقالت آن :

– اواه !

وقال سكرياسين :

– الجاز ! لقد كتبت صفحات حاسمة عن الجاز في « أبناء هابيل » .

فقالت بصوت مرتفع :

– هل تعتقد ان بالإمكان كتابة شيء حاسم ؟

فقال سكرياسين :

– لا أناقش، ستقرئين . ان الطبعة الفرنسية ستصدر وشيكاً . » وهز كتفيه: « خمسة آلاف نسخة، هذه مهزلة! يجب ان تكون هناك تدابير استثنائية للكتب القيمة . كم طبعت ؟

فقال هنري :

– خمسة آلاف .

– حماقة . لأنك اخيراً كتبت كتاب الاحتلال. ان مثل هذا الكتاب يجب ان يطبع منه مئة ألف .

فقال هنري :

– اذهب لتعرض رأيك على وزير الاستعلامات .

لقد أغاظته حماسة سكرياسين المتعجرفة : فهو يتجنب الحديث عن كتبه بين أصدقائه : هذا يحرج كل انسان ولا يسلي احداً .

وقال دوبروي :

– سنصدر مجلة في الشهر القادم . وللحصول على الورق ، اقسم لكم انها كانت مشكلة !

فقال سكرياسين :

– هذا لأن الوزير لا يعرف مهنته . إنني استطيع ان أجد له ، انا ، ورقاً .

عندما كان سكرياسين يتناول بصوته التعليمي مشكلة فنية ، كان معينه لا ينضب . وبينما كان يغرق فرنسا على هواه بالورق ، قالت آن بصوت خافت : « أتعرف ، اعتقد ما من كتاب منذ عشرين سنة قد اثر فيّ كروايتك . انها كتاب ... مما يود الانسان بالضبط ان يقرأه بعد هذه السنوات الأربع . لقد اثار انفعالي كثيراً بحيث انني اضطررت إلى اطباقه عدة مرات والذهاب للتنزه عبر الشوارع لأهدىء نفسي » . واحمرت فجأة : « اشعر انني سخيفة عندما أقول هذه الأشياء ، ولكن من السخافة ايضاً ألا تقال . فهذا لا يمكن ان يؤلم » .

فقال هنري :

– انه يسر .

فقالت آن :

– لقد لمست قلب الكثير من الناس . » وأضافت في نوع من الحماسة :« جميع أولئك الذين لا يرغبون في النسيان » . وابتسم لها في ود . كانت ترتدي هذا المساء ثوباً مخططاً زاهياً يعيد إليها شبابها ، وكانت حسنة التبرج . وعلى نحو ما كانت تبدو أصغر سناً بكثير من نادين . فما كانت نادين لتحمر ابداً .

وفرض سكرياسين صوته :

– تلك المجلة يمكن ان تكون اداة ثقافة وعمل هامة تماماً ، لكن بشرط ألا تعبر فقط عن ميول كنيسة صغيرة . انني اقدر ان رجلاً مثل لويس فولانج يجب ان يكون احد محرريها .

فقال دوبروي :

– لا مجال لهذا .

فقال سكرياسين :

– ان خور مثقف ، ليس بالشيء الخطير جداً . من هو المثقف الذي لم يخطىء ابداً ؟ » وأضاف بصوت قاتم : « هل يجب ان يتحمل الانسان طوال حياته ثقل

اخطائه ؟ » .

فقال دوبروي :

– ان تكون عضواً في الحزب في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٠ ، فهذه لم تكن خطيئة .

– إذا لم يكن لنا الحق في ان نخطيء فهذا كان جريمة .

فقال دوبروي :

– انها ليست مسألة حق .

فقال سكرياسين ، دون ان يسمعه :

– كيف تجرؤون على تنصيب أنفسكم قضاة ؟ هل تعرفون أسباب فولانج ، اعذاره ؟ هل انتم واثقون ان جميع الناس الذين تقبلونهم في جهازكم يفضلونه قيمة؟

فقال هنري :

– اننا لا نحكم . اننا نأخذ موقفاً ، هذا يختلف كثيراً .

لقد كان فولانج اخرق بما فيه الكفاية كي لا يورط نفسه جدياً . لكن هنري كان قد اقسم بألا يصافح يده بعد الآن . وعلى كل حال ، انه لم يفاجأ عندما قرأ المقالات التي كان لويس يكتبها من المنطقة الحرة : فمنذ ان تركا التجهيز ، كانت صداقتها قد تحولت إلى عداوة شبه مكشوفة .

وهز سكرياسين كتفيه في حركة من زالت الغشاوة من عينيه وأشار إلى رئيس الخدم : « زجاجة اخرى ! » . ومن جديد راح يتفحص المهاجر المسن : « الا يؤسيكم ، هذا الراس ؟ الجيوب تحت العينين ، وثنية الفم ، وجميع عوارض الانحطاط . قبل الحرب ، كان هذا الوجه لا يزال صلفاً. لكن حقارة طبقتهم ودناءتها تتآكلهم وخيانتهم » .

كان يحدق إلى الرجل بنظرة معجبة ، وفكر هنري : « انه رفيقه » . هو ايضاً كان قد هرب من بلاده حيث كانوا يدعونه خائناً . وهذا بلا شك ما يفسر غروره : فليس له من وطن او شاهد سوى نفسه . ولهذا فلا بد له ان يتأكد ان اسمه يعني شيئاً في مكان ما من العالم .

وهتفت بول :

– آن ! يا للهول !

كانت آن تفرغ كأسي الفودكا في كأس الشمبانيا . وفسرت :

– انها تنعش الشمبانيا . جربي إذن ، انها لذيذة جداً .

فهزت بول رأسها . وقالت آن :

– لمَ لا تشربين ؟ أن مرحنا يزداد عندما نشرب .

فقالت بول :

– الشرب يسكرني .

فأخذ جوليان يضحك : « انت تذكرينني بتلك الفتاة – فتاة لطيفة قابلتها امام باب فندق صغير ، شارع مونبارناس – التي كانت تقول لي : « أواه ! انا ، ان العيش يقتلني ... » .

فقالت آن :

– انها لم تقل هذا .

– كانت تستطيع ان تقوله .

فقالت آن بصوت متصنع السكر :

– على كل حال ، كانت على حق . فالعيش يعني الموت قليلاً ...

فقال سكرياسين :

– اصمتوا ، بحق الإله ! إذا كنتم لا تصغون ، فدعوني على الأقل استمع !

كانت الاوركسترا قد بدأت في حماسة « العيون السود » . وقالت آن :

– لندعه يحطم قلبه .

فتمتم جوليان :

– على حطام قلب محطم ...

– آن لكم ان تصمتوا !

وصمتوا . كان سكرياسين ، وعيناه عالقتان بأصابع عازفي الكمان الراقصة ، يصغي في ذهول إلى ذكرى ما قديمة ، كان يظن ان من الرجولة ان يفرض

نزواته . لكنهم كانوا يخضعون له كما يخضع الانسان لامرأة عصبية . كان يجب ان تبدو له هذه الوداعة مشبوهة : ولعلها كانت تبدو كذلك ... وابتسم هنري وهو ينظر إلى دوبروي الذي كان ينقر على الطاولة . كانت مجاملته لامتناهيـة إذا لم تمتحن مدة اطول مما ينبغي : فسرعان ما يتبين المرء ان لها حدوداً . كان هـنري يود كثيراً لو يتحادث معه في هدوء ، لكنه لم يكن فاقداً للصبر . لم يكن يحب الشمبانيا ، ولا الموسيقى الغجرية ، ولا هذا الترف المقلد : لكن هذا لا يمنع ان تكون حفلة جلوسه في الساعة الثانية صباحاً في مكان عام . وقال في نفسه : « اننا من جديد في وطننا » . آن ، بول ، جوليان ، سكرياسين ، دوبروي : «اصدقائي» وطقطقت الكلمة في قلبه في غبطة شجرة ميلاد .

بينما كان سكرياسين يصفق في حمية ، جر جوليان بول إلى ساحـــة الرقص والتفت دوبروي إلى هنري :

— جميـع اولئك الأشخاص الذين رأيتهم هناك ، يأملون في ثورة ؟

— انهم يأملون . لسوء الحظ ان سالازار لن يسقط قبل ان يطاح بفرانكو والأميركان لا يبدون مستعجلين .

فهز سكرياسين كتفيه :

— انني افهم الا يرغبوا في انشاء قواعد شيوعية على البحر المتوسط .

فقال هنري بصوت غير مصدق :

— أخوفاً من الشيوعية ، تذهب إلى حد دعم فرانكو ؟

فقال سكرياسين :

— أخشى ألا تكون فاهماً للموقف .

فقال دوبروي في مرح :

— اطمئن ، اننا نفهمه جيداً جداً .

وفتح سكرياسين فـــاه لكن دوبروي أوقفه ضاحكاً : « نعم ، انت ترى جيداً : لكنك لست على كل حال نوسترادادا موسى . فأنت لا تعرف شيئاً أكثر منا عما سيحدث بعد خمسين عاماً . اما ما هو أكيد ، في هذه اللحظة ، فهو ان

الخطر الستاليني اختراع اميركي » .
فنظر سكرياسين إلى دوبروي في شك : « انت تتحدث تماماً كشيوعي » .
فقال دوبروي :
ـ آه عفواً ! ان شيوعياً لن يقول بصوت عالٍ مـــا قلته انا . فعندما تهاجم اميركا ، يتهمونك بأنك تلعب لعبة الطابور الخامس .
فقال سكرياسين :
ـ سيتغير الشعار قريباً . انت تسبقهم ببضعة اسابيـع ، هـذا كل شيء . »
وقطب حاجبيه : « يسألونني غالباً عن النقاط التي تفترق بهـــا عن الشيوعيين . واعترف انني أجد مشقة في الاجابة » .
فأخذ دوبروي يضحك : « لا تجب » .
فقال هنري :
ـ قل إذن ! كنت أظن انها ممنوعة ، الأحاديث الجدية .
وبهزة مغتاظة من كتفيه ، أشار سكرياسين إلى ان الحفة لم يكن لها مكان ، وسأل وهو يحدج دوبروي بنظرة متهمة : « أهو تهرب » .
فقال دوبروي :
ـ كلا . انني لست شيوعياً ، انت تعرف هذا جيداً .
ـ انني لا اعرفه جيداً . » وتغير وجه سكرياسين ، وابتسم بابتسامته الأكثر سحراً : « حقاً ، أحب لو اعرف وجهة نظرك . »
فقال دوبروي :
ـ اعتقد ان الشيوعيين في هذا الوقت يواجهون صعوبات في الداخـل . انني اعرف جيداً لماذا يؤيدون بالطا ، انهم يريدون ان يتركوا للاتحـــاد السوفياتي فرصة للنهوض ثانية: لكن النتيجة هي ان العالم سينقسم من جديد إلى معسكرين ستكون لها كل الأسباب ليتحاربا .
فسأل سكرياسين في قسوة :
ـ اهذا كل ما تأخذه عليهم ? غلطة حساب ?

- انني آخذ عليهم انهم لا يرون ابعد من أنوفهم . » وهز دوبروي كتفيه : « ان اعادة البناء شيء جميل جداً : لكن ليس بأية وسيلة مهما كانت، انهم يقبلون المعونة الأميركية ، وذات يوم سيعضون على أصابعهم : فرويداً رويداً ستقع فرنسا تحت سيطرة اميركا » .

وافرغ سكرياسين كأس شمبانياه ووضعها على الطاولة في ضجة : « هي ذي نبوءة متفائلة جداً ! » . وتابع بصوت جدي : « انني لا احب اميركا. ولا اؤمن بالحضارة الاطلسية . لكني أتمنى الهيمنة الأميركية لأن المسألة المطروحة اليوم هي مسألة الوفرة : وأميركا وحدها يمكن ان تقدمها لنا » .

فقال دوبروي :

- الوفرة ؟ لمن ؟ بأي ثمن ؟ » وأضاف بصوت ساخط : انه سيكون يوماً جميلاً اليوم الذي نستعمر فيه من قبل اميركا ! » .

فقال سكرياسين :

- اتفضل ان يبتلعنا الاتحاد السوفياتي ؟ وأوقف دوبروي بحركة : « إنني اعرف : أنت تحلم بأوروبا موحدة، مستقلة ، اشتراكية . لكنها اذا رفضت حماية الولايات المتحدة ، فستسقط حتماً بين يدى ستالين » .

فهز دوبروي كتفيه : « الاتحاد السوفياتي لا يريد ان يبتلع شيئاً مطلقاً » .

فقال سكرياسين :

- على كل حال ، ان اوروبا تلك لن تتحقق .

فقال دوبروي :

- انت الذي يقول هذا ! » وتابع في حمية : « على كل حال ، هنا ، في فرنسا ، لنا هدف محدد تماماً : ان نحقق حكومة جبهة شعبية حقيقية.. ولهذا لا بد من يسار غير شيوعي يعرف كيف يتحمل الصدمة » . والتفت نحو هنري : « يجب الا نضيع المزيد من الوقت. ان الناس في هذه الفترة يشعرون ان المستقبل مفتوح : فلا ننتظر ان تثبط عزيمتهم » .

وجرع سكرياسين قدح فودكا وغاص في تأمل رئيس الخدم . لقد تخلى عن

مخاطبة مجانين بالعقل . وقال هنري :

ـ كنت تقول ان البداية كانت طيبة ؟

ـ لقد بدأنا . ولكن الآن يجب ان نتابع . أريد ان تقابل سامازيل في أقرب وقت ممكن . ويوم السبت سيعقد اجتماع للجنة ، إنني أعتمد عليك .

فقال هنري :

ـ دعني أفكر . » ونظر الى دوبروي في شيء من القلق . لن يكون من السهل ان يدافع عن نفسه ضد هذه الابتسامة الطيبة المتطلبة . وقال دوبروي في شيء من التأنيب :

ـ لقد اخرتُ المناقشة كي تستطيع ان تحضرها .

فقال هنري :

ـ كان يجب ألا نفعل . إنني أؤكد لك انك تبالغ في كفاءتي .

فقال دوبروي :

ـ وانت في عدم كفاءتك ! » ونظر إلى هنري في قسوة : « لقد درست الموقف بكامله خلال هذه الأيام الأربعة ، ولقد تطور بشكل قذر ! لا بد انك أدركت ان الحياد مستحيل » .

فقال هنري :

ـ لكني أبداً لم أكن محايداً ! لقد رضيت دوماً بالسير مع « الاشتراكي الثوري الحر » .

لنتحدث عن ذلك : إسمك وبضعة أفعال حضور . هذا كل ما وعدتني به .

فقال هنري في حدة :

ـ لا تنسَ ان بين يدي جريدة .

ـ بالضبط . إنما بجريدتك على الأخص كنت أفكر : انها لا تستطيع ان تبقى محايدة بعد الآن .

فقال هنري في دهشة :

ـ لكنها ليست محايدة !

– ما الذي يلزمك !» وهز دوبروي كتفيه : «ان تكون الى جانب المقاومة، هذا لا يشكل برنامجاً » .

فقال هنري :

– ليس لي برنامج . ولكن في كل مرة يكون هناك داعٍ ، فإن « الأمل » تأخذ موقفاً .

– كلا إنها لا تأخذ موقفاً . وليس أكثر من الصحف الأخرى على كل حال . أنتم تتنازعون على السفاسف ، ولكنكم متفاهمون جميعا على إغراق السمكة . » كان ثمة غضب في صوت دوبروي : « مـن « الفيغارو » إلى « الاومانيته [1] » ، أنتم جميعاً مزيفون . إنكم تقولون نعم لديغول ، نعم ليالطا ، لكل شيء . وانتم تتظاهرون بالإيمان بأنه لا تزال هناك مقاومة وإننا نسير نحو الاشتراكية : ثمـة واحد قد فك الحصار في قوة في افتتاحياته الأخيرة هو صديقك لوك . والحقيقـة هي اننا نراوح في مكاننا ، بـل لقد بدأنا السير القهقرى : وليس بينكم من يجرؤ على فضح الكذبة !

فقال هنري :

– كنت أظن انك متفق مع « الأمل » . كان قلبه قد أخذ ينبض في سرعة أكبر ، وكان يشعر انه مصدوم . لقد تلاءم طوال تلك الأيام الأربع مع هـذه الجريدة كما يتلاءم الانسان مع حيـاته الخاصة . وها هي « الأمل » توضع موضع اتهام فجأة ، ومن قبل دوبروي !

وقال دوبروي :

– متفق على أي شيء ؟ ليس لـ « الأمل » خط . أنتم تتباكون كل يوم على ان التأمينات لم تتم . ثم ؟ ان المهم ان تقولوا من يعرقلها ، ولماذا .

فقال هنري :

– لا أريـــد ان أضع نفسي في مركز طبقي . ان الاصلاحات ستتم عندما

---

١ ـ الفيغارو من اهم الصحف اليمينية : و « الاومانيتيه » اي « الانسانية » هي جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي .   « المترجم » .

يطلبها الرأي العام : وانا أحاول ان احث الراي العام . ولهذا يجب ألا اصدم نصف القراء ...

فسأل دوبروي في شك :

– انت لا تتصور ان صراع الطبقات قد انتهى ؟

– كلا .

فقال دوبروي :

– إذن لا تحدثني عن الرأي العام . هناك من جهة البروليتاريا التي تريد الاصلاحات، ومن الجهة الثانية البورجوازية التي لا تريدها. والبورجوازية الصغيرة تتأرجح لأنها لم تعد تعرف جيداً اين هي مصلحتها . ولكن لا تأمل في التأثير عليها : ان الموقف هو الذي سيقرر .

وتردد هنري . ان صراع الطبقات لم ينته : فهل هذا يدين كل نداء إلى إرادة الناس الطيبة ، إلى حسهم الشريف ؟ وقال :

– ان مصالحها معقدة . وانا لست واثقاً مطلقاً من أنه يمكننا التأثير عليها .

وبدرت عن دوبروي حركة ، لكن هنري أوقفه وقال في حدة :

– ثمة شيء آخر . إن العمال يقرأون « الأمل » ، يقرأونها لأنها تغير عندهم جو « الاومانيته » ، وتأتيهم بالهواء . فاذا ما وضعت نفسي على صعيد الصحف الشيوعية ذاته ، فإما ان أردد الأشياء نفسها التي يرددونها ، وإما ان اتخذ موقفاً ضدهم : وعندئذ يتخلى العمال عني ». وأضاف بصوت مصالح : « إنني ألمس جمهوراً اوسع من الذي تجمعونه . فأنا مضطر لأن تكون لي أرضية اوسع بكثير » .

فقال دوبروي :

– نعم ، انت تلمس جمهوراً اوسع . ولكنك قلت بنفسك لماذا ! اذا كانت صحيفتك تعجب جميع الناس ، فهذا لأنها لا تزعج احداً . لا تهاجم شيئاً ، ولا تدافع عن شيء ، وتتجنب كل المشاكل الحقيقية . إنها تقرأ في رضى : لكن كما تقرأ مجلة محلية » .

وساد صمت . كانت بول قد عادت للجلوس قرب آن : كانت تبدو غاضبة وآن

محرجة كثيراً. وقد اختفى جوليان. اما سكرياسين فكان قد انتزع من تأملاته، وراح ينظر مرة إلى هنري ومرة إلى دوبروي و كأنه يحكم على الضربات . لكن لم تكن هناك جولة ، فان هنري كان قد تزعزع لعنف الهجوم . وقال :

– إلى أين تريد الوصول ؟

فقال دوبروي :

– اغطس في القضية بأجمعك ، وخذ موقفك من الحزب الشيوعي .

وتفرس هنري في وجه دوبروي في شك . كان يحدث له غالباً ان يزج نفسه بحمية في قضايا الآخرين ، ولكنه غالباً ايضاً ما كان يجعل منها قضيته الخاصة في الحقيقة : « باختصار ، انه برنامج « الاشتراكي الثوري الحر » الذي تقترحه علي؟ »

فقال دوبروي :

– نعم .

– لكنك لا تريد على كل حال ان تصبح « الأمل » جريدة الحركة ؟

فقال دوبروي :

– سيكون هذا طبيعياً . ان ضعف « الأمل » متأتٍ من انها لا تمثل شيئاً . ومن جهة اخرى ، فان الحركة دون صحيفة ، ليست لها اي حظ تقريباً في النجاح. ولما كانت اهدافنا واحدة ..

فقال هنري :

– اهدافنا ، وليس طرقنا . » وفكر في اسف : « لهـذا إذن كان دوبروي متلهفاً على رؤيتي ! » . كان كل مرحه قد اختفى . وقال في نفسه : « ألا يمكن ان نمضي سهرة بين اصدقاء دون ان نتكلم في السياسة ؟ » . لم تكن هذه المحادثة بعاجلة جداً . ولقد كان بإمكان دوبروي ان يرجئها يومـــاً او يومين : لكنه قد اصبح لا يقل هوساً عن سكرياسين .

وقال دوبروي :

– بالتحديد ، انت ستستفيد من تغيير طريقك .

فهز هنري رأسه : « سأريك رسائل أتلقاها . رسائل من مثقفين على الأخص:

معلمين ، وطلاب . ان ما يعجبهم في « الامل » ، هو حسن نيتها . فإذا ما اعلنت برنامجاً ، فقدت ثقتهم » .

فقال دوبروي :

– بالتأكيد . ان المثقفين يغتبطون عندما يشجعون على ألا يكونوا لا لحماً ولا سمكاً . وثقتهم ... كما يقول الآخر : ما العمل بها ؟

فقال هنري :

– اعطني سنتين او ثلاثاً ، وسآتيك بهم من يدهم إلى « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

– أتعتقد هذا ؟ حسناً ! انت مثالي لعين !

فقال هنري في شيء من الغضب :

– ممكن . في عام ١٩٤١ ايضاً وصفوني بأني مثالي . واضاف بصوت حازم: « ان لدي افكاري عما يجب ان تكون عليه جريدة » .

وبدرت عن دوبري حركة تهربية : « سوف نعاود الحديث عن هذا . لكن صدقني : خلال ستة اشهر ستنتهج « الأمل » سياستنا ، والا فلن تكون إلا ورقة ملفوف » .

فقال هنري :

– ليكن ، سنعاود الحديث عن هذا بعد ستة اشهر .

كان قد شعر فجأة انه متعب لا حيلة له . لقد فاجأه اقتراح دوبروي . لكنه كان عازماً كل العزم على ألا يترك لذلك تأثيراً عليه . إلا انه كان بحاجة إلى الانفراد بنفسه ليستعيد قواه . وقال : « يجب ان اعود » .

والتزمت بول الصمت طوال الطريق ، لكن ما ان اصبحا في البيت ، حتى هاجمت :

– لن تعطيه الجريدة ؟

فقال هنري :

– يقيناً لا .

فقالت :

– أواثق حقاً انت ؟ ان دوبروي يريدها وهو عنيد .

– انا ايضاً عنيد .

فقالت بول بصوت انفجر فجأة :

– لكنك تنتهي دوماً بالاستسلام له . لماذا قبلت بالدخول إلى « الاشتراكي الثوري الحر » ذاك ؟ كأنك ليس عندك ما يكفي من الشغل ! لقد عدت منذ اربعة ايام ، ولم نتحادث خمس دقائق ، ولم تكتب سطراً من روايتك !

– سأبدأ غداً فيها صباحاً . لقد بدأت تتجمع اليوم .

– ليس هذا سبباً لتحمل نفسك سخرات جديدة . » كان صوت بول يعلو : « لقد أدى لك دوبروي خـــدمة منذ عشر سنين ، فلن يجعلك تدفعها له طوال حياتك » .

– ولكن يا بول ، لن اعمل له لأؤدي له خدمة : بل لأن هذا يهمني .

فهزت كتفيها :

– هيا إذن !

– ما دمت أقول لك .

فسألت في شيء من القلق :

– أتصدق ما يروونه : انه ستنشب حرب من جديد ؟

فقال هنري :

– كلا . قد تكون ثمة قلاقل في اميركا ، لكنهم لا يحبون الحرب ، هناك . أن ما هو حقيقي هو ان العالم سيتغير جدياً : إلى أفضل او أسوأ . فيجب ان نحاول ان يكون إلى أفضل .

فقالت بول :

– لقد كان العالم يتغير دوماً . وقبل الحرب كنت تتركه يتغير دون ان تتدخل .

وصعد هنري الدرج في حزم . وقال وهو يتثاءب : « ان ما قبل الحرب لم يعد له وجود » .

– ولكن لماذا لا نعيش كما قبل الحرب ؟

– لقد تغيرت الظروف وكذلك انا . » وتثاءب من جديد : « انني ناعس ».

كان ناعساً، لكنه عندما رقد إلى جانب بول ، لم يستطع ان ينام : انها خطيئة الشمبانيا ، والفودكا ، ودوبروي . كلا ، لن يتخلى له عن « الأمل » : وهـذه بديهة لا تحتاج إلى تبرير . ولكنه يود على كل حال ان يجد بعض الأعذار المعقولة. مثالي : هل هذا صحيح ؟ وعلى كل ماذا تعني هذه الكلمة ؟ من البديهي انه ، إلى حد ما ، يؤمن بحرية الناس ، إرادتهم الطيبة ، بقوة الافكار . « انت لا تتصور ان صراع الطبقات قد انتهى ؟ » . كلا . انه لا يتصور ذلك : ولكن ماذا عليه ان يستنتج منه ؟ وتمدد على ظهره ، واشتهى سيجارة ، لكنه سيوقظ بول بذلك وستكون سعيدة للغاية بإلهائه عن أرقه . ولم يتحرك . وقال في نفسه في شيء من القلق : « يا إلهي ! ما أجهل الانسان ! » . كان يقرأ كثيراً مع ذلك ، ولكن معرفة جديرة بهذا الاسم لم تتوفر له إلا في الأدب . ولم يكن هذا قد أزعجه حتى الآن . فلا حاجة لكفاءات خاصة للمشاركة في المقاومـة ، ولا لتأسيس صحيفة سرية : ولقد ظن ان الأمر سيستمر هكذا . ولقد أخطأ دون شك . مـا الرأي العام ؟ ما الفكرة ؟ ماذا تستطيع الكلمات ، على من ، في أية ظروف؟ إذا كان المرء يدير صحيفة ، فلا بد ان يجيب على هذه الأسئلة . وها هي ، على حين فجأة ، تتراقص امامه كلها . وقال هنري في نفسه : « اننا مرغمون على التقرير في حالة الجهل! » . حتى دوبروي مع علمه ، كان يتصرف غالباً وهو يتلمس طريقه تلمساً. وتنهد هنري : انه لا يستطيع ان يكتفي بهذه الهزيمة . هناك درجات في الجهل : والحقيقة انه ليس مهيأ كما يجب للحياة السياسية . وقال في نفسه : « ليس علي إلا ان أبدأ بالعمل » . لكنه إذا كان يريد ان يعمق الأشياء ، فأمامه سنوات طويلة لذلك : الاقتصاد ، والتاريخ ، والفلسفة، ابداً لن ينتهي منها ! ان مجرد الاطلاع على الماركسية ، كم يتطلب هذا من جهد ! ولن يعود أمامه مجال للكتابة. وكان

يريد ان يكتب . إذن ؟ انه لن يتخلى على كل حال عن « الأمل » لأنه لا يعرف المادية التاريخية بتفاصيلها . واغلق عينيه . كان ثمة شيء ما غير عادل في هـذه القضية ! كان يشعر انه مرغم ، كسائر الناس ، على الاهتمام بالسياسة : ولكن كان يجب إذن الا يتطلب هـذا تدرباً خاصاً . ولو كان هـذا من اختصاص التكنيكيين ، فعليهم الا يطلبوا منه ان يزج نفسه في الأمر .

وفكر هنري وهو يستيقظ : « ان ما يلزمني ، هو الوقت ! » . « المشكلة الوحيدة هي ان اجد الوقت » . كان باب الاستديو قد فتح وأغلق ثانيـة . كانت بول قد خرجت ولمـا عادت ، اخذت تجول في الغرفة في خطى حذرة . ورمى أغطيته . « لو كنت اعيش بمفردي ، لو فـّر علي هذا ساعات ! » . ولن تكون هنـاك احاديث لغو ، ولا مآدب منظمة : سوف يقلب الصحف اليومية ، وهو يحتسي قهوته في بار « بيار » الصغير عند الزاوية ، وسيشتغل حتى موعد ذهابه إلى الجريدة ، وسيكتفي بسندويشة بـدل الغداء . وعندما ينتهي العمل ، سيتناول العشاء بسرعة وسيقرأ إلى ساعة متأخرة ليلاً . وعلى هذا النحو ، سينجح في ان يجمع بين « الأمل » ، وروايته ، وقرائه . وقرر : « سأكلم بول هـذا الصباح بالذات » .

وقالت بول في مرح :

ــ أنمت جيداً ؟

ــ جيداً جداً .

كانت تضع زهوراً على الطـاولة وهي تدندن . لقد كانت دوماً مرحة ، في عناد ، منذ عودة هنري : « لقد اعددت لك قهوة حقيقية ، ولا تزال هناك زبدة طازجة » .

وجلس واخذ يدهن بالزبدة قطعة خبز محمصة : « هل أكلت ؟ » .

ــ لست جائعة .

ــ انت لا تجوعين ابداً .

ــ اواه ؟ إنني آكل ، اؤكد لك . إنني آكل جيداً جداً .

وعض على قطعة الخبز . ما العمل ؟ انه لا يستطيع ان يغذيها بالمسبار : « لقد نهضت باكراً جداً » .

– نعم . لم اعد استطيع النوم . » ووضعت على الطاولة البوماً ضخماً مذهّباً لدى الحافة : « لقد انتهزت الفرصة لأصنف صورك في البرتغال » . وفتحت الألبوم وأشارت إلى درج « براغا » : كانت نادين جالسة على درجة تبتسم . وقالت :

– انت ترى انني لا أحاول ان اهرب من الحقيقة .

– لكني اعرف ذلك جيداً .

لم تكن تهرب من الحقيقة ، بل كانت تمر من خلالها ، وهذا أكثر إحراجاً بكثير . وقلبت بضع صفحات . « حتى في صورك وانت طفل كانت لك هـــذه الابتسامة المرتابة نفسها . كم تشبه نفسك ! » . لقد ساعدها في المـاضي على جمع هذه الذكريات . أما اليوم فهذا يبدو له باطلاً . وكان يغتاظ من استمرار بول في المعاندة في نبشه وتحنيطه .

– ها انت ، عندما عرفتك !

فقال وهو يدفع الألبوم :

– لا يبدو علي أنني خبيث .

فقالت :

– كنت شاباً . كنت كثير التطلبات .

وانتصبت امام هنري وقالت في حدة مفاجئة :

– لماذا أعطيت مقابلة لـ « الغد » ؟

– آه ! أظهر العدد الجديد ؟

– نعم . لقد اتيت به . » وذهبت لتأتي بالمجلة من آخر الاستديو ورمتها على الطاولة : « لقد قررنا ألا تقبل ابداً بإعطاء مقابلات » .

– لو كان علينا ان نتمسك بكل القرارات التي نتخذها ...

– كان ذلك القرار جدياً . كنت تقول انه عندما يبـــدأ المرء بالابتسام للصحفيين ، فهذا يعني انه قد نضج للأكاديمية الفرنسية .

ـ لقد قلت الكثير من الأشياء .
فقالت :
ـ لقد تألمت جسدياً عندما رأيت صورتك منشورة في هذه الصحيفة .
ـ انت تغتبطين عندما ترين إسمي .
ـ اولاً . إنني لست مغتبطة . هذا مختلف جداً .

لم تكن بول قد فاهت بتناقض ، لكن ما قالته أغاظ هنري بشكل خاص : أنها تريده ان يكون أكثر البشر مجداً ، وهي تتظاهر باحتقار المجد . هذا لأنها تعاند في ان تحلم بنفسها كما كان قد حلم بها ، في الماضي : مترفعة ، سامية . وفي الوقت نفسه كانت تعيش ، بالتأكيد ، على الارض ، كسائر الناس . وفكر في إشفاق مفاجىء : « وليست هذه بالحياة الطيبة ، فمن الطبيعي ان تكون بحاجة إلى تعويض » .

وقال في لهجة مصالحة :
ـ لقد أردت ان أساعد تلك الفتاة . إنها مبتدئة ، وهي لا تحسن تدبر حالها .
وابتسمت له بول في حنان : « ثم انك لا تعرف ان تقول لا » .
لم تكن هناك أية فكرة مسبقة في ابتسامتها . وابتسم بدوره :
ـ لا اعرف ان اقول لا .

وبسط امامه المجلة الأسبوعية . على الصفحة الأولى ، كانت صورته تبتسم . حديث مع هنري بيرون . كان يسخر تماماً مما تظنه ماري ـ آنج عنه . ولكنه امام هذه الأسطر المطبوعة كان يستعيد بعضها من إيمان الفلاح الساذج الذي يقرأ التوراة : لكأنه لستطاع اخيراً من خلال هذه الجمل التي بعثها هو نفسه ان يعرف من هو . « في ظل صيدلية في تول ، وسحر الأنابيب الحمراء والزرقاء ... لكن الطفل العاقل يكره هذه الحياة الضيقة ، ورائحة الأدوية ، وشوارع مدينته الأصلية الحقيرة ... وترعرع ونداء المدينة الكبيرة يصبح أكثر إلحاحاً ... واقسم امام نفسه ان يرتفع فوق توافه الحياة العادية . وفي ركن مظلم من قلبه ، كان يأمل بالصعود أكثر من سائر الآخرين ... وكان لقاء من العناية الإلهية مع روبير

دوبروي ... وبدل هنري بيرون ، مذهولاً ، محتـــاراً ، متوزعاً بين الإعجاب والتحدي ، احلام مراهقته بطموح رجل حقيقي . واشتغل في عناد ... وأصدر كتاباً صغيراً ولكنه كان كافياً ليدخل المجد الى حياته : كان في الخامسة والعشرين أسمر ، عيناه متطلبتان ، فم قاسٍ ، مباشر ، مفتوح ، وفي الوقت نفسه سري...» ورمى الصحيفة . لم تكن ماري ـ آنج بلهاء ، بل كانت تعرفه بما فيه الكفاية ، وقد جعلت منه نائباً لراستينياك [1] صالحاً لعاملات الخياطة .

وقال :

ـ انت على حق . يجب ان أرفض الادلاء بحديث إلى الصحفيين . ان الحياة بالنسبة لهم ليست إلا مهنة ، والعمل ليس إلا وسيلة للوصول . أن ما يسمونـه نجاحاً ، هو الضجة التي يثيرها الانسان والمال الذي يربحه . ويستحيل اخراجهم عن هذه الفكرة .

وابتسمت بول في تسامح : « لاحظ ان تلك الصغيرة قد قالت أشيـاء لطيفة عن كتابك . كل ما هنالك انها كالآخرين . انهم يعجبون دون فهم » .

فقال هنري :

ـ انهم لا يعجبون إلى هذا الحد ، أتعرفين . انها الرواية الأولى التي تظهر منذ التحرير : إذن فهم مرغمون على مدحها .

ان هذا السيل من التقريظ ، لمحرج بالأحرى ، عندما يزيد على حده . فهـــو يظهر حسن صدور الكتاب في حينه لكنه لا يكشف مطلقاً عن محاسنه . بل لقد انتهى الأمر بهنري إلى الاعتقاد بأنه مدين بنجاحه إلى سوء تفاهم . فلامبير يعتقد انه اراد من خلال العمل الجماعي ان يتغنى بالفردية ، ولاشوم على العكس يعتقد انه يعظ بتضحية الفرد لمصلحة المجموع . والجميـع ينوهون بالصفة البناءة للروايـة ، مع انها كانت صدفة تقريباً ان يجعل هنري قصته تدور اثناء المقاومة . لقد فكر بإنسان ، وبموقف ايضاً . بعلاقة معينة بين ماضي بطلة والأزمة التي يجتازهـــا .

---

١ ـ راستينياك : شخصية خلقها بلزاك في « الاب غوريو » : نموذج للوصولي الانيق . «المترجم»

وبأشياء اخرى كثيرة لم يتحدث عنها اي ناقد . أهي غلطته أم غلطة القراء ؟ لقد أحب الجمهور كتاباً مختلفاً تماماً عن الكتاب الذي ظن هنري انه يقدمه له . وسأل بصوت ودي :

ـ ماذا ستفعلين اليوم ؟

ـ لا شيء خاصاً .

ـ وغير ذلك ؟

وفكرت : « حسناً ! سأتلفن إلى خياطتي لأنظر معها إلى تلك الأقمشة الجميلة التي أتيتني بها » .

ـ وبعد ذلك ؟

فقالت في مرح :

ـ اواه ! لدي دوماً أشياء أفعلها .

فقال هنري :

ـ يعني انك لا تفعلين شيئاً . » ونظر إلى بول في قسوة : « لقد فكرت بك كثيراً خلال هذا الشهر . أرى ان من الاجرام ان تمضي ايامك تختنقين بين هذه الجدران الأربعة .

فقالت بول :

ـ أتسمي هذا اختناقاً ؟ » وابتسمت في عذوبة وكما في الماضي كانت حكمة العالم كلها في ابتسامتها : « عندما يحب الانسان ، لا يختنق » .

ـ لكن الحب ليس شاغلاً .

فقاطعته :

ـ أسألك عفواً : فأنا ، هذا يشغلني .

فاستأنف :

ـ لقد فكرت ثانية فيما قلته لك ليلة الميلاد . وانا واثق انني كنت على حق : يجب أن تعودي إلى الغناء .

فقالت بول :

- منذ سنوات وانا أعيش كما أعيش الآن . فلماذا تقلق فجأة ؟

فقال في حزم :

- اثنـــاء الحرب ، كنا نستطيع ان نكتفي بقتل الوقت ، لكن الحرب انتهت . اسمعي : ستذهبين لتقولي للشيخ « غريبان » انك تريدين ان تعودي للعمل . وسأساعدك انا على اختيار أغانٍ . بل سأحاول ايضاً ان اكتب لـــك وسأطلب ايضاً ذلك إلى الرفاق : آه ! سيسر جوليان بذلك كذلك ، وانا واثق انه سيكتب أغاني ساحرة . وسيضع لنا بروجير موسيقاها : سترين المجموعة التي ستكون لديك ، خلال شهر ! وفي اليوم الذي تستعدين فيـه سيسمعك ساتريريو واني أضمن لك ان يجعل منك نجمة النوادي لعام ١٩٤٥ . وعندئذ ، تكونين قد انطلقت .

وادرك انه تكلم بسرعة وسهولة أكثر مما ينبغي ، وبكثير من الطلاقة . كانت بول تتفرس في وجهه وقد بدا عليها تأنيب مدهوش . وقالت : « ثم ماذا ؟ هـل سأكون أعظم في نظرك إذا كتب اسمي على الاعلانات ؟ » .

فهز كتفيه : « ما أبلهك ! يقيناً لا . ولكن من الأفضل ان تفعلي شيئاً على ألا تفعلي شيئاً مطلقاً . انني أحاول الكتابة . وانت عليك ان تغني مـــا دمت موهوبة لذلك » .

- انني أحيا ، أحبك : هذا ليس بلا شيء .

فقال في نفاد صبر :

- انت تتلاعبين بالكلمات . لماذا لا تريدين ان تحاولي ؟ هل اصبحت كسولة جداً ؟ ام انت خائفة ؟ ام ماذا ؟

فقالت في صوت تصلب فجأة :

- اسمع ، حتى لو كانت هذه الأباطيل كلها : النجاح ، الشهرة ؟ لا يزال لها معنى بالنسبة لي ، فإنني لن أذهب لأبدأ في السابعة والثلاثين مهنة من الدرجـــة الثانية . عندما ضحيت من اجلك بتلك الجولة في البرازيل ، كان ذلك تخليـــاً نهائياً . انني غير آسفة مطلقاً . ولكن لا نعد إلى هذا الموضوع .

وفتح هنزي فمه ليحتج . تلك التضحية التي قررتها حماسة ، دون ان تستشيره ، ها هي كأنها تجعله عنها مسؤولاً ! وتمالك نفسه وتفرس في وجه بول في حيرة. انه لم يعرف ابداً ما إذا كانت تحتقر الشهرة ام انها كانت تخاف ألا تبلغها . وقال :

– صوتك لا يزال جميلاً كما في الماضي . وانت ايضاً .

فقالت في نفاد صبر :

– كلا . » وهزت كتفيها : « إنني اعرف : ستكون هناك قبضة من المثقفين سيرددون طوال عدة أشهر لإرضائك انني موهوبة . ثم مساء الخير . ربما كان بإمكاني ان أكون « داميــــا » او « اديث بياف » . لكني تركت فرصتي تمر . حيفاً علي ، لكن لنبق هنا » .

انها لن تصبح بلا شك نجمة . لكن يكفي ان تصيب بعض النجاح ، وستقلع عن ادعاءاتها . على كل حال ، ستكون حياتها اقل مدعاة للشفقة اذا اهتمت فعلياً بشيء ما . وقال في نفسه : « وانا ، هذا سيرتب أموري بشكل رائع ! » . كان يعلم جيداً ان حياته هي المطروحة على بساط البحث، أكثر من حياة بول. وقال:

– حتى لو لم تبلغي الجمهور الكبير ، فهـذا يستحق الجهد . ان لك صوتك ، ومواهبك الخاصة بك . سيكون من المفيد ان تحاول استخلاص كل ما بامكانك. انا واثق ان هذا سيمنحك مسرات حقيقية .

فقالت :

– عندي مسرات حقيقية في حياتي . » وتألق وجهها : « لا يبدو عليك انك تفهم ما هو حبي لك » .

فقال في حدة :

– بلى ! » وأضاف بصوت مستاء : « لكنك لن تذهبي إلى حـد ان تفعلي ، حباً بي ، ما أطلبه منك » .

فقالت في رصانة :

– لو كانت لك اسباب حقيقية لتطلب ذلك مني ، فإني فاعلة .

– لكنك تفضلين اسبابك على اسبابي .

فقالت في هدوء :

– نعم ، لأنها افضل . انت تكلمني من وجهة نظر خارجية تماماً ، وجهة نظر دنيوية ليست حقاً وجهة نظرك .

فقالت في استياء :

– انني لا أرى ما هي وجهة نظرك انت ! » ونهض . لا فائدة من النقاش ، سيحاول بالأحرى ان يضعها امام الأمر الواقع : سيأتيها بأغانٍ ، وسيأخذ مواعيد لها : « حسناً ، كفانا حديثاً عن الموضوع . لكنك مخطئة » .

وابتسمت دون ان تجيب : « ستذهب للعمل ؟ » .

– نعم .

– بروايتك ؟

– نعم .

فقالت : « هذا حسن » .

وارتقى الدرج . انه يتلهف إلى معاودة الكتابة . ويهيء نفسه على فكرة ان هذه الرواية لن تكون بناءة مطلقاً : لم تكن لديه بعد أية فكرة محددة عما سيفعله . كان شعاره الوحيد ان يتسلى مجاناً بأن يكون صادقاً . وبسط مسوداته امامه : حوالي مئة صفحة . كان حسناً ان يتركها تستريح مدة شهر ، وسوف يعيد قراءتها بعين جديدة . وفي البداية استسلم للذة استعادة كمية من الانطباعات والذكريات مصبوبة في جمل مفكر بها . وشيئاً فشيئاً تملكه قلق . ما الذي سيفعله بكل هذا ؟ ان هذه الخربشات ليس لها رأس من ذنب . كان ثمة شيء مشترك بينها ، جو معين : ما قبل الحرب . وبالضبط ، كان هذا ما أحرج هنري فجأة . لقد فكر في غموض : « سوف أحاول ان اسجل طعم حياتي » كأنه ليس إلا امام عطر معنون ماركة مسجلة ، لا يتغير عبر السنين جميعاً . ولكن ما كان يقوله مثلاً عن الاسفار ، كان يخص فقط الشاب ذا الأعوام الخمسة والعشرين الذي كانه في سنة ١٩٣٥ . شيء لا يمت بصلة إلى ما شعر به وهو في البرتغال . وكانت قصته مع بول مسجلة ايضاً : لا لامبير ، ولا فانسان ، ولا أي واحد من الشبان الذين

يعرفهم ، يمكن ان تكون لهم اليوم ردود الفعل ذاتها . وعلى كل ، إن امرأة في السابعة والعشرين ، مع خمس سنوات من الاحتلال وراءها ، ستكون مختلفة جداً عن بول . وكان هناك حل ، وهو ان يجعل روايته تجري حوالي عام ١٩٣٥ . ولكن لم تكن به أية رغبة في تأليف رواية « تاريخية » ، تصف عالماً قد انتهى . بل ما كان يتمناه على العكس وهو يخط هذه السطور ، هو ان يلقي بنفسه وهو في ذروة الحياة على الورق. إذن كان يجب ان يكتب هذه القصة في الزمن الحاضر بأن ينقل الشخصيات والأحداث . وقال في نفسه : « ان انقل : يا لها من كلمة مسخطة ! يا لها من كلمة بلهاء ! إنهـا لا معقولة الحرية التي يتصرف بها المرء مع شخصيات الرواية . إنهم ينقلونها من عصر الى عصر ، ويجرونها من بلد إلى آخر ، ويلصقون حاضر هذه بماضي تلك ، بإدخال نزوات شخصية فيها : فاذا نظرنا اليها عن كثب ، وجدناها كلها غيلاناً والفن كله يقوم على منع القارىء من النظر اليها عن كثب أكثر مما ينبغي . طيب . لا ننقل . يمكننا ان نصنع أناساً من مختلف الأشكال لا يكون لديهم شيء مشترك مع بول ، مع لوسي ، مع ذاتي . لقد فعلت ذلك في مرات سابقة ، ولكن في هذه المرة ، إنما كنت أريد ان اعبر عن حقيقة تجربتي بالذات . . . » . ودفع رزمة المسودات . إنها لطريقة رديئة ان يجمع مواد كيفما اتفق . كان يجب ان يعمل فيها حسب العادة ، ان ينطلق من شكل كلي ، من هدف محدد . وفكر : ما هو ؟ عن أية حقيقة أتمنى ان أعبر حقيقتي : ماذا يعني هذا بالضبط ؟ كان ينظر ببلاهة إلى الصفحة البيضاء . ان اغوص في الفراغ ، خاوي اليدين ، هذا مخيف ! ربما لم يعد عندي شيء أقوله . ولكن كان يبدو له على العكس انه لم يقل شيئاً ابداً . كان لديه كل شيء ليقوله ، كجميع الناس ، في جميع الأزمان . كل شيء : هذا كثير . وتذكر لغزاً قديماً كان محلولاً في اسفل صفحة : « أننا ندخل ، ونصرخ ، وهذه هي الحياة : اننا نصرخ ، ونخرج ، وهذا هو الموت » . ماذا يضيف ؟ اننا نسكن جميعاً الكواكب نفسه ، ونولد من بطن وسوف نُسمن الدود . وقصتنا جميعاً واحدة : فلماذا أقرر انها قصتي وان علي ان أرويها ؟ وتثاءب . لم يكن قد نام بما فيه الكفاية ، وكانت

هذه الورقة العارية تسبب له الدوار . وكان يسقط في أعماق اللامبالاة . لا يمكن ان يُكتب شيء في اللامبالاة . يجب الصعود ثانية إلى سطح الحياة ، هناك حيث للحظات والافراد حسابهم ، واحداً واحداً. ولكن لا ، كل ما كان يجسده ، اذا هز نفسه من خموله ، هو الهم . « الأمل » ، صحيفة محلية : هل هذا صحيح ؟ عندما أحاول ان أؤثر على الرأي العام ، هل أكون مثالياً ؟ كان من الأفضل ، بدل ان احلم امام هذه الورقة ، ان ادرس ماركس جدياً . نعم، هذا عاجل : يجب ان يوجد لنفسه برنامجاً وان يكد بلا انقطاع . كان يجب ان يفعل ذلك منذ زمن بعيد . وعذره ، هو ان الأحداث قد فاجأته ، ففعل ما باستطاعته . ولكنه ارتكب بعض الطيش ايضاً : فهو منذ التحرير يعيش في نوع من الحبور لا شيء يبرره . ونهض . انه عاجز هذا الصباح ان يركز أفكاره حول عمل ما ، فحديثه مع دوبروي قد هزه بعنف . ثم انه ترك مراسلاته غير منتهية أمس ، ويجب ان يتحدث إلى سيزوناك، وكان قلقاً لمعرفة ما اذا كان بريستون سيأتيه بالورق ، وهو لما يسلم بعد إلى « كاي دورسي[1] » رسالة الشيخ داس فيرناس . وقرر :«حسناً! سآخذها حالاً » .

– هل استطيع ان أرى لمدة خمس دقائق السيد تورنيل ؟ من قبل هنري بيرون . إنني مكلف برسالة له .

فقالت السكرتيرة وهي تناول هنري صيغة مطبوعة :

– اذا اردت ان تسجل إسمك ودافع الزيارة .

واخرج قلماً : أي دافع؟ احترام وهم. كان يعلم مدى لا جدوى هذه الخطوة. وكتب : خاص . اليك » .

وامسكت السكرتيرة بالورقة في حلم واتجهت نحو الباب . كانت ابتسامتها وكبرياء مشيتها تعنيان بوضوح ان الأمين العام سيد مهم جداً بحيث لا يمكن ازعاجه دون تأمل مسبق . ونظر هنري في شفقة إلى المغلف الأبيض السميك الذي يمسكه في يده . لقد لعب دوره إلى أقصى حد ، لكنه الآن لم يعد يستطيع ان

---

١ ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية . «المترجم»

ينكر الواقع : ان المسكين داس فيبرناس سيصطدم بجواب قاسٍ او بالصمت .

وظهرت السكرتيرة ثانية : « السيد تورنيل يسر جداً إذا ضرب لك موعداً في أقرب فرصة ممكنة . تستطيع ان تترك لي رسالتك ، وسأنقلها له في لحظة » .

فقال هنري :

– شكراً جزيلا . » وناولها المغلف : إنه لم يبدُ له مطلقاً لا معقولاً أكثر منه الآن وهو بين يدي هذه المرأة الكفء . واخيراً ، حسناً ، لقد فعل ما طلب اليه ان يفعله ، اما البقية فلا تعنيه . وقرر ان يمر على « البار الأحمر » فقد كانت ساعة تناول المقابلات ، ولا بد ان لاشوم موجود فيه ، وهو يريد ان يشكره على مقاله. وبينما كان يدفع الباب ، لمح نادين جالسة بين لاشوم وفانسان . وقالت بصوت غاضب :

– اننا لا نراك كثيراً .

– انني أعمل .

وجلس إلى جانبها وطلب قدح « توران – جن » . وقال لاشوم في مرح :

– كنا نتحدث عنك. عن مقابلتك في « الغد » . حسناً فعلت اذ قلتها : أعني بخصوص سياسة الحلفاء في اسبانيا .

فقال فانسان :

– لمَ لا تقولونها أنتم انفسكم ؟

– لا نستطيع. ليس في هذا الوقت. ولكن لا بأس في ان يفعل ذلك احد ما.

فقال فانسان :

– سخيف !

فقال لاشوم :

– انت لا تريد ان تفهم شيئاً .

– انني افهم جيداً جداً .

– كلا انت لا تفهم .

وشرب هنري قدح التوران – جن وهو يصغي في شرود . لم يكن لاشوم

يضيع فرصة ليشرح الحاضر ، والماضي ، والمستقبل ، وقد اعاد الحزب النظر فيها وأصلحها ولكن لم يكن من الممكن الغضب منه لذلك : فقد اكتشف وهو في العشرين في المقاومة المغامرة،والرفقة،والشيوعية، وهذا يبرر تعصبه. وفكر هنري في سخرية : « إنني احبه كثيراً لأنني أديت له خدمة » فقد خبأه مدة ثلاثة أشهر في استديو بول، وحصل له على اوراق مزيفة، وعندما غادره اهداه معطفه الوحيد. وقال بدون تمهيد :

– إسمع . إنني اشكرك على مقالك . انه لطيف حقاً .

فقال لاشوم :

– لقد قلت ما أعتقده . على كل ، ان جميع الناس من رأيي : انه كتاب رائع .

فقالت نادين :

– نعم ، هذا مضجر . لأول مرة يتفق النقاد جميعاً : كأنهم يدفنون احداً او يمنحون جائزة فضيلة .

فقال هنري :

– في الأمر شيء من هذا . » وفكر في حقد هازل : « يا للأفعى الصغيرة ! لقد وجدت بالضبط الكلمات التي ما كنت أريد ان اقولها لنفسي » . وابتسم للاشوم : لقد اخطأت في نقطة واحدة : فبطلي لن يصبح شيوعياً ابداً » .

– ماذا تريده ان يصبح غير ذلك ؟

فأخذ هنري يضحك : « حسناً ! ما اصبحته انا ! » .

فضحك لاشوم ايضاً : « بالضبط ! » . وحدق إلى هنري في عينيه : « في أقل من ستة اشهر لن يعود « للاشتراكي الثوري الحر » وجود ، وستفهم ان الفردية لا تفيد . وستتسجل في الحزب الشيوعي » .

فهز هنري رأسه : « إنني أؤدي لكم خدمات أكثر هكذا . انت مسرور تماماً من انني قلت تلك الكلمة بدلاً منك . وماذا سيفيد ان تردد « الأمل » ما تردده « الأومانيته » ؟ إنني اقوم بعمل أكثر جدوى بمحاولة دفع النـــاس الى

التفكير ، بطرح الأسئلة التي لا تطرحونها ، بقول بعض الحقائق التي لا تقولونها ».
فقال لاشوم :
ـ كان يجب ان تفعل هذا العمل وانت شيوعي .
ـ ما كنتم لتتركوني افعل !
ـ بلى . يقيناً ، ثمة تعصب اكثر من اللازم في الحزب الآن . لكنها خطيئة الظروف . هذا لن يدوم إلى ما لا نهاية . » وتردد لاشوم : « لا تقل هذا لأحد . ولكنني والرفاق نأمل في ان تكون لنا قريباً مجلة ، مجلة هامشية الى حد ما ، سنناقش فيها الأمور بحرية تامة » .
فقال هنري :
ـ المجلة ليست صحيفة يومية . اما بخصوص الحرية ، فإني اطلب ان اراها . »
ونظر الى لاشوم في مودة : « ولكن لا بأس في ان تكون لك مجلة : أتعتقد انها ستروج ؟ » .
ـ هناك فرصة طيبة .
ومال فانسان إلى الأمام ونظر إلى لاشوم في تحدٍ : « إذا استطعت ان تتكلم بحرية حقاً ، فاشرح لهم ، للرفاق ، ان من المقرف ان يستقبلوا بأذرع مفتوحة جميع الانذال الذين يزعمون أنهم تابوا »
ـ نحن ؟ نحن نستقبل المتعاونين بأذرع مفتوحة ؟ اذهب إذن وقل هذا لقراء « الفيغارو » ، فهذا سيروّح عنهم قليلاً .
ـ هناك كومة من الأوغاد تقومون بحمايتهم خلسة .
فقال لاشوم :
ـ لا تشوش كل شيء : فعندما نقرر ان نمحو الأخطاء ، فهذا لأن الشخص قابل للاصلاح .
ـ إذا سرت في هذا الخط ، فكيف تعرف أن الأشخاص الذين قتلناهم لم يكونوا قابلين للاصلاح ؟
ـ في ذلك الوقت ، لم يكن هناك مجال لذلك . كان يجب ان يقتلوا .

ـ في ذلك الوقت ! لقد قتلتهم انا عن حياتي كلها ! » وابتسم فانسان في خبث : « ولكن سأقول لك شيئاً طيباً : كانوا جميعاً زبلاً ، بدون استثناء . وما تبقى علينا عمله ، هو ان تقتل سائر الذين نسيناهم » .

فسألت نادين :

ـ ماذا تعني ؟

فقال فانسان :

ـ أعني ان علينا ان ننظـّم أنفسنا .

وبحثت نظرته عن نظرة هنري . وقال هنري ضاحكاً :

ـ ننظـّم ماذا ؟ غزوات تنكيلية ؟

فقال فانسان :

ـ انت تعرف انهم في مارسيليا يعتقلون الآن جميع المقاومين كمجرمين تجاه الحق العام . فهل يجب ان نتركهم يفعلون ؟

فقال لاشوم :

ـ الارهاب ليس علاجاً .

وقال هنري :

ـ كلا . » ونظر إلى فانسان : « لقد حدثوني عن عصابات تتلهى بتمثيل دور رجال العدالة . لو كانت المسألة مسألة تسوية حسابات شخصية ، لفهمت . ولكن أشخاصاً يتخيلون انهم ينقذون فرنسا باغتيال متعاون هنا أو هناك ، فهم اما مرضى او فروج حمقى » .

فقال فانسان :

ـ اعرف : إن ما هو صحيح هو التسجل في الحزب الشيوعي او « الاشتراكي الثوري الحر » . وهز رأسه : « لن تنالوني » .

فقال هنري بصوت ودي :

ـ سنستغني عنك .

ونهض ونهضت نادين ايضاً :

ـ انني مرافقتك .

كانت قد أخذت بتنكرها الانثوي . وحاولت ان تتبرج . ولكن أهدابها كانت تشبه شوك قنفذ البحر ، وكانت هناك خطوط سوداء تحت عينيها . وما ان خرجا ، حتى سألت : « أتتغدى معي ؟ » .

ـ كلا . لدي عمل في الجريدة !

ـ في مثل هذه الساعة ؟

ـ في كل ساعة .

ـ إذن ، لنتعشَ معاً .

ـ كلا . انني أظل في الجريدة حتى ساعة متأخرة جداً . ثم أذهب لرؤية والدك .

ـ اواه ! يا لتلك الجريدة ! أليس لديك غير هذه الكلمة على شفتيك ! انها على كل حال ليست مركز العالم !

ـ انا لا اقول هذا .

ـ كلا ، بل تعتقده . » وهزت كتفيها : « إذن ، متى نتقابل ؟ » .

فتردد : « حقاً ، نادين ، في هذه الأيام ، لا املك دقيقة واحدة » .

ـ لكن يحدث لك على كل حال ان تجلس الى المائدة وتأكل، أليس كذلك؟ انني لا أرى لمَ لا استطيع ان اجلس تجاهك . » وحدقت إلى هنري في وجهه : « إلا اذا كان هذا يزعجك » .

ـ يقيناً لا .

ـ إذن ؟

ـ ليكن . تعالي غداً لأخذي بين التاسعة والعاشرة .

ـ اتفقنا .

كان يشعر بمودة حقيقية نحو نادين ، ولم تكن رؤيتها تزعجه ، لكن لم تكن هذه هي المسألة . المسألة هي ان عليه ان ينظم حياته في ادق اقتصاد : ليس لديه متسع لنادين .

وتابعت نادين :

ـ لماذا اجبت فانسان بمثل تلك القسوة ؟ كان يجب ألا تفعل .

ـ أخشى ان يرتكب حماقات .

ـ حماقات ! ما إن يريد الانسان ان يعمل ، حتى تسمي هـذا حماقات . ألا تعتقد ان اسخف السخافات ان تكتب كتباً ؟ إنهم يصفقون لك وانت تكتظ . ولكن بعد ذلك يضع الناس الكتاب في زاوية ما ولا يعود احد يفكر فيه .

فقال :

ـ هذه مهنتي .

ـ مهنة ظريفة .

وتابعا السير في صمت ، وامـام باب الصحيفة قالت نادين في جفاء : « طيب ، سأعود . الى الغد » .

ـ إلى الغد .

وظلت منتصبة امامه في تردد : « بين التاسعة والعاشرة ، تكون الساعة متأخرة جداً . ولن يتاح لنا الوقت لعمل أي شيء . ألا نستطيع ان نبدأ السهرة في موعد أبكر قليلاً ؟ » .

ـ لست حراً قبل ذلك .

فهزت كتفيها : « إذن ، في التاسعة والنصف. لكن ما الفائدة من ان يكون الانسان شهيراً اذا لم يأخذ الوقت ليعيش ؟ » .

وفكر بينما كانت تستدير على عقبيها : « العيش ، في فمهن ، يعني دوماً الاهتمام بهن . ولكن هناك أكثر من طريقة للعيش ! » . كان يحب رائحة الغبـار العتيق والحبر الجديد تلك . وكانت المكاتب لا تزال فارغة ، والطابق الارضي صامتاً : عما قليل سينبجس عالم من هذا الصمت ، عالم من خلقه . وكرر في نفسه « ما من احد سيضع يـــده على « الأمل » . وجلس امام مكتبه وتمطى . هيا ، لا داعي لثورة الأعصاب . انه لن يتخلى عن الجريدة . اما الوقت ، فيستطيع دوماً ان يجده . وعندما ينام ليلة هانئة ، فإن عمله سيسير بشكل افضل .

وانهى بسرعة بريده ونظر إلى ساعته. كان عنده موعد مع بريستون بعد نصف ساعة، وهذا يترك له الوقت على سعة ليتفاهم مع سيزوناك. وطلب إلى سكرتيرته: «هل تريدين ان تطلبي لي سيزوناك؟» . وجلس امام مكتبه . جميل جداً ان يثق الانسان بالناس . كل ما هنالك ان ثمة مجموعة من الرفاق على استعداد لأخذ محل سيزوناك عن طواعية، وهم يستحقونه أكثر منه . إن الفرصة التي يعاند في إعطائها لأحدهم، يحرم منها تعسفاً غيره، وهذا لا يمكن قبوله مطلقاً . وقال هنري في نفسه: «يا للخسارة!» . انه يذكر كم كان سيزوناك طليقاً عندما جاء به شانسيل. ولقد كان طوال عام اكثر وكلاء الارتباط اخلاصاً . لعله بحاجة الى ظروف استثنائية: فهو يسير خلف فانسان، شاحباً، منتفخاً، زجاجي العينين، كما لو انه لم يعد قادراً على كتابة جملتين منسجمتين .

– آه! ها انت! اجلس .

وجلس سيزوناك دونما كلمة . وتبين هنري فجأة انه اشتغل معه طوال سنة لكنه لا يعرفه مطلقاً . فهو مطلع إن كثيراً وإن قليلاً على حياة الآخرين، ومشاربهم، وأفكارهم : اما هذا فقد كان دوماً صامتاً . وقال بصوت أكثر جفاء مما كان يود : «اريد ان اعرف إذا كنت ستقرر، نعم أم لا، ان تقدم لنا شيئاً آخر غير المماسح ؟» .

وهز سيزوناك كتفيه في عجز .

– ما الذي لا يسير على ما يرام ؟؟ أأنت في ورطة ؟ أهناك مشاكل ؟

كان سيزوناك يكور منديلاً بين يديه وينظر في ثبات إلى الأرض . وكان من الصعب حقاً ان يقيم احتكاكاً معه . وكرر هنري :

– ما الذي لا يسير ؟ انني أريد حقاً ان اعطيك فرصة اخرى .

فقال سيزوناك :

– كلا . ان الصحافة لا تجذبني .

– في الأيام الاولى لم تكن الحال في مثل هذا السوء .

فابتسم سيزوناك ابتسامة غامضة : «كان شانسيل يساعدني قليلاً» .

– على كل حال لم يكن يكتب لك مقالاتك ؟ » .

فقال سيزوناك دون تأكيد : « كلا » . وهز رأسه : « لا داعي للالحاح ، انه ليس بالعمل الذي يعجبني » .

فقال هنري في شيء من الغيظ : « كان يمكنك ان تقول هذا قبل الآن » .
وساد صمت جديد وسأل هنري : « ماذا تريد ان تعمل ؟ » .

– لا تقلق ، سأتدبر أمري .

– وغير ذلك ؟

– سأعطي دروساً في الانكليزية . ثم انهم قد وعدوني بترجمات . » ونهض : « لقد كنت لطيفاً إذ احتفظت بي طوال هذه المدة » .

– إذا ما رغبت مرة في ان ترسل لنا مقالاً » .

– إذا أمكن هذا .

– هل استطيع ان افعل شيئاً ما لأجلك ؟

فقال سيزوناك :

– تستطيع ان تقرضني ألف فرنك .

فقال هنري :

– إليك ألفين . ولكن ليس هذا حلًا .

فدس سيزوناك منديله في جيبه ، وللمرة الأولى ابتسم : « انه حل مؤقت : وهذه هي أوثق الحلول » . ودفع الباب : « شكراً » .

فقال هنري :

– حظ سعيد .

كان يشعر انه مرتبك . لكأن سيزوناك لم يكن ينتظر إلا فرصة للهرب . وفكر ليطمئن نفسه : « سأطلع على اخباره من فانسان » . لكنه كان مزعوجاً قليلًا من انه لم يعرف كيف يحمله على الكلام . واخرج قلمه وبسط امامه ورق الرسائل . سيكون بريستون هنا بعد ربع ساعة . لم يكن يريد ان يفكر كثيراً بتلك المجلة قبل ان يتأكد ، لكن رأسه كان مليئاً بالمشاريع . ان جميع

الصحف الأسبوعية التي تظهر الآن لفي حالة يرثى لها ، واصدار مجلة جيدة حقاً سيكون امراً مسلياً للغاية .

وفتحت السكرتيرة الباب :

ــ المستر بريستون هنا .

ــ ادخليه .

لم يكن بريستون يبدو مطلقاً ، في ملابسه المدنية ، اميركياً . وتصنّعه المتقن للفرنسية هو الذي كان يجعله مشتبهاً به قليلاً . ودخل في الموضوع فوراً تقريباً . وقال :

ــ لا بد ان صديقك لوك قد قال لك اننا التقينا عدة مرات اثناء غيابك . لقد رثينا معاً لوضع الصحافة الفرنسية المثير للاعصاب حقاً . ومن عظيم سروري ان استطيع مساعدة جريدتكم بتقديم مزيد من الورق إليكم .

فقال هنري :

ــ آه ! هذا سيترتب امورنا تماماً ! » وأضاف : بالطبع ، لا نستطيع ان نفكر بتعديل الحجم ، فنحن متضامنون مع الصحف الأخرى . ولكن لا شيء يمنعنا من اصدار مجلة يوم الأحد ، وهذا سيفتح كمية من الامكانيات » .

وابتسم بريستون ابتسامة تبعث على الاطمئنان . وقال : « عملياً ، ليست هناك مشكلة . فهذا الورق ، تستطيع الحصول عليه غداً » . واشعل سيجارته من ولاعة من الك الأسود على مهل : « يجب ان اطرح عليك بصراحة تامة سؤالاً : الخط السياسي لـ « الأمل » لن يتغير ؟ » .

ــ كلا . لماذا ؟

فقال بريستون :

ــ إن « الأمل » تمثل في نظري بالضبط المرشد الذي يحتاجه بلدكم ، ولهذا نريد انا واصدقائي ان نساعدكم . اننا معجبون باستقلالكم الفكري ، بشجاعتكم ، بذكائكم » .

وسكت . لكن صوته ظل معلقاً . فقال هنري :

– ثم ؟
– لقد تتبعت باهتمام كبير ريبورتاجك عن البرتغال . لكني فوجئت قليلاً هذا الصباح عندما قرأت في مقابلة انك تنوي ، بخصوص نظام سالازار ، ان تنتقد السياسة الأميركية في البحر المتوسط .
فقال هنري في شيء من الجفاء :
– انني اجد بالفعل ان هذه السياسة مؤسفة . منذ زمن بعيد كان يجب ان يصفى فرانكو وسالازار .
فقال بريستون :
– الأشياء ليست في مثل هذه السهولة ، انت تعرف ذلك جيداً . من البديهي اننا مزمعون حقاً على مساعدة الاسبانيين والبرتغاليين على استعادة حرياتهم الديموقراطية : لكن في الوقت المناسب .
فقال هنري :
– الوقت المناسب ، هو الآن . هناك محكومون بالاعدام في سجون مدريد. ان لكل يوم أهميته .
فقال بريستون :
– هذا رأيي ايضاً . والرأي الذي ستتبناه وزارة الخارجية الأميركية . » وابتسم: « لهذا يبدو لي انه من غير المناسب ان يثار الرأي العام الفرنسي ضدنا » .
فابتسم هنري ايضاً : « ان السياسيين غير مستعجلين ابداً . ويبدو لي من المفيد ان اقطع عليهم كل منفذ » .
فقال بريستون في ود :
– لا تتوهم كثيراً . ان صحيفتك مقدّرة كثيراً في الأوساط السياسية الأميركية . لكن لا تأمل بالتأثير على واشنطن .
فقال هنري :
– اواه ! انني لا آمل ذلك . وأجاب في حدة : « انني اقول ما اعتقده، هذا كل شيء . كنت تهنئني على استقلالي ... » .

فقال بريستون :

– بالضبط ، هذا الاستقلال ستجازف به . » ونظر إلى هـــنري في تأنيب : « بفتحك هذه الحملة ، ستنفذ مآرب الذين يريـــدون ان يمثلونا كاستعماريين » . وأضاف : «انك تنطلق من وجهة نظر انسانية أؤيدها تماماً ، ولكنها ليست بذات قيمة سياسيا . اترك لنا سنة : وستعود الجمهورية الى اسبانيا ، في افضل شروط» .

فقال هنري :

– لست ازمع ان أفتح حملة . كل ما أريده ان أسجل بعض وقائع .

فقال بريستون :

– لكن هذه الوقائع ستستخدم ضدنا .

فهز هنري كتفيه : «هذا لا يعنيني. إنني صحفي. اقول الحقيقة. هذه مهنتي».

فتفرس بريستون في وجه هنري : « اذا كنت واثقاً ان حقيقة معينة ستؤدي إل نتائج مشؤومة ، فهل تقولها ? » .

فتردد هنري : « لو كنت واثقاً ان الحقيقة مضرة ، لما رأيت إلا حلاً واحداً: سأستقيل . وسأهجر الصحافة » .

فابتسم بريستون ابتسامة مشجعة :

– أليست هذه اخلاقاً شكلية تماماً ?

فقال هنري :

– لي أصدقاء شيوعيون طرحوا علي بالضبط السؤال نفسه . ولكن ليست هي الحقيقة التي أحترمها كثيراً. بل هم قرائي . انني أقرّ بأن الحقيقة يمكن ان تكون في بعض الظروف ترفاً . » وأضاف مبتسماً : « ربما هذه هي الحال في الاتحـــاد السوفياتي. ولكن في فرنسا ، اليوم ، لن أعترف لأي انسان بالحق في احتكارها. وربما كان هذا أقل بساطة بالنسبة لدبلوماسي . ولكني ، انا ، لست مـن جانب الذين يناورون : إني مع الذين يحاولون ان يناورو عليهم . لانهم يعتمدون عليّ لأطلعهم على الأمور بأفضل ما استطيع، واذا سكت او اذا كذبت فإني اخونهم».

فهز بريستون رأسه : « لقد عدنا الى سوء التفاهم نفسه . ان ما تسميه اطلاعاً،

أرى فيه انا طريقة في العمل. أخشى الا تكون ضحية المذهب الفكري الفرنسي. اما انا ، فذرائعي . ألا تعرف ديوي ؟

– كلا .

– خسارة . اننـــا غير معروفين جيداً في فرنسا . انه فيلسوف كبير . »، وسكت بريستون لحظة : « لاحظ جيداً اننا لا نرفض مطلقاً ان نُنتقد . فما من احد مفتوح كأميركا للانتقادات البناءة . اشرح لنا كيف نحتفظ بمحبة الفرنسيين، وسوف نصغي اليك بأعظم اهتمام . لكن فرنسا غير مؤهلة تماماً للحكم على سياستنا في البحر المتوسط » .

فقال هنري في غيظ :

– لن أتكلم إلا باسمي . وسواء كنت مؤهلاً او غـير مؤهل ، فإن لي الحق دوماً في ابداء رأيي .

وساد صمت وقال بريستون اخيراً :

– بديهي انك تفهم انـــه اذا ما اتخذت « الأمل » موقفاً ضد اميركا ، فلن استطيع ان احتفظ لها بودتي .

فقال هنري في جفاء :

– إنني افهم. وستفهم من جانبك انني لا أستطيـع ان افكر بإخضاع «الأمل» لرقابتكم .

فقال بريستون وقد بدا عليه انه صُدم :

– لكن من يتحدث عن رقابة ! كل ما أتمناه ، ان اراك مثابراً على إخلاصك لذلك الحياد الذي جعلت منه قاعدة لك .

فقال هنري في غضب مفاجىء :

– بالضبط ، إني مخلص له . ان « الأمل » ليست للبيـع ببضعة كيلووات من الورق .

فقال بريستون :

– اواه! إذا كنت تأخذ الأمر بهذه اللهجة ! » ونهض : « صدق انني آسف» .

فقال هنري :

ـ انا لا آسف على شيء .

وطوال اليوم شعر انه مغضب بشكل ما : حسناً ! كانت لديه فرصة جميلة ليغضب . لقد كان أبله إذ تصور ان بريستون سيلعب دور الأب نويل . انه عميل لوزارة الخارجية الأميركية . ولقد برهن هنري على سذاجة لا تغفر بتناقشه معه كما يتناقش مع صديق. ونهض فمضى إلى غرفة التحرير . وقال وهو يجلس على حافة الطاولة الكبيرة :

ـ يا مسكيني لوك ، لقد طارت المجلة .

فقال لوك :

ـ لا ؟ لماذا ؟

كان وجهه منتفخاً ومتهرماً ، كوجه قزم . وكان ما إن تصيبه خيبة ، حتى يبدو كأنه على وشك البكاء .

ـ لأن الأميركي هذا يريد ان يمنعنا من فتح فمنا ضد اميركا : بل لقد ساومني تقريباً .

ـ غير ممكن ! كان يبدو عليه انه شخص طيب !

فقال هنري :

ـ بمعنى ما ، هذا مدعاة للفخر ، فنحن موضع طمع كبير . ألا تعرف ماذا اقترح دوبروي البارحة مساء ؟ ان تصبح « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

ورفع لوك نحو هنري وجهاً متجهماً : « وهل رفضت ؟ » .

ـ بالتأكيد .

فقال لوك بصوت ضارع :

ـ جميع تلك الأحزاب ، التجمعات ، والحركات ، التي تبعث ثانية ، يجب ان تظل خارج هذا كله .

كان اقتناع لوك تاماً للغاية حتى ان الانسان ، ولو كان يشاركه اياه ، ليميل

إلى اقلاقه بعض الشيء . وقال هنري : « لكن من الصحيح مع ذلك ان وحدة المقاومة لم تعد إلا لفظة ، وانه لا بد من ان نحدد موقفنا بوضوح » .

فقال لوك في حمية مفاجئة :

ـ لكنهم هم الذين يخربون الوحـــدة ! « الاشتراكي الثوري الحر » ، انهم يدعون هذا تجمعاً . وفي الواقع ، انهم يخلقون انشقاقاً جديداً .

ـ كلا ، الانشقاق إنما تخلقه البورجوازية . وعندما نزعم اننا نقف خـــارج صراع الطبقات ، فإننا نجازف بتنفيذ مآربها .

فقال لوك :

ـ اسمع ، الخط السياسي للجريدة ، إنما انت الذي يقرره ، فلديك من العقل اكثر مما لدي . أما التشيع « للاشتراكي الثوري الحر » ، فهـذه قصة اخرى : هنا ، أنا مخالف ، اطلاقاً . » وظهر التصميم على وجهه : « لقد أخفيت عنـــك تفاصيل مصاعبنا ، فيما يخص الشؤون المالية ، لكني حذرتك من أن الأمور ليست على أتم ما يرام . فإذا ما سرنا خلف حركة لا تعني شيئاً كبيراً ، بالنسبة لأي انسان ، فهذا لن يسوي أمورنا » .

فقال هنري :

ـ أتعتقد اننا سنفقد المزيد من القراء ؟

ـ بديهي ! وعندئذ نكون قد صفينا .

فقال هنري :

ـ نعم ، هذا يبدو اكثر من مرجح .

فلقد انخفض الاصدار كثيراً ، لأن سكان الأقاليم كانوا يفضلون جرائـــدهم المحلية على الصحف الباريسية ، ما دامت هذه تصدر في حجم ورقة الملفوف الصغيرة . وهو لم يكن حتى واثقاً ان « الأمل » ستستعيد زبائنها ، عندما تستعيد حجمهـــا الطبيعي . وعلى كل حال انه لا يستطيع ان يعرض نفسه لترف ازمة . وفكر هنري : « يقيناً ، اني لست إلا مثالياً ! » . لقد عارض دوبروي بقصص ثقـــة ، ونفوذ ، ومسؤولية تؤدى ، مع ان الجواب الحقيقي كان موجوداً في الأرقام :

إننا سنفلس . ان هـــذه لحجة قوية لا تستطيع تجاهها شيئاً لا السفسطات ولا الاخلاق . وانه ليتحرق الى استعمالها .

ووصل هنري في الساعة الثانية إلى رصيف فولتير، لكن الهجوم المتوقع لم يبدأ فوراً . وكالعـــادة جاءت آن على عربة صغيرة دوارة بنوع من العشاء ، مقانق برتغالية ، ولحم خنزير ، وسلطة أرز ، وبزجاجة من مصنوعات « مورسو » احتفاء بعودة هنري . وتبادلوا تكراراً انطباعات عن السفر وآخر الشائعات الباريسية ، وفي الحقيقة لم يكن هنري يشعر انه على استعداد للقتال ، كان مسروراً من وجوده ثانية في ذلك المكتب . فهذه الكتب المستعملة ، ولكن المهدى معظمها ، والطُرَف الغربية التي كانت كلها تذكارات من اسفار، وكل هذه الحياة بامتيازاتها الخفية ، كان يقدرها عن بعد ، وفي الوقت نفسه كان هنا بيته الحقيقي ، وكان يشعر فيه بالدفء ، وبصميمية حياته الخاصة به . وقال لآن :

ــ ان الانسان ليرتاح عندك حقاً .

فقالت في مرح :

ــ أليس كذلك ؟ ما إن أخرج . حتى أشعر بالضياع .

وقال دوبروي :

ــ يجب القول بأن سكرياسين اختار مكاناً يخيف .

فقال هنري :

ــ نعم ، يا له من ماخور ! ولكن السهرة ، بشكل عام ، كانت ممتعة » وابتسم : « إلا النهاية » .

فقال دوبروي في سيماء من البراءة :

ــ النهاية ؟ كلا ، فأنا لم أشعر بالضيق إلا في لحظة « العيون السود » .

وتردد هنري . لعل دوبروي قد قرر ألا يعود الى المحاولة بسرعة كبيرة . وليس عليه إلا ان يستفيد من صمته ، إذ ان من الخسارة ان يفسد هذه اللحظة . لكن هنري كان متلهفاً على تأكيد انتصاره السري . وقال بصوت مرح :

ــ لقد نزلت بـ « الأمل » إلى دون الأرض .

فقال دوبروي مبتسماً :

ـ كلا . .

ـ آن شاهدة ! » وأضاف هنري : « لم يكن كل شيء مزوراً في دعواك . لكني كنت أريد ان اقول لك : لقد فكرت ثانية باقتراحك بربط « الأمل » « بالاشتراكي الثوري الحر » ، بل لقد حدثت عنه لوك : هذا لا مجال له إطلاقاً .

وامحت ابتسامة دوبروي . وقال : « آمل ألا تكون هذه كلمتك الأخيرة . لأن « الاشتراكي الثوري الحر » ، دون جريدة ، لن يكون شيئاً مطلقاً . ولا تقل لي ان هناك صحفاً أخرى : فليس لأحد منها اتجاهنا بالضبط . واذا رفضت انت ، فمن سيقبل ؟ » .

فقال هنري :

ـ اعرف . لكن ادرك هذا : ان « الأمل » حالياً في ازمة ، كمعظم الصحف. اعتقد اننا سنخرج منها ، لكننا سنتعب قليلاً في سد عجز ميزانيتنا . وفي اليوم الذي نقرر فيه ان نصبح جريدة حزب سياسي ، فإن الطبع سينخفض مباشرة : ونحن لسنا قادرين على تحمل الضربة .

فقال دوبروي :

ـ ان منظمتنا ليست حزباً . انها حركة واسعة بما فيه الكفاية كي لا يتخوف قراؤك منها .

فقال هنري :

ـ سواء كانت حزباً او حركة ، فهذا شيء واحد عملياً . جميع اولئك العمال الشيوعيين او المناصرين للشيوعية الذين كنت أحدثك عنهم، يشترون عن طواعية، في الوقت نفسه الذي يشترون فيه « الاومانيتيه » ، جريدة إخبارية ، لكن ليس صحيفة سياسية اخرى . حتى لو سار « الاشتراكي الثوري الحر » يداً في يد مع الحزب الشيوعي ، فهذا لن يغير شيئاً : سوف تصبح « الأمل » مشبوهة من اللحظة التي تلصق فيها على نفسها بطاقة . » وهز هنري كتفيه : « في اليوم الذي لن نقرأ فيه الا من قبل اعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » ، فإننا نستطيع ان

نضع المفتاح تحت الباب » .

فقال دوبروي :

ـ ان اعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » سيزدادون كثيراً جداً عندما يكون لنا دعم من جريدة .

فقال هنري :

ـ بانتظار ذلك، ستكون هناك مرحلة تقهقر طويلة . وهذا يكفي لإفلاسنا، مما هو في غير مصلحة احد .

فقال دوبروي مسلماً :

ـ كلا ، هذا ليس في مصلحة احد . » والتزم الصمت لحظة . وكان، بأطراف اصابعه ، يربت على نشافته . وقال : « بديهي ، ان هناك مجازفة » .

فقال هنري :

ـ مجازفة لا نستطيع السماح لأنفسنا بالمغامرة فيها .

وفكر دوبروي للحظة ثانية ، وقال متنهداً : « يلزمنا لذلك مال » .

ـ بالضبط ، نحن لا نملكه .

فاعترف دوبروي بصوت حالم :

ـ نحن لا نملكه .

يقيناً ، كان لا يعترف امام نفسه بالهزيمة بمثل هذه السهولة ، وكان لا يزال يقلب آمالاً في رأسه . لكن الحجة قد أتت ثمارها ، ولم يعد إلى الموضوع طوال الأسبوع التالي . ومع ذلك فقد رآه هنري غالباً ، وكان حريصاً على ان يثبت له ارادته الطيبة : فقابل سامازيل مرتين ، وحضر اجتماعات اللجنة ، ووعد بنشر البيان في « الأمل » . وكان لوك يقول « افعل ما شئت ، ما دمنا مستقلين » .

كانوا باقين على استقلالهم، فهذا شيء تحقق : لكن كان لا بد ايضاً من معرفة ما العمل بهذا الاستقلال . ففي ايلول ، كان كل شيء يبدو بسيطاً : شيء من الحس السليم وشيء من الارادة الطيبة ، وكان هذا يكفي ، وكانوا في أمان . اما الآن ، فإن المشاكل لا تتوقف عن طرح نفسها ، وكل منها يعيد النظر في كل

شيء . فقد نوه لاشوم في سخاء بمقالات هنري عن البرتغال حتى ان « الأمـل » كادت تعتبر اداة في يد الحزب الشيوعي : هل يجب التكذيب ؟ لم يكن هـنري يريد ان يخسر ذلك الجمهور من المثقفين الذين يحبون « الأمل » لتجردها . كما انـه لا يريد ان يغضب قراءه الشيوعيين . لكنه ، بمداراته جميـع الناس ، يحكم على نفسه باللامعنى ، وبذلك يساهم في تخدير الناس . إذن ماذا ؟ كان يقلب السؤال في رأسه ، وهو يسير نحو « السكريب » حيث كان لامبير ينتظره للعشاء . انه ، مهما سيقرر ، يكون قد استسلم لمزاج لا لبداهة . وعلى الرغم من كل قراراته ، كان لا يزال عند النقطة نفسها : انه لا يعرف بما فيه الكفاية ، انه لا يعرف شيئاً. وقال في نفسه : « من المنطقي على كل حال ان أستعلم اولاً ثم أتكلم » . ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو . فأولاً ، يجب الكلام ، لأن هذا عاجل جـداً . وفيما بعد ستظهر الأحداث ما إذا كنت على صواب او خطأ . وقال في نفسه في استياء : « هذا بالضبط ما يسمى خداعاً . فأنا ايضاً أخدع قرائي » . كان قد وعد نفسه بأن يقول للناس اشياء تستطيـع ان تنيرهم ، ان تساعدهم على التفكير ، اشياء حقيقية ، وهو الآن يخدع . مـــا العمل ؟ لم يكن يستطيع ان يغلق المكاتب، ويسرح الموظفين كلهم، وان يسجن نفسه طوال عام في غرفة مع كتب! كان على الصحيفة ان تعيش ، وكي تعيش كان هنري مرغماً على ان يكرس نفسه لها يوماً فيوماً ، وتوقف امام « السكريب » . كان مسروراً بتناول العشاء مـع لامبير . وكان يزعجه قليلاً اضطراره إلى تحديثه عن اقاصيصه ، لكنه كان يأمل بأن لامبير لا يعلق عليها اهمية كبيرة . وادار الباب الدوار . وخيل إليه انه نقل فجأة إلى قارة اخرى : كان الجو دافئاً ، ورجال ونساء يرتدون بزات اميركية ، والهواء يعبق برائحة التبـغ الأصهب وفي الواجهات تنتشر طرف غالية . وتقدم لامبير مبتسماً،متنكراً هو ايضاً فيزي ملازم.وكان في غرفة المطعم التي يستخدمها المراسلون الحربيون مقصف، كان على الطاولات زبدة وموشورات من خبز شديد البياض . وقال لامبير في مرح :

– أتعرف ، إننا نستطيـع ان نحصل على نبيذ فرنسي في مخزن الأدوية هذا .

وسنأكل كما يأكل اسير حرب الماني .

– أيسخطك انت ان يغذي الأميركان اسرهم كما يجب ؟

– ليس هذا على وجه الخصوص، وان كان من المغضب حقاً ان ترى الفرنسيين في بعض الزوايا يأكلون القرميد . إنما المجموع هو المقرف : كيف يداورون الالمان ، بما فيهم النازيون ، وكيف يعاملون رجال المعسكرات .

فقال هنري :

– اود كثيراً لو اعرف ما اذا كان صحيحاً انهم يمنعون الصليب الأحمر الفرنسي من دخول المعسكرات .

فقال لامبير :

– هذا اول ما سأتحقق منه .

فقال هنري وهو يملأ صحنه بالطعام :

– يقيناً ، اننا لسنا متحمسين لأميركا هذه الأيام .

– لا مجال هناك لأن نكون كذلك ! » وقطب لامبير حاجبيه : « خسارة ان يسر لاشوم كثيراً » .

فقال هنري :

– كنت أفكر بهذا وانا قادم . اذا قلت كلمة واحدة ضد الحزب الشيوعي، فأنت تنفذ مآرب الرجعية ! واذا انتقدت واشنطن ، فما انت شيوعي . اللهم إلا اذا شكوا في انك من الطابور الخامس .

فقال لامبير :

– لحسن الحظ ان إحدى الحقيقتين تصلح الأخرى .

فهز هنري كتفيه : « يجب ألا نثق بذلك كثيراً . أتذكر ، ليلة سهرة الميلاد عندما كنا نقول ان « الأمل » يجب ألا تتبع لجماعة . الواقع ان هذا ليس سهلاً» .

فقال لامبير :

– ليس علينا إلا ان نستمر في الكلام حسب ضميرنا !

فقال هنري :

– أتدرك ذلك ! في كل صباح أشرح لمئة ألف شخص ماذا يجب ان يعتقدوا : وبمَ أهتدي ؟ بصوت ضميري ؟ » وصبّ لنفسه كأس نبيذ : « هذا غش ! » .

فابتسم لامبير . وقال في حب : « اذكر لي صحفيين اكثر وسواساً منك . انت تفتح بنفسك جميع البرقيات ، وتراقب كل شيء .

فقال هنري :

– انني أحاول ان اكون شريفاً ، يوماً فيوماً . ولكن هذا ، بالضبط ، لا يترك لي دقيقة واحدة لأدرس الأشياء التي أتكلم عنها دراسة عميقة .

فقال لامبير :

– هيا ! ان قراءك مسرورون جداً هكذا . انني اعرف مجموعة من الطلاب لا يحلفون إلا على « الأمل » .

فقال هنري :

– إنما لهذا أشعر انني اكثر ذنباً !

فنظر إليه لامبير في قلق : « لن تجلس طوال اليوم لتدرس احصاءات ؟ » .

فقال هنري :

– هذا ما يجب ان افعله !

وساد صمت قصير وفجأة قرر هنري : من الأفضل التخلص بأسرع ما يمكن من تلك السخرة . وقال :

– لقد أتيتك بقصصك . » وابتسم للامبير : « هذا غريب ، لديك كومة من التجارب وراءك ، وقد عشتها بشكل قوي جداً ، وقد حدثتني عنها بشكل جيد غالباً ، وريبورتاجاتك حافلة دوماً بأشياء . ولكنك في قصصك لا تضع منها شيئاً . انني أتساءل لماذا .

فقال لامبير :

– أتجدها رديئة ؟ » وهز كتفيه : « لقد حذرتك » .

فتردد لامبير : « ان الأشياء التي تلمسني حقاً لا تهم احداً » .

فابتسم هنري : « ان المرء ليشعر تماماً ان الأشياء التي تتكلم عنها لا تلمسك

مطلقاً . كأنك كتبت هذه القصص كما تكتب عقاباً فُرض عليك » .

فقال لامبير :

– اواه ! كنت أشك تماماً في انني لست موهوباً .

كان يبتسم ، لكن كانت ابتسامته مغتصبة . وشعر هنري انه في الحقيقة يعلق أهمية كبيرة على هذه القصص . وقال :

– من هو موهوب ، ومن هو غير موهوب ؟ اننا لا نعرف كثيراً ماذا يعني هذا . كلا ، لقد اخطأت باختيارك مواضيع ، خارجية بالنسبة لك تماماً ، هذا كل شيء . في المرة القادمة ، ضع نفسك حقاً في الأمر .

فقال لامبير :

– لن استطيع . » وضحك ضحكة صغيرة « انني النموذج الكامل للمثقف الصغير المسكين العاجز ابداً عن ان يصبح مبدعاً » .

فقال هنري :

– لا تستسلم ! ان هذه القصص لا تثبت شيئاً . ومن الطبيعي ان يخطىء المرء الاصابة ، في المرة الأولى .

فهز لامبير رأسه : « انني اعرف نفسي . لن افعل ابداً شيئاً ذا قيمة . وإنه ليدعو للرثاء المثقف الذي لا يفعل شيئاً » .

– ستفعل شيئاً ما إذا كنت حريصاً على ذلك . ومن جهة اخرى ، أن تكون مثقفاً ، فليس هذا عيباً !

فقال لامبير :

– وليس نعمة .

– إنني من المثقفين ، وانت تريد كثيراً ان تخصني بتقديرك .

فقال لامبير :

– انت ، هذا يختلف .

– كلا . انني مثقف . ويغيظني ان يجعلوا من هذه الكلمة إهانة : يبدو على الناس انهم يعتقدون ان فراغ عقولهم يقوي أصلابهم .

كان يبحث عن نظرة لامبير ، لكن لامبير كان ينظر في عنـاد إلى صحنه . وقال : « إنني أتساءل إلامَ سأصير إليه عندما تنتهي الحزب » .

ـ ألا تريد ان تبقى في الصحافة ؟

فقال لامبير :

ـ مراسل حربي ، هذا مقبول ، اما مراسل سلمي ، فهـــذا غير معقول . » . وأضاف بصوت منتعش : « امتهان الصحافة كما تمتهنها انت ، فهذا يستحق الجهد : إنها مغامرة حقيقية . ولكن ان اكون محرراً ، حتى في « الأمل » ، فلا بد ان اكون بحاجة إلى كسب حياتي ليكون هذا معنى . ومن جهة أخرى ، ان اعيش كصاحب دخل ، فهذا يزعج ضميري » . وتردد : « لقـــد تركت لي امي الكثير من المال : ان ضميري منزعج على كل حال » .

فقال هنري :

ـ جميـع الناس على هذه الحال .

ـ اواه ! انت ، كل ما تملكه هو ما تكسبه ، فلا مجال لذلك .

فقال هنري :

ـ ابداً لا يكون الانسان مرتاح الضمير . مثلًا ان آكل هنا وان أحرم على نفسي مطاعم السوق السوداء: هذا صبياني. ان لنا جميعاً حيلنا . فدوبروي يتظاهر بأنه يأخذ المال لعامل طبيعي . وهذا لا شك صحيـح إلى حد كبير . ولكنه لا يفعل شيئاً ليربـح المال ، ولا يرفض إعطاءه لأي انسان ابداً ، ويترك لآن امر تدبيره . وهي تتدبر امرها بأن لا تعتبره مالها : إنما لأجل زوجها وابنتها تنفقه ، ولتؤمن لهما حياة مريحة تستفيد منها . اما انا فما يساعدني هو انني اجـــد مشقة عظيمة في سد عجز ميزانيتي ، لذلك يخيل إليّ انني لا املك شيئاً اكثر من اللازم . وهذا ايضاً طريقة في الغش .

ـ هذا على كل حال يختلف .

فهز هنري رأسه : « عندما يكون الوضع غير عادل ، فلا يمكنك ان تعيشه كما يجب . ولهذا نحن مقادون الى العمل في السياسة : كي نحاول ان نغير الوضع ».

فقال لامبير :

– إنني أتساءل احياناً ما اذا لم يكن من واجبي ان ارفض هذا المال، ولكن ماذا سيفيد هذا ؟ » وتردد : « ثم انني اعترف ان الفقر يخيفني » .

– حاول بالأحرى ان تستعمله بشكل مفيد .

– حسناً ! بالضبط : كيف ؟ ماذا استطيع ان افعل به ؟

– لا بد ان هناك اشياء تهمك ؟

فقال لامبير :

– انني أتساءل ...

فقال هنري في شيء من نفاد الصبر :

– انت تحب اشياء ، أليس كذلك ؟ ألا تحب شيئاً ؟

– اني لا أرغب في ان أحب رفاقاً ، لكن منذ التحرير لا نكف عن الخصام. اما النساء ، فانهن بلهاوات او انهن لا يحتملن . واما الكتب ، فقد ملأت بها رأسي وملت ، واما السفر ، فان الأرض حزينة ايضاً في كل مكان . » وختم كلامه : « ثم انني، منذ بعض الوقت، لم اعد اعرف كيف اميز الخير من الشر ».

– كيف ذلك ؟

– منذ سنة ، كان ذلك بسيطاً جداً ، كصورة من « ايبينال [1] » اما الآن فاننا نتبين ان الأميركان غلاظ عنصريون كالنازيين وأنهم لا يبالون بأن يستمر الناس في الموت بالمعسكرات . والمعسكرات ، يبدو ان في الاتحاد السوفياتي عدداً منها ليس جميلاً مطلقاً أيضاً . ونحن نعدم بعض المتعاونين وآخرون لا يقلون نذالة نغطيهم بالزهور .

– اذا كنت تسخط ، فهذا يعني انك لا زلت تؤمن ببعض الأشياء .

– كلا ، بصراحة ، عندما يبدأ المرء بطرح أسئلة على نفسه ، فلا شي يقاوم . هناك كمية من القيم تعتبر مسلماً بها : باسم ماذا ؟ في الحقيقة ، لمَ الحرية ، لمَ المساواة، أية عدالة لها معنى ؟ لماذا نفضل الآخرين على انفسنا ؟ ان انساناً لم يبحث

١ ـ مدينة فرنسية صغيرة مشهورة بصنع الصور . «المترجم»

إلا عن التمتع بالحياة مثل ابي ، هـــل كان على خطأ كبير ؟ » ونظر لامبير إلى هنري في قلق : « هل اصدمك ؟ » .

– مطلقاً . يجب علينا ان نطرح هذه الأسئلة على انفسنا .

فقال لامبير الذي كان صوته يعلو :

– يجب على الأخص ان يجيب احدهم على هذا . انهم يصدعون رأسنا بالسياسة : لكن لمَ نفضل سياسة على اخرى ؟ اننا بحاجة أولاً إلى اخلاق ، إلى فن للحياة . » ونظر لامبير إلى هنري في شيء من التحدي : « هذا ما يجب عليك ان تعطينا اياه . وسيكون هذا اكثر فائدة من مساعدة دوبروي على تحرير بيانات »

فقال هنري :

– ان الأخلاق تتضمن بالضرورة موقفاً سياسياً . وبالعكس : فالسياسة شيء حي .

فقال لامبير :

– لا أرى هذا . في السياسة ، لا يهتمون إلا بأشياء لا وجود لها : المستقبل ، المجتمع . في حين ان ما هو حسي هو اللحظة الحاضرة ، هم الأفراد واحداً واحداً.

فقال هنري :

– ولكن الأفراد يعنيهم التاريخ الجماعي .

فقال لامبير :

– المصيبة ، انهم في السياسة لا يعودون ابداً مـــن التاريخ الى الفرد . انهم يضيعون في التعميات ، وما من أحد يبالي بالحالات الخاصة .

كان لامبير قد تكلم بصوت ملح جداً حتى أن هنري نظر إليه في فضول : « مثلاً ؟ » .

– مثلاً ، خذ مشكلة الأذناب . سياسياً ، تجريدياً ، ان انساناً عمل مـــع الألمان ، لهو نذل . والناس يبصقون عليه ، وليست هناك مشكلة . والآن إذا رأيت عن قرب شخصاً معيناً ، فالقضية لا تعود ذاتها .

فقال هنري :

ـ أتفكر بوالدك ؟

ـ نعم . منذ زمن وأنا اريــد ان أسألك نصيحة : هل يجب عليّ حقاً ان استمر في ادارة ظهري له ؟

فقال هنري مبغوتاً :

ـ في السنة الماضية ، كنت تتحدث عنه بلهجة !

ـ لأنني في ذلك الحين كنت اعتقد انه وشى بروزا . لكن أقنعني بهــذا الخصوص : لم يكن له دخل في الأمر . كان الجميع يعرفون ان روزا يهودية . كلا ، ان والدي إنما تعاون تعاوناً اقتصادياً ، وهذه دناءة طبعاً . ولكنه اخيراً سيجر امام المحاكم وسوف يدان دون شك . انه شيخ ...

ـ أرأيته ثانية ؟

ـ مرة واحدة . ثم أرسل لي عدة رسائل ، رسائل بلبلتني بالأحرى ، اعترف لك .

فقال هنري :

ـ إذا كنت ترغب في التصالح معه : فأنت حر تماماً . وأضاف : « لكني كنت اعتقد ان علاقاتكما سيئة للغاية ؟ » .

ـ عندما عرفتك نعم . » وتردد لامبير وقال في جهد : « انه هو الذي رباني. اعتقد انه على طريقته كان يحبني كثيراً . كل ما هنالك ، كان يحب ألا أعصاه » .

فسأل هنري :

ـ قبل ان تعرف روزا ، لم تعصه ابداً ؟

فقال لامبير :

ـ كلا . وهذا ما يجعله يجن غضباً : كانت المرة الأولى التي أعارضه فيها . » وهز كتفيه : « بل لقد ناسبني ان اعتقد انه وشى بها ، فهكذا لم تعد هنــاك مشكلة : كنت على استعداد لقتله بيدي في ذلك الوقت » .

ـ لكن كيف توصلت إلى الشك فيه ؟

ـ لقد وضع لي بعض الرفاق هذه الفكره في رأسي : ومنهم فانسان . لكني

كلمته مرة اخرى عن الأمر ، ليس عنده مطلقاً أي دليـــل ، حتى ولا أبسط دليل . وقد اقسم بي على قبر أمي ان هذا كذب . والآن ودمي بارد ، فأنا واثق انه ما كان ليستطيـع ان يرتكب شيئاً كهذا ، ابداً .

فقال هنري :

ـ هذا يبدو بالأحرى وحشياً . » وتردد . كان لامبـير يتمنى والده بريئاً ، كما تمناه قبل سنتين مذنباً ، دون أدلة . ولم تكن هناك بلا شك اية وسيلة لمعرفـة الحقيقة . وقال هنري : « فانسان يبرع أكيداً في الرواية البوليسية . إسمع ، اذا لم تعد تشك في والدك ، اذا لم تعد حاقداً عليه شخصياً ، فليس عليك انت ان تمثل دور رجال العدالة . عد إلى رؤيته ، افعل ما يعجبك ، ولا تهتم بأحد » .

فقال لامبير :

ـ اتعتقد حقاً انني أستطيـع ؟

ـ من يمنعك ؟

ـ ألا تظن ان هذا سيكون دليلاً على المرض بالطفولة ؟

فتفرس هنري في وجه لامبير في دهشة : « الطفولة ؟ » .

فاحمر لامبير : « اعني ، دليل جبن ؟ » .

ـ كلا . ليس من الجبن ان تعيش كما تحس .

فقال لامبير :

ـ نعم ، انت على حق . سأكتب له . » وأضاف بصوت معترف بالجميـــل : « لقد فعلت حسناً اذ كلمتك » .

وغرز معلقته في الهـلام الوردي الذي كان يهتز في صحنه . وتمتم : « تستطيـع ان تساعدنا كثيراً . ليس انا فقط : فهناك كثيرون من الشبان في حالتي » .

فقال هنري :

ـ أساعدكم على ماذا ؟

ـ انت تملك حس ما هو عيني . عليك ان تعلمنا كيف نعيش يوماً فيوماً .

فابتسم هنري : « الاخلاق ، فن الحياة ، لا تدخل مطلقاً في مشاريعي » .

ورفع لامبير نحوه عينين لامعتين : « اوه ! لقد اخطأت التعبير عن مقصدي. لم اكن أفكر بدراسات نظرية . لكنك حريص على أشياء ، تؤمن بقيم . إذن يتوجب عليك ان تظهر لنا ما يمكن ان يحب على هذه الأرض . وايضاً ان تجعلها قابلة للسكن قليلاً بأن تكتب كتباً جميلة . يخيل إلي ان هذا هو دور الأدب » .

كان لامبير قد ألقى هذا الخطاب القصير دون ان يأخذ نفساً . وشعر هنري انه أعده مسبقاً وانه ينتظر منذ ايام اللحظة التي يجـــدها مناسبة ليلقيه . وقال : « ان الأدب ليس بالضرورة مرحاً » .

فقال لامبير :

– بلى ، بالضرورة . حتى ما هو كئيب يصبح مرحاً عندما يجعل منه فناً. » وتردد : « مرح ، ربما ليست هذه هي الكلمة . لكن اخيراً ، هذا قابل للتبرير ». وتوقف تماماً واحمرّ : « اواه ! لا أريد ان أملي عليك كتبك . لكن ، يجب ألا تنسى انك قبل كل شيء كاتب ، فنان » .

فقال هنري :

– انا لا انسى هذا .

– اعرف ، ولكن ... » ومن جديد اضطرب لامبير : « مثلاً،ريبورتاجك عن البرتغال جيد جداً ، لكني أتذكر صفحات عن صقلية ، في المـــاضي . اني لآسف قليلاً أنك لم تكتب مثلها ثانية » .

فقال هنري :

– لو رأيت البرتغال ذات مرة، فلن ترغب في وصف أشجار الرمان المزهرة .

فقال لامبير بصوت ملح :

– آه ! أود لو تعاودك تلك الرغبة . لمَ لا ؟ ان لنا كل الحق بأن نتنزه على شاطىء البحر دون ان نقلق لأسعار السردين .

فقال هنري :

– المشكلة انني لم أستطع .

فتابع لا مبير في حدة :

– لقد اشتركنا في المقاومة لندافع عن الفرد ، عن حقه في أن يكون كما هو وان يكون سعيداً . وقد آن ان نجني ما زرعناه .

فقال هنري :

– المصيبة ، هي انه يوجد بضعة مليارات من الأفراد ليس هذا الحق بالنسبة لهم إلا لفظاً ميتاً . » وهز كتفيه : « اعتقد اننا ، لكوننا قد بدأنا بالاهتمام بهم ، لم نعد نستطيع ان نتوقف » .

فقال لامبير :

– إذن ، على كل فرد ان ينتظر ان يكون جميع العالم سعيداً قبل ان يحاول ان يكون كذلك ؟ الفن والأدب ، هل تُركا للعصر الذهبي ؟ مع اننا ، إنما نحتاج إليهما الآن !

فقال هنري :

– انا لا أقول انه يجب ألا نكتب بعد الآن . » وتردد . لقد أصابه تأنيب لامبير في الصميم . نعم لقد كانت هناك حقاً اشياء اخرى تقال عن البرتغال ، وهو لم يغفلها بدون أسف اطلاقاً . فنان ، كاتب : هذا ما يريد ان يكونه ، وقد كان يجب ألا ينسى ذلك . لقد وعد نفسه بوعود عظيمة في الماضي . وقد آن أن يفي بها . نجاح في ايام الشباب ، وكتاب جاء في أوانه يقرظونه بلا تمييز : كان يريد شيئاً آخر . واستأنف كلامه : « بالفعل ، لقد شرعت في كتابة رواية يحبها قلبك . رواية مجانية تماماً ، أروي فيها اشياء للذتي الخاصة » .

فقال لامبير :

– أهذا صحيح؟ » وأضاء وجهه: « أكتبت منها كثيراً؟ وهل هي تسير؟ ».

فقال هنري :

– البدايات دائماً صعبة . لكنها تسير !

فقال لامبير :

– اواه ! انني مسرور جداً ! كانت خسارة كبيرة ان تتركهم يأكلونك !

فقال هنري :

– لن أترك نفسي يا كلوني .

سألت بول :

– أتتقدم روايتك المرحة؟

فقال هنري :

– نعم ، إنها تتقدم .

وتمددت على السرير ، خلفه ، وشعر على رقبته بنظرتها المتأملة . ان النظرة لا تحدث صوتاً ، وهو سيبدو غليظاً اذا طردها ، لكنها كانت تثقـــل عليه . وبذل جهداً ليعيد انتباهه الى روايته . لقد اتخذ قرارات أثناء هذا الشهر ، ورضخ لجعل احداث قصته تدور في ١٩٣٥ . ربما كان هذا خطأ ، فها قد مضت الأيام والجمـل تجف على طرف قلمه .

وقال في نفسه مقرراً : « نعم ، هذا خطأ » . كان يريد ان يتكلم عن نفسه : حسناً ! لم تعد له علاقة بمـــا كان عليه في ١٩٣٥ . لامبالاته السياسية ، فضوله ، طموحه ، كل ذلك التمسك بالفردية ، ما كان أقصره ، ما كان أسذجه ! كان ذلك يفترض مستقبلاً بلا عقبات ، تقدماً مضموناً ، اخوة مباشرة بين البشر ، اجيـالاً قادمة صديقة : كان ذلك يفترض على الأخص أنانية وطيشاً . اواه ! كان يستطيع بدون شك ان يجد لنفسه أعذاراً . لكنه يكتب هذا الكتاب ليحاول ان يقول حقيقة حياته ، لا ليشرح أخطاءها . وقرر : « يجب ان اكتبه في الزمن الحاضر » . وأعاد قراءة الصفحات الأخيرة . من المؤسف التفكير بأن هذا الماضي سوف يدفن نهائياً : المجيء الى باريس ، اللقـاءات الأولى مع دوبروي ، السفر الى « جربا » . وقال في نفسه : « اواه ! لقد عشته ، هذا يكفي ! » . لكن اذا سار في هـــذا الطريق ، فان الحاضر ايضاً يكفي نفسه ، والحياة تكفي نفسها : والمشكلة انهـا لا تكفي نفسها لأنه بحاجة للكتابة ليشعر بأنه حي تماماً . اخيراً ، ليكن . على كل حال لا يمكن انقاذ كل شيء . القضية هي ان يعرف ماذا لديه ليقوله عـــن نفسه ، اليوم . « اين انا ؟ من هذا ؟ ماذا أريـد ؟ » . شيء غريب . اذا تشبث الانسان إلى هـــذا الحد بالتعبير عن نفسه ، فهذا لأنه يشعر انه فريد ، وهو لا

يستطيع حتى ان يقول : بمَ هو فريد . « من انا ؟ » . لم يكن يسأل نفسه هذا السؤالَ في الماضي . في الماضي كان الناس الآخرون محددين جميعاً ، لهم حدودهم : اما هو فلا . كانت كتبه وحياته امامه ، وكان هذا يسمح له بأن ينقض جميع الأحكام التي تؤخذ عنه ، وان ينظر إلى جميع النـاس ، حتى دوبروي ، في شيء من التعالي ، من أعلى اعماله المستقبلة . لكن عليه الآن ان يعترف انه انسان قد تم : فالشبان يعاملونه كأخ بكر ، والراشدون كواحد منهم ، بل والبعض يظهرون له تقديراً . ثم انه قد تحدد ، انتهى ، هو وليس غيره ، لا احد آخر غيره : من ؟ بمعنى ما ، إن كتبه هي التي ستقرر ذلك . ولكن بالعكس كي يكتبها لا بد له ان يعرف حقيقته الخاصة . للوهلة الأولى ، كان معنى الأشهر التي عاشها واضحاً بما فيه الكفاية ، ولكن اذا نظر عن قرب أقرب ، فإن كل شيء يتشوش . ان يساعد الناس على التفكير بشكل افضل ، على العيش بشكل افضل ، هل هو متمسك بهذا حقاً ام ان هذا ليس إلا حلماً مدعي الحب للانسانية ؟ هل يهتم حقاً لمصير الآخرين ، ام يهتم فقط بسلام ضميره ؟ والأدب : ماذا أصبح بالنسبة له ؟ ان يريد الانسان الكتابة ، فهذا شيء مجرد تماماً عندما لا يكون لديه شيء عاجل يجب ان يقوله . وكانت ريشته باقية معلقة ، وفكر في غيظ ان بول ترى انه لا يكتب . وسأل : « هل تذهبين الى عند غريبان غداً صباحاً ؟ » .

فضحكت بول ضحكة صغيرة : « انت ، عندما تكون عندك فكرة في رأسك ! » .

– إسمعي ، ان تلك الأغنية تناسبك كقفاز ، وتقولين انك تحبينها ، وموسيقى بيرجير رائعة ، وسابريريو سيسمعك يوم تريدين : إذن تستطيعين ان تعطيها صوتك ! وبدل ان تتناومي في هذا السرير ، تستطيعين ان تشتغلي صوتك حتى لا يكون اسوأ من المجموع ، اؤكد لك .

– انني لا أتناوم .

– على كل حال ، الآن وقد اخذت لك هذا الموعد ، سوف تذهبين إليه ؟

فقالت :

ـ أريد كثيراً ان اذهب إلى عند غريبان وأتعلم جيداً كيف أغني أغنيتك .
ـ لكنك لن تغنّيها امام مستمعين ، أهذا ما تريدين قوله ؟
فقالت : « شيء ما كهذا » .
ـ انت تثبطين شجاعتي !
ـ اعترف بأنني لم اشجعك ابداً ! » وابتسمت من جديد ، وقالت في حنان : « لا تهتم بي إذن » .

كان يود كل الود لو اهتم بها مرة واحدة نهائية ، ثم لا يعود يشعر بها هكذا خلفه تترصده . لكن لعلها تدرك ذلك . كان قد تكلم مع سابريربو ، وكتب اغنيتين ، وألف برنامجاً كاملاً ، وتلفن إلى غريبان ، وفعل كل ما باستطاعته ان يفعل من أجلها . كانت تريد حقاً ان تغني له ، بل وفي أغلب الأحيان من اجل رغبته : لكنها كانت معاندة في رفضها . وعاد يصف دون فرح جملاً ميتة .

كانت قد مضت ساعتان وهو سأمان امام الورق عندما قرع باب الأستديو بتواصل . ونظر إلى ساعته : منتصف الليل وعشر دقائق : « لقد دق الباب » .

كانت بول تتناوم على سريرها ، وانتصبت : « هل افتح ؟ » .

وقرع الباب من جديد وسمعا صوتاً مرحاً : « انا دوبروي، هل ازعجكما؟ » .

وهبطا معاً الدرج وفتحت بول الباب : « لم يحدث شيء ؟ » .

فقال دوبروي باسماً :

ـ لمن ؟ لقد رأيت نوراً ، ففكرت انني استطيع ان اصعد . ان منتصف الليل لم يكد يمضي . هل كنتما على وشك النوم ؟ » .

وكان قد جلس على المقعد الجلدي حيث يجلس عادة . وقال هنري :

ـ كنت راغباً على الضبط في شرب قدح ! وما كنت لأجرؤ على شربه بمفردي . انه ملاكي السيء الذي أتى بك .

فسألت بول وهي تفتح الخزانة :

ـ كونياك ؟

ـ بسرور . » وتطلع دوبروي إلى هنري بوجه مشرق : « انني آتيك بنبأ

سيهمك كثيرا ، وهو لما يزل حارا » .

ـ ماذا إذن ؟

ـ لقد تخلينا بشكل من الأشكال عن فكرة جعل « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » بسبب الأزمة المالية التي يمكن ان تتبع ذلك ...

فقال هنري :

ـ نعم . » واخذ القدح الذي كانت بول تمده له وشرب جرعة في قلق غامض.

ـ حسناً ! انني خارج من عند شخص محشو بالمال مستعد لدعمنا عند الحاجة . ألم تسمع بشخص يدعى ترابريو ؟ تاجر احذية ضخم ساهم بعض الشيء في المقاومة ؟

ـ هذا يذكرني بشيء ما .

ـ انه يملك ملايين فائضة ، وإعجاباً لا حدود له بسامازيل : تركيبة سعيدة تقوده إلى مساعدة « الاشتراكي الثوري الحر » بشكل جوهري جداً . وهذا المساء ، اخذني سامازيل اليه . انه على استعداد لتمويل مهرجان حزيران الخطابي . وسيقدم كل الرساميل الضرورية اذا اصبحت « الأمل » جريدة الحركة .

فقال هنري :

ـ لسامازيل علاقات جميلة حقاً .

وأفرغ كأسه بجرعة واحدة . كان مغتاظاً قليلًا من مرح دوبروي السريع العدوى . وقال دوبروي ضاحكاً :

ـ سامازيل ، شخص من النوع الذي يتعشى في المدينة . اما أنت وانا فهذا آخر شيء يمكن الحصول عليه منا ، فأنا أفضل ان أبحث في مكاني . ولكن هو ، هذا يعجبه ، وهو يعجب . هذا أفضل ، لأنه هكذا يجمع مالاً : لست أعرف أين كنا سنكون بدونه في المسائل المالية . لقد عرف ترابريو أثناء الاحتلال وثقّفه .

ـ أهو من « الاشتراكي الثوري الحر » ذلك الاسكافي بكل ملايينه ؟

ـ أيدهشك هذا ؟

كانت بول قد جلست تجاه دوبروي ، وكانت تدخن سيجارة وهي تنظر إليه في ثبات ، في سيماء من كراهية . وهمت بأن تفتح فمها وأحس هنري بصوتها

الساخط ، فسبقها :

– لن أقول لك ان اقتراحك يحمسني .

فهز دوبروي كتفيه : « أتعرف ، ان جميع الصحف ستضطر آجلاً ام عاجلاً إلى قبول معونات خاصة . الصحافة الحرة كذبة جميلة أخرى ! » .

فقال هنري :

– لقد أصلحت « الأمل » وضعها . إننا نستطيع ان نكفي أنفسنا طويلاً إذا بقينا على ما نحن عليه .

فقال دوبروي في حدة :

– ستكفون أنفسكم : ثم ماذا ؟ إنني أفهم جيداً : لقد خلقت « الأمل » بفردك ، وتحب ان تتحمل الضربة بفردك . » وكرر : « إنني أفهم . لكن فكر بالذي عليك ان تلعبه ! أأدركت خلال هذا الشهر حاجة «الاشتراكي الثوري الحر » إلى صحيفة أم لا ؟

فقال هنري :

– بلى .

– وانت موافق على أهمية محاولتنا إذن ؟

فقال هنري :

– اذا كان هذا السيد سيمول « الأمل » ، فسوف يريد ان يدس انفه فيها .

فقال دوبروي :

– آه ! هذا لا مجال له ! انه لن يتدخل بالتأكيد في إدارة الجريدة . في الحقيقة ، انك ستكون أكثر استقلالاً مع مثل هذا الوصي بما أنت عليه الآن : لأنك ، ها أنت اخيراً مربوط خوف ان تفقد قراءك .

– انه يبدو لي انساناً محباً للمجتمع ، غريباً ، رجلك ذاك .

فقال دوبروي :

– وإذا رأيته ، فسوف تفهم حالاً .

فقال هنري :

– لا أستطيع على كل حال ان أعتقد انه لن يفرض عليّ أي شرط .
– ولا شرط ، أضمن لك هذا . هذه مسألة قد سويت نهائياً .
– كل هذا ، اليس مجرد كلمات في الهواء ، أأنت واثق تماماً ؟
فقال دوبروي :
– إسمع ، كلّمه بنفسك ! ليس عليك إلا ان تدعوه بالتلفون : إنه مستعد للتوقيع غداً .
كان دوبروي على كثير من الحماسة حتى ان هنري ابتسم : « انتظر قليلًا ! يجب أولاً ان أرى لوك . ثم حتى لو قررنا ان نعلن أنفسنا مع « الاشتراكي الثوري الحر » فربما سنحاول ان نتدبر أمرنا لوحدنا : إنني أفضل ذلك كثيراً » .
فقال دوبروي :
– شخصياً ، اني مطمئن إلى ان « الأمل » لن تفقد قراءها . وأنا موافق تماماً على محاولة العملية دون تراريو » . وتردد : « من الأفضل على كل حال ان تجري محادثة معه » .
فقال هنري :
– لن يقول لي اكثر مما قال لك . وانا غير حريص على ان يقدم لي ماله ما دمت استطيع ان أمنع ذلك .
– كما تشاء . » ونظر دوبروي إلى هنري في قلق :« ارجوك ، حاول ان تقرر بسرعة . لقد اضعنا حتى الآن الكثير من الوقت ! » .
فقال هنري :
– هذا خطير ، أتعلم ، ما تطلبه إليّ . ليس في اللعبة غيري . حاول من جهتك ان تكون صبوراً قليلًا .
فقال دوبروي متنهداً :
– انا مرغم على ذلك تماماً . » ونهض وابتسم ابتسامة كبيرة لبول : « ألا تأتيان لتقوما بجولة معي ؟ » .
فقالت بول :

– اين ؟
– في اي مكان كان . انها ليلة جميلة . ليلة صيف حقيقية .
فقالت بول في مشاكسة :
– كلا ، اني ناعسة .
وقال هنري :
– انا ايضاً .
فقال دوبروي وهو يتجه نحو الباب :
– على رسلكما . سأتنزه بمفردي . إلى السبت .
وقفل هنري الباب . عندما استدار، كانت بول واقفة تجاهه ، مهتاجة الوجه : « هذا جنون ! انه يريد ان يسرق جريدتك منك ! » .
فقال هنري :
– اسمعي ، ليست القضية قضية سرقة . » وتثاءب متصنعاً . ففي مثل هـذه الحالات كان لا يتحمل النقاش مع بول : عندما تكون من رأيه . كان هو ايضاً غاضباً : يا لها من عملية شعوذة غريبة ! كان يكفي ان يطلب دوبروي هذه الصحيفة كي يخلق لنفسه حقوقاً عليه . « نفوري الشخصي ، لا يبالي به . ان صداقته لا تزن كثيراً عندما يقرر ان يستخدمك لمصلحته » .
وقالت بول :
– كان يجب ان تطرده . انه لن ينظر إليك بعين الجد ابداً . ستكون دوماً الشاب الصغير الذي اطلقه في عالم الأدب والذي يدين له بكل شيء .
فقال هنري :
– بعد كل شيء ، انه لا يطلب شيئاً غير عادي . انني في « الاشتراكي الثوري الحر » وأدير « الأمل » : فمن الطبيعي بالأحرى ان يندمج الشيئان .
– لن تكون بعد الآن سيد نفسك ، سترغم على أخذ اوامرهم . » كان صوت بول يرتجف استنكاراً : « ثم ستغرق حتى عنقك في السياسة . ولن تعود لك دقيقة واحدة . ولقد كنت تشكو من نقص الوقت لروايتك ... » .

فقال هنري :

ـ لا تهلعي . لم يقرر شيء بعد . لم أقل مطلقاً انني قبلت .

كان حقد هنري يتبدد وهو يصغي الى احتجاجات بول . بل لقد كانت حدتها تظهر دوافعها تافهة : وكانت هي الدوافع نفسها التي يجترها في داخله . « انني أتمرد لأنني اخشى ان تلتهمني السياسة ، لأنني أخاف من المسؤوليات الجديدة ، لأنني أتمنى أوقات فراغ ، وعلى الأخص ان أبقى السيد في بيتي » . أسباب تافهة جداً باختصار . وعندما ذهب إلى الجريدة في الغد ، كان يأمل من أعماق قلبه ان يقدم لوك اسباباً افضل .

لكن لوك كان مأخوذاً بالأحداث . إذ لم يعد هناك شك في ان لاشوم قد أدى خدمة سيئة لـ « الأمل » . وكان الهمس يدور بأن هنري يخضع لأوامر الشيوعيين . وهذا ما يدعو لمزيد من الغضب في هذا الوقت الذي يأخذ فيه عليهم أشياء كثيرة : الخلط الذي يعتمدونه بين المقاومة والحزب ، شوفينيتهم ، ديماغوجية دعايتهم الانتخابية ، تسامحهم العادم الحياء وقسوتهم التعسفية تجاه المتعاونين . لكن صحف اليمين كانت تستغل في سرور هذا الالتباس . وكان كثير من القراء يتشكون ، ولامبير يطلب ان تتخذ تدابير ، ومعظم أفراد الجريدة يشعرون بعدم الراحة ، ولوك أيضاً . وقال عندما شرح له هنري الموقف: « بطاقة بدل بطاقة، لكن من الأفضل ان نمثل « الاشتراكي الثوري الحر » من ان نعتبر شيوعيين » . وكان هذا هو الرأي السائد تقريباً . وقال فانسان : « انا لا أؤمن لا بالاشتراكي الثوري الحر ولا بالحزب الشيوعي ، فلا فرق بينهما . قرر حسب فكرك » .

واستنتج هنري عندما وجد نفسه وحيداً في مكتبه : « باختصار ، انهم جميعاً موافقون . إنهم لا يرون أي سبب للرفض » . وانقبض قلبه : سوف يرغم إذن على القبول . كان « الاشتراكي الثوري الحر » بحاجة الى جريدة ، وهو يمثل فرصة لا يحق له ان يرفضها . كان العالم يتردد بين الحرب والسلم ، وربما كان المستقبل متعلقاً بشيء تافه: ستكون جريمة ألا يحاول المرء كل شيء من اجل السلم . ونظر

هنري إلى المكتب ، والمقعد ، والجدران ، وأصغى إلى صوت المطابع الدائرة ، وخيل إليه فجأة انه يستيقظ من حلم تافه طويل . لقد اعتبر « الأمل » حتى الآن كنوع من الدمية : العدة الكاملة للطابع الصغير ، طبيعة مدهشة ، لعبة عظيمة . ولقد كانت أداة ، سلاحاً . ولهم الحق بأن يسألوه حساباً عن نوع استعماله لها . وسار نحو النافذة . اواه ! انه يبالغ قليلاً : إنها لم تكن تافهة إلى هذا الحد . انه يضطرب كثيراً بخصوص هذه الجريدة ، بعد ان تبدد حبور أيلول منذ زمن بعيد . ولكنه على كل حال كان يعتقد ان ليس عليه ان يؤدي حساباً إلا أمام نفسه . كان مخطئاً بلا شك . وقال في نفسه : « هذا غريب . ما إن تفعل شيئاً مناسباً ، حتى يخلق هذا لك واجبات ، بدل ان يمنحك حقوقاً » . لقد أسس « الأمل » وها هي تقوده بأن يلقي بنفسه جسداً وروحاً في المعرض السياسي. إنه يتصور من الآن تدخل سامازيل ، مواعظه الطويلة المضجرة ، مكالمات دوبروي الهاتفية ، الاجتماعات ، المشاورات ، الخصومات ، والمصالحات . كان قد وعد نفسه : « لن أترك نفسي يأكلونني » . حسناً ! لقد تحتم الأمر : سوف يؤكل . وخرج من مكتبه ونزل الدرج . تحت الضباب ، كانت المدينة هذه الليلة أشبه بمحطة ضخمة : لقد أحب الضباب ، والمحطات . اما الآن فلم يعد يحب شيئاً : لقد ترك نفسه يؤكل . ولهذا عندما كان يحاول ان يتكلم عن نفسه ، لم يكن يجد شيئاً يقوله . « أنت حريص على اشياء ، قل لنا ما هي » . ما هي ؟ انه لا يحب لا بول ولا نادين . والسفر لم يعد يستهويه مطلقاً . ولم يعد يحدث له ابداً ان يقرأ للذته الخاصة ، ولا ان يتنزه ، ولا ان يسمع الموسيقى . انه لم يعد يفعل شيئاً للذته الخاصة . ابداً لم يعد يقف مندهشاً في زاوية الشارع ، ابداً لم يعد يتلهى بذكرى. أناس عليه ان يراهم ، أشياء عليه ان يفعلها : كان يعيش كمهندس في عالم من أدوات . فلا غرو اذا أصبح أكثر جفافاً من حصاة . وحث الخطى . انه ليقرفه، هذا الجفاف . لقد وعد نفسه كثيراً ليلة الميلاد بأن يستعيد حياته : ولم يكن يستعيد شيئاً . وبالاضافة إلى ذلك كان دوماً غير مرتاح داخل نفسه، في حالة دفاع دوماً ، متوتراً ، قابلاً للغضب ، غاضباً . كان يعلم جيداً ان هذه السخرات كلها

التي يكلف نفسه بها ، لا يقوم بها على النحو الواجب ، وهذا لا يسبب له إلا توبيخ ضمير . « لست أعرف اشياء كثيرة ، لا أرى بوضوح ، آخذ موقفا باستخفاف ، ليس لدي وقت ، لن يكون لدي وقت ابداً » . إنها لمتعبة ، هذه اللازمة . ولن يكف عن سماعها ، فكل شيء سيكون أسوأ من السابق ، أسوأ بكثير . مأكول ، ملتهم ، منظّف حتى العظام . لن يكون هناك مجال للكتابة . الكتابة ، إنها طريقة في الحياة ، وسوف يختار طريقة أخرى ، ولن يبقى لديه شيء يوصله إلى احد . وقال في نفسه في تمرد : « لا أريد » . كلا ، ان نفوره لم يكن تافهاً . انه يستطيع على العكس بشيء من الشجى ان يقول في نفسه ان هذه المسألة مسألة حياة او موت : حياته او موته ككاتب يراهن عليها : يجب ان يدافع عن نفسه . وفكر : ان « الاشتراكي الثوري الحر » بعد كل حساب ، لا يمسك بين يديه مصير الانسانية . ولا انا أمسك بين يدي مصير « الاشتراكي الثوري الحر » . لقد قال هذا في نفسه غالباً : « اننا ننظر إلى انفسنا بجدية اكثر مما ينبغي . وفي الحقيقة ان اعمالنا ليس لها وزن ثقيل ، وهذا العالم ليس له وزن ثقيل : انه ليفي ، مسامي ، بلا صلابة » . كان المارة يسرعون من خلال الضباب وكأن من المهم ان يصلوا إلى هنا او هناك قبل الموعد بقليل . انهم في النهاية سيموتون جميعاً ، وانا ايضاً : كم يخفف هذا من الحياة . اننا لا نستطيع شيئاً ضد الموت ، وإذن فاننا لا نستطيع شيئاً لأحد ، ولا ندين بشيء لأحد : لا فائدة من تسميم وجودنا . ليفعل إذن ما هو قادر على فعله ، ليترك « الأمل » و « الاشتراكي الثوري الحر » ، ليغادر باريس ، ليقم في زاوية ما في الجنوب ، وليكرس نفسه للكتابة . كان لامبير يقول : « لنجنِ ما زرعناه » . ليحاول ان يكون سعيداً قبل ان يكون العالم كله كذلك . لمَ لا ؟ كان هنري يتخيل البيت المنزوي ، الصنوبر ، رائحة الغابات . « لكن ماذا سأكتب ؟ » . وتابع السير ، فارغ الرأس . وقال في نفسه : « ان الفخ مصنوع جيداً . في اللحظة التي تظن انك تفلت منه ، ينطبق عليك » . ان يستعيد الماضي ، ان ينقذ الحاضر بواسطة كلمات ، هذا شيء جميل جداً ، لكن هذا لا يمكن ان يتم إلا بأن يرويها للآخرين . هذا ليس له معنى إلا

اذا كان الماضي ، إلا اذا كان الحاضر ، إلا اذا كانت الحياة لها وزن ثقيل . اذا لم يكن لهذا العالم أهمية ، اذا لم يكن للبشر الآخرين حساب ، فما الفـــائدة من الكتابة ؟ لا يبقى إلا ان يتثاءب مللاً . ان الحيـــاة لا تتجزأ ، يجب ان تؤخذ ككل ، فإما الكل أو لا شيء : كل ما هنالك أننا لا نملك الوقت لكل شيء ، هذه هي المأساة . ومن جديد انطلق الصخب في رأس هنري ، انه حريص على تلك الجريدة . وهمومه بخصوص الحرب ، والسلم ، والعدالة ، لم تكن باطلة . لا مجال لإلقاء هذا كله إلى عرض البحر . لكنه كان كاتباً ، ويريد الكتابة . كان حتى الآن قد تدبر أمره ليوفق بين كل شيء إن حسناً وإن سيئاً : بالأحرى سيئاً . اذا استسلم لدوبروي ، فلن ينجو بجلده ابداً . إذن ما العمل ؟ أيستسلم ؟ ألا يستسلم؟ أيعمل ؟ أيكتب ؟ وعاد لينام .

بعد بضعة ايام ، كان هنري لا يزال يشعر انه متردد ايضاً . « نعم أم لا ؟ ». ان هذا السؤال المسيطر سيجعل مزاجه رديئاً في النهاية . وادرك ذلك عندما لمح من فرجة الباب وجه لاشوم الباسم : « أيمكنك ان تمنحني خمس دقائق ؟ » .

كان لاشوم يمر غالباً على الجريدة ليرى فانسان . وعندما كان يأتي إلى مكتب هنري ، كان دوماً مرحباً به . لكن هنري قال هذه المرة بصوت شديد الجفاء : « افضل اكثر غداً . عندي مقال عليّ ان أنهيه » .

فقال لاشوم دون ان تثبط شجاعته :

– ذلك اني أريد ان أكلمك ، اليوم .

وجلس في حزم :

– عمّ إذن ؟

ونظر لاشوم إلى هنري في نوع من القسوة :

– حسب ما يقوله فانسان ، فهناك احتمال بأن تندمج «الأمل» بـ «الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال هنري :

– فانسان ثرثار جداً . انه احتمال هوائي تماماً .

فقال لاشوم :

ـ آه ! افضل هذا !

فقال هنري بصوت عدائي قليلاً :

ـ لِمَ إذن ؟ ماذا يمكن ان يسببه لك هذا ؟

فقال لاشوم :

ـ ستكون غلطة خطيرة .

فقال هنري :

ـ ما الخطورة فيها ؟

فقال لاشوم :

ـ كنت اعتقد تماماً انك لا تعي ذلــك . إنما لهذا أردت ان أحذرك . » وتصلب صوته : « في الحزب ، نعتبر ان « الاشتراكي الثوري الحر » في طريقـه لأن يصبح حركة ضد الشيوعية » .

فأخذ هنري يضحك : « حقاً ! ما كنت لأكتشف هذا بمفردي ! » .

فقال لاشوم :

ـ ليس ثمة ما يدعو للضحك !

فقال هنري :

ـ انت صعب الضحــك ! » ونظر إلى لاشوم في سخرية : « انت تغطي « الأمل » بالزهور ، حتى اكثر مما ينبغي قليلاً مجاملة لي . ودوبروي الذي يقول الأشياء نفسها التي أقولها ، هو ضدكم ! » . وأضاف : « ماذا حدث ؟ كان لافوري ودياً كل الود في الأسبوع الماضي » .

فقال لاشوم بصوته الوقور :

ـ ان حركة كالاشتراكي الثوري الحر مبهمة جداً . فمن جهة ، تجتذب أناساً إلى اليسار ، هذه حقيقة . ولكن في اللحظة التي تلحق بنفسهـا صحيفة ، وتنظم مهرجاناً ، فهذا يعني انها تزمع ان تقلل من شأننا . في البداية ، كان الحزب الشيوعي يتمنى تحالفاً ، لكن عندما يعلنون أنفسهم ضدنا ، فنحن مرغمون على

ان نكون ضدهم .

– تقصد انه لو كان « الاشتراكي الثوري الحر » فئة صغيرة منسية ، صامتة ، عاملة بوداعة في ظلكم ، لكنتم سمحتم به بل وشجعتموه ؟ ولكنه إذا أخذ يكوّن وجوده الخاص ، فان الاتحاد المقدس لا يعود ورقة صالحة للعب ؟

فقال لاشوم :

– أكرر عليك انه يسعى إلى التقليل من شأننا . إذن لا مجال هناك لاتحاد مقدس .

فقال هنري :

– نعم ، هكذا منطقكم ! حسناً ! إليك نصيحة مقابل نصيحتكم : لا تبدأوا في مهاجمة « الاشتراكي الثوري الحر » . أنتم لن تستطيعوا ان تقنعوا احداً انه حركة ضد الشيوعية . وستعطون الحق لكل اولئك الذين يعتبرون الجبهة الوطنية خدعة . إذن صحيح انكم لا تتحملون وجود يسار خارج عنكم ؟

فقال لاشوم :

– اننا لا نفكر حالياً بمهاجمة « الاشتراكي الثوري الحر » علناً . فنحن نرقبه ، وهذا كل شيء . ونظر إلى هنري في خطورة : « في اليوم الذي سيملك فيه صحيفة ، سيصبح خطراً . لا تتخلَ لهم عن الأمل » .

فقال هنري :

– ولكنّ هذا شانتاج . إذا تخلى عن فكرة الحصول على صحيفة ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » يستطيع ان يختنق في هدوء ، أليس كذلك ؟

فقال لاشوم مؤنباً :

– شانتاج ! إذا بقي « الاشتراكي الثوري الحر » في مكانه ، فسوف نظل اصدقاء . وإلا ، فلا . هذا منطقي .

فهز هنري كتفيه : « عندما كان سكرياسين يؤكد لي انه لا يمكن العمل معكم ، لم أكن أريد ان أصدقه . ولكنه كان على حق . ان لنا الحق في ان نطيعكم في كل ما تريدون ، لا أكثر » .

فقال لاشوم :

- انت لا تريد ان تفهم . » وأضاف بصوت ملحّ : « لماذا لا تبقى مستقلاً ؟ كان هذا مصدر قوتك » .

فقال هنري :

- إذا سرت مع « الاشتراكي الثوري الحر » ، فسأقول الأشياء نفسها بالضبط التي كنت أقولها سابقاً . أشياء توافق عليها أنت .

- لكنك ستقولها باسم فئة معينة وسيصبح لها معنى آخر .

- في حين انه كان من الممكن حتى الآن ان أعتبر انني متفق مع الحزب الشيوعي على كل الخط ؟ كان هذا يناسبكم ؟

فقال لاشوم في حرارة :

- صحيح انك كنت متفقاً . وإذا كنت قد سئمت من تمثيل دور المتطوع ، تعالَ معنا . ان « الاشتراكي الثوري الحر » على كل حال ، بدون مستقبل : ابداً لن ينالوا البروليتاريا. في الحزب الشيوعي إذا تكلمت ، فهناك أناس يستمعون إليك . وتستطيع ان تؤدي عملاً حقيقياً .

فقال هنري :

- ولكن هذا عمل لا يعجبني . » وفكر في سخط : « لقد ألحقوني بهم كما يريدون » . كان لاشوم مستمراً في تحريضه . كان عليه أن يدرك ان هذا النوع من القصص لا يدفعه إلى الاقتراب منهم . ترى هل جاء ليحذر هنري كصديق ، ليناوره ؟ لا شك في ان الشيئين يسيران معاً ، وهذا أقذر ما في الأمر . وقال هنري فجأة :

- اننا نضيع وقتنا ويجب ان أنهي مقالي .

ونهض لاشوم : « قل لنفسك انها مصلحة دوبروي ان يحصل على « الأمل » ، وليست مصلحتك » .

فقال هنري :

- اعتمد عليّ للدفاع عن مصالحي .

وتصافحا ، وكانت مصافحتها أقرب إلى البرودة .

كان دوبروي قد حذر من انقلاب الحزب الشيوعي . فقد أمره لافوري في تهذيب ان يتخلى عن فكرة اقامة مهرجان . وقال دوبروي : « انهم يخافون ان تزداد أهميتنا اكثر مما ينبغي . انهم يحاولون ان يخيفونا : لكن إذا قاومنا جيداً ، فلن يجرؤوا على مهاجمتنا ، ليس بشكل جدي » . كان عازماً على المقاومة ، وكان هنري موافقاً . ولكن كان لا بد على كل حال من عرض المشكلة على اللجنة : وكانت هذه مشاورة شكلية صرفاً ، لأن اللجنة كانت تنتهي دوماً إلى تأييد رأي دوبروي . وكان هنري يفكر وهو يستمع إلى ضجيج الأصوات المتحمسة : « ما اكثره من وقت ضائع ! » . ونظر من خلال النافذة إلى السماء الزرقاء الجميلة . وقال في نفسه : « سأفعل حسناً إذا ذهبت أتنزه ! » . انه أول نهار من الربيع . أول ربيع في السلم : ولم يجد دقيقة واحدة ليستفيد منه . ففي الصباح ، كان هناك مؤتمر المراسلين الحربيين الأميركان . ثم الاجتماع السري مع الافريقيين الشماليين . ثم تناول سندويشة على سبيل الغداء وهو يقلب الصحف ، وهو الآن حبيس في هذا المكتب . ونظر إلى الآخرين : ليس ثمة واحد خطر له حتى ان يفتح النافذة . وكان صوت لونوار يرتجف حماسة وخجلاً ، وكان يتلجلج تقريباً : « إذا كان هذا المهرجان سيظهر معادياً للحزب الشيوعي ، فإنني اعتبره ضاراً » .

فقال سافيير :

– انه ضار إذا لم يفضح اضطهاد الحزب الشيوعي . إنما بسبب هذا الجبن يسير اليسار الآن الى الموت .

فقال لونوار :

– لا اعتقد انني جبان ، لكن اريد ان يكون لي الحق بأن أغني مع رفاقي عندما يشعلون نيران الفرح ليلاً .

فقال سامازيل :

– لنرَ ، اننا في الصميم جميعاً متفقون ، وليست المسألة إلا مسألة تكتيك .

كان الجميع يصمتون، عندما يتكلم، فلا مكان لصوت آخر إلى جانب صوته .

كان صوتاً ضخماً ودقيقاً ، وعندما كان يديره في فمه، كان يبدو كأنه يجرع نبيذا أحمر . وراح يشرح بأن المهرجان يشكل في حد ذاته إعلان استقلال تجاه الحزب الشيوعي ، وان من المناسب إذن ان يكون مضمون الخطابات حيادياً ، إن لم يكن ودياً . وكان يتكلم برشاقة كبيرة إلى حد ان سافيير فكر بأن الأمر ليس إلا مناورة تهدف الى تأكيد القطيعة مع الشيوعيين مع إلقاء الأخطاء على عاتقهم ، في حين ان لونوار فهم ان التحالف محافظة عليه بأي ثمن .

وتساءل هنري : « لكن ما الفائدة من هذه المهارة ؟ ان إخفاء خلافاتنا ، لا يعني اننا تغلبنا عليها » . وكان دوبروي الآن يفرض قراراته بسهولة . « لكن اذا توتر الموقف، إذا هاجمنا الشيوعيين مثلاً، فماذا ستكون ردود فعل كل واحد؟». كان لونوار مأخوذاً بالشيوعيين . وكانت مشاربه الأدبية وصداقته لدوبروي فقط هي التي تمنعه من التسجل عندهم . أما سافيير فكان على العكس يجد مشقة في السيطرة على كراهيته كمناضل اشتراكي قديم . وأما سامازيل ، فلم يكن هنري يعرف أفكاره جيداً ، وكان يرتاب فيه بشكل غامض ، كان النموذج التام للسياسي . وبسبب بدانته وحرارة صوته البحاء ، كان يبدو عميق الجذور في الأرض ، ويخيل لمن يراه انه يحب بقوة الناس ، والأشياء . لكنهم في الحقيقة ما كانوا يخدمونه إلا في تغذية حيويته الآمرة : وكانت الشيء الوحيد الذي يسكر به . كم كان يحب الكلام ! ومع أي كان ! كان يناسبه تماماً ان يتعشى في المدينة ! عندما يعلق انسان أهمية على جرس صوته أكبر مما يعلق على معنى كلماته، فأين هو صدقه ؟ كان برونو وموران صادقين ، لكن مترددين . إنهما بالضبط من اولئك المثقفين الذين كان لاشوم يتحدث عنهم ، ممن يريدون ان يشعروا انهم مفيدون دون ان يضحوا بفرديتهم . وقال هنري في نفسه : « مثلي مثل دوبروي. ما دمنا نستطيع ان نمشي مع الشيوعيين دون ان نكون منهم ، فلا بأس . لكن إذا قرروا ذات يوم ان يخرجونا من الشيوعية ، فهذا سيخلق مشكلة لعينة » . ورفع هنري عينيه الى السماء الزرقاء . لا فائدة من ان يرغب في حلها اليوم ، لأنه لا يستطيع أصلاً ان يطرحها بشكل حسي : جميع المنظورات ستتبدل اذا تبدل

موقف الحزب الشيوعي . وما هو أكيد، هو ان عليه الا يدَع الخوف يتملكه. والجميع متفقون على هـذا ، وهذه المناقشات كلها باطلة . وقال هنري في نفسه : « في هذه اللحظة بالذات ، ثمة أشخاص يصيدون بالقصبة » . لم يكن يحب الصيد ، لكن الصيادين كانوا يحبونه ، وانهم لمحظوظون حقاً .

وعندما صوتت اللجنة اخيراً بالاجماع إلى جانب فكرة المهرجان ، اقترب سامازيل من هنري وقال :

ـ يجب ان يكون لهذا المهرجان دوي !

كان في صوته تأنيب مبهم . فقال هنري :

ـ نعم .

فقال سامازيل :

ـ لهذا ، يجب ان تزداد الانتسابات بسرعة .

ـ هذا ما نتمناه .

ـ أتدرك ، انه اذا كان لنا جريدة ، فسنضمن مستمعين أكثر بكثير .

فقال هنري :

ـ أعرف .

كان يتفحص بلا سرور الوجه المتين ذا الابتسامة الطافحة . وفكر : « اذا سرت معهم ، فسيكون عليّ ان أواجهه ، بقدر دوبروي على الأقل » . وكان سامازيل لا يتعب من النشاط ، وقال :

ـ سنحتاج سريعاً إلى معرفة جوابك .

ـ لقد أخطرت دوبري أنه يلزمني بضعة أيام للتفكير .

فقال سامازيل :

ـ نعم . لقد مضت بضعة أيام على ذلك .

وردد هنري في نفسه : « يقيناً ، إنني لا أحبه ». وقال في نفسه لائماً : « هوذا رد فعل فردي ! » . ان الحليف ليس بالضرورة صديقاً . وتساءل وهو يشد على يد دوبروي : « على كل حال ، ما الصديق ? » . صديقان : إلى أي حـد ? بأي

ثمن ؟ اذا لم ارضخ ، فماذا سيحدث بهذه الصداقة ؟ وقال دوبروي :
– لن تنسى ان هناك مخطوطات تنتظرك في « الطوارىء » ؟
فقال هنري :
– سأمر هناك فوراً .
كان على استعداد لأن يهتم عن طواعية أكثر بتلك المجلة ، اذ كان يستهويه انه ساعد دوبروي على جمع نصوص، واختيارها لكنها دوماً اللازمة نفسها . لا بد من الوقت لقراءة المخطوطات في عناية ، للكتابة إلى مؤلفيها ، للحديث معهم . لا مجال لهذا . كان عليه ان يقتصر على تصفح كتابات غفل بسرعة . وفكر وهو يجلس امام مقود السيارة السوداء الصغيرة : « إنني أهمج كل شيء همجاً » . وهذا النهار الجميل ، انه يهمجه ايضاً . ويوماً بعد يوم ، سينتهي إلى همج حياته .
وقالت نادين :
– أجئت تأخذ بريدك ؟ » وناولته في وقار مغلفاً أصفر ضخماً كانت تنظر بعين أكثر مما ينبغي إلى دورها كسكرتيرة : « وهذه هي التقارير ، اذا كنت تريد ان تلقي عليها نظرة » .
فقال هنري :
– في يوم آخر .
وتفحص في إشفاق رزم الورق المكومة على الطاولة . دفاتر سود ، حمر ، خضر ، وعلب ورق ، سيئة الربط ، وسجلات ما أكثرها من مخطوطات ، وكل واحد منها ، بالنسبة لمؤلفيها ، فريد .
وسألت نادين وهي تنكب على فيشاتها :
– اعطني قائمة المخطوطات التي ستأخذها .
فقال هنري :
– سآخذ هذه الرزمة . » وأضاف وهو يشير إلى رواية أعجبته الصفحة الأولى منها : « وهذا المخطوط ايضاً . انها تبدو أقرب إلى الجودة » .
– كتاب الصغير بولوفي ؟ انه يبدو لطيفاً ، ذلك الأصهب ، لكن ماذا

يستطيع ان يكتب في مثل تلك السن ؟ انه لا يتجـاوز الثانية والعشرين . »
ووضعت على الدفتر يداً آمرة : « دعه لي . سآتيك به هذا المساء » .

ـ لست واثقاً مطلقاً انه جيد ...

فقالت نادين :

ـ أريد ان أراه. » كان هواها الوحيد هذا الفضول النهم . وأضافت بصوت متشكك : « سنلتقي هذا المساء ؟ »

ـ هذا متفق عليه . في الساعة العاشرة ، في حانة الزاوية .

ـ ألن تأتي إلى منزل ماركوني قبل ذلك ؟ انهم يحتفلون بسقوط برلـين ، وسيكون جميع الرفاق هناك .

ـ ليس لدي وقت .

ـ يبدو ان لدى ماركوني احدث الاسطوانات . انا ، لا أبالي بذلك كثيراً، لكنك تزعم انك تحب الجاز .

ـ أحب الجاز ، لكن لدي عملاً .

ـ بين الخامسة والسادسة ، ألا تستطيع ان تجد دقيقة ؟

ـ كلا في السابعة ، سأذهب لرؤية تورنيل الذي ضرب لي اخيراً موعداً .

فهزت نادين كتفيها : « سيسخر منك في وجهك ! » .

ـ أشك في ذلك . لكن سأستطيع ان أكتب للمسكين داس فيبرناس انني كلمته بصوت حاد .

وأنهت نادين قائمتها في سكوت ، وقالت وهي ترفع رأسها :

ـ طيب إذن ، إلى هذا المساء .

فابتسم لها هنري : « إلى هذا المساء » .

سوف يراها ثانية في الساعة العاشرة . وفي الحادية عشرة ، سوف يصعدان معاً إلى الفندق الصغير مقابل الجريدة : كانت هي التي ألحت لتنام معه من جديد . وكان عزاء ان يفكر بأن هذا النهار القاحل سينفتح بعد عدة ساعات على ليلة دافئة وردية . وجلس هنري من جديد في عربته وانطلق نحو الجريدة ، كان الليل لا

يزال بعيداً ، وسوف ينتهي بعد الظهر دون فرح . ان يستمع إلى جاز غير معروف بعد ، وان يشرب مع رفاق ، وان يبتسم لنساء ، نعم، انه كان ليحب هذا كثيراً . لكن دقائقه كانت معدودة : وفي الجريدة ، كان أناس يعدون دقائقه . كان يحب ان يوقف السيارة على طول الرصيف ، وأن يستند إلى الجسر، وينظر إلى الماء المشمس . او ينطلق نحو الأرياف الحيّية التي تحيط بباريس: كان يحب لو يفعل أشياء كثيرة . لكن لا . هذه السنة ايضاً كانت حجارة باريس ستخضرّ ثانية بدونه . « لا توقف ابداً : لا شيء له وجود إلا المستقبل وهو يتراجع إلى ما لا نهاية . وهذا ما يدعونه العمل ! » . مناقشات ، محاضرات : ما من ساعة من تلك الساعات قد عاشها لذاتها . والآن سيبدأ بافتتاحيته ، وسيرى تورنيل ، وسيكون لديه الوقت بالضبط قبل العاشرة لينهي مقاله ولينزل إلى المطبعة . وأوقف السيارة امام مبنى الجريدة . انه لحظ ايضاً ان يحصل على هذه العربة ، وبدونها ، ما كان ليستطيع ابداً ان ينهي ما كان عليه ان ينهيه . وفتح الباب ولامست نظرته لوحة العداد : ٢٣٢٧ وأعاد قراءة الرقم في دهشة . كان واثقاً ان العداد كان يؤشر البارحة الى ٢١٠٢ . لم يكن هناك غير أربعة يملكون مفتاح المرأب : كان لامبير في المانيا ، ولوك أمضى صباحه في الجريدة ، وما الداعي لأن يقوم فانسان بمئتين وخمسةوعشرين كيلومتراً بين منتصف الليل والظهر؟ انه لم يكن شاباً من النوع الذي ينزّه بغياً ، وكان يفضل المواخير على كل شيء آخر . وعلى كل حال أين أمكنه الحصول على وقود ، ثم كان يجب ان يخطره ، فهم يخطرونه دوماً . وارتقى هنري الدرج وعلى عتبة مكتبه توقف بلا حراك . كانت قصة العداد تلك تثير فضوله . وسار نحو غرفة التحرير ووضع يده على كتف فانسان :

— قل إذن ...

واستدار فانسان وابتسم . وتتردد هنري . لم يكن ما في ذهنه حتى مجرد شك . لكنه قبل حين ، وهو يقرأ نبأ في « فرانس سوار » في أسفل الصفحة الأولى ، تذكر ابتسامة معينة من فانسان ، في « البار الأحمر » . وكان فانسان

الآن يبتسم ، وفكر ثانية بذلك النبأ ، وترك سؤاله معلقاً وقال : « أتأتي لتشرب قدحاً ؟ » .

فقال فانسان :

ــ هذا لا يرفض ابداً .

وصعدا حتى البار ، وجلسا امام طاولة مستديرة ، قرب الباب الذي كان يفضي إلى السطح. وطلب هنري كأسين من النبيذ الأبيض واستأنف: « قل إذن، أأنت الذي أخذت السيارة هذا الصباح ؟ » .

ــ السيارة ؟ كلا .

ــ هذا غريب . لا بد ان احداً غيرنا يملك المفاتيح . لقد أدخلتها البارحة مساء في منتصف الليل وبعد ذلك قام أحدهم بمئتين وخمسة وعشرين كيلومتراً .

فقال فانسان :

ــ لا بد انك اخطأت في الأرقام .

ــ كلا ، انا واثق ان لا . لقد لاحظت انها تجاوز ٢١٠٠ بالضبط . » وسكت هنري لحظة : « كان لوك هنا هذا الصباح. إذا لم تكن انت الذي أخرج السيارة، فإنني لأتساءل حقاً من يكون . يجب ان أحل هذا اللغز » .

فقال فانسان :

ــ ماذا يمكن لهذا ان يؤثر عليك ؟ » . كان ثمة شيء ملحّ في صوته وتفرس هنري في وجهه في صمت وقال :

ــ لا أحب الأسرار .

ــ انه مجرد سر صغير !

ــ أتظن ؟

ومن جديد ساد صمت وسأل هنري :

ــ أنت الذي أخذها ؟

فابتسم فانسان : « اسمع ، سأسألك خدمة . انسَ هذه القصة ، انسها تماماً . السيارة لم تخرج منذ البارحة مساء ، هذا كل شيء » .

وأفرغ هنري كأسه . ٢٢٥ كيلومتراً . « آتيشي » على بعد ١٠٠ كيلومتر من باريس . وكان نبأ « فرانس سوار » يروي ان الطبيب بومال ، المشتبه بأنه عمل مع الجستابو والذي لم يثبت ضده شيء في المحكمة مؤخراً ، قد وُجد عند الفجر قتيلاً في بيته في « آتيشي » . وتفحص هنري فانسان من جديد . انها أشبه بالروايات الخيالية ، هذه القصة . وكان فانسان يبتسم ، من لحم وعظم ، وكان حقيقياً تماماً . ونهض هنري . في آتيشي كانت هناك جثة حقيقية تماماً ، والقتلة كانوا في مكان ما ، من لحم وعظم . وقال :

ـ افضل لنا ان نتحدث على السطح .

فقال فانسان وهو يتقدم نحو الحاجز الذي يُرى منه لمعان أسطحة باريس :

ـ نعم ، انه لنهار جميل .

فقال هنري :

ـ أين كنت هذه الليلة ؟

فقال فانسان :

ـ أتصر على معرفة ذلك ؟

كان يبتسم لأفكاره . وقال هنري فجأة :

ـ كنت في آتيشي .

وتغير وجه فانسان . ونظر إلى يديه . ما كانتا ترتجفان . ورفع عينيه إلى هنري في حدة :

ـ ما الذي يجعلك تقول هذا ؟

فقال هنري :

ـ هذا واضح جداً .

في الحقيقة ، كان قد ألقى كلماته دون ايمان بها . وفجأة أصبح الأمر حقيقياً . ان فانسان مشترك في احدى تلك العصابات . وفي تلك الليلة ، كان في آتيشي .

وقال فانسان في صوت حانق :

ـ أهذا واضح إلى هذا الحد ؟

كان مكتئباً من انه ترك أمره يُكشف بمثل هذه السهولة ، وكان الباقي كله يبدو له عديم الأهمية تماماً .

وأمسكه هنري من كتفه : « لا يبدو عليك انك تدرك : انه لقذر هـذا النوع من القصص ، انه لقذر تماماً » .

فقال فانسان بصوت هادىء :

ـ الدكتور بومـال هو الذي كان يُستدعى إلى شارع « لابومب » ليعتني بالرفاق الذين كان يغمى عليهم . فكان ينعشهم ، ويعاودون تعذيبهم من أصابعهم إلى اقدامهم . لقد قام بهذا العمل طوال سنتين .

وشد هنري بقوة اكبر على الكتف التي ليس فيها إلا عظام : « نعم ، انه لنذل دنيء . ثم ماذا ؟ ماذا يفيد ان يقل عدد الأنذال على الأرض واحداً ؟ اغتيـال المتعاونين في ١٩٤٣ ، انا معك . لكن الآن ، هذا لا يفيد شيئاً ، وليس فيه اية مجازفة تقريباً ، انه ليس عملاً ، ولا شغلاً ، ولا حتى رياضة : مجرد لعبة صغيرة قذرة . هناك على كل حال أشياء افضل للعمل » .

فقال فانسان :

ـ انت تعترف ان التطهير ملهاة مقرفة .

فقال هنري :

ـ هذه ايضاً ملهاة ، مقرفة مثلها . » وأضاف بصوت ساخط : « أتريـد ان أقول لك ؟ انه ليفقأ قلوبكم ان تكون المغامرة قد انتهت ، لذلك تتظاهرون بإطالتها . ولكن يا إلهي ! لم يكن المهم المغامرة : بل الأشياء التي كنا ندافع عنها » .

فقال فانسان بصوته الهادىء :

ـ اننا لا زلنا ندافع عن الأشياء نفسها . قال ذلك وكأنه يناقش مسألة بيزنطية مجردة تماماً . وتابـع : « أتعرف ، ان هذه الوقائع الصغيرة المتفرقة لمفيدة جداً لإنعاش ذاكرة الناس . انهم بحاجة إلى ذلك بشكل قذر . اليـك : في

الأسبوع الماضي صادفت لامبير يتنزه مع والده . ثمة شيء يسير متحفظ من سوء الاستعمال ، أليس كذلك ؟

فقال هنري :

– لقد نصحته ان يراه ثانية إذا كان يرغب في ذلك . هذا لا يعني احـــداً غيره . » وتابـع وهو يهز كتفيه : « ترطيب ذاكرة الناس ! لا بد ان تكون مجنوناً حتى تصدق ان هذا سيغير من الأمر شيئاً » .

فقال فانسان بصوت ساخر :

– من يغير شيئاً ما ، لماذا ؟

فقال هنري في غضب :

– أتعرف لمَ نحن في حالة عطب ؟ لأننا لسنا عديدين بما فيه الكفاية . انهـا خطيئتك انت ، وخطيئة زملائك ، وجميـع الشبان الذين يتلهون بالسخافات بدل القيام بعمل حقيقي .

فقال فانسان بصوت ساخر :

– أتريد ان أتسجل في « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال هنري :

– هذا أفضل كثيراً ! اخيراً ادرك هذا : ما الفـــائدة من محاربة انذال مغمورين لا يبالي بهم احد ؟ ان اليمين لا يصيبه شيء من هذا .

فقاطعه فانسان : « لاشوم يقول ان «الاشتراكي الثوري الحر» يخدم الرجعية ودوبروي يقول ان الحزب الشيوعي يخون البروليتاريا: اذهب إذن لتتعرف نفسك بين كل هذا ! » . تلك القصة . إنني أعد بألا استخدم السيارة ثانية » .

فقال هنري :

– انني لا أبالي بالسيارة .

فقطع عليه فانسان الطريق: «لا تبالِ بالباقي» . واجتاز البار وسأل فانسان:

– أتأتي إلى بيت ماركوني ، بعد قليل ؟

– كلا . فلدي عمل كثير .

– خسارة ! انها المرة الأولى التي سنستطيع فيها ان نتمتع جميعاً معاً بأشياء واحدة ! كنا نحب كثيراً لو تأتي !

– كنت أحب انا ايضاً .

ونزلا الدرج في صمت . كان هنري يريد لو يضيف شيئاً ما ، حجة مقنعة : ولم يكن يجد شيئاً . وكان يشعر انه منهوك جداً . كان وراء فانسان اثنتا عشر جثة ، وكان يحاول ان ينساها بمتابعة القتل . وأثناء ذلك كان يسهر كثيراً : وسوف يسكر سكرة قوية عند ماركوني . لا يمكن ان يدعه يتابع على هذا النحو . ولكن كيف السبيل إلى منعه ؟ وقال هنري في نفسه : « ثمة شيء نتن في مكان ما » . أشياء كثيرة يجب ان تفعل ! وشبان كثيرون لا يعرفون ماذا يفعلون ! كان يجب ان يجتمع الطرفان : ثم لم يجتمعا . وقرر : « سأرسله للقيام بريبورتاج طويل ، بعيداً جداً » . لكن لم يكن هذا إلا حلاً مؤقتاً . كان يجب ان يكون لديه شيء متين يقدمه لفانسان . لو ان « الاشتراكي الثوري الحر » سار على نحو افضل ، لو انه مثّل املاً حقاً ، لاستطاع هنري ان يقول له : « إننا بحاجة اليك » . اما الآن ، فهذا شيء لا يزال بعيداً .

عندما جاء هنري إلى « كاي دورسي » بعد ساعتين ، كان متجهماً . وكان قد توقع أكثر مما ينبغي استقبال تورنيل الودي ، وإبتسامته المحترسة . وقال تورنيل :

– قل لصديقك داس فيرناس ان رسالته سوف ينظر اليها بعين الاعتبار ، لكن أنصحه بالصبر . » وأضاف : « إنني أتكفل بإيصال ردّك بواسطة الحقيبة الدبلوماسية ، فليس عليك إلا ان تسلمها لسكرتيرتي ، لكن كن على كل حال شديد الحذر » .

– بالتأكيد . فالشيخ المسكين مشتبه به بما فيه الكفاية ! » ونظر هنري إلى تورنيل في شيء من التأنيب : « انهم حالمون ، ولا يدركون طبيعة الأمور . لكنهم محقون تماماً بالرغبة في الاطاحة بسلازار » .

فقال تورنيل :

– بديهي انهم محقون ! » كان ثمة نوع من الحقد في صوته ، وتفرس هنري في

وجهه بمزيد من التنبه . وقال :

– إذن ، ألا تجد ان علينا ان نحاول مساعدتهم بطريقة أو اخرى ؟

– أية طريقة ؟

– أنا لا اعرف : هذا مجالك .

فهز تورنيل كتفيه : « انت تعرف الموقف جيداً كما أعرفه انا . كيف تريد ان تفعل فرنسا شيئاً ما للبرتغال او لأي كان ، في الوقت الذي لا تستطيع فيه شيئاً لنفسها ! » .

ونظر هنري في قلق الى الوجه الساخط . كان تورنيل من أوائل من نظموا المقاومة ، ولم يشك ابداً في النصر : ان هذا الاعتراف بالهزيمة لا يشبهه . وقال هنري :

– لدينا على كل حال بعض النفوذ .

– أتعتقد هذا ؟ انت من اولئك الناس الذين يشعرون بالفخر لأن فرنسا دعيت إلى سان فرنسيسكو ؟ ماذا تتصور ؟ الحقيقة انه لم يعد لنا حساب .

فقال هنري :

– ليس وزننا بالثقيل ، ليكن . لكن اخيراً نستطيع ان نتكلم ، وأن ندافع عن وجهات نظر ، وان نضغط ...

فقال تورنيل في لهجة مرة :

– انني لأذكر . كنا نريد ان ننقذ الشرف حتى تستطيع فرنسا ان تخاطب الحلفاء مرفوعة الرأس . ثمة أشخاص قد قُتلوا من اجل هذا : انه لدم ضائع حقاً !

فقال هنري :

– لن تقول لي انه كان يجب ألا نقاوم .

– لا اعرف . كل ما اعرفه هو ان هذا لم يفدنا كثيراً ! » ووضع تورنيل يده على كتف هنري : « لا تكرر ما قلته لك ! » .

فقال هنري :

– بالتأكيد لا .

وأعاد تورنيل إلى شفتيه ابتسامة دنيوية :

– انا مسرور بأن أتيحت لي هذه الفرصة لرؤيتك ثانية .

فقال هنري :

– انا ايضاً .

واجتاز بخطى سريعة الممرات وعبر الباحة . كان قلبه منقبضاً : « المسكين داس فيرناس . يا للسذج الشيوخ المساكين ! » كان يرى ثانية قباتهم القاسية ، وقبعاتهم ، وذلك الغضب المعقول في أعينهم . كانوا يقولون : « فرنسا أملنا الوحيد » . ولم يكن هناك أي أمل ، في أي مكان، لا في فرنسا ولا في اي مكان آخر . واجتاز المدخل واستند إلى حاجز الرصيف : كانت فرنسا لا تزال تحتفظ، من البرتغال ، ببريق النجوم الميتة العنيد ، ولقد ترك هنري نفسه يقع في الفخ . وفجأة ، كان يكتشف انه يسكن العاصمة المحتضرة لبلد صغير جداً . كان السين يجري في مجراه ، والمادلين ، ومجلس النواب في مكانها ، والمسلة ايضاً ، كان يمكن الاعتقاد بأن الحرب قد وفرت باريس بشكل عجائبي . وفكر هنري وهو يقود السيارة في شارع سان جرمان حيث كانت اشجار الكستناء تزهر في وفاء : « اننا نريد ان نعتقد ذلك» . لقد قبلوا جميعاً في رضى بأن يخدعوا بهذه المنازل ، بهذه الأشجار ، بهذه المقاعد التي تقلد الماضي بدقة كبيرة . ولكنها ، في الحقيقة ، قد أبيدت ، المدينة المتكبرة المنتصبة فوق قلب العالم ، ولم يعد هنري إلا المواطن المنسي لدولة من الدرجة الخامسة . و « الأمل » صحيفة محلية ، من نوع « بوتي ليموزان » . وارتقى درج الجريدة في خطا كئيبة . « فرنسا لا تستطيع شيئاً». ان يزود بالمعلومات اناساً لا يستطيعون شيئاً ، وان يثير سخطهم ، ويبعث حماسهم، ما الفائدة من هذا ؟ ذلك الريبورتاج عن البرتغال ، لقد اعتنى هنري به وكأنه سيثير الرأي العام من احد القطبين إلى الآخر . وما كانت واشنطن لتبالي، وما كان « كاي دورسي » ليستطيع شيئاً . وجلس إلى مكتبه وأعاد قراءة بداية مقاله : ما الفائدة ؟ سيقرأه الناس ، وسيهزون برؤوسهم ، وسيرمون الجريدة في سلة الورق ، وانتهى الأمر ! ما أهمية ان تبقى « الأمل » او ألا تبقى مستقلة ،

وان يكون قراؤها اكثر او اقل ، او حتى ان تفلس ؟ وفكر هنري فجأة : « لا داعي لتحمل مشقة العناد ! » . كان دوبروي وسامازيل يعتقدان انهما يستطيعان استخدامها ، هذه الجريدة . وكانا يعتقدان ايضاً انه سيكون لفرنسا دور تلعبه إذا لم تبقَ معزولة : الآمال كلها كانت إلى جانبها . اما من الأمام ، فلا شيء إلا الفراغ . وقال هنري في نفسه : « إذن ؟ لماذا لا أتلفن بأنني اقبل؟». ونظر ملياً إلى الجهاز ، على مكتبه . لكن يده ما كانت تقرر . وعاد ثانية إلى مقاله .

– آلو ، هنري ؟ انا نادين . » كانت ثمة رعدة تائهة في صوتها : « إنك لم تنسني ؟ » .

ونظر إلى ساعته في دهشة : « كلا ، كنت سأنزل . انها لم تتجاوز العاشرة والربع ، أليس كذلك ؟ » .

– العاشرة وسبع عشرة دقيقة .

– لا بأس ! كان عندي عمل .

وأعاد السماعة في نفاد صبر . لمثل هذه الأشياء ، كانت موهوبة : كانت ترتب أمورها دوماً بحيث تفسد لقاءاتها . لقد فكر غالباً ، أثناء هذا النهار القاحل ، بتلك اللحظة التي سيضم فيها بين ذراعيه جسدها المصقول الطري . فآنذاك كان يحصل اخيراً على نصيبه من الربيع . وها هي الكراهية فجأة تغرق رغبته . وكان يقول في نفسه وهو يهبط الدرج : « امرأة اخرى تعتقد ان لها حقوقاً عليّ ؟ ان بول لتكفي ... » . ودفع باب المقهى الصغير . كانت نادين تقرأ في سيماء من وقار وهي تشرب ماءً معدنياً .

– إذن ؟ ألا تستطيعين ان تنتظري عشرين دقيقة ؟

فرفعت رأسها : « اعتذر . لم أكن أريد ان ازعجك .. لكن هذا اقوى مني . ما ان ابدأ بالانتظار ، حتى يخيل إليّ انني لن أرى ثانية الشخص الذي أنتظره» .

– ان الناس لا يختفون هكذا .

– أتعتقد ؟

وأدار رأسه في شيء من الخجل . فقد تذكر فجأة أنها في الثامنة عشرة وان لديها ذكريات ثقيلة .

– أطلبت شيئاً ما ؟

– نعم ، لديهم بفتيك هذا المساء . » وأضافت في ابتسامة مصالحة : « لقد فعلت حسناً إذ لم تأتِ إلى بيت ماركوني ، فلم يكن الجو ظريفاً » .

– هل سكر فانسان ؟

– كيف عرفت ؟

– انه يسكر دوماً . يجب ان تحاولي ان ترشديه .

فقالت نادين بصوت حالم :

– اواه ، فانسان ! ان له كل الحقوق . انه مختلف كثيراً عن الآخرين : انه ملاك ...

وثبتت نظرها على هنري : « إذن ، أرأيت تورنيل ؟ » .

– رأيته . انه يقول اننا لا نستطيع شيئاً .

فقالت نادين :

– كنت اعرف انك تتعب نفسك دونما فائدة .

فقال :

– كنت اعرف ذلك ايضاً .

فقالت نادين :

– إذن لم يكن هناك حقاً داعٍ لتحمل المشقة ! » كان وجهها قد أصبح حرداً من جديد . وناولت هنري الدفتر الأسود : « لقد أتيتك بالمخطوط » .

– كيف هو ؟

فقالت نادين بصوت متجرد :

– انه يروي أشياء عن الهند الصينية مسلية جداً .

– أتعتقدين انه يمكن ان ننشر مقتطفات في المجلة ؟

– اواه ! بالتأكيد . لو كنت انا لنشرته كله . » ونظرت الى المخطوط في

شيء من الحقد : « يجب ألا يكون المرء خجولاً حتى يجرؤ ان يتحدث عن نفسه هكذا . انا لن أستطيع ابداً » .

فابتسم لها هنري : « ألم ترغبي ابداً في الكتابة ؟ » .

فقالت نادين في تبجح :

– ابداً . ثم انني لا أفهم ان يكتب الانسان اذا لم تكن عنده عبقريته .

فقال هنري :

– احياناً اشعر ان الكتابة قد تساعدك .

فتصلّب وجه نادين :

– تساعدني ؟ علامَ ؟

– على تدبّر امرك في حياتك .

فقالت وهي تبادر إلى أكل قطعة البفتيك :

– انني أتدبر امري على احسن وجه، شكراً . » وأضافت: « انتم مضجرون، اكثر من المدمنين » .

– لماذا المدمنون ؟

– المدمنون يريدون ان يدمن جميع الناس . وانتم تريدون ان يكتب جميع الناس .

وفتح هنري المخطوط ، ومن جديد رنّت الجمل المكتوبة بالآلة الكاتبة في داخله في صوت واضح ، جاف ، مرح ، كوابل من حصى صغيرة . وقال :

– بالنسبة لفتى في الثانية والعشرين ، هذا جيد حقاً .

فقالت :

– نعم ، هذا جيد . » وهزّت كتفيها: « كيف يمكنك ان تتحمس لشخص لا تعرفه مجرد معرفة ؟ » .

– انني لا أتحمس . بل ألاحظ انه موهوب .

– وماذا؟ ألا يوجد ما فيه الكفاية من الكتاب الموهوبين على هذه الأرض؟» وتابعت في عناد : « اشرح لي : اية حاجة تشعر بها ، انت وبابا ، لتكتشفا الأعمال

الجيدة المجهولة بعد ؟ »

فقال هنري :

ـ إذا كتبنا ، فهذا يعني اننا نؤمن بالأدب . وانه لمن دواعي السرور ان يغتني بكتاب جيد .

ـ تقصد ان هذا ينعكس على نشاطكما الخاص ويبرره ؟

ـ بشكل ما ، نعم .

فقالت بصوت راضٍ :

ـ هذا ما كنت اعتقده . ان الاهتمام الذي تظهرونه نحو الشباب ، هو في الحقيقة انانية .

ـ اواه ! ما أرخصه من مجون !

ـ ألا نتصرف دوماً بدافع الأنانية ؟

ـ لنقل ان هناك اشكالاً من الأنانية مستطابة نوعاً ما عند الآخرين .

لم يكن يريد على الأخص ان يناقش . كانت تنظف اسنانها بطرف عود ثقاب وكان يشعر انه مغتاظ . واسقطت العود على الأرض : « انت ايضاً تعتقد انني أخطأت إذ استلمت منصب السكرتيرة هذا ؟ » .

ـ لماذا تسألينني هذا ؟ انت تقومين به على احسن وجه .

ـ انني لا أتكلم عن مصلحة المنصب ، بل عن مصلحتي . أكنت مصيبة أم مخطئة ؟

في الحقيقة ، لم يكن له رأي معين . ولقد كانت نادين ستدهش ، رغم كل مجونها ، لو علمت إلى اي حد لا يبالي بمشاكلها . وقال بطرف شفتيه :

ـ بديهي انك كنت تستطيعين متابعة دراستك .

ـ كنت أريد ان أكون مستقلة .

ولقد كان استقلالاً غريباً ان تعمل في مجلة والدها . ولقد كانت ، في الحقيقة ، تجتهد في احتقار اهلها ، ان لم يكن في كراهيتها ، ولكنها ما كانت لتحتمل الا تكون حياتها حياتها : كانت بحاجة إلى ان تزدريهما وهي معهما . وقال في

رخاوة : « انت افضل قاضٍ » .

– إذن ، أترى انني كنت مصيبة ؟

– انت مصيبة في ان تفعلي ما يحلو لك . » كان يجيب رغماً عنه ، لأنه كان يعلم ان نادين تعبد الحديث عن نفسها ، ولكن أي حكم ، ولو كان رفيقاً ، يجرحها. وفي الحقيقة ، لم يكن هناك هذا المساء ما يريد الحديث عنه . كل ما كان يتمناه ، ان ينام معها في السرير .

– اتعرفين ماذا ستفعلين لو كنت لطيفة ؟

– ماذا ؟

– ستجتازين الشارع معي .

وغام وجه نادين ، وقالت في غضب : « عندما تراني ، فليس إلا من أجل هذا » .

– لم أكن أفكر بإهانتك .

فقالت متشكية : « كنت أريد ان نتحادث » .

– حسناً لنتحدث ! أتريدين كأس كونياك ؟

– تعرف جيداً ان لا .

– دائماً زاهدة هكذا كما لو انك من بنات الراهبات . ولا سيجارة ايضاً ؟

– كلا .

وطلب كونياك وأشعل سيجارة :

– عمّ كنت تريدين ان نتحادث ؟

لم يكن صوته ودياً . ولكن نادين لم تسمح لنفسها بالتردد :

– أريد ان اتسجل في الحزب الشيوعي .

– تسجّلي .

– ولكن ما هو رأيك ؟

فقال في حدة :

– ليس ثمة ما يقال . فعليك انت ان تعرفي ماذا تريدين ان تفعلي .

ـ لكني أتردد ، فليس الأمر بسيطاً جداً . لهذا كنت أريد ان نتحادث ...

ـ ان المناقشات لا تقنع احداً ابداً .

فقالت نادين التي احتد صوتها فجأة :

ـ مع أناس آخرين ، انت تتناقش . ومعي ، لا تريد ابداً . افترض ان هذا لأنني امرأة . فالنساء ، لا يصلحن إلا للحب .

فقال :

ـ انني أمضي أيامي في الثرثرة . وليتك تعرفين كيف ينتهي المرء إلى السأم من ذلك .

والحقيقة انه ما كان ليتهرب لو كان النقاش مع لامبير او فانسان . وكانت نادين بحاجـة الى المساعدة بقدر ما يحتاجان . لكنه تعلم على حسابه ان مساعدة امرأة يعني دوماً ان يتنـازل لها عن حق . إنهن يجعلن من أبسط عطاء وعداً . لذلك كان موقفه دفاعياً . وقال في جهد :

ـ ما أعتقده ، هو انك اذا دخلت الى الحزب فلن تبقي فيه طويلاً .

فقالت في حماسة :

ـ اواه ! ان وساوسكم كمثقفين ، ليست هي التي تشغلني . والشيء المؤكد ، هو انني لو كنت مسجلة ، لما أنـبني ضميري كما أنبني عندما كنا نرى اولئـك الأطفال في البرتغال يغطسون جوعاً .

والتزم الصمت . نعم ، ان التخلص مرة واحدة نهائية من تأنيبات الضمير كلها ، شيء مغرٍ حقاً . ولكن لو تسجل الانسان لا لشيء إلا لذلك ، فانـه سيفشل في ضربته حتماً .

وقالت نادين :

ـ بمَ تفكر ؟

ـ كنت افكر انك إذا كنت راغبة في التسجّل ، فيجب ان تفعلي ذلك .

ـ ولكن انت ، انك تفضل البقاء في «الاشتراكي الثوري الحر » على الدخول إلى الحزب الشيوعي ؟

فقال هنري :
– ما الداعي لأن أكون قد غيّرت رأيي ؟
– إذن ، انت تعتقد ان الشيوعية صالحة لي وليس لكَ ؟
– هناك اشياء كثيرة عندهم لا اقبلها : فإذا كنت تقبلينها ، فهيا .
فقالت :
– أرأيت ، انت لا تريد النقاش !
– انني أناقش .
– بطرف شفتيك . » وأضافت في تأنيب : « يبدو عليـــك انك سئم معي للغاية ! » .
– كلا ، انني لست سئماً . لكني هذا المساء منهك حقاً .
– انت دوماً منهك عندما تراني .
– لأنني اراكِ مساء ، انت تعرفين جيداً انه ليس لدي وقت حر في غير هذا الوقت .
وساد صمت قصير وقالت: « اسمع ،سأسألك شيئاً. لكنك بالطبع سترفض...
– ماذا ؟
– عطلتك الأسبوعية القادمة ، اقضها معي .
فقال :
– لكني لا استطيـع . » ومن جديد تصاعد الحقد إلى صدره . انها ترفض له هذا الجسد الذي يشتهيه ،وتطلب وقتاً واهتماماً .. «تعرفين جيداً انني لا استطيـع» .
– بسبب بول ؟
– بالضبط .
– كيف يستطيع رجل ان يقبل بأن يظل طوال حياته عبد امرأة لم يعـد يحبها ؟
– لم اقل لك ابداً انني غير حريص على بول .
– انت تشفق عليها وضميرك يوبخك . هذه التركيبات العاطفية كلها ، انهـــا

مقرفة للغاية . عندما لا يعود الانسان يسر برؤية الناس، يتركهم، هذا كل شيء.

فقال وهو ينظر إليها في وقاحة :

ـ على هذا الأساس يجب الا تطلبي شيئاً من احد . وعلى الأخص ألا تسخطي إذا أجابوك : كلا .

ـ ما كنت لأسخط ابداً لو قلت لي بصراحة : انني لا ارغب في ان اقضي معك هذه العطلة ، بدل ان تحدثني عن واجباتك .

وضحك هنري ضحكة صغيرة وفكر : « كلا ، لن أقع هـــذه المرة في فخ الصراحة : انها تطلب الحقيقة ، وستنالها » . وقال بصوت عالٍ : « لنفرض انني أقول لك هذا بصراحة ؟ » .

ـ لن يكون عليك ان تقوله لي مرتين .

وتناولت من على الطاولة حقيبتها واغلقتها في حركة جافية ، وقالت : « لست من نوع العلق ، انني لا أتشبث بأحد . وعلى كل كن مطمئناً : انني لا احبك » . وتفرست في وجهه لحظة في صمت : « وكيف يمكن للانسان ان يحب مثقفاً ! ان لكم ميزاناً مكان قلبكم ومخاً صغيراً في اسفل مؤخرتكم » . وختمت كلامها :«وفي الحقيقة ، انتم جميعاً فاشيون » .

ـ انني لا أتابعك .

ـ انتم لا تعاملون الناس ابداً على قدم المساواة ، وانتم تتصرفون بهم حسب ضميركم الصغير . ان كرمكم ليس إلا امبريالية . ونزاهتكم ليست إلا عجرفة .

كانت تتكلم بلا غضب ، بشكل حالم . ونهضت وضحكت ضحكة صغيرة مقتضبة .

ـ اواه ! لا تأخذ هذه السحنة المتألمة . انك تضجر من رؤيتي ، وفي الحقيقة هذا لم يعد يستهويني : ليست هناك مأساة . سنتحادث عندما نلتقي . دون حقد .

واختفت في ليل الشارع ، وطلب هنري الحساب . لم يكن راضياً عن نفسه . « لماذا كنت فظاً معها هكذا؟ » . كانت تغيظه ، لكنه كان يحبها كثيراً . وقال في نفسه : « إنني أغتاظ هذه الأيام أكثر مما ينبغي . كل شيء يغيظني : ثمة شيء

ما لا يسير على ما يرام » . وافرغ كأس الخمر . لا عجب : إنه يمضي أيامه في فعل اشياء لا يجب ان يفعلها ، ويعيش من الصباح الى المساء رغماً عنه . « وكيف وصلت إلى هنـــا ؟ » . للوهلة الأولى ، لم يكن ما اقترحه على نفسه غداة التحرير يبدو طموحاً أكثر مما ينبغي : ان يستعيد حياته ما قبل الحرب ، وان يغنيها ببعض النشاطات الجديدة . كان يظن انــــه سيستطيع ان يدير « الأمل » وان يعمل في « الاشتراكي الثوري الحر » دون ان يكف من اجل ذلك عن الكتابة ولا عن ان يكون سعيداً : لكنه لم يكن يستطيع . لماذا ؟ لم تكن المسألة مسألة وقت . لو اراد حقاً ، لتدبر أمره بعـــد ظهر هذا اليوم ليتسكع في الشوارع او ليذهب الى بيت ماركوني . والآن بالضبط ، لديه وقت ليعمل ، ويستطيع ان يطلب ورقاً من الخادم ، ولكن هذه الفكرة كانت تقرفه . كانت نادين تقول : « مهنة غريبة ! » . وكانت على حق . كان الروس ينهبون برلين ، وكانت الحرب تنتهي وأخرى تبدأ . كيف يمكنه ان يلتهي بكتابة قصص لم تحدث ابداً ؟ وهز كتفيه : هذا ايضاً من نوع الاعذار التي يتذرع بها عندما لا يسير العمل . كانت الحرب تهدد ، ثم اندلعت الحرب ، وكان لا يزال يتلهى برواية قصص : لمَ ليس الآن ؟ وخرج من المقهى . كان يتذكر ليلة أخرى ، ليلة ضباب ، تنبأ فيهـا في نفسه ان السياسة ستأكله : لقـد تم الأمر وأكلته ، ولكن لمَ لم يدافع عن نفسه بشكل افضل ؟ من اين ينبع هـذا الجفاف الداخلي الذي يشله ؟ لماذا يجد ذاك الفتى الذي يمسك بمخطوطة بين يديه أشياء يقولها ، وهو لا ؟ كانت له اثنتان وعشرون سنة واشياء يقولها ، وكان يمشي في هذه الشوارع وهو يحلم بكتابة : الكتاب .. وأبطأ خطاه. انها لم تعد الشوارع نفسها في الماضي ، كانت باهرة النور وكانت تشق عاصمة العالم . اما اليوم ، فإن بصيص مصباح يثقب الليل من بعيد إلى بعيد فيلاحظ المرء عند ذاك ان الرصيف ضيق وان المنازل متداعية. لقد انطفأت مدينة النور . واذا ما أضاءت من جديـــد ذات يوم ، فستكون عظمة باريس كعظمة العواصم الساقطة : البندقيـــة ، براغ ، و « بروج [1] » الميتة . ليست

١ ـ عاصمة فلاندرا وهي احد اقاليم بلجيكا ، كانت عاصمة ذات شأن في القرون الوسطى . « المترجم »

الشوارع نفسها ، ولا المدينة نفسها ، ولا العالم نفسه . كان هنري قد وعد نفسه ليلة الميلاد ان يعبر بالكلمات عن عذوبات السلم : لكن هذا السلم كان بلا عذوبة. كانت الشوارع متجهمة ، وجسد نادين كئيباً . ولم يكن لدى هذا الربيع شيء يقدمه له : فالسماء الزرقاء ، والبراعم الخاضعة لروتين الفصول ، كانت بلا وعد . « ليتني أعبر عن طعم حياتي » . لم يعد لها طعم لأنه لم يعد للأشياء معنى . ولهذا لم يعد للكتابة معنى . في هذه النقطة كانت نادين على حق : فهو لا يستطيع ان يصف الأضواء الصغيرة على طول نهر « التاج » ما دام يعلم انها تضيء مدينة تغطس جوعاً والناس الذين يغطسون جوعاً ليسوا ذريعة للعبارات . والماضي لم يكن إلا سراباً : فماذا يبقى بعد ان يتبدد السراب ؟ تعاسة ، وأخطار ، وبقع غير واضحة ، وسديم . لقد خسر هنري عالماً : ولم يأخذ شيئاً بديلاً عنه . لم يكن في مكان ، ولا يملك شيئاً ، ولم يكن شيئاً : انه لا يستطيع ان يتكلم عن شيء . وفكر : « حسناً ! ليس عليّ إلا ان أسكت . اذا اخذت حقاً موقفي ، سأكف عن ان أبعد . ربما سأفعل بكل رضى السخرات التي انا مرغم على فعلها » . وتوقف أمام « البار الأحمر » . ولمح من خلال الزجاج جوليان جالساً لوحده على مقعد عالٍ . ودفع البـــاب وسمع همساً باسمه . انه بالأمس فقط كان سيتأثر لذلك . لكنه بينما كان يشق طريقه بين جمهرة الزبائن الوطنيين ، لام نفسه على انـه ترك ذاته تخدع بسراب حقير آخر ، ان يكون كاتباً كبيراً في غواتيمالا او هندوراس ، يا له من نصر ساخر ! في الماضي كان يعتقد انه يسكن مكاناً ممتازاً من العالم تنتشر منه كل كلمة عبر الأرض اجمع لكنه الآن يعرف ان جميع كلماته كانت تموت عنـــد قدميه .

وقال جوليان :

ـ فاتك الوقت !

ـ لماذا فاتني الوقت ؟

ـ تحطيم الفك ، لقد خسرت رؤيته . » وأضاف : « اواه ! لا شي يذكر . انهم ما عادوا يعرفون حتى ان يحطموا فك بعضهم البعض بشكل نظيف » .

– بأي شأن ؟

فقال جوليان بصوت غير واثق :

– نعت شخص بيتان بـ « الماريشال » . » وأخرج من جيبه قارورة مسطحة: « أتريد ويسكي حقيقة ؟ » .

– أريد .

فقال جوليان :

– مدموازيل ، كأساً ثانية وصودا ثانية ، من فضلك .

وملأ كأس هنري حتى نصفه . وقال هنري :

– عظيم ! » وجرع جرعة كبيرة : « كنت بحاجة إلى مقوٍ صغير : كان يومي حافلاً جداً ، هذا جنون ! ألم تلاحظ كيف يشعر الانسان بنفسه فارغاً بعد يوم حافل تماماً ؟

– الأيام حافلة دوماً ، دون ان تستثني ساعة واحدة : اما الزجاجات ، فشيء مختلف لسوء الحظ .

ولمس جوليان الدفتر الذي وضعه هنري على المنضدة : « ما هـــذا ؟ وثائق سرية ؟ » .

– رواية لفتى صغير .

– قل لفتاك الصغير ان يصنع منها ورقاً لتلف به أخته الصغيرة شعرها . لو أصبح صاحب مكتبة ، مثلي ، فهذه مهنة رائعة . الاحظت : اذا بعت زبدة أو مدافع للألمان، فإنهم يسامحونك ، ويقبلونك ، ويقلدونك وساماً . ولكن اذا كتبت كلمة زائدة هنا او هناك ، عندئذ يسددون البنادق ! نار ! يجب ان تكتب مقالاً عن هذا . .

– انني أفكر بذلك .

– انت تفكر بكل شيء ، أليس كذلك؟ » وأفرغ جوليان قارورة الوسكي في الكأسين : « انني لأتصور انك تستطيع ان تملأ أعمدة واعمدة لتطالب بالتأميم ! عمل وعدالة : أتعتقد ان هذا سيكون مضجراً ؟ وتأميم الأقفية ، متى هذا ؟ » .

ورفع كأسه : « نخب مذابح برلين ! ».

– مذابح ?

– ماذا تظن انهم يفعلون هذه الليلة في برلين ، القوزاق الطيبون ? مذابح واغتصاب ! انت تتحدث عن ماخور عام . انه النصر ، عجباً ! نصرنا . ألا تشعر بالفخر ?

– آه ! لن تجعلني انت ايضاً اغوط على السياسة !

فقال جوليان :

– آه ! كلا . خراء على السياسة !

فقال هنري :

– اذا كنت تريد ان تقول ان هـــذا العالم ليس ظريفاً جداً ، فأنا أفكر مثلك .

– انا ايضاً. انظر إلى هذا الماخور:انه يدعى باراً . حتى السكارى لا يتحدثون إلا عن اعلاء فرنسا . والنساء ! ولا امرأة واحـــدة فرحة في الحي ، كلهن مزعجات .

ونزل جوليان عن مقعده : « آه ! تعال إذن إلى مونبارناس معي . هناك على الأقل نجد فتيات لطيفات . ربما لسن حقيقيات ، فتيات حقيقيات ، لكنهن مرضيات وغير مزعجات مقابل فلسين » .

فهز هنري رأسه : « انني عائد لأنام » .

فقال جوليان في قرف :

– انت ايضاً لست ظريفاً . كلا . بالنسبة لما بعد الحرب ، هذا لم ينجح حقاً !

فقال هنري :

– هذا لم ينجح ! » وتبع بعينيه جوليان الذي كان يمشي في عزة نحو الباب . هو ايضاً ، لم يكن ظريفاً ، بل انه ليعتبره خشناً ولكن بعد كل شيء، لماذا يجب ان يكون ما بعد الحرب ظريفاً بشكل خاص ? نعم ، تحت الاحتلال ، كان جميلاً حقاً : قصة قديمة . كفى دندنة بأغنية الغد . فالغد قد أصبح اليوم، ولم يعد

قابلًا ليُتغنى به . في الحقيقة ، لقد دمرت باريس ومات جميع الناس في الحرب .
وقال هنري في نفسه : « انا ايضاً » ثم ماذا ؟ ليس من المزعج ان يموت إذا تخلى عن التظاهر بأنه يعيش . انتهت الكتابة ، انتهت الحياة . شعار واحد : العمل . العمل مع الجماعة ، دون الاهتمام بالذات ، والزرع ، والزرع ايضاً ، دون جني ابداً . العمل ، الاتحاد ، الخدمة ، اطاعة دوبروي ، الابتسام لسامازيل . سوف يتلفن : « الجريدة لكم » . الخدمة ، الاتحاد ، العمل . وطلب كأس كونياك مضاعفاً .

الفصل الرابع

ان استمر في الحياة ، ان اسكن في الجانب الآخر من حياتي: بعد كل شيء، هذا مريح جداً . فلن انتظر شيئاً ، ولن اخشى شيئاً ، والساعات كلها تشبه ذكريات . هذا ما اكتشفته اثناء غياب نادين : يا لها من راحة ! لم تعد ابواب الشقة تصفق ، وصرت استطيع ان أتحادث مع روبير دون ان أهمل احداً وان أسهر إلى ساعة متأخرة ليلاً دون ان يقرع بابي . وكنت استفيد من ذلك. كنت أحب ان أفاجىء الماضي في اعماق كل لحظة . كانت تكفي دقيقة واحدة من الأرق ، كانت النافذة المفتوحة على ثلاث نجوم تبعث فصول الشتاء كلها،والأرياف المتجمدة ، وعيد الميلاد . وفي ضجيج سلال المهملات التي كانت تحرّك ، كانت جميع صباحات باريس منذ طفولتي تستيقظ . وكانت دوماً الصمت القديم نفسه في مكتب روبير بينما هو يكتب ، محمر العينين ، أصم ، عديم الحساسية . وكم كان أليفاً عليّ حفيف تلك الأصوات المستثارة ! كانت لهم وجوه جديدة ، وهم يدعون اليوم لونوار ، سامازيل . لكن رائحة التبغ الرمادي ، تلك الأصوات العنيفة ، تلك الضحكات المتساهلة ، كنت أتعرفها . عند المساء ، كنت أسمع إلى حكايا روبير ، وانظر إلى طرفنا الساكنة ، وكتبنا ولوحاتنا ، وأقول في نفسي ربما كان الموت اكثر رأفة مما كنت أظن .

كل ما هنالك ، انه كان يجب ان أحبس نفسي في قبري . ولكن ها نحن نصادف في الشوارع المبللة رجالاً في بيجامات مخططة : اوائل المبعدين يعودون .

وعلى الجدران ، وفي الصحف ، كانت ثمة صور تكشف لنا اننا لم نستشعر ، طوال هذه السنوات ، ما تعنيه كلمة « فظاعة » . كانت أموات جدد يأتون ليزيدوا في حجم جمهرة الأموات الذين تنم عليهم حيواتنا . وفي مكتبي ، كنت أرى بعضاً ممن بقوا على قيد الحياة لا يستطيعون، هم ، ان يستريحوا في الماضي « أريد كثيراً لو أنام ليلة واحدة دون ان أتذكر » . كانت تتضرع تلك الفتاة الكبيرة ، التي لا تزال غضة الخدين، ولكن التي ابيض شعرها . كنت، عادة ، أعرف كيف ادافع عن نفسي . فجميع المصابين بالعصاب الذين كبتوا ، اثناء الحرب ، جنونهم ، يثأرون اليوم ثأراً مسعوراً ، ولم أكن أخصهم إلا باهتمام مهني . ولكن امام هؤلاء العائدين ، كنت أشعر بالخجل : الخجل من انني لم أتألم بما فيه الكفاية ، من انني هنا سالمة ، مستعدة لإرشادهم من علو صحتي . آه ! كانت الأسئلة التي طرحتها على نفسي تبـــدو لي باطلة : مهما كان مستقبل العالم ، فلا بد من مساعدة هؤلاء الرجال والنساء على النسيان ، على الشفاء . والمشكلة الوحيدة هي انني مهما كنت آخذ من لياليّ ، فإن نهاراتي قصيرة جداً .

وزاد الطين بلة عودة نادين . كانت تجر وراءها كيس بحـــار كبيراً مليئاً بالمقانق التي بلون الصدأ ، وبلحم الخنزير ، والسكر ، والقهوة ، والشوكولا . ومن حقيبتهـــا أخرجت حلويات دسمة بالسكر والبيض ، وجوارب ، وأحذية ، ومناديل ، وأقمشة ، وعرقاً . وراحت تقول في فخر : « اعترفا بأنني عرفت كيف أتدبر أمري ! » . كانت تلبس تنورة مخططة زاهية ، وقميصاً أحمر جيد الخياطة ، ومعطفاً من الفرو الرمادي ، وحذاء من جلد السمك . وقالت لي وهي تلقي بين ذراعي بنسيج أزغب غني بالألوان الخريفية : « اسرعي في خياطة ثوب لـك ، يا أمي المسكينة ، فأنت على كل حال مهملة في لبسك » . وطوال يومين وصفت لنا البرتغال بدقة . كانت لا تتقن الحديث ، وترسم بحركات كبيرة جملًا لا تستطيع كلماتها ان تملأها . وكان في صوتها حـدة قلقة : كأنها بحاجة لأن تبهرها كي تسر بالتذكر . وتفحصت البيت في رصانة .

ـــ ألا تدركين : هذه النوافذ ! هـذه الأرضيات ! كلا ، الآن والزبائن

يهجمون ، ما عدت تستطيعين ان تتولي كل شيء بنفسك .

كان روبير يلح ، هو أيضاً . وكنت ، انا ، أنفر قليلاً من فكرة ان يخدمني احد ، لكن نادين كانت تقول ان هـذه وساوس بورجوازية صغيرة . وبين عشية وضحاها وجـــدت لي امرأة لتدبير شؤون البيت ، شابة متقنة ، نشيطة تدعى ماري . وقد اضطررت على كل حال إلى طردها من الأسبوع الأول . كان روبير قد خرج ، فجأة ، كما يحدث له غالباً هذه الأيام ، وقد ترك أوراقه متناثرة على الطاولة . ولما سمعت صوتاً في مكتبه فتحت الباب قليلاً ورأيت ماري محنيـة على أوراق مخطوطة .

— ماذا تصنعين ؟

فقالت في هدوء :

— انني أرتب . انني أنتهز فرصة غياب السيد .

— قلت لك ألا تمسي هذه الأوراق ابداً . وما كنت ترتبين ، بل تقرئين !

فقالت في أسف :

— انني لا أستطيـع قراءة خط السيد . » وابتسمت لي . كان لها وجه صغير كالح لا توقظه ابتساماتها : « غريب جداً ان أرى السيد يكتب طوال النهـار : هل يخرج هذا كله من رأسه ؟ كنت أريد ان أرى ماذا يشبه هـذا على الورق . لم أفسد شيئاً » .

وترددت ، وفي النهاية لم يطاوعني قلبي . ان تمضي يومها في التنظيف والترتيب ، يا للسأم ! وعلى الرغم من سحنتها المتناومة ، لم تكن تبدو بلهاء ، وكنت أفهم ان تحاول تسلية نفسها . وقلت :

— حسناً . لكن لا تعاودي . » وأضفت : « أتستهويك القراءة ؟ » .

فقالت ماري :

— لا يتاح لي الوقت لها .

— هل انتهى يومك الآن ؟

— في البيت يوجد ستة اطفال ، وانا البكر .

وقلت في نفسي : « من المؤسف الا تستطيع تعلم مهنة حقيقية » . وكنت افكر بشكل مبهم ان أحدثها عن ذلك ، لكني ما كنت أراهـا مطلقاً وكانت شديدة التحفظ .

ونبهتني نادين بعد بضعة أيام من عودتها :

ـ لامبير لم يتلفن . لكنه يعلم جيداً ان هنري قد عاد ، وانا ايضاً .

ـ لقد كررت عليه عشرين مرة قبل رحيلك انك انت التي ستتصلين به : انه يخشى ان يزعجك .

ـ اواه ! إذن كان حرداً ، فهذا شأنه . لكنك ترين انه يستطيع ان يستغني عني .

ولم أجب ، وأضافت بلهجة عدائية :

ـ كنت اريد ان اقول لك : لقد اخطأت كثيراً بخصوص هنري . ان أقع في حب رجل مثله ، انا لم أخلق لذلك ! انه واثق جـــداً من نفسه . » وختمت كلامها في استياء : « ثم انه ممل » .

يقيناً لم تكن تشعر بأي حنان نحوه . ولكنها في الأيام التي كانت ستراه فيها، كانت تتبرج بعناية خاصة جداً . وعندما كانت تعود ، تكون أشد شراسة مما هي عليه عادة . وهذا لا يعني شيئاً قليلاً . فكل ذريعة صالحة عندها لتصاب بنوبات غضب . وذات صباح ، جاءت إلى مكتب روبير وهي تهز جريدة في سيماء مـن انتقام :

ـ انظر هذا !

على الصفحة الأولى من « الغد » كان سكرياسين يبتسم لروبير الذي كان ينظر حوله في سحنة حانقة . وقال وهو يمسك بالمجلة الأسبوعية :

ـ آه ! لقد نالوني ! » وقال لنادين : « كان هذا في تلك الليلة ، في «العزبة» . لقد قلت لهم ان يغربوا ، لكنهم نالوني !

فقالت بصوت يخنقه الغضب :

ـ وقد أخذوك مع هذا الشخص القذر . لقد فعلوا ذلك عمداً .

فقال روبير :

ـ سكرياسين ليس بالشخص القذر .

ـ جميع الناس يعرفون انه مباع لأميركا . هذا مقرف . ماذا ستفعل ؟

فهز روبير كتفيه : « ماذا تريدين ان افعل ؟ » .

ـ ارفع دعوى . لا يحق لهم ان يصوروا الناس رغماً عنهم .

كانت شفتا نادين ترتجفان . كانت تكره دوماً ان يكون ابوها رجلاً معروفاً. عندما كان استاذ جديد او فاحص يسألها : « انت ابنة روبير دوبروي ؟ » كانت تلزم الصمت في شراسة . ومع انها فخور به ، لكنها كانت تريـــد ان يكون مشهوراً دون ان يعرف ذلك .

وقال روبير :

ـ الدعوى ستثير ضجة اكثر مما ينبغي . كلا ، ليس لدينا أسلحـة . » ورمى الجريدة : « لقد قلت شيئاً صائباً تماماً في تلك الليلة ، بأن العري بالنسبة لنا يبـدأ من الوجه » .

كنت دوماً أدهش للدقة التي كان يذكرني فيها بعبارات أكون قد نسيتها تماماً . وكان يسبغ عليها عادة من المعنى اكثر مما اعطيتها انا . كان يفعل ذلك دوماً ، مع جميع الناس .

وتابع :

ـ العري يبدأ من الوجه ، والخلاعة مع الكلمة . إنهم يحكمون بأن علينا ان نكون تماثيل أو اشباحاً . وما ان يفاجئونا أحيـاء من لحم وعظم حتى يتهمونا بالغش . ولهذا فإن أبسط حركة تصبح بسهولة كبيرة فضيحة : الضحك ، الكلام، الأكل ، كلها أنواع من الجرم المشهود .

فقالت نادين التي كان صوتها يأخذ بالغضب :

ـ حسناً رتبوا أموركم بحيث لا تتركون احداً يفاجئكم .

فقلت :

ـ إسمعي لا داعي من ان نجعل من الأمر مأساة .

- اواه ! انت ! بالتأكيد ! لو داسوا على رجلك ، لفكرت بأنهم داسوا على رجل هي بالصدفة رجلك .

وبالفعل ، لم تكن تعجبني أيضاً هذه الضجة كلها التي تقام حول روبير . فعلى الرغم من انـه لم ينشر شيئاً منذ ١٩٣٩ – باستثناء مقالات في « الأمل » – كانوا يتحدثون بضجة أكثر بكثير مما قبل الحرب . وقد طلبوا اليه في حماسة ان يسعى إلى دخول الأكاديمية وان يطالب بوسام جوقة الشرف . وكان الصحفيون يلاحقونه ، وينشرون عنه أكاذيب كثيرة . وكان يقول لي : « ان فرنسا تتباهي باختصاصاتها المحلية : الثقافة والخياطة [١] » . وكان يغتاظ هو ايضاً من تلـــك الضجة الباطلة حوله ، ولكن ما العمل؟ ومهما كنت اشرح لنادين اننا لا نستطيع شيئاً ، كانت تصاب بنوبة في كل مرة تقرأ فيها شائعة عن روبير او ترى في الصحف صورة له .

هنا قد عادت الأبواب تصطفق من جديد في البيت ، والأثاث يرقص ، والكتب تنهار في فرقعة على الأرض . وكانت هذه اللهجة تبدأ من ساعة مبكرة . وكانت نادين تنام قليلاً ، إذ كانت تعتبر ان النوم ضياع للوقت ، على الرغم من انهـــا ما كانت تعرف كثيراً ماذا تفعل بوقتها . وكان كل شاغل يبـــدو لها لا مجدياً على حساب كل الشواغل التي تضحي بها من أجله : لذلك لم يكن قرارها يقر على شاغل معين . وعندما كنت أراها جالسة ، متجهمة السحنة ، امام آلة الكتابة ، كنت أسألها : « أتتقدمين ? » .

– افضل لي لو درست كيميائي ، فسوف أرسب .

– ادرسي كيمياءك .

– ولكن لا بد للسكرتيرة أن تعرف الضرب على الآلة الكاتبة . » وكانت تهز كتفيها : « ومن العبث تماماً ان أحشو رأسي بالمعادلات . فأية علامة لهـــذه الحياة الحقيقية » .

– اتركي كيمياءك اذا كانت تسبب لك مثل هذا الضجر .

– قلت لي عشرين مرة انه يجب ألا أتصرف كانسان متقلب الرأي .

---

١ ـ بين الكلمتين في الفرنسية جناس لفظي تستحيل ترجمته . « المترجم »

كانت بارعة في فن تحويل جميـع النصائح التي اثقلت بها حداثتها ضدي .
– هناك حالات من الحماقة العناد فيها .
– ولكن لا تهلعي ! انني لست عاجزة إلى الحد الدي تتصورين . سوف أنجح في ذلك الامتحان .
وبعد ظهر ذات يوم ، قرعت باب غرفتي . وقالت : « جاء لامبير لرؤيتنا » . فقلت :
– لرؤيتك .
– انه سيرحل ثانية الى المانيا بعد غد . انه حريص على توديعك . » وأضافت في حيوية شاكية : « تعالي إذن . ليس لطيفاً ألا تأتي . » .
وتبعتها الى غرفة الجلوس . لكني كنت أعرف ان لامبير في الحقيقة لا يحبني مطلقاً . بلا شك – وليس بلا حق – كان يعتبرني مسؤولة عن كل ما يجرحه لدى نادين : عدوانيتها ، نفاقها ، عنادها . وافترض ايضاً انه يميل إلى ان يبحث لنفسه عن ام في امرأة اكبر سناً منه وأنه يتصلب امام هذا الاغراء الصبياني . وكان وجهه ، ذو الأنف الشامخ ، والخدين الرخوين قليلاً ، ينم عن قلب وجسد تسكنهما احلام خضوع .
وقالت نادين في احتداد :
– الا تعرفين ما يرويه لي لامبير ؟ ان الأميركان لم يعيدوا إلا مبعداً واحداً من أصل كل عشرة ، فهم يتركونهم يموتون في مكانهم .
فقال لامبير :
– في الأيام الأولى ، مات نصفهم لأنهم حشوهم بالمقانق والمحفوظات . امـا الآن فيعطونهم حساء في الصباح وفي المساء قهوة مع قطعة خبز . وهم يموتون بالتيفوس كالذباب .
فقلت :
– يجب ان يُعرف هذا . يجب الاحتجاج .
– بيرون سيفعل ذلك . لكنه يريد وقائع محددة ، وهـذا صعب ، لأنهم

يمنعون الصليب الأحمر الفرنسي من زيارة المعسكرات . ولهذا السبب بالضبط انا راحل ثانية .

فقالت نادين :

ــ خذني معك .

فابتسم لامبير : « ما كنت لأطلب اكثر من هذا » .

فقالت نادين بصوت غاضب :

ــ هل قلت شيئاً سخيفاً ؟

فقال لامبير :

ــ تعرفين جيداً ان هذا مستحيل . انهم لا يسمحون بالمرور إلا للمراسلين الحربيين .

ــ هناك نساء مراسلات حربيات .

ــ لكنك لست منهن . والآن قد فات الأوان ، وما عادوا يقبلون احداً .» وأضاف : « على كل حال ، لا تأسفي . انها ليست مهنة اوصيك بها » .

كان يتحدث من اجل نفسه ، لكن نادين ظنت انها أحست بشيء من الحماية في صوته : « لماذا ؟ ان ما فعلته انت ، استطيع ان افعله انا ، أليس كذلك؟» .

ــ أتريدين ان تري الصور التي أتيت بها ؟

فقالت في شره : « أرني » .

وألقى بالصور على الطاولة . كنت أود ان لا أنظر إليها ، لكن لم يكن لدي خيار . صور مخازن الجثث ، هذا محتمل ، فهي كثيرة جــداً ، ثم كيف ارثي لعظام ؟ لكن ما العمل بأنفسنا ونحن تجاه صور أحياء ؟ جميع هذه العيون ...

وقالت نادين :

ــ لقد رأيت أسوأ منها بكثير .

واستعاد لامبير الصور دون ان يجيب وقال بصوت مشجع : « تعرفك انك إذا كنت راغبة في كتابة ريبورتاجات ، فهذا لن يكون صعباً . ليس عليك إلا ان تكلمي بيرون بشأنها . ففي فرنسا بالذات ، توجد كمية من التحقيقات الممكنة» .

فقاطعته نادين : « ما اريده هو ان أرى العالم كما هو . وبعد ذلك ، صف الكلمات هذا ، لا يستهويني » .

فقال لامبير في حرارة :

— انا واثق انك ستنجحين . فعندك جسارة . وانت تعرفين كيف تجعلين الناس يتكلمون ، وتعرفين كيف تتدبرين أمرك ، وسوف تدخلين إلى اي مكان. اما فيما يتعلق بتسويد الورق ، فهذا ستتعلمينه بسرعة .

فقالت في عناد :

— كلا . عندما يكتب الانسان ، لا يقول الحقيقة ابداً . خذ ريبورتاج بيرون عن البرتغال : ان كل شيء فيه مكتوب بشكل جانبي : وريبورتاجاتك ، انا واثقة انها مماثلة . انني لا اؤمن بها . لهذا أريد ان أرى الأشياء بعيني انا ، لكني لن احاول ان اجعل منها سلطة وأبيعها .

كان وجه لامبير قد غام . وقلت في حدة : « انني اجد مقالات لامبير مقنعة للغاية ، فمستشفى « داشو » ، اشعر انني قد زرته بنفسي » .

فقالت نادين بصوت نافد الصبر : « ماذا تثبت مشاعرك هذه ؟ » . وساد صمت قصير وسألت : « هل ستأتي ماري بالشاي ، نعم ام خراء ؟ » . ونادت في حزم : « ماري » .

وظهرت ماري على عتبة الغرفة في قميص العمل الأزرق ونهض لامبير مبتسماً :

— ماري — آنج ! ماذا تفعلين هنا ؟

واحمرت كلها واستدارت على عقبيها . فأوقفتها : « تستطيعين ان تجيبي » .

فقالت وهي تنظر إلى لامبير في ثبات :

— انني مدبرة المنزل .

كان لامبير قد احمر كثيراً هو الآخر وراحت نادين تتفرس فيهما في شك : « ماري — آنج ؟ اتعرفها ؟ ماري — آنج من ؟ » .

وساد صمت ثقيل وقالت فجأة : « ماري — آنج بيزيه » .

وشعرت بالغضب يصعد إلى خدي : «الصحفية؟» . فهزت كتفيها ، وقالت :

ـ نعم . انني ذاهبة فوراً . لا تتحملي مشقة طردي .

ـ أجئت تتجسسين علينا في بيتنا؟ كنذالة ،لا يمكن ان تفعلي أفضل من هذا!

فقالت وهي ترمي لامبير بنظرة :

ـ لم أكن اعلم انك تعرف صحفيين .

وصاحت نادين :

ـ ماذا تنتظرين لصفعها ! لقد سمعت احاديثنا كلها ، ونقبت في كل مكان ، وقرأت رسائلنا ، وسوف تروي كل شيء لجميع الناس ...

فقالت ماري آنج :

ـ اواه ! لن تخيفني بصوتك العالي .

وأتيح لي الوقت بالضبط لأردع نادين بأن أمسكت بها من معصميها . كانت ستستطيع بسهولة ان تلقي ماري ـ آنج ارضاً . وكانت الجرأة هي التي تنقصها فقط ، معي ، لتتملص بانتفاضة . وسارت ماري ـ آنج نحو الباب وتبعتها . وفي الممر سألتني في هدوء :

ـ ألا تريدين على كل حال ان أنهي مسح النوافذ ؟

ـ كلا . ما أريده هو ان اعرف أية صحيفة ارسلتك .

ـ ولا صحيفة . لقد جئت من نفسي. لقد فكرت انني سأكتب مقالاً جميلًا يباع بسهولة .» وأضافت بصوت محترف : « أنت تعرفين ، ما يسمونه ربورتاجاً حياً » .

ـ نعم . حسناً ! سوف أخطر الصحف ، ومن سيشتري سَلَطتك ، فسوف يكلفه هذا غالياً .

ـ أواه ! لن احاول حتى ان ابيعه ، لقد فشلت العملية الآن .

وخلعت قميصها الأزرق وارتدت معطفها : « كل ما ربحته هو ثمانية ايام من الخدمة . انني أكره تدبير المنزل ! » ، اضافت ذلك في يأس .

ولم اجب بشيء ، لكنها شعرت بلا شك بغضبي يتراخى ، لأنها تجرأت على ابتسامة صغيرة ، وقالت بصوت فتاة صغيرة :

« أتعرفين ، انني لم اسع ابـدأً إلى كتابة مقال فاضح . كنت أبحث فقط عن جو » .

– ألهذا نقّبت في اوراقنا ؟

– اواه ! كنت أنقب للذتي الخاصة ! » وأضافت بصوت حرد :

« يقيناً ، من السهل عليك ان تشتميني ، فأنا مخطئة . . لكن أتعتقدين ان من المريح ان يشق الانسان طريقه ؟ انت ، انك زوجة شخص مشهور ، والأمور سهلة بالنسبة لك . » وقالت « اسمعي ، اعطيني فرصة : سآتيك به غداً ، هـــذا المقال ، وستشطبين كل ما لا يعجبك ؟ » .

– ثم ستنشرينه دون حذف !

– نعم ، انني اقسم لـك . اذا اردت ، استطيع ان اعطيك أسلحة ضدي : اعترافاً صريحاً ، موقعاً ، وستمسكين بي بين يديك . قولي ، اقبلي ! لقد غسلت لك الصحون . وكنت شاطرة على كل حال ، أليس كذلك ؟

– ولا زلت .

وترددت . لو رُويت لي هذه القصة ، لكنت جررت في خيـالي الوقحة التي انتهكت حياتنا الخاصة من شعرها وألقيت بها من أعلى الدرج . ولكن ها هي ، هنا ، فتاة صغيرة ، سوداء ، كلها عظام ، بدون جمال وبها رغبة عظيمة في ان تشق طريقها . وأخيراً قلت :

– ان زوجي لا يعطي مقابلات ابداً . لن يقبل .

– اسأليه : ما دام العمل قد تم . . » وأضافت بسرعة : « سأتلفن غداً صباحاً . انت غير حاقدة عليّ ، أليس كذلك ؟ انني أكره ان يُحقد علي . » وضحكت ضحكة صغيرة مضطربة : « انا لا أستطيـع ابداً ان احقد على احد . » .

– لست اعرف تماماً ايضاً !

– وهذا ايضاً : لقد طفح الكيل ! » . صرخت بذلك نادين وهي تبرز مـن الممشى مع لامبير : « تتركينها تنشر مقالاً ! تبتسمين لها ! لهذه الجاسوسة . . » .

كانت ماري – آنج قد فتحت باب الدخول الذي سرعان ما صفقته وراءها .

ـ لقد وعدت بأن تترك لي مقالها لاراه .

فكررت نادين بصوت حاد :

ـ هذه الجاسوسة ! لقـــد قرأت يومياتي ، وقرات رسائل ديغو ، و .. ،

وتحطم صوتها . كانت نادين تنتفض بغضب وحشي كثورات غضبها في طفولتها : « ونحن نكافئها ! كان يجب ضربها ! » .

ـ لقد اثارت شفقتي .

ـ شفقة ! انت دوماً تشفقين على جميـع الناس ! بأي حق ؟ » كانت تنظر إلي في نوع من الحقد : « في الحقيقة هذا احتقار . فليس بينك وبين الناس ابداً حدود حقيقية » .

ـ هدّئي نفسك ، فليس الأمر خطيراً جداً .

ـ اواه ! اعرف ، انني مخطئة ، بالطبـع . انا ، انك لا تعذرينني ابداً . انت على حق تماماً ! انني لا أريد شفقتك !

فقال لامبير :

ـ انها فتاة طيبة ، أتعرفين . وصولية قليلاً لكنها لطيفة .

ـ حسناً ! اذهب إذن لتهنئها انت ايضاً . اركض .

وفجأة ركضت نادين إلى غرفتها وصفقت الباب وراءها في قرقعة .

وقال لامبير :

ـ انا آسف .

ـ انها ليست غلطتك حقاً .

ـ ان للصحفيين ، اليوم ، اخلاق الوشاة الذين يعملون لحساب البوليس . انني افهم ان تكون نادين غاضبة . فأنا ايضاً ، مكانها ، كان دمي سيفور .

لم يكن بحاجة لأن يدافع عنها ضدي ، لكنه كان يصدر عن نية طيبـــة . وقلت : « اواه ! انني افهم ايضاً » .

فقال لامبير :

ـ حسناً ! انني ذاهب .

فقلت :

ـ رحلة موفقة . » وأضفت : « يجب ان تأتي لرؤية نادين اكثر مما تفعل . انها تشعر بصداقة كبيرة نحوك ، انت تعرف » ...

فابتسم في حرج : « هذا ما لا يبدو مطلقاً ! » .

ـ لقد خاب أملها لأنك لم تتصل بها قبل الآن . ولهذا لم تكن ودوداً كثيراً .

ـ لكنها قالت لي ألا أتلفن قبلها .

ـ كانت ستسر على كل حال لو اتصلت بها . انها بحاجة لأن تكون واثقة جداً من صداقة لتمنح نفسها لها .

فقال لامبير :

ـ ليس عندها أي سبب لتشك في صداقتي » . وفجأة أضاف : « انني أود نادين كثيراً » .

ـ إذن رتب امرك بحيث تدرك ذلك .

ـ انني افعل ما بوسعي » . وتردد ثم مد لي يده ، وقال : « على كل حال ، سآتي ما إن اعود . »

ودخلت غرفتي دون ان اجرؤ على دق باب نادين . ما كان أظلمها ! صحيح انني أبحث للآخرين عن اعذار عن طواعية ، وان التسامح يجعل القلب جافاً . وإذا كانت لي مطالب تجاهها ، فهذا لأنها ليست حالة أميل عليها لأدرسها . وبيني وبينها حد حقيقي هو ذاك الصوت المهموم في صدري .

وأبدت شيئاً من التذمر من حيث المبدأ عندما ظهر مقال الصغيرة بيزيه العادم الأهمية . لكن مزاجها تحسن كثيراً عندما فتحت مكاتب « الطواريء » . وعندما تولت مهمتها المحددة ، اظهرت انها سكرتيرة ممتازة وجعلها هذا فخوراً كل الفخر . ولقد اصاب نجاحاً كبيراً العدد الأول من المجلة ، وكان روبير وهنري مسرورين تماماً ، وراحا يعدان العدد الثاني في حماسة وكان روبير يطفح حباً بهنري منذ ان أقنعه بأن يربط مصير « الأمل » بمصير «الاشتراكي الثوري الحر» ، وانشرح صدري لذلك ، لأنه كان ، بعد كل حساب ، صديقه الوحيد . وقد كنا

نمضي اوقاتاً طيبة مع جوليان ولونوار ، وآل بلوتييه ، وآل كانج ، لكن ما كانت علاقاتنا بهم تذهب الى أبعد من ذلك . ومن بين الرفاق الاشتراكيين القدامى ، كان بعضهم قد تعاون ، وآخرون ماتوا في المعسكرات ، وشارلييه يستشفي في سويسرا ، ومن بقي منهم وفياً للحزب كان يلوم روبير الذي كان يرد لهم لومهم صاعين . وقد خاب أمل لافوري من انه أسس « الاشتراكي الثوري الحر » بدل ان ينضم إلى الشيوعية ، وكانت علاقتهما تفتقر إلى الحرارة . ولم يعد لروبير احتكاك ، إذا صح هذا التعبير ، بالرجال الذين في عمره ، لكنه كان يفضل هذا : فقد كان يعتبر جيله كله مسؤولاً عن هــذه الحرب التي لم يعرف كيف يمنعها . وكان يقدر انه قد احتفظ بارتباطات اكثر مما ينبغي مع ماضيه ، فكان يريد ان يعمل مع رجال شبان . لقــد كان للسياسة والعمل اليوم وجه وطرق جديدة يريد ان يتلاءم معها . بل كان يقدر ان عليه ان يعيد النظر في أفكاره نفسها : لهذا كان يردد بإلحاح كثير ان عمله لا يزال امامه . وكان يسعى ، في الدراسة التي يكتبها ، إلى تحقيق التركيب بين أفكاره القديمة وبين رؤية جديدة للعــالم . وكانت اهدافه اهداف الماضي نفسها : فقد كان « الاشتراكي الثوري الحر » يتطلع ، بالاضافة إلى اهدافه المباشرة ، الى الحفاظ على الأمل بثورة تنسجم مع نواياه الانسانية . لكن روبير كان مقتنعاً الآن انها لن تتم بدون تضحيات قاسية . فإنسان الغد لن يكون الانسان الذي كان جوريس يعرفه في كثير من التفاؤل . إذن اي معنى ، أي حظ تحتفظ بـــه القيم القديمة : الحقيقة ، الحرية ، الأخلاق الفردية ، الأدب ، الفكر ؟ اذا كنا نريد إنقاذها ، فلا بد ان نخترعها ثانية . وهذا ما كان روبير يحاوله ، وكان هذا يحمّسه ، وكنت اقول في نفسي في رضى انه قد وجد توازناً سعيداً بين الكتابة والعمل ثانية . وبديهي انه كان مشغولاً جداً ، لكنه كان يحب ذلك . انا ايضاً كانت حيــاتي مليئة . روبير نادين ، زبائني ، كتابي : لم يكن في نهاراتي مكان لأسف ، لشهوة . كانت الفتاة ذات الشعر الأبيض تنام بلا كابوس ، في الوقت الراهن . وقد تسجلت في الحزب الشيوعي ، واتخذت عشاقاً ، اتخذت عشاقاً كثيرين ، وكانت تشرب بلا اعتدال.

لم يكن توازناً مدهشاً ، لكنها كانت تنام اخيراً . وكنت مسرورة بعد ظهر ذاك اليوم لأن الصغير فرنان قد رسم اخيراً فيلا لها نوافذ وأبواب : لأول مرة ، بلا حاجز .

وكنت أتلفن لأمه عندما جاءت البوابة بالبريد . كان روبير ونادين في المجلة ، فقد كان يوم استقبال ، وكنت بمفردي في الشقة . وفتحت مغلف رسالة روميو : وتملكني الخوف كأنه قد ألقي بي فجأة في الفضاء . سوف يعقد مؤتمر لعلم النفس التحليلي في نيويورك في كانون الثاني . وهم يدعونني . ويستطيعون ان ينظموا لي محاضرات في انكلترا الجديدة ، وشيكاغو ، وكندا . وبسطت الرسالة على المدفأة وأعدت قراءتها في دهشة . كم ذا احببت الاسفار ! باستثناء بضعة اشخاص ، لم أحب شيئاً اكثر منها في العالم . ولكنها كانت من بين تلك الأشياء التي كنت اعتقد انها انتهت الى الأبد . لو انهم اقترحوا عليّ نزهة في بلجيكا ، او في ايطاليا ، ولكن نيويورك ! لم أكن استطيع ان أشيح بنظري عن هذه الكلمة اللامعقولة . كانت نيويورك دوماً بالنسبة لي مدينة اسطورية ، ومنذ زمن بعيد ما عدت اؤمن بالمعجزات . وما كانت هذه القطعة من الورق تكفي لقلب الزمان ، والمكان ، والعقل . ودفنت الرسالة في حقيبتي وخرجت في خطى كبيرة إلى الشوارع .

انهم يسخرون مني ، هناك من يعد لي مقلباً ، وكنت بحاجة الى روبير لأطرد هذا السحر . وصعدت في عجلة درج بيت « موفان » ، وقالت نادين في شيء من اللوم :

– آه ، هذه انت ؟

– كما تريني .

فقالت في أهمية :

– بابا مشغول .

كانت تتربع امام طاولة ، وسط مكتب كبير ، يستخدم قاعة للانتظار . وكانوا كثيرين الذين ينتظرون : شبان ، شيوخ ، رجال ، نساء ، خليط حقيقي .

قبل الحرب، كان روبير يتلقى عدداً لا بأس به من الزيارات ، ولكنها لا تقاس بهذا الجمهور . ان ما يسره ، هو ان بينهم شباناً . لا شك في ان كثيرين يأتون إلى هنا بدافع الفضول ، او البطالة ، او الوصولية ؛ لكن كثيرين ايضاً كانوا يحبون كتب روبير ويهتمون بعمله . هيا ! انه لا يتكلم في الصحراء ، فمعاصروه لا تزال لهم عيون لتقرأه ، وآذان لتسمعه .

ونهضت نادين وصاحت بصوت غليظ « الساعة السادسة ! اننـــا نقفل ! » . ورافقت حتى الباب الزوار الخائبين وأدارت المفتاح في القفل . وقالت ضاحكة : يا له من خليط ! كأنهم ينتظرون مأدبة مجانية . » وفتحت الباب الواصل :

– الطريق حر .

ومن العتبة ابتسم لي روبير : « أمنحت نفسك إجازة ؟ » .

– نعم . أود ان أقوم بجولة .

واستدارت نادين نحو ابيها :

– انه لمضجر ان نراك ذا وظيفة : كأنك كاهن على كرسي اعترافه .

– اني لأرى نفسي بالأحرى راوية مغامرات لذيذة .

وفجأة ، وكأنها ضغطت على زر ، اخذت نادين تقهقه : كانت نوبات مرحها نادرة ، لكنها حادة : « « انظر هذا ! » .

وأرتنا بإصبعها حقيبة مهترئة الجوانب. على الجلد الكابي كانت بطاقة ملصوقة « حياتي بقلم جوزفين ميفر ». وقالت بين شهقتين : « انت تتحدث عن مخطوط ! انه اسمها الحقيقي . أولا تعرف ماذا قالت لي ؟ » . كان ، في عينيهـا الرطبتين بالغبطة ، بصيص من انتصار : فالضحك، كان ثأرها: « قالت لي : انا، يا آرنة، انني وثيقة حية ! في الستين من العمر . وهي تسكن في اوريلاك . انها تروي كل شيء من البداية » .

وبرفسة ، أطاحت بالغطاء . رزم ورزم من الورق الوردي ، مليئة بحـــبر اخضر ، دون شطبة واحدة . والتقط روبير ورقة ، وتقرأها ، ورماها : « هـذا ليس حتى بسخيف » .

فقالت نادين في أمل :

– ربما كانت هناك مقاطع ظريفة . » وركعت امام الحقيبة . هذا الورق كله ، هذه الساعات كلها ! ساعات دافئة تحت المصباح عند زاوية النار في رائحة غرفة الطعام الريفية ، ساعات مليئة جداً وفارغة جداً ، مبررة بعذوبة للغاية ، ومضيعة بحماقة للغاية : « كلا ، ليس هذا ظريفاً ! » . ونهضت نادين في نفاد صبر . لم يكن هناك من أثر للمرح على وجهها . . . « إذن أنضعها ؟ » .

فقال روبير :

– خمس دقائق .

– اسرع : ان المكان عفن برائحة الأدب .

– اية رائحة له ، الأدب ؟

– رائحة سيد مسن يهمل نفسه .

لم تكن رائحة . لكن الهواء قد أشبع ، طوال ثلاث ساعات ، بالأمل ، بالخوف ، بالغضب ، وكنت أشم عبر الصمت تلك الكآبة المشوهة التي تعقب الحميّات العقيمة . وأخرجت نادين من درجها غزلاً رماني اللون وراحت تقعقع الصنّارتين في سيماء من اهمية . كانت ، عادة ، سخية بوقتها ، لكن ما إن يطلب منها بعض الصبر ، حتى تستعجل في ان تظهر ان ما من لحظة من لحظاتها يجب ان تبذر . وتأخرت نظرتي على مكتبها . كان ثمة شيء مثير في ذلك الغطاء الأسود الذي تنبسط عليه في احرف حمراء كبيرة كلمات « قصائد مختارة. رنيه دوس » . وفتحت الدفتر .

– المروج سامة لكنها جميلة في الخريف . . .

وقلبت صفحة : « اصطدمت ، أتعرفون ، بفلوريدات لا تصدق . . . » .

– نادين !

– ماذا !

– شخص يرسل ، موقعة باسمه ، قطعاً مختارة من ابو لينير ، ورامبو ، وبودلير . . . انه لا يستطيع على كل حال ان يفترض ان الناس سيخدعون بها .

فقالت نادين في لامبالاة :

– آه ! اعرف حقيقة الأمر . لقد اعطى هذا الفرج المسكين عشرين ألـف فرنك لسيزوناك ليبيعه قصائد منه : لن تقولي ان سيزوناك سيلهو بإعطائه قصائد غير منشورة .

فقلت :

– لكن عندما سيعود ، لا بد ان تقولي له الحقيقة .

– لا فائدة ، فقد قبض سيزوناك . وسيدهشني ان يجرؤ الزبون على الاحتجاج. فهو ، اولاً ، لا حيلة له وسيكون عظيم الخجل .

فقلت في دهشة :

– هل يفعل اشياء كهذه ، سيزوناك ؟

فقالت نادين :

– كيف تظنين انه يتدبر اموره ؟ » وألقت بغزلها في الدرج : « ان عملياته مضجرة احياناً » .

فقال روبير :

– ان يدفع عشرين ألف فرنك من أجل توقيع قصائد لم يكتبها ، هـــذا يتركني حالماً .

فقالت نادين :

– لماذا ؟ إذا كان حريصاً على ان يرى اسمه مطبوعاً . » وأضافت من بـــين اسنانها ، موجهة كلامها إليّ وحدي ، لأنها كانت تنتقي لغتها امام ابيها : «الأفضل له ان يدفع من ان يكسر إسته وهو يقوم بالعمل » .

وعندما وصلنا إلى أسفل الدرج ، سألت في ارتياب :

– سنذهب لنشرب قدحاً في الحانة المواجهة ، كما فعلنا يوم الخميس الماضي .

فقال روبير :

– نعم .

وأضاء وجه نادين وقالت في مرح ، وهي تجلس امام الطاولة الرخاميـــة :

« اعترف بأنني ادافع عنك على أحسن وجه ! » .

– نعم .

ونظرت إلى والدها في قلق : « ألست مسروراً مني ؟ » .

– اواه ! انا ، انني منشرح . إنما بالأحرى من اجلك : هـذا لن يقودك إلى شيء كبير .

فقالت نادين في خشونة مفاجئة :

– ان المهن لا تقود إلى شيء ابداً .

– هذا يتوقف . كنت تقولين في يوم سابق ان لامبير قد اقترح عليك ان تقومي بالريبورتاجات . هذا يبدو على كل حال اكثر فائدة .

فقالت نادين :

– اواه ! لو كنت رجلاً ، لما قلت لا . لكن كاتبة ريبورتاجات امرأة ليس لها حظ من الف في النجـاح . » وأوقفت احتجاجاتنا بحركة ، وقالت في ترفع : « ليس ما ادعوه انا بالنجاح . فالنساء لا ينطلقن ابداً » .

فغامرت : « ليس دائماً » .

– أتعتقدين ؟ » وسخرت : « انظري إلى نفسك مثلاً ، صحيح انك تدبرين امرك ، ولك زبائن . لكنك لم تصبحي في آخر الأمر ، فرويد ابداً ! » .

كانت قد اعتادت بشكل طفولي على مهاجمتي عن سوء قصد عندما يكون والدها حاضراً . فقلت :

– بين ان يكون الانسان فرويد ، وبين ألا يفعل شيئاً ، توجد درجـات متوسطة كثيرة .

– انني افعل شيئاً ما : انني سكرتيرة .

فقال روبير بسرعة :

– إذا كنت راضية هكذا ، فهذا هو الشيء الأساسي بعد كل حساب .

كنت آسفة على انه لم يعرف كيف يمسك لسانه . لقد افسد لذة نادين ، دون فائدة . وقد نبهته إلى ذلك كثيراً ، لكنه ما كان يزمع التخلي عن مطامحه الـتي

ملأ بها نفسه بخصوص نادين . وقالت بلهجة عدائية :
— على كل حال ان مصير فرد واحد قليل الأهمية للغاية اليوم .
فقال روبير مبتسماً :
— مصيرك له أهمية كبيرة في نظري .
— لكنه لا يتعلق لا بك ولا بي . لهذا فهم يضحكونني كثيراً، جميع اولئك التافهين الصغار الذين يريدون ان يصبحوا احداً . » وسعلت سعالاً خفيفاً وقالت دون ان تنظر الينا: « في اليوم الذي ستكون لي فيه الجرأة على فعل شيء صعب، فسوف ألقي بنفسي في السياسة » .
فقال روبير :
— ماذا تنتظرين للعمل في « الاشتراكي الثوري الحر » ؟
وجرعت دفعة واحدة قدح ماء « فيتل » .
— كلا ، لست موافقة . نهائياً انتم ضد الشيوعيين .
فهز روبير كتفيه : « هل تعتقدين ان لافوري سيكون ودياً إلى هذا الحد إذا كان يعتقد انني اشتغل ضدهم ؟ » .
فابتسمت نادين ابتسامة صغيرة ، وقالت : « يبدو ان لافوري سيطلب اليك ألا تعقد مهرجانك » .
فسأل روبير :
— من قال لك هذا ؟
— لاشوم ، البارحة . انهم ليسوا مسرورين من كل شيء . انهم يرون ان « الاشتراكي الثوري الحر » يسير في طريق خاطىء .
فهز روبير كتفيه : « ربما كان لاشوم وعصابته من اليساريين الصغار غير مسرورين : لكنهم يخطئون إذ يظنون أنفسهم اللجنة المركزية . لقد رأيت لافوري مرة اخرى في الأسبوع الماضي » .
فقالت نادين :
— لقد رآه لاشوم أمس الأول . » وتابعت : أؤكد لك ، الأمر جدي. لقد

عقدوا مجلس حرب كبيراً وقرروا انه يجب ان تتخذ تدابـير . سيأتي لافوري ليحدثك » .

والتزم روبير الصمت قليلاً ، وقال : « إذا كان هذا صحيحاً ، فهذا يدعو إلى اليأس من كل شيء » .

فقالت نادين :

– هذا صحيح . انهم يقولون ان « الاشتراكي الثوري الحر » بدل ان يعمل على اتفاق معهم ، يعظ بسياسة معاكسة لسياستهم ، وان هذا المهرجان تصريح بالعداء ، وانك تقسم اليسار ، وانهم سيضطرون إلى فتح حملة ضدك » . كان هناك رضى في صوت نادين ، فهي بلا شك لم تكن تقيس مدى ما تقوله . كانت عندما تواجهنا متاعب جدية ، تضطرب ، لكن استياءاتنا الصغيرة كانت تسليها .

وقال روبير :

– مضطرون ! هذا شيء لطيف ! وانـا الذي يقسم اليسار ! » وأضاف في غضب : « آه ! انهم لم يتغيروا ، انهم لن يتغيروا ابداً ! ما كانوا يريدونه ، هو ان يطيعهم « الاشتراكي الثوري الحر » على طول الخط . وعند أول بادرة استقلال ، يتهموننا بالعداء ! » .

فقالت نادين بصوت منطقي :

– حتماً إذا لم تكن من رأيهم فسيقولون انك مخطىء . وانت تفعل الشيء نفسه تماماً .

فقال روبير :

– يمكن ان تكون لنا آراء مختلفة وان نحافظ على وحدة العمل : هـذه هي فكرة الجبهة الوطنية .

فقالت نادين :

– انهم يجدونك خطراً . يقولون انك تبشر بسياسة الأسوأ ، وأنك تريد ان تخرب اعادة البناء .

فقال روبير :

– اسمعي ، تدخلي في السياسة او لا تتدخلي ، لكن لا تلعبي لعبة الببغاء . لو كنت تستخدمين مخك الخاص ، لفهمت ان سياستهم هم هي المؤذية .

فقالت نادين :

– انهم لا يستطيعون ان يتصرفوا بغير الشكل الذي يعملون به . لو كانوا يسعون إلى استلام الحكم ، فإن اميركا ستتدخل فوراً .

فقال روبير :

– انهم بحاجة لكسب الوقت ، انا موافق . لكنهم يستطيعون ان يواجهوا المشكلة بغير هذا الشكل . » وهز كتفيه : « أريد حقاً ان أقرّ ان وضعهم صعب . فهم محاصرون إن قليلاً وإن كثيراً . فمنذ ان ماتت « الشعبية الفرنسية للأممية العمالية [1] » ، وهم مرغمون على تمثيل جميع الأدوار في آن واحد ، انهم يمثلون يسار اليسار ويمينه ، بالتناوب . ولكن إنما لهذا لا بدّ ان يتمنوا وجود حزب يساري آخر » .

فقالت نادين :

– حسناً ! إنهم لا يتمنونه .

ونهضت فجأة. كانت راضية بأنها قد أحدثت تأثيرها الصغير وما كانت لترضى بأن تجر إلى مناقشة ، كان من البديهي انها لن تتغلب فيها : « سأذهب للتنزه » .

ونهضنا نحن ايضاً وعدنا على اقدامنا بحاذاة الأرصفة . وقال لي روبير :

– سأتلفن فوراً إلى لافوري ! ما احوجنا ان نتكاتف ! وهم يعملون ذلك ! لكنهم ابداً لن يتحملوا ان يوجد يسار خارجاًعنهم. ولما كان «الحزب الاشتراكي» لم يعد له وجود ، فهم إذن يريدون الجبهة الوطنية تلك . ولكن حركة فتية يبدو انها قد انطلقت بشكل لا بأس به ، فهذا شيء آخر ...

كان يتابع الكلام في غضب ، وفكرت وانا استمع اليه : « لا أريد ان أتركه » . في الماضي لم يكن يحرجني ان أتركه : كنا نحب بعضنا البعض كما نعيش ، من خلال الأبدية . لكني أعرف الآن انه ليست لنا إلا حياة واحدة ،

---

١ - هي نفسها الحزب الاشتراكي الفرنسي . « المترجم »

انقضى منها شق غير قصير ، والمستقبل يهددها . ان روبير غير قابـــل للأذى . وفجأة كان يخيل إلي انه هش ايضاً . لقد اخطأ خطأ فادحاً باعتماده على طيبة نيـــة الشيوعيين. وأمام عدائهم، كانت هناك مشاكل كثيرة تنطرح . وقلت في نفسي: « قد وصلنا : هوذا المأزق » . لم يكن يستطيـع لا ان يتخلى عن برنامجه ، ولا ان يحافظ عليه ضد الشيوعيين : ولم يكن هنـاك حل وسط . لعل الأمور ستسوى : بشرط ان يقرر الشيوعيون التسامح بالمهرجان. لم يكن مصير روبير بين يديه هو، بل بين أيديهم : كنت أشمئز من التفكير بهـــذا . انهم يستطيعون ان يهدموا بكلمة واحدة التوازن الجميل الذي بناه روبير لنفسه . كلا ، انه ليس وقت التخلي عنه . وعندما دخلنا إلى المكتب ، قلت بصوت ساخر :

ـ انظر إذن ماذا تلقيت !

وناولت روبير رسالة روميو فتغير وجهه : لقد لمحت فيه ذلك الفرح الذي كان يجب ان يكون فرحي : « لكن هذا رائع ! لماذا لم تقولي لي شيئاً ؟ » .

فقلت :

ـ لن اذهب لأغيب ثلاثة أشهر .

ـ ولماذا ؟ » ونظر إليّ في دهشة : « ستكون رحلة مدهشة » .

فتمتمت : « لدي عمل كثير هنا » .

ـ ماذا بك ؟ من الآن حتى كانون الثـــاني تستطيعين ان ترتبي كل شيء . » وأضاف مبتسماً : « نادين كبيرة بما فيه الكفاية لتستغني عنك . وانا أيضاً . »

فقلت :

ـ انها بعيدة ، اميركا .

فقال :

ـ انني لا أكاد افهمك ! » وتفحصني في دقة : « سيفيدك كثيراً ان تتحركي قليلًا . . . »

ـ سوف نتنزه على الدراجة هذا الصيف .

فقال روبير :

– كتغيير بلاد ، هذا لن يقودك بعيداً ! » وابتسم « انني مطمئن ! لو قيل لك ان هذه الرحلة في البحر ، لتعلقت بها » .

– هذا ممكن .

كان على حق : كنت اود كثيراً هذه الرحلة . وبالضبط ، كانت من الأشياء التي تقلقني تلك الذكريات كلها ، تلك الرغبات كلها التي تستيقظ ، يا للازدحام ! لماذا جاؤوا يزعجون حياتي الميتة الصغيرة ? في ذلك المساء ، كان روبير يستنكر مع هنري ضد لافوري ، وكانا يشجعان بعضهما البعض على الثبات : أصبح « الاشتراكي الثوري الحر » قوة حقيقية ، فإن الشيوعيين سيرغمون على التعاون معه ، وسيتوطد الاتحاد ثانية . كنت استمع ، واهتم جداً بما يقولونه : ومع ذلك كانت في دماغي فوضى من الصور البلهاء . ولم تتحسن الحال في اليوم التالي . فقد لبثت ساعة ، وانا جالسة امام طاولة عملي ، اتساءل : « أأقبل ? ألا أقبل ? » . واخيراً نهضت ورفعت سماعة التلفون : لا فائدة من الزعم بأنني اشتغل . كنت قد وعدت بول بأن أمر لرؤيتها ذات يوم ، والأفضل لي ان اذهب الآن، بالطبع، كانت في منزلها ، بمفردها ، وذهبت مشياً إليها . انني أحب بول كثيراً ، وفي الوقت نفسه هي تخيفني قليلاً . غالباً عند الصباح ، أشعر فوقي بالظل الخانق لجميع تلك التعاسات التي تستيقظ ، وتكون هي اول من فكر بها . انني أفتح عيني ، فتفتحها ، وسرعان ما يظلم قلبها . وقلت في نفسي : « مكانها ، ما كنت لأتحمل هذه الحياة » . انني أعرف جيداً ان هذا المكان ، هي التي تحتله . وهذا بالتأكيد اكثر قبولاً مما لو كنت انا . ان بول قادرة على ان تظل حبيسة طوال ساعات وأسابيع دون ان تفعل شيئاً ، دون ان ترى احداً ودون ان تمل . انها تنجح ايضاً في ألا تعترف لنفسها بأن هنري لم يعد يحبها مطلقاً . ولكن ذات يوم سوف تنفجر الحقيقة ، وعندئذ ، ماذا سيحدث ? بمَ يمكن ان انصحها ? ان تغني ? لكن هذا لن يكفي لتعزيتها .

واقتربت من منزلها وانقبض قلبي . كان يناسبها ان تسكن قرية القليلي الحظ تلك . انني لا اعرف اين اختبأوا أثناء الاحتلال ، لكن هذا الربيع قد بعث

اسمالهم ، وغددهم ، وجراحهم . وكان ثلاثة منهم يجلسون امام بوابات الشارع ، إلى جانب لافتة من رخام مزهو بباقة ذابلة . وكان رجل وامرأة ، احمر وجهاهما من الخمر والغضب ، يتنازعان حقيبة من قماش مشمع اسود . وكانا يدمدمان في عنف بشتائم ، لكن ايديهما المشنجة على الحقيبة كانت لا تكاد تتحرك : وكان الثالث ينظر إليهما في مرح . وسرت في شارع صغير . كانت ابواب خشبية عديمة اللون تسد المخازن التي يأتي جامعو الخرق عند الصباح ليرموا فيها بالأوراق والحدائد العتيقة . وكانت ابواب أخرى ، مزججة ، تنفتح على قاعات انتظار تجلس فيها نساء وعلى ركبهن كلاب . وكنت قد قرأت دعايات الأدوية انهم في هذه المستوصفات يداوون ويقتلون بدون ألم « الطيور والحيوانات الصغيرة » . وتوقفت أمام لافتة : « غرفة مؤثثة » ، وقرعت الجرس . كانت لا تزال هناك دوماً سلة مهملات كبيرة عند اسفل الدرج ، وما إن يصعد المرء الدرجات الأولى حتى يأخذ كلب اسود بالنباح بوحشية . وكانت بول ، التي تهوى الاخراج المسرحي ، تحصل بسهولة على صدمة مسرحية عندما تفتح لزائر جديد باب استديوها : انا نفسي كنت أدهش كل مرة بهذه العظمة المفاجئة ، وبلباسها الغريب ايضاً ، كانت تفضل احلامها على المسطرة ، وكانت تبدو دوماً متنكرة قليلاً ، وعندما فتحت لي ، كانت ترتدي ثوباً طويلاً من التفتا ، بنفسجياً فاتحاً متقلباً ، لا يلبس إلا داخل المنزل ، وحذاء مقطعاً ، عالي الكعب كثيراً ، تلتف سيوره حتى ساقيها : لا شك في ان مجموعتها من الأحذية سترسل الدم شاحباً في وجه هاوٍ من هواة جمع الأغراض. وقالت وهي تجرني نحو نار الحطب الكبيرة :

– تعالي لتتدفئي بسرعة .

– ليس الطقس بارداً .

فألقت نظرة نحو النوافذ المدهونة .

– لكأن الأمر كذلك . » وجلست ومالت نحوي في حنان وقور : « كيف حالك ? » .

– لا بأس . لكن عملي فوق رأسي . ان الناس ما عادوا يحصلون على وجبتهم

اليومية من الهول ، لهذا فقد بدأوا في تعذيب أنفسهم ثانية .

– و كتابك ؟

– انه يتقدم .

كنت أجيب كما تسألني، تأدباً . كنت أعرف جيداً انها لم تهتم مطلقاً بأعمالي. وسألت :

– أهو يستهويك حقاً ؟

– انه يحمسني .

فقالت بول :

– انت محظوظة !

– بالقيام بعمل يستهويني ؟

– بإمساكك مصيرك بين يديك .

لم يكن هذا ابداً الشعور الذي أحس به ، لكني لم أكن المقصودة . وقلت في حرارة :

– ألا تعرفين ماذا أفكر به منذ ان سمعتك في عيد الميلاد ؟ ان عليك ان تفعلي شيئاً ما بصوتك . جميل ان تنذري نفسك لهنري ، لكن اخيراً ، انت ايضاً لك حسابك ...

فقالت في لامبالاة :

– عجيب ! لقد تناقشت مع هنري كثيراً منذ قليل في هـــذا الموضوع .» وهزت رأسها : « كلا ، لن أغني ثانية أمام الجمهور » .

– لماذا ؟ انا واثقة انك ستنجحين .

فقالت :

– بمَ سيعود عليّ هذا ؟ » وابتسمت : « اسمي على الاعلانات ، صورتي في الصحف : حقاً هذا لا يستهويني . كنت أستطيع ان أحصل على كل هذا منــذ زمن بعيد ، لكني لم أشأ » . وأضافت : « لقد أسأت فهمي . انني لا أتمنى أي مجد شخصي . ان حباً كبيراً يبدو شيئاً أهم بكثير من مهنة . كل ما آسف له، هو

ان نجاحه لا يتعلق بي » .

فقلت :

– ولكن لا شيء يجبرك على الاختيار . تستطيعين ان تتابعي حب هنري وان تغني .

فنظرت إليّ في خطورة : « ان حباً كبيراً لا يترك اي شيء ممكناً لدى امرأة . » وأضافت : « انني اعرف اي تفاهم قائم بينك وبين روبير ، ولكن ليس هذا ما أسميه حباً كبيراً » .

لم أكن أريد ان أناقش لا تعبيرها ولا حياتي : « جميع هذه الأيام ، التي تمضينها هنا ، بمفردك ، سيكون لك وقت لتعملي » .

– ليست مسألة وقت . » وابتسمت لي في تأنيب : « لماذا تعتقدين انني تخليت عن الغناء ، منذ عشر سنين ؟ لأنني فهمت ان هنري يريدني بأجمعي ... »

– تقولين انه قد نصحك بنفسه ان تعودي إلى العمل .

فقالت في مرح :

– لكن إذا ما صدقته حرفياً ، فسوف تسودّ الدنيا في عينيه ! انه لن يتحمل ألا تخصه ولو فكرة واحدة من أفكاري .

– يا للأنانية !

– ليس الحب أنانية . » وداعبت بحنان تنورتها الحريرية : « اواه ! انه لا يسألني شيئاً ابداً . لكني أعرف ان تضحيتي ضرورية ليس فقط لسعادته ، بل لعمله ، لإنجازه . والآن اكثر من اي وقت مضى » .

– لماذا يبدو لك نجاحه هاماً للغاية وليس نجاحك ؟

فقالت في حدة :

– اواه ! انني لا أبالي أكان مشهوراً او لم يكن . انني أقصد شيئاً آخر .

– ماذا إذن ؟

ونهضت فجأة : « لقد أعددت نبيذاً ساخناً : هل تريدين منه ؟ » .

– بسرور .

كنت اسمعها تتحرك في المطبخ ، وأتساءل في استياء : « بمَ تفكر ، حقاً؟» .
كانت تؤكد انها تحتقر المجد . ومع ذلك فان بول لم ترجع إلى ثوب العاشقة ، إلا عندما آخذ اسم هنري يلمع ، وحيّا فيه النـــاس بطلاً من ابطال المقاومة وأمل الأدب الشاب . إنني أذكر كم كانت كئيبة ومتشككة ، قبل سنة . كيف تشعر على الضبط بهذا الحب ؟ لمَ ترفض ان تهرب منه بالعمل ؟ كيف ترى العـالم حولها ؟ كنت حبيسة معها بين هذه الجدران الحمر ، ننظر إلى النـــار ، ونتبادل كلمات : لكني لم أكن اعرف ما يجري في رأسها . ونهضت ، وسرت نحو النافذة ورفعت الستار . كان المساء يرخي سدوله ، وثمـــة رجل رث الثياب ينزه بطرف رسن كلباً دانمركياً فاخراً . وتحت اللافتة الغامضة « اخصائي في الطيور النـادرة والسكسونية » ، كان قرد مربوط بقضيب نافـــذة يبدو عليه انه ، هو الآخر ، يسأل الغسق في حيرة . وتركت الستار يسقط ثانية . ماذا أمّلت ؟ ان أرى لحظة هذا الديكور المألوف بعيني بول ؟ ان التقط من على هـذا الديكور لون أيامها ؟ كلا . ابداً لن يرى القرد الصغير بعينين بشريتين . وابداً لن انساب في جلد آخر .
وعادت بول من المطبخ حاملة في أبهة صينية من الفضة عليها زبديتان تدخنان: « تحبينه كثير السكر ، أليس كذلك ؟ » .
واحتسيت السائل الأحمر الساخن ذا الرائحة الحارقة : « يبدو لي انه لذيذ » .
وشربت بضع جرعات في تأمل كأنهـــا سألت شراب الحقيقة وتمتمت : « يا للمسكين هنري ! » .
— مسكين لماذا ؟
— انه يجتاز ازمة صعبة واخاف ان يتألم كثيراً قبل ان يخرج منها .
— اية ازمة ؟ انه يبدو في أتم صحة ومقالاته من افضل ما كتبه حتى الآن .
— مقالات ! » ونظرت إليّ في نوع من الغضب : « في المـــاضي كان يحتقر الصحافة ، ولا يرى فيها إلا مصدراً للرزق . كان يتجنب السياسة ، ويريد ان يكون رجلاً وحيداً » .
— لكن الظروف تبدلت يا بول .

فقالت في حماسة :

– ماذا تهم الظروف ! يجب ألا يتبدل ، هو . أثناء الحرب ، كان يجازف بحياته ، وكان هذا شيئاً عظيماً . ولكن العظمة اليوم ان يرفض العصر .

فقلت :

– لماذا اذن ؟

فهزت كتفيها دون ان تجيب ، وأضفت في شيء من الغيظ : « لقد شرح لك دون شك لماذا يهتم بالسياسة . وانا أوافقه ، إطلاقاً . ألا تعتقدين ان عليك ان تثقي به ؟ » .

فقالت بلهجة قاطعة :

– انه يسير في طرق ليست طرقه ، انا أعرف ذلك ، بل أستطيع ان أقدم لك البرهان .

فقلت :

– هذا سيدهشني .

فقالت في انتفاح :

– البرهان ، انه أصبح عاجزاً عن الكتابة .

فقلت :

– لعله في هذا الوقت لا يكتب ، وهذا لا يعني انه لن يكتب ابداً .

فقالت بول :

– انا لا أزعم انني معصومة عن الخطأ . ولكن هنري ، ادركي ذلك ، انا التي صنعته : انني خلقته كما يخلق شخصيات كتبه ، وأعرفه كما يعرفها . انه في طريقه إلى خيانة رسالته . وعليّ انا ان أقوده اليها ثانية . ولهذا لا أستطيع ان أفكر بالاهتمام بنفسي .

– أتعرفين ، ليس للانسان من رسالة إلا التي يعطيها لنفسه .

– هنري ليس كاتباً كالآخرين .

– انهم جميعاً مختلفون .

وهزت رأسها : « لو لم يكن الا كاتباً ، لما استهواني الأمر : فهناك كثيرون منهم ! عندما أخذته ، في الخامسة والعشرين ، لم يكن يفكر إلا بالأدب . لكني عرفت فوراً انني استطيع ان أجعله يسمو اكثر بكثير . ان ما علمته اياه هو ان حياته وعمله يجب ان يكونا نجاحاً واحداً صافياً كل الصفاء ، مطلقاً كل الاطلاق، ليكون مثالاً للعالم » .

كنت أفكر في قلق بأنها إذا كانت تخاطب هنري بهذه اللغة ، فلا بد انـه ضجرٌ للغاية . فقلت :

– تقصدين ان على الانسان ان يعتني بحياته كما يعتني بكتبه ؟ لكن هـذا لا يمنعه من ان يتبدل .

– بشرط ان يتبدل في انسجام مع نفسه . فأنا قد تطورت كثيراً ، لكنني إنما اتبعت طريقي الخاص .

فقلت :

– ليست طرقنا مرسومة مسبقاً » . ان العالم لم يعد نفسه ، وما من انسان يستطيع له شيئاً . يجب ان نحاول التلاؤم معه . وابتسمت لها : « انا ايضاً خلال بضعة أسابيع توهمت اننا سنجد فترة ما قبل الحرب ثانية . لكن هـذه كانت حماقة » .

كانت بول تتأمل النار في سيماء مـن عناد . وقالت : « ليس الزمن هـو الحقيقي » . واستدارت نحوي فجأة : « اسمعي ! فكري برامبو ، ماذا ترين ؟» .

– ماذا أرى ؟

– نعم . اية صورة عنه ؟

– صورته وهو شاب .

– أترين ! هناك رامبو ، او بودلير ، او ستندال . لقد كانوا أصغر سناً ، او اكبر سناً ، لكن حياتهم كلها تتمثل في صورة واحدة . هناك هنري واحد ، وانا سأكون دوماً أنا ، والزمن لا يستطيع شيئاً ، فالخيانة لا تأتي منه بل منا .

فقلت :

ـ آه! انت تخلطين كل شيء. عندما ستبلغين السبعين، ستكونين دوماً انت، لكن ستكون لك علاقات اخرى بالناس ، وبالأشياء » وأضفت : « وبمرآتك ».

ـ انني لم أنظر إلى نفسي كثيراً في المرآة ابداً . » وتأملتني في شيء من الارتياب : « ماذا تريدين ان تثبتي ? » .

والتزمت الصمت لحظة . ان ننكر الزمن : إن الجميع يغرون بذلك دون شك . ولقد أغريت كثيراً . كنت احسد بول في إبهام على يقينها العنيد :

ـ كل ما اقوله ، هو اننا نعيش على الأرض ، وان علينا ان نرضخ لذلك . يجب ان تتركي هنري يفعل ما يحلو له ، وان تهتمي قليلًا بنفسك .

فقالت حالمة :

ـ تتكلمين كأنني وهنري كائنان متميزان . بمَ كان هنا نوع من التجربة التي لا يمكن إيصالها للآخرين .

كنت قد فقدت كل أمل في إقناعها . بمَ ، على كل حال ? انني لم اعد اعرف . إلا انني قلت لها :

ـ أنتما متميزان ، والدليل انك تنتقدينه .

فقالت :

ـ ثمة جانب سطحي فيه اناضل ضده ، ويفرقنا ، نعم . لكننا ، في الجوهر ، كائن واحد . لقد شعرت بذلك كثيراً في الماضي . بل اني أذكر في دقة إلهامي الأول : لقد اخافني تقريباً أتعرفين ، غريب كيف يضيع الانسان تماماً في انسان آخر . لكن ما أعظمها من مكافأة عندما يجد الآخر في ذاته ! » كانت تحدق إلى السقف بنظرة ملهمة : « كوني واثقة من شيء : ستأتي ساعتي . سيعاد إليّ هنري كما هو على حقيقته ، كما أعدته إلى ذاته » .

كان في صوتها عنف شبه يائس ، ورغبت عن المزيد من النقاش . وقلت في تراخ : « هذا لا يمنع . سيفيدك ان تري الناس ، وان تتحركي قليلًا . ألا تريدين ان ترافقيني إلى بيت كلودي ، في الخميس القادم ? » .

وهبطت نظرة بول إلى الأرض ثانية ، وكأنها قد بلغت أعلى ذروة من الاستثارة

التناسلية ، فتخلصت ، وعادت خفيفة . وابتسمت لي ، وقالت :

ــ اواه ! كلا ، لا أريد . لقد جاءت لرؤيتي في الأسبوع الماضي ، إنني شبعانة من كلودي لمدة أشهر . أتعرفين انها اضافت سكرياسين عندها ؟

ــ انني لأتساءل كيف رضي بهذا .

ــ افترض انه لم يعد معه فلس !

فقالت بول :

ــ انت تتحدثين عن دار حريم !

وانفجرت في ضحكة عريضة جعلتها أصغر بعشر سنوات . هكذا كانت معي سابقاً . كانت ، في حضور هنري ، تتصنع ، واليوم يخيل للمرء انها تشعر بنظراته عليها دون توقف . لعلها كانت ستستعيد مرحها ، لو كانت لها الشجاعة على ان تعيش لحسابها . وقلت في نفسي وانا أغادرها : لم أعرف كيف أكلمها ، كنت خرقاء » . ان هذه الحياة التي تعيشها ليست طبيعية ، وأحياناً تفقد المنطق تماماً . ولكني ما كنت لأقدر اليوم على إفهامها ذلك جيداً . حياة طبيعية : أي شيء لا منطقي كهذا ؟ انــه لجنون عدد الأشياء التي نرغم على عدم التفكير فيها لنمضي دون ان ننحرف في طريقنا من اول النهار إلى آخره ، انه لجنون عدد الذكريات التي علينا ان نرفضها ، والحقائق التي علينا ان نتجنبها . وقلت في نفسي : « لهـذا انا اخاف من الرحيل . ففي باريس ، قرب روبير ، أتجنب دون مشقة كبيرة الافخاخ ، فقد عرفت مكانها ، وهناك أجراس إنذار تحذرني من الأخطار . لكن بمفردي ، تحت سماء مجهولة ، ماذا سيحدث لي ؟ ما الأنوار التي ستعميني فجأة ؟ ما الهوات التي ستنكشف ؟ ان الهوات ستلتئم ، والأنوار ستنطفىء ، هـذا موثوق ومؤكد . فقد رأيت غيرها . اننا لنساوي حقاً ديدان الأرض تلك التي نقطعهـا قطعتين دون جدوي او سراطين البحر التي تنمو أرجلها ثانيــة . ولكن عندما أفكر بلحظة الاحتضار الكاذب ، باللحظة التي نفضل فيها ان نموت على ان نلم اشلاءنا ثانية ، فإن قلبي لا يطاوعني . انني أحاول ان أتمسك بالمنطق : لمــاذا سيحدث لي شيء ما ؟ لكن لمـاذا لن يحدث لي شيء ما ؟ إننـا لا نربح ابداً من

الابتعاد عن الطريق المطروقة . إنني ، هنا ، اختنق قليلاً ، هذا صحيح . ولكننا نعتاد ايضاً على الاختناق . والعادة ليست سيئة ابداً ، مهما قيل عنها » .

بعد بضعة أيام سألتني نادين في شك :

– ما بك ؟

كانت في غرفتي ، ممددة على أريكتي ، متدثرة بقميصي . هكذا أجدها عادة عندما أعود إلى البيت . كانت ملابس الآخرين ، وأثاثهم ، وحياتهم ، وحدها التي لها قيمة في نظرها . وقلت :

– ماذا تريدين ان يكون بي ؟

لم أكن قد حدثتها عن رسالة روميو . لكنها على الرغم من انها لا تعرفني جيداً ، إلا انها كانت تلاحظ أبسط تقلباتي . وقالت لي :

– يبدو عليك كأنك تنامين واقفة .

صحيح انني عادة أسألها في جذل عن أيامها ، وانني في هذا المساء قد خلعت معطفي وأعدت تمشيط شعري في صمت . وقلت :

– لقد أمضيت بعد الظهر في سانت – آن . أعتقد انني منهكة قليلاً . وانت ماذا فعلت ؟

فسألتني في حقد :

– أهذا يهمك ؟

– بالتأكيد .

وأضاء وجه نادين . لقد كفت عن كبت فرحها أطول من ذلك . وقالت بصوت فيه تحدٍ : « لقد التقيت برجل حياتي ! » .

فقلت مبتسمة :

– الحقيقي ؟

فقالت في جد :

– نعم ، الحقيقي . انه زميل للاشوم ، شخص مدهش . ليس كويتباً كالآخرين . بل مناضل ، مناضل حقيقي . انه يدعى جولي .

كانت قد تخاصمت مع هنري قبل أيام قليلة : كانت ردود فعلها متوقعة للغاية إلى حد انني كنت أدهش من انخداعها بها نفسها . وقلت : « إذن في هذه المرة ستتسجلين في الحزب ؟ » .

– لقد صُدم من انني لم أفعل ذلك حتى الآن . آه ! أتعرفين ، انه ، هو ، لا يضيع وقته في الفوارق الطفيفة . انه يمشي طريقه . رجل حق .

– منذ زمن بعيد وانا أفكر بأنه يجب ان تفعلي تجربتك مرة واحدة نهائية .

فقالت بصوت حاد :

– لأن هذا بالطبع ، بالنسبة لك ، تجربة . انني أدخل إلى الحزب ، وسوف أخرج منه . يجب ان يمضي الشباب . أهذا ما تعنينه ؟

– كلا . لم أقل شيئاً كهذا .

– أعرف ما تفكرين به . ان قوة جولي، لو تعلمين ، هي انه يؤمن بحقائق. انه لا يتلهى بتجارب : انه يعمل .

طوال ايام ، ابتلعت دون ان أحرك ساكناً الثناء العدائي الذي كانت تغدقه على جولي . وكانت قد فتحت « الرأسمال » على مكتبها ، إلى جانب موجز الكيمياء ، وكانت نظرتها تنتقل في كآبة من احد المجلدين إلى الآخر . كما أخذت تدرس حركاتي كلها على ضوء المادية التاريخية . وكان هناك كثير من المتسولين في الشوارع في مطلع الربيع البارد ، فإذا ما أعطيتهم بعض المال ، كانت تسخر : « لعلك تتصورين انك بتصدقك على هذا الفقير المسكين ستغيرين وجه العالم ! » .

– انا لا اطلب هذا القدر . إن هذا يسره ، وهذا يكفي .

– وتريحين ضميرك ، وكلاكما ترتاحان .

وكانت تتهمني دوماً بحسابات غامضة :

– انت تظنين انك برفضك القيام بالزيارات وبتجافيك تجاه الناس ، تفلتين من طبقتك : لكنك لست إلا بورجوازية غير متقنة ، هذا كل شيء .

والحقيقة أني ما كنت أسر بالذهاب إلى عند كلودي . فأثناء الحرب ، ارسلت

لي من قصرها البورغينيوني كميات من الطرود ، وهي الآن تدعوني بشكل آمر إلى استقبالاتها أيام الخميس . وكان لا بد بالطبع من ان ألبي دعوتها في النهاية ، ولكني رغماً عني امتطيت دراجتي ذات مساء مثلج من أماسي ايار . كان الشتاء قد انبعث على غير ما انتظار وسط الربيع . وكانت سماء صامتة بيضاء تتناثر على الأرض في بلورات ثلجية ضخمة دافئة على النظر ، باردة على الجلد . ولقد كنت احب لو انني انطلق في خط مستقيم امامي ، بعيداً جداً ، على احد تلك الطرق المبطنة بالقطن . كانت السخرات الاجتماعية تبدو لي تخيفة اكثر من الماضي ايضاً، ومهما كان روبير يحاول ان يختبىء في باطن الأرض ، وان يهرب من الصحفيين ، والأوسمة ، والأكاديميات ، والصالونات ، والجمعيات ، فإنهم كانوا في طريقهم لأن يجعلوا منه نصباً عمومياً: وكنت أصبح انا نفسي عمومية من وراء ذلك. وارتقيت في خطى بطيئة الدرج الفخم . انني أكره تلك اللحظة التي تستدير فيها الوجوه نحوي ، وبنظرة واحدة سريعة تتحقق من هويتي وتشرّحني. وعندئذ ، أعي ذاتي، وضميري دوماً غير مرتاح .

— اية معجزة جاءت بك ! » قالت ذلك لور مارفا . انت مشغولة للغاية ! اننا لم نعد نجرؤ حتى على دعوتك .

كنا قد رفضنا ثلاثاً من هذه الدعوات على الأقل . وبين الناس الذين كنت أتعرفهم في هذا الحفل ، كانوا قليلين اولئك الذين أشعر تجاههم بشيء من الذنب. كانوا يظنوننا مترفعين ، ننفر من المجتمع ، ونحاول ان نلفت الأنظار الينا . أما فكرة ان العالم لا يسلينا ، لا أكثر ولا اقل ، فأعتقد انها ما كانت تخطر لأي من الذين يأتون في طمع ليضجروا هنا . الضجر هو الكارثة التي أرهبتني منذ طفولتي ، ولكي أفلت منه على الأخص تمنيت ان أكبر ، وقد بنيت حياتي كلها حول هذا الرفض . ولكن ربما كان الذين أصافح ايديهم الآن قد اعتادوا عليه كثيراً حتى ما عادوا يشكون منه : لعلهم كانوا يجهلون انه يمكن للهواء ان يكون له طعم آخر . وقالت كلودي :

— روبير دوبروي لم يستطع ان يرافقك ؟ قولي له من طرفي ان مقاله في

« الطواريء » رائع ! انني اعرفه عن ظهر قلب ، وأسمعه لنفسي على المـــائدة ، في الحمام ، في السرير : انني انام معه ، انه عشيقي الأخير .

– سأقول له .

كانت تنظر إليّ بإلحاح ، وكنت اشعر انني غـــير مرتاحة . طبيعي انني لا احب ان اسمع احداً يتحدث بسوء عن روبير. لكن عندما يغدقون عليه المديح، فإنني أحرج . واشعر على شفتي بابتسامة بلهاء ، ويبدو لي الصمت وقفـــة وكل كلمة مبالغة .

وقال الرسام « برلين » الذي كان حقاً العشيق الأخير لكلودي :

– ان اصدار هذه المجلة حدث مرموق .

كانت « غيت فانتادور » قد اقتربت وكانت قـد كتبت روايات حاذقة ، وتشعر بنفسها انها اكثر شخصية مرموقة في هذا الصالون . وكانت تسريحاتهـــا وحركاتها تدل انها واعية انها لم تعد شابة ، ولكن على انها تذكر في الوقت نفسه اكثر مما ينبغي انها كانت جميلة . كانت تتحدث بصوت ملهم إلى حـــد ما ، وقالت : « المدهش عند دوبروي انه يعرف مع اهتمامه العميق بالفن الصافي كيف يهتم كل الاهتمام بعالم اليوم . وان يحب الانسان والكلمات والبشر في آن واحد ، فهذا شيء نادر جداً » .

وسألتني كلودي :

– هل تثابرين على كتابة يوميات عن حيـــاته ؟ أية وثيقة ستستطيعين ان تقدميها للعالم !

فقلت :

– ليس عندي وقت . ثم انني لا اعتقد انه سيحب ذلك .

فقالت هوغيت فولانج :

– ما يدهشني هو انك ، مع حياتك بقرب رجل ذي شخصية ساحقة للغاية ، تحتفظين بمهنة لنفسك . فأنا ببساطة لن أستطيـع . ان زوجي العزيز يلتهم وقتي كله . وانا أجد هذا طبيعياً على كل حال .

ورميت في حدة جميع الأجوبة التي جاءت على شفتي وقلت بأكثر ما أمكنني من برودة :

– انها مسألة تنظيم .

فقالت وكأنها لسعت :

– لكني منظمة جداً . كلا ، انها بالأحرى قضية بيئة أخلاقية ...

كانوا يخترقونني بنظراتهم ، ويتطلبون حسابات . هكذا الأمر دوماً . انهم يحيطون بي ، ويسألونني بسحن ماكرة وكأنني أرمل منذ الآن. لكن روبير حي تماماً ولن أساعدهم على تحنيطه . انهم يجمعون تواقيعه ، ويتنازعون مخطوطاته ، ويصفون أعماله الكاملة المزدانة بالاهداءات بين رفوف خشبية . في حين انني، انا، لا أكاد أملك كتابين او ثلاثة من كتبه : بلا شك لقد تقصدت ألا أطالب بجميع الكتب التي استعيرت مني . كما تقصدت ألا أصنف رسائله ، التي اضعت منها عدداً غير قليل : لم تكن موجهة إلا إلي ، انها ليست وديعة علي ذات يوم ان أعيدها . انني لست وريثة روبير ولا شاهده : انني زوجته .

لعل « غيت » قد ضمنت استيائي ، إذ وضعت على معصمي ، في ثقة من يعرف انه في بيته في كل مكان ، يدها الصغيرة المداعبة : « لكنهم لم يقدموا لك شيئاً ! دعيني أقودك إلى المائدة » . وابتسمت لي وهي تسحبني ، ابتسامة متواطئة : « أود كثيراً ذات يوم لو نثرثر ملياً ، كلتانا معاً : فمن النادر جداً ان يلتقي الانسان بامرأة ذكية » . كأنها قد اكتشفت الشخص الوحيد في الجمعية الذي يستطيع ان يفهمها . وتابعت : « أتعرفين ماذا سيكون لطيفاً ؟ ان تأتي ذات يوم مع دوبروي لتناول طعام العشاء في بيتي الصغير » .

ان هذه اللحظة لهي من أصعب لحظات الامتحان عندما يسألون بلامبالاة او تفوق ، موعداً . وفي الوقت الذي أجيب فيه بالكلمات المعتادة : « روبير مشغول جداً في هذه الأيام » ، أشعر بنظرتهم القاسية تضعني موضع اتهام . وفي النهاية اعترف امام نفسي انني مذنبة . انني زوجته ، نعم . لكن اولاً ، بأي حق ؟ ثم ليس هذا سبباً لأحتكره : فالنصيب العمومي يخص الجميع . وقالت

غيت :

– اواه ! اعرف ما معنى ان يشغل الانسان عمله . وانـــا ايضاً ، لا أخرج ابداً . إنما بطريق الصدفة ترينني هنا ! » وكانت ضحكتها تعني انني مخدوعـــة برضاي ، واما هي في الحقيقة فليست كذلك . « لكن هـــذا سيكون مختلفاً . مجرد عشاء صغير » . وأضافت في اعتراف : « ولن أدعو اليه إلا رجالاً . فأنا لا أحب صحبة النساء . انني اشعر انني تائهة تماماً بينهن . ألا تشعرين بذلك ؟ » .

– كلا . انني أتفاهم كل التفاهم مع النساء .

فنظرت إليّ في إنكار متجهم :

– هذا غريب ، غريب جداً . لا بد انني انا التي ليست طبيعية ..

كانت تعلن برضى في كتبها عن دونية جنسها . وكانت تظن انها تهرب منه ، برجولة موهبتها. وكانت تتفوق ايضاً على الرجال لأنها ، بالاضافة إلى تمتعها بصفاتهم نفسها ، كانت لها مزية فريدة وساحرة لكونها امرأة . وكانت هذه الحيلة تغيظني. وقلت في لهجة مهنية :

– انت لست غير طبيعية مطلقاً . فجميع الناس تقريباً يفضلن الرجال .

وتجمدت نظرتها تماماً ودون تصنع ، لكنها استدارت عن عمد نحو هوغيت فولانج . يا لغيت المسكينة ! كانت ممزقة بـين الرغبة في التملص من كل تأنيب بالنرجسية وبـين الرغبة في ان تعطي مزاياها قدرها . فكانت إذن تحاول ان تملي على الآخرين ما تتمنى ان يقال عنها . لكن اذا لم يقولوه ؟ هل يجب ان تقبل بأن تكون غير مفهومة ؟ كان هـــذا خياراً مؤلماً . وتبينت كلودي انني بمفردي ، وكربة بيت طيبة رمت بإحداهن بين ذراعي .

– آن لم تلتقي ابداً بلوسي بيلوم ؟ » وأضافت وهي تسرع نحو قادم جديد : « لقد عرفت في الماضي صديقتك بول جيداً » .

وقلت للمرأة الطويلة السمراء المرتدية ثوباً من نسيج عثماني أسود ومجوهرات ماسية ، والتي كانت تبتسم لي بطرف اسنانها :

– آه ! أتعرفين بول ؟

فقالت بصوت عابث :

– نعم ، لقـــد عرفتها جيداً . لقد ألبستها مجاناً ، من باب الأعلان ، عندما فتحت بيت « آماريليس » وكانت مبتدئة عند فالكور . كانت جميلة ، لكنها كانت لا تحسن لبس القبعـــات . » ورشقتني لوسي بيلوم بإحدى ابتساماتها . «يجب ان اقول إن ذوقها لم يكن موثوقاً جداً وانها لم تكن تقبل أية نصيحة. ذلك المسكين فالكور وانا ، قد تعذبنا كثيراً » .

فقلت :

– ان لبول اسلوبها الخاص .

– لم تكن قد وجدته في ذلك الحين . كانت معجبة بنفسها كثيراً إلى درجة لا تسمح لها بمعرفة ذاتها . وكان هذا يضرها ايضاً في مهنتها : كان لها صوت جميل، لكن لم تكن تعرف ما تفعـــل به . لم تكن تعرف مطلقاً كيف تستفيد مـن نفسها : فهي لم تكن تتجاوز مقدمة المسرح ابداً .

– لم أسمعها ابداً ، لكن قيل لي انها كانت ناجحة جداً . لقـد وقّعت عقداً للغناء في « ريو » .

فأخذت لوسي بيلوم تضحك : « لقد أصابت نجاحاً قصيراً مفاجئاً لأنها كانت جميلة . لكنها سرعان ما تدحرجت . فالغنـــاء ، كسائر المهن ، يتطلب عملاً ، والعمل لم يكن من طبعها . البرازيل : انني أذكر تلك القصة . كان عليّ ان اخيط لها أثوابها . لكن لم تكن جولتها الغنائية هي التي تهم الشاب ، ولقد فهمت ذلك جيداً . كانت اقل جنوناً مما تريد ان يظنه الناس . كانت تتظاهر بأنها تعتقد نفسها « ماليبران [1] » . لكن كل ما كانت تتمناه ، في الحقيقة ، هو ان تجد رجلاً جدياً يهتم بها ، وسرعان ما تخلت عن الباقي . كانت على حق ، فمـــا كانت ستنجح في مهنتها ابـــداً . إلامَ صارت اليه ؟ » سألت ذلك لوسي بصوت ودي فجأة : « قيل لي إن رجلها الكبير سيتخلى عنها ، أهذا صحيح ؟ » .

١ ـ ماريا غارسيا ماليبران : اشهر مغنية فرنسية في عصرها ، من اصل اسباني (١٨٠٨ - ١٨٣٦) « المترجم »

فقلت في حزم :
ــ مطلقاً لا ، إنهما يعبدان بعضهما البعض .
فقالت بصوت غير مصدق تماماً :
ــ آه ! هذا افضل . لقد انتظرته طويلاً بما فيه الكفاية ، الفتاة المسكينة .
ولبثت محتارة . كانت لوسي بيلوم تكره بول ، ولن اقبل هذه الصورة التي تقدمها لي عنها : عاهرة صغيرة صلفة كسلى تبحث عن حامٍ وهي تدندن . لكني تبينت ان بول في الحقيقة لم تحدثني ابداً عن سنواتها الأولى في باريس . ولا عن شبابها ولا عن طفولتها . لمَ إذن ؟
ــ اريد ان اقول لك صباح الخير ؟ ما عدت تكرهينني ؟
ــ كانت ماري آنج تبتسم لي في خجل مصطنع . وقلت وانا ابتسم لها ايضاً :
ــ تستحقين ذلك جيداً ! لقد جعلتني أمشي معك بشكل قذر !ــ
فقالت :
ــ كنت مرغمة .
ــ طمئنيني : أليس لك ستة اخوة واخوات ؟
فقالت بصوت صادق :
ــ صحيح انني البكر . لكن ليس لي إلا أخ واحد وهو في المغرب . »
وسألتني نظرتها في شره : « قولي إذن ، ماذا روت لك فانتادور ؟ » .
ــ لا شيء .
فقالت ماري ــ آنج :
ــ تستطيعين ان تقولي لي . يمكن ان يقال لي كل شيء . فهذا يدخل من هنا ــ واشارت إلى اذنيها ــ وهذا يخرج من هناك ــ واشارت إلى فمها .
فقلت وانا اشير إلى لوسي :
ــ هذا ما اخشاه . قولي لي بالأحرى ماذا تعرفين عن تلك المرأة الطويلة .
فقالت ماري ــ آنج :
ــ اواه ! انها امرأة رائعة !

– فيمَ ؟

– مع عمرها ، لا يزال لديها جميع الرجال الذين تريدهم ، وهي تتدبر أمرها بحيث تخلط النافعين منهم باللطفاء . وحالياً ، لديها ثلاثة يريدون ان يتزوجوها كلهم .

– وكل منهم يعتقد انه الوحيد ؟

– كلا . كل واحد يعتقد انه الوحيد الذي يعرف ان هناك اثنين آخرين .

– الا انها ليست على كل حال فينوس .

– يبدو انها كانت أقبح ايضاً في العشرين . لكنها تدبرت امرها بحيث لا تمكن معرفتها . » وأضافت ماري – آنج بلهجة الواسع الاطلاع : « يحدث كثيراً ان تتوصل النساء القبيحات عن طريق السيقان ، لكن لا بد لهن ان يقمن بعملية قذرة . كانت لولو في الأربعين ولا بد عندما فتحت بيت آماريليس بأموال الأب بروتو . وكانت قد بدأت تربح كثيراً عندما نشبت الحرب » . وقالت ماري – آنج بلهجة مشفقة : « والآن ، قد بدأت الأحوال تتحسن ثانية، لكنها سئمت منه . » وأضافت : « لهذا فهي رديئة جداً » .

– انني أرى . » وتفرست في وجه ماري – آنج : « عمّ جئت تبحثين هنا ؟ عن شائعات فاضحة ؟ »

– انني هنا للذتي الخاصة . انني أعبد الكوكتيلات ، أفلا تعبدينها ؟

– لا أرى ما المسلي فيها : اشرحي لي إذن ...

– حسناً ! اننا نرى كثيراً من الناس لا نرغب في رؤيتهم .

– هذا واضح .

– ثم يجب ان يظهر الانسان نفسه .

– لماذا ؟

– إذا كان يريد ان يُرى .

– وهل تريدين ان تُري ؟

– اواه ! نعم . ان ما أحبه خاصة هو ان أصوّر . وعضت على اصابعها :

« هذا ليس طبيعياً ؟ أتعتقدين ان عليّ ان أحلل نفسي ؟ » .

– إنني افهم ! إنها تقرر في داخلك .

– ماذا ؟ العقد ؟

– شيء كهذا .

فقالت في شكوى :

– لكن ماذا سيبقى لي اذا نُزعت مني ؟

وقال كلودي :

– تعالي هنا . الآن وقد انصرف المضجرون ، فنستطيع ان نلهو قليلاً .

كان يأتي دوماً وقت عند كلودي تعلن فيه ان المضجرين قد انصرفوا . وان كان نظام الانصراف يختلف من مرة إلى أخرى . وقلت :

– آسفة ، ولكن يجب ان انصرف معهم .

فقالت كلودي :

– كيف ؟ ولكن ستبقين للعشاء . سنتناول الطعام على طاولات صغيرة ، فهذا ظريف جداً . وسوف يأتي اناس أريد ان اقدمك اليهم . » وجرتني جانباً ، وقالت في مرح : « لقد قررت ان أهتم بك . من السخافة ان تعيشي بدائية . فلا أحد يعرفك : اقصد في الأوساط التي فيها مال يجمع . دعيني أدفعك إلى الأمام . سآخذك إلى احد الخياطين ، وسأعرضك ، وفي سنة سيكون لك افخر زبائن باريس » .

– عندي الآن كثير من الزبائن .

– نصفهم لا يدفع ، والنصف الآخر يدفع بتقتير .

– ليست هذه هي المسألة .

– هذه هي المسألة . مع زبون يدفع كعشرة ، تشتغلين عشر مرات أقل . وسيكون لك وقت لتخرجي وتلبسي .

– سوف نتحدث عن ذلك مرة أخرى .

كنت مندهشة من انها لا تفهمني مطلقاً . ولكن في الحقيقة لم أكن افهمها

بشكل افضل كثيرا . كانت تعتقد ان العمل ليس بالنسبة لنا إلا وسيلة للوصول إلى النجاح والثروة . وكنت مقتنعة بشكل مبهم ان جميع هؤلاء المحذلقين على أتم استعداد ليبدلوا مركزهم الاجتماعي بمواهب ونجاحات فكرية . ففي طفولتي كانت المعلمة تبدو لي شخصية أكثر بكثير من دوقة او من مليونيرة ، ولم يتعدل نظام الرتب هذا مطلقاً . في حين ان كلودي تتصور ان المكافأة العظمى بالنسبة لانسان كآنشتاين هي ان يستقبل في صالونها . لم نكن نستطيع مطلقاً ان نتفاهم . وقالت كلودي :

— اجلسي هنا ، فسوف نلعب لعبة الحقيقة .

انني أكره هذه اللعبة . انني لا اقول ابداً إلا أكاذيب ، ومن الشاق عليّ ان أرى شريكاتي ، في شرههن إلى عرض السر الذي يسكنهن دون ان يسئن إلى أنفسهن ، يتساءلن في دقة وخداع . وسألت هوغيت « غيت » :

— ما هي زهرتك المفضلة ؟

كانت لهن جميعاً زهرة مفضلة ، والفصل المحبب ، وكتاب الوسادة ، والخياط الرسمي .

وأجابت غيت وسط صمت ديني :

— السوسن الأسود .

ونظرت هوغيت إلى كلودي :

— كم لديك من العشاق ؟

— لم أعد أعرف : خمسة وعشرون او ستة وعشرون . انتظري . سأرى القائمة في غرفة الحمام . » وعادت وهي تصيح بصوت منتصر : « سبعة وعشرون » .

وقالت لي هوغيت :

— بمَ تفكرين ، في هذه اللحظة بالضبط ؟

وبالنسبة لي ايضاً ، اصبحت الحقيقة فجأة لا تقاوم :

— بأني أود ان أكون في مكان آخر . » ونهضت وقلت لكلودي : « جدياً لدي عمل عاجل . كلا ، لا تزعجي نفسك خصوصاً » .

وخرجت من الصالون وخرجت ورائي ماري - آنج التي ظلت ممددة على أريكة .

- ليس صحيحاً ، أليس كذلك ، ان لديك عملاً مستعجلاً ؟

- دوماً عندي عمل .

فقالت وهي ترميني بنظرة ضارعة حافلة بالوعود ، سرعان ما اطفأتها : « اني ادعوك للعشاء » .

- كلا ، حقاً ، ليس عندي وقت .

- إذن في مرة أخرى . ألا نستطيع ان نتقابل من حين لآخر ؟

- انني مشغولة للغاية !

ومدت لي طرف أصابعها في سحنة مستاءة . وامتطيت دراجتي وانطلقت في استقامة امامي . كان يلهيني بالأحرى ان أتعشى معها ، لكن لم أكن اعرف كيف سينتهي الأمر : كانت تخاف من الرجال ، وتمثل دور الفتيات الصغيرات ، ولكانت قدمت بسرعة قلبها وجسدها الصغير النحيف . واذا كنت قد تهربت ، فليس لأن الموقف يخيفني ، ولكن لأنني كنت أتوقعه بشكل حتمي جداً بحيث انه ما كان ليسليني . كان هناك كثير من الحقيقة في التوبيخ الذي وجهته لي نادين ذات يوم: «انت لا تنخرطين في اللعبة ابداً» . كنت أنظر إلى الناس بعيني طبيبة، وكان هذا يجعل من الصعب عليّ ان تكون لي معهم علاقات انسانية. إنني نادراً ما أكون قادرة على الغضب او على الحقد . والعواطف الطيبة التي يشعرون بها نحوي لا تؤثر مطلقاً : فمهنتي هي ان أثيرها . عليّ ان اتعرض بلامبالاة إلى نتائج التحولات التي أجريها ، وان أصفيها في الوقت المطلوب . وإنني لأحتفظ بهذا الموقف ، حتى في حياتي الخاصة . فما ان ابلغ الموضوع ، حتى أحلل اضطراباته الطفولية ، وأرى نفسي كما أظهر في احلامه : أماً ، جدة ، أختاً ، طفلة ، معبودة . انني لا أحب كثيراً الخزعبلات التي يغدقونها على صورتي ، لكن لا بد ان اخضع لها . وأفترض انه لو حدث لشخص عادي ان دفعته نزواته للتعلق بي ، فإنني سرعان ما أتساءل : من يري فيّ ؟ اية رغبات مكبوتة يريد ان

يرويها ؟ ولن أكون قادرة على أي اندفاع .

لا بد انني خرجت من باريس . فأنا أجري على طول السين ، في درب ضيق محفوف من اليسار بسور ومن اليمين بمنازل صغيرة متعرجة يضيئها من بعيد إلى بعيد مصباح قديم جداً . كانت البلاطات موحلة ، ولكن كان ثمة ثلج ابيض على الرصيف . وابتسمت للسماء القاتمة . ان هذه الساعة ، قد ربحتها بالهرب من صالون كاودي ، وانا غير مدينة بها لأحد : لهذا بدون شك كان هناك كثير من الغبطة في الجو البارد . كنت أتذكر : غالباً في الماضي كان تنفسي يسكرني ، والفرح ينهمر عليّ ، وأقول في نفسي آنذاك انه لو لم توجد مثل هذه الأوقات ، لما كان هناك داعٍ لتحمل مشقة الحياة . ألن تولد ثانية ؟ انهم يعرضون عليّ ان أعبر المحيط ، ان أكتشف قارة . وكل ما اعرف ان أجيب به هو « انني خائفة » . ممّ انا خائفة ؟ لم أكن وجلة النفس في الماضي . كنت في غابات « بابوليف » او في غابة « غريزين » ، أضع حقيبتي تحت رأسي ، وأتدثر بغطاء ، وأنام بمفردي تحت النجوم بالهدوء نفسه الذي أنام به في فراشي . كان يبدو لي طبيعياً ان أتسلق دون دليل ، حسبما تقودني المغامرة ، جبالاً عالية منسابة ثلوجها . وكنت أحتقر جميع نصائح الاحتراس . كنت أجلس بمفردي في مقاهي الهافر او مارسيليا ، وأتنزه بمفردي عبر القرى الجزائرية القبائلية ... واستدرت على عقبي فجأة . لا فائدة من الزعم بأنني أجري إلى اقصى العالم : كنت أريد ان استعيد حريتي القديمة ، فالأفضل لي ان أعود إلى البيت وان أجيب روميو هذا المساء بالذات : نعم .

لكني لم أجب ، وبعد عدة ايام كنت لا أزال أسأل النصح ، قلقة ، وكأن القضية قضية بعثة إلى باطن الأرض .

– مكاني ، هل كنت تقبل ؟

فقال هنري في دهشة :

– بالتأكيد .

كان ذلك في الليلة التي كانت فيها احرف « الفاء »[1] الكبيرة المضيئة تشق عرض سماء باريس . وكانوا قد أتوا بشمبانيا ، واسطوانات . وقد أعددت عشاء ووضعت زهوراً في كل مكان . وقد ظلت نادين في غرفتها متذرعة بشغل عاجل : كانت حردة من عيد لم يكن في نظرها إلا ذكرى موت . وكان سكرياسين يقول : « عيد غريب . انه ليس نهاية ، بل بداية : بداية المأساة الحقيقية » .

كان يرى ان الحرب العالمية الثالثة قد نشبت وقلت له في مرح :

ـ كفّ إذن عن تمثيل « كاساندر [2] » . ففي سهرة الميلاد كنت تتنبأ لنا بكوارث : اعتقد حقاً انك خسرت رهانك .

فقال :

ـ لم نراهن . ولم يمض عام بعد .

ـ على كل حال ، ان الفرنسيين لم يأخذوا بالقرف من الأدب. » واخذت هنري شاهداً : « انها لأسطورية ايضاً كمية المخطوطات التي تتلقونها في « الطوارىء » ، أليس كذلك ؟

فقال سكرياسين :

ـ هذا يبرهن على ان فرنسا قد اختارت مصير الاسكندرية. كنت إفضل لو تلقى « الطوارىء » نجاحاً اقل وألا تهدد بالتصفية جريدة كـ « الأمل » .

فقال هنري في حدة :

ـ ماذا تروي ؟ ان « الأمل » في خير حال .

ـ قيل لي انكم ستضطرون للبحث عن إعانات فردية .

ـ من قال لك ذلك ؟

ـ آه ! لم أعد أعرف : انها شائعة منتشرة .

فقال هنري في جفاء :

---

١ ـ الحرف الاول من « كلمة نصر » الفرنسية .

٢ ـ كاساندر : في الاساطير اليونانية : عرافة منحها ابولون موهبة التنبؤ بالمستقبل . لكنه سرعان ما غضب عليها ، وقرر الا يصدق الناس ما تقوله . « المترجم »

ـ انها شائعة كاذبة .

لم يكن يبدو عليه انه حسن المزاج ، وهذا غريب لأن الجميع كانوا مرحين جداً ، حتى بول ، حتى سكرياسين الذي كان يأسه المزمن لا يريم . وكان روبير يروي قصصاً عن عالم آخر ، قصصاً عن السنوات العشرين. وكان لونوار وجوليان ينبشان معه تلك الأيام الغريبة . وكان ضابطان اميركيان لا يعرفهما احد ، يغنيان بصوت خافت اغنية من الغرب البعيد ، وكانت زجاجة وسكي ترقد على مؤخرة الأريكة . وعلى الرغم من الكوارث الماضية ، والمآسي القادمة ، كانت تلك الليلة ليلة عيد ، وكنت واثقة من ذلك ، ليس بسبب الأناشيد والأسهم النارية ، بل لأنني كنت ارغب في آن واحد في ان أضحك وأبكي . وقلت :

ـ هيا لنرى ماذا يجري في الخارج ! ثم نعود لتناول العشاء .

وقبل الجميع في حماسة . ودون مشقة كبيرة وصلنا إلى مدخل المترو الذي نقلنا إلى الكونكورد . ولكن الوصول إلى الساحة كان شيئاً آخر . كان الدرج غاصاً بالجمهور . وكي لا نفقد بعضنا ، عقدنا الأذرع بقوة ، ولكن في اللحظة التي وضعنا فيها أرجلنا على الدرجة الأخيرة، حدثت هزة عنيفة جداً حتى انني انفصلت عن ذراع روبير : ووجدت نفسي وحيدة مع هنري، وقد أصبح شارع الشانزيليزه وراءنا مع اننا كنا عازمين على الصعود نحوه . وكانت الموجة تقودنا نحو « التويلوري » . وقال هنري :

ـ لا تحاولي المقاومة . سنعود جميعاً إلى بيتكم مباشرة . ليس علينا إلا ان نتبع التيار .

وبين الأناشيد والضحكات انعطفنا حتى ساحة الاوبرا ، الدامية بالأنوار وبالزينة الحمراء . وكان الجو مخيفاً بعض الشيء ، لأنك لو تعثرت ، او وقعت ، لداستك الأقدام . ولكنه كان باعثاً للنشوة ايضاً . لم يكن أي شيء قد انتهى ، فالماضي لن يبعث ، والمستقبل غير أكيد : لكن الحاضر كان ينتصر ولم يكن عليّ إلا ان أتركه يحملني ، فارغة الرأس ، يابسة الفم ، خافقة القلب .

واقترح هنري :

– ألا تشربين كأساً ؟
– إذا كان هذا ممكناً .

وببطء ، وبجهد كثيرة ، تمكنا من الخروج من قلب الجمهور وسط شارع يصعد نحو مونمارتر . ودخلنا إلى ملهى مليء بعسكريين أميركان يدندنون بأغان ، وطلب هنري شمبانيا . كنت يابسة الحلق من العطش ، والتعب ، والانفعال ، وأفرغت بجرعة واحدة كأسين . وقلت :

– انه عيد ، أليس كذلك ؟
– بالتأكيد .

ونظر احدنا إلى الآخر بمودة. من النادر ان أشعر انني مرتاحة تماماً مع هنري، فهناك كثير من الناس بيننا : روبير ، نادين ، بول . ولكنه في تلك الليلة ، كان يبدو لي قريباً جداً ، وكانت الشمبانيا تبعث في نفسي الجرأة :

– مع ذلك لا يبدو انك مرح ، هذا المساء .

– بلى . » وناولني سيجارة . وفي الحقيقة لم يكن مرحاً . « لكني أتساءل من الذي يشيع ان « الأمل » تواجه مصاعب . من الممكن جداً ان يكون سامازيل » .

فقلت :

– ألا تحبه ؟ انا ايضاً . انهم لمضجرون اولئك الناس الذين لا يخرجون ابداً دون شخصيتهم .

فقال هنري :

– لكن روبير يعظمه .
– روبير يجده مفيداً ، لكنه لا يشعر بالود نحوه .

فقال هنري :

– هل هناك فرق ؟

وبدا لي جرس صوته غريباً كغرابة سؤاله : « ماذا تعني ؟ » .

– ان دوبروي ، في الوقت الراهن ، خائض كلياً فيما يفعله ، بحيث ان مودته

للناس تقاس بمقدار نفعهم ، لا أكثر ولا أقل .

فقلت في استنكار :

– لكن هذا ليس صحيحاً مطلقاً .

فنظر إليّ في سخرية : « انني لأتساءل ما الصداقة التي كان سيشعر بها نحوي لو لم أفتح « الأمل » للاشتراكي الثوري الحر ؟ » .

فقلت :

– كان سيخيب أمله . بديهي . كان سيخيب أمله للأسباب نفسها بالضبط التي جعلتك تقبل .

فقال في حدة أكثر مما ينبغي :

– اوه ! على كل ، ان هذا النوع من الفرضيات سخيف .

كنت أتساءل ما إذا كان روبير قد جعله يشعر انه يخيّره بين الأمرين . إنه يستطيع ان يكون فظاً عندما يريد ان يصل بأي ثمن إلى غاياته . وسيؤسفني ان يكون قد جرح شعور هنري . فهو الآن وحيد بما فيه الكفاية ، ويجب على الأخص ألا يخسر هذه الصداقة . وقلت :

– كلما تعلق روبير بالناس ، طلب منهم أكثر . مع نادين مثلاً ، لقد لاحظت ذلك جيداً : فمن اللحظة التي لم يعد فيها ينتظر منها كثيراً ، تناقص تعلقه بها قليلاً .

– آه ! ولكن ليس سواء ان يكون الانسان متطلباً لمصلحة الغير او لمصلحته هو . ففي الحالة الأولى ، نعم ، هذا دليل على الحب . . .

فقلت :

– ولكن الشيئين بالنسبة لروبير يختلطان .

انني أنفر ، عادة ، من الحديث عن روبير . لكني كنت أريد كل الارادة ان أبدد ذلك النوع من الكراهية الذي كنت أستشعره عند هنري : « ان الارتباط بين « الأمل » و « الاشتراكي الثوري الحر » كان في نظره ضرورة ، فكان عليك إذن ان تتعرفها » . وسألت هنري بنظرتي : « أتظن انه تحكم بك بسهولة أكثر مما ينبغي ؟ ولكن كان هذا عن تقدير » .

فقال هنري مبتسماً :

– اعرف انه يضفي على الآخرين بديهياته الخاصة : اعترفي ان هذا النوع من التقدير أمبريالي بعض الشيء .

فقلت :

– بعد كل شيء ، انـه لم يكن مخطئاً إلى هذا الحد ما دمتا متفقين . انني لا أرى جيداً ما تأخذه عليه .

– هل قلت انني آخذ عليه شيئاً ما ؟

– كلا ، لكن هذا محسوس .

فتردد هنري وقال وهو يهز كتفيه : « اواه ! انهـا مسألة فروق بسيطة . كنت ستأحمد دوبروي لو وضع نفسه دقيقة من وجهـة نظري » . وابتسم لي في لطف تام : « كنت ستفعلين ذلك » .

فقلت :

– انني لست امرأة عمل . » وأضفت : « نعم ، انـ روبير يتعمد من حين لآخر ان يضع عصابة على عينيه . لكن هذا لا يمنع انه ، بشكل عام ، يهتم اهتماماً حقيقياً بالآخرين ، ويشعر نحوهم بعواطف متجردة : انت ظالم » .

فقال هنري في مرح :

– ربما . أتعرفين ، عندما يقبل الانسان رغماً عنه ان يفعل شيئاً ، فإنه يحقد قليلاً على الذي دفعه إلى ذلك : انا اوافق على ان هذا ليس شريفاً تماماً .

وتفرست في وجه هنري في نوع من التأنيب :

– أتثقل عليك كثيراً هذه العلاقات الجديدة بين « الأمـل » و « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال :

– اواه ! الآن ، لم يعد هناك مجال لهذا . فأنا غاطس في الحمام .

– لكنك لم تكن تريد ان تغطس ؟

فابتسم : « ليس بشكل جنوني » .

كان قد ردد مراراً ان السياسة تسئمه، وكان غارقاً فيها حتى عنقه . وتنهدت: « هناك على كل حال شيء حقيقي فيما يقوله سكرياسين . ان السياسة لم تكن ملتهمة للناس كما هي اليوم » .

فقال هنري في نوع من الحسد :

ــ ان ذلك الغول دوبروي لا يتركها تلتهمه . انه يكتب بقدر ما كان يكتب في الماضي .

فقلت :

ــ بقدر الماضي . » وترددت ، لكني كنت أشعر حقاً انني واثقة بهنري ، وقلت : « انه يكتب بقدر الماضي ، ولكن بحرية أقل . تلك المذكرات التي قرأت منها مقاطع، حسناً! لقد تخلى عن نشرها ، وهو يقول ان فيها أسلحة كثيرة ضده . انه لشيء محزن ، أليس كذلك ، ان يفكر الانسان بأنه اذا أصبح رجلاً عمومياً فلن يستطيع ان يظل صادقاً تماماً ككاتب ؟ » .

وصمت هنري ثانية ، وقال : « بديهي ان هناك نوعاً من مجانية الكتابة يختفي. ان كل ما ينشره دوبروي اليوم يقرأ من خلال سياق لا بد له ان يأخذه بعين الاعتبار . لكن لا أعتقد ان هذا ينقص من صدقه » .

ــ ان كون تلك المذكرات لم تظهر ، فهذا يحزنني ، انا !

فقال ودياً :

ــ انت مخطئة . ان مؤلفات انسان يعترف حرفياً ، لكن دون مسؤولية ، لن تكون أكثر حقيقية وكمالاً من مؤلفات انسان يتحمل مسؤولية كل ما يقوله.

فقلت :

ــ اتظن ؟ » وأضفت : « أأنت ايضاً ، قد انطرح عليك السؤال ؟ » .

فقال :

ــ كلا ، ليس هكذا مطلقاً .

ــ لكن ثمة اسئلة قد انطرحت ؟

فقال بلهجة متهربة :

– ان الأسئلة لا تكف عن الانهار ، أليس كذلك ؟

فألححت : « كيف تسير روايتك المرحة ؟ » .

– بالضبط ، ما عدت أكتبها .

– أأصبحت حزينة ؟ لقد قلت لك ذلك .

فقال هنري في ابتسامة اعتذار :

– لم أعد اكتب . مطلقاً .

– كيف ؟

– مقالات ، نعم : انها تستهلك في مكانها . ولكن ما عدت استطيع ان أكتب كتاباً حقيقياً .

لم يعد يستطيع : هناك إذن بعض الحقيقة في هذيان بول . هو الذي كان يحب الكتابة للغاية ، كيف حدث ذلك ؟ وقلت : « لكن لماذا ؟ » .

– شيء طبيعي ألا نكتب ، أتعرفين . ان العكس بالأحرى هو اللاطبيعي .

فقلت :

– ليس بالنسبة لك . انت لا تتصور الحياة دون كتابة .

كنت أنظر اليه باستياء . كنت قد قلت لبول : « الناس يتبدلون » . ولكن مهما عرفنا انهم يتبدلون ، فإننا نعاند بالنظر اليهم على انهم لا يتغيرون في نقاط عديدة : نجمة ثابتة أخرى قد اخذت ترقص في سمائي : « أتعتقد ان هذا لا جدوى منه ، اليوم ؟ » .

فقال هنري :

– اواه ! كلا . اذا كان هناك أناس لا يزال للكتابة معنى في نظرهم ، فهذا أفضل لهم . لكني شخصياً ، لم أعد راغباً : هذا كل شيء » . وابتسم : « سأعترف لك بكل شيء : لم يعد لدي ما اقوله . او لنفترض ان ما لدي لأقوله ، يبدو لي لا شيء » .

فقلت :

– هذا عارض مزاج سوف يمر .

ـ لا أعتقد .

كان قلبي منقبضاً . لا بد ان هذا محزن له بشكل فظيع ، هذا الاستنكاف . وقلت في تأنيب موجهاً لي وله : « إننا نرى بعضنا البعض غالباً ، ولم تحدثنا عن ذلك ابداً » .

ـ لم يكن هناك مجال .

ـ صحيح انك مع روبير لم تعد تتحدث إلا عن السياسة ! » وجاءني إلهام مفاجيء : « ألا تعرف ماذا سيكون عظيماً ؟ سنقوم برحلة على الدراجة هذا الصيف ، انا وروبير . تعال معنا مدة أسبوع او اسبوعين » .

فقال بلهجة مترددة :

ـ قد يكون هذا مفيداً .

ـ سيكون كذلك حتماً ! » وترددت بدوري : « إلا ان بول لا تركب الدراجة » .

فقال في حدة :

ـ اواه ! على كل حال لن أمضي إجازتي كلها معها . ستذهب إلى « تور » عند أختها .

وساد صمت قصير . وسألت على حين غرة :

ـ لماذا لا تريد بول ان تحاول العودة إلى الغناء ؟

فقال بصوت خائب :

ـ لو كنت تستطيعين ان تقولي لي ذلك ! لا اعرف ما في رأسها ، هذه الأيام . » وهز كتفيه : « لعلها خائفة ، إذا كونت لها حياة خاصة بها ، ان استفيد منها لأعدل علاقاتنا » .

فقلت :

ـ وهذا ما تتمناه ؟

فقال في اندفاع .

ـ نعم . » وأضاف : « منذ زمن بعيد لم أعد احبها . وهي تدرك ذلك

جيداً على كل حال وان كانت تتشبث بالتأكيد على انه ما من شيء تغير » .
فقلت :
ـ اشعر انها تعيش على مستويين في آن واحد . انها مدركة تماماً ، وفي الوقت نفسه تقول لنفسها انك تحبها حباً جنوناً ، وانها كانت تستطيع ان تكون اعظم مغنية في العصر . وأعتقد ان إدراكها سيتغلب في النهاية : لكن إلامَ ستصير اليه آنذاك ؟

فقال هنري :
ـ آه ! لا أدري ! انني لا أريد ان أتصرف كنذل ، لكني لست مؤهلاً لتمثيل دور الشهيد . احياناً يبدو لي الموقف بسيطاً جداً : عندما لا نعود نحب ، فنحن ما عدنا نحب . وأحياناً اخرى ، يبدو لي ان من الظلم ان أكون قد كففت عن حبها : انها بول نفسها .
ـ اعتقد ان الحب ايضاً ظلم .
فقال :
ـ فإذن ؟ ماذا استطيع ان افعل ؟
كان يبدو معذباً حقاً . ومرة أخرى قلت في نفسي انني مسرورة تماماً لأنني امرأة : فعلاقتي إنما هي مع الرجال ، وهذا يطرح مشاكل اقل بكثير . وقلت :
ـ لا بد ان تضحي بول من جانبها ، إذا كنت متضايقاً إلى هذا الحد . إذ لا يمكننا ان نعيش في تأنيب ضمير ، لكن لا يمكننا ايضاً ان نعيش رغماً عنا .
فقال في طلاقة مصطنعة :
ـ ربما كان علينا ان نتعلم ان نعيش رغماً عنا .
فقلت :
ـ لا ! انا واثقة ان لا ! اذا لم نكن راضين عن حياتنا ، فلا أرى من أية وجهة نظر يمكن ان نبررها .
ـ أأنت راضية عن حياتك ؟
وأخذني السؤال على حين غرة . كنت قد تكلمت باسم قناعة قديمة . ولكن

إلى أي حد لا أزال انسجم معها ، انني لا اعرف . وقلت في حرج : « انني لست مستاءة » .

وبدوره ، تفحصني : « ويكفيك ألا تكوني مستاءة ? » . . .

– ليس هذا سيئاً للغاية .

فقال بلطف :

– لقد تغيرت . في الماضي كنت راضية عن مصيرك بشكل وقح تقريباً .

فقلت :

– لماذا أكون الوحيدة التي لم تتغير ?

ولكنه ، هو ايضاً ، لم يتراجع :

– خيل إليّ احياناً ان مهنتك لا تستهويك كالماضي » .

فقلت :

– انها تستهويني ، لكن ألا أتعقد ان من التفاهة إلى حد ما ، اليوم ، ان أعالج حالات نفسية ?.

فقال :

– بالنسبة للذين تشفينهم، هذا هام . هام اليوم كما كان في الماضي : اين الفرق?

فترددت : « المشكلة انني في الماضي كنت أؤمن بالسعادة ، اعني : كنت أعتقد ان الناس السعداء على صواب . وكان شفاء مريض يعني ان اجعل منه شخصاً حقيقياً ، قادراً على إعطاء حياته معنى » . وهززت كتفي : « لا بد من ثقة كبيرة بالمستقبل للايمان بأن كل حياة يمكن ان يكون لها معنى » .

وابتسم هنري . كانت عيناه تسألانني . وقال : « ليس المستقبل اسود إلى هذا الحد » .

فقلت :

– لا ادري . لعلي في الماضي كنت أراه وردياً جداً ، لهذا فأن الرمادي يخيفني . » وابتسمت : « انني في هذه النقطة تغيرت أكثر من أي انسان آخر ، انني أخاف من كل شيء » .

فقال :
ـ الآن ، انت تدهشينني !
ـ أؤكد لك . اليك ، ها قد مضت أسابيع على اقتراحهم عليّ الذهاب إلى اميركا ، في كانون الثاني، لحضور مؤتمر للتحليل النفسي. ولم استطع بعد ان أقرر.
فقال بصوت مستنكر :
ـ لكن لماذا ؟
ـ لا أدري . هذا يغريني ، لكني ، في الوقت نفسه ، خائفة . اما كنت لتخاف ؟ اكنت تقبل ، مكاني ؟
فقال :
ـ بالتأكيد ! ماذا تريدين ان يحدث لك ؟
ـ لا شيء خاصاً . » وترددت : « لابد انه شيء غريب ان أرى نفسي وان أرى الناس الذين أتعلق بهم من اعماق عالم آخر ... » .
ـ لا بد انه شيء مفيد جداً . » وابتسم لي مشجعاً : « يقيناً سوف تكتشفين بعض الاكتشافات الصغيرة . لكن سيدهشني كثيراً ان تُقلب حياتك . ان الأشياء التي تحدث لنا او التي نفعلها ، ليس لها أهمية كبيرة في النهاية ... » .
وأطرقت برأسي . وفكرت : « هذا صحيح . ان للأشياء أهمية اقل دوماً مما اظن . سأرحل ، سأعود ، كل شيء يمضي ، لا شيء يمضي » . ان هذه الخلوة بالذات قد مضت . كان يجب ان نعود إلى المنزل للعشاء . ان صميمية هذه الساعة ، ثقتها ، كنا نستطيع ان نطيلها حتى الفجر : ربما إلى ما بعد الفجر . ولكن لألف سبب كان يجب ألا نحاول . كان لا يجب ؟ على كل حال ، اننا لم نحاول . وقلت :
ـ يجب ان نعود لرؤية الآخرين .
فقال هنري :
ـ نعم . قد آن ذلك .
وسرنا في صمت حتى المترو ورأينا الآخرين من جديد .

كانت مقابلة روبير مع لافوري عاصفة ، لكن في مجاملة . فما من احد منهما كان يرفع صوته ، لكنهما تبادلا تهم مجرمي الحرب . واستنتج لافوري في النهاية في لهجة محزونة : « سنرغم على الانتقال إلى الهجوم » . ولم يمنع هذا روبير من اعداد المهرجان المتوقع اقامته في حزيران ، في حماسة . ولكن ذات مساء ، بعد جلسة طويلة مع سامازيل وهنري ، سألني على حين غرة :

- أأنا محق ام لا في تنظيم هذا المهرجان ؟

وتفرست في وجهه بذهول : « لماذا تسألني هذا ؟ » .

فابتسم : « كي تجيبيني ! » .

- انت تعرف افضل مني .

- ان المرء لا يعرف ابداً .

وتابعت تفحصه بنظرة محتارة : « التخلي عن المهرجان ، يعني التخلي عن « الاشتراكي الثوري الحر » .

- طبعاً .

- لقد شرحت لي طويلاً بعد مناقشتك مع لافوري لماذا لا ترى ان استسلامك مسألة واردة . ما الشيء الجديد الذي حدث ؟

فقال روبير :

- لم يحدث شيء .

- إذن ؟ لمَ غيّرت رأيك ؟ ألم تعد تعتقد انّ بالامكان ان يوضع الشيوعيون امام الأمر الواقع ؟

- بلى . فمن المرجح ، في حال النجاح ، الا يقطعوا الجسور . » وبقي صوت روبير معلقاً . وتردد : « انني أتساءل عن الكل بأجمعه » .

- عن مجموع الحركة ؟

- نعم . اوروبا الاشتراكية تلك ، انني لأتساءل احياناً ما إذا لم تكن طوبائية . ولكن كل فكرة لما تتحقق بعد تشبه بشكل غريب طوبائية . اننا ما كنا لنفعل شيئاً لو اعتبرنا ان ما من شيء ممكن ، باستثناء ما هو موجود أصلاً .

كان يبدو عليه انه يدافع عن نفسه ضد مخاطب لامرئي، وكنت أتساءل من اين أتته هذه الشكوك فجأة . وتنهد : « ليس سهلًا الانطلاق بين امكانية حقيقية وبين حلم » .

– ألم يكن لينين يقول : « يجب ان نحلم ؟ » .

– نعم . ولكن بشرط ان نؤمن جدياً بحلمنا . تلك هي المسألة : هل أؤمن به جدياً بما فيه الكفاية ؟

ونظرت اليه في دهشة : « ماذا تعني ؟ » .

– ترى ألا أعاند تحدياً ، او كبرياء ، او ارضاء لنفسي ؟

فقلت :

– غريب ان يتملكك هذا النوع من الوساوس . فأنت عادة لا ترتاب في نفسك .

فقال روبير :

– انني ارتاب عادة في عاداتي !

– إذن ، ارتب ايضاً في هذا الارتياب . لعل الاستسلام يغريك خوفاً من فشل ، او خوفاً من كمية من التعقيدات .

فقال روبير :

– ربما .

– افترض انك لست منشرحاً من فكرة ان الشيوعيين سيفتحون حملة ضدك؟

فقال روبير :

– كلا ، لست منشرحاً. كم ألقى من عناء لأجعلهم يفهموني! وسوف يخلقون عن قصد اسوأ سوء تفاهم . » واضاف : « نعم ، ربما كان الكاتب فيّ هو الذي ينصح بجبن الرجل السياسي بأن ينجو بجلده » .

فقلت :

– أترى ! إذا بدأت تنتقد دوافعك ، فلن تخرج من المشكلة . إبق إذن على ارض موضوعية ، كما يقول سكرياسين .

فقال روبير :

ـ واأسفاه ! انهـا ارض متحركة للغاية ! خاصة عندما لا نملك إلا معلومات ناقصة . نعم ، نعم : انني أؤمن بفرص يسار اوروبي : لكن أليس ذلك لأنني مقتنع بضرورته ؟

كان يثبط عزيمتي ان يطرح روبير المسألة بهذا الشكل . لقد وبخ نفسه بعنف على انه آمن بسذاجة كبيرة بنية الشيوعيين الطيبة : لكن كان يجب ألا يكفي هذا ليشك في نفسه إلى هذا الحد. كانت المرة الأولى في حياتنا التي أراه فيها يغريه حل كسول . وقلت :

ـ منذ متى بدأت تفكر بالتخلي عن « الاشتراكي الثوري الحر » ؟

فقال روبير :

ـ اواه ! انني لا أفكر بذلك موضوعياً . انني اتساءل .

ـ منذ متى بدأت تفكر هكذا ؟

فقال روبير :

ـ منذ يومين او ثلاثة .

ـ ودون سبب خاص ؟

فابتسم : « دون سبب خاص » .

وتفرست في وجهه وقلت: « أليس هذا لأنك متعب فقط؟ انت تبدو متعباً» .

فقال :

ـ انا متعب قليلاً ، هذا صحيح .

لقد وثب هذا امام ناظري فجأة: انه يبدو متعباً جداً . كانت عيناه ورديتين، وجلده كالحاً ، ووجهـه منتفخاً . وفكرت في قلق : « هذا لأنه لم يعد شاباً . اواه ، انه لم يصبح شيخاً بعد . لكنه على كل حال لم يعد يستطيع ان يسمح لنفسه بتطرفات الماضي . وفي الواقع كان يسمح لنفسه بها ، بل يضاعفها : ربما ليثبت لنفسه انـه لا يزال شاباً . فبالاضافة إلى « الاشتراكي الثوري الحر » ، و « الطوارىء » ، وكتابـه ، كانت هناك الزيارات ، والرسائل والاتصالات

الهاتفية. كان لديهم جميعاً اشياء عاجلة يجب ان يبلغوه إياها: تشجيعات، انتقادات، اقتراحات، مشاكل. وإذا لم يستقبلهم، إذا لم يؤثر عليهم، فإنه يجوعهم، ويحكم عليهم بالبؤس، بالجنون، بالموت، بالانتحار. وكان روبير يستقبلهم، ويسرق وقته من لياليه، ولا ينام تقريباً.

وقلت:

ـ انت تشتغل أكثر مما ينبغي بكثير! اذا تابعت هكذا، فسوف تغطس. ذات يوم سيصاب قلبك بالسكتة، وانا، سأكون رطبة!

فقال:

ـ شهر آخر من النصب، لا أكثر.

ـ وتظن شهر إجازة يكفي لتستعيد قواك؟». وفكرت، وقلت: «يجب ان نحاول ان نجد بيتاً في الضواحي. سوف تذهب إلى باريس مرة او مرتين في الأسبوع وباقي الوقت لا زيارات ولا اتصالات هاتفية: راحة».

فقال روبير بصوت هازىء:

ـ أأنت التي ستجدينه، البيت؟

لم يكن لي ميل ولا وقت مطلقاً لأتردد على الوكالات، وازور الفيلات. ولكن كانت رؤية روبير يجهد نفسه تحطم قلبي. لقد قرر ان المهرجان سيعقد، لكنه ظل قلقاً: فلن يتخوف الشيوعيون إلا إذا كان النجاح مدوياً. وفيما لو قطعوا الجسور، فإلامَ سيصير اليه «الاشتراكي الثوري الحر»؟ انا ايضاً، كان نجاحه يشغل بالي. فأنا أعلق اهمية اكثر من روبير ايضاً على الأفراد، واحداً واحداً. وعلى ثروات الحياة كلها: العواطف، الثقافة، السعادة. انني بحاجة إلى الاعتقاد بأن الانسانية في المجتمع اللاطبقي ستتم دون ان تنكر شيئاً من ذاتها.

كانت نادين، بفضل السماء، قد كفت عن ان تنقل لأبيها مآخذ رفاقها الشيوعيين. ولم تعد تصدع رأسنا بالشتائم ضد الامبريالية الأميركية، وقد اطبقت نهائياً «الرأسمال». ولم ادهش حين قالت على حين غرة:

– في الحقيقة ، ان الشيوعيين لا يختلفون عن البورجوازيين .
– كيف ذلك ؟
كنت امسرح شعري تسريحتي الليلية وكانت جالسة على حافة اريكتي . كانت غالباً في هذا الوقت ما تحدثني عن الأشياء التي تشغل بالها .
– انهم ليسوا ثوريين. انهم مع النظام ، والعمل والأسرة، والعقل. وعدالتهم، إنها في المستقبل . وبانتظار ذلك فإنهم يتدبرون امرهم مع الظلم كالآخرين . ثم ان مجتمعهم ، حسناً ! سيكون ايضاً مجتمعاً .
– بديهي.
– اذا كان يجب ان ننتظر خمسمئة عام كي لا يكون العالم حتى قد تغير ، فهذا لا يهمني .
– انت لا تتصورين اننا سنعيد صنع العالم ، في فصل واحد .
– هـــذا ممل ، انت تتحدثين كجولي . انك تتكلمين وكأنني اعرفها ، سلطاتهم . لكني لا أرى إذن لمَ سأدخـــل إلى الحزب الشيوعي . انـه حزب كأي حزب .
كنت أفكر في أسف وانا أنهي إزالة مكياجي : « ها هي قصة اخرى ساءت خاتمتها . كانت بحاجة شديدة إلى قصة ناجحة ! » .
وقالت :
– الأفضل ، ان يظل الانسان وحيداً مثل فانسان. انه نقي ، انــه ملاك.
ملاك . الكلمة التي كانت تستعملها بخصوص دييغو . لا شك في انها تجد ثانية عند فانسان ذلك الكرم وذلك الهوس اللذين لمسا قلبها في الماضي . كل ما هنالك ان ديبغو كان يضع جنونه في كتاباته، ويمكنني ان اخشى ان يضع فانسان جنونه في حياته . هل كان ينام مع نادين ؟ لم اكن اعتقد ذلـك ، لكنهما يتقابلان كثيراً جـــداً هـذه الأيام . وكنت أهنىء نفسي على ذلك بالأحرى ، لأن نادين كانت تبدو لي مضطربة ، ولكن مرحة . ولهذا سمعت ، دون ان اتوجس شراً ، دقـة الجرس تلك ، في الساعة الخامسة صباحاً . لم تكن نادين قـد عادت

وافترضت انها نسيت مفتاحها . ولكن عندما فتحت الباب ، رأيت فانسان .
وقال لي :
ــ لا تقلقي !
مما اقلقني فوراً . وقلت : « حدث شيء لنادين ! » .
فقال :
ــ كلا ، كلا ، انها على ما يرام . كل شيء سيتدبر . » وسار في حزم نحو غرفة الجلوس ، وقال في اشمئزاز : « حتى نادين امرأة ! » . ومن جيب سترته الجلدية ، اخرج خارطة بسطها على الطاولة . وقال وهو يشير الى نقطة تصالب طريقين صغيرين : « بكلمتين ، انها تنتظرك عند هذا المفرق ، شمالي غربي شانتيلي . يجب ان تحصلي على سيارة وان تذهبي فوراً للاتيان بها . سيعيرك بيرون بالتأكيد سيارة الجريدة . لكن لا تعطيه تفسيراً . اطلبي منه العربة ، لا أكثر . وعلى الأخص لا تذكري اسمي » .
كان قد تكلم دون ان يأخذ نفساً ، بصوت هادىء وقاسٍ لم يطمئني مطلقاً . وكنت واثقة أنه خائف : « ماذا تفعل هناك ؟ هل أصابها حادث ؟ » .
ــ اقول لك ان لا . لقد أتلفت قدميها ، هذا كل شيء ، إنها لا تعرف كيف تمشي . لكن ستصلين في الوقت المناسب لأخذها . أترين المكان جيداً ؟ انني أؤشر بصليب . ليس عليك إلا ان تبوقي او تنادي ، فهي الغابة الصغيرة إلى يمين الطريق .
فقلت :
ــ ما هذه القصة ؟ ماذا حدث ؟ اريد ان اعرف .
فقال فانسان :
ــ سر مهني . » واضاف : « الأفضل ان تتلفني لبيرون فوراً » .
كرهت وجهه الشاحب ، وعينيه الداميتين ، وصورته الجانبية الجميلة ، لكنه كان حنقاً عاجزاً . وأدرت رقم هنري وسمعت صوته المندهش :
ــ آلو ! من على الهاتف ؟

– آن دوبروي ، نعم ، انا . لي خدمة عاجلة أسألك اياهـا . ومن فضلك لا تطرح اسئلة . انني بحاجة إلى سيارة فوراً . مع وقود لمئتي كيلومتر .

وساد صمت قصير جداً ، وقال بصوت طبيعي للغاية : « من حظك اننا ملأنا الخزان امس . ستكون السيارة عند بابك خلال نصف ساعة ، اي مـــدة الذهاب والعودة » .

فقلت :

– ائت بها إلى ساحة سانت اندريه دي زار . شكراً .

وقال فانسان في ابتسامة عريضة :

– آه ! رائع ! كنت واثقاً من بيرون » . وأضاف : « كوني مطمئنة حقاً . نادين غير معرضة لأي خطر : خاصة إذا أسرعت قليلاً . لا كلمة لأي أحـــد ، أليس كذلك ! لقد اقسمت لي انه يمكن الاعتماد عليك » .

فقلت وانا أتبعه نحو الباب :

– يمكن . لكن قل لي ما الأمر ؟

فقال :

– لا شيء خطير ، اقسم لك .

كنت اشتهي لو اصفق الباب وراءه في عنف ، لكنني اغلقته في لطف حتى لا اوقظ روبير . لحسن الحظ انه استغرق في النوم ، إذ لم تمض ساعتان بعـــد على سماعي اياه يرقد. وارتديت ثيابي في عجلة وتذكرت هاتين الليلتين اللتين كنت انتظر فيها نادين بينما كان روبير يبحث عنها في شوارع باريس: الانتظار المخيف. واليوم ، ان الحال اسوأ ايضاً . كنت واثقة انها فعلا شيئاً ما خطيراً : فقد كان فانسان خائفاً . لا بد ان المسألة مسألة سطو او اختطاف ، الله أدرى . وبعد هـــذا لم تستطع نادين ان تذهب على قدميها إلى المحطة ، ويجب ان أصل قبل ان يكتشف الأمر ، قبل ان تكتشف نادين ، نادين التي تنتظرني منذ ساعات بفردهـــا في الليل ، والبرد ، والخوف . كان صباح صيف جميل يعبق برائحـــة القار وأوراق الشجر . وخلال بضع ساعات سيشتد الحر جداً. والآن في رطوبة الأرصفة المقفرة

وصمتها ، كانت عصافير تغرد . صباح مرح مثقل بالقلق ، كصباح الهجرة .
ووصل هنري إلى الساحة بعدي بعدة دقائق . وقال في مرح :
– هي ذي العربة . وظل جالساً امام المقود : « ألا تريدين ان أرافقك ؟ » .
– شكراً ، كلا .
– أواثقة انت ؟
– انني واثقة .
– منذ زمن بعيد لم تقودي .
– اعرف انني سأعرف .
ونزل ، وجلست مكانه . وقال :
– الأمر يتعلق بنادين ؟
– نعم .
فقال بصوت ساخط :
– آه ! انهم يستخدمونها ليضعونا امام الأمر الواقع !
– أتعرف حقيقة الأمر ؟
– إلى حد ما .
– قل لي ...
فتردد : « انها ليست إلا افتراضات . إسمعي ، سأبقى في بيتي طوال الصباح ، فإذا كنت استطيع ان أساعدك في أي شيء كان ، فاتصلي بي بالهاتف » .
وقلت في نفسي وانا اسرع نحو باب « لا شبيل » : « يجب على الأخص ألا يقع لي حادث » . وارغمت نفسي على الحذر وحاولت ان أطمئن نفسي : « يبدو ان هنري يفترض ان فانسان قد كذب : لعلهم كثيرون الذين ينتظرونني . بل لعل نادين ليست معهم » . كم كنت أتمنى ذلك ! كنت افضل ألف مرة ان افترض انهم خدعوني على ان اتخيل نادين ترتعد فرائصها برداً ، وخوفاً ، وغضباً طوال ليلة طويلة .
كانت الطريق العريضة مقفرة . وانعطفت يميناً نحو طريق صغيرة ، ثم نحو

طريق أخرى . كان المفترق ايضاً مقفراً . وضربت البوق وتفحصت الخارطة . لم اكن قد اخطأت . لكن لو كان فانسان قد اخطأ ? كلا ، لقد كان دقيقاً جداً ، فلا مجال لأي خطأ . وضربت البوق ثانية . ثم اوقفت المحرك ، ونزلت ، ودخلت يميناً الى الغـــابة الصغيرة وناديت : « نادين » ، في خفوت أولاً ، ثم بصوت أعلى اكثر فأكثر . صمت . صمت موت : لقد فهمت معنى هذه الكلمات . نادين : لا جواب . تماماً كما لو انني ناديت : ديبغو . هي ايضاً ، قد تبخرت . كان يجب ان تكون هنا ، هنـا تماماً ، ولم تكن . وجلت ، وسحقت اغصاناً ميتة ، وعشباً رطباً ، ولم اعد انادي . كنت افكر في رهبة : « لقد اوقفوها ! » . وعدت نحو السيارة . لعلها قد تعبت من الانتظار ، فهي لم تكن صبوراً ، ووجدت الشجاعة للسير نحو محطة قريبة . يجب ان ألحق بها ، يجب ذلك ، فسوف يلاحظونها في مثل هذه الساعة على رصيف مقفر . في شاتيلي ، كانت ستسير لا مرئية ، لكن المدينة كانت بعيدة جداً وكنت صادفتها على الطريق ، فلا بد انها اختارت كليرمون . كنت انظر شاخصة الى الخارطة كأنني أستطيع ان انتزع منها جواباً . هنـــاك طريقان ممكنان الى كليرمون ، وعلى الأرجح اخذت الطريق الأقصر . ووصلت التيـــار الكهربائي ، وفتحت البنزين واخذ قلبي يخفق في يأس : ما كان المحرك ليستيقظ . واخيراً قررت ، وانطلقت السيارة على الطريق ، في قفزات صغيرة . كانت يداي الراشحتان بالعرق تنزلقان على المقود المبلل . وكان الصمت ، حولي ، يعاند . ولكن النور قـــد اشتد . وعما قريب ستنفتح الأبواب في القرى : « سيوقفونها » . الصمت ، الغياب . كان هذا السلام يبدو لي فظيعاً . لم تكن نادين على الطريق ، ولا في شوارع كليرمون ، ولا في المحطة . لا شك في انه لم يكن معها خارطة ، ولا تعرف المنطقـة ، وهي تتكسع في الريف دون هدى ، وسوف يجدونهـــا قبلي . وانعطفت . كنت سأعود حتى المفترق من الطريق الأخرى . ثم سأجول على جميع تلك الطرق الى ان يفرغ الخزان . ثم ? عليّ ألا اسأل نفسي : بل اتبع جميع الطرق . وكانت هذه الطريق تصعد نحو هضبة ، بين الغلال المخضرة . وفجأة رأيت نادين قادمة للقائي ، مع ابتسامة على شفتيها ، كأننا

اتفقنا منذ زمن بعيد على هذا الموعد . واوقفت السيارة في عنف واقتربت دون عجلة . وبصوت طبيعي جداً سألت :

– اجئت لأخذي ؟

– كلا . انني اتنزه للذتي الخاصة . » وفتحت الباب : « إصعدي » .

وجلست الى جانبي . كانت مسرحة الشعر ، مخضبة الوجـــه ، وكانت تبدو مستريحة . وكانت قدمي تدوس على علبة السرعة ويداي تشدان على المقود بقـوة عظيمة . وسألت نادين بابتسامة نصف هادئة ، نصف متسامحة : « اانت حانقة؟» .

كانت تانك الدمعتان اللتان صعدتا الى عيني ، دموع غضب بالفعل . وانحرفت السيارة فجأة ، وافترض ان يديّ كانتا ترجفان . وابطأت ، وحاولت ان ابسط اصابعي وان اسيطر على صوتي :

– لماذا لم تبقي في الغابة ؟

سئمت . وخلعت حذاءها ودفعته تحت المقعد . واضافت : « لم اكن اعتقد انك ستأتين » .

– أأنت بلهاء إذن ؟ بديهي انني اتيت .

– لم اكن اعرف . كنت أريد ان آخذ القطار من كليرمون . وكنت سأصل اليها في النهاية . » كانت تدلك قدميها، وهي محنية إلى الأمام : « يا لقدمي المسكينتين ! » .

– ماذا فعلت ؟

فلم تجب ، فقلت :

– طيب ، احتفظي بأسرارك . سيكتب ذلك في الصحف هذا المساء .

– سيكتب في الصحف!» وانتصبت نادين ، وكان وجهها مهصوراً : «اتعتقدين ان البوابة لاحظت انني لم اعد هذه الليلة ؟ » .

– لن تستطيع ان تثبت ذلك . وعند الحاجة سأقسم على العكس . لكن أريد ان اعرف ماذا فعلت .

فقالت بصوت قاتم :

– ما دمت ستعرفين على كل حال ! توجد امرأة طيبة في « آزيكور » ، لقد وشت بشابين يهوديين قبضوا عليهما في مزرعة : ومات الشابان . جميع النـــاس يعرفون انها غلطتها ، لكنها رتبت امورها بحيث لا يقلقها احـد : نذالة اخرى . وقد قرر فانسان ورفاقه ان يعاقبوها . منذ زمن بعيد وانا على اطلاع على الأمر ، وكانوا يعرفون انني اريـد ان اساعدهم . وكانوا في هذه المرة بحاجة إلى امرأة ، فرافقتهم . وكانت المرأة مديرة حانــــة . وانتظرنا انصراف آخر الزبائن ، وفي اللحظة التي كانت تغلق فيها ، رجوتها ان تسمح لي بالدخول دقيقة لأشرب كأساً وأستريح. وبينما كانت تخدمني دخل الآخرونووثبوا عليها. وقادوها إلى القبو».

وسكتت نادين . وسألت : « انهم لم ... » .

فقالت في حدة :

– كلا . » واضافت : « لقــــد قصوا شعرها ... » . وقالت بصوت مدّعٍ فجأة : « لم احمل الأمر بصعوبة كبيرة . فقد اغلقت الباب ، واطفأت . لكن العملية بـدت لي طويلة ، فشربت كأساً من العرق وانا انتظر . بديهي ، انني لم أتدرب ، ولقد انهكني ذلك . ثم اننا قطعنا كيلومترات للمجيء إلى كليرمون ، وكانوا يريدون ان يعودوا من شانتيلي : لكنني ما عدت استطيـع ان اتقدم . فسحبوني حتى الغـــابة الصغيرة ، وقالوا لي ان انتظرك . واتيح لي الوقت لأستعيد ... » .

فقاطعتها : « ستعدينني بمقاطعة تلك العصابة كلها ، او تغادرين باريس هـــــذا المساء بالذات » .

فقالت في نوع من الحقد :

– على كل حال ، لن يرغبوا فيّ ثانية .

– هذا لا يكفيني:اريد ان تعديني وإلا اقسم لك انك غداً ستكونين بعيدة. منذ سنوات لم أكلمها بهذه اللهجة . فنظرت إليّ في خضوع وضراعة :

– عديني ايضاً بشيء : لا تقولي شيئاً لبابا .

لم يحدث لي إلا نادراً جداً ان اخفيت عن روبير حماقات نادين . ولكن هذه

المرة ، كنت اعتقد انه ليس بحاجة عن حق إلى هموم جديدة ، وقلت : « وعد مقابل وعد » .

فقالت في سيماء من حزن :

– أعدك بكل ما تريدين .

– إذن ، لن اقول شيئاً . » واضفت في قلق : « أواثقة انكم لم تتركوا أثراً ؟ » .

– فانسان يؤكد انه اهتم بكل شيء . » وسألت في غم : « ماذا سيحدث إذا اخذوني ؟ » .

– لن يأخذوك . فأنت لست إلا شريكة . وانت صغيرة جداً . لكن فانسان يجازف مجازفة كبيرة . » واضفت في حنق : « إذا أنهى حياته في السجن ، فهو يستحق ذلك . انها قذرة هذه القصة . قذرة وبلهاء » .

ولم تجب نادين . وقالت بعد صمت :

– هل أعارك هنري السيارة دون ان يسأل شيئاً ؟

– اعتقد انه يعرف اشياء كثيرة .

فقالت نادين :

– فانسان يتكلم كثيراً . هنري او انت ، هذا لا اهمية له . ولكن شخصاً مثل سيزوناك يمكن ان يكون خطراً .

– سيزوناك لا دخل له ؟ هذا جنون !

– لا دخل له ، ففانسان يعرف على كل حال ان مدمناً على المخدرات ، يجب الا يوثق به . لكنهما يحبان بعضهما البعض كثيراً ، وهما دوماً معاً .

– يجب ان اتحدث إلى فانسان ، يجب إقناعه بترك هذا ...

فقالت نادين :

– لن تقنعيه . لا انت ولا انا ولا أي شخص .

ذهبت نادين للرقاد ، وقلت لروبير انني خرجت للقيام بجولة للذتي الخاصة . كان مشغولاً جداً هذه الأيام حتى انه لم يرَ في هذا ما يشتبه به . وتلفنت لهنري ، وطمأنته ببضع عبارات مبهمة . أن أهتم برضاي ، كان هذا عملاً صعباً . كنت

اترقب صحف المساء : لم تتحدث عن شيء . ومع ذلك لم أنم مطلقاً تلك الليـلة . وقلت في نفسي : « لم يعد هناك مجال للرحيل إلى امـــيركا » : كانت نادين في خطر. لقد وعدتني بألا تعاود. لكن الله يعرف ماذا ستخترع غير هذا! وفكرت في حزن انني مهما بقيت إلى جانبها ، فلن انجح في حمايتها . كان يكفي بدون شك ان تكون سعيدة ، ان تشعر انها محبوبة ، لتكفّ عـن تدمير نفسها : لكن لم اكن استطيـع ان امنحها لا الحب ولا السعادة . كم انا غير نافعة لها ! الآخرون، الغرباء ، انني اجعلهم يتكلمون ، انـــني أفك خيوط ذكرياتهم ، أحل عقدهم ، أسلمهم عند الخروج مكبات صغيرة ملفوفة جيداً يصفّونها في أدراجهم : هـــذا يفيدهم ، احياناً . اما نادين ، فأنا أقرأ دون جهد فيها ، ولا أعرف مـــا أفعله لأجلها . كنت أقول في نفسي في الماضي: « كيف يمكنني ان أتنفس في اطمئنان عندما أفكر بأن الناس الذين أحبهم يقامرون بحياتهم الأبدية ؟ » . لكن المؤمن يستطيـع ان يصلي ، يستطيـع ان يساوم مع الله . اما بالنسبة لي ، فلا يوجد اتحاد قديسين ، واقول في نفسي : « هذه الحياة هي فرصتها الوحيدة. لن تكون هناك حقيقة اخرى غير التي عرفتها ، ولا عالم آخر غير الذي آمنت به » . كانت نادين ذابلة العينين صباح الغد ، ولبثت على قلقي . لقد أمضت النهار جالسة أمام كتاب كيمياء وعند المساء ، بينما كنت امسح ماكياجي ، قالت لي في انهماك :

— انها لكابوس هذه الكيمياء . يقيناً واكيداً انني سأرسب .

— لقد نجحت في امتحاناتك دوماً . . .

— ليس هذه المرة . على كل ، ان الرسوب والنجاح شيء واحد . ابـداً لن امارس الكيمياء في المستقبل » . وفكرت لحظـــة : « انني لا استطيـع ان امارس شيئاً . انني لست مثقفة، وفي العمل ، انني لا احسن شيئاً . انا غير صالحة للاستعمال » .

— في « الطوارىء » أديت واجبك تماماً ، ومباشرة .

— ليس في ذلك ما يدعو للفخر ، وبابا على حق تماماً .

— عندما ستجدين شيئاً يستهويك، فأنا واثقة انك ستفعلينه على احسن وجه.

وسوف تجدين .

فهزت رأسها : « افترض انني في الصميم خلقت ليكون لي زوج وأطفال كسائر الناس . سأنظف آنيتي وسأبيض طفلاً كل عام » .

ـ إذا تزوجت لتتزوجي ، فلن تكوني مسرورة ايضاً .

ـ اواه ! كوني مطمئنة ! ما من رجل سيكون أحمق بما فيه الكفاية ليتزوجني . انهم يحبون كثيراً ان يناموا معي ولكن بعد ذلك : مساء الخير . انني لست مرغبة .

كنت اعرف جيداً هذه الطريقة التي تقول بها عن نفسها في لهجة طبيعية جداً اكره الأشياء ، كأنها بطلاقتها قد جردت الحقيقة المرة من سلاحها وتجاوزتها . ولسوء الحظ كانت الحقيقة تظل حقيقة . وقلت :

ـ انت لا تريدين ان تكوني كذلك . وإذا حاول أحدهم على كل حال ان يتعلق بك ، فأنت ترفضين تصديق ذلك .

ـ ستقولين لي مرة اخرى ان لامبير متعلق بي . . .

ـ منذ سنة انت الفتاة الوحيدة التي خرج معها ، لقد قلت لي ذلك بنفسك .

ـ بديهي ، انه لوطي .

ـ انت مجنونة .

ـ ما دام لا يخرج إلا مع شبان . وهو يحب هنري ، هذا واضح جداً .

ـ انت تنسين روزا .

فقالت نادين في حنين :

ـ اواه ! كانت روزا جميلة جداً . حتى اللوطي يمكن ان يحب روزا » . واضافت في نفاد صبر : « انت لا تفهمين . لامبير يشعر نحوي بالصداقة، ليكن، لكن كما يشعر بها تجاه رجل . على كل ، هذا رائع هكذا ، فأنا لا احب ان أكون سلعة تعويضية » . وتنهدت : « للشبان حظ كبير . سيقوم بريبورتاج عبر فرنسا كلها : انعاش المناطق المهدمة وكل شيء . لقد اشترى لنفسه دراجة نارية» . واضافت في شراسة : « يجب ان تريه : انه يظن نفسه الكولونيل لورنس عندما

ينتقل على قطعته الحديدية » .

كان في صوتها حسد كثير حتى انه اوحى لي بفكرة . ومررت على «الأمل» بعد ظهر اليوم التالي وطلبت ان ارى لامبير . وقال لي في لهجة مجاملة :

— تريدين ان تحدثيني ؟

— إذا كان لديك دقيقة ، نعم .

— هل تريدين ان نصعد إلى البار ؟

— لنصعد .

وما ان وضع النادل امامي عصير ليمون هندي حتى بادرت : « يبـــدو انك ستقوم بريبورتاج كبير غير فرنسا ؟ » .

— نعم . سأذهب في الأسبوع القادم . على الدراجة .

— ألن يكون ممكناً ان تصطحب نادين ؟

فنظر إلي في نوع من التأنيب :

— نادين راغبة في مرافقتي ؟

— انها تموت رغبة . لكنها ابداً لن تطلب منك ذلك أولاً .

فقال بصوت متصنع :

— لم اقترح عليها ذلك لأنني سأدهش كثيراً اذا قبلت . انها تقبل نادراً جداً بما اقترحه عليها . على كل ، لقد رأيتها قليلاً هذه الأيام ...

فقلت :

— اعرف انها تتسكع مع فانسان وسيزوناك . انها ليست عشرة طيبة بالنسبة لها» . وترددت بسرعة كبيرة: «بل انها عشرة خطرة ايضاً . ولهذا جئت لرؤيتك: ما دمت تشعر بالصداقة نحوها ، خذها بعيداً عن تلك العصابة كلها » .

وفجأة تغير وجه لامبير . وبدا على حين غرة صغيراً جداً ومجرداً من السلاح: « انت لا تعنين ان نادين تدمن على المخدرات ؟ » .

كان هذا الشك يناسبني تمـاماً . فقلت في لهجة متحفظة : « لست أدري . لا اعتقد . لكن مع نادين ، كل شيء يمكن ان يحدث . انها في ازمة هـذه الأيام .

اقول لك بصراحة : « انني خائفة » .

والتزم لامبير الصمت لحظة . كان يبدو منفعلاً . وقال : سأكون سعيداً جداً اذا جاءت نادين معي » .

— إذن حاول . ولا تثبط شجاعتك : افترض انها ستقول لا في البداية ، فهكذا هي . لكن ألح ، فلعلك ستنقذ حياتها » .

بعد ثلاثة ايام ، قالت لي نادين في لهجة لا مبالية :

— تصوري ، ذلك المسكين لامبير الذي يريد ان يصطحبني في السفر معه !

فقلت :

— ذلك الريبورتاج عبر فرنسا ؟ هذا سيكون متعباً جداً .

— اواه ! هذا ، انني لا أبالي . لكني اولاً لا استطيع ان اترك المجلة مدة خمسة عشر يوماً .

— لك حق في إجازة ، ليست هذه هي المشكلة . لكن إذا لم تكن لك رغبة ...

فقالت نادين :

— لاحظي ان هذا سيكون شيقاً جداً . لكن ثلاثة اسابيع مع لامبير ، هذا ثمن غالٍ .

كان يجب على الأخص ألا يبدو علي انني ادفعها إلى القيام بهذه الرحلة . وسألت في لهجة ساذجة : « أهو حقاً ممل إلى هذا الحد ؟ » .

فقالت في غيظ :

— انه ليس مملاً مطلقاً . كل ما هنالك انه ورع جداً ، ومتصنع جداً ، وهو يُصدم من كل شيء . اذا دخلت الى حانة وجوربي مثقوب ، عنّفني ! ابن عائلة حقيقي ، في النهاية » . وتابعت : « أتعرفين انه تصالح مع ابيه ؟ يا للدناءة ! » .

فقلت :

— يا إلهي ! كم اسرعت في الحكم ! ماذا تعرفين بالضبط عن تلك القصة ؟ وعن والد لامبير ، وعن علاقاتهما ؟

لقد تكلمت بحرارة كبيرة إلى حـد ان نادين ظلت لحظة مشدوهة . عندما اكون مقتنعة حقاً ، اعرف كيف اقنعها . هكذا أثـّرت على طفولتها ، وعادة ، بعد ان تستسلم لي ، كانت تحتفظ نحوي بحقد كبير حتى انني استنكف عن استعمال نفوذي . لكني اليوم كنت ساخطة من رؤيتها تعاند في مناوأة نفسها .

وقالت في لهجـة مترددة : « لا مبير لا يستطيـع ان يستغني عن باباه الصغير العزيز : انه مرض الطفولة . اذا كنت تريدين ان تعرفي ، فهذا ما يغيظني فيـه : لن يكون رجلاً ابداً » .

– انه في الخامسة والعشرين ووراءه مراهقة غريبة . انت تعرفين جيداً مـن نفسك انه ليس من السهل ان يأخذ الانسان بالطيران بجناحيه الخاصين .

– آه ! والكن بالنسبة لي ، هذا امر يختلف ، انني امرأة .

– وماذا ؟ ان تكوني رجلاً ، فهذا ليس أكثر راحة . اننا نطلب كثيراً من رجل اليوم : وانت الأولى . عليهم ان يلعبوا دور الأبطال ، ولا يزال اللبن ملء فمهم . هـذا مثبط للهمة . كلا . لا يحق لك ان تكوني قاسية جداً على لا مبير . قولي انك لا تتفاهمين معه ، ان هذه الرحلة لا تستهويك ، فهذا شيء آخر .

– اواه ؟ بمعنى ما ، ان هذه الرحلات تستهويني دوماً .

وبعد يومين ، قالت لي نادين في سحنة نصف حانقة ، نصف مزهوة : « انـه غريب ، ذلك الانسان ! لقد لعب عليّ بالشانتاج ! يقول ان المراسل السلمي مهنة تسئمه ، وانني اذا لم اذهب معه فسوف يستنكف » .

– إذن ؟

فقالت في سيماء من براءة :

– إذن ماذا تريدين ؟

فهززت كتفي : « هل يعرف فقط ان يقود دراجة نارية ؟ انها خطرة هـذه الآلات » .

فقالت نادين :

– انها ليست خطرة مطلقاً ، بل رائعة جداً » وأضافت : « اذا قبلت ، فهذا

سيكون بسبب الدراجة » .

بخلاف كل ما كان متوقعاً ، فقد نجحت نادين في شهادة الكيمياء . وهـذا بالأحرى، بالنسبة للتحريري ، لكن في الشفهي كانت تخدع بسهولة فاحصيها بجرأتها في الكلام وطلاقتها . واحتفلنـا ثلاثتنا بهذا النصر بعشاء كبير مع الشمبانيا في مطعم في الهواء الطلق ، ثم ذهبت مع لامبير . كانت هذه فرصة . ففي الأسبوع التالي ، انعقد مهرجان « الاشتراكي الثوري الحر » ، وكان المنزل غاصاً بالنـاس دوماً ، وكنت سعيدة جداً بأن استطيع الافادة دون مشاركة احد من لحظـات الحرية النادرة التي كانت تتبقى لروبير . وكان هنري يعاونـه في إخلاص يزيـد في تأثيره على نفسي معرفتي بقلة حماسته لمثل هذا النوع من العمل . كان كلاهمـا يقولان ان المهرجان يبشر بخير . وكنت أفكر وانا أهبط شارع « وغرام » : « اذا كانا يقولان ذلك ، فلا بد ان يكون صحيحاً » لكني كنت قلقة مع ذلك. فمنذ سنوات لم يتكلم روبير جماهيرياً . هل سيعرف كيف يؤثر على النـاس ، كما في السابق ؟ وتجاوزت سيارات البوليس المصفوفة على طول الرصيف وتابعت السير حتى ساحة « تيرن » . كنت سابقة للموعد . قبل عشر سنوات ، عشية مهرجان « بلايل » ، كنت وحيدة ايضاً، وكنت سابقة للموعد ، وقد تجولت طويلاً حول هذه الساحة ودخلت لتناول كأس خمر في « لا لورين » . لم ادخل . الماضي كان ماضياً : لا أدري لماذا أسفت عليه فجأة بمثل هـذا التمزق . اواه ! بلا شك لمجرد انه كان الماضي. وعدت على اعقابي ، وسرت على طول الممر الكئيب. وتذكرت استيائي عندما صعد روبير إلى المنصة : لقد خيل إلى انهم يسرقونه مني . هـذا المساء ايضاً ، انهـا لتخيفني فكرة ان اراه على منصة ، عن بعد . لم يكن هنـاك بعد كثير من النـاس في القاعة . وقال لي آل كانج : « ان الجمهور يأتي دوماً في الدقيقة الأخيرة » . وحاولت ان أحدثها في هدوء ، لكني كنت اراقب المدخل في قلق . سنعرف اخيراً إذا ما كان الناس ، نعم ام لا ، يتبعون روبير يقيناً ، إذا كانوا يتبعونه ، فلا شيء قد رُبح بعد. ولكن بالمقابل إذا ظلت القاعة فارغة ، فسيكون الفشل نهائياً . وكانت تمتلىء . كانت الأماكن كلهـا مشغولة

عندما جاء الخطباء إلى وسط المنصة بين التصفيق . كان محيراً ان أرى جميع هذه الوجوه الأليفة تنقلب إلى وجوه رسمية . كان لونوار ، بنوع من الانسجام المكاني ، يختلط بالمقاعد والطاولات ، ويتحول إلى قطعة من خشب جاف . وكان سامازيل ، على العكس ، يحتل المنصة كلها ، فقد كان هنا مكانه الطبيعي . وعندما بدأ هنري الكلام ، حوّل صوته الصالة الضخمة إلى غرفة خاصة : لم يكن يرى امامه خمسة آلاف شخص ، ولكن شخصاً واحداً خمسة آلاف مرة ، وكان يتكلم بلهجة المحادثة تقريباً . وشيئاً فشيئاً انبعثت الحرارة فيّ . فوراء الكلمات التي كان ينطق بها ، كانت تلك الصداقة التي يقدمها لنا وحدها يقيناً : ان البشر ليسوا محكوماً عليهم بالحقد والحرب ، وكنا واثقين من ذلك ونحن نسمعه . وصُفق له طويلاً . وألقى ميريكو خطاباً قصيراً بارداً ، ثم جاء دور روبير . يا له من ترحيب ! فما إن نهض حتى أخذوا يضربون بأيديهم وأرجلهم صائحين . كان ينتظر ، في سماء من صبر ، وتساءلت ما إذا كان منفعلاً : فقد كنت منفعلة انا ايضاً . يوماً بعد يوم كنت أراه منحنياً على مكتبه ، وردي العينين ، محدودب الظهر ، وحيداً وشاكاً في نفسه : كان الرجل نفسه هذا الذي يهتف له خمسة آلاف شخص . من كان على الضبط بالنسبة لهم ؟ كاتباً كبيراً ورجل لجان « الطوارىء » والمؤتمرات المعادية للفاشية في آن واحد ومثقفاً نذر نفسه للثورة دون ان ينكر ذاته كمثقف . كان يمثل ، بالنسبة للشيوخ ، ما قبل الحرب ، وبالنسبة للشباب الحاضر ووعوده . كان يحقق وحدة الماضي والمستقبل . وبلا شك كان ألف شيء آخر أيضاً ، فكل يحبه على طريقته . كانوا يتابعون التصفيق وكان الدوي ينداح في داخلي ، ويصبح لا محدوداً . الشهرة ، المجد ، هذا يتركني عادة باردة . اما هذا المساء ، فهذا يبدو لي مرغوباً . وكنت اقول في نفسي : « وسعيد من يستطيع ان ينظر إلى حقيقة حياته وجهاً لوجه ويتمتع بها . سعيد من يكتشفها على وجوه صديقة » . وأخيراً سكتوا . وما إن فتح روبير فاه ، حتى تبللت يداي وامتلأ جبيني بالعرق . فمها علمت انه يتكلم بسهولة ، فقد كنت وجلة . ولحسن الحظ ، سرعان ما أُخذت به . كان روبير يتكلم بدون فخامة : بمنطق ملح جداً حتى انه ليشبه العنف . لم يكن

يقترح برنامجاً : بل يملي علينا اعباء . وكانت عاجلة جداً ، إلى حد اننا لا نستطيع ان نتخلف عن انجازها . وكان النصر مضموناً بضرورته بالذات . كان الناس حولي يبتسمون ، وعيونهم تلتمع ، وكل منهم يتعرف في وجه جيرانه يقينه الخاص . كلا ، لن تكون هذه الحرب لاجدية . لقد فهم البشر ان الاستسلام والأنانية يكلفان ، وسوف يأخذون مصيرهم بأيديهم ، وسوف يحققون انتصار السلام ، ويوطدون على الأرض اجمع الحرية والسعادة . كان هذا واضحاً ، كان أكيداً ، كان نابعاً من مجرد الحس السليم : ان الانسانية لا تستطيع ان تريد شيئاً غير السلام ، والحرية ، والسعادة ، وما الذي يمنعها من ان تفعل ما تريد ؟ انها الوحيدة التي تسود على الأرض . من خلال كل ما كان روبير يقوله ، كانت هذه البداهة هي التي تبهرنا . وعندما صمت ، صفقنا طويلاً ، وكنا نصفق للحقيقة . ومسحت يدي بمنديلي . لقد تأكد السلم ، وضمن المستقبل ، القريب والبعيد ، فهما ليسا إلا واحداً . ولم أستمع إلى « ساليف » ، كان مملاً كميريكو ولكن لم يكن لهذا اهمية . لقد ربحنا الجولة ، ليس المهرجان فقط ، بل كل ما يعنيه .

وكان سامازيل آخر من تكلم . وفوراً ، أخذ يرعد ويقصف ، كصيّاح في معرض . ووجدت نفسي ثانية جالسة في مقعدي ، وسط جمهور عاجز مثلي ، ينتشي بالكلمات بشكل احمق . لم تكن وعوداً ، ولا تخمينات : بل مجرد كلمات . لقد رأيت في قاعة بلايل ، الضوء نفسه على الوجوه المنتبهة : وهذا لم يمنع وارسو ، وباشنوالد ، وستالينغراد ، واورادور . نعم ، اننا نعرف كم يكلف الاستسلام والانانية : لكننا نعرف ذلك منذ زمن طويل ، دون فائدة . اننا لم ننجح ابداً في ايقاف التعاسة ، ولن ننجح في وقت مبكر ، على كل حال ليس في حياتنا . اما ما سيجري فيما بعد ، عند نهاية فترة ما قبل التاريخ الطويلة هذه ، فيجب ان نعرف في انفسنا اننا لا نستطيع حتى ان نتخيله . ان المستقبل ليس موثوقاً ، لا القريب ، ولا البعيد . ونظرت إلى روبير . أهي حقيقته حقاً التي تنعكس في هذه العيون كلها ؟ انهم ينظرون اليه ايضاً من أمكنة اخرى : من اميركا ، ومن روسيا ، من اعماق العصور . من يرون ؟ لعلهم لا يرون الا حالماً

حرماً يفتقر حلمه إلى الجد . ولعله سيرى نفسه ، هو ايضاً ، هكذا ، في الغـد . سيفكر ان عمله لم يفد شيئاً ، او اسوأ من ذلك ، لم يفد إلا في خداع الناس. ليتني فقط استطيع ان أقرر : لا توجد حقيقة ! ولكن ستكون هناك حقيقة . ان حياتنا هنا ، ثقيلة كصخرة ، ولها قفا لا نعرفه : هذا مخيف . كنت واثقة هذه المرة انني لا أهذي ، فأنا لا اشرب شيئاً ، والليل لم يخيم بعد ، والخوف يخنقني .

سألتهم في لهجة متجردة :

— أأنتم مسرورون ؟

كان هنري مسروراً . ولقد قال لي في مرح : « لقد نجح » . وكان سامازيل يقول : « انه نصر » . لكن روبير دمدم : « انه لا يثبت شيئاً كبيراً ، انـــه مهرجان » . قبل عشر سنوات ، وهو خارج من قاعة بلايل ، لم يقل شيئاً مماثلاً ، بل كان يشع . ومع ذلك كنا نفكر ان الحرب ربما نشبت : فمن اين كان يـأتي ذلك الاطمئنان ؟ آه ! كان لدينا وقت امامنا : كان روبير يتنبأ بانسحاق الفاشية ، إذا اندلعت الحرب . وكان قد تجاوز التضحيات التي سيكلفها ذلك . اما الآن ، فهو يشعر بعمره : انه بحاجة إلى يقين قصير الأجل . وظل مقطباً ، خلال الأيام التالية . وكان يجب ان يُسر عندما اعلن شارلييه له انتسابه إلى « الاشتراكي الثوري الحر » ، وأبداً لم أره محتاراً كما رأيته بعد هذه المقابلة . وعلى كل حال ، انا افهمه . لم يكن ذلك بسبب مظهر شارلييه الجسدي : فشعره لم ينبت ثانيـة ، وجلده احمر متجلط ، لكنه اخيراً منذ آذار ازداد وزنه عشرة كيلووات وركبت له اسنان . ولم يكن ذلك بسبب القصص التي كان يرويها ، فما كان هناك شيء كبير نعرفه عن فظائع المعسكرات . إنما كانت لهجة حكاياه بالأحرى هي التي لا تحتمل . هو الذي كان اكثر المثاليين وداعة وعناداً ، كان يذكر الضربات ، والصفعات ، والعذابات ، والجوع ، والمغص ، والتبليد ، والاذلال ، في ضحكة لم تكن حتى ماجنة : لم نكن نعرف أهي طفوليـة ام شيخية ، ملائكية ام بلهاء . وكان يضحك ايضاً من فكرة أن الاشتراكيين ينتظرون ان ينضم إلى صفوفهم . ومع ذلك كان لا يزال يحتفظ تجاه الشيوعيين بنفوره القديم . ولقد جذبه « الاشتراكي

الثوري الحر » . ووعد بأن يأتيه بالجماعة الكبيرة التي تتجمع وراءه . وعندما غادرنا ، قال لي روبير :

– كنت مندهشة في اليوم الماضي من توددي . لكن أتفهمين ، ان المخيف اليوم عندما نتجمع للعمل، هو اننا نعرف كثيراً الثمن الذي يدفع عن الاخطاء.

كنت أعرف انه يعتبر جميع البشر الذين في سنه ونفسه مسؤولين عن الحرب . ومع ذلك فقد كان احد الذين ناضلوا ضدها بأذكى وأحمس ما يكون. ولكنه ما دام قد فشل ، فقد كان يحكم على نفسه بأنه مذنب . وما كان يدهشني، هو ان لقاءه بشارلييه قد ايقظ توبيخ ضميره : ان ردود فعله تكون عادة تجاه كليات ، وليس تجاه احوال خاصة .

وقلت :

– على كل حال ، إذا كان « الاشتراكي الثوري الحر » غلطة ، فلن تتلوها كوارث كبيرة .

فقال روبير :

– الكوارث الصغيرة ايضاً لها حسابها » وتردد : « يجب ان اكون اصغر سناً مما انا لأؤمن بأن المستقبل سينقذ كل شيء . انني اشعر بمسؤولياتي محددة اكثر من الماضي ، ولكن ايضاً اثقل ونهائية اكثر .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انني أفكر قليلاً مثلك : ان موت فرد ، او تعاسته ، هذا لا يمكن تجاوزه . » واضاف : « آه ! انني أسير في عكس التيار . ان الشباب أصلب بكثير مما كنا ، بل انهم ايضاً شديدو المجون : وأنا اصبح عاطفياً » .

– ألا يمكن ان نقول بالأحرى انك تصبح حسياً اكثر مما كنت ؟

فقال روبير :

– لست واثقاً من ذلك : اين هو الحسي ؟

نعم ، يقيناً ، انه على استعداد اكثر من الماضي للاصابة بالأذى . ولحسن الحظ ، كان المهرجان يأتي بثماره ، إذ كانوا يسجلون في كل يوم طلبات انتساب.

ونهائياً لم يعلن الشيوعيون الحرب على « الاشتراكي الثوري الحر ». كانوا يتحدثون عنه في عداء متحفظ ، لا اكثر . وكان هناك أمل بأن تتطور الحركة جـــدياً . والنقطة السوداء الوحيدة ، ان « الأمل » قد خسرت على كل حـال كثيراً مـن القراء ، وسيضطرون قريباً إلى الاستعانة بأموال تراريو .

وسألت وأنا أتفحص نفسي في المرآة في عدم رضى :

ـ أواثق انت انه سيدفع ؟

فقال روبير :

ـ واثق تماماً .

ـ إذن لمَ انت ذاهب إلى العشاء هذا المساء ؟ لمَ تجرني اليه ؟

فقال روبير الذي كان يعقد في اسف ربطة عنق :

ـ من الأفضل على كل حال التفاهم معه وهو في مزاج حسن. ان شخصاً نستعد لننتزع منه ثمانية ملايين ، لا بد ان نرضي نزواته .

ـ ثمانية ملايين !

فقال روبير :

ـ أيْ نعم ! لقد وصلوا إلى هـــذا الحد ! انها غلطة لوك . يا له من عنيد ! وسيرغمون على كل حال على اخذ مال تراريو . ان سامازيل الذي قام بتحقيقـــه الصغير يقول انهم ما عادوا يستطيعون تحمل الأزمة .

فقلت :

ـ إذن ، انني أستسلم . ان « الأمل » تساوي عشاء في المدينة !

كنا كلنا ابتسامات عندما دخلنا إلى الصالون ـ المكتبة الرحب الذي كان سامازيل وزوجته قد سبقانا اليه . كان يرتدي طقماً من الفلانيل الرمادية الفاتحة يكشف عن بدانته. وكان تراريو كله ابتسامات ايضاً، ولم تكن له زوجة مرئية، بل فتاة طويلة غراء الشعر ذكرتني بزميلاتي الورعات في المعهد . وقدموا لنا ، في غرفة طعام أرضها مبلطة بالأسود والأبيض ، عشاء كله ذوق أنيق . وعند القهوة، قدم تراريو مشروبات لكن بدون سيجارات . وكان سامازيل يفضل بالتأكيد

سيجاراً ، وكان ينكت دون فكرة مسبقة وهو يحتسي كأس العرق . منذ زمن طويل لم أضع قدمي في بيت بورجوازيين حقيقيين ، وبدت لي هذه التجربة مقوية للعزيمة . احياناً ، أقول في نفسي ان المثقفين الذين أعرفهم فيهم شيء ما مشبوه . ولكن عندما أصادف بورجوازيين ، فإنني ألاحظ انه ليس لديهم ما نحسدهم عليه . بديهي ان نادين والحياة التي أتركها تعيشها وقحتان . لكن هذه العذراء الذاهب رونقها التي كانت تقدم القهوة في سحنة مضطهدة كانت تبدو لي أكثر فظاظة . وكنت واثقة انها ستروي لي أشياء واشياء ، لو مددتها على أريكتي . وتراريو ، إذن ! على الرغم من ابتذاله المدروس ، كنت اجده مريباً . كان غروره الذي لا يحسن إخفاءه ينسجم مع إعجابه المتحمس أكثر مما ينبغي بسامازيل . وخلال مدة طويلة تبادلا ذكريات عن المقاومة ، ثم هنأا نفسيهما على المهرجان وقال سامازيل : « من حسن الطالع الممتـــاز ، أننا بدأنا نكسب الأقاليم . من الآن إلى سنة سيكون لدينا مئتا ألف منتسب ، وإلا نكون قد خسرنا الجولة » .

فقال تراريو :

ـ لن نخسرها ! » والتفت نحو روبير الذي لبث حتى الآن صامتاً اكثر مما كان ينبغي : « ان الحظ الكبير لحركتنا، هو انها خلقت نفسها في الوقت المطلوب بالضبط . لقد بدأت البروليتاريا تفهم ان الحزب الشيوعي يخون مصالحها الحقيقية . وكثيرون من البورجوازيين الواعين يدركون مثلي ان عليهم اليوم ان يقبلوا بتصفية طبقتهم » .

فقال روبير في لهجة مستاءة :

ـ هذا لا يمنع انه لن يكون لدينا خلال عام مئتا ألف منتسب ، وان الجولة لن تكون قد خسرت بسبب ذلك . ليس لنا أية مصلحة في الكذب على انفسنا .

فقال تراريو :

ـ لقد علمتني تجربتي ان الانسان اذا اكتفى بالقليل ، لا يحصـــل على شيء كبير . ليس لنا مصلحة ايضاً في تضييق آمالنا !

فقال روبير :

– المهم هو اننا لا نضيق جهودنا .

فقال تراريو في حزم :

– آه ! إسمح لي بأن أقول لك اننا بعيدون عن استغلال كافة امكانياتنا تماماً ، من المؤسف ان تكون صحيفة « الاشتراكي الثوري الحر » دون مهمتها إلى هذا الحد ، ان إصدار « الأمل » قد انخفض بشكل يدعو إلى السخرية .

فقلت : « لقد انخفض بسبب ارتباطها « بالاشتراكي الثوري الحر » .

فنظر إليّ تراريو في استياء وكنت أفكر انه لو كانت له امرأة لكان عليها ألا تتكلم إلا عندما تُسأل . وقال في غلاظة تقريباً : « كلا ، بل بسبب نقص الديناميكية » .

فقال روبير في تصلب :

– الواقع انه كان « للأمل » جمهور كبير .

فقال سامازيل في هدوء : « لقد استفادت من حركة الحماسة التي تبعت التحرير » .

وقال تراريو :

– يجب ان ننظر إلى الأمور وجهاً لوجه . إننا نعجب جميعاً ببيرون بما فيه الكفاية كي يكون لنا حق بأن ندلي برأينا عنه في صراحة تامة . انه كاتب رائع ، لكنه ليس سياسياً ، ولا رجل أعمال . ووجود لوك إلى جانبه لا ينظم الأمور .

كنت اعلم جيداً ان روبير ليس بعيداً عن مشاركته في هذا الرأي ، لكنه هز رأسه : « لقد خسر بيرون ، بسيره مع « الاشتراكي الثوري الحر » ، اليمين والشيوعيين . وموارده المالية اضعف من ان تسمح له بمقاومة التيار » .

فقال تراريو وهو يفصل كل مقطع :

– انني مقتنع تماماً بأنه لو كان رجل مثل سامازيل على رأس « الأمل » ، لتضاعف الطبع في بضعة أسابيع .

وجالت نظرة روبير حول وجه سامازيل ، وقال مقتضباً : « لا مجال لهذا! » .

وانتظر تراريو قليلاً وأطلق :

– وإذا اقترحت على بيرون شراء « الأمل » لحساب سامازيل ? بدفع الثمن ?

فهز روبير كتفيه : « حاول إذن » .

– أتعتقد انه لن يقبل ?

– ضع نفسك مكانه .

– طيب ، واذا طلبت ان أشترى فقط أسهم لوك ? وإن لم يمكن ، ثلث أسهمها كليهما ?

فقال روبير :

– انها جريدتها ، فهما اللذان خلقاها ، وهما حريصان على ان يكونا السيدين في بيتهما .

فقال ترار يو :

– هذا مؤسف .

– ربما ، لكن ما من أحد يستطيع شيئاً .

وخطا ترار يو عدة خطوات عبر الغرفة ، وقال بصوت لاه : « انني لست من الذين يستسلمون . عندما يؤكدون لي بأن شيئاً ما مستحيل ، أرغب فوراً في ان أثبت لنفسي العكس » وأضاف في رصانة :- « وأضيف ان مصالح « الاشتراكي الثوري الحر » تبدو لي أهم من العواطف الفردية مهما كانت جديرة بالاحترام » .

وقال سامازيل في قلق : « إذا كنت تفكر في مشروعك الذي حدثتني عنه امس الأول ، فقد قلت لك انني شخصياً لا أستطيع ان اتبعك » .

فقال ترار يو في ابتسامة مقتضبة :

– واجبتك انني أقدر وساوسك . » ونظر إلى روبير في شيء من التحدي : « انني أتكفل بكافة ديون « الأمل » وأساوم بيرون : إما ان يضم اليه سامازيل ، او أضطره إلى الافلاس » .

فقال روبير في لهجة محتقرة :

– بيرون سيختار الافلاس على ان يستسلم لشانتاج .

– ليكن . سيفلس وأصدر صحيفة أخرى يديرها سامازيل .

فأنّ سامازيل :

– كلا !

– انت تفهم جيداً ان « الاشتراكي الثوري الحر » لن تكون له علاقة بتلك الصحيفة . ان مثل هذه الطريقة ستؤدي إلى فصلك فوراً .

فتفرس تراريو في وجه روبير كأنه يريد ان يقيس عزيمة مقاومته، ولا بد انه فهم بسرعة لأنه سرعان ما اخذ يتراجع ، وقال في مرح :

– لم أفكر ابداً بوضع هذا المشروع موضع تنفيذ. كنت أفكر في استخدامه لإضافة بيرون . » وأضاف مؤنباً : « ان نجاح هذه الجريدة يجب ان يهمك مع ذلك : ضاعف الطبع ، فيتضاعف أنصارك ! » .

فقال روبير :

– اعرف . لكني أكرر عليك بأن خطأ بيرون ولوك الوحيد هو انهما اصرا على العمل بموارد مالية محدودة جداً. وفي اليوم الذيستكون فيه وراءهما الأموال التي وضعتها في كرم عظيم تحت تصرفها ، سترى الفرق .

فقال تراريو مبتسماً :

– بالتأكيد . لأنهما سيرغمان في الوقت نفسه الذي يقبـــلان فيه الأموال على قبول سامازيل .

فتصلب وجه روبير : « عفواً ! لقد قلت لي في نيسان انك على استعداد لدعم « الأمل » دون شرط » .

ولاحظت سامازيل من طرف عيني : لم يكن يبـدو محرجاً مطلقاً . وكانت زوجته تبدو معذبة السحنة ، لكنها كانت تبدو هكذا دوماً . وقال تراريو :

– لم أقل هذا . لقد قلت ان ادارة الجريدة سياسياً تعود إلى المسؤولين عـن « الاشتراكي الثوري الحر » ، وانني لن أتدخل فيها . ولم نبحث أي شيء آخر .

فقال روبير بصوت مستنكر :

– لأنه لم يكن هناك شيء آخر يبدو انه بحاجة إلى بحث. لقد وعدت بيرون باستقلاله التام ، وايماناً منه بهذا الوعد جازف تلك المجازفة الكبيرة بدمج «الأمل»

بـ « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال ترار يو في ود :

– أقرّ بأنه يحق لي ألا اعتبر نفسي ملزماً بوعودك . على كل حال لا أرى لماذا سيرفض بيرون هذه العملية . ان سامازيل صديقه .

فقال روبير في حدة :

– ليست هذه هي المسألة . إذا تصور اننا تآمرنا خلف ظهره لنضعه امام الأمر الواقع ، فسوف يتعنت . وانا افهمه .

كان يبدو انه مغتاظ جداً ، وكذلك كنت انا . خاصة انني أعرف عواطف هنري تجاه سامازيل . وقال ترار يو :

– انا ايضاً متعنت .

فقال روبير :

– ان وضع سامازيل سيكون دقيقاً جداً إذا دخل إلى « الأمل » رغم ارادة بيرون .

فقال سامازيل :

– انا موافق تماماً ! يقيناً ، انني اعتقد انه بامكاني تماماً ، في ظروف أخرى ، ان احاول اعطاء انطلاق جديد لصحيفة على وشك الأفول . لكن ابداً لن اقبل بأن أفرض على بيرون رغم إرادته .

فقال ترار يو بصوت ساخر :

– اعذراني إذا كنت أنظر إلى هذه القضية على انها شخصية إلى حد ما . » ووجه كلامه لسامازيل : « انني لا اريد تحقيق ربح مالي . لكن ارفض كل الرفض ان أضحي بالملايين من اجل لا شيء : انني اريد نتائج . وسواء رفض بيرون التعاون معك او رفضت انت التعاون معه ، فانني انسحب . انني لا أسير ابداً في مشروع إذا كنت اعتقد ان مآله إلى الفشل » . وختم كلامه في جفاء : « هذه وجهة نظر تبدو لي سليمة . وعلى كل حال ما من شيء سيجعلني أغيّرها» .

فقال سامازيل :

– يبدو لي ان من العبث النقاش ما دمت لم تكلم بيرون . انني مقتنع انه سيعمل ما بوسعه . بعد كل شيء ، ان مصلحتنا جميعاً واحدة : نجاح الحركة .

وقال تراريو لروبير :

– نعم ، يقيناً سيفهم بيرون ضرورة القيام ببعض التنازلات ، خاصة إذا الحت لإفهامها إياه .

فهز روبير كتفيه وقال : « لا تعتمد علي » .

واستمرت المناقشة بعض الوقت بلا جدوى . وعندما وجدنا أنفسنا ثانية عند اسفل الدرج ، بعد نصف ساعة ، قلت :

– انها لكريهة الرائحة ، هذه القصة ! ماذا قال لك على الضبط ، تراريو ، في نيسان ؟

فقال روبير :

– لم نتكلم إلا عن المظهر السياسي من القضية .

– ووعدت هنري بالمزيد ؟ لقد تعجلت قليلاً !

فقال روبير :

– ربما . لو ترددت اقل تردد ، لما قرر . اننا مرغمون على التعجيل من حين لآخر ، وإلا ما فعلنا شيئاً ابداً .

فسألت :

– لماذا لم تضع تراريو امام الأمر الواقع ؟ اما ان يفي بوعوده دون شرط ، واما الشقاق ، فتفصله من « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال روبير :

– ثم ماذا ؟ افترض انه اختار الشقاق ؟ في اليوم الذي يحتاج فيه هنري إلى مال ، إلامَ سيصير اليه ! » وتابعنا السير في صمت وقال روبير فجأة : « إذا خسر هنري هذه الجريدة بسببي ، فلن أغفر ذلك لنفسي أبداً » .

كنت أرى ثانية ابتسامة هنري ، ليلة النصر . لقد سألته : « أنت لا تريد أن تغطس في الحمام – ليس بشكل جنوني » . لقد كلفه كثيراً ربط « الأمل »

بـ « الاشتراكي الثوري الحر » . كان يحبها . تلك الصحيفة ، كان يحب حريته ولا يحب سامازيل . ولقد كان مقرفاً ما يحدث له . لكن روبير كان يبدو كئيباً جداً إلى حد انني احتفظت بهذه الأفكار في نفسي . وقلت فقط : « لا أفهم ان تكون قد وثقت بتراريو ، انه لا يعجبني مطلقاً » .

فقال روبير في اختصار :

– لقد أخطأت ! » وكان يفكر : « سأطلب المال من موفان » .

– موفان لن يعطيكه .

– سأطلب من آخرين . أشخاص يملكون مالاً ، يوجد منهم الكثير . ولا بد أن يوجد بينهم من يقبل .

فقلت :

– يبدو لي انه ليقبل الانسان فلا بد ان يكون مليونيراً وعضواً في « الاشتراكي الثوري الحر » انهاهذه تركيبة فريدة بالاحرى .

فقال روبير :

– سأسعى . وفي الوقت نفسه سأؤثر على تراريو بواسطة سامازيل . ان سامازيل لا يستطيع ان يقبل بأن يُفرض فرضاً .

فقلت :

– هذا لا يبدو لي انه يحرجه كثيراً . » وهززت كتفي : « حاول على كل حال » .

وقابل روبير موفان في اليوم التالي : وقد اهتم موفان بالأمر لكنه لم يعد بشيء . وقابل روبير أناساً آخرين لم يهتموا مطلقاً . كنت قلقة جداً ، وكانت هذه القصة تقبض قلبي . ولم أكن أحدث روبير عنها لأنني اتجنب بقدر الامكان أن اكون من هاتيك النساء اللواتي يضاعفن هموم الرجل بمشاركتهن فيها ، لكني كنت أفكر فيها في كل لحظة . وكنت أقول في نفسي : « كان على روبير ان لا يفعل ذلك » . فكرة غريبة : ماذا تعني على الضبط ؟ كان يقول ان مسؤولياته تبدو له اثقل وحاسمة اكثر من الماضي لانه لم يعد يستطيع ان يستخدم المستقبل

كبديل : لهذا كان يستعجل الوصول اكثر من الماضي ، وكان هذا يجعله أقل وساوس . لم اكن أحب هذه الفكرة . فعندمـــا يعيش انسان بقرب آخر كما أعيش أنا بقرب روبير ، فإن الحكم عليه يعني خيانته .

وعاد لامبير ونادين بعد بضعة أيام . ولقد كانت هذه العودة بالنسبة لي تسلية سعيدة . كانا مسمرين ، ضاحكين ، محرجين كعريس وعروس جديدين . وكان لامبير يقول :

– ستكون نادين كاتبة ريبورتاج من الطراز الأول . اما بخصوص الدخول إلى أي مكان ودفع أي كان إلى الحديث ، فهي مخيفة .

فقالت نادين موافقة وهي تتغطرس :

– انها لمضجرة احياناً هذه المهنة .

لكن مصدر كبريائها الاول هو انها اكتشفت ، اثناء رحلتها ، على بعد ثلاثين كيلومتراً من باريس ، المنزل الريفي الذي كنت أحلم به بلا جدوى منذ عدة اسابيع.ولقد أحببت فوراً الواجهة الصفراء بصاريعها الزرق والارض المعشوشبة، والجناح الصغير ، والورود البرية . وقد أغري به روبير هو الآخر ووقعنا عقد الايجار . كان داخل المنزل خرباً ، والممرات مغزوة بالقراص . لكن نادين اعلنت انها ستتولى اعادة كل شيء الى حالته . وفجأة اخذت تمل من وظيفتها كسكرتيرة ، وتركتها بعد مدة لبديلتها ، وذهبت لتخيم مع لامبير في الجناح : كانا يوزعان وقتهما بين تحرير كتابهما ، والبستنة ، والتصوير الحائطي . وكان لامبير ، بجلده البرونزي ، ويديه المتعبتين من مقود دراجته ، وشعره الذي كانت نادين تشعثه دوماً ، يبدو أقل افراطاً في الاناقة من الماضي ، على كل حال لم يكن يشبه مطلقاً عاملاً يدوياً . لكنني كنت مرغمة على الوثوق بها .

كانت نادين تعود من حين لآخر إلى باريس ، ولكن في عشية رحيلنـــا إلى مقاطعة « اوفيرني » فقط سمحت لنا بالمجيء إلى سان مارتان . وبواسطة الهاتف ، دعتنا في أبهة إلى العشاء :

– قولي لبابا انه ستكون هناك مايونيز ، انها اختصاص لامبير .

لكن روبير رفض الدعوة ، وقال في أسف : « عندما يراني لامبير ، يعتقد انه مرغم دوماً على مهاجمتي ، وأنا مضطر إلى اجابته ، وهذا يزعج الجميع وأنا أولهم » .

والواقع ان لامبير يبدو عدائياً دوماً عند حضوره .

كان الناس الذين لا يعتقدون انهم مرغمون على اتخاذ موقف لأنفسهم تجـــاه روبير قليلين جداً . وفكرت : « في الحقيقة ، كم هو وحيد ! » . ما كانوا ليحدثوه هو نفسه ، بل شخصاً متصنعاً ، بعيداً ، بلا حقيقة ، لا يملك شيئاً مشتركاً مع ذاته إلا اسمه . وكان ، وهو الذي أحب كثيراً في الماضي الانغمار الغفل في الجمهور ، لا يستطيع ان يمنع ان يخلق اسمه حاجزاً بينه وبين الآخرين : كان الجميع يذكرونه به ، بدون شفقة . والانسان الذي من لحم وعظم الذي كان روبير حقاً ، بضحكاته ، وحنانه ، وغضبه ، وأرقه ، لم يكن أحد يبالي به . وفي لحظة ذهابي لركوب الاتوبيس ، ألححت على كل حال ان يأتي معي . فقال :

ـ أؤكد لك ان السهرة ستكون غير لطيفة اذا جئت . لاحظي انني ، أنا ، لا أشعر بنفور من لامبير .

فقلت :

ـ مع نادين ، يحسن التصرف . انها المرة الاولى التي تقبل فيها ان تعمل بالتعاون مع شخص ما .

فابتسم روبير : « هي التي تحتقر الأدب كثيراً ، ما أعظم فخرها بأن ترى اسمها مطبوعاً ! » .

فقلت :

ـ هـذا افضل ! فهـذا يشجعها على الاستمرار . انه تماماً نوع العمل الذي يوافقها .

وحطت يد روبير على كتفي : « ها أنت قد اطمأننت قليلاً على مصير ابنتك؟ » .

ـ نعم .

فقال روبير في حدة :

– إذن ، ماذا تنتظرين لتكتبي إلى روميو ؟ لم يعد لك أي حق بالتردد .

فقلت في سرعة :

– من الآن حتى كانون الثاني ، يمكن أن تحدث أشياء كثيرة .

كان روميو يطالب بهذا الجواب في إلحاح ، لكن كنت خائفة من أن أقول نعم او لا نهائياً . وقال روبير :

– إسمعي ، انت ترين جيداً ان نادين تتدبر أمرها على أحسن وجه بدونك . على كل حال ، لقد قلت لي ذلك غالباً ، ما من شيء يقيدها أكثر من ان تتعلم ان تستغني عنا .

فقلت بدون اندفاع :

– هذا صحيح .

فتفرس روبير في وجهي في حيرة : « اخيراً ، أأنت راغبة في القيام بهذه الرحلة ، ام لا ؟ » .

فقلت :

– بالتأكيد !» وسرعان ما تملكني الذعر : « لكني لست راغبة في مغادرة باريس . لست راغبة في تركك » .

فقال في حنان :

– ما ابلهك ، يا بلهائي الصغيرة . عندما تتركينني ، تجدينني عند عودتك كما كنت . » وأضاف ضاحكاً : « بل لقد اعترفت لي بأنك لم تفتقري إليّ » .

فقلت :

– في الماضي . اما الآن ، مع تلك الهموم التي تحملها على ذراعيك ، فهذا يقلقني .

فنظر إليّ روبير نظرة جدية : « انت تقلقين كثيراً . البارحة بخصوص نادين، واليوم بسببي . لقد أصبح هذا عادة ، كلا » .

فقلت :

– ربما .

– يقيناً! انت مصابة بعصاب السلم الصغير. لم تكوني هكذا في الماضي مطلقاً.

كانت ابتسامة روبير حنوناً . لكن فكرة ان غيابي يمكن ان يزعجه كانت تبدو له من اختراع عقل مريض . انه يستطيع ان يستغنى عني تماماً مدة ثلاثة أشهر ، على الأقل مدة ثلاثة اشهر . ان هذه العزلة التي يحكم بها عليه إسمه ، وعمره، وموقف الناس ، لم اكن استطيع إلا ان أشاركها ، لا ان ألغيها . وهي لن تثقل عليه لا أكثر ولا اقل إذا لم أشارك فيها . وقال روبير :

– اطردي كافة وساوسك ! أسرعي بكتابة تلك الرسالة . وإلا فإن هذه السفرة ستفلت من يديك .

فقلت :

– سأكتبها عند عودتي من سان – مارتان ، إذا كان كل شيء على ما يرام حقاً .

فقال روبير بصوت آمر :

– حتى ولو لم يكن كل شيء على ما يرام .

– سنرى . » وترددت : « إلى اين وصلت مع موفان ؟ » .

– لقد قلت لك : إنه راحل في إجازة . سيعطيني جوابه النهائي في تشرين الأول . ولكنه وعدني عملياً بالمال . » وابتسم روبير : « هو ايضاً ، يود لو يبقى إلى جانب اليسار » .

– أوعد حقاً ؟

– نعم . وعندما يعد موفان ، يفي .

فقلت :

– هذا يزيح عن قلبي ثقلاً !

لم يكن موفان متقلباً . وشعرت بالاطمئنان حقاً . وسألت : « ألا زلت غير عازم على الحديث مع هنري عن الأمر ؟ » .

– ما الفائدة ؟ ماذا يستطيع ان يفعل ؟ انا الذي وضعته في هذا المأزق ، وعليّ ان أخرجه منه . » وهز روبير كتفيه : « ثم انني أخشى ان يتملكه الغضب

وان يترك كل شيء . كلا ، سأحدثه عندما احصل على المال » .

فقلت :

– حسناً .

ونهضت . ونهض روبير ايضاً وابتسم لي : « كفّي عن القلق وامضي سهرة طيبة » .

– سأبذل جهدي .

كان روبير على حق بالتأكيد . ان هـذا القلق الذي لا يعرف على اي شيء ينصبّ ، يعود تاريخه إلى التحرير . كنت ، ككثيرين غيري ، أجد صعوبة في التلاؤم ثانية . ان سهرة سان – مارتان لن تأتيني بشيء جديد . لم أكن أتردد في اجابة روميو ، لا بسبب نادين ، ولا بسبب روبير . فقلقي لم يعد يتعلق بأحد غيري . وطوال رحلة الاوتوبيس كنت أتساءل ما إذا كنت سأغض النظر ام لا في النهاية . ودفعت بوابة الحديقة . كانت المائدة منصوبة تحت شجرة الزيزفون ، وكان ضجيج أصوات يأتي من البيت . ودخلت مباشرة إلى المطبخ . كانت نادين واقفة بجانب لامبير الذي كان يخفق حانقاً مرقة سائلة ، وقد عقد فوطة حول عنقه . وقالت لي في مرح :

– لقد وصلت في ذروة المأساة ! لقد فشلت المايونيز !

وقال لامبير في سحنة متجهمة :

– صباح الخير . نعم ، لقد فشلت ، انا الذي لا يفشل فيها ابداً !

فقالت نادين :

– اقول لك انه يمكن ان تُصلح ، تابع .

– كلا ، لقد فسدت !

– انت تخفقها بقوة اكثر مما ينبغي .

فكرر لامبير غاضباً :

– أقول لك انها فسدت .

فقلت :

– آه ! سأريك كيف تصلح المايونيز .

ورميت إلى القمامة بالمرقة الفاسدة وناولت لامبير بيضتين جديدتين : « تدبّر أمرك » .

فابتسمت نادين . وقلت بلهجة لا محاباة فيها : « عندك احياناً افكار طيبة » . واخذت ذراعي : « كيف حال بابا ؟ » .

– اوه ! انه بحاجة ماسة إلى اجازة !

فقالت نادين :

– عندما ستعودان من جولتكما حول فرنسا ، يكون البيت قد انتهى . تعالي انظري كيف اشتغلنا جيداً .

كانت غرفة الجلوس المستقبلة ، وهي مزحومة بالسلالم ودلاء الدهان ، كئيبة كآبة الورشات . لكن جدران غرفتي كانت مطلية بملاط وردي رمادي، وغرفة روبير بلون احمر شاحب . وقد كان عملاً مناسباً جداً .

– هذا رائع . من فعله : هو ام انت ؟

فقالت لي في سيماء متألقة :

– كلانا . انا أعطي الأوامر ، وهو ينفذ . انه يكدّ في العمل. وهو مطيع جداً .

فضحكت : « هذا يناسبك تماماً » .

كانت نادين بحاجة إلى ان تأمر كي تشعر بالثقة : فعندما تهتم بأن تطاع أوامرها ، تكفّ عن التساؤل . وكان يستهويها ان تمثل دور ربة البيت . ووضع لامبير ، بين آنية السلطة وصحاف اللحم البارد ، زبدية كبيرة من المايونيز اللزجة والجامدة . وافرغنا ، تحت بصر نادين ، زجاجة نبيذ ابيض . وكانا يرويان لي في حماسةٍ مشاريعهما : اولاً بلجيكا ، وهولاندا ، والدانمرك ، وكافة البلدان المحتلة ، ثم سائر اوروبا . وقال لامبير :

– تصوري انني كنت عازماً على التخلي عن الريبورتاج . بدون نادين ، كنت تخليت عنه بالتأكيد . على كل حال ، انها اكثر موهبة مني ، وعما قريب

لن تعود راغبة في ان ارافقها .

فزفرت :

ــ لهذا لا تريد أن تتركني اقود دراجتك القذرة . مع ان قيادتها ليست صعبة !

ــ ليس من الصعب ان تدقّي عنقك ، ايتها المجنونة .

كان يبتسم لها من اعماق روحه. لقد كانت تتمتع في نظره بمزية لا أدركها ، حتماً . فلم أكن اعرفها إلا تحت مظهر واحد : ابنتي . ان لها ، بالنسبة لي ، بُعدين فقط ، انها مسطحة . وفتح لامبير زجاجة ثانية من النبيذ الابيض . لم يكن يعرف كيف يشرب مطلقاً . كانت عيناه قد أخذتا تلتمعان ، وخدّاه قد احمرّا ، وقليل من العرق يتلألأ على جبينه . وقالت نادين :

ــ لا تشرب كثيراً .

ــ آه ! لا تمثلي دور أم العائلة . أتعرفين ماذا يحدث عندما تمثلين دور أم العائلة ؟

فتصلّب وجه نادين : « لا تفه بحماقات » .

فخلع لامبير سترته : « اشعر بحر شديد » .

ــ ستضر بصحتك .

ــ انني لا اضر بصحتي ابداً . » والتفت نحوي : « نادين لا تريد ان تصدق ذلك : انني لست شديد البأس : لكنني استطيع المقاومة كثيراً . وانا واثق انني استطيع في بعض الحالات ان أتحمل أكثر مما يستطيع مدرب من «جوانفيل[1]» .

فقالت نادين في مرح :

ــ سنرى هذا عندما سنعبر الصحراء على الدراجة النارية !

فقال لامبير :

ــ سنعبرها ! ان الدراجة تستطيع ان تمر في كل مكان ! » ونظر إليّ : « أتعتقدين اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك ؟ » .

---

١ ـ مدينة فرنسية فيها مدرسة عليا للتربية البدنية . « المترجم »

فقلت :

– ليس عندي فكرة .

فقال في حزم :

– على كل حال ، سنحاول . يجب ان نحاول فعل أشياء ! ليس كوننا مثقفين سبباً لأن نعيش داخل بيوتنا .

فقالت نادين ضاحكة :

– اعدك . سنعبر الصحراء وهضاب التيبت ، وسنذهب لاستكشاف ادغال الأمازون . » وأوقفت اليد التي كان لامبير يمدها نحو الزجاجة : « كلا ، لقد شربت بما فيه الكفاية » .

– مطلقاً . » ونهض ومشى خطوتين : هل أترنح ؟ توازن مدهش » .

فقالت نادين :

– حاول ان تشعبذ .

فقال لامبير :

– الشعبذة ، احد اختصاصاتي . » وامسك ثلاث برتقالات ، ورماها في الهواء ، وافلتت منه واحدة ، وتسطّح بطوله كله على الأرض المعشوشبة . وأخذت نادين تضحك ضحكتها الغليظة الفظة . وقالت في حنان :

– يا له من احمق ! » وبطرف مئزرها ، مسحت الجبين الراشح للامبير الذي تركها تفعل في سيماء من سعادة . وقالت : « صحيح انه يملك مواهب اجتماعية . انه يغني أغنيات ظريفة للغاية ! أتريدين ان يغني لك واحدة ؟ » .

فقال لامبير في حزم :

– سأغني لك « قلب الخنزير » .

كانت نادين تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع بينما كان يغني . وكنت ، انا ، اجد في مرح لامبير غلاظة محزنة تقريباً . كان كأنه يحاول بانتفاضات خرقاء ان ينتزع نفسه من جلده ، لكنه كان لاصقاً بجسده . كانت تكشيرته ، وصوته المهرج ، والعرق الذي يسيل على خديه ، وحمى عينيه القلقة ، تشعرني بالحرج .

ولقد سررت عندما انهـــار على قدمي نادين التي كانت تداعب رأسه في امتلاك وسعادة . وكانت تقول :

ـ انت صبي صغير طيب . إهدأ الآن . استرح !

كانت تحب ان تمثل دور الممرضة، وكان هو يسرّ بالملاطفة . وكان لديهما اشياء كثيرة مشتركة : ماضيهما ، شبابهما ، كراهيتهما للأفكار والكلمات ، احلامهما المغامرة ، آمالهما المبهمة. لعلهما سيعرفان كيف يتبادلان الثقة ، ويخترعان لنفسيهما مشاريـع ، نجاحات ، سعادة . تسعة عشر عاماً ، وخمسة وعشرون عاماً : ان المستقبل لفي عنفوان الشباب ! وهما ليسا ممن بقوا على قيد الحياة. وكنت أفكر: « وانا ؟ هل دفنت حقاً حية في الماضي ؟ » . وأجبت في حماسة : « كلا ، كلا !». ان نادين ، وروبير ، يستطيعان ان يستغنيا عني . لم يكونا إلا ذريعة ، وكنت ضحية جبني وحده ، وفجأة بدأت اشعر بالخجل بسببه . طائرة تحملني ، مدينـــة ماردة ، وطوال ثلاثة أشهر لا شعار إلا ان أتثقف وألهو : هذا القدر الكبير من الحرية ، هذا القدر الكبير من التجديد ، كم كنت أتمناهما ! كان بـلا شك تهوراً جنونياً ان أذهب لأتيه في عالم الأحيـاء ، انا التي صنعت لنفسي عشاً تحت اغصان الآس : ليكن ! وكففت عن حماية نفسي ضد ذلك الفرح الذى كان يصعد . نعم : هذا المساء بالذات سأجيب نعم . ان البقاء على قيد الحياة يعني ، بعـد كل شيء ، معاودة الحياة دون انقطاع . وكنت آمل انني لا أزال قادرة على ذلك .

الفصل الخامس

تغلب هنري على لوحه الخشبي . كانت الريح تهب من خلال الجدران المبنية من الحصى . وعلى الرغم من غطائه و كنزاته ، كان يشعر ببرد شديد يمنعه من النوم . كان رأسه وحده دافئاً يطن، و كأنه مصاب بالحمى: لعله مصاب بها. حمى لذيذة سببها الشمس ، والتعب ، والنبيذ الأحمر . اين هو على الضبط ؟ على كل حال في مكان لا يفكر اي انسان بأن يكون فيه: هذا مريح جداً، لا تأسفات، لا أسئلة : ان هذا الأرق هادىء كنوم بلا احلام . كان قد تخلى عن كثير من الأشياء، ولم يعد يكتب ، ولم يعد يلهو يومياً ، لكن ما ربحه بالمقابل ، هو ان شعوره اصبح خاصاً به ، وكان هذا شيئاً عظيماً ، بعيداً عن الأرض ومشاكلها ، بعيداً عن البرد ، والريح ، وجسده المتعب ، كان يعوم في حمام من البراءة : انها يمكن ان تكون مسكرة كاللذة ، البراءة . ورفع للحظة جفنيه . وإذ رأى الطاولة القائمة ، والشمعة ، وذلك الرجل الذي يكتب ، فكر في رضى: «لكأنني في العصر الوسيط ! » واطبق الليل على هذا الوهم الفرح .

– ألم أحلم ؟ أرأيتك حقاً هذه الليلة وانت تكتب ؟

فقال دوبروي :

– لقد اشتغلت قليلاً .

– حسبتك الدكتور فاوست .

كانا جالسين على عتبة الملجأ ، متدثرين بأغطيتهما التي كانت الريح تضربها .

كانت الشمس قد أشرقت اثناء نومها وكانت السماء زرقاء تماماً ، لكن تحت اقدامها كانت تمتد هضبة من الغيوم . وكانت الريح ، من لحظة لأخرى ، تمزقها ، فتبين قطعة من السهل .

وقالت آن :

– انه يشتغل يومياً . اما الديكور فهو لا يبالي به : قد يكون في اصطبل ، تحت المطر ، في ساحة عامة ، لكن لا بد له من ساعاته الكتابية الأربع . وبعد ذلك ، يفعل كل ما يطلب منه .

فقال دوبروّي :

– وماذا تطلبان الآن ؟

– اعتقد اننا نفعل حسناً إذا نزلنا . اننا نستطيع ان نجد مشهداً افضل من هذا .

وهبطوا عبر منابت الخلنج حتى القرية السوداء حيث كانت عجائز ، جالسات على عتبات بيوتهن ، وعلى ركبهن وسادات شائكة بالدبابيس ، قد أخذن يحركن مغازلهن . وشربوا شراباً اسود في الحانة – دكان العطارة حيث كانوا قد تركوا دراجاتهن ، ثم امتطوها . كانت عبارة عن آلات قديمة اتعبتها الحرب ، لا تتظاهر بما ليس فيها . كان الدهان متقشراً ، ومانعات الوحل متشققة والدواليب منتفخة بأورام غريبة . وكانت دراجة هنري تعاند في الجري كثيراً حتى انه تساءل في قلق ما إذا كانت ستقاوم حتى المساء . ورأى في اطمئنان الزوجين دوبروي يتوقفان عند ضفة ساقية كانت هي نهر اللوار بعينه . كان الماء أبرد من ان يمكن الاغتسال فيه ، لكنه رش به نفسه من رأسه إلى قدميه ، وعندما امتطى دراجته ثانية ، تبين بعد كل شيء ان دولابيها يدوران : في الحقيقة كان جسده هو الصديء اكثر من اي شيء آخر . وإعادته إلى حالته الطبيعية تتطلب شغلاً حقيقياً . ولكن بعد ان تغلب هنري على التشنجات الأولى ، شعر انه سعيد تماماً لأنه أراح هذه الأداة الطيبة للغاية . كان قد نسي كم يمكن ان يكون نافعاً ، الجسد . وكانت السلسلة والدولابان تضاعف جهده ، ولكن اخيراً كان المحرك

الوحيد في هذا الجهاز الآلي كله عضلاته ، لهاثه ، قلبه : وكانت الآلة تلتهم وجبة محترمة من الكيلومترات ، وتتسلق التلال ببسالة .

وقالت آن :

ـ لكأن هذا يعض .

كانت تبدو ، بشعرها الذي تلعب به الريح ، وجلدها الذي لفحته الشمس ، وذراعيها العاريتين ، أصغر سناً بكثير مما كانت عليه في باريس . وكان دوبروي ايضاً قد اسمر ، ونحف . وكان يبدو ، ببنطلونه القصير ، وساقيه الباردة عضلاتها ، والغضون المحفورة في وجهه الملوح ، أشبه بتلميذ من تلامذة غاندي . وقال هنري:

ـ اليوم أفضل من البارحة !

وابطأ دوبروي واخذ يسير بجانب هنري وقال في مرح :

ـ يجب ان نقول ان البارحة لم تكن على ما يرام . لم تروِ لنا شيئاً . ماذا حدث في باريس منذ رحيلنا ؟

فقال هنري :

ـ لا شيء خاصاً . كان الحر شديداً . يا إلهي ! ما كان اشد الحر !

ـ وفي الجريدة ؟ ألم ترَ تراريو بعد ؟

كان في صوت دوبروي فضول شره للغاية حتى انه كان يشبه القلق .

ـ كلا . لقد وضع لوك في رأسه فكرة وهي أننا اذا قاومنا شهرين او ثلاثة ، فسوف نخرج من المشكلة بمفردنا .

ـ هذا يستحق المحاولة . لكن يجب ألا تستقرضوا المزيد .

ـ اعرف ، إننا لم نعد نستقرض . ان لوك يفكر بالاعتماد على الاعلان .

فقال دوبروي :

ـ اعترف بأنني ما كنت أتوقع ان ينخفض توزيع « الأمل » إلى هذا الحد .

فقال هنري مبتسماً :

ـ اواه ! اتعرف ، إذا لم يكن هناك مفر من قبول رؤوس أموال تراريو في النهاية، فإنني لن اجعل من ذلك مرضاً. ليس هذا ثمناً غالياً لنجاح « الاشتراكي

الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

– الواقع ان مقدار ما حققه من نجاح ، يعود الفضل فيه اليك .

كان صوته أكثر تحفظاً ايضاً من عباراته . لم يكن راضياً عن « الاشتراكي الثوري الحر » : ذلك لأنه كان كثير الطموح . ولم يكن من الممكن ان تخرج من التراب ، بين عشية وضحاها ، حركة كبيرة كالحزب الاشتراكي القديم . وكان هنري على العكس قد فوجيء على سعادة منه بنجاح المهرجان . انه لا يثبت شيئاً كبيراً ، المهرجان : هذا لا يمنع انه لا ينسى بسرعة تلك الوجوه الخمسة الآلاف المرفوعة نحوه . وابتسم لآن :

– إن للدراجة سحرها . انها ، بمعنى ما ، افضل حتى من السيارة .

كانت سرعتهم قـــد تضاءلت . لكن روائح العشب ، والخلنج ، والصنوبر ، وعذوبة الهواء أو رطوبته كانت تتغلغل حتى عظامك . وكان المشهد أكثر بكثير من مجرد ديكور : كانوا يقتحمونـــه قطعة قطعة ، بحيوية عظيمة . ففي تعب الصعود ، وغبطة الهبوط ، كانوا يعانقون جميع عوارضه ، ويعيشونه بدل ان يتأملوه كمشهد . وما اكتشفه هنري في رضى في ذلك اليوم الأول ، هو ان هذه الحياة تكفي للمثك : يا له من صمت في رأسه ! كانت الجبال ، والمروج ، والغابات تتولى الحيـــاة مكانه . وكان يقول في نفسه : « ما أندره هذا الهدوء الذي يختلط بالنوم ! » .

وعند المساء قال لآن :

– لقد اخترت زاوية طيبة ، انه لمشهد جميل .

– غداً ايضاً ، سيكون يوماً طيباً . هل تريد ان ترى على الخارطة مرحلة الغد؟

كانوا يشربون ، في النزل الذي جاؤوا إليـــه للعشاء ، خمراً ابيض ، حريف الطعم . وكان دوبروي قد وضع أمتعته على زاوية طاولة مغطاة بقماش مشمع. وقال هنري :

– أرني .

وتبع بعينيه في وداعة طرف القلم على طول الخطوط الحمر، والصفر، والبيض:

– كيف تستطيعين ان تختاري بين هذه الطرق الصغيرة كلها ؟

– هذا ما يسلي .

وفكر هنري في اليوم التالي : ما يسلي هو ان ترى كيف ينطبق المستقبل تماماً على مشاريعك : كل منعطف ، كل صعود ، كل نزول ، كل قرية ، كانت في المكان المتوقع . يا له من أمان ! ان المرء ليشعر انه يرشح من ذاته بقصته ، ومع ذلك ، فإن تحول الاشارات المرسومة إلى طرق حقيقية، إلى منازل حقيقية، يعطيك ما لا يعطيكه أي خلق : الواقع . فهذا الشلال ، كان معلناً عنه على الخارطة بعلامة زرقاء : لم يكن هذا أقل مدعاة للذهول من رؤية هذا الشلال المزبد الضخم في أعماق مضيق ملتوٍ . وقال هنري :

– كم يسر الانسان بالنظر .

فقال دوبروي في أسف :

– نعم ، كل ما هنالك اننا لا نشبع . ان لمحة العين تعطي كل شيء ولا شيء في آن واحد .

لم يكن ينظر إلى شيء . لكن عندما كان يؤخذ بشيء ما ، كان لا يشبع منه في الواقع . واضطر هنري وآن إلى الهبوط وراءه ، من صخرة إلى صخرة عند سفح الجرف المائع . وتقدم حافي القدمين في الحوض الفائر إلى ان بلغ الماء أسفل بنطالة القصير . وعندما عاد ليجلس على حافة الحوض ، قال في حزم :

– انه أجمل شلال رأيناه على الاطلاق .

فقالت آن ضاحكة :

– انت تفضل دوماً ما هو تحت عينيك .

فقال دوبروي :

– انه اسود وابيض كله ، هذا ما هو جميل . لقد بحثت عن اللون : لا أثر للون . وللمرة الأولى في حياتي رأيت ان الأسود والابيض شيء واحد بالضبط . »
وقال لهنري : « عليك ان تدخل في الماء وان تذهب حتى تلك الصخرة الكبيرة .

ستتبين ذلك جيداً : سواد الابيض ، وبياض الأسود ، ستراهما . » .

فقال هنري :

– إني أصدقك تماماً .

كانت نزهة ما على الأرصفة تصبح في فم دوبروي مغامرة حقيقية كبعثة إلى القطب الشمالي ، وكان هنري وآن يضحكان لذلك معاً ، أغلب الأحيان : ذلك انه لم يكن يميز بين الادراك والكشف ، فما من عين قبله قد تأملت شلالاً ، وما من أحد يعرف ما الماء ، ما السواد ، ما البياض ، ولو ترك هنري لنفسه لما لاحظ يقيناً هذه التفاصيل كلها عن ألعاب البخار والزبد ، هذه التحولات ، هذه التلاشيات ، هذه الدوامات الصغيرة التي كان دوبروي يتفحصها وكأنه يريد ان يعرف مصير كل قطرة ماء . وكان هنري يفكر وهو ينظر اليه في حب : « يمكن ان أغضب منه ، لكن لا يمكن ان أستغني عنه » . كان كل شيء ، إلى جانبه يصبح هاماً ، وكانت الحياة تبدو امتيازاً عظيماً ، وكانت حياة مضاعفة. ان هذه الرحلة عبر الريف الفرنسي ، كان يحولها إلى رحلة استكشاف .

وقال هنري وهو يبتسم لدوبروي الذي كان يتأمل في استغراق آخر تعرجات مغيب الشمس :

– ستدهش كثيراً قراءك .

فقال دوبروي بذلك الصوت المستنكر الذي يتكلم به عندما يحدثونه عن نفسه :

– ولماذا ؟

– يخيل لمن يقرأ كتبك انه لا يهمك غير الناس ، وان الطبيعة لا قيمة لها .

– ان الناس يعيشون في الطبيعة ، أليس كذلك ؟

ان منظراً ما ، او صخرة ، او لوناً هي ، بالنسبة لدوبروي ، حقيقة انسانية معينة. لم تكن الأشياء لتؤثر عليه ابداً من خلال الذكريات والأحلام، والاعجاب بالذات ، ولا بالانفعالات التي يمكن ان تثيرها فيه ، إنما بذلك المعنى الذي يستشفه فيها . وبالطبع ، انه ليفضل ان يقف امام فلاحين يقطعون الأعشاب

النابتة بعد الحصاد على ان يقف امام مرج عارٍ . وعندما كان يجتاز قرية كان فضوله يصبح غير قابل للشبع . كان يود لو يعرف كل شيء : ماذا يأكل اولئك القرويون ، كيف ينتخبون ، تفاصيل أعمالهم ، لون أفكارهم . وكان يجد اي ذريعة ليدخل إلى مزرعة : كأن يشتري بيضاً ، او يسأل قدح ماء . وعندما يستطيع ، يخوض في محادثات طويلة .

وفي مساء اليوم الخامس ، انبعج اطار دراجة آن وسط منحدر . وبعد ساعة من المسير ، صادفوا منزلاً منعزلاً تسكنه ثلاث نساء صبايا متساقطات الأسنان . وكانت كل منهن تحمل بين ذراعيها طفلاً متفاوت العمر ، قذراً جداً . وجلس دوبروي وسط الباحة المغطاة بالزبل ليصلح الاطار ، وبينما كان يلصق المطاط ، كان ينظر حوله في شراهة :

– ثلاث نساء ولا رجل ، هذا غريب ، أليس كذلك ؟

فقالت آن :

– الرجال في الحقول .

– في مثل هذه الساعة ؟

وغطس في الوعاء الاطار الضخم الذي بلون الصدأ ، وتصاعدت فقاعاتٍ هواء إلى سطح الماء : « ثقب آخر ! قولي إذن ، ألا تعتقدين انهن سيتركننا ننام في مخزن الحبوب ؟ » .

– سأذهب لسؤالهن .

واختفت آن داخل المنزل وعادت فوراً تقريباً : « يغضبهن ان ننام على التبن ، لكنهن لا يعارضن . كل ما هنالك انهن مصرات كل الاصرار على ان نشرب شيئاً دافئاً أولاً » .

فقال هنري :

– يعجبني ان أنام هنا ! فما دمت اريد أن أكون بعيداً عن كل شيء ، فانني بعيد عن كل شيء .

وعلى بصيص مصباح مدخن ، شربوا قهوة الشعير وهم يحاولون الحديث .

كانت النساء متزوجات من ثلاثة اخوة يملكون معاً هذه المزرعة القليلة الخصب. وقد نزل رجالهن منذ عشرة ايام إلى « باس – آرديش » حيث يعملون بالاجرة لقطف الخزامى ، وهن يمضين نهارات طويلة صامتة يطعمن الحيوانات والأطفال . كن يعرفن تقريباً الابتسام ، لكنهن نسين تقريباً الكلام . وكانت تنبت هنا أشجار كستناء ، وكانت الليالي رطبة . وهناك كانت تنبت باقات من الخزامى ، وكان جني عدة فرنكات يكلف الكثير من العرق : كان هناك تقريباً كل ما يعرفنه عن هذا العالم . نعم ، انهم بعيدون جداً عن كل شيء ، بعيدون إلى حد ان هنري عندما اندس بين التبن، وقد دوخته هذه الروائح كلها وكل هذه الشمس المخزونة في العشب اليابس ، كان يحلم انه لم تعد توجد لا طرق ، ولا مدن : لا عودة .

كانت هناك طريق تزحف بين أشجار الكستناء وتهبط نحو السهل في تعرجات سريعة . ودخلوا مرحين إلى المدينة الصغيرة التي كانت أشجار الدلب فيها تعلن عن الطقس الحار وعن لعبات الكرة في الجنوب . وجلس آن وهنري على الرصيف المقفر لأكبر مقهى، وطلبا فطائر بينما ذهب دوبروي لشراء صحف . وشاهداه يتبادل بضع كلمات مع البائع واجتاز الساحة في خطى بطيئة، وهو يقرأ. ووضع الصحف على الطاولة ورأى هنري العنوان الكبير : « الأميركان يلقون قنبلة ذرية على هيروشيما » . وقرأوا المقال في صمت . وقالت آن بصوت مضطرب :

– مئة ألف قتيل ! لماذا ؟

ان اليابان ستسلم حتماً ، انها نهاية الحرب . كانت الصحيفتان المحليتان منتشيتين ، لكن ثلاثتهم ما كانوا يشعرون معاً إلا بشعور واحد : الفظاعة . كانت آن تقول :

– أما كانوا يستطيعون قبل ذلك ان يهددوا ، ان يخوّفوا : ان يقوموا بتظاهرة في زاوية مقفرة ، لست أدري ... أكانوا حقاً مرغمين على القائها ، هذه القنبلة ؟

فقال دوبروي :

– يقيناً انهم كانوا يستطيعون أولاً ان يحاولوا الضغط على الحكومة. » وهز كتفيه : « على مدينة المانية ، على بيض ، انني لأتساءل ما إذا كانوا سيجرؤون ! ولكن على صُفر ! انهم يكرهون الصّفر » .

فقال هنري :

– مدينة اختفت بأكملها ، هذا سيحرجهم على كل حال !

فقال دوبروي :

– اعتقد ان هناك سبباً آخر . انهم مسرورون كل السرور ان يظهروا للعالم مدى قدرتهم : فهكذا يستطيعون ان ينفذوا سياستهم دون ان يجرؤ احد على التململ .

فقالت آن :

– وقتلوا مئة ألف شخص من أجل هذا !

كان الذهول يخيم عليهم أمام قهوة القشدة ، وكان نظرهم مثبتاً بالكلمات الرهيبة ، وهم يرددون الواحد تلو الآخر العبارات اللامجدية ذاتها . وقالت آن :

– يا إلهي ! لو كان الألمان نجحوا في صنع هذه القنبلة ! لقد نجونا منها بجلدنا !

فقال دوبروي :

– لا يعجبني اكثر ان اعلم انها في أيدي الأميركان .

فقالت آن :

– انهم يقولون في هذه الصحف انه يمكنهم نسف الأرض بأكملها .

فقال هنري :

– ما شرحه لي « لارغي » هو ان الطاقة الذرية ، إذا ما حررها حادث مؤسف ، لن تنسف الأرض ، بل ستبيد جوها : سوف تصبح الأرض آنذاك أشبه بالقمر .

فقالت آن :

– هذا ليس مفرحاً اكثر .

كلا ، لم يكن هذا مفرحاً . كل ما هنالك انهم عندما عاودوا السير على

الطريق المشمس ، فرغ كلامهم المكرور الرهيب من كل معنى . ان مدينة من أربعمئة ألف نسمة تبخرت ، وطبيعة انحلت : هذا لا يوقظ اي صدى . كان ذلك النهار كما يجب ان يكون – السماء زرقاء ، وأوراق الشجر خضراء،والأرض العطشى صفراء – وكانت الساعات تنساب الواحدة تلو الأخرى من الفجر الرطب إلى لظى الظهيرة . وكانت الأرض تدور حول الشمس المربوطة بها ، لامبالية بحمولتها من المسافرين الذين ليست لهم وجهة معينة : كيف يصدق المرء، تحت هذه السماء الهادئة كالأبدية ، ان هؤلاء المسافرين يمكنهم اليوم ان يحولوها إلى قبر قديم ! لا شك في ان المرء بعد ان يتنزه اياماً في الطبيعة، يتبين انها مجنونة قليلاً . فقد كانت هناك مبالغة في مواكب الغيوم الجامحة ، في تمرد الجبال ومعاركها الساكنة ، في أزيز الحشرات ونمو النباتات العصبي . لكنه كان جنوناً هادئاً وثابتاً . غريب ان يفكر المرء بأن هذا الجنون عندما يجتاز العقل البشري يتحول إلى هذيان قاتل .

وقال هنري عندما جلسوا على ضفة نهر ورأى دوبروي يخرج أوراقه من عدله:

– ولا تزال لك الشجاعة لتكتب !

فقالت آن :

– انه وحش . انه سيشتغل حتى بين أنقاض هيروشيما .

– انه يشتغل بين أنقاض هيروشيما .

فقال دوبروي :

لمَ لا ؟ لقد كانت هناك دوماً انقاض في مكان ما .

وأمسك قلم الحبر ولبث مدة طويلة تائه النظرة في الفراغ. بلا شك ، لم يكن من السهل ان يكتب بين هذه الأنقاض الحديثة تماماً . وبدلاً من ان ينحني على ورقه ، قال على حين غرة : « آه ! ليتهم فقط لا يرغموننا على ألا نكون شيوعيين ! » .

فقالت آن :

– من ؟

– الشيوعيون . أتدركان : هذه القنبلة ، يا لها من وسيلة رائعة للضغط ! لا اعتقد ان الأميركان سيذهبون غداً لإلقاء واحدة على موسكو ، لكنهم اخيراً ، يملكون امكانية فعل ذلك ، ولن يتركوا العالم ينسى هذا . انهم لن يتعرفوا بعضهم البعض بعد الآن ! انه الوقت الذي يجب فيه ان نتكاتف ، وبدلاً من هذا نحن نكرر اليوم جميع اخطاء ما قبل الحرب !

فقال هنري :

– انت تقول : نحن . ولكننا لسنا نحن الذين بدأنا .

فقال دوبروي :

– نعم ، ان ضميرنا مرتاح . وبعدُ ؟ إن هذا يجعل مظهرنا أنيقاً ! إذا حدث الانقسام ، فسنكون مسؤولين عنه قدر مسؤولية الشيوعيين : بل اكثر لأنهم الأقوى .

فقال هنري :

– انني لا اتبعك .

– انهم مقيتون ، انا موافق . لكن فيما يتعلق بنا ، فهذا لا يوجد اي فرق . عندما سيجعلون منا اعداء ، سنكون اعداء . لا فائدة من القول : انها غلطتهم . فسواء كانت غلطة ام لا ، فسنكون اعداء الحزب البروليتاري الكبير في فرنسا. وليس هذا حتماً ما نريده .

– إذن ، يجب الاستسلام لشانتاجهم ؟

فقال دوبروي :

– لم أرهم ابداً خبثاء ، اولئك الناس الذين يغرقون بعضهم البعض كيلا يستسلموا . سواء كان « شانتاج » ام لا ، فلا بد من الابقاء على الاتحاد .

– ان الاتحاد الوحيد الذي يفكرون به في اخلاص ، هو حل « الاشتراكي الثوري الحر » وانضمام جميع أعضائه إلى « الحزب الشيوعي » .

– يمكن ان نصل إلى هذا الحد .

فسأل هنري مفاجئاً :

ـ أتستطيع ان تتسجل في الحزب الشيوعي؟ لكن هناك أشياء كثيرة تفصلك عن الشيوعيين !

فقال دوبروي :

ـ أواه ! سنتدبر امرنا . عند الحاجة سأعرف كيف أصمت .

وامسك أوراقه واخذ يخط كلمات . ونـثر هنري على العشب الكتب التي اخرجها من عدله . منذ ان كفّ عن القراءة ، قرأ كمية من الكتب نزّهته حول العالم كله . انه في هذه الأيام يكتشف الهند والصين : ليس فيهما ما يبعث المرح . كثير من الأشياء تصبح باطلة عندما يفكر المرء بتلك المئـات من الألوف من الجائعين . لعل تحفظاته تجاه الحزب الشيوعي باطلة هي الأخرى . كان ما يأخذه عليـه أكثر من أي شيء آخر ، هو معاملته للناس كأشياء . إذا لم نكن نثق بحريتهم ، بأحكامهم ، بإرادتهم الطيبة، فلا داعي لتحمل مشقة الاهتمام بهم . ونحن نسيء الاهتمام بهم . لكن هذا كان ملامة لا معنى لها إلا في فرنسا ، في اوروبا ، حيث بلغ الناس مستوى معيناً من الحيـاة ، حداً أدنى من الاستقلال الذاتي والتبصر . اما عندما تصبح المسألة مسألة جماهير بلـّدها البؤس والخرافات ، فما معنى معاملتهم كبشر ؟ يجب ان يقدم لهم ما يأكلونـه ، هذا كل شيء . ان السيطرة الأميركية تعني نقص التغذية ، والاضطهـاد المؤبد لجميع بلدان الشرق . ان حظها الوحيد هو الاتحادالسوفياتي: ان الحظ الوحيد لبشرية محررة من الحاجة، من العبودية ومن البلادة هو الاتحاد السوفياتي. إذن يجب فعل كل شيء لمساعدته. عندما لا يكون ملايين البشر إلا حيوانات أضاعتها الحاجات ، فإن الانسانيـة لتبعث على السخرية ، والفردية ليست إلا نذالة . فكيف يجرؤ المرء على المطالبـة لنفسه بهذه الحقوق العليا : الحكم ، والتقرير ، والمناقشة بحرية ؟ (وقطف هنري سنبلة ومضغها في بطء . ما دام الانسان لا يستطيع على كل حال ان يعيش كما يريد ، فلماذا لا يتخلى تماماً ؟ ان يضيع في قلب حزب كبير ، ان يوحد إرادتـه بإرادة جماعة ضخمة : يا له من سلام ، يا لها من قوة ! ما ان يفتح المرء فاه حتى يتكلم باسم الأرض كافة ، ويصبح المستقبل من صنعه الشخصي : هذا يستحق ان

يتحمل اشياء كثيرة . » وقطف هنري سنبلة أخرى وقال لنفسه : « هـذا لا يمنع انني سأسيء الاحتمال ، كل يوم بيومه . من المستحيل ان تفكر بما لا تفكر به ، ان تريد ما لا تريده . كي تكون مناضلاً طيباً ، فلا بد ان يكون لك إيمان السذج ، وانا لا املكه » . وقال في نفسه ايضاً في غيظ : « ثم ان المسألة غير مطروحة على هـذا النحو » . يقيناً ، انه لمثالي . ماذا سيفيد انتسابي ، هي ذي المشكلة الحسية الوحيدة. بديهي انه لن يحمل حبة ارز واحدة إلى هندوكي واحد» .

كان دوبروي قـد كفّ عن التساؤل : كان يكتب . وتابع الكتابة يومياً . ما من شيء يمكن ان يعيقه في هذا المجال . وبعد ظهر احد الأيام ، وبينما كانوا يتناولون الغداء في قرية عند سفح « الايغوال » ، هبت عاصفة عنيفة للغاية حتى ان الدراجات انقلبت ، وتطاير عدلان ، وانطلق مخطوط دوبروي زائغاً نحو سيل من الوحل . وعندما التقطه ، كانت الكلمات تقطر خيوطاً طويلة سوداء على الأوراق المنقوعة بماء اصفر . وجفف أوراقه في هدوء ، واعاد نسخ المقاطع المتضررة أكثر من غيرها ، وخيل اليها انه على استعداد عند الحاجة لمعاودة كتابه كله باللامبالاة ذاتها . كان على حق في العناد دون أدنى شك ، ما دام يجد اسباباً ، وأحياناً عندما كان هنري ينظر إلى يده تنساب على الورق ، كان يشعر بنوع من الحنين في قبضته الخاصة .

وسأل هنري بعـد ظهر ذلك اليوم ، حيث كانوا جالسين في ظل مقهى في « فالانس » ينتظرون ان يتعب الحر :

ــ ألا يمكن ان نقرأ بضع صفحات من مخطوطك؟ إلى اين وصلت على الضبط؟

فقال دوبروي :

ــ انني أكتب فصلاً حول فكرة الثقافة . ما معنى كون الانسان لا يكف عن الحديث عن نفسه ؟ ولمـاذا يقرر بعض البشر ان يتكلموا باسم الآخرين : وبتعبير آخر ما المثقف ؟ ألا يشكل هذا القرار نوعاً قائماً بذاته ؟ وإلى أي حـد يمكن للانسانية ان تتعرف نفسها في الصورة التي تقدمها عن ذاتها ؟

فقال هنري :

– وماذا تستنتج ؟ ان الأدب يحتفظ بمعنى ؟

– بالتأكيد .

فقال هنري ضاحكاً :

– أن نكتب لنظهر أننا على حق ! هذا رائع .

فنظر اليه دوبروي في فضول : « كيف ، سوف تعاود الكتابة ذات يوم ولا شك ؟ » .

فقال هنري :

– اواه ! على على كل حال ليس اليوم .

– اليوم او غداً ، أي فرق !

– حسناً ، لن يكون هذا غداً أيضاً .

فقال دوبروي :

– لكن لماذا ؟

– انت تكتب دراسة ، ليكن . لكن تخيل رواية في هذا الوقت ، اعترف ان هذا غير مشجع .

– انني لا اعترف ! ولم افهم ابداً لماذا تخليت عن روايتك .

فقال هنري مبتسماً :

– انها غلطتك .

– كيف غلطتي ! » واستدار دوبروي في استنتكار نحو آن : « أتسمعينه؟ » .

– لقد وعظتني بالعمل : والعمل أقرفني من الأدب . » واشار هنري إلى النادل الذي كان يتناوم واقفاً امام الصندوق : « أريد نصفاً آخر . وانتما ؟ » .

فقالت آن :

– كلا ، أشعر بحر شديد .

وأشار دوبروي برأسه ان نعم واستأنف : « اشرح لي » .

فقال هنري :

– ماذا يهم الناس ما أفكر به ، انا ، او ما احسه ؟ ان قصصي الصغيرة لا تهم

احداً والقصة الكبيرة ليست موضوعاً لرواية .

فقال دوبروي :

– ولكن لدينا جميعاً قصصنا الصغيرة التي لا تهم احداً . ولهذا نرى أنفسنا في قصص الجار ، وإذا كان يعرف كيف يرويها ، فهي تهم جميع الناس في النهاية .

فقال هنري :

– هذا ما كنت أعتقده وانا ابدأ كتابي » وشرب جرعة من البيرة . لم يكن يرغب في تفسير أحاسيسه . ونظر إلى الشيخين اللذين كانا يلعبان بالنرد على طرف الخوان الأحمر . أي سلام في قاعــة المقهى هذه : انها لكذبة أخرى ! » وبذل جهــداً ليتكلم : « الممل ، ما هو شخصي في تجربة ما ، أي ما هو أخطاء ، وسرابات . عندما نفهم هذا ، لا نعود نرغب في روايته » .

فقال دوبروي :

– لا افهم ما تقصد اليه .

فتردد هنري : « لنفترض انك ترى الانوار ، ليلاً ، عند ضفة المـــاء . هذا جميل . لكن عندما تعلم انها تضيء ضواحي يموت فيها الناس جوعاً ، تفقد كل شاعريتها ، ولا تعود إلا صورة خادعة للعين . ستقول لي انه يمكننا الحديث عن شيء آخر : مثلاً عن اولئك الناس الذين يموتون جوعاً . لكني عندئذ افضل ان اتكلم عنهم في مقالات او في مؤتمر » .

فقال دوبروي في حدة :

– لن اقول لك هذا مطلقاً . تلك الانوار ، انها تلمع من أجل جميع الناس . بديهي ، يجب اولاً ان يأكل الناس. لكن لا يفيد شيئاً ان تأكل اذا منعت عنك جميع الأشياء الصغيرة التي تسبب مسرات الحياة . لماذا نسافر ؟ لأننا نعتقد ان المناظر ليست صوراً خادعة للعين .

فقال هنري :

– لنفترض ان هذا كله سيجد له معنى ثانياً ذات يوم . امـــا الآن ، فهناك اشياء كثيرة أهم !

فقال دوبروي :

– ولكن لهذا معنى اليوم . هذا له حسابه في حيواتنا ، إذن يجب أن يكون له حسابه في كتبنا . » واضاف في غضب مفاجيء : « لكأن اليسار محكوم عليه بأدب دعاوي كل كلمة فيه يجب أن تكون قدوة صالحة للقاريء ! » .

فقال هنري :

– أواه ! انني لا أميل إلى مثل هذا النوع من الأدب .

– اعرف ، لكنك لا تحاول شيئاً آخر . مع ان هناك ما يمكن أن تهتم به !»

ونظر دوبروي إلى هنري في إلحاح : « يقيناً اذا فغرت فمك دهشة أمـــام تلك الأنوار الصغيرة متناسياً ما تعنيه : فأنت نذل . لكن بالضبط : جد لك طريقة في الحديث عنها لا تكون طريقة الاسلوبيين اليمينيين . أظهر في آن واحد جمالها ، وبؤس الضواحي » . وتابع بصوت متحمس : « هذا ما يجب ان يكون عليه أدب يساري : ان يرينا الأشياء من خلال منظور جديد بوضعها في مكانها الحقيقي. لكن علينا ألا نفقر العالم . ان التجارب الشخصية ، اي مـــا تدعوه سرابات ، موجودة » .

فقال هنري دون اقتناع :

– انها موجودة .

ربما كان دوبروي على حق . ربما كانت هناك وسيلة لاستعادة كل شيء ، ربما كان الأدب يحتفظ بمعنى . ولكن كان يبدو لهنري ، في اللحظة الراهنة ، ان الأهم هو ان يفهم هذا العالم بدل ان يعيد خلقه بكلمات . كان يفضل أن يسحب من عدله كتاباً منتهياً على ان يسحب ورقاً أبيض .

وتابع دوبروي في احتداد :

– أتعرف ماذا سيحدث ؟ ان كتب الاشخاص اليمينيين ستصبح في النهاية اكثر قيمة من كتبنا ، وسوف تذهب الشبيبة الى امثال فولانج لتستمد منهم الغذاء .

فقال هنري :

– اوه ! ان فولانج لن يجد الشبيبة أبداً إلى جـــانبه ! ان الشبيبة لا تحب المقهورين .

فقال دوبروي :

– انما نحن الذين نجازف بأن نبدو مقهورين في القريب العاجل . » ونظر إلى هنري في اصرار : « يؤسفني ان تتوقف عن الكتابة » .

فقال هنري :

– ربما عدت اليها .

كان الجو حاراً جـــداً على النقاش . لكنه كان يعرف انه لن يعود اليـها عاجلاً . والفائدة ، انه وجد الوقت اخيراً ليتثقف . ففي أربعة أشهر ، ردم عدداً لا بأس به من الفجوات . وما ان يعود إلى باريس ، بعد ثلاثة أيام، حتى يكون عليه ان يضع مخططاً لدراسات جدية وربما سيتوصل من الآن حتى سنة او سنتين إلى ان يحصل على جنين من الثقافة السياسية على الأقل .

وكان يقول في نفسه في صباح اليوم التالي ، وهو يجري برخاوة عبر غـابة لا يكاد ظلها الخفيف يخفف من لظى السماء : « المهم ألا تكون بول قد عادت ! » . كان قد ترك دوبروي وآن يجريان أمامه وكان بمفرده عندما دخـــل إلى البقعة الجرداء في الغابة . كانت دوائر من الشمس ترتعد على العشب الأخضر ، ولم يفهم لماذا أحس بأن قلبه انقبض . لم يكن ذلك بسبب الكوخ المحترق ، فهو يشبــه الكثير من الخرائب الأخرى التي قوضها الزمن واللامبالاة. ربما كان ذلك بسبب الصمت : لا طير ، لا حشرة ، وما من صوت إلا صوت الحصى الذي يصر تحت الاطارين ، صوت مترف. كان آن ودوبري قد ترجلا عن دراجتيهما وكانا ينظران إلى شيء ما . وانضم اليهما هنري ورأى انها صلبان : صلبان بيض ، بلا أسماء ، بلا زهور . « الفيركور [1] » . ان تلك الكلمة التي بلون الذهب المحترق ، لون الكلس والرماد ، القاسية والجافة كأرض بور ، لكن الساحبة ووراءها رائحة عفنة من رطوبة جبلية ، لم تعد اسم اسطورة . « الفيركور » . انه بلد الجبال هـذه

١ – منطقة جبلية فرنسية قامت فيها مقاومة بطولية ضد النازيين عام ١٩٤٤ «المترجم»

ذات الشعر الندي والأصهب ، والغابات الشفافة ، حيث ترفع الشمس القاسية صلباناً .

وابتعدوا في صمت . كان الدرب يشتد وعورة حتى انهم اضطروا إلى المشي وهم يدفعون دراجاتهم . وكانت الحرارة تتغلغل من خلال الظل الشاحب . وكان هنري يحس على وجهه بالعرق الذي كان يرشح على جبين آن وعلى خدي دوبروي اللذين أصبحا بلون النحاس . ولا شك في انه كان الهذيان نفسه في جميع القلوب . مرج شديد الخضرة لتنصب فيه الخيمة . كان واحداً من تلك الأمكنة البريئة والسرية التي كان الناس يفكرون في الماضي : هنا على الأقل لن تنجح الحرب ، لن ينجح الحقد في التسرب اليه . ولكنهم الآن يعرفون انه لا يوجد ملجأ في اي مكان . سبعة صلبان .

وهتفت آن :

— هو ذا الفج !

كان هنري يحب تلك اللحظات التي تحلق فيها النظرة ، بعد صعود يعمي ، فوق قطعة كبيرة من الأرض المأهولة ، بحقولها ، واشجارها ، وطرقها ، وقراها . ان النور يبلل حجر الأردواز او يزحف على القرميد الوردي . وتبين اولاً سد الجبال التي تتساند مع السماء ، ثم اكتشف الهضبة الكبيرة التي تتلظى عارية تحت الشمس . وكما في سائر هضاب فرنسا ، كانت هناك مزارع ، وقرى ، وضيعات : ولكن لا قرميد ، ولا اردواز ، ولا سطح واحد . إنما جدران . جدران متفاوتة الارتفاع ، متقطعة بلا تصميم ، لا تحمي شيئاً . وقالت آن :

— مهما عرفنا ، مهما اعتقدنا اننا نعرف ...

ولبثوا لحظة ساكنين . وعاودوا الهبوط في حذر على الدرب الكثير الحصى الذي كانت الشمس تلسعه بقسوة . كانوا ، منذ ثمانية أيام ، يتحدثون عن هيروشيما ، ويتكلمون بالأرقام ، ويتبادلون عبارات رهيبة المعنى ، ولم يكن شيء يتحرك فيهم . وفجأة ، كانت تكفي لمحة عين ، كان الهول هناك ، وانقبضت قلوبهم .

واوقف دوبروي دراجته فجأة : « ماذا يجري ؟ » .

عبر الضباب الذي كان يرتعد فوق القرية ، كان بوق يدوي . وتوقف هنري ، ولمح عند قدميه ، على طول الطريق الرئيسية ، شاحنات عسكرية ، ومصفحات ، وسيارات صغيرة ، وعربات . وقال :

– انه العيد ! لم اعر ذلك انتباهاً ، ولكني سمعت الناس في الفندق يتحدثون عن عيد في مكان ما .

فقال دوبروي :

– عيد عسكري ! ماذا سنفعل ؟

فقالت آن :

– لا نستطيع أن نعاود الصعود . أليس كذلك ؟ ولا ان نتوقف تحت هذه الشمس .

فقال دوبروي في لهجة متجهمة :

– لا نستطيع .

وتابعوا الهبوط . إلى يسار القرية المحترقة ، كانت هناك بقعة من الصلبان البيض المزهرة بباقات حمر . وكان جنود سنغاليون يمشون مشية استعراضية ، وشواشيهم تلمع . ومن جديد غطى صوت الأبواق صمت الحفر . وقال هنري :

– لكأنها النهاية ، اننا لمحظوظون أيضاً .

فقال دوبروي :

– انمضِ يميناً .

وأغار الجنود على الشاحنات وتفرق الجمهور . كان الجميع رجالاً ونساء واطفالاً وشيوخاً ، يرتدون السواد ويكتوون في ثياب حدادهم الجميلة . لقد جاءوا من جميع القرى والضيع ، في السيارات ، والعربات ، والدراجات ، والموتوسيكلات ، وعلى الأقدام . كانوا خمسة آلاف ، وربما عشرة آلاف ، يتنازعون على ظل الاشجار الميتة والجدران المحترقة . وكانوا متربعين في الحفر ، نصف راقدين على السيارات ، يخرجون قطعاً من الخبز وزجاجات من النبيذ الاحمر . الآن وقد

شبع الأموات بالخطابات والزهور والموسيقى العسكرية ، بشكل مناسب ، فان الاحياء يأكلون .

وقالت آن :

– انني لأتساءل أين سنستطيع الاستراحة .

كانوا يشتهون ، بعد مرحلة الصباح الشاقة ، ان يتمددوا في الظل الرطب ، وان يشربوا ماء بارداً . ودفعوا في كآبة دراجاتهم على طول الطريق الرابلة بالارامل والايتام . لم يكن ثمة نسمة هواء . وكانت الشاحنات التي تهبط نحو الوادي من جديد تثير غباراً كثيفاً ابيض . وقالت آن : « اين نجد ظلاً ؟ اين ؟ » .

فقال دوبروي :

– ان هذه الطاولات هناك لفي الظل .

كان يشير إلى طاولات طويلة منصوبة أمام كوخ من الخشب،لكن الاماكن كلها كانت تبدو مشغولة . وكانت نسوة يدرن وهن ينقلن آنية من الحساء يوزعنه بالمغارف . وسألت آن :

– أهي مأدبة أم مطعم ؟

فقال دوبروي :

– هيا لنرى . سآكل عن طواعية شيئاً آخر غير البيض المسلوق .

كان مطعماً ، وتدافع الناس قليلاً عن مقاعدهم ليفسحوا مكاناً . وجلس هنري تجاه دوبروي إلى جانب امرأة تضع برقعاً ثقيلاً من الكريب وعيناها محفوفتان بغدد حمر . وانسكب مرق ابيض في صحنه والقى رجل من طرف شوكة بقطعة لحم دامية فيه . كانت سلال الخبز ، وزجاجات النبيذ تنتقل من يد إلى يد . وكان الناس يأكلون في صمت ، وكان نهمهم المتكلف يذكر هنري بجنازات الفلاحين التي حضرها في طفولته. كل ما هنالك انهم كانوا هنا مئات من الارامل،والايتام، والاهل المرتدين الحداد ، يمزجون بالشمس أحزانهم ورائحة عرقهم . وناول هنري الشيخ الجالس قربه زجاجة نبيذ احمر ، وقال وهو يشير الى المرأة ذات الغدد العينية : « صبّ لها لتشرب ، انها ارمل المشنوقين في سان – دينيس » .

وعبر الظاولة سألت امرأة : « أهو زوجها الذي شنقوه من قدميه ? » .

– كلا ، ليس زوجها الذي فقئت عيناه .

وصب هنري كأس نبيذ للأرمل ، ولم يكن يجرؤ على النظر اليهـــا ، وفجأة أحس انه يعرق هو الآخر تحت قميصـــه الخفيف . واستدار نحو الشيخ : « أهم مظليون الذين أحرقوا « فاسيو » ? » .

– نعم كان عددهم أربعمئة ، ولهذا ، كما ترى ، لم يلقوا عناء . ان « فاسيو » هي التي سقط فيها أكبر عدد من القتلى ، لهذا فإنهم يستحقون المقبرة الكبرى .

فقالت المرأة الجالسة تجاهه في كبرياء :

– المقبرة الكبرى للفيركور اجمع . » وأضافت : « انت عم دينيه الكبير ? ذلك الذي وجدوه في المغارة مع ابن فيفيريه ? » .

فقال الشيخ :

– نعم ، إنني العم .

– كانت الألسن قـــد انطلقت ، حول المائدة ، وبينما كانوا يجرعون الخمر ، كانوا يبعثون ذكريات فظيعة : ففي سان – روش ، سجن الألمان الرجال والنساء في الكنيسة ، وبعد ان أشعلوا فيها النار ، سمحوا للنساء بالخروج . وهنالك اثنتان لم تخرجا . وقالت آن وهي تنهض فجأة :

– سأعود . انني . .

وخطت بضع خطوات وانهـــارت بكل طولها على جدار الكوخ . وأسرع دوبروي وتبعه هنري . كانت قد اطبقت عينيها ، وكانت بيضاء ، وقـــد تغطى جبينها بالعرق . وتمتمت وهي تختنق فواقاً في منديلها : « وجع في القلب » . وبعد لحظة فتحت عينيها : « لقد انتهى ، انه ذلك النبيذ الأحمر » .

فقال دوبروي :

– النبيذ ، الشمس ، التعب .

كان يساعدها على اختراع ذرائع ، لكنه كان يعلم يقيناً انها كانت قويـــة كحصان .

وقال هنري :

– كان يجب ان تتمددي في الظل وتستريحي . سنفتش عن ركن هادىء . أتستطيعين الركوب خمس دقائق ؟

– نعم ، نعم ، إنني على ما يرام الآن ، إنني أعتذر .

الاغماء ، والبكاء والتقيؤ : ان النساء لقادرات على هذه الحيلة . ولكن هذا ايضاً لا يفيد . اننا بلا عون أمام الموتى . وامتطوا دراجاتهم. كان الهواء يحرق وكأن القرية قد التهبت للمرة الثانية . تحت كل رحى ، تحت كل شجيرة ، كان الناس يتمرغون . كان الرجال قد ألقوا بستراتهم الاحتفالية ، والنساء يشمرن عن سواعدهن ، ويفككن أزرار قمصانهن . وكانت تتعالى أغان ، وضحكات ، وصيحات صغيرة مدغدغة . ماذا كانوا يستطيعون ان يفعلوا ، غير ان يشربوا ، ويضحكوا ، ويتدغدغوا ؟ ما داموا الآن احياء ، فلا بد ان يعيشوا .

وقطعوا خمسة كيلومترات قبل ان يكتشفوا ظلاً ناحلاً تجاه جذع شجرة نصف ميتة . وبسطت آن على التراب ، الشائك بالحصى وسنابل القمح المحصود ، معطفها الواقي من المطر ورقدت منكمشة على نفسها . واخرج دوبروي من عدله أوراقاً تفوح منها رائحة الوحل ، وتبدو كأنها مغرقة بالدموع . وجلس هنري إلى جانبها وأسند رأسه إلى قشر الشجرة . لم يكن يستطيع نوماً ولا عملاً . وفجأة بدا له ان من البلاهة ان يتثقف . كل شيء كان قد اصبح من الماضي : الأحزاب السياسية في فرنسا ، اقتصاد الهبة ، بترول إيران ، مشاكل الاتحاد السوفياتي الراهنة . لم يكن هذا العصر الجديد الذي يبدأ متوقعاً في الكتب . وما وزن ثقافة سياسية متينة امام الطاقة الذرية ؟ « الاشتراكي الثوري الحر » ، « الأمل » ، العمل ، أي مزاح مأتمي ! ان الناس الذين يقال انهم من ذوي الارادة الطيبة يستطيعون في اطمئنان ان يعودوا إلى الاضراب . لكن العلماء والتكنيكيين كانوا يصنعون قنابل ، وقنابل مضادة ، وقنابل متفوقة ، وكانوا هم الذين يمسكون بالمستقبل بين ايديهم . مستقبل سعيد ! وأطبق هنري عينيه . فاسيو ، هيروشيما . لقد قطعت الانسانية في سنة واحدة طريقاً طويلة . إن هذا سيؤدي إلى الحرب القادمة . وما

بعد الحرب إذن : سوف يعتني بها أكثر مما اعتني بما بعد الحرب هذه . اللهم إن لم يعد هناك ما بعد الحرب . اللهم إن يتله المغلوب بنسف الكرة الأرضية . هـذا ممكن جداً . انها لن تتحطم إلى قطع ، لنقبل بهذا ، وسوف تتابع الدوران حول نفسها ، باردة ، قاحلة : ان تخيل هذا لا يبعث متعة أكبر. لم تكن فكرة الموت قد أزعجت هنري مطلقاً . ولكن فجأة اخذ هذا الصمت القمري يخيفه : لن يبقى هناك بشر ! امام هذه الأبدية الصماء البكماء، ما الفائدة من صف كلمات ، وعقد مؤتمرات ؟ ليس علينا إلا ان ننتظر هذا الصمت ، الكارثة الكونية ، او موتنا الشخصي الصغير . ما من شيء كان شيئاً .

وفتح عينيه . كانت الأرض حارة ، والسماء تلتمع ، وآن نائمـة ، ودوبري يكتب ان الانسان محق بالكتابة . وكان فلاحان في ثياب الحداد ، وفي احذية بيض من الغبار ، يسرعان نحو القرية ، وأذرعها مثقلة بورود حمر . وتبعهما هنري بعينيه . ترى هل تزرع نساء سان - روش رماد أزواجهن زهوراً ؟ هذا محتمل . كان عليهن ان يصبحن أرامل محترمات . أم هـل يشار اليهن بالأصابع ؟ وفي داخلهن ، كيف يتدبرن امرهن ؟ هل نسين قليـلا ، ام كثيراً ، ام لم ينسين مطلقاً ؟ ان العام لمدة قصيرة، طويلة . لقد نُسي الرفاق الموتى ، نُسي هـذا المستقبل الذي تعد به نهارات آب : لحسن الحظ ان التشبث بالماضي شيء غير صحي . ومع ذلك ، فاننا لا نفخر بأنفسنا كثيراً عندما نلاحظ اننا أنكرناه إن قليلاً وإن كثيراً ، إنما لهذا اخترعوا هـذا الحل الوسط : الاحتفال بالذكرى . البارحة بالدم ، واليوم بالنبيذ الأحمر المملح بالدموع خلسة . هناك كثير مـن الناس يطمئنهم هذا ، وان كان يظهر لغيرهم مقيتاً . لنفترض ان احدى هـذه النسوة قد أحبت زوجاً حباً عظيماً : فماذا تعني بالنسبة لهـا موسيقى الأبواق والخطابات ؟ ونظر هنري محدقاً إلى الجبـال الصماء . كان يراها ، واقفة امـام الخزانة ، تعدل من وضع برقع الكريب ، والأبواق تدوي ، وكانت تصرخ : « لا استطيـع . لا استطيـع » . وكانوا يجيبونها : « يجب ذلك ». وكانوا يضعون لها وروداً حمراً بين ذراعيها ، ويرجونها باسم القرية ، باسم فرنسا ، باسم الموتى .

وفي الخارج ، كان العيد قد بدأ . وراحت تنزع برقعها . وعندئذ ؟ لقد تشوشت الرؤية . وقال هنري : « هيا ، لقد قررت ان أكف عن الكتابة » . لكنه لم يتحرك ، وظلت نظرته شاخصة . كان بحاجة ملحة إلى ان يقرر إلامَ ستصير اليه هذه المرأة .

عاد هنري إلى باريس قبل بول . واستأجر غرفة تجاه الجريدة ، ولما كانت « الأمل » تعيش في بطء في هذا الصيف القارّي ، فقد كان يمضي ساعات امام طاولة عمله . كان يقول في نفسه : « إنه لمسلٍ ان أكتب مسرحية ! » . كان بعد ظهر ذلك اليوم الثقيل الأحمر بالنبيذ ، بالزهور ، بالحر ، وبالدم ، قد أصبح مسرحية ، مسرحيته الأولى . نعم ، هناك دوماً أنقاض ، وهناك دوماً أسباب لعدم الكتابة ، لكن لا يعود لها وزن ثقيل عندما تعود اليك الرغبة في الكتابة .

وقبلت بول دون احتجاج فكرة ان يوزع هنري بعد الآن لياليه بين الاستديو الأحمر والفندق ، ولكن عندما نام للمرة الأولى خارجاً ، رأى في اليوم التالي تحت عينيها دوائر عميقة إلى حد انه اضطر إلى الوعد في نفسه بألا يعاود ذلك . لا يهم ، سيلتجىء ، من حين لآخر ، إلى غرفته وسيجعله ذلك يشعر بأنه قد تحرر قليلًا . وكان يقول في نفسه : « يجب ألا أطلب كثيراً » . كان يكفيه ان يكون متواضعاً فيحصل على عدد كبير من المسرات الصغيرة .

لكن وضع « الأمل » كان لا يزال غير ثابت . وشعر هنري بقلق جدي عندما اكتشف ذات خميس ان الصندوق فارغ : إلا ان لوك سخر منه . كان يتهم هنري بأن عقليته تجاه المسائل المالية عقلية صاحب دكان صغيرة . وربما كان هذا صحيحاً . على كل حال ، كان من المتفق عليه ان القضايا المالية من اختصاص لوك ، وكان هنري يطلق يده عن طواعية . وبالفعل ، وجد لوك وسيلة لدفع رواتب الموظفين ، يوم السبت . وشرح : « سلفة على عقد اعلانات » . ولم يقع انذار جديد . لم يكن اصدار « الأمل » يرتفع ، لكنهم كانوا مستمرين ، ولو

بشكل عجائبي . ومن جهة أخرى ، لم يصبح « الاشتراكي الثوري الحر » حركة جماهيرية كبيرة ، لكنه كان يتوطد في الأقاليم . والمريح حقاً هو ان الشيوعيين ما عادوا يهاجمونه : كان الأمل باتحاد دائم يستيقظ . ولقد قررت اللجنة بالإجماع في تشرين الثاني ان تؤيد « توريز » ضد ديغول . وكان هنري يفكر وهو يتبادل حديثاً متقطعاً مع سامازيل الذي جاءه يحمل مقالاً عن الأزمة : « ان الحياة لتصبح سهلة عندما يشعر المرء بأنه على اتفاق مع اصدقائه ، مع حلفائه ، مع نفسه » . وكانت الآلات الطابعة تموء ، وفي الخارج كان مساء خريفي جميل . وفي مكان ما كان فانسان يغني بصوت شاذ ومرح . حتى سامازيل كانت له جوانبه الطيبة ، بعد كل شيء . وكانوا يتنبأون بنجاح كبير لكتابه عن المقاومة الذي كانت « الطواريء » تنشر فصولاً منه، وكان فرحاً جداً إلى حد السذاجة بهذا النصر القادم حتى ان مودته كانت تكاد تبدو صادقة . وقال :

– سأطرح عليك سؤالاً فضولياً . » كان يبتسم في رحابة : « لقد قال أحدهم ان الأسئلة لا تكون فضولية ابداً ، بل الأجوبة فقط . وانت غير مرغم على اجابتي » . وتابع : « ثمة شيء يثير فضولي : كيف تنجح «الأمل» في الاستمرار مع مبيعها المحدود جداً ؟ » .

فقال هنري في مرح :

– ليس عندنا اموال سرية . السبب، هو اننا ننشر اعلانات اكثر بكثير من الماضي . ان الاعلانات الصغيرة ، على الأخص ، لمورد كبير .

فقال سامازيل :

– اعتقد ان عندي فكرة مضبوطة جداً عن ميزانيتكم الاعلانية . حسناً ! بموجب حساباتي : كان يجب ان تعانوا من عجز واضح .

– علينا مبلغ لا بأس به من الديون الكبيرة .

– اعرف ، لكني اعرف ايضاً ان هذه الديون لم تزدد منذ تموز. هذا ما يبدو لي معجزاً .

فقال هنري في لهجة خفيفة :

– لا بد ان هناك خطأ في حساباتك .

فقال سامازيل :

– لا بد ان افترض ذلك .

لم يكن يبدو عليه انه قد اقتنع كثيراً ، وثار هنري على نفسه بسبب ذلك عندما وجد نفسه بمفرده ثانية . كان يجب عليه ان يستطيع تقديم أرقام دقيقة . « معجز » : انها على الضبط الكلمة التي جاءت على شفتيه عندما سحب لوك من صندوق فارغ مال الرواتب . « سلفة على عقد اعلانات » . لقد كان هنري خفيفاً عندما اكتفى بهذا التفسير . أي عقد ؟ كم كانت السلفة ؟ وهل قال لوك الحقيقة ؟ وشعر هنري من جديد بالقلق . لم يكن سامازيل يملك بين يديه كافة المعطيات ، لكنه كان يعرف كيف يحسب . كيف يتدبر لوك امره على وجه الدقة ؟ من يدري إن لم يكن يستقرض بشكل سري على اسمه الشخصي ؟ من المستحيل ان يرضى بتركيبات غير شريفة ، لكن لا بد من معرفة مصدر المال على كل حال . وعندما اصبحت المكاتب فارغة ، حوالي الساعة الثانية صباحاً ، دخل هنري إلى قاعة التحرير. كان لوك يجري حسابات . مهما كان هنري يتأخر في مغادرة الجريدة، كان لوك يبقى دوماً بعده ويجري حسابات .

وقال هنري :

– قل إذن . إذا كانت لديك دقيقة ، فسننظر معاً إلى السجلات . انني اود على كل حال ان افهم شيئاً ما عن وضعنا المالى .

فقال لوك :

– انني منهمك في العمل .

فقال هنري وهو يجلس على حافة الطاولة :

– أستطيع الانتظار ، سأنتظر .

كان لوك مشمراً عن ساعديه ، وكان يرتدي حمالات حدق إليها هنري مدة طويلة : حمالات صفراء ، ورفع رأسه وقال : « لماذا تريد ان تزعج نفسك بقصص المال هذه ؟ ثق بي إذن » .

فقال هنري :

– لماذا تطلب ثقتي في حين ان من السهل جداً ان تريني الدفاتر ؟

– لن تفهم شيئاً فيها . ان المحاسبة عالم كامل .

– في مرات سابقة شرحت لي وفهمت . ليس هذا سحراً على كل حال .

– سنضيع وقتاً كثيراً .

– لن يكون وقتاً ضائعاً . يحرجني ألا اعرف كيف تتدبر امرك . هيا ، أرني هذه الدفاتر . لماذا لا تريد ؟

وحرك لوك ساقيه تحت الطاولة . كانت وسادة جلدية كبيرة تسند قدميه الموجعتين . وقال في غيظ :

– ليس كل شيء مسجلاً في الدفاتر .

فقال هنري في حدة :

– هذا بالضبط ما يهمني : ما هو غير مسجل . » وابتسم : « ماذا تخفي عني ؟ هل استقرضت ؟ » .

فقال لوك بصوت نزق :

– لقد منعتني من ذلك .

فقال هنري بصوت نصف مازح :

– إذن ماذا ؟ أتبتز من احد ؟

– أأنا سأجعل من « الأمل » جريدة ابتزاز ! » وهز لوك رأسه : « انت لا تنام بما فيه الكفاية » .

فقال هنري :

– اسمع ، ان الاحجيات لا تستهويني . لا أريد ان تعيش «الأمل» بالتحايل . احتفظ بأسرارك ، لكني سأتلفن لتراريو غداً صباحاً .

فقال لوك :

– هذا شانتاج .

– كلا ، هذا احتراس . انني اعرف لون نقوده ، تراريو ذاك . في حين ان

ذلك المال الذي سقط في الصندوق ، يوم السبت الماضي ، لا اعرف مصدره .

وتردد لوك : « كان ... مساهمة من قبيل التطوع » .

وتفرس هنري في وجه لوك في تخوف . امرأة قبيحة، ثلاثة اطفال ، كرش، حمالات ، التقرس ، وجه ضخم متناوم : انه يبدو في أتم راحة . لكنه كان قد تبين في عام ١٩٤١ ان ريحاً جنونية يمكن ان تعصف عند المناسبة بهذه الكتلة من اللحم : بل إنما بفضل هذا ولدت « الأمل » . ترى هل هبت هذه الريح العاصفة من جديد ؟

ـ هل اغتصبت مالاً من احد ؟

فقال لوك متنهداً :

ـ ما كنت لأقدر على هذا . كلا ، إنما كانت هبة ، مجرد هبة .

ـ ان الناس لا يهبون على هذا النحو مبالغ مماثلة . هبة ممن ؟

فقال لوك :

ـ لقد وعدت بالكتمان .

فقال هنري مبتسماً :

ـ لمن ؟ هيا ، انت تسخر مني . ان الواهب الكريم حيلة لا تنطلي على احد .

فقال لوك :

ـ اقسم لك انه موجود .

ـ أليس هو لامبير من قبيل الصدفة ؟

ـ لامبير ! انه لا يبالي بالجريدة . لو لم يكن يريد ان يراك ، لما وضع فيها قدمه . لامبير !

فقال هنري في نفاد صبر :

ـ إذن من ؟ هيا انطق . وإلا تلفنت .

فقال لوك بصوت أبح :

ـ لن تقول انني اخبرتك ؟ أتعدني ؟

ـ اقسم لك على رأسك .

– حسناً ! انه فانسان .

ونظر هنري في ذهول إلى لوك الذي كان ينظر إلى قدميه :

– ألست مجنوناً ؟ ألا تشك في كيفية حصول فانسان على ماله ؟ ما عمرك ؟

فقال لوك مستاء :

– اربعون عاماً . واعرف ان فانسان قد ابتز ذهباً من عند أطباء اسنان متعاونين : لا أرى في هذا شراً . إذا كنت تخاف من ان تتهم بالاشتراك ، فاطمئن ، لقد اتخذت احتياطاتي .

– وفانسان ؟ افترض انه محتاط جداً ، هو الآخر ! انه يغامر بجلده في هذه الألعاب السخيفة ، ألا تفهم ذلك ؟ أفي مخك ماء ام ماذا ؟ في اليوم الذي سيقبض فيه على هذا المجنون ، هل ستشعر بالفخر ؟

فقال لوك :

– لم أطلب منه شيئاً . لو رفضت ماله لأعطاه إلى مستوصف للكلاب .

– لكن ألم تفهم انك بقبوله تشجعه على المعاودة ؟ كم مرة أنقذنا من الغرق ؟

– ثلاث مرات .

– وكنت آخذاً في حسابك ان هذا سيستمر ؟ انت لا تقل عنه جنوناً !

ونهض هنري وسار نحو النافذة . في شهر أيار ، عندما علم بأن فانسان قد أدخل نادين إلى عصابته ، وجه اليه تحذيراً جدياً . وأرسله مدة شهر إلى افريقيا . وقد أكد فانسان عند عودته انه سيحسّن سلوكه : وهذا ما يفعله الآن !

وقال هنري :

– يجب ان اجد وسيلة لإخافته .

فقال لوك :

– لقد وعدتني بالكتمان . لقد جعلني أقسم بأنك لن تطلع على الأمر ، على الأخص انت .

– حسناً ! » وعاد هنري إلى الطاولة : « على كل الأحوال ، لا فائدة ، سواء قلت له ام لم اقل » .

فقال لوك :

ـ هناك سند يجب دفعه بعد يومين . لن نستطيع دفعه .

فقال هنري :

ـ سأذهب لأكلم ترازيو منذ الغد .

ـ لو نستطيع فقط ان نكسب شهراً او شهرين : فنحن على وشك العوم .

فقال هنري :

ـ على وشك : هذا لا يكفي . ما الفائدة من العناد ؟ ان الاحدار لا يرتفع، ونحن نجازف بأن يغير ترازيو رأيه مع الزمن . » ووضع هنري يده على كتف لوك : « ما دمنا سنكون احراراً كالماضي ، فما الضرر في هذا ؟ » .

فقال لوك :

ـ لن يعود الأمر كما كان .

ـ سيعود كما كان تماماً باستثناء اننا سننتهي من المشاكل المالية .

فقال لوك متنهداً :

ـ لكن هذا كان أسلى ما في الامر .

كان هنري على العكس شبه مطمئن إلى فكرة ان مسألة المال سوف تسوّى نهائياً . وهكذا دخل بقلب هادىء بعد يومين إلى مكتب ترازيو : مكتب مليء بالكتب يدل على مثقف أكثر مما يدل على رجل أعمال . لكن ترازيو نفسه ، النحيف ، الأنيق ، نصف الأصلع، كانت تبدو عليه سحنة صناعي غني تماماً . وقال وهو يشد بقوة على يد هنري :

ـ تصور اننا أثناء الاحتلال اشتغلنا جنباً إلى جنب تقريباً ولم نلتقِ مطلقاً ! انت تعرف جيداً فيردولان ، أليس كذلك ؟

ـ يقيناً . أكنت في شبكته ؟

فقال ترازيو في لهجة جنائزية خفية :

ـ نعم ، كان رجلاً يستحق التقدير . » وابتسم ابتسامة كبرياء دورت وجهه بشكل صبياني : « بفضله التقيت بسامازيل » . وأشار الى هنري ان يجلس

وجلس : « في تلك الأيام ، كانت الأهمية للقيم الانسانية ، لا للمال » .

فقال هنري كي يقول شيئاً ما :

ـ تلك أيام بعيدة .

فقال تراريو يحثه على الكلام :

ـ اخيراً ، انه لعزاء ان نستطيع استخدام المال للدفاع عن بعض القيم .

فقال هنري :

ـ هل أطلعك دوبروي على الوضع ؟

ـ بشكل عام ، نعم .

كان في نظرة تراريو تساؤل آمر : كان يعرف الوقائع بدقة ، لكنه كان يريد الوقت لدراسة هنري ، وكان لا بد من السير معه في لعبته . واخذ هنري يتكلم دونما اقتناع . ومن جهته أيضاً ، كان يراقب تراريو . كان هذا الأخير يصغي اليه في بشاشة متنازلة قليلاً . كان يشعر ، وهو الواثق من امتيازاته ، الراضي بتخليه عنها شكلياً ، بالتفوق على الذين لا يملكون شيئاً وعلى الذين لم يقبلوا داخلياً ان تنتزع املاكهم منهم ، في آن واحد . لم يكن هنري قد تخيله على هذا النحو تماماً حسب اوصاف دوبري . لم يكن هناك أي اثر لضعف او قلق في وجهه . ولا الكرم ايضاً . واذا كان من اليسار ، فهذا لا يمكن ان يكون إلا من قبيل الانتهازية .

وقال فجأة :

ـ هنا اوقفك ! انت تقول ان هذا الانخفاض في الاصدار كان محتوماً . »

ونظر إلى هنري في عينيه وكأنه سينطق بحقيقة خطرة : « انني لا أؤمن بالحتمية، بل ان هذا سبب من الأسباب التي تمنعني من الانتساب إلى الديالكتيكية الماركسية . ان تجربتي ليست تجربتك نفسها . انها تجربة رجل أعمال ، رجل عملي. لقد علمتني ان مجرى الأحداث يمكن دوماً ان ينحرف بتدخل عامل مناسب في الوقت المناسب » .

فقال هنري في صوت متصلب قليلاً :

– هل تقصد انه كان يمكننا تجنب هذا الانخفاض ؟

فانتظر تراريو لحظة ، وقال :

– على كل حال ، انا واثق ان من الممكن اليوم اعادة رفع الاصدار . » وأضاف في حركة عنيفة : « انني لا أزعم ان المشكلة مشكلة بالية . ولكن باعتبار ما تمثله « الأمل » ، يبدو لي ان من المهم ان تكون لها طبقة عريضة من القراء » .

وتعرف هنري في حبور على مفردات سامازيل في تلك العبارة . وقال : « أتمنى ذلك مثلك . انه نقص المال الذي أحرجنا . انني أتكفل ، إذا توفرت رؤوس الأموال ، بتوفير ريبورتاجات وتحقيقات تكسب لنا جمهوراً كبيراً » .

فقال تراريو بصوت بعيد :

– ريبورتاجات ، تحقيقات ، نعم ، موافق . لكن ليس هذا هو الأساسي .

فقال هنري :

– ما الأساسي ؟

فقال تراريو :

– سأكلمك بصراحة . انت شخص معروف جداً ، بل شعبي جداً . لكن اسمح لي بأن أقول لك ان صديقك لوك ليس شخصية ، وليس له اي اسم . وبالإضافة إلى ذلك ، قرأت له مقالات كانت غير ماهرة مطلقاً .

فقاطعه هنري في جفاء : « لوك صحفي ممتاز ، والجريدة تخصه بقدر ما تخصني . إذا كنت تفكر في إبعاده ، فكفّ عن هذا التفكير » .

– ألا يمكن دفعه إلى الانسحاب؟ بشراء حصته بسعر مناسب وبتأمين مركز طيب له ؟

فقال هنري :

– لا مجال لهذا ! لن يقبل ابداً ، وعلى كل حال ، لن أطلب منه ذلك . ان « الأمل » هي انا ولوك . اما ان تمولنا ، وأما ألا تمولنا ، لا حل وسط .

فقال تراريو بصوت عابث :

– بديهي ، ان بعض الانفعالات أصعب على المنخرط في مشروع ما من صعوبتها على مراقب خارجي .

– انني لا أتبعك .

فقال ترازيو :

– ما من قانون ينص على تحديد اللجنة الادارية لجريدة بعضوين . » وابتسم : « باعتبار الصداقة التي تربطكما ، انا واثق أنكما لن تقيما أي صعوبة امام انضمام سامازيل اليكما » .

والتزم هنري جانب الصمت . لهذا إذن كان سامازيل يهتمّ كثيراً بمصير « الأمل » ! وقال أخيراً في برود : « لا أرى ضرورة ذلك . سامازيل يستطيع ان يكتب عندما يحلو له : هذا يجب ان يكفيه ... » .

فقال ترازيو في ترفع :

– ليس هو ، بل انا الذي يتمنى هذا التعاون . » وتصلب صوته : « أقدر انه إلى جانب اسمك ، يجب ان يكون هناك اسم آخر يوازيه شعبية . ان اسهم سامازيل ترتفع : وغداً سيتحدث جميع الناس عنه : هنري بيرون وجان – بيير سامازيل ، ان هذا لسبب اجتماعي . ثم يجب زرق جريدتكم بديناميكية جديدة . ان سامازيل لقوة طبيعية . هوذا ما أقترحه عليك . انني اصفي ديونكم ، واشتري نصف حصص « الأمل » بشروط سنتناقش فيها ، وستتقاسمون ، لوك وسامازيل وانت ، النصف الباقي . والقرارات تتخذ بأغلبية الأصوات » .

فقال هنري :

– انني اقدر سامازيل كثيراً . لكني سأكلمك بصراحة : ان شخصية سامازيل أقوى من ان اشعر انني لا ازال في بيتي حيث يكون هو . وانا حريص على ان اشعر انني في بيتي في الجريدة .

– هذا اعتراض شخصي جداً .

– ممكن . لكن الأمر متعلق بعد كل شيء بجريدة تخصني شخصياً .

– انها جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

ـ هذا لا يمنع ذاك .

فقال ترازيو :

ـ هذا بالضبط ما نناقشه . انني امول جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » ، وأريد ان اؤمن لها أكبر قدر ممكن من الفرص » . وبدرت عنه حركة قاطعة : « إن « الأمل » مشروع فائق للعادة ، وثق انني اقدرها حق قدرها . لكننا نواجه صعوبات جديدة وهدفنا ان ننجح على صعيد أرحب ايضاً : ان قوى رجل واحد لن تكفي لذلك بعد الآن » .

فقال هنري :

ـ أكرر عليك بأنني لست وحيداً . فأنا اشعر ان بإمكاني ان اواجه مع لوك هذا الموقف الجديد .

فهز ترازيو برأسه : « انني لأزهو بأنني عرفت دوماً بما فيه الكفاية من الدقة كيف أقدر إمكانيات انسان . هناك تيار صعب تجب مواجهته وانت بحاجة لشخص مثل سامازيل ليساعدك على ذلك » .

ـ ليس هذا رأيي .

فقال ترازيو بصوت اختفت منه المجاملة فجأة :

ـ لكنه رأيي ، ولن يجعلني أي انسان اعدل عنه .

فقال هنري :

ـ تقصد انني اذا رفضت اقتراحك ، فلن تمول « الامل » ؟

فقال ترازيو وقد عاد وجهه لطيفاً :

ـ ليس لك أي سبب لرفضه .

فقال هنري :

ـ لقد التزمت بمساعدتي دون شرط . وإيماناً مني بهذا الالتزام جعلت من « الامل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » .

ـ كيف ؟ انني لا افرض عليك أي شرط ، فمن المتفق عليه ألا يتغير الخط السياسي للجريدة مطلقاً . انني أطلب منك فقط اتخاذ التدابير الضرورية لانطلاقة

جديدة لا بد ان تتمناها مثلي .

فنهض هنري : « سأذهب للتفاهم مع سامازيل ! » .

فقال ترار يو :

– يقيناً لن يقبل سامازيل بالدخول إلى « الامل » رغم إرادتك . لهذا من المفضل ان تبقى هذه المحادثة بيننا . سواء جاء الرفض منه او منك ، فلا يهم : لن امول الجريدة إلا إذا ساهم في إدارتها .

فقال هنري :

– سأطلعه على كل حال على الامر . » كان يجهد في السيطرة على صوته : « لأنني صدقت كلمتك ، عرضت « الامل » للخطر وقدتها إلى حافة الافلاس . وانت تستفيد من ذلك لتقوم بهذا الشانتاج . ان رجلاً قادراً على مثل هذه الطريقة الغادرة ، افضّل على كل الاحوال ان استغني عن خدماته ! » .

فقال ترار يو وهو ينهض بدوره :

– ليس لك الحق في اتهامي بالشانتاج ! ان جميع القضايا التي أعالجها ، أعالجها بشرف كغيرها . ابداً لم أخفِ ان بعض التبديلات تبدو لي لازمة لإرادة « الأمل » على الوجه المرام .

فقال هنري :

– ليس هذا ما قاله لي دوبروي .

فقال ترار يو الذي كان صوته يعلو :

– لست مسؤولاً عما قاله لك . انني اعرف ما قلته له انا . وإذا كان هناك سوء تفاهم ، فهذا مؤسف ، لكني عبرت عن رأيي بوضوح .

– هل أطلعته على اقتراحك ؟

– كلياً . بل اننا تناقشنا طويلاً !

كان في صوته صدق مقنع جداً إلى حد ان هنري ظل لحظة صامتاً . وأخيراً قال : « انه لم يفهم على كل حال ان هذا شرط لازم ، وإلا فلا » .

فقال ترار يو في شيء من الاحتداد :

– افترض انه فهم ما كان يريد ان يفهمه . » وقال في لهجة مصالحة : « اسمع، لماذا يبدو لك اقتراحي غير معقول إلى هـذا الحد ؟ لقد غضبت لأنك اعتقدت انك ضحية مناورة غير شريفة . تكفيك محادثة مع دوبروي لتقتنع بنيتي الطيبة . عندئذ ستفهم بالتأكيد اي فرصة يمثلها عرضي بالنسبة لك . لأنه ما من احـــد ، وكن واثقاً من هذا ، سيجازف بشراء « الأمل » ، بديونها البالغة ستة ملايين : لا بد للانسان ان يكون مخلصاً لـ « الاشتراكي الثوري الحر » مثلي ليقبل . او انهم سيفرضون عليك عندئذ شروطاً مختلفة جداً عن شروطي : شروطاً سياسية» .

فقال هنري :

– انني غير يائس من ايجاد سند نزيه .

فقال تراريو :

– لكنك وجدته ! » وابتسم : « اني اعتبر هذه المحادثة مجرد تبادل أولي في وجهات النظر . وفيما يتعلق بي ، فان المفاوضات لا تزال مفتوحة . فكّر » .

فقال هنري :

– شكراً على النصيحة !

كان قد أجاب في استياء ، لكنه لم يكن غاضباً من تراريو . تفاؤل دوبروي! تفاؤله الذي لا دواء له ! كلا ، ليست المشكلة مشكلة تفاؤل هنا، فدوبروي ليس ساذجاً إلى هذا الحد : فجأة قفزت الحقيقة في وجه هنري . « لقد لعب عليّ ! » . وانهار على مقعد في شارع « مـــارسو » : كان في رأسه ، في جسده ، ضجيج عنيف جداً ، إلى حد انه ظن انه سيغمى عليه . « لقد كذب عليّ عن قصد لأنه كان يريد « الأمل » ، وقد وقعت في الفخ » . لقد قرع الباب في منتصف الليل، كان يبتسم ، رؤوس اموال بدون شروط ، تعال إذن لنقوم بجولة ، الليل جميل جداً ، ومن بين ابتساماته كان ينصب شباكاً . ونهض هنري وانطلق في خطى عريضة ، ولو كان بسرعة أقل ، لترنح .

« بمَ سيستطيع ان يجيب ؟ لن يستطيع ان يجيب ؟ لن يستطيع ان يجيب بشيء » . كان قد اجتـــاز باريس تقريباً دون ان ينتبه ، ووصل إلى منزل

دوبروي . وتوقف لحظة عند الدرج ليهدىء من خفقان قلبه . لم يكن واثقاً مطلقاً من ان صوتاً واضحاً يمكن ان يخرج من فمه . وسأل هنري :

– أأستطيع ان أكلم السيد دوبروي ؟

ودهش من سماع صوته ، كان صوتاً عادياً . فقالت ايفيت :

– انه ليس هنا . ليس ثمة احد .

– متى سيعود ؟

– لا اعرف مطلقاً .

فقال هنري :

– سأنتظره .

وتركته ايفيت يدخل إلى المكتب . لعل دوبروي لن يعود قبل الليل وكان لدى هنري عمل . ولكن لم يعد أي شيء موجوداً بالنسبة له ، لا « الأمل » ، ولا « الاشتراكي الثوري الحر » ، ولا ترابرو ، ولا لوك ، ولا أي شيء باستثناء دوبروي . لم يكن قد تطلب ، منذ ذلك الربيع القديم الذي وقع فيه في حب بول ، حضوراً بمثل هذا الهوس . وجلس على الأريكة التي يجلس عليها عادة . لكن الأثاث والكتب تثير ، اليوم، أعصابه : كلها متواطئة ! على العربة الصغيرة الدائرة ، كانت آن تأتي بلحم الخنزير، والسلطة ، وكانوا يتناولون العشاء في مرح، بين أصدقاء : يا للمهزلة ! كان لدوبروي حلفاء ، تلاميذ ، ادوات . ولكن لا صديق . كم كان يصغي جيداً ! وبأي غزارة كان يتكلم ! وكان على استعداد ليسير فوق بطنك عند اول مناسبة . كانت مودته الحارة ، وتلك الابتسامة ، وتلك النظرة ، التي يغتر بها الناس ، تعكس فقط المصلحة الآمرة التي يعلقها على العالم أجمع . « كان يعرف ما اشد حرصي على هذه الجريدة ! وسرقها مني ! » . ربما كان هو الذي اقترح إحلال سامازيل مكان لوك . وكان ينصح : اذهب لرؤية ترابرو . وكان امره مكشوفاً هكذا ، لكنه أعطى تعليمات لترابرو . « مؤامرة ، خدعة . وحين اسقط في الفخ ، كيف أخرج منه ؟ بين سامازيل والافلاس ، يجب ان افضل سامازيل : ولكن عند هذه النقطة سوف يدهش كثيراً » . كان هنري

يبحث عن كلمات عنيفة ليلقي بقراره في وجهه . ولكن لم تكن هناك أي قوة في غضبه . على العكس ، كان يشعر أنه منهمك ، بل خائف بشكل مبهم ، ومذل بشكل مبهم ، وكأنه انتُزع ، بعد ساعات من النضال ، من رمال متحركة . وانصفق باب المدخل وغرز أظفاره في مرفقي الأريكة : كان يتمنى بشكل يائس ان يجعل دوبروي يشاطره الفظاعة التي يوحي بها اليه .

وقال دوبروي وهو يمد له يده :

– أمنذ زمن طويل تنتظرني ؟

وشد عليها هنري بشكل آلي : يد الأمس نفسها ، وجه الامس نفسه . ان المرء لا يستطيع ان ينظر من خلال القناع ، حتى عندما يكون عارفاً . وتمتم :

– ليس من مدة طويلة جداً . يجب ان أكلمك ، فوراً .

فقال دوبروي بصوت يقلد باتقان كثرة الاهتمام :

– ما الذي لا يسير على ما يرام ؟

– انني قادم من عند تراريو .

وتغير وجه دوبروي ، وقال بصوت قلق : « آه ! لقد تمت المقابلة إذن ؟ لم تعد تستطيع المقاومة ؟ وتراريو يقيم صعوبات ؟ » .

– إنني فاهم ! لقد اكدت لي انه على استعداد لدعم « الأمل » ، دونما شرط . وهو يطلب ان أضم إليّ سامازيل . » ونظر هنري في ثبات إلى دوبروي : «يبدو انك كنت مطلعاً » .

فقال دوبروي :

– انني مطلع منذ تموز . وقد اخذت فوراً في البحث عن المال من مصدر آخر . ظننت ان موفان سيعطيني ، ولقد وعدني تقريباً . ثم جئت لرؤيته ، كان عائداً من السفر ، ولم يكن يبدو عليه انه مزمع مطلقاً . » ونظر دوبروي إلى هنري في قلق : « هل تستطيع ان تستمر شهراً آخر ؟ » .

فهز هنري رأسه وقال في غضب : « هذا مستبعد . لماذا لم تخطرني ؟ » .

فقال دوبروي :

– كنت اعتمد على موفان . » وهز كتفيه : « ربما كان عليّ ان أخطرك . لكنك تعلم انني لا احب ان اعترف بأنني ُقهرت . انها غلطتي إذا كنت في هذا المأزق ، ولقد آليت ان أخرجك منه » .

فقال هنري :

– انت تتكلم عن تموز . لكن تراريو يزعم انه لم يلتزم في وقت بأن يقدم لنا دعمه غير المشروط .

فقال دوبروي في حدة :

– في نيسان لم نتباحث إلا في الخط الأساسي للجريدة،وكان راضياً به كما هو .

فقال هنري :

– لقد ضمنت لي أكثر من ذلك . قلت ان تراريو لن يتدخل في اي شيء في اي مجال .

ففال دوبروي :

– آه ! اسمع ! بخصوص نيسان ، ليس ثمة ما ألوم نفسي عليه ! لقد نصحتك مباشرة بأن تذهب للتفاهم شخصياً مع تراريو .

– لقد كلمتني في ثقة جعلت هذا التفاهم غير مجدٍ .

فقال دوبروي :

– لقد قلت ما كنت اعتقده ، كما كنت اعتقده . يمكن ان أكون قـــد أخطأت : ما من انسان معصوم . لكني لم أرغمك على تصديق كلامي .

فقال هنري :

– انت غير معتاد على الوقوع في خطأ فاحش كهذا .

فابتسم دوبروي فجأة : « ماذا تقصد ؟ انني كذبت عليك ، عن عمد ؟ » .

لقد لفظ الكلمة بنفسه . كان يكفي ان يجيب : « نعم » . كان هذا سهلاً . لكن لا ، هذا مستحيل : ليس امام هذه الابتسامة ، وليس في هـذا المكتب ، وليس على هذا النحو . وقال هنري في صوت متحفظ : « اعتقد انـــك حسبت رغباتك وقائع دون ان تقلق لمصالحي انا . كان تراريو على استعداد للدفع : بأي

شروط ، هذا كان عندك سواء في الحقيقة » .

فقال دوبروي :

— لعلي حسبت رغباتي وقائع . لكني اقسم لك انني لو شككت لحظة واحدة فيما كان تراريو يطبخه ، لصفقت الباب في وجهه مع ملايينه كلها .

كان في صوته حرارة مقنعة ، لكن هنري لم يشعر انه اقتنع . وقال دوبروي :

— سأكلم تراريو هذا المساء . وكذلك سامازيل .

فقال هنري :

— هذا لن يفيد شيئاً .

آه ! ان المحادثة لم تنطلق كما كان يجب . فالانتقال من الكلمات التي يقولها الانسان في نفسه إلى الكلمات التي يلفظها بصوت عالٍ ، ليس سهلاً . «مؤامرة!». لقد أخذت هذه الكلمة تبدو فجأة كبيرة ، تبدو شبه جنونية . بالطبع ، ان دوبروي لم يقل ابداً في نفسه وهو يفرك يديه : « انني احبك مؤامرة » . ولو كان هنري جرؤ على القاء هذه الكلمة في وجهه ، لابتسم دوبروي بسمة اكبر . وقال دوبروي :

— ان تراريو عنيد ، ولكن سامازيل يمكن اقناعه .

فهز هنري رأسه : « لن تقنعه . كلا . ليس هناك إلا حل واحد : أن أتخلّى » .

فهز دوبروي كتفيه : « انت تعلم جيداً انك لا تستطيع » .

فقال هنري :

— في هذه النقطة ستفاجأ . سوف افعل ذلك . .

— وتغرق « الاشتراكي الثوري الحر » ? اتدرك كم سيهلل خصومه ? «الامل» افلست ، و « الاشتراكي الثوري الحر » صُفّي ! سيكون هذا جميلاً !

فقال هنري في مرارة :

— أستطيع ان اترك « الأمـــل » لسامازيل وان أشتري لنفسي مزرعة في

« آرديش » . لن تكون حالة « الاشتراكي الثوري الحر » اسوأ .

فنظر اليه دوبروي نظرة عصبية: « افهم ان تكون غاضباً. انني ارافع معترفاً بالذنب . لقد اخطأت اذا وثقت بمثل هذه السهولة بتراريو وكان عليّ ان اكلمك منذ شهر تموز . لكن سأفعل كل شيء لأصلح هـــذا . » وأصبح صوته لجوجاً : « ارجوك ، لا تتعنت . سنفتش معاً عن وسيلة للخروج من المأزق » .

وتفرس هنري في وجهه في صمت : الاعتراف بالأخطاء عملية بارعة ، افضل طريقة للتخفيف من شأنها. لكن افدح الأخطاء ، كان دوبروي يجهد في السكوت عنها . في الحقيقة ، لقد أعلن انه مذنب في استغلاله الفظيع للثقة . كان يتظاهر ، مقابل التضحيات التي يطلبها من صداقتك ، ان يعطيك صداقته ، ولم يكن يعطي شيئاً مطلقاً . كان يجب ان يقول له : انت تسخر مني ومن جميع النـاس . انت على استعداد للتضحية بأي انسان حباً بالحقيقة والخير . لكن الحقيقة التي تعتقدها ، والخير الذي تريده . انت تعتبر الكون كله من عملك وليس هنـــاك أي حدود بينك وبين المخلوقات البشرية . وحتى عندما تمثل دور الكريم . فهـــذا في سبيل مجدك الخاص ايضاً » . كان يمكن ان يقول له ألف شيء آخر ايضاً : لكن لا بد عندئذ من صفق هذا الباب وراءه دون ان يفتحه ثانية البتة . وكان هنري يفكر : « هذا ما يجب ان افعله » . مهما كان قراره بمس الجريدة ، فعليه ان يقطع صلاته بدوبروي ، فوراً . ونهض . ونظر إلى العربة الدائرة ، إلى الكتب ، إلى صورة آن ، وشعر انه جبان . طوال خمسة عشر عاماً كان هذا المكتب بالنسبة له مركز العالم وبيته . هنا كانت الحقيقة تبدو أكيدة ، والسعادة هامة ، وكان يبدو انه امتياز كبير ان يكون ذاته. لم يكن يستطيع ان يتصور نفسه سائراً في الشوارع وعلى ظهره هذا الباب الذي أغلق إلى الابد . وقال بصوت حيادي :

ـــ هذا لا فائدة منه . لا خيار لنا . انني لا أتعنت . ولكن في مثل هـــذه الشروط لم يعد يستهويني ان اهتم بـ « الامل » . ويقيناً نستطيع ان نرتب الامور بحيث لا يضر ذهابي لا بالجريدة ولا بـ « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

– اسمع ، اترك لي يومين . إذا لم استطع خلال يومين ان أحصل على شيء ، فسترى ما ستقرره .

فقال هنري :

– ليكن . لكن كل شيء واضح سلفاً.

عندما وجد هنري نفسه في الخارج ثانيـــة ، كان رأسه يدور . وخطا عدة خطوات في اتجاه الجريدة ، لكن كان هذا آخر مكان يتمنى ان يذهب اليه: ان يواجه لوك، لوك الذي سيندب نفسه او الذيسيقترح غارة أخرىعلى طبيباسنان، كان هذا فوق قواه. ولا بول ايضاً ، بتكهناتها ، وتضرعاتها . إلا انه كان بحاجة إلى الكلام . كان يشعر انــه مخدوع وكأنه خارج من إحدى تلك الجلسات التي يكشف لك فيها مشعوذ محتال زوراً عن ألاعيبه . كان دوبروي يغش ، وكان سيضبطه في الجرم المشهود: ثم لا، فاللعبة قد نجحت، والبطاقة المغشوشة لم تعد بين يديه، ولا في جيوبه. إلى اي مدى كذب، هل كذب على نفسه؟ بين المجونوالنية السيئة ، اين تقع خيانته ؟ انها موجودة ، هذا بعيد عن الشك ، لكن يستحيل ان يدل عليها بالاصبع. «لقد تركتهيلعب عليّ ثانية». ومن جديد بهرته البداهة: انها مؤامرة متعمدة ، وقد شد دوبروي جميع خيوطها وهو يقهقه . وتوقف هنري وسط الجسر وأسند يديه إلى الافريز . هل كان يبني هذياناً ؟ ام كان على العكس يغوص في الحماقة عندما كان يشك في ميكيافيلية دوبروي ؟ على كل حـال ، إذا استمر في التأرجح من بداهة إلى أخرى بمفرده ، فإن رأسه سينفجر كان يجب حتماً ان يناقش الأمر مع شخص ما . وفكر بلامبير ، وقـــال في نفسه : « لو تبعت نصائحه ، لما وصلت إلى هنا » . لم يكن لامبير يحب دوبروي ، لكنه كان يدعي التجرد . وكان الوحيد الذي يستطيع هنري ان يفاتحـــه بحديث جدي . وانتهى من عبور الجسر ودخل إلى غرفة الهاتف في مقهى « بيار » :

– آلو ! انا بيرون . أأستطيع الصعود لأقول لك صباح الخير ؟

– بالتأكيد . بل انها لفكرة طيبة جداً ! كان هناك بعض الدهشة في صوت لامبير الحار : « كيف الحال ؟ » .

فقال هنري :

– على ما يرام . اني قادم فوراً .

لقد أعادت حرارة هذا الصوت القلقة الهدوء إلى نفسه . كانت عاطفة لامبير الودية خرقاء قليلاً ، لكن هنري بالنسبة له على الأقل لم يكن بيدقاً على رقعة شطرنج . وارتقى الدرج بخطى سريعة : نهار غريب يقضيه في ارتقاء الأدراج وكأنه مرشح للأكاديمية .

وقال لامبير في غبطة :

– مرحباً . ادخل من هنا . ستعذرني على هذا الماخور : لم يتح لي الوقت لترتيبه .

فقال هنري :

– قل إذن ، انت تسكن في شقة أنيقة للغاية !

غرفة كبيرة مضيئة ، فوضى معتنى بها ، بيك – آب ، مكتبة اسطوانات ، كتب مجلدة ومصفوفة حسب اسماء المؤلفين . وكان لامبير يرتدي كنزة سوداء ، مع منديل من الحرير الأصفر : كان هنري يشعر بالغربة قليلاً بين هذا المجموع كله .

وسأل لامبير وهو يفتح خزانة في أسفل مكتبة الاسطوانات :

– عرق ، وسكي ، مياه معدنية ، عصير فواكه ؟

– قدح وسكي ممتلىء .

وذهب لامبير ليأتي بالماء من غرفة الحمام الخضراء الشاحبة . ولمح هنري ثوب حمام كبيراً من القماش النافش ، ومجموعة كاملة من الفراشي والصابون . وسأل لامبير :

– كيف حدث انك لست في الجريدة في مثل هذه الساعة ؟

– هناك متاعب مع الجريدة .

– اية متاعب ؟

لم يكن صحيحاً ان لامبير لا يبالي بالجريدة . بل كان بينه وبين لوك

بالأحرى نفور قوي يمكن فهمه بسهولة عندما يشاهدان جنباً إلى جنب . لكنه استمع إلى قصة هنري في انتباه مستنكر . وقال :

– يقيناً انها مناورة ! » وفكر : « ألا تعتقد ان دوبروي سيتدبر أمره ليدخل إلى الجريدة مع سامازيل ؟ او مكان سامازيل ؟ » .

فقال هنري :

– كلا ، لا اعتقد ان الصحافة لا تستهويه . وعلى كل الأحوال ، انه يشرف على « الأمل » باسم « الاشتراكي الثوري الحر » . لكن هذا لا يبدل شيئاً ، فقد نصب لي على كل حال فخاً قذراً . » وتفرس في وجه لامبير : « ماذا كنت تفعل مكاني ؟ » .

فقال لامبير :

– اترك كل شيء إذا شئت ، لإزعاجهم . لكن ما يجب ألا تفعله بأي ثمن ، هو ان تترك لهم الجريدة بكل لطف . انهم لا يطلبون إلا ذلك .

فقال هنري :

– لا أريد فضيحة . لكني سأترك كل شيء بهدوء .

فقال لامبير :

– هذا يعني انك اعترفت بأنك قُهرت .

– انت الذي ينصحني دوما بعدم الشغل في السياسة ، هي ذي فرصة للخروج منها .

فقال لامبير :

– « الأمل » ليست قضية سياسية . لقد خلقتها ، انها مغامرتك . » وقال في حرارة : « كلا ، دافع عن نفسك . لو كنت أملك مالاً حقاً ! ولكن ليس لدي منه ما فيه الكفاية كيلا اعرف ماذا افعل به .

– ولن اجد مالاً في أي مكان آخر ، انهم يعلمون ذلك جيداً .

– أقبل بسامازيل وتدبّر أمرك مع لوك حتى لا يكون له تأثير .

– إذا ما تضامن مع تراريو ، فستكون لهما قوتنا نفسها .

فقال لامبير :

– من أنّى له المال ليشتري حصصاً ؟

– سلفة على كتابه . او سيساعده ترازيو .

– لماذا هو حريص إلى هذا الحد على سامازيل ؟

– هل أعرف ؟ إنني لا اعرف حتى لماذا نجد هذا الشخص في « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال لامبير :

– يجب ان نجد رداً . » كان يذرع غرفته في سحنة متألمة ، عندما سمعا دقتين قويتين على البـاب . واحمر لامبير حتى جذور شعره : « ابي ، لم أكن أنتظره في هذا الوقت الباكر ! » .

فقال هنري :

– انني منسحب .

فنظر اليه لامبير في سيماء من حرج ورجاء :

– ألا تريد ان تقول له صباح الخير ؟

فقال هنري في حدة :

– بلى ، بالتأكيد .

ان يقول صباح الخير، هذا لا يلزمه بشيء . ومع ذلك فلم ينجح هنري إلا في اغتصاب ابتسامة متشنجة عندما رأى هذا الرجل الذي اوشك ان يرسل روزا إلى الموت ، والذي بذل ما بوسعه دون شك لخدمة الالمان ، يتقدم نحوه . تحت الشعر الشائب ، كان الوجه الأصفر والمنتفخ تضيئه عينان زرقاوان بلون البورسولين ، لون ازرق حنون لا يمكن استعماله ، يدهش في هذا الوجه المهترىء . وانتظر السيد لامبير ان يمد هنري له يده ، لكنه كان اول من تكلم ، وقال :

– كنت اشعر بفضول للقائك . لقـد حدثني جيرار كثيراً عنك ! » ورسم ابتسامة سرعان ما حذفها : « ما أصغر سنك ! » .

كان لامبير ، بالنسبة له ، يدعى جيرار، ولم يكن إلا طفلاً . كان هذا طبيعياً

وغريباً ، في ان واحد. ما كانا يتشابهان، لكن المرء ما كان ليدهش ، لهذا السبب او ذاك ، من انهما اب وابن . وقال هنري في طلاقة :

ـ لامبير هو الصغير ، وليس انا .

ـ انت صغير بالنسبة لرجل جعل الناس يتحدثون عنه كثيراً . » وجلس السيد لامبير ، وقال وهو يلتفت نحو ابنه : « كنتما تتحادثان » . لا أريد ان ازعجك . لكني انهيت اعمالي أبكر مما كنت اظن ، ولا اعرف إلى اين اذهب . وهكذا صعدت ... » .

ـ لقد فعلت حسناً ! هل تريد أن تشرب شيئاً ما ؟ عصير فواكه ؟ مياهاً معدنية ؟ » كان في استعجال لامبير اضطراب يزيد في استياء هنري . وقال الاب وهو ينظر حوله في ارتياح :

ـ شكراً ، لا . ان هذه الطوابق الأربعة صعبة قليلاً على عظامي الهرمة . لكن هنا مريح .

فقال هنري :

ـ نعم ، ان مسكن لامبير حسن .

ـ انه تقليد في العائلة .» واضاف السيد لامبير : « اعترف بأن تقديري لنزواته في الملابس أقل . »

وكان صوته خجلاً ، لكنه كان يحدج الكنزة السوداء بنظرة قاسية . وتمتم لامبير دونما ثقة :

ـ لكل ذوقه .

وساد صمت قصير انتهزه هنري لينهض : « انني آسف : عندما قرعت كنت ذاهباً . لدي عمل مستعجل » .

فقال السيد لامبير :

ـ انا الآسف . لقد قرأت كل ما كتبته بعناية كبيرة ، وثمة أشياء وددت لو اناقشك فيها . » واضاف وهو يخنق ابتسامة اخرى : « لكني افترض ان هذه المناقشة لن يكون منها فائدة إلا لي » . كان في صوته المستوي ، في ابتساماته

المتحفظة ، في حركاته ، سحرٌ تعب . لكن كان يبدو عليه انه يرفض استخدامه وكان هذا التحفظ يظهره مترفعاً ومتهرباً في آن واحد .

وقال هنري :

– ستتاح لنا الفرصة بالتأكيد لنتقابل ثانية مدة اطول .

فقال الرجل الشيخ :

– ليس هذا اكيداً جداً .

بعد بضعة اشهر دون شك ، سيكون في السجن ، وربما لن يخرج منه حياً . لا بد انه كان ، في زمنه نذلاً رائعاً ، هذا السيد الكبير المتعاون ، الا انه كان قد عبر الخط ، كان من جانب المحكومين وليس من جانب المذنبين . وفي هذه المرة، ابتسم له هنري دون جهد وهو يشد على يده .

وقال لامبير وهو يرافق هنري إلى الغرفة الملاصقة :

– أأستطيع أن أراك غداً ؟ لقد جاءتني فكرة .

– فكرة طيبة ؟

– ستحكم . لكن انتظر أن أحدثك عنها لتقرر . اذا مررت حوالي الساعة العاشرة مساء ، فهذا حسن ؟

– حسناً . لكن ليس فيما بعد لأنني سأخرج مع سكرياسين .

فقال لامبير :

– اتفقنا . لقد وعدت نادين ببعد الظهر ، لكن اعتمد عليّ قبل العاشرة بقليل .

على كل حال ، لم يكن هنري يفكر بأخذ قراره اليوم . لم يعد يريد حتى ان يتساءل عما سيفعله ، ولا ان يناقش في ذلك . كان لا بد من ذهابه إلى الجريدة ، في النهاية ، لكنه صرح في برود للوك ان مقابلته مع تراريو قد تأجلت ، واستغرق في تحرير بريده . كذلك بول ، لن يطلعها على الأمر . وما كان يتمناه ، وهو يدير المفتاح في قفل الاستديو ، ان تكون قد نامت : لكنها كانت لا تنام ابداً ، في أي ساعة يعود فيها . ومدت له فمها الذي لامسه بسرعة ، وهي جالسة على

الأريكة ، في ثوبها الحريري المتقلب اللون ، وما كياجها لا يزال طرياً . وسألت :
— نهار طيب ؟
— طيب جداً ، وأنت ؟
وابتسمت دون ان تجيب : « ماذا قال تراريو ؟ » .
— انه موافق .
فقالت وهي تنظر اليه نظرة عميقة :
— ألا يزعجك هذا حقاً ؟
— ماذا ؟
— ان تقبل رؤوس أمواله ؟
فقال في جفاء :
— كلا . انها مسألة سوّيت منذ زمن بعيد .
وترددت ولم تقل شيئاً . كانت تتردد منـــذ يومين . وكان هنري يعرف ما تفكر به ، لكنه لم يكن يريد ان يساعدها على التصريح عما في نفسها . وكان هذا الاحتراس يغيظه . وكان يفكر في عداء : « انهـــا تداريني ، لقد قررت ألا تصدمني ، انها تنتظر ساعتها » . وقال في نفسه وهو يجهد في ان يكون متجرداً : « منذ ستة اشهر ، عندما كانت مرحة وعدائيـــة ، كنت ألومها على ذلـــك » . وفكر : « في الحقيقة ما يغضبني ، هو انها تتصنع في السلوك » . كانت تعلم انها في خطر ، وكانت تحاول ان تدافع عن نفسها ، وكان هذا طبيعياً : إلا انـه لا يمنع ان حيلها الكئيبة كانت تجعل منها عدوة . كان قد كف عن محادثتها عن الغناء. كانت قد تبينت الهدف من لعبته ، ورفضت رفضاً قاطعاً كافة المواعيد الـــتي اخذها لها . لكنها أخطأت في حسابها هذا . كان يلومها على عنادها وقد قرر الآن ان يستغني عن مؤازرتها من اجل تصفيتها . وقالت وهي تناوله مغلفاً :
— هذه رسالة من بونسوليه .
فقال هنري :
— افترض انه يرفض . » وتصفح الرسالة وناولها لبول : « نعم ، بالطبع ، انه

يرفض » .

لقد اعادوا له مخطوطته مرتين مع تقريظ مذعور : عمل كبير جداً ، لكنه مثير للفضيحة ، غير مناسب ، ومن المستحيل ركوب مثل هذه المخاطرة . هـــذا ممكن فيما بعد عندما تهدأ الأحقاد . بديهي ان المسرحية كانت لا تعجب جميع اولئك الذين يريدون ان ينسوا الماضي ، وأيضاً الذين يزعمون انهم يقومونه حسب رغبتهم . ومع ذلك ، كان يود كثيراً لو انها تمثل . كان يشعر بميل نحوها أكثر من أي كتاب من كتبه . ان المرء لا يستطيع ان يعيد قراءة رواية، فالكلمات تلصق بعينيه . لكن هذا الحوار ، الذي سيحدث ذات يوم في أصوات حية ، كان يسمعه عن بعد ، في تجرد الرسام الراضي الذي يلقي على لوحته لمحة عين متواطئة ، وقالت بول بصوت ملهم :

– يجب ان تُمثل .

– انني لا اطلب غير هذا .

فتابعت :

– انني لا أعلق على النجاح أهمية أكبر من التي تعلقها انت . لكني اشعر انك لن تعود إلى روايتك قبل ان تتحرر من هذه المسرحية .

فقال هنري متفاجئاً :

– يا لها من فكرة !

– ألم تعد إلى روايتك ؟

– كلا . لكن المسرحية لا دخل لها في هذا .

فسألت وهي تتفحص هنري بنظرة من يعرف أشياء كثيرة :

– إذن ، لماذا ؟

فابتسم : « لنقل انه الكسل » .

فقالت في رصانة : « انت لا تعرف ابـــداً ما الكسل » . وهزت رأسها : « من الواضح انها مقاومة داخلية » .

فقال هنري :

ـ لقد كانت بداية تلك الرواية سيئة . انني ارغب في كتابتها من جديد، لكني اعرف ان هذا سيكون عملاً ضخماً . إذن ، فإني لست مستعجلاً ، هذا كل شيء .

فهزت رأسها : « لم أرك ابداً تتراجع امام عقبة » .

ـ حسناً ! انني أتراجع ، هذه المرة .

فقالت بول :

ـ لماذا لم ترني مخطوطك ؟ ربما كان بإمكاني ان أعطيك نصيحة .

ـ قلت لك مئة مرة ان مسوداتي مشوهة .

فقالت في تأمل :

ـ هذا ما قلته لي .

ـ لقد أريتك مسرحيتي .

ـ بالفعل . كانت المسودات الأولى مشوهة وأريتنيها .

ولم يجب . كان في ذلك المخطط الأول ، قد عبر بصراحة كبيرة عنه ، وعنها . وستكون الرواية التي سيحاول ان يستخرجها منه ، ذات يوم ، اكثر كتماناً . ولم يكن على بول إلا ان تصبر قليلاً . وتثاءب :

ـ انني اترنح نعاساً . غداً لن أبيت هنا ، سأنام في الفندق . لأنني أتوقع ان سكرياسين لن يطلق سراحي قبل الفجر .

ـ انني لا أفهم مزية الفندق ، سواء كان الفجر ام الغسق . لكن ستفعل ما تشاء .

ونهض ونهضت ايضاً . كانت لحظة خطرة . كان يضع قبلة سريعة على صدغها ويستدير نحو الجدار متظاهراً بالاستغراق في النوم حالاً . لكنها كانت تتشبث به بعض الأحيان ، وتأخذ بالارتعاد او الهمس ، وكانت الطريقة الوحيدة لتهدئتها ان ينام معها . لم يكن ينجح في ذلك دوماً ، وابداً بدون مشقة . لم تكن تستطيع ان تتجاهل ذلك . وللتعويض عن هذا البرود ، كانت تستنفد نفسها في تهيج يبعث الشك في حقيقة لذتها . وكان هنري يكره ، اكثر ايضاً

من عدم حيائها التائـــه ، مداهنتها وعلى الأخص مذلتها . ولحسن الحظ ، ظلت هادئة ، تلك الليلة : لا بد انها شعرت ان هناك شيئاً ما لا يسير على ما يرام. كان هنري محتفظاً بعينيه مفتوحتين ، وقد أسند خده إلى رطوبة الوسادة ، وبينما كان يفكر في ذلك النهار ، لم يعد يشعر بالغضب ، بل بالضيق . لم يكن هو المخطىء ، إنما دوبروي : كانت تلك الغلطة التي لم يكن يستطيع اخمادها لا بالتبكيت ولا بالوعود تثقل على قلبه كما لو انها كانت غلطته .

ان يترك كل شيء : كانت هذه اول فكرة خطرت لهنري عند اليقظة . ولم يتلفن لدوبروي . وطوال النهار ، ردد في نفسه هذه الكلمات كأغنية مهدئة . ان يناقش ، وان يتساهل ، وان يتحالف ، في حين ان هذه الجريدة ملكه الذي لا ينازع عليه ، كلا ، ان هذه الصورة لتبعث فيه الاشمئزاز . كان يفضل اكثر بكثير ان ينزوي في الريف ، وان يعود إلى روايته ، إلى مهنته ككاتب: سوف يقرأ « الأمل » عند ركن ناره ، بعين لاهية . كان هذا مشروعاً جذاباً جداً إلى حد انه عندما رأى باب مكتبه يفتح ، في الساعة العاشرة مساء ، تمنى لو ان الفكرة التي جاء لامبير يعرضها عليه ليست طيبة .

وقال لامبير ، بصوت يعتذر اكثر مما يشكر :

– لقد كنت لبقاً امس إذ بقيت لحظة ! لقد سرّ والدي للغاية !

فقال هنري :

– كان يستهويني ان اعرفه . انه يبدو متعباً ، لكني شعرت انه كان له سحر كثير في الماضي ، ولا يزال يحتفظ بشيء منه .

فقال لامبير مندهشاً :

– سحر ، كان على الأخص مستبداً . مستبداً ومحتقراً . على كل حال ، انه لا يزال كذلك في اعماقه .

– اواه ! انني اتصور بسهولة انه لا يستطيع ان يكون دمثاً !

فقال لامبير :

– كلا ، ليس دمثاً بالمرة . » وبدرت منه حركة كأنه يريد أن يطرد

ذكرياته : « هل هناك شيء جديد بشأن الجريدة ؟ » .

– لا شيء .

فقال لامبير :

– إذن اسمع ما سأقترحه عليك . » وفقد سيطرته على نفسه فجأة : « لعلك لن تريد » .

– قل على كل حال .

– انت ولوك ، تجاه سامازيل وتراريو ، تجازفان بأن تُبتلعا : لكن افترض انني دخلت معكم ؟

– انت ؟

– عندي ما يكفي من المال لشراء قدر ما سيشتريه سامازيل . عندئذ ، اذا كان من المتفق عليه ان القرارات ستتخذ بأغلبية الاصوات ، فنحن ثلاثة ضد اثنين ، وسنربح .

– كنت تتردد في البقاء في الصحافة ؟

فقال لامبير بصوت متكلف السخرية :

– انها مهنة تعدل غيرها . ثم إن «الأمل» كانت ملحمتي الصغيرة الخاصة بي .

فابتسم هنري : « نحن لسنا متفقين سياسياً دوماً » .

فقال لامبير :

– لا أبالي بالسياسة . اريد ان تحتفظ بالجريدة على كل حال ، سيكون لك صوتي . » وأضاف في مرح : « على كل ، انني غير يائس من رؤيتك تتطور . كلا ، ان المسألة الوحيدة هي ان نعرف ما إذا كان تراريو سيقبل » .

فقال لامبير :

– لا بد أن يسر بأن ينضم اليه كاتب ريبورتاجات بارع . » وأضاف : « لحسن الحظ انك لم تقرف من الريبورتاجات ، فمقالاتك عن هولندا جيدة جداً » .

فقال لامبير :

– هذا بفضل نادين ، هذا يستهويها كثيراً إلى حد انه يستهويني ايضاً . »

ونظر إلى هنري نظرة قلقة : « هل تعتقد ان ترارير سيقبل ? » .

– افترض انه يزعجها ان أستقيل . إذا قبلت بسامازيل ، فسوف يقبلان بالتنازل لي عن مطلب واحد .

فقال لامبير في سحنة خائبة قليلاً :

– انت لا تبدو متحمساً ?

فقال هنري :

– آه ! هذه القصة كلها تقرفني ! لا اعرف ما اريد ان افعل . » وسأل وهو يقطع الحديث عمداً : « أمعك دراجتك البخارية ? » .

– نعم . أتريد ان اوصلك إلى مكان ما ?

– اوصلني إلى شارع دي ليل . ان سكرياسين يسكن عند الأم بلزونس .

– أينام معها ?

– لست ادري . ان كلودي تؤوي عندها دوماً مجموعة من الكتّاب والفنانين، ولست ادري مع أيهم تنام .

فسأل لامبير وهما يهبطان الدرج :

– أتراه غالباً ، سكرياسين ?

فقال هنري :

– كلا . من حين لحين يدعوني بشكل لا يمكن الرفض معه : وبعد ان أتهرب عشر مرات أقبل في النهاية .

وامتطيا الدراجة التي تبعت أرصفة السين في ضجة . كان هنري ينظر في شيء من التبكيت إلى رقبة لامبير . لقد كان اقتراحه لطيفاً . لم يكن حريصاً على الدخول إلى الجريدة ، وما كان يفعله إنما يفعله فقط لتأدية خدمة لهنري . وقال هنري في نفسه : « ولم أشكره كما يجب » . لكنه ، في الحقيقة ، لم يكن يشعر بالجميل تجاهه البتة . كان يكرر في نفسه : « أفضل شيء ان اترك . انني افضل كثيراً ان أترك » . الاحتفاظ بالجريدة ، والبقاء في « الاشتراكي الثوري الحر » ، هذا يعني الاستمرار في العمل يداً في يد مع دوبروي . ان المرء لا يعمل يداً في

يد ، عندما يكون قلبه مليئاً بمثل هذا الحقد . لم يكن قد وجد القوة ليقطع صلته به نهائياً . لكنه لم يمثل لعبة الصداقة . وقال في نفسه بينما كانت الدراجة تتوقف امام فندق بلزونس : « كلا ، لقد انتهى الأمر » .

قال لامبير بصوت خائب :

– حسناً . انني تاركك .

وتردد هنري . كان يضجره ان يترك لامبير بمثل هذه الساعة ، بعد ان استقبل ببرود كثير عرضه الذي وضع فيه قلبه كله . وسأل :

– أيسليك ان تأتي معي ؟

وأضاء وجه لامبير . كان يعبد عبادة ان يرى أناساً معروفين : « هذا يسليني كثيراً . لكن هذا سيكون من عدم الرصانة ، كلا ؟ » .

– أوه ! مطلقاً . سنذهب لشرب الفودكا في حانـة غجرية ، وإذا حلا له ، فإن سكرياسين سيدعو جميـع الموسيقيين . ولا مجال للحرج معه .

– اشعر انه لا يحبني كثيراً .

فقال هنري في ود : « لكنه يحب كثيراً صحبة الناس الذين لا يحبهم . تعالَ إذن » .

ودار حول البناية الكبيرة التي كانت جميـع نوافذها مضاءة . وكانا يسمعان موسيقى جاز . وقرع هنري باباً صغيراً جانبياً وفتـح سكرياسين . وابتسم في حرارة دون ان يبدو ان حضور لامبير قد أدهشه أدنى دهشة .

– كلودي تقيم كوكتيلًا ، هـذا فظيـع ، ان المنزل مليء بعشاق العجائز المتصابيات ، إنني لا أشعر أنني في بيتي . تعال من هنا ثم سنهرب خلسة .

كان جيب قميصـه مفتوحاً على رحب ، وكانت نظرته شاخصة شخوصاً ضبابياً . وارتقيا بضع درجات . في آخر الممشى ، كان باب ينفتح على غرفة مضاءة ، يسمع منها همس . وقال هنري :

– أعندك أناس ؟

فقال سكرياسين في حبور : « انها مفاجئة » .

وتبعه هنري في شيء من التخوف. وعندما رآهما ، تراجع إلى الوراء في حركة لا إرادية : فولانج وهوغيت . وببشاشة ، مد لويس يده . لم يكن قـد تغير تقريباً . كانت غضون الجبين أكثر عمقاً من الماضي ، والذقن أكثر صلابة : وجه جميل فصلته الأجيال القادمة بعناية . وبلمح البرق ، تذكر هنري انه وعد نفسه غالباً عندما كان يقرأ المقالات المجاملةالتي كان لويس يكتبها من المنطقة الحرة، ان يسحق قبضته ذات يوم على فكه . ومدّ هو أيضاً يده . وقال لويس :

– إنني مسرور جداً برؤيتك، يا صديق. ما كنت لأجرؤ ابداً على إزعاجك. انا أعلم انك مشغول جداً . لكني كثيراً ما رغبت في الثرثرة معك .

وقالت هوغيت :

– لم تتغير مطلقاً .

لم تكن قد تغيرت هي الأخرى. كانت شقراء ، شافـّة ، أنيقة كما في الماضي، وكانت تبتسم البسمة المعطرة نفسها . إنها لن تتغير ابداً : لكن ذات يوم سيمسها احدهم بطرف اصبعه وستتفتت غباراً . وقال هنري :

– الحقيقة انني لا أرى احداً . انني اشتغل كبهيمة .

فقال لويس في مودة :

– نعم ، لا بد انك تعيش حياة قذرة . لكنك ايضاً خلقت لنفسك مركزاً أدبياً من الدرجة الأولى . وهذا لا يدهشني على كل حال ، فقد كنت مقتنعـاً دوماً بأنك ستفرض نفسك في النهاية . أتعرف ان كتابك يبلغ ثمنه ثلاثة آلاف في السوق السوداء ؟

فقال هنري :

– ان جميع الكتب ، في الوقت الراهن ، تباع كالمقانق .

فقال لويس في لهجة مشجعة :

– هذا صحيح . لكنك نلت نقداً مدهشاً . » وابتسم : « يجب القول انك وقعت على موضوع ذهبي . لهذا انت تلمع . عندما تحصل على مثل هذا الموضوع ، فان الكتاب يُكتب من نفسه » .

كان لويس قد احتفظ بابتسامته المتراخية . لكن كان في صوته إلحاح يتناقض مع طرقه القاطعة فيما سبق . وقال هنري :

– وأنت ، إلامَ صرت اليه ؟

كان يشعر بخجل مبهم ، دون ان يعرف ما إذا كان هذا لحساب لويس ، او لحسابه الخاص . وقال لويس وهو ينظر إلى أصابعه :

– آمل ان احصل على زاوية النقد الأدبي في صحيفة اسبوعية ستصدر قريباً .

وقال سكرياسين في نفاد صبر :

– لنهرب من هنا . ان هذه الموسيقى لا تحتمل . هيا لنشرب بعض الشمبانيا في « العزبة » .

فقال هنري :

– كنت أظن انك لن تضع قدمك ثانية في ذلك الماخور منذ ان سرقوا محفظتك .

فابتسم سكرياسين ابتسامة محتالة : « ان السرقة مهنتهم . إنما على الزبون ان يدافع عن نفسه » .

وتردد هنري . سوف يكون خشناً ، لكن لماذا يحاولون ان يضعوه أمام الأمر الواقع ؟ لم يكن يرغب البتة في تمضية السهرة مع لويس . وقال :

– على كل حال ، لن استطيع مرافقتكم . لقد جئت راكضاً لأنني قلت لك انني سآتي لكن يتوجب عليّ ان أعود إلى الجريدة .

فقال لويس :

– انني أكره الحانات الليلية . لنبق إذن هنا في هدوء .

فقال سكرياسين :

– كما تشاء ! » ونظر هنري في سيماء من تعاسة : « لديك وقت على كل حال لشرب قدح ؟ » .

فقال هنري :

– أجل ، بالتأكيد .

وفتح سكرياسين خزانة واخرج منها زجاجة وسكي : « لم يبق منها كثير» .
فقال لويس :
– انني لا أشرب وكذلك هوغيت .
وظهرت كلودي على عتبة الباب ، وقالت وهي تشير إلى سكرياسين : « هذا شيء ساحر ! » . انه يأتي نصف سكران إلى كوكتيلي، ويهين مدعويّ، والناس المهمين ، يسرقهم مني خلسة ! لن أستقبل روسياً عندي ... » .
فقال سكرياسين :
– لا تعوي هكذا . » واضاف متنهداً : « ان الجدجد سيأتي . الجدجد هو البوق » .
وأغلقت كلودي الباب ، وقالت في حزم : « انني باقيـة معكم . ستقوم ابنتي بدور ربة البيت » .
وساد صمت محرج . وقدم لويس سجاير اميركية للجميـع . وسأل هـنري في طيب نية :
– وماذا تفعل في الوقت الراهن ؟
فقال هنري :-
– افكر برواية اخرى .
فقالت كلودي :
– آن قالت لي انك كتبت رواية جميلة جداً .
فقال هنري في مرح :
– لقد كتبت مسرحية . وقد رفضها حتى الآن ثلاثة مديرين .
فقالت كلودي :
- يجب ان أهيء لك لقاء بلوسي بيلوم .
– لوسي بيلوم ! من هذه !
– انت عجيب . جميـع الناس يعرفونك ، ولا تعرف أحداً . انهـا هي التي تدير بيت آماريليس ، بيت الخياطة الكبير الذي يتحدث عنه الجميـع .

– لست افهم .

– ان لولو هي عشيقة ريشوتير الذي طلقته زوجته لتتزوج فيرنون . وفيرنون هو مدير الاستديو ٤٦ .

– ما زلت غير فاهم .

فأخذت كلودي تضحك : « فيرنون يطيع زوجته طاعة عمياء حتى تسامحه على صداقاته الذكورية . انه يمارس اللوطية اكثر من اي انسان آخر . وقد ظلت جوليت على صداقة متينة مع زوجها السابق الذي يطيع لولو طاعة عمياء. أتفهم ?

فقال هنري :

– هذا واضح . لكن ما دخل لولو في هذه القصة ?

– عندها ابنة رائعة تحاول ان تجعل منها ممثلة . هنـــاك دور لأمرأة في مسرحيتك ، ولا شك ?

– نعم . ولكن ...

– مع لكن لا يمكن الوصول إلى شيء . اقول لك ان الصغيرة رائعة . في اليوم الذي ستأتي فيه إلى عندي ، سأقدمها لك. » وقالت كلودي في نزق : « أنت تقاطع دوماً استقبالاتي ايام الخميس ، لكنني سأسألك خدمـــة لن تستطيع ان ترفضها لي . انني اهتم بدار الاطفال المنفيين ، وهذا يكلف غالياً ، غالياً جداً على امرأة بمفردها مثلي . لهذا فقد نظمت سلسلة محاضرات لمحاضرين متطوعين. وسوف يأتي جمهور كبير ، أنا واثقة ، من أولئك المحبين للظهور الذين على استعداد لدفع ألفي فرنك لرؤيتك لحماً وعظماً . انني سأسجلك لجلسة من الجلسات الأولى .

فقال هنري :

– انني اكره هذا النوع من الاجتماعات .

– من اجل اطفال المنفيين ، لا تستطيع ان ترفض . حتى دوبروي سيقبل .

– ألا يستطيعون ان يبصقوا ألفي فرنك دون أن يزعجوا احـــداً ، محبّو المجتمع أولئك ?

– انهم سيبصقون مرة واحدة ، لا عشر مرات . ان الاحسان شيء جميل

جداً ، لكن يجب ان تكون منه فائدة . هذا مبدأ الحفلات الخيرية . » وأخذت كلودي تضحك: « انظر يا سكرياسين كم يبدو حانقاً : انه يعتقد انني احتكرك! »
فقال سكرياسين :
– إنني أعتذر . لكن بالفعل ، كنت اود ان أقول كلمة لبيرون .
فقالت كلودي :
– قل !
وذهبت لتجلس على الأريكة ، إلى جانب هوغيت ، وأخذتا في الثرثرة بصوت خافت .
وانتصب سكرياسين امام هنري: « كنت تقول في اليوم السابق ان «الأمل» باتحادها مع « الاشتراكي الثوري الحر » لم تتخلَّ عن قول الحقيقة » .
فقال هنري :
– نعم . وبعد ؟
– وبعد ، فقد كنت أريد ان أراك فوراً . ان جئتك بوقائع تدين النظام السوفياتي ولا تستطيع ان تضعها موضع شك ، فهل تكشفها ؟
فقال هنري ضاحكاً :
– أواه ! يقيناً ان « الفيغارو » ستكشفها قبلي .
فقال سكرياسين :
– لي صديق عائد من برلين . وقد أعطاني معلومات دقيقة عن الطريقة التي خنق بها الروس الثورة الالمانية وهي لا تزال جنيناً . يجب ان تنشرها جريدة يسارية . فهل انت على استعداد لفعل ذلك ؟
فقال هنري :
– ماذا يروي ، صديقك ؟
وأدار سكرياسين نظرته حول الجميع : بشكل موجز ، اليك . هناك بعض الضواحي في برلين ظلت متعصبة للشيوعية ، حتى تحت هتلر . وأثناء معركة برلين احتل عمال كوبينيك ، وعمال ويدنغ لاروج ، المصانع ، ورفعوا العلم الأحمر

ونظموا لجاناً . كان يمكن لهذا ان يكون بداية ثورة شعبية كبرى . كان تحرير العمال لأنفسهم يتقدم . وكانت اللجان على كامل الأهبة لتقديم ملاكات للنظام الجديد . » وصمت سكرياسين لحظة : « وبدلاً من هذا ، ماذا حدث ؟ لقد جاء البيروقراطيون من موسكو ، وحلوا اللجان ، وصفوا القاعدة ، واقاموا جهاز دولة : جهاز احتلال في الحقيقة » . وتوقفت نظرة سكرياسين على هنري : « هذا لا يعني شيئاً ؟ احتقار البشر ، الاضطهاد البيروقراطي : القضية واضحة ! » .

فقال هنري :

– انت لا تعلمني بشيء . كل ما هنالك انك نسيت ان تقول ان هؤلاء البيروقراطيين ، كانوا شيوعيين المانا لاجئين إلى الاتحاد السوفياتي ، وقد أسسوا منذ زمن بعيد في موسكو لجنة المانيا الحرة : كانوا على كل حال رسميين أكثر من الذين تمردوا أثناء سقوط برلين . نعم ، كان هناك بالتأكيد شيوعيون مخلصون بين العمال : لكن كيف ستعرفهم بينما يدعي ستون مليون نازي في جوقة واحدة انهم كانوا دوماً ضد النظام ! إنني افهم ألا يثق الروس بهم . هذا لا يثبت انهم يحتقرون القاعدة بشكل عام .

فقال سكرياسين في حنق :

– كنت واثقاً من ذلك ! انت دوماً على استعداد لمهاجمة أميركا . ولكن ليس هناك انسان واحد ليفتح فمه ضد الاتحاد السوفياتي .

فقال هنري :

– من الواضح وضوح الشمس لكل ذي عينين انهم كانوا على حق في ان يتصرفوا كما فعلوا !

فقال سكرياسين :

– لا افهم ! هل انت حقاً أعمى ؟ ام انت خائف ؟ ان دوبروي مباع ، جميع الناس يعرفون ذلك . لكن انت !

فقال هنري :

– دوبروي مباع ! انت نفسك لا تصدق ذلك !

فقال سكرياسين :

– اوه ! ليس بالمال يشتريك الحزب الشيوعي . ان دوبروي مسنّ ، وهو مشهور . وقد حصل على الجمهور البورجوازي : انه يريد الجماهير .

فقال هنري :

– اذهب إذن لتقول لاعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » ان دوبروي شيوعي !

فقال سكرياسين :

– « الاشتراكي الثوري الحر » ! خدعة جميلة !

وأسند رأسه إلى ظهر مقعده في سحنة منهكة . وقال لويس وهو يبتسم لهنري :

– ألا تجد ان المحزن ألا نستطيع تمضية سهرة بين اصدقاء دون ان نتخاصم بشأن السياسة ؟ العمل في السياسة ، ليكن ، لكن لمَ الحديث عنها في مناسبة او غير مناسبة ؟

من فوق رأس سكرياسين، كان يحاول ان يستعيد من هنري شبابهما المشترك . واغتاظ هنري ، وكان اغتياظه اكثر إذ كان من رأيه . وقال في خشونة :

– انا موافق تماماً .

فقال لويس :

– ان الأمر لينتهي بنا إلى ان ننسى ان هناك اشياء اخرى موجودة على الارض . » ونظر إلى أظافره في حياء : « أشياء تدعى الجمال ، الشعر ، الحقيقة . لم يعد اي انسان يهتم بها » .

فقال هنري :

– لا يزال هناك أناس يستهويهم هذا . » وفكر : « يجب أن أتكلم ، يجب ان اقول له انه لم يعد هناك شيء نفعله معــاً » . لكن ليس من السهل أن يهين الإنسان ، دون داعٍ ، اقدم اصدقائه . ووضع كأسه ، وهمّ بالنهوض ، لكن لامبير أخذ بالكلام . وقال في حرارة :

ـ من اذن ؟ على كل حال ، ليست « الطوارىء » . كي تقبلوا نصاً ، فلا بد ان يكون محشواً بالسياسة : اذا كان جميلاً أو شعرياً فقط ، فلن تنشروه أبداً .

فقال لويس :

ـ هذا بالفعل مأخذي على « الطوارىء ». وأضاف بصوت مهذب : « بالطبع يمكن أن تُكتب كتب جميلة جداً عن قضايا سياسية ، وروايتك مثال على ذلك. لكني أتمنى حقاً أن تعاد للأدب الصافي حقوقه » .

فقال هنري :

ـ بالنسبة لي ، هذه كلمة لا معنى لها . » وأضاف بصوت عدائي : « وهي كلمة خطرة . اننا نعرف إلى أين يؤدي هذا عندما نزعم اننـا نعزل الأدب عن كل ما عداه » .

فقال لويس :

ـ هذا يتعلق بالعصور . يقيناً لقد أخطأت عام ١٩٤٠ عندمـــا اعتقدت انني استطيع ان اتحفظ من السياسة . » وأضاف في لهجة متأثرة : « صدّق انني فهمت مدى غلطتي كله . لكن اليوم ، يبدو لي ان لنـــا الحق من جديد في الكتابة مجاناً ، للذتنا الخاصة » .

كان ينظر إلى هنري نظرة متسائلة ومجاملة ، كأنه قد طلب حقاً اذناً. وأغاظ هذا الاعتبار الظاهري هنري . لكن لم تكن هناك فائدة من اثارة خصومـة . وقال في جفاء :

ـ كل انسان حر .

فقال لامبير :

ـ ليس حراً جداً إلى هذا الحد ! انت لا تدرك ذلك : من الصعب معاكسة التيـــار .

وهز لويس رأسه في ودّ : « بل هـــذا أكثر صعوبة اليوم حيث يشترك كل شيء في إقناع الفرد بأنه لا شيء . وإذا كان يجد نفسه ثانية ، فانـه سيجد أشياء كثيرة ثانية ، لكن هنا المشكلة بالضبط ، انها حلقة مفرغة : انهم لا يعطونـــه

الوسائل لذلك » .

فقال لامبير بقوة :

— كلا ، لا يعطونه إياها . » ونظر إلى هنري نظرة منتعشة : « أتذكر ، ذات مرة ، في « السكريب » ، تناقشنا حول هذه المسألة . كنت اقول لك ان كل انسان يجب ان يهتم بذاته : لا زلت أؤمن بذلك. إذا فكرت بأني لا شيء، وأني لا استطيع شيئاً ، وانه لا حق لي في شيء ، فماذا تريد ان أصبح ؟ انظر : شانسيل طلب الموت عمداً ، وسيزوناك يدمن المخدرات ، وفانسان يسكر ، ولاشوم باع نفسه للحزب الشيوعي ... » .

فقال هنري :

— انت تخلط كل شيء ! إنني لا أرى ما سيأتي به الأدب الصافي إلى فانسان او سيزوناك . » وقال وهو يلتفت نحو لويس : « اما قصصك عن الفرد الضائع والذي وجد نفسه ، فهي خلط في خلط . هناك أفراد هم شيء ما وغيرهم لا شيء: هذا يتوقف على ما يفعلونه بحياتهم. عندما يكون الانسان شاباً ، لا يكون عارفاً بعد ما سيفعله بها ، لهذا سيكون سئماً : لكن ما ان يهتم بشيء ما — شيء غير ذاته — حتى لا تعود هناك مشكلة » .

كان قد تكلم في غضب . كان يغيظه ان يعلق لامبير أهمية على لفظية لويس . ونهض : « يجب ان اذهب » .

وانتصب سكرياسين ثانية : « أأنت مقرر حقاً ألا تهتم بمعلوماتي ؟ » .

فقال هنري :

— لم تقدم لي أي معلومات .

فصب سكرياسين لنفسه كأس وسكي وجرعه دفعة واحدة. وأمسك الزجاجة من جديد . واقترب من كلودي في حدة ووضعت يدها على ذراعه :

— اعتقد ان الأب فيكتور الصغير قد شرب بما فيه الكفاية !

فصرخ سكرياسين بصوت عنيف :

— هل تعتقدين انني اشرب للذتي ؟

فابتسم هنري : « سيكون هذا سبباً طيباً » .
فقال سكرياسين وهو يملأ كأسه :
– ليس هناك طريقة اخرى لأستطيع النسيان !
فسألت هوغيت في ذعر :
– نسيان ماذا ؟
فقال سكرياسين :
– خلال سنتين سيحتل الروس فرنسا ، وستستقبلونهم راكعين .
فقالت هوغيت :
– سنتان !
فقال هنري :
– كلا .
فقال سكرياسين :
– انتم في طريقكم إلى تسليمهم اوروبا ، انتم جميعاً متواطئون ! انتم خائفون ، هذه هي الحقيقة : تخونون لأنكم خائفون .
فقال هنري :
– الحقيقة ان حقدك على الاتحاد السوفياتي يتركك بلا منطق . انت تحرف الوقائع ، وتنشر أي شائعات كانت . انه عمل قذر . من خلال الاتحاد السوفياتي، انما تهاجم الاشتراكية بشكل عام .
فقال سكرياسين بصوت كان يزداد تهتهة :
– انت تعرف جيداً ان الاتحاد السوفياتي لم تعد له علاقة بالاشتراكية .
فقال هنري :
– لا تقل لي ان اميركا اكثر قرباً اليها !
فنظر سكرياسين إلى هنري بعينين احمرّتا غضباً : « تزعم انك صديقي !وتدافع عن نظام حكم عليّ بالموت ! في اليوم الذي يتمكنون فيه من اعدامي ، ستفسر في « الأمل » انه كانت له اسباب طيبة !

فقال هنري :

– يا إلهي ! كان المناضلون القدامى مضجرين بما فيه الكفاية ! وها أنت الآن تصدع رأسنا بالمعدمين المستقبلين !

ونظر سكرياسين إلى هنري في حقـد . وأخذ كأسه نصف الممتلئة ورمـاها بكل قواه . وحاد هنري وانسحقت الكأس على الجدار . وقال هنري وهو يسير نحو الباب :

– يجب أن تذهب لتنام . » وأشار بيده إشارة صغيرة : « وداعاً » .

فقالت كلودي :

– يجب ألا تؤاخذه . انه سكران .

– هذا واضح .

كان سكرياسين قد ترك نفسه ينهار ثانية على مقعده ، ورأسه بين يديه . وقال هنري عندما وجد نفسه ثانية مع لامبير في باحة الفندق :

– يا لها من جلسة !

– نعم . انني من رأي فولانج : المناقشات السياسية ، يجب أن تمنع .

– سكرياسين لا يناقش : بل يتكهن .

فقال لامبير :

– اوه ! على كل حال ، هكذا يجري الأمر دوماً . يرمون الكؤوس على رؤوس بعضهم البعض ، ولا يعودون يعرفون حتى عمّ يتحدثون . انتما الاثنـين تجهلان ما يجري في المانيا الشرقية . انه متحيز ضد الاتحاد السوفياتي، لكنك انت متحيز معه .

– لست متحيزاً . انني اشك جيداً في ان كل شيء ليس كاملاً في الاتحـاد السوفياتي ، والعكس هو الذي سيدهش . لكنهم أخـيراً ، هم الذين يسيرون في الطريق المستقيم .

ومط لامبير شفتيه استياء ولم يجب بشيء . وقال هنري :

– انني لأتساءل عما كان سكرياسين ينتظره من هذه المقابلة . لا بد انه لويس

الذي اقترحها : انه يأمل في ان اساعده على استعادة اعتباره .
فقال لامبير :
– ربما كان يريد ان يعود صديقاً لك .
– لويس ؟ أتتصور !
فتفرس لامبير في وجه هنري في حيرة: « كان افضل صديق لك في الماضي؟».
فقال هنري :
– صداقة غريبة . عندما جاء إلى تجهيز « تول » ، كان قادماً من باريس ، وصوّرها لي أروع تصوير . وقد وجدني أقل فلاّحية من غيري . لكننا لم نتحابّ ابداً.
فقال لامبير :
– انني أجده ظريفاً .
– انت تجده ظريفاً لأن السياسة تضجرك ولأنه يدافع عن الأدب الصافي . لكن ألا تفهم لماذا يفعل ذلك ؟
فتردّد لامبير : « سواء لهذا السبب او ذاك ، فان ما قاله صحيح . هناك مشاكل فردية ، وليس من السهل حلها عندما يكرر عليك جميع الناس انك مخطيء في طرحها على نفسك » .
فقال هنري :
– لم أزعم هذا . يجب ان تطرحها على نفسك ، موافق . ان ما أقوله هو انه لا يمكن عزلها عن المشاكل الأخرى . لتعرف من انت وماذا تريد ان تفعل ، يجب ان تقرر ما هو وضعك في العالم .
وامتطى لامبير دراجته وركب هنري خلفه . وفكر : « سنة واحدة كانت كافية ، وها هم يعودون في صلف الخاطيء المطمئن إلى انه يساوي تسعة وتسعين عادلاً . ولما كانوا يقولون شيئاً آخر غير الذي نقوله ، فان لامبير والذين في سنّه ، سيعتقدون انهم يأتونهم بجديد » . وقال هنري في نفسه : « سوف يفرّون . لا يجب ذلك . يجب معارضتهم ، بكافة الوسائل » . وما إن توقفت

الدراجة ، حتى قال بصوت حار :

– أتعرف ، انني أقبل عرضك مع اعتراف بالجميل . انها لفكرة رائعة هذه : سنبقى السادة في بيتنا !

فقال لامبير في سيماء من سعادة :

– أتقبل ؟

– بالتأكيد . هذه القصة كلها عكرت مزاجي ، لهذا لم أقفز فرحاً . لكنك تتصور سروري إذا استطعت ان احتفظ بالجريدة !

فقال لامبير :

– هل سيقبل تراريو ؟

فقال هنري :

– سيرغم على ذلك. » وشدّ على يد لامبير في حرارة : « شكراً. إلى الغد».

وفكر وهو يدخل إلى غرفته « كلا ، ليس هذا أوان الهرب » . لن يموت حقده على دوبروي بمثل هذه السرعة . لكن هذا لا يمنع عملاً مشتركاً معه ، فمسائل العاطفة ثانوية جداً . المهم هو ان تمنع عودة امثال فولانج ، ان تربح الجولة . واشعل سيجارة . سيكون شيئاً مفيداً للامبير ، ان يكون من لجنة « الأمل » . وسيتدبّر هنري أمره ليشركه اكثر فأكثر في حياة الجريدة . وسيتكوّن لامبير سياسياً ، وسيشعر بأنه أقل ضياعاً في العالم ، وما إن يغرق في العمل تماماً ، حتى لا يعود يتساءل عما يفعل بجلده .

وقال هنري في نفسه : « صحيح انه ليس من المناسب ان يكون الانسان شاباً في هذا الوقت » . وقرر ان يجري محادثة جدية مع لامبير ، ذات يوم . « وماذا سأقول له على الضبط ؟ » . وبدأ يخلع ثيابه . وقال في نفسه: « لو كنت شيوعياً او مسيحياً ، لكنت أقل حرجاً . ان المرء ليستطيع ان يحاول فرض اخلاق كونية . لكن المصل الذي يعطيه لحياته شيء آخر . من المستحيل التفاهم في اربع جمل : يجب ان ادفع لامبير إلى رؤية العالم بعيني » . وتنهد هنري . هذا ما يفيده الأدب : ان تظهر العالم للآخرين كما تراه . كل ما هنالك هو انه حاول

وفشل . وسأل نفسه : « هل حاولت حقاً ؟ » . واشعل سيجارة أخرى وجلس على حافة سريره . كان قد اراد ان يكتب كتاباً مجانياً : مجانياً ، بلا ضرورة ، بلا سبب ، فلا غرو إذن إذا اشمأز منه بمثل هذه السرعة . وكان قد وعد نفسه بأن يكون صادقاً ، ولكنه لم يكن إلا مجاملاً : لقد زعم انه يتحدث عن نفسه دون ان يموضع نفسه لا في الماضي ولا في الحاضر : في حين ان حقيقة حياته كانت خارجاً عنه ، في الأحداث ، في الناس . في الأشياء ليتحدث الانسان عن نفسه ، لا بد ان يتحدث عن كل ما يتبقى . ونهض وجرع قدح ماء . لقد ناسبه ، في ذلك الحين ، ان يزعم ان الأدب لم يعد له معنى ، لكن هـذا لم يمنعه من كتابة مسرحية ، هو راضٍ عنها . مسرحية مؤرخة ، مموضعة ، وتعني شيئاً ما : وهو لهذا راضٍ عنها . لماذا لا يباشر رواية مؤرخة ، مموضعة ، ستعني شيئاً ما ؟ ان يروي قصة من قصص اليوم يستطيع القراء ان يجدوا فيها همومهم ، مشاكلهم ، كلا ، لا ان يثبت ولا ان يعظ ، بل ان يشهد . ولم ينم قبل مدة طويلة .

لم ينجح دوبروي في إقناع تراريو ولا سامازيل . لكنهما فهما بدون شك أي ضمانة يمثلها بالنسبة لهنري وجود لامبير في لجنة الجريدة ، واما انهما خشيا انفجاراً يسيء إلى « الاشتراكي الثوري الحر » إساءة بالغة ، او ربما كانا ، بعد كل شيء ، لا ينطويان على أي مقصد مكيافيلي : فقد قبلا بدون صعوبة الفكرة التي اقترحها هنري عليهما . وفي الجريدة ، لم ينفعل احد كثيراً بتغيير كان يبدو ذا صفة إدارية صرف باستثناء فانسان . فقد جاء إلى قاعة التحرير في وقت كان هنري فيه بمفرده مع لوك ، وبادر بصوت شرس : « لا أفهم شيئاً مما يجري » .

فقال هنري :

– مع ان ذلك بسيط للغاية !

– إنني لا اعرف تراريو هذا ، لكن رجلاً يملك مالاً كثيراً هو حتماً خطر . وقد كان من المستحسن الاستغناء عنه .

فقال هنري :

– لم نكن نستطيع .

فقال فانسان :

ـ ولماذا أدخلت لامبير إلى اللجنة ؟ ستفاجأ بمفاجآت سيئة . عندما أفكر بأنه تصالح مع والده مع علمه بما يعلم !

فقال هنري :

ـ ليس هناك أي دليل على ان الشيخ قد وشى بروزا . كفَّ إذن عن الحكم على الناس بلا تمييز . انني أعرف لامبير وأثق به مطلق الثقة .

فهز فانسان كتفيه : « هذه القضية كلها تحزنني ! » .

فقال لوك متنهداً : « يجب الاعتراف بأننا فشلنا في ضربتنا » .

فقال هنري :

ـ أي ضربة ؟

فقال لوك :

ـ المجموع كله . كان يمكننا ان نأمل ان الأشياء ستتغير قليلاً : ومن جديد لم يعد من أهمية إلا للمال .

فقال هنري :

ـ ما كانت الحال لتتغير بمثل هذه السرعة .

فقال فانسان :

ـ لا شيء يتغير ابداً !

ودار فجأة على عقبيه وسار نحو الباب . وسأل لوك في قلق :

ـ ألا يعرف انني أطلعك على الأمر ؟

فقال هنري :

ـ كلا . لم أقل له شيئاً ولن اقول له . ما الفائدة ؟

وفي اليوم المحدد لتوقيع العقد ، أشعلت بول في المدفأة نار حطب كبيرة ، رغم عذوبة سماء تشرين الثاني ، وبينما كانت تحرّك النار ساهمة ، سألت :

ـ أأنت عازم نهائياً على التوقيع ؟

ـ نهائياً .

– لماذا ؟
– لا خيار لي .
فقالت :
– ان لنا الخيار دوماً .
– ليس في هذه القضية .
– بلى . » وانتصبت وواجهت هنري : « تستطيع ان تذهب ! » .
اخيراً ، لقد انتزعت من نفسها هذه الكلمات التي كانت تمسك بها منذ ايام في عدم مهارة . كانت تبدو ، وهي بلا حراك، ويداها متشنجتان على اطراف شالها، شهيدة تقدم جسدها للوحوش . وشددت صوتها : « أرى ان من اللباقة أكثر ان تذهب » .
– لو كنت تعرفين إلى أي حد لا أبالي باللباقة .
فقالت :
– قبل خمس سنوات ، ما كنت لتتردد . كنت ذهبت .
فهز كتفيه : « تعلمت أشياء واشياء خلال خمس سنوات ، وانت لا ؟ » .
فقالت بصوت مسرحي :
– ماذا تعلمت ؟ ان تتنازل ، ان تتساهل .
– لقد شرحت لك الأسباب التي اقبل من اجلها .
– أوه ! هناك دوماً أسباب ، فالانسان لا يشوه نفسه دون سبب . لكن بالضبط ، يجب ان نعرف كيف نرفض الأسباب . » وانقبض وجه بول ، وكان في عينيها رجاء تائه : « كنت تعرف . لقد اخترت اصعب الطرق ، الوحدة ، الطهارة : القديس الصغير جورج دي بيزانللو ، الأبيض الثياب والذهبيها ، كنا نقول انه انت ... » .
– كنت تقولين ذلك ..
فصرخت :
– آه ! لا تنكر ماضينا .

فقال في استياء : « إنني لا أنكر شيئاً » .

– انت تنكر نفسك ، انت في طريقك إلى خيانـة وجهك . » واضافت في غضب : « وانا اعرف من هو المسؤول . لا بد ذات يوم ان أتفاهم معه » .

– دوبروي ؟ لكن اخيراً ، هـــذه حماقة . انت تعرفينني بما فيه الكفاية لتعلمي انهم لا يستطيعون ان يجعلوني أفعل ما لا أريده .

فقالت وهي تنظر إلى هنري في يأس :

– احياناً ، اشعر انني لم اعد أعرفك مطلقاً . » وأضافت في ضياع : « هـل انت نفسك حقاً ؟ » .

فقال وهو يهز كتفيه :

– يخيل إليّ .

– لكنك لست واثقاً من ذلك انت نفسك . انني أراك ثانية ...

فقاطعها في فظاظة : لا تبحثي إذن عني دوماً في المـاضي . إنني حقيقي اليوم كالأمس » .

فقالت بصوت ملهم :

– كلا . إني اعرف اين هي حقيقتنا . وسأحافظ عليها ، رغم كل شيء .

– إذن لم ننته من الخصام ! لقد تغيرت ، ضعي هذا في رأسك . اننا نتغير ، يا بول . والأفكار تتغير وكذلك العواطف . لا بد ان تنتهي إلى قبول ذلك .

فقالت :

– ابداً . » كانت دموع تصعد إلى عيني بول : « صدّق جيـــداً انني أتألم أكثر منك من هذه الخصومات . ما كنت لأناضل ضدك لو لم اكن مرغمة على ذلك.

وقالت في لهجة شرسة :

– إن لي رسالتي ، انا الأخرى ، وسأقوم بها . لن أسمح بأن يحولوك عني .

لم يكن يستطيع شيئاً ضد هـــذه الكلمات الكبيرة . وتمتم بصوت متجهم : « أتعرفين ما سيحدث ؟ سينتهي بنا الأمر إلى كره بعضنا البعض » .

– أتستطيـع ان تكرهني ؟ » واخفت وجههـا بين يديها ، ثم رفعت رأسها ،

وقالت : « إذا لم يكن هناك بد ، فإنني سأتحمل حتى كراهيتك . حباً بك » .
فهز كتفيه دون ان يجيب وسار نحو غرفته . وقال في هوس : « يجب ان أنتهي من الأمر . يجب ان أنتهي منه » .

في تشرين الثاني أيّد « الاشتراكي الثوري الحر » مطالب توريز . وبالمقابل ، أظهر له الشيوعيون من جديد بعض الملاطفة ، وعادت « الأمل » تُقرأ من جديد في المصانع . لكن الملاطفة لم تدم . فقد رد الشيوعيون في شراسة على المقال الذي يلومهم هنري فيه على انهم صوّتوا على المئــة والأربعين مليار فرنك للاعتمادات العسكرية ؛ وعلى المقـال الذي يذكر فيه سامازيل الخلافات التي تفصلهم عن الاشتراكيين فيما يخص سياسة الدول الكبرى الثلاث . وكان رد فعلهم ان شددوا الخناق على « الاشتراكي الثوري الحر » وعارضوه بجميع الطرق الممكنة . وكان سامازيل يريد الانفصال عنهم بصراحة ، إذ كان يعتقد ان « الاشتراكي الثوري الحر » كان يجب ان يتشكل كحزب ويقدم مرشحين لانتخابات حزيران . ورُفض اقتراحه ، لكن اللجنة قررت ان تستفيد من الانتخابات لتتبنى تجـاه الحزب الشيوعي سياسة اقل سلبية : سوف تفتح حملة .
واستنتج دوبروي :
– نحن لا نريد إضعاف الحزب الشيوعي ، لكننا نتمنى ان يعدّل خطه . حسناً ! هي ذي مناسبة لدفعه إلى ذلك . ان ما نقوله باسمنا الخاص وحده لا يؤثر عليه البتة . لكنه مضطر إلى اخذ القاعدة بعين الاعتبار . سوف نحث النـاس على التصويت إلى جانب احزاب اليسار : لكن مع وضع شروطهم . ان للبروليتاريا في الوقت الراهن مآخذ كثيرة على الشيوعيين ، فإذا بلورنا هذا الاستياء ، إذا توصلنا إلى التعبير عنه في مطالب محددة ، فستتاح لنا فرصة لدفع المسؤولين إلى تبديل موقفهم .
عندما كان دوبروي يتخذ قراراً ، كان يخيل لمخاطبه ان حياته السابقة كلها قد

تعدلت بوجهه : وقد لاحظ هنري هذا مرة أخرى عندما ذهبا، بعد نهاية الجلسة، لتناول العشاء ، كما في كل يوم سبت ، في مطعم صغـــير على الأرصفة . وعرض دوبروي لهنري المقال الذي سيكتبه هذه الليلة بالذات ، وخيل لهنري انه قد فكر دوماً مسبقاً في نشره في الموعد المحدد الذي يجب ان ينشر فيه . كان يأخذ بالدرجة الأولى على الشيوعيين انهم أيدوا القرض الانكلو–ساكسوني : نعم ، هذا سيسرع في عودة الازدهار ، لكن العمال لن يستخلصوا منه اي ربح . وسأل هنري:

– وهل تعتقد ان هذه الحملة سيكون لها تأثيرها حقاً ؟

فهز دوبروي كتفيه : « سنرى ذلك . كنت تقول اثناء المقاومة ان علينا ان نتصرف وكأن فعالية العمل الذي قررناه مضمونة : كان هذا مبدأ طيباً ، واني أتمسك به » .

فتفرس هنري في وجه دوبروي . وفكر : « ليس هـذا نوع الجواب الذي كان سيجيب به في السنة الماضية » كان من الواضح ان دوبروي مهموم هـــذه الأيام . وقال :

– بتعبير آخر ، انت لا تأمل شيئاً كبيراً ؟

فقال دوبروي :

– اواه ! اسمع : الامل ، او عدم الامل : هذا شيء ذاتي للغاية . إذا مـــا أرخى الانسان العنان لمزاجه ، لم ينته ابداً ، بل يصبح مثل سكرياسين . عندما يكون علينا ان نتخذ قراراً ، فليس في ذاتنا يجب ان ننظر .

كان في صوته ، في ابتسامته ، نوع من الاستسلام كان ممكناً ان يؤثر على هنري ، في الماضي . لكنه منذ أزمة تشرين الثاني ، فقد تجاه دوبروي كل حرارة قلبية . وقال في نفسه : « إذا كان يحدثني بهذه الثقة الكبيرة ، فلأن آن غـــير موجودة هنا . انه بحاجة ليجرب فكره على شخص ما » . وفي الوقت نفسه، كان يلوم نفسه قليلاً على سوء نيته .

ونشر دوبروي في « الأمل » سلسلة من المقـــالات متطرفة في القسوة ردت عليها الصحافة الشيوعية في استياء . كانوا يشبهون موقف « الاشتراكي الثوري

الحر » بموقف التروتسكيين الذين رفضوا الاشتراك في المقاومة بحجة انها تخدم الامبريالية الانكليزية . ورغم كل شيء ، فان هذه الخصومة التي كانت الحزب الشيوعي و « الاشتراكي الثوري الحر » يتبادلان فيها التهم بأنهما يسيئان فهم المصالح الحقيقية للطبقة العاملة احتفظت بلهجة مجاملة نسبياً . وإنما بذهول قرأ هنري ذات خميس في « السندان » مقالاً كان فيه هجوم عنيف متطرف على دوبروي ، ينتقد الدراسة التي كان ينشرها في « الطوارىء » وعلى الأخص الفصل الذي تحدث عنه إلى هنري قبل عدة اشهر والذي لا يمس القضايا السياسية إلا بطريقة غير مباشرة للغاية . وبدءاً من هنا ، ودون سبب ظاهري ، كانوا يرفعون ضده قرار اتهام حقيقي : فهو كلب حارس للرأسمالية ، وعدو للطبقة العاملة . وقال هنري :

– ماذا يهم ؟ كيف ترك لاشوم هذا المقال يمر ؟ انه مقرف .

فقال لامبير :

– أهذا يدهشك منه ؟

– نعم . ولهجة المقال تدهشني ايضاً . ان التسامح هو الذي يسود الجو الآن بالأحرى .

فقال سامازيل :

– انا لست مندهشاً كثيراً . انهم ، قبل ثلاثة اشهر من الانتخابات ، لن يرغبوا في الوحل جريدة مثل « الأمل » يقرأها آلاف من العمال وحتى شيوعيون . وبالنسبة لـ « الاشتراكي الثوري الحر » بالذات ، الأمر مماثل ، ان لهم مصلحة في مداراته . ولكن دوبروي ، هناك كسب كبير في اغراقه في نظر مثقفي اليسار الشباب .

وأغاظ سرور سامازيل ولامبير الظاهر هنري . وأحس انه يتشنج قليلاً عندما قال له لامبير بعد يومين ، في لهجة مرحة ، شبه نكدة : « لقد تلهيت في كتابة رد على مقال « السندان » . إلا انني أتساءل ما إذا كنت ستنشره ؟ » .

– لماذا ؟

ـ لأنني لا أحكم لأحد منهما ، أعني لاشوم ودوبروي ، بالحق . انه يستحق ما حصل له . هذا سيعلمه ان يراهن على اللوحتين . إذا كان مثقفاً ، فعليه ألا يضحي بفضائل المثقف لحساب السياسة . وإذا كان يعتبرها ترفاً لاجدياً ، فليعلن عن ذلك ، واما بخصوص الفكر الحر ، فسوف نتوجه إلى مصدر آخر .

فقال هنري :

ـ انني أشك بالفعل إذا كنت أستطيع ان أنشر هذا في « الأمل » . ثم انك غير عادل . أرني على كل حال .

كان المقال حاذقاً ، لاذعاً ، وأحياناً سديداً ، رغم سوء نيته . كان يهاجم الشيوعيين في غير اعتدال ، وكان مكدراً للغاية بالنسبة لدوبروي .

وقال هنري :

ـ انت موهوب في الهجاء . ان مقالك للامع . » وابتسم : « بديهي ، انه غير قابل للنشر » .

فسأل لامبير :

ـ أليس صحيحاً ما اقوله ؟

ـ صحيح ان دوبروي منقسم . لكني ادهش من لومك له على ذلك . انني مثله ، لو تعرف .

فقال لامبير :

ـ انت ؟ إنما تقول هذا عن إخلاص له . وأعاد اوراقه إلى جيبه : « لاحظ ، اني لا اقول هذا لأني متمسك بمقالي ، لكن هذا مضجر على كل حال : إذا كنت اريد ان انشره ، فلن تكون هناك وسيلة لذلك . إنني ضد الشيوعية أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى « الأمل » او « الطوارىء » ، ويساري اكثر مما ينبغي بالنسبة للأشخاص اليمينيين » .

فقال هنري :

ـ هذا اول مقال ارفضه لك .

ـ اواه ! ان الريبورتاجات ، والملاحظات النقدية . يمكن نشرها في كل مكان .

لكن اذا اردت ذات مرة ان اقول ما أفكر به حول مسألة هامة إلى حد ما ، فأنت غير قادر على ان تقدم لي تأسفاتك .

فقال هنري في مودة :

– ليس عليك إلا ان تجرب مرة .

فابتسم لامبير : « لحسن الحظ ، ليس عندي شيء هام اقوله » .

فسأل هنري :

– ألم تحاول كتابة قصص اخرى ؟

– كلا .

– لقد قرفت بسرعة كبيرة .

فقال لامبير في عدائية مفاجئة :

– ألا تعرف ما يثبط عزيمتي ؟ هو ان أرى قصة ذلك الصغير « بولوفي » في « الطوارىء » . إذا كنت تحب هذا النوع من الأدب فإنني ما عدت أفهم .

فقال هنري متفاجئاً :

– ألا تجد انها شيقة ؟ انك لتحس بالهند الصينية ، تحس ما هو المعمر ، وفي الوقت نفسه تحس بطفولة .

فقال لامبير :

– قل بصراحة ان « الطوارىء » لا تنشر لا روايات ولا قصصاً ، بل ريبورتاجات فقط . يكفي ان يكون الشخص قد أمضى طفولته في المستعمرات وان يكون ضدها ، لتصدروا حكمكم بأنه موهوب .

فقال هنري :

– بولوفي موهوب . » وأضاف : « الحقيقة ان من الشيق اكثر ان يروي الانسان شيئاً من ان لا يروي شيئاً . لو تحدثت عن تجاربك كما يتحدث هذا الشاب عن تجاربه ، لربما كتبت شيئاً ممتازاً » .

فهز لامبير كتفيه : « لقد فكرت انا ايضاً بقصة عن طفولتي . ثم عدلت . ان تجاربي الخاصة بي لا تضع العالم موضع سؤال . انها ذاتية صرف ، وبالتالي ،

من وجهة نظرك ، لا معنى لها تماماً » .

فقال هنري :

– لا شيء لا معنى له . لطفولتك ايضاً معنى : عليك انت ان تجده وان تجعلنا نشعر به .

فقال لامبير بصوت ساخر :

– اعرف . يمكننا ان نصنع بأي شيء كان وثيقة انسانية . » وهز رأسه : « ليس هذا ما يهمني . إذا كنت سأكتب ، فكي اقول الأشياء في لامعناها : لن أحاول ان انقدها إلا بطريقتي في قولها » وهز كتفيه : « اطمئن ، لن افعل ذلك : لن يكون ضميري مرتاحاً . كل ما هنالك انني لا احب الأدب الذي تحبونه . إذن لن أكتب شيئاً البتة : سيكون هذا ابسط » .

فقال هنري :

– اسمع ، في المرة القادمة التي سنخرج فيها معاً ، سنتحدث ثانية عن هذا كله جدياً . اذا كنت انا الذي يقرفك من الكتابة ، فانني آسف .

فقال لامبير :

– لا تأسف ، فالأمر لا يستحق الأسف » . وخرج من المكتب دون ان يبتسم ، يكاد يصفق الباب خلفه . كان قد جُرح حقاً .

وقال هنري في نفسه : « سوف ينسى ! » . كان قد قرر ألا يصدع رأسه ، فالأمور تجري دوماً أقل سوءاً مما هو منتظر . كذلك سامازيل لم يكن ثقيل الظل الى الدرجة التي خاف منها هنري . ولقد اكتسب إلى جانبه بوده جميع الجهاز باستثناء لوك . ولم يكن ترابيو يضع قدمه في الجريدة . وقد ارتفع الاصدار ثانية كثيراً ، وكان هنري حراً حريته في الماضي . لكن إنما كانت روايته الجديدة على الاخص هي التي تجعله متفائلاً . وكان قد خشي من صعوبات ضخمة : لكن الكتاب كان ينتظم من نفسه . وكان هنري واثقاً تقريباً ، هذه المرة ، انه أحسن البداية ، وكان يكتب في مرح . والشيء المزعج الوحيد هو ان بول كانت تطلب ان يشتغل قربها . وكانت تريد ان ترى مسوداته . وكان يرفض

فتغضب . ومن جديد ، في هذا الصباح ، وبينما كانا يتناولان طعام الإفطار ، بادرته :

– هل يسير عملك ؟

– على قدر .

– متى ستريني شيئاً ما ؟

– قلت لك عشرين مرة انه ليس هناك ما يقرأ بعد ، انها لم تأخذ شكلاً .

– بالضبط . منذ ان قلت لي ذلك ، كان يمكن لها ان تأخذ شكلاً .

– لقد بدأت كل شيء ثانية .

فاسندت بول مرفقيها إلى الطاولة ووطعت ذقنها في بطن يديها : « لم تعد لك ثقة كبيرة بي ، أليس كذلك ؟ » .

– بالتأكيد بلى !

– كلا ، لم تعد لك ثقة . » وقالت في لهجة متأملة : « هذا منذ تلك الرحلة على الدراجة » .

فتفرس هنري في وجهها في دهشة : « ماذا يمكن لتلك الرحلة ان تغيّر بيننا؟ » . فقالت :

– الحقيقة هنا .

– اي حقيقة ؟

– حسناً ! لم تعد تصدق ما اقوله لك . » فهز كتفيه ، وأضافت في حدة : « أستطيع أن استشهد لك بعشرين حالة لم تصدقني فيها » .

– مثلاً ؟

– مثلاً قلت لك في ايلول انك تستطيع ان تنام في فندقك عندما تشاء . وفي كل مرة تطلب مني الاذن في سحنة مذنبة . انك لا تريد ان تصدق انني افضل حريتك على سعادتي .

– اسمعي ، بول ، في المرة الاولى التي نمت فيها في الفندق ، كانت عيناك منتفختين صباح اليوم التالي .

فقالت بصوت عدائي :

– لي الحق في البكاء ، أليس كذلك ؟

– لكني لا ارغب في ان أجعلك تبكين .

– وتظن أنني لن ابكي عندما ترفض لي ثقتك ، عندما أرى انك تغلق على مخطوطك بالمفتاح ...

فقال في غضب :

– ليس هناك حقاً داعٍ للبكاء .

فقالت :

– هـــذا مهين . » ونظرت إلى هنري في ذعر شبه صبياني : « انني اتساءل أحياناً ما إذا لم تكن سادياً » .

فصب لنفسه فنجاناً ثانياً من القهوة دون ان يجيب ، وقالت في غضب : « أتخاف ان أنقب في اوراقك ؟ » .

فقال هنري بصوت يجاهد ان يكون مرحاً : « هذا ما كنت افعله مكانك » .

فنهضت ودفعت كرسيها : « انت تعترف ! انت تغلق ادراجك بسببي . لقد وصلنا إلى هذا الحد ! » .

فقال :

– هذا لأجنّبك التجارب .

في هذه المرة كان مرح صوته واضح الزيف . وكررت :

– وصلنا إلى هذا الحد ! » ونظرت إلى هنري في عينيه : « اذا اقسمت لـك انني لن امس هذه الأوراق ، هل تصدقني ؟ هل تترك الدرج مفتوحاً ؟

– انت مهتمة للغاية بهذا المخطوط التعس إلى حد انك لا تستطيعين ان تجيبي بنفسك على ما ستفعلينه . يقيناً انني أؤمن بصدقك ، لكني سأغلق الدرج .

وساد صمت ، وقالت بول في بطء : « ابداً لم تجرحني كما فعلت الآن » .

فقال هنري وهو يدفع كرسيه في عنف :

– اذا كنت لا تستطيعين تحمل الحقيقة ، فلا ترغميني على مصارحتك بها .

وارتقى الدرج ، وجلس امام طاولته . كانت تستحق ان يريهـا إياه ، ذاك المخطوط ، فهكذا يكون قد تخلص منها . بديهي انه ، لحظة نشره ، سيضطر إلى تعديل هذه الصفحات : اللهم إن لم تمت قبل ذلك . وبانتظار ذلك ، عندما كان يعيد قراءتها ، كان يشعر انـه انتقم ! وقال في نفسه : « بمعنى ما ، ان الأدب اصدق من الحياة . لقد سخر دوبروي مني ، ولويس نذل ، وبول تسمم حيـاتي : وانا أواجههم بالابتسام . لكن المرء على الورق يذهب إلى أقصى ما يشعر به » . وجالت عيناه مرة أخرى في فصل القطيعة : كم يقاطع الانسان بسهولة على الورق! انه يكره ، ويصرخ ، ويقتل ، ويقتتل . يذهب حتى الحد الأقصى : لهذا فهذا كذب » وقال في نفسه : « لكن هذا مرض للغاية . انك في الحياة لتنكر نفسك بلا انقطاع والناس الآخرون يكذبونك . ان بول تثير سخطي : مع ذلـك فإني سرعان ما أشفق عليها وتظن انني احبهـا في الحقيقة . لكني على الورق ، اوقف الزمن ، وافرض على العالم أجمع يقيني : فيصبح الواقع الوحيد » وفتل غطاء قلمه. لن تقرأ بول ابداً هذه الصفحات . مع ذلك ، فقد كان ينتصر وكأنه أرغمها على تعرف نفسها في الصورة التي رسمها عنها: عاشقة كاذبة لا تحب إلا تمثيلياتها واحلامها. امرأة تمثل العظمة ، السخاء ، نكران الذات ، في حين انها بلا كبرياء ولا شجاعة، عنيدة في أنانية عواطفها المصطنعة . هكذا كان يراها ، وكانت على الورق تتوافق بدقة مع هذه الرؤية .

وبذل هنري ما بوسعه في الأيام التالية لتجنب ثورات غضب جديدة . كانت بول قد وجدت سبباً لتسخط : المحاضرة التي قبل بأن يلقيها عند كلودي . وحاول في البدء ان يبرر نفسه : حتى دوبروي تحدث عند كلودي ، فالهدف هو جمع مال لدار اطفال ، ولا يمكن الرفض . ولما لم ترضخ ، قرر ان يصمت . وكان ظاهراً ان هذا التكتيك لا يزيد إلا في سخط بول . كانت تصمت هي الأخرى ، لكنها تبدو انها تقلب في رأسها قرارات هامة . وفي يوم المحاضرة ، كانت تنظر اليه نظرة قاسية جداً بينما كان يعقد ربطة عنقه امام مرآة غرفتهما إلى حد انه فكر في امل: « انها هي التي ستقترح علي ان نقطع صلتنا » . وسأل بصوت لطيف :

– أنهائياً لن تصحبيني ؟

فضحكت بشكل مفاجيء جداً إلى حد انه كان سيظن انها مجنونة لو لم يكن يعرفها : « المهزلة الجيدة ! أصحبك إلى هذا الكرنفال ؟ » !

– كما تشائين .

فقالت بصوت يستدعي سؤالاً :

– لدي عمل أهم .

فسأل في وداعة :

– ما العمل الذي لديك ؟

فقالت في ترفع :

– هذا شأني !

وفي هذه المرة لم يلح ، ولكنه بينما كان يسرح شعره للمرة الأخيرة ، قالت في لهجة متحدية :

– سأذهب إلى « الطوارىء » لأرى دوبروي .

فاستدار هنري في حدة . انها لم تخطىء في ضربتها : « لماذا تريدين رؤية دوبروي ؟ » .

– أنبأتك انني ذات يوم سأذهب للتفاهم معه .

– علام ؟

– لدي اشياء كثيرة أقولها له من جهتي ، وكذلك من جهته .

فقال هنري :

– ارجوك ألا تتدخلي في علاقاتي الخاصة مع دوبروي . ليس لديك ما تقولينه له ولن تذهبي لرؤيته .

فقالت :

– اسألك عفواً . فقد تأخرت اكثر من اللازم . ان هذا الرجل عفريتك الشرير ، ولا يوجد احد غيري يمكنه ان يخلصك منه .

وأحس هنري ان الدم يصعد إلى وجهه . ماذا ستروي لدوبروي . كان هنري

قد عبر عن نفسه بصراحة امام بول في لحظات الغضب او القلق : من المستحيل ان يتحمل ان تتكرر بعض تلك العبارات . لكن كيف السبيل إلى دفعها إلى العدول ? انهم ينتظرونه عند كلودي ، ولن يجد خلال خمس دقائق الوسيلة لإقناعها ، لا بد ان يربطها ، او يسجنها . وتمتم : « انت تهذين » .

فقالت بول :

– أترى ، عندما يعيش الانسان لوحده كثيراً مثلي ، يتاح له وقت كثير للتفكير . انني أفكر بك وبكل ما يتعلق بك ، واحياناً ، ارى . ولقد رأيت دوبروي ، منذ بضعة ايام ، في دقة غير عادية : وفهمت انه سيفعل كل شيء لينهي هدمك .

فقال :

– آه ! اذا بدأت ترين رؤى ! » كان يبحث عن وسيلة لإخافة بول . ولم يكن يجد إلا وسيلة واحدة : تهديدها بالقطيعة .

وقالت بول بصوت ارادته غامضاً :

– انني لا أثق فقط برؤاك !

– وبمَ ايضاً ?

فقالت :

– لقد استعلمت . » كانت تحدق إلى هنري بنظرة مداعبة. وتفرس في وجهها في حيرة :

– آن لم تقل لك بالتأكيد ان دوبروي يريد هدمي .

فقالت :

– من يحدثك عن آن ? آن ! انها اكثر عمى منك ايضاً .

فسأل :

– إذن ، من الفائق الذكاء الذي استشرته ?

كان يشعر بقلق مبهم . وعادت نظرة بول خطيرة: « لقد تحدثت مع لامبير» .

فقال هنري :

– لامبير ؟ اين رأيته ؟

كان الغضب يجفف حلقه . وقالت بول في اطمئنان :

– هنا . أهذه جريمة ؟ لقد تلفنت له ان يأتي .

– متى هذا ؟

فقالت في رضى :

– البارحة . هو ايضاً لا يحب دوبروي .

فقال هنري :

– هذا استغلال للثقة !

كان التفكير بأنها تحدثت الى لامبير مع مفرداته السخيفة وحدّته المثيرة للضحك ، يجعله يتمنى صفعها . وتابع بصوت حانق :

– انت تتكلمين دوماً عن الطهارة، لكن امرأة تشاطر حياة رجل، وفكره، واسراره ، ثم تستغل ذلك من وراء ظهره ، دون ان تخطره ، لهي امرأة تتصرف بطريقة قذرة . » وقال وهو يمسكها من معصمها : « أتسمعين : قذرة » .

فهزت رأسها : « حياتك حياتي لأنني ضحيت بها من أجلها . ان لي حقوقاً عليها » .

فقال :

– لم اسألك ابداً اي تضحية . لقد حاولت ان اساعدك في السنة الماضية على ايجاد حياة خاصة بك : فلم تريدي . هذا يخصك ، لكن ليس لك اي حق عليّ .

فقالت :

– لم أرد بسببك ، لأنك بحاجة اليّ .

– أتعتقدين انني بحاجة الى هذه الفصول المؤبدة ؟ انت تخطئين تماماً ! ثمة لحظات تجعلينني أتمنى فيها ألا اضع قدمي هنا ثانية ابداً . وسأقول لك شيئاً : اذا ذهبت لرؤية دوبروي ، فلن اغفر لك هذا . لن تريني ثانية .

فقالت في حماسة :

– لكني اريد ان انقذك ! انت لا تفهم انك في سبيلك الى هلاك نفسك !

انت تقبل بجميع الحلول الوسط ، وستذهب لتتحدث في الصالونات ... وانا اعرف لماذا لم تعد تجرؤ على ان تريني ما تكتبه : ان افلاسك ينعكس في عملك ، وانت تشعر بذلك. انت خجل. انت خجل للغاية إلى حد انك تغلق على مخطوطك بالمفتاح : لا بد انه شيء دنيء جداً .

فنظر اليها هنري في حقد : « اذا اريتك هذا المخطوط ، فهل تعدينني بألا تذهبي لرؤية دوبروي ؟ » .

وفجأة ارتخى وجه بول : « هل سترينني اياه ؟ » .

– هل تعدينني ؟

وفكرت : « اعدك بألا اذهب اليه اليوم » .

فقال هنري : « هذا يكفيني » . وفتح الدرج ، وسحب منه الدفتر الضخم الأخضر الرمادي ، ورماه على السرير .

وقالت بول بصوت متردد :

– أأستطيع ان اقرأه ؟ أهذا صحيح ؟

كانت ثقتها كممثلة تراجيدية قد غادرتها ، وكانت سحنتها تدعو الى الاشفاق بالأحرى ، فجأة .

– تستطيعين .

فقالت :

– اواه ! انني مسرورة جداً . » وابتسمت في خجل: « هذا المساء ، سنتناقش فيها ، كما في الماضي » .

ولم يجب . كان ينظر إلى ذاك الدفتر الذي كانت بول تداعبه براحة يدها . انه ليس إلا ورقاً ، وحبراً ، وكان يبدو غير مؤذ كتلك المساحيق المغلق عليها بالمفتاح في صيدلية والده . والحقيقة انه كان اجبن من واضع سم .

وصاحت من فوق الدرابزون بينما كان يهرب عبر الاستديو :

– إلى اللقاء .

– إلى اللقاء .

وعلى الدرج كان يتابع الهروب ، كان يحاول عبثاً ان يقيم الفراغ في رأسه . هذا المساء ، عندما سيرى بول ثانيـــة ، ستكون قد قرأت . ستقرأ كل جملة ، ستعيد قراءة كل كلمة : انه اغتيال . وتوقف . وارتقى من جديد بضع درجات ويده مستندة إلى الافريز ، ببطء ، وارتمى الكلب الأسود الضخم عليه نابحاً . كان يكره هذه الكلب ، هذا الدرج ، حب بول المتعصب ، لحظات صمتها ، وانفجارها ، وشقائها . وعاود النزول اربع اربع حتى الشارع .

كان يوماً جميلاً من ايام شتاء قليل الضباب ، صميمي ، الجو فيه وردي ، ومن خلال فتحة النافذه المزججة ، كان هنري يلمح قطعة من السماء الحريرية . وأعاد نظرته نحو مستمعيه ، لكن كان من الصعب عليه اكثر ان يتحدث وهو يراهم . قبعات صغيرة ، مجوهرات ، فراء ، كان هناك على الأخص نساء ، من اللواتي لهن رفات جميل ويظنن انهن يعرفن كيف يصلحنه . ما الذي كان يهمهن من تاريخ الصحافة الفرنسية ؟ كان الجو خانقاً ، والهواء يعبق بالعطر . والتقت نظرة هنري بابتسامة ماري – آنج الرقيقة ، وأشار له فانسان بتكشيرة ضاحكة . وفي مكان ما ، بين مليونيرة ارجنتينية ونصيرة للفن حدباء ، كان لامبير جالساً ، وكان هنري يخشى ان يجد نفسه وجهاً إلى وجه معه : كان خجلاً . ومن جديد خفض عينيه وترك الكلمات تنسال من فمه .

– رائع !

كانت كلودي قد اعطت إشارة التصفيق ، وكانوا يصفقون بأيديهم ، ويطلقون العنـــان لأصواتهم ، ويسرعون نحو المنصة . وفتحت هوغيت فولانج باباً صغيراً خلف ظهر هنري : « تعال من هنا . ان كلودي ستصرف السيدات . ولم تحتفظ إلا بأصدقائك وبعض الحميمين » . وأضافت وهي تسحب هنري نحو المأدبة حيث كان جوليان ، بمفرده تجاه خادمين ، يفرغ كأس شمبانيا : « لا بد انـك ميت عطشاً » .

وقال جوليان بصوت صاخب :

– ستعذرني ، لم اسمع شيئاً . واذا كنت قد جئت ، فكي اسكر مجاناً.

فقال هنري :
ـ انت معذور تماماً. ان المحاضرات مسئمة ، سواء استمعت اليها ام ألقيتها.
فقال فانسان :
ـ عفواً ! انني لست سئماً البتة . بل لقد كانت محاضرة تثقيفية. » وضحك : « سأشرب على كل حال كأساً ، انا الآخر » .
فقال هنري :
ـ اشرب ! » ورسم على وجهه في حدة ابتسامة مؤنسة . كانت امرأة بيضاء الشعر ، على صدرها وسام جوقة الشرف ، تندفع نحوه :
ـ شكراً على مساعدتك ! كانت رائعة ! هل تعلم انك حققت ايراداً اضخم من ديهاميل ؟
فقال هنري :
ـ انا مسرور لذلك .
كان يبحث بعينيه عن لامبير . ماذا قالت له بول ؟ ابداً لم يطلع هنري لامبير على مجرى حياته الخاصة . بديهي انه كان يعرف اشياء صميمة عنـــه ، عن طريق نادين ، لكن هنري لم يكن يبالي بهذا ، فالقصة مع نادين لم تكن إلا ماء زلالاً . اما مع بول ، فقد كان الأمر مختلفاً . وابتسم للامبير :
ـ أيزعجك ان تعيدني على الدراجة عندما ينتهي هذا الكرنفال ؟
فقال لامبير في لهجة طبيعية تماماً :
ـ هذا سيسرني .
ـ شكراً ! سنستطيع أن نثرثر قليلًا .
وتوقف لأن كلودي كانت تدخل في أبهة إلى الصالون وتسرع نحوه . «ستكون لطيفاً جداً ، وستهدي بعض الكتب : ان هاته السيدات معجبات متحمسات » .
فقال :
ـ بسرور . » وأضاف بصوت خافت « لكنني لا استطيع البقـــاء ، انهم ينتظرونني في الجريدة » .

– يجب ان ترى آل بيلوم ، انهما قادمتان خصيصاً من اجلك : ستصلان بين دقيقة واخرى .

فقال هنري :

– بعد نصف ساعة سأذهب . » وتناول الكتاب الذي كانت تمده اليه شقراء طويلة : « ما الاسم ؟ » .

فقالت الشقراء في ابتسامة صغيرة مترفعة :

– ألا تعرفه ، لكنك ستعرفه : كوليت ماسون .

وشكرت بابتسامة غامضة ثانية ، وعلى كتاب آخر سجل اسماً آخر . يا لها من مهزلة ! كان يوقع ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويوقع . كان الصالون الصغير قد امتلأ ، ولقد كانوا كثيرين ، اصدقاء كلودي الحميمون . هم ايضاً كانوا يبتسمون ، ويصافحون يد هنري ، وعيونهم تلتمع بفضول يشبه الوقاحة ، ويقولون الكلمات التي قالوها في المرة الاخيرة لديهاميل ، والتي سيكررونها في المرة القادمة بلا تميز على مورياك او 'راغون . ومن حين الى حين ، كان قارىء متحمس يعتقد انه مرغم على اظهار اعجابه الشديد : فهذا قد أقلقه وصف ليلة أرق ، وذاك قد اقلقته جملة عن المقابر : كان الأمر يتعلق دوماً بمقطع تافه ، كتب في لامبالاة . وسألت غيت فانتادور هنري في تأنيب لماذا يختار كأبطال سادة كئيبين جداً : وكانت توزع ابتساماتها على كمية من الناس اكثر كآبة بما لا يقاس . وكان هنري يفكر : « ما اقسى الناس على شخصيات الرواية ! انهم لا يغفرون لهم ضعفاً . وكيف يقرأون جميعاً بشكل غريب ! افترض انهم بدلاً من السير في الدروب التي ترسم لهم ، فان معظمهم يجتازون الصفحات عمياناً . ومن حين لآخر ، ترن كلمة فيهم ، فتوقظ ذكرى او حنيناً . او انهم يظنون انهم يلمحون في صورة ما انعكاساً عن ذاتهم » . وفكر : « من الافضل ألا يرى الكاتب قرّاءه أمامه ابداً » .

واقترب من ماري – آنج التي كانت تحدجه بنظرة ساخرة :

– لماذا تسخرين ؟

– انني لا اسخر ، بل اراقب . » وقالت متهكمة : « انت على حق في ان

تعيش متخفياً . انت لست لامعاً » .

– ماذا يجب عمله لأصبح لامعاً ؟

– انظر الى صديقك فولانج وخذ دروساً .

فقال هنري :

– لست نجيباً .

لم يكن يسليه ان يبهرهم . وكان من العبث ايضاً ان يزعم انه يصدمهم . كان جوليان يصخب وهو يفرغ في تباهٍ كأساً اثر كأس ، وكانوا يضحكون في تغاضٍ حوله . كان يصيح : « لو كان لي انا اسم مماثل ، لتخلصت منه بسرعة . بلزونس ، بولينياك ، لاروشفوكو ، لقد تمرغت هذه الاسماء في جميع صفحات تاريخ فرنسا ، وهي مليئة بالغبار » . كان يستطيع ان يشتمهم ويلفظ اسوأ الألفاظ الجارحة ، مع ذلك كانوا سيسرون . فاذا لم يكرس الشاعر بالألقاب ، بالجوائز ، بالأوسمة ، فمن المستطاب ان يكون مهرجاً . وكان جوليان يعتقد انه يسيطر عليهم ، وكان المثقفون الادعياء الذين يتكأكأون على كلودى اكثر انحطاطاً أيضاً . لم يكن يسليهم ان يكتبوا . لم يكن يهمهم ان يفكروا ، وكان السأم كله الذي يتكبدونه ينعكس على وجوههم . كان همهم الوحيد الشخصية التي يختلقونها لأنفسهم ونجاحهم في مهنتهم ، وما كانوا يترددون على بعضهم البعض ، إلا ليتحاسدوا عن قرب اقرب . ذرية فظيعة ! وابتسم هنري في ود وهو يرى سكرياسين : كان متعصباً ، مقلقاً ، لا يحتمل ، لكنه كان حياً ، وعندما كان يستخدم الكلمات كان يستخدمها عن حماسة ، لا ليثمنها بالمال ، والتقريظ ، والتبجيل . ان الغرور كان في المحل الثاني عنده ، ولم يكن إلا جانباً سطحياً منه . وقال سكرياسين :

– آمل انك غير حاقد عليّ .

– يقيناً لا ، فقد كنت شارباً . كيف الحال ؟ ألا زلت تقيم هنا ؟

– نعم . لقد نزلت خصيصاً لأسلم عليك . كنت آمل ان يكون الناس الأنيقون قد انصرفوا . أأمام هؤلاء تكلمت وتريدني كلودي أن أتكلم ؟

فقال فولانج الذي كان قد اقترب في خطي مترنحة :

– انه ليس جمهوراً سيئاً . » ووزع ابتسامة صغيرة مترفعة على الجميع بالدور وتوقفت نظرته عند لامبير : « ان الناس الذين يملكون الكثير من المـــال ، يتصنعون التفاهة ، لكن لديهم ، في الواقع، اغلب الاحيان ، حسّ القيم الحقيقية. ان ترف كلودي مثلاً ذكي جداً » .

فقال سكرياسين :

– ان الترف يسقمني .

فانفجرت ماري – آنج ضاحكة ونظر اليها لويس في قسوة .

وقالت هوغيت في تغاض :

– تقصد الترف المقلد .

– المقلد ، الحقيقي : انني لا أحب الترف .

فقالت هوغيت :

– كيف يمكنك ألا تحب الترف ؟

فقال سكرياسين :

– لا أحب الناس الذين يحبون الترف . » وأضاف فجأة : « في فيينا ، كنا نعيش ثلاثة في كوخ حقير ولم يكن عندنا إلا معطف واحد . كنا ميتين جوعاً . ولقد كانت هذه اجمل ايام حياتي » .

فقال فولانج بصوت عابث :

– هذا ما يشهد على عقدة إثم غريبة .

فقال سكرياسين في جفاء :

– انني اعرف عقدي ، ليس لها أي دخل في هذا .

فقال فولانج وهو يستدير نحو هنري :

– بالتأكيد بلى ! انتما الاثنان طهرانيان ، كسائر الاشخاص اليساريين . ان الترف يصدمكما ، لأنكما لا تتحملان ان ضميركما غير مرتاح . انه لمخيف هـــذا التزمت . انتم ترفضون الترف : وبالتالي ترفضون الشعر والفن .

فلم يجب هنري . لم يكن يغلق اهمية على كلمات فولانج . ما كان يهمه هو ان يلاحظ كم تغير منذ لقائهما الأخير : لم يكن هناك اثر من تذلل في صوته ولا في ابتساماته . كان صلفه القديم كله قد عاد اليه .

وقال لامبير بصوت خجول :

– الترف ليس شيئاً واحداً .

فقال لويس :

– كلا . ولكن اذا لم يعد هناك انسان غير مرتاح الضمير ، اذا اختفى الشر من العالم ، فان الفن سيختفي ايضاً . ان الفن محاولة لتقويم الشر . ان التقدميين المنظمين يريدون ان يحذفوا الشر : انهم يحكمون على الفن بالموت . » وتنهد : « سيكون العالم الذي يعدوننا به اكثر كآبة » .

فهز هنري كتفيه : « انتم ايضاً ، اعداء التقدميين المنظمين ، مضجرون . احياناً تتنبأون اننا لن نتوصل ابداً الى حذف الظلم . وأحياناً تعلنون ان الحياة ستصبح تافهة مثل زربية . يمكننا ان نقلب حججكم عليكم ! » .

فقال لامبير وهو يسأل لويس بالنظر :

– انها لتبدو لي شيقة جداً فكرة ان الشر ضروري للفن هذه .

ووضعت كلودي يدها على ذراع هنري ، وقالت :

– هذه ذي لوسي بيلوم ، تلك السمراء الطويلة الأنيقة جداً . تعال لأقدمك اليها .

كانت تشير إلى امرأة طويلة يابسة العود ، مرتدية السواد . هل كانت انيقة ؟ ان هنري لم يفهم ابداً معنى هذه الكلمة : كانت هناك بالنسبة له ، نساء مرغوبات ونساء غير مرغوبات . وهذه لم تكن مرغوبة . وقالت كلودي :

– وهي ذي الآنسة جوزيت بيلوم .

كانت الصغيرة جميلة ، بلا نقاش . ولكن هذا الوجه الدنيوي لم يكن يصلح البتة لتمثيل شخصية « حنه » . فرو ، عطر ، كعب عالٍ ، اظافر حمر : لقد كانت تحت خمائل شعرها العنبرية دمية للزينة بين دمى اخرى .

وقالت لوسي بيلوم بصوت موضوعي :

ـ لقد قرأت مسرحيتك ، انها عظيمة . وانا واثقة انها يمكن ان تغل مالاً كثيراً ، ان لي بصيرتي في مثل هذه الأشياء . لقد حدثت عنها فيرون ، مدير الاستديو ٤٦ الذي هو صديق كبير لي . انه مهتم جداً .

فقال هنري :

ـ ألا يجدها فاضحة ؟

ـ ان الفضيحة يمكن ان تفيد المسرحية او تغرقها . هذا يتوقف على كثير من الأشياء . اعتقد انني استطيع ان اقنع فيرون بركوب المجازفة . » وساد صمت ، ثم تابعت ، بدون انتقال ، في شبه وقاحة : « فيرنون سيكون على استعداد لإتاحة الفرصة امام جوزيت . انها لم تمثل حتى الآن إلا ادواراً صغيرة ، وهي لم تتجاوز الواحدة والعشرين بعد . لكنها موهوبة وتحسّ الشخصية بطريقة مدهشة . أودّ لو تسمعها في المشهد الثنائي الكبير » .

فقال هنري :

ـ بسرور .

والتفتت لوسي نحو كلودي : « أليس لديك ركن هادىء يمكن للصغيرة ان تمثل فيه المشهد ؟ » .

فقالت جوزيت :

ـ اوه ! ليس الآن .

كانت تنظر الى امها والى هنري في ذعر . لم تكن لها رباطة الجأش المعتادة عند عارضات الأزياء المترفات . بل كان يبدو عليها انها متخوفة من جمالها بالذات . كانت حقاً جميلة بعينيها الكبيرتين الكئيبتين ، وفمها الأثقل مما ينبغي قليلاً ، وكان جلدها تحت شعرها الاصهب صافياً وحليبياً . وقالت لوسي :

ـ انها مسألة عشر دقائق .

فقالت جوزيت :

ـ لكني لا استطيع هكذا ، بدون استعداد .

فقال هنري :

— لا داعي للعجلة . اذا كان فيرنون يقبل المسرحية حقـــاً ، فسوف نأخذ موعداً .

فابتسمت لوسي ابتسامة صغيرة : « استطيـع ان اؤكد لك انـه سيقبل اذا اتفق ان تأخذ جوزيت الدور » .

واضطرم جلد الشقراء اللدن ، من العنق حتى جذور الشعر . وابتسم هنري في لطف لجوزيت :

— هل تريدين ان نحدد يوماً ؟ الثلاثاء ، حوالي الساعة الرابعة ، هل يناسبك ؟

فحنت رأسها ، وقالت لوسي :

— ليس عليك إلا أن تأتي لعندي . ستكون مرتاحاً جداً للعمل .

فسأل في لهجة اصطلاحية :

— هل يعجبك الدور ؟

— بالتأكيد .

فقال في مرح :

— اعترف انني لم اتصور حنه في مثل هذا الجمال .

وطافت ابتسامة مهذبة حول الفم المأساوي دون أن تنجح في التموضع عليه . كانت جوزيت قد تعلمت جميـع حركات الوجه الضرورية للنجاح ، لكنها كانت تسيء تنفيذها . كان ذاك الوجه الجميل ذو العينين اللتين لا نهاية لهما ينسف الاقنعة كافة . وقالت لوسي وهي تصلح فجأة من وضع تنورة جوزيت كاشفة عن ساقين طويلتين حريريتين حتى منتصفهما :

— ان الممثلة ليست ابداً اجمل مما ينبغي . عندما تظهر امرأتك الطيبـــة على المسرح نصف عارية ، فان ما يريد الجمهور ان يراه ، هو هذا .

— ماما !

ولمس صوت جوزيت المذعور قلب هنري . ألم تكن حقاً إلا دميـــة للزينة شبيهة بالأخريات تماماً ؟ وقال هنري في نفسه : « انها بالتأكيد ليست ذكـية .

لكن من الصعب التصديق ان هذا الوجه المؤثر لا يستطيع ان يعني شيئاً » .

وقالت لوسي بيلوم بصوت جاف :

ـ لا تمثلي دور الساذجة » . وأضافت : ألا تسجلين الموعد ؟ » .

وبوداعة فتحت جوزيت حقيبتها وأخرجت منها مفكرة . ولمح هنري منديلاً مطرزاً وعلبة مسحوق ذهبية صغيرة: كان داخل حقيبة نسوية يبدو له مليئاً بالسر، فيا مضى . واحتفظ في يده لحظة بالأصابع الطويلة المنحوتة من معجون السكر بماء الشعير :

ـ إلى الثلاثاء .

ـ إلى الثلاثاء .

وقالت كلودي في ابتسامة صغيرة خبيثة عندما ابتعدت المرأتان :

ـ أتعجبك ؟ اذا كان قلبك يغريك ، تستطيع ان تمضي : انها ليست مدققة جداً ، الصبية المسكينة .

ـ لماذا مسكينة ؟

ـ ان لوسي ليست دمثة المعشر . انت تعرف ، ان النساء اللواتي سال لعابهن للحياة مدى طويلة جداً قبل ان ينجحن ، لسن دمثات .

كان هنري ، في مثل هذا الوقت ، على استعداد ليستمع في التهـــاء إلى ثرثرة كلودي . لكن كان هناك فولانج ولامبير اللذان كانا يتحادثان في حماسة . كان فولانج يسهب في الوعظ ، في حركات متطرفة ، وكان لامبير يهز رأسه مبتسماً . وكان يود لو يتدخل . وشعر بالاطمئنان عندمـا رأى فانسان يبتعد عن المأدبة . وصاح بصوت صاخب :

ـ أريد ان اطرح عليك سؤالاً، سؤالاً واحداً : ماذا يفعل شخص مثلك هنا؟

فقال لويس في هدوء :

ـ كما ترى ، إنني أتحادث مع لامبير . اما انت ، فتسكر ، وليس هـــذا اقل وضوحاً .

فقال فانسان :

– لعلهم لم يخطروك : هذه جلسة لمنفعة اطفال المنفيين . ان مكانك ليس هنا.
فقال لويس :
– من يعرف مكانــــه المضبوط في هذا العالم ؟ إذا كنت تظن انك تعرف مكانك ، فهناك بلا شك نعمة خاصة للسكارى .
فقال لامبير بصوت لاسع :
– اواه ! هذا لأن فانسان شخصية ! انه يعرف كل شيء ، ويحكم على جميـع الناس ، ولا يخطيء ابداً ، ولست بحاجة لتدفع له كي يعطيك دروساً .
لم يكن فانسان شاحباً البتة كما كان في هذه اللحظة . لكأن الدم كان سينهال من عينيه . وتمتم :
– انني اعلم كيف أتعرّف نذلاً ...
فقال لويس :
– اعتقد ان هذا الشاب بحاجة إلى عناية طبية . ان غلاماً في هذا العمر ، تفوح منه رائحة الكحول ، لمشهد منحط .
فاقترب هنري في سرعة : « انت الذي يبرر الشر ، بحماسة ، ها قـــد انقلبت طهرانياً فجأة ! ان فانسان يعطي للشيطان نصيبه على طريقته . لماذا لا يحق لنا ان نسكر ؟ » .
وتمتم فانسان في ابتسامة دامية :
– نذل ، وابن نذل ، لا بد ان يتفقا معاً .
فقال لامبير :
– ماذا قلت ؟ كرّر !
فأكد فانسان صوته : « اقول انه لا بـد ان تكون نذلاً جميلاً لتتصالح مع الشخص الذي وشى بروزا . هل تذكر روزا ؟ » .
فقال لامبير :
– انزل إلى الباحة معي ، سوف نتفاهم .
– لا حاجة للنزول .

وأمسك هنري فانسان ، بينما كان لويس يضع يده على كتف لامبير قائلاً :
ـ دعك منه .
ـ أريد ان أحطم فكه .
فقال هنري :
ـ في يوم آخر . لقد وعدتني ان تعيدني على الدراجة وانا مستعجل . » وقال في ود لفانسان الذي كان يدمدم بألفاظ غير مفهومة : « وانت ، دعنا في سلام » .
وترك لامبير هنري يسحبه ، ولكنه قال بينما كانا يجتازان البـــاحة في لهجة كئيبة : « كان يجب ألا تمنعني ، كنت سألقنه درساً قذراً . إنني أعرف كيف اضرب ، اتعرف » .
ـ لا اقول لا ، لكن ضربات القبضات شيء سخيف .
فقال لامبير :
ـ كان يجب ان أضربه فوراً بدلاً من الكلام . إنني لا أحسن الرد . عندما يكون من الواجب ان أضرب ، اتكلم .
فقال هنري :
ـ لقد شرب فانسان ، وانت تعرف جيداً انه مخلوع قليلاً . لا تهتم إذن بما يرويه .
فقال لامبير في غضب :
ـ هذا سهل أكثر مما ينبغي ! لو كان مجنوناً كما تقول لما كنت صديقاً له إلى هذا الحد . » وامتطى دراجته : « إلى اين انت ذاهب ؟ » .
فقال هنري :
ـ إلى بيتي . سأمر على الجريدة في ساعة متأخرة قليلاً .
كان قد تمثّل بول فجأة . كانت جالسة وسط الاستديو ، ساكنة ، شاخصة النظر : لقد قرأت . مشهد القطيعة ، لقد قرأته ، جملة جملة ، كلمة كلمة . انهـــا تعرف الآن كل ما يعتقده هنري عنها . كانت بحاجـــة لأن يراها ثانية ، فوراً . وكان لامبير ينقض بحذاء الأرصفة في شراسة . وعندمـا توقف امام النور الأحمر

الأخير ، سأل هنري :

– أنشرب كأساً ؟

كان يجب ان يرى بول فوراً، لكن عندما فكر بأنه سيجد نفسه ثانية تجاهها، لم يطاوعه قلبه . وقال لامبير في لهجة متجهمة :

– إذا اردت .

ودخلا إلى المقهى – التبغ عند زاوية الرصيف ، وطلبا نبيذاً ابيض على البار . وقال هنري في لطف :

– لن تغضب مني على كل حال لأنني منعتك من القتال مع فانسان ؟

فقال لامبير في حنق :

– إنني لا أفهم كيف تستطيع ان تتحمل هذا الشخص . سكراته ، قمصانه القذرة ، قصصه الماخورية ، ومع كل هذا تباهيه بفدائيته ، ان هذا كله يقرفني . لقد قتل أشخاصاً أثناء المقاومة ، لقد حدث هذا لكثيرين غيره ، فليس هذا سبباً ليتنزه في الحياة كما تقوده نزواته . ونادين التي تدعوه ملاكاً، بحجة انه نصف عنين !» وكرر لامبير : « كلا ، إنني لا افهم . إذا كان مخبولاً ، فليصدم بضع صدمات كهربائية طيبة ، وليكفَّ عن صدع رأسنا » .

فقال هنري :

– انت ظالم جداً !

– أعتقد بالأحرى انك انت المتحيّز !

فقال هنري في شيء من الجفاء :

– إنني أحبه كثيراً . » وأضاف : « ليس عن فانسان كنت أريد ان احدثك . لقد قالت لي بول شيئاً غريباً : إنها دعتك امس لتطرح عليك أسئلة عن دوبروي . ولقد وجدت هذا في غير محله تماماً . لا بد ان الموقف كان محرجاً لك بالأحرى » .

فقال لامبير في حميا :

– كلا . لم أفهم جيداً ما كانت تريده مني على الضبط ، لكنها كانت لطيفة

للغـــاية .

وتفرس هنري في وجه لامبير . كان يبدو صادقاً حقاً . لعل بول قد تحفظت امامه : « انها ، حالياً ، تكره دوبروي، انها امرأة متطرفة للغاية ، ولعلـــك تبينت ذلك » .

فقال لامبير :

— نعم ، لكن لما كنت انا الآخر لا أحب دوبروي ، فإن ذلك لم يحرجني .

— إذن هذا افضل ! كنت اخشى من ان هذه المقابلة كانت مزعجة .

— مطلقاً .

فكرر هنري :

— هذا افضل ! إلى اللقاء . شكراً على اعادتك إياي .

وسار هنري في خطى بطيئة في الزقاق . لم يكن هناك أي تأجيل ممكن : بعد دقيقتين ، سيواجه بول ، وسيحس بنظرتها على وجهه، ولا بد ان يجد كلمات . « سأنكر . سأقول لها ان ايفيت لا علاقة لها بها ، وانني استعرت منهـــا كلمات، وحركات ، لكني شوهت كل شيء » . وبـدأ يرتقي الدرج ، وفكـر : « لن تصدقني مطلقاً ! » . لعلها لن تترك له سبيلاً حتى للكلام . لعل ... وحث خطاه . كان حلقه قد ضاق وارتقى الدرجات الأخيرة راكضاً . لا صوت ، لا نباح ، لا رنة جرس . لا موسيقى من الراديو . وقـــال في نفسه : « صمت موت » . وفكر في هلع : « لقد انتحرت ! » . وتوقف امام الباب . كان يسمع همس أصوات .

— ادخل .

كانت بول تبتسم ، كانت حية . ونهضت البوابة الجالسة على حافة الأريكة : « ها قد أضعت وقتك بقصصي » .

فقالت بول :

— مطلقاً . لقد أثرت اهتمامي كثيراً .

فقالت البوابة :

ـ كوني مطمئنة ، غداً سأكلم المالك عنه .

وقالت بول في مرح بينما كانت البوابة تغلق الباب :

ـ السقف على وشك الانهيار . » وأضافت : « انها لطيفة ، هذه المرأة . لقد روت لي قصصاً مدهشة عن متشردي الحي ، قصصاً تستحق ان يكتب عنها كتاب » .

فقال هنري :

ـ أتصور .

كان ينظر إلى بول في مزيج من الخيبة والاطمئنان . لقد ثرثرت طوال بعد الظهر مع البوابة ، ولم يتح لها الوقت لقراءة المخطوط . عليه ان يعاود كل شيء من جديد : وكان يعلم جيداً انه لن يملك الشجاعة لذلك .

وقال بصوت حيادي :

ـ هل منعتك من قراءة روايتي ؟ » وأرغم نفسه على الابتسام : « كان هذا يستحق الجهد ! »

فنظرت اليه بول في استنكار : « لكني قرأتها بالتأكيد ! » .

ـ آه ! ما رأيك فيها ؟

فقالت في بساطة :

ـ انها مُحكمة .

وتناول الدفتر ، وتصفّحه في لامبالاة ظاهرية .

ـ كيف تجدين شخصية شارفال ؟ أيبدو لك لطيفاً ؟

فقالت بول :

ـ ليس تماماً . لكنه يتمتع بعظمة حقيقية . افترض ان هذا ما أردته ؟

فأشار هنري برأسه أن نعم : « أأحببت مشهد ١٤ تموز ؟ » .

وفكرت بول :

ـ ليس هو المقطع الذي أفضله .

وفتح الدفتر على الصفحة المشؤومة : « والقطيعة مع ايفيت، ما رأيك فيها ؟ » .

ـ انها مؤثرة .
ـ أترين ذلك ؟
فنظرت اليه في شيء من الشك : « لمـــاذا يدهشك هذا ؟ » . وضحكت ضحكة صغيرة : « أكنت تفكر بنا عندما كتبت ذلك ؟ » .
فرمى الدفتر على الطاولة : « انت حمقاء » .
فقالت بول بصوت حازم : « ستكون اجمل كتبك » . ومرّرت في حنان يدها بين شعر هنري : « انني لا افهم حقاً لماذا كنت كتوماً ، إلى ذلك الحد » .
فقال :
ـ لم اعد اعرف انا نفسي .

أحس هنري أنه شبه خائف من كثافة الصمت . سجاد ، ستائر ، بسط تغطي الغرفة الكبيرة الغنية . لم يكن يسمع ، من خلال الأبواب المغلقة ، اي صوت حي : إلى حد ان هنري تساءل عما اذا كان لن يقلب قطع الأثاث لإيقـــاظ شخص ما .
ـ أجعلتك تنتظر ؟
فقال في أدب :
قليلاً جداً .
ولبثت جوزيت منتصبة امامه ، وابتسامة خائفة على شفتيها . كانت ترتدي ثوباً عنبري اللون ، هشاً ، فاضحاً للغاية . كانت كلودي قد قالت : « انهـا ليست مدققة » . هذه الابتسامة ، هذا الصمت ، الأرائك المكسوة بالفرو ، كانت تدعو في وضوح إلى جميع الجسارات . في وضوح كثير . ولو استفاد هنري من هذه التواطؤات ، لشعر انه يرتكب تحت نظر قوادة مقهقهة اغتصاب فتاة قاصر . وقال في شيء من الجفاء : « اذا شئت ، فسنبدأ فوراً في العمل . انني مستعجل قليلاً . هل لديك نص ؟ » .

فقالت جوزيت :

— اعرف المونولوج عن ظهر قلب .

— هيا إذن .

ووضع نسخته على طاولة وتوسد مقعداً عريضاً . كان هذا المونولوج اصعب ما في المسرحية ، ولم تكن جوزيت تفهم منه شيئاً . وكانت خائفة . وكان هنري حرجاً من رؤيتها تستنفد نفسها بلا تبصر مع الأمل المجنون بأن تعجبه . يقيناً ، انه كان يبدو كغني مهووس يشهد في ماخور رفيع المستوى عرضاً خاصاً . وقال :

— لنجرب المشهد الثالث من الفصل الثاني . سأجاوبك أنا .

فقالت جوزيت :

— من الصعب عليّ التمثيل وانا اقرأ .

— لنجرب .

كان مشهد حب ، وكانت تؤديه بشكل افضل قليلاً . كان إلقاؤها جيداً . وكان وجهها وصوتها مؤثرين حقاً : من يدري ماذا يستطيع مخرج ماهر ان يستخلصه منها ؟ وقال هنري في مرح :

— انت لا تتقنين الدور مطلقاً . لكن هناك أمل .

— أتعتقد ؟

— أنا واثق . اجلسي هنا . لأشرح لك الشخصية قليلاً .

وجلست الى جانبه . منذ زمن بعيد لم يجد نفسه جالساً الى جانب فتاة في مثل هذا الجمال . وبينما كان يتكلم ، كان يتنشق شعرها . كان عطرها يعبق بالعطور ، كسائر العطور . ولكنه كان يبدو عندها رائحة شبه طبيعية . وكان هذا يجعل هنري يشتهي بقوة لو يتنشق تلك الرائحة الأخرى ، الرطبة والعذبة التي كان يحزرها تحت الثوب . أن ينقب في هذا الشعر ، ان يدس لسانه في هذا الفم الأحمر : كان هذا سهلاً ، بل كان اسهل مما ينبغي . كان يشعر ان جوزيت تنتظر لذتها الطيبة في استسلام منبط الهمة حقاً . وسأل :

— أفهمت ؟

– نعم .
– إذن ، هيا : لنعاود .
وأعادا المشهد ، كانت تحاول ان تضع عاطفة في كل جواب وكان ذلك أسوأ بكثير من المرة الأولى . وقال :
– انت تبالغين كثيراً . كوني أكثر بساطة .
– فقالت بصوت حزين :
– آه ! لن أنجح ابداً !
– بالاجتهاد ستنجحين .
واطلقت جوزيت تنهدة طويلة . يا للصبية المسكينة ! بالإضافة إلى هـــذا ، ستلومها أمها على انهـــا لم تعرف كيف تغريه . ونهض هنري . كان نادماً على وساوس ضميره : كم كان هذا الفم مشتهى ! ان ينام مع امرأة مشتهاة حقاً ، كان يذكر اي فرح يمكن ان يكونه هذا . وقال :
– سنأخذ موعداً آخر .
– انني أضيع وقتك !
فقال هنري :
– بالنسبة لي ، ليس هذا وقتاً ضائعاً . وابتسم : « إذا كنت لا تخشين ان تضيعي وقتك ، فربما استطعنا في المرة القادمة بعد العمل ان نخرج معاً ؟ » .
– سنستطيـع .
– اتحبين الرقص .
– بالطبـع .
– حسناً ! سآخذك للرقص .

وفي يوم السبت التالي وجد هنري جوزيت ثانية في بيتها ، شارع غابريل ، في صالون اثاثه مبطن بالوردي والأبيض . واصابته صدمة صغيرة عندما رآها ثانية . ان الجمال الحقيقي ، ما إن تغادره عيناك ، حتى تخونه : كان جلد جوزيت اكثر شحوباً ، وشعرها اكثر قتامة ممـــا كان يذكر ، وكان في عينيها تبر بارق ،

وكأنها قاع نهر . وبينا كان هنري يعطيها الأجوبة في غفلة ، كان يجيل بصره في الجسد الفتي المتشح بالمخمل الأسود ، وكان يقول في نفسه ان هذا الجسد وهـذا الصوت يكفيان للتغاضي عن كثير من عدم المهارة . على كل حال ، اذا ما توفر لجوزيت توجيه طيب ، فلا داعي هناك لأن يشك بأنها ستكون اخرق من غيرها. بل كانت تجد ، بين الحين والحين ، نبرات مؤثرة . كان قد قرر ان يجازف . وقال في حرارة :

ــ سيسير الأمر . يقيناً ، لا بد ان تشتغلي بإجهاد ، لكن الأمر سيسير .

فقالت :

ــ اود كثيراً !

فقال هنري :

ــ والآن ، لنذهب للرقص . كنت أفكر بأنه يمكننا ان ننزل إلى سان جرمان دي بري . ما رأيك ؟

ــ كما تشاء .

وذهبا للجلوس في كهف في شارع سان ــ بونوا ، تحت لوحة امرأة ملتحية . كانت جوزيت ترتدي ثوباً للمفاجآت : فقد خلعت البوليرو وكشفت عن كتفين مستديرتين ناضجتين تتناقضان مع وجهها الطفولي . وقال هنري في نفسه في مرح : « هذا ما كان ينقصني كي يلهيني هذا حقاً : غانية جميلة الى جانبي » .

ــ هل نرقص ؟

ــ لنرقص .

كان يتملكه بعض الدوار اذ كان يمسك بين ذراعيه بهذا الجسد الدافىء الهش . كم كان يحب هذا النوع من الدوار ! وهو لا يزال يحبه . واخذ يحب من جديد الجاز ، والدخان ، والأصوات الشابة ، ومرح الآخرين . كان على استعداد لأن يحب هذين النهدين ، هذا البطن . كل ما هنالك انه كان يود ، قبل ان يقوم بأدرة ، ان يشعر ان جوزيت تحس بنوع من المودة نحوه على كل حال .

ــ أيعجبك هذا المكان ؟

ـ نعم . » وترددت : « إنه خاص ، أليس كذلك ؟ » .
ـ افترض أن نعم . اي نوع من الأمكنة تفضلين ؟
فقالت في حميا :
ـ اواه ! هنا جميل جداً .

كان ما ان يحاول ان يجعلها تتكلم ، حتى تذعر . لا بد ان أمها قد علمتها بعناية ان تصمت . وصمتا حتى الساعة الثانية صباحاً وهما يشربان الشمبانيا ويرقصان . لم تكن جوزيت تبدو لا مرحة ولا كئيبة . وفي الساعة الثانية ، طلبت ان تعود دون ان يستطيع ان يعرف ما إذا كانت طلبت ذلك سأماً ، او تعباً ، او حذراً . ورافقها إلى بيتها . وفي السيارة، سألت في تهذيب مدروس: « احب حقاً لو اقرأ كتاباً لك ؟ » .
ـ هذا سهل . » وابتسم لها : « أتحبين القراءة ؟ » .
ـ عندما يتاح لي الوقت .
ـ لكن الوقت لا يتاح لك كثيراً ؟
فتنهدت :
ـ كلا حتماً .

هل كانت بلهاء تماماً ؟ أو معتوهة قليلاً ؟ او مشلولة خجلاً ؟ كان من الصعب تقرير ذلك . كانت جميلة جداً الى حد انه كان لا بد ان تكون غبية كما هي العادة . لكن جمالها في الوقت نفسه كان يجعلها تبدو غامضة .

وقررت لوسي بيلوم ان يوقع العقد في بيتها بعد عشاء ودي . وتلفن هنري لجوزيت لتحتفل معه بهذا النبأ الطيب . وبصوت دنيوي ، شكرته على كتابه ، الذي ارسله اليها مع اهداء لطيف ، واعطته موعداً في بار صغير في مونمارتر في المساء نفسه . وسأل وهو يحتفظ لحظة بيد جوزيت :
ـ اذن ، أأنت مسرورة ؟
فقالت جوزيت :
ـ ممَّ ؟

كانت تبدو اكبر سناً مما هي عليه عادة ، وغير مسرورة قط .

– العقد . سنوقعه ، لقد تقرر ذلك . ألا يسرك هذا ؟

وحملت الى شفتيها كأساً من مياه فيشي ، وقالت بصوت خافت :

– هذا يخيفني .

– فيرنون ليس مجنوناً ، ولا أنا . لا تخافي : ستحسنين اداء الدور .

– لكن ليس هكذا مطلقاً كنت ترى الشخصية ؟

– لم اعد استطيع ان اراها بشكل آخر .

– أهذا صحيح ؟

– صحيح .

كان هذا صحيحاً . ستؤدي الدور كما تستطيع . لكنه لم يكن يريد ان يتصور انه يمكن ان يكون لـ « حنـّة » عينان أخريان ، صوت آخر .

وقالت جوزيت :

– انت لطيف جداً !

كانت تنظر اليه في عرفان بالجميل حقيقي . لكن أن تقدم نفسها عرفاناً بالجميل ، او عن خطة ، فليس في هذا فرق ، وليس هذا ما كان هنري يريده . ولم يتحرك . وتحدثا : من خلال لحظات الصمت العذبة الواهنة ، عن المخرجين الممكنين ، وعن التوزيع وعن الديكور الذي يتمناه هنري . وظلت جوزيت على قلقها . ورافقها حتى بابها . واحتفظت بيده ، وقالت بصوت مخنوق :

– اذن ، الى الاثنين .

فقال :

– أما عدت خائفة ؟ ستنامين في تعقل ؟

فقالت :

– بلى ، اني خائفة .

فابتسم : « أتقدمين لي كأس وسكي اخيرة ؟ » .

فنظرت اليه في غبطة : « ما كنت لأجرؤ ! » .

وارتقت الدرج بسرعة ، ورمت معطف الفرو ، كاشفة عن صدرها المبطن بحرير أسود . وناولت هنري كأساً كبيرة كان الثلج يرن فيها في مرح . وقال :

ـ نخب نجاحك !

فلمست بسرعة خشب الطاولة : « لا تقل لي هذا ! يا إلهي ! سيكون شيئاً فظيعاً جداً اذا كنت رديئة ! »

فكرر : « ستحسنين اداء الدور » .

فهزت كتفيها : « انني افشل في كل شيء ! » .

فابتسم : هذا يدهشني » .

ـ هكذا الأمر . » وترددت : « يجب الا اقول لك ذلك : انت الذي لن تعود لك ثقة . لقد ذهبت لرؤية بصارة بعد ظهر اليوم . لقد اعلنت لي انني أسير نحو خيبة خطيرة » .

فقال هنري في حزم :

ـ ان البصارات يبالغن دوماً . ألم توصي على ثوب جديد من قبيل الصدفة ؟

ـ نعم ، ليوم الاثنين .

ـ حسناً ! لن ينجح . هي ذي خيبتك .

فقالت جوزيت :

ـ اواه ! لكن هذا سيكون مؤسفاً . ماذا سألبس لذاك العشاء ؟

فقال ضاحكاً :

ـ ان الخيبة لا بد ان تكون مخيبة . » وأضاف : « هيا ، ستكونين أجمل النساء على كل حال يوم الاثنين ، كما انت دوماً . وهـذا اقل خطورة من اساءة التمثيل ، كلا ؟ » .

فقالت جوزيت :

ـ لك طريقة لطيفة جداً في تسوية الأمور ! من المؤسف ألا تستطيع ان تسرق من الرحمن مكانه .

كانت قريبة منه كل القرب . هل كان عرفان الجميل هو الذي ينفخ عينيها

فحسب ، ويحجب عينيها ؟ وقال وهو يأخذها بين ذراعيه :

– لكني لن أتخلى له عن مكاني !

عندما فتح هنري عينيه ، لمح في العتمة جداراً مبطناً بلون أخضر شاحب ، ووثب مرح هذا اليوم التالي إلى قلبه . كانت تطلب لذات عنيفة ومفرطة : الماء البارد ، وقفاز الليف ، وتسلل خارج السرير دون ان يوقظ جوزيت وعندما خرج من غرفة الحمام ، وقد اغتسل ، ولبس ، وجاع ، كانت لا تزال نائمة . وعبر الغرفة على أصابع قدميه ومال عليها . كانت ترقد ملتحفة بعرقها ، برائحتها ، بشعرها الساطع الذي كان ينساب على عينيها ، وشعر شعوراً مدهشاً بأنه سعيد لأن هذه المرأة له ، ولأنه رجل . وفتحت عيناً ، عيناً واحدة كأنها حاولت ان تحتفظ في الأخرى بالنوم .

– أنهضت من الآن ؟

– نعم . سأذهب لشرب قهوة في المقهى المجاور وأعود .

فقالت :

– كلا ! كلا ! سأصنع لك شاياً .

كانت تفرك عينيها الخدرتين ، وتخرج من تحت اغطيتها ، دافئة الدفء كله في قميصها الراغي . واخذها بين ذراعيه :

– تبدين كمعبود صغير .

– معبودة .

– معبود صغير .

ومدت اليه فمها مسحورة . اميرة فارسية ، هندية صغيرة ، ثعلب ، لبلاب إرجواني ، عنقود جميل من الحلوة ، انهن يفرحن دوماً عندما يقال لهن انهن يشبهن شيئاً ما : شيئاً آخر . وكرر وهو يقبلها في خفة : « معبودي الصغير » . وضمت قميص البيت ، ونعليها ، وتبعها الى المطبخ . كانت السماء تلمع ، والزجاج الأبيض يقدح شرراً ، وجوزيت تنهمك في حركات مترددة .

– لبناً ام ليموناً ؟

ـ قليلاً من اللبن .

كانت قد وضعت صينية الشاي في مخدع النوم الذي بلون الجلد ، وكانت تنظر في فضول الى الطاولات الصغيرة ، والى المقاعد العريضة ذات الجناحين. لماذا كانت جوزيت التي ترتدي ثيابها في أناقة ، والتي كان صوتها وحركاتها متناسقة للغاية تسكن بين هذا الديكور السينمائي الرديء ؟

ـ أأنت التي أثثت هذه الشقة ؟

ـ ماما وانا .

ونظرت اليه في قلق فقال بسرعة :

ـ انها جميلة جداً .

متى كفت عن السكن لدى امها ؟ لماذا ؟ لمن ؟ كان يود ان يطرح عليها كمية من الأسئلة ، فجأة . كانت وراءها حياة كاملة ، عاشت كل يوم فيها ، كل ساعة ، على حدة : كل ليلة . وكان يجهل كل شيء. ولم يكن هذا الوقت المناسب ليعرضها الى استجواب ، لكنه كان لا يشعر بالراحة بين هذه التحف كلها التي أسيء اختيارها ، بين هذه الذكريات اللامرئية .

ـ ألا تعرفين ماذا يجب ان نفعل ؟ ان نذهب للتنزه معاً : انه صباح جميل جداً .

ـ ان نتنزه ؟ اين ؟

ـ في الشوارع .

ـ تعني ، على الأقدام ؟

ـ كانت تبدو عليها الخيبة : « اذن ، يجب ان ألبس ؟ » .

فضحك : « سيكون هذا افضل . لكنك لست بحاجة لأن تتنكري في ثياب سيدة » .

ـ ماذا ألبس ؟

كيف يلبس الانسان ليتنزه على قدميه في الشوارع في الساعة التاسعة صباحاً ؟ كانت تفتح خزائنها ، وادراجها ، وكانت تجس مناديل وقمصاناً . وضمت جورباً

حريرياً طويلاً وشعر هنري ثانية في باطن يده بذكرى ذلك الحرير المنتفخ باللحم والذي كان يحترق .

— أمناسب هكذا ؟

— انت رائعة .

كانت ترتدي سترة قصيرة قاتمة اللون ، ومنديلاً اخضر ، وكانت قد رفعت شعرها : كانت رائعة .

— ألا تجد ان هذه السترة تسمنني ؟

— كلا .

كانت تنظر الى نفسها في المرآة في سيماء من هم : مـاذا كانت ترى ؟ ان تكون امرأة ، ان تكون جميـلة ، كيف تشعر بهذا في داخلهـا ؟ كيف تشعر بداعبة الحرير تلـك على طول ساقيها ، وبداعبة الساتان المصقول على دفء بطنها ؟ وتساءل : « كيف تتذكر ليلتنا ؟ هل قالت أسماء اخرى بذلك الصوت الليلي ؟ أي اسماء ! بيير ، فيكتور ، جاك ؟ وماذا يعني بالنسبة لها اسم هنري؟» . وأشار إلى روايته الموضوعة في جلاء على طاولة صغيرة :

— أقرأتها ؟

— لقد نظرت اليها . » وترددت : « هذا سخيف ، إنني لا اعرف القراءة » .

— أتضجرك ؟

— كلا . لكني اجد نفسي فوراً احلم بشيء آخر . إنني انطلق من كلمة .

— واين تـذهبين ؟ اقصد : بمَ تحلمين ؟

— اواه ! هذا مبهم . عندما نحلم ، يكون حلمنا مبهماً .

— أتفكرين بأمكنة ، بأناس ؟

— بلا شيء : انني احلم .

واخذها بين ذراعيه وسأل مبتسماً :

— هل كنت عاشقة غالباً ؟

— انا ؟ » وهزت كتفيها : « لمن ؟ » .

– لكثير من الأشخاص الذين احبوك : انت جميلة جداً .

فقالت وهي تشيح برأسها :

– انه لاذلال ان تكون المرأة جميلة .

وأرخى عناقه . لم يكن يعرف لماذا توحي اليه بهذه الشفقة كلها . كانت تعيش في ترف، ولا تعمل ، وكانت لها يدا آنسة: وأمامها ، كان يذوب إشفاقاً.

وقالت جوزيت وهي ترفع نحو السماء وجهاً مخضباً بالمساحيق :

– ظريف ان أكون في الشوارع في مثل هذه الساعة المبكرة .

فقال وهو يشد على ذراعها :

– ظريف ان اكون هنا ، معك .

كان يتنشق في فرح هواء الفضاء . كل شيء كان يبدو جديداً ، هذا الصباح . كان الربيع جديداً ، كان لا يكاد يرتسم ، لكن الانسان كان يتذوق من الآن في الهواء مشاركة دافئة . وكانت ساحة « آبيس » تعبق برائحة الملفوف والسمك، وكانت نساء في قمصان البيت يتفحصن بنظرة متشككة السلَطات الأولى. وكانت لشعورهن اللزجة بالنعاس ألوان غير مطبوعة لا توجد لا في الطبيعة ولا في الفن . وقال وهو يشير إلى عجوز رافلة في المساحيق والمجوهرات وواضعة على رأسها قبعة كبيرة قذرة :

– إنظري الى هذه الجنية العجوز .

فقالت جوزيت :

– اواه ! انني اعرفها . » لم تكن تبتسم : « ربما سأصبح مثلها ذات يوم » .

– هذا سيدهشني . ونزلا بضع درجات في صمت . كانت جوزيت تترنح على كعبيها العاليين جداً . وسأل : « ما عمرك ؟ » .

– إحدى وعشرون .

– اعني : على حق ؟

وترددت : « ست وعشرون » وأضافت في خوف : « لكن لا تقل لماماً إنني قلت لك » .

فقال :

– لقد نسيت من الآن . انت تبدين صغيرة جداً !

فتنهدت : « لأنني أراقب نفسي . هذا متعب » .

فقال في حنان :

– لا تتعبي نفسك إذن ! » وشد على ذراعها أكثر: « أمنذ زمن طويل ترغبين في التمثيل ? » .

فقالت من بين اسنانها :

– لم أرغب ابداً في ان أكون عارضة ازياء . ولا أحب السادة الشيوخ .

كان من البديهي ان أمها هي التي اختارت لها عشاقها . ربما كان صحيحاً انها لم تحب ابداً . ست وعشرون سنة ، وهاتان العينان ، وهذا الفم ، وتجهل الحب : انها تستحق ان يرثى لها ! وتساءل : « وانا ، من اكون بالنسبة لها ? ماذا سأكون ? » . لقد كانت لذتها على كل حال صادقة هذه الليلة ، وكان صادقاً ذلك النور المطمئن في عينيها. كانا يقتربان من شارع « كليشي » حيث كانت تتناوم أكواخ معرض وكان طفلان يدوران حول نفسيهما في ميدان صغير . وكانت الجبال الروسية [1] ترقد تحت خيمة .

– هل تعرفين اللعب بالبليارد الياباني ?

– كلا .

ووقفت في وداعة إلى جانبه امام إحدى البلاتوهات المثقوبة وسأل : « ألا تحبين المعارض ? » .

– لم اذهب ابداً إلى المعرض .

– ألم تصعدي ابداً على جبال روسية ! او في قطار وهمي ?

– كلا . عندما كنت صغيرة ، كنا فقراء . ثم وضعتني ماما في مدرسة داخلية . وعندما خرجت منها ، كنت شخصاً كبيراً .

– كم كان عمرك ?

---

١ ـ الجبال الروسية : سلسلة من الصواعد والنوازل للتزحلق في المعارض . «المترجم»

– ست عشرة .

كانت تطلق في اجتهاد كرات الخشب نحو البيوت المستديرة: «هذا صعب».

– كلا ، إنظري : كدت تربحين . » واخــذ ذراعها ثانية : « سنركب على الأحصنة الخشبية في مساء يوم من الأيام » .

فقالت غير مصدقة :

– انت ، أتركب على احصنة خشبية ؟

– ليس عندما اكون بمفردي بالطبع .

ومن جديد راحت تتعثر على المرتفع العمودي الانحدار .

– أأنت متعبة ؟

– حذائي يوجعني .

فقال هنري وهو يدفع باب مقهى من دون تعيين :

– لندخل إلى هنا » . كان عبارة عن مقهى صغير فيه طاولات مغطاة بقماش مشمع : « ماذا تشربين ؟ » .

– زجاجة فيشي .

– لماذا فيشي دوماً ؟

فشرحت في حزن :

– بسبب الكبد .

وطلب هنري :

– زجاجة فيشي ، وكأس نبيذ احمر . » واشار إلى لافتة معلقة على الجدار : « انظري ! » .

وقرأت جوزيت بصوتها البطيء العميق : « حاربوا ادمان الكحول بشرب النبيذ » . واخذت تضحك في سلامة طوية :

– هذا ظريف ! انت تعرف أمكنة ظريفة .

– لم آتِ إلى هنا ابداً . لكن اتعرفين، ان الانسان ليكتشف اشياء كثيرة، عندما يتنزه . ألا تتنزهين ابداً ؟

ـ ليس لدي وقت .

ـ ماذا تفعلين اذن ؟

ـ هناك دوماً عمل كثير . دروس الالقاء ، السباقات ، الحلاق : انت لا تتصور كم يأخذ وقتاً ، الحلاق . ثم حفلات الشاي ، والكوكتيل .

ـ أيسليك هذا كله ؟

ـ أتعرف اناساً يتسلون ؟

ـ اعرف اناساً مسرورين من حياتهم . انا مثلاً .

ولم تقل شيئاً وعانقها في عذوبة :

ـ ماذا يجب كي تكوني مسرورة ؟

فقالت دفعة واحدة :

ـ ألاّ احتاج الى ماما ، وان اكون واثقة من انني لن اصبح فقيرة ثانية .

ـ هذا سيتحقق لك . ماذا ستفعلين عندئذ ؟

ـ سأكون مسرورة .

ـ لكن ماذا ستفعلين ؟ ستسافرين ؟ ستخرجين ؟

فهزت كتفيها : « لم افكر بذلك » .

واخرجت من حقيبتها علبة مساحيق ذهبية وصلحت خضاب فمها : « يجب ان اذهب . عندي تجربة ثوب ، في محل امي » . ونظرت الى هنري في قلق : « هل تعتقد حقاً ان ثوبي لن ينجح ؟ » .

فقال ضاحكاً :

ـ كلا ، اعتقد ان البصارة قد اخطأت تماماً . هذا يحدث لهن ، أتعرفين . أهو ثوب جميل ؟

ـ ستراه يوم الاثنين » . وتنهدت جوزيت : « سيتوجب عليّ ان اظهر نفسي قليلاً ، من قبيل الدعاية لي . اذن يجب ان ألبس » .

ـ ألا يضجرك ان تلبسي ؟

ـ لو تعرف ما اتعبها ، هذه التجريبات ! انني لأصاب بالصداع بعدها

طوال النهار .

ونهض وصعدا نحو محطة التاكسي :

– سأرافقك .

– لا تزعج نفسك .

فقال في حنان :

– هذا للذتي الخاصة .

– انت لطيف .

كان كلامها يمس صميم القلب عندما تقول : « انت لطيف » بهـــذا الصوت، بهاتين العينين . وفي التاكسي ، وضع رأس جوزيت على كتفه وتساءل : « ماذا استطيع ان افعل لها ؟ » . ان يساعدها على ان تصبح ممثلة ، نعم ، لكنها لا تحب المسرح بشكل خاص ، وهذا لن يملأ الفراغ الذي يشعر به في داخلها . واذا لم تنجح ؟ لم تكن راضية عن تفاهة حياتها المتزمتة ، لكن بمَ يثير اهتمامها ? ان يحاول الكلام معها ، ان يفتح ذهنها ... انه لن يأخذها على كل حال لينزهها في المتاحف ، ويسحبها الى الحفلات الموسيقية . ويعيرها كتباً ، ويعرض لها العالم . وقبّل في وداعة شعرها . كان يجب ان يحبها : هذا ما ينتهي اليه المرء مع النساء دوماً . كان يجب ان يحصلن جميعاً على حب لا يتسع لغيرهن . وقالت :

– الى هذا المساء .

– نعم سأذهب لانتظارك في بارنا الصغير .

وضغطت في لطف على يده وعلم انهما كانا يفكران معاً : الى هذه الليلة في سريرنا . وعندما اختفت في البناية الفخمة ، عاد على قدميـــه هبوطاً نحو السين . الساعة الحادية عشرة والنصف . وقال في نفسه : « سأصل قبل الأوان الى عنـــد بول ، هذا سيسرها » . كان راغباً هذا الصباح في ان يسر جميع الناس . وفكر في شيء من القلق : مع ذلك ، لا بد ان أتحدث معها » . كان لم يعد يستطيع بعد ان اخذ جوزيت بين ذراعيه ، ان يتحمل فكرة تمضية ليالٍ مع بول . وقال في نفسه في امل : « ربما سيكون هذا سواء عندها : انها تعرف جيداً انني لم اعد

اشتهيها » . كانت بول قد تجنبت ان تتعرف نفسها في بطل روايته الكئيبة . ومع ذلك فقد تغيرت منذ تلـك القراءة . لم تعد تخاصمه ، ولم تحتجّ وهي ترى هنري ينقل شيئاً فشيئاً اوراقه وملابسه إلى غرفته في الفندق . وكان ينـام فيها أغلب الأحيان . من يدري ما إذا كانت لا تقبل في نوع من الاطمئنان بأن يعيشا في صداقة هادئة؟ كانت سماء الربيـع هذه شديدة الفرح إلى حد كان يخيل اليه معه ان من الممكن ان يعيش في صدق دون ان يسبب ألماً لأحد . وعنـد زاوية الشارع ، توقف هنري متردداً امام بائعة زهور : كان يميل إلى ان يحمل إلى بول ، كما في الماضي ، باقة كبيرة من البنفسج الشاحب . لكنه خاف مـن مفاجأتها . وقرر وهو يدخـل إلى دكان العطارة المجاورة : « زجاجة من النبيذ الجيد ستكون اقل توريطاً» . وكان فرحاً بينما كان يرتقي الدرج . كان عطشاناً، كان جائعاً ، وكان يحس في فمه من الآن بالطعم الحاد لنبيذ البوردو القديم، وكان يشعر بالزجاجة على قلبه وكأنها تلخص الصداقة كلها التي يريد ان يقدمها لبول .

وبدون ان يقرع ، وبهدوء تام ، كما في الماضي ، وضع المفتاح في القفل ودفع الباب . لم تسمع شيئاً . كانت راكعة على السجادة التي تتبعثر عليها اوراق قديمة : وتعرّف رسائله فيها . كانت تمسك بين يديها بصورة له وكانت تنظر اليه بوجه لم يره لها مطلقاً . لم تكن تبكي وكان من الواضح امام عينيها الجافتين ان ثمة أملاً يتأخر بين الدموع كافة . كانت تتأمل وجهاً لوجه في قدرها ، انهـا ما عادت تنتظر منه شيئاً ، وكانت لا تزال قابلة بـه . كانت وحيدة للغاية امام الصورة الجامدة إلى حد ان هنري احس ان ملكية نفسه تُنتزع منه وأغلق الباب دون ان يستطيـع ان يمنـع نفسه من غضب كان يشل شفقته . وعندما قرع ، سمع صوتاً قلقاً لحرير مدعوك ولورق ، ثم قالت بصوت غير واثق : «ادخل» .

– ماذا تصنعين إذن ؟

– كنت اعيد قراءة رسائل قديمة . لم أكن انتظرك في مثل هذه الساعـة المبكرة .

كانت قد ألقت الاوراق على الكرسي وأخفت الصورة . وكان وجهها هادئاً،

لكن قاتماً . كان عليه أن يتذكر انها لم تعد مرحة البتة . ووضع الزجاجة على الطاولة في سخط . وقال :

– تفعلين احسن اذا لم تدفني نفسك في الماضي وعشت قليلاً في الحاضر .

– اواه ! أتعرف ، الحاضر ! » وألقت على الطاولة نظرة عمياء : لم أضع المائدة » .

– هل تريدين ان آخذك إلى المطعم ؟

– كلا ! كلا ! لن يستغرق وضع المائدة دقيقة .

وسارت نحو المطبخ ومد يده نحو الرسائل . فقالت في عنف : « دعها » .

وأمسكت بها وألقتها في خزانة . وهز كتفيه . لقد كانت على حق ، بمعنى ما ، فهذه الكلمات القديمة الثابتة قد تحولت كلها إلى أكاذيب . ونظر إلى بول ، في صمت ، وهي تذهب وتجيء حول الطاولة : لن يكون من السهل ان يحدثها عن الصداقة .

وجلسا وجهاً لوجه أمام المقبلات المؤلفة من الفجل ، وفتح هنري الزجاجة . وقال بصوت مجامل :

– تحبين البوردو الاحمر ، أليس كذلك ؟

فقالت في لا مبالاة :

– بلى .

يقينا . لم يكن هذا اليوم بالنسبة لها يوم عيد . وان يزعم انه يحتفل مع بول بمغامرته الجديدة ، فهذا فيض من التعامي والأنانية . ولكن هنري كان يشعر ، وهو يلوم نفسه ، بكراهية خفية على سطح جلده . وقال :

– يتوجب عليك ان تخرجي قليلاً على كل حال .

فقالت في لهجة من فوجيء :

– اخرج ؟

– نعم . ان تضعي انفك خارجاً ، أن تري أناساً .

– لمَ ذلك ؟

– وان تظلي مدفونة في هذا الجحر طوال النهار ، ماذا سيفيدك هذا ؟
فقالت في ابتسامة حزينة :
– انني احبه كثيراً ، جحري . انني لا أملّ .
– لا تستطيعين ان تتابعي حياتك على هـذا النحو . لا تريدين ان تغني ، طيب ، هذه قضية مفهومة . لكن حاولي اذن ان تجدي شيئاً آخر لتفعليه .
– ماذا ؟
– سنبحث عن ذلك .
فهزت رأسها : « انني في السابعة والثلاثين ولا أعرف أي مهنة . استطيع ان اصبح جامعة خرق وغير ذلك ! »
– ان المهنة شيء يمكن تعلمه . لا شيء يمنعك من التعلم .
فنظرت إلى هنري في قلق : « اتريد ان اكسب حياتي ؟ » .
فقال في حدة :
– ليست المسألة مسألة مال . اريد ان تهتمّي بأشياء ، ان تشغلي نفسك .
فقالت :
– انني اهتم بنا .
– هذا لا يكفي .
– هذا يكفيني منذ عشر سنوات .
– اسمعي يا بول ، تعلمين جيداً ان الاشياء تبدلت بيننا ، ولا يفيد شيئاً أن نكذب على انفسنا . لقد عشنا حباً كبيراً ورائعاً . فلنعترف بأنه يتحول الآن إلى صداقة . » وأضاف في عجلة : « هذا لا يعني اننا سنرى بعضنا البعض أقل من الماضي ، كلا ، لكن يجب ان تجدي لك استقلالاً ثانية » .
كانت تنظر اليه في ثبات : « لن اشعر ابداً بصداقة نحوك » . ولامست شفتيها ابتسامة صغيرة : « ولا أنت نحوي » .
– بلى ، بول ...
فقاطعته : « انظر ، هذا الصباح لم تستطع ان تنتظر الساعة المعينة . لقد

جئت قبل الاوان بعشرين دقيقة . وقرعت الباب بعصبية شديدة ! أتسمي هذا صداقة ؟

ـ انت مخطئة .

كان الغضب يسيطر عليه ثانية أمام عنادها . لكنه كان يذكر اي حزن فاجأه في هذا الوجه ، وكانت الكلمات العدائية تموت في حلقه . وأنهيا الطعام في صمت . كان وجه بول يمنع كل هذر .

وسألت بصوت حيادي عندما قاما عن الطاولة :

ـ ستعود إلى هنا هذا المساء ؟

ـ كلا .

فقالت : « ما عدت تأتي اغلب الاحيان » . وابتسمت ابتسامة صغيرة : « أهذا جزء من مشروعك الجديد عن الصداقة ؟ » .

فتردد : « لقد حدث ذلك هكذا » .

فتفرست في وجهه ملياً في إلحاح وقالت ببطء : « قلت لك انني احبك حالياً في كرم تام ، في احترام مطلق لحريتك . هذا يعني انني لن اطلب منك اي حساب . تستطيع ان تنام مع نساء غيري ، وان تخفي عني ذلك دون ان تشعر بالإثم نحوي . انني لا أبالي اكثر فاكثر بما هو يوميّ ومبتذل في حياتك » .

فقال في انزعاج :

ـ لكن ليس لدي ما اخفيه عنك .

فقالت في رصانة :

ـ ما أعنيه ، هو انه لا حاجة بك لأن يوسوسك ضميرك . مهما حدث ، تستطيع ان تعود لتنام هنا . دون ان تحكم على نفسك بأنك غير جدير بنا . سأنتظرك هذه الليلة .

وفكر هنري : « ليكن ! ستكون قد أرادت ذلك ! » . وقال بصوت عالٍ : « اسمعي بول ، سأكلمك بصراحة : أرى انه يجب بعد الآن ألاّ نمضي ليالي معاً . انت الحريصة جداً على ماضينا ، تعرفين تماماً أي ليالٍ جميلة عشناها

سابقاً . فلا نشوة ذكراها . لم يعد ما فيه الكفاية من الرغبة بيننا ، الآن » .

فقالت بول بصوت غير مصدّق :

– ألم تعد لك رغبة فيّ ؟

فقال :

– ليس بما فيه الكفاية . » وأضاف : « ولا أنت نحوي . لا تقولي لي العكس . أنا أيضاً عندي ذاكرة » .

فقالت بول :

– لكنك مخطيء ! أنت مخطيء خطأ فادحاً ! انه سوء تفاهم فظيع ! انني لم أتغير !

كان يعرف انها تكذب . لكن على نفسها قدر ما عليه بلا شك .

وقال في هدوء :

– على كل حال ، لقد تغيرت أنا . ان المرأة ، ربما كان هذا شيئاً مختلفاً ، لكن الرجل ، من المستحيل ان يشتهي إلى ما لا نهاية جسداً واحداً . انت لا تقلين جمالاً عن الماضي ، ولكنك أصبحت مألوفة عندي كثيراً .

وبحث في قلق عن وجه بول وحاول ان يبتسم لها . لم تكن تبكي . كان يبدو عليها ان الاشمئزاز يشلها . وتمتمت في جهد :

– لن تنام هنا ثانية ؟ هذا ما تحاول ان تقوله لي ؟

– نعم . لكن هذا لن يؤدي إلى كبير خلاف ...

فأوقفته بحركة . لم تكن تقبل إلا الاكاذيب التي تختلقها بنفسها . كان تلطيف الحقيقة بالنسبة لها في صعوبة فرضها عليها . وقالت بلا غضب :

– اذهب . » وكررت : « اذهب ، انني بحاجة لأن أكون بمفردي » .

– دعيني اشرح لك ...

فقالت :

– من فضلك ! اذهب ...

ونهض . وقال : « كما تريدين . لكني سأعود غداً ونتحادث » . ولم تجب .

وأغلق الباب وراءه ولبث لحظة على الدرج ، مترصداً صوت نحيب ، او سقوط ، او حركة . لكنه كان الصمت . وبينما كان هنري يهبط الدرج ، كان يفكر بتلك الكلاب التي تُقطع حبالها الصوتية قبل ان تعرض لعذابات التشريح وهي حية : لا أثر من ألمها في العالم . هذا أقل وطأة من سماعها تعوي ! .

ولم يتحادثا في الغد ، ولا في الايام التالية . كانت بول تتظاهر بأنها قد نسيت محادثتهما . ولم يكن هنري حريصاً على العودة إلى ذلك الموضوع . وكان يقول في نفسه : « لا بد ان انتهي يوماً إلى الحديث مع جوزيت عن ذلك : لكن ليس فوراً » . كان يمضي لياليه كافة في الغرفة الخضراء الشاحبة ، وكانت ليالي والهة للغاية ، لكنه عندما كان ينهض صباحاً ، كانت جوزيت لا تحاول ان تبقيه . وفي يوم توقيع العقد، اتفقا ان يظلا معاً إلى ساعة متأخرة بعد الظهر : وكانت هي التي تركته في الساعة الثامنة لتذهب عند حلاقها . هل كان هذا من قبيل الاحتراس ؟ من قبيل اللامبالاة ؟ ليس من المريح ان يقيس عواطف امرأة سخية بجسدها وليس عندها شيء آخر تعطيه . وتساءل وهو ينظر غافلاً إلى واجهات ضواحي سانت–هونوريه : « وأنا ؟ هل بدأت أتعلق بها ؟ » . كان يشعر ببعض الحيرة . كان الوقت مبكراً على الذهاب إلى الجريدة . وقرر ان يمر على « البار الاحمر ». في الماضي ، كان يقصد البار في كل مرة يجد لديه وقتاً يريد ان يقتله . وكانت قد مضت اشهر منذ ان وضع قدميه فيه للمرة الاخيرة ، لكن لا شيء تغير . كان فانسان ، ولاشوم ، وسيزوناك جالسين الى طاولتهم المعتادة . وكان لسيزوناك السحنة النائمة نفسها .

وقال لاشوم وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

– من دواعي السرور ان نراك ! هل هجرت الحي ؟

– إلى حد ما .

وجلس هنري وطلب قهوة . وقال مبتسماً نصف ابتسامة : « كنت أريد أن اراك انا ايضاً ، ولكن ليس فقط لداعي السرور. بل بالأحرى لأقول لك طريقتي في التفكير : انه لشيء مقرف ان تسمح بنشر ذلك المقال عن دوبروي في الشهر

الماضي » .

فغام وجه لاشوم : « نعم ، لقد قال لي فانسان انك ضده . لكن مـــاذا ؟ كثير من الاشياء التي قالها فيكو صحيحة ، أليس كذلك ؟ » .

– كلا ! ان تلك الصورة بمجموعها كاذبة حتى انه ليس من جزء فيها صحيحاً. دوبروي عدو للطبقة العاملة ! كفى ! كفى ! ! ألا تذكر ؟ منذ سنة ، على هذه الطاولة نفسها ، كنت تشرح لي انه يجب ان نعمل متكاتفين ، انت ، ورفاقك ، ودوبروي وانا . ثم تنشر تلك القذارة !

فنظر اليه لاشوم في تأنيب: « لم تنشر « السندان » ، ضدك اي شيء ابداً ».

فقال هنري :

– سيأتي دوري !

– تعرف جيداً ان لا .

فقال هنري :

– لمَ الهجوم على دوبروي بتلك الطريقة وفي هذا الوقت ؟ كانت صحفكم الاخرى مهذبة معه تقريباً . ثم فجأة ، دون سبب ، وبخصوص مقالات ليست حتى سياسية ، تأخذون في شتمه في خشونة !

فتردد لاشوم وقال : « موافق ، لقد أسيء اختيـار الوقت واعترف ان فيكو كان عنيفاً اكثر ممـــا ينبغي . لكن يجب ان تفهم ! انه يسئمنا ، ذاك الشيخ ، بمذهبه الانساني الذي لا قيمة له . ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، على الصعيد السياسي ، ليس مزعجاً : لكن دوبروي ، كنظريّ ، ثرثار خطر ، ويهدد بالتأثير على الشبيبة، وماذا يقترح عليهم؟ان يوفقوا الماركسية مع القيم البورجوازية العتيقة ! اعترف بأن هذا ليس ما نحتاجه اليوم ! القيم البورجوازية ، انما الهدف هو تصفيتها » .

فقال هنري :

– ان دوبروي يدافع عن أي شيء آخر غير القيم البورجوازية .

– هذا ما يزعمه . ولكن بالضبط ، هنا تكمن الخدعة .

فهز هنري كتفيه : « لست موافقاً . لكن على كل حال ، لماذا لم تقولوا ما تقولوه لي هنا بدلاً من تصوير دوبروي بأنه كلب حراسة للبورجوازية ؟ » .

فقال لاشوم :

ــ نحن مرغمون على التبسيط ، إذا كنا نريد ان يفهمنا الناس .

فقال هنري في غيظ :

ــ دعك من هذا . ان « السندان » تتوجه إلى مثقفين : إنهم كانوا سيفهمون تمـــاماً .

فقال لاشوم :

ــ آه ! لست انا الذي كتبت ذاك المقال .

ــ لكنك قبلته .

فتغير صوت لاشوم :

ــ اتظن انني افعل ما أريده؟ لقد قلت لك انني اجد ان الوقت أسيء اختياره وان فيكو في رأيي كان عنيفاً جداً . انا اعتقد ان علينا ان نناقش شخصاً مثل دوبروي بدل ان نشتمه . ولو حصلنا على مجلتنا ، انا والرفاق ، لكان هـــذا ما فعلناه ...

فقال هنري مبتسماً :

ــ مجلة تستطيع ان تعبر عن نفسك فيها بحرية كاملة . هل غض النظر عنها ؟

ــ كلا .

وساد صمت قصير . وتفرس هنري في وجه لاشوم :

ــ انني اعرف ما هي روح النظام . لكن على كل حال ، ألا يحرجك ان تبقى في « السندان » إذا لم تكن متفقاً معها ؟

فقال لاشوم :

ــ اعتقد ان من الأفضل ايضاً ان اكون انا فيها بدلاً من غيري . سأبقى ما تُركت فيها .

ــ هل تعتقد انهم سيتركونك فيها ؟

فقال لاشوم :

ـ اتعرف ، ان « الحزب الشيوعي » ليس « الاشـــتراكي الثوري الحر » . عندما يكون هـــناك اتجاهان يتواجهان ، فإن الذين يخسرون يصبحون بسهولة مشبوهين .

كان في صوته مرارة كبيرة إلى حد ان هنري سأل : « قل إذن ، انت الذي كان يحثني كثيراً على الدخول في الحزب الشيوعي ، ربما انت الذي سيخرج منه».

ـ اعرف اشخاصاً لا ينتظرون إلا هذا ! انهم سلة جميلة من السراطين، مثقفو الحزب ! » وهز لاشوم رأسه : « هـذا لا يمنع : لن ارحل ابداً » . وأضاف : « هناك لحظات وددت فيها ذلك . نحن لسنا قديسين . لكننا نتعلم التحمل » .

فقال هنري :

ـ اشعر انني لن اتعلم ابداً .

فقال لاشوم :

ـ انت تقول هذا . لكن لو كنت مقتنعاً ان الحزب هو المحقّ بشكل عام ، لفكرت بأن قصصك الشخصية الصغيرة لا تزن ثقيلًا امام الأشياء التي يدور حولها اللعب . وتابـع في حماسة : « أتفهم ، هناك شيء انا واثق منه ، هو انـه لا يوجد غير الشيوعيين يقومون بعمل مفيد . إذن ، احتقرني إذا شئت : لكني افضل ان اتجرع أي شيء على ان انفصل عنهم » .

فقال هنري :

ـ اواه ! انني افهمك ! » وفكر : « من النزيه حقاً إذن ؟ إنني انتسب إلى « الاشتراكي الثوري الحر » لأنني أوافق على خطه ، لكنني اهمل حقيقة وهي ان عمله سيفشل على الأرجح . ان لاشوم يهدف إلى الفعاليـــة ويقبل بالطرق التي لا يوافق عليها . ما من احد حاضر كلياً في كل عمل من اعماله . انه العمل نفسه الذي يمنع ذلك . » ونهض : « إني ذاهب إلى الجريدة » .

فقال فانسان :

ـ انا ايضاً .

وقام سيزوناك من مقعده : « اني مرافقك » .
فقال فانسان في طلاقة :
ـ كلا ، اريد ان اتحدث الى بيرون .
وعندما دفعا باب البار ، سأل هنري : « كيف حاله ، سيزوناك ؟ » .
ـ ليس على ما يرام . انه يقول أنه يترجم ، لكن ما من احد يعرف ماذا . انه ينام عند رفاق ويأكل ما يقدم له . وهو حالياً ينام عندي .
فقال هنري :
ـ خذ حذرك .
ـ ممَ ؟
فقال هنري :
ـ ان المدمنين خطرون . انهم يشون بأبيهم وأمهم .
فقال فانسان :
ـ لست مجنوناً . انه لم يعلم ابداً اي شيء ، عن اي شيء . » واضاف : « انه يعجبني . فلا حلول وسط بالنسبة له : انه اليأس في الحالة الصرف » .
ونزلا الشارع في صمت وسأل هنري :
ـ أتريد حقاً ان تكلمني ؟
ـ نعم . » وبحث فانسان عن نظرة هنري : « أصحيحة تلك القصة التي يروونها ، من ان مسرحيتك ستمثل في تشرين الأول في الاستديو ٤٦ ، وان الابنة بيلوم هي التي ستكون نجمتها ؟ » .
ـ انني سأوقع العقد هذا المساء مع فيرنون . لماذا تسألني هذا ؟
ـ انت لا تعرف بدون شك ان الأم بيلوم قد جُزّ شعرها وهي تستحق ذلك . ان لها قصراً في نورماندي ، وقد استقبلت فيه كثيراً من الضباط الألمان، وكانت تنام معهم والصغيرة ايضاً على ما يبدو .
فقال هنري :
ـ لماذا جئت تروي لي هذا الهذر ؟ منذ متى تعتبر نفسك شرطياً ، وهل

تعتقد انني احبهم ؟

ـ هذا ليس هذراً . هناك سجلّ ، ولي رفاق شاهدوه : رسائل ، وصور عند شخص تسلى بجمعها مفكراً بأنها قد تفيده ذات يوم .

ـ أرأيته انت ؟

ـ كلا .

فقال هنري في استنكار :

ـ بالطبع ، على كل حال ، انني لا ابالي بذلك . هذا لا يعنيني .

ـ منع الانذال من الاستيلاء على مقدرات البلاد ثانية ، ورفض التعامل معهم ، هذا يعنينا جميعاً .

ـ اذهب لتلقِ درسك في مكان آخر .

فقال فانسان :

ـ اسمع ، لا تغضب . كنت اريد ان احذرك من ان الأم بيلوم مراقبة ، ومن الحماقة ان تحدث لك متاعب بسبب هذه المرأة .

فقال هنري :

ـ لا تهتمّ لأجلي .

فقال فانسان :

ـ حسناً . كنت اريد ان احذرك ، هذا كل شيء .

وانهيا المسافة في صمت ، لكن ثمة صوت كان قد تربع في صدر هنري وكان يردد بلا نصب : « الصغيرة ايضاً » . وطوال بعد الظهر ، ردد هذه اللازمة. كانت جوزيت قد اعترفت تقريباً بأن امها قد باعتها اكثر من مرة . وعلى كل حال ، فان كل ما كان هنري ينتظره منها ، بعض ليالٍ اخرى وربما بعض ليال اخرى ايضاً . ومع ذلك ، وأثناء العشاء الذي ما كان ينتهي ، وبينما كان ينظر اليها تبتسم لفيرنون في مجاملة نائمة ، كان يشعر حتى الضيق بالرغبة ان يجد نفسه ثانية بمفرده معها وان يستجوبها .

وقالت لوسي :

– إذن انت مسرور ، لقد وُقِّع العقد !

كان ثوبها ومجوهراتها تلتصق بجلدها التصاقاً وثيقاً التصاق شعرها به . وكان من الممكن ان يظن المرء انها ولدت ، وتنام ، وستموت في ثوب موقع عليه : آماريليس . وكانت خصلة ذهبية تتماوج بين شعرها الأسود ، وكان هنري يتأملها مأخوذاً : كيف سيبدو وجهها تحت جمجمة حليقة ؟

– انني مسرور جداً .

– دودول سيقول لك انني عندما استلم مسألة بيدي ، فيمكنك ان تكون مطمئناً .

فقال دودول في هدوء :

– اواه ! انها امرأة خارقة للطبيعة .

كانت كلودي قد أكدت لهنري ان دودول ، العشيق الرسمي ، رجل شريف عظيم . وكان له بالفعل تحت شعره الفضي ذلك الوجه المستريح والمستقيم الذي لا يوجد إلا عند الأوغاد الأذكياء : اؤلئك الذين هم على ما فيه الكفاية من الغنى ليشتروا ضميرهم الخاص . وربما كان على كل حال شريفاً حسب قانونه الخاص به .

وقالت لوسي :

– ستقول لبول انها فظيعة إذ لم تأتِ !

فقال هنري :

– كانت حقاً متعبة جداً .

وانحنى امام جوزيت ليأخذ الإذن بالانصراف . كانت جميع النساء يرتدين ثياباً سوداء ، مع مجوهرات براقة وكانت في ثوب اسود هي الأخرى ، وكان يبدو عليها انها مسحوقة تحت كتلة شعرها . ومدت له يدها وهي تبتسم في ادب مدروس . طوال السهرة كلها ، لم تطرف عيناها ولا طرفة واحدة تكذب لامبالاتها الظاهرية . هل كان الرياء بمثل هذه السهولة ؟ كانت بسيطة جداً ، صريحة جداً ، بريئة جداً ، ليلاً ، في عريها . وكان هنري يتساءل في مزيج مبلبل من الحنان ، والشفقة ، والخرف ، ما اذا كانت لها هي الأخرى صور في السجل .

كانت سيارات التاكسي ، منذ بضعة ايام قد اخذت تسير من جديد بحرية . وكانت هناك ثلاث سيارات تقف في ساحة « لاموبيت » وركب هنري احداها ليصعد إلى مونمارتر . ولم يكد يطلب كأسوسكي حتى تهالكت جوزيت إلى جانبه على مقعد وثير عميق . وقالت : « لقد كان لطيفاً ، فيرنون ، ثم انه لوطي ، إنني محظوظة ، لن يزعجني » .

– ماذا تفعلين عندما يزعجك الرجال ؟

– هذا يتوقف . احياناً يكون الأمر لطيفاً .

فقال هنري وهو يحاول ان يحتفظ بلهجة طبيعية :

– ألم يزعجك الألمان كثيراً أثناء الحرب ؟

– الالمان؟» واحمرت كما رآها مرة تحمر من منشأ ثدييها حتى بصلات شعرها: « لماذا تسألني هذا ؟ ماذا رووا لك ؟ » .

– ان امك استقبلت ألماناً في قصرها في نورماندي .

– لقد احتـُل القصر لكنها لم تكن غلطتنا . إنني اعرف . لقد اشاع سكان القرية شائعات خبيثة لأنهم يكرهون ماما : على كل حال انها تستحق ذلك ، فهي ليست لطيفة . لكنها لم تفعل شيئاً قبيحاً ، لقد اوقفت الالمان دوماً عند حدهم .

فابتسم هنري : « ثم ، لو جرى هذا بغير هذا الشكل ، لما قلت لي » .

فقالت :

– اواه ! لماذا تقول هذا ؟ » كانت تنظر اليه في شزر تراجيدي وكان بخار يحجب عينيها . وذعر قليلاً من السلطة التي له على هذا الوجه الجميل .

– كان لأمك بيت خياطة وكان عليهـــا ان تهتم بنجاحه ، والوساوس لا تخنقها . كان يمكنها ان تسعى لاستخدامك .

فقالت في رعب :

– ماذا تعتقد إذن ؟

– افترض انك كنت غير حذرة ، وانك خرجت مع ضباط مثلاً .

– كنت مهذبة ، لا اكثر . كنت اكلمهم ، وأعادوني في بعض الاحيان

من القرية إلى البيت في السيارة . » وهزت جوزيت كتفيها : « انا لم يكن لدي شيء ضدهم ، أتعرف ، كانوا مستقيمين جداً وكنت صغيرة ، ولم اكن افهم شيئاً من تلك الحرب ، كنت اتمنى ان تنتهي ، هذا كل شيء » . وأضافت بسرعة كبيرة : « والآن اعرف كم كانوا فظيعين مع معسكرات الاعتقال وكل شيء . . . » .

فقال هنري في حنان :

ـ انت لا تعرفين شيئاً كبيراً لكن هذا لا اهمية له .

في عام ١٩٤٣ ، لم تكن صغيرة جداً : لم تكن نادين آنذاك إلا في السابعة عشرة . ولكن لا تمكن المقـــارنة بينهما . فقد اسيئت تربية جوزيت . واسيء حبها ، ولم يشرح لها أي انسان شيئاً . لقد ابتسمت بلطف كبير للضباط الالمان عندما كانت تصادفهم في شوارع القرية ، ولقد ركبت في سيارتهم : كان هذا يكفي لإثارة استنكار السكان ، في ذلك الحين . هل حدث اكثر من ذلك ؟ هل تكذب ؟ كانت صريحة جداً ومرائية جداً : كيف يعرف ؟ وبأي حق ؟ فكر بذلك في قرف مفاجيء . كان خجلاً من انه مثل دور الشرطي .

وقالت في خجل :

ـ هل تصدقني ؟

ـ اصدقك » . وجذبها اليه وقال : « لنكفّ عن الحديث عن هـذا كله ، لنكفّ عن الحديث عن أي شيء . لنعد إلى شقتك . لنعد بسرعة » .

فتحت دعوى السيد لامبير في « ليل » في نهاية شهر ايار . وقد خدمه تدخل ابنه بالتأكيد ، ثم لا بد انه اعتمد على اصحاب نفوذ كبير : فقد برّيء . وفكر هنري عندما علم بالحكم : « هذا افضل للامبير » . وبعد اربعة ايام ، كان لامبير يعمل في الجريدة عندما جاءته مكالمة هاتفية من « ليـــل » : لقد وقع ابوه الذي كان سيصل الى باريس في قطار المساء السريـع من باب القطار . كانت حـالته خطيرة جداً . وبالفعل ، فقد عرف بعد ساعـــة انه قتل فوراً . وامتطى لامبير دراجته دون ان يتلفظ بصوت تقريباً ، وعندما عاد إلى باريس ، بعد الدفن ، ظل

قابعاً في بيته دون ان يتصل بأحد .

وقال هنري في نفسه بعد بضعة ايام مـن الصمت : « يجب ان أمرّ لأراه ، سأمرّ بعد ظهر اليوم ». وحاول عبثاً ان يتلفن ، فقد قطع لامبير التلفون. وكان هنري يردد في نفسه وهو ينظر بدون قناعة إلى الاوراق المبسوطة على طاولته : « ضربة قذرة » . كان ذلك الرجل مسناً ، وليس لطيفاً كثيراً ، وكان لامبير يشعر نحوه بشفقة اكثر بكثير مما كان يشعر نحوه بحب : ومع ذلك لم يكن هنري يستطيع ان ينظر إلى هذه القصة بلامبالاة . نزوة غريبة من القدر ، ذاك الحكم ، ثم ذلك الحادث . وحاول ان يعيد اهتمامـــه الى الاوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة .

وقال في نفسه في توبيخ ضمير : « منتصف النهار . ستأتي جوزيت ولـــن اكون قد تصفحت هذا السجل » . كاراغانـدا ، تزازردسكوي ، اوزبيك : لم يكن يستطيع ان يحيي هذه الأسماء البربرية ، هذه الأرقام . ومع ذلك فقد كان من المأمول فيه ان يطلع على هذه الأوراق قبل اجتماع بعد الظهر . واذا كان لا ينجح في الاهتمام بها ، فهذا ، في الحقيقة ، لأنه لا يثق بها مطلقاً . اي ثقة يمنحها لوثيقة سلمه اياها سكرياسين ؟ هل له وجود ذلك الموظف السوفياتي الغـــامض الهارب من الجحيم الأحمر خصيصاً من اجل اذاعة هذه المعلومات ؟ كان سامازيل يؤكد ذلك ، بل كان يزعم انه تحقق من شخصيته . لكن هنري ظل متشككاً. وقلب صفحة .

ــ كوكو .

كانت جوزيت ، متدثرة في معطف ابيض كبير . وكانت قد اسبلت على كتفيها شعرها العظيم . وحتى قبل ان تغلق الباب ، كان هنري قد نهض واخذها بين ذراعيه . كان يجد نفسه ، عادة ، ما إن يقبلها القبلة الأولى ، سجيناً في عالم من الزخارف ، وسط دمى لا وزن لها . وكان هذا التحول اليوم اصعب قليـلاً من العادة ، فقد ظلت همومه لاصقة بجلده . وقالت في مرح :

ــ اذن انت تسكن هنا ؟ انني افهم انك لم تدعني ابداً : انها غرفة رديئـة

جداً ! لكن اين تضع كتبك ؟

— ليس لدي كتب . عندما اقرأ كتاباً أعيره لأصدقاء لا يعيدونه إليّ.

— كنت اعتقد ان الكاتب يعيش دوماً بين جـــدران مبطنة بالكتب » .

كانت تنظر اليه في شك : « اواثق انت انك كاتب حقيقي ؟ » .

فأخذ يضحك :

— على كل حال ، انني اكتب .

فسألت وهي تجلس :

— كنت تشتغل ؟ هل جئت قبل الأوان ؟

فقال :

— دعيني خمس دقائق ثم اكون لك . أتريدين ان تنظري الى الصحف ؟

فمطت شفتيها قليلاً : « أفيها وقائع مسلية ؟ » .

فقال مؤنباً :

— كنت اعتقد انك بدأت تقرئين مقالات سياسية . كلا ؟ هل انتهى الأمر من الآن ؟

فقالت جوزيت :

— ليست غلطتي ، لقد حاولت . لكن الجمل تهرب من تحت عيني . » واضافت في سيماء من تعاسة : « انني اشعر ان هذا كله لا يعنيني » .

فقال :

— اذن تسلي بقصة المشنوق في « بانتواز » .

ناريلسك ، ايغاركا ، أبساغاشيف . كانت الأسماء ، الأرقام ، ميتة . هـو الآخر ، كانت الجمل تهرب من تحت عينيه ، وكان يشعر ان هذا كله لا يعنيه . ان هذا يجري بعيداً جداً ، في عالم مختلف جداً ، صعب جداً الحكم عليه .

وقالت جوزيت بصوت خافت :

— لديك سيجارة ؟

— نعم .

– وثقاب ؟
– اليك . لماذا تتحدثين بصوت خافت ؟
– كيلا ازعجك .
فنهض ضاحكاً : « انتهيت . إلى اين آخذك لتناول الغداء » .
فقالت في حزم :
– إلى « الإيل بوروميه » .
– تلك الكباريه الارستقراطية جداً التي دشنت يوم امس الأول ؟ كلا ، من فضلك . جدي مكاناً آخر .
فقالت :
– لكني ... حجزت طاولة .
– من السهل ان نلغيها . ومد يده نحو التلفون ، فأوقفته :
– ذلك لأنهم ينتظروننا .
– من ؟
فخفضت رأسها و كرر : « من ينتظرنا ؟ » .
– انها فكرة ماما . يجب ان ابدأ دعايتي فوراً . « الإيل » ، هي الكباريه التي يتحدثون عنها . لقد طلبت إلى صحفيين ان يجروا معي مقابلة مصورة ، من نوع : « المؤلف يتحادث مع ممثلته ... » .
فقال هنري :
– كلا ، يا عزيزتي . تصوّري قدر ما شئت ، لكن بدوني .
– هنري ! » . كانت عينا جوزيت مليئة بالدموع . كانت تبكي في سهولة طفولية تزعجه : « لقد صنعت هذا الثوب خصيصاً ، كنت مسرورة جداً ... » .
– هناك مطاعم أخرى كثيرة مرضية نستطيع ان نكون فيها مطمئنين .
فقالت في يأس :
– لكن ما داموا ينتظرونني ! » وثبتت عليه عينيها الكبيرتين المغرورقتين : « اسمع ، تستطيع ان تفعل شيئاً ما من اجلي » .

ـ لكن ، يا حبي ، ماذا تفعلين من اجلي ؟
ـ انا ؟ لكن انا ...
فقال في مرح :
ـ نعم انت ... لكن انا ايضاً ، انا ...
لم تكن تضحك ، وقالت في رصانة : « ليس هذا متماثلا . انني امرأة » .
فضحك ثانية وفكر : « انها على حق ، ألف مرة على حق : ليس هذا متماثلا» .
وقال :
ـ أأنت حريصة جداً على هذا الغداء ؟
ـ انت لا تفهم ، هذا ضروري لمستقبلي . يجب ان اظهر وان اجعلهم يتحدثون عني اذا كنت أريد ان انجح .
ـ يجب على الأخص ان تفعلي جيداً ما تفعلينه . مثّلي جيداً وسيتحدثون عنك .
فقالت جوزيت :
ـ أريد ان اضع جميع الفرص في صالحي » . وتصلب وجهها : « اتعتقد ان من الظريف ان اضطر إلى طلب الصدقة من ماما ؟ وعندما آتي إلى صالوناتها ، وتقول لي امام جميع الناس : « لماذا تنتعلين قبقاباً ؟ » ، اتعتقد ان هذا مرح » .
ـ ما به هذا الحذاء ؟ انه جميل جداً .
ـ انه مناسب للغداء في الريف ، لكنه رياضي أكثر مما ينبغي بالنسبة للمدينة .
ـ لقد وجدتك دوماً انيقة جداً ...
فقالت في حزن :
ـ لأنك لا تعرف شيئاً في الاناقة ، يا عزيزي . » وهزت كتفيها : « انت لا تعرف ما هي حياة امرأة لم تتوصل » .
فوضع يده على اليد العذبة وقال : « ستتوصلين . هيا بنا لنتصور في « الإيل بوروميه » . ونزلا الدرج وسألت :
ـ أمعك السيارة ؟
ـ كلا . سنأخذ سيارة تاكسي .

– لمَ ليس لك سيارة خاصة بك ؟

– ألم تتبيني بعد انني لا املك مالاً ؟ هل تعتقدين انه لن تكون لك اجمل أحذية باريس ؟

وسألت عندما ركبا التاكسي :

– لكن لمَ لا تملك مالاً ؟ انت ايضاً اذكى من ماما ودودول . ألا تحب المال ؟

– جميع الناس يحبونه . لكن لكي تحصلي عليه حتماً ، لا بد ان تحبيه اكثر من اي شيء .

ففكرت جوزيت : « ليس هذا لأنني احب المال اكثر من اي شيء ، لكني احب الأشياء التي اشتريها به » .

فطوق كتفيها بذراعه : « لعل مسرحيتي ستجعلنا اغنياء جداً . وعندئذ سنشتري لك الأشياء التي تحبينها » .

– وستأخذني الى مطاعم جميلة ؟

فقال في مرح :

– احياناً .

لكنه كان يشعر انه غير مرتاح بينما كان يتقدم في الحديقة المزهرة ، تحت نظرات النساء الصارخات الثياب والرجال المصقولي الوجوه . كانت شجيرات الورد ، والزيزفونة القديمة ، ومرح الماء المشمسة ، وهذا الجمال الرائج كله، لا تؤثر عليه ، وتساءل : « ماذا جئت افعل هنا ؟ »

وقالت جوزيت في حماسة :

– هذا جميل ، أليس كذلك ؟ واضافت : « انني أعبد الريف » . وغيرت وجهها المستسلم ابتسامة كبيرة ، وابتسم هنري ايضاً : « جميل جداً : ماذا تريدين ان تأكلي ؟ » .

فقالت جوزيت في أسف :

– اعتقد انه سيكون ليموناً هندياً ولحماً مشوياً . بسبب الاناقة .

كانت تبدو صغيرة تماماً في ثوبها من القماش الأخضر الذي كان يكشف عن ذراعين لدنتين ملتفتّين، وكم كانت طبيعية، في الحقيقة، تحت تنكرها في ثياب امرأة متسفسطة ! كان من الطبيعي ان تشتهي النجاح ، والظهور ، واللبس ، واللهو . وكانت لها ميزة كبيرة اذ كانت تعترف برغباتها في صدق دون ان تهتم بمعرفة ما اذا كانت نبيلة او دنيئة . حتى عندما يحدث لها ان تكذب ، تكون اكثر حقيقة من بول التي كانت لا تكذب البتة . فقد كان هناك رياء حقيقي في قانون السمو الذي اختلقته لنفسها ، وتخيل هنري القناع المترفع الذي كانت ستعارض به هـذا الترف السهل ، وابتسامة دوبروي المندهشة ، ونظرة آن المذعورة . انهم سيهزون جميعاً برؤوسهم في سحنة متجهمة عندما ستظهر هـذه المقابلة وهذه الصور .

وفكر : « صحيح إننا جميعاً طهرانيون إلى حد ما . بما فيهم انا . هذا لأننا نكره ان نوضع امام امتيازاتنا » . كان قد اراد لو يتجنب هـذا الغداء ، كي لا يعترف في نفسه انه يملك الوسائل ليقدمه بنفسه . « ومع ذلـك ، إنني لا أحسب حساباً ، في « البار الأحمر » ، بين الزملاء ، للمال الذي أنفقه في سهرة واحدة » .

ومال نحو جوزيت : « أأنت مسرورة ? » .

فقالت :

— اوه ! انت لطيف جداً ! ليس هناك غيرك .

كان لا بد ان يكون سخيفاً ليضحي بمثل هذه الابتسامة لمقدسات صبيانية . يا للمسكينة جوزيت ! لم تتح لها الفرصة كثيراً لتبتسم . وفكر وهو ينظر اليها: « النساء لسن مرحات » . كانت قصته مع بول تنتهي بشكل يدعو للرثاء، ونادين لم يعرف كيف يمنحها اي شيء . وجوزيت ... حسناً ! سيكون الأمر مختلفاً . كانت تريد أن تصل : سيجعلها تصل . وابتسم في لطف للصحفيين اللذين كانا يقتربان .

عندما وضعته سيارة تاكسي بعد ساعتين امـــام بناية لامبير ، كانت نادين تجتاز الباب الكبير الخاص بالعربات . وابتسمت له في ود . كانت تعتبر انه كان لها الدور الجميل في قصتها وكانت دوماً لطيفة جداً معه .

– آه ! ها انت ايضاً ! ما اكثر الناس الذين يحيطون به ، هذا اليتيم العزيز .

فنظر اليها هنري في شيء من الاستنكار : « انها ليست ظريفة جداً هـــذه القصة » .

فقالت نادين :

– ماذا يهمه اذا كان ذاك الشيخ النذل قد مات ؟ » وهزت كتفيها: «اعرف جيداً ان دوري هو ان اكون راهبـــة محبة ومعزية ، وكل شيء : لكني لا استطيع . كنت اليوم مكتظة بنوايا طيبة : وها هو فولانج يأتي . فانسحبت بسرعة » .

– فولانج فوق ؟

فقالت دون ان يستطيع هنري ان يتبين هل كان في لهجتها اللامبالية مكر ام لا :

– بلى . ان لامبير يراه غالباً .

فقال هنري :

– انني صاعد على كل حال .

– أتمنى لك السرور .

وارتقى الدرج في بطء . كان لامبير يرى فولانج غـــالباً : لمَ لم يقل له ذلك ؟ وفكر : « انه يخشى ان يغيظني هذا » . والحقيقة ان هذا كان يغيظه . وابتسم له لامبير بدون بشاشة :

– آه ! هذا انت ؟ هذا لطيف ...

وقال لويس :

– اي صدفة سعيدة . ها قد مضت أشهر لم نتقابل فيها !

– اشهر ! » واستدار هنري نحو لامبير . كان مظهره يتيماً للغاية في طقمه

الفلانيل الذي كان مبطناً بقماش من الكريب الأسود : طقم كان لا بد للسيد لامبير ان يستحسن اناقتـه الكلاسيكية . وقال : « لعلك لا ترغب في التحرك كثيراً ، هذه الأيام ، لكن هناك اجتماع هـــام بعد ظهر اليوم عند دوبروي . سيكون على « الأمل » ان تتخذ قرارات . أود كثيراً لو ترافقني » .

لم يكن ، في الحقيقة ، بحاجة الى لامبير ، لكنه كان يتمنى ان ينتزعه من اجتراراته . وقال لامبير :

– رأسي في مكان آخر بالأحرى . » وتهالك على مقعد وقال بصوت كئيب : « فولانج واثق من ان أبي لم يقتل في حادث . بل اغتيل » .

فارتعد هنري : « اغتيل ؟ » .

فقال لامبير :

– ابواب القطارات لا تنفتح من نفسها . وهو ما كان لينتحر في اللحظة التي برّيء فيها .

وقال لويس :

– ألا تذكر قصة موليناري، بين « ليون » ، و « فالانس » ؟ وقصة بيرال؟ هما ايضاً سقطا من قطار بعد قليل من تبرئتها .

فقال هنري :

– كان والدك مسناً ، متعباً . ومن الممكن ان يكون انفعال الدعوى قد أثر على عقله .

فهز لامبير رأسه وقال : « سأعرف من فعل ذلك ! سأعرف ! » .

وتشنجت يدا هنري . كان هذا ما يخزه منذ ثمانية ايام : هذه الشبهة . وتضرع في نفسه : « لا ! ليس فانسان ! لا هو ولا غيره ! » . موليناري ، بيرال ، كان هذا سواء بالنسبة له . ومن الجائز جداً ان يكون السيد لامبير الشيخ في مثل نذالتهما . لكنه كان يرى ثانية في دقة كبيرة ذلك الوجه الذي سالت دماؤه على قضبان سكة الحديد ، وجهاً اصفر كانت تضيئه عينان بلون ازرق مندهش . كان لا بد ان يكون ذلك قد حدث .

وقال لويس :

– توجد عصابات قتلة في فرنسا » . ونهض : « ما افظعها تلك الأحقاد التي لا تقبل بأن تموت ! » . وساد صمت وقال بصوت مشجع : « تعال إذن للعشاء ذات مساء في البيت ، فنحن ما عدنا نلتقي ، هذه بلاهة كبيرة . هناك اشياء كثيرة أريد ان اتحدث معك عنها » .

فقال هنري في إبهام :

– ما إن يتاح لي بعض الوقت .

وعندما أطبق الباب وراءه ، سأل هنري : « اكانت صعبة جداً ، تلك الأيام في ليل ؟ » .

فهز لامبير كتفيه ، وقال بصوت مثقل بالكراهية : « يبدو انه ليس من الرجولة ان تهتز عندما يغتالون لك والدك ! يا للحيف ! إنني اعترف ان هذا أذهلني بالأحرى ! » .

فقال هنري :

– انني افهم . وابتسم : » « انها من أفكار امرأة ، قصص الرجولة تلك » .

ما العواطف التي كان لامبير يشعر بها نحو والدة ؟ لم يكن يعترف إلا بالشفقة ، وكان يترك الآخرين يتكهنون بأنه حاقد : لكن لا بد ان ذلك كان يمتزج بالإعجاب ، بالقرف ، بالاحترام ، بحنان خائب . على كل حال ، كان لذلك الرجل اهمية عنده . وقال هنري بصوت عطوف ما امكنه :

– لا تبقَ هكذا في ركنك ، ودمك يغلي . قم بجهد ، تعالَ معي . سيفيدك هذا وستؤدي لي خدمة .

فقال لامبير :

– اوه ، ما دام لك صوتي على كل حال .

فقال هنري :

– افضل ان اسمع رأيك . سكرياسين يزعم ان موظفاً سوفياتياً كبيراً هارباً من الاتحاد السوفياتي قد اتاه بمعلومات مثيرة في غير صالح النظام ، بالطبع . وقد

اقترح على سامازيل ان تساعد « الأمل » و « الطوارىء » و « الاشتراكي الثوري الحر » على إذاعتها ، لكن ما قيمتها ؟ لقد حصلت على بعض منها ، لكن دون أي وسيلة لنقدها .

فانتعش وجه لامبير ، وقال : « آه ! هذا يشوقني » . ونهض فجأة : « هذا يشوقني كثيراً » .

عندما دخلا إلى مكتب دوبروي ، كان هـــذا الأخير بمفرده مع سامازيل . وكان سامازيل يقول :

ـ أدركوا هذا، ان ننشر هذه المعلومات قبل الجميع ، فهذا سيكون مثيراً ! مشروع السنوات الخمس الأخير يعود تاريخه إلى آذار والناس يجهلون منه كل شيء تقريباً . ومسألة معسكرات العمل على الأخص ستبلبل الرأي العام . لاحظوا انها كانت قـــد اثيرت قبل الحرب . ولقد اهتمت بها على الأخص الفئة التي كنت انتسب اليها . لكننا في ذلك الوقت لم نكن نوقظ أي صدى . اما اليوم فإن الجميع يجدون أنفسهم مرغمين على اتخاذ موقف امام مشكلة الاتحاد السوفياتي ، وها بإمكاننا الآن ان نلقي على هذه المشكلة اضواء جديدة .

كان صوت دوبروي يبدو ضئيلاً جداً بعد هذا الطنين الكبير ، وقال : « ان هذا النوع من الشهادة مشبوه ، قبلياً ، مرتين : اولاً لأن المتهم قـد انسجم مدة طويلة جداً مع النظام الذي يفضحه. وثانياً لأنه بعد ان انفصل عنه لا يعود بقدرتنا ان ننتظر منه ان يقيس تهجماته » .

فسأل هنري :

ـ ماذا نعرف عنه على الضبط ؟

فقال سامازيل :

ـ انه يدعى جورج بيلتوف . كان مدير المعهد الزراعي في تبريوكا ... وهرب منذ شهر من المنطقة الروسية الالمانية إلى المنطقة الغربية . وقد تأكدنا من هويته تماماً .

فقال دوبروي :

– لكن ليس من صفته .

فبدرت عن سامازيل بادرة نفاد صبر : « على كل حال ، لقد درستما المصنف الذي سلمنا إياه سكرياسين . ان الروس يعترفون هم انفسهم بوجود المعسكرات والاعتقال الإداري » .

فقال دوبروي :

– موافق . لكن كم عدد البشر في تلك المعسكرات ؟ هذه هي المسألة كلها .

فقال لامبير :

– عندما كنت في المانيا في العام الماضي، كانت الشائعات تنتشر بأنه لم يكن في بوشنوالد ابداً مثل هذا العدد الكبير من السجناء كما حصل بعد التحرير الروسي.

فقال سامازيل :

– خمسة عشر مليوناً تبدو لي فرضية معتدلة جداً .

فكرر لامبير :

– خمسة عشر مليوناً !

وأحس هنري برعب يصعد إلى حلقه . كان قد سمع احاديث عن هذه المعسكرات . لكن بشكل مبهم ، وهو لم يعر ذلك انتباهاً خاصاً ، فقد كانت تروي اشياء كثيرة ! اما بخصوص ذلك المصنف ، فقد تصفحه دونما قناعة . كان يرتاب في سكرياسين ، وقد بدت الأرقام على الورق خيالية خيال الأسماء ذات السجع الغريب . لكن ها هو يتبين ان الموظف الروسي موجود وان دوبروي يأخذ هذه القضية بعين الجد . ان الجهل لمريح جداً ، لكنه لا يقدم قياس الواقع. كان في « الإيل بوروميه » مع جوزيت، وكان الطقس جميلاً ، وكان يسمح لنفسه ببعض وساوس الضمير التي كان من السهل عليه ان يجردها من سلاحها . وأثناء ذلك ، في جميع زوايا الأرض ، كان رجال يستعبدون ، ويجوّعون ، ويُغتالون.

ودخل سكرياسين في حدة إلى الغرفة واتجهت جميع الأنظار نحو المجهول ذي الشعر الأسود والفضي ، والعينين اللامعتين كقطعتين من فحم الانتراسيت، الذي كان يتبعه دون ابتسام ، في وجه ساكن سكون وجه طفل وليد . وكان حاجباه

الفحميان يتصلان فوق الأنف ذي النتوء الحاد وكان طويلاً، وهندامه خالٍ من كل عيب .

وقال سكرياسين :

– صديقي جورج وسنقتصر مؤقتاً على هذا الاسم . » ونظر حواليه : «المكان أمين تماماً ? لا مجال لأن يُفاجأ حديثنا ? من يسكن في الأعلى ? » .

فقال دوبروي :

– استاذ بيانو غير مؤذٍ اطلاقاً . والناس الذين في الأسفل في اجازة .

كانت المرة الأولى التي لا يفكر فيها هنري بالابتسام من تظاهر سكرياسين بالخطورة . فقد كان خيال الوجه الكبير القاتم الى جانبه يضفي على المشهد أبهة مقلقة . وجلس الجميع وقال سكرياسين : يستطيع جورج ان يتكلم بالروسية او الالمانية . ومعه وثائق سيلخصها ويفسرها لكم . ومن بين جميع المسائل التي يستطيع ان يلقي عليها اضواء رهيبة ، فإن مسألة معسكرات العمل اكثرها فورية . ومنها سيبدأ » .

فقال لامبير في حماسة :

– ليتكلم بالالمانية : سأترجم .

– كما تشاء . » وقال سكرياسين بضع كلمات بالروسية وهز جورج رأسه دون ان يتحرك قناعه . كان يبدو مشلولاً بكراهية مؤلمة لا تمحى . وفجأة ، اخذ يتكلم . كانت نظرته لا تزال شاخصة ، متجهة الى داخله نحو رؤى لم تكن من هذا العالم . لكن من فمه الميت كان يفلت صوت متلون ، متحمس جاف وشجي بالتناوب . وكان لامبير مثبتاً عينيه على شفتيه ، كأنه يحل ألغاز لغة انسان ابكم – أصم .

وقال لامبير :

– انه يقول ان علينا ان نفهم اولاً ان وجود معسكرات العمل ليس ظاهرة عرضية وانه يمكننا بالتالي ان نأمل بزوالها ذات يوم . ان برنامج توظيف الدولة السوفياتية يتطلب فائضاً لا يمكن تأمينه إلا عن طريق عمل اضافي . واذا

انخفض ابتهلاك العمال الأحرار الى ادنى من مستوى معيّن ، فإن انتاجية العمل ستتناقص بالقدر نفسه . وهكذا لجؤوا الى الخلق المنظم لبروليتاريا تحية لا تتلقى مقابل اقصى حد من العمل إلا ادنى حد من اسباب الحياة : ومثل هذا التدبير غير ممكن إلا في نظام يعتمد على معسكرات الاعتقال .

كان صمت مأتمي قد خيم على المكتب . لم يكن انسان يتحرك . وتابع جورج الكلام ومن جديد حوّل لامبير الصوت المأساوي الى كلمات : « وجد العمل الإصلاحي منذ بداية النظام . ولكن في عام ١٩٣٤ ، خُولت المباحث السرية ، الحق بالأمر بالاعتقال ، عن طريق تدبير اداري صرف ، في معسكر للعمل لمدة لا تتجاوز الخمس سنوات . اما بالنسبة للعقوبات الأطول مدة ، فلا بد من حكم سابق . وقد فرغت المعسكرات جزئياً بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ . فقد جند كثير من السجناء في الجيش ، ومات غيرهم من المجاعة . لكنها اخذت بالامتلاء من جديد منذ سنة » .

وراح جورج يشير على الأوراق المبسوطة امامه الى اسماء ، وارقام ، وكان لامبير يترجم بعده . كاراغاندا ، تزاردكوي ، اوزبيك . لم تكن كلمات : كانت قطعاً من السهوب الجليدية ، من المستنقعات ، من المآوي الخشبية العفنة حيث يشتغل رجال ونساء اربع عشرة ساعة في اليوم مقابل ستمئة غرام من الخبز . ويموتون من البرد ، ومن داء الحفر [1] ، والزحار ، والانهاك . وما إن يصبحوا اضعف من ان يستطيعوا العمل ، حتى يسجنوهم في مستشفيات حيث يجوّعونهم بشكل منظم حتى الموت . وقال هنري في نفسه في تمرد : « ولكن هل هذا صحيح ؟ » . كان جورج مشبوهاً ، وروسيا بعيدة للغاية ، والناس يروون عنها كثيراً من الأشياء !

ونظر إلى دوبروي الذي ما كان وجهه المغلق ليعبر عن شيء . كان دوبروي قد اختار ان يشك : فالشك هو الدفاع الاول ، لكن يجب ألا نثق به أيضاً . ان هناك أشياء حقيقية ، بين كل هذه الأمور التي تروى . لقد شكّ هنري عام

---

١ ـ مرض يفسد الدم . «المترجم»

١٩٣٨ في ان الحرب ستندلع في الغد . وفي عام ١٩٤٠ شك في وجود غرف الغاز. كان جورج يبالغ بالتأكيد : لكنه بالتأكيد لم يخترع كل شيء . وفتح هنري على ركبتيه المصنف السميك . ان كل ما قرأه في غفلة قبل بضع ساعات يأخذ الآن فجأة معنى رهيباً . كان فيه نصوص رسمية ، مترجمة إلى الانكليزية ، تسلم بوجود المعسكرات . وليس بإمكان المرء بدون نية سيئة ان يكذّب دفعة واحدة كافة هذه الشهادات الصادر بعضها عن مراقبين اميركان ، والبعض الآخر عن منفيين سُلموا إلى النازيين ووُجدوا في سجونهم . من المستحيل انكار ذلك : في الاتحاد السوفياتي ايضاً يوجد بشر يستعبدون حتى الموت بشراً آخرين .

عندما صمت جورج ، ساد صمت طويل . وقال سكرياسين :

ـ لقد قبلتم في مازوشية طبيعية عند المثقفين بفكرة دكتاتورية فكرية. لكن هذه الجرائم المنظمة ضد الانسان ، ضد جميع البشر ، هل تستطيعون ان ترضوا بها ؟

فقال سامازيل :

ـ يخيل إلي ان لا مجال للشك في الجواب .

فقال دوبروى بصوت جاف :

ـ أسألك العفو ، فبالنسبة لي يوجد شك . انني لا اعرف لماذا هرب صديقك ولا لماذا تعاون صديقك مع هذا النظام الذي يفضحه أمامنا . افترض ان اسبابه كانت ممتازة . لكني لا أريد المخاطرة في الاشتراك في مناورة ضد السوفييت .على كل حال نحن لسنا مخولين بإجابتك باسم « الاشتراكي الثوري الحر » : فنصف اللجنة فقط حاضرة .

فقال سامازيل :

ـ إذا كنا متفقين فسننال موافقتها بالتأكيد .

ـ كيف تستطيعون التردد ! » كان وجـه لامبير يلمع استنكاراً : « حتى عندما يكون ربع ما يرويه فقط صحيحاً ، يجب اذاعته فوراً ، من الف مكبر للصوت . انتم لا تعرفون ما المعسكر ! سواء كان روسياً او نازياً ، فهـذا شيء

متماثل : اننا لم نحارب البعض لنشجع الآخرين ... »

فهزّ دوبروي كتفيه : « على كل حال ليس من شأننا ان نعدل نظام الاتحاد السوفياتي ، لكن فقط ان نؤثر اليوم في فرنسا على الفكرة التي يكونها الناس عن الاتحاد السوفياتي .

فقال لامبير :

– لهذا فان هذه القضيه تعنينا مباشرة .

فقال دوبروي :

– موافق ، لكننا سنكون مجرمين اذا تبنيناها دون معلومات كافية .

فقال سكرياسين :

– بتعبير آخر ، انت تشك في كلام جورج ؟

– انني لا اعتبره انجيلاً .

فضرب سكرياسين على المصنف الموضوع على المكتب :

– وهذا كله ، ماذا تفعل به ؟

فهز دوبروي برأسه : « اقدر انه ما من واقعة قد تأكدت جدياً » .

فأخذ سكرياسين يتكلم بالروسية في بعبعة . وأجـــابه جورج بصوت ثابت الجنان :

– جورج يقول انه يتكفل بتقديم ادلة حاسمة لكم . ارسلوا شخصاً إلى المانيا الغربية : لديه هناك اصدقاء سيقدمون لكم معلومات دقيقة عن المعسكرات في المنطقة السوفياتية . ثم ، لقد وجدت في سجلات الرايخ بعض الوثائق المقدمة من الاتحـــاد السوفياتي بعد الحلف الجرماني – السوفيـــاتي : انها تدل على ارقام تستطيعون ان تستخلصوا منها حقائق .

فقال لامبير :

– سأذهب إلى المانيا . وفوراً .

فنظر اليه سكرياسين نظرة استحسان ، وقال :

– تعال ، لرؤيتي . انهـــا مهمة دقيقة يجب تهيئتها في عنـــاية . » واستدار

سكرياسين نحو دوبروي : « إذا أتيناك بالأدلة التي تطلبها ، فهل أنت عازم على الكلام ؟ » .

فقال دوبروي في نفاد صبر :

– ائت بأدلتك وستقرر اللجنة . وبانتظار ذلك ، ليس هذا كله إلا ثرثرة .

ونهض سكرياسين ، وكذلك جورج : « أسألكم جميعاً السرية المطلقة لهذه المحادثة . لقد حرص جورج على لقائكم شخصياً : لكنكم تتصورون اي اخطار تهدده في مدينة مثل باريس » .

وهزوا جميعاً برؤوسهم في حركة تدعو للاطمئنان : وانحنى جورج في تخشب وتبع سكرياسين دون ان يضيف كلمة .

وقال سامازيل :

– انني آسف لهذا التأجيل . ليس هناك أي شك ، فيما يتعلق بلب المشكلة . نستطيع ان ننشر فوراً نبذاً من القانون وسيكفي هذا لإثارة الرأي العام .

فقال دوبروي :

– إثارة الرأي العام ضد الاتحاد السوفياتي ! هذا بالضبط ما يجب ان نتجنبه : وخاصة الآن .

فقال سامازيل :

– لكنه ليس اليمين الذي سيستفيد من هذه الحملة : بل « الثوري الاشتراكي الحر » ، وهو بحاجة كبيرة إلى ذلك ! لقد تبدل الموقف منذ الانتخابات . » وأضاف في احتداد : « واذا عاندنا في مراعاة الطرفين ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » هالك . ان نجاح الشيوعيين سيدفع الكثيرين المترددين إلى العزم على التسجل في الحزب الشيوعي . وكثيرون سيلقون بأنفسهم من الرعب بين ذراعي الرجعية . اما الاولون ، فنحن لا نستطيع شيئاً لهم . أما الآخرون ، فنحن نستطيع أن ننالهم اذا هاجمنا بصراحة الستالينية واذا وعدنا بتجمع يساري مستقل عن موسكو » .

فقال دوبروي :

– يسار غريب ، سيضم معادين للشيوعية حول برنامج معادٍ للشيوعية !

فقال سامازيل بصوت غاضب :

— أتعرف ماذا سيحدث ؟ إذا تابعنا هكذا ، فان « الاشتراكي الثوري الحر » لن يعود بعد شهرين إلا فئة صغيرة من المثقفين خاضعة للشيوعيين ، يحتقرونها ويلعبون بها في آن واحد .

فقال دوبروي :

— ما من أحد يلعب بنا !

كان هنري يصغي من خلال ضباب هذه الاصوات المستثارة . لم يكن يبالي في تلك اللحظة بمصير « الاشتراكي الثوري الحر » . إلى أي مدى قال جورج الحقيقة ، هذا هو السؤال . اللهم ان لم يكن قد كذب على طول الخط ، فمن المستحيل أن يفكر بعد الآن بالاتحاد السوفياتي كما كان يفكر به سابقاً ، ولا بد من اعادة النظر في كل شيء . لم يكن دوبروي يريد ان يعيد النظر في أي شيء ، كان يحتمي في الارتيابية . ولم يكن سامازيل ينتظر إلا هذه المناسبة لينفجر ضد الشيوعيين . ولم يكن لدى هنري أي رغبة في القطيعة مع الشيوعيين : لكنه لم يكن يريد ايضاً ان يكذب على نفسه . ونهض : « المسألة كلها ان نعرف هل قال جورج الحقيقة أم لا . وبانتظار ذلك ، نحن نتكلم في الفراغ » .

فقال دوبروي :

— هذا رأيي تماماً .

وخرج لامبير وسامازيل مع هنري . وما كاد الباب يطبق وراءهم حتى دمدم لامبير : « صحيح ان دوبروي مباع ! انه يريد ان يطفىء هذه القضية . لكنه هذه المرة ، لا يتاح له شرف ذلك » .

فقال سامازيل :

— لسوء الحظ ، ان اللجنة تتبعه دوماً . وفي الواقع ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، إنما هو .

فقال لامبير :

— لكن « الأمل » غير مرغمة على إطاعة « الاشتراكي الثوري الحر » .

فابتسم سامازيل : « آه ! انت تثـــير مسألة خطيرة ! » . وأضاف بصوت حالم : « بديهي ، إذا قررنا ان نتكلم فوراً ، فلن يستطيع احد ان يمنعنا مــــن ذلك ! » . فنظر اليه هنري في دهشة : « أتفكر بقطعية بين «الأمل» و «الاشتراكي الثوري الحر » ? ماذا بك ?

فقال سامازيل :

– على النحو الذي تسير عليه الأمور ، فلن يعود لـ «الاشتراكي الثوري الحر» وجود خلال شهرين . انني أتمنى ان تبقى « الأمل » بعده !

وابتعد وهو يبتسم ابتسامته الكبيرة الصريحة واستند هنري إلى إفريز الرصيف . وقال :

– انني أتساءل عما يطبخه !

فقال لامبير :

– اذا كان يتمنى ان تعود « الامل » جريدة حرة ، فهو على حق ! فهنـــاك أعادوا العبودية . وهنا يغتالون ! ويريدون ألا نحتج !

فنظر هنري إلى لامبير : « فيما اذا كان سامازيل سيقترح قطيعة ، فلا تنس ما وعدتني به : انك ستؤيدني في كل حالة » .

فقال لامبير :

– موافق . كل ما هنالك انني أحذرك : اذا عاند دوبروي في إطفاء القضية، فإنني سأترك الجريدة ، وأبيع حصصي .

فقال هنري :

– اسمع ، لا يمكننا تقرير شيء قبل ان تتأكد الوقائع .

فقال لامبير :

– من سيقرر انها تأكدت ؟

– اللجنة .

– أي دوبروي . اذا كان متحيزاً مسبقاً ، فلن يرضى بالاقتناع !

فقال هنري في شيء من التأنيب :

– ان الاقتناع بدون برهان لتحيز مسبق ايضاً !

فقال لامبير في حرارة :

– لا تقل لي ان جورج قد اخترع ذلك كله ! لا تقل لي ان هذه الوثائق كلها مزيفه؟ » وتفرس في وجه هنري في شك: « انت موافق انه اذا كان ذلك صحيحاً، فيجب قوله ؟ » .

فقال هنري :

– نعم .

– إذن ، حسناً . سأرحل إلى المانيا في أسرع ما يمكن ، واقسم لـــك انني هناك لن أضيع وقتي . » وابتسم : « أأضعك في مكان ما ؟ » .

فقال هنري :

– كلا ، شكراً ، سأسير قليلاً .

كان سيذهب للعشاء عند بول ولم يكن يستعجل رؤيتها ثانية . وأخذ يسير في خطى صغيرة . قول الحقيقة : ان هذا لم يطرح مشاكل جدية حتى الآن . لقد اجاب لامبير بنعم دون تردد : كان ذلك شبه فعل انعكاسي . لكنه في الواقع لم يكن يعرف لا ماذا عليه ان يصدق ولا ماذا عليه ان يفعل ، لم يكن يعرف شيئاً : كان لا يزال مذهولاً كأنه تلقى ضربة قوية على رأسه . بديهي ، ان جورج لم يخترع كل شيء . بل ربما كان ايضاً صادقاً . كانت هنـاك معسكرات استحال فيها خمسة عشر مليون شغيل إلى ما ادنى من البشر . لكن بفضل هـذه المعسكرات قهرت النازية واخذ بلد كبير يبني نفسه، تتجسد فيه الفرصة الوحيدة لألف مليون ممن هم دون البشر يعيشون في الجوع في الصـــين والهند ، الفرصة الوحيدة لملايين العمال الخاضعين لوضع لاانساني ، فرصتنا الوحيدة . وتساءل في خوف: « هل ستفلت منا هي الأخرى؟ » . كان يتبين انه لم يضعها ابداً على بساط البحث جدياً . كان يعرف نواقص الاتحاد السوفياتي واخطاءه : لكن هـــذا لا يمنع ان الاشتراكية ، الاشتراكية الحقيقية ، التي ستتوافق فيها العدالة والحرية ، ستنتهي ذات يوم إلى الانتصار في الاتحاد السوفياتي ، وعن طريـــق الاتحاد

السوفياتي . واذا كان هذا اليقين يهجره هذا المساء ، فإن المستقبل كله سيغوص في الظلمات : ولم يكن يلمح في اي مكان آخر حتى ولا سراباً من أمل . وتساءل : « ألهذا السبب احتمي في الشك ؟ هل ارفض البداهة جبناً ، لأن الهواء لن يعود قابلاً للتنفس اذا لم تعد هناك زاوية في الأرض يمكننا ان نلتفت نحوها في شيء من الثقة ؟ » وفكر : « ام على العكس ، لعلني اغش بترحيبي بصور الفظاعة . فما دمت لا استطيع ان انضم الى الشيوعية ، فمن دواعي الطمأنينة ان اكرهها نهائياً . لو كنا فقط نستطيع ان نكون معها تماماً ، او ضدها تماماً ! لكن لكي نكون ضدها ، فلا بد ان يكون لدينا فرص اخرى نقدمها للبشر : ومن الواضح جداً ان الثورة ستتم عن طريق الاتحاد السوفياتي ، او لن تتم . مع ذلك اذا لم يكن الاتحاد السوفياتي قد فعل شيئاً سوى إحلال نظام اضطهاد مكان نظام آخر ، اذا كان قد أعاد العبودية ، فكيف نحتفظ نحوه بأقل صداقة ؟... » . وقال هنري في نفسه : « لعل الشر في كل مكان » . كان يتذكر تلك الليلة في ملجأ في جبال « سيفين » حيث نام في غبطة في نعيم البراءة : اذا كان الشر في كل مكان ، فلا وجود للبراءة . ومهما سيفعل ، فسيكون مخطئاً : مخطئاً اذا اذاع حقيقة ناقصة ، مخطئاً اذا اخفى الحقيقة ولو كانت ناقصة . اذا كان الشر في كل مكان ، فليس هناك اي مخرج ، لا للانسانية ولا له . هل سيتوجب الوصول إلى التفكير بهذا ؟ وجلس ونظر في بلاهة الى جريان الماء .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني

المثقفون

-٢-

سيمون دو بوفوار

المثقفون

رواية

الجزء الثاني

ترجمة : جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الفصل السادس

كنت تائهة فرحاً وفضولاً مساء هبوطي بالطائرة الى«لاغوارديا[1]»،وأمضيت الاسبوع التالي أكظم غيظي . نعم ، كنت لا أعرف شيئاً من آخر ما حققه التحليل النفسي الاميركي من تقدم . وكانت جلسات المؤتمر مفيدة علمياً فائدة كبيرة وكذلك أحاديث زملائي . لكني كنت أرغب ايضاً في رؤية نيويورك ، وكانوا يمنعونني من ذلك في اخلاص مثير للاعصاب . كانوا ينفونني في فنادق مفرطة التدفئة . ومطاعم مكيفة الهواء ، ومكاتب فخمة ، وشقات مترفة ولم يكن من السهل ان افلت منهم . وعندما كانوا يعيدونني الى فندقي بعد العشاء ، كنت اجتاز قاعة المدخل في سرعة واخرج من باب آخر . كنت استيقظ عند الفجر وأذهب لأتنزه قبل جلسة الصباح . لكني ما كنت أستخلص شيئاً كبيراً من أوقات الحرية هذه التي كنت اختلسها اختلاساً . كنت أتبين ان العزلة ، في اميركا ، لا مجال لها . وكنت قلقة وانا اغادر نيويورك ، شيكاغو ، سان لويس ، اورليانس الجديدة ، فيلادلفيا ، ونيويورك من جديد ، وبوسطن ومونتريال : جولة جميلة . وكان لا بد ايضاً ان تقدم لي الوسائل للاستفادة منها . وقد دلني زملائي على عناوين اشخاص يعيشون في مسقط رأسهم ، يُسرّون بتعريفي على مدينتهم . لكن كانوا جميعاً أطباء ، واساتذة ، وكتاباً ، وكنت مرتابة .

كانت الجولة خاسرة سلفاً ، على كل حال ، بالنسبة لشيكاغو . فلم أقضِ فيها سوى يومين وكانت هناك سيدتان عجوزان تنتظرانني في المطار . وأخذتاني

---

١ – مطار نيويورك – المترجم .

لتناول طعام الغداء مع سيدات عجائز ايضاً لم يتركنني طوال النهار . وبعد محاضرتي ، أكلت سراطين بحر بين سيدين منشّيين، وكان سأمي متعباً جداً انني صعدت لأنام فور عودتي الى الفندق .

وكان الغضب هو الذي أيقظني صباحاً. وقررت: «لا يمكن ان يدوم هذا». ورفعت سماعة التلفون : « كنت ثائرة الاعصاب ، انني اعتذر ، لكن زكاماً يرغمني على البقاء في الفراش».ثم قفزت فرحة من السرير.لكني في الشارع خففت من ادّعائي . كان الطقس بارداً جداً . وكنت اشعر انني ضائعة تماماً بين سلك حديد الحافلات والمترو الجوي.لا فائدة من المشي ساعات : لن استطيع الذهاب الى أي مكان . وفتحت دفتر مذكراتي . ليويس بروغان ، كاتب . لعل هذا افضل من لا شيء . ومن جديد تلفنت . وقلت لبروغان هذا انني صديقة لآل « بنسون » ، وقد كتبوا له بدون شك لإعلامه بمجيئي : موافق ، سيكون في قاعة فندقي في الساعة الثانية من بعد الظهر . وقلت : « انا التي سأمر لآخذك ». ووضعت السماعة . كنت اكره فندقي ، ورائحة المطهرات والدولارات فيه ، وكان يسليني ان آخذ سيارة تاكسي لأذهب الى مكان محدد ، لأرى أحداً .

وعبر التاكسي جسوراً ، وسكك حديد، ومخازن ، وسار في شوارع كانت جميعَ الدكاكين فيها ايطالية . وتوقف عند زاوية ممر تفوح منه رائحة الورق المحترق ، والارض المبللة ، والفقر . وأشار السائق الى جدار من القرميد تتشبث به شرفة خشبية . « هنا » . وسرت بين صف من الاشجار . كانت الى يساري حانة مزدانة بلافتة حمراء مطفأة الانوار : « شليتز » . والى يميني ، كانت اسرة اميركية مثالية ، على إعلان كبير ، تستروح ضاحكة صحناً من البوريدج » . وكانت علبة قمامة تدخّن عند اسفل درج خشبي . وارتقيت الدرج. ووجدت ، على الشرفة ، باباً مزججاً تحميه ستارة صفراء : لا بد ان الشقة هنا . لكني فجأة شعرت انني خجلة . إن في الغنى دوماً شيئاً عمومياً ، لكن حياة فقير شيء صميمي . كان يبدو لي أن القرع على هذا الزجاج ليس رصيناً . ونظرت في تردد الى جدران القرميد التي تتشبث بها في رتابة ادراج اخرى وشرفات رمادية

اخرى . وكنت ألمح من فوق الاسطحة اسطوانة ضخمة حمراء وبيضاء : خزان غاز . وكانت هناك ، تحت قدمي ، وسط مربـع من الارض الجرداء ، شجرة سوداء تماماً وطاحونة صغيرة زرقاء الاجنحة . ومن بعيد مر قطار ، فارتعدت الشرفة . وقرعت ، ورأيت رجلاً شاباً بما فيه الكفاية ، طويلاً بما فيه الكفاية : متصلب الجذع في سترة جلدية ، يظهر . وتفحصني في دهشة .

– وجدت البيت ؟

– هذا ما يبدو لي .

كانت مدفأة سوداء تشخر وسط مطبـخ اصفر . وكان اللينوليوم مغطى بصحف قديمة ، ولاحظت انه لا توجد ثلاجة . وأشار بروغان الى الاوراق بحركة مبهمة : « كنت ارتب » .

– آمل انني لا ازعجك .

– كلا .

وظل مغروساً امامي في سيماء من حرج : « لماذا لم ترغبي في ان اذهب لآخذك من فندقك ؟ » .

– انه مكان رهيب .

ورسم فم بروغان أخيراً ابتسامة : « انه اجمل فندق في شيكاغو » .

– بالضبط . كثير من السجاد ، كثير من الزهور ، كثير من الناس ، كثير من الموسيقى ، كثير من كل شيء .

وصعدت ابتسامة بروغان حتى عينيه :

– ادخلي اذن من هنا .

ورأيت اولاً الغطاء المكسيكي ، والكرسي الاصفر لفان غوخ ، ثم الكتب ، والبيك آب ، والآلة الكاتبة . لا بد ان من المستطاب العيش في هذه الغرفة التي ليست استديو رجل يتذوق الجمال ، ولا عينة من البيت الاميركي المثالي . وقلت في انطلاق : « بيتك لطيف » .

– أترين ذلك ؟ » كان بروغان يسأل الجدران بنظراته : « انـه ليس

كبيراً » . وساد صمت من جديد وقال في تسرع : « ألا تريدين ان تخلعي معطفك ؟ ما رأيك بفنجان قهوة ؟ لدي اسطوانات فرنسية، هل تحبين سماعها ؟ اسطوانات لشارل ترينيه ؟ » .

لا شك في انني بسبب المدفأة الكبيرة التي كانت تشخر، او لأن ظل الشجرة السوداء كان يرتعد على الستارة المذهبة بشمس شباط الباردة ، فكرت فوراً : « من المستطاب ان امضي النهار جالسة على الغطاء المكسيكي » . ولكني انما تلفنت لبروغان لزيارة شيكاغو . وقلت في حزم :

– اود ان ارى شيكاغو : انني راحلة غداً صباحاً .

– شيكاغو كبيرة .

– أرني منها قطعة صغيرة .

فلبس سترته الجلدية وقال بصوت قلق : « هل يجب ان ألبس ؟ » .

– يا لهذه الفكرة ! انني أكره القبّات القاسية !

فاحتج في حرارة :

– لم اضع قط قبة قاسية في حياتي ...

وللمرة الاولى التقت ابتسامتانا ، لكنه لم يكن يبدو عليه انه قد اطمأن تماماً :

– ألا تحرصين على رؤية المسالخ ؟

– كلا . لنتنزه في الشوارع .

كان هناك شوارع كثيرة وكانت متشابهة كافة. وكانت محفوفة ببيوت خشبية متعبة وبأراض بور تحاول ان تشبه بساتين الضواحي الصغيرة . وسرنا أيضاً في شوارع طويلة مستقيمة وقاتمة . وفي كل مكان كان الجو بارداً . وكان بروغان يلمس اذنيه في قلق : « لقد تخشّبتا ، سوف تنقصفان الى قسمين » .

وأشفقت عليه : « لندخل الى بار لنتدفأ » .

ودخلنا الى بار . وطلب بروغان «جنجر ايل» ، وطلبت أنا نبيذ البوربون. وعندما خرجنا كان الجو لا يزال بارداً . ودخلنا الى بار ثان وأخذنا نتحدث .

كان قد أمضى بضعة أشهر في معسكر في « آردين[1] » ، بعد الانزال ، وكان يطرح علي أسئلة كثيرة عن فرنسا ، والحرب ، والاحتلال ، وباريس . وسألته أنا أيضاً . كان يبدو سعيداً كل السعادة بأن اصغي اليه ، لكنه كان مرتبكاً في سرد حياته . كان ينتزع من نفسه جملاً في تردد ثم يلقي بها إلي في اندفاع كبير ، حتى انني كنت أشعر في كل مرة انني أتلقى هدية. كان قد ولد في جنوب شيكاغو من أب عطار بسيط من أصل فنلندي ومن ام يهودية هنغارية . وكان في العشرين ايام الأزمة الكبرى ، وقد تسكع عبر اميركا، مختبئاً في عربات البضائع ، كبائع جوال ، وغطاس ، وخادم ، وممسد ، وحفار ، وبنّاء ، وبائع ، بالتناوب ، وعند الحاجة كنشال . وفي محطة ضائعة في الأريزونا حيث كان يغسل الاقداح كتب اقصوصة نشرتها مجلة يسارية. وعند ذاك كتب غيرها . ومنذ نجاح روايته الاولى أجرى له أحد الناشرين راتباً يسمح له بالعيش .

وقلت :

— أود كثيراً لو أقرأه ، هذا الكتاب .

— التالي سيكون أفضل .

— لكن هذا قد كتب .

وتفحصني بروغان في حيرة : « أتريدين حقاً ان تقرأيه ؟ » .

— نعم ، حقاً .

فنهض ، وسار نحو التلفون ، في صدر الغرفة . وعاد بعد ثلاث دقائق : « سيكون الكتاب في فندقك قبل العشاء » .

فقلت في حرارة : « اوه ! شكراً ! » .

لقد لمست قلبي حماسة بادرته. كان هذا ما جعله يبدو في نظري فوراً جذاباً: تلقائيته . كان يجهل الجمل المصنوعة وطقوس الأدب . وكان يباده في مجاملاته ، فتشبه ابتكارات الحنان . في البداية ، تلهّيت بلقاء هذه العينة الاميركية

---

١ — هضبة في فرنسا كثيرة الغابات ، كانت ميداناً لمعارك طاحنة في الحربين العالميتين . « المترجم » .

الكلاسيكية لحماً وعظماً : كاتب – يساري – صنع نفسه – بنفسه . اما الآن ، فإنني انما اهتم ببروغان . كنت أشعر من خلال حكاياه انه لا يعترف لنفسه بأي حق على الحياة ولكنه رغب دوماً رغبة حماسية في العيش . وكان هـذا الخليط من التواضع والنهم يعجبني .

وسألت :

– من أين أتتك فكرة الكتابة ؟

– لقد احببت دوماً الورق المطبوع : عندما كنت طفلاً كنت أصنع جريدة بلصق قصاصات الصحف على دفتر .

– لا بد ان هناك اسباباً اخرى ؟

ففكر : « اعرف كميات من اناس مختلفين : انني أرغب في ان اظهر لكل منهم كيف هم الآخرون حقـاً . فأكاذيب كثيرة تروى عنهم » وصمت لحظة : « في العشرين ، فهمت ان جميع الناس كانوا يكذبون علي وأثار هـــذا في نفسي غضباً كبيراً ، وأعتقد انني لهذا بدأت اكتب ولا أزال مستمراً ... » .

– أما زلت غاضباً ؟

فقال في ابتسامة صغيرة مكتومة :

– بقدر متفاوت .

فسألت :

– ألا تعمل في السياسة ؟

– انني أعمل اشياء صغيرة .

بمجمل القول ، لقد كان في وضع روبير وهنري تقريباً . لكنه كان ينسجم مع وضعه في هدوء غريب جداً . كانت الكتابة ، والحديث في الراديو وأحيانـاً في المؤتمرات لفضح بعض الاستغلالات ، يرضيانه تماماً . ولقد قيل لي هــذا سلفاً : المثقفون هنا يستطيعون ان يعيشوا في أمــان لأنهم يعرفون انهم عاجزون كلياً .

– هل لك اصدقاء كتّاب ؟

فقال في اندفاع :

– « اواه ! كلا ! » وابتسم : « لي اصدقاء أخذوا في الكتابة عندما رأوا انني اربح مالاً بمجرد ان أظل جالساً امـــام آلتي الكاتبة ، لكنهم لم يصبحوا كتّاباً » .

– هل ربحوا مالاً ؟

فأخذ يضحك في صراحة : « أحدهم كتب خمسمئة صفحة في شهر واحد . واضطر الى دفع مبلغ كبير لطبعها ومنعته زوجته من المعاودة . فعاد الى مهنته كنشّال » .

فسألت :

– أهي مهنة جيدة ؟

– هذا يتوقّف . في شيكاغو ، توجد منافسة ضخمة .

– أتعرف الكثير من النشالين ؟

فنظر إليّ نظرة ساخرة قليلاً : « نصف دزينة » .

– ومن رجال العصابات ؟

فأصبح وجه بروغان جدياً : « رجال العصابات جميعاً أنذال .

وبدأ يعرض لي في سرعة الدور الذي لعبه رجـــال العصابات في السنوات الأخيرة هـــذه كمحطمي اضرابات . ثم روى لي كمية من القصص عن علاقاتهم بالبوليس ، بالسياسة ، بالأعمال . كان يتكلم بسرعة وكنت أجد بعض المشقة في متابعته ، لكن ذلك كان مثيراً للحماسة كفيلم لإدوار روبنسون. وتوقف فجأة .

– ألست جائعة ؟

فقلت :

– بلى . الآن وقد جعلتني افكر بذلك ، فإنني جائعة كثيراً .

وأضفت في مرح : – انت تعرف قصصاً كثيرة .

فقال :

– أوه ! لو لم اكن اعرف ، لابتكرت . للذة رؤيتك تصغين .

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ، لقد هرب الوقت بسرعـــة . وأخذني

بروغـــان للعشاء في مطعم ايطالي ، وبينما كان يأ كل صحن « بيزا » ، كنت أتساءل لماذا أشعر بأنني مرتاحة جداً ، الى جانبه . لم أكن أعرف شيئاً عنـــه تقريباً ، ومع ذلك لم يكن يبـــدو لي غريباً قط . لعل هـــذا يعود إلى فقره اللامبالي . ان النشاء والاناقة ، والتظرف ، تخلق مسافات . عندما كان بروغان يفتح سترته على كنزته القديمة ، عندمـــا كان يقفلها ، كنت أشعر قربي بالحضور الواثق لجسد يحس ببرد او بحرّ ، جسد حي . كان قد لمّح حذاءه بنفسه : وكان حسبي ان انظر إليه لأدخل في صميميته. وعندما تناول ذراعي ، ونحن خارجان من مطعم « البيزا » ليساعدني على السير على الارض الجلدية ، بدت لي حرارتـــه فوراً مألوفة .

وقال لي :

— هيا ! سأريك على كل حال بضع صغيرة من شيكاغو .

وجلسنا في مسرح هزلي لنتفرج على نساء يخلعن ثيابهن على أنغام الموسيقى . وسمعنا موسيقى الجاز في مرقص صغير أسود . وشربنا في بار يشبه ملجأ ليلياً . كان بروغان يعرف جميع الناس . عازف البـــيان في المسرح الهزلي ، الموشوم المصمين ، وعازف البوق الأسود في المرقص ، والمتشردين ، والزنوج وعاهرات البار العجائز . كان يدعوهم الى طاولتنا ، ويجعلهم يتحدثون وهو ينظر إلي في سيماء من سعادة ، لأنه كان يرى انني كنت اتسلـّى . وعندما وجدنا نفسينا ثانية في الشارع ، قلت في اندفاع : « انني مدينـــة لك بأفضل سهرة لي في اميركا » .

فقال بروغان :

— هناك أشياء كثيرة وددت لو أريك اياها !

كان الليل ينتهي ، والفجر على وشك الولادة ، وشيكاغو على وشك الاختفاء الى الأبد . لكن فولاذ المترو الجوي كان يخفي عنا اللطخة البرصاء التي أخـــذت تتأ كل السماء . كان بروغان يمسكني من ذراعي . وكانت القناطر السود ، امامنا ، ووراءنا ، تتكرر الى ما لا نهاية . وكنت أشعر انها الأرض واننا سنسير هكذا الى الأبد . وقلت :

– ان نهاراً واحداً مدة قصيرة جداً . يجب ان أعود .

فقال بروغان :

– عودي . » وأضاف بصوت سريع : « لا اريد ان افكر انـني لن أراك ثانية » .

وتابعنا السير في صمت حتى محطة سيارات التاكسي . وعندما قرّب وجهه من وجهي ، لم أستطع ان امنع نفسي من إشاحة رأسي ، لكني احسست بأنفاسه على فمي .

وفي القطار ، بعد عدة ساعات ، بينما كنت احاول ان اقرأ رواية بروغان أنـَّبت نفسي : « هذا سخيف ، في عمري ! » . لكن فمي كان لا يزال منفعلاً كفم عذراء . لم أكن قد قبّلت قط الا الرجال الذين نمت معهم . وعندما كنت أتذكر ظل القبلة ذاك ، كان يخيل إلي انني سأجد ثانية في أعماق ذاكرتي ذكريات حب محرقة . وقلت في نفسي في تصميم : « سأعود » . ثم فكرت : « ومـا الفائدة ؟ سيتوجب من جديد ان نفترق ، ولكن باستطاعتي ان اقول : سأعود . كلا ، كان من الأفضل ان اوقف النفقات فوراً » .

ولم آسف على شيكاغو . وفهمت بسرعة ان هذا يشكل جزءاً من متع السفر ، اقصد الصداقات التي ليس لها من غـد ، والتمزق الصغير في لحظات الفراق . واعتزلت الناس المملين في حزم ، ولم اعاشر الا الذين كانوا يسلونني . كنا نمضي فترات بعد الظهر في التنزه ، والليالي في الشرب والنقاش ، ثم نفترق كي لا نلتقي ثانية أبداً . ولم يكن اي منا يشعر بأسف . ما كان أسهل الحياة ! لا أسف ، لا واجب ، ولا حساب لاي حركة من حركاتي ، وما كانت تطلب مني النصيحة ، ولم أكن اعرف من قاعدة الا نزواتي . وفي اوليانس الجديدة ، بعد ان خرجت من دار سكرت فيها بمشروب « الديكيري » ، اخذت فجأة الطائرة الى فلوريدا . وفي لانشبورغ ، استأجرت سيارة وتنزهت طوال ثمانية أيام عبر اراضي فرجينيا الحمر . وإثناء إقامتي الثانية في نيويورك ، لم اغمض عيني تقريباً . فقـد رأيت خليطاً كبيراً من الناس ، وتسكعت في كل مكان . واقترح علي آل دافيس إن

ارافقهم الى هارتفورد ، وبعد ساعتين كنت اركب معهم في السيارة : ان اعيش بضعة ايام في منزل الريف الاميركي ، يا للحظ غير المتوقع . ! كان منزلاً خشبياً جميلاً للغاية ، أبيض ، مطلياً ، له نوافذ في كل شبر منه . كانت ميريام تنحت ، والابنة تأخذ دروساً في الرقص ، والابن يكتب قصائد غير مفهومة . كان في الثلاثين وله جلد طفل ، وعينان مأساويتان وأنف فاتن . وفي المساء الاول ، بينما كانت نانسي تروي لي احزان قلبها ، كانت تتلهى بتنكيري في ثوب مكسيكي عريض ، واسبلت شعري على كتفي . وقال لي فيليب : « لماذا لا تسرحين شعرك هكذا دوماً ؟ لكأنك تتعمّدين ان تهرمي ».وراقصني الى ساعة متأخرة ليلاً . ولكي اعجبه ، تابعت في الايام التالية التنكر في إهاب صبية . كنت أفهم جيداً لماذا يغازلني. كنت قادمة من باريس،ثم انني كنت في السن نفسها التي كانت فيها ميريام ايام مراهقته . كنت على كل حال متأثرة . كان ينظم من اجلي حفلات راقصة ، ويبتكر لي حفلات كوكتيل، ويعزف لي على قيثارته أغاني رعاة بقر جميلة جداً ، وينزهني عبر القرى الطهرانية القديمة . وعشية رحيلي ، بقينا في غرفة الجلوس بعد الآخرين، ورحنا نستمع الى اسطوانات ونحن نشرب الوسكي ، فقال لي بصوت حزين :

– يا لها من خسارة اذ لم أعرفك في نيويورك معرفة أفضل . كنت عبدت الخروج معك في نيويورك !

فقلت :

– يمكن ان تعود هذه الفرصة . بعد عشرة ايام سأرجع الى نيويورك : ربما ستكون فيها .

فقال وهو ينظر الي في جدّ :

– على كل حال استطيع ان آتي اليها . تلفني لي .

واستمعنا الى بضع اسطوانات اخرى ، ورافقني عبر صحن الدار حتى باب غرفتي . ومددت له يدي ، ولكنه سأل بصوت خافت : « ألا تريدين ان تقبليني ؟ » .

واخذني بين ذراعيه. وللحظة لبثنا ساكنين ، خداً الى خد ، تشلّنا الرغبة. ثم سمعنا وقع خطى خفيفة فافترقنا بسرعة . ونظرت الينا ميريام بابتسامة ظريفة وقالت بصوتها الرقيق :

– آن راحلة في ساعة مبكرة . لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة .

فقلت :

– كنت ذاهبة لأنام .

ولم أنم . بقيت واقفة أمام النافذة المفتوحة اتنشق الليل الذي لم تكن تفوح منه أية رائحة : لكأن القمر كان يجمد عطر الزهور. كانت ميريام نائمة أو ساهرة في الغرفة المجاورة ، وكنت اعرف ان فيليب لن يأتي . وذات لحظة ظننت انني اسمع وقع خطى ، لكنها كانت الريح فقط التي تتغلغل بين الاشجار .

لم تكن كندا ظريفة . وقد سعدت كثيراً عندما هبطت في نيويورك من جديد ، وسرعان ما فكرت : « سأتلفن لفيليب » . وكنت مدعوة في اليوم نفسه الى كوكتيل حيث كنت سألتقي ثانية بمعظم اصدقائي . وكنت ألمح من نافذتي مشهداً عريضاً تحتله ناطحة سحاب : لكن هذا كله لم يعد يكفيني. ونزلت الى بار فندقي : وفي النور الأسود الزرقة ، كان عازف يعزف على البيانو في هدوء انغاماً فاترة ، وازواج يتهامسون، والندل يمشون على اطراف اقدامهم . وطلبت كأس مارتيني وأشعلت سيجارة ، وكان قلبي يخفق خفقات صغيرة . لم يكن ما سأفعله صائباً جداً . فبعد ثمانية ايام امضيتها مع فيليب، لن اغادره بالتأكيد دون انفعال جدّي في النفس . لكن ليكن . فأنا ، أولاً ، راغبة فيه . اما انفعال النفس ، فإنني سأصاب به على كل حال ، بل انني لاشعر به منذ الآن . كوينسبريدج ، سنترال بارك ، واشنطن سكوير ، ايست ريفر : بعد ثمانية ايام ، لن أراها ثانية . ومهما يكن ، فقد كنت افضل أن أتحسّر على شخص على ان أتحسّر على حجارة ، وكان يخيل إليّ ان هذا سيكون أقل ايلاماً . وشربت جرعة من المارتيني . اسبوع واحد : هذه مدة قصيرة جداً من أجل اكتشافات جديدة ، قصير جداً من أجل متع بلا غد . لم أعد اريد ان اتجول في نيويورك

كسائحة . كان يجب ان أحيا حياة حقة في هذه المدينة ، فهكذا ستصبح مدينتي الى حد ما وسأترك فيها شيئاً مني. كان يجب ان أسير في الشوارع متعلقة بذراع رجل سيكون لي، مؤقتاً. وافرغت كأسي. ذات مرة خلال هذه السفرة، أمسك رجل بذراعي . كان فصل شتاء ، وكنت أتعثر على الجليد الرقيق لكني قربه كنت أشعر بالدفء . كان يقول : « عودي . لا اريد ان افكر انني لن اراك ثانية » . ولن أعود . سأشد على ذراعي ذراعاً اخرى . وخلال لحظة شعرت انني مذنبة بالخيانة . لكن لم تكن هناك مشكلة . انه فيليب الذي اشتهيته طوال ليلة ، ولا ازال أشتهيه ، وكان ينتظر مكالمتي الهاتفية. ونهضت ، ودخلت الى غرفة التلفون وطلبت هارتفورد .

– المستر فيليب دافيس .

– سأذهب لأدعوه .

فجأة ، أخذ قلبي يخفق خفقات كبيرة . قبل لحظة واحدة ، كنت أتحكم بفيليب حسب رغبتي ، وأدعوه من نيويورك ، وأنيمه في سريري . لكنه كان موجوداً لحسابه الخاص ، وانا التي تتعلق الآن به . كنت وحيدة ، بلا دفاع ، في هذا الحبس الضيق .

– آلو ؟

– فيليب ؟ أنا آن .

– آن ! ما اطيب ان اسمعك !

كان يتكلم الفرنسية في إتقان بطيء راح يبدو قاسياً فجأة .

– انني اتلفن من نيويورك .

– اعرف . عزيزتي آن ، هارتفورد مملة جداً منذ ان غادرتنا ! هل قمت بأسفار جميلة ؟

ما كان أقرب صوته ! انه يلامس وجهي . لكنه هو ، فجأة ، كان بعيداً جداً . كانت يدي ندية على جلاتين السماعة السوداء . واطلقت كلمات كما اتتني اتفاقاً : « اود لو أرويها لك . قلت لي ان اتصل بك . هل تستطيع المجيء الى

نيويورك قبل رحيلي ؟ » .

– متى سترحلين ؟

– السبت .

فقال :

– اوه ! اوه ! سريعاً جداً ! » وساد صمت قصير : « هذا الاسبوع ، يجب ان أقصد بعض الاصدقاء في « كاب كود » ، لقد وعدت » .

– يا للخسارة !

– نعم ، هذه خسارة ! ألا تستطيعين ان تؤجلي هذا الرحيل ؟

– لا استطيع . وأنت ، ألا تستطيع ان تؤجل تلك الرحلة ؟

فقال صوته المتجهم :

– كلا ، هذا مستحيل !

فقلت في مرح مهذب :

– حسناً ، سنلتقي ثانية في باريس هذا الصيف . الصيف ليس بعيداً جداً .

– آسف كثيراً !

– آسفة ايضاً . الى اللقاء ، فيليب ، الى هذا الصيف .

– الى اللقاء ، آن العزيزة . لا تنسيني كثيراً .

ووضعت السماعة المبللة بالعرق . كان قلبي قد هدأ ، وكان ذلك يترك فراغاً تحت ضلوعي . وقصدت منزل آل ويلسون ؛ كان هناك كثير من الناس ، وقد وضعوا كأساً بين يدي ، وكانوا يبتسمون لي ، ويدعونني باسمي ، ويتلقونني من ذراعي ، من كتفي ، ويدعونني الى اليمين ، والى الشمال ، وكنت اسجل مواعيد على دفتري . ولكن كان لا يزال في صدري ذلك الفراغ . خيبة جسدي ، كنت أنصاع لها . لكن هذا الفراغ ، كنت اجد مشقة في تحمله . كانوا يبتسمون لي ، ويحادثونني ، وكنت اتحدث ، وابتسم ، وطوال اسبوع كامل ايضاً سنتحادث ونبتسم ، ثم لن يعود احد منهم يفكر بي ولا أنا بهم . كان هـــذا البلد حقيقياً جداً ، وكنت حية للغاية ، وسأرحـــل دون ان اترك ورائي شيئاً ، ودون ان

احمل شيئاً . وبين ابتسامتين ، فكرت فجأة : « واذا ذهبت الى شيكاغو ؟ » كنت أستطيع ان اتلفن لبروغان هذا المساء بالذات وأقول له : « انني قادمة ». واذا لم تبق عنده رغبة في رؤيتي ، فإنه سيقول ذلك : ما الأهمية ؟ ان رفضين لن يكونا اسوأ من رفض واحد . وبين ابتسامتين اخريين ، نظرت الى نفسي في استنكار : لم احصل على فيليب ، اذن سألقي بنفسي بين ذراعي بروغان ؟ ما أخلاق الأنثى المضطرمة هذه؟ في الحقيقة، لم تكن فكرة النوم مع بروغان تعني عندي شيئاً كبيراً ، وكنت اتخيل انه في الفراش سيكون أخرق بالاحرى . ولم اكن واثقة حتى من انني سأتمتع برؤيته ثانية ، فأنا لم أمضِ معه الا بعد ظهر يوم واحد ، وكنت أجازف بأسوأ الخيبات . كان هذا المشروع أحمق ، دون ادنى شك . كنت أرغب في الحركة ، في الانفعال ، كي اخفي على نفسي خيبة أملي ، وانما هكذا يرتكب الناس حماقات حقيقية . وقررت ان ابقى في نيويورك وتابعت تسجيل المواعيد : معارض ، حفلات ، موسيقى ، وعشاء ، ورقص ، وسوف يمضي الاسبوع سريعاً . وعندما وجدت نفسي في الشارع ثانية ، كانت ساعة « غرامرسي سكوير » الكبيرة تشير الى منتصف الليل، على كل الاحوال، كان الأوان قد فات لاتصال هاتفي . كلا ، لم يفت . ففي شيكاغو ، لم تكن الساعة الا التاسعة ، وبروغان يقرأ في غرفته او يكتب . وتوجهت امام واجهة مضاءة لدراغ – ستور[1] . « لا اريد ان افكر انني لن اراك ثانية ابداً » . ودخلت ، وصرفت نقوداً من الصندوق وطلبت شيكاغو .

– ليويس بروغان ؟ انا آن دوبروي .

ولم يجب بشيء . « انا آن دوبروي ، أتسمع ؟ » .

– اسمع جيداً جداً » . وأضاف في فرنسية مشوهة وهو يتعتع في كل مقطع في مرح : « صباح الخير ، آن . كيف الحال ؟ » .

كان الصوت اقل حضوراً من صوت فيليب . وكان بروغان لذلك يبدو اقل

---

١ معناها الحرفي مخزن ادوية . لكنها تستخدم اليوم للدلالة على دكان كبير يوجد فيه كل شيء . « المترجم »

بعداً . وقلت :

- استطيع ان آتي لتمضية ثلاثة ايام او اربعة في شيكاغو هذا الاسبوع . ما رأيك ؟

- الطقس جميل جداً في شيكاغو حالياً .

- لكن اذا جئت فلكي أراك . هل لديك وقت ؟

فقال في لهجة ضاحكة :

- لدي وقتي كله . ان وقتي لي .

وترددت ثانية واحدة . كان هذا سهلاً جداً : احدهما قال كلا ، والآخرنعم، باللامبالاة نفسها . لكن الاوان قد فات للتراجع وقلت : « اذن ، سأصل غداً صباحاً في الطائرة الاولى . احجز لي غرفة في فندق لا يكون افضل فنادق شيكاغو . اين سنلتقي ؟ » .

سأذهب لآتي بك من المطار .

- اتفقنا . الى الغد .

وساد صمت . وتعرفت الصوت الذي قال لي قبل ثلاثة اشهر : « عودي » . وكان يقول :

- آن ! انني سعيد للغاية برؤيتك ثانية !

- انني سعيدة ايضاً . الى الغد .

- الى الغد .

كان صوته ، كان نفسه كما كنت أتذكره ، ولم ينسني . سوف اشعر بالدفء ، الى جانبه ، كما في ذلك الشتاء . وفجأة ، كنت مسرورة من ان فيليب اجاب : كلا . كل شيء سيكون بسيطاً . سوف نتحادث لحظة في بار منخول الاضواء . وسيقول لي : « تعالي لتستريحي عندي » . وسنجلس جنباً الى جنب على الغطاء المكسيكي . وسأستمع في وداعة الى شارل ترينيه ، وسيأخذني بروغان بين ذراعيه . لن تكون بدون شك ليلة مثيرة جداً لكنه سيكون سعيداً بها ، كنت واثقة من ذلك ، وهذا يكفي لسعادتي . واستلقيت على فراشي ، وكلي انفعال

من التفكير بأن رجلاً ينتظرني ليضمني الى قلبه .

لم يكن ينتظرني . ولم يكن هناك احد في القاعة الكبيرة . وكنت افكر وانا اجلس على مقعد : « البداية سيئة » . كنت محتارة للغاية وقلت في نفسي في قلق انني لم أكن متبصرة « أأدعو بروغان ام لا أدعوه ؟ » . لقد لعبت بمفردي هذه اللعبة . وهأنذا اجد نفسي ملقاة في اقتحام لم يعد نجاحه يتعلق بي . كل ما كنت استطيع ان افعله ، هو ان اتبع على ميناء الساعة حركة ذينك العقربين اللذين ما كانا يتقدمان . وأرعبتني هذه السلبية وحاولت ان اطمئن نفسي . انني سأستطيع ، بعد كل شيء ، اذا ما ساءت خاتمة هذه القصة ، ان اجد ذريعة لأعود من الغد الى نيويورك . على كل الاحوال ، سوف يغلق الهلال ، خلال ثمانية أيام : سوف ابتسم ، في امان حياتي ، لجميع ذكرياتي ، المؤثرة ، او السخيفة ، في تسامح . وسكن قلقي . وعندما فتحت حقيبتي لأبحث في مفكرتي عن رقم تلفون بروغان ، تحققت من جميع منافذ النجدة ، وكان مؤمناً عليّ ضد جميع الحوادث. ورفعت رأسي ، ورأيت انه واقف امامي ، وطوقني بكاملي بابتسامة صغيرة مكتومة . واصابني ذهول كبير كما لو انني صادفت شبحه في الطرف الآخر من العالم . وقال في فرنسيته الفظيعة :« اذن ؟ كيف الحال ؟».ونهضت . كان انحف من صورته ، وكانت له عينان اكثر حياة : « على ما يرام » .

ودون ان يترك ابتسامته ، قرّب فمه من شفتي . وبلبلتني هذه القبلة العلنية وتركت على ذقن بروغان لطخة حمراء . وقلت : « ها انت قد تلطخت » . ومسحت اللطخة بمنديلي وأضفت : « لقد وصلت في الساعة التاسعة » .

فقال في لهجة تأنيب بدت كأنها موجهة إليّ :

– اوه ! قالوا لي في التلفون ان الطائرة الاولى ستحط في العاشرة .

– لقد اخطأوا .

– انهم لا يخطئون ابداً .

– المهم اخيراً انني هنا .

فقال مسلّماً :

– انت هنا .

وجلس ، وجلست ايضاً . الساعة التاسعة وعشرون دقيقة ، لقـــد وصل متأخراً عشرين دقيقة ، ومبكراً اربعين دقيقة . كان يرتدي طقماً جميلاً من الفلانيلا ، وقميصاً ناصعاً . كنت اتخيله منتصباً امام مرآته ، قلقاً للاحتفاء بي ، غير لبق في النظر الى نفسه، سائلاً انعكاسه بعين مزهوة ومحتارة بالتناوب . كان يراقب الساعة في قلق . وكنت انا قد اخذت بانتظـــاره ، على نحو غادر ! وابتسمت له :

– لن نبقى هنا طوال الصباح .

فقال :

– كلا . » وفكر : « هل تريدين ان نذهب الى حديقة الحيوانات ؟ » ..

– الى حديقة الحيوانات ؟

– انها قريبة جداً من هنا .

– وماذا سنفعل فيها ؟

– سننظر الى الحيوانات وستنظر الينا .

– لم آتِ الى هنـــا لأعرض نفسي على حيواناتكم . « ونهضت : « لنذهب بالأحرى الى مكان هادىء استطيع ان احصل فيه على قهوة، وعلى سندويشات، وسننظر الى بعضنا البعض » .

كنا بمفردنا في السيارة المقفلة التي كانت تقلنا الى قلب المدينة . كان بروغان واضعاً حقيبة سفري على ركبتيه ، وكان صامتاً ، ومن جديد شعرت انني قلقة : « ستكون مدة طويلة ، هذه الأيام الأربعة مع مجهول . وأربعة ايام ستكون مدة قصيرة للتعارف » . وقلت : « يجب ان نمرّ أولاً على فندقي لأضع حقيبتي».

فابتسم بروغان في سيماء من حرج :

– لا بد انك حجزت لي غرفة ؟

كان يحتفظ بابتسامة مذنبة ، لكن كان في صوتـــه شيء ما يتحدى : « كلا ! » .

– كيف ! لقد طلبت اليك ذلك في التلفون !

فقال في سرعة :

– لم اسمع نصف ما كنت تقولينه . ان انكليزيتك لأسوأ أيضاً ممـــا كانت عليه في الشتاء ، وانت تتكلمين كمدفع رشاش . لكن ليس لهذا أي اهمية . »
واضاف عندما نزلنا من السيارة امام مكتب الطيران : « سنضع هذه الحقيبة في مستودع الحقائب . انتظريني هنا . » ودفع باباً دواراً وتبعته بنظري في ريبة . هذا النسيان ، هل كان إهمالاً ام حيلة ؟ كان واضحــاً بالنسبة لي ، دون شك ، انني سأمضي هذه الليلة في سريره . لكن الهلع كان يتملكني من فكرة انه ربما لن تكون لنا رغبة حقاً هذا المساء . لقـــد أقسمت بيني وبين نفسي انني لن ارتكب ثانية غلطة الدخول الى فراش رجل دونما رغبة . وما إن عاد بروغان حتى قلت في عصبية :

يجب ان نتلفن لفندق . انني لم أنم ليلاً . واحب ان اقوم بقيلولة ، وآخذ حماماً .

فقال :

– من الصعب جداً ايجاد غرفة في شيكاغو .

– هذا سبب اضافي للبحث عن غرفة فوراً .

كان يجب ان يقول : « تعــالي لتستريحي عندي » . لكنه لم يقل شيئاً . ولم يكن المقهى الذي اخذني اليه يشبه قط البار الصميمي والدافىء الذي كنت قد تخيلته : فكأنه مقصف محطة . وكان البار التالي الذي وقعنا عليه يبدو كغرفة انتظار هو الآخر . هل سنمضي النهار في الانتظار ؟ ماذا كنا ننتظر ؟

– وسكي ؟

– عن طواعية .

– سيجارة ؟

– شكراً .

– سأضع اسطوانة .

لو استطعنا على الاقل ان نتحدث في هدوء كما في الماضي ! لكن بروغان لم يكن يستقر في مكانه . كان يذهب الى البار ليأتي بزجاجة كوكا-كولا ، ويدس قطعة معدنية ، ثم اخرى في علبة الاسطوانات ، ويقايض سجاير . وعندما جعلته اخيراً يقرر ان يتلفن ، ظل غائباً مدة طويلة جداً الى حد ظننت معه انه اختفى الى الابد . نهائياً ، كنت مخطئة في تنبؤاتي! لكأنه كان يتعمد إحباطها. وكان لا يكاد يشبه الرجل الذي احتفظت بذكراه . كان الربيع قد أذاب كتلة التخشب التي كان الشتاء قد جمده فيها . يقيناً ، انه لم يصبح ظريفاً ، ولا مرناً ، لكن قامته كانت شبه انيقة ، وشعره اشقر نهائياً ، وعيناه بلون اخضر رمادي محدد تماماً . وكنت اكتشف ، في هذا الوجه الذي كان بدا لي حيادياً ، فماً حساساً ، ومنخرين نافرين قليلاً ، وفطنة تبلبلني .

وقال بروغان عندما جلس ثانية بقربي :

— لم اجد شيئاً . وقد توجهت اخيراً الى شركة الفنادق . يجب ان اخاطبهم بعد قليل .

— شكراً .

— ماذا تريدين ان تفعلي الآن ؟

— لو نبقى في اطمئنان هنا ؟

— اذن ، وسكي آخر ؟

— ليكن .

— سيجارة ؟

— شكراً .

— اتريدين ان اضع اسطوانة ؟

— كلا ، من فضلك .

وساد صمت . وبادرته : « رأيت اصدقاءك في نيويورك .

— ليس لي اصدقاء في نيويورك .

— بلى ، آل بنسون الذين عقدوا الصلة بيننا .

ـ اوه ! ليسوا اصدقاء .

ـ اذن لماذا قبلت برؤيتي ، قبل شهرين ؟

ـ لأنك كنت فرنسية ، ولأنه كان لك اسم يعجبني : « آن » .

وللحظة ، منحني ابتسامته ، لكنه استعادها فوراً . وقمت بجهد جديد :

ـ كيف اصبحت ؟

ـ لقد شخت يوماً في كل يوم .

ـ اجد بالاحرى ان شبابك قد تجدّد .

ـ هذا لأنني ارتدي سترة صيفية .

وخيم الصمت من جديد وفي هذه المرة استسلمت .

ـ طيب . لنذهب الى مكان . لكن اين ؟

فقال في عجلة :

ـ في ذلك الشتاء ، كنت ترغبين في رؤية مباراة بيزبول ، وتوجد مباراة اليوم .

ـ حسناً ! هيا بنا .

كان لطيفاً ان يتذكر رغباتي القديمة . لكنه كان يستطيع ان يشك في ان البيزبول لا يهمني مطلقاً حالياً . ليكن ان خير ما نستطيع ان نفعله ، هو ان نقتل الوقت بالانتظار ... انتظار ماذا ؟ كنت اتبع بنظرة بلهاء الرجال ذوي الخوذ الذين كانوا يركضون على الارض المعشوشبة بخضرة حادة ، وكنت أردد في نفسي في قلق : ان نقتل الوقت ! في حين اننا لا نملك ساعة واحدة لنفسدها . ان اربعة ايام مدة قصيرة جداً ، فيجب ان نسرع : متى سنلتقي بنفسيناأخيراً؟

وقال ليويس : « اتضجرين ؟ » .

ـ لنذهب الى مكان آخر .

وأخذني الى نادٍ حيث شربنا الجعة ونحن ننظر الى تساقط كرات اللعب الخشبية ، والى حانة حيث عزفت خمسة بيانات ميكانيكية موسيقى مغبرة ، والى حوض سمك كانت الاسماك فيه تكثر في خباثة . وركبنا حافلات كهربائية ،

ومتروهات ، وحافلات اخرى، ومتروهات اخرى. كنت أسر في المتروهات. كنا نغوص ، وجبيني مستند الى زجاج العربة الاولى ، في انفاق مدوخة مزهرة بمصابيح زجاجية شاحبة الزرقة ، وكانت ذراع بروغان تطوق خصري وكان صمتنا يشبه الصمت الذي يوحد بين عشاق مطمئنين . لكننا في الشوارع ، كنا نسير منفصلين وكنت اشعر متضايقة بأننا نصمت لأننا لا نجد شيئاً نقوله فيما بيننا. وفي منتصف بعد الظهر ، توجب عليّ ان أعترف بأن هناك خطأ في حساباتي : بعد اسبوع ، غداً ، سيكون هذا النهار قد اصبح من الماضي ، وسأستطيع بسهولة ان اتغلب عليه . لكن كان يجب أولاً ان اعيشه ساعة فساعة ، وطوال هذه الساعات كلها كان مجهول يتحكم بمصيري كما يشاء . كنت متعبة جداً ، وخائبة جداً ، الى حد انني أردت ان اجد نفسي وحيدة ثانية .

وطلبت :

– من فضلك ، تلفن مرة اخرى . انني بحاجة للنوم قليلاً .

فقال بروغان وهو يدفع باب دراغ – ستور :

– سأتوجه الى شركة الفنادق .

ولبثت واقفة انظر بعين ساهمة الى الكتب الباردة الجلد ، وسرعان ما خرج من غرفة التلفون في ابتسامة راضية .

– توجد غرفة تنتظرك على بعد خطوتين من هنا .

– آه ! شكراً .

وسرنا في صمت حتى الفندق . لماذا لم يكذب ! انما كان عليه الآن ان يقول : تعالي لتستريحي عندي. ألم يكن واثقاً هو الآخر من رغباته؟ كنت قد اعتمدت على حرارته ، على جرأته لتحطيم عزلة جسدي . لكنه كان يتركني سجينة ولم اكن استطيع شيئاً من اجلنا . واقترب ليويس من المكتب :

– لقد حجزت غرفة منذ لحظة .

فألقى المستخدم نظرة على السجل :

– شخصان ؟

فقلت :

– شخص واحـــد . » وسجلت اسمي على البطاقة : « حقيبتي في مستودع الحقائب » .

فقال ليويس :

– سأذهب لآتي بها . متى تريدينها ؟

– استدعني بعد ساعتين .

هل حلمت ؟ أم هل تبادل نظرة قريبة مع المستخدم ؟ هل حجز الغرفـــة لشخصين ؟ لكنه كان يستطيع اذن ان يجد ذريعة ليصعد معي وكنت سأوحي اليه بعشرين ذريعة . كانت حيله المسكينة تغيظني بقدر ما كنت أتمنى ان اترك نفسي اقع فيها . واعددت ماء حمامي ، وغطست في الماء الساخن وأنا أقول في نفسي اننا أسأنا البداية . هل كانت غلطتي ؟ لا شك في ان هناك نساء يعرفن كيف يقلن فوراً : « لنذهب الى منزلك ». كانت نادين ستقول ذلك.واستلقيت على الغطاء المبطن بالساتان ، واطبقت عيني . كنت قد خشيت من اللحظة التي سيتوجب فيها عليّ ان اجد نفسي واقفة وسط هــذه الغرفة حيث لن تستقبلني حتى ولا ألفة فرشاة اسنان . كثير من الغرف المختلفة والتي لا يمكن تمييزها عن غيرها ، كثير من الحقائب المفتوحة ، المغلقة ، كثير من الوصول والرحيـــل ، واليقظة ، والانتظار ، والجري ، والهرب – كنت سئمة من اعادة خلق حياتي كل صباح ، كل مساء ، كل ساعة . كنت أتمنى في حماسة لو ان قوة اجنبية سطحتني على هذا الفراش ، الى الأبد . ليصعد ، ليقرع بابي ، ليـدخل . كنت أترصد خطاه في المشى في نفاذ صبر مهووس للغـاية حتى انه كان يقلد الرغبة . لا صوت . وألقيت بنفسي في النوم .

عندما رأيت بروغان في قاعة الفندق ثانية ، كنت قد سكنت . عمـــا قريب ، سيقرر مصير هذه المغامرة ، وعلى كل الأحوال ، من الآن حتى بضع ساعات سأنام . وبدا لي المطعم الألمـــاني القديم الذي تناولنا فيه العشاء حفياً ، وثرثرت في لامبالاة . وكان البار الذي جلسنا فيه فـــيما بعد غارقاً في ضباب

بنفسجي : كنت أشعر بالراحة فيه . وكان بروغان يكلمني بصوته الماضي . كان يقول :

– خطفك التاكسي ، ولم أكن اعرف شيئاً عنك . وعندما عدت ، وجدت « النيويوركر » تحت بابي . وإذا بي ، في منتصف مقال عن مؤتمر للطب النفسي ، اقع على اسمك . لكأنك عدت في قلب الليل لتقولي لي من انت .

– ألم يعلمك آل بنسون ؟

– أوه ! انني لا اقرأ ابداً رسائلهم . » واضاف بصوت عابث :

« في المقال ، كانوا يتحدثون عنك كدكتورة لامعة » .

– أأدهشك هذا كثيراً ؟

فنظر إليّ دون ان يجيب ، مبتسماً . عندما كان يبتسم لي هكذا ، كان يخيل إليّ انني اشعر بأنفاسه على فمي .

– فكرت بأن عندهم دكاترة ظريفين في فرنسا .

– وانا ، عند عودتي ، وجدت كتابك في الفندق . وحاولت أن اقرأه لكني كنت اشعر بنعاس شديد . وقرأته في اليوم التالي في القطار . » وتفرست في وجه ليويس : « برتي ، فيه اشياء كثيرة منك ، أليس كذلك ؟ » .

فقال بروغان بصوت ساخر :

– أوه ! انا ، ما كنت لأشعل النار قط في مزرعة . انني اخاف كثيراً من النار ومن الدرك ايضاً . » ونهض فجأة : « تعالي لنلعب لعبة الستة والعشرين » .

وناولتنا الشقراء الشرسة العينين التي كانت جالسة وراء طاولة اللعب ، علبة النرد . واختار بروغان الستة وراهن على نصف دولار . كنت انظر في فتور الى العظام الصغيرة التي كانت تتدحرج على الطاولة الخضراء . لماذا تهرب ، في اللحظة نفسها التي بدأنا فيها في وجدان نفسينا ثانية ؟ هل كنت أخيفه انا الأخرى ؟ كان وجهه يبدو لي في آن واحد قاسياً جداً وقابلاً للأذى كثيراً ، وكنت أسيء حل لغزه . وقال في لهجة فرحة : « ربحت ! » وناولني علبة النرد . وخضضتها في عنف . وقررت في لمح البرق : « انما على ليلتنا اقامر »

واخترت الخمسة. كان فمي مبطناً بالرق، وراحتاي نديتين. وخرجت الخمسة سبع مرات خلال الضربات الثلاثة عشرة الأولى، ثم ثلاث مرات ايضاً: خسرت!

فقلت وانا اجلس ثانية:

انها لعبة سخيفة.

– أتحبين اللعب؟

– اكره ان اخسر.

فقال بروغان في كآبة:

– انني اعبد البوكر واخسر دوماً. يبدو ان وجهي يسهل جداً حل لغزه.

فقلت وانا أحدجه بنظرة تحدٍ:

– لا اعتقد.

وظهر عليه الحرج لكني لم أحول نظرتي. كنت قد قامرت على ليلتنا، وخسرت، وكان بروغان يمنع عني مساعدته ولقد أدانني النرد. وتمردت ضد هذه الهزيمة في عنف تحول فجأة الى شجاعة:

– منذ هذا الصباح، اتساءل هل أنت مسرور بعودتي، ولا أصل الى معرفة ذلك.

فقال بصوت كثير الجد حتى انني خجلت من لهجتي العدائية:

– بالطبع، انا مسرور.

فقلت:

– اود ذلك، لأنني انا سعيدة بوجدانك ثانية. هذا الصباح كنت خائفة من ان تكون ذكرياتي قد غشّتني: لكن لا، فأنت لا تزال كما كنت اتذكرك.

فقال:

– انا، كنت واثقاً من ذاكرتي.» ومن جديد كان صوته دافئاً كزفير. واخذت يده وقلت كلمة جميع النساء اللواتي يختبرن أنفسهن في الحنان:

– احب يديك كثيراً.

– احب كثيراً يديك انت. أيها تعذبين دماغ المرضى المساكين الذين بدون

دفاع ؟

ـ أودعني دماغك ، اعتقد انه بحاجة لذلك . . .

ـ اوه ! انه لا يعرج إلا من جانب واحد .

كانت أيدينا متحدة ، وكنت انظر بانفعال الى هذا الجسر الهش الذي وصل بين حياتينا ، وأتساءل ، جافة الفم : « هاتان اليدان ، هل سأعرفهما أم لا ؟ ». ودام الصمت ملياً واقترح بروغان :

ـ هل تريدين ان نعود لنستمع الى « بيغ بيللي » ؟

ـ اود كثيراً .

في الشارع ، أخذ ذراعي . كنت اعرف انـه بين لحظة وأخرى سيجذبني اليه . كان عبء هذا النهار الثقيل قد انزاح عن كتفي، وكنت أمشي اخيراً نحو السلام ، نحو الفرح . وفجأة ترك ذراعي . واضاءت وجهه ابتسامـــة كبيرة مجهولة : « تيدي ! » .

وتوقف الرجل والمرأتان وابتسموا في تألق. وفي لحظة وجدنا أنفسنا جالسين الى طاولة مقهى كئيب . كانوا يتكلمون جميعاً بسرعة كبيرة ولم أكن افهم شيئاً مما يقولونه . وكان بروغان يضحك كثيراً ، وقد انتعشت نظرته ، فكان يبدو مطمئناً لإفلاته من خلوتنا الطويلة . كان هذا طبيعياً : فهؤلاء الناس اصدقاؤه ، ولديهم كثير من القصص يروونها فيما بينهم . أما بينه وبيني ، فمـا هو المشترك ؟ كانت المرأتان الجالستان بالقرب منه صغيرتين وجميلتين : هل كانتـــا تعجبانه ؟ وتبينت انه كان في حياته بالتأكيد نساء صغيرات وجميلات : كيف استطيع ان اشعر بهذا الألم الكثير في حين اننا لم نتبادل بعد قبلة حقيقية واحدة؟ وكنت اتألم. بعيداً ، بعيداً جداً في اعماق نفق، كنت ألمح واحداً من منافذ النجدة التي بدت لي في الصباح موثوقة للغاية : لكني كنت اكثر تعبـاً من ان أستطـع جر نفسي اليه ، ولو على ركبتي . وحاولت ان اتمم : « كم من قصص لأنني لم أصل الى جعله يقبّلني » لكن هـذه الكابية لم تكن تساعد . ان أكون سخيفة إن كثيراً وإن قليلاً ، ان أستحق استحساني أو لومي ، هذا لم يعد له اي أهمية . ان هذه

القصة لا تجري مني إلي : فقد وضعت نفسي موثوقة اليدين والقدمين تحت رحمة رجل آخر . يا للجنون ! لم اعد افهم حتى ما جئت ابحث عنه هنـا . يقيناً ، لا بد انني فقدت العقل لأتخيل ان رجلاً لا يعني بالنسبة لي شيئـاً يستطيع شيئاً من اجلي . وقررت عندما تناول بروغان ذراعي في الشارع ثانية : « سأذهب لأنام فوراً » .

وقال :

– انا مسرور إذ أريتك تيدي ، انه النشال الكاتب الذي حدثتك عنـه ، أتذكرين ؟

– اذكر . والمرأتان ، من هما ؟

– لا أعرفهما . » كان بروغان قد توقف عند زاويـة شارع : « اذا لم تأتِ الحافلة ، فسنأخذ سيارة تاكسي » .

وفكرت : « ان التاكسي لهو حظنا الاخير . واذا أتت الحـــافلة ، فإنني سأتخلى ، وأعود الى الفندق » . وطوال لحظة لامتناهية ، كنت أترصد السكة الحديدية ، المهدد بريقها . واشار بروغان الى تاكسي : « إصعدي » .

لم يتح لي الوقت لأقول في نفسي : « الآن أو ابداً » . فانه كان قد شدني اليه ، وكان غلٌ من اللحم يحبس شفتي ، ولسان ينقب في فمي وجسدي يقوم من بين الاموات . ودخلت إلى البار مترنحة كما ترنـــح ألعازر يوم بُعث . كان الموسيقيون يستريحون ، وجاء بيغ بيللي ليجلس الى طاولتنا . كان بروغان يمزح معه وعيناه تلمعان . ووددت لو اشاطره مرحـــه ، لكني كنت مرتبكة بجسدي الجديـــد كله ، فقد كان مفرط الحجم ، محرقاً للغايـــة . وعاودت الاوركسترا العزف . ونظرت بعين ساهمة الى الرجل الوحيد الساق ، الأجعد الشعر ، الذي كان يؤدي رقصة كلاكيت ، وكانت يدي ترتعـد وهي تحمل الى فمي كأس الوسكي : ماذا سيفعل بروغان ؟ ماذا سيقول ؟ انا ، لن استطيع ان انتزع من نفسي حركة ، ولا كلمة . وبعد فترة بدت لي طويلة جداً سأل بصوت متحمس : « أتريدين الذهاب ؟ » .

– نعم .
– أتريدين أن تعودي ؟
وفي تمتمة مزقت حلقي ، تمكنت من الهمس : « لا اريد ان اتركك » .
فقال مبتسماً :
– ولا أنا .
وفي التاكسي أخذ فمي بين شفتيه ثانية ثم سأل :
– أتريدين ان تنامي عندي ؟
– بالتأكيد .
هل كان يفكر انني استطيع ان القي الى علبة القمامة بهذا الجسد الذي منحني اياه ؟ ووضعت رأسي على كتفه وطوقني بذراعه .
وفي المطبخ الاصفر الذي ما عادت المدفأة تشخر فيه ، شدني اليه في عنف : « آن ! آن ! انه حلم ! لقد كنت تعيساً جداً طوال النهار ! » .
– تعيساً ؟ انما انت الذي عذّبتني . فانك ما كنت لتقرر تقبيلي .
– لقد قبلتك ومسحت ذقني بمنديلك : ففكرت بأنني أخطأت الطريق .
– ان الناس لا يتبادلون القبل في قاعة عامة ! كان يجب ان تأتي بي الى هنا.
– لكنك كنت تطالبين بغرفة ! ولقد هيأت ، أنا ، كل شيء . فاشتريت قطعة بفتيك كبيرة للعشاء . وفي الساعة العاشرة مساء كنت سأقول : فات الاوان لإيجاد فندق .
– لقد فهمت جيداً . لكنني حذرة : افترض اننا لم يجد أحدنا الآخر ثانية .
– كيف لا يجد أحدنا الآخر ثانية ؟ لم افقدك قط .
كنا نتكلم فماً الى فم وكنت اشعر بأنفاسه على شفتي . وتمتمت : « كنت خائفة كثيراً من ان تمر حافلة » .
فضحك في كبرياء : « كنت مزمعاً على ركوب تاكسي » . كان يقبل جبيني ، وجفوني ، ووجنتي ، وكنت أشعر بالارض تدور . وقال : « انت ميتة تعباً ، يجب ان تنامي » . وفي سحنة متجهمة أضاف : « حقيبتك ! » .

– لست بحاجة اليها .

وبقي في المطبخ بينما كنت أتعرّى . والتففت بـين الأغطية ، تحت الغطاء المكسيكي . كنت أسمعه يحوم ، ينضد ، يفتح ويغلق الخزانات وكأننا زوجان منذ زمن طويل . بعد كثير وكثير من الليالي التي أمضيتها في غرف فنادق ، في غرف اصدقاء ، كان من المريح ان اشعر انني في بيتي ، في هذا الفراش الغريب عني . وكان الرجل الذي اخترته والذي اختارني يهم بالرقاد الى جانبي .

وقال بروغان :

– اوه ! رقدت من الآن ! » كانت ذراعاه مثقلتين ببياضات ناصعة وكان ينظر إليّ في تحير : « كنت اريد ان اغير الأغطية » .

– لا فائدة من ذلك . » ولبث على عتبة الباب محرجاً بحمله الضخم . وقلت وانا اسحب حتى ذقني الغطاء الدافىء الذي نام فيـه ، في الليلة الماضية : « انني مرتاحة تماماً » . وابتعد ، ثم عاد .

– آن !

كان قـد تهالك عـلي ، واقلقتني لهجته . وللمرة الأولى ، نطقت باسمه « ليويس ! » .

– آن ! انني سعيد جداً !

كان عارياً ، وكنت عارية ، ولم اكن اشعر بأي حرج . لم تكن نظرتـه لتستطيـع ان تجرحني . لم يكن يحلف لي ، ولم يكن يفضل عـلـيّ شيئاً . ومن شعري الى اصابـع قدمي ، كانت يداه تستظهرانني . ومن جديد قلت : « احب يديك » .

– اتحبينهما ؟

– طوال السهرة كنت اتساءل هل سأشعر بهما على جسدي .

فقال :

– ستشعرين بهما طوال الليل .

وفجأة ، لم يعد لا اخرق ولا متواضعاً . كانت شهوته تغير شكل وجهي .

كنت املك من جديد ، انا التي لم يعد لها منذ زمن طويل لا مذاق ولا شكل ، نهدين ، وبطناً ، وفرجاً ، وجسداً . كنت مغذّية كالخبز ، فواحـة كالأرض . كان هو معجزاً للغاية الى حـــد انني لم افكر بأن اقيس وقتي ولا لذتي . انني اعرف فقط اننا عندما نمنا كنا نسمع تغريد الفجر الخافت .

وايقظتني رائحة قهوة . وفتحت عيني وابتسمت وانا أرى على مقعد مجاور ثوبي الصوفي الازرق بين ذراعي سترة رمادية . وكان ظل الشجرة السوداء قـد نبتت له اوراق تهتز على الستارة الصفراء الفاقعة . وناولني ليويس كأساً فشربت في جرعة واحدة عصير البرتقال الذي كان له هذا الصباح طعم النقاهة : لكأن اللذة مرض، أو لكأن حياتي كلها كانت مرضاً طويلاً ، انا في سبيلي للشفاء منه.

كان يوم احـــد ، ولأول مرة في السنة كانت الشمس تشرق على شيكاغو ، وذهبنا للجلوس على أرض معشوشبة عند ضفة البحيرة. كان هناك اطفال يلعبون لعبة الهنود بين الشجيرات وكثير من العشاق يمسكون بأيدي بعضهم البعض . وكانت يخوت تنساب على المياه المشرقة ، وطائرات متناهية في الصغر ، حمراء، وصفراء ، ومطلية كاللعب ، تحلق فوق رأسينا . وأخرج ليويس ورقة مـــن جيبه : « منذ شهرين نظمت قصيدة عنك ... » .

— أرني .

وشعرت بلسعة صغيرة في القلب . لقـد كتب هذه الابيات ، جالساً قرب النافذة ، تحت صورة فان غوخ،من اجل المجهولة الطاهرة التي رفضت له شفتيها. ولقد فكر بها ، طوال شهرين ، في حنان : وأنا لم اعـــد تلك المرأة . ولمح ، بدون شك ، ظلاً على وجهي لأنه قال في قلق : « ما كان يجب ان اريك اياها».

— لكن بلى ، انني احبها كثيراً . » وابتسمت في جهد : « لكنّ هاتـــين الشفتين لك الآن » .

فقال :

— الآن أخيراً .

وطمأنتني حرارة صوته . لقد أثرّ عليه تحفظي ، ذاك الشتاء . لكن مـــن

الواضح انه اكثر الآن سروراً بكثير . لا فائدة من تعذيب نفسي . كان يداعب شعري ، ويقول لي كلمات بسيطة وعذبة ، ويدخل في اصبعي خاتماً نحاسياً قديماً . وكنت انظر الى الخاتم ، واسمع الكلمات الخارقة . وتحت خدي ، كنت اترصد الخفقات المألوفة لقلب مجهول . لم يكن مطلوباً مني اي شيء : كان يكفي ان اكون ما انا عليه بالضبط وكأن شهوة رجل تغيّرني الى آلة كاملة . وكان هذا مريحاً للغاية الى حد ان الشمس لو توقفت في عرض السماء ، لتركت الأبدية تنساب دون ان اتبين ذلك .

لكن الشمس كانت قد اقتربت من الأرض ، والعشب يصبح رطباً ، والشجيرات تصمت ، واليخوت تتناوم . وقال ليويس : « ستأخذين برداً . لنمشِ قليلاً ».

كان يبدو غريباً ان أجد نفسي على قدمي ثانية ، تدفئني حرارتي الخاصة ، وان يعرف جسدي كيف يتحرك ويحتل مكاناً له . طوال النهار لم يكن الا غياباً : الا سالباً : كان ينتظر الليل ومداعبات ليويس . وقال :

– اين تريدين تناول العشاء ؟ يمكننا ان نعود او نذهب الى مكان ما .

– لنذهب الى مكان ما .

كان هذا النهار شديد الزرقة ، كثير الحنان الى حد انني كنت أشعر انني عاجزة عن العذوبة . لم يكن لماضينا ست وثلاثون ساعة ، وكان افقنا يقتصر على وجه واحد ، وكان مستقبلنا فراشنا : كنت اختنق قليلاً في هذا الهواء الراكد.

– لو جربنا النادي الأسود الذي كان بيغ بيللي يتحدث عنه البارحة ؟

فقال ليويس :

– انه بعيد .

سنتنزه بذلك قليلاً .

كنت بحاجة الى تسلية . فقد كانت تلك الساعات الشديدة الكثافة قد أتعبتني . وفي الحافلة ، تناومت على كتف ليويس . لم اكن احاول ان اتعرف نفسي في هذه المدينة . لم اكن اصدق ان لها كالمدن الأخرى شرايين ثابتة

ووسائل نقل محددة . كان يجب ان اخضع لبعض الطقوس التي يعرفها ليويس ، وكانت الأمكنة تنبجس من العدم . وانبجس نادي « ديليزا » من العدم ، تحيط به هالة من النور البنفسجي . وكانت هناك مرآة كبيرة قرب الباب وابتسمنا معاً لصورتنا المنعكسة . وكان رأسي يصل على الضبط الى كتفه ، وكنا نبدو سعيدين وشابين ، وقلت في مرح : « يا له من زوج جميل ! » . ثم انقبض قلبي : كلا . لم نكن زوجاً . ولن نكون كذلك ابداً . كان يمكن ان يحب احدنا الآخر ، انا واثقة من ذلك : في أي نقطة من العالم ، في أي زمن ؟ على كل حال ، ليس في اي مكان على الأرض ، ليس في اي نقطة من المستقبل .

وقال ليويس :

— نريد ان نتناول العشاء .

وقادنا رئيس خدم ، أسمر البشرة ، عليه سحنة بطل مصارعة حرة ، الى مقصورة قرب المسرح ووضعوا امامنا سلالاً مليئة بالفراريج المشوية . لم يكن الموسيقيون قد وصلوا لكن الصالة كانت ممتلئة : بعض البيض ، وكثير من السود الذين كان بعضهم يضع على رأسه طرابيش .

— ما هذه الشواشي ؟

فقال ليويس :

— انها رابطة من تلك الرابطات الموجود منها عدد كبير . لقد وقعنا على احد مؤتمراتهم .

— لكن هذا سيكون مملاً جداً .

— هذا ما أخشاه .

كان صوته متجهما . كان هو الآخر بلا شك متعباً من افراطنا الطويل في السعادة . فمنذ البارحة مساء استنفدنا قوانا في البحث والوصول ، والاعتناق . قليل جداً من النوم ، كثير من الحمى ، كثير من الذبول . وبينما كنا نأكل في صمت ، صعد زنجي طويل ، يضع طربوشاً ، الى خشبة المسرح وأخذ يتكلم في بعبعة .

ـ ماذا يقول ؟

- يتكلم عن الرابطة .

ـ سيكون هناك على كل حال تسليات ؟

ـ نعم .

ـ متى ؟

ـ لا أدري .

كان يجيب بطرف شفتيه . ولم يكن سأمنا المشترك يقرب بيننا ، وفجأة لم أعد احس بجريان في عروقي إلا جريان مساء رمادي . لعل رغبتنا في الهرب من مخبئنا كانت غلطة : فالهواء فيه كان ثقيلا جداً ، غنياً جداً . لكن الارض ، في الخارج ، كانت مقفرة من السكان ، والجو بارداً . وألقى الخطيب باسم ما بصوت مرح فقامت امرأة تضع قبعة حمراء وصفق جميع الناس . وانتصب وجه آخر ، ثم آخر فوق الجمهور . هل سيقدم جميع اعضاء الرابطة واحداً واحداً ؟ ! واستدرت نحو ليويس . كان يحدج الفراغ بنظرة زجاجية . وكان فكه الاسفل متدلياً ، وكان يشبه أسماك الحوض الخبيثة وقلت :

ـ اذا كان هذا سيستمر طويلا ، فمن الافضل ان نذهب .

ـ لم نأتِ من مثل هذا البعد لنذهب بمثل هذه السرعة .

كان صوته جافاً . بل خيل إلي انني ألمح نوعاً من الكراهية لم يكن التعب يكفي لتفسيره . لعله كان يتمنى عندما تركنا ضفة البحيرة ان نعود الى غرفتنا . لعله جرح لأنني لم ارغب في ان نجد فراشنا ثانية فوراً . ووجمت لهذه الفكرة . وحاولت ان اقترب منه بواسطة كلمات .

ـ انت متعب ؟

ـ كلا .

ـ انت سئم ؟

ـ انني انتظر .

ـ لن ننتظر هكذا طوال ساعتين ؟

– لمَ لا ؟

كان قد اسند رأسه الى الحاجز الخشبي ، وكان وجهه قتيماً وبعيداً كوجه القمر . كان يبـــدو على استعداد للتناوم طوال ساعتين دون ان يفوه بكلمة . وطلبت قـــدح وسكي مضاعفاً لم ينجح في إنعاشي من جديد . وكانت سيدات عجائز سود معتمرات طرابيش حمراء يتبادلن التحيـات ويحيين الجمهور بـــين التصفيق .

– ليويس ، لنعد .

– كلا ، هذا عبث .

– اذن كلمني .

– ليس لديّ ما أقول .

– لم أعد استطيع ان اتحمل البقاء هنا .

– لقد اردتِ المجيء

– ليس هذا سبباً .

كان قد سقط من جديد في خدره . وحاولت ان افكر : « انني نائمة ، هذا كابوس ، سوف استيقظ » . لكن لا . إنِ بعد الظهر هـــذا الشديد الزرقة هو الذي كان حلماً، وانما الآن استيقظنا . على شاطىء البحيرة ، كان ليويس يكلمني كما لو انني لن اتركه ابداً ، ولقد طوق اصبعي بخاتم . وبعد ثلاثـة ايام سأكون قد رحلت ، الى الأبد ، وهو يعرف ذلك . وكنت افكر : « انـــه حاقد عليّ وهذا عدل. لماذا جئت ، ما دمت لا استطيع البقاء ؟ انه حاقد عليّ ، وسيفرق حقده بيننا الى الابد » ، كنا ، لولا القليل ، على وشك الفرقة الى الأبد : وقبل وقت قليل جداً كنا مفترقين الى الأبد ! وكانت دموع تصعد الى عيني .

– انت غاضب ؟

– لكن لا .

– اذن ماذا في الأمر ؟

– لا شيء .

كنت ابحث عبثاً عن نظرته. وكنت استطيع ان اسحق سلاميات اصابعي، واحطم رأسي على هذا الجدار الأعمى، دون أن استطيع هزّه وكانت فتيات في اثواب توزيع الجوائز يصطففن على المسرح. وتقدمت فتاة نحيلة قصيرة جلدها بلون الصوف من المكرفون واخذت تدندن غانجة. وتمتمت في يأس: « انا عائدة ! ».

ولم يتحرك ليويس وكنت اتساءل غير مصدقة: « أمن الممكن ان يكون كل شيء قد انتهى ؟ هل فقدته بمثل هذه السرعة ؟ ». وبذلت جهداً للتمسك بالحس السليم: انني لم أفقده، انني لم احصل عليه ابداً، وليس لي الحق في التشكي لأنني لم افعل سوى مراعاته. ليكن، انني لا اتشكى: لكني أتألم. ولمست خاتمي النحاسي. لم تكن هناك الا وسيلة واحدة لأكف عن التألم: ان أنكر كل شيء. سأعيد له الخاتم، وغداً صباحاً سآخذ الطائرة الى نيويورك، وهذا اليوم لن يعود الا ذكرى يتكفل الزمن بمحوها. وانساب الخاتم على طول اصبعي ورأيت من جديد السماء الزرقاء، وابتسامة ليويس، وكان يداعب شعري، ويناديني: « آن ! ». وتهالكت على كتفه: « ليويس ! ».

وطوقني بذراعه وانهمرت دموعي.

— هل كنت حقاً رديئاً جداً ؟

فقلت:

— لقد أخفتني. لقد خفت للغاية !

— خفت ؟ هل كنت تخافين من الألمان في باريس ؟

— كلا..

— وانا أخفتك: اني فخور جداً...

— كان يجب ان تخجل. » كان يقبل شعري في رقة. كانت يده تداعب ذراعي. وتمتمت: « اردت ان اعيد لك خاتمك ».

فقال بصوت رصين:

— رأيت وفكرت: انني افسد كل شيء. لكن لم اكن استطيع ان أنتزع

من نفسي كلمة واحدة .

– لماذا حدث ؟

– لم يحدث شيء مطلقاً .

ولم ألح ، لكني سألت : « أتريد ان نعود الآن ؟ » .

– بالتأكيد .

وفي التاكسي ، قال فجأة : « ألا يحدث لك ابداً ان تتمنى قتل جميع الناس ونفسك معهم ؟ »

– كلا . وعلى الأخص ليس عندما اكون معك .

وابتسم ، واسندني الى كتفه . كنت قد وجدت ثانية حرارته ، وأنفاسه ، لكنه كان صامتاً وفكرت : « لم اخطىء . ان هذه الأزمة لم تنفجر بدون سبب . لقــد فكر بأن قصتنا لا معقولة ، وهو لا يزال يفكر في ذلك ! » . وعندما رقدنا ، اطفأ النور فوراً . واخذني في الظلمة ، في صمت ، دون ان يلفظ اسمي ، دون ان يقدم لي ابتسامته . . ثم ابتعد دونما كلمة . وقلت في نفسي في ذعر : « نعم ، انه حاقد علي . سوف أفقده » . وتضرعت :

– ليويس ! قل لي على الأقل انك تشعر بالصداقة نحوي !

فقال في عنف :

– صداقة ؟ لكني أحبك .

واستدار نحو الجدار وبكيت طويلا ، دون ان اعلم هل هذا لأنه يحبني ، أم لأنني لا استطيع ان أحبه ، أم لأنه سيكف ذات يوم عن حبي .

وقررت في الصباح وانا افتح عيني : « يجب أن أكلمه » . الآن وقد لفظت كلمة الحب ، يجب ان اشرح لليويس لمــاذا ارفض استخدامها . لكنه جذبني إليه : « كم انت وردية ! كم انت دافئة ! » ولم يطاوعني قلبي . لم يعد لأي شيء حساب سوى سعادة كوني بين ذراعيه دافئة ووردية . ومضينا عـبر المدينة . وسرنا متشابكي الأذرع في الشوارع المحفوفة بأكواخ حقيرة خربـة تقف امامها سيارات فارهة . وكانت المنازل المبنية في الأسفل تفصلها أحيانـاً عن الطريق

المرتفعة حفرة يعلوها درج ، فيخيل للمرء انـــه يسير على سد . وتحت ارصفة ميشيغيان أفينيو ، اكتشفت مدينة بلا شمس تلتمع فيهـــا طوال النهار لافتات النيون . وتنزهنا في زورق في النهر . وشربنا المارتيني في أعلى برج ترى منـــه بحيرة لا نهاية لهـا وضواحٍ شاسعة كالبحيرة . كان ليويس يحب مدينته . وكان يرويهـا لي . المرج ، الهنود ، الأكواخ الخشبية الاولى ، الأزقة التي كانت تنخر فيها خنازير، الحريق الكبير ، ناطحات السحاب الاولى : لكأنه شهد كل شيء.

وسأل :

– اين تريدين العشاء ؟

– حيث تشاء .

– لقد فكرت اننا نستطيع العشاء في البيت ؟

فقلت :

– نعم ، لنتعشَّ في البيت .

وانقبض قلبي . لقد قال « في البيت » كما لو كنا زوجاً وزوجة : وكان باقياً لنا يومان نعيشهما معاً . وكنت أردد في نفسي : « يجب ان اتكلم » . وما كان يجب ان اقوله له، هو انه كان بإمكاني ان احبه وانني لا استطيع : هل سيفهمني، ام سيكرهني ؟

واشترينا لحم خنزير، وسالامي ، وزجاجة « شيانتي » ، وبسكويتاً بالروم. وانعطفنا عند زاوية الشارع حيث كانت لافتــة شيلتز الحمراء تلتمع . وفي أسفل الدرج ، بين علب القمامة ، شدّني إليه : « آن ! أتعرفين لمــاذا احبك كثيراً ؟ لأنني أجعلك سعيدة » . وقربت شفتي لأشرب عن قرب أقرب أنفاسه عندمـا انفصل عني . وقال : « هناك شخص على الشرفة » .

وصعد امامي بخطى سريعة وسمعته يهتف في مرح :

– ماريا ! يا للمفاجأة الطيبة ! ادخلي .

فقالت ماريا :

– لا اريد ان ازعجك .

– انت لا تزعجينني .

ودخلت . كانت صغيرة ، مفرطة السمنة قليلاً ، وكانت ستكون جميلة لو كانت أقل ماكياجاً ومسرحة شعرها بعناية أكبر . وكانت بلوزتها الزرقاء تترك عاريتين ذراعيها البيضاوين اللتين كانت إحداهما ملونة بارتشاحات دموية كبيرة . ولا بد انها جاءت كجارة ، دون ان تتحمل مشقة اللبس : « صديقة قديمة » ، ماذا يعني هذا على الضبط ؟ وجلست ، وقالت بصوت ابح قليلاً :

– كنت بحاجة لأن أكلمك ، ليويس .

وصعدت الى حلقي موجة مالحة . لقد لفظت هذا الاسم كما لو أنه مألوف عندها كثيراً . وكانت تنظر إلى ليويس في حنان ملحاح ، بينما كان يفتح زجاجة شيانتي . وسأل :

– هل انتظرت طويلاً ؟

فقالت في استخفاف :

– ساعتين او ثلاثاً . ولقد كان الناس الذين في الطابق الاسفل لطفاء ، وقدموا لي قهوة . لشد ما يحسنون بك الظن . » وجرعت دفعة واحدة كأس شيانتي : « لدي اشياء هامة جداً اقولها لك » . وحدجتني بنظرة : « اشياء شخصية » .

فقال ليويس :

– تستطيعين ان تتكلمي امام آن . » واضاف : « آن فرنسية ، انها قادمة من باريس » .

فقالت ماريا :

– باريس ! » وهزت كتفيها : « اعطني ايضاً القليل من الخمر » . وملأ ليويس كأسها التي افرغتها في عنف . وقالت : « يجب ان تساعدني ، ليس هناك غيرك ... » .

– سأحاول .

وترددت ، وقررت :

– طيب ، سأطلعك على الأمر !

وبدوري صببت لنفسي قليلاً من الخمر وتساءلت في قلق : « هل ستبقى هنا طوال الليل ؟ » . كانت قد نهضت ، واسندت ظهرها الى المدفأة ، وراحت تروي قصة تدور عن زواج ، وطلاق ، وميل قديم . كانت تقول بصوت مطالب : « انت ، لقد نجحت . لكن الأمر بالنسبة لامرأة أصعب . يجب أن انهي هذا الكتاب . وفي الحالة التي انا فيها ، لا أستطيع ان اكتب » . كنت لا أكاد اصغي اليها . وكنت افكر في غضب انه كان على ليويس ان يجد وسيلة لنتخلص منها . كان يقول انه يحبني ، وكان يعرف جيداً ان ساعاتنا معدودة : اذن ؟ لكنه سأل في لهجة مهذبة :

– وأسرتك ؟

– لماذا تسألني هذا ؟ اسرتي ! » وبحركة عصبية جمعت ماريا الاوراق التي كانت تتناثر على الطاولة وكورتها طابة . ورمتها في عنف نحو صندوق القمامة . « انني اكره الفوضى » . وتابعت وهي تنظر الى ليويس في ثبات : « كلا ! لا استطيع ان اعتمد الا عليك » .

ونهض في سيماء من حرج : « ألست جائعة ؟ كنا سنتناول العشاء » .

فقالت :

– شكراً . لقد اكلت سندويشات بالجبنة . » ونوهت في لهجة متحدية غامضة : « جبنة اميركية » .

فسأل :

– واين ستنامين هذه الليلة ؟

– لكنك دعوتني ، أليس كذلك ؟ » وتفرست في وجهي : « بالطبع كي اقبل بالبقاء ، فيجب أن لا تدب نساء غيري في البيت » .

فقال ليويس :

– المشكلة هي ان هناك امرأة اخرى .

فقالت ماريا :

— ضعها خارجاً .

فقال ليويس في مرح :

— هذا صعب .

وفي البدء اخذتني رغبة في الضحك : ماريا هاربة من المصح ، كان يجب ان أتبين ذلك ما إن فتحت فاها . ثم اخافني عماي . ما اكبر استعدادى للإصابة بالأذى حتى أرى في هذه المجنونة منافسة ! وبعد يومين سأكون قد رحلت ، تاركة ليويس لأسراب النساء اللواتي ستكون لهن الحرية في حبه. لم اكن استطيع تحمل هذه الفكرة .

وقالت لي ماريا بصوت آمر .

— منذ عشر سنوات لم أره . دعيه لي هذه الليلة وتستطيعين ان تناله باقي ايام حياتك . هذا إنصاف ، أليس كذلك ؟

ولبثت بدون جواب والتفتت نحو ليويس :

— اذا ذهبت من هنا فلن أعود ابداً . اذا ذهبت غداً فسأتزوج رجلاً آخر .

فقال ليويس :

— لكن آن في بيتها هنا . نحن متزوجان .

— آه ! » كان وجه ماريا قد جمد : « اعذرني . لم اكن اعرف». وامسكت بزجاجة الشيانتي وشربت في شراهة من فمها : « أعطني موسى » .

وتبادلنا نظرة قلقة وقال ليويس :

— ليس عندي .

— هيا اذن ! » ونهضت ومشت نحو المغسلة . وسألتني في سخرية وهي تجلس ، منفرجة الساقين على رحب : « هذه الموسى ستصلح الأمر تماماً . أتسمحين » . واخذت تحلق ساقيها في عناية عصبية : « ستكون الحال افضل هكذا ، افضل بكثير » . ونهضت من جديد ، ووقفت أمام المرآة وحلقت إبطيها الواحد تلو الآخر . وصرخت وهي تتمطى امام المرآة في ابتسامة ملتذة : « هذا يجعلني مختلفة عن جميع الناس . حسناً ! هاك ! غداً سأتزوج ذاك

الدكتور . لماذا لن أتزوج زنجياً ما دمت أشتغل كزنجي ؟ . »

فقال ليويس :

– ماريا ، لقد تأخر الوقت . سآخذك الى فندق تستطيعين ان تستريحي فيه في اطمئنان .

– لا اريد ان استريح . » ونظرت اليه في غضب : « لماذا ألححت علي ان ادخل ؟ لا احب ان يُسخر مني » . وارتفعت قبضتها وتوقفت على بعد أنملة من وجه ليويس : « انه على كل حال أقذر مقلب وقعت فيه في حياتي » . واضافت وهي تشير الى ارتشاحاتها الدموية : « عندما أفكر بكل ما تحملته من أجلك . »

فكرر ليويس في هدوء :

– تعالي ، لقد تأخر الوقت .

وتوقفت نظرة ماريا على المغسلة . « طيب سآتي . لكن سخّن ماء اولاً . سأغسل هذه الصحون . لا استطيع تحمل الوسخ » .

فقال ليويس في لهجة مستسلمة :

– يوجد ماء ساخن .

وأمسكت بالمغلاة واخذت تغسل الصحون في عجلة صامتة . وعندما انتهت ، مسحت يديها ببلوزتها .

– حسناً . انني تاركتك مع امرأتك .

فقال ليويس :

– انني مرافقك .

واشار لي اشارة صغيرة بينما كانت تمشي نحو الباب دون ان تلقي نظرة واحدة باتجاهي . ووضعت ادوات المائدة ، وأشعلت سيجارة . لم يعد بعد الآن وقف تنفيذ ، فسوف يعود ليويس بعد لحظة ، وسوف اتكلم . لكن الكلمات التي كنت أمضغها منذ الصباح لم يكن يبدو لي ان لها اي معنى . روبير ، نادين ، عملي ، باريس : كل ذلك ، وهذا حقيقي ، لم يكف يوم واحد لكي يصبح كاذباً .

وعاد ليويس الى المطبخ واغلق الباب بالمزلاج بعناية ، وقال: «لقد وضعتها في تاكسي . وقالت لي : « بعد كل شيء ، الأفضل ان أعود لأنام عند المجانين ». لقد هربت عند نهاية بعد الظهر وجاءت الى هنا مباشرة » .

– لم افهم فوراً .

– لقد رأيت ذلك . انها مسجونة منذ اربعة أعوام . وقد كتبت لي في السنة الماضية لتطلب مني كتابي ، وارسلته لها مع كلمة صغيرة . انني لا أكاد اعرفها . » ونظر حواليه مبتسماً : «منذ ان سكنت هنا ، تحدث اشياء غريبة. انه هذا المكان . انه يجذب للقطط ، والمجانين ، والمدمنين » . واخذني بين ذراعيه : « وبسطاء الروح » .

وذهب ليضع الاسطوانات في البيك آب ، وعاد ليجلس الى الطاولة . كان لا يزال متبقياً القليل من الشيانتي فصببته في كأسينا . وكان الفونوغراف يعزف اغنية ايرلندية بينما كنا نأكل جنباً الى جنب، في صمت . وتحت الغطاء المكسيكي كان الفراش ينتظرنا . لكأنها سهرة يومية ستتبعها الف سهرة مماثلة. وعبر ليويس بصوت عالٍ عن فكرتي : « يمكن الاعتقاد بأنني لم اكذب على ماريا » . كانت نظرته فجأة تسألني : « من يدري ؟ » كنت ، انا ، ادري . وادرت رأسي . لم اكن استطيع التراجع بعد الآن . وتمتمت :

– ليويس ، لم اكلمك بما فيه الكفاية عن نفسي . يجب ان اشرح لك . . .

– نعم ؟

كان في عينيه توجُّس وكنت افكر : « كل شيء انتهى ! » . ونظرت للمرة الاخيرة الى المدفأة ، الى الجدران ، الى النافذة ، الى هذا الديكور الذي لن اعود فيه بعد قليل الا دخيلة . ثم اخذت أرمي بجمل ، كيفما اتفق ، في تلمس . ذات يوم ، في الجبل ، تدحرجت على طول هاوية ، وظننت انني سأموت ، ولم يكن في داخلي الا اللامبالاة . وكنت أتعرف هذا الاستسلام ثانية . كل ما هنالك انني وددت لو استطيع ان اغمض عيني .

وقال ليويس :

– لم افهم ان هذا الزواج لما تزل له هذه الاهمية في نظرك .

لا تزال له اهمية .

وسكت فترة طويلة . وتمتمت :

– هل تفهمني ؟

وطوق كتفي بذراعه : « أنت أعز عندي ايضاً مما كنت قبل ان تتكلمي . في كل يوم تصبحين عندي أعز » . واسندت خدي الى خده وكانت جميع الكلمات التي رفضت ان اقولها له تنفخ قلبي . وأخيراً قال :

– يجب ان تذهبي لتنامي . سأرتب قليلاً ثم ألحق بك .

ولمدة طويلة ، سمعت صوت الصحون المحركة ، ثم لم اعد أسمع شيئاً ، فقد نمت . وعندما فتحت عيني ، كان ينام الى جانبي . لم لم يوقظني ؟ ماذا ظن ؟ ماذا سيظن غداً ؟ ماذا سيظن بعد ان ارحل ؟ وخرجت من الفراش في هدوء ، وفتحت باب المطبخ واستندت الى افريز الشرفة . كانت الشجرة ترتجف تحتي . وبين السماء والأرض كان يلمع إكليل كبير من المصابيح الحمر : خزان الغاز . كان الجو بارداً وارتجفت انا الأخرى .

كلا ، لم اكن اريد الرحيل . ليس بعد غدٍ ، ليس بمثل هذه السرعة . سأبرق الى باريس . كنت استطيع ان أبقى ايضاً عشرة ايام ، خمسة عشر يوماً ... كنت استطيع ان ابقى : ثم ؟ لا بد ان اذهب في النهاية . والدليل على انه يجب ان ارحل فوراً ، هو ان هذا يكلفني من الآن كثيراً . لم تكن المسألة مسألة مغامرة سفر : اذا ما بقيت، فسيصبح هذا حباً حقيقياً، حباً مستحيلاً، وآنذاك سأتألم . لم اكن اريد ان أتألم . لقد رأيت بول تتألم عن قرب كثير . وأرقدت على اريكتي كثيراً من النساء المعذبات ما كن يتوصلن الى الشفاء . كنت افكر : « اذا رحلت ، فسوف أنسى ، سأرغم على النسيان . اننا ننسى ، هذا شيء رياضي ، اننا ننسى كل شيء ، اننا ننسى بسرعة : اربعة أيام ، من السهل نسيانها » . وحاولت ان افكر بليويس كمنسي : كان يمشي عبر البيت ، وقد نسيني . نعم ، سينسى هو الآخر . انها ، اليوم ، غرفتي ، شرفتي ، سريري ،

قلب مليء بي: ولن اكون قد وُجدت ابداً. واغلقت الباب وانا افكر في حماسة: « لن تكون غلطتي . لن أفقده بغلطتي » .

وقال ليويس :

— ألا تنامين ؟

— كلا . » وجلست على حافة الفراش ، قريباً جـداً من دفئه : « ليويس ، اذا كنت اريد ان أبقى اسبوعاً او اسبوعين آخرين ، فهل سيكون هذا ممكناً؟».

فقال :

— كنت اعتقد انهم ينتظرونك في باريس .

استطيع ان أبرق الى باريس . هل ستحتفظ بي بعض الوقت ايضاً ؟

فقال :

— احتفظ بك ؟ سأحتفظ بك طوال حياتي !

لقد رماني بهذه الكلمات بعنف كبير حتى انني ترنحت بين ذراعيه . وقبلت عينيه ، وشفتيه ، ونزل فمي على طول صدره . ولمس السرة الطفولية ، والفرو الحيواني ، والفرج الذي كان يخفق فيه قلب خفقــات صغيرة . كانت رائحته ، حرارته ، تسكرني وشعرت ان حياتي تغادرني ، حياتي القديمة مع همومهــا ، متاعبها ، ذكرياتها المهترئة . وضم اليه ليويس امرأة جديدة كليـــاً . وأننت ، ليس فقط من اللذة : بل من السعادة . لقد قدرت اللذة ، في الماضي ، بثمنها . لكنني لم أكن اعرف ان عمل الحب يمكن ان يكون مبلبلاً الى هذا الحد . كان الماضي ، والمستقبل ، وكل ما يفصلنا يموت عند أسفل فراشنا : لن يفصلنا شيء بعد الآن . يا للنصر ! كان ليويس بأجمعه بين ذراعي ، وانا بين ذراعيه ، ولم نكن نشتهي شيئاً آخر : كنا نملك كل شيء الى الأبد . وكنـا معاً نقول : « يا للسعادة ! » ، وعندما قال ليويس : « احبك » ، قلت ذلك معه .

وبقيت خمسة عشر يوماً في شيكاغو . طوال خمسة عشر يوماً عشنا بدون مستقبل ودون ان نطرح على نفسينا اسئلة . كنا نصنع من ماضينـــا قصصاً نرويها فيما بيننا . وكان ليويس على الاخص هو الذي يتكلم : كان يتكلم بسرعة ،

بشكل محموم قليلاً ، كأنه أراد ان يستعيد حياة كاملة من الصمت . كنت احب الطريقة التي كانت الكلمات تزدحم في فمه . كنت احب ما يقول ، وطريقته في قوله . وكنت بلا انقطاع اكتشف اسباباً جديدة لحبه : ربما لأن كل ما كنت اكتشفه فيه كنت أستخدمه ذريعة جديدة لحبي . كان الطقس جميلاً وكنا نتنزه كثيراً . وعندما كنا نتعب ، نعود الى الغرفة . وتكون الساعة التي يمحي فيها ظل الشجرة على الستارة الصفراء . وكان ليويس يضع على البيك آب كمية من الاسطوانات ، ويضم رداءه المنزلي الابيض ، وارقد في قميص على ركبتيه وننتظر الشهوة . ولم أتساءل ، انا التي تتساءل دوماً في شك عن العواطف التي توحي بها ، من كان ليويس يحب في : كنت واثقة من انها أنا . لم يكن يعرف لا بلادي ، ولا لغتي ، ولا اصدقائي ، ولا همومي : لا شيء الا صوتي ، وعيني، وجلدي . لكن لم تكن لي من حقيقة اخرى سوى هذا الجلد ، هذا الصوت ، هاتين العينين .

في العشية السابقة لرحيلي ، ذهبنا لتناول العشاء في المطعم الالماني القديم ونزلنا الى شاطيء البحيرة . كان الماء اسود تحت السماء الرمادية الحليبية . وكان الجو حاراً . كان صبيان وفتيات نصف عراة ، مبللون ، يجففون انفسهم حول نار مخيم . والى بعيد ، كان صيادون قد شرعوا قصباتهم ، ووضعوا على صخور الشاطىء اكياس نوم وزجاجات ترموس . وشيئاً فشيئاً أقفر الشاطىء . كنا صامتين . كانت البحيرة تلهث في هدوء عند اقدامنا ، كانت وحشية كما كانت ايام كان الهنود يخيمون على الضفاف المستنقعية ، ايام لم يكن للهنود وجود بعد . والى اليسار ،فوق رأسينا ، كنا نسمع جلبة مدينية كبيرة ، وكانت اضواء السيارات تكنس الشارع حيث كانت تلمع بنايات عالية . وكانت الارض تبدو عجوزاً الى ما لا نهاية ، صغيرة إطلاقاً .

وقلت :

ــ ما أجملها من ليلة !

فقال ليويس :

– نعم ، ليلة جميلة .» واشار نحو خوانٍ : « هل تريدين ان تجلسي هنا ؟».
– اذا اردت .

فقال ليويس بصوت مرح :

– ما ألطف امرأة تجيب دوماً : اذا اردت ! » وجلس الى جانبي وطوقني بذراعه ، وقال في حنان : « غريب ان نتفاهم كل التفاهم . لم استطع قط ان اتفاهم مع احد » .

فقلت :

– يقيناً كانت غلطة الناس الآخرين .

– كلا . كانت غلطتي . انني لست سهل المعشر .

– اما انا فأجدك سهل المعشر .

– ايتها الغولية الصغيرة المسكينة : انت لست متطلبة كثيراً !

واسندت رأسي الى صدر ليويس وسمعت خفقان قلبه . ماذا كنت اطلب اكثر من ذلك ؟ هناك هذا القلب المتين والصابر الذي يخفق تحت خدي ، وهذه الليلة الرمادية اللؤلؤية حولي : ليلة صنعت خصيصاً من اجلي . من المستحيل ان أتصور انه كان ممكناً ان لا اعيشها . وقلت في نفسي : ومع ذلك ، لو جـــاء فيليب الى نيويورك لما كنت هنا » . ما كنت لأحب فيليب ، انا واثقة من هذا: لكني ما كنت رأيت ليويس ثانية ، وما كان حبنا وجد . كان هـــذا التفكير يبلبل كما لو ان المرء حاول ان يتخيل انه ما كان سيولد او انه كان يستطيع ان يكون شخصاً آخر . وتمتمت :

– عندما افكر بأنه كان من الممكن ألا أتلفن لك ! أنه كان من الممكن الا تجيبني !

فقال ليويس :

– اوه ! لم يكن بامكاني الا التقي بك !

كان في صوته يقين عظيم حتى ان انفاسي انقطعت. ووضعت شفتي على المكان الذي كان يخفق فيه قلبه ووعدت نفسي : « ابداً لن يندم على هذا اللقاء ! » .

كنت سأرحل ، بعد يومين . وكان المستقبل موجوداً من جديد : لكننا سنصنع منه سعادة . ورفعت رأسي :

– ليويس ، اذا كنت تريد ، فإنني سأعود لمدة شهرين او ثلاثة، في الربيع.

فقال ليويس :

– عندما ستعودين ، سيكون الربيع دوماً .

ولمدة طويلة، بقينا متعانقين ننظر الى النجوم. وتهاوت نجمة عبر السماء وقلت:

– تمنَّ أمنية !

فابتسم ليويس :

– لقد تمنيت .

وانقبض صدري . كنت اعلم ما تمناه ، وان هذه الامنية لن تُستجاب . هناك ، في باريس ، كانت حياتي تنتظرني ، حياتي التي بنيتها طوال عشرين عاماً والتي لم يكن هناك مجال لأطرح عنها اسئلة . سأعود في الربيع : لكن هذا سيكون لأرحل ثانية .

وأمضيت نهار الغد في التسوق . وتذكرت باريس ، وواجهاتها الكئيبة ، ونساءها القليلات العناية بأنفسهن ، وكنت اشتري من كل شيء ، مما تقع عليه عينيَ ، من اجل الجميع . وتعشينا خارجاً وعندما ارتقيت الدرج الخشبي مستندة الى ذراع ليويس ، فكرت : « هذه هي المرة الاخيرة ! » . كانت ياقوتات خزان الغاز تلمع بين السماء والارض ، للمرة الاخيرة . ودخلت الى الغرفة . لكأن قاتلاً قد قتل امرأة ونهب خزائنها . كانت حقيبتاي مفتوحتين ، وعلى السرير ، وعلى الكراسي ، وعلى الأرض ترقد ألبسة داخلية من النايلون ، وجوارب ، وادوات زينة ، واقمشة ، واحذية ، ومناديل . وكانت تفوح منها رائحة الحب والموت والكارثة وفي الحقيقة ، كانت قاعة جنائزية : هذه الاشياء كلها كانت بقايا ميتة ، الزاد الذي ستحمله الى العالم الآخر . ولبثت مسمرة في مكاني. واقترب ليويس من الخزانة ذات الادراج ، وفتح درجاً وأخرج منه علبة كرتون بنفسجية ناولني اياها في شيء من الخجل :

– اشتريت هذا لك !

تحت الورقة الحريرية، كانت هناك زهرة بيضاء كبيرة رائحتها تدوخ . واخذت الزهرة ، وسحقتها على فمي ، والقيت بنفسي على السرير منتحبة. وقال ليويس:

– يجب الا تأكليها . هل تؤكل الزهور في فرنسا ؟

نعم ، ثمة احد قد مات : امرأة سعيدة كانت تستيقظ كل صباح ، وردية ودافئة ، وهي تضحك . وعضضت على الزهرة ، وكان بودي لو يغمى علي في عطرها ، لو أموت نهائياً . لكني نمت حية ، وعند الفجر قادني ليويس الى زاوية الشارع الكبير : كنا قد قررنا ان نفترق هنا . واشار الى تاكسي ، وصعدت ، وانصفق الباب ، ودار التاكسي عند منعطف الشارع . واختفى ليويس . وسألني السائق :

– أهو زوجك ؟

فقلت :

– كلا .

كان يبدو عليه انه حزين جداً !

– ليس زوجي .

كان حزيناً . وانا اذن ! لكنه لم يعد الحزن نفسه . كان كل منا وحيداً . كان ليويس يعود وحيداً الى الغرفة الفارغة . وصعدت وحيدة الى الطائرة .

ثماني عشرة ساعة ، انها مدة قصيرة للقفز من عالم الى آخر ، من جسد الى آخر. كنت لا ازال في شيكاغو، أسحق وجهي الملتهب على زهرة ، عندما ابتسم لي روبير فجأة. وابتسمت انا الاخرى، واخذت ذراعه وبدأت أتكلم. ورويت له حرفياً كمية لا بأس بها من الاشياء . ومع ذلك ، ما إن فتحت فمي ، حتى شعرت انني اطلق كارثة فظيعة من إسارها : جميع تلك الايام الحية للغاية التي عشتها تحجَّرت فجأة ولم يبق ورائي الا كتلة متجمدة من الماضي . واتخذت ابتسامة ليويس ثبات تكشيرة من البرونز . وكنت انا هنا ، اتنزه في شوارع لم اغادرها قط ، مشدودة الى روبير الذي لم افترق عنه قط ، وكنت أسرد قصة

لم تحدث لأحد . كانت نهاية ايار هذه شديدة الزرقة ، وكان السوسن يباع عند جميع مفترقات الطرق ، وعلى غطاء عربات الفصول الأربعة الاخضر كانت ترقد باقات من الهليون محزومة حتى نصفها بورق أحمر : ان السوسن والهليون في هذه القارة لكنز كبير . كانت النساء يرتدين تنورات قطنية فرحة الألوان ، لكن كم كان جلدهن وشعرهن يبدو لي قاتماً ! وكانت العربات المتناثرة على الطرق الضيقة عتيقة، حقيرة، سقيمة ، وما أشحـَّها من معروضات على مخمل الواجهات الكابي ! لم اكن استطيع ان اخطىء : كان هذا التقشف يعلن لي انني وضعت قدمي من جديد في الواقع . وتعرفت في فمي على ذلك الطعم ، الذي لن يمكن انكاره مطلقاً عما قريب: طعم الهم . لم يكن روبير يكلمني الا عني، ويتملص من اسئلتي : كان من الواضح ان الأمور لا تسير كما كان يريد لها ان تسير . فقر ، وقلق : انني في وطني ، بلا شك .

وذهبنا الى سان – مارتان من اليوم التالي . كان الطقس عذباً وجلسنا في الحديقة . وما ان اخذ روبير يكلمني ، حتى تبينت انني لم اخطىء : كان مثقل القلب . كان الشيوعيون قد فتحوا ضده تلك الحملة التي كان يخشاها قبل سنة : وقد نشروا مقالاً من مقالات اخرى في « السندان » أصابه في الصميم . وقد جرحني انا أيضاً . كانوا يصورون روبير مثالياً هرماً ، عاجزاً عن التلاؤم مع ضرورات هذا الزمن القاسية . وكان رأيي انا انه قد تنازل للشيوعيين أكثر مما ينبغي بالأحرى وتخلى عن اشياء كثيرة من ماضيه .

وقلت :

– هذا سوء نية . ما من أحد يظن هذا بك ، حتى ولا كاتب المقال .

فقال روبير :

– آه ! لست ادري . » وهز كتفيه : « احياناً اقول في نفسي انني بالفعل اكبر سناً مما ينبغي » .

فقلت :

– انت لست مسناً! لم تكن كذلك عندما رحلت وقد وعدتني بألا تتغير.

فابتسم : « لنقل ان لي شباباً اصبح له تاريخ » .
— ألم تردّ بشيء ؟
— كلا . كان من الممكن ان اردّ بأشياء كثيرة . لكن ليس الوقت مناسباً.

منذ الخامس من ايار ، كانت مجموعة من الأنصار المزعومين قد استفادت من فشل الشيوعيين لتدير لهم ظهورها . كانت « الحركة الجمهورية الشعبية » تنتصر، وديغول يضطرب ، والحزب الاميركي يترصد . وكان يجب اكثر من اي وقت مضى ان يتكاتف اليسار . وبانتظار استفتاء تشرين الأول والانتخابات التي ستتبعه ، فإن خير ما كان « الاشتراكي الثوري الحر » يستطيع ان يفعله ، هو ان يتناوم. لكن روبير لم يأخذ هذا القرار في قلب مرح. كانت غلطة الشيوعيين اذا لم يكن ممكناً متابعة العمل في تجمع اليسار دون ان يلحقهم أذى: كان يلومهم على تحزبهم . واذا كان يمتنع عن توبيخهم علناً ، الا انه لم يكن يحرج من ذلك في الجلسات الخاصة : وقد ثار ضدهم في عنف عدة مرات خلال هذين اليومين . وكان من الجلي ان استطاعته الحديث إلي كانت تهدئه . وكنت اقول في نفسي انه ربما لم يكن بحاجة إلي بالذات ، ولكن كان من المؤكد انها تفيده ، تلك المرأة التي أحتل مكانها : كان مكاني ، دون أدنى شك ، مكاني الحقيقي على الأرض .

لكن اذن ، لماذا لا أرقد فيه في سلام ؟ لمَ هذه الدموع ؟ كنت أمشي في الغابة ، وكان ربيعاً جميلاً جداً ، وكنت في صحة طيبة ، ولم اكن محرومة من شيء : وبين الفينة والفينة ، كنت أتوقف ، وأود لو أئن وكأنني فقدت كل شيء . وكنت انادي في هدوء : « ليويس ! » . يا للصمت ! لقد كان لي ، من الغسق الى الفجر ، ومن الفجر الى الليل ، انفاسه ، صوته ، ابتسامته : لم تبق منه علامة . ألا يزال موجوداً ؟ كنت أصغي : لا همسة . وانظر : لا أثر . وما عدت أفهم . كنت أفكر انني أبكي ، الا انني هنا : ألا أحب ليويس بما فيه الكفاية ؟ انني هنا ، وها انا أبكي : ألا احب روبير بما فيه الكفاية ؟ » انني اعجب بالناس الذين يحبسون الحياة في صيغ نهائية : انهم يقولون « الحب

الجسدي ليس شيئاً » . او « ان حبــاً ليس جسدياً ليس شيئاً » . لكن تعلقي بروبير لم يضعف لأنــي التقيت بليويس . وما كان حضور روبير ، مهما كان ضخماً ، ليعوض عن غياب ليويس .

وفي بعد ظهر السبت ، جاءت نادين مع لامبير . وفـــوراً سألتني في شك : « لا بد انك تلهيت كثيراً حتى أطلتِ هكذا إقامتك ، انت التي لا تغــير ابداً خططها » .

– انت ترين انني اغيّرها عند المناسبة .

– غريب أن تبقي مدة طويلة جداً في شيكاغو . يقال انها فظيعة .

– انهم مخطئون .

كانت قد قامت بعدة ريبورتاجات مع لامبير خلال هذه الأشهر الثــلاثة ، وكانت تسكن عنده ، وتكلمه في حنان ساخر ، لكن ملحاح . كانت ، وهي الراضية عن حياتها ، تنقب في حياتي في عداء متردد . وهدأتها قدر استطاعــتي بحكايات من الرحلة . وبدا لي لامبير اكثر انفراجاً واكثر مرحاً منه قبل رحيلي. وقد أمضينا نهاية الاسبوع في الجناح . ونقلت اليه مطبخاً ومددت فرعاً للتلفون حتى تكون نادين مستقلة دون ان تشعر انها مقطوعة عن البيت . وقــد سُرّت كثيراً من إقامتها حتى انها اعلنت لي مساء الأحد انها سيبقيان في سان – مارتان طوال أيام عطلتها كافة .

وسألتها :

– انت واثقة ان هذا التدبير يعجب لامبير ؟ انه لا يحب كثــيراً لا والدك ولا أنا .

فقالت في لهجة قاطعة :

– اولاً انه يحبك كثيراً . واذا كان هذا لأنك تخشين ان تحملينا على ظهرك ، فاطمئني ، سوف نبقى عندنا .

– انت تعلمين جيداً انني مسرورة من وجودك هنا . كنت اخشى فقط الا تجدا جواً من الصميمية . وانني احذرك على الأخص من انه يمكن سماع كل شيء

يقال في الحديقة من غرفتي .

– اذن ؟ بمَ تريدين ان يؤثر عليّ هذا ؟ انني لست كتومة ، أنا ، ولا أحيط نفسي بالأسرار .

صحيح ان نادين ، على الرغم من اهتمامها الكبير باستقلالها ، وجموحها من كل نقد ، من كل نصيحة ، كانت تبسط حياتها جهاراً . ولا شك ان هذه طريقة لتظهر انها متفوقة . وسألت وهي تمتطي سرج الدراجة :

– ماما تزعم انه يسمك ان تمضي ايام العطلة هنا : هذا صحيح ؟ فقال لامبير :

– لكن لا ، بالمرة .

فقالت لي بصوت منتصر :

– أرأيت ! انت تعقـّدين كل شيء دوماً . ثم ان لامبير يُسر دوماً بفعل ما اطلب اليه ، انه صبي صغير طيب .

قالت ذلك وهي تشعث شعره . وطوقت خصره بذراعها وأسندت ذقنها في دلال الى كتفه بينما كانت الآلة تنطلق .

وبعد أربعة ايام علمنا من نبأ في « الأمل » ان والد لامبير قد قتل بسقوطه من باب قطار . وتلفنت نادين بصوت متهجم بأنه سافر الى ليل ، وانها لن تأتي في نهاية الأسبوع . ولم أطرح عليها اسئلة . لكننا كنا مشغولي الفكر مع ذلك . هل انتحر الشيخ ؟ هل فقد صوابه من محاكمته ؟ ام ان احداً قد قتله ؟ وطوال بضعة ايام ، تهنا في التخمينات . ثم جاءتنا مشاغل أخرى. فقد رتب سكرياسين لقاء بين روبير وموظف سوفياتي اجتـاز الستار الحديدي خصيصاً ليفضح في الغرب مساوىء ستالين . وجاء سكرياسين ، عشية المقابلة ، وكان يحمل وثائق يريد ان يطلع عليها روبير قبل الغد وقد حرص على ان يسلمه إياها يداً بيـد . كنا ما عدنا نراه ، فقد كنا في كل مرة نتخاصم . لكنه ، في ذلـك الصباح ، تجنب في عناية جميع المواضيع الشائكة وانصرف بسرعة : كانت كلمات الوداع طيبة . وفوراً، اخذ روبير يقلب حزمة الأوراق الضخمة : كان بعضها مكتوباً

بالفرنسية ، وكثير منها بالانكليزية وعدد منها بالألمانية . وطلب إليّ :

– انظري اليها اذن معي .

وجلست بقربه تحت شجرة الزيزفون وقرأنا في صمت . كان فيها من كل شيء : تقارير ، قصص ، احصاءات ، مقتطفات من القانون السوفياتي ، وتعليقات ، ولم أفهم شيئاً من هذا الخليط . لكن كانت هناك بعض نصوص واضحة جداً : شهادات رجال ونساء سجنهم الروس في معسكرات اعتقال تشبه المعسكرات النازية بشكل مأساوي ، والأوصاف التي يقدمها عن هذه المعسكرات اميركيون اجتازوا مناطق كبيرة من الاتحاد السوفياتي بصفتهم حلفاء . وحسب الاستنتاجات التي حررها سكرياسين ، كان خمسة عشر الى عشرين مليون انسان يعيشون في ظروف فظة ، وكان هذا احد الأسس الأساسية لذلك النظام الذي ندعوه « الاشتراكية الروسية » . ونظرت الى روبير وقلت :

– ما الحقيقي في هذا كله ؟

فقال لي بصوت مقتضب :

– يقيناً ، أشياء كثيرة .

لم يكن ، حتى الآن ، قد علق اهمية كبيرة على اجتماع الغد ، واذا كان ذاهباً اليه فلكي لا يتهم بأنه يتهرب، لا أكثر . كان واثقاً ان كشوف الروسي ستتركه بارداً ، باعتبار انه كان يفكر بأنه لا يتوهم اوهاماً من الاتحاد السوفياتي. حسناً! كان لا بد من الظن بأنه قد توهم أوهاماً : ففجأة أصبح محتاراً . انه لم يخدع، عندما راح اصدقاؤه الشيوعيون ، في السنوات الثلاثين ، يمدحون له نظام العقوبات في الاتحاد السوفياتي . كانوا يقولون ان المجرمين ، بدل ان يسجنوا ، كان يعاد تثقيفهم باستخدامهم في أعمال نافعة . وكانت النقابات تحميهم وتسهر على ان ينالوا أجورهم حسب التعرفات النقابية . وقد كان روبير شرح لي ان هذا كان في الحقيقة وسيلة لقمع الفلاحين المتمردين مع الحصول في الوقت نفسه على يد عاملة مجانية تقريباً . فالعمل الاجباري كان هناك، كما في كل مكان ، السجن. لكن الآن بعد أن دمج الفلاحون في النظام وربحت الحرب ، كان من الممكن

أن نتصور ان الاشياء قد تغيرت : لكن هـا هم يكشفون لنـــا انها تفاقمت . وناقشنا ، طويلاً ، كل واقعة ، كل رقم ، كل شهادة ، كل فرضية . وعلى الرغـم من اننا أخذنا بعين الاعتبار الى أقصى حد ممكن المبالغات والأكاذيب ، فقـد كانت هناك حقيقة ثقيلة تفرض نفسها . لقـــد أصبحت المعسكرات مؤسسة ، تؤدي الى التكوين المنظم لبروليتاريا تحتية . وما كانوا يعاقبون الجرائم بالعمل : بل كانوا يعاملون العمال كمجرمين ليسمحوا لأنفسهم باستغلالهم .

وسألت عندما غادرنا الحديقة لنذهب لأكل قطعة في المطبخ :

— إذن ماذا ستفعل ؟

فقال روبير :

— لا ادري .

كان من الواضح ان فكرة سكرياسين هي ان يساعده روبير على نشر هـذه الوقائع : وكان يخيل إلي انه ليس لنـا الحق في ان نكتمها . وقلت في شيء من التأنيب : « لا تدري ؟ » .

— كلا .

فقلت :

— عندمـا لا يتعلق الامر الا بك ، او حتى « بالاشتراكي الثوري الحر » ، فإنني افهم ان تقبل بأشياء كثيرة دون ان تهتز . لكن الأمر يختلف هنا . اذا لم نفعل كل ما بإمكاننا ضد هذه المعسكرات ، نكون متواطئين !

فقال روبير :

— لا استطيع ان اقرر شيئاً هكذا بين عشية وضحاهـا . وقبل كل شيء ، انا بحاجة الى مزيد من المعلومات .

فقلت :

— واذا اكدت ما قد علمناه ، فماذا ستفعل ؟

ولم يجب ، وتفرست في وجهــه في قلق . ان يصمت ، فهذا يعني انه على استعداد لتقبل كل شيء من الشيوعيين . هذا يعني ان ينكر كل ما شرع فيه منذ

التحرير : « الاشتراكي الثوري الحر » ، مقالاته ، والكتاب الذي كان ينجزه . وقلت :

– لقد اردت دوماً ان تكون مثقفاً وثورياً معـــاً . وقد اخذت كمثقف التزامات : ومنها قول الحقيقة .

فقال في شيء من نفاد الصبر :

– دعي لي الوقت لأفكر .

واكلنا في صمت . انه يحب ، عادة ، ان يتساءل امامي . ولا بد انه كان مضطرباً كثيراً ليجتر افكاره هكذا ، دون ان يقول شيئاً . وكنت كذلك أيضاً . معسكرات عمل او معسكرات موت : من البديهي ان بينهـــا بعض الفروق . لكن السجن سجن . كنت ارى ، عند جميع اولئك المعتقلين ، الجباه المشوهة نفسها ، العيون المجنونة نفسها التي يملكها المنفيّون . وانما في الاتحـــاد السوفياتي كان يحدث هذا !

واقترح روبير :

– ليست لي رغبة في العمل . هيا لنتنزه .

وعبرنا القرية، وصعدنا الهضبة المغطاة بسنابل ناضجة واشجار تفاح مزهرة. كان الطقس حاراً بعض الشيء ، لا كثيراً . وكانت بعض غيمات صغيرة تتدحرج مثل كرات في السماء . وكنا نلمح القرية ، وأسطحتهـا التي بلون الخبز الجيد ، وقبة جرسها الطفولية . وكانت الارض تبدو وكأنهـا صنعت خصيصاً للإنسان والسعادة بمتناول جميع الايدي . ولكأن روبير سمع همس افكاري . فقد قـال على حين غرة :

– من السهل ان ننسى قسوة هذا العالم .

فقلت في أسف : « نعم ، من السهل » .

وكان بودي لو أستطيع انا أيضـــاً ان استفيد من هذه السهولة . لمَ جـاء سكرياسين يزعجنا ؟ لكن روبير لم يكن يفكر بالمعسكرات . فقد قال :

– تقولين لي انني اذا سكتُّ، فسوف اكون متواطئاً فيقضية المعسكرات.

لكن اذا تكلمت اصبحت متواطئاً مع اعداء الاتحاد السوفياتي ، اي مع جميع الذين يريدون ان يبقوا على العالم كما هو . صحيح ان هـــذه المعسكرات شيء فظيع . لكن يجب الا ننسى ان الفظاعة في كل مكان .

وفجأة ، اخذ يتكلم بسرعة. لم يكن من النوع الذي يحب اللوحات التاريخية المفصلة ، والمشاهد الاجتماعية الشاملة الكبيرة . ومع ذلك ، وبينما كانت الكلمات تزدحم في فمه ، بعد ظهر ذلك اليوم ، جاءت تعاسة العالم كلها لتنهار على الريف المشمس : التعب ، الفقر ، يأس البروليتاريا الفرنسية ، بؤس اسبانيا وايطاليا ، عبودية الشعوب المستعمرة ، ومن اعماق الصين والهند المجاعات والاوبئة . كان ملايين البشر يموتون حولنا دون ان يكونوا قد عاشوا مطلقاً ، وكان احتضارهم يعتم السماء وكنت أتساءل كيف لا نزال نجرؤ على التنفس . وقال روبير :

ـ اذن ، أتفهمين ، ان واجباتي كمثقف واحترام الحقيقة ليست الا كلمات لا طائل تحتها . السؤال الوحيد هو ان نعرف هل نعمل بفضحنا المعسكرات ، من أجل البشر او ضدهم ؟

فقلت :

ـ ليكن . لكن ما الذي يسمح لك بالاعتقاد بأن قضية الاتحاد السوفياتي لا تزال تتحد اليوم بقضية الإنسانية ؟ يبـدو لي ان وجود المعسكرات يرغمنا على طرح الاتحاد السوفياتي على بساط البحث من جديد بأكمله .

فقال روبير :

ـ لا بد لذلك من ان نعرض اشياء كثيرة ! هل المشكلة هي مشكلة مؤسسة محتمة للنظام حقاً ؟ ام انها مرتبطة بسياسة معينة يمكن أن تعـدل ؟ هل يمكننا ان نأمل بأنها ستصفى بسرعة عندما يبدأ الاتحاد السوفياتي بإعادة بناء نفسه ؟ انما عن هذا كله أريد ان استعلم قبل ان أتخذ قراراً .

ولم ألح . باسم من كنت استطيع ان احتج ؟ انني عاجزة غير مؤهلة مطلقاً. وعدنا وأمضينا السهرة في التظاهر بالعمل ، كل من ناحيته . كنت قد حملت معي من امــيركا كثيراً من الوثائق ، والملاحظات ، والكتب عن التحليل النفسي ،

لكني لم أمسّها .

ركب روبير الاوتوبيس في الساعة العاشرة صباحاً. وترصدت ساعي البريد، في الحديقة : لا رسالة من ليويس . كان قد اخطرني انه لن يكتب قبل ثمانية أيام ، والرسائل من شيكاغو لا تصل بسرعة . يقيناً لم ينسني . لكنه كان قصيّ البعد. لا فائدة من البحث عن النجدة من هذه الناحية. النجدة ضد من؟ ودخلت الى المكتب ووضعت اسطوانة على البيك – آب. كان يحدث لي شيء لا يُحتمل: انني اشك في روبير . كنت اقول في نفسي : « في الماضي ، كان يتكلم . في الماضي ، كان صريحاً في كلامه ، ولم يكن يغض النظر عن شيء بخصوص الاتحاد السوفياتي او بخصوص الحزب الشيوعي . وأحد أسباب كونه من « الاشتراكي الثوري الحر » ، هو ان يسمح له بانتقادات بناءة . وفجأة ، راح يختار الصمت : لماذا ؟ كأنه قد جرح من نعته بأنه مثالي . وكان يحاول ان يتلاءم كواقعي مع الضرورات القاسية لهذه الايام . لكن التلاؤم ليس إلا سهلاً للغاية . انا ايضاً ، انني أتلاءم ، ولست فخورة بذلك . غض النظر دوماً ، والقبول دوماً ، هذا يصبح خيانة في النهاية . انني اقبل بالغياب واخون حبي ، واقبل بأن احيا بعد الموتى ، فأنساهم ، واخونهم . اخيراً ، ما دام الامر لا يتعلق إلا بموتى وبنفسي ، فليست هناك ضحايا جدية . لكن خيانة الاحياء ، هذا شيء خطير . »

كان روبير سيجيبني : « اذا تكلمت ، فسوف اخون آخرين » . وكانوا سيضيفون جماعياً ان الانسان لا يصنع عجة دون ان يكسر بيضاً. لكن اخيراً، من سيأكلها ، كل هذه الكميات من العجة ؟ ان البيض المكسور سيفسد فتنتن منه الارض . « لقد انتنت من الآن » . هذا صحيح . كثير من الاشياء صحيحة. انها لترعبني جميع هذه الحقائق التي تتصارع ، وانني لأتساءل كيف تتعرف نفسها في هذا الصراع . انني ، انا ، لا أعرف كيف اجمع اربعمئة مليون من الصينيين وخمسة عشر مليوناً من المحكومين بالعمل الاجباري . وبالأصل ، ربما كان الطرح اوجب . على كل الاحوال ، ان هذه العمليات خاطئة . ان رجلاً ورجلاً لا

يساويان رجلين ، انهما يساويان أبـــداً واحداً وواحداً . طيب ، انا مخطئة اذ أعتمد على الحساب. ولوضع النظام في السديم، انما يجب التوجه الى الديالكتيك. المشكلة هي تجاوز المحكومين بالعمل الاجباري الى الصينيين. ليكن. لنتجاوز. ان كل شيء يمضي ، كل شيء يتحطم ، كل شيء يمل ، كل شيء يتجاوز نفسه . المعسكرات سوف ُتتجاوز وكذلك وجودي الخاص . انها لمضحكة ، هـــذه الحياةالصغيرة المؤقتة التيتقلق بخصوص تلك المعسكرات التيقد الغاها المستقبل. ان التاريخ يعتني بنفسه وبكل منا بالاضافة الى ذلك . لنبق اذن مطمئنين ، كل منا في جحره .

اذن ، لمَ لا يبقون هادئين ؟ هذا هو السؤال الذي كنت اطرحه على روبير ، قبل أكثر من عشرين سنة، عندما كنت طالبة . وقد سخر مني آنذاك. لكنني لست واثقة اليوم انه قد اقنعني تماماً . انهم يتظاهرون بالاعتقاد بأن الانسانية شخص واحد ، خالد، وانها ذات يوم ستكافأ على تضحياتها كافة وانني انا نفسي سأجد نصيبي من المكافأة . لكنني لا أقتنع : ان الموت يتأ كل كل شيء . ان الاجيال المضحى بها لن تخرج من قبرها لتشترك في الولائم النهائية . ومـا يمكن ان يعزيها هو ان المختارين سينضمون اليها تحت الارض بعد فترة قصيرة جداً من الزمن . وربما لم يكن هناك ، بين السعادة والتعاسة ، كبير فرق كما يظن .

أوقفت الفونوغراف ، واستلقيت على الأريكة، واغمضت عيني ، متحررة. لشد ما هو عادل ورؤوف ، نور الموت ! كان ليويس ، وروبير ، ونادين ، قـد أصبحوا خفيفين كالظلال ، ولم يعد لهم ثقل على قلبي : كنت استطيع ان اتحمل ثقل خمسة عشر مليون ظل ، او اربعمئة مليون . وبعد مضي فترة من الوقت ، ذهبت على كل حال لآتي برواية بوليسية . لا بـد من قتل الوقت : لكن الوقت ايضاً سيقتلني ، هـذا هو الانسجام الحقيقي المقام مسبقاً . وعندما عاد روبير مساء ، خيل إليّ انني اراه من بعيـد من خلال منظار : صورة غير متجسمة ، يحيط بها الفراغ من الجهات كلها ، مثل دييغو من نوافذ درانسي ، دييغو الذي لم يعد من هذا العالم . كان يتكلم ، واصغي ، لكن لم تعد لي من صلة بأي شيء .

وقال روبير :

ــ أتلومينني على انني طلبت هذا التأجيل ؟

ــ انا ؟ مطلقاً .

ــ اذن ماذا هناك ؟ اذا كنت تعتقدين انها لا تحزنني ، المعسكرات تلك ، فأنت مخطئة تماماً .

فقلت :

ــ انما الأمر بالعكس. لقد فكرت اليوم اننا مخطئون حقاً إذ نقلق بخصوص كل شيء ولا شيء . ليس للأشياء مثل هذه الأهمية قط . انها تتغير ، وتنتهي ، ثم إن جميع الناس يموتون بعد كل حساب : هذا يسوي كل شيء .

فقال روبير :

ــ آه ! هذه ، بالضبط ، طريقة للهرب من المشاكل .

فأوقفته : «شريطة ألا تكون المشاكل طريقة للهرب من الحقيقة» .وأضفت « من البديهي ، اننا عندما نقرر ان الحياة هي الحقيقة ، فإن فكرة الموت تبدو هرباً . لكن بالمقابل ... » .

فهز روبير برأسه : « هناك فرق . اننا نثبت عندما نحيا بأننا اخترنا الإيمان بالحياة . واذا آمنـــا حقاً ان الموت وحده حقيقي ، يتوجب ان ننتحر . وفي الحقيقة ، حتى الانتحار ليس له هذا المعنى ابداً » .

فقلت :

ــ ربما كنا نتابع الحياة لأننا طائشون وجبناء . فهذا اسهل حل . لكنه لا يثبت شيئاً ايضاً .

فقال روبير :

ــ أولاً ، شيء مهم ان يكون الانتحار صعباً . ثم ان الاستمرار في الحياة لا يعني فقط الاستمرار في التنفس . مـــا من انسان ينجح في القبوع في اللامبالاة . انت تحبين أشياء ، وتكرهين اخرى ، وتسخطين وتعجبين : هذا يتضمن انك تعترفين بقيم الحياة » . وابتسم : « انني مطمئن . إننا لم ننته من التناقش حول

المعسكرات ، وسائر الامور . انت تشعرين انك عاجزة ، مثلي ، مثل جميع الناس ، امام بعض الحقائق التي ترهقك ، لهذا تحتمين بنزعة تشككية معممة : لكن هذا ليس جدياً » .

ولم اجب بشيء . من البديهي انني ، غداً ، سأناقش من جديد ، حول اشياء كثيرة : هل يثبت هذا انها ستكف عن ان تبـدو لي بلا معنى ؟ واذا كان الجواب نعم ،فربما يعني هذا انني سأعاود خداع نفسي .

عاد لامبير ونادين الى سان – مارتان يوم السبت التالي : لم يكن يبدو ايضاً ان الحال تسير على ما يرام بينهما ، فنادين لم تنبس ببنت شفة طـوال العشاء . وكان على لامبير ان يذهب بعـد يومين الى ألمانيا ، ليستعلم عن المعسكرات في المنطقة الروسية . وباتفاق مشترك ، تجنبا ، هو وروبير ، طرق لب المشكلة ، لكنهما تناقشا في حمية حول كيفيات التحقيق العملية .

وفي المقهى ، انفجرت نادين :

– انها لمهزلة محزنة ، هذه القصة كلها ! يقيناً موجودة ، تلك المعسكرات . هذا شيء دنيء وضروري : انه المجتمع ، عجباً ، وما من احد يستطيع ان يفعل شيئاً بخصوص ذلك !

فقال لامبير :

– انت تأخذين بسهولة موقفك ! » ونظر اليها مؤنباً : « كي تتخلصي من اشياء تزعجك ، انت موهوبة حقاً ! » .

فقالت نادين بصوت عدائي :

– وانت ، لا تأخذ موقفك ! كفى اذن ! انت مسرور باستطاعتـك الظن بالاتحاد السوفياتي سوءاً ؟ وبفضل هذا ستذهب لتتنزه وتتظاهر بالأهمية : انهـا عملية رابحة تماماً .

فهز كتفيه دون ان يجيب ، لكن لا بد انهما تخاصما في الجناح ليلاً. وفي اليوم التالي ، قضت نادين النهار بمفردها في غرفة الجلوس ، مع كتاب مـا كانت تقرأ فيه . لا فائدة من تكليمها : سوف تجيبني بكلمات وحيدة المقطع . وفي المساء

دعاها لامبير من الحديقة ، ولما لم تتحرك ، دخل :

– نادين ، آن وقت الذهاب .

فقالت :

– لست ذاهبة . يكفي ان اكون في « الطواريء » غداً صباحاً في العاشرة .

– لكنني قلت لك انه يجب ان أعود الى باريس هـذا المساء : علي ان أواجه أناساً .

– واجههم . لست بحاجة إلي من اجل ذلك .

فقال في نفاذ صبر :

– نادين ، لا تكوني سخيفة ! لن ابقى معهم إلا ساعة واحدة . لقد قلنـا اننا سنذهب الى المطعم الصيني .

فقالت نادين :

– بدلت رأيي ، هذا يحدث لك ايضاً . انني باقية هنا .

فقال لامبير :

– هذه سهرتنا الأخيرة .

فقالت :

– انما انت الذي قرر هذا !

فقال في لهجة متعجرفه :

– حسناً . الى الغـد .

– انني مشغولة غداً ، الى يوم عودتك .

فصاح بصوت حانق :

– اوه ! وداعاً الى الأبد اذا شئت .

واطبق الباب وراءه . ونظرت إلي نادين واخذت تصيح هي الأخرى : « على الاخص لا تقولي لي انني مخطئة ، لا تقولي لي شيئاً . انني اعرف كل مـا تستطيعين ان تقوليه لي وهذا لا يهمني » .

– لم افتح فمي .

فقالت :

– ليسافر ، انني لا ابالي بذلك ! لكن كان عليه ان يستشيرني قبل ان يقرر . وانا اكره ان يُكذب علي . ان هذا التحقيق ليس عاجلاً جداً . كان يفعل حسناً لو قال لي في وجهي : ارغب في ان اكون بمفردي . لأن هذه هي الحقيقة : انه يريد ان يستطيع البكاء في اطمئنان على باباه الصغير العزيز .

فقلت :

– هذا طبيعي .

– طبيعي ؟ ان والده نذل مسن . وقبل كل شيء ، كان عليه ألا يتصالح معه . وها هو الآن يبكيه مثل طفل رضيع . » وقالت في لهجة منتصرة: «لقد بكى بدموع حقيقية ، لقد رأيته ! » .

– وماذا ؟ لا عار في ذلك .

– ما كان احد من الرجال الذين اعرفهم ليبكي . وأجمل من كل شيء هو انه يزعم ليضخم المأساة ، انهم قتلوا الشيخ عمداً .

فقلت :

– ليس هذا مستحيلاً .

فاحمرت بشدة . وقالت :

– ليس والد لامبير ! هذا سخيف .

وذهبت مباشرة بعد العشاء ، لتتجول في الريف . ولم نرها ثانية الا عند الفجر . وآنذاك ناولتني ، في سيماء من عتاب وفضول ، الرسالة الأولى من ليويس.

– هناك رسالة من اميركا . » واضافت وهي تتفرس في وجهي في إلحاح : « من شيكاغو » .

– شكراً .

– الا تفتحينها ؟

– ليس الأمر بعاجل .

ووضعت الرسالة بقربي وحاولت ان اشرب شايي دون ان ترتعد يدي .

كنت اجد في الإبقاء على اجزاء جسدي متجمعة المشقة نفسها التي عانيتها عندما شدني ليويس للمرة الاولى بين ذراعيه . وجاء روبير لنجدتي ، واخذ يطرح على نادين اسئلة حول « الطواريء » ، الى ان وجدت ذريعة للذهـــاب الى غرفتي . كانت اصابعي متجمدة الى حـــد انني مزقت ، عندما انتزعتها من المغلف ، الورقة الصفراء التي سينبجس منها بشكل عجائبي حضور ليويس المقلق . كانت الرسالة مضروبة على الآلة الكاتبة ، وكانت مرحة ولطيفة وفارغة ، ورحت أتأمل طويلاً بذهول في التوقيـع الذي يختمها التوقيـع الحقود كشاهدة قبر . مهما حاولت ان اعيد قراءة هذهالصفحة مئة مرة وان أقلبها،فإنني لنأستخلص منها كلمة جديدة، ولا ابتسامة، ولا قبلة.وكان بإمكاني تماماً ان اعاود الانتظار: عند نهاية انتظاري،لناصادف الا صفحةاخرىمنالورق. لقد بقيليويس في شيكاغو، وكان يتابـع الحياة ، ويحيا بدوني . واقتربت من النافـذة ، ونظرت الى السماء الصيفية ، والأشجار السعيدة ، وفهمت انني بدأت أتألم . الصمت نفسه : لكن لم يعد هناك أمل ، وسيكون دوماً الصمت نفسه . ما عـاد جسدانا يتلامسان ، ما عادت نظرتانا تمتزجان ، فماذا تبقى لدينا من شيء مشترك ؟ كان ماضي كل منا يجهل ماضي الآخر ، وكان مستقبل كل منا يهرب من مستقبل الآخر ، ومـا كانت لتتكلم حولنا باللغة نفسها ، وكانت الساعات تسخر بنا : هنا كان الصباح يلمع ، وكان الليل في الغرفة في شيكاغو ، ولم يكن بإمكاننا حتى ان نتواعـد في السماء . كلا ، لم يكن هناك أي ممر منه إلي : باستثناء هـذا النحيب في صدري وكنت أخنقه .

لقد كان حظاً ايضاً ان ترجوني بول بالتلفون ان آتي لرؤيتها هـــذا اليوم : لعلني بمشاطرتها حزنهـا سأنجح في نسيان حزني . وتساءلت ، وأنا جالسة بقرب نادين التي كانت تفكر بضربة ما خبيثة : « هل ينتهي الانسان الى ان يعتـاد ؟ هل سأعتاد ؟ » . كنت ، في شوارع باريس ، اصادف المئـــات ، الألوف من الرجال ، لهم مثل ليويس ذراعان ، ساقان ، لكن ليس لهم أبداً وجهه : مـا اكثر ما يوجد من دروب لا تؤدي الى ذراعيه ومن كلمات حب لا توجـه إليّ .

من كل مكان كانت تلامسني وعود بالعذوبة ، بالسعادة ، لكن ابداً لن يخترق جسدي ذلك الحنان الربيعي . وسرت على الأرصفة في بطء . كانت بول قد بذلت جهداً كبيراً لتجر نفسها حتى بيتي بعد عدة ايام من عودتي ، وتلقّت في غبطة هداياها من اميركا. لكنها استمعت الى قصصي واجابت على اسئلتي في سحنة بعيدة . ولم اكن قد ذهبت بعد لرؤيتها في بيتها ، وانما بنوع من الدهشة وجدت ثانية الشارع المألوف على حاله لم يتبدل . ما من شيء تغير اثناء غيابي : لم يحدث شيء . كنت اقرأ لافتات الماضي ذاتها : « أخصائي في الطيور النادرة والساكسونية » ، وكان القرد الصغير المقيد بحاجز النافذة يقشر فستقاً . وكان متشرد ، جالس على درجات سلم ، يدخن سيجاراً مراقباً حزمة من الأسمال . وصدم باب الدخول ، عندما دفعته ، كالعادة علبة قمامة . وكان كل ثقب في السجارة في محله . وسمعت هاتفاً يرن في إصرار . وكانت بول متلفحة بروب دي شامبر حريري ، مهترىء قليلاً .

– انت لطيفة ! انني آسفة لازعاجك ، لكن لن اجرؤ ابداً على النزول بمفردي الى قفص الأسود ذاك .

– أواثقة انني مدعوة !

– لكن بسببك انت تلفنت لي السيدة بيلوم ثلاث مرات . لقد رجتني ان اصطحبك . لديها هنري : فهي تريد دوبروي ...

وارتقت الدرج الذي يؤدي الى غرفتها وتبعتها . وقلت :

– انت لا تتصورين جمال البيت في سان – مارتان . يجب ان تأتي .

فتنهدت : « انه بعيد جداً ! » . وفتحت مصراعي خزانتها . « ماذا سألبس ؟ منذ زمن طويل لم اخرج » .

– ثوبك الأسود .

– انه قديم جداً .

– الاخضر .

– لست واثقة ان الاخضر يناسبني . » وانزلت القوس الذي كان معلقاً به

ثوبها الاسود : « لا اريد ان يبدو وجهي يأكله العث . سوف تفرح لوسي بذلك كثيراً » .

– لماذا تذهبين إليها ، انت التي لا تخرجين كثيراً !

فقالت بول :

– انها تكرهني ، في الماضي ، كنت اصغر واجمل منها ، ونلت كثيرين من عشاقها . فإذا رفضت جميع دعواتهـــا ، فسوف تظن انني اصبحت مشوهـة وسوف تهلل .

كانت قـــد اقتربت من المرآة وراحت تتابـــع بأصابعها منحنى حاجبيها الكثيفين : « كان يجب ان أنتفها . يجب ان أتبع الموضـــة . سوف يجدنني سخيفة ! » .

فقلت :

– لا تخافي منهن . ستكونين دوما الأجمل .

فقالت :

– اوه ! لا بعد الآن . كلا . لا بعد الآن !

كانت تنظر الى نفسها في سيماء من كراهية ، وفجأة رأيتها أنا ايضاً ، للمرة الاولى منـــذ سنوات كثيرة ، بعينين غريبتين . كانت تبدو متعبـــة . وكانت غمازاتاها قد تلونتا بلون ضارب الى البنفسجي ، وذقنها تتهدل . وكان الحزان العميقان اللذان يحدقان بفمها يفضحان رجولة ملامحها . في الماضي ، كان لون بول القشدي ، ونظرتها المخملية ، وسواد شعرها اللامع ، تصقل جمالها : لكن وجهها كان يصبح غير مألوف عندما يحرم من هذه الجذابية المبتذلة . كان مبنياً بشكل مقصود للغاية بحيث لا يمكن غض النظر عن تذبذب منحنى ، عن تردد لون . وكان الزمن يعلم بأثر قاسٍ هذا القناع النبيل والشاذ، بدل ان تنطبع عليه آثاره خلسة ، على الرغم من انه لا يزال يستحق الاعجاب ، وإن كان سيكون في محله في متحف بدلاً من صالون .

كانت بول قد ضمت ثوبها وراحت تمشط اهدابها الطويلة .

– هل أطيل عيني ، نعم أم لا ؟

– لا ادري .

كنت ارى جيداً معايبها . لكني كنت عـاجزة عن اقتراح دواء : لم اكن حتى بواثقة من وجوده .

– المهم ان يكون قد بقي عندي زوج من جوارب لائقة ! » كانت تنقب في درج بحركات محمومة : « اترين ان هذين من لون واحد ؟ » .

– كلا . هذا اكثف من الآخر .

– وهذا ؟

– فيه خط يتدرج من الاعلى الى الاسفل .

واقتضانا البحث عن جوربين متلائمين سليمين عشر دقـــائق . وكانت بول تسأل في قلق :

– انت واثقة ، هل هما متماثلان ؟

كنت قد مددت على اصابعي المتباعدة الشبكة الخفيـة وانا اهتدي بالضوء قرب النافذة :

– لا ارى اي خلاف .

– لكنهن يرين كل شيء ، كما تعلمين .

وشبكت حول قدميها نعلين عالي الكعبين وسألتني : « أأضع عقدي ؟ » .

كان عقداً ثقيلاً من النحاس والعنبر والعظام ، حلية طريفة لا قيمة تجارية لها ستدفع بالنساء المتحليات بالماس الى ابتسامة احتقار .

– كلا ، لا تضعيه .

وترددت . على كل الاحوال ، كانت بول بقرطيها ، وثوبها الذي لا عمر له ، وقناعها ، وحذائيها العاليين ، مختلفة كثيراً عن غريماتها بحيث كان الافضل إبراز أصالتها . وقلت في نفاد صبر : « انتظري. نعم ، من الافضل ان تضعيه . آه! لا ادري . انهن لن يأكلنك ، بعد كل شيء » .

فقالت بدون ابتسام :

— اوه ! بلى ، سوف يأكلنني .

وسرنا نحو محطة اوتوبيس . كانت بول ، في الشارع ، تفقد جلالهـــا كله . كانت تسير وهي تلامس الجدران في حركة متهربة . وقالت في لهجة اعتذار : « انني اكره الخروج لابسة في هذا الحي . ففي الصبـــاح ، اتسكع في نعلين خفيفين ، وهذا شيء مختلف . لكن في مثل هذه الساعة ، وفي هــذه الثياب ، فإنني اهانة » .

وحاولت ان ألهيها :

— كيف حال هنري ؟

فترددت : « انه معقد للغاية » .

فرددت في بلادة : « معقد ؟ » .

— نعم ، هذا غريب . انما الآن فقط بدأت اعرفه : بعد عشر سنوات » وساد صمت وتابعت : « لقد فعل شيئاً غريباً ، اثناء غيابك . فقد وضع بدون تمهيد تحت عيني مقطعاً من روايته يشرح فيه البطل لامرأة انها تسمم حياتــه . وسألني : « ما رأيك ؟ » .

فقلت وانا احاول ان اعطي صوتي لهجة متشوقة :

— ماذا كان يريد ان تجيبيه ؟

— سألته هل فكر بي عندما كتبه ، فاحمرّ اضطراباً . لكنني شعرت انــه تمنى للحظة ان اصدق ذلك .

— اوه ! انت تدهشينني !

فقالت مستغرقة في التفكير :

— هنري حالة مرضية . » واضافت : « انـــه يرى كثيراً الصغيرة بيلوم . ولهذا السبب ايضاً حرصت على الذهاب الى عنـــد لوسي : كي لا يتصورون انني اعلق اهمية على هذه النزوة ... » .

— نعم ، لقد رأيت صورة لها ...

— لها مع هنري في « الإيل بوروميه » ! وهزت كتفيها : « هذا محزن .

انه ليس فخوراً بذلك ، اتعرفين . بل هذا غريب : لقد طلب الا ننام معاً بعد الآن » . واستنتجت في بطء : « كأنه لم يعد يشعر انه جدير بي » .

كنت ارغب في ان اقول لها : « كفّي اذن عن الكذب على نفسك ! » . لكن بأي حق ؟ كنت على نحوٍ ما اعجب بعنادها .

وعلى الدرج ، بينما كنا نصعد الى بيت لوسي بيـــلوم ، امسكت بمعصمي : قولي لي الحقيقة : هل أبدو مقهورة ؟ » .

ــ انت ؟ انت تبدين كأميرة .

لكن عندما فتح لنا خادم الغرفة الباب ، شعرت ان رعب بول قد تملكني . كان يتعالى رنين أصوات ، وكان الجو يعبق بالعطر وسوء النية . انا ايضاً كنّ سيمزقنني إرباً في فرح : ليس التفكير بهذا مستطاباً . كانت بول قـد استعادت دمها البارد : فقد دخلت الى الصالون في كرامة أميرية . وفجأة ، لم أعد واثقة جداً ان جوربيها من لون واحد .

اثاث تاريخي ، سجاد عجمي ملتبس ، لوحات صدئـة أطرها ، كتب مجلدة بالرق ، كريستال ، مخمل ، ساتان : كان محسوساً ان لوسي تتردد بـين مطامحها البورجوازية ، وادعاءاتها الفكرية ، وذوقها الخاص الذي كان مبتذلاً ، رغـم ذوقها الطيب المشهور .

ــ ما اعظم سروري بوجودكما هنا ! » كانت متقنة في ثيابها حتى ان دوقـة وندسور لو رأتها لأصابتها عقد نقص.ولم يكن ممكناً ملاحظة دناءة فمها وعداوة نظرتها القلقة الا عند النظرة الثانية : ليس ثمة بعد جراح في الوجه يعرف كيف يصلح النظرة . وبينما كانت تبتسم كانت تتفحصني في تدقيق. والتفتت نحو بول: « يا صغيرتي بول ! منذ اثني عشر عاماً لم نتقابل ! مـــا كنا لنتعرف احـداانا الاخرى » . وللحظة ، احتفظت في يدها بيد بول التي كانت تتملاها في وقاحة، ثم جرتني : « تعالي لأقدمك » .

كانت النساء أصغر وأجمل بكثير منهن في صالون كلودي ولم تكن أي مأساة روحيـــة تشوه وجوههن المتقنة الشغل . كانت هنـــاك عارضات ازياء

كثيرات يطمعن في ان يصبحن نجمات ، ونجمات يطمعن في ان ينقلبن نجوماً . كن جميعاً في أثواب سود ، وشعور بلون السنابل ، وكعاب عالية جداً ، واهداب طويلة، ولهن شخصية ، تختلف من واحدة الى أخرى ،لكنها مصنوعة من ورشات واحدة . ولو كنت رجلاً ، لكان من المستحيل عليّ ان افضل احداهن ، ولذهبت لأتبضع من مكان آخر . وبالفعل ، كان الشبان الجميلون الذين يقبلون يدي يبدو عليهم انهم يتبادلون الاهتمام على الأخص . وكان يوجد هنا وهناك بعض الراشدين ممن لهم سحنات ذكور ، لكنهم كانوا يبدون وكأنهم يتلقون رواتب على حضورهم هذا . وبينهم كان يوجد العشيق الرسمي للوسي الذي يسميه الجميع دودول . وكان يتحدث مع سمراء طويلة بلاتينية الشعر . وقال لي :

— يبدو انك عائدة من نيويورك ؟ يا لها من بلاد مدهشة ، أليس كذلك ؟ لكأنها حلم عملاق لطفل مدلل . تلك القموع الضخمة من البوظة التي يلتهمونها ، انني أرى فيها رمز اميركا بأجمعها .

فقالت الشقراء المصبوغة :

— أنا لم أسر فيها مطلقاً ، فكل شيء نظيف جداً ، كامل جداً . انك لترغبين في النهاية أن تصادفي رجلاً في قميص وسخ ، لم يحلق لحيته من يومين .

ولم أحتج . وتركتها يشرحان لي بالشعارات المحسوسة البلاد التي انا عائدة منها : « أطفال كبار » ، « جنة المرأة » ، « العشاق المكروهون » ، « حياة دوارة ومجموعة » . ولفظ دودول بخصوص ناطحات السحاب في جرأة كلمة « Phallus[1] » وكنت أقول في نفسي وأنا اصغي اليهما انه ليس لنا الحق في ان نعزو الى المثقفين حساسية متسفسطة . انما كان هؤلاء الناس — الناس الدنيويون والمتماثلون — هم الذين يجيلون في الوجود عيوناً أعمتها الكليشهات الرديئة وقلباً غزته عبارات شائعة مبتذلة. ان روبير وهنري يتركان نفسيهما ينطلقان في تراخ في حب ما يحبانه ، والملل مما يملانه ، واذا ما تنزه ملك عارياً تماماً فانهما لن

١ — اي عضو الذكورة (المترجم) .

يعجبا بوشي معطفه . انهما يعرفان جيداً انهما يخلقان بنفسيهما النماذج التي ينسخها في اخلاص محبو الظهور الذين يتصنعون ردود فعل نجيبة . وكبرياؤهما تسمح لهما بالسذاجات كافة . في حـــين ان دودول ، ولوسي ، والشابات النحيفات والمصقولات واللواتي يتكأكأن حولها ، لا يمنحون أنفسهم أبـداً لحظة صدق . كنت أشعر نحوهن بشفقة مذعورة. كان نصيبهن الوحيد طموحاً فارغاً، وغيرة حارقة ، وانتصارات وهزائم مجردة . بينما توجد على الأرض أشياء كثيرة تحب وتكره بقوة ! وفكرت في لمح البرق : « روبير على حق تماماً . ان اللامبالاة لا وجود لها » . حتى هنا ، حيث لا يستحق هذه المشقة ، ألقيت بنفسي فوراً في الاستنكار او في الاشمئزاز . لقد أكدت ان العـــالم مليء بأشياء تحب وتكره وكنت اعلم جيداً انه ما من شيء سيقتلع هـذا اليقين من نفسي . نعم ، انمـــا تعباً ، وكسلاً ، وخجلاً من جهلي زعمت العكس في حماقة .

وسألت لوسي وهي ترشق بول باحدى ابتساماتها النحيفة :

– ألم تلتقي بابنتي قط ؟

– كلا .

– سترينها. انها جميلة جداً : تماماً من نوع الجمال الذي كان لك في الماضي.» ورسمت لوسي ابتسامة جديدة : « لديكما أشياء كثيرة مشتركة » .

وقررت ان أكون فظة مثلها : « نعم ، يقال ان ابنتك لا تشبهك مطلقاً » .

وتفحصتني لوسي في كراهية مصممة . كان ثمة فضول شبه قلق في هـــذا التفحص وكأنها تساءلت : « هل هناك طريقة أخرى غير طريقتي في ان تكون المرأة امرأة وتستفيد من ذلك ؟ هل غاب عني شيء ما ؟». وعادت نظرتهـــا نحو بول : « يجب ان تأتي لرؤيتي ذات يوم عند آماريليس . سألبسك قليلاً. ان الثياب الجميلة تغيِّر المرأة » .

فقلت :

– ستكون خسارة ان تُغيِّر بول . نساء الموضة كثيرات ، في حين أنـــه ليس هناك الا بول واحدة » .

وبدت لوسي متحيرة قليلاً : « على كل حال ، في اليوم الذي لن تحتقري فيه الموضة ستكونين دوماً موضع ترحـاب في صالوناتي . » وأضافت وهي تستدير على كعبيها العاليين : « وانني اعرف جرّاحاً في التجميل يصنع معجزات » .

وقلت لبول :

– كان يجب ان تسأليها لماذا لم تلجأ الى خدماته .

فقالت بول :

– لم أعرف قط كيف اجيبهنّ .

كانت غمازتاها ضاربتين الى البنفسجي ومنخراها منضمّين ، وكانت هـذه طريقتها في الشحوب .

– أتريدين الذهاب ؟

– كلا ، ستكون هزيمة .

وهرعت كلودي نحونا بعينين بارقتين لامرأة ثرثارة متحمسة ، وقـالت : « الحمراء الصغيرة التي دخلت هي الابنة بيلوم » .

وأدارت بول رأسها . وانا كذلك . لم تكن جوزيت صغـيرة وكانت حمراء من النوع النادر : من اللواتي لهن تحت شعرهن الأصهب جلد شقراء حليبي . وكان فمها الشبق والحزين ، وعيناها الواسعتان ، تظهرها مذعورة من جمالهـا الخاص . من المفهوم ان يرغب رجل في إثارة مثل هـذا الوجه . وألقيت على بول نظرة قلقة . كانت تمسك بيدهـا كأس شمبانيا ، وكانت ساكنة ، شاخصة النظر ، وكأنها قد سمعت أصواتاً ، اصواتاً خبيثة .

وتمرد قلبي . ما الجريمة التي تكفـّر عنها ؟ لماذا تحرق حية في حين ان جميـع هاتيك النساء يبتسمن حولنـا ؟ كنت على استعداد لأن اعترف بأنهـا صنعت تعاستها بنفسها . لم تكن تحاول أن تفهم هنري ، وكانت تعلل نفسها بالأوهام ، وقد اختارت الكسل مع العبودية : لكنها في النهايـة لم تؤذِ أحداً قط ، ولا تستحق ان تعاقب بمثل هذه الوحشية . اننا دوماً انما ندفع عن اخطائنا . لكن هناك أبواباً لا يقرعها الدائنون ابداً وابواباً اخرى يقتحمونها ، هذا ظلم . كانت

بول من جانب القليلي الحظ ولم اكن استسلم لرؤية تلك الدموع التي كانت تسيل من عينيها دون ان يبدو عليها انهـــا تتبين ذلك . وأيقظتها فجأة ، وقلت وانا امسك بذراعها : « هيا بنا من هنا » .

– أجل .

وعندما وجدنا نفسينا ثانية في الشارع ، بعد كلمات الوداع السريعة، نظرت إليّ بول نظرة قاتمة . وقالت :

– لماذا لم تحذريني قط ؟

– احذرك ؟ ممَ ؟

– من أنني كنت على طريق خاطىء .

– لكني لا اعتقد هذا .

– غريب انك لم تفكري بهذا .

– تقصدين انك عشت سجينة اكثر مما ينبغي ؟

فهزت كتفيها : « لم أقل كلمتي الاخيرة . انني اعرف انني بلهـــاء قليلاً : لكن عندما افهم ، اكون قد فهمت » .

ومع ذلك ، عندمـــا نزلت من الاوتوبيس ، انتزعت من نفسها ابتسامة : « شكراً على مرافقتك لي . لقد أديت لي خدمة حقيقية . لن أنسى » .

بقيت نادين في باريس طوال الاسبوع . وعندمـا ظهرت في سان – مارتان ثانية ، سألتها عن أخبار لامبير : كان قد كتب لها ، وسوف يعود بعد أسبوع . وأضافت بصوت متهلل : « سيقدح الشرر : لقد رأيت جولي ثانية ونمنا معـاً من جديد . أنت تتصورين هيئة لامبير عندما سأروي له ذلك ! » .

– نادين ! لا تروي له هذا !

فنظرت إليّ في سحنة متحيرة :

– لقد كرّرت عليّ ألف مرة ان الناس المحترمين لا يكذبون فيما بينهـــم . الصراحة أولاً !

– كلا . لقد قلت لك انه يجب ان نبني علاقات لا يمكن حـتى أن يُتصور

فيها الكذب . ولكنك لم تصلي الى هـــذا المستوى مع لامبـير ، مطلقاً . »
وأضفت : « على كل ، انت لا تريدين ان تصارحيه ، حباً منك للصدق ، بحدث حقيقي في حياتك : لقد اختلقت هذه القصة عمداً لتجرحيه عندما ستروينها له » .

فقهقهت نادين في سيماء من تردد :

— اوه ! يا للك ! عندما تأخذين بدور الساحرة !

— أمخطئة أنا ؟

— بديهي ، لقد اردت أن اعاقبه . وهو يستحق ذلك جداً .

— انت تعترفين بنفسك انه يفعل دوماً كل ما تريدينه : لأنــه لم يخضع مرة واحدة ، تريدين ان تظهري انك ممثلة ماهرة .

— انه يفعل ما أريده لأنه يتلهى بأن يمثل دور الصبي الصغير ، هذه مهزلة . لكن في الحقيقة ، إن أي شيء أهم مني عنده : هنري، الجريدة، والده ، تحقيق ما . . .

— انت عمياء . لامبير حريص عليك اكثر من أي شيء آخر .

— انت تقولين هذا . اما هو فلم يقل لي قط شيئاً من هذا .

— لا بد انك لم تشجعيه ابداً .

— بديهي ، انني لم اشحذ منه اعترافات بالحب .

ونظرت اليها في شيء من الفضول :

— يحدث لكما على كل حال ان تتكلما عن عواطفكما ؟

فقالت في سحنة مصدومة :

— ليست هذه أشياء يتكلم عنها . ماذا تتصورين ؟

— الكلام يساعد على التفاهم .

— لكني افهم جيداً جداً كل شيء .

— اذن عليك ان تفهمي ان لامبير لن يتحمل ابداً ان تخونيه . ستسببين له ألماً فظيعاً وستفسدين قصتكما كلها بشكل لن يكون له علاج .

– من المزعج على كل حال ان تكوني انت التي تنصحني بالكذب . » كانت تسخر ، لكنها كانت تبــدو قد اطمأنت بالأحرى : « حسناً ، ان أقول له شيئاً » .

ووصل لامبير بعد يومين وتحدث قليلاً عن رحلته ، وكان يفكر بالسفر من جديد في ايلول ليجمع معلومات ادق . وكان يبدو ان نادين قد تصالحت معه . كانا يأخذان جنبــاً الى جنب حمامات شمس طويــلة في الحديقة ، ويتنزهان ، ويقرآن ، ويتناقشان ، ويعدّان مشاريع . وكان لامبير يترك نادين تدلله ، وينثني لنزواتها في صفــاء قلب . لكنه كان يشعر بين الحين والآخر بالحاجة الى ان يثبت لنفسه استقلاله ، فكان يمتطي دراجته النــارية وينطلق على الطرق في سرعة كان من الواضح انها ترعبه هو نفسه . وكانت نادين تكره دومــاً عزلة الآخرين . وهكذا اختلطت غيرتها هــذه المرة بالحسد . كانت ، امام مقاومة لامبير ومعارضتي الشكلية ، قد تخلت عن فكرة قيادة الدراجة . وقد حاولت على الأقل ان تتبناها : فقد دهنت مانعة الوحل بلون أحمر فاقع وعلقت دمى جالبة للسعد بالمقود . ورغم هذه الجهود ، ظلت الدراجة في نظرها رمز جميع المسرات الرجولية التي لم تكن مصدرها والتي لا تستطيع أيضاً ان تشاطرها : وكانت هذه هي الذريعة الغــالبة في خصوماتها مع لامبــير . لكنها لم تكن إلا منازعات غير حادة .

وذات مساء ، بينما كنت في غرفتي أعــد نفسي لليل ، جــاءا ليجلسا في الحديقة . وقال لامبير :

– بمجمــل القول ، انت تقدرين انني لن اكون قادراً بمفردي على إدارة جريدة ؟

– لم أقل هذا . اقول اذا اتخذك فولانج رجلاً من قش فلن تدير شيئاً مطلقاً.

– وان يثق بي بما فيه الكفاية ليقترح عليّ دون فكرة مسبقة مثل هــذا المنصب ، فهذا يبدو لك أمراً لا يصدق !

– انت ساذج ! ان فولانج لا يزال أجبن من ان يجرؤ على تعليق اسمه ، وهو

يعتمد على توجيهك من وراء الكواليس .

— اوه ! انت تظنين نفسك قوية جداً لأنك تمثلين دور الماجنة . لكن العداوة تعمي الانسان ايضاً . ان فولانج شخصية .

فقالت في هدوء :

— انه نذل .

— لقد اخطأ ، ليكن . » وقال في شراسة : « لكني أفضّل الناس الذين يحملون اخطاءهم خلفهم على الذين يحملونها أمامهم » .

— تعني هنري ؟ انني لم اجعل منه بطلاً ابداً ، لكنه شخص نظيف ، هو .

— لقد كان كذلك . لكنه يترك نفسه الآن تلتهمه السياسة وشخصيته العامة .

فقالت نادين في لهجة متجردة :

— اعتقد انه قد ربح بالأحرى . ان تلك المسرحية التي كتبها ، هي أفضل ما فعله .

فقال لامبير :

— آه ، كلا ! انني اجدها كريهة . وهي عمل سيء . الأموات اموات ، فلنتركهم مطمئنين . ولا داعي لتحمل مشقة إثارة الأحقاد بين الفرنسيين ...

فقالت نادين :

— على العكس ! ان الناس بحاجة حقيقية الى ان تُرطّب ذاكرتهم .

فقال لامبير :

— ان التشبث بالماضي لا يفيد شيئاً .

فقالت نادين :

— انا لا أقبل بأن يُنسى . » وأضافت بصوت جاف : « ولا افهم ان تُغفر الاخطاء » .

فقال لامبير :

— ومن انت ، ماذا فعلت لتكوني متزمتة الى هذا الحد ؟

فقالت :

— كنت فعلت قدر ما فعلت انت لو كنت رجلاً .

فقال :

— لو فعلتُ اكثر مما فعلت بعشر مرات لما سمحت لنفسي ان ادين الناس دون استئناف .

فقالت :

— حسناً ! لن نتفق على هذه النقطة أبداً . هيّا لننام .

وساد صمت وقال لامبير في لهجة نهائية :

— انا واثق ان فولانج سيفعل أشياء كبيرة .

فقالت نادين :

— أشك في ذلـك . على كل حال ، لا أرى علاقة هذا بك . ادارة جريدة غامضة لن تكون حتى لك فعلاً ، ليس في هذا شيء كبير .

وفي لهجة مازحة غير واضحة ، سأل : « هل تعتقدين انني سأفعل شيئاً ما كبيراً ذات يوم ؟ » .

فقالت :

— اوه ! لا ادري ، ولا ابالي بذلك . لماذا نعلق مثل هـــذه الأهميــة على العظمة ؟

— ان اكون صبياً صغيراً طيباً خاضعاً لإراداتك الأربـع ، أهذا كل مـــا تنتظرينه مني ؟

— لكني لا أنتظر شيئاً : انني آخذك كما انت .

كانت لهجتها رؤوماً، لكنها كانت تعني بوضوح انها ترفض ان تقول الكلمات التي يتمنى لامبير ان يسمعها . كان يلح ، بصوت مهووس قليلاً : « ومن انا ؟ ما الامكانيات التي تعترفين لي بها ؟ » .

فقالت في مرح :

انت تعرف ان تصنع مايونيز ، وان تقود دراجة .

فقال في سخرية صغيرة :

– وشيئاً آخر ايضاً لن اقوله :

فقالت :

– اكرهك عندما تكون مبتذلاً .

وتثاءبت بصوت مسموع : «سأذهب لأنام» . وصرّت الحصباء تحت قدميها ولم اعد اسمع موسيقى الجنادب العنيدة في الحديقة .

وأصغيت اليها طويلاً : ما اجملها من ليلة ! لم تكن تنقص نجمة واحدة في السماء . لم يكن ينقص شيء في اي مكان . ومع ذلك كان في داخلي ذلك الفراغ الذي ما كان لينتهي . كان ليويس قد كتب لي رسالتين أخريين ، وكان يحدثني بطريقة افضل بكثير من الأولى. لكن كلما كنت اشعر به حياً ، واقعياً ، كانت كآبته تزداد ثقلاً . انني كئيبة انا الأخرى وهذا لا يقرّبنا . وتمتمت : « لمَ انت بعيد جداً ؟ » . فأجاب صداه : « لمَ انت بعيدة جداً ؟ » ، وكان صوته مثقلاً بالتأنيب . ان كل شيء يفرقنا وحتى جهودنا من أجل ان نجتمع ، ما دمنا مفترقين .

لكنهما ، هما ، كانا يستطيعان ان يجعلا من حبهما سعادة . وكنت استشيط غيظاً من سوء تصرفهما . لقد قررا ، هذا اليوم ، ان يذهبا لتمضية النهار والليل في باريس . وعند بداية بعد الظهر ، خرج لامبير من الجناح ، مرتدياً طقماً انيقاً من الفلانيلا وربطة عنق منسجمة . وكانت نادين راقدة على العشب ، وكانت ترتدي تنورة مزهرة مبقعة ، وقميصاً من القطن ، ونعلين كبيرين . وصاح بها في شيء من النرفزة : «اسرعي بالذهاب لتستعدّي ! سوف يفوتنا الاوتوبيس» .

فقالت نادين :

– قلت لك انني اريد أن اركب الدراجة ، فهذا اكثر تسلية .

– لكننا سنصل ومنظرنا سخيف على الدراجة عندما نكون لابسين بأناقة .

فقالت في لهجة نهائية :

– لا ازمع ان ألبس .

— لن تذهبي الى باريس في هذه الثياب ؟ » فلم تجب وأخذني شاهدة بصوت محزون : « يا للخسارة ! انها تستطيع ان تكون رائعــة المنظر ، لو لم تكن تتظاهر بالفوضوية ! » وتفحّصها بعين ناقدة : « كما ان هذه الثياب غير اللائقة لا تناسبك » .

وكانت نادين تعتقد نفسها قبيحة ، وكانت تحتقر ان تبدو أنثى من قبيــل الغضب على الاخص. وكان إهمالها الشرس لا يدع مجالاً للشك في مقدار حساسيتها بكل ملاحظة تتعلق بمظهرها الخارجي . وكان وجهها قد تكدر : « اذا كنت تريد امرأة تهتم بجلدها من الصباح الى المساء ، فتوجّه الى دائرة أخرى » .

فقال لامبير :

— لن يستغرق منك وقتاً طويلاً ان ترتدي ثوباً نظيفاً. انني لا استطيع ان آخذك الى أي مكان اذا بقيت متنكرة في ثياب امرأة متوحشة .

— لكني لست بحاجة لأن ينزهني احــد . أتتصور انني ارغب في عرض نفسي وانا متعلقة بذراعك في أمكنة يوجد فيها رؤساء خدم ونساء عاريات ؟ خراء ، اذن ! اذا كنت حريصاً على تمثيل دور دون جوان ، فاستأجر عارضة ازياء لترافقك .

— لا ارى مــا المقرف في الذهاب للرقص في ملهى مناسب حيث نسمع موسيقى جاز طيبة . وسألني : « أترين انت ؟ » .

فقالت :

— بالضبط، انني لا اريد ان اكون مثل قرد وسط ساحة،هذا لا يستهويني.

فقال لامبير :

— هذا سيستهويك كأية امرأة اخرى . » وصعد قليل من الدم الى وجهه : « كما يستهويك ان تلبسي ، وتخرجي ، لو كنت فقط صادقة . يقولون : هذا لا يستهويني . لكنهم يكذبون . اننا جميعاً مكبوتون ومراؤن. انني اتساءل لماذا . لماذا تكون جريمة اذا احببنا الاثاث الجميل ، والثياب الجميلة ، والترف والتسلية؟ في الحقيقة ان جميع الناس يحبون هذا » .

فقالت نادين :

– أقسم لك انني لا أبالي بكل هذا .

فتابع في حماسة بلبلني :

– وإن قلتِ ذلك ! من المضجر ان نضطر دوماً الى التصنّع في تصرفنا ، والى نكران ذواتنا . علينا الا نضحك وألا نبكي عندما نرغب في ذلك ، والا نفعل ما يحلو لنا والا نفكر بما نفكر به .

فسألت :

– لكن من يمنعك عن هذا ؟

– لا أدري ، وهذا هو الاسوأ . اننا جميعاً نخدع بعضنا البعض ، وما من أحد يعرف لماذا . اننا نزعم اننا نضحي من أجل الطهارة : لكن اين هي ، الطهارة ؟ ليروني اياها ! وبأسمها نرفض كل شيء ، ولا نفعل شيئاً ، ولا نصل الى شيء .

فقالت نادين بصوت ساخر :

– إلام تريد الوصول ؟

– انت تسخرينَ . ولكن هذا أيضاً رياء . انت حساسة بالنجاح أكثر بكثير مما تزعمين . وانما مع بيرون سافرت على كل حال وكنت ستحدثينني في لهجة أخرى لو كنت شخصية . جميع الناس يعجبون بالنجاح . وجميع الناس يحبون المال .

فقالت نادين :

– تحدث عن نفسك .

فقال لامبير :

– ولماذا لا نحرص على المال ؟ ما دام العالم كما هو ، فمن الأفضل ان نكون من جانب الذين يملكون. هيا ! لقد كنت فخورة جداً بأن يكون لديك معطف فرو في السنة الماضية ، وكنت تموتين رغبة في القيام بأسفار كبيرة . وستكونين سعيدة اذا استيقظت مليونيرة . كل ما هنالك انك لا تعترفين بذلك : انت

تخافين ان تكوني نفسك !

فقالت بصوت حاد :

– انني اعرف من انا وهذا يناسبني جداً . انما انت الذي يخاف ان يكون ما هو عليه : مثقفاً بورجوازياً صغيراً . امـا المغامرات الكبيرة فأنت تعرف جيداً انك لم تخلق لها . وهكذا فأنت الآن تراهن على النجاح الاجتماعي والمال وسائر الباقي . سوف تصبح مدعياً ووصولياً قذراً هذا كل شيء .

فقال لامبير وهو يستدير على عقبيه :

– هناك لحظات تستحقين فيها فقط صفعة طيبة .

– حاول اذن ! اقسم لك انه ستقوم مباراة رياضية .

وتابعت لامبير بناظري . كنت اتساءل عن سبب انفجاره . ماذا يكبت في داخله، رغماً عنه؟ طعم السهولة ؟ طموحاً مكتوماً ؟ هل يتمنى مثلاً ان يقبل باقتراح فولانج دون ان يجرؤ على المجازفة بلوم اصدقائه ؟ لعله اقنع نفسه ان النواحي التي يشعر انه مطوق بها تمنعه من ان يصبح شخصية ؟ أم انه يتمنى ان يسمح له في هدوء بألا يكون احداً ؟ وقلت :

– اتساءل عما كان في رأسه ؟

فقالت نادين في احتقار :

– اوه ! انه يخلق لنفسه أحلاماً صغيرة . لكنه عندما يريد ان يدخلني فيها ، اقول له قف !

– يجب ان اقول انك لا تشجعينه كثيراً .

– كلا . بل ان هذا مضجر . عندما اشعر انه يرغب في ان اقول له شيئاً ، فإنني سرعان ما اقول العكس . الا تفهمين هذا ؟

– انني افهم قليلاً .

كنت افهم جيداً جداً . كنت ، مع نادين ، على وجه التحديد ، اعرف هذا النوع من المقاومة .

– انه يريد دوماً ان يمنحه الآخرون اجازات : ليس عليه إلا ان يأخذها .

فقلت :

– هذا لا يمنع انك تستطيعين ان تكوني اكثر تساهلاً . انت لا تقومين ابدا بأي تنازل : يجب ان تخضعي قليلاً عندما يسألك شيئاً ما من قبيل الصدفة .

فقالت :

– اوه ! انه يسأل اكثر مما تظنين . » وهزت كتفيها في إعياء : « اولاً انه يطلب في كل مساء ان انام معه : هذا يضجرني » .

– تستطيعين ان ترفضي .

– انت لا تدركين : اذا رفضت فسيؤدي هذا الى مأساة ».وأضافتبصوت غاضب : « علاوة على ذلك ، اذا لم آخذ احتياطاتي ، فسيحبلني في كل مرة » . كانت تنظر إلي شزراً من طرف عينيها . كانت تعرف جيداً انني اكره هـــذا النوع من الاعترافات .

– علـّميه ان يأخذ حذره .

– شكراً ! اذا كان الأمر سيصبح جلسات تمارين عملية ، فهذا مرح ! انني لأفضل ان ادافع عن نفسي بمفردي . لكن من المضجر جداً ان يكون علي ان اضع سدادة في كل مرة افعل فيها الحب . بالأضافـــة الى انني كسرت فرشاة الاسنان .

– فرشاة الاسنان ؟

– ألم يروك شيئاً في اميركا اذن ؟ انها اميركية التي أهدتني تلك الآلة . أوه! انها صغيرة وهي ممتلئة ، ولكأنها قبعة رخوة صغيرة . لكن لوضعهـــا بشكل مناسب ، يلزم نوع من اداة زجاجية : وانا أسميها فرشاة الأسنان . وقـــد كسرتها . » ونظرت إلي في خبث : « أأصدمك ، أليس كذلك ؟ »

فهززت كتفي : « انني اتساءل لماذا تعاندين في عمل الحب ، مـــا دمت تعتبرينه سخرة شاقة » .

– كيف تريدين ان تكون لي قصص مع الرجال اذا لم افعل الحب ؟ ان النساء يقرفنني ، ولا الهو الا مع الذكور . لكن اذا اردت الخروج معهم فلا بد

ان انام معهم ، لا خيار لي . كل ما هنالك ، ان منهم من يفعل ذلك كثيراً أو قليلاً ، ولمدة طويلة أو قصيرة . أمـــا لامبير فطوال الوقت ولا ينتهي ابداً » . وأخذت تضحك : « افترض انه اذا لم يستخدمه ، لا يعود واثقـــاً من انه يملك واحداً ! » .

كان احد تناقضات نادين انها قد تنقلت بين عدد كبير من الأسرة ، وانهـــا تتفوه دون ان يطرف لها هدب بكلمات خليعة كبيرة ، في حين انهـــا في الوقت نفسه ، وفيما يتعلق بحياتها الجنسية ، بالغة الحساسية . فعندما كان لامبير يسمح لنفسه ، كما يفعل غالباً ، ان يشير الى علاقتها الحميمة ، كانت تتبرم . وقلت :

– ثمة شيء يبدو انك لا تدركينه ، وهو ان لامبير يحبك .

فهزت كتفيها ، وقالت بصوت منطقي : « لم تريدي ان تفهمي قط . لقـــد احب لامبير امرأة في حياته : روزا . وبعدها اراد ان يتعزى ، فالتقط أول فتاة قادمة : وكانت أنا . لكن لم يكن راغباً حتى في النوم معي ، في البداية . وانما عندما علم انهنري ينام معي خطرت له أفكار . لكني لم اكن قط نموذجية . ان تكون له امرأة خاصة به ، فهذا يبدو له اكثر رجولة من الركض حـــول البغايا . وهذا مناسب اكثر أيضاً . لكن لا دخل لي في هذا » .

كانت تتقن فن خلط الصحيح بالكاذب بمهارة الى حد انني بقيت منهـــدّة أمام الجهد الذي علي ان ابذله لأنقض كلامها . وقلت في ضعف : « انت تعيدين بناء كل شيء معوجاً » .

فقالت :

– كلا . انني أعرف ما اقوله .

وانتهى بها الأمر الى ارتداء ثوب نظيف وذهبا الى باريس . لكنهما عـــادا متجهمين أكثر من أي وقت مضى . وسرعان ما انفجر فصل جديد . كنت اشتغل في الحديقة ، ذلك الصباح ، وكانت السماء العاصفة تثقل على كتفي وتلقيني ارضاً . وبقربي ، كان لامبير يقرأ ، ونادين تشتغل بالصوف . كانت قد قالت البارحة مساء : « في الحقيقة ، إن أيام العطلة متعبة جداً . يجب كل يوم ان نخترع

كيفية استخدام وقتنا » . وكان من الظاهر انها تمل . وطوال اللحظـــة ، ظلت عيناها متجهتين نحو رقبة لامبير وكأنهـــا حاولت ان تجعله يدير رأسه بقوة نظرتها . وقالت :

– الم تُنهه بعد ، اشنبغلر ؟

– كلا .

– عندما تنهيه اعطني اياه .

– نعم .

لم تكن نادين تستطيع ان ترى كتاباً بين يدي انسان دون ان تطالب به . وكانت تحمله الى غرفتها ، فيزيد بـلا جدوى في حجم كمية الكتب التي تعمر مستقبلها . وفي الحقيقة ، كانت تقرأ في بطء شديد، في نوع من الكراهيـــة ، وكانت تتعب بعد بضع صفحات. وتابعت كلامها في سخرية قليلة :

– يبدو انه سخيف للغاية !

وفي هذه المرة ، رفع لامبير رأسه :

– من قال لك هذا ؟ رفاقك الصغار الشيوعيون ؟

فقالت في تأكيد :

– جميع العالم يعرف ان اشنبغلر فرج أحمـــق . » وتمطت على الأرض ودمدمت : « تفعل أفضل اذا اخذتني للقيام بجولة على الدراجة » . فقال لامبير في جفاء :

– اوه ! لست راغباً في ذلك بالمرة .

– سوف نتناول الغداء في « مينيل » وسوف نتنزه في الغابة .

– وسوف نتلقى العاصفة كلها على ظهرنا : انظري الى السماء .

– لن تنهمر عاصفة . قل بالأحرى انه يضجرك ان تذهب للتنزه معي

فقال في نفاد صبر :

– يضجرني ان اذهب للتنزه ، نعم ، لقد قلت لك هذا .

فنهضت : « حسناً ! وانا يضجرني ان امضي النهار في مربع الملفوف هذا .

سآخذ الدراجة واقوم بجولة بدونك . اعطني مفتاح الأمان » .

– انت مجنونة . لا تستطيعين ان تقوديها .

– لقد سبق وقدتها . ليس الأمر صعباً: والدليل هو انك تعرف ان تقودها.

– عند أول منعطف ستدقين عنقك . لا حيلة لك . ولن اعطيك المفتاح .

– انت لا تبالي بأن ادق عنقي ! انت خائف من ان اعطب لك لعبتك ، هذا كل شيء . أيها الأناني القذر . أريد هذا المفتاح !

ولم يتنازل لامبير حتى للإجابة. وظلت نادين ساكنة لحظة ، فارغة النظرة. ثم نهضت ، والتقطت السلة الكبيرة التي تستخدمها كحقيبة ورمتني بقولها : « انني اضجر هنا : سأمضي اليوم في باريس » .

– إلهي جيداً .

كانت قد عرفت كيف تختار انتقامها . فسوف يتألم لامبير بالتأكيد من كونه يعرف ان نادين في باريس مع رفاق يكرههم . وتبعها بعينيه بينا كانت تخرج من الحديقة ، وأدار رأسه نحوي . وقال في لهجة محزونة :

– لا افهم لماذا تحتد خصوماتنا بسرعة . أتفهمين ذلك ؟

كانت المرة الأولى التي يبادئني فيها بحديث حميم . وترددت ، لكن ما دام على استعداد لأن يسمعني، فالافضل ، بدون شك ، ان احاول الكلام . فقلت .

– انها غلطة نادين الى حد كبير . ان اتفه شيء يغيظها . وعندئذ تصبح ظالمة وعدائية . لكن قل لنفسك انها جارحة لأنها سريعة الأصابة بالأذى .

فقال في حقد :

– تستطيع ان تفهم ان الآخرين قابلون للأذى ، هم ايضاً . ان إحساسيتها فظيعة في بعض الأحيان .

كان يبدو شديد الارتباك ، صغيراً جداً ، بجلده الغض ، وانفه الأقنى قليلاً، وفمه الشره : وجه شهواني ومعذب ، موزع بين احلام عذبة جداً ومبادىء قاسية جداً . وقررت : « اسمع : كي ترى بوضوح في روح نادين ، فلا بد ان تعود الى طفولتها » .

ورويت للامبير ، بأفضل ما استطيع ، كل مـــا كنت كررتـه في نفسي مراراً . واصغى إلي في صمت ، في سحنة منفعلة . وعندما لفظت اسم ديبغو ، قاطعني في شراهة :

— هل صحيح انه كان ذكياً للغاية ؟

— صحيح .

— قصائده كانت جيدة ؟ اكان موهوباً ؟

— اعتقد ذلك .

— ولم يكن يتجاوز السابعة عشرة ! اكانت نادين تعجب به ؟

— انها لا تعجب أبداً . كلا ، ما كان يربطها على الاخص بديبغو ، هو انـه كان يخصها دون تحفظ .

فقال في حزن :

— انا ايضاً احبها .

فقلت :

— ليست واثقة من ذلك . لقد خشيت دوماً من ان تقارنها بأخرى .

فتمتم :

— إنني أشدّ تعلقاً بنادين مما كنت بروزا .

وفاجأني هذا التصريح : فقد كنت ، رغم كل شيء ، قد تبنيت آراء نادين المسبقة :

— هل قلت لها ذلك ؟

— ليست هذه أشياء يمكن ان تقال .

— انها أشياء ، هي بحاجة لأن تسمعها .

فهز كتفيه : « انها ترى جيداً انني منذ سنة لا أعيش إلا من أجلها » .

— انها مقتنعة ان هذا ليس إلا نوعاً من الرفعة . كيف أشرح لك ؟ إنهـا بصفتها امرأة تشك في نفسها : فهي بحاجة لأن تحب كإمرأة .

فتردد لامبير : « لكنها على هذا الصعيد أيضاً صعبة المعاملة . ربما كان عليّ

ألا أقول لك هــذا : لكني لا أفهم شيئاً وانا ضائع . إذا لم يحدث بيننا شيء ذات مساء ، فإنها تشعر انهـا مهانة . لكن جميع حركات الحب الحبية تقريباً تصدمها . ولهذا فإنها تظل باردة بالطبع وتحقد عليّ ... » .

وتذكرت تصريحات نادين الشرسة :

– أواثق أنت من انها هي التي تريد ، كل مساء ...؟

فقال في سحنة متجهمة :

– واثق تماماً .

ولم أدهش كثيراً لتناقضها . لقد صادفتني أمثلة كثيرة . وهـذا يعني دوماً ان أياً من العشيقين ليس راضياً عن الآخر .

وقلت :

– نادين تشعر انها مبتورة عندما تقبل بأنوثتها وكذلك عندمـا ترفضها . وهذا ما يجعل هذه العلاقات صعبة جداً بالنسبة لك . لكن إذا كان لديك مـا فيه الكفاية من الصبر ، فإن الأمور ستسوّى .

– أوه ! الصبر ! لديّ منه . ليتني واثق فقط انها لا تكرهني !

– يا لها من فكرة ! انها متعلقة بك بشدة .

– غالباً ما أفكر بأنها تحتقرني لأنني لست ، كما تقول ، إلا مثقفاً صغيراً . » وأضاف في مرارة : « مثقفاً لا يملك حتى مواهب خلاقة . ولا يقرر أبداً أن يطير بجناحيه الخاصين » .

فقلت :

– لن تستطيع نادين أبداً ان تهتم إلا بمثقف ، فهي تعيد المناقشة ، وتبـادل الآراء : يلزمها ان تضع حياتها في كلمات . كلا ، صدقني ، انهـا لا تأخذ عليك حقاً إلا أنك لا تحبها بما فيه الكفاية .

فقال :

– سأقنعها . كان وجهه قد أشرق : « إذا فكرت انها تحبني قليلاً ، فإن كل الباقي عندي سواء » .

- انها تحبك كثيراً : ما كنت لأقول لك هذا لو لم أكن متأكدة منه .

وعاد الى كتابه وانا الى شغلي . كانت السماء تغيم ساعة بعد ساعة ، وكانت سوداء تماماً عندما صعدت بعد الظهر الى غرفتي لأحاول الكتابة الى ليويس . كان قد تعلم ، هو ، أن يكلمني . وكان هذا أسهل عليه منه عليّ فأولئك الناس ، وتلك الأشياء التي كان يصفها لي ، وجدت بالنسبة لي . ومن خلال الأوراق الصفر كنت أجد ثانية الآلة الكاتبة ، والغطاء المكسيكي ، والنافذة المفتوحة على أرض مشجرة ، وسيارات فارهة تجري على طول الطريق المتصدعة . لكن هذه القرية ، عملي ، نادين ، لامبير ، لم تكن شيئاً بالنسبة له . وكيف أتحدث عن روبير ، كيف أسكت عنه ؟ إن ما كان ليويس يهمسه لي بين سطور رسائله ، كان كلمات سهلة القول : « إني انتظرك ، عودي ، فأنا لك » . لكن كيف أقول : « انني بعيدة ، لن أعود قبل مدة طويلة ، انني أخص حياة أخرى » ؟ كيف أقول هذا ما دمت أريد ان يقرأ : « أحبك ! » . كان يناديني ، ولم اكن أستطيع انا ان أناديه . لم يكن لديّ شيء أمنحه إياه ما دمت أمنع عنه حضوري . وأعدت قراءة رسالتي في خجل : كم كانت فارغة مع ان قلبي مثقل جداً ! ويا لها من وعود تافهة : سأعود . لكني سأعود بعد مدة طويلة ، وسيكون هذا كي أرحل ثانية . وجمدت يدي وهي تلمس المغلف الذي ستلمسه يداه بعد أيام : يدان حقيقيتان ، اليدان اللتان شعرت بهما حقاً على جسدي . لقد كان إذن موجوداً حقاً ! كان يخيل إليّ أحياناً انه من اختراع قلبي . وكنت أتحكم به في سهولة كبيرة : كنت أجلسه قرب النافذة ، واضيء وجهه ، وأوقظ ابتسامته دون ان يدافع عن نفسه . هل سأجده ثانية ، بلحمه وعظمه ، ذلك الرجل الذي كان يفاجئني ، الذي كان يملأني ؟ وتركت رسالتي على الطاولة ، واستندت الى النافذة . كان الغسق يخيم والعاصفة تنطلق . وكنت أرى جيوشاً من الفرسان يخبون والحراب في قبضاتهم بين الغيوم بينما كانت الريح تهذي بين الأشجار . ونزلت الى غرفة الجلوس وأشعلت نار حطب كبيرة ، وبالتلفون دعوت لامبير الى المجيء لتناول العشاء معنا . عندما لا تكون نادين هنا لتؤجج

المعارك ، كان هو وروبير يتجنبان في اتفاق مشترك المسائل الشائكة . وبعد الطعام ، عاد روبير الى مكتبه ، وبينما كان لامبير يساعدني في رفـــع المائدة ، عادت نادين ، وشعرها مبلل بالمطر . وابتسم لها في لطف :

— تبدين كجنية ماء . هل تريدين أن تأكلي شيئاً ما ؟

فقالت :

— كلا ، لقد تعشيت مـع فانسان وسامازيل . » وتناولت من على الطاولة منشفة وجففت شعرها ، « لقد تحدثنا عن المعسكرات الروسية . وفانسان من رأيي تماماً . إنه يقول انها مقرفة ، لكن إذا مـــا شنت حملة ضدها ، فإن البورجوازيين سيسرون كثيراً » .

فقال لامبير :

— مع هـــذا النوع من المنطق نذهب بعيداً ! » وهز كتفيـــه في غيظ : « سيحاول ان يقنع بيرون بألا يتكلم ! » .

فقالت نادين :

— بديهي .

فقال لامبير :

— آمل جداً ان يضيع وقته . لقد حذّرت بيرون من انه إذا خنق القضية ، فإنني أترك « الأمل » .

فقالت نادين في سخرية :

— هذه حجة لها وزنها !

فقال لامبير بصوت مرح :

— أوه ! لا تأخذي هذا المظهر المتفوق ! انت الحقيقة لا تسيئين بي التفكير الى الحد الذي تريدينني ان أعتقده .

فقالت بدون لطف :

— لكن ربما كنت أحسن بك التفكير اقل مما تعتقد .

فقال لامبير :

– أنت لست لطيفة !

– وأنت ، أكان من اللطف ان تتركني أذهب بمفردي الى باريس ؟

فقال لامبير :

– لم يكن يبدو عليك أنك ترغبين في مجيئي !

– لم أقل انني لست راغبة في ذلك . إنما أقول انه كان بإمكانك ان تقترح ذلك علي .

ومضيت نحو الباب وغادرت الغرفة . وسمعت لامبير يقول :

– هيا ، دعينا من الخصام !

فقالت نادين :

– انني لا اخاصم !

وافترضت انهما سيتخاصمان طول السهرة .

وفي صباح اليوم التالي نزلت باكراً الى الحديقة . تحت السماء الزرقاء التي لينتها امطار الليل كان الريف لا يزال مثخناً. وكانت الطريق محفورة بالمستنقعات الصغيرة ، والارض المعشوشبة مليئة بأغصان ميتة . وكنت اضع اوراقي على الطاولة الندية عندما سمعت هدير الدراجة البخارية .. كانت نادين منطلقة على الطريق المتصدعة ، وشعرها تداعبه الريح ، وتنورتها مرفوعة عالياً على ساقيها العاريتين . وخرج لامبير من الجناح ، وركض حتى البوابة صارخاً : «نادين ! » وعاد نحوي تائه النظرة . وقال بصوت مضطرب :

– انها لا تعرف القيادة ! ومع هذه العاصفة ، توجد اغصان مكسورة ، واشجار ساقطة عبر الطريق . ستحدث مصيبة !

فقلت لأطمئنه :

– نادين حذرة على طريقتها .

كنت قلقة انا ايضاً . كانت حريصة على جلدها ، لكنها لم تكن ماهرة .

– لقد أخذت مفتاح الأمان بينما كنت نائماً . انها عنيدة جداً !

– ونظر إلي في تأنيب : « تقولين لي انها تحبني . لكن لها اذن طريقة غريبة

في الحب ! لم اكن اطلب انا الا إحلال سلام مساء أمس ، لقد رأيت جيداً . هذا لم يفد شيئاً كبيراً ! » .

فقلت :

– آه ! ليس من السهل كثيراً الوصول الى التفاهم . اصبر قليلاً .

– لا بد معها من صبر كثير !

وابتعد وفكرت في حزن : « يا لها من ورطة » . كانت نادين تجري على الطرق ، ويداها مشنجتان على المقود ، شاكية للريح : « لامبير لا يحبني . ما من أحد احبني ، باستثناء دييغو الذي مات » . واثناء ذلك ، كان لامبير يذرع غرفته طولاً وعرضاً وقلبه مليء بالشكوك . من الصعب ان يصبح المرء رجلاً في زمن أخذت فيه هذه الكلمة معنى ثقيلاً جداً : فكثير من الاخوة الكبار الذين ماتوا ، وعذبوا ، وقلدوا الاوسمة ، ونالوا الحظوة ، يقترحون انفسهم مثالاً على هذا الغلام ذي الخمسة والعشرين عاماً الذي لا يزال يحلم بحنان الأم والحماية الرجولية . كنت افكر بتلك الشعوب التي تعلم الذكور الصغار منذ سن الخامسة على غرز اشواك مسمومة في اجسادهم الحية : عندنا ايضاً ، لا بد للذكر ، ليحصل على كرامة الانسان الراشد ، من ان يعرف كيف يقتل، ويؤلم ، ويتألم. اننا نرهق البنات بالنواهي ، والصبيان بالمطالب ، وكلا هذين النوعين من الامتحان مضران . لو اراد لامبير ونادين ان يساعد احدهما الآخر ، لربما نجحا معاً في قبول سنهما ، جنسهما ، مكانهما الحقيقي على الارض . ترى هل سيقرران ارادة ذلك ؟

وتناول لامبير طعام الغداء معنا . وكان يتردد بين الخوف والغضب . وقال في اضطراب :

– هذا يتجاوز حدود المزاح ! ليس لها الحق في ان تخيف الناس هكذا . انه خبث ، انه شانتاج . صفعتان جيدتان ، هذا ما تستحقه !

فقلت :

– انها تفكر انك قلق جداً . أنت تعرف ، فلا داعي لهذا . انها بلا شك

نائمة في حقل أو تأخذ حمام شمس .

فقال :

– المهم الا تكون في الحفرة ، مفلوقة الرأس ! انها مجنونة ! مجنونة حقاً .

كان يبدو قلقاً حقاً . وكنت أفهمه . كنت أقل اطمئناناً بكثير مما ازعم . وكان روبير يقول لي : « لو كان حدث شيء ما ، لتلفنوا لنا » . لكن ربما في هذه الدقيقة بالضبط كانت الآلة تنحرف ونادين تتحطم على شجرة . وكان روبير يحاول ان ينسيني . لكنه عندما بدأ الليل يخيم ، لم يعد يخفي قلقه . كان يتحدث عن الاتصال هاتفياً برجال الدرك في الضواحي ، عندما سمعنا اخيراً صوت فرقعة . ووصل لامبير الى الطريق قبلي . كانت الآلة مغطاة بالوحل ، ونادين كذلك . وترجلت أرضاً ضاحكة فرأيت لامبير يصفعها صفعتين بكل قوته .

– ماما ! » كانت نادين قد رمت نفسها عليه ، وراحت تصفعه بدورها ، وتصيح : « ماما ! » بصوت حاد . وأمسك بمعصميها . وعندما وصلت الى مقربة منهما ، كان شديد الشحوب ، حتى اعتقدت انه سيغمى عليه . كانت نادين تنزف من انفها ، لكني كنت أعلم انها تستطيع بإرادتها ان تجعل دمها ينزف ، فهذه حيلة تعلمتها في طفولتها عندما كانت تتقابل مع الصبيان حول نوافير اللوكسمبرغ .

وقلت وانا اضع نفسي بينهما وكأنني سأفرق بين طفلين :

– الا تخجلين ؟

وكانت نادين تصرخ بصوت هستيري :

– لقد ضربني !

وطوقت كتفيها بذراعي ومسحت انفها : « اهدئي ! » .

– لقد ضربني لأنني أخذت له دراجته . سأحطّمها تحطيماً !

فكررت :

– إهدئي !

– سأحطمها .

فقلت :

– اسمعي ، لقد اخطأ لامبير خطأ كبيراً بصفعك . لكن طبيعي ان يكون قد فقد أعصابه . لقد خفنا جميعاً بشكل رهيب . لقد اعتقدنا انه قد حدث لك حادث .

– ما كان ليبالي بذلك! انه انما كان يفكر بآلته . لقد خاف ان احطمها له.

فقال لامبير في صعوبة :

– انني اعتذر ، نادين ، ما كان يجب ان أفعل ذلك . لكني كنت مضطرباً. كان بإمكانك ان تقتلي نفسك .

– انت مراءٍ ! انت لا تبالي بذلك ! انني أعرف . سواء لديك موتي أو عدمه ، فقد سبق لك ودفنت اخرى !

– نادين !

كان لونه قد انقلب من الأبيض الى الأحمر . ولم يعد في وجهه أثر من طفولة . وصاحت :

– دفنتها ، نسيتها ، فعلت ذلك بسرعة .

– كيف تجرؤين ! انت ! انت التي خانت دييغو مع الجيش الاميركي كله .

– اسكت .

– لقد خنته .

كانت دموع حق تنسال على خدي نادين : « ربما خنته ميتاً . لكن انت ، قد سمحت لوالدك بأن يشي بروزا حين كانت حية » .

وظل لحظة صامتاً . وقال : « لا اريد ان اراك ثانية أبداً . أبداً » .

وامتطى دراجته ، فلم أجد كلمة لأوقفه . وكانت نادين تنتحب :

– تعالي لتستريحي . تعالي .

– شخص كان ابوه يشي باليهود . وقد نمت معه ! وقد صفعني ! هذا ما استحقه ! هذا ما استحقه !

كانت تصرخ . ولم يكن هناك ما يمكن عمله سوى ان اتركها تصرخ .

الفصل السابع

امضت بول الصيف لدى كلودي دي بلزونس ، وذهبت جوزيت لتلوّح جلدها في « كان » بصحبة أمها . وسافر هنري الى ايطاليـــا في سيارة صغيرة سنحت له . كان يحب كثيراً ذلك البلد حتى انه نجح في نسيان « الأمـــل » ، و « الاشتراكي الثوري الحر » ، وجميع المشاكل . وعندما عـــاد الى باريس ، وجـــد في بريده تقريراً ارسله اليه لامبير من المانيا ورزمة من وثائق جمعهـــا سكرياسين . وقضى الليل في دراستها : وعند الصباح ، كانت ايطاليا بعيـدة جداً . كان يمكنه ان يشك في وثائق وجدت في اضبارات الرايخ وتفضح وجود تسعة ملايين وثمانمئة الف سجين . وكان يمكنه ان يشتبه في تقـــارير المعتقلين البولونيين المحررين . لكن لـــكي يدحض بشكل قاطع جميع شهادات الرجال والنساء الناجين من المعسكرات ، فلا بد ان يكون قد قرر نهائياً ان يسد عينيه واذنيه . ثم ، بالاضافة الى مواد القانون التي كان هنري يعرفها ، كان هناك ذلك التقرير الذي ظهر في موسكو عام١٩٣٥ والذي يعدد الأعمال الفخمة التي انجزتها معسكرات أو غيبيو . وكان هناك مشروع السنوات الخمس الخاص بعام ١٩٤١ الذي يعهد الى المباحث بـ ١٤ بالمئـــة من مشاريع البناء . مناجم الذهب في كوليا ، ومناجم الفحم في يوريلك، وفوركوتا ، وحديد ستاروبلسك، ومناطق صيد السمك في كومي : كيف يعيش فيها الناس بالضبط؟ ما هو عدد المحكومين بالأشغال الشاقة ؟ كان هناك التباس كبير حول هذه النقطة. لكن ما كان اكيداً هو ان المعسكرات موجودة ، على صعيد كبير ، وبشكل قانوني. وانتهى هنري الى القول : « يجب ان أقول هذا . وإلا فسأكون متواطئاً ، ومذنباً تجاه قرائي

بسوء استغلال الثقة » . ورمى بنفسه وهو في ثيـــابه على سريره وهو يفكر : « سيكون الأمر مرحاً ! » . كان سيتخاصم مع الشيوعيين ، ولن يعود وضع « الأمل » سهلاً مطلقاً آنذاك . وتنهد . كان مسروراً ، في الصباح ، عندما كان يري عمالاً يشترون « الأمل » من الكشك المجاور : لن يشتروها بعـــد ذلك . ومع ذلك ، كيف يسكت ؟ كان يستطيع ان يتعلل انه لا يعرف ما فيه الكفاية ليتكلم : انما بمجموع النظام بأكمله الذي يعطي هذه المعسكرات معناهـا الحقيقي ، وهو لا يملك معلومات كافية ! لكنه في الوقت نفسه لم يكن يجهل ما فيه الكفاية ليلزم الصمت . ان الجهل ليس تعلـّة ، ولقد فهم ذلك منـــذ زمن بعيد . كان عليه ، ما دام وعد قرّاءه بالحقيقة ، ان يقول لهم ما يعرفه ، وإن كان شاكاً . وكان لا بد له من اسباب موضوعية ليقرر ان يكتمها عنهـم : ولم يكن نفوره من الخصومة مع الشيوعيين سبباً ، فهو لا يخص احداً غيره .

ولحسن الحظ ، تركت له الظروف شيئاً من الراحة . فلم يكن لا دوبروي ، ولا لامبير ، ولا سكرياسين في باريس. ولم يشر سامازيل الى القضية إلا اشارات مبهمة . واجتهد هنري ليفكر بالأمر أقل ما يمكنه . ولقد كانت هنـاك اشياء اخرى كثيرة بالأصل كان عليه ان يفكر فيها : اشياء تافهة لكن عاجلة . كانت مراجعات مسرحيته عاصفة . كان « ساليف » مبالغاً في سلافيته ، وكثرة نزواته لا تجعله أقل إخافة ، وكانت جوزيت تتحملها باكية : وكان فيرنون قد أخذ يخشى فضيحة ، ويقترح حذفاً وتبديلاً لا يمكن القبول بها . وكان قـد عهد الى بيت آماربليس بتنفيذ الثياب ، وكانت لوسي بيلوم ترفض ان تفهم ان جوزيت تعتبر خارجة من كنيسة ملتهبة لا من صالون خياطة . وكان هنري يضطر الى تمضية ساعات في المسرح .

وقال في نفسه ذات صباح : « يجب على كل حال أن أتلفن لبول » . لم تكن قد ارسلت له الا بطاقات بريدية نادرة وكلها ألغاز . كانت قد عادت الى باريس منذ بضعة أيام ، ولم تتصل به . لكن كان من البديهي انها تنتظر في قلق التلفون ، ولم يكن تكتـُّمها الا مناورة ، وكان من الوحشية ان يستغله . الا انه عندما

طلبها ، اعطته موعداً بصوت هادىء جداً حتى انه كان يعتوره الأمـــل بعض الشيء بينما كان يرتقي الدرج : لعلها لم تعد تتعلق به نهائياً . وفتحت له البـاب باسمة وتساءل في ذهول : « ماذا حدث لها ؟ » . كان شعرها مرفوعاً ، كاشفاً عن رقبة بدينة ، وكانت قد نتفت حاجبيها ، وكانت ترتدي ثوباً يشد عليهـــا كثيراً ، فتبدو شبه مبتذلة . وقالت وهي تتابـع الابتسام :

– لماذا تنظر إلي هكذا ؟

فابتسم بدوره ، في جهد : « ثيابك غريبة ... » .

– أأدهشك ؟ » واخرجت من حقيبتها ماسكة سجاير ووضعتها في فمهـا ، وقالت : « آمل كثيراً ان ادهشك » . كانت تنظر اليه بعينين لامعتين مرحاً : « وفي البدء سأعلن لك نبأ عظيماً : انني أكتب » .

فقال :

– تكتبين ! وما تكتبين ؟

فقالت :

– ستعرف ذلك ذات يوم .

كانت تعض على ماسكة السجاير في سيماء من غموض . وسار نحو النافـذة . كانت بول قد مثلت عليه غالباً فصولاً مأساوية ، لكن هذا النوع من الملهاة كان غير جدير بها . ولو لم يخش التعقيدات ، لنزع منها ماسكة السجاير هـــذه ، ولأفسد تسريحتها ، ولهزّها . واستدار نحوها :

– أكانت عطلتك جيدة ؟

– جيدة تماماً .» وسألت في نوع من التسامح: « وانت؟ إلام صرت اليه؟» .

– اوه ! انني اقضي أيامي في المسرح . وحالتنا سيئة في الوقت الراهن. ان ساليف مخرج طيب ، لكنه يغضب بسرعة .

فسألت بول :

– والصغيرة ستكون مناسبة ؟

– اعتقد انها ستكون ممتازة .

وتنشقت بول دخان سجارتهـا ، واختنقت ، وسعلت : « ألا تزال قصتك معها مستمرة ؟ » .

– لا تزال .

وتفرست في وجهه في نوع من الرعاية :

– هذا غريب .

فقال :

– لماذا ؟ » وتردد ، وقال مقرراً : « ليس الأمر بنزوة . انني عاشق لها » .

فابتسمت بول : « أتعتقد ذلك حقاً ؟ » .

فقال في حزم :

– انني متأكد ، انني أحب جوزيت .

فقالت في سيماء من دهشة : « لمَ تقول لي ذلك ، بهذه اللهجة ؟ » .

– أي لهجة ؟

– لهجة غريبة .

وبدرت عنه حركة نفاد صبر : « اروي لي بالأحرى عطلتك : فقد كتبت لي قليلاً للغاية » .

– كنت مشغولة كثيراً .

– أهو بلد جميل ؟

فقالت بول :

– لقد أحببته .

كان من المتعب ان يطرح اسئلة لا تجيب عليها إلا بعبـــارات مقتضبة مثقلة بتلميحات غامضة . وغضب هنري من ذلك ، حتى إنه ذهب بعد عشر دقائق . ولم تحاول ان تمنعه ولم تطلب موعداً جديداً .

وعاد لامبير من المانيا قبل ثمانية أيام من المراجعة العامة للمسرحية . كان قد تغيّر ، فقد أصبح ، منذ موت والده ، نزقاً ومنغلقاً على نفسه . وأخـذ فوراً يتحدث بسرعة عن تحقيقه وعن الشهادات التي جمعهـا . ونظر الى هنري

في تشككك :

– أأقتنعت أم لا ؟

– بشكل عام ، نعم .

فقال لامبير :

– هذا يكفي ! ودوبروي ؟ ما رأيه ؟

– لم أره ثانيـــة . انه لا يتحرك من سان – مارتان ولم يتح لي الوقت للذهاب اليه .

فقال لامبير :

– لكن لا بد ان ننتقل الى العمل بسرعة . » وقطب حاجبيه : « آمل انه سيكون حسن النية بما فيه الكفاية ليعترف ان الوقائع قد تأكدت هذه المرة».

فقال هنري :

– بالتأكيد .

ومن جديد تفرس لامبير في وجه هنري في ارتياب :

– شخصياً ، انت لا تزال عازماً على الكلام ؟

– شخصياً ، نعم .

– واذا ما عارض الشيخ ذلك ؟

– سنستشير اللجنة .

فغام وجه لامبير وأضاف هنري :

– « اسمع ، دع لي ثمانية ايام . انني في هـــذه الايام مشغول جداً ، لكني سأذهب للتحدث اليه فوراً بعد المراجعة العامـــة . وسنسوي هذه المسألة . » واضاف بصوت ودي : « انني ذاهب الى المسرح . أيستهويك ان ترافقني ؟ » .

فقال لامبير :

– لقد قرأت مسرحيتك : انني لا احبها .

فقال هنري في فرح :

– هذا من حقك . لكن من الممكن ان يسلـّيك حضور مراجعة .

فقال لامبير :

– « لدي عمل . يجب ان انظم ملاحظاتي . » وساد صمت محرج ثم بدا على لامبير انه قرر ، وقال في لهجة حيادية : « لقد رأيت فولانج خلال شهر آب ، انه في سبيله الى اصدار صحيفة اسبوعيـــة كبيرة ، ويقترح عليّ منصب رئيس التحرير » .

فقال هنري :

– سمعت عن هذا المشروع . « الايام الجميلة » ، أليس كذلك ، انني افترض انه لا يجرؤ على ادارتها علناً .

– تقصد انه ينوي ان يستخدمني لحسابه ؟ في الحقيقـة ، انه يتمنى ان نهتم بالجريدة معاً . وهذا لا يجعل عرضه أقل اجتذاباً .

فقال هنري في جفاء :

– على كل حال ، انت لا تستطيـع ان تشتغل في « الأمل » وفي جريـــدة يمينية في آن واحد .

– انها ليست الا صحيفة اسبوعية ادبية محضة .

– هذا يقال دوماً . لكن الاشخاص الذين يصرحون انهم ضد السياسة ، هم رجعيون ، حتماً . وهز هنري كتفيه : « اخيراً ، كيف تأمل ان توفق بين افكارنا وافكار فولانج ؟ » .

– انا لا اشعر انني بعيد عنه كثيراً . لقد قلت لـــك مراراً انني اشاطره احتقاره للسياسة .

– انك لا تفهم ان هذا الاحتقار عند فولانج هو ايضاً موقف سياسي : الوحيد الممكن له حالياً .

وقطع هنري كلامه . كان لامبير قد اخذ سحنة عنيدة . لقد عرف فولانج دون شك كيف يرضي غروره. ثم انه كان يعرض عليه إمكانية مزج الخير بالشر بحيث يتوصل الى تبرئة والده ، ويبرر ايضاً ثروته الضخمة . وقـــال هنري في نفسه : « يجب ان انظم وقتي بحيث أراه غالباً واخاطبه » . لكن لم يكن لديه

وقت ، حالياً . وقال وهو يصافح يد لامبير : « سنتكلم عن هذا كله ثانية » .

كان يؤلمه قليلاً ان يكون لامبير قد حدّثه في جفاء كبير عن مسرحيته . لا شك في ان لامبير كان محرجاً من بعث الماضي ، بسبب والده . ولكن لمَ هذا النوع من الكراهية ؟ وقال هنري في نفسه : « يا للخسارة ! » . كان يود لو ان احداً من الخارج يحضر احدى مراجعاته الاخيرة ويقول له رأيه : فهو ما عاد يعرف اين وصل . ولم يكن ساليف وجوزيت ينقطعان عن الانتخاب ، بينما كانت لوسي بيلوم ترفض رفضاً قاطعاً ان تمزق ثوب جوزيت ، وفيرنون يعاند في تقديم عشاء بعد المراجعة العامة . ولقد احتج هنري كثيراً ، لكن لم يكن من احد ليستمع الى كلمة واحدة مما يقوله . وكان يشعر انه يسير الى كارثة . وكان يحاول ان يقول في نفسه : « بعد كل شيء ، ان مسرحية تنجح او تسقط ، فليس هذا بالأمر الخطير » . لكنه اذا كان يستطيع ان يتحمل شخصياً فشلاً ما ، فان جوزيت كانت بحاجة الى نجاح . وقرر ان يتلفن لدوبروي وزوجته اللذين عادا الى باريس : هل يستطيعان ان يأتيا غداً الى المسرح ؟ فالمسرحية تمثل بأكملها وهو مشوق لمعرفة رأيهما .

وقالت آن :

— موافقان . انه ليشوقنا كثيراً . وهذا سيرغم دوبروي على الاستراحة قليلاً : انه يشتغل كمجنون .

كان هنري خائفاً قليلاً من ان يضع دوبروي فوراً على بساط البحث قضية المعسكرات . لكن ربما لم يكن مستعجلاً هو الآخر لاتخاذ قرارات : ولم يفه بكلمة . وشعر هنري بخجل عظيم عندما بدأت المراجعة . لقد كان يحرج أصلاً عندما كان يفاجىء قارئاً يقرأ احدى رواياته . ولقد كان في جلوسه الى جانب دوبروي وهما يستمعان الى نصه ، شيء ما بذيء . وكانت آن تبدو منفعلة ، ودوبروي مهتماً : لكن بأي شيء لم يهتم ؟ ولم يجرؤ هنري على سؤاله . وسقط الجواب الأخير في صمت جليدي . وعندئذ استدار دوبروي نحو هنري وقال في حرارة :

– تستطيع ان تكون مسروراً ! ان المسرحية لأفضل ايضاً على المسرح منها في القراءة . لقد قلت لك ذلك مباشرة : هذا افضل ما كتبته .

وقالت آن في انطلاق :

– اوه ! بالتأكيد !

وتابعا إطلاق التقاريظ الحماسية : كانا يقولان بالضبط الكلمات التي كان هنري يرغب في سماعها . ولقد سرّه ذلك كثيراً ، لكنه أخافه ايضاً قليلاً . لقد بذل خلال هذه الأسابيع الثلاثة جهده ، كي تتاح للمسرحية كافة فرصها . لكنه لم يشأ ان يتساءل عن قيمتها ، عن نجاحها . ولقد منع نفسه من الأمل أو الخوف . وكان قد شعر ، الآن ، بأن حذره يذوب . أفضل ما كتبه : هل هي جيدة ؟ هل سيجدها الجمهور جيدة ؟ كان قلبه يخفق بشدة ، مساء المراجعة العامة ، بينما كان يسترق السمع ، مختفياً وراء الكواليس ، الى اللغط الكبير غير المفهوم الذي كان يعلو من القاعة غير المرئية . غرور وسراب : ها قد مضت سنوات وهو يرتاب بالمظاهر. لكنه لم ينسَ أحلام الشباب . المجد : لقد آمن به ، ووعد نفسه بأن شده اليه ذات يوم ، ملء ذراعيه ، كما يضم الانسان حبيبه ، ولقد كان من الصعب إمساكه ، ولم يكن له وجه . وفكر : « لكنه ، على الأقل ، يمكن ان يكون حجة » . لقد سمعها ، ذات مرة . كان قد ارتقى المنصة، ونزل عنها مثقل الذراعين بالكتب، واسمه ينعكس في فرقعة التصفيق. لعله سيعرف من جديد هذا التمجيد الطفولي . انه لا يستطيع ان يكون متواضعاً دوماً . ولا يستطيع ان يكون متكبراً دوماً ومحتقراً جميع الدلائل. وإذا كان يقضي أفضل ايامه في محاولة الاتصال بالآخرين فهذا لأن لهم حساباً ، وهو بحاجة لأن يعرف، احياناً، اذا كان قد نجح في ان يكون له حساب بالنسبة لهم . انه بحاجة الى لحظات عيد حيث يجمع الحاضر في ذاته الماضي كله وينتصر على المستقبل ... وانقطعت أفكار هنري فجأة . لقد دقت الدقات الثلاث . وارتفع الستار عن مغارة قاتمة فيها اناس جالسون ، صامتين ، شخوص النظر . كانت هناك علاقة ضئيلة جداً بين هذا الحضور اللامتأثر وبين الضجة التي ملأت

نصف الساعة الأخير حتى ان المرء ليتساءل من أين برزوا . ما كانوا يبدون واقعيين تماماً . انما كانت الحقيقة تلك القرية المحترقة ، والشمس ، والصراخ ، والأصوات الالمانية ، والخوف . وسعل أحدهم في القاعة ، وعرف هنري انهم واقعيون ، هم ايضاً : آل دوبروي ، بول ، لوسي بيلوم ، لامبير ، آل فولانج ، وكثيرون غيرهم ممن يعرفهم ، وكثيرون غيرهم ممن لا يعرفهم . ماذا كانوا يفعلون على الضبط هنا ؟ كان يتذكر بعد ظهر يوم احمر من الشمس ، والنبيذ ، والذكريات الدامية . ولقد تمنّى لو ينتزعه من شهر آب ذاك ، لو ينتزعه من الزمن . ولقد أطاله الى احلام يقظة نبتت منها قصة ، وكذلك أفكار صبها في كلمات . ولقد تمنى لو تصبح الكلمات ، والافكار ، والقصة ، حية : هل كانت هذه الجمعية الخرساء هنا لتمنحها الحياة ؟ وانفجر هدير المدافع الرشاشة ، واجتازت جوزيت الساحة المقفرة في ثوبها الجميل أكثر مما ينبغي والمهور « آماربليس » وجاءت لتنهار على مقدمة المسرح بينما كانت تتصاعد من الكواليس صيحات وأوامر بحنّاء . وتعالى الصياح ايضاً في الصالة . وغادرت امرأة مزدانة الرأس بريش أصفر مقعدها في صخب : « كفانا من هذه الفظاعات ! » وبين التصفير والتصفيق ألقت جوزيت على هنري نظرة مذعورة وابتسم لها في هدوء. وعادت الى الكلام . كان يبتسم في حين انه كان يود لو يقفز الى مقدمة المسرح أو يهمس الى جوزيت بكلمات جديدة ، بكلمات مقنعة ، مقلقة . ولم يكن عليه الا ان يمد يده ليلمس ذراعها ، لكن أنوار مقدمة المسرح كانت تبعده عن ذلك العالم الذي كانت فيه لحظات المأساة تتابع تسلسلها بلا شفقة . وعندئذ عرف هنري لماذا دُعوا : ليلفظوا الحكم . لم تكن القضية قضية تمجيد : بل دعوى . كان يتعرف ثانية تلك الجمل التي اختارها بأمل في صمت غرفته الدمث : كان لها تلك الليلة طعم جريمة . مذنب ، مذنب ، مذنب . كان يشعر انه وحيد وحدة الرجل الذي يصغي في صمت ، في قفص محكمة الجنايات ، الى محاميه . كان يرافع مقراً بالذنب ، وكل ما كان يطلبه هو رحمة المحلفين . وصاحوا من جديد : « هذا مخجل » ، ولم يكن يستطيع ان يقول كلمة واحدة دفاعاً عن نفسه . وعندما

سقط الستار بين التصفيق الذي كان يتخلله بعض الصفير ، تبين ان يديه نديتان. وغادر البلاتو وذهب ليسجن نفسه في مكتب فيرنون . وبعد بضع دقـائق ، فتح الباب . وقالت بول :

– قيل لي انك لا تريد ان ترى احداً . لكني افترض انني لست أحداً ما .

كان في صوتها طلاقة مدروسة ، وكانت ترتدي ثوباً اسود ، وفي هذا المساء أيضاً كانت اناقتها المزمنة تجعلها تظهر شاذة . وأضافت : «لا بد انك مسرور ! انها فضيحة جميلة » .

فقال :

– نعم ، هذا هو الانطباع الذي شعرت به .

– أتعرف ، ان المرأة التي احتجت في سويسرية أمضت طوال فترة الحرب في جنيف . ولقد حدثت ايضاً خناقة جميلة في مؤخرة الصالة . وقـد تظاهرت هوغيت فولانج بالإغماء .

فابتسم هنري : « أأغمي على هوغيت ؟ » .

– بشكل أنيق جداً . ولكن انمـا هو الذي يجب ان تراه . يا للويس المسكين ! انه يشم رائحة النصر ، انه شاحب .

فقال هنري :

– نصر غريب . سترين ذلك : في الفصل الثـاني ، جميع الذين صفقوا سيأخذون بالصفير .

فقالت بول في شموخ :

– « هذا أفضل ! » وأضافت : « آل دوبروي مسرورون » .

يقيناً ، كان جميع الاصدقاء يتبادلون التهـاني على هـذا الصخب المرح : فالفضيحة تبدو دوماً للمثقفين موافقة عندما يثيرهـا غيرهم . كان هنري وحده يصاب بهذه الاحقاد وهذه الاغضاب التي اطلقهـا . لقد أحرق رجال أحياء في كنيسة ، وقد خانت جوزيت الزوج الذي كانت تحبه حباً. كان الانفعال وحقد الجمهور يحيل هذه الجرائم الورقية الى جرائم حقيقيـة : وكان هو المجرم . ومن

جديد ، راح يتفرس ، وهو مستند الى احدى عضادات الديكور ، في الظل ، في وجوه قضاته ، وكان يفكر في ذهول : « هذا مـا فعلته ! انه انا ! » . كان قد مر عام ، وكانت شمس آب لا تزال تسحق بقايا القرية ، لكن كانت صلبان قد نبتت فوق الحفر ، وكانوا يروونها بالخطابات ، وكان الجو مليئاً بالأبواق المثلثة الألوان وكانت أرامـل متدثرات بالسواد يتنزهن والزهور على أذرعهن . ومن جديد انطلق اللغط المعادي في الليل .

وفكر : « انني أسخر من تجار الجثث ، وسوف أُتهم بإهانـة الأموات » . كانت يداه جافتين الآن ، لكنه كان يشعر في حلقه ببخـار كبريت . وتساءل في اشمئزاز : « هل أنا سريع الاصابة بالأذى الى هـذا الحد ؟ » . كان للآخرين دوماً ، عندما تصافح ايديهم في الكواليس ، محيا طلق ومتوانٍ : هـل كانوا يعرفون سراً هذه الأهوال الصبيانية ؟ كيف يقارن نفسه ؟ انهم يتفاهمون ، بخصوص الباقي كله ، في رضى . ولا يترددون في اطلاع العالم على مصنف مفصل عن رذائلهم والقياسات الدقيقة لقضيبهم . لكن هذه المطامح ، هذه الخيبات ، لم يكن أي كاتب معجباً بنفسه بما فيه الكفاية او متواضعاً بما فيه الكفايـة ليكشفها علناً . وفكر هنري في نفسه : « ان صدقنا سيكون فاضحـاً كصدق الاطفال . اننا نكذب مثلهم ويخشى كل منا مثلهم ان يكون غولاً » . وسقط الستار للمرة الثانية. واتخذ هنري محياً طلقاً، متوانياً ، ليمد يده الى الفضوليين. انها تظاهرة كهنوتية حقيقية : لكن لزواج أم لدفن ؟

وصاحت لوسي بيلوم وهي تهرع اليه، عندما دخل الى المطعم الكبير حيث كان يزدحم جمهور معطر :

ــ انه لنصر ! » ووضعت على ذراع هنري يدها المتلفحة بقفاز. وعلى رأسها كان يتأرجح عصفور كبير اسود باكٍ : « اعترف ان جوزيت رائعة عندمـا تتقدم في ذلك الثوب الأحمر » .

ــ غداً مساء ، سأمرغه في الغبار ، ذلك الثوب ، وسأنهال عليـه ببضع ضربات طيبة من المقص .

فقالت لوسي في جفاء :

– ليس لك الحق ، فهو ممهور ؟ وعلى كل ، لقد وجده الجميع جميلاً جداً .

فقال هنري :

– بل هي جوزيت التي وجدوها جميلة ! » وابتسم لجوزيت التي ابتسمت له في سحنة منتحبة وبهرهما لمعان مغنيسيوم . وبدرت عنه حركة ، لكن يد لوسي انغرست في ذراعه :

– كن لطيفاً : جوزيت بحاجة للأعلان .

ولمع ضوء آخر ، ثم آخر . كانت بول تراقب المشهد وكأنها كاهنة رومانية عذراء مهانة . وفكر في غيظ : « يا لها من مسببة إحراج ! » . لم يكن يعرف أربح ام خسر دعواه . وكان لا بد له من قلب طفل، ليعرف مجد توزيع الجوائز الحكيم والموثوق . لكنه شعر فجأة انه يريد ان يكون مرحاً . لقد حدث له شيء ما ، شيء من تلك الأشياء التي كان يحلم بها بشكل مبهم قبل خمسة عشر عاماً ، عندما كان يقرأ على أعمدة « موريس » اللافتات المضيئة . لقد مثلت مسرحيته الاولى ووجدها بعض الناس جيدة . وابتسم من بعيد لآل دوبروي ، وخطا بضع خطوات نحوهما . واوقفه لويس اثناء مروره . كان يمسك في يده بكأس من المارتيني ، وكانت نظرته كدرة قليلاً .

– حسناً ! هذا ما يسمى بنجاح باريسي كبير !

فقال هنري :

– كيف حال هوغيت ؟ قيل لي انها انزعجت : هل هذا صحيح ؟ فقال لويس :

– آه ! هذا لأنك تعرّض أعصاب المتفرجين لامتحان قاس ! لاحظ ، انني لست من الذين يسخطون . فلماذا ترفض مسبقاً استخدام وسائل الميلودراما ،بل لنقل ، مع المشنعين عليك، وسائل «الغينيول الكبير» ؟ لكن هوغيت حساسة، فلم تتحمل الضربة . لقد ذهبت بعد الفصل الاول .

فقال هنري :

– انني آسف ! لم يكن واجباً عليك ان تعتقد انك مرغم على البقاء .

فقال لويس في ابتسامة مفتوحة :

– كنت حريصاً على المجيء لتهنئتك. فبعد كل شيء ، انا اقدم صديق لك.»

ونظر حوله : «انا بالتأكيد الوحيد هنا الذي عرف الطالب الصغير في تول الذي كان يشتغل في شظف . اذا استحق احد ان يصل ، فهو انت » .

وخنق هنري عـدة أجوبة . كلا ، لم يكن يستطيع ان يرد للويس مكراً بمكر ، فقد كان كريهاً بما فيه الكفاية ان يتخيل ما يجري في هذه اللحظة في هذا الرأس الحسود ، وكان عليه ان يتحفظ من اثارة قلاقل جديـــدة فيه . وقطع كلامه ، وقال وهو يبتعد في ابتسامة مقتضبة :

– شكراً على مجيئك . واعتذاراتي كافة لهوغيت .

نعم ، ذكريات الشباب والطفولة تلك التي راودته هذا المساء ، كان لويس الوحيد الذي يشاطره اياها : ولمجرد هـذا أحس هنري انه مقرف . لم يكن له حظ مع ماضيه . كان يخيل اليه غالبـاً ان جميع السنوات الماضية لا تزال تحت تصرفه ، سليمة ككتاب أغلقه ، ويمكنه ان يعيد فتحه . كان يعد نفسه بأن حياته لن تنتهي قبل ان يكون قد لخصها . لكن لسبب او لآخر كانت المحاولة تجهض دوماً . وعلى كل حال ، لقـــد أساء اختيار الوقت ، ليحاول جمع نفسه بأسرهـا . فقد كان عليه ان يصافح الكثير من الأيدي ، وتحت تدفق التقاريظ الملتبسة ، كان يترنح .

وقال دوبروي :

– حسناً ! لقد ربحت ! نصف النـــاس حانق ، والنصف الآخر مسرور ، لكنهم يتوقعون جميعاً ثلاثمئة عرض .

فقال هنري :

– جوزيت كانت حسنة ، أليس كذلك ؟

فقالت آن بسرعة قليلا :

– حسنة للغاية . وهي جميلة جداً . وأضافت في حقد : « لكن الأم ، يا لها

من امرأة شرسة قذرة ! لقد سمعتها تواً تقهقه مع فيرنون ... لا حياء عندها على كل حال » .

– ماذا كانت تقول ؟

فقالت آن :

– سأقص عليك هذا فيما بعد . وألقت نظرة الى ما حولها : « عندها اصدقاء فظيعون ! » .

فقال دوبروي :

– انهم ليسوا اصدقاءها ولا أصدقاء أحد ، انهم باريس كلها : ليس هناك أدعى للشفقة منهم . وابتسم ابتسامة اعتذار : « انني منصرف » .

فقالت آن :

– أنا باقية قليلاً ، لأرى بول .

وشد دوبروي على يد هنري : « هل تمر على البيت غداً او بعد غد ؟

فقال هنري :

– نعم . يجب ان نتخذ قرارات . هذا مستعجل .

فقال دوبروي :

– تلفن .

واستلم الباب بسرعة ، وكان مسروراً من انصرافه ، ولم يكن يخفي ذلك . كان من الجلي ان آن غير باقية الا تأدباً ، اذ كانت تشعر بالاستياء : ماذا قالت لوسي على الضبط ؟ وفكر هنري : « هذا هو السبب الذي من أجله لم يأت لاشوم وفانسان الى العشاء . انهم يلومونني جميعاً على التعاون مع هؤلاء الناس » . ونظر خلسة الى بول التي كانت قد تجمدت على شكل تمثال من التأنيب ، وبينما كان يتابع التسليم على المدعوين الانيقين الذين كان يقدمهم له فيرنون ، تساءل : « هل انا المخطىء ؟ أم هي الاشياء التي تغيرت ؟ » . لقد كان ثمة زمن كان الانسان يعرف فيه صديقه من عدوه ، ويحب مخاطراً بحياته ، ويكره حتى الموت . اما الآن ، فهو ينخرط في جميع أنواع الصداقة المتحفظة والعدائية ،

بعد ان انكشف الحقد، ولم يعد أحد على استعداد لأن يضحي بحياته أو يقتل.

وقال لونوار بصوت متصنع :

– انها مسرحية هامة جداً. مسرحية معقدة . » وتردد : « انني آسف فقط لأنك لم تنتظر قليلاً لتقديمها » .

فقال جوليان :

– ينتظر ماذا ؟ الاستفتاء ؟

– بالضبط . انه ليس اوان التنويه بنقاط الضعف التي يمكن ان توجد عند الأحزاب اليسارية ...

– خراء اذن ! لحسن الحظ ان بيرون قد قرر أخيراً ان ينتقل الى الهجوم قليلاً : فالامتثالية لا تناسبه، حتى ولو كانت مصبوغة بالأحمر. » وقهقة جوليان: « سوف يسيء معاملتك الرفاق حتى انك لن تعود راغباً في الغناء في جوقاتهم».

فقال لونوار في حماسة قلقة :

– لا اعتقد ان بيرون يؤخذ بالاهانات. والله يعرف انني شخصياً قد تحملت الجحود من قبل الحزب الشيوعي . لكن لا اسمح لهم بتثبيط عزيمتي . انهم يستطيعون ان يهينوني ، ويفتروا علي ، الا انهم لن ينجحوا في دفعي الى معاداة الشيوعية .

فقال جوليان مقهقهاً :

– بتعبير آخر : انهم يرفسونني في مؤخرتي فأمدّ لهم الردف الثاني .

وأصبح لونوار شديد الحمرة . وقال : « الفوضوية أيضاً امتثالية . ستكتب للفيغارو ذات يوم » .

وابتعد في خيلاء ووضع جوليان يده على كتف هنري : « أتعرف ، انها ليست سيئة ، مسرحيتك . لكنها كانت ستكون مسلية أكثر لو جعلتها ملهاة ساخرة » . وبحركة مبهمة ، تفرس في وجوه الحضور : « ان مسرحية عن هذا العالم الجميل ، تستعرض احداث السنة ، ستكون مفيدة » .

فقال هنري مغتاظاً :

– اكتبها !

وابتسم لجوزيت التي كانت تعرض كتفيها الذهبيتين وسط دائرة من المعجبين. وكان يتقدم نحوها عندما اصطدم بالنظرة المذعورة لماري – آنج التي حصرها لويس بينه وبين المائدة . وكان يكلمها وعيناه في عينيها وهو يحتسي كأساً من المارتيني . كان الرجال يعترفون عادة للويس بالإغراء الفكري ، لكنه لم يعرف قط كيف يعجب النساء . وكان هناك جزع بخيل في الابتسامة التي كان يقدمها لماري آنج ، فيشعر المرء انه على استعداد لسحبها ما ان ستحدث اثرها . وكان يبدو عليه كأنه يقول : « أريدك ، لكن عجّلي بالاستسلام لأنني لا أملك وقتاً أضيعه » . وعلى بعد عدة خطوات منها ، كان لامبير يجتر في سحنة قـــاتمة . وتوقف هنري قربه ، وقال وهو يبتسم له :

– يا له من معرض !

كان يبحث في عينيه عن مشاركة لن يلقاها . وقال لامبير :

– نعم ، معرض غريب . ان نصف الناس الحاضرين هنا لا يطلبون إلا أن يذبحوا النصف الآخر . وهذا محتم ما دمت قد راعيت الطرفين .

– أتسمي هذا مراعاة لهم ؟ لقد سببت الاستياء للجميع .

فقال لامبير :

– الجميع ، هذا كثير . انه يلغي نفسه بنفسه . إن هذا النوع من الفضيحة ، لهو إعلان فحسب .

فقال هنري في لهجة مصالحة :

– أعرف ان هذه المسرحية لا تعجبك : لكن ليس هـذا سبباً لأن تكون سيىء المزاج .

فقال لامبير :

– آه ! لكن الأمر خطير !

– ماذا إذن ؟ حتى لو فرضنا أنها فاشلة ، هذه المسرحية، فليس هذا بالعظيم الخطورة .

فقال لامبير في لهجة مكظومة الغضب :

– الخطير هو أنك انحدرت الى هذا النوع من النجاح ! ذاك الموضوع الذي اخترته . الوسائل التي استخدمتها : هذا تملق لأحط غرائز الجمهور . إن لنا الحق في ان ننتظر منك شيئاً آخر .

فقال هنري :

– أنتم تسئمونني ! أنتم جميعاً هنا بانتظار أشياء مني : ان أدخل الى الحزب الشيوعي ، ان أحاربه ، ان أكون أجل جدية ، ان أكون أكثر جدية ، ان أتخلى عن السياسة ، ان أكرس لهـــا جسدي وروحي . وأنتم جميعاً خائبون ، وتهزون برؤوسكم لائمين .

– أتريد ان نمنع انفسنا من الحكم عليك ؟

فقال هنري :

– أريد ان يحكم عليّ حسب ما افعله ، لا على مـــا لا افعله . هذا غريب : عندما يبدأ الإنسان ، يستقبل في حسن نية ، ويعترف لك القراء بالجميل على ما اتيتهم بـــه من أشياء إيجابية . وفيما بعد ، لا يعود عليك إلا ديون ، دون أي اعتماد .

فقال لامبير في لهجة ودية قليلاً :

– لا تقلق ، إن النقد سيكون بالتأكيد ممتازاً .

فهز هنري كتفيه واقترب من لويس الذي كان يلقي خطاباً بصوت عنيف أمام ماري – آنج وآن . كان يبدو ثملاً تماماً . لم يكن يتحمل الكحول ، وكان هذا فدية تقشّفه . وكان يقول وهو يشير الى ماري – آنج :

– أنظري لي الى هذا الشيء ، انها تنام مع جميع الناس ، وتصبغ وجهها ، وتظهر ساقيها ، وتحشو ثدييها ، وتحتك بالرجال لتثيرهم : وفجأة تأخذ بتمثيل دور العذراء القديسة ...

فقالت ماري – آنج بصوت شاكٍ :

– لي على كل حال الحق بأن أنام مع من يعجبني .

فصاح لويس :

– الحق ؟ أي حق ؟ من أعطاها حقوقاً ؟ انهـا لا تفكر بشيء ، ولا تحس بشيء ، ولا تكاد تختلج ، وهي تطالب بحقوق ! هـــا هي ذي الديموقراطية ! انها لـ . . .

فقالت آن :

– والحق في شتم جميع الناس ، من أين جئت به ؟ انظروا لي الى هـــذا الشخص الذي يظن نفسه نيتشه لأنه يشتم امرأة !

فقال لويس :

– المرأة ، انما يجب ان نسجد امامها ! انت تتكلمين عن إلهة ! انهن يحسبن انفسهن إلهات ، لكن هذا لا يمنع انهن يبولن ويغوطن كجميع الناس .

فقال هنري :

– لقد شربت أكثر مما ينبغي ، انت فظ ، وتفعل حسناً اذا ذهبت لتنام .

فقال لويس بصوت يتلعثم :

– بالطبع ! انت تدافع عنهن ! فالنساء يشكلن جزءاً من مذهبك الانساني. انت تنام معهن مثـل أي انسان آخر ، فترميهن على ظهورهم وتصعد فوقهن ، ولكنك تحترمهن . شيء مضحك. هاته السيدات يرغبن كثيراً في فتح سيقانهن، لكنهن يرغبن في ان يُحترمن . هكذا الأمر ، أليس كذلك ؟ احترمني ، فأفتح ساقيّ .

فقال هنري :

– وان تكون قليل التهذيب ، أهذا يشكل جزءاً من مذهبك الصوفي ؟ اذا لم تطبق فمك فوراً ، فانني سأقودك . . .

فقال لويس وهو يبتعد في سحنة قاتمة :

– انت تستغل كوني قد شربت .

وقالت ماري – آنج :

– أهو غالباً هكذا ؟

فقالت آن :

– دوماً . كل ما هنالك انه من النادر ان يرمي قناعه . وهو ، هذا المساء ، مجنون غيرة .

وسأل هنري :

– أتريدين كأساً لتستعيدي هدوءك ؟

– نعم . لم اكن اجرؤ على الشرب .

وناول هنري ماري – آنج كأساً ، ولمح جوزيت واقفة امام بول التي كانت تحدثها بسرعة : كانت عيناها تطلبان النجدة . وذهب لينتصب بين المرأتين .

– تبدوان في مظهر جدي . عمّ اذن تتحدثان ؟

فقالت بول في شيء من التشنج :

– انه حديث امرأة لامرأة .

وأنـّت جوزيت :

– انها تقول لي انها لا تكرهني : لم افكر قط انك تكرهينني .

فقال هنري :

– هيا يا بول ! لا تكوني مؤثرة .

فقالت بول في ترفع :

– لست مؤثرة . كنت حريصة على شرح افكاري في وضوح . اني اكره الالتباس .

– ليس هناك أي التباس .

فقالت :

– هذا افضل .

وسارت نحو الباب في خطى متوانية . وقالت جوزيت :

– انها تخيفني . كنت انظر اليك لكي تأتي لتخليصي . لكنك كنت مشغولاً في مغازلة تلك السوداء الصغيرة ...

– كنت اغازل ماري – آنج؟ انا ؟ لكن يا عزيزتي: انظري اليها وانظري

الى نفسك .

– للرجال اذواق غريبة جداً» كان صوت جوزيت يرتجف : « تلك العجوز الكبيرة التي تشرح لي انك لها ابداً ، وانت تهزل مع فتاة معوجة الساقين ! » .

– جوزيت ، يا معبودي الصغير ! تعرفين جيداً انني لا احب سواك .

فقالت :

– ماذا اعرف ؟ هل نعرف ابداً ؟ » وقالت وهي تنظر حولها : « بعدي ستوجد غيري ، وربما كانت هنا » .

فقال في مرح :

– يخيل إليّ انني انا الذي يستطيع ان يشكو . لقد غازلوك كثيراً هذا المساء .

فارتجفت : « أتعتقد انني احب ذلك ؟ »

– لا تكوني حزينة ، لقد مثلت تمثيلاً جميلاً ، اقسم لك على ذلك .

– بالنسبة لفتاة جميلة ، لم اكن رديئة كثيراً .»وقالت في كآبة: « احياناً ، أود لو اكون قبيحة » .

فابتسم : « لا تسمعنك السماء » .

– اواه ! لا تخف ، انها لا تسمع شيئاً .

فقال مشيراً الى الحضور :

– اؤكد لك انك أدهشتهم .

– بخصوص هذا ، كلا ! انهم لا يندهشون لشيء ، فهم رديئون للغاية .

فقال :

– تعالي ، لنعد ، يجب ان تستريحي .

– أتريد العودة الآن ؟

– انت لا ؟

– اواه ! انا ، نعم . انني متعبة . انتظرني خمس دقائق .

وتبعها هنري بعينيه بينما كانت تقوم بالوداع بالدور ، وفكر : «هذا صحيح.

انهم لا يندهشون لشيء . ولا يمكن ان يثار انفعالهم ولا ان يثار سخطهم . وما يجري في رؤوسهم ليس له وزن اكثر من كلماتهم» . كانوا يستطيعون ، ما داموا ضائعين في أبعاد المستقبل ، او في ظلمة القاعة ، ان يحدثوا وهماً : لكن ما إن يراهم المرء وجهاً لوجه حتى يدرك أن ليس ثمة شيء يؤمل او يخاف منهم . نعم ، هذا ما يخيب اكثر من اي شيء آخر : لا ان يكون الحكم غير مؤكد ، لكن ان يلفظه هؤلاء الناس .. نهائياً، لم يكن لشيء مما حدث الليلة أية اهمية . ولم يكن لأحلام شبابه اي معنى . وحاول هنري ان يقول لنفسه : « انه ليس الجمهور الحقيقي » . ليكن ، فمن حين لآخر ، سيوجد في القاعة بعض رجال ، بعض نساء ، يستحقون ان يتحملوا مشقة الكلام . لكنهم سيظلون معزولين . انه لن يواجه ابداً الجمهور الأخوي ، الذي يحتوي في قلبه على حقيقتك : فهو لا وجود له ، وعلى كل حال ، ليس في هذا المجتمع .

وقال وهو يجلس الى جانب جوزيت في سيارته الصغيرة :

— لا تكوني حزينة .

ودون ان تجيب ، أسندت رأسها الى ظهر مقعدها وأغمضت عينيها في سيماء من تعب . هل من الصحيح ان الجمهور قد استقبلها في تحفظ ؟ على كل حال كانت تعتقد ذلك . ولقد كان يود كثيراً لو انها شعرت انها منتصرة، على الأقل ، مساء واحداً ! كانا يجريان في صمت في الشارع الصغير وتجاوزا امرأة كانت تسير بخطى عريضة . وتعرف هنري على آن وأبطأ :

— أتصعدين ؟ سأضعك انى تشائين .

فقالت :

— شكراً . أرغب في المشي .

ووجهت اليه إشارة ودية صغيرة وداس على جهاز السرعة : لقد رأى دموعاً في عينيها . وفكر : « لماذا ؟ من أجل لا شيء بدون شك ، ومن أجل كل شيء » . كان متعباً هو الآخر من هذه السهرة ، ومن الآخرين ، ومن نفسه . وقال في نفسه في ضيق مفاجىء : « ليس هذا ما أردته ! » ، دون ان يعرف

هل كان يفكر بدموع آن ، أم بوجه لامبير المتجهم ، أم بخيبة جوزيت ، أم بالأصدقاء ، بالأعداء ، بالغائبين ، بهذا المساء ، بهاتين السنتين ، أم بحياته كلها .

قال هنري في نفسه : « يا للصيد ! » . عندما ترمي بكتاب ليكلأه النقاد ، فانهم يعضون الواحد تلو الآخر ، واذا رميت بمسرحية ، فأنت تتلقى دفعة واحدة على وجهك ذلك الوحل الذي تمتزج فيه الزهور بالبصاق . وكان فيرنون مسروراً : حتى مقالات الشتم ستخدم نجاح المسرحية، لكن هنري كان ينظر الى قصاصات الصحف المنشورة على مكتبه في قرف يشبه الخجل . كان يتذكر كلمة قديمة لجوزيت ويفكر : « الشهرة أيضاً إذلال » . فرض الذات هو دوماً استسلام ، انحطاط . فقد كان لأي كان الحق في ان يركله بقدمه أو ينعم عليه بابتسامة . كان قد تعلم ان يدافع عن نفسه ، وكانت له حيله . كان يذكر في دقة وجوه المشنعين عليه : طامعين ، حاسدين ، فاشلين ، حمقى . ولم يكن الذين يهنئونه يزيدون أو ينقصون عن الآخرين قيمة ، كل ما هنالك ان عودتهم كان يمكن ان تعتبر تمييزاً، وبهذه الخدعة كانوا يأخذون قيمة كافية لتصبح تقاريظهم بدورها ذات قيمة . وقال هنري في نفسه : « ما أصعب خلوص النية ! » . والحقيقة انه لا الشتائم ولا المدائح تثبت شيئاً . والجرم فيها هو انها تسجن هنري في ذاته ، بشكل لا مهرب منه . لو كانت مسرحيته فشلاً نهائياً ، لاستطاع ان ينظر اليها كمجرد حادث عرضي ويتعزى عنا بالوعود . لكنه كان يتعرف نفسه فيها وكان يكشف فيها حدوده . أفضل ما كتبه » : كانت هذه الكلمات التي فاه بها دوبروي لا تزال تعذبه . لم يكن يُسر عندما يسمع ان كتابه الأول سيظل افضل كتبه جميعاً . لكن التفكير بأن هذه المسرحية ذات الصفات غير المؤكدة تعلو على جميع آثاره ، لم يكن مريحاً هو الآخر . لقد شرح ذات يوم لنادين انه يتجنب ان يقارن نفسه . لكن ثمة لحظات يرغم فيها على ذلك . ويرغمك الآخرون . وعندئذ يبدأ الانسان يطرح الأسئلة الباطلة على نفسه : « من أنا على الضبط ؟ ما قيمتي ؟ » . هذا مقلق ، هذا لا مجدٍ : وان كان من الجبن ، من الجائز ، ألا يطرحها على نفسه أبداً . وفي ارتياح، سمع هنري

طقطقة أرض الممر . وقال سامازيل :

– يمكننا الدخول ؟

وكان لوك ولامبير وسكرياسين يتبعونه .

– انتظركم .

كانوا جميعاً يبدون ، باستثناء لوك الذي كان يجر في سحنة نائمة قدميه الكبيرتين المصابتين بالنقرس ، وكأنهم جاءوا يطلبون حسابات وجلسوا حول المكتب . وتابع هنري :

– اعترف انني لا افهم جيداً معنى هذا الاجتماع . كنت ذاهباً الى عند دوبروي تواً . .

فقال سامازيل :

– بالضبط . يجب ان يُتخذ قرار قبل ان تجتمع به . عندما حدثته ، بدا كثير التحفظ . انا مقتنع انه سيطلب تأجيلاً جديداً . في حين ان بيلتوف وسكرياسين يطلبان عملاً سريعاً ، وانا موافق تماماً . اريد ان يكون من المقرر ، في حال المعارضة من طرف دوبروي ، ان الجريدة ستنفصل عن « الاشتراكي الثوري الحر » وتتولى بدونه نشر الوثائق .

فقال هنري في جفاء :

– سواء قال دوبروي نعم او لا ، فسوف نرفع المسألة امام مجموع اللجنةالتي سنعمل بموجب رأيها .

– اللجنة ستتبع دوبروي .

– سأتبعه اذن ايضاً . على كل ، لا أدري لماذا نضيع الوقت في المناقشة قبل ان نعرف جوابه .

فقال سامازيل :

– لأن جوابه مكشوف مسبقاً . سيتخذ من الاستفتاء والانتخابات ذريعة ليتهرب .

فقال هنري :

– سأحاول ان أمنعه . لكني لن اتخلى عن تضامني مع « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال سامازيل :

– ألا يزال « الإشتراكي الثوري الحر » وجود ؟ ها قد مضت ثلاثة أشهر وهو نائم .

فقال سكرياسين :

– منذ ثلاثة اشهر لم يفعل « الاشتراكي الثوري الحر » شيئاً ليعرقل الهجوم الشيوعي. ومنذ ثلاثة اشهر لم يهاجم دوبروي من قبل الصحافة الشيوعية. ولهذا سبب طيب يلقي على الموقف نوراً جديداً تماماً . وسكت سكوتاً مسرحياً : « دوبروي مسجل في الحزب الشيوعي منذ نهاية حزيران » .

فقال هنري :

– هيا اذن !

فقال سكرياسين :

– لديّ براهين ؟

– أي براهين ؟

– لقد شوهدت بطاقته وإضباراته . » وابتسم سكرياسين ابتسامة راضية : « منذ ١٩٤٤ ، وجد في الحزب مجموعة من الاشخاص ليسوا ، في الحقيقة ، ستالينيين اكثر مني او منك ، وقد بحثوا عن وسيلة ليفكوا الحصار عنهم . وانا أعرف أكثر من شخص من هذا النوع ، وفي باطنهم لا يطلبون الا ان يتكلموا . ودوبروي مشبوه عندي منذ زمن بعيد . وقد طرحت أسئلة واجابوني » .

فقال هنري :

– وشاتك اخطأوا او كذبوا . لو أراد دوبروي ان يتسجل في الحزب الشيوعي ، لبدأ بمغادرة « الاشتراكي الثوري الحر » ، شارحاً السبب .

فقال سامازيل :

– لقد حرص دوماً على ألا يصبح « الاشتراكي الثوري الحر » حزباً . والشيوعي يستطيع مبدئياً ان ينضم الى حركة . وبالعكس : ان عضو الحركة

يستطيع ان يظن ان له الحق في الانتساب الى الحزب الشيوعي .

فقال هنري :

– لكنه ، في النهاية ، كان سيخطرنا . فالحزب الشيوعي ليس سرياً .

فقال سكرياسين :

– انت لا تعرفهم ! ان للحزب الشيوعي مصلحة في ان يعتبر النـاس بعض أعضائه مستقلين . والدليل انني لو لم أفتح عينيك ، لوقعت في الفخ .

فقال هنري :

– لا اصدقك .

فقال سكرياسين :

– أستطيع ان أجمعك بأحد الذين يمدونني بالمعلومات .

ومد يده نحو التلفون . فقال هنري :

– سأطرح السؤال على دوبروي وعليه وحده .

فقال سكرياسين :

– وهل تتخيل انه سيجيب بشرف ؟ إما انك ساذج ، وإما ان لك اسباباً خاصة بك للتهرب من الحقيقة .

فقال سامازيل :

– اعتقد ان هذه الحقيقة الجديدة تقلب علاقاتنا مع « الاشتراكي الثـوري الحر » .

فقال هنري :

– انها ليست حقيقة .

فقال لوك :

– ولماذا يقوم دوبروي بهذه المناورة ؟

فقال سكرياسين :

– لأن الحزب الشيوعي يطلب اليه ذلك ولأنه طموح .

فقال سامازيل :

— لعله يعتقد بسبب الشيخوخة ان سعادة البشرية بين يدي ستالين .

فقال سكرياسين :

— انه ثعلب عجوز يقدر ان الشيوعيين قد ربحوا وانه من الأفضل ان يقف الى جانبهم ، وبمعنى ما ، انه على حق ، فلا بد ان تكون محباً للاستشهاد حتى تحتفظ بموقف منتقد دون ان تفعل شيئاً لمنعهم من الوصول الى الحكم : وعندما سيصلون اليه ، سترى ان عدم المنطق هذا سيكلفك .

فقال هنري :

— ان هذه الاعتبارات الشخصية لا تؤثر علي .

فقال لامبير :

— ومعسكرات العمل ، هل تؤثر عليك أم لا ؟

— هل رفضت ان اتكلم عنها ؟ لقد قلت انني سأفعل ذلك بالاتفاق مع دوبروي ، هذا كل شيء . وهذه كلمتي الأخيرة . ان هذه المناقشة باطلة تماماً .

وقال هنري وهو يلتفت نحو سكرياسين : « من الآن الى يومين او ثلاثة ستكون اللجنة قد استشيرت وسنبلغك جوابها » .

فقال سامازيل وهو ينهض :

— ربما ستقدم ادارة « الأمل » جواباً آخر .

— هذا ما سنراه .

وساروا نحو الباب لكن لامبير لبث واقفاً امام مكتب هنري ، وقال :

— كان عليك ان تقابل مخبر سكرياسين . ان دوبروي صديقك. لكنه ايضاً المسؤول الرئيسي عن حزبك . وبحجة انك تثق به ، تخون الثقة التي وضعها آخرون فيك .

فقال هنري :

— لكن هذه حكاية تجعل الانسان ينام وهو واقف ، هذه القصة !

في الحقيقة ، لم يكن واثقا الى هذا الحد . اذا كان دوبروي قد قرر نهائياً ان يتسجل في الحزب الشيوعي ، فإنه ما كان ليستشير هنري . كان يمضي في

طريقه دون ان يستشير احداً ، دون ان يهتم لأحد ، ولم يكن هنري ليتملل بالأوهام حول هذه النقطة . لو سد عليه كل منفذ ، لربما تردد في الكذب . لكن لم يطرح عليه بعد أي سؤال ، وكان ضميره يكتفي دون ادنى شك بتقييد عقلي .

وقال لامبير في حزن :

– ستترك نفسك تخدع بسفسطاته . أما بالنسبة لي ، فانني أقدر أن عدم كشف الحقيقة كاملة ، وفوراً ، في هذه الحالة ، لهو جريمة . لقد حذرتك في حزيران : اذا لم تنشر هذه النصوص ، فانني سأبيع حصصي ، وستتصرف بها كما تشاء . فعندما دخلت الى الجريدة ، انما كان ذلك بأمل ان تتخلى قريباً عن أي تعاون مع الحزب الشيوعي . فاذا ما تابعت ، فليس علي إلا ان اذهب منها .

– انني لم أتعاون مع الحزب الشيوعي .

– انني ادعو هذا تعاوناً. لو كان الامر يتعلق باسبانيا، باليونان ، بفلسطين، بالهند الصينية ، لرفضت من اليوم الأول ان تلزم الصمت . أخيراً ، أتدرك ذلك ! انهم ينتزعون رجلاً من اسرته ، من حياته دون ظل من حكم ، ويرمونه في سجن ، ويرغمونه على العمل حتى اقصى حدود قوته، وهم لا يكادون يقدمون اليه ما يسد الرمق ، واذا ما سقط مريضاً ، فانهم يتركونه يموت جوعاً . أتقبل بهذا ؟ جميع الاشخاص ، العمال ، المسؤولين ، الجميع يعرفون ان هذا يمكن ان يحدث لهم بين دقيقة واخرى ، وهم يعيشون وهذا الرعب فوق رؤوسهم . وكرر لامبير : « أتقبل بهذا ؟ » .

فقال هنري :

– لكن لا !

– اذن اسرع بالاحتجاج . تحت الاحتلال ، لم تكن ليناً مع الناس الذين ما كانوا يحتجون !

فقال هنري في نفاد صبر :

– سأحتج ، هذا مفهوم .

فقال لامبير :

– قلت انك ستتبع دوبروي . ودوبروي سيعارض هذه الحملة .

فقال هنري :

– انت مخطىء . انه لن يعارضها .

– لنفترض انني لا أخطىء ؟

فقال هنري :

– آه ! يجب أولاً ان اكلمه ، ثم سنرى فيما بعد .

فقال لامبير وهو يسير نحو الباب :

– نعم ، سنرى !

واصغى هنري الى وقع خطاه وهو يتلاشى في الممشى : كان يخيل اليه انه شبابه الخاص الذي جاء يناديه . لو كان رآهم بعينيه وهو في العشرين ، اولئك الملايين من العبيد المسجونين خلف الاسلاك الشائكة ، لما فكر لحظة واحدة في ان يصمت . ولقد نفذ لامبير الى أعماقه ورأى : كان يتردد . لماذا ؟ كان ينفر من ان يبدو عدواً في أعين الشيوعيين . وبشكل اعمق من ذلك ، كان يود لو يخفي على نفسه ان في الاتحاد السوفياتي شيئاً منتناً : لكن هذا كله كان جبناً . ونهض ونزل في الدرج . وفكر : « ان للشيوعي الحق في ان يختار الصمت . فمواقفه المسبقة صريحة ، وحتى عندما يكذب ، فانه بمعنى ما لا يخدع أحداً . لكن انا الذي يجاهر بالاستقلال ، اذا ما ستغللت اعتمادي لخنق الحقيقة ، فانني محتال . انني لست شيوعياً ، بالضبط لأنني اريد ان اكون حراً في قول ما لا يريد وما لا يستطيع الشيوعيون ان يقولوه : انه دور جاحد غالباً ، لكنهم في الحقيقة يعترفون بفائدته بأنفسهم . يقيناً ان لاشوم مثلاً سيحمد لي انني تكلمت : هو ، وجميع الذين يتمنون الغاء المعسكرات دون ان يكون مسموحاً لهم بالاحتجاج علناً ضدها . ومن يدري ؟ لعلهم سيحاولون بصفة غير رسمية شيئاً ما . ولعل ضغطاً قادماً من الأحزاب الشيوعية نفسها سيقود الاتحاد السوفياتي

الى تعديـــل نظام العقوبات : فليس الأمر سواء ان يضطهد البشر سراً او امام العالم . وصمتي لن يكون الا من قبيل اختيار الهزيمة . ومعنـاه انني ارفض ان انظر الى الأشياء من وجهها ، وان انكر ان بالامكان تغييرها، في آن واحد. معناه ادانة الاتحاد السوفياتي نهائياً بحجة عدم الحكم عليه . واذا لم يكن هنـاك حقاً اي حظ في ان يصلح ما كان يجب ان يكون عليه ، فما عـــاد على الأرض وجود لأي أمل ، وما عاد لما نفعله ، ولما نقوله ، أي اهمية . وكان هنري يردد في نفسه وهو يرتقي درج دوبروي : « نعم : أما أن للكلام معنى ، واما ان ما من شيء له معنى . يجب ان أتكلم . اللهم ان لم يكن دوبروي عضواً فعلياً في الحزب ، فانه مرغم على ان يكون من هـذا الرأي » . وضغط هنري على زر الجرس : « اذا كان دوبروي متسجلاً ، فهل سيقول لي ذلك ؟ » .

وقال دوبروي :

– اذن الحال على ما يرام ؟ كيف تسير المسرحية ؟ ان النقد ، في مجموعـه ، طيب جداً ، كلا ؟

وشعر هنري ان هذا الصوت الودي زائف الوقع : ربما لأن شيئاً مـــا في داخله كان زائف الوقع . وقال :

– انه طيب » وهز كتفيه : « سأقول لك انهـا صدعت رأسي ، هـــذه المسرحية . كل ما اطلبه هو ان استطيع التفكير بشيء آخر » .

فقال دوبروي :

– انني اعرف هذا ! يوجد شيء مـــا مقبض للقلب في النجاح . وابتسم : « اننا لا نكون مسرورين ابداً : والفشل ليس لطيفاً أيضاً » .

وجلسنا في المكتب وتابع دوبروي :

– حسناً لدينا شيء آخر نتحدث عنه .

فقال هنري :

– نعم . وانا اكاد افقد الصبر لمعرفة ما تفكر به . لكني مقتنع حاليـاً ان بيلتوف ، بخصوص ما هو اساسي ، قد قال الحقيقة .

فقال دوبروي :

– بخصوص ما هو أساسي ، نعم . ان تلك المعسكرات موجودة . انها ليست معسكرات موت كمعسكرات النازيين ، لكنها على كل حال معتقلات . وللبوليس الحق في ان يرسل الرجال الى المعتقلات لمدة خمسة أعوام ، دون حكم. لكني ، بعد هذا ، اود لو أعرف عدد المعتقلين ، وعدد السياسيين منهم، وعدد المحكومين مؤبداً منهم : ان ارقام بيلتوف تعسفية تماماً .

فوافق هنري برأسه وقال : « برأيي ، يجب علينا الا ننشر تقريره . سوف نثبت معاً الوقائع التي تبدو لنا اكيدة ونكتب استنتاجاتنا الخاصة وسوف نتكلم باسمنا ، مع التحديد التام لوجهة نظرنا » .

فنظر دوبروي الى هنري : « رأيي انا ، أن لا ننشر شيئاً مطلقاً. وسأشرح لك لماذا ...» .

وأحس هنري بصدمة صغيرة في قلبه . وقال في نفسه : « هكذا فإن الآخرين هم الذين تبينوا الحق » وقاطع دوبروي : « أتريد ان تخنق القضية؟».

– انت تعرف جيداً انها لن تخنق، فالصحافة اليمينية ستعرف كيف تستغلها، فلنترك لها هذه المسرة: «ليس علينا نحن ان نفتح دعوى ضد الاتحاد السوفياتي». وبدوره ، اوقف هنري بحركة : « مهما اخذنا من احتياطات خيالية ، فإن ما سيراه الناس حتماً في مقالاتنا هو اتهام للنظام السوفياتي . ولا أريد هذا بأي ثمن » . ولزم هنري الصمت . كان دوبروي قد تكلم في لهجة قاطعة . لقد تم حصاره ، ولن يتزحزح عنه ، ولا فائدة من النقاش . لقد اتخذ قراراته بمفرده ، وسوف يفرضها على اللجنة : لن يكون على هنري إلا ان يخضع لها في وداعة . وقال :

– يجب ان اطرح عليك سؤالاً .

– هيا ..

– ثمة أناس يزعمون انك تسجلت مؤخراً في الحزب الشيوعي .

فقال دوبروي :

– يقولون هذا ؟ من ؟

– انها شائعة تنتشر .

فهز دوبروي كتفيه : « وهل اخذتها بعين الجد ؟ » .

فقال هنري :

– ها قد مضى شهران على آخر حديث لنا . ولا افترض انك كنت سترسل لي بطاقة إبلاغ .

فقال دوبروي في حدة :

– يقيناً انني كنت سأرسل بطاقات إبلاغ . هذا غير معقول: كيف يمكنني ان أتسجل دون ان اخطر « الاشتراكي الثوري الحر » ودون ان أشرح علناً اسبابي ؟

فقال هنري :

– كان يمكنك ان ترجىء هذا الشرح بضعة أسابيع .»واضاف بسرعة : « يجب ان أقول ان هذا كان سيدهشني ، لكني اردت على كل حال ان اطرح عليك السؤال » .

فقال دوبروي :

– تلك الشائعات كلها ! ان الناس يقولون اي شيء كان .

كان يبدو صادقاً : لكن هذا ما كان سيبدو عليه او انه كذب . وفي الحقيقة ، لم يكن هنري يفهم لمَ يكون قد فعل ذلك . ومع ذلك فقد كان سكرياسين يبدو واثقاً مطلق الثقة مما كان يقوله . وقال هنري في نفسه : « كان يجب ان ارى ذلك المخبر » . ان الثقة لا تقلد : فنحن نملكها او لا نملكها . ولقد كان رفضه بادرة كاذبة النبل لأنه لم يعد واثقاً بدوبروي. وتابع بصوت حيادي:

– في الجريدة ، الجميع متفقون على كشف الحقيقة . ولقد قرر لامبير ان يترك « الأمل » إذا لم نتكلم .

فقال دوبروي :

– لن تكون خسارة كبيرة .

– سيجعل هـــذا الموقف دقيقاً للغاية ، باعتبار أن سامازيل وتراريو على استعداد للانفصال عن « الاشتراكي الثوري الحر » .

ففكر دوبروي ثانية ، وقـال : « حسناً ! إذا ذهب لامبير ، فإنني اشتري حصصه » .

– انت ؟

– الصحافة لا تستهويني . لكن هذه أفضل طريقة للدفاع عـــن أنفسنا . ستقنع لامبير بالتأكيد ببيعي حصصه . اما المال فسوف أتدبره .

وظل هنري محتاراً . لم تكن هذه الفكرة تعجبه ، مطلقاً . وفجـأة هبط عليه الوحي . « انها ضربة مدبرة ! » . لقد أمضى دوبروي الصيف مع لامبير ، وهو يعرف ان هذا الاخير يستعد للاستقالة . كان كل شيء يصبح منسجماً تماماً . لقد عهد الشيوعيون الى دوبروي بعرقلة حملة محرجة لهم ، وبإلحاق « الأمـل » بهم بالتغلغل في إدارة الجريدة . ولم يكن يستطيع ان ينجح إلا إذا اخفى بعناية انتسابه الى الحزب .

وقال هنري في جفاء :

– ليس هناك إلا شيء واحد لا يسير . وهو انني انا ايضاً اريد الكلام .

فقال دوبروي :

– أنت مخطىء ! ادرك هـــذا . إذا لم يكن الاستفتاء والانتخابات نصراً لليسار ، فإننا نجازف بدكتاتورية ديغولية : ليس هـــذا اوان خدمة الدعاية المعادية للشيوعيين .

فتفرس هنري في وجه دوبروي . لم تكن المسألة معرفة هل هو صادق النية ام لا . وسأل :

– وبعد الانتخابات ، هل ستوافق على الكلام ؟

فقال دوبروي :

– في ذلك الحين ، ستكون القضية قد كشفت ، على كل الاحوال .

فقال هنري :

– نعم ، سيكون بيلتوف قد حمل معلوماته الى « الفيغارو » ، وهـذا يعني ان مصير الانتخابات ليس هو موضع الرهـان ، بل موقفنا الخاص فقط . ومن وجهة النظر هذه ، لا أرى ما الفائدة من تركنا اليمين يبـاده . سنرغم على كل حال على تحديد موقفنا : فماذا سنفعل ؟ سنحاول ان نخفف من حدة الهجومات المعادية للشيوعية دون ان نعطي الحق في صراحة الاتحاد السوفيـاتي ، وسنبدو كأحجار لعب زائفة . .

فقاطع دوبروي هنري : « أعرف جيداً ما ستقوله . ان قناعتي هي ان هذه المعسكرات لا يتطلبها النظام كما يزعم بيلتوف . إنها مرتبطة بسياسة معينـة يمكن ان ننتقدها دون ان نتهم النظـام نفسه . سنفرق بين الشيئين . سندين العمل الإصلاحي ، لكننا سندافع عن الاتحاد السوفياتي » .

فقال هنري :

– لنفترض هذا . ولكن من الواضح انه سيكون لكلماتنـا وزن أثقل إذا كنا اول من يفضح المعسكرات . وعندئذ لن يستطيع احد ان يفكر اننا نلقي درساً محفوظاً . سوف يصدقنا الناس وسنقطع العشب تحت اقـدام الشيوعيين : انهم هم الذين سيظهرون بمظهر الانصار عندما سيحملون علينا .

فقال دوبروي :

– اوه ! هذا لن يغير من الأمر شيئاً ، وسوف يصدقهم الناس على كل حال. وسيأخذون من تدخلنا حجة : حتى المناصرون قد ثار استنكارهم الى حـد انهم تحولوا ضد الاتحاد السوفياتي ، هذا ما سيقولونه ؟ وهذا سيزرع الشك في نفوس الناس الذين ما كانوا ليمشوا معهم بدون هذا .

فهز هنري رأسه : « يجب على اليسار بنفسه ان يأخذ بيده هـذه القضية . لقد تعود الشيوعيون على افتراءات اليمين ، وهي لا تحرك منهم ساكنـاً . لكن إذا ثار اليسار كله ، عبر اوروبا كلها ، ضد المعسكرات ، فإن هذا يمكن ان يبلبلهم . ان الموقف يتبدل عندما يصبح سر ما فضيحة : وقد ينتهي الأمر بالاتحاد السوفياتي إلى إعادة النظر في نظام عقوباته ... » .

فقال دوبروي بصوت محتقر :

– هذا ، ليس إلا حلماً !

فقال هنري في غضب :

– اسمع ، لقد قبلت دوماً بأننا نستطيع ان نمارس بعض الضغط على الشيوعيين : هذا هو معنى حركتنا بالذات . هي ذي الفرصة لمحاولة العملية او لن تتاح لنا أبداً . حتى ولو لم يكن لنا الا حظ قليل في الوصول ، فيجب أن نجازف به .

فهز دوبروي كتفيه : « إذا شننا هذه الحملة ، فاننا سنجرد انفسنا من كل امكانية للعمل مع الشيوعيين : سوف يصفوننا كمعادين للشيوعية ، ولن يكونوا مخطئين » . وتابع دوبروي : « انظر ان الدور الذي نحاول ان نلعبه ، هو دور أقلية معارضة ، خارجية عن الحزب ، لكنها متحالفة معه . وإذا ما توجهنا الى الأغلبية لمحاربة الشيوعيين حول أي نقطة كانت ، فإننا لن نعود معارضة : سندخل في حرب ضدهم ، وسنغير معسكرنا . وسيكون لهم الحق في معاملتنا كخونة » .

وتفرس هنري في وجه دوبروي . انه ما كان ليتكلم بطريقة أخرى لو كان شيوعياً مكتوماً . كانت مقاومته تثبت هنري في فكرته : إذا كان الشيوعيون يتمنون ان يظل اليسار محايداً ، فهذا يثبت ان له سيطرة عليهم ، إذن فإن لتدخله حظاً في ان يكون ناجعاً . وقال : « باختصار ، انت ترفض ، احتفاظاً بفرصة للتأر على الشيوعيين ذات يوم ، الفرصة التي تتقدم اليوم . ان المعارضة غير مسموح لنا بها إلا بمقدار ما تكون غير فعالة » . وأضاف بصوت حاسم : « حسناً ! انني لا اقبل بهذا . ان فكرة أن الشيوعيين سيبصقون علينا ليست ألطف علي مما هي عليك ، لكني فكرت كثيراً : ان لا خيار لنا » . وأوقف دوبروي بحركة : انه لن يترك له الكلام قبل ان يفرغ جعبته : « الا تكون شيوعياً أو ، فهذا يعني شيئاً ما أو لا يعني شيئاً . فإذا لم يكن هذا يعني شيئاً ، فلنصبح شيوعيين أو هيا لنزرع ملفوفنا . وإذا كان لهذا معنى ، فهذا يتضمن

بعض واجبات : ومن بينها ان نعرف عند الحاجة ان نتخاصم مع الشيوعيين . أما مراعاتهم بأي ثمن ، دون الانضمام اليهم صراحة ، فهذا يعني اختيار اسهل راحة اخلاقية ، انه جبن » .

كان دوبروي يربت على نشافته في نفاد صبر ، وقال :

– ان هذه اعتبارات شخصية لا تؤثر علي . انني اهتم بنتائج اعمالي ، لا بالوجه الذي تعطيني إياه .

– ليست المسألة مسألة وجه ...

فقال دوبروي في حدة :

– بلى ، ان صميم المشكلة هو انه يزعجك ان يبدو عليك انك تترك نفسك تؤخذ بتهديدات الشيوعيين ...

فتصلب هنري : « يزعجني بالفعل ان نترك انفسنا نؤخذ بتهديداتهم : فهذا مناقض لكل ما حاولناه منذ سنتين » .

كان دوبروي يتابع التربيت على نشافته في سيماء من حزم واضاف هنري بصوت جاف : « انت تضع المناقشة على صعيد غريب . انني استطيع ان اسألك لماذا تخاف الى هذا الحد من اغضاب الشيوعيين » .

فقال دوبروي :

– انني لا أبالي أأعجبتهم أم أغضبتهم . انني لا اريد ان اشن حملة معادية للسوفييت . وعلى الأخص ليس في هذا الوقت : انني لأجد هذا إجراماً .

فقال هنري :

– وأنا أجد ان من الأجرام ألا افعل ضد المعسكرات كل ما باستطاعتي . ونظر الى دوبروي : « كنت أفهم موقفك بشكل افضل بكثير لو كنت مسجلاً في الحزب . انني لأقبل بأن ينكر الشيوعي المعسكرات ، بل ان يدافع عنها » .

فقال دوبروي بصوت مغضب :

– قلت لك انني لست مسجلاً . أهذا لا يكفيك ؟ .

ونهض وخطا عدة خطوات عبر الغرفة . وفكر هنري : « كلا ، نهائياً هذا لا يكفيني . لا شيء يمنع دوبروي من الكذب عليّ في كلبيـة : فقد سبق له ان فعل ذلك . والاعتبارات الأخلاقية لا تؤثر عليه » . وقـال في نفسه في حقد : « لكني هذه المرة لن أتركه ينالني » .

كان دوبروي لا يزال يذرع الغرفة طولاً وعرضاً . هل شعر بارتياب هنري؟ ام كانت معارضته فقط هي التي تغضبه ؟ كان يبدو عليـه انه لا يكاد يضبط نفسه ، وقال : « حسناً ! ليس امامنا الا ان نجمع اللجنة . وقرارهـا سيبطل تعادل صوتينا » .

فقال هنري :

— سوف يتبعونك، انت تعرف ذلك جيداً !

فقال دوبروي :

— إذا كانت اسبابك جيدة ، فسوف تقنعهم .

فقال هنري :

— هيا إذن ! شارلييه وفيريكو يصوتان دومـاً معك ، ولونوار يركع على قدميه امام الشيوعيين . ان رأيهم لا يهمني .

فسأل دوبروي :

— إذن ماذا ؟ ستعمل ضد قرار اللجنة ؟

— إذا اقتضى ذلك ، نعم .

فقال دوبروي بصوت ابيض :

— أهو تهديد ؟ اما ان تترك حر اليدين او تنفصل «الأمل» عن « الاشتراكي الثوري الحر » ، أليس الأمر كذلك ؟

— انه ليس تهديداً . انني مزمع على الكلام ، وسوف أتكلم، هذا كل شيء.

فقال دوبروي :

— أتدرك ما تعنيه هذه القطيعة ؟ كان وجهه في بياض صوته : « انها نهاية « الاشتراكي الثوري الحر » وستنقل « الأمل » الى صف المعسـكر المعـادي

للشيوعية » .

فقال هنري :

— ان « الاشتراكي الثوري الحر » ، في الساعة الراهنة ، صفر ، و « الأمل» لن تصبح أبداً معادية للشيوعية ، اعتمد عليّ .

وتبادلا النظرات الثاقبة للحظة في صمت . وأخيراً قال دوبروي :

— سأجمع اللجنة فوراً . واذا وافقت معي ، فسوف ننكرك علناً .

فقال هنري :

— ستوافق . ومضى نحو الباب : « انكروني : سوف أرد عليكم » .

فقال دوبروي :

— فكر ايضاً . ان ما ستفعله ، يدعى خيانة .

فقال هنري :

— لقد فكرت وانتهيت .

واجتاز الدهليز وأطبق وراءه ذلك الباب الذي لن يعبره ثانية أبداً .

كان سكرياسين وسامازيل ينتظرانه في قلق في الجريدة .ولم يخفيا سرورهما مطلقاً . وخفت حماستهما عندمــا أعلن هنري لهما انه يزمع ان يتولى بنفسه ، في حرية كاملة ، كتابة المقالات عن المعسكرات فإما أن يقبلا بهذا ، وإمــا ان تطوى القضية . وحاول سكرياسين النقاش ، لكن سامازيل اقنعه بسرعـــة بالقبول . وبـــدأ هنري فوراً في العمــل . ووصف ، معتمداً على النصوص ، الخطوط الكبرى لنظام العقوبات في الاتحاد السوفياتي . ونوه بطابعــه الفاضح . لكنه اعتنى عناية كبيرة بالقول إن أخطاء الاتحاد السوفياتي لا تبرر بأي شكل أخطاء الرأسمالية من جهة اولى وان وجود المعسكرات يدين من جهة ثانية سياسة معينة ، لا النظام بأجمعه . فهي تمثل ، في بلاد تواجه اسوأ المصاعب الاقتصادية، حلاً سهلاً بدون شك . ومن الحق لنا ان نأمل في زوالها . ولهذا يجب على جميع الذين يجسد الاتحاد السوفياتي بالنسبــة لهم أملاً ، بما فيهم الشيوعيون انفسهم ، ان يعملوا كل ما بإمكانهم لإلغائها . وكان مجرد كشف وجودهــا يغير الموقف .

وإنما لهذا شرع هنري في الكلام : فالصمت لن يكون إلا تهرباً وجبناً .

وظهر المقال في صباح اليوم التالي . وأعلن لامبير أنه مستاء منه للغاية . شعر هنري ان المناقشة حامية في قاعة التحرير . وفي المساء ، حمل رسول رسالة دوبروي التي تقول ان لجنة « الاشتراكي الثوري الحر » قد فصلت بيرون وسامازيل ، وان الحركة لم تعد لها أي علاقة بـ « الأمل » وكانت تنكر ان تستغل لحساب دعاية معادية للشيوعية وقائع لا يمكن ان يحكم عليها الا من خلال نظرة شاملة للنظام الستاليني ، وان الحزب الشيوعي يظل اليوم ، مهما كانت قدرته الحقيقية ، الأمل الوحيد للبروليتاريا الفرنسية ، وإذا ما اختار المرء ان يقلل من أهميته فهذا يعني انه يختار خدمة الرجعية . وكتب هنري فوراً رداً ، اتهم فيه « الاشتراكي الثوري الحر » بالاستسلام لإرهاب الشيوعية وخيانة برنامجه المبدئي .

وتساءل هنري في اليوم التالي في نوع من الذهول عندما اشترى « الأمل » : « كيف وصلنا الى هذا الحد ؟ » لم يكن يتمكن من إشاحة نظره عن الصفحة الاولى تلك . لقد كان ذا رأي ، ودوبروي ذا رأي آخر . ولقد حدثت ضجة اصوات ، وبعض حركات نافدة الصبر ، بين جدران أربعة : وفجأة كأن ينبسط ، تحت أنظار الجميع ، الأسود فوق الأبيض ، هذان العمودان المحشوان بالشتائم .

وقالت له سكرتيرته عندما قدم الى الجريدة حوالي الساعة الخامسة :

— التلفون لا يكف عن الرنين . ثمة سيد يدعى لونوار قال انه سيمر في الساعة السادسة .

— ستدعينه يدخل .

— وسوف ترى هذا البريد : انني لم انته حتى من تصنيفه .

وقال هنري في نفسه وهو يجلس امام مكتبه : « حسناً ! انها تثير حماسة الناس ، هذه القضية ! » . لقد ظهر المقال الأول البارحة ، وها هي مجموعة من القراء تهنئه ، وتشتمه ، وتندهش . وكانت هناك بطاقة برقية من فولانج :

« ايها العزيز العجوز ، انني اشد على يدك ». وكان جوليان ايضاً يهنئه في اسلوب مهذب مدهش تماماً. والمزعج انه يبدو على جميع الناس انهم يظنون ان « الأمل » ستصبح نسخة عن « الفيغارو » : لا بد من اعادة الأمور الى نصابها . ورفع هنري رأسه . كان باب المكتب قد فتح ، وكانت بول امامه . كانت ترتدي معطفاً قديماً من الفرو ، وكان وجهها وجه الأيام الرديئة . وقال هنري :

– أهي انت ؟ ماذا حدث ؟

فقالت بول :

– هذا ما جئت لأسألك عنه . وألقت على الطاولة بنسخة « الأمل » : « ماذا يحدث ؟» .

فقال هنري :

– حسناً ! هذا مشروح في الجريدة . لم يكن دوبروي يريد ان ينشر هذه المقالات عن المعسكرات السوفياتية ، ومع ذلك نشرتها ، وتخاصمنا . وأضاف في نفاد صبر : « كنت سأقص عليك الأمر غداً عند الغداء . لماذا جئت اليوم ؟ » .

– أهذا يزعجك ؟

– بل تسرني رؤيتك . لكني انتظر لونوار بين دقيقة وأخرى ، ولديّ عمل كثير . سأعطيك التفاصيل غداً : ليس الأمر عاجلاً كثيراً .

فقالت :

– بلى ، انه عاجل . انني بحاجة للفهم . لمَ هذه القطيعة .

– لقد قلت لك ذلك . وابتسم في اجتهاد : « لا بد انك مسرورة ، فقد كنت تتمنينها منذ زمن بعيد » .

فنظرت اليه بول في سحنة مهتمة : « لكن لمَ الآن ؟ ان المرء لا يتخاصم مع صديق له منذ ٢٥ عاماً لأنه على خلاف معه حول قصة سياسية تعيسة » .

– ومع ذلك ، فهذا ما حصل . وفي الحقيقة ، ان هذه القصة التعيسة هامة جداً .

فانقبض وجه بول : « انت لا تقول لي الحقيقة ».
ــ أؤكد لك ان اجل .
فقالت :
ــ منذ زمن بعيد لم تعد تقول لي شيئاً . اعتقد انني حزرت لماذا ؟ لهــذا جئت لأكلمك : يجب ان تعود لي ثقتك .
فقال :
ــ لك ثقتي كلها . وبعد ان تأكد لك ذلك ، فسوف نتكلم غداً . ليس لدي وقت الآن .
فلم تتحرك بول ، وقالت : « لقد اغضبتك اذ تفاهمت مــع جوزيت ، ذلك المساء ، انني اعتذر عن ذلك » .
ــ انما انا الذي يعتذر : لقد كنت سيىء المزاج ...
ــ على الأخص لا تعتذر ! ورفعت إليه وجهاً يرتجف ذلاً : « ليلة المراجعة العامة تلك وفي الايام التالية ، فهمت أشياء كثيرة . ليس هنــاك قياس مشترك بينك وبين سائر الناس ، وبينك وبيني . وانا اريدك كما قد حلمت بك لا كما انت حقاً ، فهذا يعني انني كنت افضل نفسي عليك . كان هذا خيلاء . لكنه انتهى. ليس هناك غيرك : وانا لست شيئاً . انني اقبل بألا أكون شيئاً ، انني اقبــل بكل شيء منك » .
فقال في حرج :
ــ اسمعي ، لا تتحمسي . انني اقول لك اننا سنتكلم غداً .
فقالت بول :
ــ ألا تعتقدني صادقة ؟ انها غلطتي . لقد كانت كبريائي كبيرة . ذلك لأن طريق التخلي ليس سهلاً . لكني الآن اقسم لك : انني لن اطــالب بشيء من اجلي . انت فقط موجود ، وتستطيع ان تطلب كل شيء مني .
وفكر هنري : « يا إلهي ! بشرط ان تذهب قبــل ان يأتي لونوار ! » . وقال بصوت عالٍ : « انني اصدقك . لكن كل ما اطلبه منك حالياً هو ان

تصبري حتى الغد وان تتركيني أعمل » .

فقالت بول بصوت عنيف :

— انت تسخر مني ! ولان وجهها من جديد : « اكرر عليك انني كلياً لك. ماذا استطيع ان افعل لأقنعك ؟ هل تريد ان اقطع احدى اذنيّ ؟ » .

فقال هنري وهو يحاول المزاح :

— وماذا سأفعل بها ؟

— ستكون علامة . وصعدت دموع الى عيني بول : « انني لا استطيع ان احتمل فكرة انك تشك في حبي ؟ » .

وانفرج الباب : « السيد لونوار . هل ادخله ؟ » .

— لينتظر خمس دقائق . وابتسم هنري لبول : « انني لا اشك في حبك . لكن كما ترين ، عندي مواعيد ، يجب ان تذهبي » .

فقالت بول :

— لن تفضل على كل حال لونوار عليّ ! من هو بالنسبة لك ؟ وانا ، احبك . كانت تبكي الآن بدموع كبيرة : « إذا كنت اعاشر الناس ، وإذا كنت قد حاولت الكتابة ، فهذا حباً بك » .

— أعرف جيداً .

— ربما قيل لك انني اصبحت مغرورة ، وانني لم أعد اعلق اهمية الا على عملي : إن الشخص الذي قال لك هذا مجرم . غداً ، سألقي الى النار بجميع مخطوطاتي ، تحت بصرك .

— سيكون هذا حماقة .

فقالت :

— سأفعل ذلك . واضافت في حدة : « سأفعل ذلك فوراً حين أعود » .

— لكن لا . ارجوك . هذا لا يفيد شيئاً .

فوهن وجه بول من جديد : « تقصد أن لا شيء يمكن ان يقنعك بحبي ؟ ».

فقال :

– لكني مقتنع به . انني مقتنع به بعمق .

فقالت باكية :

– آه ! انني اضجرك . ما العمل ! يجب مع ذلك ان يتبدد سوء التفاهم هذا !

– ليس هناك اي سوء تفاهم .

فقالت :

– هو ذاك ، انني اتابع ، اتابع إضجارك ولن تعود ترغب في رؤيتي !

ففكر في اندفاع : « كلا ، لم أعد أريد » . وقـال بصوت عالٍ : « يقيناً ان أجل » .

– سينتهي بـــك الأمر الى كرهي وستكون على حق . يكفي انني فعلت معك فصلاً ، انا !

– انت لا تفعلين معي أي فصل .

فقالت وهي تنفجر منتحبة :

– انت ترى جيداً ان بلى .

فقال بأعذب صوت :

– اهدئي ، يا بول . كان يتمنى ضربهـــا . واخذ يداعب شعرهـــا : « اهدئي » .

وتابع مداعبته طوال بضع دقائق وقررت اخيراً ان ترفع رأسها . وقالت :

– طيب ، انني ذاهبة . ونظرت اليه في قلق : « ستأتي للغداء غداً هـــذا وعد ؟ » .

– هذا قسم .

وقال في نفسه عندما اطبقت الباب وراءها : « ان لا أراها ثانية مطلقــاً ، هذا هو الحل الوحيد . لكن كيف أجعلها تقبل بالمال إذا لم أعد أراهــا ؟ . ان امرأة موسوسة لا تقبل بمعونة رجل إلا بشرط ان تفرض عليه حضورهـــا . سأتدبر أمري » . وقرر : « لكني لم أعد أريد ان أراها » .

وقال للونوار :

– اعذرني على انني جعلتك تنتظر .

وبدرت حركة صغيرة من يد لونوار : « هذا لا أهميـة له » . وسعل ، وكان أحمر اللون . لقد أعد دون شك كل كلمـة من هجوه ، لكن حضور هنري كان يفكك جمله : « انت تشك في موضوع زيارتي » .

– نعم . انت متضامن مع دوبروي وموقفي يصدمـك . لقد شرحت اسبابي : انني آسف على أنني لم أقنعك .

فقال لونوار :

– انت تقول انك لم تشأ ان تخفي الحقيقة عن قرائك . لكن عن اي حقيقة تتكلم ؟ كان قد وجد الكلمات الأساسية في خطابه ، وسوف يتدفق الباقي كلـه في سهولة . حقيقة ملتبسة حقيقة جزئية : كان هنري يعرف الأغنية . واستيقظ عندما تخلى لونوار عن عمومياته : « ان الاضطهاد البوليسي لا يلعب في الاتحاد السوفياتي غير الدور الذي يلعبه في البلدان الرأسمالية الضغط الاقتصادي . وإذا كان يلعبه بطريقة منظمة اكثر، فإنني لست ارى في هذا إلا مكاسب،ان نظاماً ليس العامل فيه مهدداً بالطرد ولا مسؤولاً عن الإفلاس مرغم على اختراع اشكال جديدة من العقوبات » .

فقال هنري :

– ليس بالضرورة هذه الاشكال . ولن تقارن بين ظروف العاطل عن العمل وبين ظروف العمال في المعسكرات .

– على الأقل ، إن حياتهم اليومية مضمونة . أنا مقتنع ان مصيرهم أقـل فظاعة مما تزعمه دعاية مغرضة. كما أننا ننسى ان عقلية الإنسان السوفياتي ليست عقليتنا : انه يجـد من الطبيعي مثلاً ان ينقل من مكان الى آخر حسب حاجات الإنتاج .

فقال هنري :

– مهما كانت عقليته ، فإنه مـا من إنسـان يجد من الطبيعي ان يُستغل ، ويُنقص غذاؤه ، ويُحرم من جميع حقوقـه ، ويسجن ، ويبلد بالعمل ، ويحكم

بالموت من البرد وداء الحفر والإنهاك . وفكر : « انهـا جميلة على كل حال السياسة ! » . وفي الحقيقة ما كان لونوار ليتحمل ان يرى ذبابة تتألم ومع ذلك ، كان يقبل في قلب مرح بفظاعات المعسكرات .

وقال لونوار :

— ما من أحد يريد الشر للشر . والاتحاد السوفياتي أقل من أي نظام آخر . فإذا كانوا يتخذون هذه التدابير ، فلأنها ضروريـة . واشتد احمرار لونوار : « كيف تجرؤ على ادانة مؤسسات بلد تجهل حاجاته ، ومصاعبه ؟ انهـا خفة لا تغتفر » .

— لقد تحدثت عنها ، هذه الحاجات وهـذه المصاعب . وأنت تعرف جيداً انني لم أدن النظام السوفياتي كتلة واحدة. لكن القبول به دفعة واحدة، بشكل أعمى ، فهذا جبن . انك لتبرر اي شيء كان بدعوى فكرة الضرورة هـذه . لكنها سلاح ذو حدين . فعندما يقول بيلتوف ان المعسكرات ضرورية ، فهذا ليثبت ان الاشتراكية طوبائية .

فقال لونوار :

— من الممكن أن تكون ضرورية اليوم دون ان تكون كذلك الى الأبد . انت تنسى ان الموقف في الاتحاد السوفياتي موقف حرب . والدول الاستعمارية لا تنتظر الا الوقت لتثب عليه .

فقال هنري :

— حتى ولو كان الأمر كذلك ، فما من شيء يثبت انها مؤقتة . ان مـا من أحد يريد الشر للشر ، ومع ذلك يحدث غالباً ان يفعل الناس ذلك بلا جدوى . انت لن تنكر انه في الاتحاد السوفياتي كما في أي مكان آخر ، قـد ارتكبت اخطاء : مجاعات ، ثورات ، مجازر كان يمكن ان تتجنب . حسناً ؟ انني أعتقد ان هذه المعسكرات ايضاً خطيئة . وأضاف : « أتعرف ، حتى دوبروي منهذا الرأي » .

فهز لونوار برأسه ، وقـال : « سواء اكانت ضرورة ام خطيئة ، فقـد

ارتكبت على كل حال عملاً سيئاً . فالهجوم على الاتحاد السوفياتي لا يبدل شيئاً مما يجري في الاتحاد السوفياتي وهو يفيد الدول الرأسمالية . لقد اخترت ان تعمل لحساب اميركا ولحساب الحرب » .

فقال هنري :

– لكن لا ! يمكننا ان ننتقد الشيوعية ، دون ان تسوء صحتها لذلك ، فهي أقوى من هذا .

فقال لونوار :

– لقد أثبت مرة أخرى انك لا تستطيع ان ترغب في ان تكون خارجاً عن الشيوعية دون ان تصبح موضوعياً معادياً للشيوعية . ليس هناك طريق ثالث . لقد كان محكوماً على «الاشتراكي الثوري الحر » منذ البداية اما بالتحالف مع الرجعية او الموت .

– اذا كان هذا ما تعتقده، فلم يبق عليك الا ان تتسجل في الحزب الشيوعي .

فقال لونوار :

– نعم ، هذا ما بقي عليّ ان افعله ، وهذا ما سأفعله . كنت حريصاً على ان يكون الموقف واضحاً : يجب ان تعتبرني من الآن فصاعداً خصماً .

فقال هنري :

– انني آسف لذلك .

وتبادلا للحظة النظرات الثاقبة وقال لونوار :

– الوداع اذن .

فقال هنري :

– الوداع .

نعم ، كان هذا احد الردود الممكنة : انكار الوقائع ، والأرقام ، والعقل والمنطق بفعل إيمان اعمى : كل ما يفعله ستالين يُفعل جيداً . وقال هنري في نفسه : « لونوار ليس شيوعياً : لهذا فانه يتطرف في الاخلاص » . ان ما كان يفيده ، هو ان يتكلم مع لاشوم ، أو مع أي شيوعي آخر ذكي وغير متعصب

وسأل فانسان :

ـ أرأيت لاشوم في الايام الاخيرة ؟

ـ نعم .

كان فانسان قد تحرك لقضية المعسكرات . وكان يعتقد في البداية انه لا يجب الكلام ، ثم انضم الى رأي هنري . وسأل هنري :

ـ ما رأيه بمقالاتي ؟

فقال فانسان :

ـ انه بالاحرى غاضب منك . انه يقول انك تمارس معاداة الشيوعية .

فقال هنري :

ـ آه ! والمعسكرات ؟ أهذا لا يحرجه ! ما رأيه بالمعسكرات ؟

فابتسم فانسان : « انها غير موجودة . انها مؤسسة ممتازة . انها ستختفي من نفسها » .

فقال هنري :

ـ انني ارى !

يقيناً ، ان الناس لا يحبون ان يطرحوا على انفسهم الاسئلة . انهم يتدبرون أمرهم جميعاً ليحافظوا على انظمتهم . وذهبت الشيوعية الى حد نظم المدائح بمؤسسة كانوا يعمدونها باسم : معسكرات الإنهاض والعمل الاصلاحي . ولم يكن خصوم الستالينية يرون في هذه القضية الا ذريعة لإثارة الاستنكارات الراسخة من جديد .

وقال سامازيل وهو يلقي بالبرقيات على مكتب هنري :

ـ مزيد من برقيات التهنئة !

واضاف في سيماء من غبطة :

ـ يمكننا ان نقول اننا أثرنا الرأي العام . واضاف : « سكرياسين ينتظر في الممشى . انه مع بيلتوف وشخصين آخرين » .

فقال هنري :

— مشروعه لا يهمني .

فقال سامازيل :

— يجب على كل حال ان تستقبلهم .

ووقّع اوراقاً كان قد وضعها أمام هنري : « وأود كثيراً لو تلقي نظرة على هذه المقالات المرموقة التي ارسلها لنا فولانج » .

فقال هنري :

— فولانج لن يكتب ابداً في « الامل » .

فقال سامازيل :

— يا للخسارة !

وانفتح الباب ، ودخل سكرياسين مبتسماً في سحنة مغرية : « ألديك خمس دقائق ؟ ان اصدقاءنا يفقدون الصبر . لقد أتيت بيلتوف ، وبينيت وهو صحفي اميركي أمضى خمسة عشر عامـاً كمراسل في موسكو ، ومولتبرج الذي كان لا يزال يناضل كشيوعي في فيينا يوم تركت الحزب . أأستطيع ان أدخلهم ؟ » .

— أدخلهم .

دخلوا ، وكانت نظرتهم مثقلة بالتأنيب ، سواء لأن هنري جعلهم ينتظرون ، وسواء لأن العالم لا يعطيهم حقهم . وبحركة ، دعـاهم هنري الى الجلوس وقال مخاطباً سكرياسين : « اخشى ان يكون هذا الاجتماع لا مجدياً تماماً . لقد بينت ذلك في المحادثات التي أجريناها وفي مقالاتي : انني لم اصبح معادياً للشيوعية . اما مشروعك ، فيجب ان تأخذه الى الاتحاد الديغولي ، وليس إلي » .

فقال سكرياسين :

— لا تحدثني عن ديغول . فعندما نال السلطة ، كان أول عمل له ان طـار الى موسكو : هذا شيء يجب الا ينسى .

وقال مولتبرج في تأنيب :

— لم يتح لك الوقت دون شك للنظر في إمعان الى برنامجنا . اننا أشخـاص يساريون . والحركة الديغولية مدعومـة بالرأسمالية الكبيرة ولا مجال لنتحالف

معها . اننا نريد ان نجمع ضد الحـــكم الروسي القوى الحيـة للديموقراطية .
وبحركة مجاملة أبعـد اعتراضات هنري : « انت تقول انك لم تصبح معـــادياً للشيوعية : لقد كشفت بعض الاستغـلال وانت لا تريد ان تذهب أبعد من ذلك . لكنك في الحقيقـــة لا تستطيع ان تتوقف في منتصف الطريـق : ان التزامنا يجب ان يكون مطلقاً ضد بلد يقوم على الحـكم المطلق » .

وعاد سكرياسين الى الكلام في حدة : « لا تقل لي انك بعيد جداً عنا . لقد أنشىء « الاشتراكي الثوري الحر » على كل حال لمنع أوروبا من السقوط في يدي ستالين . وانها لأوروبا المستقلة تلك التي نريدها نحن أيضاً . كل ما هنالك اننـا فهمنا انها لا تستطيع ان تتحقق دون معونة اميركا » .

فقال هنري :

– يا لها من قشة ! وهز كتفيه : اوروبا مستعمرة من قبل اميركا ، هـــذا بالضبط ما كان « الاشتراكي الثوري الحر » يريد ان يتجنبه ، بل كان هو أول اهدافنا ، لأننا لم نفكر قط بأن ستالين يأمل في ابتلاع أوروبا » .

فقال بينيت بصوت قاتم :

– انني لا أفهم هذا الحكم المسبق ضد أميركا . لا بد للانسان ان يكون شيوعياً كي لا يرى فيها الا حصن الرأسمالية : انها ايضاً بـلد عمالي كبير . وهي بلد التقدم ، والازدهار والمستقبل .

– انها البلد الذي يقف بشكل قياسي ، في كل مكان ، ودوماً ، الى جانب اصحاب الامتيازات : في الصين ، في اليونان ، في تركيا ، في كوريا ، عـم يدافعون ؟ انه ليس الشعب ، كلا ؟ انـــه الرأسمال ، الملكية الكبيرة . عندما افكر بأنهم يدعمون فرانكو وسالازار ...

كان هنري قد علم في هذا الصباح بالذات ان اصدقاءه البرتغاليين المسنين قـد أثاروا تمرداً كانت نتيجته تسعمئة معتقل .

وقال بينيت :

– انت تتكلم عن سياسة وزارة الخارجية . انت تنسى ايضاً أن هنـــاك

شعباً اميركياً . اننا نستطيع ان نشق بالنقابات اليسارية وبكل ذلك الجزء من الأمة الذي يحب باخلاص الحرية والديموقراطية .

فقال هنري :

– لم تعلن النقابات قط عن عدم تضامنها مع السياسة الحكومية .

فقال سكرياسين :

– يجب ان ننظر الى الأمور من الأمام . ان أوروبا لا تستطيع ان تدافع عن نفسها ضد الاتحاد السوفياتي الا بدعم من اميركا. واذا منعت اليسار الاوروبي من قبوله ، فلا بد ان يتوطد التباس مؤسف بين مصالح اليمين ومصالح الديموقراطية .

فقال هنري :

– اذا مارس اليسار سياسة يمينية ، فانه لا يعود يساراً .

فقال بينيت في لهجة مهددة :

– باختصار ، بين اميركا والاتحاد السوفياتي ، انت تختار الاتحاد السوفياتي؟

فقال هنري :

– نعم . ولم اخفِ ذلك قط .

فقال بينيت :

– كيف تستطيع ان توازن بين استغلال الرأسمالية الاميركية ، وبين فظاعة اضطهاد بوليسي . والتهب صوته ، واخذ يتنبأ ، وكان مولتبرج يدعمه ، بينما كان سكرياسين وبيلتوف يتكلمان بالروسية في بعبعة. لم يكن هؤلاء الرجال متشابهين بالمرة ، لكنهم جميعاً كانت لهم نفس النظرة الضائعة في حلم مطالب وفظيع يرفضون ان يستيقظوا منه ، وكانوا جميعاً يريدون انفسهم عمياً وصماً عن العالم ، يسيطر عليهم ماضٍ من الفظاعة ،. كانت اصواتهم جميعاً ، الحادة ، او الخطيرة ، أو الاحتفالية ، أو الساخرة ، تتكهن بالمستقبل . وربما كان أكثر ما يقلق في شهاداتهم ضد الاتحاد السوفياتي هو هذه السيماء المتشككة ، الغاضبة ، المطاردة ابداً ، التي علمتها التجربة الستالينية على أوجههم . وما كان يجب ان

تحاول إيقافهم عندما يأخـذون في إلقاء ذكرياتهم في وجهك . كانوا أذكى من ان يأملوا في انتزاع قرار بواسطة الحكايا المتتابعة : انما كانت بالأحرى ازمـة لفظية مفيدة لنظامهم الصحي الداخلي . وسكت بينيت فجأة ، وكأنه أنهك . وقال على حين غرة :

– لا أرى ما نفعله هنا !

فقال هنري :

– لقد حذرتكم من اننا سنضيع وقتنا .

ونهضوا . ونظر مولتبرج ملياً الى هنري في عينيه ، وقـال بصوت شبه حنون :

– لعلنا سنلتقي ثانية بأقرب مما تظن .

وعندما غادروا المكتب ، انبرى سامازيل : « من الصعب النقاش مع هؤلاء المتحمسين . والمؤلم أكثر من أي شيء آخر ، هو انهم يكرهون بعضهم بعضاً : فكل منهم يعتبر خائناً من بقي ستالينياً مدة أطول منـه قليلاً . والحقيقة انهم جميعاً مشبوهون . لقد ظل بينيت خمسة عشر عاماً في موسكو كمراسل : فلو كان ساخطاً ضد النظام الى الحد الذي يزعمه اليوم ، فيا له من جـبن ! » وختم كلامه في سحنة راضية : « انهم رجال موصومون » .

فقال هنري :

– ان لهم ، على كل حال ، شرف عدم ارادة التورط مع الديغولية .

فقال سامازيل :

– انهم يفتقرون الى الحس السياسي .

كان سامازيل قد سقط الى اليسار : ولم يكن يبدو له أي شيء طبيعياً أكثر من الانضمام الى اليمين ما دام لا يهتم الا بعدد مستمعيه لا بمعنى خطاباته . كان قد اقترح على هنري مقالات فولانج ، وكان يتكلم في مودة مترمتة عـن برنامج الاتحاد الديغولي . وكان هنري يتظاهر بأنه لا يفهم تلميحاته . لكنها كانت حيلة لا مجدية . إذ لم يتردد سامازيل طويلاً في المهاجمة صراحة . وقـال في سحنة

مفتوحة :

ستكون هناك مباراة جميلة لمن يريد مخلصاً ان يتشكل في يسار مستقل . أن سكرياسين على حق اذ يفكر ان اوروبا لن تستطيع ان توجـــد الا بدعم الولايات المتحدة الاميركية . ان دورنا هـو ان نجمع جميع القوى التي تعارض وقوع الغرب تحت النفوذ السوفياتي ، من أجل اشتراكية أصيلة : فلنقبل بالمعونة الاميركية ما دامت تأتينا من الشعب الاميركي ، ولنقبل بالتحالف مع الاتحاد الديغولي ما دام يمكن ان يُوجَّه نحو سياسة يسارية . هـــو ذا البرنامج الذي سأقترحه على أنفسنا .

كان يحدج هنري بنظرة قاسية وآمرة . وقال هنري :

— لا تعتمد عليّ لتنفيذه . سأتابع النضال بكل قواي ضـــد السيـاسة الاميركية . انت تعرف تماماً ان الديغولية هي الرجعية .

فقال سامازيل :

— أخشى ان تكون غير مدرك للموقف جيداً . فمهما تحط نفسك بالإحتياطات ، فها نحن قد صنفنا كمعادين للشيوعية . وهذا يحذف لنـــا نصف قرائنا . ان الحظ الوحيد للجريدة هو ان تكسب قراء غيرهم . ومن اجل هذا يجب الا نتوقف في منتصف الطريق : يجب ان نندفع في الاتجاه الذي اخـــذنا بالسير فيه .

فقال هنري :

— أي ان نصبح فعلياً جريدة معادية للشيوعيـــة . لا مجال لهذا . إذا كنا سنفلس ، فسوف نفلس ، لكن سنحتفظ دوماً بخطنا حتى النهاية .

ولم يجب سامازيل بشي . كان من البديهي ان تراريو من رأيه ، لكنه كان يعرف ان لامبير ولوك سيؤيدان هنري دوماً : لم يكن يستطيع شيئاً ضد هذا التحالف .

وسأل في غبطة بعد يومين :

— هل رأيت « السندان » ؟ والقى الجريدة الأسبوعية على مكتب هنري :

« إقرأها » .

فقال هنري في تراخٍ :

– وماذا من خاص في « السندان ؟ » .

فقال سامازيل :

– مقال للاشوم عنك . وكرر : « اقرأ » .

فقال هنري :

– سأقرأه فيما بعد .

وما أن غادر سامازيل المكتب ، حتى فتح الجريدة : « سقطت الأقنعة » ، كان هذا هو عنوان المقال . وكلما امعن في قراءته ، كان هنري يشعر ان حلقه ينقبض غضباً . كان لامبير يشرح عن طريق استشهادات مبتورة وملخصات مغرضة ان جميع آثار هنري تفضح حساسية فاشية وتخفي عقيدة رجعية . وكانت مسرحيته على الأخص إهانة للمقاومة . وإن لديه احتقاراً أساسياً لسائر البشر : والمقالات الكريهة التي نشرها في « الأمل » تثبت ذلك بوضوح . وكان سيكون أكثر شرفاً لو أعلن صراحة انه معادٍ للشيوعية بدلاً من ان يؤكد مودته تجاه الاتحاد السوفياتي في الوقت الذي يشن فيه حملة الافتراء تلك : ان فظاظة هذه الحيلة تظهر جيداً اي نظرة محتقرة ينظر بها إلى أقرانه . ولم تكن كلمات خائن ومباع مكتوبة بحبر اسود على الورق الأبيض ، لكنها كانت تقرأ بين السطور . وكان لاشوم الذي كتب هذا . لاشوم . كان هنري يراه من جديد وهو يلمع أرض استديو بول ، يوم كان يعيش متخفياً فيه . كان يراه في محطة ليون ، متدثراً بمعطف طويل اكثر مما ينبغي ، محرجاً من انفعاله لحظة الوداع . كانت سنابل عيد الميلاد تطقطق ، وكان يقول وهو جالس الى طاولة في « البار الأحمر » : « يجب ان نعمل جنباً الى جنب » « ثم بعد قليل ، في تلبك : « لم نهاجمك أبداً » . وحاول ان يفكر : « انها ليست غلطته . المذنب هو الحزب الذي اختاره عمداً لهذه المهمة » . ثم صعد غضب أحمر الى عينيه . كان هو نفسه الذي اخترع هذه الجمل واحدة واحدة واحدة : ان المرء لا يكتفي

بالطاعة ، بل يخلق ثانية . وكان عذره أقل من شركائه لأنـه كان يعلم جيداً انه يكذب . انه يعرف انني لست فاشياً وانني لن أصبح فاشياً أبداً .

ونهض . لا مجال للرد على هذا المقال : لم يكن لديه مـا يقوله غير ما يعرفه لاشوم سلفاً . وعندما لا يعود للكلمات من معنى ، فإن الشيء الوحيد الذي يبقى عليه ان يعمله ، هو أن يضرب . وركب سيارته . في هـذه الساعة ، لا بد ان يكون لاشوم في البار الأحمر . واندفـع هنري نحو البار الأحمر . ووجد فانسان الذي كان يشرب مع رفاق . لا أثر للاشوم .

— لاشوم ليس هنا ؟

— كلا .

فقال هنري :

— اذن لا بد ان يكون في « السندان » .

فقال فانسان :

— لست ادري . ونهض وتبع هنري نحو البـاب : « معك سيارتك ؟ انني ذاهب الى الجريدة » .

فقال هنري :

— لكني لست ذاهباً اليها . انني ذاهب الى « السندان » .

فخرج فانسان وراءه وقال : « دعك منه » .

فسأل هنري :

— أقرأت مقال لاشوم ؟

— قرأته . لقد أراني اياه قبل ان يطبعه . وتخاصمت معه . انها دناءة جميلة . لكن ماذا يفيدك ان تثير فضيحة ؟

فقال هنري :

— لا تأخذني الرغبة كثيراً في القتال . لكن هـذه المرة ، انها حاجة . ولا بأس اذا كنت سأثير فضيحة .

فقال فانسان :

– انت مخطىء . سيستفيدون من ذلك ، وسيذهبون الى أبعد ايضاً .

فقال هنري :

– الى ابعد ؟ لكنهم وصفوني بأنني فاشي . انهم لا يستطيعون الذهاب الى أبعد من هذا . وفتح باب السيارة . فأمسك فانسان ذراعه ، وقال :

– أتعرف ، عندما يقررون ان ينالوا من أحد ، فإنهم لا يتراجعون امام شيء ، ثمة نقطة ضعيفة في حياتك . وسوف يذهبون للبحث فيها .

فنظر هنري الى فانسان : «نقطة ضعيفة ؟ تريد أن تتكلم عن جوزيت وعن تلك الشائعات التي تشاع عنها ؟ » .

– نعم انت لا تشك في ذلك ، لكن جميع الناس مطلعون .

فقال هنري :

– على كل حال لن يجرؤوا .

– أتعتقد انهم سيحرجون ! وتردد: «لقد شتمت لاشوم كثيراً عندما أراني مقاله حتى انه حذف منه عشرة سطور . لكنه في المرة القادمة ، لن يتردد في الكلام » .

فلزم هنري الصمت . أيتها المسكينة جوزيت ، ما أشد قابليتك للأذى ! كان البرد يتغلغل في ظهره حين يتصورها وهي تقرأ تلك السطور العشرة التي حذفها لاشوم .

وجلس امام المقود : « اصعد . سنذهب الى الجريدة . لقد ربحت ». وشغل المحرك وأضاف : « اشكرك ! » .

فقال فانسان :

– ما كنت لأصدق هذا من لاشوم .

فقال هنري :

– لا من لاشوم ولا من شخص آخر . إن الهجوم على شخص في حياته الخاصة ، وبهذه الطريقة ، هذا على كل حال دنيء جداً .

فقال فانسان :

— هذا دنيء . وتردد : « لكن ثمة شيء يجب ان تفهمه : لم تعد لك حياة خاصة » .

فقال هنري :

— كيف ! بالتأكيد إن لي حياتي الخاصة ، وهي لا تعني أحداً غيري .

— انت رجل عام . وكل ما تفعله يصبح عاماً : وهـذا هو البرهان ! يجب ان تكون غير قابل للتهجم عليك ، على طول الخط .

فقال هنري :

— ليس هناك دفاع ممكن ضد الافـتراء . ومضيا لبعض الوقت في صمت ، وقال هنري : « عندما افكر انهم اختاروا لاشوم للقيام بهـذه المهمة . لاشوم بالضبط ! هذا تطرف » . واضاف : لا بد انهم يكرهونني !» .

فقال فانسان :

— انت لا تتصور انهم يحبونك .

ووصلا امام الجريدة . ونزل هنري من السيارة ، وقـال : « سأذهب لشراء بعض الأشياء . سأكون هنا بعد خمس دقائق »

لم يكن يريد ان يشتري شيئاً ، بل كان يريد ان يكون وحده خمس دقائق. ومضى على قدميه ، في استقامة أمامه . « انت لا تتـصور انهو يحبونك ! » . كلا ، لم يكن يتصور ذلـك . لكنه لم يكن يعرف مقدار كراهيتهم . كانت شعارات بالية قد عامت بين قلبه وشفتيه : خصم شريف ، قتـال نبيل . كانت كلمات مضت عليها قرون عدة . ولم يعد انسان يفهم معناها . كان يعرف ان الشيوعيين سيهاجمونه رسمياً : لكنه كان يقول في نفسه ان كثيرين سيحتفظون له في سرهم بتقديرهم، بل انه سيجعلهم يفكرون. وقال في نفسه : « في الحقيقة، انهم يكرهونني ! » كان يسير أمامه ، دونما هدف ، وكانت باريس جميلة وكئيبة مثل مدينة « بروج الميتة » ، تحت أشعة الخريف الذهبية المدخنة ، وكان الحقد في أعقابه . كانت تجربة جديدة فظيعة بما فيه الكفاية . وفكر هنري : « ان الحب لا يتوجه اليك أبداً كلياً، والصداقة مؤقتة كالحياة : لكن الحقد لا يخطىء

رجله وهو أكيد كالموت » . من الآن فصاعداً ، أنى ذهب ، ومهما فعل ، فإن هذا اليقين سيرافقه في كل مكان : انا مكروه ! » .

كان سكرياسين ينتظر هنري في مكتبه . وقال هنري في نفسه : « لقد قرأ « السندان » وهو يفكر انه يجب ان يطرق الحديد وهو حام ! » . وسأل :

– لديك ما تحدثني عنه ؟ وأضاف في اهتمام مصطنع : « شيء ما لا يسير على ما يرام ؟ وجهك متعب » .

فقال سكرياسين :

– بي صداع فظيع : لا كفاية من النوم ، وكثير من الفودكا ، لا شيء خطيراً . وانتصب على كرسيه وأعاد الثبات الى وجهه : « جئت أسألك اذا كنت غيّرت رأيك منذ ذلك اليوم ؟ » .

فقال هنري :

– كلا . لن اغيّره .

– ألا تجعلك تفكر ، تلك الطريقة التي يعاملك بها الشيوعيون ؟ فأخذ هنري يضحك : « اوه ! انني افكر . افكر كثيراً . لا أفعل شيئاً سوى ذلك ! » .

فصعّد سكرياسين تنهدة عميقة : كنت آمل انك ستنتهي الى ان ترى بوضوح » .

فقال هنري :

– هيا ! لا تحزن . انت لست بحاجة إلي .

فقال سكرياسين :

– لا يمكن الاعتماد على أي انسان . لقد فقد اليسار حرارته . ولم يتعلم اليمين شيئاً . وأضاف بصوت متشائم : ثمة لحظات اود فيها لو انسحب الى الريف » .

– انسحب .

فقال سكرياسين :

— لا أشعر ان لي الحق بذلك . ومرر يده على جبينه في إعيـاء : « يا له من صداع ! » .

— هل تريد حبة من الاورتيدرين ؟

— كلا ، كلا . يجب ان اجتمع حالاً ببعض الناس ، برفاق قدامى . هـذا ليس مستلطفاً كثيراً أبداً . إذن فأنا لا أحرص على ان أكون في كامل وعيي .

وساد صمت . وسأل سكرياسين :

— هل سترد على لاشوم ؟

— بالتأكيد كلا .

— هذه خسارة . فعندما تريد ، تعرف كيف تدافع عن نفسك . لقـد كان الرد على دوبروي سديداً .

فقال هنري :

— نعم . لكن هـل كان صحيحاً ؟ واستجوب سكرياسين بالنظر : « انني لأتساءل هل مخبرك جاد حقاً ؟ » .

فقال سكرياسين وهو يمر يداً متألمة على وجهه :

— أي مخبر ؟

— ذاك الذي رأى بطاقة دوبروي وإضبارته .

فقال سكرياسين :

— اوه ! وابتسم ابتسامة صغيرة : « لم يكن له وجود قط ! » .

— غير ممكن ! هل اخترعت هذا !

— في نظري ، ان دوبروي شيوعي ، سواء أكان مسجلاً ام لا. لكن لم تكن لديّ وسيلة لأشاطرك قناعتي ، لهذا غششت قليلاً .

— ولو قبلت بأن اجتمع بالشخص ؟

— كانت أبسط مبادىء علم النفس تضمن لي انك سترفض .

ونظر هنري الى سكرياسين في عبوس . لم يكن يصل حتى الى الغضب عليه .

لكذبة اعترف بها بمثل هذه البساطة ! وابتسم سكرياسين ابتسامة مرتبكة : « أنت غاضب ؟ » .

فقال هنري :

– انني لا أتصور انه يمكنك ان تفعل اشياء مماثلة !

فقال سكرياسين :

– في الحقيقة ، لقد أديت لك خدمة .

فقال هنري :

– ستسمح لي بألا أشكرك .

فابتسم سكرياسين دون ان يجيب . ونهض : « يجب ان اذهب الى موعدي » .

ولبث هنري فترة طويلة ساكناً ، شاخص النظر . لو لم يخترع سكرياسين تلك القرية ، فماذا كان سيحدث ؟ ربما كانت الامور انتهت الى النتيجة نفسها : وربما لا . على كل حال ، كان يكره ان يفكر انه قد لعب بأوراق مغشوشة : كان هذا يثقله برغبة مفترسة في ان يسترجع ضربته . وقال في نفسه على حين غرة : « لماذا لا احاول ان اشرح امري لنادين ؟ » . كان فانسان يراها أحياناً . وقرر أن يسأله تاريخ موعدها القادم .

عندما دخل يوم الخميس التالي الى المقهى كانت نادين تنتظر . وشعر هنري انه منفعل بطريقة مبهمه ، مع انه لم يعلق قط أهميـــة كثيرة على حكم نادين . وانتصب أمام طاولتها : « السلام » .

فرفعت عينيها وقالت بلا مبالاة : « السلام » . ولم يكن يبدو عليها حتى الدهشة .

– سيتأخر فانسان قليلاً : لقد جئت لأخطرك . أأستطيع الجلوس ؟

فحنت رأسها دون ان تجيب وقال هنري مبتسماً :

– انني مسرور جـــداً من استطاعتي مكالمتك . كانت لنا ، نحن الاثنين ، علاقاتنا الشخصية . لهذا اريد ان اعرف اذا كان خصامي مع والدك يجعلني على خصام معك ايضاً .

فقالت نادين في برود :

ـ اوه ؟ تبعاً للعلاقات الشخصية ، فاننا نرى بعضنا البعض عندما نلتقي . وانت لم تعد تأتي الى « الحيطة » ، لهذا لم نعد نرى بعضنا البعض : ليست هناك مشكلة .

فقال هنري :

ـ اسألك العفو ، فهناك مشكلة بالنسبة لي . اذا لم نكن متخاصمين ، فلا شيء يمنعنا من شرب قدح معاً بين الحين والآخر .

فقالت نادين :

ـ ولا شيء يرغمنا على ذلك ايضاً .

فقال هنري :

ـ على ما أراه ، فإننا متخاصمان ؟ فلم تجب بشيء . وأضاف : « مع ذلك فأنت ترين رأي فانسان الذي هو رأيي ذاته » .

فقالت نادين :

ـ فانسان لم يكتب الرسالة التي كتبتها .

فقال هنري في حـــدة : « اعترفي بأن رسالة والدك لم تكن لطيفـــة هي الاخرى ! » .

ـ ليس هذا سبباً . ولقد كانت رسالتك قبيحة للغاية .

فقال هنري :

ـ ليكن . هذا لأنني كنت غاضباً . ونظر الى نادين في عينيها : « لقـــد أقسموا لي مع الاعتماد على الأدله بأن والدك مسجل في الحزب الشيوعي . وكنت حانقاً من اخفائه ذلك علي : ضعي نفسك مكاني » .

فقالت نادين :

ـ لم يكن عليك إلا أن تصدق هذه السخافات .

عندما تبدو عنيدة على هذا النحو ، فعليه ألا يأمل بإقناعها . وبالأصل مـــا كان هنري ليستطيع تبرير نفسه دون ان يضع دوبروي موضع اتهام . فتراجع .

وسأل :

– أأنت غاضبة علي بسبب تلك الرسالة فقط ؟ ام أن زملاءك الشيوعيين قد اقنعوك بأنني اشتراكي خائن ؟

فقالت نادين :

– ليس لي زملاء شيوعيون . وثبتت على هنري نظرة جليدية : « سواء أكنت اشتراكياً خائناً ام لم تكن ، فأنت لم تعد مَنْ كنته » .

فقال هنري في غضب :

– انها لبلاهة ما تقولينه . انني انا نفسي بالضبط .

كلا .

– ما الذي تغير فيّ ؟ منذ متى ؟ ماذا تأخذين علي ؟ إشرحي رأيك .

فقالت نادين :

انت اولاً تعاشر عالماً قذراً . وفجأة ارتفع صوتها : « كنت اعتقد انك انت على الاقل تريد ان تتذكر . انك تقول اشياء جيدة جداً في مسرحيتك : انه يجب ألا ننسى ، وكل شيء . وفي الحقيقة انت مشابه للآخرين تماماً ! » .

فقال هنري :

– آه لقد روى لك فانسان قصصاً !

– ليس فانسان : بل سيزوناك . وقدحت عينا نادين شرراً : « كيف تستطيع ان تلمس يد تلك المرأة الطيبة ! لو كنت انا ، لفضلت ان يسلخ جلدي وأنا حية ... » .

– سأقول لك ما قلته في اليوم الماضي لفانسان : ان حياتي الخاصة لا تعني احداً غيري . ومن جهة أخرى ، لقد مضت سنة على تعرفي بجوزيت : لست انا الذي تبدل ، بل انت .

– انني لم أتبدل . كل ما هنالك انني في السنة الماضية لم اكن اعرف ما أعرفه . واضافت في لهجة متحدية : « ثم انني كنت اثق بك ! » .

فقال هنري في غضب :

– ولماذا كففت ؟

فخفضت نادين رأسها في سحنة مغلقة .

– لقد أخذتِ موقفاً ضدي في قضية المعسكرات ؟ هذا من حقك . لكن ان تقرري انني نذل ، فهذه مبالغة . وأضاف بصوت غاضب : « هـــذا بدون شك رأي والدك . لكنك ما كنت معتــادة على اعتبار كل ما يقوله كلام انجيل » .

فقالت نادين بصوت هادىء :

– ليس من النذالة انك تحدثت عن المعسكرات . بل انني شخصياً ، أجـد هذا قابلاً للدفاع . انما المسألة هي معرفة لماذا فعلت ذلك .

– لقد شرحت رأيي ، كلا ؟

فقالت نادين :

– لقد قدمت اسباباً عمومية . لكن اسبابك الخاصة بك ، لا نعرفها . ومن جديد ثبتت على هنري نظرة جليدية : « اليمين كله يغطيك بالزهور . هـــذا محرج ، ستقول لي انك لا تستطيع شيئاً : هذا على كل حال محرج » .

– اخيراً ، نادين ، انت لا تفكرين جديـــاً بأن تلك الحمـلة كانت مناورة لأتقرب من اليمين ؟

– على كل حال ، انه يتقرب منك .

فقال هنري :

هذه حماقة ! لو أردت ان انتقل الى اليمين ، لكنت فعلت ذلك ! انت ترين جيداً أن « الأمل » لم تغير خطها : وأقسم لك انني استحق التقدير على ذلـك . ألم يشرح لك فانسان كيف تسير الأمور ؟

– فانسان أعمى عندما يتعلق بأصدقائه . يقينــاً انه يدافع عنك : هـــذا يثبت طهارة قلبه ولا شيء آخر .

فقال هنري :

– وأنت ، عندما تتهمينني بأنني نذل ، هل لديك أدلة ؟

— كلا . ولهذا أتهمك : بل أرتاب ، هذا كل شيء . وابتسمت بدون مرح: « انني كثيرة الريب بطبيعتي » .

فنهض هنري : « حسناً : ارتابي ما شئت . أما أنا فعندما أشعر ببعض الصداقة نحو إنسان ، فإنني احاول بالأحرى ان اثق به : لكن بالفعل ليس هذا نوعك . لقد اخطأت بمجيئي ، انني اعتذر » .

وقال في نفسه وهو عائد الى غرفته : « الريبة ، ليس هنال أسوأ منها . انني لأحب اكثر أيضاً ان أمرغ في الوحل كما فعل لاشوم ، فهذا اكثر صراحة». وكان يتخيلهم جلوساً في المكتب وهم يتناولون قهوتهم : دوبروي ، نادين ، آن . ما كانوا يقولون : « إنه نذل » ، كلا، فضميرهم لا يطاوعهم على هذا : بل يرتابون ، بمَ يمكن الرد على إنسان يرتاب ؟ ان المجرم يستطيع على الأقل ان يبحث لنفسه عن إعتذار : لكن المشبوه ؟ إنه مجرد من السلاح تماماً . وقال في نفسه في غضب في الأيام التالية : « نعم ، هذا ما فعلوه بي : مشبوه . وعلاوة على هذا فإنهم يأخذون عليّ جميعاً ان لي حياة خالصة !» . لكنه لم يكن محامياً عن حقوق الشعب ولا حامل علم ، وهو حريص على حياته ، حياته الخاصة . اما السياسة ، بالمقابل ، فان رأسه مصدوع بها . ان المرء لا ينتهي منها أبداً ، فكل تضحية تخلق واجبات جديدة . في البداية الجريدة ، والآن يريدون ان يحرموه من متعه كافة ، من رغباته كافة . با سم ماذا ؟ على كل حال، اننا لا نفعل شيئاً مما نريد ان نفعله ، بل اننا نفعل العكس : اذن ، لا داعي لتحمل مشقة الحرج . وقرر الا يتحرج وان يتصرف كما يحلو له : ولم يكن لهذا اي اهمية ، عند النقطة التي وصل إليها .

ومع ذلك ، وفي المساء الذي وجد فيه نفسه جالساً الى الطاولة بين لوسي بيلوم وكلودي دي بلزونس امام زجاجة شمبانيا حلوة كثيراً ، اندهش هنري فجأة : « ماذا افعل هنا ؟ » . لم يكن يحب الشمبانيا ، ولا الثريات ، ولا المرايا ، ولا مخمل المقاعد، ولا هاته النسوة اللواتي يعرضن في سخاء جلداً مهترئاً ، ولم يكن يحب لا لوسي ، ولا كلودي ، ولا دودول ، ولا فيرنون ، ولا الممثل

الشاب المشرف على الكهولة الذي يقال انه عشيقه .

كانت كلودي تروي :

— عندئذ دخلت الى الغرفة ، ورأته راقداً على السرير ، عارياً ، مع ذنب صغير ... وقالت وهي تشير الى اصبعها الصغيرة : « هكذا ... وسألت : اين يوضع هذا في الانف ؟ » . وضحك الرجال الثلاثة في صخب وقالت لوسي بصوت جاف قليلاً : ظريفة جداً ! » . كانت مزهوة بمعاشرة امرأة قد ولدت ، لكنها كانت تغضب من اللهجة الخشنة التي كانت كلودي تتبناها عن طواعية عندما تخرج مع من هم ادنى منها . وكانت لولو تبذل جهوداً مؤثرة لتلفت إليها انتباهاً يكون في مستوى اناقتها . واستدارت نحو هنري وهمست مشيرة الى الشاب الجميل الذي كان يحتسي قدح الشيري غوبلر الخاص بفيرنون بواسطة انبوب من الورق المشمع :

— ريبري سيكون حسناً في دور الزوج .

— اي زوج ؟

— زوج جوزييت.

— لكنه لا يظهر : انه يموت في مطلع المسرحية .

— اعرف . قصتك كئيبة اكثر من اللازم من اجل السينما : بريو يقترح ان يهرب الزوج ، وان يختبىء في الغابات وان يغفر في النهاية لجوزيت .

فهز هنري كتفيه : « سيخرج بريو مسرحيتي او لا شيء على الاطلاق » .

— لن تبصق على مليونين لأنه يطلب إليك ان تبعث ميتاً !

فقالت كلودي :

— انه يتظاهر باحتقار المال . مع اننا بحاجة إليه بعد ان بلغ سعر الزبدة ما بلغه : كل ما هنالك انها كانت تكلف اقل ايام الالمان .

فقالت لوسي :

— لا تتكلمي هكذا أمام مقاوم .

وفي هذه المرة ، ضحكوا جميعاً معاً وابتسم هنري معهم. لو رأوهم وسمعوه،

للاموه جميعاً ، لامبير مثل فانسان ، وفولانج بقدر لاشوم ، وبول ، وآن ، ودوبروي ، وسامازيل وحتى لوك ، وسائر الجمهور الغفل ممن ينتظرون شيئاً منه . وإنما لهذا بالضبط هو هنا ، مع هؤلاء الناس : لأنه كان عليه ألا يكون معهم . لقد كان مخطئاً جذرياً ، دون تحفظ ، دون عذر : يا للراحة ! اننا لننتهي الى السأم من التساؤل بلا انقطاع : هل انا محق ام مخطىء ؟ وكان هذا المساء على الأقل يعرف الجواب : انني مخطىء تماماً . لقد تخاصم الى الابد مع دوبروي ، وأنكره « الاشتراكي الثوري الحر » ، ويرتعد معظم اصدقائه القدامى رعدة استنكار عندما يفكرون به . وفي « السندان » يدعوه لاشوم ورفاقه – وكثيرون غيرهم عبر باريس – والاقاليم – خائناً . وفي كواليس الاستديو ٤٦ ، كانت الرشاشات تطقطق ، والالمان يحرقون قرية فرنسية ، والغضب والاشمئزاز يستيقظان في القلوب المتخدرة . في كل مكان كان الحقد يلتهب . وكانت هذه مكافأته : الحقد . ولم تكن هناك أي وسيلة للتغلب عليه . فليشرب : انه يفهم سكرياسين . وملأ كأسه من جديد . وقالت لوسي :

– انها لشجاعة ما فعلته .

– ماذا اذن ؟

– فضح تلك الفظاعات كافة .

فقال هنري :

– أوه ! على هذا المقياس ، يوجد آلاف الابطال في فرنسا . عندما يهاجم الانسان الاتحاد السوفياتي اليوم ، فإنه لا يجازف بأن يعدم .

فتفرست في وجه هنري في شيء من الحيرة : « نعم ، لكنك صنعت لنفسك بالأحرى موقفاً الى جانب اليسار . لا بد انها تورطك ، هذه القصة » .

– لكن فكري بالمواقف التي استطيع ان استعيدها لدى اليمين !

فقال دودول :

– اليمين، اليسار ، انها مفاهيم بالية. إن ما يجب إفهامه للبلاد هو ان تعاون الرأسمال والعمل ضروري لنهضتها . لقد اديت عملاً نافعاً بدحضك احدى

الاساطير التي يعارضون بها التوفيق بينهما .

فقال هنري :

– لا تهنئني بسرعة كبيرة !

كانت هـــذه اسوأ عزلة : ان ينال موافقة هؤلاء الناس . الحاديــة عشرة والنصف ، ارهب ساعـــة . كان المسرح يفرغ . وكانت جميع تلك العقول التي امسك بها أسيرة طوال ثلاث ساعات تنطلق من عقالها معاً ، ودفعة واحـــدة تتحول ضده : يا للمجزرة !

وقالت كلودي في سيماء من رضى :

– لا بد ان الشيخ دوبروي يزبد .

فقالت لوسي :

– قل اذن ، زوجته مع من تنام ؟ لأنه ، في النهاية ، يكاد يكون هرمــاً .

فقال هنري :

– لست ادري .

فقالت لوسي :

– لقد شرفتني مرة بالمجيء الى بيتي . انهــا لامرأة سليطة اللسان ! آه انني اكره هاتيك النساء اللواتي يلبسن كالعاملات ليظهرن ان لديهن أفكاراً اجتماعية.

كانت آن سليطة اللسان . وكان دودول هو الذي رأى العــالم يشرح ان البرتغال جنة، وكانوا يفكرون جميعاً ان الغنى استحقاق وانهم يستحقون غناهم. لكن لم يكن على هنري الا ان يصمت ما دام قد جاء ليجلس الى جانبهم .

وقالت جوزيت وهي تضع على الطاولة حقيبة صغيرة من القش :

– ... الخير . » كانت ترتدي ثوبها الأخضر الذي يكشف بسخاء عـــن كتفيها . ولم يكن هنري يتوصل الى الفهم لمَ تعرض نفسها في مثل هــذا الكرم على انظار الذكور ، ما دامت رغبتهم تجرحها . ولم يكن يحب ان يكون هــذا اللحم العذب عاماً عمومية اسم . وجلست الى جانبه في طرف الطاولة وسأل : « أسار الأمر على ما يرام ؟ ألم يصفروا ؟ » .

فقالت :

— ! انه لنصر بالنسبة لك .

لم يكن النقد ، في مجموعه ، سيئاً كثيراً بالنسبة لها : انها بداية كسائر البدايات الكثيرة العدد . وكانت امامها ، بهذا الجسم ومع الصبر ، جميع الفرص لتشق طريقها بشكل محترم . لكنها كانت مخيبة الأمل . وانتعش وجهها : (أرأيت ؟ الى الطاولة في الصدر ، توجد فيليسيا لوبيز : ما اجملها !) .

فقالت لوسي :

— لديها على الأخص مجوهرات جميلة جداً .

— إنها جميلة !

فقالت لوسي مبتسمة بطرف اسنانها :

— يا صغيرتي ، لا تقولي أبداً أمام رجل أن إمرأة اخرى جميلة . لأنه يستطيع ان يتخيل انك أقل جمالاً . وكوني على ثقة انه ما من امرأة ستكون حمقاء بما فيه الكفاية لترد عليك بالمثل .

فقال هنري :

— جوزيت تستطيع ان تسمح لنفسها بأن تكون صريحة . ليس لديها ما تخشى منه .

فقالت لوسي في لهجة مبهمة الاحتقار :

— معك ، من الجائز . لكن هناك آخرون لا يسليهم ان يكون امامهم هذا الوجه النواح . صبّ لها اذن لتشرب : ان المرأة الجميلة يجب ان تكون مرحة .

فقالت جوزيت :

— لا أريد ان اشرب . » وتهدج صوتها : « هناك بئر على زاوية شفتي ، انها الكبد بالتأكيد : سأشرب ماء فيشي .

فقالت لوسي وهي تهز كتفيها :

— يا له من جيل !

فقال هنري :

ـ المفيد في الشرب هو ان الإنسان ينتهي الى السكر .

فقالت جوزيت في قلق :

ـ لست سكران ؟

ـ آه ! السكر بالشمبانيا ، إنه عمل هرقلي .

ومد يده نحو الزجاجة وأوقفت ذراعه :

ـ هذا أفضل . لأن لدي شيئاً أقوله لك . » وترددت : « لكن عدني أولاً بألا تغضب » .

فضحك : « لا استطيع على كل حال ان اعد دون ان أعرف » .

فنظرت اليه في نفاد صبر : « إذن أنت لم تعد تحبني » .

ـ هيا .

ـ حسناً ! لقد اعطيت مقابلة لـ « حواء الحديثة » قبل أيام ...

ـ ماذا رويت أيضاً ؟

فقالت في حدة :

ـ قلت إننا مخطوبان . ليس هذا مطلقـاً لأرغمك على الزواج مني . فسوف نعلن القطيعة عندما تشاء . لكنهم يروننا معاً دوماً . والخطوبة ، تمنحني راحة ، وانت تفهم . » ومن حقيبتها الحمراء اللامعة ، اخرجت صفحة مجلة نشرتهـا امامه في سيماء من رضى : « للمرة الأولى ، كتبوا مقالاً لطيفاً » .

فقال هنري :

ـ أريني » . وتمتم : « آه ! مظهري جيد ! » .

كانت جوزيت ، في ثوب يكشف عن مساحة كبيرة من كتفيهـا ، تضحك الى جانب هنري أمام كؤوس شمبانيـا ، وكان يضحك هو الآخر . .وفكر في غضب : « تماماً كما في مثل هذه اللحظة . وبين هذا وبين تخيل انني أمضي ليالي في تجرع الشمبانيا وانني مباع لأميركا ، ليس هنا إلا خطوة واحـدة : وسوف يخطونها » . إلا أنه لم يكن يحب هذه الضجة الموبوءة . كان يتردد على الأمكنة المشهورة ليسرّ جوزيت ، لكن ليس لهـذا حساب ، فهذه اللحظات تظل على

هامش حياته الحقيقية . كان لا يزال يشخص بنظره الى الصورة : « الحقيقة ان هذا انا وانني هنا » .

وقالت جوزيت :

— أأنت غاضب ؟ لقد وعدت بألا تغضب .

فقال :

— لست غاضباً على الاطلاق . » وفكر في حزم : « ليذهبوا جميعاً ليتغوطوا ! » . لم يكن مديناً لأحد ، وكان يضع جميع الأخطاء على كاهله : انما هذه هي الحرية الحقيقية ! وقال : « تعالي نرقص » .

وسارا عدة خطوات على الساحة المزدحمة بالرجال الذين في ثياب السهرة ، وبالنساء شبه العاريات ، وسألت جوزيت : « صحيح انه يضجرك عندما أبدو حزينة ؟ » .

— يزعجني ان تكوني حزينة .

فهزت كتفيها : « انها ليست غلطتك » .

— هذا يزعجني على كل حال . ليس هناك سبب ، أتعرفين . ان حديثك للصحافة ممتاز ، اؤكد لك انه سيكون لديك عقود ...

— نعم . هذه حماقة ، وانما هذا لأنني حمقاء: كنت أظن ان كل شيء سيتغير فجأة ، غداة المراجعة العامة . كأن لا تجرؤ امي مثلاً بعد ذلك على تكليمي كما تكلمني . ثم انني سأشعر انني مختلفة في داخلي .

— بعد ان تمثلي كثيراً ، وتتأكدي من موهبتك ، سيبدو لك كل شيء مختلفاً آنذاك .

— كلا . ما كنت أتصوره . » وترددت : « كان سحرياً » . كانت مؤثرة عندما كانت تحاول ان تلبس بالكلمات افكارها غير الواضحة : « عندما يقع إنسان في حبك ، انسان يحبك حقاً ، فهذا سحر ، ان كل شيء يتحول . كنت أظن ان الأمر سيكون هكذا بعد المراجعة العامة » .

— قلت لي ذات يوم انه ليس ثمة إنسان قد وقع في حبك ؟

فاحمرت : « اوه ! مرة . لقد حدث ذلك مرة واحدة . عندما كنت صغيرة ، كنت خارجة من المدرسة الداخلية ، لم أعد حتى لأذكر » .

فقال هنري في لطف : « الا انه يبدو عليك انك تذكرين . من كان ؟ » .

– رجلاً شاباً . لكنه رحل الى أميركا ، لقد نسيته . هذه قصة قديمة .

فسأل هنري :

– ونحن الاثنان ؟ أليس في هذا شيء من السحر ؟

فنظرت اليه في نوع من التأنيب : « اوه ؟ انت لطيف ، انت تقول لي أشياء لطيفة . لكنها ليست قضية حياة او موت بالنسبة لك » .

فقال هنري في شيء من الغيظ : « ولا الشاب ايضاً ما دام قد رحل » .

فقالت جوزيت بصوت مغضب لم يكن هنري يعرفه عنها :

– آه ! دعني مطمئنة من هذه القصة . لقد رحل لأنه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئاً آخر .

– لكنه لم يمت من ذلك ؟

فقالت :

– ماذا تعرف عنه ؟

فقال مدهوشاً من عنفها :

– اعذريني ، يا عزيزتي . أمات ؟

– لقد مات . مات في أميركا . أأنت مسرور ؟

فتمتم هنري وهو يعيدها نحو الطاولة :

– لم اكن اعرف ، لا تغضبي .

هل كانت قادرة إذن ، بعد عشر سنوات ، على الاحتفاظ بمثل هذه الذكريات المؤلمة جداً ؟ وتساءل في ضيق : « هل تستطيع ان تحب اكثر مما تحبني ؟ من الأفضل الا تحبني ، فهكذا لا تقع عليّ مسؤولية ، ولا أكون مخطئاً » . وجرع عدة كؤوس الواحدة تلو الاخرى . وفجأ ، أخذت جميع الاشياء حوله تهذر : كانت ساحرة تلك الرسائل التي كانت تبعث بها في سرعة مخيبة والتي كان

الوحيد الذي يلتقطها . ولقد كان ينساها مع الأسف فوراً . ان هـذا القضيب الخشبي الموضوع عن إهمال في احدى الكؤوس، لم يعد يذكر ما كان يعنيه. والثريا، تلك البلورات الكبيرة المتدلية من الكريستال ، مـاذا كانت تمثل ؟ العصفور الذي كان يتأرجح على رأس لوسي كان نصباً مأتمياً : فبعد ان مات ، وحنط ، أصبح هو نفسه ضريح ذاته : مثـل لويس . لماذا لم يتنكر لويس في إهـاب عصفور ؟ لقد كانوا في الحقيقة جميعاً حيوانات متنكرة . وبـين الحين والحين كانت تحدث في عقولهم هزة كهربائية صغيرة ، فتخرج عندئذ كلمـات من أفواههم .

وقال لجوزيت :

– انظري . لقـد حوّلوها جميعهـا الى بشر : الشمبانزي ، والكلب ، والنعامة ، والفوقة ، والزرافة ، وهم يتكلمون ، يتكلمون لكن ما من احـد يفهم ما يقوله الآخرون . أترين ، انت لا تفهمينني : نحن الأثنـان أيضاً ، لسنا من النوع نفسه .

فقالت جوزيت :

– كلا ، لا أفهم .

فقال في تسامح :

– لا يهم ، هذا لا يهم مطلقاً . » ونهض : « تعالي نرقص » .

– لكن ماذا يحدث لك ؟ انت تدوس على ثوبي . هل شربت كثيراً ؟

فقال :

– ابداً ليس كثيراً . ألا تريدين حقاً ان تشربي قليلاً ؟ انني لأشعر انني على أتم ما يرام . ويمكنني ان أفعل أي شيء : ان اضرب دودول أو أقبل امك...

– لن تقبل ماما ؟ ماذا بك ؟ لم أرك قط هكذا .

فقال :

– سترينني .

كانت كمية من الذكريات ترقص كما يحلو لها في رأسه .

وعادت الى ذاكرته كلمة قالها لامبير ، فقـــال في تبجح : « أترين ، انني ادمج الشر ! » .

– لكن ماذا تروي ؟ تعال اجلس .

– كلا ، لنرقص .

ورقصا ، وجلسا . ورقصا أيضاً . كانت جوزيت آخـــذة بالمرح رويداً رويداً . وقالت بصوت مبهور : « انظر الى الرجل الطويل الذي دخل ، انـه جان كلود سلفر . انها لحسنة حقاً ، هذه الحانة ، سنعود اليها » .

فقال هنري :

– نعم ، انها حسنة .

ونظر حوله في دهشة . ماذا كان يفعل على الضبط هنـا ؟ كانت الاشياء قد صمتت فجأة ، وكان يشعر بالنعاس وبخثورة في معدته . « لا بد ان هـــذا هو التهتك » . إننــــا لنهرب على الأقل : كان سكرياسين العارف في هذه الامور يقول : يمكننـــا ان نهرب ذات ليلة ، بقليـــــل من الحظ وكثير من الوسكي . والشمبانيا ايضاً لا بأس فيها ، ننسى أخطاءنا وأسبابنا ، ننسى الحقـد ، ننسى كل شيء .

وكرر هنري :

– إنها حسنة . ثم ، أليس كذلك ، كما يقولون ، إننا لا نلهو لنلهو . سنعود . يا عزيزتي سنعود .

الفصل الثامن

انه لمشروع غريب جداً ان يعيش الإنسان حباً يرفضه . كانت رسائل ليويس تمزق قلبي . كان يكتب لي : « هل سأتابع حبك أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ؟ » . وكتب لي مرة أخرى : « انه لمقلب غريب ذاك الذي لعبته عليّ . انني لم أعد استطيع ان آتي الى بيتي بنساء لا تدوم علاقتي بهن إلا ليلة واحدة . واللواتي كنت استطيع ان امنحهن قطعة صغيرة من قلبي، لم يعد لديّ ما أقدمه لهن » . كم كنت أرغب ، وانا اقرأ هذه الكلمات، أن ألقي بنفسي بين ذراعيه ! ولما كان هذا محرماً علي ، فقد كان علي ان أقول له : « انسني » . لكني ما كنت اريد ان اقول هذا . كنت أريد ان يحبني . اريد كل الألم الذي اسببه له . كنت أرزح تحت كآبته وضميري يؤنبني . وكنت اتألم أيضاً لحسابي الخاص . ولكم كان الوقت يمر ببطء ، ولكم كان يمر بسرعة ! وكان ليويس دوماً بعيداً عني كثيراً . لكني كنت أقترب يوماً فيوماً من شيخوختي . وكان حبنا يشيخ ، وسيموت ذات يوم دون ان يكون قد عاش . كانت هذه فكرة لا تحتمل . كنت مسرورة بمغادرة سان — مارتان ، وبمقابلة المرضى من جديد في باريس ، والاصدقاء ، والضجيج ، والمشاغل التي كانت تمنعني من التفكير بنفسي .

لم أكن قد رأيت بول ثانية منذ حزيران . وكانت كلودي قد اولعت بها ودعتها الى تمضية الصيف في قصرها البورغوني : وعلى دهشة كبيرة مني قبلت بول . وعندما تلفنت لها عند عودتي الى باريس، بلبلني التهذيب المقصود والمترفع في صوتها :

— بالتأكيد ، سأكون مسرورة برؤيتك ثانية . هل ستكونين حرة غداً

للذهاب الى حفلة افتتاح معرض ماركاديه ؟

– افضل لو أراك بشكل أهدأ . أليس عندك وقت آخر ؟

– هذا لأنني مشغولة جداً . انتظري . هل تستطيعين ان تمري غداً بعد الغداء ؟

– هذا يناسبني تماماً . اتفقنا .

ولأول مرة منذ سنوات عديدة ، كانت بول في ثياب المدينة عندما فتحت لي بابها . كانت ترتدي طقماً من آخر طراز ، خيوطه كلها رمادية ، وقميصاً اسود ، وكان شعرها عالي التسريحة ، ومتهدلاً أهداباً على جبينها . وكانت قد نتفت حاجبيها . وكان وجهها قد ازداد سمكاً ومصاباً بعض الشيء بالغدة الوردية .

وقالت في مودة :

– كيف حالك ؟ أأمضيت عطلة طيبة ؟

– ممتازة . وانت ؟ هل كنت مسرورة ؟

فقالت في لهجة بدت لي مثقلة بالتعريض :

– مسرورة . « كانت تتفرس في وجهي في حرج وتحدٍ في آن واحد : « الا تجدينني قد تغيرت ؟ » .

فقلت :

– تبدين في أتم صحة . وثوبك جميل حقاً .

– انها كلودي التي اهدتني إياه : انه مجلوب من « بالمان» .

لم يكن هناك ما يقال ضد هذا القماش الرقيق ، وهذين الخفين الانيقين . وربما كان هذا فقط لأنني لم اكن معتادة على اسلوبها الجديد : وكانت بول تبدو لي اكثر وقاحة مما تبدو عليه في طريقة لبسها البالية التي كانت تخترعها لنفسها فيما مضى . وجلست ، وصلبت ساقيها ، وأشعلت سيجارة . وقالت في ضحكة صغيرة : « أتعرفين ، انني إمرأة جديدة » .

ولم أعرف ما أجيب به وقلت في بلاهة :

– أهو تأثير كلودي ؟

فقالت :

لم تكن كلودي إلا ذريعة . على الرغم من انها إمرأة مرموقة للغـــاية . » وحلمت لحظة : « ان الناس اظرف مما كنت اظن. وما إن تكفين عن معاملتهم بتحفظ ، حتى لا يطلبوا الا ان يكونوا لطفـاء » . وتفحصتني في انتقـــاد : « يجب ان تخرجي اكثر » .

فقلت في جبن :

– ربما . من كان هناك ؟

فقالت بصوت مبهور :

– اوه ! جميع الناس .

– هل ستأخذين بالمثابرة على صالون خاص بك ؟

فضحكت : « أتعتقدين انني لن اكون قادرة ؟ » .

– على العكس .

فرفعت حاجبيها : « على العكس ؟ » . وساد صمت قصير . وقالت بصوت جاف : « على كل حال ، فالمسألة ، حالياً ، تتعلق بشيء آخر » .

– ماذا إذن ؟

– انني اكتب .

فقلت معبئة صوتي حماسة :

– هذا حسن !

فقالت في ابتسامة :

– انا ، لم أكن أرى نفسي مطلقاً امرأة ادب . لكن هناك ، قالوا لي جميعاً انها لجريمة ان أترك هذا القدر من المواهب يضيع .

فقلت :

– وماذا تكتبين ؟

– يمكنك ان تسمي ذلك كما تشائين : أقاصيص أو قصائد . انهـا غير قابلة

للتصنيف .

– أأريت هنري عملك ؟

– بالتأكيد لا . قلت له انني أكتب ، لكني لم أره شيئاً . » وهزت كتفيها : « انا واثقة انه سيتبلبل . انه لم يسع قط الى اكتشاف أشكال جديدة . على كل ، ان التجربة التي أقوم بها ، يجب ان أقوم بها بمفردي » . ونظرت إلي في وجهي وقالت في أبهة : « لقد اكتشفت العزلة » .

– أما عدت متعلقة بهنري ؟

– بلى ، لكني احبه كشخص حر . » ورمت سيجارتها في المدفأة الفارغة : « لقد كان رد فعله غريباً » .

– هل تبين انك تغيرت ؟

– بديهي انه ليس أحمق .

– بالفعل .

وكنت أنا أشعر انني حمقاء . وسألت بول بالنظر . فقالت بصوت مسرور :

– في البداية ، عند عودته لم أتصل به . وانتظرت ان يتلفن . وهذا مـــا فعله وشيكاً . » واستجمعت افكارها لحظة : « كنت قد ارتديت ثوبي الجميل ، وفتحت له الباب في سحنة مطمئنة تماماً ، وعلى الفور ، تغير وجهـه . وشعرت انه مضطرب . وأسند جبينه الى النافذة مديراً لي ظهره ليخفي وجهه بينما كنت احدثه في هدوء عنا ، وعني . ثم نظر الى في سحنة غريبة جداً . وفهمت انـه قرر ان يضعني موضع امتحان » .

– ولماذا يضعك موضع امتحان ؟

– كاد ، للحظة ، ان يقترح علي استئناف حياتنا المشتركة : ثم سيطر على نفسه . انه يريد ان يكون واثقاً مني . وله الحق في ان يشك : لم اكن طيعة معه خلال هاتين السنتين .

– إذن ؟

– شرح لي في خطورة انـه يحب الصغيرة جوزيت . » واخذت تضحك في

مبالغة : « أتدرين ذلك ؟ » .

فترددت : « ان له قصة معها ، أليس كذلك ؟ » .

– بالتأكيد . لكنه لم يكن بحاجة ليأتي ويروي لي انه يحبها . لو كان يحبها، لما قال لي ذلك بالتأكيد . لقد وضعني موضع مراقبة ، أتفهمين . لكنني ربحت سلفاً لأنني أكفي نفسي بنفسي الآن .

فقلت :

– انني أفهم .

وجمعت شجاعتي كلها في ابتسامة كبيرة واثقة . وقالت في مرح :

– والأطرف من كل شيء ، هو انه كان ، في الوقت نفسه ، متدللاً بشكل لا يتصور : انه لا يريد ان أثقل عليه ، لكن إذا كففت عن حبه ، فأنني أعتقد انه سيكون قادراً على قتلي . اليك ، لقد حدثني عن متحف غريفان .

– بأي مناسبة ؟

– هكذا على حين غرة . يبدو ان هناك اكاديمياً مجهولاً – موررياك أو ديهاميل – سيكون له تمثاله في متحف غريفان . ولا أظنك تحسبين انه يهتز لذلك . في الحقيقة ، لقد كان هذا تلميحاً الى بعد ظهر ذلك اليوم الشهير الذي وقع فيه في حبي . انه يريد ان أتذكر .

فقلت :

– هذا معقد .

فقالت :

– لكن لا . هذا بسيط ، على كل حال ، لا يوجد ما يعمل إلا شيء بسيط للغاية . بعد أربعة أيام ستجرى المراجعة العامة : سأتكلم مع جوزيت .

فسألت في قلق :

– لتقولي لها ماذا ؟

فقالت بول في ضحكة خفيفة :

– اوه ! لا شيء وكل شيء . سأقوم بغزوها . » ونهضت : « ألا تريدين

حقاً ان تأتي الى حفلة الافتتاح تلك ؟ » .

ـ ليس لديّ وقت .

فوضعت على رأسها قلنسوة سوداء مسطحة ، وضمت قفازين .

ـ صدقاً كيف تجدينني ؟

ليس في داخلي ، انما في وجهها بحثت عن جوابي . واجبت في اقتناع : « انت رائعة ! » .

فقالت :

ـ سنلتقي يوم الخميس عند المراجعة العامة . ستأتين للعشاء ؟

ـ بالتأكيد .

ونزلت معها . كانت مشيتها ايضاً قد تغيرت . كانت تمشي في استقامة امامها في ثقة ، ولكنها كانت ثقة الماشية في نومها .

وقبل ثلاثة ايام من المراجعة العامة ، حضرت مع روبير مراجعة «الأحياء». ولقد انفعلنا كلانا . انني لأحب جميع كتب هنري ، وهي تؤثر علي شخصياً . لكني اعترف انه لم يكتب افضل من هذه المسرحية قط . كان شيئاً جديداً لديه ، ذلك العنف اللفظي ، تلك الغنائية الهزلية والسوداء في آن واحد . ثم لم يكن هناك هذه المرة أي مسافة بين العقدة والأفكار : اذ يكفي ان تكون منتبهاً للحبكة ، حتى يفرض معنى المسرحية نفسه عليك . ولما كان هذا المعنى يلتحم بقصة غريبة ومقنعة ، فقد كان له غنى الواقع . وكان روبير يقول : « هذا مسرح حقيقي ! » وكنت آمل ان جميع المتفرجين سيكون رد فعلهم مثلنا . الا ان هذه الدراما ، التي كانت تنبع من الهزلة والتراجيديا ، كان لها طعم لحم نيء يهدد بأن يفزعهم . وعندما ارتفع الستار ، مساء المراجعة العامة ، شعرت بقلق كبير . كان من الواضح ان الصغيرة جوزيت تفتقر الى الوسائل ، لكنها تماسكت جيداً عندما أخذ بعض الناس يتقلقلون . وبعد الفصل الأول ، تعالى تصفيق حاد . وزاد أيضاً عند النهاية ، ولقد كانت المسرحية نصراً حقيقياً . يقيناً ، إن لفي حياة كاتب ليس سيء الحظ الى حد كبير ، اوقات

فرح جدية . ولا بد ان ينفعل كثـــيراً عندما يعلم هكذا دفعة واحدة انه نجح في عمله .

حين دخلت الى المطعم ، شعرت باندفاع ودي كبير نحو هنري ، انها لنادرة جداً ، البساطة الحقيقية ! كان كل شيء حـــوله زائف الوقع ، الابتسامات ، الأصوات ، الكلمات ، اما هو فقد كان مماثلاً لنفسه تماماً . كان يبدو سعيداً ، محرجاً بعض الشيء ، وكنت اود لو اقول له اشياء كثيرة لطيفة . لكن ما كان يجب علي ان انتظر : فبعد خمس دقائق ، كانت حنجرتي معقودة . ويجب ان اقول انني أخفقت في مسعاي . فقد وقعت على لوسي بيلوم في اللحظة التي كانت تقول فيها لفولانج وهي تشير الى ممثلتـــين يهوديتين شابتين : لم يكن لديهم محارق لجثث الأموات ، الألمـــان ، بل كان لديهم حاضنات ! » كنت أعرف النكبة . لكني لم اسمعها قط بأذني : واشمأززت في آن واحد من لوسي بيلوم ومن نفسي . ولمت هنري على ذلك . كان ، في مسرحيته ، يقول اشياء جميلة جداً عن النسيان : لكنه كان بالاحرى نسّاء هو الآخر . كان فانسان يزعم ان الأم بيلوم قد جز شعرها وانها كانت تستحق ذلك . وفولانج : ماذا يفعل هنا ؟ ولم تعد بي رغبة في تهنئة هنري . واعتقد انه شعر بحرجي . وبقيت مدة قصيرة بسبب بول ، لكني كنت غير مرتاحة على الاطلاق حتى انني شربت بدون وعي : ولم يساعدني هـــذا مطلقاً . كنت اذكر الكلمات التي قالهـــا لامبير لنادين . وتساءلت : « بأي حق أعانه في التذكر ؟. لقد فعلت اقل مما فعله الآخرون ، وتألمت أقل مما تألم الآخرون : وإذا كانوا قـــد نسوا ، إذا كان يجب ان ننسى ، فليس علي إلا ان انسى انا ايضاً » . ولكن لم تكن هنـــاك فائدة من تبكيت نفسي : فقد كنت راغبة في إهانة انسان ما او في البكاء . ان نتصالح ، ونغفر ! يا لها من كلمات مرائية ! اننا ننسى ، هذا كل شيء . ولم يكفي ان ننسى الموتى فحسب . فنحن الآن ننسى جرائم القتـــل ، ننسى القتلة . ليكن ، ليس لي اي حق : لكن إذا ما تصاعدت دموع الى عيني ، فهذا لا يخص احداً غيري .

وتكلمت بول ملياً مع جوزيت ، في ذلك المساء . ولم اعرف ما قالته لها .

وخلال الأسابيع التالية ، خيل إليّ انهـا تتجنبني . كانت تخرج ، وتكتب ، وكانت مشغولة وهامة . ولم أقلق لأجلها مطلقاً : فقد كنت مشغولة كثيراً ، بأشياء كثيرة . وعند عودتي الى البيت بعد ظهر أحـد الأيام ، وجدت روبير ابيض من الغضب . كانت المرة الأولى في حياتي التي أراه فيها خارجاً عن نفسه : لقد تخاصم مع هنري . وروى لي القصة في بضع جمل مقطعة وقـال لي بصوت قاطع :

— لا تحاولي ان تعذريه . انه غير قابل للمعذرة .

ولم احاول فوراً ، فقد كنت بلا صوت . خمسة عشر عاماً من الصداقة تمحى في ساعة واحدة ! لن يجلس هنري ابداً على هذا المقعد ، ولن ننتظر أبداً صوته المرح . ما اشد مـا سيكون روبير وحيداً ! وهنري : اي فراغ في حياته ! كلا ، لا يمكن لهذا ان يكون نهائياً . وتمكنت من الكلام ، وقلت :

— هـذا غير معقول . لقد ثار غضبكما كليكما . كنت تستطيع ، في مثل هذه الحالة ، ان تلقي على هنري الخطأ سياسياً دون ان تسحب منه صداقتك . انا متأكدة انه حسن النيـة . ليس من السهل جداً ان يرى الانسان بوضوح . يجب ان اقول انه لو كان عليّ ان اتخذ قرارات على مسؤوليتي الخاصة ، لشعرت بحرج شديد .

فقال روبير :

— يبدو عليك انك تظنين انني طردت هنري ركلاً بقدمي . لم اكن اطلب إلا تسوية الامور بطريقة ودية . إنما هو الذي انصرف صافقاً الباب خلفه .

فقلت :

— هل انت واثق من انك لم تترك له خيـاراً بين ان يستسلم لك او يقطع صلته ؟ عندما طلبت ان تصبح « الأمل » جريدة « الاشتراكي الثوري الحر » ، كان مقتنعاً انه لو رفض لخسر صداقتك . وفي هذه المرة ، لما لم يكن يريد ان يستسلم ، فقد فضل بدون شك ان ينتهي من المسألة فوراً .

فقال روبير :

– انت لم تحضري الفصل . منذ البداية ، كان جلياً انه يسيء النية . انا لا أقول ان المصالحة كانت سهلة : لكن كان بالامكان على الاقل ان نحاول تجنب انفجار . وبدلاً من هذا ، دحض كافة حججي ، ورفض ان يتناقش مع اللجنة . ولقد بلغ به الحد الى التعريض بأنني مسجل سرياً في الحزب الشيوعي . هل تريدين ان اقول لك : لقد سعى الى هذه القطيعة .

فقلت :

– يا لها من فكرة !

لقد أضمر هنري بالتأكيد كراهية جدية ضد روبير ، لكن مضى زمن طويل على هذا . فلمَ الخصام الآن ؟

ونظر روبير الى بعيد في سحنة قاسية : « انني أُحرجه ، أتفهمين » .

فقلت :

– كلا ، انني لا افهم .

فقال روبير :

– انه في سبيله الى القيام بعملية غريبة . هل رأيت نوع الناس الذين يعاشرهم ؟ اننا ضميره المؤنب . وهو لا يطلب إلا الخلاص منه .

فقلت :

– انت ظالم ! انا ايضاً ، كنت مشمئزة ، ذلك المساء ، لكنك أظهرت لي انت بنفسك ان تقديم مسرحية اليوم يرغم بالضرورة على القيام ببعض تنازلات . وليس بأعمق من هذا عند هنري . انه يعاشرهم على كره منه ، اولئك الناس . انه ينام مع جوزيت : لكن يمكنك ان تكون مطمئناً الى انها ليست هي التي تؤثر عليه . .

فقال روبير :

– ان ذلك العشاء ، في حد ذاته ، لم يكن خطيراً ، موافق. لكنه إشارة. ان هنري شخص يفضل نفسه ، وهو يريد ان يستطيع تفضيل نفسه في اطمئنان تام ، دون ان يكون عليه ان يؤدي حساباً لأحد .

فقلت :

ـ يفضل نفسه ؟ انه يقضي وقته في فعل أشياء تسئمه . لقد اعترفت غالباً بأنه متفانٍ للغاية .

ـ عندما يحلو له هذا ، نعم . لكن الحقيقة هي ان السياسة تسئمه . انــه ليس مشغولاً جدياً إلا بنفسه . » وقاطعني روبير بحركة نافذة الصبر : « هذا ما آخذه عليه اكثر من أي شيء آخر : انه لم يفكر ، في تلك القضية ، إلا في ما سيقوله الناس عنه » .

فقلت :

ـ لا تقل لي ان وجود المعسكرات يتركه لا مبالياً .

فقال روبير :

ـ وانا ايضاً ، انه لا يتركني لامباليــاً ، ليست هذه هي المسألة . » وهز كتفيه : « هنري لا يريد ان يتهم بأنه يترك الشيوعيين يخونونه . انه يفضل ان ينتقل فعلياً الى معسكر اعـداء الشيوعية . وفي هذه الشروط ، انه ليناسبه ان يتخاصم معي . انه يستطيع ان ينحت لنفسه دون إكراه وجهاً جميلاً لمثقف كبير القلب ، سيصفق له اليمين كله » .

فقلت :

ـ لا يستهوي هنري ان يعجب اليمين .

ـ انه يريد ان يعجب نفسه ، وهذا سيجره حتماً الى اليمين : لأن الوجوه الجميلة لا تجد هواة كثيرين بين اليسار . » كان روبير يرفع يـــده نحو التلفون : « سأدعو اللجنة لعقد اجتماع غداً صباحاً » .

وطوال السهرة قلب روبير الفكر ، في سحنة شريرة ، في الرسالة التي كان يريد ان يقدمها للجنة . ولقد غرق قلبي في الحداد صباحاً حين بسطت « الأمل » فوجدت الرسالتين اللتين كانا يتبادلان فيهما هو وهنري الاستنكارات المقذعة ، مطبوعتين فيها . ولقد تجهمت نادين ايضاً . كانت قـــد احتفظت بكثير من الصداقة تجاه هنري ، ولم تكن تتحمل ، من جهة اخرى ، ان يهاجم والدهـــا

علانية . وقالت لي في حنق :

– انه لامبير الذي دفع هنري .

كان بودي لو أفهم مـــاذا حدث في رأس هنري . كانت تفسيرات روبير معادية اكثر مما ينبغي . وكان ما يسخطه اكثر من أي شيء آخر ، هو ان هنري لم يكلمه في ثقة . وقلت في نفسي : لكن بعد كل شيء ، لقد قـــدم له بعض الاسباب ليرتاب . انه سيقول لي انه كان على هنري ان يمحو كل شيء منذ زمن بعيد ؟ هذا جميل جـداً ، لكن الماضي لا ينسى عن إرادة ! وانني اعرف بالتجربة ان المرء يكون ظالماً بسهولة مع الناس الذين لم يتعود الحكم عليهم . انا نفسي ، بحجـــة ان روبير قد شاخ قليلاً في الأشياء الصغيرة ، حدث لي ان شككت فيه : انني ادرك اليوم انه إذا كان قـــد قرر ان يسكت عن قضية المعسكرات ، فإن لهذا أسباباً قوية ، لكني اعتقد ان هذا كان عن ضعف منه . اذن انني افهم هنري . لقد اعجب هو الآخر بروبير ، بشكل أعمى . وعلى الرغم من انه عرف نزعته التسلطية ، فقد تبعه دوماً ، في كل شيء ، حتى عندما كان هذا يرغمه على ان يعيش رغماً عن قلبه . ولا بد ان قضية ترازيو قـــد وصمته ، على الضبط بسبب هذا : لقد ظن هنري ، مـــا دام روبير قد استطاع ان يخيب أمله مرة ، انه اصبح قادراً على اي شيء مهما كان .

اخيراً ، لم تكن هناك فائدة من الانتقاد ، إذ لم يعد التراجع ممكناً . وكانت المسألة المطروحة حالياً هي معرفة إلامَ سيصير اليه « الاشتراكي الثوري الحر » . فهو ، بعد ان انقسم ، ودبت اليه الفوضى ، وخسر جريدته ، محكوم عليه بأن يتبدد بسرعة . واقترح لافوري ، بواسطة لونوار ، اندماجه بالفئات المناصرة للشيوعية . وأجاب روبير بأنه يريد ان ينتظر الانتخابات قبل ان يقرر اي شيء . لكني كنت اعلم انه لن يقبل . صحيح أن اكتشاف وجود المعسكرات لم يتركه لامبالياً ، اذ لم تكن لديه اي رغبـــة في التقرب من الشيوعيين . وكان اعضـــاء « الاشتراكي الثوري الحر » احراراً في التسجل في الحزب الشيوعي ، لكن الحركة ستكف كما هي بكل بساطة عن الوجود .

وكان لونوار اول من تسجل . وكان يهنىء نفسه على ان انفجار « الاشتراكي الثوري الحر » قد ازال الغشاوة عن عينيه . وتبعه آخرون كثيرون : كان هائلا عدد الناس الذين زالت الغشاوة عن اعينهم في تشرين الثـاني ، بعد الانتصارات الشيوعية . وجاءت الصغيره ماري – آنج تسأل روبير مقابلة لـ « السندان » . وقلت :

– لكن منذ متى أصبحت شيوعية ؟

فأجابتني وهي تحدجني بنظرة تفوق سئم :

– منذ ان فهمت انه لا بد ان نتخذ موقفاً .

ورفض روبير لها المقابلة . كانت جميع تلك الاحاديث حوله تغيظه . وعلى الرغم من حقده على هنري ، فقد اشمأز من مقال لاشوم . وعندما عاد لونوار الى المسألة ، اصغى اليه في نفاد صبر . وقال لونوار بصوت متحمس :

– انه اجمل رد يمكن للشيوعيين ان يجيبوا به على تلك الحملة الرعناء : نجاح الانتخابات . ان بيرون وعصبته لم ينجحوا في ابعاد صوت واحد . » ونظر الى روبير نظرة مشجعة : » ان « الاشتراكي الثوري الحر » سيتبعك حالياً كرجل واحد اذا اقترحت عليه الاندماج الذي كنا نتكلم عنه في اليوم السابق » .

فقال روبير :

– لقد مات « الاشتراكي الثوري الحر » . ولم اعد انا اشتغل بالسياسة .

فقال لونوار :

– هيا اذن . » وابتسم : أعضاء « الاشتراكي الثوري الحر » لا يزالون احياء . وتكفي كلمة توجيه واحدة منك لضمهم » .

فقال روبير :

– لست انوي ان اقولها . انني لم اكن اصلاً على اتفـاق مع الشيوعيين قبل قضية المعسكرات : ولن اذهب لألقي بنفسي بين اذرعهم الآن .

فقال لونوار :

– المعسكرات : لكن ، اسمع لقد رفضت ان تسهم في هذه الخدعة .

فقال روبير :

– لقـــد رفضت ان أتكلم عن المعسكرات ، لكني لم أرفض ان اؤمن بوجودها . وقبلياً ، يجب دومـاً ان نؤمن بالأسوأ ، فهذه ، هي الواقعيـــة الحقيقية .

فقطب لونوار حاجبيه . وقـال : « يجب ان نعرف كيف نواجه الأسوأ ، ونتجاوزه ، انا موافق . لكن عندئذ ، وبّخ الشيوعيين على كل ما تريده : فهذا يجب ألا يمنعك من السير معهم » .

فكرر روبير :

– كلا . لقد انتهى الأمر بيني وبين السياسة . انني عائد الى حجري .

كنت اعلم جيداً ان « الاشتراكي الثوري الحر » لم يعد له وجود وانه ليس لدى روبير اي مشروع جديد . ومع ذلك فقد شعرت بصدمة صغيرة عندمـا سمعته يصرخ انه عائد الى حجره . وما ان ذهب لونوار ، حتى سألت :

– هل انتهيت حقاً من السياسة ؟

فابتسم روبير : « اشعر انهـــا هي التي انتهت مني . ماذا استطيع ان افعل ؟ » .

فقلت :

– انا واثقة انك لو بحثت لوجدت .

فقال :

– كلا . ثمة شيء بدأت اقتنع به : وهو ان الأقلية لم تعد لها فرصها اليوم.» وهز كتفيه : « انني لا اريد ان اعمل مع الشيوعيين ولا ضدهم . إذن ؟ » .

فقلت في مرح :

– اذن ، كرّس نفسك للأدب .

فقال روبير بدون حماسة :

– نعم .

– لا تزال تستطيع ان تكتب مقالات في « الطواريء » .

– عند المناسبة سأكتب . لكن ما نكتبه لا يزن ثقيلاً ، نهائيـاً . وصحيح ما كان يقوله لونوار ، ان مقالات هنري لم يكن لها أي تأثير على الانتخـابات . فقلت :

– يبدو على لونوار انه يعتقد ان هنري آسف لذلك . لكن هذا ظلم كبير : فهو ، حسب ما قلته لي بنفسك ، لم يكن يتمنى ذلك .

فقال روبير بصوت متعجرف :

– انني لا اعرف ما كان يتمناه . انني لست واثقاً انه نفسه عرف ذلك .

فقلت في حدة :

– على كل حال ، ستعترف ان « الامل » لا تسير مع اعداء الشيوعية .

فقال روبير :

– حتى الان ، كلا . يجب ان ننتظر البقية .

كان يغضبني ان افكر ان روبير وهنري قد تخاصمـا بسبب قصة كانت تنتهي كذنب سمكة . لم يكن هنـاك مجال ليتصالحا ، لكن من الجلي ان روبير كان يشعر بوحدة كبيرة . لم يكن شتاء سعيداً . كانت الرسائل التي أتلقاهـا من ليويس مرحة، لكنها ما كانت تشدد من عزيمتي . كانت تثلج في شيكاغو ، وكان الناس يتزحلقون على البحيرة ، وليويس يقضي اياماً دون ان يخرج من غرفته ، ويروي لنفسه قصصاً : يروي لنفسه اننـا في شهر أيار سنهبط الميسيسيبي في مركب ، واننا سننام معاً في كوخ ، يهدهدنا خرير الماء . وكان يبدو عليه انـه يصدق ذلك . ولم يكن الميسيسبي ، دون شك ، يبدو من شيكاغو بعيداً جداً . لكني كنت أعرف ان هذا النهار البارد والرمادي الذي يبدأ مع كل يقظة سيبدأ دوماً الى ما لا نهاية بالنسبة لي . وكنت افكر : ابـداً لن نلتقي ثانية . ولن يكون هناك ربيع » .

وذات مساء من تلك الأماسي التي بـدون مستقبل سمعت بالتلفون صوت بول . كانت تتكلم في لهجة آمرة :

– آن ! أهذه انت ؟ تعالي على الفور ، انني بحاجة للكلام معك ، هـذا

مستعجل .

فقلت :

– انني آسفة . لديّ أناس على العشاء : سأمر غداً صباحاً .

– انت لا تفهمين : يحدث لي الآن شيء رهيب وليس هناك غيرك يمكنه ان يساعدني .

– ألا تستطيعين ان تقفزي الى هنا ؟

وساد صمت : « من لديك على العشاء ؟ » .

– آل بيلوتييه وآل كانج .

– هنري ليس معهم ؟

– كلا .

– أمتأكدة ؟

– بديهي انني متأكدة .

– اذن سآتي . لا تقولي لهم على الأخص .

وبعد نصف ساعـــة قرعت ، وادخلتها إلى غرفتي . كان منديل قاتم يخفي شعرها . ولم يكن المسحوق الذي رشت وجهها به ليحجب أنفها المنتفخ. وكانت لأنفـاسها رائحة ثقيلة من النعنع والتجبر . لقد كانت بول جميلة جداً حتى انني لم أتصور قط انها يمكن ان تكف عن ان تكون جميلة نهائياً : كان ثمـــة شيء في وجهها يستطيع ان يقاوم كل شيء . وفجأة اتضحت الحقيقة . فقد كان مصنوعاً كسائر الأوجه من لحم إسفنجي : اكثر من ٨٠٪ منه ماء . ونزعت منديلهـــا وتهالكت على الأريكة : « انظري ماذا استلمت » .

كانت رسالة من هنري ، بضعة سطور من كتابة واضحة على ورقـــة بيضاء صغيرة : « بول . انـــا لا نفعل شيئاً سوى إيلام انفسنا . من الافضل ان نكف تماماً عن التلاقي . حاولي ألا تفكري بي بعد الآن . انني أتمنى ان نستطيع ذات يوم ان نصبح صديقين . هنري » .

وقالت :

ـ أتفهمين منها شيئاً ما ؟

فقلت :

ـ انه لم يجرؤ على تكليمك . وفضل ان يرسل لك رسالة .

ـ لكن ماذا تعني ؟

ـ تبدو لي واضحة .

ـ انت محظوظة .

كانت تنظر إليّ نظرة استفهام وتمتمت أخيراً :

ـ انها رسالة قطيعة .

ـ قطيعة ؟ هل سبق لك ورأيت رسائل قطيعة مكتوبة هكذا ؟

ـ ليس فيها شيء فائق للعادة :

فهزت كتفيها : « كفى ! أولاً ماذا يوجد لنقطعه بيننا ؟ ما دام يقبل بفكرة الصداقة وما دمت لا أتمنى شيئاً آخر » .

ـ هل انت واثقة انك لم تقولي له انك تحبينه ؟

فقالت بصوت عنيف ذكرني فجأة بصوت نادين :

ـ انني أحبه خارجاً عن هذا العالم: بمَ يحرج هذا صداقتنا ؟ ثم انه يتطلبه، هذا الحب . ان هذه الرسالة لمرائية الى حد مقرف ! اخيراً ، اقرئيها ثانية : « حاولي » الا تفكري بي بعد الآن . لماذا لا يقول ببساطة : لا تفكري بي بعد الآن ؟ انه يفضح نفسه ، انه يريد ان اعذب نفسي في المحاولة ، لكن ليس ان انجح فيها . وفي الوقت نفسه ، بدلاً من ان يدعوني بابتذال : « عزيزتي بول ، يكتب : بول » . وتهدج صوتها وهي تلفظ اسمها .

ـ لقد خشي أن تبدو لك كلمة « عزيزتي » مرائية .

ـ مطلقاً . انت تعرفين جيداً انه في الحب ، في أهيج الأوقات ، لا يقال الاسم الا عارياً تماماً . لقد أراد ان يسمعني صوته المخدعي ، أتفهمين ؟

فقلت :

ـ لكن لماذا ؟

فقالت وهي تنظر اليّ نظرة متهمة :

– هذا ما جئت اسألك عنه . » واشاحت بعينيها : « نحـن لا نفعل شيئاً سوى ايلام انفسنا . لقد طفح الكيل ! انه يزعم انني اعذبه ! » .

– افترض انه يتألم لأنه يجعلك تتألمين .

– ويتصور ان هذه الرسالة ستكون لذيذة علي ؟ كفى ! كفى ! انه ليس أحمق الى هذه الدرجة .

وساد صمت وسألت : « ماذا تفترضين ؟ » .

فقالت :

– انني لا أرى بوضوح . لا ارى بوضوح مطلقاً . لم اكن افترض انه يمكنه ان يكون سادياً الى هذا الحد . » ومررت يديها على خديها في سحنة منهكة : كان يخيل إلي انني ربحت تقريباً . كان قد عاد واثقاً ، وديـاً ، وأكثر من مرة شعرت انه على استعداد لأن يقول لي ان الامتحان انتهى . ثم ، في يوم سابق ، كدت اقوم بمناورة خاطئة » .

– ماذا حدث ؟

– كان الصحفيون قد اعلنوا زواجه من جوزيت . وبالطبع لم أصدق ذلك لحظة واحدة كيف يمكنه ان يتزوج جوزيت ما دمت انا امرأته ؟ كان هـــذا يشكل جزءاً من الامتحان، وقد فهمت ذلك فوراً . وجاء ليعترف لي انها كذبة . نعم ؟

– ما دمت اقول لك ذلك ! هل ترتابين فيّ انت ايضاً ؟

– قلت « نعم » . لم يكن هذا سؤالاً .

– قلت : نعم؟ حسناً لنمضِ . لقد جاء . حاولت ان اشرح له انه يستطيع ان يضع حداً لهذه المهزلة، وان ما من شيء يحدث له في هذا العالم يمكنه بعـــد الآن ان يصيبني ، وانني أحبه في نكران تام للذات . ولست ادري هـل كنت خرقاء ام انه هو المجنون . فعند كل كلمة كنت اقولها ، كان يسمع غيرها : كان هذا فظيعاً ... » .

وساد صمت طويل وسألت في حذر : « لكن ماذا تعتقدين انه يريـد منك على الضبط ؟ » .

فتفرست في وجهي في شك ، وقالت :

– أخيراً ، اي لعبة تلعبينها ؟

– انني لا العب اي لعبة .

– انك تطرحين عليّ اسئلة سخيفة .

وبعد صمت جديد تابعت : « انت تعرفين تماماً ماذا يريـد . انه يريد ان امنحه كل شيء دون ان اطلب منه شيئاً ، هذا بسيط . ومـا لا اعرفه هو هل كتب هذه الرسالة لأنه يعتقد انني لا أزال اطلب حبه ، ام لانه يخشى ان ارفض له حبي . وفي الحالة الاولى ، فإنها المهزلة التي تستمر . وفي الثانية ... » .

– في الثانية ؟

فقالت في اغتمام :

– انه انتقام . » ومن جديد حطت نظرتها عليّ ، مترددة ، مرتابة ، إلا انها آمرة : « يجب ان تساعديني » .

– كيف ؟

– يجب ان تكلمي هنري وان تقنعيه .

– لكن يا بول ، انت تعرفين جيداً انني وروبير قد تخاصمنا مع هنري .

فقالت في غموض :

– اعرف . لكنك ترينه على كل حال .

– يقيناً أن لا .

فترددت : « لنقبل ، على كل حال ، تستطيعين ان تريه : انـه لن يلقي بك الى اسفل الدرج » .

– سيعتقد انك انت التي ارسلتني ، وما سأقوله لن يكون له اي وزن .

– هل انت صديقتي ؟

– طبعاً !

فرمتني بنظرة مقهورة ، وفجأة انفرج وجهها وذرفت دموعهـا . وقالت :
« انني اشك في كل شيء » .

فقلت :

– بول ، انني صديقتك .

فقالت :

– إذن اذهبي لتكلميه . قولي له انني عييت ، وان هذا يكفي : فمن الممكن ان اكون قد ارتكبت أخطاء . لكن قـد مضى وقت طويل على تعذيبه لي . قولي له ان يكف !

فقلت :

– لنفترض انني قمت بهذه الخطوة . عندما سآتيك بمـا قاله لي هنري ، هل ستصدقينني ؟

فنهضت ، ومسحت عينيها ، واصلحت من وضع منديلها ، وقـالت وهي تسير نحو الباب :

– سأصدقك إذا قلت الحقيقة .

كنت اعرف ان من اللامجدي تماماً ان اتكلم الى هنري . اما بخصوص بول ، فإن كل محادثة ودية ستكون بعد الآن باطلة . كان يجب ان اسطحها على أريكتي وان اعرضها للاستجواب . ولحسن الحظ لم يكن مسموحاً لنا ان نعالج شخصاً نعرفه معرفة صميمة : اذ كنت سأشعر انني ارتكب خطيئة استغلال الثقـة . ولقد ارتحت بشكل جبان عندما رفضت ان ترفع سماعـة التلفون واجابت على رسالتيّ بكلمة مقتضبة : « اعذريني . انني بحاجة للعزلة . سأتصل بك في اليوم المؤام » .

وتابع الشتاء جر نفسه . كانت نادين لا يقر لها قرار منذ قطيعتها مع لامبير . وباستثناء فانسان لم تكن ترى احداً . وكانت قـد كفت عن ممارسة الصحافة ، وتكتفي بالاهتمام بـ « الطوارىء » . وكان روبير يقرأ كثيراً ، وكان يأخذني غالباً الى السينما ويمضي ساعات في الاستماع الى الموسيقى : كان قـد اخذ يشتري

اسطوانات بكثرة . وعندما يظهر عليه هكذا هوس جديد ، فهذا يعني ان عمله لا يسير .

ذات صباح ، بينما كنا نتناول إفطارنا ونحن نقلب الصحف ، وقعت عيناي على مقال للونوار . كانت المرة الاولى التي يكتب فيها في صحيفة شيوعية . ولقد وجه فيها ضربة جدية . كان ينفذ حكم الاعدام بجميع اصدقائــــه القدامى ، حسب القواعد . وكان روبير اقلهم سوء معاملة . وبالمقابل ، كان هائجاً ضد هنري . وقلت :

– انظر الى هذا .

وقرأ روبير ، ورمى الجريدة : «يجب ان اعترف بأن هنري يستحق التقدير اذ لم يصبح معادياً للشيوعية » .

– قلت لك انه سيتحمل الضربة !

فقال روبير :

– لا بد ان هناك تجاذباً في الجريدة . فمن الملموس حسب مقالات سامازيل انه لا يطلب الا الالتحاق باليمين . وكذلك تراريو ، بالطبع . ولامبير اكثر من مشكوك في أمره .

فقلت :

– اواه ! هنري لا يرفل في الحرير ! » وابتسمت : « في الحقيقة ، ان موقفه موقفك نفسه تقريباً : فكلاكما متخاصمان مع العالم كله » .

فقال روبير :

– لا بد ان هذا يحرجه اكثر مني .

كانت في صوته لطافـة تقريباً . وشعرت ان حقده على هنري اخذ يتبدد . وقلت :

– لن اتوصل ابداً الى ان افهم لماذا تخاصم معك على ذلك النحو . انا واثقـة انه يعض على البنان ندماً اليوم .

فقال روبير :

– لقد اعدت التفكير في هذا كثيراً . في البداية كنت آخذ عليه انـه اهتم اكثر مما ينبغي بنفسه ، في تلك القضية ؛ والآن اقول لنفسي انه لم يكن مخطئاً الى هذا الحد . في الحقيقة كان علينا ان نقرر مـاذا يمكن وماذا يجب ان يكون دور المثقف ، اليوم . وكان الصمت يعني ان تختـار حلاً متشائمـاً جداً : ومن الطبيعي ، في سنه ان يغضب .

فقلت :

– الغريب هو ان هنري أقل حرصاً منك بكثير على القيام بدور سياسي .

فقال روبير :

– لعله فهم ان اشياء اخرى مطروحة على بساط البحث .

– ماذا اذن ؟

فتردد روبير : « أتريدين لب فكرتي ؟ » .

– بالطبع .

– لم يعد للمثقف اي دور يلعبه .

– كيف هذا ؟ انه يستطيع على كل حال ان يكتب ، أليس كذلك ؟

– اوه ! يمكننا ان نلهو بضم كلمات ، كما نضم لآلىء ، مـع الحرص الكبير على ألا نقول شيئاً . لكن حتى هكذا ، هذا خطر .

فقلت :

– لنرَ ، انت في كتابك تدافع عن الأدب .

فقال روبير :

– آمل ان ما قلته فيه سيعود حقيقياً من جديد ذات يوم. اما حالياً ، فإنني اعتقد ان خير ما نستطيع ان نفعله ، هو ان نجعل العالم ينسانا .

فسألت :

– الا انك لن تكف عن الكتابة ؟

– بلى . بعد ان انهي تلك الدراسة ، لن اكتب .

– لكن لماذا ؟

فقال روبير :

– ولماذا اكتب ؟ لأن الانسان لا يعيش بالخبز وحده ولأنني أؤمن بضرورة هذه الفضالة . انني اكتب لإنقاذ كل ما يهمله العمل : الحقائق الراهنة ، الفرد ، ما هو مباشر . وكنت افكر حتى الآن ان هـــذا العمل يندمج بعمل الثورة . لكن لا : انه يحرجه . ففي الساعة الراهنة ، يستغل كل ادب يهـدف الى منح البشر شيئاً آخر غير الخبز ، لإثبات انهم يستطيعون ببساطة ان يستغنوا عـن الخبز .

فقلت :

– لقد تجنبت دوماً سوء التفاهم هذا .

فقال روبير :

– لكن الاشياء تغيرت . » وتابـع : « أتفهمين ، ان الثورة اليوم في ايدي الشيوعيين وفي ايديهم وحدهم ، والقيم التي كنا ندافع عنها لم يعد لها مكانها فيها . ربما سنجده ثانية ، لنأمل ذلك . لكن اذا عاندنا في المحافظة عليها ، في هـــذا الوقت ، فإننا سنخدم اعداء الثورة .

فقلت :

– كلا ، لا اريد ان اصدق هذا . ان لهم الحقيقة ، واحترام الأفراد ، ليس مؤذياً على الاطلاق .

فقال روبير :

– عندما رفضت ان اتكلم عن معسكرات الشغل ، فهذا لأن الحقيقة بدت لي مؤذية .

– كانت هذه حالة خاصة .

فقال :

– حالة خاصة تشبه مئات الحالات الاخرى . كلا اننا نقول الحقيقـة او لا نقولها . واذا لم نكن عازمين على قولها دوماً ، فيجب الا ندسّ أنفسنا فيهـا : الأفضل ان نسكت .

فتفرست في وجه روبير : « أتعرف ما أعتقده ؟ انت لا تزال ترى انـــه يجب التزام الصمت حول المعسكرات الروسية ، لكن هذا قـــد كلفك على كل حال . والتضحيات، انت مثلي في ذلك: نحن لا نحبها، وهي تسبب لنا تبكيت ضمير . وانما لتعاقب نفسك تتخلى عن الكتابة » .

فابتسم روبير : « لنقل بالأحرى انني بتضحيتي ببعض الاشياء — وبشكل موجز ، ما تسمينه واجباتي كمثقف — وعيت بطلانها » . وأضاف : « أتذكرين سهرة ميلاد ١٩٤٤ ؟ كنا نقول انه ربما سيأتي يوم يخسر فيه الأدب حقوقـــه . حسناً ! ها قد وصلنا . ليس ما نفتقر اليه هم القراء. لكن الكتب التي أستطيع ان اقدمها لهم اما ان تكون مضرة ، او لا معنى لها » .

فترددت : « ثمة شيء غير منطقي في هذا الكلام » .

— ماذا اذن ؟

— اذا كانت القيم القديمة تبدو لك باطلة الى هـــذا الحد ، فقـــد كنت ستسير مع الشيوعيين .

فهز روبير برأسه : « انت على حق : ثمة شيء غير منطقي . سأقول لــك ماذا : انني مسنّ » .

— ما دخل عمرك بهذا ؟

— انني أتبين جيداً ان كثيراً من الاشياء التي حرصت عليهـــا لم تعد موضع رهان . انني مقاد الى ارادة مستقبل مختلف جداً عن الذي كنت أتصوره . كل ما هنالك انني لا استطيع ان أتغير: اذن فأنا لا أرى لي مكاناً في ذلك المستقبل.

— بتعبير آخر ، انت تتمنى انتصار الشيوعية ، مع علمك انك لا تستطيع ان تعيش في عالم شيوعي ؟

— هذا هو الأمر تقريباً . » وأضاف : « سأحدثك عن ذلك ثانية . سوف اكتب عن هذا الموضوع : سيكون هذا خلاصة كتابي .

فقلت :

— ثم ، عندما سينتهي الكتاب ، ماذا ستفعل ؟

– سأفعل كسائر الناس. هناك ملياران ونصف مليار من البشر لا يكتبون.

ولم أشأ ان اقلق كثيراً . كان على روبير ان يصفّي « الاشتراكي الثوري الحر » ، وكان في ازمة ، وسوف يتمالك نفسه ثانية . لكني أعترف انني لم اكن احب هذه الفكرة : ان نعيش كسائر الناس . ان نأكل لنعيش ، وان نعيش لنأكل ، كان هذا كابوس مراهقتي . واذا كان لا بد من العودة الى هذه النقطة ، فالأفضل ان اشعل الغاز فوراً . لكني افترض ان جميع الناس يعتقدون ايضاً بهذه الاشياء . لنشعل الغاز فوراً . وما كنا لنشعله .

وشعرت انني منحطة بالأحرى ، في الايام التالية ، ولم اكن أرغب في رؤية احد . ولقد دهشت كثيراً عندما وضع مستخدم بين ذراعي ذات صباح باقة ضخمة من الورود الحمر . وكانت عليها رسالة صغيرة من بول ، مشكولة بالورق الشفاف :

– « رائع ! لقد تبدد سوء التفاهم ! انني سعيدة وارسل لك وروداً . الى بعد ظهر اليوم ، عندي » .

وقلت لروبير : « ليست الحال بأفضل » .

– ليس هناك اي سوء تفاهم ؟

– مطلقاً .

وكرر عليّ ما سبق وقاله لي عدة مرات :

– يجب ان تأخذها الى « ماردروس » .

– لن يكون من السهل دفعها الى تقرير ذلك .

لم اكن طبيبتها . لكني لم اكن صديقتها ايضاً ، بينما كنت ارتقي درجها مع اكاذيب على طرف شفتي ، ونظرة احترافيــة قابعة في اعماق عينيّ . وبدت لي الابتسامة التي اصطنعتها وانا اقرع بابها خيانة ، ولقد ازداد خجلي عندما بدرت عن بول وهي تستقبلني حركة غير معتـادة : فقد قبلتني . كانت ترتدي ثوباً من اثوابها الطويلة التي بدون عمر ، وكانت قد علقت وردة حمراء بشعرهـا المحلول ، ووردة اخرى على صدرها . وكان الاستديو مليئاً بالزهور .

وقالت بول :

– ما ألطفك بمجيئك ! انت دوماً لطيفة جداً . انني لا استحق ذلك حقاً: فقد كنت نتنة معك . » وأضافت في لهجة اعتذار « لقد فقدت المنطق تماماً » .

– انما علي انا ان اشكرك : فقد ارسلت لي وروداً عظيمة .

فقالت بول :

– آه ! انه يوم عظيم ! لقد حرصت على ان تشاركي في العيد . » وابتسمت لي في سحنة سعيدة : « إنني انتظر هنري بين دقيقة واخرى : كل شيء يبدأ من جديد » .

كل شيء يبدأ من جديد ؟ انني لأشك في ذلك كثيراً . وكنت افترض بالأحرى ان هنري قد قرر هذه الزيارة بدافع الشفقة . على كل حال ، لم اكن اريد ان أجتمع به . وخطوت خطوة نحو الباب :

– قلت لك اننا تخاصمنا مع هنري . سيحنق عندما يراني هنا . سأعود غداً .

فقالت :

– ارجوك !

كان في عينيها رعب عظيم حتى انني ألقيت بحقيبتي وقفازي على الاريكة . ليكن ، انني باقية . وسارت بول نحو المطبخ بخطى عريضة حريرية وعادت حاملة على صينية كأسين وزجاجة شمبانيا : « سنشرب نخب المستقبل » .

وطارت السدادة ، وقرعنا كأسينا . وسألت :

– ماذا حدث ؟

فقالت بول في مرح :

– يجب ان اكون بلهاء حقاً . منذ زمن بعيد ، وجميع الدلائل معي في يدي . ولكن لم تتضح الصورة وتتشكل إلا هذه الليلة . لم اكن نائمة لكني كنت مغمضة عيني وفجأة رأيت ، كما يرى الانسان بوضوح على البطاقة البريدية ، الحوض الكبير لقصر دي بلزونس . ومن الفجر أرسلت بطاقة الى هنري .

نظرت إليها في قلق . نعم ، لقد فعلت حسناً ببقائي . فلم تكن الحال أفضل ، بل لم تكن على ما يرام مطلقاً . وقالت بول :

– ألا تفهمين ؟ هذا سخيف مثل مسرحية فودفيل ! إن هنري غيور .

وضحكت في مرح حقيقي : « هذا يبدو غير معقول ، أليس كذلك ؟ » .

– بالأحرى .

– حسناً ! انها الحقيقة . انه يتلهى سادياً بتعذيبي ، والآن انني اعلم لماذا . »

وأصلحت من وضع الوردة الحمراء في شعرها : « عندما أعلن لي فجأة انه يجب ان نكف عن النوم معاً ، اعتقدت ان هذا من قبيل سرعة التأثر الاخلاقي . وكنت مخطئة تماماً : فقد تصور في الحقيقة انني أصبحت باردة ، لقد جرحه ذلك بفظاعة في كبريائه . ولم احتج بما فيه الكفاية من القناعة مما زاد في غضبه ايضاً . وعندئذ ، اخذت اخرج ، وألبس ، واغتاظ من ذلك وقلت له الى اللقاء في مرح ، في مرح كثير ، اكثر مما تتحمله طبيعته . وذات مرة ، في بورغونيا ، ارتكبت غباوات هائلة ، واقسم لك انني لم افعل ذلك عمداً » .

وفي تلك اللحظة ، قرع الباب في لطف . ونظرت إليّ بول بوجه دفعني للنهوض والذهاب لأفتح . كانت امرأة تمسك بيدها سلة . وقالت :

– عفواً ، المعذرة ، انني لا أجد البوابة . اريد اجراء عملية لهر .

فقلت :

– العيادة في الطابق الارضي ، الباب الذي الى اليسار .

واغلقت الباب وتجمدت ضحكتي عندما صادفت نظرة بول التائهة . وقالت :

– ما معنى هذا ؟

فقلت :

– ألاّ تكون البوابة موجودة ، هذا يحدث لها .

– لكن لماذا قرعت هنا بالذات ؟

– انها صدفة : كان لا بد لها ان تقرع احد الأبواب .

فقالت بول :

– صدفة ؟

فابتسمت في سحنة مشجعة : « كنت تحدثينني عن عطلتك . مـاذا فعلت إذن لجرح هنري ؟ » .

– آه ! نعم . » كان صوتها قد خلا من كل حماسة : « حسناً . ! لقد أرسلت له بطاقة بريدية اولى . حدثته فيهـا عن مشاغلي وكتبت هذه الجملة التعيسة : انني اقوم بنزهات طويلة في هذا البلد الذي يشبهني على ما يقال . وبديهي ، فقد ظن فوراً ان لي عشيقاً » .

– لست ارى ...

فقالت في نفاذ صبر :

– « يقال » . صيغة المجهول هـذه كانت مشبوهة . فعندمـا تشبه امرأة بمشهد ، فهذا يعني بشكل عام ان من يشبهها عشيقها . وبعد ذلك ارسلت إليـه في البندقية ببطاقة اخرى تمثل حديقة بلزونس مع حوض في وسطها .

– واذن ؟

– لقد أعلمتني بنفسك ان الينابيع ، والأحواض ، والبرك ، رمز نفساني . وفهم هنري انني القي في وجهه كوني قد اتخذت عشيقاً ! ولا بد انه علم ان لويس فولانج كان هناك : ألم تلاحظي ، في عشاء المراجعة العامـة ، اي نظرة كان يصعقني بها عندما كنت أتكلم مع فولانج ؟ هـذا واضح وضوح ان اثنين واثنين يساويان أربعة . وبدءاً من هنا ، كل شيء يتسلسل .

– أهذا ما قلته له في بطاقتك ؟

– نعم . انه يعرف الآن كل شيء .

أأجابك ؟

ولمَ ذلك ؟ سوف يأتي ، انه يعلم تماماً انني انتظره .

ولزمت الصمت. كانت بول، في اعماقها ، تعرف انه لن يأتي : لهذا تضرعت إليّ بأن ابقى . فقد كان لا بد لها ، في لحظة معينة ، ان تعترف في نفسها انه لم

يأت ، وعندئذ سوف تنهار . وأملي الوحيد ان يكون هنري قد فهم انهـــا في سبيلهـــا الى ان تصبح مجنونة فيمر لرؤيتها شفقة وبانتظار ذلك ، لم أكن أجد شيئاً اقوله . كانت تنظر الى الباب في شخوص مـــا عدت استطيع احتماله . وكانت رائحة الورود تبدو لي رائحة موت . وسألت :

ـ ألا زلت تشتغلين ؟

ـ نعم .

فقلت وقد حلّ علي إلهام مفاجيء :

ـ لقد وعدت بأن تريني شيئاً ما . ثم لم تفعلي ذلك ابداً .

ـ أهذا يهمك حقاً ؟

ـ بالتأكيد .

وسارت نحو مكتبها واخرجت منه رزمة من أوراق زرق مغطاة بكتابـة مستديرة . ووضعتها على ركبتي . كانت ترتكب دوماً أخطاء املائية ، ولكن ليس مثل هذا العدد الكبير ابداً . وتصفحت ورقة . كان ذلك يمنحني ثقـة ، لكن بول لا تزال تنظر إلى الباب . وقلت :

ـ انني لا احسن قراءتك . ايزعجك ان تقرئي بصوت عال ؟

فقالت بول :

ـ كما تشائين .

واشعلت سيجارة . كنت اعرف ، بينما هي تقرأ على الاقل ، ما الأصوات التي كانت تتشكل في حنجرتها . لم أكن انتظر شيئاً كبيراً ، لكني فوجئت على كل حال : كانت كتابتها مرهقة للنفس. وفي منتصف جملة ، قرع الباب السفلي. وقالت في لهجه منتصرة : « أرأيت ! » . وضغطت على الزر الذي يتولى فتح الباب . ولبثت واقفة ، وعلى وجهها تعبير وُجد .

ـ بطاقة هوائية[1] .

---

١ ـ في باريس ، وبعض المدن الاوروبية الكبيره ، ترسل الرسائل المستعجلة بواسطة جهاز للهواء المضغوط ، ينقش في مختلف انحاء المدينة . « المترجم » .

– شكراً .

واطبق الرجل البـــاب خلفه وناولتني الورقة الزرقاء : « افتحيهـــا واقرئيها لي » .

كانت قد جلست على الأريكة . وكانت غمازتاهـــا وشفتاها قد اصبحت بنفسجية .

« بول . لم يقع أي سوء تفاهم مطلقاً . سنصبح صديقين عندما تقبلين بـــأن حبنا مات . وبانتظار ذلك ، لا تكتبي لي . الى اللقاء » .

وتهاوت بطولها كله بعنف كبير حتى ان إحدى الورود فوق المدفأة تناثرت اوراقها . وأنـّت : « انني لا أفهم . لم اعـــد افهم شيئاً » . كانت تنتحب ، ووجهها مختبىء بين الوسادات ، ورحت ألقي عليها بكلمات خالية من المعنى ، كي اسمع مواء صوتي فحسب : « سوف تشفين ، يجب ان تشفي . الحب ليس كل شيء ... » . مع علمي بأنني ، مكانها ، ما كنت لأود ابداً ان اشفى وان أدفن حبي بيدي .

كنت عائدة من سان – مارتان حيث قضيت نهاية الاسبوع عندمـــا تلقيت بطاقتها الهوائية : « العشاء يقام غداً في الساعة الثامنة » ورفعت سماعة التلفون. وبدا لي صوت بول جليدياً .

– آه ! أهذه انت ؟ ما الأمر !

– كنت اريد ان اقول لك فقط انني موافقة على غد مساء .

فقالت :

– بالطبع ، موافقة . » ووضعت السماعة .

كنت أنتظر سهرة صعبة ومع ذلك حين فتحت بول لي الباب ، صُدمت . لم اكن قد رأيت وجهها قط بدون ماكياج . وكانت ترتدي تنورة قديمـــة ، وكنزة رمادية عتيقة ، وكان شعرها مشدوداً الى الخلف بشكل كريه . وكانت قد وضعت على الطاولة ، التي اضافت اليها الواحـــاً خشبية والتي تمتد من طرف الاستديو الى طرفه الآخر ، اثني عشر صحناً ومثلهـــا من الاقداح . وقالت لي

مكشرة وهي تمد لي يدها :

– أجئت تقدمين لي تعازيك ام تهانيك ؟

– بأية مناسبة ؟

– قطيعتي مع عشيقي .

ولم اجب وسألتني وهي تشير من فوق كتفي الى الممشى الخاوي :

– اين هم ؟

– من ؟

– الآخرون ؟

– اي آخرين ؟

فقالت بصوت متردد وهي تطبق الباب .

– آه ! كنت اظن ان عددكم اكبر بكثير . » والقت نظرة على الطـاولة . « ماذا تريدين ان تأكلي ؟ » .

– اي شيء مما لديك .

فقالت .

– لأنه ليس لدي شيء ، الا العجة من الجائز ؟

فقلت في استعجال .

– على كل الاحوال ، لست جائعة .

فقالت بصوت معرّض .

– استطيع ان اقدم لك عجة دون ان اؤذي احداً .

– كلا حقاً . يحدث لي غالباً ألا أتعشى .

وجلست ، ولم اكن استطيع ان اشيح بناظري عن مائدة المـأدبة تلك . وكانت بول قد جلست ايضاً ، وراحت تتفرس في وجهي في صمت . لقـد سبق لي ورأيت في عينيها تأنيباً ، شكاً ، جزعاً ، اما اليوم فلم يكن بالإمكان ان اخطىء : كان الحقـد ، اسود ، بارداً قاسيـــاً . وغصبت نفسي على الكلام . وقلت :

– من كنت تنتظرين ؟

– كنت انتظركم جميعاً ! » وهزت كتفيها : « لا بد انني نسيت ان ارسل الدعوات » .

فسألت :

– جميعاً : من تعنين ؟

فقالت :

– تعرفين جيداً . انت ، هنري ، فولانج ، كلودي ، لوسي ، روبير ، نادين : التحالف كله !

– تحالف ؟

فقالت بصوت قاسٍ :

– لا تتظاهري بالبراءة . انتم جميعاً متحالفون . والسؤال الذي كنت اريد أن أطرحه عليكم هذا المساء ، هو هـذا : لأية غاية عملتم ؟ اذا كانت لصالحي ، فإنني سأشكركم وسأرحل الى افريقيا للاعتناء بالبرصى وإن لم يكن ، فلم يبق علي الا ان انتقم » ونظرت إليَّ في ثبات : « سيتوجب علي ان انتقم اولاً من الذين كانوا أعز النـاس علي . فيجب اذن الا أقرر إلا وانا واثقـة » . كان في صوتها هوس قـاتم جداً حتى انني رحت انظر خلسة الى الحقيبة التي وضعتها على ركبتيها والتي كانت تلعب بعصبية بقفلها اللامع . وفجأة ، كان كل شيء قـد اصبح ممكناً . هذا الاستديو الاحمر ، ما أجمله من ديكور لجريمة قتل ! وقررت ان اشن هجوماً معاكساً :

– اسمعي يا بول، تبدين متعبة جداً هذه الايام . انت تقيمين عشاء ، وتنسين ان تدعي الناس ، وتنسين ان تعدّي الطعام . وها انت الآن تخترعين بحراناً من الاضطهاد.يجب ان تذهبي لرؤية طبيب حالاً.سآخذ لك موعداً مع ماردروس.

وللحظة ، بدت متحيرة وقـالت : « بي صداع رأس ، لكن هـذا شيء ثانوي . يجب اولاً ان اضع الامور تحت النور » . وفكرت : « اعرف ان لي مزاجاً يحب التفسيرات . لكن الواقعة واقعة » .

– اين هي الوقائع ؟

– لماذا وجهت كلودي رسالتها الاخيرة الى شارع سنجر ؟ لماذا كان هناك قرد يكشر لي في البيت المواجه ؟ لماذا اجبتني حين قلت انني لا أعرف كيف ادير صالوناً . على العكس ؟ انتم تتهمونني بأنني قلدت هنري بمحاولة الكتابة ، بأنني قلدت كلودي ، في تسريحاتها وحياتها الدنيوية . انتم تلومونني على انني قبلت مال هنري وازدريت المساكين . لقد اتحدتم لتقنعوني بسفالتي . » ومن جديد حدجتني بنظرة مهددة : « هل كان ذلك لإنقاذي ام لتهديمي ؟ » .

فقلت :

– ما تسمينه وقائع ليس الا صدفاً لا تعني شيئاً .

– هيا ، هيا ! انها ليست غيوماً تلتقي ! » واضافت في نفاد صبر : « لا تنكري . اجيبني بصراحة ، او لن نخرج من هنا ابداً » .

فقلت :

– لم يفكر احد مطلقاً بهدمك . اسمعي ، لماذا اريد بك شراً . نحن صديقتان .

فقالت بول :

– هذا ما كنت اقوله في نفسي في الماضي . فما إن أراكم ثانية ، حتى اكف عن الايمان بشكوكي . لكأن هذا سحر . » ونهضت فجأة وتغير صوتها وقالت . « انني استقبلك اسوأ استقبال . لا بد ان يكون قد بقي عندي قليل من البورتو في مكان ما» . وذهبت لتأتي بالبورتو، وملأت قدحين ، وكشرت عن ابتسامة . « كيف حال نادين ؟ » .

– هكذا وهكذا . وهي متخاذلة بالاحرى منذ قطيعتها مع لامبير .

– مع من تنام ؟

– اعتقد انه ليس لديها احد حالياً .

فقالت بول .

– نادين ؟ اعترفي ان هذا غريب .

– ليس كثيراً الى هذا الحد .

– أتخرج كثيراً مع هنري ؟

فقلت .

– قلت لك اننا تخاصمنا .

فقالت بول في نوع من الضحك :

– آه ! انني انسى قصة الخصام تلك ! » وتوقف الضحك : « لست مخدوعة، أتعرفين » .

– لنرَ : لقد قرأت رسالتي هنري وروبير في « الأمل » .

– لقد قرأتها في عدد « الأمل » الذي وقع تحت يدي ، نعم .

فتفرست في وجهها : « تقصدين ان ذلك العدد قد اختلق عمداً ؟ » .

فقالت بول :

– بديهي ! » وهزت كتفيها : « كان ذلك ، بالنسبة لهنري ، لعبة طفل ».

ولزمت الصمت . لم يكن هناك اي معنى للمناقشة . وهاجمت من جديد :

– وهكذا حسب ما تقولين ، لم تعد نادين ترى هنري ؟

– كلا .

– لم تحبه قط ، أليس كذلك ؟

– ابداً .

– لماذا ذهبت معه الى البرتغال ؟

– تعرفين جيداً : كان يستهويها ان تكون لها قصة معه ، وكانت ترغب في السفر على الأخص .

كنت اشعر انني اتعرض لاستجواب بوليسي . وبين لحظة وأخرى كانوا سيثبتون عليّ ويقودونني الى السجن . وقالت بول :

– وتركتها تذهب هكذا .

– منذ موت دييغو ، تركتها دوماً حرة .

فقالت بول :

– انت امرأة غريبة . يتكلمون كثيراً عني ، وليس بما فيه الكفاية عنك. »
وملأت قدحي من جديد : « انهي اذن هذا البورتو » .
– شكراً .
لم أكن ارى الى اين تريد الوصول ، لكني كنت ازداد ضيقاً أكثر فأكثر . ماذا لديها على الضبط ضدي ؟ وقالت :
– منذ زمن بعيد ما عدت تنامين مع روبير ، أليس كذلك ؟
– منذ زمن بعيد جداً .
– ولم يكن لك عشاق ابداً ؟
– حدث لي هذا ... قصص بلا اهمية .
فكررت بول في بطء :
– قصص بلا أهمية . ولديك واحدة الآن منها ، قصة بلا أهمية ؟
ولا أدري لماذا شعرت انني مرغمة على الاجابة ، كأنني كنت آمل أن تكون للحقيقة القدرة على تجريد جنونها من سلاحه . وقلت : « عندي قصة هامة جداً في اميركا مع كاتب ، انه يدعى لويس بروغان ... » .
كنت على استعداد لأن اروي لها كل شيء لكنها اوقفتني قائلة : « اوه ! اميركا بعيدة . انما اقصد في فرنسا » .
فقلت :
– انني احب ذلك الاميركي . سأعود لاراه في ايار . فلا مجال لأن تكون لي قصة اخرى .
فسألت بول :
– وما رأي هنري بذلك ؟
– وما دخل هنري في هذا ؟
فنهضت بول وقالت : « هيا ! لنكف عن هذه اللعبة . انت تعرفين جيداً انني اعرف انك تنامين مع هنري. وما اريده ، هو ان تقولي لي متى بدأ هذا ».
فقلت :

ـ اسمعي ، انها نادين التي نامت مع هنري . ليس انا .
فقالت بول .
ـ لقد القيت بها بين ذراعي هنري لتحتفظي به . لقد فهمت هذا منذ زمن طويل . انت قوية جداً ، لكنك ارتكبت مع ذلك اخطاء .
كانت بول قد تناولت حقيبتها ، وراحت تتابع اللعب بالقفل اللامع ولم اعد استطيع ان اشيح بنظري عن يديها . ونهضت بدوري وقلت .
ـ اذا كنت تفكرين هكذا ، فمن الأفضل ان اذهب .
فقالت بول .
ـ لقد حزرت الحقيقة في تلك الليلة في ايام ١٩٤٥ عندما زعمتما انكما ضعتما بين الجماهير . ثم قلت لنفسي انني كنت اهذي . ما أشد ما كانت بلاهتي !
فقلت .
ـ كنت تهذين . انت تهذين .
فاستندت الى الباب وقالت. «لننته من الأمر . هل دبرتم هذه المهزلةللتخلص مني ، ام لصالحي ؟ » .
فقلت .
ـ اذهبي لرؤية طبيب . ماردروس او غيره ، اياً كان . لكن اذهبي لرؤية احدهم واروي له كل شيء . سيقول لك انك في أتم هذيان .
فقالت بول .
ـ أترفضين مساعدتي ؟ اوه ! كنت انتظر ذلك . لا يهم . سأنتهي الى ان أرى بوضوح دون مساعدتك .
ـ لا استطيع ان اساعدك ، انت ترفضين تصديقي .
وطوال لحظة بدت لي لامتناهية ، ثبتت نظرها في نظري : « أتريــــدين الذهاب ؟ اينتظرونك ؟ » .
ـ لا أحد ينتظرني . لكن لا فائدة من بقائي .
فابتعدت عن الباب : « اذهبي . تستطيعين ان تكرري عليهم كل شيء :

ليس لدي ما أخفيه » .

فقلت وانا أمد لها يدي :

ــ صدقيني يا بول ، انت مريضة يجب ان تعالجي نفسك .

فمدت لي يدها : « شكراً على زيارتك . الى لقاء قريب » .

ــ الى لقاء قريب .

ونزلت الدرج بأسرع ما أمكنني .

وفي اليوم التالي بعد الغداء كنا نحتسي القهـــوة عندما قرع الباب . كانت كلودي .

ــ اعذريني . فليس من المناسب أبداً ان آتي هكذا دونمـا إخطار . » كان صوتها مضطرباً وخطيراً : « جئت أراك بخصوص بول . اشعر ان ثمة شيئاً مـا ليس على ما يرام » .

ــ ماذا حدث ؟

ــ كان يجب ان تتناول الغداء في البيت . وفي الساعة الواحــدة والنصف لم تكن هناك . فتلفنت فأجابتني بقهقهة كبيرة . وقلت لها اننا سنجلس الى المائدة فصرخت : « اجلسوا الى الطاولة ! اجلسوا إذن الى الطاولة ! » وهي تضحك كأنها اصيبت بالهستيريا .

كان نذير بشؤم فرح يجعـــل عيني كلودي الكبيرتين تلمعان . ونهضت : « يجب ان نمر عليها » .

فقالت كلودي :

ــ هذا ما فكرت به . لكني ما كنت لأجرؤ على الذهـــاب بمفردي .

فقلت :

ــ هيا اليها معاً !

ووضعتنا سيارة كلودي بعد دقيقتين أمام بيت بول . وبدت لي الـــلافتة المألوفة « غرف مؤثثة » محملة اليـــوم بمعنى مشؤوم . وقرعت . ولم ينفتح الباب . ومن جديد ، قرعت طويلاً . وطرقت خطا البلاط وظهرت بول . كان

شعرها نحيفاً تحت شال بنفسجي. واخذت تضحك : « لستم الا اثنين ؟ » كانت تبقى على الباب منفرجاً وتتفحصنا بعينيها الشريرتين .

ـ لم اعد بحاجة لكما ، شكراً .

واطبقت البـاب في عنف وسمعتهـا تصرخ بصوت عالٍ وهي تبتعد : « يا للمهزلة ! » .

وبقينا مزروعتين على الرصيف . وقالت كلودي :

ـ اعتقد انه يجب ان نخطر العائلة . » كانت عيناها قد كفتا عن اللمعـان : « في مثل هذه الحالات ، هذا افضل ما يفعل » .

ـ نعم ، إن لها . اختاً . » وترددت . « سأحاول مع ذلك ان اكلمها » .

وفي هذه المرة ، ضغطت على الزر الاول ، وانفتح الباب آليـاً . واوقفتني البوابة عنـد مروري . كانت امرأة قصيرة نحيفة ورصينة تشرف منـذ زمن طويل على تدبير بيت بول . « أصاعدة عند الآنسة ماروي ؟ » .

ـ نعم . لا يبدو عليها انها في صحة جيدة .

فقالت البوابة .

ـ على الضبط ، كنت منزعجة . منذ خمسة ايام على الاقل لم تأكل شيئـاً مطلقاً ، ومستأجرو الطابق السفلي قالوا لي انها تسير طول الليل طولاً وعرضاً . وعندما اقوم بتدبير منزلها ، تتمتم دوماً لنفسهـا باشياء بصوت عالٍ ، ولقد كنت معتادة على هذا . لكنها في الأيام الأخيرة ، اصبحت غريبة تماماً .

ـ سأحاول ان آخذها لستريح .

وارتقيت الدرج ، وصعدت كلودي خلفي . كانت الظلمة مخيمة على سطح الدرج العلوي . وفي الظلمة كان ثمة شيء يلمع . صفحة بيضاء كبيرة مثبتة بالباب بدبابيس . وبأحرف مطبوعة ، كان مكتوباً على الورق . « القرد الدنيوي » . وقرعت ، بلا جدوى .

وقالت كلودي .

ـ يا للفظاعة ! انتحرت !

والصقت عيني بثقب القفل . كانت بول راكعة امام المدفأة ، وكان حولها رزم من الورق ، وكانت تلقي بها في النار . وقرعت من جديد بعنف .

— افتحي ، أو اقتحم الباب !

فنهضت ، وفتحف ووضعت يدها خلف ظهرها .

— ماذا تريدين مني ؟

ومن جديد ، ركعت أمام النار . كانت دموع تتدحرج على خديها ومخاط ينسال من انفها . كانت تلقي بمخطوطاتها ، وبرسائل، الى النار . ووضعت يدي على كتفيها فانتفضت في اشمئزاز :

— دعيني .

— بول ستأتين معي عند الطبيب ، حالاً . انت في سبيلك الى الجنون .

— اذهبي . أعرف انك تكرهينني . وانا ايضاً اكرهك . اذهبي . ونهضت واخذت تصيح : « اذهبا من هنا » .

وكانت على وشك العواء . فمضيت نحو الباب وخرجت مع كلودي .

وابرقت كلودي الى اخت بول ، وتلفنت الى ماردروس لأسأله النصيحة ، وارسلت كلمة الى هنري . وعند المساء ، اثناء العشاء ، انتفضنا لرنين جرس . وقفزت نادين نحو باب الدخول : لم يكن إلا صبياً صغيراً ناولني قطعة من الورق وقال : « من طرف الآنسة ماروي . انا حفيد بوابتها » . وقرأت بصوت عالٍ : « لا اكرهك ، انني انتظرك . تعالي حالاً » .

وقالت نادين :

— لن تذهبي ؟

— يقيناً أن بلى .

— هذا لن يفيد شيئاً .

— من يدري ؟

فقالت نادين :

— لكنها خطرة . » واضافت : « طيب . إذا ذهبت ، فأنا ذاهبة معك » .

فقال روبير :

– انا الذي سيذهب . نادين على حق ، من الأفضل ان نكون اثنين .

واجتججت في ضعف .

– ستجد بول هذا غريباً .

– ثمة اشياء كثيرة تبدو لها غريبة .

والحق انني حين وجدت نفسي ثانية امام ذلك المنزل المعتوه ، وحين ارتقيت من جديد الدرج المهترىء السجادة ، شعرت بسرور لمجيء روبير معي . لم تكن اللافتة على الباب . ولم تمد بول لنا يدها ، لكن وجهها كان وضيئاً . وقامت بحركة احتفالية :

– تفضّلا بالدخول .

وكتمت شهقة . كانت جميع المرايا محطمة، والسجادة مليئة بشظايا الزجاج، وكانت رائحة قماش محترق حادة تملأ الغرفة . وقالت بول بصوت رنان : « حسناً ، كنت اريد ان اشكركما » واشارت الى كراسي : « أريد ان اشكركم جميعاً : لأنني الآن فهمت » .

كان صوتها يبدو صادقاً . لكن الابتسامة التي كانت توجهها إلينا كانت تلوي شفتيها وكأنها لم تعد قادرة على جعلها تطيعانها . وقلت :

– ليس عليك ان تشكريني . لم أفعل شيئاً .

فقالت :

– لا تكذبي . لقد تصرفت لصالحي ، انني اقبل بهذا ، لكن يجب ان تكفي عن الكذب علي . » ودققت النظر فيّ : « كان ذلك لصالحي ، أليس كذلك ؟ » .

فقلت :

– نعم .

– نعم ، انني اعرف ذلك . لقد استحققت هذا الامتحان . ولقد كنتم على حق بتعريضي له . انني اشكركم على انكم وضعتموني تجاه نفسي . لكن الآن ،

يجب ان تعطوني نصيحة : هل يجب ان اتناول حامضاً بروسياً ام احـــاول ان افتدي نفسي ؟

فقال روبير :

– بدون حامض بروسي .

– طيب . إذن كيف سأعيش ؟

فقلت :

– ستتناولين اولاً مهدّئاً وتنامين . فأنت مـــا عدت تستطيعين الوقوف .

فقالت في عنف :

– ما عدت اريد ان اهتم بنفسي . انني لم افعـل سوى التفكير اكثر ممـــا ينبغي بنفسي ، ولا تقدّمي لي نصائح كاذبة .

وتركت نفسها تتهاوى على كرسي . لم يكن علي الا ان انتظر ، فبين لحظة وأخرى كانت ستنهار ، وسأضعها في السرير مع قرصين . ونظرت حـــولي : هل لديها حقــاً حامض بروسي تحت يدها ؟ انــني لأذكر انها في عام ١٩٤٠ ارتني زجاجة صغيرة رمـــادية ، وشرحت لي انها حصلت على سمّ « لكل صدفة » . ربما كانت الزجاجة في حقيبتها . ولم اجرؤ على لمس هذه الحقيبـــة . وعادت نظرتي نحـــو بول . كان فكها الأسفل متدلياً ، وقد تراخت ملامحها كافة . لقد رأيت وجوهاً كثيرة في هـــذه الحالة . لكن بول لم تكن مريضة ، كانت بول ، وكان يؤلمني ان اراها هكذا . وبذلت جهداً وقالت :

– اريد ان اشتغل . اريد ان اسدد لهنري ماله . وما عدت اريد ان يهينني المتشردون .

فقال روبير :

– سنجد لك عملاً .

فقالت :

– فكرت بأن اصبح مدبرة منزل . لكنها ستكون منافسة ظالمة . ما هي المهن التي ليس فيها تنافس ؟

فقال روبير :

– سنجد .

ومررت بول يدهـا على جبينها : « كل شيء صعب للغايـة ! منذ قليل ، بدأت أحرق اثوابي . لكن ليس لي الحق » . ونظرت إليّ : اذا بعتها لجامعي الخرق ، فهل تعتقدين انهم سيكفون عن كراهيتي ؟ » .

– إنهم لا يكرهونك .

وفجأة ، نهضت ، وسارت نحو المدفأة والتقطت حزمة من الملابس : أثواب الحرير اللامع ، الطقم الرمادي ، كلها لم تعد إلا مزقاً رثة . وقالت :

– سأذهب لتوزيعها فوراً . لننزل جميعاً معاً .

فقال روبير :

– الوقت متأخر كثيراً .

– مقهى المتشردين يظل مفتوحاً الى ساعة متأخرة جداً ..

وألقت بمعطف على كتفيها : كيف السبيل إلى منعها من النزول ؟ وتبادلت نظرة مع روبير . ولقد فاجأتها بدون شك إذ قـالت بصوت متعب : « نعم ، انها مهزلة . فالآن ، انا اقلد نفسي » . وخلعت معطفها ، ورمته على كرسي : « هـذا أيضاً مهزلة : لقد رأيت نفسي ، وانا ألقي بالمعطف » . وغرزت في عينيها قبضتيها المطبقتين : « انني لا اتوقف عن رؤية نفسي ! » .

وذهبت لأملأ قدح مـاء وحللت فيه قرصاً ، وقلت : « اشربي هـذا . وارقدي ! » .

وترنحت نظرة بول . وتهـاوت بين ذراعي : « انني مريضة ؟ انني مريضة جداً ! » .

فقلت :

– نعم . لكنك ستعالجين نفسك وستشفين .

– عالجوني ، يجب ان تعالجوني !

كانت ترتجف ، ودموع تتدحرج على خديها ، وكانت محمومة ومبللة الى حد

خيل إليّ معه انها بعد لحظة ستذوب بأجمعها ، تاركة مكانها بقعة من القـــار ، سوداء كعينيها . وقلت :

– غداً ، سآخذك الى عيادة . وبانتظار ذلك ، اشربي .

فتناولت الكأس :

– هل سينيمني ؟

– بالتأكيد .

فأفرغت الكأس بجرعة واحدة .

– والآن اصعدي للنوم .

فقالت في وداعة :

– انني صاعدة .

وصعدت معها ، وأثناء وجودها في غرفة الحمام ، فتحت الحقيبة اللامعـــة القفل : في اسفلها كانت توجد زجاجة رمادية صغيرة دسستها في جيبي .

وفي صباح اليوم التالي ، تبعتني بول في وداعة الى العيادة ووعدني ماردروس بأنها ستشفى : انها مسألة بضعة أسابيع او بضعة أشهر . سوف تشفى . لكني كنت أتساءل في قلق حين وجدت نفسي في الشارع ثانيـة : ممَّ سيشفونهـــا على الضبط ؟ من ستكون بعد ذلك ؟ اوه ! قصارى القول ، كان هذا سهل التنبؤ . ستكون مثلي ، مثل ملايين الآخرين : امرأة تنتظر ان تموت دون ان تعرف بعد الآن لماذا تعيش .

وها هو شهر ايار قد جاء أخيراً . هناك ، في شيكاغو ، سأجد نفسي ثانيةفي إهاب امرأة عاشقة ومحبوبة : لم يكن هــذا يبدو لي معقولاً . وكنت لا أزال غير مصدقة ، وانا جالسة في الطائرة. كانت طائرة قديمة قادمة من أثينا ، تحلق على علو منخفض جــداً . وكانت مليئة بأصحاب دكاكين يونانيين ذاهبين للبحث عن الثروة في اميركا . ولم اكن ، انا ، اعرف ما كنت ذاهبة للبحث عنه هناك . فلا صورة حية في قلبي ، ولا رغبة في جسدي . ولم يكن ليويس ينتظر هـــذه المسافرة الواضعة قفازين : لم اكن منتَظرة من اي إنسان . وفكرت عندمـــا

انعطفت الطائرة عائدة فوق المحيط : « كنت اعلم هذا : ابداً لن اراه ثانية » . كان محرك قد توقف ، وعدنا الى « شانون » . وامضيت يومين على شاطىء . « فيورد[1] » ، في قرية مصطنعة صبيانية البيوت . وكنت عند المساء اشرب وسكي ايرلندياً ، وفي النهار اتنزه في ريف اخضر ورمادي ، كئيب على النفس . وعندما حططنا في جزر آسور ، انفجر اطار وحبسونا طوال اربع وعشرين ساعة في قاعة طويلة ممددة بالكرتون . وبعد « غاندر » ، سقطت الطائرة في عاصفة ، واضطر الطيار كي يهرب منها ، الى الطيران نحو « ايكوسيا الجديدة » . وشعرت ان باقي ايام حياتي ستنقضي في الدوران حول الأرض ، وأنا آكل فراريج باردة . وحلقنا فوق هوة من المياه القاتمة تكنسها أشعة منارة ، ومن جديد حطت الطائرة : ساحة اخرى ، وقاعة . نعم ، كان محكوماً علي بأن اطوف الى ما لا نهاية من ساحة الى ساحة والضجيج يملأ رأسي وحقيبة امتعة صغيرة زرقاء عند قدمي .

فجأة لمحته : ليويس . كنا قد اتفقنا ان ينتظرني عنده . لكنه كان هنا ، بين الجمهور الذي كان يترصد باب الجمرك . كان يضع قبة قاسية ونظارة ذهبية ، وكان هذا غريباً . ولكن الاغرب من كل شيء هو انني رأيته ولم أشعر بشيء . كل تلك السنة من الأنتظار ، وتلك التأسفات ، وتلك التبكيتات ، وهذه الرحلة الطويلة : وربما كنت سأتعلم انني لم اعد أحبه . وهو ؟ ألا يزال يحبني ؟ كنت اود لو اركض نحوه . لكن رجال الجمرك ما كانوا ينتهون . كانت حقائب الحانوتيات اليونانيات الصغيرات مليئة بالمخرمات ، وكانوا يكشفون عنها واحدة واحدة ، مازحين . وعندما اطلقوا سراحي اخيراً ، كان ليويس قد ذهب . واخذت تاكسي وأردت ان اعطي عنوانه للسائق : لم اعد اذكر الرقم . كانت اذناي تطنان ولم يكن ذلك الضجيج في رأسي يتوقف . ووجدت اخيراً : ١٢١١ . واقلع التاكسي . شارع ، وشارع آخر ، ولافتات نيون ، ولافتات

---

١ – كلمة نروجية تعني وادياً جلمودياً قديماً غزاه البحر والفيوردات منتشرة في الزويج « المترجم » .

نيون اخرى . لم اكن قد تعرفت نفسي مطلقاً في هذه المدينة ، لكن كان يخيل إلي ، على كل حال ، ان المسافة ما كان يجب ان تكون بمثل هـذا الطول . لعل السائق سيأخذني الى نهايـة طريق مسدود ويصرعني : وكان هذا يبدو لي ، في المزاج الذي كنت عليه ، طبيعياً اكثر من رؤية ليويس ثانية . والتفت السائق :

– ١٢١١ : هذا لا وجود له .

– انه موجود : انني اعرف البيت جيداً .

فقال السائق :

– لعلهم غيروا الرقم . سنعبر الشارع من جديد من الاتجاه المضاد .

واخذ يتدحرج في بطء على طول الرصيف . كان يخيـل إليّ انني اتعرف مفارق طرق ، واراضي بوراً ، وسكك حديد: لكن سكك الحديد والأراضي البور تتشابه جميعاً . وبدا لي حوض وقنطرة مألوفين . لكأن الاشياء مـا زالت هناك ، لكنها غيرت مكانها . كنت افكر : « يا للجنون ! » . اننـا نرحل ، ونقول : « سأعود » ، لأن من القسوة الشديدة ان نرحل الى الأبـد . لكننا نكذب على انفسنا : فنحن لا نعود . تمر سنة ، وتنقضي أشياء ، ولا يعود شيء كما كان . كان ليويس اليوم يضع قبة قاسيـة : ولقد رأيته دون ان يخفق قلبي خفقاناً اسرع . ولقد تبخر بيتـه . ونفضت ذهولي وقلت في نفسي : ليس علي إلا ان اتلفن ، ما هو الرقم ؟ » . لقد نسيته . وفجـأة لمحت لافتـة حمراء : « شيلتز » : ووجوهاً ساذجة تضحك فوق إعلان وصحت :

– قف ! قف ! انه هنا .

فقال السائق :

– انه الرقم ١٢١٢ .

– ١٢١٢ : انه هو ؟

وقفزت من التاكسي ، ولمحت ، في فرجة النافذة المضيئة ، وجهاً منحنياً . كان يترصد ، ويترصد، ويهرع ، كان هو . لم يكن يضع ياقة قاسية ولا نظارة، بل كانت على رأسه قبعة بيزبول وكانت ذراعاه تخنقانني : « آن » .

– ليويس !

– أخيراً ! لشد ما انتظرت ! ما اطول ذلك ؟

– نعم ، كان ذلك طويلاً ، كان طويلاً للغاية !

اني اعرف انه لم يحملني ، ولا اذكر انني استخدمت قدمي لأرتقي الدرج . لكن هـا نحن نتعانق وسط المطبخ الاحمر : المدفأة ، الليبنيليوم ، الغطـاء المكسيكي ، جميع الاشياء كانت هنا ، في مكانها . وتمتمت :

– ماذا تفعل بهذه العمرة ؟

– لست ادري . كانت هنا .

وانتزع العمرة والقاها على الطاولة .

– لقد رأيت شبيهك في المطار : كان يضع نظارة وياقة قاسية صناعية. لقد اخافني : ظننت انه انت ولم اكن اشعر بشيء .

– انا ايضاً ، خفت . فمنذ ساعة ، مر رجلان تحت النافـذة ، وكانا يحملان امرأة ميتة أو مغمى عليها ، وظننت انها انت .

فقلت :

– الآن ، انك انت ، انني انا .

وضمني ليويس بقوة شديدة ثم ارخى عناقه : « أأنت متعبة؟ أأنت ظمأى؟ أأنت جائعة ؟ » .

– كلا ..

والتصقت به من جديد . كانت شفتاي ثقيلتين جداً ، باردتين للغاية ، حتى انهما ما كانتا تتركان الكلمات تمر . وأسندتهما الى فمه . وارقـدني على السرير : « آن ! كل الليالي انتظرتك ! » .

واغمضت عيني . كان جسد رجل ينبطح علي من جديد ، ثقيلاً بكل ثقتـه وبكل رغبته . كان ليويس ، ولم يكن قد تغير ، ولا انا ، ولا حبنا . كنت قد رحلت لكني عدت : لقد وجدت مكاني ثانية وتخلصت من نفسي .

وقضينا النهار التالي في إعداد الحقائب وفي عمل الحب : نهار طويـل دام

حتى صباح اليوم التالي . ونمنا في القطار خداً الى خد . ولم اكن قد صحوت من النوم تماماً حين لمحت على رصيف اوهيو المركب ذا المجاذيف الذي كان ليويس قد حدثني عنه في رسائله . كنت قد فكرت فيه كثيراً دون ان اؤمن بوجوده حتى انني كنت اجد مشقة حالياً في تصديق عيني . إلا انه كان حقيقياً جداً ، وصعدت إليه . وتفحصت في حنو مقصورتنا . كنت ، في شيكاغو ، اقيم عند ليويس . اما هنا فهي مقصورتنا ، انها لنا نحن الاثنين : هذا يعني اذن اننا زوج حقاً . نعم . انني اعرف حالياً : يمكنني ان اعود ، وسوف اعود كل سنة ، وسيكون على حبنا في كل سنة ان يجتاز ليلاً اطول من الليل القطبي : لكن السعادة ستشرق ذات يوم كيلا تغيب ثانية خلال ثلاثة او اربعة اشهر . ومن اعماق الليل سوف ننتظر ذلك النهار ، سوف ننتظره معاً ، ولن يفرق بيننا الغياب بعد الآن : كنا مجتمعين الى الأبد .

وقال ليويس :

– اننا راحلان : تعالي بسرعة !

وارتقى الدرج راكضاً فتبعته ، وانحنى من فوق حاجز المركب ، وكان رأسه يدور في كل الاتجاهات :

– انظري ما اجمل ذلك : السماء والارض اللتان تمتزجان في الماء .

كانت انوار « سنسناتي » تتألق تحت سماء كبيرة مرصعة بالنجوم ، وكنا ننساب فوق ألسنة لهيب . وجلسنا ، ولبثنا ملياً ننظر الى لافتات النيون تشحب وتختفي . وقال :

– تصوري انني لم أؤمن قط بهذا كله .

– كل ماذا ؟

– ان احب وأكون محبوباً .

– بمَ كنت تؤمن ؟

– بغرفة ثابتة ، ووجبات منتظمة ، ونساء لليلة واحدة : بالأمن . كنت اظن انه يجب الا اطلب اكثر من ذلك . كنت اظن ان جميع الناس وحيدون ،

دوماً . وها انت !

كان فوق رأسينا مكـــبر صوت يصيح بأرقام : كان المسافرون يلعبون بالبنجو . كانوا جميعاً مسنين للغايـــة حتى انني فقدت نصف عمري . كنت في العشرين . وكنت اعيش حبي الأول وكانت رحلتي الاولى . كان ليويس يقبل شعري ، عيني ، وفمي :

– لننزل : أتريدين ؟

– انت تعرف جيداً انني لا اقول لا ابداً .

– لكن احب كثيراً ان أسمعك تقولين : نعم . انت تقولينها بلطف كبير !

فقلت :

– نعم . نعم .

يا له من فرح ألا اقول إلا : نعم . كنت ، مع حياتي التي اهترأت ، ومـــع جلدي الذي لم يعد جديداً ، اصنع السعادة للرجل الذي احبه : يا لها من سعادة !

وقضينا ستة ايام في نزول الاوهيو والميسيسيبي . وكنـــا ، عند المحطات ، نهرب من المسافرين الآخرين ، ونسير حتى تنبهر انفاسنا عبر المدن الدافئـــة والسوداء . وكنا ، فيما تبقى من الوقت ، نتحادث ، ونقرأ وندخن دون ان نفعل شيئاً ، مستلقيين على الجسر تحت الشمس . كان المنظر نفسه من المـــاء والعشب يومياً ، الضجة نفسها من الآلة والماء : لكننا كنا نحب ان ينبعث صباح واحد من صباح الى صباح ، ومساء واحد من مساء الى مساء .

إنما هذه هي السعادة : كان كل شيء طيباً . كنا فرحين بمغادرة المركب . كنا نعرف كلانا اورليانس الجديدة ، لكنها لم تكن المدينـــة نفسها بالنسبة لليويس ولي . وأراني الأحياء الشعبية حيث كان يبيع قطع الصابون قبـــل خمسة عشر عاماً ، وأحواض السفن حيث كان يغذي نفسه بالموز المسروق ، وشوارع المواخير الصغيرة التي كان يجتازها خـــافق القلب . ملتهب القضيب ، فـــارغ الجيوب . وكان يبدو بين حين وآخر انـــه آسف تقريباً على ايام البؤس تلك ، والغضب ، وعنف رغباتـــه غير المشبعة . لكن حين كنت انزهه في المربـــع

الفرنسي ، وحين كان يتبختر كسائح في باراته وعرصاته ، كان يهلل وكأنه يعد مقلباً طيباً للقدر . ولم يكن قد ركب الطائرة قط . فكان طوال الرحلة ، يحتفظ بأنفه ملتصقاً بالنافذة ، ويضحك للغيوم .

وكنت انا ايضاً اطير فرحاً . يا لها من غربة ديار ! حين كانت النجوم الثابتة تأخذ بالرقص في السماء ، وتتخذ الأرض جلداً جديداً ، كنت تشعر وكأنك تغير جلدك انت نفسك . لم تكن « اليوقاطان » بالنسبة لي الا اسماً بدون حقيقة ، مسجلاً بأحرف صغيرة على اطلس . لم يكن شيء يربطني بها ، حتى ولا رغبة ، ولا صورة ، وها انا اكتشفها بعيني . وتثاقلت الطائرة ، وانقضت نحو الارض ، ورأيت لساناً من ارض قاحلة من مخمل رمادي اخضر يمتد من طرف السماء الى طرفها الآخر ، يحفر فيه ظل الغيوم بحيرات سوداء . وجريت على طريق متحدب بين حقول نبات الباهرة الزرقاء التي كان يتفجر فوقها من بعيد الى بعيد اللون الأحمر القاني لأشجار اللوامع المسطحة الذرى . وسرنا في شارع محفوف ببيوت صغيرة مبنية من التراب المصلب ، تبنية السقوف. وكانت الشمس لاظية . وتركنا حقائبنا في بهو الفندق ، وهو عبارة عن مصرى[1] غناء قابعة تنام فيها طيور نحام وردية ، جاثمة على قدم واحدة . وانطلقنا ثانية . كان رجال في ملابس بيض يحملون تحت قبعات من القش ، في الساحات البيضاء ، في ظل الأشجار المطلية . كنت أتعرف سماء وصمت توليدا وآفيلا . كان يذهلني ان اجد اسبانيا ثانية من هذا الجانب من المحيط اكثر مما يذهلني ان اقول في نفسي : « انني في اليوقاطان » .

وقال ليويس :

– لنأخذ احدى هذه العربات الصغيرة .

كان يوجد في زاوية الساحة صف من العربات السوداء ، ذوات الظهور المشدودة . وايقظ ليويس احد السائقين وجلسنا على المقعد الضيق . واخذ

---

١ – المصرى : بناء من زجاج تستنبت فيه نباتات البلاد الحارة التي لا تتحمل البرد.
« المترجم »

ليويس يضحك : « والآن ، اين نذهب ؟ أتعرفين ، انت ؟ » .
– قل للسائق ان ينزهنا وان يأخذنا الى البريد : انني انتظر رسائل .

كان ليويس قد تعلم في كاليفورنيا الجنوبية بضع كلمات اسبانية . وألقى على السائق خطاباً صغيراً ، واخذ الحصان بالسير ، خبباً . وسرنا في شوارع فخمة ومتهدمة . كان المرض والفقر قد قرضا الفيلات المبنية على اسلوب قشطالي قاسٍ . وكانت التماثيل تتعفن وراء بوابات الحدائق الصدئة . وكانت ازهار غناء ، حمراء ، بنفسجية وزرقاء ، تحتضر عند أقدام الاشجار نصف العارية . وكانت طيور سوداء كبيره ، مصطفة على اعلى الجدران ، تترصد . كانت رائحة الموت تفوح من كل مكان . ولقد سررت بأن وجدت نفسي عند مشارف السوق الهندية : فقد كان جمهور حي جداً يدب تحت الخيمات التي تصفعها الشمس . وقلت لليويس :
– انتظرني خمس دقائق .

وجلس على احدى درجات الدرج ودخلت الى البريد . كان ثمة رسالة من روبير ، وفضضت الغلاف فوراً . كان يصحح المسوّدات الاخيرة ، من كتابه ، ويكتب مقالاً « للطواريء » ، مقالاً سياسياً . وإذن ، فقد كنت على حق اذ لم اقلق كثيراً : فمها ارتاب في السياسة والكتابة ، فانه ليس على استعداد للتخلي عنهما . كان يقول ان الجو في باريس رمادي . ووضعت الرسالة في حقيبتي وخرجت : ما كان أبعد باريس ! ما أشد زرقة السماء ! وأخذت ذراع ليويس : « كل شيء على ما يرام » .

وشققنا طريقنا بين الجم الغفير ، في ظل الخيمات . كانت تباع ثمار ، واسماك ، ونعال وملابس قطنية . وكانت النساء يرتدين تنورات طويلة مطرزة ، وكنت احب ضفائرهن اللامعة واوجههن التي لا يتحرك فيها شيء ، اما الهنود الصغار فكانوا يضحكون كثيراً مكشرين عن اسنانهم . وجلسنا في حانة لها رائحة سمك بحري ، وقدمت لنا على برميل بيرة سوداء ومزبدة . ولم يكن فيها إلا رجال ، كلهم شبان . وكانوا يثرثرون ويضحكون . وقلت :

ـ يبدو انهم سعداء ، هؤلاء الهنود .

فهز ليويس كتفيه : « هذا سهل القول . ايطاليا الصغيرة ايضاً ، عندما تتنزهين فيها في يوم مشمس جميل ، يبدو الناس فيها سعداء » .

فقلت :

ـ هذا صحيح . يجب ان ننظر اليهم عن قرب أكثر .

فقال ليويس :

ـ كنت افكر بذلك وانا انتظرك . فكل شيء بالنسبة لنا يأخذ مظهر عيد ، لأن السفر عيد . لكني واثق انهم ليسوا في العيد. » وبصق نواة زيتونة: « عندما نمر هكذا كسواح ، لا نفهم شيئاً من شيء » .

وابتسمت لليويس : « لنشترِ بيتاً صغيراً. سوف ننام في أراجيح ، وسوف اصنع لك تورتيلا ، وسوف نتعلم الكلام بالهندية » .

فقال ليويس :

ـ سأحب ذلك كثيراً .

فقلت مبتسمة :

ـ آه ! يجب ان تكون لنا عدة حيوانات .

فنظر إليّ ليويس ، وقال في ابتسامة صغيرة : « انت لا تسيئين تدبير امرك كثيراً » .

ـ كيف ذلك !

ـ انت تدبرين امرك كي تكون لك حياتان ، على ما يبدو لي .

وصعد الدم الى خدي . لم يكن صوت ليويس حاقداً، لكنه لم يكن ودوداً كثيراً أيضاً . أكان ذلك بسبب رسالة باريس تلك ، وتبينت فجأة إنني لم اكن الوحيدة التي تفكر بقصتنا : كان يفكر بها أيضاً ، على طريقته الخاصة به . كنت أقول في نفسي : لقد عدت ، سوف أعود دوماً . لكنه إذا كان يقول في نفسه : سترحل ثانية دوماً. بمَ أجيبه ؟ كنت قد أُخذت على حين غرة . وقلت في قلق :

– لنويس ، لن نكون عدوين ابداً ، أليس كذلك ؟

– عدوين ؟ من يمكنه ان يكون عدوك ؟

كان يبدو عليه بوضوح انه مذهول ، ان هذه الكلمات التي جاءت الى شفتي كانت سخيفة ، كان يبتسم لي ، فابتسمت له . لكن فجأة شعرت بالخوف :هل سأعاقب ذات يوم على انني جرؤت على الحب دون ان اهب حياتي كلها ؟

وتناولنا العشاء في الفندق ، بين طائري نحام ورديين . وكانت الوكالة السياحية لميريدا قد بعثت الينا بمكسيكي صغير كان ليويس يستمع اليه في نفاد صبر . ولم اكن اصغي . وتابعت التساؤل : ماذا يجري في رأسه ؟ لم نكن نتحدث مطلقاً عن المستقبل ، ولم يكن ليويس يطرح علي اسئلة : ربما كان علي ان اطرح عليه انا . لكن قبل سنة ، على كل حال ، قلت له كل ما لدي لأقوله له . ولم يكن ثمة جديد اضيفه. ثم ان الكلمات خطرة، واننا لنجازف بتشويش كل شيء . كان يحب ان نعيش هذا الحب . وفيما بعد ، حين يكون قد صار له ماضٍ طويل وراءه ، سيحين اوان الحديث عنه .

وقال المكسيكي الصغير :

– السيدة لا تستطيع الذهاب الى « شيشن اتزا » في الاوتوبيس . » وابتسم لي ابتسامة كبيرة : « ستكون السيارة طوال النهار تحت تصرفكما لتتنزها بين الخرائب وسيكون السائق بمثابة دليل لكما » .

فقال ليويس :

– اننا نكره الادلاء ونحب المشي .

– ان لفندق مايا تعرفة مخفضة لزبائن الوكالة .

فقلت :

– سننزل في « فيكتوريا » .

فقال المكسيكي :

– هذا مستحيل : ان « فيكتوريا » نزل مكسيكي وطني .

وامام صمتنا ، انحنى في ابتسامة منقبضة : « ستقضيان يوماً كثير العناء » .

في الحقيقة كان الاوتوبيس الذي قادنا في مساء اليوم التالي الى « شيشن اتزا » مريحاً تماماً . وشعرنا بالكبرياء لعنادنا حين تجاوزنا حديقة فندق مايا حيث كانت تهذر اصوات اميركية . وقال لي ليويس : « اتسمعينهم ! انني لم آت على كل حال الى المكسيك لأرى اميركيين ! » .

كان يمسك بيده حقيبة سفر صغيرة ، وكنا نتقدم متلمسين طريقنا تلمساً على درب موحل . وكان ماء ثقيل يقطر من اشجار كانت تحجب عنــا السماء . ولم نكن نرى شيئاً ، وكنت مدوخة من رائحة شجية ، رائحــة دبال ، وأوراق شجر منتنة ، وازهار محتضرة . وكانت هرر لامرئية لامعــة العيون تثب في الظلمات . واشرت الى هذه الحدقات التي بدون جسد : « ما هذا ؟ » .

– حباحب . يوجد منها ايضاً في الالينوا . احبسي خمسة منها في زجاجـة مصباح ، وسترين بما فيه الكفاية من الوضوح للقراءة .

فقلت :

– سيكون هذا مفيداً جداً ! انني لا ارى شيئاً . اواثق انت انه يوجــد فندق آخر ؟

– واثق تماماً !

كنت قد بدأت اشك في ذلك . لا بيت ، لا صوت انسانياً . واخيراً سمعنا اصواتاً اسبانية . وكنا نميز بشكل مبهم جداراً: لا نور . ودفع ليويس حاجزاً، لكننا ما كنا نجرؤ على التقدم : كانت خنازير تنخر ودواجن تصيت، وفي مكان ما كانت توجد جوقة من الضفادع . وهمست : « انها لمهلكة » .

وصاح ليويس : « أهو فندق هنا ؟ » .

وتعالى لغط ، واضاءت شمعة . ثم انتشر الضوء . كنا في باحة نزل ، وكان رجل يبتسم لنا في ادب وقال اشياء بالاسبانية. وقال لي ليويس : « انه يعتذر. كان هناك عطل في الكهرباء . لديه غرف » .

كانت الغرفة تطل من ناحية على الباحة ، ومن الاخرى على الدغل ، وكانت عارية ، لكن الأغطية كانت بيضاء تحت الكلل البيضاء . وعند العشاء قدمت

لنا تورتيلا كانت تلتصق بالأسنان ، وفول بنفسجي ، وفروج نحيـــف احرقت مرقته حلقي. كانت غرفة الطعام مزدانة ببورسلين مشوب وملون. وعلى تقويم، كان هنود نصف عـراة ، متزينون بالريش ، يلعبون بكرة السلة وسط ملعب قديم . وكان مكسيكي ، جالس على مقعد في الباحة ، بين الخنازير والدجـاج ، يعرك قيثاراً .

وقلت :

– ما ابعد شيكاغو ! وباريس . ما ابعد كل شيء !

فقال ليويس بصوت منتعش :

– نعم ، لقد بدأنا الآن حقاً في السفر .

وشددت على يده . كنت أعرف جيداً ، في تلك اللحظة ، مـا في رأسه : صوت القيثار ، جوقة الضفادع ، وانا . كنت اسمع الضفادع ، والقيثار ، وكنت كلي له . لم يكن لشيء وجود بالنسبة له ، بالنسبة لي ، بالنسبة لنا إلا نحن .

طوال الليـــل دخل نقيق الضفادع الى غرفتنا ، وعند الصباح كانت آلاف العصافير تثرثر. وعندما دخلنا الى الأرض المسورة حيث تنتصب المدينة القديمة، كنا وحيدين . وركض ليويس نحو المعابـــد وتبعته بخطا صغيرة . كنت ايضاً أكثر حيرة مما كنت عليه عند وصولي الى اليوقاطان . كانت الحضارة القديمة قد امتزجت بالنسبة لي حتى الآن بالبحر المتوسط . وكنت قد تأملت بدون دهشة على الاكروبول ، في الفوروم ، ماضيَّ الخاص . لكن لم يكن ثمـــة شيء يربط « شيشن اتزا» بتاريخي . وقبل ثمانية أيام، كنت اجهل حتى اسم مكة الهندسية الضخمة هذه ذات الصخور المشبعة بالدم . ولقد كانت هنا ، ضخمة ، خرساء ، ساحقة الارض تحت ثقل هندساتها الدقيقة وتماثيلها المتعصبة . معابد ، هياكل ، الملعب المصور على التقويم ، سوق ذات الف عمود ، معابد اخرى دقيقة الزوايا ، ذات تصاوير ناتئة مجنونة . وبحثت عن ليويس بناظري ، ولمحته على أعلى الهرم الكبير . كان يحرك يده ، وكان يبدو قصيراً للغاية . كان الدرج شاهقاً وارتقيته دون ان أنظر الى تحتي ، شاخصة العينين نحو ليويس . وقلت :

ـ اين نحن ؟

ـ انني لأتساءل عن ذلك .

من وراء اسوار الجدران، كنا نلمح على مد النظر الغاب الأخضر حيث يسطع من بعيد الى ابعـد اللون الاحمر لشجرة لامعة . ليس ثمـة من حقل . وقلت : « لكن اين يزرعون الذرة اذن ؟ » .

فقال ليويس بلهجة متعجرفة : « ماذا علموك في المدرسة اذن ؟ اثناء البذر يحرقون قطعة من الغاب ، وبعد الجني ، تنبت الاشجار من نفسها ثانيـة فوراً ، ولا يرى أثر للندوب » .

ـ من اين تعرف هذا ؟

ـ اوه ! لقد عرفت ذلك دوماً .

واخذت اضحك : « انت تكذب ! لقد قرأت ذلك في كتاب ، هذه الليلة دون شك بينما كنت نائمة . ولولا ذلك ، لقلته لي البارحة ، في الاوتوبيس » .

وبدا عليه الارتباك : « هذا على كل حال غريب ، حتى في الاشياء الصغيرة، تفشّلين لعبتي دوماً . نعم ، لقد وجدت كتاباً مساء البارحة في الفندق وكنت اريد ان ابهرك » .

ـ ابهرني . ماذا تعلمت ايضاً ؟

ـ الذرة تنبت من نفسها . ليس الفلاحون بحاجـة الى العمل اكثر من بضعة اسابيع في السنة . وهكذا اتيح لهم ان يبنوا مثل هذا العدد الكبير من المعابد.» واضاف في عنف مباغت : « أتتصورين هـذه الحيوات ! اكل التورتيلا ، وحمل الصخور ، تحت هذه الشمس ! الأكل والعرق ، العرق والأكل ، يوماً بعد يوم ! لم يكن هناك من التضحيات الانسانية اكثر من ذلك، انها ليست اسوأ التضحيات . لكن فكري بأولئـك الملايين من التعساء الذين جعل منهم المحاربون والكهنة دواب ركوب ! ولماذا ؟ عن غرور أحمق ! » .

كان ينظر في كراهية الى هذه الاهرامات التي كانت تندفع في الماضي نحو الشمس والتي تبدو لنا اليوم مرهقة للارض . لم اكن اشاطره غضبه ، ربما لأنه لم يتحتم

علي ان اعرق لآكل ولأن كل هذه التعاسة كانت مغرقة في القدم . لكني لم اكن استطيع ايضاً ، كما كنت سأفعل ذلك قبل عشر سنوات ، ان اتيه دون فكرة مسبقة في تأمل هذا الجمال الميت . ان هـذه الحضارة التي ضحّت بكثير من الحيوات الانسانية من اجل ألعابها الصخرية ، لم تترك خلفها شيئاً . كان جدبها يغضبني اكثر من وحشيتها . اذ لم تعد هناك الا قبضة من المهندسين والجماليين للاهتمام بهذه الانصاب التي يصورها السائحون آلياً . وقلت :

— ماذا اذا نزلنا ؟

— كيف ؟

لكأن الجدران التي تسند السطح كانت كلها ، الاربعة ، عمودية . وكان احدها متثلماً بالظلال والأنوار التي لا يستطيع احد ان يفكر بوضع قدمه عليها. واخذ ليويس يضحك : « ألم اقل لك ابداً انني اصاب بدوار رهيب ما اناكون على علو مترين عن الارض ؟ لقد صعدت دون ان انتبه لذلك، لكني لن أستطيع الهبوط ابداً » .

— لا بد من ذلك حتماً !

فتراجع ليويس الى وسط السطح :

— مستحيل .

وابتسم من جديد : « منـذ عشر سنوات في لوس انجلوس ، كنت اموت جوعاً . ثم وجدت عملاً : تجصيص اعلى مدخنة مصنع . ورفعوني في سلة:فبقيت ثلاث ساعات دون ان اقرر الخروج منها . وانتهى بهم الامر الى انزالي ورحلت فارغ الجيوب . مع انني لم اكن قد اكلت شيئاً منذ يومين . أتصدقين ذلك ! ».

فقلت :

— غريب ان تصاب بالدوار ! لقد رأيت الكثير من الاشياء ، من جميع الألوان : كنت اظنك اكثر تمرساً ! » وتقدمت نحو الدرج : «ثمة اسرة اميركية تستعد للصعود : لننزل ! » .

— ألست خائفة ؟

– بلى ، اني خائفة .

فقال ليويس :

– اذن دعيني امرّ امامك .

ونزلنا الدرج يداً في يد ، ونحن متماسكان مواربة . كنا نسيل عرقاً حين وصلنا الى الاسفل . وكان دليل يشرح لزمرة من السياح اسرار روح مايا . وتمتمت : « ما اغرب السفر ! » .

فقال ليويس :

– نعم ، انه لغريب . » وسحبني : « لنعد لتناول كأس » .

كان بعد الظهر حاراً جداً . فتناومنا في ارجوحتين ، امام باب غرفتنا . ثم دفعني الفضول ، فضول وحشي وكأنه عصب مثار ، الى ادارة رأسي نحو الغابة. وقلت :

– انني راغبة كثيراً في الذهاب للقيام بجولة في هذه الغابات .

فقال ليويس :

– لمَ لا ؟

وخضنا في صمت الغابة الكبيرة الرطبة . ليس ثمة من سائح . كان نمل احمر يحمل على اكتافه تبناً مدبباً يسير جماعات جماعات نحو قلاع لامرئية . كنا نصادف ايضاً مجموعات من الفراشات تتطاير، وردية ، زرقاء ، خضراء،صفراء، من وقع اقدامنا . وكان ماء راكد على العرائش يتساقط علينا في قطرات ضخمة. وكنا نلمح من هنا وهناك ، عند نهاية درب مشجر ، ضريحاً غامضاً : كان عبارة عن معبد ، او قصر خرب مطمور تحت غطائه الخصب . وكانت بعض الحجارة نصف منبوشة : لكن الاعشاب كانت تخنقها . وقلت :

– يمكن الاعتقاد بأن ما من احد قد جاء الى هنا قط .

فقال ليويس بدون حرارة :

– اجل .

– انظر عند نهاية الدرب : انه معبد كبير .

فقال ليويس ايضاً :

– اجل .

كان معبداً كبيراً جداً. وكانت حراذين مذهبة تتدفأ بين الحجارة . وكانت التماثيل مشوهة ، باستثناء تنين مكشر عن اسنانه . وأريتــه لليويس الذي ظل ميت الوجه :

– أرأيت ؟

فقال ليويس :

– انني ارى .

وعلى حين غرة رفس التنين في شدقه .

– ماذا تفعل ؟

فقال ليويس :

– لقد رفسته .

– لماذا ؟

– كان ينظر إليّ بطريقة لم تعجبني . » وجلس ليويس على صخرة وسألت: « ألا تريد ان تدور حول المعبد ؟ » .

– افعلي ذلك بدوني .

ودرت حول المعبد . لكن قلبي لم يكن معي . فلم أرَ إلا احجاراً منضدة بعضها فوق بعض ولا تعني شيئاً . وعندما عدت ، لم يكن ليويس قــد تحرك ، وكان وجهه فارغاً للغاية ، حتى انه كان يبدو انه قد غاب عن نفسه . وسأل :

– أرأيت ما فيه الكفاية ؟

– أتريد العودة ؟

– اذا كنت قد رأيت ما فيه الكفاية .

فقلت :

– نعم بما فيه كل الكفاية . لنعد .

كان المساء يرخي سدوله . واخذنا نمــيز اول الحباحب . وقلت في نفسي في

قلق انني بعد كل شيء لا اعرف ليويس جيداً . كان تلقائياً للغاية ، صادقاً، حتى انه كان يبدو لي بسيطاً : لكن من هو ! عندما رفس تلك الرفسة ، لم يكن يبدو طيباً . ودواره ، ماذا يعني هذا ؟ كنا نسير في صمت : بمن كان يفكر ؟ وقلت :

– بمن تفكر ؟

– انني افكر ببيت شيكاغو . لقد تركت المصباح مضاء ، فالناس الذين يمرون يظنون ان فيه احداً : وليس فيه احد .

كان في صوته كآبة . فقلت :

– أأنت آسف على انك هنا ؟

فضحك ليويس ضحكة صغيرة : « هل انا هنا ؟ هذا غريب : انت كطفل، كل شيء يبدو لك واقعياً ، في حين انني اشعر وكأنني في حلم : حلم يحلم به انسان آخر » .

فقلت :

– الا انك انت . وانا نفسي .

فلم يجب ليويس . وخرجنا من الغابة . كان الليل مخيماً تماماً . كانت بروج قديمة ترقد في السماء متشابكة بين نجوم جديدة متناثرة . وحين لمح ليويس انوار النزل ابتسم : « اخيراً ؟ كنت احس بنفسي ضائعاً » .

– ضائعاً ؟

– انها لقديمة جداً تلك الخرائب ! قديمة للغاية .

فقلت :

– انا ، انني لأحب ان احس نفسي ضائعة .

– ليس انا . لقد ضعت مدة طويلة جداً ، وظننت انني لن اجد نفسي ثانية ابداً . والآن لن اعاود ذلك مقابل اي شيء .

كان في صوته تحدٍ ، وشعرت انني مهددة بشكل غامض . وقلت : « يجب ان نعرف في بعض الاحيان كيف نضيع انفسنا : اذا لم نجازف بشيء ،

فلن نملك شيئاً » .

فقال ليويس بلهجة قاطعة :

– انني افضل الا املك شيئاً على ان اقوم بهذه المجازفة .

كنت افهمه : لقد تحمل مشقة كبيرة في الحصول على شيء من طمأنينة فهو حريص قبل كل شيء على الحفاظ عليها . ومع ذلك ، يا للتهور الذي احبني به ! هل سيندم على ذلك ؟ وسألت :

– تلك الرفسة التي رفستها ، اكان ذلك لأنك كنت تحس نفسك ضائعاً ؟

– كلا . لم اكن احب ذلك الحيوان .

– كنت تبدو رديئاً حقاً .

فقال ليويس :

– هذا لانني رديء .

– ليس معي .

فابتسم : « هذا صعب معك . لقد حاولت مرة ، في السنة الماضية ، فبكيتِ فوراً » .

كنا ندخل الى غرفتنا وسألت : « ليويس ، ألست غاضباً عليّ ؟ » .

فقال :

– ممَ ؟

– لست ادري . من كل شيء ، من لا شيء . من ان لي حياتين .

فقال ليويس :

– لو لم تكن لك إلا حياة واحدة لما كنت هنا .

فنظرت إليه في قلق :

– أأنت غاضب عليّ لذلك ؟

فقال ليويس :

– كلا . انني لا ألومك . » وشدني إليه : « انني اريدك » .

وقلب الكلة ورماني على السرير وحين اصبحنا عاريين ، جسداً الى جسد ،

قال بصوت سعيد :

— هذه اجمل اسفارنا ؟

كان وجهه قد اضاء . ولم يعد يحس نفسه ضائعاً . كان حقاً حيث كان ، في جسدي . لم اعــد قلقة . سيكون السلام والفرح اللذان نجدهما في اذرع بعضنا اقوى من كل شيء .

ان نسافر ، ان نقطع العالم لنرى بأعيننا ما لم يعد له وجود ، ما لا يخصنا ، فهذا نشاط مريب حقاً . كنا متفقين على هذه النقطة ، انا وليويس . إلا ان هذا لا يمنع ان ذلك كان يستهوينا كلينا ، كثيراً . كان يوم احد في « اوكسمال » وكان الهنود يفرغون سلال الرحلات في ظل المعابد . وتسلقنا الأدراج المنهارة متشبثين بسلاسل خلف نسوة يرتدين تنورات طويلة . وبعد يومين ، حلقنا فوق غابات سكرى بالمطر . وارتفعت الطائرة عالياً في السماء ولم تهبط : انمــا هي الارض التي صعدت للقيانا . وقدمت لنا بحيرة زرقـــاء ومدينة مسطحة ذات مربعات منتظمة انتظام مربعات دفتر طالب ، راقدتين في الخضرة : غواتيمالا ، الفقر الجاف لشوارعها المحفوفة بمنازل طويلة واطئة ، بسوقها الرابلة ، بفلاحيها الحفاة ، المرتدين اسمالاً ملكية ، الحاملين على رؤوسهم سلالاً من الازهار والثمار . وفي حديقـــة فندق آنتيغا ، كان وابل من الزهور الحمراء ، والبنفسجية ، والزرقاء ، ينهال على طول جذوع الاشجار ويغرق الجدران . وكان المطر يهطل بشدة، كثيفاً ودافئاً ، وكان ببغاء مقيد يجري من اعلى قفصه الى اسفله ضاحكاً. وعلى ضفة بحيرة آتيتلان ، كنا نرقد في عزبة مزهرة بباقات ضخمة من القرنفل. وقـــادنا مركب الى سانتياغو حيث كانت نسوة تحيط بهن هـــالة من الشريط الحريري الاحمر يهدهدن اطفالاً رضعـــاً متلفحين من رؤوسهم الى اكتافهم في برانس مخروطية . واقلعنا ذات يوم خميس الى وسط سوق « شيشيكاستينانغو » . كانت الساحة مغطــاة بخيام وواجهات عرض . وكانت نسوة مرتديات قمصاناً مطرزة وتنورات ساطعة متقلبة اللون يبعن حبوباً ، وطحيناً ، وخبزاً ، وثماراً جافــة ، ودواجن نحيلة ، وآنية خزفيـــة ، واكياساً ، واحزمة ، ونعالاً ،

وكيلومترات من اقمشة ملونة بألوان زجاج الكنائس والسيراميك ، جميلة للغاية حتى ان ليويس نفسه كان يجسها في تهلل . وكان يقول :

– اشتري اذن هذا القماش الاحمر ! او الاخضر ، مع كل عصافيره الصغيرة .

فقلت :

– انتظر . يجب ان نرى كل شيء .

كانت اروع هذه الروائع القمصان العتيقة جداً التي كانت ترتديها بعض الفلاحات . وأريت ليويس صدرية من تلك الصداري ذات التطاريز القديمة التي يمتزج فيها ازرق « شارتر » بحنان مع الالوان الحمراء والذهبية الكامدة : « هذا ما اريد ان اشتريه ، إذا كان للبيع » .

فتفحص ليويس الهندية ذات الضفائر الطويلة :

– لعلها ستبيعها .

– لن اجرؤ ابداً على اقتراح ذلك عليها . ثم بأية لغة ؟

وتابعنا التجول . كانت نسوة يعجنّ بين راحاتهن عجين التورتيلا ، وكانت قدور مليئة بنقيع لحم اصفر تغلي على نيران . وكانت اسر تأكل . وكانت الساحة مجنحة بكنيستين بيضاوين ، يدخل إليهما المرء بواسطة ادراج . وكان ، على الدرجات ، رجال يرتدون ملابس مصارعي ثيران تمثيلية ، يهزون مباخر . وصعدنا نحو الكنيسة الكبيرة ، من خلال الأدخنة الكثيفة التي ذكّرتني بطفولتي التقية . وسألت :

– هل لنا الحق في الدخول ؟

فقال ليويس :

– ماذا يستطيعون ان يفعلوا لنا ؟

ودخلنا وامسكت بخناقي رائحة عطور ثقيلة . لا كراسي ، لا خوانات ، لا مقعد . كانت الأرض المبلطة تعكس ألسنة لهيب الشموع الوردية . وكان الهنود يدندنون بصلوات متناقلين من يد الى يد عرانيس الذرة . وكانت ترقد على الهيكل مومياء مغطاة بالبروكار والزهور . ومقابلها ، كان يوجد مسيح مصلوب كبير

دامٍ معذب الوجه ، مرهق بالأقمشة والمجوهرات . وقال ليويس :

– لو كنا نستطيع على الأقل ان نفهم ما يقولونه !

كان ينظر الى شيخ حرش القدمين كان يبارك نسوة راكعات . وسحبته من ذراعه : « لنخرج . هذا البخور كله يوجع رأسي » .

وعندما وجدنا نفسينا خارجاً من جديد قال لي ليويس :

– كلا ، كما ترين ، لا اعتقد ان هؤلاء الهنود سعداء . ان ثيابهم مرحة : لا هم .

واشترينا احزمة ، ونعالاً ، واقمشة . كانت العجوز ذات الصدرية الرائعة لا تزال هناك ، لكني لم اجرؤ على الاقتراب منها . وكان بعض الهنود ، في مقهى بقالية الساحة ، يشربون حول طاولة . وكانت نساؤهم جالسات عند اقدامهم . وطلبنا تيكيلا قدمت لنا مع الملح وليمونات صغيرة خضراء . وكان شابان هنديان يرقصان مترنحين : كان يبدو عليهما انهما عاجزان عن اللهو الى حد ان القلب كان ينفطر لهما . وكان التجار ، في الخارج ، قد اخذوا يطوون خيامهم . وكانوا يرفعون بآنيتهم الخزفية بنايات معقدة يحملونها على ظهورهم . وكانوا يمضون خبباً ، وجبهاتهم محزومة بعصابات جلدية تساعدهم على تثبيت احمالهم . وقال ليويس :

– انظري لي الى ذلك ! انهم يظنون أنفسهم دواب ركوب .

– افترض انهم أفقر من ان يستطيعوا الحصول على حمير .

– افترض . لكن يبدو عليهم انهم مرتاحون تماماً في بؤسهم : هذا ما يغيظ فيهم . » واضاف : ماذا لو عدنا ؟ » .

– لنعد .

وعدنا الى الفندق ، لكنه تركني أمام الباب : « نسيت أن اشتري سجاير . سأعود حالاً » .

كان في مدفأتنا نار كبيرة . كانت هذه المدينة الصغيرة المشمسة منصوبة عالياً أعلى من أية بلدة في فرنسا وكان الليل يهدد بأن يكون بارداً . ورقدت

أمام ألسنة اللهيب التي كانت تفوح منها رائحة صمغ طيبة . كانت تعجبني ، هذه الغرفة ، بجدرانها المجصصة باللون الوردي وسجادها . وفكرت بليويس : كنت مسرورة بانفرادي خمس دقائق ، لأن ذلك كان يسمح لي بالتفكير به . يقيناً ، ان ليويس لا يأبه لما هو غريب . فاذا ما رأى معابد ، او مناظر ، او اسواقاً ، فانه ينظر اليها جانبياً فوراً : فيرى البشر . كانت لديه أفكاره عما يجب أن يكون عليه الانسان : قبل كل شيء شخص لا يستسلم ، شخص له رغبات ويناضل لإشباعها . كان ، هو نفسه ، يكتفي بالقليل ، لكنه كان قد رفض بعنف ان يحرم من كل شيء . كان في رواياته مزيج غريب من الحنان والقسوة لأنه كان يكره بالقدر نفسه تقريباً المضطهدين وضحاياهم القانعة أكثر مما ينبغي . وكان يقف مودته على الناس الذين يحاولون على الأقل تهربات شخصية في الأدب، والفن ، والمخدر ، وعند الحاجة الجريمة ، وفي افضل الحالات السعادة . ولم يكن يعجب حقاً الا بكبار الثوريين . لم يكن رأسه سياسياً أكثر مني ، لكنه كان يحب بشكل عاطفي جداً ستالين ، وماوتسي تونغ ، وتيتو . وكان شيوعيو اميركا يبدون له سذجاً ورخوين ، لكني افترض انه كان سيكون شيوعياً في فرنسا : على الأقل كان سيحاول . وأدرت رأسي نحو الباب : لماذا لا يعود ؟ وكنت على وشك نفاد الصبر حين دخل أخيراً ، تحت ذراعه حزمة . وقلت :

– ماذا فعلت إذن ؟

– كنت مكلفاً بمهمة خاصة .

– من قبل من ؟

– من قبل نفسي .

– وهل نفذتها ؟

– بالتأكيد .

ورمى لي بالحزمة . ونزعت الورق . وملأ أزرق « شارتر » عيني : كانت الصدرية الرائعة . وقال ليويس :

– انها بالأحرى وسخة !

كنت اتابع بإصبعي في حبور الرسم الجامح والمدروس للتطاريز : « انهـــا عظيمة . كيف حصلت عليها ؟ »

– لقد أخذت معي بواب الفندق فقام بالمساومة كلها . لم تكن العجوز تريد أن تعرف شيئاً لبيع خرقتها لكن حـــين اقترح عليها مبادلتها مقابل صدرية جديدة ، رضيت . بل لقد بدا عليها انها تعتبرني أحمق . لكني ، بعد ذلـــك، اضطررت الى تقديم كأس للبواب ، فما عاد يتركني : انه يريد الذهاب لجمع ثروة في نيويورك .

وتعلقت برقبة ليويس : « لمَ انت لطيف جداً معي ؟ » .

– لقد قلت لك انني لست لطيفاً . اناني جداً . كل ما هنالك انك قطعـــة صغيرة مني .» وطوقني بقوة أعظم : « أنت عذبة جداً للحب » .

آه ! كان جسدانا مفيدين للغاية في هــذه اللحظات التي يخنقنا فيها الحنان . والتصقت بليويس . كيف يمكن لجسده ان يكون مألوفاً ومقلقاً للغـاية في آن واحد ؟ وفجأة ألهبني دفئه من جـــلدي الى عظامي . وتهالكنا على السجـادة امام ألسنة اللهيب المتقلصة .

– آن ! أتعرفين كم احبك ؟ أتعرفين ذلك مع انني لا اقوله لك غالباً ؟

– انني اعرف . انت تعرف ايضاً ، أليس كذلك ؟

– اعرف .

ورمينا بثيابنا في زوايا الغرفة الاربع . وقال ليويس :

– لماذا ارغب فيك كثيراً ؟

– لأنني ارغب فيك كثيراً .

واخذني على السجادة . واخذني ثانية على السرير ولبثت طويـــلاً راقدة في ظل أبطه .

– كم احب ان اكون ملتصقة بك !

– كم احب ان تكوني ملتصقة بي !

وبعد فترة نهض ليويس على احد مرفقيه :

– حلقي جاف . وانت لا ؟

– سأشرب كأساً بكل رضى .

ورفع سماعـة التلفون وطلب كأسي وسكي . وضممت ثوب غرفتي وضم هو برنسه الابيض . وقلت :

– يجب ان ترمي هذه الفظاعة .

فتلفح بقوة في النسيج النافش :

– ابداً ! سأنتظر ان يتركني .

لم يكن بخيلاً البتة ، لكنه كان يكره ان يرمي الاشيـــاء ، وعلى الاخص ملابسه القديمة . وجيء لنا بالوسكي وجلسنا عند ركن النار ، كانت السماء قـد اخذت تمطر ، في الخارج ، وكانت تمطر كل الليالي . وقلت :

– انني مرتاحة !

فقال ليويس :

– انا ايضاً . » وطوق كتفي بذراعه وقال : « آن ! ابقي معي » .

وتوقف نفَسي في حلقي : ليويس ! انت تعرف كم اود ذلك ! اود كثيراً ! لكني لا استطيع » .

– لماذا ؟

– شرحت لك في السنة الماضية .

وافرغت كأسي بجرعة واحدة وانهارت كل المخاوف القديمـة علي : خوف نادي ديليزا ، خوف ميريدا ، خوف شيشن اتزا ، وغيرها ايضاً ممـــا خنقتها بسرعة كبيرة . هذا ما كنت اشعر بنذيره . ذات يوم سوف يقول لي : ابقي ، وسيكون علي ان اجيب لا . ماذا سيحدث آنذاك ؟ السنة الماضية ، لو فقدت ليويس لاستطعت ان اتعزى عنه . اما الآن فحرماني منه يعادل دفني حية .

وقال :

– انت متزوجة . لكنك تستطيعين الطلاق . نستطيـع ان نعيش معاً دون ان نتزوج . » ومال عليّ : « انت زوجتي ، زوجتي الوحيدة » .

وصعدت الدموع الى عيني وقلت : « انني احبك . انت تعرف كم احبك . لكني في مثل عمري لا استطيع ان ارمي حياتي كلها الى عرض البحر : لقد فات الأوان . لقد التقينا بعد فوات الأوان » .

فقال :

— ليس بالنسبة لي .

فقلت :

— هل تعتقد ؟ اذا سألتك ان تأتي للعيش في باريس للأبد ، فهل تأتي ؟

فقال ليويس بحدة :

— انني لا اتكلم الفرنسية .

فابتسمت : « انها تُتعلم . ان الحياة ليست اغلى في باريس منها في شيكاغو ، والآلة الكاتبة ، انها سهلة النقل . هل ستأتي ؟ » .

فغام وجه ليويس : « لن استطيع الكتابة في باريس » .

فقلت :

— افترض ان لا . » وهززت كتفي : « كما ترى ، لن تستطيع الكتابة في الخارج ولن يعود لحياتك معنى . انني لا اكتب . لكن ثمة اشياء لها اهميتها عندي لا تقل اهمية عن كتبك بالنسبة لك » .

فلازم ليويس الصمت لحظة . وقال : « الا انك تحبينني ؟ » .

فقلت :

— نعم . سأحبك حتى موتي » . واخذت يديه : « ليويس، استطيع المجيء كل سنة . اذا كنا واثقين من اننا سنلتقي كل سنة ، فلن يعود هناك فراق ، بل انتظارات فقط . اننا نستطيع الانتظار في السعادة حين نحب بعضنا حباً قوياً بما فيه الكفاية » .

فقال ليويس :

— اذا كنت تحبينني كما احبك، فلماذا نضيع ثلاثة ارباع حياتنا في الانتظار؟

فترددت ، وقلت : « لأن الحب ليس كل شيء . عليك ان تفهمني : بالنسبة

لك ايضاً ليس هو كل شيء » .

كان صوتي يرتجف ونظرتي تتضرع الى ليويس : ليفهم ! ليحتفظ لي بهذا الحب الذي لم يكن كل شيء والذي مع ذلك لن اعود شيئاً بدونه .

وقال ليويس :

ــ كلا ، ليس الحب كل شيء .

كان ينظر اليّ بوجه متردد . فقلت بحماسة :

ــ انني لا احبك اقل لحرصي ايضاً على اشياء اخرى . يجب ألا تحقد عليّ لذلك . يجب الا يكون حبك لي اقل .

فلمس ليويس شعري : « افترض انه لو كان الحب كل شيء بالنسبة لك لما احببتك بهذا القدر : فأنت لن تعودي نفسك » .

فامتلأت عيناي بالدموع . اذا كان يقبلني بكاملي ، مع ماضيّ ، وحياتي ، مع كل ما يفصلني عنه ، فان سعادتنا قد انقذت . ورميت بنفسي بين ذراعيه :

ــ ليويس ! كان الامر سيكون فظيعاً لو لم تفهم ! لكنك تفهم.يا للسعادة !

فقال ليويس :

ــ لماذا تبكين ؟

ــ لقد خفت : اذا خسرتك ، فلن استطيع الحياة .

فسحق دمعة على خدي : « لا تبكي . انما انا الدي يخاف حين تبكين » .

فقلت :

ــ انني الآن ابكي لأنني سعيدة . لأننا سنكون سعيدين . عندما سنكون معاً ، سنختزن من السعادة ما يكفي للسنة كلها ، أليس كذلك ، يا ليويس ؟

فقال بحنان :

ــ اجل ، يا غوليتي الصغيرة . » وقبّل خدي المبلل : « هذا غريب ، تبدين لي أحياناً امرأة عاقلة جداً ، واحياناً مجرد طفلة .

فقلت :

ــ أفترض انني امرأة بلهاء . لكن هذا عندي سيان اذا كنت تحبني .

فقال ليويس :

– انني احبك ، ايتها الغولية الصغيرة البلهاء .

كان قلبي مبتهجاً صباح اليوم التالي في الاوتوبيس الذي كان يقودنا الى « كتزالتينانغو » . ما عدت اخشى المستقبل ، ولا ليويس ، ولا الكلمات ، ما عدت اخشى شيئاً . وللمرة الاولى رحت اجرؤ على التفكير بمشاريع بصوت عالٍ : في السنة القادمة ، سيستأجر ليويس بيتاً على بحيرة ميشيغان وسنمضي فيه الصيف . وبعد سنتين سيأتي الى باريس ، وسأريه فرنسا وايطاليا ... كنت امسك بيده مطبقة في يدي وكان يوافق باسماً . كنا نعبر غابات ملتفة . وكان يهطل مطر دافىء جداً وذو رائحة فواحة حتى انني انزلت الزجاج لأحس به على وجهي . كان رعاة ينظرون إلينا نمر ، بلا حراك تحت قبعاتهم القشية : لكأنهم ينقلون اكواخاً على ظهورهم .

وقال ليويس :

– أصحيح حقاً اننا على ارتفاع ٤٠٠٠ متر ؟

– يبدو ذلك .

فهز رأسه : « لا اصدق ذلك . كنت اصبت بالدوار » .

من بعيد ، كانت تلك الهضاب المرتفعة ارتفاع كتل الجليد والمغطاة بأشجار غناء تبدو لي دوماً كأنها معجزة مستحيلة . اما الآن فإنني اراها ، وهي تصبح طبيعية كأنها مرج فرنسي . وفي الحقيقة ان غواتيمالا العليا مع براكينها النائمة ، وبحيراتها ، ومراعيها ، وفلاحيها المتطيرين ، تشبه مقاطعة « اوفرني » . وكنت قد اخذت اتعب منها ، ولقد سررت حين نزلنا ، بعد يومين ، نحو الساحل : نزول عظيم ! وعند الفجر كانت اسناننا تصطك على الطريق المتعرجة التي تحفها مراعٍ نضرة . ثم اختفت النباتات التي تتجدد سنوياً تحت امواج من نبات قاتم ذي اوراق قاسية ولامعة . وعند سفح المراعي الجبلية المتلألئة بصقيع ابيض ظهرت قرية اندلسية حجرية مزهرة بالبامية والنباتات المتسلقة . وبعد دورات من الدولاب ، اجتزنا ايضاً عدة متوازيات ، والتهبت السماء ، وعبرنا

مزارع الموز ، التي تتناثر فيها اكواخ تتجول حولهـا هنديات عاريات الصدور . وكانت محطـــة « موتزاتينانغو » ميدان معرض . كانت نسوة جالسات على الخطوط الحديديـــة بين تنوراتهن ، وامتعتهن ، ودواجنهن . وقرع جرس من بعيد ، واخذ موظفون يصيحون ، وظهر قطار صغير ، تسبقه ضجة عريقـة في القدم للبخار والحديد .

واقتضانا قطع المئـــة والعشرين كيلومتراً التي تفصلنا عـــن غواتيمالا عشر ساعات . وفي اليوم التالي ، نقلتنا طائرة ، في خمس ساعات ، فوق جبـال قاتمة وساحل بارق بالشمرر ، الى مكسيكو .

وقال ليويس في التاكسي :

– اخيراً مدينة حقيقية ! مدينة تحدث فيهـــا اشياء ! » وأضاف : « انني احب المدن ! » .

– انا ايضاً .

كنا قد اخترنا مسبقاً فندقنا ، وكانت رسائل تنتظرنا فيه. وقرأت رسائلي في الغرفة ، جالسة الى جانب ليويس : انني استطيع الآن ان أفكر بحيـاتي في باريس دون ان اشعر انني اسرق منه شيئاً ما ؛ انني اشاطره الآن كل شيء حتى مـــا يفصلنا . كان روبير يبدو حسن المزاج ، ويقول ان نادين حزينة لكن هادئـــة ، وان بول قد شفيت تقريباً : كان كل شيء على ما يرام . وابتسمت لليويس :

– من كتب لك ؟

– ناشرو كتبي .

– ماذا يقولون ؟

– يريدون تفاصيل عن حيـاتي . من اجل طرح الكتاب الى السوق : انهم يفكرون بطرح كميات كبيرة منه .

كان صوت ليويس كالحاً . فسألته بنظرتي :

– هذا يعني انك ستربح كثيراً من المال ، أليس كذلك ؟

فقال ليويس :

– لنأمل ذلك ! » ودس الرسالة في جيبه : يجب ان اجيبهم فـــوراً » .

فسألت :

– لماذا فوراً ؟ لنذهب اولاً لرؤية مكسيكو .

فأخذ ليويس يضحك : رأس صغير جـــداً ! وعينان لا تتعبـــان أبداً من النظر ! ».

كان يضحك ، لكن شيئاً ما في لهجته أقلقـني . فقلت : « اذا كان الخروج يزعجك ، فلنبقَ » .

فقال ليويس :

– ستأسفين كثيراً !

وسرنا محاذين « الآلاميدا » . كانت نسوة على الرصيف يضفرن أكاليـــل مأتمية كبيرة ، وغـيرهن يتسكعن . وكانت كلمة « الكازار [1]» تلمع في بهجة على مثلث في أعلى قاعة مـــأتمية . وسرنا في شارع عريض شعبي ثم في شوارع صغيرة قريبة . وللوهلة الأولى ، اخذت مكسيكو تعجبـني . لكن ليويس كان مشغولاً . لم يكن ذلك يدهشني . ثمة أشياء يقررها دفعة واحدة ، لكن يحدث له غالباً أن يتردد طوال ساعات أمام حقيبة يجب أن تهيأ او رسالة يجب ان تكتب . وتركته يفكر بصمت طوال العشاء كله . وما ان عدنا الى الغرفة حـــتى جلس أمام صفحة من ورق أبيض : كان بفمه نصف المفتوح وعينيه الزجاجية ، يشبه سمكة . ونمت قبل ان يخط كلمة واحدة .

وسألته صباح اليوم التالي :

– أانتهت رسالتك ؟

– اجل .

– لماذا تزعجك الكتابة كثيراً ؟

– انها لا تزعجني . » واخذ يضحك : « آه ! لا تنظري إليّ وكأنني أحـد

---

١ – اي القصر ، والكلمة عربية الأصل . « المترجم » .

مرضاك . تعالي لنتنزه » .

وتنزهنا كثيراً ، خلال ذلك الاسبوع . تسلقنا الأهرام الكبيرة وابحرنا في قوارب زهرية ، وتسكعنا في شارع جالسيكو، في أسواقه البائسة، ومراقصه، وملاهيه الموسيقية ، وتجولنا في المنطقة وشربنا من التيكيلا في البارات السيئة السمعة . وكنا نزمع البقـــاء بعض الوقت ايضاً في مكسيكو ، وقضاء شهر في زيارة البلد والعودة لشيكاغو لمدة بضعة ايام . لكن بعد ظهر أحد الأيام، قال لي ليويس على حين غرة ، حين عدنا لغرفتنا بغية القيلولة :

ـ يجب ان أكون يوم الخميس في نيويورك .

فنظرت اليه في دهشة : « في نيويورك ؟ لماذا ؟ » .

ـ ناشريّ يطلبون ذلك .

ـ أتلقيت رسالة جديدة ؟

ـ نعم ، انهم يدعونني لمدة خمسة عشر يوماً .

فقلت :

ـ لكنك لست مرغماً على القبول .

فقال ليويس :

ـ بالضبط ، انني مرغـم .» واضاف : « لعـــل الأمور لا تجري على هذا النحو في فرنسا ، لكن الكتاب هنا قضية ، فإذا اردت ان يغـلّ ، فيجب ان تهتمي به . يجب أن أرى أناساً ، وأحضر حفـلات ، وأعطي مقابلات . ليس هذا ظريفاً جداً ، لكن الأمر هكذا » .

ـ ألم تخطرهم انك لست حراً قبل تموز ؟ ألا يمكن تأجيل هذا كله حـــتى تموز ؟

ـ لا يكون الوقت مناسباً في تموز ، وعندئذ يجب ان انتظر حتى تشرين الأول : وهذا موعد متأخر أكثر ممـــا ينبغي . » وأضاف ليويس في نفـاد صبر : « منـذ اربعة اعوام وانا اعيش على نفقة ناشريّ . واذا كانوا يريدون ان يسددوا تكاليفهم ، فليس علي انا ان اعرقل عملهم . انني بحاجة الى المـال ، انا

ايضاً ، اذا كنت اريد ان اتابع كتابة ما يعجبني » .

فقلت :

– انني افهم .

– كنت افهم ، الا انني كنت اشعر بفراغ غريب في جوف معدتي . واخذ ليويس يضحك :

– ايتها الغولية الصغيرة المسكينة ! لكم يثير منظرهـا الحزن حين لا تنفذ كافة رغباتها !

واحمر وجهي . كان صحيحاً فعلاً ان ليويس لا يفكر قط إلا في ارضائي . واذا كان قد ابدى اهتماماً بمصالحه الخاصة ذات لحظة ، فقد كان علي الا اشعر انني مضطهدة . كان يجدني انانية ، لهذا كان صوته عدائياً بعض الشيء .

وقلت :

– انها غلطتك . لقد دللتني كثيراً .» وابتسمت وقلت : « اوه ! من الرائع ان نتنزه معاً في نيويورك . كل ما هنالك ان ذلك سبب لي صدمة ، اعني فكرة تغيير جميع مشاريعنا ، ولقد اعلنت لي ذلك دون ان تقول لي خذي حذرك ».

– كيف كان يجب ان اعلن ذلك لك ؟

فقلت في مرح :

– انني لا اؤنبك على شيء . » وسألت ليويس بنظرتي : « أكانوا قد دعوك في رسالتهم الاولى ؟ » .

فقال ليويس :

– نعم .

– لمَ لم تقل لي ذلك ؟

فقال ليويس :

– كنت اعرف ان هذا لن يسرك .

وألان قلبي منظره المرتبك . انني افهم الآن لماذا تردد كثيراً في جوابه . كان يحاول ان ينقذ رحلتنا الى المكسيك ، وكان مزمعاً كل الازماع على النجاح في

ذلك حتى انه بدا له انه لا جدوى من اقلاقي . لكنه فشل . لذلـك فهو يحاول الآن ان يواجـه الحظ العاثر بقلب طيب . وكانت تأسفاتي تغيظه قليلاً : كان يفضل ان يغتاظ على ان يكتئب ، انني أفهمه .

وقلت :

– كنت تستطيع ان تخبرني ، انني لست هشة الى هذا القدر . » وابتسمت له في حنان : « انت ترى جيداً انك تدللني كثيراً » .

فقال ليويس :

– ربما .

ومن جديد ، شعرت انني محيّرة ، وقلت : «سنبدل هذه الحال حين نصبح في نيويورك ، سأقوم انا بتنفيذ كافة رغباتك » .

فنظر اليّ ليويس ضاحكاً :

– أهذا صحيح ؟

– نعم ، هذا صحيح . كل بدوره .

– اذن ، لا ننتظرن نيويورك . لنبدأ فوراً . » وأمسكني من كتفي وقال في شيء من التحدي : « تعالي نفـّذي كافة رغباتي » .

كانت المرة الاولى التي افكر فيها وانا أهبه فمي : « كلا » . لكني لم اكن معتادة على ان أقول لا ، ولم اعرف كيف اقولها . ثم ان الاوان كان قد فات لأتدارك نفسي دون مشكلة . يقيناً ، لقد حدث لي مرتين او ثلاثاً ان قلت : نعم ، دون ان اكون راغبة في ذلك حقاً . لكن قلبي كان دوماً راضياً . أما اليوم ، فالأمر مختلف . فقد كان في صوت ليويس وقاحة جمدتني . لم تكن حركاتـه وكلماته لتصدمني قط ، لأنهـا كانت تلقائية كشهوته ، ولذته ، وحبه . ولقد اشتركت اليوم وانا مرتبكة في الرياضة المألوفة التي بدت لي غريبـة ، باطلة ، ماجنة . وتبينت ان ليويس لم يقل لي : « احبك » . متى قالها آخر مرة ؟

ولم يقلها في الأيام التالية . لم يكن يتحدث الا عن نيويورك . كان قد امضى فيها يوماً ، في عام ١٩٤٣ ، حين كان مقلعـاً الى اوروبا ، وكان يتلظى رغبة في

ان يراها ثانية . كان يأمل كثيراً من الاشياء . ان للمستقبل والماضي قيمة اكثر من الحاضر في نظر ليويس . كنت قربه ، وكانت نيويورك بعيدة : لكنها كانت نيويورك المسيطرة عليه . لم اكن اغتم لذلك كثيراً ، لكن مرحه كان يحزنني على كل حال . ترى أليس نادماً على خلوتنا ؟ كان لدي الكثير من الذكريات القريبة العهد كي لا اخشى ان يكون قد تعب مني : لكنه ربما اعتاد على ذلك أكثر مما ينبغي قليلاً .

كانت نيويورك شديدة الحر . لقد انتهت الامطار الكبيرة الليلية . كانت السماء تحترق من الصباح. وغادر ليويس الفندق في ساعة مبكرة وبقيت متناومة على هرير المروحة . وقرأت ، واخذت دوشات : وكتبت بضع رسائل . وفي الساعة السادسة كنت مرتدية ثيابي ، انتظر ليويس . ووصل في السابعة والنصف ، ملؤه الحماسة . وقال لي :

ـ لقد وجدت فلتون !

كان قد حدثني كثيراً عن فلتون هذا ، الذي يدق الطبل في الليل ، ويقود تاكسياً في النهار ، ويتناول المخدرات ليل نهار . وكانت زوجته تمارس البغاء وتتناول المخدرات معه . كانا قد تركا شيكاغو لأسباب صحية آمرة . ولم يكن ليويس يعرف عنوانها تماماً . وما ان انتهى من وكلائه وناشريه ، حتى أخذ يبحث عنه ؛ وبعد الف قصة تمكن من مكالمة فلتون بالهاتف . وقال ليويس :

ـ انه ينتظرنا . سوف يرينا نيويورك .

كنت افضل لو اقضي السهرة بمفردي مع ليويس لكني قلت في طلاقة : « يستهويني كثيراً ان أتعرف اليه » .

ـ ثم إنه سيأخذنا الى عدد من الزوايا لن نكتشفها ابداً بدونه . » واضاف ليويس في مرح :« زوايا لم يرك إياها اصدقاؤك الاطباء والنفسانيون بالتأكيد!».

كان الجو مشبعاً ، في الخارج ، بحرارة كبيرة رطبة . وكانت الحرارة اشد ايضاً في غرفة فلتون . كان رجلاً طويلاً شاحب الوجه ، يضحك غبطة وهو يهز يد ليويس . وفي الحقيقة ، لم يرنا شيئاً كبيراً من نيويورك . وجاءت زوجته،

مع شابين وعلب جعة . وافرغوا علبة اثر علبة وهم يتحدثون عن مجموعة من الناس أجهل عنهم كل شيء ، سجنوا ، أو سيخرجون من السجن ، يبحثون عن مركّب تخديري : او وجدوا مركباً . وتكلموا أيضاً عن تجارة المخدر والنفقة التي تتطلبها الشرطة هنا . وكان ليويس يستمتع كثيراً . وذهبنا لتناول اضلاع خنزير في حانة في الشارع الثالث . وتابعوا الكلام طويلاً . وكنت أشعر بسأم كثير واشعر انني منهكة بالأحرى .

وبقيت على هذه الحالة في الأيام التالية . انني لم اخطىء في نقطة واحدة على الأقل ! لقد فقد ليويس شيئاً من حماسته، في نيويورك . لم يكن يحب نوع الحياة الذي يفرض عليه هنا ، ولا الدنيويات ، ولا الأعلان . وكان يذهب بدون فرح الى حفلات غدائه ، ورقصه، وكوكتيلاته، ويعود منها مقطباً . ولم اكن ، انا ، اعرف ماذا افعل بنفسي . كان ليويس يقترح علي برخاوة ان ارافقه ، لكن اللقاءات التي بدون غد لم تكن تستهويني هذه السنة ، ولم يكن يستهويني ايضاً ان ارى ثانية اصدقائي القدامى . كنت اتنزه في الشوارع ، بمفردي ودون قناعة كبيرة : كان الحر شديداً ، والزفت يذوب تحت قدمي ، وكنت أرشح عرقاً فوراً ، وافتقر الى ليويس . واسوأ من ذلك ، اننا حين كنا نلتقي ، لم تكن الحال بأكثر مرحاً . كان ليويس يضجر من حكاية حفلاته المضجرة ، ولم يكن لدي شيء ارويه . وعندئذ كنا نذهب الى السينما ، الى مباراة ملاكمة ، الى مباراة بيزبول ، وكان فلتون يأتي معنا غالباً .

وسألني ليويس ذات يوم :

– ألا تشعرين بمودة كبيرة نحو فلتون ؟

فقلت :

– ليس لدي على الاخص ما اقوله له ولا هو لي . » وتفرست في وجه ليويس بفضول : « لمَ اصدقاؤك المفضلون هم من النشالين او المدمنين أو القوادين دوماً ؟ » .

فهز ليويس كتفيه : « انني اجدهم مسلّين اكثر من الآخرين ».

ـ لكن انت ، ألم تحاول قط ان تدمن على المخدرات ؟

فقال في حدة :

ـ اوه ! كلا ! تعرفين جيداً : انني أعبد كل ما هو خطر ، لكن من بعيد .

كان يمزح ، لكنه كان يقول الحقيقة . كان ما هو خطر ، مبالغ فيه ، لا معقول ، يسحره ، لكنه قرر ان يعيش بلا مجازفة ، في اعتدال وعقل . وكان هذا التناقض هو ما يجعله غالباً قلقاً ومتردداً. ألم يكن هذا التناقض وراء موقفه تجاهي ؟ كنت اتساءل عن ذلك في قلق . لقد احبني ليويس باندفاع ، بعدم تحفظ : ترى هل يلوم نفسه على ذلك الآن ؟ لم اعد استطيع ، على كل حال ، ان اخفي ذلك عن نفسي : لقد تغير منذ بعض الوقت .

كان يبدو على مزاج طيب جداً ، ذلك المساء ، حين دخل الى الغرفة . كان قد امضى بعد الظهر في تسجيل مقابلة للإذاعة وكنت اتوقع اسوأ الحالات لكنه قبلني في مرح :

ـ ارتدي ثيابك بسرعة ! سأتعشى مع جاك موراي وستأتين معي . انه يموت رغبة في التعرف إليك وانا اريد ان تتعرفي إليه .

ولم اخف خيبتي : « هذا المساء ؟ ليويس ، ألن نقضي سهرة واحدة بمفردنا، انت وانا ؟ » .

فقال ليويس :

ـ سنتركه باكراً ! » وأفرغ على الطاولة جيوب سترته واخرج من الخزانة ثوبه الجديد . وقال : « انني في اغلب الاحيان لا أشعر بمودة نحو كاتب . اذا قلت لك ان موراي سيعجبك ، تستطيعين تصديقي » .

فقلت :

ـ انني اصدقك .

وجلست امام مرآة زينتي لأتجمل . وقال ليويس :

ـ سنتعشى في الهواء الطلق ، في « سانترال بارك » . يبدو ان المكان جميل جداً وان الطعام فيه جيد . ما قولك ؟

فابتسمت : « اقول اننا إذا كنا حقاً حرين، انت وانا، في ساعة مبكرة، فهذا رائع ».

فنظر إليّ ليويس متردداً : « اود كثيراً ان يعجبك موراي ».

– لمَ ذلك ؟

فقال ليويس بصوت مرح :

– آه ! لقد اعددنا مشاريع ! لكن يجب ان يعجبك، والا فلن تنجح ! ».

فسألت ليويس بعيني، فقال :

– لديه منزل في قرية صغيرة، قرب بوسطن . انه يدعونا اليه ما طاب لنا من الزمن . هذا أفضل بكثير من العودة الى شيكاغو : فلا بد ان الحر في شيكاغو أشد مما هو هنا أيضاً .

ومن جديد شعرت بفراغ كبير في جوف معدتي : « أهو يسكن في ذلك المنزل، او لا يسكنه ؟ » .

– انه يسكنه مع زوجته وولديه . » وأضاف ليويس في لهجة هازئة قليلاً : « لكن لا تخافي، ستكون لنا غرفة خاصة بنا » .

فقلت :

– لكني، يا ليويس، لست أرغب في قضاء هذا الشهر الأخير مع أناس آخرين ! انني أفضل أن اتحمل الحر الشديد في شيكاغو واكون وحدي معك .

فقال ليويس بصوت عنيف :

– لا أرى لمَ يجب ان نبقى ليل نهار معاً بحجة اننا متحابّان ! » وقبل ان استطيع الجواب، كان قد دخل الى غرفة الحمام وأغلق الباب .

وتساءلت في قلق : « ماذا يعني هذا ؟ أيضجر حقاً معي ؟ » . وارتديت قميصاً مزركشاً، وتنورة حفحافة اشتريتها من مكسيكو، واحتذيت نعلين ذهبيين، وبقيت مزروعة وسط الغرفة، محتارة تماماً . أيضجر ؟ أم ماذا ؟ ولمست المفاتيح التي ألقاها على الطاولة، وحافظة النقود، وعلبة سجاير « كامل »: كيف يمكن ألا أحسن معرفة ليويس مع انني أحبه كثيراً ! ولاحظت

بين الأوراق المتنافرة ، رسالة مدموغة بشعار ناشريه . ونشرتها : « العـــزيز ليويس بروغان . ما دمت تفضل ان تأتي فوراً الى نيويورك فنحن موافقون . سنتخـــذ جميع الترتيبات الضرورية . نحن موافقون على يوم الخميس ظهراً » . وقرأت البقية من خلال ضباب ، ولم يكن للبقية من فائدة . « تفضل ان تــأتي فوراً الى نيويوك ، تفضل ، تـ ... » . في المساء الذي أقــامت فيه بول مأدبتها الوهمية شعرت بالأرض تهتز تحت قدمي . أما اليوم فالحال أسوأ. لم يكن ليويس مجنوناً : لا بد انني أنا المجنونة ! وتهالكت على مقعد . كان قد كتب رسالته بعد ثمانية أيام فقط من ليلة « شيشيكاستينانغو » ، تلك الليلة التي كان يقول فيهـا : « انني احبك ، ايتها الغولية الصغيرة الحمقــاء » . كنت أتذكر كل شيء : لهيب النار ، السجاد ، برنسه القديم ، المطر على الزجاج . وكان يقول : « احبك » . كان ذلك قبل ثمانية أيام من وصولنا الى مكسيكو : وخلال تلك الفـــترة ، لم يحدث شيء . اذن لماذا قرر ان يختصر خلوتنا ؟ لماذا كذب عليّ ؟ لماذا ؟

وقال ليويس عندما خرج من غرفة الحمام :

ـ اوه ! لا تقطّبي هكذا !

كان يظن انني غاضبة بسبب دعوة موراي . ولم أحرره من وهمه ، فقد كان من المستحيل علي ان انتزع من نفسي كلمة . واثناء رحلة التاكسي لم ننبس ببنت شفة .

كان الجو رطباً جداً في مطعم « سنترال بارك » أو كانت الخضرة، والاسمطة المزركشة ، والآنية المليئة بالثلج ، وأكتاف النساء العارية توحي على الأقــل ، بالرطوبـــة . وشربت كأسين من المـــارتيني ، وبفضل ذلك استطعت حين جاء موراي ان ألفظ بضع جمل بلباقة . كنت سأسر حتماً بلقائه لو كان ذلــك في الأيام التي كنت احب فيها اللقـــاءات التي بدون غد . كان كل شيء فيه مستديراً ، رأسه ، ووجهه وجسده ، ولهذا كنت أشعر انني اود لو اتشبث به كما يتشبث المرء بجهـــاز طوف . وكم كان صوته لطيفاً ! وتبينت عند سماعه كم أصبح صوت ليويس جافاً . وحـــدثني عن كتب روبـــير ، وكتب هنري ،

وكان يبدو عليه انه مطلع على كل شيء ، وكان الحديث سهلاً معه . كانت ضربات المطرقة لا تزال تقرع رأسي : « تفضل أن تأتي الى نيويورك ، تفضل نيويورك » لكنه كان كابوساً يستمر بدوني بينما كنت اتناول مزيجاً من القريدس وأحتسي نبيذاً أبيض . وسألني موراي عن رأي الفرنسيين في اقتراحات مارشال ، وأخذ يتناقش مع ليويس عن الموقف المرجح للاتحاد السوفياتي : كان يرى انه سيرفض اقتراحات مارشال وانه سيكون على حق في ذلك . كان يبدو اكثر خبرة في السياسة من ليويس . وبشكل عام كان عقله اكثر تنظيماً وثقافته اكثر متانة . وكان ليويس سعيداً للغاية بأن يجد آراءه الخاصة ثانية في فم رجل يعرف كيف يحسن الدفاع عنها . نعم ، كان موراي يستطيع ان يفيده أكثر مني ، على عدة مستويات . كنت أفهم رغبة ليويس في أن يجعل منه صديقاً ، وكنت أفهم عند الضرورة ان يتمنى قضاء هذا الشهر معه : لكن هذا لا يفسر كذبة مكسيكو ، هذا لا يفسر ما هو أساسي .

وسأل موراي وهو يتجه نحو مرأب السيارات :

– هل أستطيع ان اضعكما في مكان ما ؟

– كلا ، انني أرغب في السير .

فقال موراي في ابتسامة كبيرة :

– اذا كنت تحبين السير ، فيجب ان تأتي حتماً الى « روكبور » . هناك مجال لنزهات رائعة . انا واثق ان المكان سيعجبك . وسأكون مسروراً للغاية بمجيئكما الى هناك كليكما !

فقلت في حرارة :

– سيكون هذا حسناً !

فقال موراي :

– بدءاً من يوم الاثنين القادم ، ليس عليك إلا ان تجيئي . وليس هناك حاجة لإخطاري .

وصعد الى سيارته وانطلقنا على أقدامنا عبر الحديقة .

وقال ليويس في شيء من التأنيب :

– اعتقد ان موراي كان راغباً في قضاء السهرة معنا .

فقلت :

– ربما ، لكن ليس أنا .

فقال ليويس :

– ومع ذلك ، يبدو انك تفاهمت معه .

فقلت :

– انني أجده جذاباً جداً . لكن لدي أشياء أريد أن أقولها لك . » فغام وجه ليويس : « وهل الأمر هام للغاية ؟ » .

– اجـل . » واشرت الى صخـــرة مسطحة وسط الأرض المعشوشبة : « لنجلس » .

كانت سناجب رمادية تركض في العشب . ومن بعيـد كانت ناطحات السماء تلمع . وقلت بصوت حيادي :

– بينما كنت تأخذ دوشك ، قبل قليـــل ، تركت رسائل على الطاولة . » وبحثت عن نظرة ليويس: » لم يكن ناشروك يطلبون ان تأتي الى نيويورك الآن. انما انت الذي اقترح عليهم ذلك . لماذا قلت لي العكس ؟ » .

فقال ليويس بصوت ساخط :

– آه ! أتقرئين بريدي من وراء ظهري ؟

– لِمَ لا ؟ فأنت ، انك تكذب علي .

فقال ليويس في جفاء :

– انني أكذب عليك وأنت تنقبين في أوراقي : نحن متعادلان .

وفجأة تخلت عني كل قواي ونظرت اليـه في ذهول . كان هو ، كنت انا ، فكيف وصلنا الى هذا الحد ؟ وسألت في ضياع :

– ليـــويس ، انني لم أعد أفهـم شيئاً . انت تحبني ، وانا احبك . فماذا يحدث لنا ؟

فقال ليويس :

– لا شيء البتة .

فكررت :

– انني لا افهم ! إشرح لي . كنا سعيدين جداً في مكسيكو . لماذا قررت المجيء الى نيويورك ؟ انت تعرف جيداً اننا لن نستطيع ان نلتقي ثانية تقريباً .

فقال ليويس :

– دوماً هنود ، وخرائب ، كان ذلـــك قد بدأ يسئمني . » وهز كتفيه : « رغبت في تبديل الهواء . انني لا أرى ما المأساة في ذلك » .

لم يكن هذا جواباً ، لكني قررت مؤقتاً ان اكتفي به . وسألت : « لمـــاذا لم تقل لي انك ضجرت من مكسيكو ؟ لمَ هذه المكائد ؟ » .

فقال ليويس :

– ما كنت لتتركيني آتي الى هنا ، كنت أرغمتني على البقاء هناك .

وانتفضت كما لو انني صفعت : أي حقد في صوته !

– أتفكر بما تقوله ؟

فقال ليويس :

– نعم .

– لكن أخيراً يا ليويس ، متى منعتك من فعل ما تريد ؟ نعم ، انك تسعى دوماً إلى إرضائي : لكن كان يبدو ان هـــذا يرضيك انت . انني لم أشعر قط انني اضطهدك .

واستعدت ماضينا في ذهني : كان كل شيء حباً ، وتفاهماً ، وسعادة تبادلنا السعادة . كان فظيعاً ان أتصور ان وراء لطف ليويس تختفي مخالب .

وقال ليويس :

– انت عنيدة جداً حتى انك لا تدركين ذلك . انـــك ترتبين الاشياء في رأسك ، ثم لا تتراجعين عنها مطلقاً ، ولا بد من المرور من حيث تريدين .

فقلت :

– لكن متى حدث ذلك ؟ اعطني أمثلة .

فتردد ليويس :

– انني ارغب في قضاء هذا الشهر عند موراي وانت ترفضين .

فقاطعته :

– انت سيء النية . متى حدث ذلك ، قبل مكسيكو ؟

فقال ليويس :

– انني اعرف جيداً انني لو لم ألجأ الى القوة لبقينا في المكسيك . فقد كان يجب ، حسب خططك ، ان نمضي فيها شهر آخراً ، وكنت ستثبتين لي انه يجب ان نفعل ذلك .

فقلت :

– اولاً ، كانت خططنا نحن الأثنين . » وفكرت : « افترض انني كنت سأناقش ، لكن ما دمت راغباً الى هذا الحد في المجيء الى نيويورك ، فقد كنت سأذعن حتماً » .

فقال ليويس :

– هذا سهل القول . » وأوقفني بحركة : « على كل حال ، كان لا بد من عمل مضنٍ لإقناعكِ . ولهذا كذبت كذبة صغيرة لكسب الوقت : ليس هذا خطيراً جداً . »

فقلت :

– اما انا فأجده خطيراً . كنت اعتقد انك لا تكذب علي قط .

فابتسم ليويس في شيء من الحرج :

– في الواقع ، اجل ، انها المرة الاولى . لكنك مخطئة اذ تصعقين . فسواء أكذبنا ام لم نكذب فيما بيننا ، فإن الحقيقة لا تقال ابداً .

فتفرست في وجهه في حيرة . يقيناً . إن لفي رأسه افكاراً غريبة ! لقد كان قلبه مثقلاً . لكن ممَ على الضبط ؟ وهززت رأسي .

وقلت :

– لا اعتقد ذلك . يمكننا ان نتحدث فيما بيننا . يمكننا ان نتعارف . يكفي قليل من الإرادة الطيبة .

فقال ليويس :

– اعرف ان هذه فكرتك . لكن هذا بالضبط اسوأ كذبة : الزعم بأننا نقول لبعضنا الحقيقة .

ونهض :

– واخيراً لقد قلت لك رأيي في هذه النقطة وليس لديّ ما اضيفه . لعلنا نستطيع الذهاب من هنا .

– لنذهب .

واجتزنا الحديقة في صمت . إن هذا التفسير لم يفسر لي شيئاً البتة . كان شيء واحد واضحاً : كراهية ليويس . لكن ما هو مصدرها ؟ كانت كراهيته أعظم من ان يقول لي ذلك ، فلا فائدة مطلقاً من سؤاله .

وسأل ليويس :

– اين نذهب ؟

– حيث تريد .

– ليس عندي فكرة .

– ولا أنا .

فقال ليويس :

– كان يبدو ان عندك خططاً لهذه السهرة .

فقلت :

– لا شيء خاصاً . كنت افكر بأننا سنذهب الى بار صغير هادىء ، واننا سنتحدث .

فقال في جفاء :

– ان الحديث لا يأتي هكذا على الطلب .

فقلت :

– لنذهب للاستماع الى الجاز في « كافيه سوسايتي » .
– ألم تسمعي ما فيه الكفاية من الجاز في حياتك ؟
فصعد الغضب الى رأسي وقلت :
– طيب ، لنعد للنوم .
فقال ليويس في لهجة بريئة :
– لا أشعر بنعاس .
كان يتلهى بتنكيدي ، لكن دون صداقة . وفكرت في حقد : « انه يتعمد إفساد هذه السهرة ، انه يتعمد إفساد كل شيء ! » .
وقلت بجفاء :
– اذن لنذهب الى « كافيه سوسايتي » ما دمت راغبة في ذلـــك وانت لا رغبة لك في شيء .
وأخذنا سيارة . وتذكرت ما قاله لي ليويس قبل سنة : انه لا يتفاهم مـــع أحد بخطيئته . هذا إذن صحيح ! كانت له علاقات طيبة مع تيدي ، وفلتون ، وموراي لأنه كان نادراً ما يراهم . لكنه ما كان ليتحمل حياة مشتركة طويلاً . كان قد أحبني بطريقة طائشة : وقد أخذ الحب يبدو له إرغاماً . ومن جديد ضيّق الغضب انفاسي : كان ذلك معزياً بالأحرى . كنت افكر : كان عليه ان يتوقع ما يحدث له . كان عليه ألا يدعني أنخرط جسداً وروحاً في هذه القصة . وليس له الحق في ان يتصرف بالشكل الذي يتصرف به الآن . اذا كنت اثقل عليه ، فليقل ذلك . انني استطيع العودة الى باريس ، انني مستعدة للعودة » .
وكانت الاوركسترا تعزف قطعة لدوك الينغتون . وطلبنا وسكي . وتفرس ليويس في وجهي بشيء من القلق :
– أأنت حزينة ؟
فقلت :
– كلا ، لست حزينة . انني غاضبة .
– غاضبة ؟ لك طريقة هادئة جداً في الغضب .

– لا تثق بها .

– بمَ تفكرين ؟

– افكر انه إذا كانت هذه القصة تثقل عليك ، فليس عليك الا ان تقول ذلك . انني أستطيع ان استقل الطائرة الى باريس منذ الغد .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة :

– ان ما تقترحينه لخطير .

فقلت :

– لأول مرة نخرج فيها بمفردنا ، يبدو عليك انك لا تحتمل ذلك . افترض ان هذا مفتاح سلوكك كله : انت تضجر معي . فالأفضل ان اذهب .

فهز ليويس رأسه وقال بصوت جاد :

– انني لا اضجر معك .

وغادرني غضبي كما جاءني ، وشعرت من جديد انني بدون قوة ، وقلت :

– اذن ماذا هناك ؟ هناك شيء ما : ماذا ؟

وساد صمت وقال ليويس :

– لنفترض انك تعطينني بعض الشيء من حين لآخر .

فقلت :

– انني مدركة ذلك جيداً . لكن أود ان اعرف لماذا .

فقال ليويس في سرعة مفاجئة :

– لقد شرحت لي ان الحب ليس كل شيء بالنسبة لـك . ليكن : لكن لمَ تطلبين اذن ان يكون كل شيء بالنسبة لي ؟ اذا رغبت في المجيء الى نيويورك ورؤية اصدقاء ، فهـذا يغضبك . انك تريدين ان تكوني الوحيدة التي لهـا حساب ، وان لا يوجد شيء غيرك ، وان اكرس لك كل حياتي في حين انك لا تضحين بشيء من حياتك . هذا ليس عدلاً !

ولزمت الصمت . كان هناك الكثير من النية السيئة في هـذا التأنيب ، والكثير من اللاانسجام ، لكن لم تكن هـذه المسألة . وللمرة الأولى في هذه

السهرة ، لمحت بصيص نور : لكن لم يكن فيه ما يطمئن . وتمتمت :
— انت مخطيء . انني لا اطلب شيئاً .
— اوه ! بلى ! انك ترحلين وتعودين حين يحلو لك . لكن ما دمت هنا ، فيجب ان اؤمن لك السعادة الكاملة ...
فقلت :
— انما انت الظالم . » واختنق صوتي في حلقي . لقد قفزت الحقيقة امام عيني فجأة : كان ليويس حاقداً علي لأنني رفضت البقاء معه ابداً . ان هذه الرحلة الى نيويورك ، والمشاريع التي اعدها مع موراي ، ليست إلا ثأراً !
وقلت :
— انت حاقد علي ! لماذا ؟ انها ليست غلطتي ، انت تعرف ذلك جيداً .
— انا غير حاقد عليك . انني افكر فقط انه يجب ألا نطلب اكثر مما نعطي .
فكررت :
— انت حاقد علي ! » ونظرت الى ليويس في يأس : « ولكننا عندما تكلمنا في شيشكاستينانغو كنا على وفاق ، كنت تفهمني . فماذا حدث منذ ذلك ؟
فقال ليويس :
— لا شيء .
— اذن ؟ كنت تقول انك ما كنت لتحبني بهذا القدر لو كنت مختلفة . كنت تقول اننا سنكون سعيدين ...
فهز ليويس كتفيه :
— لقد قلت ما كنت تريدين ان اقوله .
ومن جديد شعرت انني أتلقى صفعة على وجهي . وتمتمت : « كيف ذلك ؟ » .
— كنت اريد ان اقول اشياء كثيرة اخرى ، لكنك اخذت تبكين فرحاً ،

فأخرس ذلك فمي .

نعم ، انني لأذكر . كانت ألسنة اللهب تتقلص وكانت الدموع في عيني . صحيح انني اسرعت في البكاء فرحاً على كتف ليويس . لقد تركته بلا حيلة ، هذا صحيح . وقلت :

– كنت خائفة جداً ! كنت خائفة جداً من ان افقد حبك !

– اعرف . كان يبدو عليك الرعب . وهذا ايضاً خنق كلماتي . » واضاف في حقد : « ولكم اطمأننت حين فهمت انني سأفعل كما تريدين ! أما الباقي فلم تكن له عندك أهمية ! » .

وعضضت على شفتي . ما كان يجب ان ابكي هذه المرة : بأي ثمن . الا أن ما يحدث لي كان فظيعاً . السنة اللهب ، السجاد ، المطر على الزجاج ، ليويس في برنسه الأبيض : هذه الذكريات كلها كاذبة . كنت أتمثلني باكية على كتفه ، وكنا متحدين الى الأبد : لكنني كنت متحدة بنفسي فقط . انه على حق : كان علي ان اهتم بما يدور في رأسه ، بدلاً من الاكتفاء بالكلمات التي كنت انتزعتها منه . لقد كنت جبانة ، انانية وجبانة . ولقد عوقبت على ذلك اكبر عقاب . وجمعت كل شجاعتي . انني لن استطيع بعد الآن أن أتهرب من نفسي . وسألت :

– ماذا كنت ستقول لو لم ابك ؟

– كنت قلت انني لا استطيع ان احب بالطريقة نفسها انساناً كله لي وانساناً ليس كذلك .

فتصلبت وحاولت ان ادافع عن نفسي : « لقد قلت العكس تماماً : قلت انني لو كنت مختلفة لما أحببتني بهذا القدر » .

فقال ليويس :

– ليس في هذا تناقض . » وهز كتفيه : « او انه يمكن للعواطف ان تتناقض » .

لا فائدة من المناقشة ، فلا دخل للمنطق هنا. لا شك في أن عواطف ليويس

كانت في البداية غامضة ، ولكي يكسب الوقت ، قـــال لي كلمات مهدئة . او لعله اخذ يحقد علي بعد ذلك . ليس هذا المهم . انه اليوم لا يحبني بالطريقة نفسها التي كان يحبني بها في السابق : فكيف استطيــع ان ارضخ لذلك ؟ كان اليــأس يخنقني . وتابعت الكلام ، كي أمنع نفسي من التفكر .

— ألم تعد تحبني كما في السابق ؟

فتردد ليويس : « أعتقد ان الحب أقل أهمية مما كنت أظن » .

فقلت :

— انني ارى ما دام عليّ ان أرحل ، فليس هناك كبير فرق بـين ان اكون هنا او لا أكون .

فقال ليويس :

— شيء كهذا . » ونظر إليّ وتغيّر صوته فجأة وقال بانفعال : « ومع ذلك فقد انتظرتك كثيراً ! طوال السنة كلها ، لم افكر بشيء آخر . لكم اردتك ! » .

فقلت بحزن :

— نعم . والآن ...

فطوق ليويس كتفي بذراعه : « والآن لا ازال اريدك » .

فقلت :

— اوه ! بهذه الطريقة فقط .

— ليس بهذه الطريقة فقط . » وتشنجت اليــــد فوق ذراعي : « انني على استعداد للزواج منك حالاً » .

فأطرقت برأسي . وتذكرت النجمة الهاويـــة ، فوق البحيرة . لقد تمنى امنية ، ولم تلبّ هــــذه الامنية . لقد خيبت امله بشكل لا علاج له ، انا التي اخذت على نفسها ألا تخيب امله ابداً . كنت المذنبة الوحيدة . انني لن استطيع ابداً ان ألومه ، على اي شيء .

ولم نتكلم ثانية . استمعنا الى شيء من الجاز وعدنا . لم أنم . كنت أتساءل في قلق هل سأنجح في انقاذ حبنا . انــه لا يزال يستطيع الانتصار على الغياب ،

على الانتظار ، على كل شيء ، لكن بشرط ان نريـــد ذلك كلانا . فهل سيريد ليويس ذلك ؟ كنت اقول في نفسي : « انـــه يتردد حالياً . انـه حريص على تجنيب نفسه التأسفات ، والألم ، وفراغ الروح : لكنـــه ، وهو الذي ينفر من اطراح برنس قديم ، لن يتخلص بسهولة كبـيرة من ماضينا » . وكنت اقول في نفسي ايضاً كي أتشجع : « انـــه كريم اكثر منه متكبراً ، طموح اكثر منه حذراً ، يتمنى ان تحدث له اشياء » . كل ما هنالك انني كنت اعرف ايضاً اي اهمية يعلقها على امنه ، على استقلاله ، وكم يعتز بأنـه يعيش في اعتدال وعقل . والحب عبر محيط قـــد يبدو لا معقولاً . نعم ، هذا مـا يبدو لي انه مخيف في ليويس : جنون الحكمة ذاك الذي يستولي عليه من حين لآخر . هذا مـا عليّ ان اظهر لليويس انه سيربح اكثر مما سيخسر في هذه القصة . وعند تناول طعـــام الإفطار ، بادرته :

— ليويس ! لقد فكرت بنا طوال الليل .

— كان من الأفضل ان تنامي .

كان صوته ودياً . كان يبدو منفرجاً . لقد خفف عنه بدون شك ان يقول لي ما كان يثقل على قلبه . وقلت :

— لقد قلت لي البارحة انني اغيظك لانني اطلب اكثر ممـا اعطي . نعم ، هذا خطأ : لن افعل ذلك ثانية . سآخذ ما ستعطينيه ولن اطلب شيئاً مطلقاً .

فأراد ليويس ان يقاطعني ، لكني تابعت . سنذهب اولا الى موراي ، فهذه قضية منتهية . ثم انني لا اريد ان يعتقد نفسه مجبراً على ذلك الوفاء الذي فرضه على نفسه حتى الآن : فعليه ، في غيابي ، ان يشعر بنفسه حراً كما لو انني لم اكـن موجودة . واذا ما اغري يوماً بحب امرأة اخرى ، فـَترحى لي ، ولن احتج . وما دامت قصتنا لم تأته بكل مـــا كان يتمناه ، فهي على الاقل لن تحرمه من شيء . وقلت :

— إذن ، لا تعتقد بعد الآن انني نصبت لك فخاً . لا تفسد بعد الآن الاشياء لمجرد لذة إفسادها !

كان ليويس قد أصغى إليّ بانتباه ، ثم هز رأسه :

— ليس الامر في مثل هذه البساطة .

فقلت :

— اعرف . فعندمـا نحب لا نعود احراراً . لكن ليس الشيء نفسه على كل حال ان تحب انساناً يعتقد ان له حقوقاً عليك او انساناً لا يعتقد ان له اي حق.

فقال ليويس :

— اوه ! سواء عندي ان تعتقد امرأة مـا ان لها حقوقاً عليّ إذا كنت لا اعترف لها بها . » واضاف : « دعينا من الحديث عن هذا . ان حديثنا عن الاشياء لا يزيدها الا تشويشاً » .

فقلت :

— انها تشوش ايضاً عندما نسكت . » وملت نحوه : ثمة شيء اريد ان اسألك عنه : هل انت آسف على انك لاقيتني ؟ » .

فقال :

— كلا . كوني مطمئنة . لن آسف على ذلك ابداً .

فشجعتني لهجته :

— ليويس ، سنلتقي ثانية ، أليس كذلك ؟

فابتسم :

— هذا مؤكد اكثر من اي شيء آخر في العالم .

وعاد الأمل الى قـلبي . كنت اعرف ان كلامي لم يقنعه الا نصف اقناع . وبالفعل ، كان من الخداع ان اكلمه عن الحرية في الوقت الذي اطلب اليه فيه ألا يطردني من قلبه . كنت اقول في نفسي : « يكفي الا يعاند في حقده وسأثبت له ان حبنا يمكن ان يكون سعيداً » . ولقد لمست بـدون شك نقطة حساسة فيه ، أو ان شكاواه قد تبخرت في اللحظة التي صاغها فيهـا : فقد اخذني الى « كوناي آيلند » بعـد الظهر ، وكان مرحاً وحنوناً على عادته في أجمل الأيام . وفجأة ، اخذ يروي لي ألف شيء : عن الحياة الادبية في نيويورك ، عن الناس،

عن الكتب . كان يتكلم ويتكلم وكأننا قد التقينا بعد غياب . ولو كان قال فقط « احبك » ، لاعتقدت في تلك الليلة ان كل شيء لهو كما في الماضي تماماً .

وسألني يوم الاثنين بصوت متردد قليلاً :

ـ ألا يضجرك حقاً ان نقصد موراي ؟

ـ مطلقاً هذا يستهويني .

ـ اذن لنذهب هذا المساء .

فنظرت اليه في دهشة :

ـ كنت اظن انه لا يزال عندك هنـــا اشياء كثيرة تريد ان تفعلها . فأخذ ليويس يضحك :

ـ لن أفعلها .

ومنذ صباح اليوم التالي كنا نشرب القهوة عنـد آل موراي في استديو ذي فتحات واسعة زجاجية. كانت الدار بعيدة عن القرية، مبنية على نتوء صخري. وكانت زرقة السماء وهدير البحر يدخلان من النوافذ . وكان ليويس يتكلم حتى تلهث انفاسه وهو يلتهم خبزاً محمصاً مطلياً بالزبدة : كان وجهه الفرح بأنه يحقق اخيراً أعز احلامه . ولا بد من الاعتراف بأن كل شيء كان كامـــلاً : الموقع ، الطقس ، الافطار ، ابتسامة مضيفنا . ومع ذلك لم اكن اشعر بالارتياح داخلياً. كانت ايلين ، رغم لطفها ، تفزعني . كانت اناقتهـــا المتحفظة ، وسحر بيتها ، وولداها العامران بالصحة تشهد على انهـا امرأة شابة متقنة : ان النساء اللواتي يوفقن بنجاح كبير بـين جميع تفاصيل حياتهن يخفنني قليلاً دومـــاً . وها انني سأسقط من الشبكة المشدودة لهـذه الحياة التي ليس لي فيها مكان : كنت اشعر في آن واحد انني مربوطة وانني أعوم بعيداً عن الشاطىء .

كان الصبي الصغير في الثامنة ، وكان يدعى ديك : ولقد شعر فوراً بصداقة كبيرة نحو ليويس . فقادنا في درب وعر نحو خليج صغير ، عند سفح الصخور . وامضى ليويس الصباح يلعب بالكرة معه في المـــاء وعلى الرمل . وسبحت ، وقرأت ، ولم اكن اشعر بالضجر لكني تابعت التساؤل : « ماذا افعل هنا ؟ » .

واخذنا موراي ، بعد الظهر ، للنزهـــة في السيارة على طول الساحـــل . ولم ترافقنا ايـــلين . وحين عدنا ، بقينا بمفردنا مـــدة طويلة ، انا وليـويس ، في الاستديو ، أمام كأسين من الوسكي . وتبينت فجأة انه سيحدث لنـا كثيراً أن نبقى بمفردنا معاً : كان موراي مزمعاً ان يقضي أيامه أمـــام الآلة الكاتبة ولم تكن ايلين على مـا يبدو تلك دقيقة واحـــدة لنفسها . واحتسيت جرعة من الوسكي ، وبدأت أشعر انني مرتاحة وقلت :

– ما أجمل هذا البلد ! وما ألطف موراي ! انني مسرورة .

فقال ليويس :

– نعم ، ان المرء ليرتاح هنا .

كان الراديو يعزف موسيقى صغيرة قديمـــة واستمعنا اليها لفترة في صمت . كان الثلج يقرع كأسينا ، وكنا نسمع ضحك الولدين ، وكانت رائحة معجنات طيبة تختلط برائحة البحر . وقال ليويس :

– هكذا يجب ان يعيش المرء ! بيت يملكه ، وزوجة يحبها ، لا أكثر ممـا ينبغي ، ولا أقل مما ينبغي ، واولاد .

فسألت في فضول :

– هل تعتقد ان موراي يحب ايلين هكذا ؟ لا اكثر مما ينبغي ولا أقل ممـا ينبغي ؟

فقال ليويس :

– هذا واضح .

– وهي ؟ كيف تحبه ؟

فابتسم ليويس :

– كثيراً وأقل مما ينبغي ، على ما افترض ، كسائر النساء .

وفكرت في شيء من الحزن : « انه حاقد عليّ من جديد » . كان ذلـــك بدون شك بسبب هذا الحلم الصغـــير من السعادة العائلية الذي راود ذهنه . وسألت :

– أتعتقد انك ستكون سعيداً هكذا ؟

– على الأقل لن اكون تعيساً ابداً .

– ليس هذا أكيداً . ثمة اناس يتعسهم الا يشعروا انهم سعداء : اتعتقد انك منهم ؟

فابتسم ليويس وقال : « ربما » . وفكر : « على كل ، انني أحسد موراي على ان له اولاداً . ان المرء ليتعب من العيش دوماً وحيداً ، وينتهي الأمر الى ان يبدو له كل شيء باطلاً ، وهو وحيد . انني احب الأولاد » .

فقلت :

– حسناً ! ذات يوم ، ستتزوج وسيكون لك اولاد .

فنظر إليّ ليويس في تردد وقال : « لن يكون ذلك لا غداً ولا بعد غد . لكن فيما بعد ، بعد عدة سنوات ، لمَ لا ؟ » .

فابتسمت له وقلت :

– نعم ، لمَ لا ؟ بعد عدة سنوات ...

كان هذا كل ما اطلبه : عدة سنوات . اما الايمان بالأبدية ، فقد كنت اسكن بعيداً جداً ، وكنت مسنة اكثر مما ينبغي ، كان يجب فقط ان يعيش حبنا بما فيه الكفاية من الزمن لينطفىء في وداعة، تاركاً في قلبينا ذكريات بدون شوائب وصداقة لن تنتهي .

كان العشاء سخياً جداً وموراي ودياً للغاية حتى انني تألمت في النهاية . كنت بشوشة المزاج حين جاء اناس ، عند موعد القهوة . كان المصطافون قليلين في روكبور في بداية هذا الفصل ، وكانوا متعارفين جميعاً ، وكانوا يطمحون إلى رؤية اوجه جديدة ، فالتفوا حولنا . وانسحب ليويس بسرعة من الحديث ، وساعد ايلين على صنع سندويشات ومزج الكوكتيل. وبذلت انا جهدي للاجابة على جميع الاسئلة التي كانت توجه إليّ . وبدأ موراي مناقشة عن العلاقات بين التحليل النفسي والماركسية . وكانت معرفتي بهذا الموضوع أفضل من الآخرين ، ولما كان يدفعني ، فقد تكلمت كثيراً . وحين عدنا الى

غرفتنا تفرس ليويس في وجهي في فضول ، وقال لي :

– سينتهي بي الأمر الى الاعتقاد بأن هناك مخاً في هذا الرأس الصغير !

فقلت :

– لقد أحسنت التقليد ، أليس كذلك ؟

فقال ليويس :

– كلا : ان لك مخاً حقاً . » كان يتابع النظر إلي وكان هناك بعض التأنيب في عينيه : « هذا غريب . انني لا افكر بك قط على انـك امرأة عقل . فأنت بالنسبة لي شيء مغاير تماماً ! » .

فقلت وانا آتي الى ذراعيه :

– انني اشعر ، معك ، انني شيء مغاير تماماً !

لكم ضمني بقوة ! آه ! فجأة لم يعد اي سؤال مطروحاً . كان هنا ، وهـذا يكفي . كانت ساقاه تعانقان ساقيّ ، وكانت انفاسه ، ورائحته ، ويداه العنيفتان على جسدي ، وكان يقول : « آن ! » بصوته القديم ، وكالماضي كانت ابتسامته تعطيني قلبه مع جسده .

عندمـــا استيقظنا ، كان البحر والسماء يقدحان شرراً . وامتطينا دراجتي آل موراي وذهبنا الى القرية . وتنزهنا على الجسر ، وقضينا وقتـــاً طويلاً في النظر الى القوارب ، والصيـادين ، والشباك ، والاسماك . كنت أتنشق رائحة المد الرطبة ، والشمس تداعبني ، وليويس يمسك بذراعي ، ويضحك .

وقلت في اندفاع : « يا له من صباح جميل ! » .

فقال ليويس بصوت حنون :

– ايتها الغولية الصغيرة المسكينة . إن القليل يكفيها لتعتقد انها في الجنة !

– السماء ، البحر ، الرجل الذي احبه : ليس هذا قليلاً الى هذا الحد .

فشد على ذراعي : « هيا ؟ انت لست كثيرة المطالب » .

فقلت :

– انني اكتفي بما لدي .

فقال ليويس :

– انت على حق . يجب ان نكتفي بما لدينا .

وازدادت السماء زرقـــة ، والشمس دفئاً ، وسمعت في نفسي رنيناً عظيماً فرحاً . وقلت في نفسي : « لقد ربحت ! » لقد كنت على حق اذ قبلت بالمجيء الى هنا . كان ليويس يشعر بنفسه حراً ، ويفهم ان حبي لا يحرمـــه من شيء . ولعب على الشاطىء ، من جديد مع ديك طوال فترة من بعد الظهر ، واعجبت بصبره . انني لم أره منفرجاً هكذا منـــذ زمن بعيد . واصطحبنا موراي الى اصدقاء ، بعد العشاء ، ولم يحاول ليويس هذه المرة ان يتنحى جانباً : بل هـــدر قواه في سخاء . في الحقيقة ، انه لن يكف ابداً عن إدهاشي ، اذ لم اكن اعتقد انه يستطيع ان يكون لامعاً على هذا النحو في المجتمع : ولقد كانـــه . وقصّ رحلتنا في ايجاز بارع وتوفيق كبير في الخيال حتى ان غواتيمالاه كانت اكثر حقيقة من غواتيمالا الحقيقية . وود الجميع لو يذهبون اليها . وحين قـــلد الهنود القصار القامة الرازحين تحت أحمالهم ، هتفت نساء :

– تستطيع ان تكون ممثلاً رائعاً !

– لكم يحسن السرد !

فتوقف ليويس فجأة وقال باسماً : « ما اعظم صبركن ! » واضاف : « انني شخصياً اكره حكايات الرحلات » .

فقالت شقراء :

– اوه ! تابع .

فقال وهو يتجه نحو المائدة :

– كلا ، لقد انهيت « نمرتي » .

وافرغ كأساً كبيرة من المانهاتن بينما كانت صبايا جميلات مذهبات الاكتـــاف ونساء اقل جمالاً تفيض عيونهن عاطفة يتزاحمن حوله . وساءني قليلاً ان ألاحظ انه يعجب النساء . كنت اظن انه اغراني بحذق بعدم قدرته على الإغراء : وها انا اكتشف انه مغرٍ . على كل حال ، إن ما كانه بالنسبة لي ، ليختلف تماماً عما

يمثله بالنسبة لاي شخص آخر . وكنت افكر في نوع من الكبرياء : « انه فريد بالنسبة لي وحدي » .

وشربت انا ايضاً ، ورقصت ، وتحدثت الى عازف قيثار ُطرد من الاذاعة لأفكاره التقدمية ، ثم الى موسيقيين ، ورسامين ، ومثقفين ، وادباء . ان روكبور ، في الصيف ، ملحقة لقرية « غرينويش » ، انها مليئة بالفنانين . وفجأة تبينت ان ليويس قد اختفى . فسألت موراي :

ـ أين ذهب ليويس ؟

فقال لي موراي بصوته الوديع :

ـ لست ادري مطلقاً .

فشعرت بقلق صغير في قلبي : هل ذهب ليقوم بجولة في الحديقة مع واحدة من معجباته الجميلات ؟ وفي هذه الحالة ، انه لن يسر كثيراً من ظهوري : ليكن ! وألقيت نظرة على البهو ، وفي المطبخ ، وخرجت من البيت . لم اكن اسمع إلا صوت الجنادب الصابر . وخطوت بضع خطوات ولمحت جمر سيجارة. كان ليويس جالساً على احد كراسي الحديقة ، بمفرده . وسألت :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ انني استريح .

فابتسمت : « ظننت ان هاتيك الاناث سيأكلنك حياً » .

فقال ليويس بلهجة محبة للانتقام :

ـ أتعرفين ما كان يجب عمله ؟ يجب ان نضعهن في مركب ، ونلقي بهن جميعاً الى البحر ونعود بدلاً منهن بشحنة من الهنديات الصغيرات . أتذكرين الهنديات الصغيرات في شيشيكاستينانغو ، الجالسات بحكمة على الارض عند أقدام ازواجهن : كيف كنّ صامتات ، وكيف كانت اوجههن لا تريم .

ـ انني اذكر .

فقال ليويس :

ـ ان وجوههن دوماً جميلة ، وضفائرهن سوداء : ولن نراهن ثانية أبداً . »

وتنهد : « ما ابعد هذا كله ! » .

كان في صوته الحنين نفسه الذي كان يحدثني به عن منزل شيكاغو ، عندما كنا في غابة شيشن – اتزا . وكنت افكر : « اذا أصبحت ذكرى في قلبه ، فسوف يفكر بي بهذا الحنان » . لكني لم اكن اريد ان اصبح ذكرى .

– لعلنا سنعود لرؤية هاتيك الهنديات الصغيرات ، ذات يوم .

فقال ليويس :

– أعتقد ان لا . » ونهض : « تعالي للنزهة . ان رائحة الليل لطيبة جداً » .

– يجب ان نعود الى اولئك الناس ، ليويس ، فسوف يلاحظون غيابنا .

– وبعد ؟ ليس لدي ما اقوله لهم ولا هم لي .

– لكنهم اصدقاء لآل موراي : لن يكون لطيفاً ان نختفي هكذا .

فتنهد ليويس : « لكم سأحب زوجة هندية صغيرة ستتبعني دون احتجاج انى شئت ! » .

وعدنا الى البيت . كان ليويس قد كف عن المرح . فقد شرب كثيراً ولم يعد يجيب الا بدمدمات على الأسئلة التي كانت تطرح عليه . وجلس الى جانبي واستمع الى الحديث في سيماء من عتب . وقلت لموراي ان كثيرين من الكتّاب في فرنسا يتساءلون اليوم عما بقي للكتابة من معنى . واخذ الجميع يتناقشون في هذا الموضوع بحماسة . وكان وجه ليويس يزداد تقطيباً . انه يكره النظريات ، الأنظمة ، التعميات . انني اعرف لماذا : ان الفكرة بالنسبة له ليست مجموعة من الكلمات ، بل هي شيء حي . كانت الافكار التي يتلقاها تتحرك فيه ، وتقلب كل شيء ، فيرغم على بذل مجهود شاق لإعادة النظام إلى رأسه : وهذا ما يخيفه قليلاً . انه يحب الأمن ، حتى في هذا الميدان ايضاً ، وهو يكره ان يشعر انه ضائع . وغالباً ما ينكمش على نفسه . وكان من الواضح انه ينكمش الآن على نفسه . وبعد فترة انفجر :

– لماذا نكتب ؟ لمن نكتب ؟ إذا بدأنا في طرح هذه الأسئلة ، كففنا عن الكتابة ! اننا نكتب ، هذا كل شيء ، فيقرأنا الناس . اننا نكتب للناس الذين

يقرأوننا . والكتّاب الذين يطرحون امثال هذه الاسئلة انما هم الكتّاب الذين لا يقرأهم احد .

وقضت هذه الكلمات على حرارة النقاش. بالاضافة إلى انه كان بين الحاضرين كتاب لا يقرأهم ولن يقرأهم أحد . ولحسن الحظ انقذ موراي الموقف . وانكفأ ليويس إلى قوقعته . وبعد ربع ساعة ، طلبنا الاذن بالانصراف .

وظل ليويس مقطباً ، طوال النهار التالي . وحين جاء ديك إلى الشاطىء ، وفي يديه مسدسان ، وهو يطلق صيحات ، نظر اليه بعين سوداء . وكان الحنق الذي يلهب قلبه هو ما دفعه إلى اعطائه درساً في الملاكمة وإلى أخذه للسباحة . وعند المساء حين كنت أتحادث مع ايلين وموراي ، غاص في قراءة الصحف . كنت أعلم ان موراي لن يأبه لمثل هـذه البادرة ، لكني كنت منزعجة بسبب ايلين . وقلت في نفسي في امـل وانا ارقد : « لقد شرب اكثر من اللازم مساء الأمس ، وسيكون غداً اكثر بشاشة » :

وكنت مخطئة . ففي صباح اليوم التالي لم يوجه ليويس الي ابتسامة واحدة . وتأثرت ايلين لأنه انتزع المكنسة الكهربائية من يدها ونظف البيت من القبو الى الغرفة العلوية : لكن هـذا الانهماك المنزلي كان مشبوهاً . كان ليويس مستسلماً الى الصمت : ممَّ يهرب ؟ وبدا ودياً نسبياً اثناء الغداء ، لكنه ما ان انفرد بي على الشاطىء حتى قال لي بصوت عنيف :

– اذا جاء ذلك البرغوث القذر ليزعجني من جديد ، فسوف أدق عنقه .

فقلت في غيظ :

– انها غلطتك. لم يكن عليك إلا ان لا تظهر له كل هذا اللطف من اليوم الاول.

فقال ليويس بصوت مثقل بالضغينة :

– انني اتركهم دوماً ، في اليوم الاول ، ينالونني .

فقلت بحدة :

– نعم : لكن الآخرين ، هم ايضاً لكذلك ، يجب ان تأخذ لهذا حساباً .

وتدحرجت حصى فوق رأسينا ، كان ديك يهبط الدرب . وكان يرتدي

بنطلوناً ذا مربعات سود وبيض ، وقميصاً ناصعاً وحزام كاوبوي . وركض الى ليويس :

– لمَ جئت الى هنا ؟ كنت انتظرك في العالي . لقد قلت أمس اننا سنتنزه على الدراجة بعد الغداء .

فقال ليويس :

– لست راغباً في التنزه .

فنظر اليه ديك في تأنيب : « بالأمس قلت : سنذهب غداً . وغداً ، هو اليوم » .

فقال ليويس :

– ان اليوم ليس غداً . ماذا علموك في المدرسة ؟ ان غداً هو غداً .

ففتح ديك فمه في تعاسة ، وامسك بذراع ليويس ، وقال : « لنذهب ! تعالَ ! » .

فحرر ليويس ذراعه بحركة عنيفة : انه تقريباً الوجه نفسه الذي كان له يوم رفس التنين الحجري . ووضعت يدي على كتف ديك :

– اسمع ، سآخذك انا للنزهة على الدراجة . سنذهب الى القرية : سننظر الى المركب وسنأكل مثلجات .

فنظر إليّ ديك بدون حماسة ، وقال مومياً الى ليويس: « لقد وعد بالمجيء» .

– انه متعب .

فاستدار ديك نحو ليويس : « ستبقى هنا ؟ ستسبح ؟ » ،

فقال ليويس :

– لست ادري .

فقال ديك :

– سأبقى معك : سوف نتلاكم . ثم سنسبح ...

كان يرفع من جديد نحو ليويس وجهاً واثقاً . وقال ليويس :

– كلا !

فأسندت يدي الى كتف ديك وقلت : « تعال . يجب ان نتركه . لديه اشياء في ذهنه يجب ان يفكر بها . وعلي انا ان اذهب الى روكبور وسأضجر بمفردي : رافقني . ستروي لي قصصاً . وسأشترى لك مجلات مصورة » واضفت في قوة اليأس : « سأشتري لك كل ما تريده ! » .

فأدار ديك ظهره لليويس واخذ يرتقي الدرب . كنت حانقة على ليويس : فالمرء لا يتصرف هكذا مع طفل ! وعلاوة على ذلك لم يكن يستهويني ان اهتم بديك . ولحسن الحظ ، انني اعرف ، بمهنتي ، ان احصل على ثقة طفل ، لذلك سرعان ما انفرجت اساريره . وقمنا بسباق على الدراجتين ، وتركته يتغلب علي في اللحظة المناسبة . وحشوته بمثلجات الكشمف ، وركبنا قارب صيد ، واخيراً ، فقد بذلت ما بوسعي حتى انه لم يشأ ان يتركني قبل ساعة العشاء .

وقلت لليويس وانا ادخل الى الغرفة :

ـ حسناً ! تستطيع ان تقول لي شكراً ! لقد خلصتك من ذلك الغلام . » واضفت : « لم تكن طيباً معه » .

فقال ليويس :

ـ انه هو الذي يستطيع ان يشكرك . كنت حطمت عظامه ، لو بقي دقيقة اخرى .

كان راقداً على السرير في بنطلونه الكتاني القديم وقميصه القصير الكمّين ، وكان يدخن وهو ينظر الى السقف . كنت افكر في حقد انه كان عليه حقاً ان يشكرني . وخلعت ثوب سباحتي وبدأت في تسريح شعري ، وقلت : « آن ان ترتدي ثيابك » .

فقال ليويس :

ـ انني مرتدٍ ثيابي . ألا ترين ان على جسدي ملابس ؟ هل أبدو عارياً ؟

ـ انت لا تزمع النزول هكذا ، لا ؟

ـ انني مزمع تماماً . لا ارى لمَ يجب ان اغير ملابسي بحجة ان الشمس قد غربت .

فقلت :

– ان موراي وايلين يفعلان ذلك ، وانت عندهما . وعلاوة على ذلك ، فسوف يحضر العشاء آخرون .

فقال ليويس :

– ايضاً ! انني لم آتِ إلى هنا لأجد من جديد حياة نيويورك البلهاء .

فقلت :

– انك لم تأتِ إلى هنا لتنفر جميع الناس ! فمساء الأمس ، أخذت ايلين تنظر اليك نظرة غريبة . » وتوقفت فجأة ، وقلت : « أوه : ثم انني بعد كل شيء لا أبالي ! افعل ما يحلو لك » .

وارتدى ليويس اخيراً ثيابه ، وهو يبدي استياءه . وقلت في نفسي بغضب : « انه هو الذي فرض عليّ هذه الاقامة ، وهو يعتمد الآن ان يجعلها غير محتملة » . كنت انا ابذل جهدي ، وكان هو يفسد كل شيء . وقررت انني لن اهتم به هذا المساء ، فقد كان متعباً جداً ان اراقب بدون انقطاع تقلبات مزاجه .

وفعلت ما وعدت نفسي به : فتحدثت مع الجميع ، وتجاهلت ليويس . وبشكل عام ، وجدت أصدقاء موراي جذابين : فقضيت سهرة طيبة . وحوالي منتصف الليل ، انصرف جميع المدعوين تقريباً ، وانسحبت ايلين ، وكذلك ليويس . وبقيت مع موراي ، وعازف القيثار ، وشخصين آخرين ، وتابعنا الكلام حتى الثالثة صباحاً . وحين دخلت إلى غرفتنا ، اضاء ليويس النور ، وانتصب على سريره :

– اذن ؟ هل انتهيت من إخراج الضجيج من فمك ؟ لم أكن اظن ان امرأة تستطيع بمفردها ان تحدث كل هذه الضجة ، ربما باستثناء السيدة روزفلت .

فقلت وانا أبدأ في خلع ثيابي :

– احب كثيراً الكلام مع موراي .

فقال ليويس :

– هذا بالضبط ما آخذه عليك ! » واحتـدّ صوته : « نظريات دومـــاً نظريات ! ان النظريات لا تصنع كتباً جيدة ! هناك اناس يشرحون كيف تصنع الكتب ، وآخرون يصنعونها : انهم ليسوا انفسهم ابداً » .

– موراي لا يزعم انه روائي . انه ناقد ، ناقد ممتاز ، انت تعترف بذلـك بنفسك .

– انه ثرثار كبير ! وانت تصغين اليه في ابتسامات ذكية ! ان ذلك ليرغّب إليّ ان أضرب رأسك بالحائط لأضع فيه شيئاً من الحس السليم ! .

وانسبت في الفراش ، وقلت : « ليلة سعيدة » .

فأطفأ النور دون ان يجيب .

وتركت عيني مفتوحتين . لم اكن حتى غاضبة : انـني لا أفهم شيئاً ! ان هذه الاجتماعات تسئم ليويس ، ليكن ، لكنهم اخيراً يدعوننا في سلام ملـكي طـــوال النهار ، ولم يكن موراي في الحقيقة مغروراً البتة . وحتى اليوم كان ليويس يسر بحديثه . لمَ هـــذه الكراهية المفـــاجئة ؟ لا ريب في انني انا التي يستهدفها ليويس حين يختار ان يفسد هذه الاقـامة ، ولا ريب في ان ضغينته لا تزال كما هي : لكن كان عليه في هذه الحال ان يحتفظ لي وحدي بمزاجه السيء . لا بد انه غاضب على نفسه ما دام يهاجم هكذا النّاس اجمعين . لعله يـلوم نفسه على تلك الاويقات التي بدا عليه فيها انه يمنحني حنانه كله : ولقد كانت هــــذه الفكرة لا تحتمل حتى انني اردت ان اناديه ، ان اكلمه . لكن صوتي تحطـم على اسناني . كنت أسمع أنفاسه المتعادلة ، كان ينـــام ، لم يكن قلبي يطاوعني على ايقاظه . انه لشيء يثير الانفعال الرجل الذي ينام ، انه بريء للغاية : كلّ شيء يصبح ممكناً ، كل شيء يمكن أن يهدأ ، ان يعاود من جديد . سوف يفتح عينيه ، ويقول : « احبك ، يا غوليتي الصغيرة » . ولكنه في الحقيقة لن يقولها ، فهذه البراءة ليست إلا سراباً : ان غداً سيكون مشابهاً اليـــوم . وتساءلت في يأس : « أهنـاك وسيلة ما للخروج من هذا المأزق ؟ » . وانتفضت انتفـــاضة تمرد : « ماذا يريد ؟ ماذا سيفعـل ، بمَ يفكر ؟ » . كنت هنا ، اعذب نفسي

بالأسئلة ، بينما كان يرقد باطمئنان ، بعيداً عن أفكاره : ان هذا لظلم فادح ! وحاولت ان ابعث الفراغ في نفسي ، لكن لا ، لم اكن استطيع النوم. ونهضت دون صوت . كان ديك قد منعني من السباحة بعد ظهر اليوم وشعرت برغبة مفاجئة في رطوبة الماء . وضممت ثوب استحمامي ، وثوب سباحتي ، وأخذت برنس ليويس القديم ونزلت حافية القدمين عبر البيت النائم . لكم كان الليل رحباً ! واحتذيت نعلي ، وركضت حتى الشاطىء وتمددت على الرمل . كان الطقس عذباً جداً ، واغمضت عيني تحت النجوم ، وخدرني هدير الماء . عندما استيقظت ، كان كوكب أحمر كبير يبرز من الماء. كان اليوم الرابع من الخليقة : كانت الشمس قد ولدت ، ولما يكتشف بعد ألم البشر والحيوانات . وامتزجت بالبحر . كنت أعوم ، ممددة على ظهري ، وعيناي مليئتان بالسماء ، وما عدت افكر بشيء .

— آن !

وتطلعت الى الشاطىء : ارضاً مسكونة ، رجلاً ينادي ، كان ليويس في بنطلون البيجاما ، عاري الصدر . ووجدت من جديد ثقل جسدي وسبحت نحوه : « ها انا ! » .

وسار الى لقائي ، وقد تصاعد الماء حتى ركبتيه عندما أخذني بين ذراعيه . وكان يردد :

— آن ! آن !

وقلت وانا أسحبه نحو الشاطىء :

— ستتبلل كلك ! دعني اجففك .

فلم يرخ عناقه : آن ! لكم خفت ! » .

— أأخفتك ؟ انه دوري !

— فتحت عيني ، كان السرير خاوياً وما كنت لتعودي . فنزلت ، فلم تكوني في أي مكان من البيت . فجئت الى هنا وفي البداية لم أرك ...

فقلت :

– لكنك لم تظن على كل حال انني أغرقت نفسي ؟

فقال ليويس :

– لا أدري ما كنت أظنه . كان مثل كابوس !

والتقطت البرنس الأبيض : « ادلكني ، وجفف نفسك » .

فأطاع وضممت ثوبي ، وتدثر بالبرنس . وسأل : « اجلسي بجانبي ! » .

فجلست ومن جديد طوقني : « انت هنا ! انني لم افقدك ! » .

فقلت باندفاع : « ابدا لن تفقدني بخطيئتي » .

وداعب شعري لمـــدة طويلة في صمت . وقال فجأة : « آن ! لنعد الى شيكاغو !» .

واشرقت شمس في قلبي ، اكثر سطوعاً من التي تشرق في السماء :

– اود ذلك !

فقال :

– لنعد . انني لراغب جداً في الانفراد بك ! ففي مساء وصولنـــا بالذات فهمت اي حماقة ارتكبت !

– ليويس ! انني لأود كثيراً ان اجد نفسي من جـــديد وحيدة معك ! »

وابتسمت له: « هذا ما جعل مزاجك سيئاً. أكنت آسفاً على مجيئك الى هنا ؟ ».

فهز ليويس رأسه : « كنت اشعر انني واقع في فخ . لم ارى وسيلة للتملص منه : كان ذلك رهيباً !» .

فسألت :

– والآن ، أترى وسيلة ؟

فنظر إليّ ليويس وكأنه ألهم : « انهم ينامون : فلنحزم حقائبنا ونهرب ».

فابتسمت وقلت : حـاول بالاحرى ان تتفاهم مع موراي . سوف يفهم » .

فقال ليويس :

– واذا لم يفهم ، فترحى له .

فنظرت إليه في شيء من القلق : « ليويس ! أأنت واثق تماماً انك تريـــد

العودة ؟ أليست نزوة ؟ ألن تندم على ذلك ؟ » .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة وقال : « اعرف جيـداً متى اتصرف بدافع النزوة . اقسم لك برأسك انها ليست نزوة » .

ومن جديد بحثت عن عينيه : « وحين سنعود الى بيتنا ، هل تعتقد اننـــا سنعود الى كل الباقي ؟ أسيكون الأمر كما في السنة الماضية تماماً ؟ ام تقريباً ؟ » .

فقال ليويس بصوت خطير : « تماماً كالسنة الماضية » . واخـذ رأسي بين يديه ونظر إليّ ملياً : « لقد حاولت ان احبك اقل : فلم استطع » .

فقلت :

– آه ! لا تحاول بعد الآن .

– لن احاول ابداً .

لست ادري ماذا روى ليويس له ، لكن موراي كان باسماً حـين رافقنا الى المطار في مساء اليوم التالي . ولم يكذب ليويس : فقـد اعيد إليّ كل شيء ، في شيكاغو . وحين تركنا بعضنا عند زاوية الشارع ، ضمني بين ذراعيه قائلاً : « لم احبك قط بهذا القدر » .

الفصل التاسع

فتحت السكرتيرة الباب : « بطاقة هوائية » .

فقال هنري وهو يمسك بالورقة الزرقاء :

– شكراً .

وفكر : « بول انتحرت » : مهما كان ماردروس قد اكد له انه لا تراودها أي فكرة في الانتحار وانها شفيت تقريباً ، فقد كان يتطير من رنين التلفون ، وعلى الاخص من البطاقات الهوائية . وعاد إليه اطمئنانه حين تبين توقيع لوسي بيلوم : « يجب ان اراك عاجلاً . تعال عندي غداً صباحاً » . واعاد قراءة الرسالة الآمرة بحيرة . لم يسبق للوسي قط ان اتخذت معه هذه اللهجة . كانت جوزيت في أتم صحة ، وكانت مسرورة من الدور الذي تمثله في فيلم « سيزون الجميلة » ، وقد ذهبت هذا المساء الى حفلة راقصة للثياب المخرمة مرتدية ثوباً عظيماً موقعاً باسم آماريليس . ولم يتبين هنري ما تريد منه لوسي حقاً . ودس البطاقة في جيبه : يقيناً انه سيواجه إزعاجاً ، ولكن ما أهمية ازعاج بالزائد ، أو بالناقص ؟ وعاد فكره الى بول ومد يده نحو التلفون ، لكنه ارخاها : « الآنسة ماروي على اتم ما يرام » ، لم يكن الجواب ليختلف ابداً ، ولا لهجة الممرضة الباردة . لقد منع من رؤية بول ، وهو الذي سبب جنونها ، ولقد كان الجميع متفقين على ذلك : على رسلهم ، ان هذا يوفر عليه مشقة اتهام نفسه بنفسه . لقد فرضت عليه بول دور الجلاد منذ زمن بعيد جداً حتى ان تأنيب ضميره قد تجمد في نوع من الكزاز : إنه ما عاد يشعر به . وعلى كل ، كان يشعر بانطلاق عجيب ، ، منذ ان فهم ان المرء على خطأ دوماً ، مهما فعل ، وعلى

الاخص إذا اعتقد أنه يفعل حسناً . كان يتجرع وجبته اليومية من الشتائم كما يتجرع اللبن الساخن .

وقال لوك :

– أأنا اول من جاء ؟

– كما ترى .

وتهالك لوك على كرسي . كان يتعمد ان يأتي بدون سترة وفي حذاء نسيجي لأنه كان يعرف ان تراريو يكره التهاون . وقال :

– قل اذن ، ماذا سنفعل اذا تخلى لامبير عنا ؟

فقال هنري بحدة :

– انه لن يتخلى عنا ؟

فقال لوك :

– انه مع فولانج مئة بالمئة . انا واثق ان سامازيل لم يقترح هذه المقالات الا من اجل ذلك : كي يدفع لامبير الى وضعنا موضع اقلية .

فقال هنري :

– لقد وعدني لامبير بصوته :

فتنهد لوك : « انني لأتساءل عن اللعبة التي يلعبها ، هـذا المتظرف الصغير . لو كنت مكانه ، لاستقلت منذ زمن بعيد » .

فقال هنري :

– افترض انه سيفعل ذلك ذات يوم . لكنه لن يكون مطية للآخرين ، لقد وفيت بالتزاماتي ، فهو يفي بالتزاماته .

كان هنري قد وضع لنفسه قاعدة بأن يـدافع عن لامبير ضد لوك وعن لوك ضد لامبير في كل منـــاسبة . لكن الموقف كان ملتبساً في الحقيقة ، فلامبير لن يتابع الى ما لا نهاية التصويت ضد قناعاته . وقال لوك :

– صمتاً ! هوذا العدو !

ودخل تراريو الاول ، يتبعه سامازيـل ولامبير الذي كان وجهه مقطباً . لم

يكن أحد يبتسم ، باستثناء لوك . كان وحده يتلهى بهذا النوع من حرب الإفناء التي لما يفنَ فيها احد بعد .

وقال ترازيو وهو يحدق الى هنري بنظرة ملحة :

– قبل مناقشة المسألة التي تجمعنا اليوم ، اود ان اوجه نداء الى حسن نية كل منا . » وتابع بصوت حار : « نحن جميعاً متعلقون بـ « الأمل » ولكننا نقودها ، لفقدان التفاهم ، الى الافلاس. ذات يوم يقول سامازيل ابيض ، فيقول بيرون في اليوم التالي اسود : فيتيه القارىء ويشتري صحيفة اخرى . يجب ان نضع بأسرع ما يمكن اساساً مشتركاً يتجاوز خلافنا في الآراء » .

فهز هنري رأسه : « للمرة المائة اكرر انني لن اقوم بأي تنازل . ليس عليكم الا ان تتخلوا عن معارضتي . انني سأحافظ على « الأمل » في الخط الذي كان لها دوماً » .

فقال سامازيل :

– انه خط حكم عليه بالموت فشل « الاشتراكي الثوري الحر » وقد اصبح خطأ بالياً . لا مجال اليوم للوقوف على الحياد امام الشيوعيين . لا بد ان تكون معهم او ضدهم نهائياً . » وضحك بدون قناعة ضحكته الجذلة : « وباعتبار الطريقة التي يعاملونك بها ، فإنني لأدهش من عنادك في مداراتهم » .

فقال هنري :

– انني لأدهش من ان رجالاً يدعون انهم من اليسار ، يؤيدون حزب الرأسماليين ، والعسكريين والكهنة .

فقال سامازيل :

– لنميز . لقد ناضلت طوال حياتي ضد النزعة العسكرية ، ضد الكنيسة وضد الرأسمالية . ولكن يجب ان نعترف ان ديغول ليس مجرد عسكري . وتأييد الكنيسة ضروري اليوم للدفاع عن القيم التي نتمسك بها . وقد يمكن للديغولية ان تكون نظاماً معادياً للرأسمالية إذا ما تسلم قيادتهارجال يساريون.

فقال هنري :

– من الأفضل ان اسمع هذا على ان اكون أصم . لكن الواقع لم يتغير .

فقال تراريو :

– إلا انني اعتقد ان من مصلحتك ان تبحث معنا عن مجال للتفاهم . فقد يحدث لك أخيراً ان توضع موضع اقلية .

فقال هنري :

– هذا سيدهشني . » وابتسم ابتسامة خفيفة للامبير الذي لم يبتسم · من الواضح ان وفاءه لعهده يثقل عليه وانه حريص على إظهار ذلك . وقال هنري: « على كل حال ، إذا حدث لي ذلك، فانني سأستقيل،لكني لن أقبل بتسويات». وأضاف في نفاد صبر: «لا فائدة من النقاش حتى الغد . امامنا قرار علينا اتخاذه، فلنتخذه . اما بخصوصي فانني أرفض قطعاً نشر مقالات فولانج » .

فقال لوك :

– وأنا أيضاً .

واتجهت جميع الانظار نحو لامبير الذي قال بدون ان يرفع عينيه: «لا يبدو لي نشرها مناسباً » .

فقال سامازيل منفجراً :

– لكنك تجدها ممتازة ! انك لتتركهم يخوفونك !

فقال لامبير بترفع :

– لقد قلت ان نشرها لا يبدو لي مناسباً ، هذا واضح ، أليس كذلك ؟

فقال لوك بلهجة ساخرة :

– كنتما تأملان ان توقعا بيننا الشقاق ؟ لقد اخطأتما ضربتكما .

فنهض تراريو على حين غرة وصعق هنري بنظرته : « ذات صباح ، سوف تفلس « الأمل » . ستكون هذه نتيجة عنادك ! » .

وسار نحو الباب . وخرج سامازيل ولوك وراءه . وسأل لامبير بصوت متجهم :

– أأستطيع ان اكلمك ؟

فقال هنري :

– كنت سأطرح عليك السؤال نفسه .

كان يشعر بابتسامة كاذبة على شفتيه . منذ اشهر ، بل منذ سنة لم يجر مع لامبير محادثة ودية حقاً . وليس ذلك لأنه لم يحاول، بل لأن لامبير كان حرداً. ولهذا ما عاد هنري يعرف كيف يحدثه . وقال :

– اعرف ما ستقوله لي . انت ترى ان الوضع لم يعد محتملاً ؟

فقال لامبير :

– لم يعد محتملاً . » ونظر الى هنري في تأنيب : « لك الحق في ألا تحب ديغول ، لكنك تستطيع ان تقف منه موقف حياد رفيق . ان فولانج ، في المقالات التي رفضتها ، يفرق بوضوح بين فكرة الديغولية وفكرة الرجعية » .

فقال هنري :

– التفريق بين الافكار لعبة اطفال . » واضاف : « اذن ، تريد ان تبيع حصتك ؟ » .

– نعم .

– وستشتغل في « الأيام الجميلة » مع فولانج ؟

– تماماً ...

فقال هنري :

– على رسلك ! » وهز كتفيه : « كما ترى ، كنت على حق . كان فولانج يعظ بالاستنكاف : لكنه كان يترصد ساعته . وسرعان ما القى بنفسه في السياسة » .

فقال لامبير بحدة :

– انها خطيئتكم . لقد وضعتم السياسة في كل مكان ! وإذا كنت تريد ان تمنع العالم من السقوط بأكمله تحت سيطرة السياسة ، فأنت مجبر على ممارسة السياسة .

فقال هنري :

– على كل الاحوال ، انكم لن تمنعوا شيئاً ! أخيراً ، لا فائدة من المناقشة :

فنحن ما عدنا نتكلم اللغة نفسها . بع حصتك . على ان ذلك يطرح مشكلة . وإذا ما توزعناها بيننا نحن الأربعة ، فان الوضع سيعود إلى ما ساعدتني على تجنبه . يجب ان نتفاهم ، لوك وانت وانا ، على شخص قادر على شرائها .

فقال لامبير :

– اختر من تريد ، فهذا عندي سيان . حاول فقط ان تجد هذا الشخص بسرعة . فما افعله اليوم ، لا اريد ان اضطر إلى فعله ثانية .

فقال هنري :

– سأبحث . لكن اترك لي الوقت لأتدبر نفسي. فليس من السهل إحلال أي كان مكانك .

كان قد القى هذه الكلمات الاخيرة على سبيل الصدفة ، لكن لامبير بدا عليه التأثر . كان يغتاظ من جمل بريئة، وكان يحدث له ان يرى حرارة في كلمات لامبالية . وقال بصوت حرد :

– ما دمنا لم نعد نتكلم اللغة نفسها، فان اول قادم يستطيع ان يحل مكاني.

فقال هنري :

– انت تعرف إنه إلى جانب أفكار الشخص ، يوجد الشخص نفسه .

فقال لامبير :

– اعرف ، وهذا ما يعقد الامور. فأنت وأفكارك تعادلان اثنين.» ونهض: « أتأتي معي إلى مهرجان لونوار ؟ » .

فقال هنري :

– لعل من الأفضل لنا ان نذهب إلى السينما .

– آه لا ! لا اريد ان يفوتني ذلك .

– حسناً ! مرّ لأخذي في الثامنة والنصف .

كانت الصحف الشيوعية قد أعلنت عن قراءة رائعة من اربعة فصول وستة مشاهد يوفق فيها لونوار بين «مقتضيات صفاء الشعر والاهتمام بتسليم البشر رسالة رفيعة الانسانية » . وكان جوليان عازماً على تخريب هذه الحفلة ، باسم الفئة

القديمة المناصرة للانسانية . ولقد كان في المقالات ، التي نشرها لونوار منذ ارتداده ، تعصب ذليل جداً ، فحاكم ماضيه وماضي أصدقائه بحمية حقود للغاية ، حتى ان هنري كان يفكر بدون استياء في رؤيته موضوعاً عند حده. ثم انها كانت طريقة كغيرها في قتل هذه السهرة : كان منذ مرض بول لا يتحمل الوحدة بسهولة . وبالاضافة إلى ذلك ، كانت هناك بطاقة لوسي بيلوم التي تثير حيرته وشكوكه .

كانت القاعة غاصة . وكان المثقفون الشيوعيون مجتمعين بأكملهم : الحرس القديم وكمية من المجندين الجدد. ولقد كان كثير من هؤلاء الاتباع الجدد يفضحون قبل سنة باستنكار أخطاء الشيوعيين وأغلاطهم . ثم فجأة في تشرين الثاني فهموا . فهموا أن انتسابهم الى الحزب يمكن ان يفيد . وهبط هنري الممر الرئيسي بحثاً عن مكان ، وعند مروره اشرأبت الأوجه باحتقار حقود . لقد كان سامازيل على حق بخصوص ذلك: انهم لا يعترفون له بأي جميل على تمسكه بالشرف. كان طوال السنة قد هدّ قواه في الدفاع عن « الأمل » ضد الضغط الديغولي ، واخذ موقفاً عنيفاً ضد حرب الهند الصينية ، وضد اعتقال النواب المدغشقريين ، وضد مشروع مارشال : وبمجمل القول ، لقد ايد وجهات نظرهم تماماً . لكن هذا لم يكن يمنع ان يعاملوه على انه مزيف ومباع . وتقدم حتى الصفوف الأولى . ورسم سكرياسين ابتسامة ؛ لكن الشبان المتجمعين حول جوليان نظروا إليه بكراهية . وعاد على خطاه وجلس في آخر القاعة على إحدى درجات الدرج . وقال :

– لا بد انني شخص من نوع سيرانو دي برجراك . فليس لي إلا اعداء .

فقال لامبير :

– انها لغلطتك .

– حقاً ان كسب الاصدقاء ليكلف غالياً جداً .

كان قد احب الرفقة ، والعمل المشترك : لكن ذلك كان في زمن آخر ، في عالم آخر . ومن الافضل له في اليوم الذي هو فيه ان يكون وحيداً بشكل

جذري . فهو بهذا الشكل ليس لديه ما يخسره ، ولا شيء كبير يكسبه ايضاً . ولكن من الذي يكسب اي شيء ، على هذه الارض ؟

وقال لامبير :

– تطلع الى الصغيرة بيزيه . لقد لحقت بسرعة بنوع فتيات البيوت .

فقال هنري بمرح :

– نعم ، نموذج جميل للمناضلة .

كان ، قبل أربعة اشهر ، قد رفض لهـا مقابلة حول المشاكل الالمانية فانتحبت : « نهائياً ، للنجاح في الصحافة ، يجب ان تبيع نفسك للفيغارو او « الاومانيته » . واضافت : « لا استطيع على كل حال ان آخذ هذه الاوراق الى « السندان » . ثم بعد اسبوع اتصلت هاتفياً : « لقد اخذت على كل حال تلك الاوراق الى « السندان » . وهي تكتب الآن فيها أسبوعياً ، ويذكرها لاشوم بانفعال : « عزيزتنا ماري آنج بيزيه » . كانت تصعد الممر الرئيسي ، في حذاء مسطح ، وماكياج رديء ، ضامة يديها ، في اهمية . ومرت امام هنري الذي نهض وامسك بها من ذراعها : « مرحباً ! » .

فقالت بدون ابتسام :

– مرحباً .

وارادت ان تتملص .

– انت مستعجلة جداً : أهو الحزب الذي يمنعك من مكالمتي ؟

فقالت ماري آنج التي أصبح صوتها الصبياني حاداً :

– لا اعتقد ان لدينا شيئاً هاماً نتحدث عنه .

– دعيني على كل حال أهنئك : انت تشقـّين طريقك .

– انني اشعر على الاخص انني أقوم بعمل نافع .

– مرحى ! فقد اكتسبت الفضائل الشيوعية كافة !

– آمل ان اكون قد فقدت بعض النقائص البورجوازية .

وابتعدت في كرامة ؛ وفي تلك اللحظة تعالى تصفيق . كان لونوار يصعد إلى

المنصة ، ويجلس امـــام الطاولة بينا كانت عصبة منظمة تثير الحماسة . ووضع اوراقاً على البساط واخذ يقرأ نوعاً من البيان . كان يقرأ بصوت متكسر ، مطلقاً كل كلمة باندفاع يائس ، وكأنه رأى هوات مدوخة تفتح اشداقهـــا بين المقاطع . كان من الواضح انه يخيف نفسه بنفسه . ومـــع ذلك ، لم يذكر عن الرسالة الاجتماعية للشاعر وعن شعر العـــالم الواقعي الا اكثر الافكار شيوعاً . وحين توقف ، تعالت موجة جديدة من التصفيق : ولم يحرك المعسكر المعـادي ساكناً .

وقال لامبير :

– أتدرك ذلك ! من اين سقطوا ليصفقوا لهذه الافكار !

فلم يجب هنري . يقيناً ، كان يكفي المرء ان ينظر الى هؤلاء المثقفين المرائين وجهاً لوجه ليخمد احتقارهم . فهم لم يرتدّوا الا وصوليه ً ، او خوفـــاً ، او بداعي الراحة الاخلاقية ، ولذلك لم يكن لعبوديتهم حد . لكن لا بد للمرء ان يكون مرائياً ايضاً كي يقنع بهذا الانتصار السهل للغاية . ولم يكن هنري يفكر بهؤلاء الناس حين كان يقول في نفسه وقلبـــه منقبض : « انهم يكرهونني » . كانوا صادقين ، اولئك الالوف من البشر الذين قرأوا « الأمل » ، والذين مـــا عادوا يقرأونها ، والذين اصبح اسم هنري عندهم اسم خائن . ولم تكن سخافة هذه السهرة لتقلل بشيء من صدقهم ولا من كراهيتهم .

وكان لونوار قد بدأ بصوت هادىء مشهداً بالوزن الاسكندراني : شاب يشكو من الفراغ في النفس ، يريد ان يغادر قريتـــه حيث مسقط رأسه . وكان اهله ، وعشيقاته ، ورفاقه يحثونه على الرضوخ ، لكنه كان يحبط المحاولات البورجوازية في حين تبدأ الجوقة بتلاوة اشعار تنبؤيـــة . وكانت بضع صور غامضة وبضع كلمات ميتة تشير الى تفاهـــة الابيات المدروسة . وسُمع فجأة صوت يصيح :

– مزيف !

كان جوليان قد وقف . وكان يصرخ : « لقد وعدنا بشعر : اين الشعر ؟ ».

وصاح صوت آخر :

– والواقعية ؟ اين الواقعية ؟

– الرائعة : نحن نريد الرائعة !

– ومتى التوفيق ؟

وأخذوا يضربون بأقدامهم في إيقاع : « التوفيق ! » ، بينما كان الصياح يتعالى في القاعة : « إلى الباب ! نادوا البوليس ! مشاغبون ! حدثونا عن المعسكرات ! عاش السلم ! الفاشيون الى المشنقة ! لا تشتموا المقاومة ! عاش توريز ! عاش ديغول ! عاشت الحرية ! » .

كان لونوار يتحدى نظرات جلاديه . كان يوحي بأنه سيسقط على ركبتيه كاشفاً عن صدره أو سيأخذ برقص رقصة تشنجية . وبدون ان يعرف أحد لماذا ، هدأ اللغط وتابع قراءته . كان البطل يتنزه الآن عبر العالم ، باحثاً عن مهرب ممكن . واخترق القاعة لحن صغير وخفيف صادر عن هرمونيكا . وبعد قليل سمع نفير بوق . وكان جوليان يرافق كل بيت اسكندراني بنوبة ضحك يرتعد لها فم لونوار ارتعادة تشنجية . وانداح الضحك من مقعد الى مقعد ، وتعالت الضحكات من كل مكان ، وأخذ هنري يضحك بدوره : لقد جاء ، بعد كل شيء ، لأجل ذلك . وصاح به أحدهم : « نذل ! » وضحك بشدة اكبر . وانفجر التصفيق ، بين القهقهات والتصفير . وتعالى صياح آخر : « الى سيبيريا ! الى موسكو ! عاش ستالين ! واشٍ ! مباع ! » . بل صاح احدهم : « عاشت فرنسا ! » .

وقال لامبير وهما يخرجان من القاعة :

– كنت آمل ان تكون الحفلة اظرف !

فقال هنري .

– بالفعل ، لم تكن ظريفة مطلقاً . » واستدار وهو يسمع خلفه صوت سكرياسين اللاهث .

– لمحتك في القاعة ، ثم اختفيت . كنت ابحث عنك في كل مكان .

فسأل هنري .

— كنت تبحث عني ؟ » وانقبض حلقه . « ماذا يريد مني ؟ كان يعرف ذلك طوال السهرة : كان ثمة شيء رهيب يقع » .

وقال سكرياسين :

— نعم ، سنشرب كأساً في « النيو بار » . يجب ان نحتفل بهذا العيد الصغير . أتعرف النيو بار ؟

فقال لامبير :

— أعرفه .

فقال سكرياسين وهو يختفي في مثل لمح البصر :

— اذن ، عما قريب .

وسأل هنري :

— ما النيو بار ؟

فقال لامبير وهو يجلس في سيارة هنري :

— صحيح انك ما عدت تضع قدمك في ذلك الحي . منذ ان غزا الشيوعيون « البار الاحمر » ، التجأ الزبائن القدامى الذين ليسوا شيوعيين، الى حانة جديدة مجاورة .

فقال هنري :

— هيا الى النيو بار .

وركبا السيارة ، وبعد بضع لحظات كانا يدوران حول منعطف الشارع الصغير .

— هنا ؟

— هنا .

فأوقف هنري سيارته بعنف . ولمح النور الدامي للبار الاحمر . ودفع باب « النيو بار » : « انه لمقهى رديء بالأحرى » .

فقال لامبير :

– نعم ، لكن رواده أفضل من رواد المقهى المجاور .

فقال هنري :

– اوه ! انني لأشك في ذلك . » وهز كتفيه : « لحسن الحظ ، ان العشرة السيئة لا تخيفني » .

وجلسا الى طاولة . كثير من الشباب ، كثير من اللغط ، كثير من الدخان. لم يكن هنري يعرف واحداً من تلك الرؤوس . حين كان يخرج مع جوزيت ، كان يذهب فوراً الى امكنة مختلفة تماماً ، ولم يكن ذلك يحدث له كثيراً على كل حال . وسأل لامبير :

– وسكي ؟

– موافق .

وطلب لامبير كأسي وسكي بتلك اللهجة المشمئزة التي اخذها عن فولانج . وانتظرا مشروبها في صمت . كان ذلك كئيباً حقاً . ولم يعد هنري يجد ما يقوله للامبير . وبذل جهداً :

– يبدو ان كتاب دوبروي قد صدر .

– أهو الذي نشر مقتطفات منه في « الطوارىء » ؟

– نعم .

– انا متشوق لقراءته .

فقال هنري :

– وانا ايضاً .

في الماضي، كان دوبروي يحمل اليه دوماً مسوداته الاولى.اما هذا الكتاب، فسوف يشتريه هنري من مكتبة ، وسيتحدث عنه مع من يشاء ، لكن ليس مع دوبروي : الشخص الوحيد الذي يود لو يتحدث معه هنا . وقال لامبير :

– لقد وجدت ذلك المقال الذي رفضته لي ، عن دوبروي . أتذكر ؟ لم يكن سيئاً جداً ، أتعرف ؟

فقال هنري :

– لم اقل لك قط انه سيء .

انه يذكر تلك الحادثة. كانت المرة الاولى التي أحسّ فيها بنوع من الكراهية عند لامبير . وقال لامبير :

– سأعيد كتابته ، واقوم بدراسة شاملة عن دوبروي . » وتردد بدون ان يشعر : « لقد طلبه فولانج مني لـ « الأيام الجميلة » .

فابتسم هنري : « حاول الا تكون ظالماً اكثر مما ينبغي » .

فقال لامبير :

– سأكون موضوعيـــاً . » واضاف : « لدي ايضاً قصة ستظهر في « الأيام الجميلة » .

– آه ! أتكتب قصصاً اخرى ؟

– لقد كتبت قصتين . فولانج أحبها كثيراً .

فقال هنري :

– اود كثيراً لو اراها .

فقال لامبير :

– لن تحبها .

وظهر جوليان في فرجة الباب وتقدم نحو طاولتها . كان معلقاً ذراعهبذراع سكرياسين . كانت احقادهما المشتركة بمثابة صداقة بينهما مؤقتاً .

وقال بصوت صاخب :

– الى العمل ، ايهـا الرفاق ! لقد آن الوقت اخيراً للتوفيق بين الانسان والوسكي .

كان قد شك في عروتـه قرنفلة بيضاء ، وقد استعادت نظرته شيئاً من ألقها القديم : ربما لأنه لم يشرب بعد . وصاح سكرياسين :

– زجاجة شمبانيا !

فقال هنري مستنكراً :

– شمبانيا ، هنا ؟

فقال سكرياسين :

– لنذهب الى مكان آخر !

فقال جوليان وهو يجلس بسرعة :

– لا ، لا ، عليك بالشمبانيا ، لكن على الأخص بدون غجر ! » وابتسم : « سهرة جميلة ، أليس كذلك ؟ سهرة ثقافية رفيعة ! انني آسف فقط على انها لم تكن دموية قليلاً » .

فقال سكرياسين :

– سهرة جميلة ، لكن كان يجب ان يكون لها نتائج . » ونظر الى جوليان وهنري نظرة ملحة .

– لقد خطرت لي فكرة اثناء الحفلة : يجب ان ننظم رابطة لنعادي في كل وقت ، وبكل الوسائل ، المثقفين الذين يخونون .

فقال جوليان :

– ولو نظمنا رابطة تعادي جميع الرابطات ؟

فقال هنري لسكرياسين :

– قل اذن ، ألن تصبح فاشياً بعض الشيء ؟

فقال سكرياسين :

– هو ذاك ! لهذا ليس لانتصاراتنا غد .

فقال جوليان :

– خراء على الغد !

كان وجه سكرياسين قد غام : « يجب على كل حال ان نفعل شيئاً ما » .

فقال هنري :

– لماذا ؟

فقال سكرياسين :

– سأكتب مقالاً عن لونوار . انه يمثل حالة مدهشة للعصاب السياسي !

فقال هنري :

– اوه ! اتقول ذلك ! اني اعرف من يفوقه في هذا الميدان .

فقال جوليان :

– نحن جميعاً مصابون بالعصاب . لكن ما احد يكتب على كل حال بالوزن الاسكندراني .

فقال هنري :

– هذا صحيح ! » واخذ يضحك : « قـــل اذن ، كنت ستبدو في مظهر لو كانت مسرحية لونوار جيدة » .

فقالى جوليان :

– وتصور ان توريز جاء ليرقص كانكان ؟ مـــا المظهر الذي كنت ستبدو فيه ؟

فقال هنري :

– على كل ، لقد كتب لونوار قصائد جيدة .

فهز لامبير كتفيه في اغتياظ : « قبل ان يتخلى عن حريته » .

فقال هنري :

– حرية الكاتب : يجب أن نعرف ما تعنيه هذه الكلمة .

فقال سكرياسين :

– انها لا تعني شيئاً . لم يعد هناك معنى لأن يكون الانسان كاتباً .

فقال جوليان :

– صحيح . بل ان ذلك ليعيد إليّ الرغبة في الكتابة .

فقال لامبير في احتداد مفاجىء :

– يجب عليك ذلك . انهم لنادرون جداً اليـوم الكتّـاب الذين لا يعتقدون انهم مكلفون برسالة .

ففكر هنري : « هذا موجه إليّ » . لكنه لم يقل شيئاً . واخذ جوليـان يضحك : « وها هو يكلفني فوراً برسالة : ان اشهد على ان الكاتب ليس مكلفاً برسالة » .

فقال لامبير :

— لكن لا !

فوضع جوليان اصبعه على شفتيه : « الصمت وحده موثوق » .

فقال سكرياسين على حين غرة :

— يا إلهي ! لقد حضرنا مشهداً مزعجاً ، رأينا رجلاً كان صديقَنا أحاله الحزب الشيوعي الى انسان دنيء : وانتم تتكلمون عن الأدب ! أليست لكم بيضات اذن ؟

فقال جوليان :

— انك تنظر الى العالم نظرة جدية اكثر مما ينبغي .

— نعم ؟ حسناً ! ولو لم يكن هناك رجال مثلي ينظرون الى العالم نظرة جدية ، لاستلم الستالينيون الحكم ، ولست أدري اين كنت ستكون انت .

فقال جوليان :

— مطمئناً تماماً ، تحت بضع أقدام من الأرض .

فأخذ هنري يضحك : « أتتصور ان الشيوعيين يريدون جلدك ؟ » .

فقال جوليان :

— لكن جلدي لا يحبهم . انني حساس جداً . » والتفت نحو سكرياسين : « انني لا أطلب شيئاً من أحد . انني اتلهى بالعيش ما دامت الحياة تلهيني . وحين ستصبح مستحيلة ، اضع لها حداً » .

فقال هنري بصوت عابث :

— أكنت انتحرت لو كان الشيوعيون في الحكم ؟

فقال جوليان :

— اجل . وكنت نصحتك بسرعة ان تفعل مثلي .

فقال هنري :

— هذا كثير ! » ونظر الى جوليان في ذهول : « يظن المرء انه يمزح مع اصدقاء ويتبين فجأة ان احدهم يعتبر نفسه نابليون ! » .

– قل لي : ماذا تفعل في حال دكتاتورية ديغولية ؟

– انني لا أحب لا الخطابات ولا الموسيقى العسكرية : لكني سأنسحب بنفسي مع شيء من القطن في اذني .

– انني ارى . حسناً . سأقول لك شيئاً : سينتهي بك الأمر الى رفع القطن والتصفيق للخطب .

فقال سكرياسين :

– لا يمكن اتهامي بأني احب ديغول ، انت تعرف ذلك . لكنك لا تستطيع ان تقارن بين ما ستكون عليه فرنسا ديغولية وفرنسا ستالينية .

فهز هنري كتفيه : « اوه ! انت ايضاً ، سرعان ما ستصيح : « عاش ديغول » .

فقال سكرياسين :

– ليست غلطتي اذا كانت القوى المعادية للشيوعية قد التفّت حول عسكري . فحين اردت اعادة تجميع اليسار ضد الشيوعيين رفضت .

فقال هنري :

– ما دمت معادياً للشيوعية ، فلِمَ لا تكون عسكرياً ؟ » واضاف في غضب : « أتتكلم عن يسار ! كنت تقول : هناك الشعب الاميركي ، والنقابات. وفي مقالاتك تدافع عن مارشال وشلته » .

– ان انقسام العالم الى كتلتين ، في الساعة الراهنة ، حقيقة واقعة : اننا مرغمون على القبول بأميركا او الاتحاد السوفياتي ككتلة .

فقال هنري :

– وانت تختار اميركا !

فقال سكرياسين :

– ليس في اميركا معسكرات اعتقال .

فقال هنري :

– المعسكرات ايضاً ! انتم تجعلونني اندم على انني تكلمت عنها !

فقال لامبير :

– لا تقل ذلك : انه اجلّ عمل قمت به حتى الآن . » وكان صوته متخثراً قليلاً . كان يتناول كأسه الثانية وكان لا يتحمل الكحول .

وهز هنري كتفيه : « ما افاد ذلك ؟ لقد استخدمها اليمين لخلق ضمير شيوعي مستاء ، وكأنه وجد تبريره فيها ! فما أن تتكلم عن الاستغلال ، عن البطالة ، عن المجاعة ، حتى يجيبوك : ومعسكرات العمل . ولو لم تكن موجودة ، لاخترعوها » .

فقال سكرياسين :

– وكونها موجودة ، هذا محرج ، أليس كذلك ؟

فقال هنري :

– انني ارثي للناس الذين لا يحرجهم ذلك .

ونهض لامبير فجأة : « ستعذرونني ، لدي موعد » .

فقال هنري وهو ينهض بدوره :

– سأذهب معك . انني عائد لأنام .

فقال جوليان :

– لتنام ؟ في مثل هذه الساعة ؟ في مثل هذه الليلة ؟

فقال هنري :

– انها ليلة عظيمة ! لكني نعسان . » وألقى تحية صغيرة وسار نحو الباب .

وسأل لامبير :

– اين موعدك ؟

فقال لامبير :

– ليس عندي موعد . لكني سئمت . انهم ليسوا ظرفاء . » واضاف في ضغينة : « متى سيمكننا ان نمضي سهرة دون ان نتكلم في السياسة ؟ » .

– لم نتكلم ، بل بوّلنا .

– بوّلنا على السياسة .

– كنت اقترحت عليك الذهاب الى السينما .

فقال لامبير :

– السياسة او السينما ! ألا يوجد حقاً شيء آخر على الارض ؟

فقال هنري :

– افترض ان نعم .

– ماذا ؟

– اود لو اعرف ذلك !

فرفس لامبير اسفلت الطريق . وسأل بلهجة ملحة الى حد ما : « ألا تأتي لشرب كأس ؟ » .

– لنشرب كأساً .

وجلسنا في مقهى على السطح . كان مساء جميلاً ، وكان اناس يضحكون حول طاولات مستديرة : عمّ كانوا يتحدثون ؟ كانت سيارات صغيرة تتلوى في الطريق ، وفتيان وفتيات يمرون متعانقين ، وازواج يرقصون تحت الأرصفة ، وصدى موسيقى جاز جميلة يتعالى . يقيناً ، يوجد على الأرض اشياء اخرى غير السياسة والسينما : لكن بالنسبة لأناس آخرين .

وطلب لامبير :

– كأسين مضاعفتين من السكوتش.

فقال هنري :

– مضاعفتين ! ما اسرعك ! انت ايضاً اخذت تدمن؟

– لماذا ، انت ايضاً ؟

– جوليان يشرب ، سكرياسين يشرب .

فقال لامبير :

– فولانج لا يشرب ، وفانسان يشرب .

فابتسم هنري : « انما انت الذي يرى في مكان آراء مسبقة سياسية . لقد قلت ذلك من قبيل الصدفة » .

فقال لامبير الذي كان وجهه يعبّر عن عناد ضبابي : « ونادين ايضاً لم تكن تريد ان اشرب . لم تكن تعتقدني قادراً على ذلك ، لم تكن تعتقدني قادراً على شيء : تماماً مثلك » . وختم عبارته بصوت قاتم : « هـــذا مضحك : انني لا اوحي بالثقة » .

فقال هنري :

– لقد وثقت بك دوماً .

– كلا . لقد ابديت تجاهي رفقاً لمدة من الزمن ، لا اكثر . » وشرب لامبير نصف كأس الوسكي وتابع الكلام في غضب : « اذ لم يكن الانسان عبقريـاً في عصابتكم فلا بـــد ان يكون وحشاً . وفانسان ، انا موافق ، وحش . لكني لست لا كاتباً ، ولا رجلاً عملياً ، ولا فاسقاً كبيراً ، بـــل مجرد ابن عائلة ولا اعرف حتى كيف اسكر كما يجب » .

فهز هنري كتفيه : «ما من احد يطلب اليك ان تكون عبقرياً او وحشاً».

فقال لامبير :

– انت لا تطلب مني شيئاً لأنك تحتقرني .

فقال هنري :

– انك لمجنون تماماً ! انني آسف ان تكون لك الافكار التي لك ، لكني لا احتقرك .

فقال لامبير :

– انت تعتقد انني بورجوازي .

– وانا ؟ ألست بورجوارياً ؟

فقال لامبير في ضغينة :

– اوه ! لكن انت انت ، تقول انك لا تشعر بالتفوق على احد . لكنك في الحقيقة تحتقر الجميع : لونوار ، سكرياسين ، جوليان ، سامازيل ، فولانج ، وسائر الآخرين ، وانا ايضاً . » واضاف بصوت معجب وشرس في آن واحد : إن لك معنويات عالية ! فأنت متجرد ، شريف مخلص ، شجاع ، ومنطقي مع

نفسك : لامأخذ عليك !

فابتسم هنري : « استطيع ان اقسم لك ان ليست هذه حالتي !» .

فقال لامبير بلهجة مثبطة :

– هيا اذن ! انك لمعصوم عن الخطأ وانت تعرف ذلـــك . » واضاف في غضب : « وانا اعرف جيداً انني لست معصوماً عن الخطأ ، لكني لا ابالي : انني كما انا » .

فقال هنري :

– من يلومك على ذلك ؟ » وتفرس في وجه لامبير في شيء من تأنيب الضمير. كان قد لامه على انه استسلم للسهولة، لكن كانت للامبير اعذاره: طفولة قاسية، وروزا ماتت حين كان في العشرين ، ولم تعزّه نادين . وفي الحقيقة ، إن ما يطلبه لمتواضع : ان يُسمح له بأن يعيش حسب مشيئته قليـلا . وفكر هنري : « ولم اقدم له الا مطالب » . لهذا كان لامبير يقف الى جانب فولانج . ولعل الوقت لم يفت لتقديم شيء آخر له . وقال بصوت عطوف :

– اشعر انك تأخذ مآخذ عبرة عـــلي : من الافضل ان تخرجها كلها دفعة واحدة ، وسوف نتفاهم .

فقال لامبير بصوت حزين :

– لا مآخذ عندي ، بل انت الذي يخطئني دومـــاً . انك تقضي وقتك في تخطئتي .

– انت مخطىء تماماً . حين اخالفك في الرأي ، فهذا لا يعني انني اخطئك . فنحن اولاً لسنا في عمر واحد . وما يناسبني لا يناسبك بالضرورة . فلقــد كان لي ، مثلاً ، شباب : انني افهم ان ترغب في ان تستفيد قليلاً من شبابك .

فقال لامبير :

– أتفهم ذلك ؟

– أجل .

فقال لامبير :

– اوه ! ثم اذا وبختني ، فانني لا ابالي .

كان صوته يترنح، وكان قد شرب أكثر مما ينبغي كي يكون الحديث ممكناً، وعلى كل لم يكن هناك داعٍ الى العجلة .

وابتسم هنري له :

– اسمع ، لقــد تأخر الوقت وكلانا متعبـــان . لكن لنخرج ذات مساء ولنحاول ان نجري حديثاً حقيقياً : منذ زمن طويل لم يحدث لنا ذلك !

فقال لامبير :

– حديثاً حقيقياً : أتعتقد ان هذا ممكن ؟

فقال هنري :

– ممكن اذا اردناه . » ونهض : « أأصحبك ؟ » .

فقال لامبير في لهجة مبهمة :

– كلا ، سأرى اذا كنت سأجد اصدقاء .

فقال هنري :

– اذن ، الى احدى تلك الأماسي .

فمد لامبير اليه يده :

– الى احدى تلك الأماسي !

وعاد هنري الى فندقه . كانت هناك رزمة في انتظاره : دراسة دوبروي . وبينما كان يرتقي الدرج فك الخيوط وفتح الكتاب على الصفحة الاولى : كانت ، بالطبع ، بيضاء ؛ ماذا تصور ؟ انه موفان الذي ارسل اليه هــذا الكتاب ، كما يرسل اليه كميات من غيره .

وتساءل : « لماذا ؟ لماذا تخاصمنا ! » كان قد سأل نفسه عن ذلـــك كثيراً. كانت مقالات دوبروي في « الطوارىء » تردد بالضبط مـــا تردده افتتاحيات هنري : لم يكن يتصل ، في الحقيقة ، شيء بينهما . وكانا متخاصمين . ان هــذا لحدث لا يمكن الرجوع عنـــه ، لكنه غير قابل للتفسير . كان الشيوعيون يكرهون هنري ، ولامبير يترك « الأمل » ، وبول مجنونة ، والعالم يركض الى

الحرب ولم يكن للخصومة مع دوبروي من معنى .

وجلس هنري الى طاولته واخذ يفتح صفحات الكتاب . كان يعرف منه فقرات كثيرة . وقفز فوراً الى الفصل الاخير : فصل طويل كتب ولا بد في كانون الثاني ، بعد تصفية « الاشتراكي الثوري الحر » . وشعر ببعض الحيرة . إن الجيد لدى دوبري هو انه لا يتردد أبداً في اعادة النظر في أفكاره . وفي كل مرة ، كان ينطلق الى المغامرة من جديد . لكن اعادة النظر هذه المرة كانت جذرية . كان يصرح : « إن المثقف الفرنسي لا يستطيع شيئاً اليوم » . بديهي: فقد فشل « الاشتراكي الثوري الحر » ومقالات دوبروي في « الطوارىء » تثير ضجة ، ولكن ليس لها اي تأثير ، على اي انسان . كان دوبروي يتهم تارة بأنه شيوعي متكتم ، وطوراً بأنه عميل لوول ستريت ، ولم يكن له الا اعداء: لا بد انه ليس في عيد . وكان هنري في وضعه نفسه تقريباً، ولم يكن في عيد كذلك، لكنه ليس في صالة مماثلة ، انه يعيش يوماً فيوماً ، انه يتدبر امره . لا ريب في ان دوبروي ، بما عنده من تعصب ، لا يعرف كيف يتدبر أمره . وبالأصل أنه يذهب الى ابعد مما يذهب اليه هنري . كان يدين حتى الادب . وتابع هنري القراءة . كان دوبروي يذهب الى ابعد من ذلك ايضاً : كان يدين وجوده بالذات . كان يعارض المذهب الانساني القديم الذي كان مذهبه بمذهب إنساني جديد ، اكثر واقعية ، اكثر تشاؤماً ، يفسح مكاناً رحباً للعنف ، ولا يفسح اي مكان تقريباً لأفكار العدالة ، والحرية ، والحقيقة . كان يبرهن بنجاح على ان هذه هي الاخلاق الوحيدة المناسبة للعلاقة الحالية بين البشر . ولكن كي يتبنى الانسان مثل هذه الاخلاق ، فلا بد ان يلقي عن كاهله بأشياء كثيرة ، مما لم يكن قادراً شخصياً على فعله ، كان من الغريب فعلاً ان يرى دوبروي يعظ بحقيقة لا يستطيع ان يجعل منها حقيقته : هذا يعني انه يعتبر نفسه ميتاً . وفكر هنري : « انها غلطتي . لو لم أعاند ، لتابع « الاشتراكي الثوري الحر » وجوده ، ولما اعتقد دوبروي انه مقهور نهائياً » . كان قلبه ينقبض من تصوره لا مجدياً ، منعزلاً ، شاكاً في ان يكون لأعماله معنى ، منقطعاً عن المستقبل ،

ناقضاً ماضيه . وفجأة قال هنري في نفسه : « سأكتب له ! » . لعل دوبروي لن يجيب او سيجيب بغضب : ما الاهمية ؟ ان هنري لم يعــد يعرف شيئاً عن كبرياء النفس . وقرر وهو يرقد : « سأكتب له ، غداً » . وقال في نفسه ايضاً « سأجري غداً حديثاً حقيقياً مع لامبير » . واطفأ النور وتساءل : « غداً . لمَ تريد الأم بيلوم ان تراني غداً صباحاً ؟ » .

تنحت الخادمة ودخل هنري الى الصالون . جلود دب ، سجاد ، أرائك واطئة : انه الصمت المتواطيء نفسه يوم كان يلتقي هنا بجوزيت وهي معروضة عليه بشكل ضمني . لم تكن لوسي قد دعته على كل حال لتعرض عليه مفاتنها الخمسينيــة ! وردد في نفسه : « مــاذا تريد مني ؟ » . كان يحاول ان يرسم أجوبة .

قالت لوسي :

– شكراً على مجيئك .

كانت ترتدي ثوباً للبيت متزمتاً ، وكان شعرها حسن التصفيف لكنها لم ترسم حاجبيها، وكان هذا النوع من الصلع يزيد في عمرها زيادة غريبة. وأشارت له ان يجلس :

– اريد ان أسألك خدمة . وهي ليست من اجلي : بل من اجل جوزيت . أأنت حريص ، أم لا ؟

فقال هنري :

– تعرفين جيداً ان نعم .

كانت لهجة لوسي طبيعية جداً حتى انه شعر ببعض الاطمئنان : انها تريد ان اتزوج جوزيت ، او ادخل في شركة مــا . لكن لمَ تمسك بيدها اليمنى بهذا المنديل الصغير المخرم ، لمَ تشد عليه بهذه القوة ؟ وقالت لوسي :

– لا أدري الى أي حد ستذهب لمساعدتها .

– قولي لي اذن ما الأمر .

فترددت لوسي . كانت تعجن بين يديها المنديل المدعوك : « سأقول لك ، لا خيار لي » . ورسمت ابتسامة : « لقد قيل لك ولا بد اننا لم نكن اثناء الحرب مقاومات مئة بالمئة ؟ » .

– قيل لي ذلك .

فقالت لوسي :

– لن يعرف أحداً أبداً كم دفعت ليكون لي بيت آماريليس ، ولأجعل منه محلا كبيراً . وعلى كل ، هذا لا يهم أحداً وانا لا ازعم انني اثير شفقتك على مصيري . كل ما هنالك ، يجب ان تفهم انني بعد ذلك كنت على استعداد لأن اقامر برأسي على ان أتركه يتدهور . ولم اكن استطيع انقاذه إلا باستخدام الألمان : فاستخدمتهم ولن اقول لك انني نادمة على ذلك . بديهي ، اننا لا نحصل على شيء مقابل لا شيء ؛ فاستقبلتهم في « ليون » ، وأقمت حفلات : باختصار ، لقد فعلت ما هو ضروري . وقد كلفني هذا بعض المتاعب بعد التحرير ، لكن ذلك قد أصبح بعيداً ، منسياً .

ونظرت لوسي حولها ونظرت الى هنري . وتمتم بصوت هادىء : « وبعد ؟ » . كان يخيل اليه ان هذا المشهد قد حدث قبل الآن . متى ذلك ؟ وربما في أحلامه . منذ ان استلم تلك البطاقة ، كان يعرف ما ستقوله لوسي له . منذ سنة كان ينتظر هذه الدقيقة .

– يوجد شخص كان يهتم معي بشؤوني ، شخص يدعى مرسييه ، كان يأتي غالباً الى ليون : فسرق صوراً ، ورسائل والتقط شائعات . واذا ما فتح فاه ، ندمغ بدمغ الخيانة القومية ، انا وجوزيت .

فقال هنري :

– انها لصحيحة قصة السجل تلك ؟

لم يكن يشعر بشيء إلا بـ... كبير . وقالت لوسي في دهشة :

– آه ! أكنت مطلعاً على ذلك ؟

وانفرج وجهها قليلاً . وقال هنري :

– واستخدمت ايضاً جوزيت ؟

فقالت لوسي في مرارة :

– استخدمتها ! لم تخدمني جوزيت في شيء مطلقاً . لقد ورطت نفسها بطريقة لا مجدية تماماً . لقد وقعت في حب ضابط ، فتى عاطفي جميل ليس له أي نفوذ ، ارسل اليها برسائل شعرية ملتهبة قبل ان يقتل في الجبهة الشرقية . فتركتها ملقاة في كل مكان ، وكذلك الصور التي يظهر فيها الاثنان . وثائق جميلة ، اؤكد لك . وسرعان ما فهم مرسييه الفائدة التي يستطيع ان يجنيها منها .

فنهض هنري فجأة وسار حتى النافذة . كانت لوسي تراقبه ، لكنه لم يكن يبالي بها . كان يتذكر وجه جوزيت المتواني في ذلك الصباح ، الصباح الاول ، وذلك الصوت الحقيقي للغاية الذي كان يكذب : « انا ، عشيقة ؟ لمن ؟ » . كانت قد أحبت . أحبت غيره ، فتى جميلاً المانياً . والتفت نحو لوسي وسأل في جهد : « هل يبتزّك ؟ » .

فضحكت لوسي ضحكة صغيرة : « لن تتصور انني سأطلب منك مالاً ؟ منذ ثلاث سنوات وانا ادفع ، وكنت على استعداد لأن اتابع . بل لقد عرضت عليه مبلغاً ضخماً لشراء السجل منه ، لكنه خبيث ، وينظر الى بعيد » . ونظرت الى هنري في عينيه وقالت بلهجة متحدية : « كان جاسوساً للجستابو ، وقد اوقف . وقد ابلغني انني اذا لم اخرجه من هذا المأزق ، فانه سيجرنا معه» .

فلازم هنري الصمت . لقد كانت النذلات اللواتي نمن مع المان ينتسبن حتى إلى عالم آخر لا تمكن معه الا علاقة وحيدة: الحقد. ولكن ها هي لوسي تتكلم، وهو يصغي اليها . ان هذا العالم السافل ، لهو عالمه نفسه ، وليس هناك إلا عالم واحد. ومن ذراعي الضابط الالماني،انتقلت جوزيت الى ذراعيه. وقالت لوسي:

– أتدرك ما تعنيه هذه القصة بالنسبة لجوزيت ؟ انها لن تستطيع أبداً ، بما لها من طبيعة ، ان تواجهها ، وسوف تفتح الغاز .

فقال بصوت غاضب :

– ماذا تريدين ان افعل ؟ ماذاتنتظرين مني ؟ انني لا اعرف محامياً يستطيع ان يخرج جاسوساً للجستابو من مثل هذه الورطة . ان النصيحة الوحيـدة التي استطيع ان اقدمها لك ، هي ان تهربي الى سويسرا بأسرع ما يمكنك .

فهزت لوسي كتفيها : « الى سويسرا ! اقول لك ان جوزيت ستفتح الغاز». وقالت في حنان مفاجيء : « لقد كانت مسرورة جداً في هذه الايام ، الصغيرة المسكينة . الجميع يقولون انها تخرج بطريقة مثيرة على الشاشة » . واضافت في نفاد صبر : « اجلس ، واصغ ِ إلي » .

فقال هنري وهو يجلس :

– انني مصغ ٍ .

فقالت لوسي في نصف ابتسامة :

– لديّ محام ٍ تحت يدي ! الاستاذ تريفو ، ألا تعرفه ؟ انه صديق موثوق جداً ، ولي عليه منات كثيرة . » وغرست نظرتها في عيني هنري :«لقد درسنا القضية معاً ، بكل تفاصيلها . انه يقول ان الحل الوحيد هو ان يدافع مرسييه عن نفسه على انه عميل مزدوج : ولكن بالطبع ، إن ذلك غـير وارد إلا اذا وُجد مقاوم جدّي يؤيده » .

فقال هنري :

– آه ! انني افهم !

فقالت لوسي ببرود :

– هذا سهل الفهم .

فضحك هنري ضحكة صغيرة : « تظنين ان الامر بسيط جـداً ! المصيبة هي ان جميع الرفاق يعلمون ان مرسييه لم يعمل معي قط » .

فعضت لوسي على شفتيها . وفجأة، تبخرت غطرستها، وخاف من ان تأخذ في البكاء ، اذ سيكون مشهداً مقبضاً للقلب بـدون ريب . كان يراقب في لذة خبيثة الوجه المتداعي ، وكانت في رأسه كلمات تركض كالريح : عشيقة ضابط الماني ، لقد نالتني . يا للبليد المسكين ! كان يظن نفسه واثقاً من لذتهـا ، من

حنانها : يا للبليد ! انها لم تعتبره قط الا اداة . كانت لوسي امرأة عقل ، وكانت تنظر الى بعيد . واذا كانت قد اخذت بين يديها بمصالح هنري ، واذا كانت قد القت بجوزيت بين ذراعيه ، فلم يكن ذلك ليؤمن مستقبل ابنة لا تبالي بها . بل لتضم اليها حليفاً نافعاً . ولقد لعبت جوزيت الدور المطلوب منها . وكانت تروي لهنري انها لم تحب قط لتبرر تحفظ قلبها : لكن الحب كله الذي كان هذا القلب الواهي قادراً عليه ، اعطته للضابط الالماني الذي كان فتى جميلاً للغاية .
كان يود لو يهينها ، لو يضربها ، وأمها تطلب منه ان ينقذها ! وقالت لوسي :
– ألم يكن العمل سرياً ؟
– نعم ، لكن كنا نعرف بعضنا فيما بيننا .
– ولن يصدقك قاضي الاستنطاق بمفردك ؟ وإذا ووجهت بزملاء ، فهل سيخالفونك ؟

فقال هنري في غضب :

– لست ادري ، ولا اريد المجازفة بذلك . لا يبدو عليك انك تشكين في خطورة شهادة الزور . انت حريصة على بيت خياطتك . وانا ايضاً حريص على بعض الاشياء الصغيرة .

كانت لوسي قد استعادت هدوءها . وقالت بصوت حيادي : « التهمة الرئيسية ضد مرسيه ، هي انه وشى بفتاتين في ٢٣ شباط ١٩٤٤ في جسر « ألما » . ووجهت الى هنري نظرة مستجوبة : كان اسمها السري ليزا وايفون ، وقد امضينا عاماً في داشو ، الا يقول لك هذا شيئاً ؟ » .

– كلا .

– خسارة . لو كنت تعرفها ، لساعدنا ذلك . على كل حال ، من البديهي انها تعرفانك . فإذا اكدت ان مرسيه في ذلك اليوم كان في مكان آخر ، معك ، أفلن تسقطا دعواهما ؟ واذا صرحت انك كنت تستخدم سرياً مرسيه كجاسوس ، فهل سيجرؤ احد على دحض كلامك ؟.

ففكر هنري . نعم . ان له حظوة كبيره ، ويمكن لكذبة واحدة ان

تنجح . كان لوك في بوردو عـام ١٩٤٤ . ولقد مات شانسيل ، وفاريو ، وغالتييه . وإذا كان لدى لامبير ، وسيروناك ، ودوبروي ، شكوك ، فسوف يحتفظون بها في أنفسهم . ولكن لن يدلي بشهادة زور من أجـل امرأة صغيرة اعجبه جلدها . لقد عرفت كيف تحتفظ بسرها ، البريئة ! وقال :

– اسرعي اذن بالهرب الى سويسرا! سوف تجدين مجموعة من الناس الطيبين. الى سويسرا ، او الى البرازيل ، او الى الارجنتين : ان العـالم كبير . انه لوهمٌ الظن بأن الحياة غير ممكنة إلا في باريس .

– انت تعرف جوزيت ، لا ! لقد بدأت الآن فقط بتذوق الحياة . انها لن تتحمل الضربة ابداً !

وفكر هنري وقلبه ينفرط : « يجب ان اراها . فوراً ! » ونهض فجـأة : « سوف افكر » .

فقالت لوسي وهي تخرج من جيبها قطعة ورق :

– هوذا عنوان الاستاذ تريفو . اذا قررت ، فاتصل به .

فقال هنري :

– على فرض انني قبلت : فهل من المؤكد ان الشخص سيعيد السجل ؟

– ماذا تريد ان يفعل ؟ فهو لا مصلحة له ، اولاً ، في اغضابك . ثم في اليوم الذي سيُعرف فيه السجل ، فإن شهادتك ستصبح مشبوهة . لا . إذا ما انقذته من الورطة ، فإن يديه ستظلان مربوطتين .

فقال هنري :

– سأتلفن لك هذا المساء .

فنهضت لوسي ، وظلت لحظة منتصبة امامه في تردد . ومن جديد خاف ان تسيل دموعها وأن ترمي بنفسها على قدميه . واكتفت بإطلاق تنهدة ورافقتـه حتى الباب .

ونزل الدرج بسرعة وجلس امام مقود سيارته وصعد نحو شارع غابرييل . كان لا يزال في جيبه المفتاح الصغير الذي اعطته اياه جوزيت ، قبل سنة ، ذات

ليلة جميلة . وفتح باب الشقة ودخل الى الغرفة دون ان يقرع . وقالت جوزيت:

– ما هذا ؟ » وفتحت عينيها وابتسمت ابتسامة مبهمة : « أهو أنت ؟ ما الساعة ؟ لطف منك ان تأتي لتقبيلي » .

فلم يقبلها . وسحب الستائر وجلس على مقعد مجنح . بين هـذه الجدران المبطنة ، بين هذه الطرف ، هذا الحرير ، هذه الوسائد ، كان من الصعب عليـه ان يؤمن بالفضيحة ، بالسجن ، باليأس . وكان ثمـة وجه يبتسم ، وردي جداً تحت شعر أصهب . وقال :

– اريد ان اكلمك .

فانتصبت جوزيت قليلاً على وسائدها : « عمَّ ؟ » .

– لِمَ لم تقولي لي الحقيقة ؟ لقد روت لي امك كل شيء . » وقـال بصوت عنيف : هذه المرة اريد الحقيقة . ألأنها كانت تعتقد انني أستطيع ان اؤدي لك ذات يوم خدمة ، القت بك بين ذراعي ؟ » .

فقالت جوزيت وهي تنظر الى هنري في ذعر :

– ماذا حدث ؟

– أجيبيني ؟ ألكي تطيعي امك ، قبلت بأن تنامي معي ؟

فقالت جوزيت :

– منذ زمن طويل وماما تقول لي ان اهجرك . ان مـا تريده هو ان أتعلق برجل مسنّ . » ورددت بلهجة ضارعة : « ماذا حدث ؟ » .

فقال :

– السجل ، أسمعت عن ذلك السجل ؟ ان الشخص الذي يملكه اعتقل وهو يهدد بأن يكشف أوراقه .

فأخفت جوزيت وجهها في الوسادة ، وقـالت في يأس : « ألن ننتهي من الامر اذن ابداً ! » .

– أتذكرين ، في الصباح الاول ، هنا بالذات ، قلت لي انك لم تحبي أحـداً قط . وفيما بعد حدثتني بشكل مبهم عن فتى مات في اميركا : كان فتاك ضابطاً

المانيا . آه ! لقد هزئت بي كثيراً .

فقالت جوزيت :

– لِمَ تكلمني هكذا ؟ مـاذا فعلت لك ؟ حين كنت في ليون ، لم أكن أعرفك .

– لكن حين سألتك ، كنت تعرفينني . ولقد كذبت عليّ بكل براءة !

– ما كانت الفائدة من ان اقول لك الحقيقة؟ كانت ماما قد منعتني من ذلك. وبعد كل شيء كنت غريباً .

– وطوال سنة ، أبقيت غريباً بالنسبة لك ؟

– ما كان الداعي للكلام عن هذا كله ؟ » وأخذت تبكي بهدوء بين أصابعها: «ماما تقول انني اذا فُضحت فسوف اسجن.لا اريد! سأقتل نفسي بالأحرى».

– كم من الوقت دامت قصتك مع الضابط ؟

– سنة .

– أهو الذي اثث لك هذه الشقة ؟

– نعم . كل ما لدي ، هو الذي اعطانيه .

– وكنت تحبينه !

فقالت منتحبة :

– كان يحبني ، كان يحبني كما لن يحبني اي رجل ابـداً . نعم كنت احبه ، ليس هذا سبباً لألقى في السجن .

ونهض هنري ، وخطا عدة خطوات بين قطع الاثاث التي اختارهـا الضابط الجميـل . في الحقيقة ، كان يعرف دوماً ان جوزيت قابلة لأن تكون قـد وهبت نفسها لألمان . لقد اعترفت : « لم اكن افهـم شيئاً من تلك الحرب » ، فافترض انها كانت تبتسم لهـم ، وانها كانت تغازلهم بشكل ما ، وعَذرها على ذلك . ولقد كان على استعداد لأن يعذرها اكثر لو أحبت حباً صادقاً . ولكن الواقع انه لم يكن يتحمل ان يتصور على هذا المقعد زياً عسكرياً رمادياً اخضر، والرجل نائماً معها ، جسداً الى جسد ، فماً الى فم .

– أو تعرفين ما تأمله امك ؟ أن ادلي بشهادة زور كي انقذك من المأزق . » واضاف : شهادة زور : اعتقد انها لا تعني عندك شيئاً » .

فرددت جوزيت بين دموعها :

– لن اذهب الى السجن ، سأقتل نفسي . وبالأصل سيان عندي ، سيان عندي ان اقتل نفسي .

فقال هنري بصوت عاد اليه لطفه :

– لا مجال هناك لذهابك الى السجن .

كفى ! لا فائدة من تمثيل دور رجل العدالة : انه غيور ، هذا كل شيء . ولو أراد العدل، لما استطاع ان يلوم جوزيت على حبها اول رجل أحبها . وبأي حق يوبخها على سكوتها ؟ لم يكن له اي حق . وتابع :

– في أسوأ الحالات ، سترغمان على مغادرة فرنسا . لكن الحياة ممكنة في غير فرنسا .

كانت جوزيت لا تزال تنتحب . من البديهي ان ما قاله لم يكن له أي معنى. العار ، الهرب ، المنفى : لن تتحمل جوزيت الضربة ابداً . بل انها منذ الآن غير متمسكة بالحياة الى حد كبير . ونظر حوله وتصاعد الضيق الى صدره . كانت الحياة تبدو لاغية في ديكور المهزلة هذا ، لكن اذا ما فتحت جوزيت الغاز يوماً فإنها ستموت بين هذه الجدران المبطنة ، راقدة تحت هذه الأغطية الوردية . وسوف تدفن في قميصها الراغي . لم تكن تفاهة هذه الغرفة الا مظهراً كاذباً ، في حين ان دموع جوزيت دموع حقيقية ، وثمة هيكل عظمي حقيقي يختفي تحت الجلد المعطر . وجلس على حافة السرير وقال :

– لا تبكي . سأنتشلك من هذه الورطة .

وابعدت خصائل الشعر التي كانت تتهدل على وجهها المبلل : « انت ؟ انك لتبدو عظيم الغضب ! ... » .

فقال :

– لكن لا ، انني لست غاضباً » وكرر بقوة : « اعدك بأن انتشلك من

هذه الورطة » .

فقالت جوزيت وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه :

– اوه اجل ! انقذني ! ارجوك !

فقال بعذوبة :

– لا تخافي . لن يحدث لك اي سوء .

فقالت جوزيت :

– انت لطيف ! » والتصقت به ومدت اليه فمها ، فأشاح بوجهه . فتمتمت بصوت ذليل جداً حتى ان هنري شعر بالخجل ، الخجل من انه على الشاطىء الآمن : « أأقرفك ؟ » . رجل تجاه امرأة ، شخص يملك مالاً ، واسماً ، وثقافة ، وعلى الاخص اخلاقية ! لقد زال عن هذه الاخلاقية رونقها بعض الشيء ، منذ فترة ما ، لكنها لا تزال قادرة على ان تخدع . ولقد كان ، عند المناسبة ، يترك نفسه تخدع بها . وقبّل الفم المملح بالدموع :

– انما انا الذي أقرف من نفسي .

– انت ؟

ورفعت اليه عينين لا تفهمان شيئاً وقبّلها من جديد ، في فيض من الشفقة . ما الأسلحة التي قدمت لها ؟ اي مباديء ؟ اي آمال ؟ لقد كانت هناك صفعات امها ، وفظاظة الذكور ، والجمال المذل ، ولقد وضعوا الآن في قلبها تأنيب ضمير مدهوش من نفسه . وقال :

– كان عليّ ان اكون لطيفاً على الفور بدلاً من ان اهينك .

فنظرت إليه بقلق : أصحيح انك غير حاقد عليّ ؟ » .

– انني غير حاقد عليك . وسأنتشلك من هذه الورطة .

– ماذا تفعل ؟

– سأفعل ما ينبغي .

فأطلقت تنهدة ووضعت رأسها على كتف هنري . فداعب شعرها . شهادة زور : كان ينفر من هذه الفكرة . لكن ماذا ؟ انه لن يؤذي احداً بحلفه زوراً.

سينقذ رأس مرسيبه ، وهـــذا شيء يؤسف له : لكن العديــد من الآخرين يستحقون الموت وهم في أتم صحة ! وإذا رفض : فإن جوزيت قــادرة على قتل نفسها ، او ان حياتها لن يعود لها معنى ، على كل حال . كلا ، لم يكن يستطيع ان يتردد : فهناك ، من طرف ، جوزيت ، ومن طرف آخــر وساوس ضمير . ولف خصلة من شعرهــا حول اصبعه . على كل الأحوال ، ان الضمير المرتاح لا يفيد شيئاً . لقد سبق وفكر بذلك : الاحرى به ان يحيــد عن طريق الصواب صراحة . وهــا هي الفرصة تسنح له ليقول خراء للأخلاقية : ولن يفوتهـــا . وملس يده ومررها على وجهها . لم يكن دور الرجل الشيطاني ليناسبه . سوف يدلي بشهادة الزور تلك لانه لا يستطيع ان يتصرف بشكل آخر ، هـــذا كل شيء . « كيف وصلت الى هـذا الحد ؟ » . كان ذلك يبدو له منطقياً جـــداً ومستحيلاً تماماً في آن واحد . ولم يشعر قط بهذا القدر من الكآبة .

لم يكتب هنري لدوبروي ، ولم يحـادث لامبير حديث قلب الى قلب . ان الصداقة لتعني تقديم تقارير : في حين انه كان يجب ان يكون بمفرده ، ليفعل ما سيفعله . وهو الآن ، وقد اتخذ قراره ، يمنع نفسه عن وساوس الضمير . ولم يعد يشعر بخوف. كذلك بديهي انه يجازف مجازفة كبيرة ، ومن الممكن ان تدحض اقواله ، وأي فضيحة جميلة إذا ثبتت عليه شهادة الزور ! وإذا ما تُبِّلت بالمرقة الديغولية او المرقة الشيوعية ، فإنها ستكون حساء مدهناً . لكنه لم يكن يتوهم الاوهام عن اهمية عمله ، اما مستقبله الشخصي فلم يكن ليبالي بــه . ورتّب مع الاستاذ تريفو مهمة مرسيبه المختلقة ، وفي اليوم الذي دخل فيـــه الى مكتب قاضي التحقيق لم يكن يشعر بأي انقباض في قلبه تقريباً . كان ذلك المكتب ، الشبيه بآلاف المكاتب الاخرى ، يبدو اقــل واقعية من ديكور مسرحي . ولم يكن القاضي وكاتبه الا ممثلين لمأساة مجردة : كانا يمثلان دورهمــا ، وهنري يمثل دوره . ولم تكن كلمة الحقيقة تعني شيئاً هنا .

وشرح بصوت هادىء :

– بديهي ، ان العميل المزدوج مضطر الى تقديم ضمانات الى العدو . انت تعرف ذلك مثلما اعرفه . لم يكن مرسيبه يستطيع ان يساعدنا دون ان يورط نفسه . لكن المعلومات التي كان يقدمها الى الالمان ، كنا نقررها دوماً معاً . ولم يحدث اي تسرب قط لنشاط حقيقي للشبكة . وإذا كنت هنا اليوم ، وإذا كان العديد من الرفاق قد افلتا من الموت ، وإذا كانت « الامل » قد استطاعت ان تعيش سراً ، فإنما ذلك بفضله .

كان يتكلم بحرارة يشعر انها مقنعة . وكانت ابتسامة مرسيبه تدعم كلماته . كان فتى جميلاً جداً ، في حوالي الثلاثين ، متواضع الهيئة ، جذاب الوجه بالأحرى . وكان هنري يفكر : « ومع ذلك ، فربما هو الذي وشى ببوريل او فوشوا . ولقد سلم آخرين : بدون حب ، بدون حقد ، من اجل المال . ولقد قتلوا ، او انتحروا ، وهو لا يزال يعيش مكرماً ، غنياً ، سعيداً » . لكنه كان بعيداً جداً بين هذه الجدران الأربعة عن العالم الذي يحيا فيه البشر ويموتون ، ولهذا لم يكن لذلك كبير أهمية .

وقال القاضي :

– من الصعب دوماً ان نقرر متى ينقلب العميل المزدوج الى خائن . وما نجهله هو ان مرسيبه قد تخطى هذا الحد ، مع الأسف .

وأشار الى الحاجب ، فتصلب هنري . كان يعلم ان ايفون وليزا قد قضتا اثني عشر شهراً في « داشو » ، لكنه لم يكن قد رآهما قط. أما الآن فهو يراهما. كانت السمراء ايفون ، وكانت تبدو انها شفيت . وكانت ليزا كستنائية الشعر ، وكانت لا تزال نحيلة شاحبة مثل شابة بعثت من قبرها ، وما كان الانتقام ليعيد اليها لونها . لكنهما كانتا كلتاهما حقيقيتين جداً ، وسيكون من الصعب عليه ان يكذب على مرأى منهما . وكانت ايفون هي التي رددت شهادتها ، ولم يترك نظرها وجه مرسيبه .

– في ٢٣ شباط ١٩٤٤ ، في الساعة الثانية بعد الظهر ، كنت على موعد على جسر « ألما » مع ليزا بولو ، الماثلة هنا . وفي اللحظة التي دنوت منها، تقدم ثلاثة

رجال نحونا ، المانيان ، وهذا الرجل الذي دلهما علينا . كان يرتدي معطفاً بنياً، بدون قبعة ، وكان حليقاً مثله اليوم .

فقال هنري بحزم :

– هناك خطأ بخصوص الشخص . ففي ٢٣ شباط في الساعة الثانية ، كان مرسييه معي في « لاسوتورين » . كنا قد وصلنا اليها معاً عشية اليوم السابق . وكان بعض الرفاق سينقلون الينا مخطط المخازن التي دكّها الاميركان بعد ثلاثة ايام ، وقضينا اليوم معهم .

فقالت ايفون :

– إلا انه هو بنفسه .

ونظرت الى ليزا التي قالت :

– انه هو .

فقال القاضي :

– أليس من الممكن ان تكون قد اخطأت في التاريخ ؟

فهز هنري برأسه : « لقد حدث القذف في ٢٦ . وقد نقلت التعليمات في ٢٤ وامضيت ٢٢ و ٢٣ هناك . ان مثل هذه التواريخ لا تنسى » .

فقال القاضي وهو يلتفت نحو المرأتين :

– ولقد اعتقلتما في ٢٣ شباط ؟

فقالت ليزا :

– أجل ، في ٢٣ شباط .

وكان الذهول مخيماً عليهما . وقال هنري .

– انكما لم تريا الواشي بكما الا لحظة ، وفي وقت كنتما فيه مضطربتين. لقد عملت انا سنتين مع مرسييه ، ولا مجال لأن اخلط بينه وبين شخص آخر . كل ما اعرفه عنه يجيبني بأنه ما كان ليسلّم مقاومتين قط . ليس هذا إلا رأياً . لكني احلف اغلظ الايمان بأنه كان معي في لاسوتورين ، في ٢٣ شباط ١٩٤٤ .

كان هنري ينظر بخطورة الى ايفون وليزا.وتبادلتا النظرات في قلق . كانتا

واثقتين من هوية مرسييه وثوقهما من صدق هنري ، وكان ثمــة رعب في أعينهما . وقالت ايفون :

– اذن ، لا بد انه كان أخاه التوأم .

فقال القاضي .

– ليس له أخ .

– كان شخصاً يشبهه وكأنه اخوه.

فقال هنري :

– كثير من الناس يتشابهون في مرور سنتين .

وساد صمت وسأل القاضي :

– أتصرّان على شكواكما ؟

فقالت ايفون :

– كلا .

وقالت ليزا :

– كلا .

لقد قبلتا ، كي لا تشكا في هنري ، ان تشكا في اوثق ذكرياتهما ، لكن مــع الماضي كان الحاضر يترنح حولهما ، بل الواقع ايضاً . واشمأز هنري من تلك الحيرة التائهة في أعماق أعينهم . وقال القاضي :

– هلا قرأت ثانية ووقعت ؟

واعاد هنري قراءة الصفحة المضروبة على الآلة الكاتبة . كانت شهادته ، التي ترجمت الى هذا الاسلوب اللاانساني ، قد فقدت وزنهــا ، فلم يحرجه التوقيع . لكنه تبع بعينيـــه في شك خروج المرأتين . كان يود لو يلحق بهمـا ، لكن لم يكن لديه ما يقوله لهما .

كان يوماً شبيهاً بسائر الأيام وما كان احد ليقرأ على وجهه انه قـــد حلف زوراً . وصادفه لامبير في المشى دون ان يبتسم له ، لكن ذلـك كان لأسباب اخرى مغايرة : كان جريحاً لأن هنري لم يقترح عليه بعد خلوة منفردة. « غداً،

سأدعوه للعشاء » . نعم ، الصداقة المسموح بها من جديد ، ولقد انتهت الاحتياطات والوساوس : لقد تمت الامور على احسن ما يرام ، حتى ان المرء ليفترض انه لم يحدث شي البتة . وقال هنري في نفسه وهو يجلس امام مكتبه : « لنفترض ذلك » . وتصفح بريده . رسالة ماردروس : لقد شفيت بول، ولكن من الافضل الا يحاول هنري رؤيتها ، رائع . اما بيير لوفيريه فيكتب انه مستعد لشراء حصة لامبير . لا بأس . فهو شريف ومتزمت ، والعمل ممكن معه وإن يكن غير قادر على اعادة الشباب الى « الأمل » . آه ! ثمة معلومات اضافية عن قضية مدغسقر . وقرأ هنري الصفحات المضروبة على الآلة الكاتبة . مئة الف مدغسقري ذبيح مقابل مئة وخمسين اوروبياً ، والارهاب يسود الجزيرة ، وقد اعتقل جميع النواب رغم انهم استنكروا التمرد ، وتعرضوا لتعذيب جدير بالغستابو ، وقد القيت قنبلة يدوية على محاميهم لمحاولة قتله ، والدعوى مزيفة سلفاً ، وليس ثمة من صحيفة لتكشف النقاب عن الفضيحة . واخرج قلم حبره . يجب ان يرسل احدهم الى هناك : ولم يكن فانسان ليطلب افضل من ذلك . وبانتظار ذلك ، سوف يخطط افتتاحيته . وكان قد كتب السطور الاولى ، حين فتحت سكرتيرته الباب : « هناك زائر » . وناولته بطاقة : الاستاذ تريفو . وشعر هنري بانقباض صغير في قلبه . لوسي بيلوم ، عرسيه ، الاستاذ تريفو : لقد حدث شيء ما ، وإن له الآن شركاء .

— ادخليه .

كان المحامي يمسك في يده بمحفظة جلدية كبيرة وقال : « لن ازعجك طويلاً » . واضاف بصوت راضٍ : « لقد كان لشهادتك وقعها . إن اطلاق سراحه مؤكد . وانني لسعيد جداً بذلك . ان الاخطاء التي امكن لهذا الشاب ان يرتكبها ، لن يكفر عنها في السجن . لقد اتحت له امكانية ان ينقلب الى رجل جديد » .

فقال هنري :

— ويرتكب دناءات جديدة ! لكن ليست هذه هي المسألة . كل ما آمله

هو ألا اسمع عنه ثانية .

فقال الاستاذ تريفو :

– لقد نصحته بالرحيل الى الهند الصينية .

فقال هنري :

– فكرة ممتازة . ليقتل من الهنود الصينيين عدد مـــا قتله من الفرنسيين ، وسوف يصبح بطلاً مشهوراً . وبانتظار ذلك ، هل اعاد السجل ؟

– طبعاً . » واخرج من محفظتـه رزمة كبيرة مغلفة بورق بني : « لقـــد حرصت على ان اسلمك اياه شخصياً . »

فأخذ هنري الرزمة وقال بتردد : « لمـاذا لي ؟ كان يجب إعادته الى السيد بيلوم » .

فقال الاستاذ تريفو :

– ستفعل به ما تشاء . لقد التزم موكلي بتسليمك إياه .

فرمى هنري بالرزمة في الدرج . كان للوسي على المحـامي منّات غامضه : هذا لا يعني انه يحملها في قلبه . ربما كان يداعبه أمل بالانتقـام : « أأنت واثق ان فيه كل شيء ؟ » .

فقال الاستاذ تريفو :

– يقيناً . لقد فهم ذلك الشاب جيداً ان اي استياء من طرفك قـد يكلفه غالياً . لن نسمع عنه ثانية ، انا مقتنع بذلك .

فقال هنري :

– شكراً على تـكلفك المشاق .

فلم ينهض المحامي : « ألا تعتقد ان علينا ان نخشى من تكذيب ؟ » .

فقال هنري :

– لا أعتقد . وعلى كل ، لم تحدث اي ضجة حول هذه القصة .

– كلا ، لحسن الحظ ، لقد اوقفت بسرعة .

وساد صمت لم يحاول هنري ان يقطعه ، وازمع الأستاذ تريفو على الانصراف

اخيراً : « حسناً ! انني سأتركك لعملك . آمل كثيراً ان نلتقي ثانية يوماً ما ، عند السيدة بيلوم » .

فقال هنري بجفاء :

— شكراً .

وما ان خرج المحامي ، حتى فتح هنري الدرج : وتجمدت يـده على الورق الأسمر . يجب ان يلمس شيئاً . يجب ان يحمل الرزمة الى غرفته ، ويحرقها دون ان يلقي عليها نظرة واحدة . لكنه كان أخذ بنزع الخيطان ، ونثر على الطاولة الوثائق : رسائل بالالمانية ، بالفرنسية ، تقارير ، شهادات . وصور : لوسي بين ألمان في بزاتهم العسكرية ، مرتدية ثوباً عاري الكتفين ، مترصعـة بالجواهر . وجوزيت جالسة بين ضابطين امام دلو شمبانيا ، وهي تضحك ملء فمهـا . وفي صورة اخرى كانت تعانق الضابط الجميل وتبتسم له تلك الابتسامـــة الواثقة السعيدة التي زرعت الاضطراب في نفس هنري مراراً عديـــدة ، مرتدية ثوباً كاشفاً وسط حديقة معشوشبة. وكان شعرها يتهدل بحرية على كتفيها ، وكانت تبدو اصغر منها اليوم ، واكثر مرحاً بما لا يقاس ! ولكم كانت تضحك ! وتبين هنري ، حين وضع الصور على الطاولة ، ان اصابعه قد تركت على السطح اللامع آثاراً ندية . كان يعرف دومـا ان جوزيت كانت تضحك في حين أن آلافاً من أمثال ليزا وايفون كن يحتضرن في المعسكرات . لكنها كانت قصة قديمـــة ، مخيفة جيداً وراء الستار المناسب الذي يخلط بين الماضي ، والغياب والعدم . أما الآن فهو يرى . لقد كان الماضي حاضراً : انه حاضر .

« حبي العزيز » . كان الضابط يكتب بفرنسية مدروسة ، معترضـة بجمل المانية صغيرة ؛ جمل صغيرة عاطفية . يبدو انه كان أحمق جداً ، عاشقاً جداً ، وحزيناً جداً . كانت قد أحبته ، ولقد مات ، ولا بد انهـــا بكت كثيراً . لكنها ضحكت ايضاً ، بالطبع . لكم ضحكت !

وحزم هنري الرزمة من جديد والقاهـــا في درج اغلقه بالمفتاح . « غـداً سأحرقها » . اما الآن ، فعليه ان ينهي مقاله . وتناول قلمه من جديد . سوف

يتكلم عن العدالة ، عن الحقيقة ، ويحتج ضد الجرائم والتعذيب . وقال في نفسه بقوة : « يجب ذلك » . وإذا استنكف عن فعل ما عليه ان يفعله ، فسوف يتضاعف ذنبه . ومهما ظن بنفسه ، فهنـاك اولئك البشر ، بعيداً ، الذين عليه ان يحاول انقاذهم .

واشتغل حتى الساعة الحادية عشرة مساء ، دون ان يأخذ وقته للعشاء . بل انه لم يكن جائعاً . وكما في كل مساء ، ذهب ليصحب جوزيت عند خروجها من المسرح ، وانتظرها في سيارته . كانت ترتدي معطفاً رمادياً ، بلون الضباب ، وكان ماكياجها كثير التكلف ، وكانت جميلة جداً . وجلست الى جانبـــه ، ووضعت حولها بعناية الغيمة التي كانت تدثرها . وسألت :

ــ ماما تقول ان كل شيء تم على ما يرام : هذا صحيح ؟

فقال :

ــ نعم ، كوني مطمئنة ، لقد احرقت جميع الاوراق .

ــ هذا صحيح ؟

ــ صحيح .

ــ ولن يشكوا في انك كذبت ؟

ــ لا اظن .

فقالت جوزيت :

ــ ما أشد ما كان خوفي طوال اليوم ! انني أكاد انهار . عد بي الى شقتي .

ــ طيب .

وجرت بهما السيارة في صمت نحو شارع غابرييل . ووضعت جوزيت يدها على خصرها : « أأنت الذي احرق الاوراق ؟ » .

ــ نعم .

ــ أنظرت اليها ؟

ــ نعم .

فقالت بصوت قلق :

– ماذا كان فيها على الضبط ؟ يقيناً ليس فيهـا صور شنيعة لي . لم تؤخذ لي صور شنيعة قط .

فقال في نصف ابتسامة :

– لا اعرف ما تدعينه صوراً شنيعة . كنت مع الضابط الالمـــاني وكنت جميلة جداً .

فلم تجب بشيء . كانت هي هي ، جوزيت . ولكنه كان يرى من خلالهـــا الفتاة الجميلة المرحة جداً التي كانت تضحك في صورة ، لامبالية بجميع المصائب. ومن الآن فصاعداً ، ستكون ابداً بينهما .

وأوقف السيارة وتبع جوزيت حتى باب البناية وقـال : « لن اصعد . انا ايضاً متعب ولدي أشياء كثيرة يجب ان انجزها » .

ففتحت عينين كبيرتين مذعورتين : « ألا تصعد ؟ » .

– كلا .

فقالت :

– انت غاضب ؟ في اليوم السابق قلت لا ، لكنك الآن غاضب ؟

– لست غاضباً . لقد احبك ذلك الشخص واحببته ، ولقد كنت حرة . »

وهز كتفيه : « لعلها الغيرة : لست راغباً في الصعود هذا المساء » .

فقالت جوزيت :

– كما تشاء .

وابتسمت له بحزن وضغطت على الزر . وحين اختفت ، لبث مليـاً ينظر الى كوة الباب المضاءة . نعم ربما كانت الغيرة ، لا اكثر: كان من المستحيل عليه هذا المساء ان يأخذها بين ذراعيه . وقال : « انني لست عادلاً » . لكن العدالة لم يكن لها دخل هنا ، والمرء لا ينام مع امرأة بداعي العدالة . وابتعد .

احتفظ لامبير بوجه المقطب ، حين دعاه هنري في اليوم التالي للعشاء وقال: « آسف ، عندي موعد » .

ـ وغداً ؟
ـ غداً أيضاً . عندي مواعيد طوال هذا الاسبوع .
فقال هنري :
ـ اذن ، لنؤجلها الى الاسبوع القادم .
من المستحيل ان يشرح للامبير لمَ لم يدعُـه قبل هذا الوقت . لكن هنري قرر بعد بضعة ايام ان يكرر الدعوة : وسوف يتأثر لامبير حتماً بهذا الالحاح .
كان يرتقي درج الجريدة وهو يقلب في فمـه خطبة قصيرة مقنعة حين صادف سيزوناك ، فقال بمودة :
ـ آه ! انت ! إلامَ صرت إليه ؟
فقال سيزوناك :
ـ لا شيء خاصاً .
كان قد ازداد بدانة ، وكان أقل جمالاً بكثير مما كان عليه . وقال هنري :
ـ ألا تصعد من جديد دقيقة واحدة ؟ منذ قرون لم نتقابل .
فقال سيزوناك :
ـ ليس اليوم .
وفجأة ، هبط الدرج . وارتقى هنري الدرجات الاخيرة . كان لامبير ، في الرواق ، مستنداً الى الحائط كأنه ينتظره . فقال هنري :
ـ لقد صادفت سيزوناك . هل رأيته ؟
ـ نعم .
فسأله هنري وهو يدفع باب مكتبه :
ـ أتراه احياناً ؟ إلامَ صار إليه ؟
فقال لامبير بصوت غريب :
ـ اعتقد انه جاسوس للبوليس .
فنظر إليه هنري في دهشة : كان ثمة بخار يتصاعد من جبهته .
ـ ما الذي يدفعك الى هذا الاعتقاد ؟

– اشياء قالها لي .

فقال هنري :

– مدمن مخدرات بحاجة الى مال : بديهي أنه من النوع الذي يمكن ان يشترى كجاسوس . » واضاف في فضول : « ما روى لك ؟ » .

فقال لامبير :

– لقد اقترح عليّ شركة عجيبة . فقد وعدني بأن يسلمني الانذال الذين قتلوا ابي مقابل بعض المعلومات .

– اي معلومات ؟

فنظر لامبير الى هنري في عينيه : « معلومات عنك » .

وأحس هنري بتشنج في جوف معدته وقال بصوت مدهوش :

– ماذا يمكن للبوليس ان يهمه مني ؟

– انها تهم سيزوناك . » لم تكن نظرة لامبير لتترك هنري : « يبدو انك شهدت قبل أيام في صالح شخص يدعى مرسييه ، شخص كان يعمل في السوق السوداء في ناحية ليون ويتردد على آل بيلوم . لقد زعمت انه كان يعمل في ١٩٤٣–١٩٤٤ في شبكتنا ، وانه رافقك الى لاسوتورين في ٢٣ شباط ١٩٤٤ » .

فقال هنري :

– هذا صحيح . ثم ؟

فقال لامبير بصوت منتصر :

– انك لم تلتق قط بمرسييه قبل الشهر الاخير هذا . سيزوناك يعرف ذلك ، وانا ايضاً . كنت اتبعك كظلك ، في تلك السنة : لم يكن هناك وجود لمرسييه . ولقد تم سفرك الى لاسوتورين في ٢٩ شباط ، وكان من المقرر ان ارافقك ولكن الموعد فاتني ، فاصطحبت شاسيل .

فقال هنري :

– انك لمخلوع تماماً ! » كان يشعر باستنكار شديد كما لو ان لامبير قد شك فيه ظلماً : « لقد قمت برحلتين الى لاسوتورين ، الاولى مع مرسييه الذي لم يكن

يعرفه احد غيري » وأضاف بصوت غاضب : « انت لا تستحق ان اجاوبك : لأنك ، بمجمل القول ، تتهمني بشهادة زور ، ليس الا ذاك ! » .

فقال لامبير :

— في ٢٣ كنت في باريس ، كل شيء مسجل في مذكراتي ، سوف التحقق ، لكني اعرف انك لم تقم الا برحلة واحدة ، لقد تناقشنا في ذلك بما فيه الكفاية. لا ، لا ترو لي قصصاً . الحقيقة هي ان مرسييه مسيطر على آل بيلوم بطريقة او اخرى ، ولكي تنقذ تينك الموصومتين ، بيّضت صفحة جاسوس للجستابو !

فقال هنري :

— لو قالها غيرك ، لحطمت فكه ! اخرج من هذا المكتب حالاً ، ولا تضع قدميك فيه ثانية .

فقال لامبير :

— انتظر ! لدي كلمة اخرى اريد ان اقولها لك . انني لم أتخلَ عن شيء لسيزوناك : الا انني اقسم لك انني كنت ارغب في ان يتكلم . » وتابع : « انني لم اتخلّ له عن شيء. ولهذا اشعر الآن انني بريء الذمة . انني أستعيد حريتي!».

فقال هنري :

— منذ زمن طويل وانت تنتظر ذريعة ! وقد انتهى بك الأمر الى اختراع واحدة : اهنئك !

فقال لامبير :

— لم اخترع شيئاً ! » واضاف : « يا إلهي ! لكم كنت حماراً ! كنت اظنك شريفاً ، منزهاً ، الى حد لا يقاس ! كان ذلك يخجلني ! كنت أتخيل أن عليّ ان اكون مخلصاً تجاهك . أتتكلم عن الاخلاص ! انت تحكم على جميع الناس : لكن هذه الطريقة كغيرها لا تخنق الوساوس » .

ومضى نحو الباب في كبرياء عظيمة حتى ان هنري رغب تقريباً في الابتسام. كان غضبه قد تبخر . ولم يعد يشعر الا بقلق مبهم. أيتفاهم معه بصراحة؟ كلا، فلامبير عـــديم الاستقرار ، سريع التأثر . لقد رفض اليوم ان يزود سيزوناك

بمعلومات ، لكن اعترافاً ما يمكن ان يصبح بين يديه او يدي فولانج خطيراً في الغد . عليه ان ينكر : فالخطر كبير بما فيه الكفايـة على هذا النحو . وفكر هنري : « ان سيزوناك يبحث عن أدلة ضدي ، انه يعلم انه يستطيـع بيعهـا غالياً » . لم يكن دوبروي قد سمع عن مرسييه قط ، وربما كان يذكر ان هنري كان في باريس في ٢٣ شباط ١٩٤٤ . واذا اخذه سيزوناك على حين غرة ، فانه لن يرى أي داعٍ لتحريف الحقيقة . « يجب ان اخطره » . لكن هنري كان ينفر من ان يطلب منه تواطؤاً قبل ان يحاول على الأقل ان يتصالح معه . وعلى كل ، انه لا يستطيع ان يفكر بالاعتراف له بالحقيقة . كان ذلك غريباً ، وكان يقول في نفسه : « اذا كان لا بد ان اعاود ، فسوف اعاود » . ومع ذلـك ، لم يكن ليتحمل ان يطلع غيره على ما فعل ، اذ سيشعر آنذاك بالخجل . ولـن يشعر ابداً انه معذور مـا دام أمره لم يُكتشف : الى متى ؟ وكرر في نفسه : « انني في خطر » . وكان غيره في خطر : فانسان . حتى لو لم تكن عصابته هي التي نفذت الموت بالشيخ ، فان سيزوناك يعرف الكثير عنه . يجب ان يخطره . وكان يجب ان يذهب فوراً لرؤية لوك الذي كان في بيته يشكو من نوبة نقرس ، ويحرر معه رسالة استقالة . كان لوك ينتظر أزمة منذ زمن طويل ، ولن يذهل كثيراً دون ريب . ونهض هنري وفكر : « لن اجلس بعد اليوم الى هـذه الطاولة . لقد انتهى الأمر ، ان « الأمل » لم تعد لي ! » . كان آسفاً على تخليه عن الحملة التي بدأها عن احداث مدغسقر : لا شك في ان الآخرين سيغرقون السمكة . لكنه ، باستثناء ذلك ، كان أقل تأثراً مما كان يظن . وقال في نفسه في ابهام ، وهو يهبط الدرج : « انهـا الدية » . دية ماذا ؟ كونـه نام مـع جوزيت ؟ كونه أراد انقاذها ؟ كونه زعم انه يحتفظ بحياته الخاصة في حـين ان العمل يتطلب الانسان كله ؟ كونه عاند في العمل في حين انه لم يقف عليـه نفسه بدون تحفظ ؟ لم يكن يعرف . وحتى لو عرف ، فان ذلك ما كان ليغـير من الحال شيئاً .

أوصى هنري بواب الفندق في الليلة التي طبعت فيها الطابعة رسالة استقالته: « غداً ، لست هنا بالنسبة لأي انسان ، لا اقبل لا زيارات ولا مكالمات هاتفية » ودفع بدون مرح باب غرفته : لم يكن قد نام ثانية مع جـوزيت ، ولم يكن يبدو عليها انها اهتمت لذلك كثيراً ، وكان ذلك حسناً جداً . لكن هذا لا يمنع ان هذا السرير الذي ينام عليه هنري بمفرده كان يبـدو له صارماً مثل سرير في مستشفى . ما اطيب ان يمزج وسنه بوسن جسد آخر كله دفء ، كله ثقة : انه ليستيقظ مغتذياً . اما الآن فهو يشعر بالفراغ في نفسه عند اليقظة . ووجد مشقة في النوم . كان متعباً سلفاً من كل التعليقات التي ستثيرها استقالته .

واستيقظ في ساعة متأخرة . كان قد انهى تسريح شعره حين حملت اليـه بطاقة هوائية : ووجب قلبه حين تعرف خـط دوبروي . « لقد قرأت رسالة وداعك « الأمل » . حقاً ، إنه لمن العبث ألا يدل موقفنا الا على خلافـاتنا في حين ان الكثير من الاشياء تقرّب بيننا . أما بخصوصي ، فإنني صديقك دوماً». وكانت هناك ملاحظة : « اود ان اكلمك في اقرب فرصة ممكنـة بخصوص شخص يريد بك شراً » ولبثت عينا هنري ، طويـلاً ، شاخصتين الى السطور الزرق – السود . كان قد فكر بأن يكتب : ولكن دوبروي هو الذي فعـل ذلك . كان بإمكانه ان يتهم كرمه بأنه كبرياء . ولكن هذا معناه عندئذ ان الكبرياء عنده فضيلة كريمة . وقال هنري في نفسه : « سأذهب اليـه فوراً » . وخيل اليه أنه قد أُطلق في صدره جيش من النمل الأحمر . ماذا قال سيزوناك ؟ اذا كان قد ولـّد لدى دوبروي شكوكاً ، فكيف يكذب بكل تلـك الحماسة ليبددها ؟ لم يكن اوان الكذب قد فات بدون ريب مـا دام دوبروي يعرض عليه صداقته ، لكن من الفظاعة ان يرد على مثل هذا العرض باستغـلال للثقة . ولكن ماذا يفعل غير ذلك ! حتى دوبروي سيبدي استنكاره اذا اعترف له ، وسيشعر هنري عندئذ انه على خطأ . وركب سيارته . ولأول مرة ، كان يثقل عليه ان يكون لديه سر : فهذا يقتضي ان تخدع الغير او تخـون نفسك ، ولا تعود الصداقة ممكنة . وتردد ملياً امـام باب دوبروي دون ان يزمع على قرع

الجرس .

وفتحه له دوبروي باسماً ، وقال بلهجة طبيعية ومهتمة ، وكان لديهما اشياء هامة يبحثانها بعد غياب وجيز :

– لكم انا مسرور برؤيتك !

فقال هنري :

– انما انا المسرور . عندما استلمت كلمتك ، سرني ذلك كثيراً . »

ودخلا الى المكتب واضاف : « لقد فكرت غالباً بالكتابة اليك » .

فقاطعه دوبروي ، وسأل : « ماذا حدث ؟ أتخلى عنك لامبير ! » .

كان الفضول القديم يلمع في عينيه ، عينيه الكاسرتين والذكيتين اللتين لم تتغيرا . وقال هنري :

– منذ اشهر وسامازيل وتراريو يريدان ان ينتقلا الى معسكر الديغولية . وقد سار معهما لامبير اخيراً .

فقال دوبروي :

– يا للنذل الصغير !

فقال هنري بحرج :

– إن له اعذاره .

وجلس على المقعد المعتاد واشعل كالعادة سيجارة . عليه ان يحتفظ بأعذار لامبير الحقيقية سرية . لم يكن دوبروي قد تغير ، ولا المكتب ولا الطقوس ، لكنه هو لم يعد كما كان. فقد كان من الممكن في الماضي ان يسلخ جلده ، وتشرح جثته ، دونما دهشة : اما الآن فهو يخفي تحت جلده ورماً معيباً . وقال بسرعة :

– لقد تخاصمنا وتركت صبره ينفذ .

فقال دوبروي :

– كان لا بد ان ينتهي الأمر هكذا ! » واخذ يضحك : « حسناً . لقد تم الأمر . فقد مات « الاشتراكي الثوري الحر » ، وسرقت منك جريدتك : وها

نحن قد عدنا الى نقطة الصفر » .

فقال هنري :

– انها غلطتي .

فقال دوبروي بجدة :

– انها ليست غلطة احد . » وفتح خزانة : « لدي آرمانياك حسن جداً ، أتريد منه ؟ » .

– بسرور .

وملأ دوبروي كأسين صغيرتين وناول هنري احداهما . وتبادلا الابتسام ، وسأل هنري :

– ألا تزال آن في أميركا ؟

– ستعود بعد اسبوعين . » واضاف دوبروي بمرح : « لكم ستسر . كانت ترى ان خصامنا احمق !

فقال هنري :

– حقاً انه لكذلك .

كان يود لو يتكلم ، فقد كان يبدو له ان هذا الخصام لن يصفّى حقاً إلا إذا بحثاه بقلب مفتوح . وكان على أتم استعداد للأعتراف بأخطائه . ولكن دوبروي حوّل الحديث من جديد :

– قيل لي ان بول شُفيت . أهذا صحيح ؟

– على ما يبدو . انها لم تعد تود ان تراني وهـذا يسرني . سوف تقيم لدى كلودي دي بلزونس .

فقال دوبروي :

– مجمل القول ، انك حر كالهواء ! ما تنوي ان تفعل ؟

– سأنهي روايتي . اما الباقي ، فلا اعرف . لقد تم كل ما حدث في سرعة كبيرة ، انني لا أزال مدوخاً .

– ألا يلذ لك التفكير بأنه سيتاح لك اخيراً وقت حر ؟

فهز هنري كتفيه : « ليس بشكل خاص . سيأتي ذلك دون شك . امـا الآن ، فلست املك إلا تأنيبات الضمير » .

فقال دوبروي :

– انني لأتساءل حقاً لماذا !

فقال هنري :

– مهما قلت ، فإنني المسؤول عن كل مـا حصل . لو لم اعانه ، لاشتريتَ حصة لامبير ، ولكانت « الأمل » ولكان « الاشتراكي الثوري الحر » حياً .

فقال دوبروي :

– كان « الاشتراكي الثوري الحر » هـالكاً على كل الأحوال . « الأمل » ، اجل ، ربما كان امكننا ان ننقذها : ثم ماذا ؟ ان نقـاوم كلا المعسكرين ، ان نبقى مستقلين ، هذا ما حاولته ايضاً في « الطواريء » : لكنني لا ارى مـا يفيد ذلك .

فتفرس هنري في وجه دوبروي بحيرة . هـل يحاول تبرئة هنري بداعي المجاملة ؟ ام انه يريد ان يتجنب ان تناقش تصرفاته الخاصة ؟ وقال هنري :

– أتعتقد ان « الاشتراكي الثوري الحر » لم تعد له فرصة منذ تشرين الاول؟

فقال دوبروي بصوت عنيف :

– اعتقد انه لم تكن له اي فرص قط .

كلا ، انه لا يتكلم هكـذا بداعي المجامـلة : كان مقتنعاً واحس هنري بالارتباك. كان يود كثيراً لو يشعر انه ليس مسؤولاً بشيء عن فشل « الاشتراكي الثوري الحر » ، ومع ذلك فقد أحرجه تصريح دوبروي هذا . كان دوبروي يلاحظ ، في كتابه ، عجز المثقفين الفرنسيين . لكن هنري لم يفترض انه يعطي استنتاجاته مدى خلفياً . وسأل :

– منذ متى تعتقد ذلك ؟

– منذ زمن بعيد . » وهز دوبروي كتفيه : « منذ البداية كانت المبـاراة قائمة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . وقد كنا خارج اللعبة » .

فقال هنري :

ـ الا ان ما كنت تقوله لم يكن يبدو لي خاطئاً الى هذا الحد . كان لأوروبا دور تلعبه ولفرنسا دور في اوروبا .

ـ كان ذلك خاطئاً . كنـــا محاصرين . » واضاف دوبروي بصوت نافد الصبر : » اخيراً ، افهم ذلك ، اي وزن كان لنا ؟ لا شيء البتة » .

نهائياً ، انه لا يزال هو هو . انه يرغمك بدون رحمـة على اتباعه ثم يتركك فجأة لينقضّ في اتجاه جديد . غالباً ما قال هنري في نفسه : « نحن لا نستطيع شيئاً » . لكن كان يحرجه ان يؤكد دوبروي ذلك بهذا القدر من القوة . وقال : « لقد عرفنا دوماً اننا لسنا إلا أقلية . لكنك كنت تقرّ بأن الأقلية يمكن ان تكون فعّالة » .

فقال دوبروي : « في بعض الحالات ، وليس في هـــذه الحالة » . واخـذ يتكلم بسرعة كبيرة ، من الواضح ان قلبه مثقل منذ زمن بعيد : « المقاومـة ، رائع ، كانت تكفيها قبضة من الرجال . فكل ما كنا نريده ، في النهايـة ، هو ان نزرع الاضطراب . اضطراب ، تخريب ، مقاومة ، انها مسألة تستطيعهـــا أقلية . لقد اعتقدنا انه ليس علينا الا ان نستفيد من اندفاعنا : مع انه كانت هناك قطيعة جذرية بين فترة الاحتلال ، والفترة التي تلت التحرير . كان رفض التعاون يتعلق بنا ، اما البقية فلم تكن تخصنا » .

فقال هنري :

ـ هذا يخصنا على كل حـــال قليلاً . » كان يفهم جيداً لمَ يزعم دوبروي العكس . فهو لا يريد ان يفكر بأنه كانت له امكانيات للعمل فأساء استغلالها : كان يفضل ان يتهم نفسه بخطـأ في الحكم على ان يعترف بفشل . لكن هنري ظل مقتنعاً أن المستقبل كان لا يزال مفتوحاً في عـام ١٩٤٥ : وهو لم يعمل في السياسة للذته الخاصة . فقد شعر بالبداهة بأن ما كان يجري حوله يخصه . وقال : « لقد أخطأنا ضربتنا ، وهذا لا يثبت اننا كنا على خطأ بمحاولتها » .

فقال دوبروي :

– اوه ! اننا لم نسبب سوءاً لأحد ، والأفضل ان نهتم بالسياسة من ان نسكر ، فهذا على الأقل أنسب للصحة . الا ان هذا لا يمنع انه قد ُغرر بنا تغريراً جميلاً ! حين نعاود قراءة ما كنا نكتبه بين ١٩٤٤ – ١٩٤٥ ، تأخذنا الرغبة في الضحك . جرّب ذلك ، ترَ !

فقال هنري :

– افترض اننا كنا متفائلين أكثر مما ينبغي . هذا مفهوم ...

فقال دوبروي :

– انني امنح لأنفسنا الظروف المخففة التي تريدها كافة ! نجاح المقاومة ، فرح التحرير ، هذا يعذرنا اوسع معذرة . كان الصواب ينتصر ، والمستقبل موعوداً للرجال ذوي الإرادة الطيبة . ولم نكن ، بمثاليتنا العتيقة ، لنطلب غير الايمان بذلك . » وهز كتفيه : « لقد كنا اطفالاً » .

فسكت هنري . كان حريصاً على هذا الماضي : كما يحرص المرء ، بالضبط ، على ذكريات الطفولة . أجل ، ان ذلك الزمن الذي يميز فيه المرء دون تردد اصدقاءه من اعدائه ، والخير من الشر ، ذلك الزمن الذي تكون فيه الحياة بسيطة بساطة الصور ، ليشبه حقاً الطفولة . وكان نفوره بالذات من انكار ذلك يعطي دوبروي الحق . وسأل :

– برأيك ، ماذا كان علينا ان نفعل ؟ » وابتسم : « ان نتسجل في الحزب الشيوعي ؟ » .

فقال دوبروي :

– كلا . كما قالت لي ذات يوم ، اننا لا نستطيع ان نمنع أنفسنا ان نفكر فيه : من المستحيل ان نخرج من جلدنا . ولو انتسبنا الى الحزب ، لكنا شيوعيين رديئين جداً . » واضاف على حين غرة : وبالأصل ، ماذا يفعلون ؟ لا شيء البتة . كانوا محاصرين هم ايضاً » .

– اذن ؟

– إذن لا شيء . لم يكن هناك شيء يفعل .

وملأ هنري كأسه من جديـد . ربما كان دوبروي على حق ، لكنها إذن الهزلة . ورأى هنري من جديد ذلك النهـار الربيعي الذي كان يتأمل فيه بجنين الصيادين بالصنارة ، وكان يقول لنـادين : « ليس لدي الوقت » . لم يكن لديه وقت قط : اشياء كثيرة دوماً عليه ان يفعلها . وفي الحقيقة لم يكن هناك مـا يفعل .

– خسارة الا نكون قد تبيّنا ذلك قبل الآن . كنا تجنبنا ازعاجات كثيرة .

فقال دوبروي :

– لم يكن بامكاننا ان نتبين ذلك في وقت ابكر ! ان نقبل بأننا ننتمي الى امة من الدرجة الخامسة ، والى عصر بالٍ : ان هذا لا يتم في يوم واحد . » وهز برأسه : « لا بد من جهد جهيد للاستسلام للعجز » .

ونظر هنري الى دوبروي في إعجاب . يا للشعوذة الجميلة ! لم يحدث ثمـة من فشل ، بل مجرد خطأ . وحتى الخطأ نفسه كان مبرراً ، وبالتالي لاغياً . كان الماضي واضحاً مثل عظمـــة سبيدج ، وكان دوبروي ضحيـــة مطلقة للقدر التاريخي . أجل : حسناً ! لم يكن هنري يجد ذلك مرضياً البتة . لم يكن يحب ان يفكر بأنه غُرِّر به من أول هذه القضية الى آخرها . لكم ثارت في ضميره من مماحكات ، وشكوك ، وتحمسات ، في حين ان دوبروي يعتقد ان كل شيء كان معداً سلفاً . كان يتساءل غالباً من هو . وها هو الجواب يأتيه : كان مثقفـاً فرنسياً اسكره نصر ١٩٤٤ وقادتـه الاحداث الوعي الصاحي للاجدواه . وقال :

– ها أنت قد اصبحت قدرياً !

– كلا . انني لا اقول ان العمل بشكل عام مستحيل . انـه مستحيل في اللحظة الراهنة ، بالنسبة لنا .

فقال هنري :

– لقد قرأت كتابك . مجمل القول ، انك تعتقد اننا لا نستطيع ان نفعل شيئاً الا اذا مشينا بصراحة مع الشيوعيين .

- أجل . ليس ذلك لأن وضعهم يحسدون عليه ، بل لأنه لا يوجد في الواقع شيء خارجهم .

- ومع ذلك انت لا تمشي معهم ؟

فقال دوبروي :

- انني لا استطيع ان اعيد تكوين نفسي . ان ثورتهم بعيدة اكثر من اللازم عن الثورة التي كنت آملها في الماضي . كنت مخطئاً ، ولا يكفي لسوء الحظ ان يتبين المرء اخطاءه لينقلب فجأة الى شخص آخر . انت شاب ، وربما كنت قادراً على القفز : ليس انا .

فقال هنري :

- اوه ! منذ زمن بعيد لم تعد بي رغبة ، انا ، في ان أتدخل بشيء . انني اود ان انسحب إلى الريف ، او بل ان اغادر البلاد الى الخارج ، واكتب . » وابتسم : « برأيك ، ألم يعد لنا الحق حتى في الكتابة ؟ » .

فابتسم دوبروي بدوره : « ربما بالغت قليلاً . فالأدب ، بعد كل شيء ، ليس خطراً الى هذا الحد » .

- لكنك ترى انه لم يعد له معنى ؟

فسأل دوبروي :

- أترى ان له معنى ؟

- نعم ، ما دمت اتابع الكتابة .

- ليس هذا بسبب .

فنظر هنري الى دوبروي في شك : « أما زلت تكتب ام لم تعد تكتب؟» .

فقال دوبروي :

- ان المرء لا يشفى من هوسه اذا اثبت انه ليس له معنى . ولولا ذلك لكانت مصحات الامراض العقلية خاوية .

فقال هنري :

- آه ! طيب . انك لم تتوصل الى اقناع نفسك : انني افضل هذا .

فقال دوبروي في ظاهر من خبث :

ــ ربما توصلت الى ذلك ذات يوم . .» وحوّل الموضوع عن عمد : «قل اذن، كنت اريد ان احذرك : لقد تلقيت زيارة غريبة امس . الصغير سيزوناك . لا ادري ما فعلت له ، لكنه لا يريد بك خيراً » .

فقال هنري :

ــ لقد طردته من « الأمل » منذ زمن بعيد .

فقال دوبروي :

ــ لقد بدأ بطرح مجموعة من الاسئلة علي لا ذنب لها ولا رأس : هل اعرف شخصاً يدعى مرسييه ، هل كنتَ في باريس في احد ايام ١٩٤٤ ، لست ادري. وانا اولاً لا أتذكر ثم ما يعنيه هذا ؟ وصرفته في شبه جفاء ، وعندئذ اخذ يخترع قصة تنم الواقف .

ــ عني ؟

ــ اجل . انه مولع بالكذب ، ذاك الغلام الصغير .يمكنه ان يكون خطراً. لقد روى انك أدليت بشهادة زور لتبيض صفحة جاسوس للجستابو . وأنك طاوعتهم ، عن طريق الصغيرة بيلوم. يجب منعه من اشاعة امثال هذه القصص.

وفهم هنري ، وقد سكن روعه ، من لهجة دوبروي انه لم يفترض لحظة واحدة ان سيزوناك قال الحقيقة . ويكفي الآن ان يلقي بعبارة لامبالية ، ويسوى الحادث . لكنه لم يكن يجد العبارة . ونظر اليه دوبروي في شيء من الفضول :

ــ أكنت تعرف انه يكرهك الى هذا الحد ؟

فقال هنري :

ــ انه لا يكرهني بشكل خاص . » واضاف على حين غرة : « الواقع ان قصته صحيحة » .

فقال دوبروي :

ــ آه ! أهي صحيحة ؟

فقال هنري :

– اجل . » لقد شعر فجأة بالمذلة من فكرة الكذب . فبعد كل شيء ، ما دام يتدبر أمره مع الحقيقة ، فليس على الآخرين ان يمثلوا دور المشمئزين : إن ما هو بصالحه لهو بصالحهم ايضاً . وتابع في شيء من التحدي : « لقد ادليت بشهادة زور لأنقذ جوزيت التي نامت مع ألماني » . واضاف : « انت الذي غالباً ما وبخني على اخلاقيتي ، انك لترى انني اتقدم » .

فسأل دوبروي :

– إذن ، صحيح ان مرسييه كان جاسوساً ؟

فقال هنري :

– صحيح . كان يستحق كل الاستحقاق ان يُعدم . » ونظر الى دوبروي : « انت ترى انني ارتكبت نذالة ؟ لكني لم اكن اريد ان تضيع حياة جوزيت . فلو فتحت الغاز ، لما غفرت ذلك لنفسي ابداً . في حين انني اعترف ان وجود مرسييه آخر او عدم وجوده على الارض لا يمنعني من النوم » .

فتردد دوبروي وقال : « ان عدم وجوده لافضل على كل حال من وجوده » .

فقال هنري :

– بديهي . لكني واثق ان جوزيت كانت انتحرت . » وسأل في احتداد : « هل كنت استطيع ان ادعها تموت ؟ » .

فقال هنري :

– لقد قررت فوراً تقريباً . وهز كتفيه : « انا لا اقول انني فخور بما فعلت » .

فقال دوبروي في حدة مفاجئة :

– أتعرف ما تثبت ، هذه القصة ؟ ان الاخلاق الفردية لا وجود لها . وهذا شيء آخر من تلك الاشياء التي آمنا بها وليس لها اي معنى .

فقال هنري :

— هل تعتقد ؟ » نهائياً ، انه لا يحب هذا النوع من العزاء الذي يتعلل له به دوبروي اليوم . وتابع : « لقد وجدت نفسي محاصراً ، هـــذا صحيح . ففي ذلك الحين ، لم يكن لي الخيار . لكن مـا كان ليحدث شيء لو لم تكن لي تلك العلاقة بجوزيت . أعتقد ان الغلطة انما هي كامنة هنا » .

فقال دوبروي في نوع من نفاد الصبر :

— آه ! اننـــا لا نستطيع ان نرفض لأنفسنا كل شيء . ان الزهد لشيء حسن اذا كان تلقائياً ، ولكن لا بد لذلك من ان يكون لنا مسرات إيجابيـــة اخرى : وليس لدينا الكثير منهـا ، في العالم بوضعه الراهن . سأقول لك : لو لم تتم مع جوزيت ، لأسفت أسفاً كان سيقودك الى ارتكاب حماقات اخرى .

فقال هنري :

— إن هذا لممكن .

فقال دوبروي :

— اننا لا نستطيع ان نستخرج من سطح منحنٍ خطـاً مستقيماً . ونحن لا نستطيع ان نعيش حياة صحيحة في مجتمع ليس صحيحاً . اننا نلدغ من جديـد دوماً ، من هذا الجانب او ذاك . » وختم كلامـه : « وهم آخر يجب ان نتخلص منه . ليس ثمة من سلام شخصي ممكن » .

فنظر هنري الى دوبروي في تردد : « إذن ماذا تبقّى لنا ؟ » .

فقال دوبروي :

— ليس شيئاً كبيراً ، على ما اظن .

وساد صمت . لم يكن هنري يشعر انه قنع بهذا الغفران المعمم ، وقـــال : « ما كنت اود ان اعرفه ، هو ماذا كنت فعلت مكاني ؟ » .

فقال دوبروي :

— لا استطيع ان اقول لك ، لانني لم اكـن مكانك » واضاف : « يجب لذلك ان تروي كل شيء لي بالتفصيل » .

فقال هنري : « سأروي لك كل شيء » .

الفصل العاشر

أقلعت الطائرة من « غاندر » الى باريس دون توقف ، فوصلت قبل ساعتين من موعدها . وتركت حقائبي في محطة « الانفاليد » وركبت الاوتوبيس . كان فجراً رمادياً ، مقفراً ، وكان قدومي السري ، في الوقت الذي يعتقدونني فيه بعيدة جداً بين الغيوم ، أشبه بتطفل . كان ثمة رجل يكنس الرصيف امام باب بناية لا يزال مقفلاً ، ولم تكن علب القاذورات قد أُفرغت بعد : ورحت أتنزه قبل ان ينصب الديكور ويتبرج الممثلون. بديهي انني لست دخيلة حين اعود الى حياتي الخاصة : ومع ذلك ، بينما كنت افتح واغلق بهدوء باب الشقة كي لا أوقظ نادين ، كانت حركاتي الخفية توحي إليّ بشعور مبهم من الزلل والخطر . ما من صوت في مكتب روبير . وأدرت القبضة الخزفية : فرفع رأسه فوراً تقريباً ، ودفع مقعده مبتسماً ، وطوقني بذراعيه :

– يا حيواني الصغير المسكين ! أتأتين هكذا بمفردك ! كنت ذاهباً لآتي بك.

فقلت :

– لقد وصلت الطائرة قبل ساعتين من موعدها . » وقبّلت خديه اللذين اساء حلاقتهما . كان في البرنس ، بديناً ، منتفخ العينين من الأرق : « أاشتغلت طوال الليل ؟ هذا مؤذٍ » .

– كنت اريد ان انهي شيئاً ما قبل عودتك . أكانت رحلتك مريحة ؟ ألست متعبة ؟

– لقد نمت طوال الوقت . وانت ؟ عندما لا تكون عليك مراقبة ، لا

تكون حكيماً البتة .

تحدثنا بمرح ، لكن حين دخل روبير الى غرفة الحمام ، وجدت من جديد ذلك الصمت الذي خنقني لحظة لمحته من فرجة الباب محني الرأس، وهو يكتب ، بعيداً عني للغاية . اي امتلاء في هذا المكتب لم اكن فيه ! كان الهواء مشبعاً بالدخان ، والعمل . كانت فكرة كلية القدرة تجمع هنا على رغبتها ، الماضي ، المستقبل ، العالم اجمع : كان كل شيء حاضراً ، وليس ثمة من غياب . كانت صورتي على احد الرفوف تبتسم ، صورة قديمة ولن تزداد قدماً ابداً . كانت في مكانها . لكن روبير اضطر الى العمل طوال الليل ليفسح لي مكاناً في ايامه المليئة الطافحة . وكان ثمة شيء لم ينهه لأنني عدت قبل الأوان . ونهضت . ان المرء ليكتشف ، ايام العودة والرحيل ، اكتشافات اكثر حقيقة من الحقيقة اليومية ، اعرف ذلك . ولكن مهما عرفنا ، مهما تفادينا جميع الفخاخ ، فلا بد ان نسقط فيها ببلادة ؛ إلا انه لم يعد يكفيني ان اقول هذا الكلام لأخرج منها : انني لن اخرج . ولكم كانت غرفتي خاوية ! ولقد ظلت خاوية ايضاً بينما كنت احوم بلا يقين بين النافذة والأريكة . كان ثمة بريد على طاولتي . كان ثمة اناس يسألونني متى سأعيد فتح عيادتي . وكانت بول قد خرجت من المصح ، وهي تدعوني لرؤيتها . ولاحظت ان كتابتها اقل طفولية من الماضي وانها لم تعد تقع في اخطاء إملائية . وكانت ثمة كلمة من ماردروس تؤكد لي انها شفيت . وذهبت لأعانق نادين التي استقبلتني بتسامح . كان لديها الف قصة ترويها لي ووعدتها بسهرتي . روبير ، نادين ، اصدقاء ، عمل : ومع ذلك فقد بقيت ساكنة في الرواق ، أتساءل في ذهول : « ماذا افعل هنا ؟ » .

وقال روبير :

— كنت تنتظرينني ؟ انا مستعد .

كنت مسرورة من مغادرة هذه الشقة ، من التنزه في الشوارع التي لم تكن لا مليئة ولا مقفرة . الارصفة ، مصانع غوبلان ، ساحة ايطاليا : لقد سرنا طويلاً ونحن نتوقف هنا وهناك وعلى أسطحة المقاهي، وتناولنا الطعام في مطعم حديقة

مونسوري .

كان روبير قد شعر انني راغبة عن الكلام وكانت لديه اشياء كثيرة يرويها لي : وكان يروي . كان اكثر مرحاً مما كان عليه قبل سفري : وليس ذلك لأن الموقف الدولي يبدو له لامعاً ، بل لأنه عاد الى تذوق حياته . كانت مصالحته مع هنري عظيمة الاهمية عنده . وقد اثار كتابه صدى كبيراً حتى انه ، رغم كل منطق ، شرع في غيره . وكان العمل السياسي لا يزال مستحيلاً . لكنه ما كان ليتخلى عن التفكير به . بل كان يشعر انه اخذ الآن يفهم الأمور على حقيقتها الى حد ما . وكنت اصغي اليه . كانت حيويته عظيمة حتى انه فرض علي ذلك الماضي الذي كان يحدثني عنه: كان ماضيّ، ولم يكن لي غيره ، ولا اي مستقبل آخر غير المستقبل الذي يبشر به . عما قريب سأرى هنري ثانية ، وسأكون عظيمة السعادة بذلك ، انا ايضاً . وتلك الرسائل التي تلقاها روبير بخصوص كتابه ، سأقرأها معه وشيكاً وسأتلهى بها او أتأثر مثله . وسأتمتع مثله بالسفر الى ايطاليا ، عما قريب .

وسألني :

– الا يضجرك ان تسافري من جديد ، بعد كل تلك الاسفار ؟

– مطلقاً . ليست بي اي رغبة في البقاء بباريس .

كنت انظر الى الارض المعشوشبة ، الى البحيرة ، الى طيور السمّ . ذات يوم ، عما قريب، سأحب باريس من جديد. ستحدث لي متاعب،مسرات، اثارات ، وستنبجس حياتي من الضباب، حياتي هنا ، حياتي الحقيقية ، وسوف تشغلني كلي . وشرعت في الكلام فجأة ، كان ينبغي عليّ ان اؤكد انه واقعي هو ايضاً ، ذلك العالم الذي يفصلني عنه محيط ، ليل. وسردت اسبوعي الأخير. لكن الكلام كان اسوأ ايضاً من التزام الصمت . وشعرت ، كما في السنة الماضية ، انني مذنبة ، بشكل كريه . كان روبير يفهم كل شيء ، كل الفهم . هناك ، كان ليويس يستيقظ في غرفة اجتاحها غيابي ، وكان ساكتاً لم يعد له احد . كان وحيداً ، ومعه في سريره ، بين ذراعيه ، مكاني الخاوي . ما من شيء سيكفر

عن اسف هذا الصباح : فالألم الذي اسببه له غير قابل للتكفير عنه .

وحين عدنا ، مساء ، قالت لي نادين :

– لقد تلفنت بول لتعرف هل انت هنا .

فقال روبير :

– انها المرة الثالثة . يجب ان تذهبي لرؤيتها .

– سأذهب غداً . وأضفت : « ماردروس يؤكد انهـــا شفيت . لكن ألا تعرفان كيف حالتها ؟ حقاً ؟ ألم يرها هنري ثانية ؟

فقالت نادين :

– كلا .

وقال روبير :

– ما كان ماردروس ليتركها تخرج لو لم تشفَ حقاً .

فقلت :

– هناك شفاء وشفاء .

وقبل ان انام ، تحادثت طويلاً مع نادين . انهـا تخرج من جديد مع هنري ، وكانت راضية جداً بذلك . واغرقتني بالاسئلة . وفي اليوم التالي ، تلفنت لبول لأخطرها بزيارتي : كان صوتها موجزاً وهادئاً . ومضيت في العـاشرة مساء نحو ذلك الشارع الذي كان يبدو لي مأساوياً جـداً ، في الشتاء المنصرم ، واخذتني الحيرة من مظهره المطمئن . كانت النوافذ مفتوحة على عذوبـــة المساء ، وأناس يتنادون من منزل لآخر ، وفتـاة صغيرة تقفز بالحبل . وتحت لافتـــة « غرف مفروشة » ضغطت على زر وفتح الباب ، بشكل عادي . عادي أكثر مما ينبغي . ما الفائدة إذن من ذلك الهذيان ، من ذلك التقطيب ، إذا كان كل شيء قد عـاد الى سابق نظامه ، اذا كان العقل والروتين قد انتصرا ؟ ومـا الفائدة إذن من تأنيبت ضميري المهووسة اذا كان عليّ ذات يوم ان استيقظ في اللامبالاة ؟ كنت اتمنى تقريباً ان ارى بول تظهر على عتبة الاستديو ، حاقدة ، شاردة .

لكني استقبلت من قبل امرأة باسمة بدينة ترتدي ثوباً اسود انيقاً . واعادت

لي قبلتي بدون اندفاع وبدون تحمس . كانت الغرفة في أتم نظام ، وقد بدلت المرايا ، وكانت النوافذ ، لأول مرة منذ سنوات ، مفتوحة على مصاريعها .

– كيف حالك ؟ لقد قمتِ برحلة حلوة . انها لجميلة هذه البلوزة : هل اشتريتها من هناك .

– نعم . من مكسيكو . انها لتعجبك تلك البلاد . » ووضعت رزمة بين ذراعيها : » إليك ! لقد أتيتك بأقمشة » .

– ما ألطفك ! » ونزعت الخيط ، وفتحت علبة الكرتون : « يا للألوان الرائعة ! » .

وبينما كانت تبسط الانسجة الموشاة ، اقتربت من النافذة . ولمحت ، كالعادة، نوتر دام وحدائقها : من خلال ستار من حرير مصفر وعتيق ، عناد الحجارة الثقيل . وعلى طول الافريز ، كانت صناديق العجائب مقفلة ، وثمة موسيقى عربية تعلو من المقهى المجاور ، وكلب ينبح ، وبول قد شفيت . كان مساء . قديماً جداً : ولم اكن قد التقيت بليويس قط . لم يكن ممكناً ان افتقده .

وقالت بول :

– يجب ان تحدثيني عن تلك البلاد . ستروين لي كل شيء . لكن لنذهب من هنا : سآخذك الى مقهى مسلٍ جداً « الملاك الاسود » ، لقد افتتح حديثاً وتجدين فيه جميع الناس .

فسألت بشيء من الخوف :

– من تعنين بجميع الناس ؟

فرددت بول :

– جميع الناس . انه ليس بعيداً . سنذهب اليه على اقدامنا .

– موافقة .

وقالت بول ونحن نهبط الدرج :

– أترين ، قبل ستة اشهر كنت تساءلت فوراً : لمَ قالت : « من تعنين ؟ » ووجدت كمية من الاجوبة .

فابتسمت في شيء من الجهد : « أأنت آسفة ؟ » .

– ستكون هذه مبالغة . لكنك لا تستطيعين ان تتصوري كم كان العالم غنياً ، في ذلك الحين . كان لأبسط الاشياء عشرة آلاف وجه . كنت تساءلت عن احمر تنورتك . اليك ، هذا المتشرد ، كنت حسبته عشرين شخصاً في آن واحد .

كان ثمة نوع من الحنين في صوتها .

– اذن ، فالعالم ، الآن ، يبدو لك مسطحاً بالاحرى ؟

فقالت بلهجة قاطعة :

– اوه ! البتة . انني راضية من انني املك تلك التجربة ورائي ، هذا كل شيء . لكني اعدك بأن وجودي لن يكون مسطحاً . انني ادب بالمشاريع .

– اسرعي بإخباري عنها !

فقالت :

– اولاً سأترك ذلك الاستديو ، انه يسئمني . لقد اقترحت عليّ كلودي ان اقيم عندها ولقد قبلت . وقررت ان اصبح مشهورة . اريد ان اخرج ، اسافر ، أتعرّف الى الناس ، اريد المجد والحب . اريد ان اعيش .

لقد فاهت بهذه الكلمات الاخيرة بلهجة فخمة ، وكأنها تلفظ نذوراً . وسألت :

– أتفكرين بالغناء ، ام بالكتابة ؟

– بالكتابة . لكن ليس من نوع السذاجات التي أريتك اياها . كتاب حقيقي ، سأتكلم فيه عن نفسي . لقد فكرت فيه كثيراً حتى الآن . لن يكون فيه شيء يعجب ، لكني اعتقد انه سيثير ضجة .

فقلت :

– اجل ، لديك اشياء كثيرة تقولينها . يجب ان تقوليها !

لقد تكلمت بحرارة . لكني كنت متشككة . لقد شفيت بول ، دون ادنى ريب ، لكن صوتها ، حركاتها ، ايماءاتها كانت توحي اليّ بالحرج نفسه الذي

توحي به تلك الوجوه الكاذبة الشباب التي يعاد تفصيلها من جلود قديمة . ربما كانت ستمثل حتى موتها دور امرأة عادية، لكن هذا عمل لا يهيئها مطلقاً للصدق مع النفس .

وقالت بول :

– هنا المكان .

ونزلنا الى كهف دافىء ورطب كغابة شيشن اتزا . كان يعج بالضجيج ، بالدخان ، وبصبيان وبنات في ثياب العمل ، ليسوا في سننا اطلاقاً . واختارت بول طاولة معرضة للانظار كافة قرب الاوركسترا وطلبت في ابهة كأسين من الوسكي مضاعفتين . ولم يكن يبدو عليها انها تشعر بأننا لسنا في مكاننا مطلقاً . وقالت :

– لا اريد ان اعاود الغناء انا لا اقول انني اصبحت بعقدة نقص ، فأنا اعرف انه اذا لم تعد لي جميع الاوراق الرابحة التي كنت أتمتع بها في الماضي ، من الناحية الجسدية ، فإنني املك غيرها . كل ما هنالك أن مهنة المغنية تتعلق بأناس كثيرين . » ونظرت إلي بمرح : « كنت على حق ، حول هذه النقطة . إن التبعية لكريهة . انني اريد نشاطاً رجولياً » .

فهززت رأسي . انها لم تعد تتمتع، برأيي ، بأي من الصفات الضرورية لأسر انتباه الجمهور ومن الافضل لها ان تحاول اي شيء آخر . وسألت :

– اتفكرين بوضع قصتك في قالب رواية ، ام انك سترويها كما هي ؟

فقالت :

– انني حالياً ابحث عن شكل ، شكل جديد . اي بالضبط ما لم ينجح هنري قط في اكتشافه . ان رواياته كلاسيكية الى حد مميت .

وافرغت كأسها بجرعة واحدة : « لقد كانت تلك الأزمة قاسية . لكن لو تعرفين اي فرح شعرت به حين وجدت نفسي اخيراً ! » .

كنت اود ان اقول لها شيئاً ما عطوفاً ، إنني مسرورة برؤيتها ، سعيدة ، أو اي شيء آخر . لكن الكلمات كانت تتجمد على شفتي . كان هذا الصوت

العنيد وهذا الوجه الصارم هما اللذين يحمدانني . كانت بول تبدو لي اكثر غرابة منهـــا حين كانت مجنونة . وقلت بارتباك : « لا بـد انك اجتزت اوقاتاً عصيبة ! » .

– بالأحرى ! » ونظرت حولها في نوع من الدهشة : « في بعض الأيام ، كان كل شيء يبدو لي هزلياً جداً ! وكنت اضحك حتى الموت. وفي احيان اخرى، كانت الفظاعة . لا بد انهم ألبسوني ثوب المصح بالقوة » .

– هل صدموك صدمات كهربائية ؟

– نعم . كنت في حالة غريبة جداً حتى انني آنذاك لم اشعر بخوف . لكني في ليلة ماضية ، حلمت بأنهم يطلقون طلقـــة مسدس على صدغي وشعرت من جديد بألم لا يطاق . ولقد قال ماردروس انها كانت ذكرى بدون ريب .

فقلت بلهجة غير اكيدة :

– انه لطيبٌ ماردروس ، أليس كذلك ؟

فقالت بول بحدة :

– ماردروس ! انه لرجل عظيم ! غريب ، بأي ثقة وجد مفتـاح كل تلك القصة . واضافت : « يجب ان اقول انني ، من جهتي ، قد قاومت قليلاً » .

– هل انتهى ، ذلك التحليل ؟

– ليس تماماً ، لكن الشيء الاساسي تم .

لم اكن اجرؤ على طرح سؤال ، لكنها تابعت من نفسها : « ألم احدثك قط عن اخي ؟ » .

– ابداً . لم اكن اعرف ان لك اخاً .

– لقد مات في الشهر الخامس عشر ، وكنت في عـامي الرابع . من السهل ان تفهمي لماذا اتخذ حبي لهنري طابعاً مرضياً فوراً .

فقلت :

– كان هنري يصغرك بسنتين او ثلاث على الأقل .

– تماماً . لقد وَلّدتْ غيرتي الطفولية عند موت اخي شعوراً بالذنب يفسر

مازوشيتي تجاه هنري . لقد جعلت من نفسي عبدة هذا الرجل ، وقبلت ان التخلي من اجله عن كل نجاح شخصي ، واخترت الظلمة ، التبعية : كي أفتدي نفسي . كي يقبل اخي الميت ، من خلاله ، ان يغفر لي . » وأخذت تضحك : « فكّري اني جعلت منه بطلاً ، قديساً ! انني لأضحك احياناً من ذلك بمفردي ! » .

فسألت :

— هل رأيته ثانية ؟

فقالت باندفاع :

— آه ! كلا ! ولن أراه . لقد استغل الموقف .

ولزمت الصمت . انني اعرف جيداً نوع التغير الذي لجأ اليه ماردروس ، وانا استخدمه بنفسي ، عند المناسبة ، واقدره حق قدره . نعم، كي يمكن انقاذ بول كان لا بد ان يهدم حبها حتى في الماضي . لكنني رحت أفكر بتلك الجرائم التي لا تمكن ابادتها الا باتلاف العضو الذي تفترسه . لقد مات هنري بالنسبة لبول ، لكنها ماتت هي الأخرى . انني لا أتعرف هذه المرأة الضخمة المبللة الوجه بالعرق ، ذات العينين البقريتين ، التي تجرع الوسكي بجانبي . ونظرت إليّ بثبات ، وقالت :

— وانتِ ؟

— انا ؟

— ماذا فعلت في أميركا ؟

فترددت . ثم قلت : « لا ادري ان كنت تذكرين . لقد قلت لك انه كانت لي قصة هناك » .

— اذكر . مع كاتب اميركي . أرأيته ثانية ؟

— لقد امضيت هذه الشهور الثلاثة معه .

— أتحبينه ؟

— أجل .

– ماذا ستفعلين ؟

– سأعود لرؤيته في الصيف القادم .

– ثم ؟

فهززت كتفي . بأي حق تطرح عليّ هذه الاسئلة التي أتمنى بيأس كبير ان اجهل أجــــوبتها ؟ واسندت ذقنها الى قبضتها المطبقة وزادت نظرتها إلحاحاً .

– لماذا لا تعيدين تكوين حياتك معه ؟

فقلت :

– ليست بي اية رغبة في اعادة تكوين حياتي .

– الا انك تحبينه ؟

– اجل لكن حياتي هنا .

فقالت بول :

– انت التي تقررين ذلك . لا شيء يمنعــــك من اعادة تكوينها في مكان آخر .

فقلت باستياء :

– تعرفين ما يمثله روبير لي .

فقالت بول :

– اعرف انك تتصورين انك لا تستطيعين الاستغناء عنه . لكني اجهل من اين تأتي سيطرته هذه عليك : وانت تجهلين ذلك ايضاً .» كانت تتابع التحديق فيّ : « ألم تفكري قط بتحليل نفسك من جديد ؟ » .

– كلا .

– أتخافين ؟

فهززت كتفي : « مطلقاً . لكن ما الفائدة ؟ » .

يقيناً ، ان تحليلاً ما يمكنه ان يعلمني عن نفسي كمية من الاشياء الصغـيرة ، لكني لا أعرف ما يمكن ان يفيدني ذلك. ولو زعم انه يذهب الى ابعد من ذلك ، لتمردت . ان عواطفي ليست أمراضاً .

وقالت بول بلهجة متأملة :

– لديك الكثير من العقد .

– ربما . لكن ما دامت لا تزعجني ...

– لن تسمحي ابداً بأن تزعجك : هذا بالضبط جزء من عقدك . ان تبعيتك تجاه روبير متأتية من عقدة . انا واثقة ان التحليل سيخلصك .

فأخذت أضحك : « لِمَ تريدين اذن ان اهجر روبير ؟ » .

كان النادل قد وضع أمامنا كأسين اخريين من الوسكي ، وافرغت بول نصف كأسها وقالت :

– ليس هناك شيء يضر كالحياة في ظل مجـــد ، فهو مدعاة للذبول . يجب عليك انت ايضاً ان تجـــدي نفسك بنفسك . » وقالت فجأة وهي تومىء الى كأسي : « اشربي إذن » .

فقلت :

– الا تعتقدين اننا نشرب اكثر مما ينبغي ؟

فقالت :

– لماذا اكثر مما ينبغي ؟

بالفعل ، لماذا ؟ انني احب كثيراً انا ايضاً الضجة التي يثـــيرها الكحول في دمي . ان الجسد لشيء منطبق تماماً ، بل انه لضيق ، ولكم أتمنى ان أفتـــق الخيوط . انها لا تفتق لكني اتوهم أحياناً انني سأقفز من جـلدي . وشربت مع بول . وقالت بقوة :

– ما من رجل يستحق العبـادة التي يتطلبونها منا ، ما من رجـــل ! انت ايضاً ، انك لمخـدوعة . اعطي روبير ورقـــاً ووقتاً للكتابة : فلا ينقصه بعد ذلك شيء .

كانت تتكلم بصوت عالٍ ليعلو صوتها على فرقعة الاوركسترا ، وكان يخيل إلي ان الأنظار تتجه نحونا في دهشة . ولحسن الحظ كان معظم الناس يرقصون ، تائهين في سعير جليدي .

وتمتمت في سخط : « إنني لا أبقى مع روبير بداعي الاخلاص » .

فقالت :

— إذا كان ذلك بداعي العادة ، فحسب ، فليس هذا بأفضل . اننا اصغر سناً من ان نرضخ . » كان صوتها يتحمس وعيناها تعومان في الضباب : « سآخذ بثأري . انت لا تستطيعين ان تتصوري ما أعظم سعادتي ! » .

كانت الدموع تخط أخاديد ثقيلة في جلدها الرطب . وكانت تتجاهلها . ربما كانت قد ذرفت كثيراً حتى ان جلدها فقد حساسيته . وكانت بي رغبة في البكاء معها على ذلك الحب الذي كان خلال عشرة أعوام معنى حياتها وكبريائها والذي انقلب الى قرحة مخجلة . وشربت جرعة من الوسكي وشددت على كأسي في يدي وكأنه تعويذة ، وكنت أقول في نفسي : « اجدر بي ان اتألم حتى الموت من ان انثر في الريح وانا اقهقه رماد ماضيّ » .

وقرعت كأسي الصحن بعنف . وفكرت : « انا ايضاً ، سأنتهي الى هنا ! قد يقهقه المرء كثيراً أو قليلاً ، لكنه ينتهي دوماً هكذا ، ولا يستطيع ان ينقذ ابداً الماضي كله . انني أريد نفسي وفية لروبير ، اذن فهو ليويس الذي ستخونه ذكرياتي ذات يوم . سوف يقتلني الغياب في قلبه وسوف أدفنه في أعماق ذاكرتي » كانت بول تتابع الكلام ولم أعد أصغي مطلقاً : « لمَ كان هو ليويس الذي حكمت عليه ؟ » . لقد أجبته : « كلا » ، وفي الوقت نفسه كان اي جواب آخر يبدو لي غير معقول . لكن لمَ اذن ؟ لقد قالت بول : « اعطي روبير ورقاً ووقتاً ، فلا ينقصه شيء » . كنت أرى ثانية ذلك المكتب، العظيم الامتلاء بدوني. لقد أردت، بعض الأحيان ، في العام المنصرم مثلا ان امنح نفسي أهمية . ولكني حتى في هذه الحال كنت أعرف انني لا أمثل لروبير اي مساعدة،في جميع الميادين التي لها أهميتها عنده.فقد كان دوماً وحيداً ، امام مشاكله الحقيقية . هناك كان ثمة رجل جائع إلي : وكان لي مكاني بين ذراعيه ، مكاني الذي لا يزال فارغاً : لماذا ؟ كنت حريصة على روبير بكل قواي ، وكنت على استعداد لوهب حياتي من اجله لكنه لم يكن يسألني

اياها ، وفي الحقيقة انه لم يطلب مني شيئاً قط . ولم يكن الفرح الذي يأتينني به حضوره يتعلق بأحد غيري ان ابقى أو ان اهجره : ان قراري هـذا لا يتعلق بأحدٍ غيري . وأفرغت كأسي . ان اقيم في شيكاغو ، وان آتي الى هنـــا بين الحين والحين : لم يكن ذلك مستحيلاً للغـــاية ، بعد كل شيء ، سوف يبتسم لي روبير عند كل قدوم وكأننا لم نفترق قط ، وربما لن يتبين انني ما عدت اتنشق الهواء نفسه الذي يتنشقـه . اي طعم من تأنيب الضمير والعبث ، لا يُحتمل على الاطلاق .

وعدت في ساعة متأخرة جداً ، وكنت قد شربت كثيراً ، ونمت نومـاً سيئاً . وبينما كنا نتناول افطارنا : نظر إلي روبير نظرة صارمة :

– وجهك متعب !

– لم انم جيداً . ولقد شربت اكثر مما ينبغي .

وجاء من خلف كرسيّ ووضع يديه على كتفي : « أآسفة على عودتك ؟ ».

فقلت :

– لا ادري . احياناً يخيل إليّ أن من العبث الا اكون حيث يحتـــاج إلي احدهم ، حاجة حقيقية ، كما لم يحتج إلي احد قط . وأنا لست هناك .

– هل تعتقدين انك تستطيعين الحياة هناك ، بعيداً كهذا البعــــد عن كل شيء ؟ هل تعتقدين انك ستكونين سعيدة ؟

فقلت :

– لو لم تكن موجوداً ، لحاولت . يقيناً كنت حاولت .

وانفصلت اليدان عن كتفي وخطـــا روبير بضع خطوات ونظر إليّ في ارتباك : « لن تعود لك مهنة ، ولا اصدقاء ، وستحاطين بأناس لا يشاطرونك اهتماماتك ، ولا يتكلمون لغتك ، وستنفصلين عن ماضيك كله ، وعن كل مـا له أهمية عندك ... لا اعتقد انك ستتحملين طويلاً » .

فقلت :

– ربما لا .

اجل ، ان حياتي مع ليويس ستكون ضيقة جداً . ولن استطيع ، وانا الغريبة ، المجهولة ، ان اصنع لنفسي وجوداً شخصياً ولا ان امتزج بذلك البلد الكبير الذي لن يكون بلدي قط . انني لن اكون الا عاشقة مضمومه الى صدر من يعشقها . لم اكن اشعر انني قادرة على ان اعيش من اجل الحب فقط . ولكن كم كنت اتعب يومياً من القائي عن كاهلي عبء يوم تافه لم اكن فيه مطلوبة من احد ! ولم يجبني روبير بأنه بحاجة إلي . لم يقل لي ذلك قط . كل ما هنالك ، انني لم أكن أطرح اسئلة في الماضي . ولم تكن حياتي ضرورية ولا مجانية : كانت حياتي . اما الآن فقد كان ليويس يسألني : « لماذا لا تبقين ، دوماً . لماذا ؟ » . ولقد اجبت انا التي اخذت على نفسها الا تخيب أمله ابداً : « كلا » . كان يجب ان ابرر هذا الرفض ، ولم اكن أجد تبريراً . لماذا ؟ لماذا ؟ كان صوته يقفو اثري . وفكرت منتفضة : « لكن ما من شيء لا يمكن اصلاحه ! » . ان ليويس لا يزال حياً ، وانا كذلك . ونستطيع ان نتكلم عبر المحيط . وكان وعد بأن يبدأ هو بالكتابة لي ، خلال اسبوع . وإذا كان لا يزال يناديني في رسالته ، اذا ما كانت لتأسفاته نبرة نداء ، فسوف اجد القوة لأتخلى عن الأطمئنان القديم . وسوف اجيب : « نعم ، انني قادمة . انني قادمة لأبقى الى جانبك ما اردت الاحتفاظ بي » .

ووضعت انا وروبير مخطط رحلتنا ، وقمت بحسابات دقيقة وأبرقت الى ليويس ان يوجه رسالته الى شباك البريد ، في « آمالفي » : طوال اثني عشر يوماً سيكون قدري معلقاً . وفي اثني عشر يوماً ربما قررت ان اجازف بجنون في مستقبل مجهول ، او سأستقر من جديد في الغياب ، في الانتظار . اما الآن فلم اكن هنا ولا هناك ، لم اكن نفسي ولا انساناً آخر ، لم اكن إلا آلة لقتل الوقت ، الوقت الذي يموت عادة بسرعة كبيرة ولا يكف عن الاحتضار . وركبنا طائرة ، وسيارات ، ومراكب ، ورأيت من جديد نابولي ، وكابري وبومباي ، واكتشفنا هركولانوم ، وايشيا . وكنت اتبع روبير ، وكان يثير اهتمامي ما يثير اهتمامه ، وكنت أتذكر ذكرياته . لكن ما ان كان يتركني وحيدة ،

فأي بلادة ! كنت بشق النفس اتظاهر بالقراءة او بتأمل الديكور القائم هناك. وكنت ، بعض الأحيان ، ابعث من العدم ، في دقة شيزوفرينية ، وصولي الى شيكاغو ، وليلة شيشكاستينانغو ، ووداعنا . وفي اغلب الاحيان كنت انام ، بل انني لم انم بهذا القدر قط .

احب روبير ايشيا ، وتأخرنا فيها ووصلنا الى آمالفي بعد ثلاثة ايام من الموعد المنتظر . وكنت اقول في نفسي وانا انزل من السيارة : « انني ، على الأقل ، مطمئنة ، فالرسالة هنا » . وتركت روبير وحقائبنا في الساحة وسرت نحو البريد وانا أحاول الا اركض . وكان ذلك المركز ، كسائر مراكز البريد ، يفوح برائحة الغبار ، والصمغ ، والسأم . لم يكن الجو مضيئاً ، ولا معتماً ، وكان المستخدمون لا يكادون يتحركون في اقفاصهم . ولقد كان ذاك المكان فعلاً من الامكنة التي تتكرر فيها الايام على طول السنة والحركات نفسها طوال اليوم دون ان يقع شيء ابداً . كنت لا استطيع ان افهم ان يخفق قلبي حتى ليكاد ينفطر بينما كنت اقف في الصف امام الشباك . ومزقت احدى الصبايا مغلفا وحركت ابتسامة كبيرة وجهها وشجعني ذلك . واظهرت جواز سفري في سيماء من تحريض . ونظر المستخدم بازدراء الى الصناديق المصفوفة وراءه ، وتناول مَن احدها رزمة فتصفحها وناولني مغلفاً : رسالة من نادين . فقلت :

— توجد رسالة أخرى .

— لا يوجد غيرها .

كانت رسالة نادين تثبت ان مركز البريد يعمل ، ان الرسائل تصل عندما ترسل . وألححت :

— اعرف ان هناك غيرها .

وبابتسامة ايطالية لطيفة ، وضع الرزمة امامي : « انظري بنفسك » .

دينال ، دولنكور ، ديبو . وعدت الى الوراء ، ونقبت في الرزمة من أ الى ي . هذه الرسائل كلها ! ثمة منها ما تنتظر منذ أسابيع ولا يطالب بها احد : لمَ كانت اي مساومة مستحيلة ؟ اي مقايضة ؟ وقلت في يأس :

– وفي الصندوق د ، ألا يوجد شيء باسمي ؟
– جميع الرسائل الموجهة الى اجانب موجودة في هذه الرزمة .
– انظر على كل حال .
فنظر وهز رأسه : « كلا ، لا شيء » .

وخرجت من البريد ، ولبثت على الرصيف ، خاوية الوفاض . يا للشعبذة الفظة ! لم أعد مطمئنة الى الأرض تحت قدمي ، ولا الى التقويم ولا الى اسمي الخاص . لقد كتب ليويس ، والرسائل تصل ، اذن لا بد ان تكون رسالته هنا : ولم تكن موجودة . كان الأوان أبكر من ان ابرق : « بدون اخبار ، قلقة » ، ابكر من أن أذوب بكاء ، ولم تكن المشكلة بعد كل شيء الا مشكلة تأخر عادي ، لا يترك لي سبيلاً الى يأس واسع . لقد اخطأت الحساب ، هذا كل شيء : ان الخطأ في الحساب نادراً ما يؤدي الى الموت . ومع ذلك بينا كنت اتناول العشاء مع روبير على سطح مزهر يطل على البحر ، لم اكن حية بشكل مؤكد . كان يحدثني عن نادين التي كانت تخرج باستمرار مع هنري ، وكنت اجيب ، ونحتسي نبيذ رافيلو ، وكان على العنوان رجل ذو شارب يبتسم. كانت فوانيس قوارب الصيد تلمع في البحر . وكانت حولنا رائحة قوية من نباتات عاشقة ، ولم يكن ينقص شيء، في اي مكان ، الا سطور سود على ورقة صفراء، كانت ستشير الى غياب ، غيابُ غيابٍ : حقاً انه ليس بشيء ، الا انه يلتهم كل شيء .

ووصلت الرسالة في اليوم التالي . كان ليويس يكتب من نيويورك . لقد اقام ناشروه حفلة كبيرة على شرف كتابه ، وهو يرى الكثير من الناس ، ويلهو كثيراً . اوه ! انه لم ينسني ، انه مرح ، انه حنون . لكن من المستحيل ان اقرأ بين سطوره اي نداء . وجلست فوق سطح مقهى ، مواجه البريد ، على شاطىء البحر . كانت فتيات في دراعات زرقاء ، وقبعات مستديرة يلعبن على الشاطىء ، ونظرت اليهن ملياً ، خاوية القلب . لقد كان ليويس ، طوال خمسة عشر يوماً ، بمتناولي ، وكان وجهه يراوح بين التأنيب والحب ، وكان يضمني

به ، ويقول : « لم احبك قط بهذا القدر » . كان يقول : «عودي » . وكان في نيويورك ، مع وجه مجهول ، وابتسامات لا توجه إليّ ، حقيقياً حقيقية هـذا الرجل الذي يمر . لم يكن يطلب إليّ العودة . ترى ألا يزال يتمنى عودتي . كان يكفي هذا الشك لينتزع مني القوة على ارادة ذلك . سوف انتظر ، كما في العام المنصرم ، الا انني لم اعد اعرف لمَ حكمت على نفسي بمكاره الانتظار .

وكانت هناك رسائل اخرى في باليرمـا ، وسيراقوزة . كان ليويس يبعث برسالة كل اسبوع ، كما في الماضي . وكانت كلها تنتهي كما في الماضي بهذه الكلمة : « Love [1] » ، التي تقول كل شيء ولا تعني شيئاً . ترى الا تزال كلمة حب ، ام انها اكثر الصيغ ابتذالاً ؟ لقد كان حنان ليويس رزيناً جـداً دوماً حتى انني لم اكن اعرف كم استطيع ان اعزو الى رزانته . في الماضي ، حين كنت اقرأ الجمل التي يخترعها من اجلي ، كنت اجد من جديد ذراعيه ، فمه : فهل هي غلطته ام غلطتي اذا كانت قد كفّت عن بعث الدفء في نفسي؟ كانت شمس صقلية تشوي جلدي ، لكن البرد كان لا يزال مخيماً في داخـلي . كنت اجلس في شرفتي او ارقد على الرمل ، وانظر الى السماء الملتهبة ، والبحر ، وارتعد . كنت في بعض الايام اكره البحر . كان رتيباً ولا نهائياً كالغياب . كانت مياهه شديدة الزرقة حتى انها كانت تبدو لي محلاة بالسكر . وكنت اغمض عيني او اهرب .

حين عدت الى باريس ، الى بيتي ، حيث كانت تنتظرني اشياء علي ان افعلها ، فكرت : « يجب ان اعود الى نفسي » . ان اعود الى نفسي ، كما يعود المرء الى صنع مرقة فاسدة : هذا ممكن الصنع . علي ان اتراجع ، ان انظر الى همومي ، الى متاعبي ، بغمزة عين هاوٍ . سأكون جالسة الى جانب روبير وسنكون قـد تحدثنا . او سأكون قد احتسيت الوسكي مع بول مفتوحـة القلب . وعلى كل ، كنت قادرة على تعلم الامثولة بنفسي . لم يكن ليويس في وجودي الا مرحـلة جعلتني الظروف اعلق عليها قيمة باهظة . وبعد سنوات من الامتناع ، اكون قد تمنيت حباً جديداً ، اذ انني لم أستثر هذا الحب الاخير الا عن عمـد . ولقد

١ ـ اي حب بالانكليزية . « المترجم » .

بالغت في الحماسة له لأنني كنت اعرف ان حياتي كأمراة تشرف على نهايتهـــا . لكني كنت استطيع في الحقيقة ان استغني عنه . واذا ما انفصل ليويس عني ، فسوف اعود بسهولة الى تقشفي القديم ، او سوف ابحث عن عشاق آخرين ، وهم يقولون جميعاً انك لواجد اذا بحثت . لقد كانت غلطتي هي انني ابالغ في الجدية التي انظر بها الى جسدي : كنت بحاجة الى تحليل يعلمني السيرة الطليقة . آه ! من الصعب ان يتألم المرء دون ان يخون . لقـــد حاولت مرة او اثنتين ان اقول في نفسي : « ستنتهي هـــذه القصة ذات يوم وسأجد ذكرى جميلة ورائي ، فالأجدر بي أن آخـــذ موقفي من الآن » . لكني تمردت . يا للمهزلة المضحكة ! ان ازعم انني امسك بقصتنا بـين يدي وحدي : هـــذا يعني انني استبدل ليويس بصورة ، انني احول نفسي الى شبح ومـــاضينا الى ذكريات شاحبة . ان حبنا ليس قصة استطيع ان استأصلها من حيـاتي لأرويها لنفسي . انه موجود خارجاً عني ، اننا نحمله انا وليويس معاً . ولا يكفي ان اغمض عيني لألغي الشمس : فأن انفي هذا الحب ، فهذا يعني فقط انني اتعامى . كلا . انني ارفض التفكير الحذر ، الوحدة الكاذبة وتعازيها الشحيحة . وفهمت ان هـــذا الرفض لهو مداجاة ايضاً : فأنا في الحقيقة لا اسيطر على قلبي . كنت عـــاجزة امام هذا القلق الذي يستولي عليّ في كل مرة افض فيها رسالة من ليويس . وما كانت خطاباتي الحكيمة لتردم هذا الفراغ في داخلي . كنت بدون ملجأ .

يا له من انتظار طويل ! احد عشر شهراً ، تسعة اشهر ولا يزال بيننا دوماً القدر نفسه من الارض والماء واللايقين . وحل الخريف محل الصيف . وهـا هي نادين جاءت تقول لي في يوم من ايام تشرين الاول :

— لديّ خبر اخبرك به .

كان في عينيها مزيج مقلق من التحدي والاضطراب .

— ماذا إذن ؟

— انني حبلى .

— أمتأكدة ؟

– كل التأكد . لقد رأيت طبيباً .

وتفرست في وجه نادين . كانت تعرف كيف تحمي نفسها وكان في نظرتها بصيص من نور هازىء . وقلت : « أفعلت ذلك عمداً ؟ » .

فقالت :

– وبعد ؟ أهي جريمة إذا اردت طفلاً ؟

– أأنت حبلى من هنري ؟

فقالت ساخرة :

– افترض ذلك ، ما دمت انام معه .

– وهو موافق ؟

– انه لا يعرف بعد .

فألححت : « لكنه يتمنى طفلاً ؟ » .

فترددت : « لم اسأله » .

وساد صمت وقلت : « اذن ماذا تزمعين عمله ؟ » .

– ماذا تريدين ان افعل بطفل ؟ فطائر صغيرة ؟

– اعني : أتزمعين الزواج من هنري ؟

– هذا يخصه .

– لكن لك فكرتك .

– فكرتي ، هي ان يكون لدي طفل . اما الباقي ، فلست اطلب شيئاً من انسان .

لم تكن نادين قد اطلعتني قط على الرغبة في الامومة هذه . أهو سوء النية الذي يوحي إليّ بأنها تمنت على عن طريق هذه المناورة ان ترغم هنري على الزواج منها ؟ وقلت :

– سوف تضطرين الى الطلب . فلمدة من الزمن على الاقل ، سيتوجب على والدك او على هنري ان يتحملا هذا العبء .

فأخذت تضحك في ظاهر من تنازل عابث : « هيا ، اعطيني نصيحة . انني

اری جيداً انك تموتين رغبة في ذلك » .

– ستلومينني عليها طويلاً .

– قولي على كل حال .

– لا تقترحي على هنري ان يتزوجك دون ان تكوني واثقة من انـه راغب في ذلك حقاً . اعني ان يكون راغباً بشكل اناني ، من اجل ذاته ، وليس فقط من اجل الطفل ومن اجلك . وبدون ذلك ، سيكون زواجاً تعيساً .

فقالت بأحدّ صوت لها :

– لن اقترح عليه شيئاً ، لكن من قال لك انه ليس راغباً في ذلك ؟ يقيناً ، إذا سألت رجلاً هل يرغب في طفل، تملكه الخوف . لكن عندما يوجد الطفل، فإنه يُسر . وانا اری ان الزواج سيفيد هنري كثيراً ، وكذلك ان يكون له بيت . ان الحياة البوهيمية اصبحت شيئاً بالياً .

وتوقفت ، لاهثة الانفاس . وقلت :

– لقد سألتني نصيحة ، فأعطيتك اياهـا . إذا كنت تعتقدين باخلاص ان الزواج لن يثقل على هنري ولا عليك ، فتزوجا .

كنت اشك في ان تستطيـع نادين الحصول على السعادة داخل حياة منزلية . كنت لا اتوصل الى رؤيتها منهمكة كل الانهماك في وقف نفسهـا على زوج وعلى طفل . وإذا ما تزوجها هنري بداعي الواجب ، أفلن يحقد عليهـا لذلك ؟ لم اكن اجرؤ على سؤاله . وكان هو الذي اقترح خلوة . ففي ذات مساء ، بدل ان يدخل كالعادة الى مكتب روبير ، قرع باب غرفتي : « ألا ازعجك ؟ » .

– كلا .

وجلس على الاريكة وسأل عابثاً : « أعلى هذه تقومين بعملك ؟ » .

– نعم . أتريد ان تجرب ؟

فقال :

– من يدري ؟ انني بحاجة لأن تشرحي لي لماذا أشعر بنفسي إنساناً طبيعياً الى حد موئس : هذا مريب ، اليس كذلك ؟

فقلت بطلاقة كبيرة حتى انه نظر اليّ في شيء من الدهشة :

– ليس هناك ادعى للريبة من هذا !

فقال بمرح :

– اذن ، يجب علي حقاً ان اعالج نفسي . » واضاف : « لكن ليس عن ذلك كنت اريد ان اكلمك » . وابتسم : « لقد جئت الى حد ما اسألك يد ابنتك » .

فابتسمت بدوري : « أستكون زوجاً صالحاً ؟ » .

– سأبذل جهدي . أترتابين بي ؟

فترددت ، وقلت بصراحة : « إذا كنت تتزوج فقط لأن الزواج يسوي امر نادين ، فانني ارتاب قليلاً » .

فقال :

– انني افهم ما تقصدينه . لا تخافي . لقد اخذت من قصة بول درساً . كلا . انني اولاً مولع بنادين . ثم ربما كنت سأدهشك ، انني اعتقد ان بي نزعة لأن اكون رب اسرة .

فقلت :

– انك لتدهشني قليلاً .

– الا ان ذلك صحيح . لقد فوجئت من ذلك بنفسي ، لكن عندما اعلمتني نادين انها حامل خفق قلبي بشكل غريب . انني اسبب لنفسي مشقه كبيرة لأصنع كتباً ينتقدها الجميع ، او مسرحيات تثير استنكار الناس : ثم ببساطة ، عندما تركت نفسي تنقاد لجسدي ، خلقت شيئاً حياً . ليس شخصية من ورق ، بل سيكون طفلاً حقيقياً من لحم وعظم . وبسهولة كبيرة .

فقلت :

– آمل ان اكتشف في نفسي سريعاً نزعة لأن اكون جدة . افترض انكما ستتزوجان بأسرع ما يمكن ؟ كيف ستنظمان حياتكما ؟ لا بد لكما من شقة .

فقال هنري :

– لسنا نرغب في البقاء في باريس . بل انني احب ان اترك فرنسا فترة من الزمن . ويبدو اننا نستطيع ان نجد في بعض زوايا ايطاليا دوراً للاجار ليست غالية .

– وبانتظار ذلك ؟

– اتعرفين ، لم يتح لنا الوقت بعد لاعداد كثير من المشاريع .

فقلت :

– تستطيعان دوماً ان تقيما في سان مارتان . ان المنزل كبير بما فيه الكفاية .

ولم تستقبح نادين الفكرة . ولم تشأ ان تسكن في الجناح ، لانه كانت لها فيه ذكريات مكربة ، على ما افترض . ورتّبت غرفتين كبيرتين في الطابق الثاني . وتخلت عن منصبها كسكرتيرة ، وأخذت تطالع كتب فن استعمال الوسائط الكفيلة بولادة اولاد أصحاء ، وتحيك اقطة صارخة الألوان تسخر من التقاليد كافة ، وكانت تتلهى كثيرا . كانت فترة بذخ ، على ما يبدو . كان هنري يهنىء نفسه على انه افلت من قلاقل الحياة السياسية ، ولم يكن يبدو على روبير انه آسف عليها كثيراً . وكانت بول تصرّح بأنها مسرورة من حياتها الجديدة . وكانت تسكن في فندق بلزونس حيث كانت تقوم بوظيفة سكرتيرة بشكل غامض . وكانت كلودي تعيرها اثواباً ، وتأخذها الى كل مكان . وكانت تحدثني بنهم عن زياراتها ، وعشاقها ، وتريد ان تجرني الى مجدها .

وقالت لي :

– اخيراً ! اصنعي لنفسك ثوب سهرة . ألا ترغبين في ان تلبسي ، في ان تظهري نفسك ؟

– اظهر نفسي لمن ؟

– على كل حال ، انت بحاجة لثوب ترتدينه بعد الظهر . تلك القطعة المدهشة من القماش الهندي ، ماذا فعلت بها ؟

– لست أدري . انها في خزانتي .

– يجب ان تخرجيها .

واخذت ، عابثة ، تفتش في خزانتي عن الخرقة الملكية التي كانت تحمي ، في الطرف الآخر من العالم والزمن ، كتفي هندية عجوز .

- ما هي ! يمكنك ان تفصّلي منها بلوزة رائعة !

ولمست في ذهول قطعة القماش التي لها الوان زجاج نوافذ الكنائس والموزاييك . ذات يوم ، في مدينة بعيدة تتصاعد منها ابخرة البخور ، رماها رجل يحبني بين ذراعي : كيف امكن لها ان تتحول الى مادة هنا ، اليوم ؟ لم يكن ثمة من ممر من هذا الحلم القديم الى حياتي الواقعية . ومع ذلك كان الشال هنا . وفجأة ، لم أعد اعرف اين انا ، حقاً : هنا ، فريسة لذكريات هاذية ؟ ام في مكان آخر ، أحلم بأني هنا ، ولكني على وشك اليقظة التي ستعيدني الى الاسواق الهندية والى ذراعي ليوبس ؟

وقالت بول :

- اعهدي بها الي . وسوف تعطيها كلودي لخياط ليفصلها ، وسأعمل على ان تكون عندك قبل الخميس . ستأتين يوم الخميس ، هذا مؤكد ؟

- هذا حقاً لا يستهويني .

- لقد وعدت كلودي بأن آتي بك . انني اود كثيراً ان اعوضها قليلاً عما فعلته من اجلي !

كان صوت بول مؤثراً كما كان يوم كانت تتضرع اليّ لأصالحها مع هنري . وقلت :

- سآتي لبعض الوقت .

كانت كلودي قد عمدت ، كي تعيد الى استقبالاتها ايام الخميس سابق رونقها ، الى تمويل جائزة ادبية تمنحها لجنة تحكيم نسائية ، ترأسها هي بنفسها بالطبع . وكانت تستعجل ان تعلن هذا الحدث الكبير للعالم ، ورغم ان المشروع كان لا يزال غامضاً ، فقد دعت في يوم الخميس التالي الصحفيين و « جميع باريس » . وكان بإمكانها كل الإمكان ان تستغني عني ، ولكن كان ثمة كلمة آمرة من بول ترافق علبة الكرتون التي تلقيتها مساء الاربعاء ، والتي كان يرقد فيها ، بعد ان

استحال شكله ، الشال القديم . إنه الآن بلوزة على قدي ، وعلى الموضة . وكان يتشبث برائحة ماضٍ ضائع ، وحين ضممته ، شعرت بشيء مـــا يشبه الأمل يتسرب الى دمي . كنت ألمس بجسدي الدليل على ان بين السعادة المتلاشية وبين خمولي اليوم ممراً : اذن فمن الممكن ان تكون هنــاك عودة . كانت صورتي التي اعادت إليهــا غضاضتها تسريحتي الجديدة دمثة في المرآة : من الآن الى ستة اشهر ، لن اكون قد هرمت كثيراً . سوف ارى ليويس ثانيــة ، وسوف يتابع محبتي . وحين دخلت الى صالون كلودي لم اكن بعيدة عن التفكير : « بعد كل شيء ، انني لا ازال شابة ! » .

وقالت بول :

— كنت خائفة للغاية من ان لا تأتي ! » وجرتني الى آخر الرواق وقالت في سيماء من قلق واهمية : « يجب ان اكلمك . اريد ان تفعلي شيئاً آخر ايضاً من اجلي » .

— ماذا اذن ؟

— كلودي تصر اصراراً كبيراً على ان تكوني عضواً في لجنتنا التحكيمية .

— لكني لست كفؤاً ، ولا وقت لدي .

— لن يكون عليك ان تعملي شيئاً .

فقلت ضاحكة :

— اذن لماذا تصر عليّ ؟

فقالت بول :

— حسناً ! بسبب الاسم .

فقلت :

— اسم روبير . اما اسمي فلا يساوي شيئاً .

فقالت بول بعجلة :

— انه الاسم نفسه . » ودفعتني الى الصالون الصغير : « اخشى ان اكون قد اسأت تحديثك عن هذا المشروع . انه ليس لعبة من ألعاب المجتمع » .

وجلست بخضوع : منذ ان شفيت بول وهي تطنب في الكلام عن تفاهـات اطناباً عظيماً . كان من المحزن ان اراهــا تتحمس لهذه القصة البلهاء كما كانت تتحمس في الماضي لمصير هنري . ومدحت لي طويلاً فضائل العدد سبعة : ان اللجنة التحكيمية تلك تحتاج الى سبعة اعضاء . وانتفضت بقوة : « كلا يا بول ، لا دخل لي في هذه المسألة . كلا » .

فقالت بقلق :

— اسمعي ، قولي على الاقل لكلودي انك ستفكرين .

— إذا شئت . لكني فكرت وانتهيت .

فنهضت وصدر صوتها خفيفاً : « أصحيح مـا يقال : ان هنري سيتزوج نادين ؟ » .

— صحيح .

فأخذت تضحك : « ما اظرف ذلك ! » . وعادة الى جدّيتها : « من وجهة نظر هنري ، هذا ظريف . لكني ارثي لنادين ، يجب ان تتدخلي » .

فقلت :

— انها تفعل ما يحلو لها ، كما تعرفين .

فقالت بول :

— لمرة واحدة فقط ، استعملي سلطتك . سوف يدمرها كما اراد تدميري . »

واضافت حالمة : « بديهي ان هنري بالنسبة لها بديل روبير » .

— هذا ممكن جداً .

فقالت بول :

— اخيراً ، انني أغسل يدي من الأمر . » وسارت نحو البـاب ، وقالت في اضطراب مفاجىء : « يجب ألا احتكرك ! تعالي بسرعة ! » .

كان الصالون يغص بالناس . وكانت اوركسترا صغيرة تعزف بـدون نشاط الحان جاز ، وكان بعض الازواج يرقصون . كان معظم الناس منهمكين في الأكل والشرب . وكانت كلودي ترقص مـــع شاعر شاب يرتدي بنطلوناً من المخمل

الخزامي ؛ وكنزة بيضاء ، وحلقاً ذهبياً في احدى اذنيه . ويجب ان أقول انه كان يدهش قليلاً . وكان هناك كثير من الشبان : مرشحون للجائزة الادبية الجديدة ، بدون شك ، وكانوا يتظاهرون جميعاً بأنهم ملحقون بالسفارات . وسرني أن اشاهد رأساً مألوفاً : رأس جوليان . كانت ثيابه لائقة هو الآخر ، ولم يكن يبدو عليه انه ثمل . وابتسمت له وانحنى أمامي :

— هل استطيع ان ادعوك للرقص ؟

فقلت :

— اوه ! كلا !

— ولماذا ؟

— انني عجوز اكثر مما ينبغي .

فقال وهو يلقي نظرة الى كلودي :

— ليس اكثر من الاخريات .

فقلت ضاحكة :

— كلا ، ولكن بقدرهن تقريباً .

فضحك ايضاً ، لكن بول قالت بصوت جدي :

— آن محشوة بالعقد ! » ونظرت الى جوليان في تظرف : «لكن ليس انا».

فقال جوليان مبتعداً :

— اي حظ لك !

وقالت لي بول في لهجة مستاءة :

— عجوز اكثر مما ينبغي ! يا لهذه الفكرة ! لم اشعر قط بالشباب كما أشعر به الآن .

فقلت :

— ان الانسان ليشعر كما يشعر .

لسرعان ما انقشعت تلك العاصفة الصغيرة من الشباب التي دوّختني للحظة . ان المرايا الزجاجية لمتساهلة اكثر مما ينبغي : اما المرآة الحقيقية فهي وجه هاته

النسوة اللواتي في عمري ، هذا الجلد الرخو ، هذه الملامح المشوهة ، هـــذا الفم الذي يتهاوى ، هذه الاجساد التي يحزر المرء بشكل يثير الفضول تحدُّ بها تحت احزمتها . وكنت افكر : « انهـــا جلود قديمة ، وانا في عمرهن » . وتوقفت الاوركسترا وانقضّت كلودي عليّ :

ــ لطف منك ان تأتي . يبدو انك تهتمين كثيراً بمشاريعنا ؟ سأكون سعيدة جداً اذا انضممت الينا .

فقلت :

ــ سأسر بذلك . الا ان لدي عملاً كثيراً في الوقت الراهن !

ــ هذا مـــا يبدو . انت في سبيلك لأن تصبحي محللة نفسية على الموضة . دعيني اقدم لك بعضاً ممن هم تحت رعايتي .

كنت مسرورة ، ولكن خائبة قليلاً من انهـا لم تلح إلحاحاً اكبر : لم تكن حريصة جداً على مساهمتي ، ولا بد ان بول تخيلت افكاراً . وصافحت كمية من الايدي : شبان ، وآخرون اقل شباباً . كانوا يأتونني بأقداح شمبانيا ، وبفطائر صغيرة ، وكانوا يهرعون ، وبعضهم يوجه المديح في رقة . وكانوا كلهم يصارحونني بين ابتسامتين بحلم ما صغير : الحصول على مقابلة مع روبير ، على مقال منه لمجلة جديدة تشق طريقها ، توصية لدى موفان ، نقـد ودي في « الطوارىء » ، او كانوا يتمنون كثيراً ان يروا اسمهم مطبوعاً فيها ! وطلب اليّ البعض ممـــن هم اكثر سذاجة او مجوناً نصائح : كيف السبيل للحصول على جائزة ، وبشكل عام ، للوصول ؟ ولقـــد كانوا يظنون ، ولا شك ، انني اعرف تعاويذ ! كنت اشك في مستقبلهم ؛ فالمرء لا يحزر من نظرة واحدة هل هـذا او ذاك موهوب او غير موهوب ، ولكنه يتبين بسرعة ما اذا كانت له أسباب حقيقية للكتابة: ولم يكن جميع أعمدة الصالونات هؤلاء يكتبون الا لأنه يصعب عليهم التصرف بطريقة اخرى مع حرصهم على ان يعيشوا حياة ادبية ، ولكن ما من احد منهم كان يحب الاختلاء مع الورق الابيض . كانوا يشتهون النجاح تحت شكله الأكثر تجريداً ، ورغم كل شيء فليست هذه هي الطريقة المثلى للحصول عليه . كنت

أجدهم لا يقلون جحوداً عن طموحهم . ولقد قـــال لي أحدهم تقريباً : « انني مستعد للدفع » . وكان ثمة كثيرون منهم تضطرهم كلودي الى الدفـع ، بشكل عيني . كانت تشع بينما كانت تتفاهم مـــع صحفيين ، وسط دائرة من المعجبين نفوسهم خضراء . وكانت بول لا تحسن الاستفادة من هذه النهزة ، اذ وقـــع اختيارها على جوليان . كانت ، وهي جالسة إلى جانبه ، وساقاها متصالبتان عالياً ، ساقان لا تزالان جميلتين للغاية ، قد استدعت روحها كلها في عينيهـــا وراحت تتكلم حتى لتكاد انفاسها تنبهر . وما كان لمبتدىء ، يدوخه هذا القدر الكبير من الكلمات ، ان يتمنع ،لكن جوليان كان يعرف هذه الاغنيات كافة . كنت اسمع صوتاً ملحاً لشيخ كبير تقلد صلعته الصورة التقليدية للعبقرية ،وكنت آلي على نفسي انني اذا ما فقدت ليويس ، انني حين أفقده ، سأتخلى حالاً وللأبد عن اعتقادي بأنني لا أزال امرأة . انني لا اريد ان اشبههن .

كان الشيخ يقول :

– كما ترين ،يا سيدة دوبروي ، انني لا اجعل من ذلك مسألة طموح شخصي ، لكن الاشياء التي قلتها يجب ان تسمع . ما من انسان يجرؤ على قولها : لا بد من شيخ مجنون مثلي ليجازف بذلك . وليس هناك الا رجل واحـد لديه الشجاعة الكافية ليدعمني : زوجك .

فقلت :

– سوف يهتم لذلك كثيراً بالتأكيد .

فقال بحدة :

– لكن يجب ان يكون لاهتمامه نتائج عملية . انهم يقولون لي جميعاً : هذا جدير بالاهتمام ، هذا مثير ! وفي لحظة النشر ، يخافون . اذا فهم روبير دوبروي اهمية هذا الأثر ، الذي وقفت عليه ، استطيع ان اقول ذلك دون ان اكذب ، سنوات من حياتي ، فعليه ان يفرضه . ستكفي مقدمة منه .

فقلت :

– سأحدثه عنه .

كان يغيظني ، هذا الشيخ ، لكني كنت اشفق عليـــه . فعندما ينجح ألمرء تواجهه كمية من المشا كل ، ولكنه يواجه ايضاً مشا كل حين لا ينجح . لا بد انه شيء كئيب ان يتكلم الانسان ويتكلم دون ان يوقظ صدى ابداً . كان قد نشر كتابين او ثلاثة كتب غامضة، وكان هذا الكتاب يمثل فرصته الاخيرة، وكنت اخشى الا يكون جيداً هو الآخر : انني ارتاب في جميع الناس الحاضرين هنا .

وتغلغلت بين الجمع الغفير ولمست ذراع بول :

– اعتقد انني اديت واجـــبي كله . انني ذاهبة . سوف تتصلين بي هاتفياً .

– ألديك ثانية ؟ » وامسكت بذراعي في سيماء من تآمر : « يجب ان اسألك نصيحة ، بخصوص كتابي . لقد اقلقني ذلك طوال هذه الليالي . هل تعتقدين ان من المناسب ان انشر الفصل الأول في « الطوارىء » ؟ .

فقلت :

– هذا يتعلق : بالفصل وبمجموع الكتاب .

فقالت بول :

– دون ادنى شك ، فقد كتب الكتاب ليتلقفه القارىء دفعة واحـــدة . يجب ان يتلقاه في معدته دون ان يتـــاح له الوقت ليتمالك نفسه . ولكن نشر فصل منه ، في « الطوارىء » لهو ، من جهة أخرى ، ضمانة جدية . انـــني لا اريد أن أُعتبر امرأة دنيوية تكتب على طريقة سيدات ...

فقلت :

– جيئيني بالمخطوط . سيعطيك روبير رأيه .

فقالت :

– سأرسل اليـــك نسخة غداً صباحاً . » وتركتني هنا واسرعت نحـــو جوليان : « أذاهب من الآن ؟» .

– انني آسف ، علي ان اذهب .

– ألن تنسى ان تتلفن لي ؟

– انني لا انسى شيئاً قط .

ونزل جوليان الدرج معي وقال لي بصوته المصقول : « امرأة لطيفة جداً ، بول ماروي ، الا انها تحب القضبان اكثر ممـــا ينبغي . لاحظي ان القضيب في حد ذاته ليس شيئاً سيئاً ، لكن أصحاب المجموعات يسئمونني » .

فقلت :

– يبدو لي ان عندك انت ايضاً مجموعتك .

– كلا ! ان ما يحـــدد صاحب المجموعة هو الكاتالوج ، ولم يكن لدي كاتالوج قط .

كنت معكرة المزاج حين تركت جوليان ، فقد كان يجرحني ان يدور الحديث عن بول بهذه اللهجة . ولكن بيـنما كنت استبدل مظهري الفخم بروب دي شامبر ، تساءلت « بعد كل شيء ، لماذا ؟ انها لا تبالي بمـا يُظن بها : وهي على حق دون شك » . كنت أريـــد نفسي مختلفة عن تلك السعالى الناضجات اكثر مما ينبغي : وفي الحقيقة، كانت لدي حيل أخرى لا تزيد قيمة عن حيلهن. واسرعت بالقول : لقد انتهيت ، انني عجوز . فهكذا الغي تلـــك السنوات الثلاثين او الأربعين التي سأعيشها ، عجوزاً منتهية ، في الندم على الماضي الضائع. انني لن أُحرم من شيء ما دمت قد تخليت من الآن : إن لفي صرامتي حـــذراً أكثر منه كبرياء،بل هي في الحقيقة تحجب كذبة خشنة : انني انفي الشيخوخة برفضي مساوماتها . اني اؤكد تحت جـلدي الذابل استمرار امرأة شابة ذات مطالب لم تمس ، متمردة على التنازلات كافة ، تحتقر الجـــلود الحزينة التي في الأربعين . لكنها ما عادت موجودة ، ولن تولد ثانية أبداً ، حتى تحت قبـلات ليويس .

وفي اليوم التالي ، قرأت مخطوط بول : عشر صفحات فارغة ، تافهة كأنهـا نص من « الاعترافات[1] » . لا فائدة من ان أُصدم ، فهي في الحقيقة غير حريصة الى هذا القدر على الكتابة ، وفشلها لن يكون مأساوياً . كانت قد أمنت نفسها مرة واحدة . نهائية ضد المأساوي ، ولقد اخذت موقفها من كل شيء . لكني

---

١ - « اعترافات » جان جاك روسو . « المترجم »

كنت اجد مشقة في الاستسلام لاستسلامها . بل لقد كنت محزنة جداً حتى انني أخذت انفر اكثر فأكثر من مهنتي.فغالباً ما تأخذني الرغبة في ان اقول لمرضاي: « لا تحاولوا إذن الشفاء ، فإننا نشفى دوماً بما فيه الكفاية » . كان لدي زبائن كثر ، ولقد نجحت في هذا الشتاء بالذات في عدد من المعالجات الصعبة ، لكن قلبي كان بعيداً . نهائياً ، انني لم أعد أفهم لمَ كان من المستحسن ان ينام الناس ليلاً ، ان يفعلوا الحب بسهولة ، ان يكونوا قادرين على العمل ، على الاختيار ، على النسيان ، على الحياة . الماضي ، كان يبدو لي ان تخليصهم شيء عاجل ، تخليص جميع اولئك المهووسين المسجونين في تعاساتهم الضيقة ، في حين إن العالم واسع جداً . اما الآن ، فإنني ما عدت أفعل شيئاً سوى اطاعة مبادىء قديمة حين احاول ان انتزعهم مما يسيطر عليهم : هاءنذا قد أخذت في مشابهتهم ! كان العالم لا يزال على سعته : وما عدت انجح في الاهتمام به .

قلت في نفسي ذلك المساء : « هذا فاضح ! » . كانا يتناقشان في مكتب روبير ، ويتكلمون عن مشروع مارشال ، ومستقبل اوروبة ، المستقبل كله ، ويقولان ان اخطار حرب تتعاظم ، وكانت نادين تصغي اليهما في سيماء من ذعر . ان الحرب لشيء يخصّنا جميعاً ، وانني لا استخف بهذين الصوتين القلقين . ومع ذلك لم أكن أفكر إلا بتلك الرسالة ، بسطر من تلك الرسالة : « عبر المحيط ، الذراعان الحانيتان باردتان جداً » . لماذا كتب ليويس ، وهو يعترف لي بمغامرات لا أهمية لها، هذه الكلمات الحاقدة ؟ انني لم أسأله ان يكون وفياً لي ، فهذه سخافة مع ذلك الماء كله وذلك الزبد كله بيننا . بديهي انه حاقد عليّ لغيابي : ترى هل سيغفر لي ذلك يوماً ؟ هل سأجد ثانية ذات يوم ابتسامته الحقيقية ؟ كانا يتساءلان حولي عن المصير الذي يهدد ملايين البشر ، وكان مصيري أيضاً ، ولم أكن أهتم إلا بابتسامة ، ابتسامة لن توقف القنابل الذرية ، لا تستطيع شيئاً ضد أي شيء . ولا من أجل أحد ما : تخفي عني كل شيء . وكررت في نفسي : « هذا فاضح » . حقاً ، انني لا أفهم . فبعد كل شيء ، ان كوني محبوبة ليس نهاية ولا سبباً للوجود ، انه لا يغير من الأمور شيئاً ، ولا

يؤدي الى شيء : حتى أنا ، لا يؤدي بي الى شيء . انني هنا ، وروبير يتكلم مع هنري ، اما ما يفكر به ليويس هناك ، فبمَ يؤثر عليّ ؟ ان أعلق مصيري بقلب ليس هو الا قلباً بين ملايين القلوب الأخرى ، فلا بد انني فقدت الرشد ! كنت أحاول ان استمع ، لكن عبثاً . كنت أقـــول في نفسي : ذراعاي باردتان . وفكرت : « بعـد كل شيء ، يكفي تشنج من قلبي الذي ليس إلا قلباً بـــين ملايين القلوب الأخرى كي يكف هذا العـالم الواسع عن ان يعنيني الى الأبد . ان قياس حياتي لهو ابتسامة واحدة كما انه الكون بأسره . وان اختار تلك او هذا ، فان في ذلك تعسفاً أيضاً » . وبالأصل لم يكن لي الخيار .

وأجبت ليويس ، ولا بد انني وجدت الكلمات المناسبة لأن رسالته التالية كانت منفرجة وواثقة . ثم اخذ يطلعني على مجرى حياته في لهجة من الصداقــة المتواطئة . كان قد باع كتابه لهوليود ، وصار لديه مــال ، واستأجر منزلاً على ضفة بحيرة ميشيغان . كان يبدو سعيداً . وكان الربيـع . وتزوج هنري ونادين : هما ايضاً كانا يبدوان سعيدين . لماذا ليس انا ؟ وجمعت شجاعتي كلها . وكتبت : « أود كثيراً ان ارى منزل البحيرة » . انه يستطيـع ان يهمل هذه الجملة ، او ان يقول لي : « في السنة القادمـــة سترين المنزل » او : « لا اعتقـد انك سترينه ابداً » . وحين أمسكت بين يدي بالمغلف الذي يحتوي على رده ، تصلبت كأنني واجهت مفرزة تنفيذ اعدام . كنت أقول في نفسي : « يجب ألا اتوهم الاوهام . إذا لم يقل شيئاً فهذا يعني انــه لا يريد رؤيتي ثانية » . وبسطت الورقة الصفراء ووثبت الكلمات فوراً الى عيني : « تعالي في نهاية تموز ، فسيكون المنزل قـــد أُعدّ » . وتهالكت على الاريكة : لقد عُفي عني في اللحظة الاخـيرة . كنت قد شعرت بخوف عظيم حتى انني لم احس في البدايــة بأي فرح . ثم ، وبعنف ، أحسست بيدي ليويس على جسدي وأشرقت : ليويس ! كنت قد قلت ، وانا جالسة الى جانبه في غرفة نيويورك : « هل سنلتقي ثانيــة ؟ » . وكان يجيب : « تعالي » . لم يكن قد حدث شيء ، بين سؤالي وجوابه ، وكانت هـذه السنة الموهومة قد انقضت واستعدت جسدي حياً . يا للمعجزة ! لقد احتفلت بـــه

كطفل ضاع ووجد . لقد رعيتـــه طوال شهر كامـل ، انا التي لا تـكاد تهتم به عـادة . لقد اردته مصقولاً ، لامعاً ، متألقاً . وصنعت لنفسي اثواب سباحة ، واخذت حمامات شمس . كنت أملك من الآن ، وانا في الاقمشة القطنية المزهرة ، البحيرة الزرقاء ، والقبل . وكانت تُعرض هـــذه السنة في الواجهات تنورات طويلة وحريرية غريبة . فاشتريت منهـا . وقبلت ان تهديني بول أغلى عطر في باريس . لقد آمنت ، هـذه المرة ، بوكالات السفر ، بالجواز ، بالسمة ، وبطرق السماء . وبدت لي الطائرة حين صعدت إليها مأمونة كأنهـــا قطار من قطارات الضواحي .

كان روبير قد تدبر امره ليحصل لي على دولارات في نيويورك . وعدت الى الفندق الذي نزلت فيـه في رحلتي الاولى وقدمت لي الغرفة نفسها ، ولكن في طابق أعلى . ووجدت من جديد ، في الاروقـــة ذات الرائحة المكتومة حيث تحترق بقية من شمعة حمراء ، الصمت نفسه يوم كان الفضول هواي الوحيـد . وخلال بضع ساعات ، عرفت من جديد اللامبالاة . ان باريس لم تعد موجودة ، ولا شيكاغو بعد ، وكنت اسير في شوارع نيويورك ولا افكر بشيء . وفي صباح اليوم التـــالي انشغلت بهدوء في مكاتب ومصارف ثم صعدت الى غرفـتي لآتي بحقيبتي . ونظرت في المرآة الى المرأة التي سيأخذها ليويس بين ذراعيه هـــذا المساء . سوف يحل هذا الشعر ، وسأخلع تحت قبله البلوزة المفصلة من شال هندي . وعلقت بها الوردة التي ستداس بعد قليل ، ومسست رقبتي بالعطر الذي قدمته لي بول : كنت اشعر بشكل مبهم انني أعد لتضحية ضحية لم تكن انا . وللمرة الاخيرة تأملت فيها : كان يخيل إليّ انه يمكن ان تحب لو انني احببت .

وحطت الطائرة في شيكاغو بعـد اربع ساعات . وركبت سيارة ووجدت المنزل هذه المرة دونما مشقة . كان الديكور لا يزال هو هو . كانت لافتة شيلتز تشع احمراراً تجاه الاعلان الكبير . وكان ليويس جالساً على الشرفة امام طاولة يقرأ . واشار إليّ اشارة باسمة ، ونزل راكضاً ، واخذني بين ذراعيه وقـــال الكلمات المتوقعة : « لقد عدت ! اخيراً ! » . ربمـا كان المشهد يدور في وفاء

محتوم اكثر مما ينبغي ، إذ لم يكن يبدو واقعياً تماماً ، ولكأنه نسخة ضبابية قليلاً لمشهد السنة المنصرمة . او ربما تملكتني الخيبة فقط من عري الغرفة : لم يعد فيها رسم ، لم يعد فيها كتاب . وقلت : « يا للفراغ ! » .

– لقد نقلت كل شيء الى باركر .

– هل المنزل معد ؟ كيف هو ؟

فقال :

– سترين . سترين قريباً . » وراح يهدهدني بين ذراعيه . وقال في ابتسامة صغيرة مندهشة : « يا للرائحة الغريبة ! أهي هذه الوردة ؟ » .

– كلا ، انها انا .

– لكن لم تكن لك هذه الرائحة في الماضي ؟

وفجأة ، خجلت من اغلى عطر في باريس . من تفصيل بلوزتي المدروس ومن تنوراتي الحريرية : فما الفائدة من هذه التصنعات كلها ؟ انه لم يكن بحاجة اليها ليشتهيني . وبحثت عن فمه . لم أكن راغبة الى هـــذا الحد في عمل الحب لكني كنت اريد ان اكون واثقة من انه لا يزال يشتهيني . ودعكت يداه حرير التنورات ، وسقطت الوردة ارضاً ، وكذلك بلوزتي ولم اعد اطرح اسئلة .

نمت طويلاً . حين استيقظت كانت الساعة قد تجاوزت الظهر . وبينما كنت اتناول الغداء ، اخذ ليويس يحدثني عن الجيران الذين سنجاورهم في باكر ومنهم دوروثي ، وهي صديقة قديمة ، طلقت بعد زواج تعيس وتعيش مع طفليهـا ، عند اختها وصهرها، على بعد ميلين او ثلاثة من منزلنا. ولم اهتم كثيراً بدوروثي وربما شعر بذلك اذا سألني على حين غرة :

– الا يزعجك ان استمع الى مباراة البيزبول من الراديو ؟

– مطلقاً . سوف اقرأ الصحف .

فقال ليويس في استعجال :

– لقد احتفظت لك بكل اعداد « النيو يوركر » ، واشرت على المقـالات المهمة .

ووضع على طاولة الليل كومة من المجلات وفتح الراديو . وتمددنا على السرير واخذت اتصفح « النيو يوركر » . لكني لم اكن مرتاحة . لقد حدث لنا كثيراً في السنين الماضية ان نقرأ او نستمع الى الراديو ، جنباً الى جنب ، دونما كلام : كل ما هنالك ، انني واصلة لتوي اليوم ، وانني لأستغرب الا يفكر ليويس إلا بالبيزبول وانا راقدة الى جانبه . لقد امضينا اليوم الاول كله ، في السنة الماضية في عمل الحب . وقلبت صفحة ، لكني لم اكن استطيع القراءة . في هذه الليلة ، وقبل ان يدخل فيّ ، اطفأ ليويس النور ، ولم يمنحني ابتسامته ، ولم يلفظ اسمي : لماذا ؟ لقد نمت دون ان اطرح اسئلة ، لكن تناسي سؤال مـــا لا يعني الاجابة عليه . كنت افكر : لعله لم يجدني ثانية تماماً . فمن الصعب ان نلتقي ثانية بعـد عام . صبراً ، سوف يجدني . وبدأت في مقال وتوقفت ، حبيسة الانفاس . الى الشيطان برواية فوكنر الاخيرة وسائر البـاقي . كان يجب ان اكون بين ذراعي ليويس ، ولم اكن بينهما : لماذا ؟ وما كانت مبـــاراة البيزبول تلك لتنتهي . وانقضت ساعات ، وكان ليويس لا يزال يصغي . لو كنت على الأقل استطيع ان انام ، لكني كنت مشبعة نوماً . واخذت قراري وقلت بمرح :

– أتعرف ، يا ليويس ، انني جائعة . ألست جائعاً ؟

فقال ليويس :

– اصبري أيضاً عشر دقائق . لقـــد راهنت بثلاث زجاجات وسكي على « المردة » : ان ثلاث زجاجات وسكي لشيء هام ، أليس كذلك ؟

– هام جداً .

كنت أتعرف جيداً ابتسامة ليويس ، وذلك الصوت الساخر والحنون . كل هذا كان سيكون طبيعياً جداً في يوم آخر . وبعد كل شيء ، ربمـا كان طبيعياً ان يشبه اليومُ أيَ يوم آخر . لكن الحقيقة ان هذه الدقـائق الاخيرة بدت لي طويلة بشكل فظيع .

وقال ليويس بفرح :

– لقد ربحت ! » ونهض ، وأدار الزر : « أيتها الجائعة الصغيرة المسكينة ،

سنذهب لنتغدى ! » .

ونهضت بدوري وسرحت شعري بسرعة : « الى اين تأخذني ؟ » .

– ما رأيك بالمطعم الألماني القديم ؟

– انها لفكرة طيبة .

كنت احب كثيراً ذلك المطعم ، فلي فيه ذكريات طيبة . وتحادثنا في مرح ونحن نتناول مقانق من الملفوف الأحمر . وقص ليويس عليّ رحلته إلى هوليود. ثم اخذني الى بار المتشردين والى المرقص الصغير الاسود حيث كان يعزف في الماضي بيغ بيلي . كان يضحك ، واضحك ، والماضي يبعث . وفجأة فكرت : « أجل ، كل هذا احسن تقليده ! » . لمَ فكرت بذلك ؟ ما الذي لا يسير على ما يرام ؟ لا شيء. لا شيء البتة . لا بد انني أنا التي تتخيل أفكاراً ، فقد أتعبني السفر في الطائرة ، وكذلك انفعال الوصول . بديهي انني كنت اهذي . لقد قال لي ليويس قبل عام : « لن احاول بعد الآن ألاّ احبك . لم احبك قط بهذا القدر » .. لقد قال لي هذا ، كان ذلك بالأمس ، وكنت لا أزال أنا ، وكان لا يزال هو . ودفنت نفسي بين ذراعيه ، في التاكسي الذي كان يعيدنا الى سريرنا . كان هو هو . كنت أتعرف حرارة كتفه الخشنة . ولم أجد فمه من جديد ، ولم يقبلني . وسمعت فوق كتفي تثاؤباً .

لم أتحرك . لكني شعرت انني أغوص في أعماق الليل . وفكرت : « لا بد ان هذه هي حالة من يكون مجنوناً » . كان ضوءان باهران يمزقان الظلمات ، حقيقتان متساويتان في الثبوت ولا تستطيعان ان تكونا صحيحتين معاً : ليويس يحبني ، وحين يأخذني بين ذراعيه ، يتثاءب . وارتقيت الدرج ، وخلعت ثيابي. كان يجب ان أطرح سؤالاً على ليويس ، سؤالاً بسيطاً جداً . وكان ، مسبقاً ، يمزق حلقي ، لكن كل شيء يفضّل على هذه الفظاعة المبهمة . ورقدت . ورقد الى جانبي والتفّ بالأغطية :

– ليلة سعيدة .

كان قد أدار لي ظهره . وتشبثت به :

– ليويس . ماذا هناك ؟
– لا شيء البتة . انني متعب .
– اعني : طوال اليوم ، ماذا كان هناك ؟ ألم تجدني ثانية ؟
فقال :
– لقد وجدتك .
– اذن ، ألم تعد تحبني ؟

فساد صمت : صمت حاسم ، ولبثت فاغرة الفم . لقد استولى عليّ الخوف طوال السهرة ، لكني لم اصدق جدياً ان لخوفي مـا يبرره . وفجأة لم يعد هناك أي شك ممكن . ورددت : « ألم تعد تحبني ؟ » .

فقال ليويس بصوت معتنى به :

– انني لا أزال أحرص عليك ، كثيراً . انني أشعر بكثير من الود تجاهك . لكنه لم يعد حباً .

هو ذاك . لقد قالها . لقد سمعت هذه الكلمات باذني، وما من شيء يستطيع محوها ، أبداً . ولزمت الصمت . لم أعد أعرف ما أصنع بنفسي. انني لم أتغير قط . وكان الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وكل شيء يترنح . كان يخيل إليّ ان صوتي بالذات لم يعد ملكي . وقلت :

– كنت اعرف ذلـــك ! كنت اعرف انني سأفقدك . منذ اليوم الأول ، عرفت ذلك . وانمـــا من أجل ذلك بكيت في نادي دوليزا : كنت أعرف . والآن ، تم الامر . كيف حدث ؟

فقال ليويس :

– انما بالأحرى لم يحدث شيء . لقد انتظرتك بدون جزع ، هذه السنة . أجل ، إن المرأة لشيء محبب . اننـــا نتحادث ، وننام معاً ، ثم ترحلين : لا داعي لفقدان الرشد . لكني اقول في نفسي انه ربما سيحدث شيء ما حين اراك ثانية ...

كان يتكلم بصوت متجرد ، وكأن هـــذه القصة لم تكن تعنيني . وقلت

بضعف :

ـ انني فاهمة . فلم يحدث شيء ...

ـ كلا .

وفكرت في ضياع : « انما السبب تلك الرائحة الغريبـــة ، تلك الحرائر . ليس عليّ الا ان ابدأ كل شيء من جديد : سأرتدي ثوب السنة الماضية ... » . لكن كان من الواضح ان تنوراتي لا دخل لها في الأمر . وسمعت صوتي من بُعد قصي : « اذن ، ماذا سنعمل ؟ » .

فقال ليويس :

ـ لكني آمل كثيراً ان نمضي صيفاً مرضياً ! ألم نمض يوماً طيباً ؟

ـ يوماً جحيمياً !

ـ حقاً ؟ » كان يبدو آسفاً : « كنت اظن . انك لم تلاحظي شيئاً » .

ـ لقد لاحظت كل شيء .

وتخلى عني صوتي. لم اعد استطيع الكلام ، وبالأصل . ما الفائدة ؟ في السنة الماضية ، حين حاول ليويس ألا يحبني، شعرت من خلال ضغائنه ومزاجه العكر انه لم يتمكن من ذلك تماماً : لقد احتفظت بالأمل دوماً . اما هذه السنة ، فلم يكن يغصب نفسه : انه لم يعد يحبني ، هذا يثب الى العينين وثباً. لماذا؟ كيف؟ منذ متى ؟ لا أهمية لذلك ، فالاسئلة كلها باطلة . فالفهم هام حـين لا يزال هناك أمل ، وكنت واثقة انني لا املك شيئاً آمله .

وتمتمت : « حسناً ! ليلة سعيدة » .

وللحظة ضمني اليه وقال : « لا اريد ان تكوني حزينة » . وداعب شعري: « هذا لا يستحق الألم » .

فقلت :

ـ لا تقلق نفسك من اجلي . سأنام .

فقال :

نامي . نامي جيداً .

واغمضت عيني . اجل يقيناً ، سأنام . كنت اشعر انني منهكة اكثر مما يمكن لليلة حتى ان تنهكني . كنت افكر في برود : هو ذاك : « لم يحدث شيء . هذا طبيعي . اما اللاطبيعي ، فهو ان يكون حدث شيء ما ذات يوم . ماذا ؟ لماذا ؟ » . انني في الحقيقة لم افهم : ان الحب دوماً غير مستأهل . لقد أحبني ليويس دون سبب مقبول . ولم ادهش انا لذلك : والآن لم يعد يحبني ، وهذا بدوره لا يدهش ، بل انه لشيء طبيعي للغاية . وفجأة انفجرت الكلمات في رأسي : « لم يعد يحبني » . كان الأمر يعنيني ، كان علي ان اعوي حتى الموت . واخذت ابكي . كان يقول في كل صباح : « لمَ تضحكين ؟ لمَ انت وردية جداً ، دافئة جداً ؟ » . لن اضحك بعد الآن . كان يقول : « آن ! » . ولن يقولها ابداً بهذه اللهجة بعد اليوم . ولن ارى ثانية ابداً بعد اليوم وجهه السعيد الحاني . كنت افكر من خلال عبراتي : « يجب ان اسدد ثمن كل شيء . يجب ان أدفع ثمن كل ما أعطي دون ان اطلبه بوزنه من الدموع » . وأنّت صافرة من بعيد . وكانت قطارات تعوي . كنت ابكي . كان جسدي يتفرغ بارتعادات كبيرة من حرارته ، وكنت اصبح باردة ورخوة مثل جثة قديمة . لو كنت استطيع ان ألفي نفسي تماماً ! وعلى الأقل طالما بكيت ، فسأظل بدون مستقبل، وسيظل رأسي فارغاً : كان يخيل إليَ انني استطيع ان انتحب دون ملل حتى نهاية العالم .

وكان الليل هو الذي سبقني الى التعب . فاصفرّت ستارة المطبخ ، وانطبع عليها ظل كثيف في ملامح واضحة . عما قليل سيتوجب علي ان اقف على قدمي، وان الفظ كلمات ، وان اواجه رجلاً نام بدون دموع . لو استطعت على الأقل ان احقد عليه ، لقربنا ذلك من بعضنا . لكن لا : انه مجرد رجل لم يقع له شيء . ونهضت . كان الصباح في المطبخ ساكناً وأليفاً ، شبيهاً بكثير غيره من الأصباح . وصببت لنفسي كأس وسكي جرعته مع حبة من البنزدرين .

وقال ليويس :

— هل نمت ؟

– ليس كثيراً .

– لقد اخطأت !

وراح يهتم بالمطبخ ، وكان يدير لي ظهره، وساعدني هذا على الكلام. وقلت: « ثمة شيء لا افهمه . لمَ تركتني آتي ؟ كان عليك ان تخطرني » .

فقال ليويس بحدة :

– لكني كنت راغباً في رؤيتك . » واستدار وابتسم لي في براءة : « انني مسرور بوجودك هنا ، انني مسرور بقضاء هذا الصيف معك » .

فقلت :

– انت تنسى شيئاً ، هو انني احبك . ليس من المرح ان تعيش الى جانب شخص تحبه ولا يحبك .

فقال ليويس في لهجة استخفاف :

– لن تحبيني دوماً .

– ربما . لكنني أحبك في اللحظة الراهنة .

فابتسم : « لديك من الحس السليم ما يكفي لمنع ذلك من ان يدوم طويلاً» . وتابع : « جدياً ، كي تحيي احدهم حباً ، فلا بد ان تحتدّي . وحين يكون هناك اثنان يلعبان اللعبة ، فيمكن لهذا ان يستحق المحاولة . لكن اذا كنت تلعبين بمفردك ، فهذه بلاهة » .

ونظرت اليه في حيرة . أهو حقاً غير شاعر ، ام انه يتظاهر ؟ ربما كان يتكلم مختصاً : ربما فقد الحب كل اهمية في عينيه منذ ان كفّ عن حبي . على كل حال ، سواء أكان متعمداً ام طائشاً ، فإن انانيته تثبث لي انه لم يعد لي حساب عنده . وتمددت على السرير . كنت اشعر بصداع. واخذ ليويس يصفّ الكتب في صناديق ، وتبينت فجأة انني لم أمس الاعماق . كنت مستلقية على الغطاء المكسيكي ، انظر الى الستارة الصفراء ، والجدران : لم اعد محبوبة لكني لا ازال اشعر انني في بيتي . وربما كان هذا كله يخص امرأة اخرى. ربما كان ليويس يحب امرأة اخرى . لقد كان هناك نساء في حياته ، هذا العام . لقد

حدثني عنهن ، ولم تبــدِ لي اي واحدة منهن مقلقة . لكن ربمــا كان التقى بواحدة لم يحدثني عنها عن عمد . وناديت :

– ليويس !

فرفع رأسه : « نعم ؟ » .

– يجب ان اطرح عليك سؤالاً : أهناك امرأة اخرى !

فقال باندفاع :

– اوه ! بحق الآلهة كلا ! لن احب بعد اليوم !

وتنهدت . لقد وفر علي اسوأ ما في الأمر ! هذا الوجه الذي لن اراه ثانية، هذا الصوت الذي لن اسمعه ثانيــة . ليسا موجودين بالنسبة لأي شخص آخر . وسألت :

– لمَ تقول هذا ؟ لا تستطيع ابداً ان تعرف .

فهز ليويس رأسه وقال بصوت متردد قليلاً : « اعتقد انني لم اخلق للحب. لم يكن لأي امرأة ، قبلك ، حساب عندي . لقــد التقيت بك في لحظة كانت حياتي تبدو لي فيها فارغة جداً : لهذا القيت بنفسي في هذا الحب باندفاع كبير. ثم آل كل شيء الى مــآله » . وتفرس في وجهي بصمت ، واضاف : « مع ذلك اذا كان ثمة احد خلق لأجلي فهو انت . وبعدك ، لا يمكن ان يوجد احد » .

فقلت :

– انني ارى .

وأتم صوت ليويس الودي القضاء على كل أمل لي . لو كان عدوانياً ، ظالماً ، لحاولت دونما شك ان ادافع عن نفسي . لكن لا . كان يبدو مكتئباً مثلي تقريباً مما يحدث لنا. وكان رأسي يؤلمني أكثر فأكثر وتخليت عن المزيد من استجوابه. كان السؤال الحاسم الوحيد : « ليويس ، لو بقيت ، فهل كنت ستتابع حبي ؟ » لاجدياً لأنني على الضبط لم أبق .

وذهب ليويس ليشتري لي حبوباً مسكّنة ، وبلعت منهــا اثنتين . ونمت . واستيقظت منتفضة . وسرعان ما قلت في نفسي : « آل كل شيء الى مآله !».

وجلست قرب النافذة . كان ليويس خلف ظهري يحزم صحوناً . وكان الجو حاراً من الآن . وكان اطفال يلعبون بالكرة بين الشوك ، وكانت فتـاة صغيرة تترنح على دراجة حمراء بثلاثـة دواليب ، وكنت أعض على شفتي كي لا أذوب دموعاً. وتبعت بعيني سيارة طويلة فخمة كانت تسير ملامسة الرصيف وأشحت برأسي : المشهد نفسه ، الغرفة نفسها ، وعلى الستارة الصفراء يتعلق ظل اسود . وكان ليويس يرتدي بنطلوناً من بناطيله العتيقة المرقعة ، وكان يصفر . كان الماضي يسخر بي جهاراً ، ولم أعد أتحمل . فنهضت ، وقلت :

— اريد ان اقوم بجولة .

وركبت سيارة ، فذهبت بي حتى « لوب» وسرت طويلاً : ان السير ليشغل النفس قدر البكاء تقريباً . كانت الشوارع تبدو لي كارهـة . لقد أحببت هذه المدينة ، أحببت هذا البلد : لكن الأشياء تغيرت خلال سنتين ومـا عاد حب ليويس يحميني . ان اميركا الآن تعني القنبلة الذرية ، التهديـد بالحرب ، الفاشية الوليدة . وكان معظم الناس الذين اصادفهـم اعداء : كنت وحيدة ، محتقرة ، ضائعة . وتساءلت : « ماذا فعلت اذن ؟ » . وعند نهـاية بعد الظهر ، وجدت نفسي عند أسفل لافتة « شيلتز » . وكانت علب القمامـة في الدرب المسدود تدخن برائحة خريفية طيبـة . وارتقيت الدرج الخشبي ، ونظرت بثبات الى الرقعة الحمراء والبيضاء التي تحجب خزان الغاز . ومر قطار من بعيد فارتعدت الشرفة . كانت هذه هي الحـال بالضبط في اليوم الأول ، في الأيام السابقة . وقلت في نفسي : « الأجدر بي ان أعود إلى باريس » . كنت ألمح زاوية الشارع العريض حيث ينتظرني رحيلي من الآن . وكانت السيارة الذي ستقلني تجري في مكان ما من المدينة . وسيوقفها ليويس بحركة اعرفها ، وسيصفق الباب ، ولقد كان انصفق مرة ، اثنتين ، ثلاثاً . وهذه المرة ستكون الى الأبد . مـا الفائدة اذن من ثلاثة أشهر من الاحتضار ؟ « طالما رأيت ليويس ، طالما ابتسم لي ، فلن اشعر ابداً بالقوة لقتل حبنا في نفسي . اما القتل عن بعد ، فالجميع قادرون على ذلك » . وتسلقت الدرابزون . « لا اريد ان اقتله » . كلا لا اريـد ان يصبح

ليويس بالنسبة لي ذات يوم ميتاً مثل ديبغو .

وقال لي ليويس صباح اليوم التالي :

– آمل ان يعجبك منزل الكثبان !

فقلت :

– اوه ! بالتأكيد .

كان يضع في الصناديق الكتب الاخيرة ، علب المحفوظات الاخيرة . كنت مسرورة بمغادرة شيكاغو . فالأشياء في باركر لن تصرّ على الأقل في تقليد الماضي . ستكون هناك حديقة ، وسيكون لنا سريران ، وسيكون هذا أقل غماً . وأخذت أعد حقيبتي . ودفنت في اسفلها الشال الهندي : لن ارتديه أبداً بعد الآن ، فقد كان يخيل إليّ ان في تخاريمه شيئاً ما مؤذياً ولمست بقرف كل هذه التنورات ، والبلوزات ، وحماقات الشمس التي اخترتها في عناية كبيرة . واطبقت الحقيبة وصببت لنفسي كأساً من الوسكي .

وقال ليويس :

– يجب الا تشربي بمثل هذا المقدار .

– لِمَ لا ؟

وبلعت من البنزدرين . كنت بحاجة الى معونة لأجتاز هذه الأيام التي يجب علي فيها ان اتعلم من جديد ساعة فساعة انه لم يعد يحبني . ولقد جاء اليوم اصدقاء لأخذنا في السيارة ، لن تتاح لي دقيقة واحدة لأذهب للبكاء بهدوء في ركن ما .

– آن . افلين ، نيد .

وصافحت الايدي . وابتسمت . وعبرت السيارة المدينة ، ثم الحدائق والضواحي . كانت افلين تكلمني ، وكنت اجيب . واجتزنا سهلاً واسعاً شائكاً بالأفران العالية ، والمقاسم ، والاخشاب المدهونة جيداً ، وتوقفنا عند نهاية طريق تسده اعشاب ماردة . وكان ممر من الحصباء يؤدي الى منزل ابيض . وكانت هناك ارض معشوشبة تنحدر انحداراً بطيئاً نحو مستنقع . ونظرت

بكامل عيني الى الكثبان القادحة بالشرر ، وبالمـــاء المزهر بالنيلوفر ، وستائر الاشجار الملتفة . سوف اعيش هنا طوال شهرين ، كما لو انني كنت في بيتي ، ثم انى سوف ارحل كي لا أعود ابداً!

وقال ليويس :

– إذن ؟

– عظيم !

عند نهاية الارض المعشوشبة ، الى جانب فرن من القرميـد كانت مدخنته تـدخن ، كان اناس يفترشون الارض . وهتفوا بمرح : « أهلاً بالمستأجرين الجدد ! » .

وصافحت بضع أيدٍ : دوروثي ، أختها فرجينيا ، صهرها ويلي الذي يعمل في الافران العالية المجاورة ، وبيرت البدين الذى كان معلماً في شيكاغو . وكانت قطع من لحم الهامبورغر تشوى على صفيح الفرن الاسود ، وكانت رائحة البصل المشوي ونار الحطب طيبة . وناولني أحدهم كأس وسكي فأفرغته بجرعة واحدة: كنت بحاجة اليه . وقالت دوروثي :

– أليس المنزل جوهرة ؟ ان البحيرة وراء الكثبان بالضبط . وهناك زورق صغير لعبور المستنقع : في خمس دقائق تكونين على الشاطىء .

إنها امرأة تميل الى السواد ، صارمة الوجه متعبته ، حماسية الصوت . كانت قد احبت ليويس . وربما كانت لا تزال تحبه . غـير انه كانت في نظرتها حرارة صادقة . وقالت :

– سيكون شيئاً مدهشاً ان تشوي عشاءكما ، عند المساء ، في الهواء الطلق . ان الاحراج مليئة بالاغصان الميتة ، وليس عليك الا ان تجمعيها .

فقال لي ليويس بمرح :

– سأشتري لك فأساً صغـيرة ، وحين لا تكونين عاقـلة ، سيحكم عليك بقطع الحطب . » وامسك بي من ذراعي : « تعالي لرؤية المنزل » .

ووجدت من جديد وجهه في نار الجزع الفرحة . كان قد نظر إليّ في الماضي

بابتسامة الفخر هذه .

– قطع الأثاث الأخيرة تصل غداً . هنا سنضع السريرين . اما الغرفة التي في الصدر ، فستكون المكتبة .

لكأننا حقاً عاشقان يعدّان عشهما . وحين عدنا الى الحديقة ، شعرت بفضول متواطىء في جميع الانظار . وسألت فرجينيا : « أتحتفظان بمنزل مؤقت في شيكاغو ؟ » .

– اجل ، اننا نحتفظ بمنزل مؤقت .

كانت انظارهم تخلط بيننا . وكنت اقول « ليويس وانا » ، واقول : «نحن» سنبقى هنا الصيف بأسره ، كلا ليس لدينا سيارة ، نأمل كثيراً ان تأتوا لرؤيتنا . وكان ليويس يقول « نحن » هو الآخر . كان يتكلم بحماسة . لقد تكلمنا قليلاً جداً منذ وصولي ، وهذه هي المرة الاولى التي اراه فيها مرحاً : كان الآن بحاجة الى الآخرين ليكون مرحاً . كان الجو هنا أرطب بكثير من شيكاغو ، وكانت رائحة العشب تدوخني . كنت اشتهي لو القي عني بهذا الحمل الذي يسحق قلبي وأن اكون مرحة انا ايضاً .

– آن ، هل تريدين القيام بجولة في الزورق ؟

– اوه ! احب ذلك كثيراً .

كانت حباحب تضيء في الغسق بينما كنا نهبط الدرج الصغير . وجلست في الزورق ودفع ليويس الشط بعيداً عنا . كانت اعشاب هلامية تلتف حول المجذافين . وكان ليل ريفي حقيقي على المستنقع ، على الكثبان . لكن السماء فوق الجسر كانت حمراء وبنفسجية ، سماء كاذبة لمدينة كبيرة : كانت نيران الافران العالية تحرقها . وقلت : « انها لجميلة جمال سماوات الميسيسيبي » .

– اجل . وبعد بضعة أيام ، سيكون لنا بدر كبير .

كانت نار مخيم تتقلص عند سفح . بين فترة واخرى ، كانت نافذة تلمع خلال الاشجار . وكانت احداها نافذتنا . كانت . كسائر النوافذ التي تتألق من بعيد في الليل ، تعد بالسعادة .

وقلت :

– دوروثي جذابة .

فقال ليويس :

– اجل دوروثي المسكينة . انها تعمل في دراغ ستور في باركر وزوجها يدفع لها نفقة ضئيلة . طفلان ، طوال حياتها هنا ، حتى دون منزل تملكه : هذا صعب .

كنا نتحدث عن الآخرين فيا بيننا ، وكان الماء الاسود يعزلنا عن العالم ، وصوت ليويس حنوناً ، وابتسامته متواطئة . وتساءلت فجأة : « هل انتهى كل شيء حقاً ؟ » . كنت قد استسلمت فوراً لليأس من قبيل الكبرياء ، كي لا اشبه سائر النساء اللواتي يكذبن على انفسهن ، وكذلك من قبيل الحذر ، كي اجنب نفسي عذابات الشك ، والانتظار ، والخيبة : ربما استعجلت اكثر مما ينبغي . لم تكن طلاقة ليويس ومبالغاته في الصراحة طبيعية ، فهو في الواقع ليس خفيفاً ولا فظاً ، وما كان ليعلن بقساوة عن لامبالاته لو لم تكن نتيجة قرار . كان قد قرر ان يكف عن حبي ، ليكن : لكن اتخاذ قرار ثم التمسُّك به شيئان منفصلان .

وقال ليويس :

– يجب ان نعمّد مركبنا الصغير . ما رأيك لو سميناه آن ؟

– سأكون فخورة جداً !

ها هو ينظر الي بوجه من تلك الوجوه التي كان ينظر اليّ بها في الماضي . وكان هو الذي اقترح نزهة العشاق هذه . لعله اخذ يتعب من تعقله الكاذب ؛ لعله يتردد في طردي من قلبه . وعدنا الى البر ، وسرعان ما انصرف مدعوونا . ورقدنا جنباً الى جنب في السرير الضيق المنصوب مؤقتاً في صدر المكتبة ، واطفأ ليويس النور . وسأل :

– هل تعتقدين انك ستسرّين هنا ؟

– انا واثقة من ذلك .

واسندت خدي الى كتفه العارية . وداعب بلطف ذراعي والتصقت بــه . كانت يده على ذراعي، كان دفئه، رائحته، ولم يعد لي كبرياء او حذر . وجدت فمه منجديد وكان جسدي يذوب شهوة بينما كانت يدي تزحف على البطن الدافيء كان يشتهيني هو الآخر ، ولقد كانت الشهوة بيننا حباً دوماً . كان ثمة شيء مـا يبدأ من جديد هذه الليلة ، انني واثقة من ذلك . وفجأة استلقى فوقي ، ودخل فيّ ، وامتلكني دونما كلمة ، دونما قبلة . ولقد تم ذلــك بسرعة كبيرة حتى انني لبثت مذهولة . وقلت قبله :

– ليلة سعيدة .

فقال ليويس وهو يستدير نحو الحائط :

– ليلة سعيدة .

كان غيظ يائس يمسك بي من خناقي . وتمتمت : « ليس له الحق » انه لم يمنحني حضوره ولا لحظة واحدة ، ولقد عاملني كأنني آلة لذة . حتى لو لم يعد يحبني ، ما كان عليه ان يفعل ذلك . ونهضت ، كنت اكره دفئه . وذهبت للجلوس في غرفة الجلوس وبكيت قدر ما شئت . لم اكن افهم شيئاً . كيف اضحى جسدانا غريبين الى هذا الحد ، هما اللذان تبادلا الحب بذلك القدر ؟ كان يقول : « انني سعيد جداً ، فخور جداً » . كان يقول : « آن ! » . كان يمنحني قلبه بيديــه ، بشفتيه ، بعضوه ، بكل جسده : كان ذلــك بالأمس . تلك الليالي التي لا تزال ذكراها تحرقني : تحت الغطاء المكسيكي ، على فراشنا الصغير الذي كان يهدهده الميسيسيبي ، في ظل الكلات ، امــام نار صمغية الرائحة ، تلك الليالي ... ألن تبعث ثانية ابداً ؟

حين عدت الى السرير ، منهكة ، نهض ليويس على احد مرفقيه . وسألني في غيظ : « أهذا هو برنامجك للصيف ؟ تمضية نهار طيب والبكاء ليلاً ؟ » .

فقلت بعنف :

– اوه ! لا تأخذ هــــذه اللهجة العليا ! انما ابكي غضباً . ان ننام هكذا كالجليد ، هذا فظيــع : ما كان عليك ...

فقال ليويس :

– لا استطيع ان امنح حرارة لا املكها .

– اذن كان يجب ألا تنام معي .

فقال بهدوء :

– كنت راغبة في ذلك جداً . ولم اشأ ان ارفض .

– كان من الأفضل لو رفضت . افضل ان نقرر ألا ننام ثانية معاً ابداً .

– هذا افضل حتماً اذا كنت بعد ذلك ستقضين الليل في البكاء . حاولي اذن ان تنامي .

لم تكن هناك كراهية في صوته ، بل لامبالاة فحسب . كان هدوؤه يبلبلني. ولبثت مستلقية على ظهري ، شاخصة العينين . كانت البحيرة تزمجر من بعيد في ضجيج كضجيج مصنع . هل يقول ليويس الحقيقة ؟ هــل انا المذنبة ؟ اجل ، دون ادنى شك ، انني مذنبة : ليس لأنني استجديت مداعباته ، بــل لأنني اخترعت لنفسي آمالاً كاذبة . يقيناً ان ليويس ليس منسجماً تماماً مع نفسه ، وهذا ما يفسر وثباته في سلوكه . ولكن بالنسبة لرجل مثله هناك مسافة بين رفض الحب وغياب الحب . كان قد قرر عن عمد ان يكف عن حبي : والنتيجة هي انه ما عاد يحبني . لقد مات الماضي وانتهى . موت بدون جثة ، مثل موت دييغو : هذا ما يجعل تصديقه صعباً . لو كنت استطيع فقط ان ابكي على قبر ، لساعدني ذلك كثيراً .

قال لي ليويس صباح اليوم التالي في سيماء من قلق :

– هي ذي اقامة لا تبدأ حسناً !

فقلت :

– لكن لا ! لم يحدث شيء خطير . دعني اعتاد ، وسيسير كل شيء على مـا يرام .

فقال ليويس :

– اود كثيراً لو يسير كل شيء على مـا يرام ! يخيل إليّ اننا نستطيع ان

نقضي وقتاً طيباً معاً . حين لا تبكين ، أتفاهم جيداً معك .

كانت نظرته تسائلني . وكان هناك رياء في تفاؤله ، وكان ليويس يسترخص عواطفي الخاصة بي . إلا ان قلقه كان صادقاً . اذ كان يحزنه ان يسبب لي ألماً . وقلت :

– انا واثقة اننا سنقضي صيفاً جميلاً .

كان يشبه صيفاً جميلاً . كنـــا ، كل صباح ، نعبر في الزورق المستنقع ذا الأعشاب الهلامية ، ونتسلق الكثبان الرمليـــة التي كانت تحرق قدمي . والى اليمين ، كان الساحل المقفر يمتد الى مـــا لا نهاية ، والى اليسار ، كان يذهب ليموت عند سفح الافران العاليـــة المزدانة بألسنة اللهب . كنا نسبح ، ونسمّر لوننا تحت الشمس ونحن ننظر الى الطيور البيض الجاثمة على أرجل عاليـــة وهي تنقر الرمل . وكنـــا نعود مساء نحو المنزل ، محملين كالهنود بالأغصان الميتة . وكنت امضي الساعات في القراءة على الأرض المعشوشبة بين السناجب الرمادية . وآباء زريق الزرق ، والفراشات ، وطيور داكنة كبيرة ذات صدر أحمر . ومن بعيد كنت اسمع طقطقة آلة ليويس الكاتبة . وفي المساء كنا نشعل ناراً في فرن القرميد ، واذيب قطعة من الجليد تحنط فيها فروج مخلع المفـــاصل ، او يقطع ليويس بمنشار بفتيكاً متحجراً ونشوي تحت الرماد عرانيس من الذرة مغلفـــة بأوراق رطبة . وكنا نسمع جنبـــاً الى جنب اسطوانات ، او ننظر على شاشة التلفزيون الى فيلم قديم ، او الى مباراة ملاكمة . كانت سعادتنا متقنة التقليد حتى انه كان يخيل إلي غالباً انها ستصبح حقيقية بين دقيقة واخرى .

كانت دوروثي قد وقعت في أسر هذه الخديعة ، وكانت تفتنها . كانت تأتي في المساء غالباً على دراجتها الحمراء ، وتستروح رائحة الهـــامبورغر ، وتتنشق دخان غصون الكرمة : « ما اروع هذه الليلة ! أترين الحباحب ؟ أترين النجوم؟ ونيران المخيم تلك على الكثبان ؟ » . كانت تصف لي بنهم هذه الحيـــاة التي لن تكون حيـــاتي ابداً والتي لم تكن حياتي حقـــاً . كانت تدوخني بالتقريظ ، والنصائح ، والوفاء . وكانت هي التي اثثت المنزل ، وهي التي تمدنا بالمؤونـــة ،

وتقدم لنا علاوة على ذلك كمية من الخدمات اللامفيدة . وكانت تصل دوماً محملة برسائل عجائبية : طبخة جديدة ، نوع جديد من الصابون ، بيان يطنب في وصف غسالة من آخر طراز ، مقـــال نقدي يعلن عن كتاب مثير . وكانت تستطيع ان تحلم طوال اسابيع عن فوائد ثلاجة متقنة قادرة على الاحتفاظ بطن من القشدة الطازجة مدة ستة أشهر . لم يكن لها سقف خاص بها وكانت مشتركة في مجلة معمارية ثمينة تتأمل فيها بتلذذ مقامات أصحاب المليارات الاسطوريـة . وكنت استمع بصبر الى مشاريعها التي لن تنفذ ، والى صيحاتها الحمـاسية ، والى كل ثرثرتها المجنونة كأمرأة لم تعد تأمل شيئاً . وكان ليويس يغتاظ منها غالباً ، وكان يقول لي : « ما كنت لأستطيع أبداً ان أعيش معها ! » . كلا ، مـا كان ليستطيع ان يتزوج دوروثي ، ولم استطع أنا ان أتزوجه وما عاد يحبني . كانت هذه الحديقة ، هذه الدار ، تعدان بسعادة ليست لأي منا .

وبالطبع ، كانت دوروثي هي التي قادتنا ذات يوم احد الى معرض باركر : كانت تعبد الرحلات الجماعية . وجاء بيرت ليأخذنا في سيارته ونقلت دوروثي في سيارتها القديمة فرجينيا ، وويلي ، وافلين . ولم يعرف ليويس كيف يرفض ، لكنه كان يفتقر الى الحماسة . أما انا فكان التفكير ببعد الظهر المبهج هذا الذي كان يجب ان يتبعه عشاء عند فرجينيا ، يقطب وجهي . كنت أخاف دوماً ، حين أتعرض طويلاً للانظار ، ألا استطيع القيام حتى النهـاية بدوري كأمرأة سعيدة .

وقال ليويس وهو يدخل الى حديقة الملاهي :

– يا إلهي ! يا للناس ! يا للغبار !

فقالت دوروثي :

– آه ! لا تبدأ في الزمجرة . » واستدارت نحوي : « حين يأخذ بالتجهم ، فانه يريد ان يطفىء الشمس ! » .

كان وجهها يشع بأمل مجنون قليلاً بينما كانت تهرع نحو ميدان اطلاق الأسهم الصغيرة . وكانت ، بانتقالها من كوخ الى كوخ ، تبدو وكأنهـــا تستهلك قبل

الاوان اكتشافات فائقة للعـــادة . واجتهدت انا في الابتسام . وتأملت بكل الفضول الذي استطعت ان اجمعه القرود العالمة ، والراقصات العرايا ، والانسان ــ الفقمة ، والمرأة ــ الجذع . وفضلت الالعاب التي تتطلب انتبـاه جسدي كله : وهكذا قلبت بحماسة الاسطوانات وعلب المحفوظات ، وقدت سيارات صغيرة ، على سجاجيد متحركة ، وقدت طائرات عبر سمـاوات مصورة . وكان ليويس يراقبني في خبث : « غريب كيف تستطيعين ان تأخذي الأشياء على محمل الجد ! لكأنك تقامرين برأسك ! » .

هل كان يجب ان ارى تعريضات في ابتسامته ؟ هل كان يفكر ان حبي كان يقوم على الجدية الباطلة ذاتها ، على الحماسة الكاذبة ذاتها ؟ » واجابت دوروثي بجدة : « هذا أفضل من اتخـــاذ ملامح الاشمئزاز العريضة في كل منـاسبة » . واخذت ذراعي بحزم . وحين مررنا على كوخ مصور فوتوغرافي ، داعبت بيدها الخشنة حرير ثوبي : « آن ! تصوّري مع ليويس ! ان ثوبك جميل جداً وهـــذه التسريحة تناسبك كثيراً ! » .

فقالت فرجينيا :

ــ اوه ! اجل . اننا لنحب كثيراً صورة لك !

كنت اتردد . وامسك بي ليويس من ذراعي ، وقـــال بمرح : « هيا إذن لتخليد نفسك . ما دام يبدو انك مغرية جداً » .

وفكرت بحزن : « بالنسبة لآخرين ، وليس بالنسبة له ابداً بعد اليـوم » . وجلست الى جانبـــه في مطار مصور ، ووجدت مشقة كبيرة في الابتسام . لم يكن يلاحظ اثوابي ، اذ لم يعـد لي جسد بالنسبة له ، وبالكاد وجه لو كنت على الأقل استطيع ان افكر ان كارثة ما شوهت وجهي ! لكني انا التي احبها ومـا عاد يحبها . كان اندفاع دوروثي يشهد على ذلك ولهـذا قضى على توازني كله . كنت اذوب ، أتهاوى . كان علي ان اجلس مستقيمة وابتسم حتى لقلب الليل .

وقالت دوروثي :

ليويس ، يجب ان ترافق افلين ، ان الشمس تتعبها . انها تريد الجـــلوس

في الظل . حين ستعود من التواليت ، قدم لها كأساً بينما سنذهب لرؤية وجوه الشمع .

فقال لتوئيس :

– آه ! لا ليس انا !

– لكن لا بد من رجل ليهتم بها . انها لا تعرف بـيروت ولا تستطيع ان تستلطف ويلي .

فقال ليويس :

– لكني انا لا استطيع استلطاف افلين .

فقالت دوروثي بغضب :

– طيب ، سأبقى معها . » وبدرت مني حركة فقالت : « كلا ، ليس انت ، يا آن . هيا ، هيا : ستروبان لي » .

وبينما كنا نبتعد ، قلت لليويس : « لمَ لم تعد لطيفاً مع دوروثي ؟ » .

– لكنها هي التي دعت افلين . لم يطلب اليها احد ان تدعوها .

وامتنعت عن المناقشة ، وانشغلت في تأمل قتلة متجمدين في جريمتهم قرب ضحاياهم المتجمدة في موتها . وكانت مكسيكية صغيرة في الخامسة من العمر ، جالسة على فراش وضعها ، تهدهد طفلاً وليداً . وكان غورينغ[1] تحتضر على محمل ومشنوقون في أزياء المانية يتأرجحون على مشانق . وخلف الاسلاك الشائكة ، كانت جثث من الشمع تتراكم في كومة هائلة . وتأملتها ، مذهولة . هي ذي باشنوالد وداشو تتراجعان الى اعماق التاريخ ، بعيداً جداً مثل المسيحيين الذين تلتهمهم الاسود في متحف غريفان . وحين وجدت نفسي ثانية في الخارج ، في دوار الشمس ، كانت اوروبا كلها قد مرت عند حدود الفضاء . كنت انظر الى النساء العاريات الأكتاف ، والرجال ذوي القمصان الزهرية وهم يقضمون « هوت – داغ » او يلحسون المثلجات . ما كان من احد يتكلم لغتي ، وانا نفسي نسيتها . كنت قد فقدت ذكرياتي كلها ، وحتى صورتي : لم يكن لدى ليويس

١ - غورينغ : ماريشال الماني انتحر عام ١٩٤٦ . وكان سيخلف هتلر في الرايخ الثالث.

مرآة بارتفاع عيني ، اتبرج تحسساً في مرآة جيب . وانني لأكاد لا أذكر من انا، واتساءل ألا تزال باريس موجودة ؟

وسمعت دوروثي تقول بصوت غاضب :

– تقرر ان تعود ، ولا تطلب حتى رأي آن . يبدو انه ستعرض في الساعة السابعة افلام قديمة صامتة . ولقد حدثوني عن ساحر خارق للعادة .

كان صوتها يتضرع ، لكن جميع الوجوه حولها ظلت مغلقة . وقال ويلي .

– آه ! لنعد اذن ! هناك مارتيني ينتظرنا والجميع جائعون .

فتمتمت :

– ان الرجال انانيون للغاية !

وجلست بينها وبين ويلي في سيارتها القديمة . كانت مستاءة جداً حتى انها لزمت الصمت طوال الطريق : انا ايضاً . وحين نزلت من السيارة امسكت بذراعي وقالت على حين غرة : « لِمَ لا تبقين هنا ؟ يجب ان تبقي » .

– لا إستطيع .

– لكن لماذا ؟ هذا مؤسف للغاية !

– لا استطيع .

– على الأقل ستعودين ؟ عودي في الربيع ، فهو اجمل الفصول هنا .

– سأحاول .

كنت اقول في نفسي بغضب وانا ادخل الى البيت : « بأي حق تكلمني هكذا ؟ لِمَ كل هذا اللطف الباطل في حين ان ليويس لم يقل لي مرة واحدة : ستعودين ؟ » . وقبلت في عجلة قدح المارتيني الذي ناولني اياه ويلي. كنت ثائرة الأعصاب. وكنت أتأمل في ضيق المائدة المثقلة بالفطائر، والسَلَطات،والكاتو: إن الاتيان عليها يقتضي وقتاً طويلاً ! كانت دوروثي قد اختفت . وعادت ، وقد استحال وجهها ابيض من المسحوق، ترتدي ثوباً طويلاً رثاً ومزهراً. ووصل بيرت ، وفرجينيا ، وليويس بدورهم ، ضاحكين .. كانوا يتكلمون جميعاً معاً ولم احاول متابعة الحديث. كنت انظر الى ليويس الذي اضحى من جديد مرحاً

جداً واتساءل : « متى اجد نفسي وحيدة معه ثانية ؟ » . وهكذا ترصدت في الماضي ذهاب تيدي ، وذهاب ماريا . لكن نفاد صبري اليوم كان ابله : لن يكون ليويس قربي بعد الآن ، اذا ابتعد عن الآخرين. ووضع بيرت على ركبتي صحناً من السندويش ، وكان يبتسم لي وسمعته يسألني :

– هل كنت في باريس في ٢٤ آب ١٩٤٤ ؟

فقال ليويس بنوع من الفخر :

– لقد امضت آن الحرب كلها في باريس :

فقال بيرت :

– يالذلك اليوم ! كنا نظن اننا سنجد مدينة ميتة : وفي كل مكان كانت نساء في اثواب مزهرة ، لهن سيقان جميلة لوحتها الشمس ، مختلفات جداً عن الفرنسيات كما نتصورهن هنا !

فقلت :

– أجل ، لقد خاب فأل مراسليكم من صحتنا الجيدة .

فقال بيرت :

– اوه ! بعض الحمقى ! كان من السهل ان نفهم ان المرضى والشيوخ لم يكونوا في الشوارع ، ولا المبعدون ولا الاموات . » وأضحى وجهه حالماً : « كان يوماً خارقاً للمألوف على كل حال ! » .

فقال ويلي بأسف :

– حين وصلت ، كان الناس قد كفوا عن حبنا .

فقال بيرت :

– اجل ، سرعان ما جعلناهم يكرهوننا . لقد تصرفنا كوحوش .

فقال ليويس :

– رغماً عنا .

– كان يمكن منع ذلك ، كان يكفي بعض الحزم ...

فقال ليويس بحدة :

– أترى انه لم يشنق ما فيه الكفاية من البشر ؟ انهم يلقون بالرجـــال في الحرب ثم يشنقونهم عند اول اغتصاب !

فقال بيرت :

– لقد شنقوا الكثيرين ، موافق . لكن بالضبط : ذلـك لانه لم تتخذ منذ البداية التدابير الضرورية .

فقال ويلي :

– اي تدابير ؟

فقالت دوروثي :

– آه ! اذا أخذوا يتكلمون عن حربهم ، فلن ننتهي !

كانت وجوه المحاربين الثـــلاثة تلتمع حيوية ، وكانوا ينتزعون الكلام من انفسهم في بعبعة . لم يكن ودهم تجاه فرنسا مشكوكاً فيه ، وما كانوا يشعرون تجاه بلادهم بأي زهو ، ومع ذلك كنت استمع اليهـم في حرج : انها حربهم التي يروونها فيما بينهم ، حرب لم نكن لها إلا ذريعة مثيرة للسخرية قليـــلاً . كانت وساوسهم تجاهنا تشبه الوساس التي يمكن ان يشعر بها رجل امام امرأة ضعيفة او حيوان سلبي . ولقد كنت رأيت كيف صنعوا من تاريخنا اساطير من شمع . وحين سكتوا أخيراً ، سألتني افلين بصوت ذابل :

– وكيف هي باريس في هذا الوقت ؟

فقلت :

– مغزوة من قبل الاميركان :

فقال ليويس :

– لا يبدو ان هذا يعجبـك ؟ يا للشعب الجـــاحد ! لقد اتخمناه بالحليب الناشف ، وسنغرقه بالكوكاكولا والدبابات ، ولا يركع عند اقدامنا ! » واخذ يضحك : « اليونان ، الصين ، فرنسا . نحن نساعد ، ونساعد ، هذا جنـون . أمة من اولاد الكشافة » .

فقالت دوروثي بصوت عدائي :

– أتجد هذا مضحكاً ؟ ان التنكيت لشيء جميـــل ! » وهزت كتفيها : « حين سنلقي قنابل ذرية على الأرض كلها ، سيسلينا ليويس ايضاً ببضع نكت طيبة وسوداء للغاية » .

فنظر إليّ ليويس بمرح : أليس فرنسياً الذي قـــال ان الضحك من الاشياء أفضل من التباكي عليها ؟ » .

فقالت دوروثي :

ليست المسألة مسألة ضحك او بكاء بل عمل .

فتغير وجه ليويس : « انني اصوت لوالاس ، واتكلم عنه : ماذا تريدين ان أفعل اكثر من ذلك ؟ » .

فقالت دوروثي :

– انت تعرف رأيي بوالاس . لن يخلق هذا الرجـــل ابداً حزبـاً يسارياً حقيقياً . انه يريد ان يفيد فقط الناس الذين يريدون ان يبتاعوا ضميراً مطمئنـاً بثمن بخس ...

فقال ويلي :

– يا إلهي ! دوروثي ، ان حزباً يسارياً حقيقياً ، ليس هو ليـــويس الذي يستطيع ان يخلقه ، ولا أي منا ...

فقلت :

– ومع ذلك ، فأنتم عديدون ممن يفكرون بما تفكر : أليست هناك وسيلة لاتحادكم ؟

فقال ليويس :

– اولاً ان عددنا يتناقص اكثر فأكثر . ثم اننا معزولون .

فقالت دوروثي :

– وعلى الاخص ، انت ترى ان من المريح اكثر بكثير ان تهزأ من ان تحاول شيئاً ما .

كانت سخرية ليويس الباردة تغيظني، انا ايضاً ، احياناً . كان بصيراً، ناقداً.

بل كثيراً ما كان يسخط . لكنه كان يشعر تجاه الاخطاء والعيوب التي يأخذها على اميركا بالصميمة نفسها التي يشعر بها المريض تجاه مرضه ، والمتشرد تجاه وسخه : وكان هذا يكفي ليبدو لي بشكل مبهم انه متواطىء . وقلت في نفسي فجأة انه حاقد علي لأنني لم استحسن بلاده، وانه لم يتلاءم قط مع بلادي: وكان هذا صلفاً . وكنت احتج في نفسي : « ما كنت لأصبح اميركية مقابل اي شيء في العالم » وبينما كانوا يتابعون خصامهم ، كنت اتساءل عابثة من اين انبجست فيّ كوليت بودوش الغاضبة هذه ؟

وعادت بنا سيارة بيرت الى بيتنا ، واخذني ليويس بحنان بين ذراعيه «هل امضيت يوماً طيباً ؟ » .

كانت ابتسامته الحانية تملي علي جوابي . وما كانت حالي النفسية تهم احداً . وقلت :

ــ طيباً جيداً » واضفت : « كم كانت دوروثي عدائية ! » .

فقال ليويس .

ــ انها ليست سعيدة . » وفكر : « ولا فرجينيا ، ولا ويلي ، ولا افلين . انه لحظ كبير ان نشعر ، انت وانا ، اننا متلائمان مع نفسينا قليلاً » .

ــ انني لست متلائمة مع نفسي الى حد كبير .

ــ تمر بك اوقات سيئة ، كجميع الناس : لكن ليس ذلك مزمناً .

كان يتكلم في ثقة كبيرة حتى انني لم اجد ما اجيبه به . وتابع : «انهم جميعاً عبيد بقدر متفاوت : لأزواجهم ، لنسائهم ، لأولادهم . هذه هي تعاستهم » . فقلت :

ــ لقد قلت لي في العام المنصرم انك تتمنى ان تتزوج .

ــ احياناً افكر في ذلك .» واخذ ليويس يضحك: «ولكن ما ان سأحبس في بيت مع زوجة واولاد فلن افكر الا بشيء واحد : ان انقذ نفسي » .

وشجعني صوته المرح : « ليويس ، أتعتقد اننا سنلتقي ثانية ذات يوم ؟ » .

وفجأة غام وجهه . وقال بلهجة خفيفة : « لمَ لا ؟ » .

ـ لأننا نسكن بعيداً جداً عن بعضنا البعض .
ـ اجل نحن نسكن بعيداً .

واختفى في غرفة الحمام . كانت هذه هي الحال دوماً : ما ان اقترب منه ، حتى يتهرب . انه خائف بدون شك من ان اسأله دفئاً ، او اكاذيب او وعوداً لا يستطيع ان يمنحني اياها . واخذت اخلع ثيابي . كنت قد توقعت ان تكون هذه الخلوة مخيبة ، ولكن خيبتي لم تتضاءل مع ذلك. كان حظاً ايضاً ان ينجسم جسدي مع جسد ليويس بحيث كان يحجب لا مبالاته بدون مشقة. وكنا ننام في سريرينا المتماثلين ، تفصلنا هوة جليدية ، ولم اعد افهم حتى معنى كلمة : شهوة .

كنت اتمنى لو كان قلبي مطاوعاً ايضاً بهذا الشكل . كان ليويس يزعم ان الحب يقتضي ان يركب الانسان رأسه: لنفترض انني امتنعت عن ركوب رأسي؟ كان ليويس نائماً ، وكنت اسمع أنفاسه المتعادلة، وللمرة الأولى حاولت ان أراه بعينين غير عينيّ: عيني دوروثي المستاءتين. صحيح انه اناني. لقد قرر ان يستخلص من قصتنا اكثر قدر ممكن من البهجة واقل قدر ممكن من الانزعاج ، واما ما كنت اشعر به في نفسي فهو عنده سيان . لقد تركني آتي الى شيكاغو دون ان ينذرني بشيء ، لأنه كان يعجبه ان يراني . وما ان أصبحت تحت رحمته ، حتى اعلن لي بدون مراعاة انه ما عاد يحبني . وعلاوة على ذلك كان يطلب ان اقابله بوجه بشوش : حقاً انه لا يهتم إلا بنفسه . وباختصار ، لمَ يدافع عن نفسه بحدة كبيرة ضد التأسفات ، والانفعالات ، والألم ؟ ان في هذا الحذر شحاً . وحاولت في صباح اليوم التالي أن اجد في الصراحة قوة . فنظرت الى ليويس وهو يروي في سيماء من انشغال ارض الحديقة وقلت في نفسي: « انه رجل بين الآخرين . فلمَ اعاند في النظر اليه على انه فريد ؟ » . وسمعت سيارة البريد . ورفع الساعي العلم الأحمر الصغير المعلق بصندوق ، ورماه في الداخل مع البريد. وصعدت في ممر الحصباء. لا رسائل، بل كمية من الصحف. سوف اقرأ الصحف، ثم سأختار كتاباً من المكتبة ، وسوف اذهب للسباحة ، وسوف أستمع الى الاسطوانات بعد الظهر : كنت أستطيع أن أفعل كمية من الاشياء المحببة دون

ان اعذب رأسي او قلبي .

وصاح ليويس :

– آن ! تعالي انظري : لقد التقطت قوس قزح . » كان يروي أرض الحديقة وكان قوس قزح يتراقص في انبجاس الماء . « تعالي بسرعة ! » .

وتعرفت ذلك الصوت الملح والمتواطىء ، ذلك الوجه الفرح : وجهاً لا يشبه اي وجه آخر . كان ليويس ، كان هو نفسه . لقد كفّ عن حبي ، لكنه ظل نفسه . فلمَ اسيء التفكير به فجأة ؟ كلا . لا استطيع ان انسحب بنفسي مع مثل هذا الربح . انني في الحقيقة افهمه . فأنا ايضاً اكره التعاسة وانفر من التضحيات : انني افهم ان يرفض في آن واحد ان يتألم من اجلي وان يخسرني . انني افهم ان ينهمك انهماكاً زائداً في تجنيب قلبه المشاق مما يمنعه من القلق كثيراً لما يجري في قلبي . ثم انني اذكر لهجته ، حين قال لي وهو يقلص يده على كتفي: « انني على استعداد للزواج منك حالاً » . ففي تلك اللحظة طردت عني كل حفيظة ، للأبد . حين يريد الانسان ان يكف عن الحب حقاً ، فإنه لا يعود يحب : لكنه لا يريد عن ارادة منه .

تابعت اذن حبي لليويس : لم يكن ذلك مريحاً قط . كان يكفي حنو في صوته كي اجده ثانية بأسره . وبعد دقيقة اكون قد فقدته من جديد . وحين ذهب ليمضي يوماً في شيكاغو ، في نهاية الاسبوع ، شعرت بالأحرى بالاطمئنان: اربع وعشرون ساعة من الوحدة ، سوف تكون راحة . ورافقته الى موقف الاوتوبيس . وعدت ببطء نحو البيت ، على طول الطريق المحفوف بالحدائق والفيلات الزاهية . وجلست على الارض المعشوشبة مع كتب . كان الجو شديد الحرارة ، وما كانت ورقة واحدة تتحرك . ومن بعيد كانت البحيرة صامتة . واخرجت من حقيبتي آخر رسالة من روبير . كان يروي لي بالتفصيل قضية مدغسقر ولقد كتب هنري مقالاً سوف يظهر في العدد القادم من « الطواريء »، لكن ذلك لم يكن كافياً مطلقاً . كان لا بد من وجود صحيفة يومية او اسبوعية كبيرة الإصدار للتأثير على الرأي العام . ولقد فكر في تنظيم مهرجان خطابي ،

لكن الوقت ضيق . وطويت الرسالة . وتبعت بعيني طائرة كانت تمر في السماء: ان الطائرات تمر في كل لحظة ، وكان بإمكانها ان تقلني الى باريس . ما الفائدة ؟ لو كنت قرب روبير لحدثني بدل ان يكتب إلي ، ولكن ما كان ذلك ليفيده . انني لا استطيع شيئاً له وهو لا يناديني ، ولا أملك أي سبب للذهاب من هنا . ونظرت حـــولي : كان العشب ملساً ، والسماء مصقولة ، والسناجب والطيور تبدو كحيوانات اهلية . ولم اكن املك ايضاً أي سبب للبقاء . وأخذت كتاباً: « الادب في انكلترة الجديدة » . كان سيستهويني قبــل سنة واحـــدة ، لكن بـــلاد ليويس ، ومـاضيها ، لم تعد الآن تعنيني . وكانت جميع تلك الكتب الراقدة على الأرض المعشوشبة خرساء . وتمطيت : ما العمل ؟ لم يكن لديّ شيء أعمله على الاطلاق . ولبثت مغروسة هناك ، ساكنة مـدة بدت لي طويلة جداً ، وفجأة استولى علي الرعب . لقد قلت في نفسي غالبـــاً انه ليس هناك مصير أسوأ من ان اصبح مشلولة ، عمياء ، صماء ، مع وعي ساهر : وكان هذا مصيري . ونهضت أخيراً ودخلت الى البيت . واخذت حمامـاً ، وغسلت رأسي ، لكني لم اكن أعرف قط كيف اشغل نفسي بجسدي. وفتحت الثلاجة: ابريق من عصير البندورة ، وآخر مليء بعصير البرتقال ، وسَلطات جـاهزة . ولحوم باردة ، ولبن ، ولم يكن على إلا ان أمد يدي . وكانت الرفوف مكتظة بعلب المحفوظات ، والمساحيق السحرية ، والأرز الجاهز الذي يكفي غطسه في ماء غالٍ : في ربع ساعة تناولت عشائي . لا شك ان هناك فناً لقتل الوقت ، لكنه غريب عني . مـــا العمل ؟ واستمعت الى بضع اسطوانات ثم أدرت زر التلفزيون . وتلهيت بالقفز من محطة الى اخرى ، خالطـــة بين الأفلام ، والكوميديات ، والمغامرات ، ونشرات الاخبـار ، والمآسي البوليسيـــة ، والقصص الغريبة . ولكن في لحظة معينة حدث شيء مـــا هناك ، في العالم . كنت أدير وأدير الزر ، لكن الشاشة ظلت بيضــاء . وفكرت بالنوم . لكني للمرة الاولى في حياتي كنت خائفة من المتسكعين ، واللصوص ، والهـاربين من المصح ، كنت خائفة من النوم وخائفة من الأرق . كانت البحيرة تزمجر الآن ،

والحيوانات تطقطق الاغصان الميتة . وكان الصمت ، في البيت ، خانقاً . وارتجت جميع الابواب ، وذهبت لآتي من غرفتي بغطاء ووسادة ، وتمددت بثيابي على الاريكة وتركت النور مضاء. ونمت . وعندئذ دخل رجال من النوافذ المغلقة ، وصرعوني. وحين استيقظت كان عصفور يصفر ، وآخر يختبر الاشجار بضربات من منقاره . كنت لا أزال افضل كوابيسي على الواقع ، فأطبقت عيني ثانية ، لكن النور كان باهراً تحت جفوني . ونهضت . كم كان البيت فارغاً! كم كان المستقبل عارياً ! في الماضي ، كنت نظرت بانفعال الى البرنس الأبيض الملقى على المقعد والخفين القديمين المنسيين تحت المكتب ، أما الآن فلم أعد اعرف ما تعنيه هذه الاشياء . انها تخص ليويس ، اجل ، ليويس لا يزال موجوداً : لكن الرجل الذي كان يحبني اختفى دون ان يترك أثراً. كان ليويس : ولم يكن هو . كنت في بيته . ولدى غريب .

وخرجت ، وصعدت ممر الحصباء : لقد اختفى علم صندوق الرسائل الأحمر، ولا بد ان الساعي قد مر . واخذت البريد . كانت فيه رسالة لي : ميريام مسافرة الى المكسيك مع فيليب ، وهما يزمعان عند العودة ان يتوقفا في شيكاغو . ويأملان كثيراً ان يلتقيا بي . لم اكن قد رأيتها منذ ١٩٤٦ ولكن نانسي جاءت الى باريس في شهر ايار الماضي واعطيتها عنواني في اميركا . ولم يكن غريباً ان تكتب لي ميريام ، ومع ذلك نظرت الى الرسالة في ذهول . كانت تذكرني زمناً لم يكن فيه ليويس موجوداً بالنسبة لي : كيف اصبح غيابه هذا الفراغ المفترس ؟ فراغاً يبتلع كل شيء . كانت الحقيقة ميتة ، وكذلك ذكرياتي . من المستحيل ان اهتم ثانية واحدة بميريام ، بفيليب ، بأي شيء . لم يكن هناك اعتبار الا لذلك الرجل الذي انتظره والذي لا اعرف حتى من هو . لم اكن أعرف من أنا نفسي . وانعطفت في الحديقة ، وذرعت البيت طولاً وعرضاً ، وناديت : « ليويس ! عد ! ساعدني !» . وجرعت وسكي وبنزردين: عبثاً . دوماً ذلك الفراغ اللامحتمل . وجلست قرب النافذة المزججة وترصدت .

« ليويس ! » . كانت حوالي الساعة الثانيـــة حين سمعت وقع خطاه على الحصباء . واندفعت . كانت ذراعـــاه مثقلتين بالعلب : كتب ، اسطوانات ، شاي من الصين ، زجاجة شيانتي . لكأنها هدايا ، ولكأن اليوم يوم عيد . وأخذت الزجاجة من بين يديه :

– شيانتي : ما أحسن هذه الفكرة ! ألهوت جيـداً ؟ أربحت في البوكر ؟ ماذا تريد ان تأكل : بفتيكاً ؟ فروجاً ؟

فقال ليويس :

– لقد تغديت . » كان يتخلص من عليه ، ويخلع حذاءه ، ويضم خفيه .

– لقد استولى عليّ الخوف طوال الليل بدونك : حلمت بأن متسكعين يصرعونني .

– افترض انك شربت الكثير من الوسكي .

وجلس على المقعد قرب النافذة المزججة وجلست على الاريكة : « ستروي لي كل شيء » .

– لم يحدث شيء خارق للمألوف .

كنت قد استقبلته بالارتباك المعتاد عند النساء اللواتي مـــا عدن محبوبات : كثير من الحرارة ، كثير من الاسئلة ، كثـير من الاخلاص . كان يروي ، لكن بطرف شفتيه . أجل ، لقد لعب بالبوكر ، ولم يربح ولم يخسر . وكان تيدي في السجن ، لاسباب عادية . كلا لم يرَ مارتا . لقد رأى بيرت لكنهما لم يتحدثا عن شيء خاص . كان يبدو عليه الغيظ كلما طالبته بتفصيل ما. واخيراً أخذ صحيفة وفتحت كتاباً تظاهرت بقراءته . لم أكن قد تغديت ، لكني لم أكن أستطيع الاكل .

كنت أتساءل : « لكن ماذا أنتظر اذن ؟ » . لقد تخليت عن الامل في ان أستعيد الماضي ذات يوم. اذن ، ماذا أزمع؟ هل تستطيع الصداقة ان تحل محل حب ضائع؟لكن هذا لن يكون شيئاً كبيراً،لن يكون حباً ، ان أمكن لشيء ما أصلاً ان يقف على قدميه . كلا ، كان ذلك نهائياً كالموت نفسه . ومن جديـد

رحت افكر : « لو بقيت على الأقل بين يدي جثة !» . كنت أود لو أقترب من ليويس ، وأضع يدي على كتفه ، وأسأله : « كيف أمكن لمثل هـذا الحب ان يتبخر ؟ اشرح لي». لكنه سيجيبني: «ليس هناك ما يتطلب الشرح»واقترحت:

- ألا تريد ان تقوم بجولة على الشاطىء ؟

فقال دون ان يرفع عينيه :

- كلا لست راغباً في ذلك مطلقاً .

كانت قد انقضت ساعتان فقط . وكان لا تزال أمامي نهاية بعد الظهر كلها لاعيشها ، ثم السهرة ، والليل ، ويوم آخر ، وايام اخرى أيضاً . كيف أقتلها ؟ لو كانت هناك فقط سينما في الجوار ، او ريف حقيقي فيه غابات ومروج كنت سأمشي فيها حتى تنهك قواي ! لكن هذه الطرق المستقيمة المحفوفة بالحدائق ، أشبه بساحة سجن . وملأت كأساً . كانت الشمس تلمع ومع ذلك لم يكن النور قوياً بما فيه الكفاية ليوقف الاشياء عند حدها، فكانت تسحقني. كانت أحرف كتابي تلتصق بعيني وتعميني : لا مجال للقراءة . وحاولت ان افكر بباريس ، بروبير ، بالماضي ، بالمستقبل . مستحيل . كنت حبيسة في هـــذه اللحظة ، مكتوفة ، والغل في عنقي . كان وزني يخنقني ، وأنفاسي تسمم الجو : انمـا من نفسي كنت اريد أن أهرب . وهذا بالضبط ما لن يمنح لي أبداً . كنت أفكر: « انني اريد كل الارادة أن أتخلى عن فعل الحب ، وان أتنكر في ثيـاب امرأة عجوز ، وأن يكون شعري أبيض : لكن ألا أستطيع هجر نفسي بعد اليوم ، فيا له من عذاب ! » . ولمست يدي الوسادة ، وتركتها . كنت منقادة أكثر مما ينبغي . كان الكحول يتآكل معدتي دون ان يحدث شيء ما : ان هذا العذاب الساكن لا يمكن ان يدوم أبداً. كان ليويس لا يزال يقرأ وجاءني إلهام مفاجىء: « انه لم يعد نفسه ! » ان الرجل الذي يحبني قد اختفى وكذلك ليويس . كيف أمكن لي أن أنخدع ! ليويس ! انني لأتذكره جيداً ! كان يقول : « ان لــك رأساً صغيراً ، مستديراً .. هل تعرفـين كم أحبك ؟ » . كان يعطيني زهـرة ، ويسأل : « هل تُؤكل الزهور في فرنسا ؟ » . إلامَ صار اليه ؟ ومن حكم عـلي

بهذه الخلوة المأتمية مع مخادع ؟ وفجأة سمعت صدى ذكرى كريهة : تثاؤب .

قلت وأنا أذوب دموعاً :

— آه ! لا تتثاءب !

فقال :

— آه ! لا تبكي .

وتهالكت بكل طولي على الأريكة. كنت أهوي هوياً . وكانت اسطوانات برتقالية تدور أمام عيني وكنت أهوي في الكلمات . وقال ليويس بغضب :

— حين تبدئين في البكاء ، تأخذني الرغبة في الذهاب من هنا كي لا أعود أبداً .

وسمعته يغادر الغرفة . كنت اغيظه ، وسوف ينتهي الأمر بي الى فقدانه ، وكان علي ان أتوقف . وقاومت لحظة : ثم غصت حتى الاعماق . ومن بعيد جدا ، سمعت وقع خطا . كان ليويس يمشي في القبو ، وقد روى الحديقة، ودخل الى البيت . وتابعت البكاء .

— ألم تنتهي ؟

فلم أجب . كنت منهكة ، لكني لا أزال ابكي . انها لهائلة كمية الدموع التي يمكن ان تحتويها عينا امرأة . وذهب ليويس ليجلس الى مكتبه . وطقطقت الآلة الكاتبة . كنت افكر : « لو كان كلباً لما تركته يتألم . وانا أبكي بسببه وهو لن يقوم بحركة » . وصرفت على أسناني . كنت قد وعدت نفسي بألا اكرهه ابداً ، ذلك الرجل الذي فتح لي قلبه دون تحفظ . كنت اكرر في نفسي : « ولكنه لم يعد نفسه ! » كانت أسناني تصطك ، وما كان من الصعب أن اصاب بنوبة عصبية . وبذلت جهداً مزقني من رأسي الى قدمي ، وفتحت عيني ، وعلقت نظري بالحائط ، وصحت :

— ماذا تريد أن أفعل ؟ انني حبيسة هنا ، حبيسة معك . لا استطيع أن اذهب لأرقد في حفرة .

فقال بصوت اكثر وداً قليلاً :

– يا إلهي ! كم تسببين الألم لنفسك !

فقلت :

– انه أنت . انك لا تحاول حتى ان تساعدني .

– ماذا يمكن أن أفعل لأمرأة تبكي ؟

– لو كنت شخصاً آخر ، لساعدته .

– انني أكره أن أراك تفقدين الرشد .

– هل تعتقد انني افعل ذلك عمداً ؟ هـل تعتقد ان من السهل ان تعيش مع شخص تحبه وما عاد يحبك ؟

كان لا يزال جالساً في مقعده ، ومـا عاد يسعى الى الهرب ، لكني كنت أعرف انه لن ينتزع من نفسه الكلمة التي نحن بحاجة اليها لإنهاء هـذا الفصل . وكان علي أنا ان اخترع نهاية . والقيت بكلمات كيفما اتفق : « انني لست هنـا لا من أجلك ، ليس لي غيرك ! فحين أثقل عليك ، ماذا أستطيع ان أصبح؟».

فقال :

– لا داعي للنحيب لانني لا أرغب في الحديث معك في اللحظة نفسهـا التي تتمنين فيها ذلك . هل يجب ان انفـّذ رغباتك كافة ؟

فقلت :

– آه ! أنت ظالم جداً ! » ومسحت عيني : « أنت دعوتني لقضاء الصيف هنا ، وقلت لي انك مسرور بوجودي هنا . اذن يجب ألا تظهر هـذه الملامح الكارهة » .

– انني لست كارهاً . لكن حين تبدئين في البكاء ، تأخذني الرغبة في الذهاب من هنا ، هذا كل شيء .

فقلت :

– انني لا ابكي كثيراً الى هذا الحد . » ولويت منديلي في يـدي : « انت لا تدرك . لكأنني في بعض الأحيان عدوّ ، لكأنك ترتاب بي ، إنّ هذا فظيع» .

فابتسم ليويس ابتسامة صغيرة : « انني ارتاب قليلاً » .

فقلت :

– لا يحق لك ! انا اعرف جيداً انك لا تحبني . انني لن اسألـك ابداً شيئاً ما يشبه الحب . فأنا ابذل جهدي كي تكون لنا علاقات طيبة .

فقال ليويس :

– اجل ، انت لطيفة جـداً . » وأضاف : « لكن بالضبط ، انمــا لذلك ارتاب فيك » . وارتفع صوته : « ان لطفك لهو أخطر فخ ! فهكذا نلتني في السنة الماضية . كان يبدو لي من العبث ان ادافع عن نفسي ضد شخص لا يهاجمني، ولهذا لم أدافع عن نفسي ، وحين كنت أجـد نفسي بمفردي ، كان الاضطراب يسيطر على قلبي من جديد . كلا . لا اريد ان يتكرر ذلك ! » .

فنهضت ، وخطوت بضع خطوات محاولة تهدئة نفسي . ان يـــلومني على لطفي ، حقاً لقد تجاوز أبعد الحدود ! وقلت :

– انني لا استطيع ان أكون غير لطيفة عمداً ! » وأضفت : « انت حقاً لا تسهل الامور علي . واذا كانت الحـال هكذا ، فإنني لا أرى الا حلاً واحداً : أن أرحل » .

فقال ليويس :

– لكني لا أرغب في ان ترحلي ! » وهز كتفيه : « ليست الأمور سهلة علي انا الآخر » .

فقلت :

– أعرف .

نهائياً ، لم أستطع ان أترك الغضب يستولي علي تجاهـه . لقد تمنى أن يحتفظ بي الى جانبه ، للأبد ، ورفضت : واذا كان مزاجه اليوم متقلباً ورغباته غـــير منسجمة ، فيجب ألا ادهش لذلك . ان المرء ليناقض نفسه رغماً عنه حين يضطر الى ان يريد ما لا يريده . وقلت :

– لست راغبة في الرحيل . لكن يجب الا تبدأ بكرهي .

فابتسم : « أوصلنا الى هذا الحد ؟ » .

– منذ لحظة كنت تركتني أموت في مكاني دون ان تحرك اصبعاً .

فقال :

– هذا صحيح. ما كنت لأستطيع ان أرفع اصبعاً. لكن لم تكن خطيئتي: كنت مشلولاً .

فاقتربت منه . كنت اريد ، وقد أخذنا بالكلام أخيراً ، ان أستفيد من هذه الفرصة . فقلت :

– انت مخطىء اذ ترتاب بي . ثمة شيء يجب ان تعرفه : انني غير حاقدة عليك ، انني لم أحقد عليك قط لأنك ما عدت تحبني . ليس هناك سبب لأن تستكره التفكير بما افكر به عنك . ليس فيّ شيء يمكن ان يكون بالنسبة لك مستكرهاً .

وتوقفت . كان ينظر اليّ بشيء من القلق . كان يخاف من الكلمات . انا كذلك. لقد رأيت الكثير من النساء يحاولن ان يهدئن بالكلمات ندم أجسادهن. انني أعرف الكثيرات منهن نجحن بشكل محزن في استدراج رجل دوخته الكلمات الى السرير . انه لشيء فظيع ان تحاول المرأة اجتلاب يدي رجل الى جسدها بمخاطبتها عقله . وأضفتِ فقط :

– نحن صديقان ، ليويس .

– بالتأكيد ! » وطوقني بذراعه وهمس : « آسف على انني كنت قاسياً جداً » .

– آسفة على أنني كنت حمقاء جداً .

– أجل! واية حمقاء ! ومع ذلك فقد خطرت لك فكرة طيبة : لمَ لم تذهبي لترقدي في حفرة ؟

– لأنك ما كنت ستأتي لاخراجي منها .

فضحك : « بعد يومين ، كنت أخطرت البوليس » .

فقلت :

– انت تربح دوماً . ليس هذا عدلاً : لن أستطيع ابداً ان اتألم طوال

يومين ، ولا ان احاول ايلامك ساعة واحدة .

– هذا صحيح . لا يوجد خبث كثير في هذا القلب المسكين . ولا كثير من الحكمة في هذا الرأس !

– لهذا يجب ان تكون لطيفاً معي .

فقال وهو يشدني إليه بمرح :

– سأحاول .

ومن ذلك الحين ، تضاءلت المسافة بيننا . حين كنا نتنزه على الشاطىء ، حين كنا نرقد تحت الشمس ، او عند المساء ونحن نصغي الى الاسطوانات ، كان ليويس يكلمني بوفرة . كان تفاهمنا يُبعث ثانية . لم يعد يخشى أن يطوقني ، ويقبلني . بل لقد فعلنا الحب ، مرتين او ثلاثاً . وحين أحسست بفمه الذي كان يلاقي فمي ، اخذ قلبي يخفق بجنون : ان قبلات الشهوة تشبه للغاية قبلات الحب ! لكن سرعان ما تمالك جسدي نفسه . لم يكن الا جماعاً زوجياً قصيراً ، فعلاً لا يعني شيئاً حتى انني لم أفهم كيف امكن لافكار اللذة والخطيئة الكبيرة ان ترتبط به .

كانت الايام تمر دون شفقة كبيرة . وكانت الليالي على الاخص هي الصعبة عليّ . كانت دوروثي قد اهدتني كمية من الكبسولات الصغيرة الصفراء : كانت تلك مجموعة من الحبوب ، والاقراص ، والكبسولات ، لمختلف الاستعمالات . وكنت ابلع دوماً حبتين منومتين او ثلاثاً قبل ان اذهب الى الفراش ، لكني كنت انام واشاهد احلاماً . وسرعان ما شكوت من ألم جديد : بعد شهر ، او خمسة عشر يوماً ، او عشرة ايام ، سوف ارحل . هل سأعود ذات يوم ؟ هل سأرى ليويس ثانية ؟ لا شك في انه نفسه لم يكن يعرف الجواب : كان لا يحسن التنبوء بمشاعر قلبه .

وقررنا ان نقضي الاسبوع الاخير في شيكاغو . وذات مساء تلفنت ميريام من دنفر لتسألني هل نستطيع ان نلتقي . وقلت نعم واتفقنا مع ليويس ان اذهب الى شيكاغو قبله بيوم : وسوف ألاقيه في البيت في اليوم التالي حوالي

منتصف الليل . كان هـــذا في حينه يبدو بسيطاً جداً ، لكني صباح رحيلي ، شعرت بقلبي لا يطاوعني . كنا نتنزه على طول الشاطىء. وكانت البحيرة خضراء قاسية حتى انه كان يمكن السير على امواجها . وكانت فراشات ميتة ترقـد على الرمل . وكانت المنازل الريفية مقفلة كلها ، باستثناء كوخ للصيادين الذين كانوا يجففون شباكهم بحذاء مركب اسود . وكنت افكر : « انهـا المرة الاخيرة التي أرى فيهـا الحديقة . المرة الاخيرة في حياتي » . كنت انظر بكل عيني . لم أكن اريد ان انسى . ولكن كان لا بد ، لكي يبقى الماضي حياً ، ان اغذيه بالتأسفات والدموع . ولكـن كيف احتفظ بذكرياتي واحمي قلبي ؟ وقلت على حين غرة : سأتلفن لأصدقائي بأنني لست ذاهبة » .

فقال ليويس :

– لماذا ؟ يا لهذه الفكرة !

– افضل ان ابقى هنا يوماً آخر .

فقال ليويس مؤنباً ، وكأنه لا يستغرب شيئاً كما يستغرب تقلبـات المزاج : « لكنك كنت مسرورة جداً برؤيتهم » .

فقلت :

– لم تعد بي رغبة .

فهز كتفيه : « انني اجدك لا معقولة » .

ولم أتلفن . بالفعل ، كان من اللامعقول ان أبقى ما دام ليويس يجد بقائي لا معقولاً . ولم تعد عنده أهمية لرؤيتي يوماً بالزائد او بالناقص ، اذن ماذا يفيدني ان اجرجر نفسي يوماً آخر على هـــذا الشاطىء ؟ وودعت الجميع . وقـالت دوروثي : « ستعودين ؟ » ، وقلت : « اجل » . واعددت حقائبي ، وعهدت بها الى ليويس ولم احمل الا حقيبة ليل صغيرة. وحين اطبق وراءنا باب البيت سألني: «ألا تريدين ان تودعي المستنقع؟»فهززت رأسي واتجهت نحو موقف الاوتوبيس. لو كان يحبني ، لما كانت مأساة ان اتركه لأربع وعشرين ساعة . ولكن الـبرد كان يستولي على قلبي : كنت بحاجة لوجوده لأتدفأ . كنت قد بنيت لنفسي في

هذا البيت عشاً غير مريح ، لكنه عش على كل حال ، وكنت أتدبر أمري فيه. كنت اخشى ان اغامر في الجو العاري .

وتوقف الاتوبيس . ووضع ليويس على خدي قبلة روتينية : « إلهيْ جيداً » وانصفق الباب، واختفى. عما قريب سوف ينصفق باب آخر ، وسوف يختفي، للأبد : كيف سأتحمل بعيداً عنه هذا اليقين ؟ وحين جلست في القطار ، كان الليل يسدل ستوره . وكانت وردة بلون الشاي تنتشر في السماء . وأخذت افهم انه يمكن للمرء ان يغمى عليه اذا تنشق وردة . وعبرنا المرج . ثم دخل القطار الى شيكاغو . كنت أتعرف الواجهات المبنية من القرميد الأسود والمتصلة بأدراج وشرفات خشبية : كان ذلك منسوخاً بآلاف النسخ ، بيت حي الذي لم يعد بيتي .

ونزلت في المحطة الرئيسية. كانت نوافذ البنايات الشاهقة تضاء، وقد أخذت لافتات النيون تلمع . الانوار ، الواجهات الزجاجية الحافلة ، وضجة الشوارع العظيمة كانت تدوخني . وتوقفت عند ضفة النهر . كانت جسوره مرفوعة ، وكانت باخرة سوداء المداخن تشق في ابهة المدينة الخانعة الى قسمين . ونزلت ببطء نحو البحيرة بحذاء المياه الداكنة التي كانت تلمع فيها نيران حبيسة . لم تكن هذه الصخور الشفافة ، هذه السماء المدهونة ، هذه المياه التي تتصاعد منها انوار مدينة مغمورة ولجبتها ، حلماً ، يحلمه شخص آخر : بل كانت انسانية ، رابلة ، واقعية ، مدينة أرضية امشي عليها ، بلحمي وعظمي . وما كان اجملها تحت بروكارها الفضي ! كنت انظر اليها بكل عيني، وكان شيء ما يدب بخجل في قلبي . يظن ان الحب هو الذي يعطي العالم رونقه كله : لكن العالم يغني الحب ايضاً بثرواته . كان الحب ميتاً ، وها هي الارض لا تزال هنا ، سليمة بأناشيدها السرية ، وروائحها ، وحنانها . كنت اشعر بنفسي منفعلة كالناقه الذي يكتشف اثناء حمّياته ان الشمس لم تنطفىء .

لم تكن ميريام ولا فيليب يعرفان شيكاغو . لكنها وجدا الوسيلة ليضربا لي موعداً في اكثر مطاعم المدينة ارستقراطية . وتوقفت امام مرآة ، وانا اجتاز

قاعة البهو الفخمة . كانت المرة الاولى منذ عدة اسابيع التي انظر فيهـا الى نفسي وجهاً لوجه . كانت تسريحتي وزينتي على طريقـة أهل المدن ، وكنت قد اخرجت بلوزتي المفصلة من القماش الهندي . كانت ألوانها لا تزال زاهية كما كانت في شيشيكاستينانغو ، فأنا لم اهرم ، ولم يتغضن وجهي . ولم يكن مستحباً عندي ان التقي بصورتي . وجلست الى البار ، وتذكرت مندهشة وأنا أشرب كأس مارتيني انه توجد انتظارات هادئة وان الوحدة يمكن ان تكون خفيفة .

– آن العزيزة ! » كانت ميريام تقبلني . كانت تبدو اصغر وأكثر حزمـاً تحت شعرها الابنوسي والفضي . وكانت قبضة يـد فيليب محملة بتلميحات لا يمكن التصريح بها . كان قد سمن قليلاً . لكنه احتفظ بسحره المراهق ، وأناقته الباردة . وتكلمنا بلا تناسق عن فرنسا ، وزواج نانسي ، والمكسيك . وذهبنا لطلب طاولة في القاعة الكبيرة ذات السقف الراشح بالبلور والتي كان يديرهـا رئيس خدم صلف . كانت – الله يعلم اي نزوة تكمن وراء ذلك – صورة طبق الاصل لقاعة « باث[1] » المسماة « بامب روم » حيث كان انكليز القرن الثـامن عشر الأنيقون يأتون لشرب الميـاه . وكان خدم زنوج متنكرون في ثياب ماهاراجات هنود يرفعون على السفافيد ارباع الخراف المتلظية . وكان آخرون ، متقنعون في ثياب خدم القرن الثامن عشر ، يحملون سمكات ماردة .

وقلت :

– يا لها من مسخرة !

فقال فيليب ، وهو يبتسم بابتسامته الرقيقة :

– انني احب هذه الامكنة السخيفة .

كانوا قـد افرغوا له اخيراً الطاولة التي حجزها ، وبذل عنايـة كبيرة في تشكيل طعامنا . وحين بدأنا نتحادث ، تبينت بدهشة اننا لم نكن متفقين على اي شيء تقريباً . كانا قد قرآ كتاب ليويس ، ولم يجداه صعباً على الفهم بما فيه الكفايـة . وكانت مصارعات الثيران في مكسيكو قـد اثارت اشمئزازهما .

١ – باث : بلدة مياه معدنية في انكلترا « المترجم » .

وبالمقابل ، بدت لهما القرى الهندية في هندوراس وغواتيمالا جنات عدن شاعرية.
وقلت :

– شاعرية للسياحة ! لكن ألم تريا جميع أولئك الصبيان العميان ، والنساء ببطونهن المنتفخة ؟ جنات غريبة !

فقال فيليب :

– يجب ان نحكم على الهنود حسب مقاييسنا نحن .

– حين يموت الانسان جوعاً فهو يموت جوعاً ، هذا واحد بالنسبة لجميع الناس .

فرفع فيليب حاجبيه وقال : « غريب . ان اوروبا تتهم الاميركان بأنهم ماديون . لكنكم تعلقون من الاهمية أكثر بكثير مما نعلق على المظاهر المادية للحياة » .

فقالت ميريام :

– ربما يجب على الانسان ان يتمتع بالرفاهية الاميركية ليفهم الى أي حد لا تهم الرفاهية .

كانت تلتهم في تجرد حصتها من البطة بالكرز ، وكان ثوبها الكهربائي الزرقة يكشف عن كتفين جميلتين ناضجتين : كانت قادرة حتماً على النوم في منزل متنقل ، وعلى اتباع حمية نباتية مدروسة مقاديرها بعناية ، لبعض الوقت .
وقلت بحدة قليلاً :

– ليست المسألة مسألة رفاهية . ان يكون الانسان محروماً مما هو ضروري ، فهذا شيء يهم . ولا شيء آخر يهم .

فابتسم لي فيليب : « ما هو ضروري للبعض ليس ضرورياً للآخرين ، انت تعرفين خيراً مني مدى ذاتية السعادة » . ودون ان يترك لي الوقت لاجيب ، تابع : « نحن نفكر كثيراً بالذهاب لتمضية سنة او سنتين في هندوراس للعمل في هدوء . انا واثق ان هذه الحضارات القديمة تستطيع ان تعلمنا الشيء الكثير » .

فقلت :

– لست ارى حقاً ماذا . فبمقدار ما تنتقد ما يجري الآن في اميركا ، يجدر بك ان تحاول فعل شيء ما ضد ذلك .

فقال فيليب :

– انت ايضاً ، تستسلمين لهذا العصاب ! التأثير : انه الفكرة المسيطرة على جميع الكتّاب الفرنسيين . هذا يكشف عن عُقد مثيرة : لانهم يعلمون تماماً انهم لن يغيروا شيئاً .

فقلت :

– جميع الكتاب الاميركان يشكون من العجز ، وهذا ما يبدو عقدة مثيرة للفضول . لن يكون لـك الحق في ان تسخط يوم تسيطر الفـاشية على اميركا بأسرها ، او يوم تدلع اميركا نار الحرب .

فتركت ميريام قطعة اللحم المحشوة بالارز والمشكوكة بطرف شوكتهـا تسقط ، وقالت بجفاء : « انت تتكلمين كشيوعية ، يا آن » .

فقال فيليب وهو يحدجني بنظرة مثقلة بالتأنيب :

– اميركا لا تريد الحرب . قولي ذلك لاصدقائك الفرنسيين . واذا كنا نهيئها بنشاط ، فهذا بالضبط كي لا نضطر الى خوضها . ولن نصبح ابداً فاشيين .

فقلت :

– ليس هذا مـا كنت تقوله قبل سنتين . كنت ترى ان الديموقراطية الاميركية مهددة جدياً .

فأصبح وجه فيليب خطيراً للغاية : « ما فهمته منذ ذلك ، هو انه لا يمكن الدفاع عن الديموقراطية بطرق ديموقراطية . ان تعصب الاتحاد السوفياتي يرغمنا على تصلب مماثل . وهـذا يؤدي الى مبالغات انا اول من يأسف لها : لكنها لا تعني اننا اخترنا الفاشية . انها تعبر عن المأساة العامة للعالم الحديث » .

وتفرست فيه بدهشة . كنا نتفاهم جيداً قبل عامين . كان يطالب آنذاك بقوة باستقلال فكره : ولقد ترك الدعاوة الرسمية تقنعه بسهولة كبيرة ! كان ليويس على حق بدون شك حين قال لي : «ان عددنا يتناقص اكثر فأكثر ...».

وقلت :

– بتعبير آخر ، ان السياسة الحالية لوزارة الخارجية تبدو لك انها يقتضيها الموقف ؟

فقال بلطف :

– حتى لو كان بامكاننا ان نتصور سياسة مغايرة ، يا عزيزتي آن ، فلن اكون انا القادر على فرضها . كلا ، اذا كنا نتمنى ان نرفض كل تواطؤ مع هـذا العصر المحزن ، فان الحل الوحيد هو ان ننسحب الى زاوية ما ضائعة وان نعيش فيها بعيداً عن العالم .

كانا يريدان ان يتابعا بلا همٍ حياتهما الجميلة المريحة ، ولن تقف اي حجة عقبة في وجه انانيتهما الملحوظة . وقررت ان اترك الموضوع ، وقلت : « اعتقد اننا نستطيع ان نتناقش طوال الليل دون ان يقنع احدنا الآخر . انه لوقت ضائع ، فالمناقشات لا تؤدي الى شيء » .

فقال فيليب مبتسماً :

– خاصة واننا حرمنا منك مدة طويلة جداً واننا سعداء جـداً برؤيتك ثانية ! » واخذ يتكلم عن شاعر اميركي جديد .

قال فيليب ونحن نخرج من المطعم :

– آن ، اننا نضع هذه الليلة بين يديك . انا واثق انك دليل مدهش .

وركبنا السيارة واخذتها الى شاطىء البحيرة . ووافق فيليب : « انه اجمل خط جوي في اميركا ، اجمل من خط نيويورك » . وبالمقابل اتضح ان المسارح ادنى مستوى من مسارح بوسطن ، وان بارات المتشردين اقل غرابة من بارات سان فرنسيسكو . وكانت هذه المقارنات تدهشني : بمَ يمكن ان اقارن تلك الامكنة التي اخرجها ليويس ذات ليلة من العدم؟ هل لها مكانها اذن في الجغرافية؟ والواقع انني كنت اكتشف بيسر من خلال ذكرياتي الطرق التي تقود اليها . كان نادي ديليزا يمت الى ماضٍ متوفى ، ولم يكن يقع في اي مكان على الارض : وها هو يظهر عند زاوية شارع متصالب مع شارع آخر ، وكان لكليهما اسم ، وكانا

مؤشرين على خارطة ما .

وقال فيليب في سيماء من رضى :

— ان المكان ممتاز .

وبينما كنت انظر الى المشعوذين ، والراقصين ، والبهلوانيين ، كنت أتساءل باستياء ما كان سيحدث لو انه اجاب قبل عامين على الهاتف : « انني قادم » . لا شك في اننا كنا سنقضي بضع ليالٍ جميلة ، ولكن ما كنت احببته مدة طويلة ، ما كنت أحببته أبداً حباً حقيقياً . كان يبدو لي غريباً جداً ان تكون الصدفة قد قررت بدلاً عني بثقة كبيرة . ولا ريب في أنها لم تكن صدفة إذا كان فيليب قد فضل علي نهاية اسبوع في « كاب — كود » اذا كان احتراماً لامه لم يلحق بي الى غرفتي . ولما كان اكثر حماسة ، واكثر كرماً ، فانه كان سيفكر ، ويشعر ، ويعيش ، بطريقة مختلفة ايضاً : كان سيكون شخصاً آخر . هذا لا يمنع ان الظروف المختلفة قليلاً كان يمكن ان تلقي بي بين ذراعيه ، وان تحرمني من ليويس . كانت هذه الفكرة تثير تمردي . لقد كلفتني قصتنا الكثير من الدموع . ومع ذلك ما كنت لأقبل بانتزاعها من ماضيّ مقابل أي شيء في العالم . وأحسست فجأة بعزاء لانها ، حتى ولو انتهت ، وصدر الحكم عليها ، ستتابع ابداً الحياة فيّ .

حين خرجنا من النادي ، عاد بنا فيليب باتجاه البحيرة . كانت البنايات الشاهقة قد تبخرت في ضباب الفجر . وأوقف السيارة بحذاء المشتل ، ونزلنا نحو البساتين المظلة على البحيرة لنسمع عن قرب أقرب هدير للمياه المزرقة : كم كانت جديدة تحت السماء ذات الانعكاسات المائلة الى الزرقة ! وقلت في نفسي بأمل : « انا أيضاً ، ستبدأ حياتي من جديد : ستكون ايضاً حياة ، حياتي الخاصة بي » . وبعد ظهر اليوم التالي اخذت ميريام وفيليب للنزهة عبر الحدائق، والشوارع، والاسواق التي تخص بكل وضوح مدينة أرضية أعرف كيف أتوجه فيها دون وصاية . وإذا كان العالم قد أعيد إلي ، فإن المستقبل لم يعد مستحيلاً كل الاستحالة .

ومع ذلك ، حين اتجهت السيارة الحمراء نحو نيويورك عند الغسق ، ترددت في العودة : كنت خائفة من الغرفـة المهجورة ومن الحداد في قلبي . وذهبت الى دار السينما . ثم سرت في الشوارع . لم اكن قـد تنزهت قط بمفردي في شيكاغو ليلاً . كانت المدينة ، تحت أرديتها المغطاة بنثار الذهب ، قد فقدت هيئتهـا المعادية ، لكن لم اكن اعرف ما افعل بها . كنت اتسكع ، محتـارة في حفلة أُدعَ اليها ، وكانت عيناي تغرورقان . وشددت على شفتي . كلا ، لا اريـد البكاء . وفي الحقيقة ، انني لا أبكي ، قلت ذلك في نفسي . انهـا أنوار الليل التي ترتعد فيّ ، ولمعانها يتكثف في قطرات مالحة عند حافة اهدابي . لأنني هنا ، لأنني لن أعود ، لأن العالم غني جداً ، فقير جداً ، والماضي ثقيل جداً ، خفيف جداً . لأنني لا أستطيع ان اجد السعادة في هذه الساعة الجميلة جداً ، لأن حبي مات وانا لا أزال على قيد الحياة .

وركبت سيارة . ووجدت نفسي من جديد عند زاوية الممر المزحوم بعلب القمامة . وعند المدخل المعتم ، اصطدمت بالدرجة الاولى من الدرج . وكان يلمع حول خزان الغاز اكليل أحمر ، ومن بعيد كان قطار يصفر . وفتحت الباب . كانت الغرفة مضاءة، لكن ليويس نائم . خلعت ثيابي،اطفأت النور ، وانسبت في هذا السرير الذي طالما بكيت فيه . اين وجدت هـــذه الدموع كلها ؟ لأي شيء ؟ وفجأة لم يعد في داخلي ما يستحق نحيباً . وانسحقت بالجدار . منذ زمن بعيد لم ارقد في حرارة ليويس ، فكان يخيل إليّ ان مجهولاً قـد تخلى لي إشفاقاً عن قطعة من فراشي . وتحرك ، ومد يده :

— هل عدتِ ؟ كم الساعة ؟

— منتصف الليل . لم اشأ ان آتي قبلك .

— اوه ! كنت هنا في العاشرة . » كان صوته قد استيقظ تماماً : « مـا أحزن هذا المنزل أليس كذلك ؟ » .

فقلت :

— لقد كان يوجد سحر ، هنا .

ـ سحر ؟ لست ادري . لكن كان يأتي أناس على الأقل ، وتحدث أمور .

كان ، وهو مستلقٍ على ظهره في الظلام ، يتذكر بصوت عال الايام والليالي التي انقضت في هذه الغرفة ، كان قلبي ينقبض . كانت حياته قد بدت لي شاعرية مثلما بدت لفيليب حياة الهنود ، لكن اي وجـــود مترمت بالنسبة له ! كم من اسابيع ، كم من أشهر دونما لقاء ، دونما مغامرة ، دونما حضور ! ألا كم تمنى ولا بد امرأة تكون له بأسرها ! لقد ظن لحظةً انه يفلت من الوحدة ، وتجرأ على تمني شيء آخر غير الأمن : ولقد خاب أمله ، وتألم ، ثم تمالك نفسه . وأمررت يدي على وجهي : ستظل عيناي بعد اليوم جافتين . انني أفهم كل الفهم انـــه لم يستطع ان يعرض نفسه لترف الأسف،ولا لترف الانتظار انني لا اتمنى ان اكون حطاماً في حياته . ولم يكن لي الحق حتى في تأسف ما . لم تبق لي شكوى . لم يبق لي اي شيء على الاطلاق . وفجأة ، اضاء النور ، وابتسم لي :

ـ آن ، ألم تقضي صيفاً رديئاً أكثر مما ينبغي ؟

فترددت : « انه لم يكن افضل صيف في حياتي » .

فقال :

ـ اعرف ، اعرف . وهناك اشياء كثيرة آسف لها . لقد ظننت احياناً انني اشعر بنفسي متفوقاً او معادياً . لم يكن ذلك صحيحاً البتة ، لكني ، في بعض اللحظات ، تسيطر عقدة على صدري . وعندئذ أفضل أن اترك الجميع يموتون وانا معهم على أن أقوم بحركة .

فقلت :

ـ اعرف أيضاً . افترض ان هذا يعود الى تاريخ بعيد . لا بد ان هذا عائد للشباب القاسي الذي عشته ، ولطفولتك أيضاً دون ريب .

فقال ضاحكاً ، ولكن بعد ان اصبح على أهبة الدفاع عن نفسه :

ـ آه ! لن تحلليني تحليلاً نفسياً !

ـ كلا ، لا تخف . لكني اذكر انني حين أردت ، منـــذ سنتين ، في نادي ديليزا ، ان اعيد اليك خاتمي وأسافر الى نيويورك ، قلت لي فيما بعد : « مسـ[illegible]

كنت لأستطيع ان انتزع من نفسي كلمة واحدة ... » .

– أقلت هذا ؟ اي ذاكرة لك !

فقلت :

– اجل ، ان لي ذاكرة جيدة . وهذا لا يساعد . الا تذكر اننا فعلنا الحب ذلك المساء دونما كلمة ، وكنت تبدو شبه كاره ، وقد قلتُ : « هـل تضاءلت صداقتك نحوي ؟ » . وعند ذاك أدرت لي ظهرك واجبتني : « صداقة ، لكني احبك ! » .

كنت قـد قلدت صوته الأبح فانفجر ليويس ضاحكاً : « هـذا يبدو لا معقولاً ! » .

– لقد قلت ذلك ، بهذه اللهجة .

فتمتم بلهجة خفيفة ونظره شاخص الى السقف :

– ربما كنت لا ازال احبك .

لو قال هذه الجملة ، قبل بضعة اسابيع ، لتشبثت بها بنهم ، ولحاولت ان اولد منها املاً . لكنهـا لم تبعث صدى في نفسي . كان من الطبيعي ان يتساءل ليويس عن أحواله النفسية . واللعب على الكلمات ممكن دومـاً . لكن على كل حال كانت قصتنا قد انتهت ، وكان يعرف ذلك وانا ايضاً .

لم نتكلم لا عن الماضي ولا عن المستقبل ، ولا عن عواطفنا خـلال الايام الاخيرة : كان ليويس هنا وكنت الى جانبه ، وكان هذا يكفي . ولما لم نكن نسأل شيئاً ، لم يكن يُرفض لنا شيء : كنا نستطيع ان نعتقد اننا طافحان . وربما كنا كذلك . وليلة رحيلي ، قلت :

– ليويس ، لا ادري اذا كنت سأكف عن حبك . لكني اعرفه انـك ستكون في قلبي طوال حياتي .

فضمني اليه : « وانت في قلبي ، طوال حياتي » .

هل سنلتقي ثانية ذات مرة ؟ لم أعد أرغب في التساؤل . ورافقني ليـويس الى المطار ، وتركني امام شبابيك التذاكر مع قبلة سريعة ، وأسكنت الفراغ في

نفسي . وقبـــل ان استقل الطائرة بالضبط ، سلمني مستخدم علبة من الورق المقوى ترقد فيها تحت غطاء من الورق الحريري زهرة اوركيديا كبيرة ، حـين وصلت الى باريس ، لم تكن قد ذبلت بعد .

الفصل الحادي عشر

كانت نحلة تطن حول المنفضة ، رفع هـنري رأسه واستنشق رائحة القبس الحلوة . ومن جديد انسابت يده على الورق ، أنهى نسخ الصفحـــة المشطوبة . كان يحب هذه الاصباح في ظل الزيزفون ، ربما كان ذلك لانه لم يعد يفعل شيئاً غير الكتابة : كان كتاب ما يبـدو له من جديد شيئاً له أهميته . ثم انه كان مسروراً من ان دوبروي أحب روايته . ويقيناً سوف تعجبه هذه القصة القصيرة أيضاً . كان هنري يشعر انه ، لمرة واحدة ، فعل ما كان اقترحه على نفسه : انه لشيء محبب ان يكون الانسان راضياً عن نفسه .

وظهر رأس نادين من احدى النوافذ ، بين مصراعين زرقاوين :

– لكم يبدو عليك الاجتهاد ! لكأنك تلميذ يكتب وظائف عطلته .

فابتسم هنري . كان ضميره مرتاحاً سعيداً كضمير تلميذ . وسأل :

– هل استيقظت ماريا ؟

فقالت نادين :

– أجل ، سننزل .

فرتّب اوراقه . الظهر . لقد حان ان ينصرف اذا كان يريد ان يتجنب شارلييه وميريكو . سوف يتفاوضان من جديد مع دوبروي ، بشأن تلك الصحيفة الاسبوعية : وكان هنري قد سئم من التكرار : « لا اريـد ان أتدخل فيها » .

وقالت نادين :

– ها نحن ذا !

كانت تحمل بيد كيس مؤن ، وتحمل بالأخرى شيئاً كانت فخورة به جداً : كان شيئاً وسطاً بين الحقيبة والمهد . وأمسك هنري به ، فقالت نادين :

— انتبه ! لا تزعجها !

فابتسم هنري لماريا . كان لا يزال مدهوشاً من انه أخرج من العدم فتاة صغيرة جديدة كل الجدة ، فتاة صغيرة زرقاء العينين ، سوداء الشعر ، كانت له . كانت تنظر الى الفراغ بثقة بينما كان يضعها في صدر السيارة . وقال :

— لنهرب بسرعة !

وجلست نادين الى المقود . كانت تعبد القيادة .

— سأمر اولاً بالمحطة لشراء صحف .

— إذا كنت مصراً .

— بالتأكيد . انا مصرّ . خاصة وان اليوم خميس .

كانت تظهر يوم الخميس « السندان » و « الأمل — المجلة » التي اندمجت بـ « الايام الجميلة » . وما كانت نادين تريد ان تفلت منها مثل هذه الفرص الجميلة للاستنكار .

وابتاعا كمية من الصحف وتابعا طريقهما نحو الغابة . لم تكن نادين تتكلم حين كانت تقود ، فقد كانت شديدة الانهماك . ونظر هنري في ودّ الى وجهها الجانبي العنيد . كان يجدها مثيرة حين تنهمك بأسرها وبحماسة جدية في مهمة ما . وهذا ما أثّر عليه على الاخص حين عاد الى رؤيتها ، اعني ارادتها الطيبة اللامنظمة . لقد قالت له في اليوم الاول : « أتعرف ، انني تغيرت » . لم تكن قد تغيرت كثيراً ، لكنها كانت قد ادركت ان شيئاً ما فيها لا يسير كما ينبغي ، وكانت تحاول ان تعيد تكوين نفسها : ولقد أراد ان يساعدها . لقد قال في نفسه انه اذا ما جعلها سعيدة ، فسوف يحررها من ذلك الاحساس الغامض الذي يسمم حياتها. وما دامت راغبة رغبة عظيمة في ان يتزوجها ، فقد قرر ان يتزوجها : كان متعلقاً بها بما فيه الكفاية لتجربة ذلك. يا لها من فتاة غريبة ! كان يجب دوماً ان تنتزع منك بقتال عظيم ما انت على استعداد لمنحها إياه كل الاستعداد . كان

هنري واثقاً من انها دبرت حبلها بحيلة ، بغشها في الارقام ، لتقسره قسراً . وفيما بعد ، بالتأكيد ، أقنعت نفسها انها حين وضعته امام الامر الواقع ساعدته فقط على وعي رغباته الحقيقية . وتفرس فيهـــا بحيرة . كانت تملك كنوز الخبث ، لكنها كانت تملك ايضاً الكثير من الذكاء البصير. يقيناً انها كانت تشك في اعماقها بأنه تصرف بكامل ارادته . ولهذا السبب الى حـــد كبير لم ينجح في إسعادها حقاً : كانت تقول في نفسها انه لا يحبها حباً وكانت تحقد عليه لذلك . وقـــال هنري في نفسه : « ربما كان من الافضل ان اشرح لهـــا انني اشعر بنفسي حراً دوماً لانني لم اكن مخدوعاً قط » . ولكن معرفـــة نادين بأن لعبتهـــا احبطت ستسبب لها ذلاً قاسياً . ستقتنع بأن هنري يحتقرها وانه عاملها بشفقة : مـــا من شيء يمكن ان يجرحها اكثر من ذلك . كانت تكره ان يحكم عليها الآخرون وان تُغرق بالهدايا السخية اكثر مما ينبغي . كلا ، لا فائدة من ان يقول لهـــا الحقيقة .

واوقفت نادين السيارة على ضفة المستنقع .

– انها لزاوية جميلة حقاً : ففي ايام الاسبوع لا يأتيها احد .

فقال هنري :

– ان السباحة للذيذة الآن .

وتحققت من وضع ماريا وخلعا ثيابها . كانت نادين ترتدي ، تحت ثوبهـــا الكتاني ، مايو بيكيني صغيراً للغاية . وكانت ساقاها اقل ثقلاً مما كانتا عليه في الماضي وثدياها لا يزالان ناهدين . وقال بمرح :

– انك لبغي جميلة !

فقالت ضاحكة :

– اوه ! انت أيضاً ، يمكن ان ينطبق عليك ذلك .

وركضا نحـــو المستنقع . كانت تسبح مستلقية على بطنها ، وترفع رأسها فوق الماء بجلال ، وكأنها تحمله على صينية . كان يحب وجهها كثيراً ، وقـــال في نفسه : « انني متعلق بها . بل انني متعلق كثيراً : لمَ لا يكون حباً حقيقياً ؟ » . كان ثمة شيء في نادين يجمد دمه : ارتيابها ، ضغائنها ، سوء نيتها ، الوحـــدة

المعادية الغائصة فيها . لكن ربما لو أحبها أكثر ، لازدادت انفتاحاً ، وتألقاً ، ولطفاً . انها لدائرة مفرغة . فالانسان لا يمكن ان يرغم نفسه على الحب ، ولا على الثقة . وما كان احدهما يستطيع ان يبدأ .

وسبحا طويلاً وتمددا في الشمس . وأخرجت نادين من كيس مؤنها علبة سندويش . وتناول هنري احداها . وقال بعد فترة :

– أتعرفين ، لقد أعدت التفكير بما رويته لي البارحة عن سيزوناك . انني لا اتوصل الى التصديق . أهو سيزوناك حقاً ، أفانسان متأكد من ذلك ؟

فقالت نادين :

– متأكد تماماً . لقد اقتضاه ذلك عاماً ، لكنه وجد أخيراً أناساً وجعلهم يتكلمون . كان سيزوناك يقوم بالعملية عند عبور الخط ، وقد سلم كمية من اليهود الى الألمان ، انه هو بنفسه .

فقال هنري :

– ولكن لماذا ؟

كان يسمع صوت شانسيل المتحمس : « انني آتيك بأفضل صديق لي » . كان يرى الوجه الجميل الصارم والنقي الذي كان يوحي بالثقة فوراً . وقالت نادين :

– من اجل المال ، على ما افترض . لم يكن أحد ليشك ، لكنه كان مدمناً على المخدر منذ ذلك الوقت .

– ولِمَ كان يدمن على المخدر ؟

فقالت نادين :

– هذا ما لا أعرف عنه شيئاً .

– اين هو الآن ؟

– يود فانسان كثيراً لو يعرف ذلك ! لقد طرده في السنة الماضية حين عرف انه جبان . ثم اضاع أثره . » واضافت : « لكنه سيجده » .

وعض هنري على سندويشته . لم يكن يتمنى ان يوقف على اثر لسيزوناك .

كان دوبروي قد وعده بأنه سيقسم عند اللزوم بأنه عرف مرسييه . وسوف تكون لهما الغلبة معاً : لكن من الأفضل على كل حال ألا تعوم هـذه القصة على سطح الماء من جديد أبداً . وقالت نادين :

– بمَ تفكر ؟

– بسيزوناك .

لم يكن قد روى لنادين قضية مرسييه . لا شك في انها ما كانت لتفضح سراً ، لكنها لم تكن تشجع على الاعترافات . كانت تعلق عليها الكثير من الفضول والقليل من الود . وقد كان لا بد من ود كثير لتقبل هذه القصة : رغم حلم دوبروي وآن ، لم يكن هنري يعيد التفكير بها ابداً بدون استياء . اخيراً ، لقد حصل على ما كان يريد . ولم تنتحر جوزيت ، بل أصبحت نجمة صغيرة يتحدث عنها الناس كثيراً ، وفي كل اسبوع كانت صورتها تنشر في هذه الجريدة او تلك . وكررت نادين :

– سوف يجدون سيزوناك .

وبسطت صحيفة ، وتناول هنري واحدة . ما كان يستطيع ، ما دام في فرنسا ، ان يتجنب النظر اليها ، ولكنه كان على أتم استعداد للاستغناء عن ذلك . اميركا تضع يدها على اوروبا ، نجاح الحزب الجمهوري الشعبي الفرنسي ، المتعاونون يعودون جماعات ، خرق الشيوعيين : هذا مثبط بالأحرى . وكان الوضع في برلين لا يزال بدون تسوية ، ومن الممكن جداً ان تندلع الحرب في صباح احد الأيام الاربعة القادمة . واستلقى هنري على ظهره من جديد واغمض عينيه . لن يفتح صحيفة ، في بورتو فينيري . فما الفائدة ؟ ما دام لا يستطيع ان يمنع وقوع شيء ، فالأجدر به ان يستفيد من وقته بعدم اكتراث كليّ . وقال هنري في نفسه : « هـذا يثير استنكار دوبروي : لكنه يرى ان من المعقول ان نعيش وكأننا لن نموت ابداً ، وهذا شيء متماثل . ما الفائدة اذن من الاستعداد؟ على كل حال نحن لا نكون مستعدّين أبداً ، وفي الوقت نفسه نحن مستعدون بما فيه الكفاية » .

وقالت نادين :

– ان التطبيل الذي يطبّلون به لكتاب فولانج الحقير ذاك لا يُصدَّق !

فقال هنري :

– حتماً : ففي الساعة الراهنة ، الصحافة كلها يمينية .

– لكن اليمينيين ليسوا كلهم حمقى .

فقال هنري :

– لكنهم بحاجة شديدة الى أثر كبير !

كان كتاب فولانج تفاهة كبيرة ، لكنه كان قد اطلق شعاراً بارعاً : « تبرير الشر » فكونك من المتعاونين يعني انك ارتويت من ينابيع الخطأ الخصابة . وسحل انسان في ولاية الميسوري هو خطيئة ، اذن فداء . لتبارك اميركا على جرائمها كلها وليعش مشروع مارشال ! إن مدينتنا آثمة : وهذا أرفع لقب مجيد لها . وأن يريد الانسان ان يحقق عالماً أكثر عدلاً ، فأي غلاظة !

وقالت نادين :

– قل اذن، يا روحي المسكينة : حين ستظهر روايتك انت، فماذا سيقولون عنك !

فقال هنري :

– انني أشك في ذلك ! » وتثاءب : « آه ! لم يعد الأمر ظريفاً ! انني استطيع ان اتنبأ سلفاً بمقال فولانج ، وكذلك بمقال لونوار . وحتى الآخرون ، ممن يزعمون انهم متجردون ، أعرف ما سيقولونه » .

فقالت نادين :

– ماذا ؟

– انهم سيلومونني على انني لم اكتب لا «الحرب والسلم» ولا « أميرة كليف». واضاف بمرح : « لاحظي ان المكتبات مليئة بكل الكتب التي لم اكتبها . ولكنهم لا يلقون على رأسك دوماً الا بهذين الكتابين » .

– متى يزمع موفان ان يصدر روايتك ؟

ـ بعد شهرين ، في نهاية أيلول .

فقالت نادين :

ـ لن نكون بعيدين عن الرحيل . » وتمطت : « اود من الآن ان اكون هناك » .

فقال هنري :

ـ وانا ايضاً .

لم يكن من اللطف ان يُترك دوبروي وحيداً ، وكان يفهم ان تنتظر نادين عودة امها لتسافر . وعلى كل ، كان هنري قانعاً بالحياة في سان مارتان . ولكنه سيتمتع اكثر ايضاً في ايطاليا . ذلك المنزل على شاطىء البحر ، بين الصخور والصنوبر ، كان بالضبط المكان الذي حلم به غالباً دون ان يؤمن به حين كان يقول في نفسه في الماضي: ان اترك كل شيء. وان ارحل الى الجنوب ، واكتب.

وقالت نادين :

ـ سنأخذ معنا فونوغرافاً جيداً وكثيراً من الاسطوانات .

فقال هنري :

ـ وكذلك كثيراً من الكتب . سوف نحيا حياة جميلة ، سترين .

ونهضت نادين على احد مرفقيها : « غريب سنقيم في منزل بيميانتا ، وهو سيعود ليعيش في باريس . ان لانغستون ما عاد يريد ان يضع قدميه في اميركا ثانية ... » .

فقال هنري :

ـ نحن ثلاثتنا في الحالة نفسها . كتاب عملوا في السياسة ثم سئموا منها . ان السفر الى الخارج ، لهو أفضل طريقة لقطع الجسور .

فقالت نادين برضى :

ـ انا التي خطرت لها فكرة ذلك المنزل .

ـ انها انت . » وابتسم هنري: «يحدث احياناً ان تخطر لك افكار طيبة».

فغام وجه نادين . ونظرت ملياً الى الافق بقسوة ونهضت فجأة : « سأعطي

ماريا لبنها » .

وتبعها هنري بعينيه . بمَ فكرت على الضبط ؟ المؤكد هو انها تجد مشقة في ألا تكون الا ام اسرة فقط . وجلست على جذع شجرة ، وماريا بين ذراعيها . كانت تعطيها لبنها في سلطة ، وصبر ، وكانت تضع كرامتها في ان تكون اماً جديرة ، وكانت قد اكتسبت مبادىء متينة في تربية الاطفال ومجموعة من المعلومات الصحية . لكن هنري لم يلحظ قط حناناً حقيقياً في عينيها حين كانت تهتم بماريا . اجل ، هذا ما يجعل من الصعب عليه ان يحبها : حتى مع هذه الطفلة كانت تحافظ على مسافاتها ، وتظل دوماً منكمشة على نفسها . وسألت :

– أتعود إلى الماء ؟

– هيا بنا .

وسبحا ملياً ، وتجففا ، ولبسا ثيابهما ، وامسكت نادين بالمقود من جديد . وقال هنري حين توقفت السيارة امام البوابة :

– آمل ان يكونا قد ذهبا .

فقالت نادين :

– سأرى .

كانت ماريا نائمة . فحملها هنري الى البيت ووضعها على قفة الدهليز . والصقت نادين انفها بباب المكتب ، ثم دفعت المصراع :

– أأنت بمفردك ؟

فصاح دوبروي :

– اجل ، ادخلي ، ادخلي اذن .

فقالت نادين :

– سأصعد لأُرقد الصغيرة .

ودخل هنري الى المكتب وابتسم : « خسارة انك لم تأتِ معنا : كان الماء لذيذاً » .

فقال دوبروي :

– سأذهب في احد الايام . » واخـذ من على مكتبه صفيحة ورق : « لدي رسالة لك : شخص يدعى جان بانتورو ، اخو المحامي الذي تعرفـه ، تلفن سائلاً ان تتصل به عاجلاً . لقد كلفه اخوه بجلب معلومات من مدغسقر يريـد ان يبلغك اياها » .

فقال هنري :

– لماذا يريد ان يراني انا ؟

فقال دوبروي :

– بسبب مقالاتك في السنة الماضية ، على مـا افترض . فأنت الوحيد الذي فتح فمه . » وناول دوبروي هنري الورقة : « اذا اعطاك هذا الشخص تفاصيل عما يجري هناك ، فلديك الوقت لكتابة مقال لـ « الطوارىء » ، بتأخير العدد قليلاً » .

فقال هنري :

– سأتلفن له حالاً .

فقال دوبروي :

– كان ميريكو يقول لي ان مـا يفعلونه لا سابق له ، بمحاكمتهم المتهمين هناك . كانت الدعاوى تجري في فرنسا ، في جميع الحالات المماثلة .

فجلس هنري : « أكان هذا الغداء على ما يرام ؟ » .

فقال دوبروي :

– ان ذلك المنزل شارلييه يأفل اكثر فأكثر . ان الشيخوخة لشيء حزين .

– أعادا للكلام عن الصحيفة الاسبوعية ؟

– لهذا جاءا . يبدو ان مانهاين يريد ان يراني بأي ثمن .

فقال هنري :

– هذا مضحك على كل حال . حين احتجنا الى المال ، لم نستطع قط ان نجده . والآن ونحن لا نطلب من احد شيئاً ، يأتي هـذا الشخص إليك لتوظف ماله .

كان مانهاين ابن مليونير كبير مات في المنفى . وكان قـد نفي هو الآخر ، وأمضى ثلاث سنوات في سويسرا في مصح . وقد كتب كتاباً رديئاً جداً لكنه مليء بالنيات الطيبة . ولقد وضع في رأسه ان ينشىء صحيفة اسبوعية يسارية كبيرة ، وكان يريد ان يديرها دوبروي .

وقال دوبروي :

– سأذهب لرؤيته .

فسأل هنري :

– وماذا ستقول له ؟ » وابتسم : « أبدأت تستسلم للإغراء ؟ » .

فقال دوبروي :

– اعترف بأن هذا مغرٍ . فباستثناء الصحف الشيوعية ، لا توجـد صحيفة يسارية . اذا كنـا نستطيع حقاً ان نحصل على جريدة كبيرة الاصدار ، مع صور وتحقيقات ، الخ ... فهذا يستحق المحاولة على كل حال .

فهز هنري كتفيه : « أتدرك مـا تتطلبه من عمل صحيفة اسبوعية كبيرة ناجحة ؟ ليست المقارنة مع « الطوارىء » بممكنة . يجب ان تهتم بها ليل نهار ، وعلى الاخص في السنة الاولى » .

فقال دوبروي :

– اعرف . » وبحث عن نظرة هنري : « لهذا لا استطيع التفكير بالقبول إذا لم تقبل انت ايضاً » .

فقال هنري بشيء من نفاد الصبر :

– انت تعرف انني مسافر الى ايطاليا . » واضاف : « لكن اذا كانت هذه القصة تهمك حقاً ، فليس من الصعب عليك ان تجد متعاونين » .

فهز دوبروي برأسه ، وقال : « لا أملك اي خبرة صحفية . إذا قامت هذه الصحيفة الاسبوعية ، فإنني بحاجـة الى اخصائي بجانبي . وانت تعرف كيف تحدث الامور : ستكون له هو اليد العليا على كل شيء عملياً . يجب ان اكون قادراً على الثقة به كما اثق بنفسي : ليس هناك غيرك » .

فقال هنري :

– حتى اذا لم اسافر ، فإنني لن آخذ على عاتقي مثل هذا العمل .

فقال دوبروي مؤنباً :

– هذا مؤسف . لأن هذا النوع من العمل لهو بالضبط عملنا . كنا نستطيع ان نفعل شيئاً طيباً .

فقال هنري :

– ثم ؟ اننا اليوم محاصرون اكثر مما كنا عليه في السنة الماضية . اي تأثير يمكن ان يكون لنا ؟ لا شيء .

فقال دوبروي :

– توجد على كل حال أشياء تتعلق بنا . اميركا تريد ان تسلح اوروبا : هذه نقطة نستطيع ان ننظم حولها مقاومة . وإن جريدة ما ستكون نافعة لمثل هذا الغرض .

فأخذ هنري يضحك ، وقال : « مجمل القول ، فإنك لا تبحث إلا عن سانحة لتعود من جديد الى السياسة ؟ اي صحة !

فسألت نادين وهي تدخل الى المكتب :

– من لديه صحة ؟

– والدك : انه لم يشمئز بعد من السياسة . انه يريد ان يعود اليها .

فقالت نادين .

– لا بد للمرء ان يشغل نفسه .

وركعت امام مكتبة الاسطوانات وأخذت تصف الاسطوانات . » وفكر هنري : اجل ، دوبروي سئم ، ولهذا يرغب في التحرك » .

وقال هنري :

– لم اكن سعيداً قط بهذا القدر منذ ان تركت السياسة . انني لن أعود اليها مقابل اي شيء في العالم .

فقال دوبروي :

– الا ان هذا التخاذل لشيء كريه . اليسار منقسم كلياً ، والحزب الشيوعي معزول : لا بد ان نحاول اعادة تجميع أنفسنا .

فسأل هنري بصوت غير مصدق :

– اتفكر بـ « إشتراكي ثوري حر » جديد ؟

فقال دوبروي :

– كلا ، ليس ذلك على الأخص » ! وهز كتفيه : « لا افكر بشيء محدد . انني الاحظ اننا في مأزق واتمنى ان نخرج منه » .

وساد صمت . كان هنري يتذكر مشهداً مشابهاً : كان دوبروي يلح عليه . وكان يدافع عن نفسه ويفكر انه سيكون بعيداً عن باريس قريباً ، في مكان آخر . ولكنه كان يعتقد في ذلك الوقت ان عليه واجبات . امـــا اليوم فإنه مقتنع بعجزه بما فيه الكفاية ليشعر انه حر تمـاماً . ان اقول نعم ، أو ان أقول لا ، فهذا لا يعني مصير الإنسانية : بل فقط الطريقة التي اربط بهـــا مصيري بمصيره . ان دوبروي حريص على الخلط بينهما ، هـذا شأنه ، لا شأني . على كل حال ، ان الأمر لا يعني أحداً غيره ، غيري ، وليس هناك أي شيء آخر .

وقالت نادين :

– أأستطيع ان اضع اسطوانة ؟

فقال دوبروي :

– بالتأكيد .

ونهض هنري : « سأذهب انا للعمل » .

فقال دوبروي :

– لا تنس ان تتلفن لذلك الشخص .

فقال هنري :

– انني لا انسى .

واجتاز البهو ورفع السماعة . كان الشخص على الطرف الآخر من الخط يبدو تائهاً من الأهمية والخجل . كان يبدو عليه انه تلقى من العـالم الآخر رسالة آمرة

عليه ان يسلمها فوراً ، بأي ثمن الى صاحبهـــا . لقد كتب لي أخي : « ما من انسان يفعل شيئاً ، لكني متأكد ان هنري بيرون سيفعل شيئاً ما » . قال ذلك بأبهة . وفكر هنري : « لن انتهي بمقـال واحد » . وواعد باتورو في الغد ، في باريس ، وعاد ليجلس تحت شجرة الزيزفون . هـذا هو السبب الذي استعجل من أجله السفر الى ايطاليا . فهو هنا لا يزال يتلقى الكثير من الرسائل، والكثير من الزيارات ، والكثير من الاتصالات الهاتفية . وبسط أوراقه امامه. كان الفونوغراف يعزف رباعية فرانك ، ونادين تصغي ، جالسة على حافة النافذة المفتوحة . كان النحل يطن حول اشجار القبس . وكانت عربة تجرها الثيران تتدحرج على الطريق في قوقعة قديمة . وقال هنري في نفسه : « يا للسلام ! » . لمَ يرغمونه على الاهتمام بما يحدث في تاتاناريف ؟ هناك دومـاً اشياء فظيعة تحدث على الارض : لكن المرء لا يعيش عبر الارض كلها . ان التأمل طوال الوقت في مصائب بعيدة لا يمكن علاجها ، لمتعة كئيبة . وفكر : « هنا اعيش ، وهنـا السلام » . ونظر الى نادين . كانت تبدو عليها سيماء من التأمل ليست مألوفـة . كانت ، وهي التي تجد مشقة في تركيز نفسها على كتاب ما ، تستطيع ان تستمع طويلاً الى موسيقى تحبها ، وفي مثل هذه اللحظات يشعر المرء انه يسود في نفسها صمت يشبه السعادة . وقال هنريّ في نفسه : « يجب ان اجعلها سعيدة . ان هذه الدائرة المفرغة يجب ان تتحطم » . ان تجعل انساناً مـــا سعيداً ، فهذا شيء حسي ، هذا شيء متين ، يشغلك كثيراً اذا وقفت عليه نفسك . ان يهتم بنادين، ويربي ماريا ، ويكتب كتبه : ليست هذه الحياة التي كان يتمناها في الماضي . في الماضي كان يعتقد ان السعادة هي طريقة في امتلاك العالم : في حين انها بالأحرى طريقة في حماية الذات منه . ولكنه كان شيئاً كبيراً على كل حال ان يستمع الى هذه الموسيقى ، ان ينظر الى هذا البيت ، الى شجرة الزيزفون ، والى الاوراق المخطوطة على الطاولة ، قائلاً في نفسه : « انني سعيد » .

ظهر مقال هنري في مدغسقر في ١٠ آب . كان قد كتبه بحماسة . اعدام لا شرعي للشاهد الرئيسي ، اغتيالات للمحامين ، عذابات يتعرض لها المتهمون

لانتزاع اعترافات كاذبة منهم : كانت الحقيقة أفظع بكثير ايضاً مما تتصورها . ولم تكن هذه الاشياء تقع في تاتاناريف فقط : فالجميع هنا ، في فرنسا ، كانوا متواطئين . كان متواطئاً مجلس النواب الذي صوّت على رفع الضرائب، كانت متواطئة الحكومة ، ومحكمة التمييز ورئيس الجمهورية، كانت متواطئة الصحف الصامتة وملايين المواطنين الذين أراحهم هذا الصمت . وقال في نفسه حين أخذ عدد « الطواريء » بين يديه : « هناك الآن على الأقل بضعة آلاف يعلمون » . وفكر بأسف : « ليس هذا شيئاً كبيراً » . كان قد درس هذه القضية عن قرب قريب ، وقد اهتم بها اهتماماً قلبياً كبيراً حتى انها أخذت تخصه شخصياً . في كل صباح كان يبحث في الصحف عن المقالات الضئيلة المخصصة للدعوى وكان يفكر فيها طوال اليوم . ولقد وجد مشقة في انهاء اقصوصته . وحين كان يكتب في ظل شجرة الزيزفون، كانت رائحة القبس ولجبة القرية قد كفت عن ان يكون لها المعنى ذاته عنده .

كان يكتب ذلك الصباح ، بعدم اهتمام كبير ، حين قرعت البوابة . فعبر الحديقة ليذهب ليفتح : كان لاشوم . فقال :

– انت !

فقال لاشوم بصوت هادىء :

– أجل . اود ان اكلمك . » وأضاف : « لا يبدو عليك السرور لرؤيتي ، لكن دعني على كل حال ادخل . ان ما اريد ان اقوله لك يهمك » .

كان لاشوم قد هرم خلال الثمانية عشر شهراً الاخيرة ، وكانت هناك دوائر حول عينيه :

– عمّ تريد ان تكلمني ؟

– عن القضية المدغسقرية .

ففتح هنري الباب : « ماذا تريد ان تفعل مع فاشيّ قذر ؟ » .

فقال لاشوم :

– اوه ! دعك من ذلك ! انت تعرف ما السياسة . حين كتبت ذلك المقال،

كان يجب ان انفذ حكم الاعدام فيك . انها لقديمة هذه القصة .

فقال هنري :

– لدي ذاكرة طيبة .

فنظر اليه لاشوم في ألم : « احتفظ بضغينتك علي اذا شئت » . وقال متنهداً : « مع انه في الحقيقة كان يجب ان تفهم ! لكن الأمر في اللحظة الراهنة لا يتعلق بك او بي : هناك حيوات انسانية يجب ان تنقذ . إذن تستطيع ان تصغي إلي خمس دقائق » .

فقال هنري وهو يشير الى أحد مقاعد الخيزران :

– انني مصغٍ اليك . وبالفعل كان غضبه على لاشوم قد غادره : فهذا الماضي كله بعيداً جداً عنه .

وقال لاشوم وقد اتخذ قراره اخيراً :

– لقد كتبت مقالاً جميلاً جداً ، بل سأقول انه مقال عنيف مقلق . فهز هنري كتفيه : « انه لم يقلق عدداً كبيراً من الناس مع الاسف » . فقال لاشوم :

– اجل ، هذه هي المصيبة . » وبحث عن نظرة هنري : « افترض انه لو قدمت لك امكانية لعمل اوسع ، فانك لن ترفضها ؟ » .

فقال هنري :

– ما الأمر ؟

– بكلمتين ، اليك . اننا ننظم لجنة دفاع عن المدغسقريين . كان من الأفضل لو باده غيرنا . لكن المثاليين البورجوازيين الصغار لا يتمتعون بضمير مدغدغ دوماً . وهم ، عند المناسبة ، على استعداد ليبتلعوا اشياء ضخمة دون ان يحركوا ساكناً . والواقع ان ما من انسان يرفع اصبعه .

فقال هنري :

انتم ايضاً لم تفعلوا شيئاً كبيراً حتى الآن .

فقال لاشوم بحدة :

– لا نستطيع . لقد دبرت هذه القضية كلها لتصفية « الحركة الديموقراطية للبعث المدغسقري ». والهدف، من خلال النواب المدغسقريين ، انما هو الحزب. فاذا ما دافعنا عنهم بصخب كبير ، فسوف يتحول دفاعنا ضدهم .

فقال هنري :

– ليكن . اذن ؟

– اذن خطرت لي فكرة لجنـــة تضم شيوعيين او ثلاثة واغلبية من اللاشيوعيين . وحين قرأت مقالك ، قلت في نفسي انه ليس هناك انسان مؤهل اكثر منك لترؤسها . » وسأل لاشوم هنري بنظره : « الرفاق ليسوا ضد هــذه الفكرة . الا ان لافوري يريد ان يكون واثقاً من انك ستقبل ، قبـل ان يقدم اقتراحاً رسمياً » .

فلزم هنري الصمت . فاشيّ ، مباع ، وغد ، جاسوس : كانوا قــد حكموا عليه بالخيانات اجمع . وفجأة أخذوا يتحركون ، ممدودي اليد . كان هذا يوحي اليه بشعور صغير محبب من المجد . وسأل :

– من سيكون على الضبط في هذه اللجنة ؟

فقال لاشوم :

– جميع الاشخاص المهمين قليـــلاً الذين سيقبلون بالعمل . ليس عددهم كبيراً .» وهز كتفيه : « انهم يخافون جداً من ان يتبللوا ! انهم على استعداد لـترك عشرين بريئاً يموتون من العـــذاب على ان لا يورطوا انفسهم معنا » . وأضاف بصوت ملح : « إذا اخذت القضية بيدك ، فهذا سيبدل كل شيء . انهم سيتبعونك ، انت » .

فتردد هنري : « لمَ لا تسأل دوبروي بالأحرى ؟ ان اسمه اثقـل من اسمي وسيقول نعم حتماً » .

فقال لاشوم :

– من المستحسن ان يكون دوبروي معنا . لكنــه اسمك انت الذي يجب ان يكون في المقدم . إن دوبروي قريب جداً منا ، يجب على الأخص ألا تظهر

هذه اللجنة انهـــا شيوعية المصدر ، والا لما قامت . امـــا معك ، فلا مجال للالتباس .

فقال هنري بجفاء :

– انني أرى . انني استطيع ان اكون لكم نافعاً بقدار مـا انا اشتراكي خائن .

فقال لاشوم بصوت مغضب :

– ان تكون لنا نافعاً ! انما تستطيـع ان تكون نافعاً للمتهمين . ماذا تظن ؟ ما الذي سنربحه من هذه القصة » وتابـع وهو ينظر الى هنري مؤنباً : « أنت لا تدرك . اننا نتلقى ، كل يوم ، وهذا الصباح أيضاً ، رسائل وبرقيات ممزقـة من مدغسقر . « تكلموا ! انذروا الرأي العام . قولوا لسكان العاصمة مـــا يجري هنا » . لكن ايدينا مكتوفة ! ما الذي يبقى علينا ان نعمله سوى التـأثير عن طريق المجموع ؟ » .

فابتسم هنري . كانت حدة لاشوم تلمس قلبه . صحيح انـه كان قادراً على تنفيذ مهام دنيئة ، لكنه غير قـــادر على ان يقبل بهدوء ان يُعذّب الابرياء ويذبحوا بالعشرات . وقال بلهجة مصالحة :

– ماذا تريد ! ان كل شيء مختلط عندكم بشدة : الأكاذيب السياسيـــة والعواطف الحقيقية التي يصعب تعرفها .

فقال لاشوم :

– إذا لم تبدأوا فوراً باتهامنا بالمكيافيلية، فسوف تتعرفونها بشكل افضل. يبدو عليكم دوماً انكم تعتقدون ان الحزب لا يعمل الا من اجل نفسه ! أتتذكر في عام ١٩٤٦ ، حين تدخلنا لمصلحة كريسينو غارسيا و فلامونا على اننا جعلنا تنفيذ حكم الاعدام فيه محتماً ؟ واليوم نخفت اصواتنـا ، فتأتي لتقول لي : « انتم لا تفعلون شيئاً كبيراً » .

فقال هنري :

– لا تغضب . يبدو لي انك اصبحت متشككاً بشكل غريب .

– انت لا تدرك : هذا الارتياب الذي نلاقيه في كل مكان ! ان هذا لمسخط في النهاية !

وود هنري لو يجيبه : « انها غلطتكم » ، لكنه لم يقل شيئاً . لم يكن يشعر ان له الحق في ان يتخذ ملامح متفوقة سهلة . وفي الحقيقة ، ما عاد غاضباً من لاشوم . لقد قالها له لاشوم ، ذات يوم ، في « البار الاحمر » : « سأتحمل أي شيء ، كان علي ألا أترك الحزب » . كان يقدر ان شخصه الخاص لا يزن ثقيلاً امام المصالح التي تتصارع في الميدان : فما الداعي لأن يعلق قيمة اكبر على شخص هنري ؟ يقيناً ، ان الصداقة في هذه الشروط لا تعود ممكنة . لكن لا شيء يمنع من ان يعملا معاً .

وقال :

– اسمع ، انا لا اطلب أفضل من العمل معك . لا اعتقد ان لنا فرصاً كثيرة في النجاح : لكن سنحاول .

فأضاء وجه لاشوم : « استطيع ان أقول للافوري انك ستقبل ؟ » .

– أجل . لكن اشرح لي قليلاً ما تنوون عمله .

فقال لاشوم :

– سوف نتناقش معاً .

وقال هنري في نفسه : « هو ذاك ! هذا يثبت مرة اخرى : كل شيء سليم نفعله يتكشف عن واجبات جديدة » . كانت افتتاحياته عام ١٩٤٧ قد قادته الى كتابة المقال في «الطوارىء»، مما قاده الى تنظيم هذه اللجنة: كان مضيَّقاً عليه من جديد . وقال في نفسه : « لكن ليس لزمن طويل » .

قالت نادين بصوت غاضب :

– يجب ان تذهبي لتنامي ، فأنت تبدين متعبة .

فقالت آن بلهجة اعتذار :

– انه السفر في الطائرة الذي أتعبني. ثم كان هذا التفريغ الذي دام ساعات:

لقد نمت نوماً سيئاً في الليلة الماضية .

كان المكتب يبدو في حالة عيد . وكانت آن قد عادت عشية اليوم السابق وقد قطفت نادين ازهار الحديقة كلها لتملأ بها البيت . لكن ما من أحد كان مرحاً حقاً . كانت آن قد هرمت فجأة بشكل جدي وكانت تشرب الكثير من الوسكي . وكان دوبروي الذي عاد اليه الكثير من حيويته في الأيام الاخيرة يبدو مهموماً : بسبب آن دون ريب . وكانت نادين تتحرك بقدر متفاوت وهي تحيك شيئاً ما صارخاً. وكانت قصة هنري قد ألقت على السهرة المزيد من الشجن.

وقالت آن :

– ثم ماذا ؟ أأنتهى الامر ؟ ألم يعد هناك أمل في انقاذ هؤلاء الاشخاص ؟

فقال هنري :

– انني لا أرى اي أمل .

فقال دوبروي :

– كان يشاع ان مجلس النواب سيغرق السمكة .

فقال هنري :

– لو حضرت الجلسة ، لدهشت على كل حـــال . كنت أظـــن انني بارد الاعصاب : لكني شعرت ، في بعض الاحيان ، بالرغبة في القتل .

فقال دوبروي :

– اجل ، لقد بالغوا .

فقالت آن :

– هذا لا يدهشني من سياسيين . اما ما لا أتوصل الى فهمه فهو ان الناس في مجموعهم لم يصدر عنهم رد فعل كبير .

فقال هنري :

– لم يصدر عنهم رد فعل ، بهذا الخصوص .

كان جيرار باتورو والمحامون الآخرون قد اتوا الى باريس ، عازمين على اثارة السماء والارض . وقد بذلت اللجنة مـــا بوسعها لمساعدتهم . لكنهم اصطدموا

باللامبالاة العامة .

ونظرت آن الى دوبروي : « ألا تجد هذا مثبطاً ؟ » .

فقال :

– لكن لا . هذا كله يثبت ان العمل لا ينجح بدون اعداد مسبق . لقد انطلقنا من الصفر ، اذن من البديهي ...

كان دوبروي قد انضم الى اللجنة لكنه لم يهتم لها تقريباً . أما ما همّه في هذه القصة ، فهو انه استأنف احتكاكاته السياسية . فتسجل في حركة « مقاتلو الحرية » . واشترك في احد مهرجاناتهم ، وسيشترك في آخر بعد بضعة ايام . لم يكن يلح ان يتبعه هنري ، وما عاد يكلمه عن الصحيفة الاسبوعية ، لكنه كان من حين لآخر يترك تقريعاً ما مضمراً يفلت منه . وقال هنري :

– ان اي عمل ، سواء أكان معداً ام لم يكن ، لا يؤدي الى أي نتيجة في الساعة الراهنة .

فقال دوبروي :

– انت الذي يقول هذا . لو كان وراءنا فئة منظمة ، وصحيفة ، وأموال ، لربما كنا استطعنا النجاح في التأثير على الرأي العام .

فقال هنري :

– ليس في هذا شيء مؤكد .

– على كل حال ، لنقل انه كي تكون لنا فرص اكثر في النجاح ، حين تتاح لنا فرصة ، فيجب ان نستعد لها مسبقاً .

فقال هنري :

– بالنسبة لي ، لن تتاح الفرصة .

فقال دوبروي :

– هيا اذن ! انك لتضحكني حين تقول انك انتهيت مع السياسة . انت مثلي . لقد مارستها اكثر من اللازم كي تكف عن ممارستها . سوف يضيق عليك الخناق من جديد .

فقال هنري بمرح :
– كلا ، لأنني سأختبىء .
واشتعلت عينا دوبروي : « انني اراهنك : لن تبقى عاماً في ايطاليا » .
فقالت نادين بحدة :
– انني اقبل الرهان . » واستدارت نحو أمها : « ما رأيك ؟ » .
فقالت آن :
– لست ادري . هذا يتعلق بسروركما هناك .
– كيف تريدين ألا نُسر ؟ لقد رأيتِ صورة البيت : أليس جميلاً ؟
فقالت آن :
– يبدو جميلاً جداً . » ونهضت فجأة : « انني اعتذر . انني اقع من النعاس » .
فقالت نادين وهي تقبل امها :
– حاولي ان تنامي هذه الليلة . اقسم لك ان وجهك متعب .
فقالت آن :
– سأنام .
حين اطبقت الباب ، بحث هنري عن نظرة نادين : « صحيح ان آن تبدو متعبة » .
فقالت نادين في ضغينة :
– متعبة وكئيبة . اذا كانت آسفة الى هذا الحد على اميركتها ، فلم يكن عليها الا ان تبقى فيها !
– ألم تروي لك كيف كانت الحال هناك ؟
فقالت نادين :
– أتقول ذلك ! انها كتوم جداً . » واضافت : « وبالاصل ، انهم لا يقولون لي شيئاً قط » .
فتفرس فيها هنري بفضول : « ان لك علاقات غريبة مع امك .

فقالت نادين وكأنها لسعت :

– لمَّ غريبة ؟ انني احبها كثيراً ، لكنها غالبـاً ما تغيظني . افـــترض ان الوضع مشابه بالنسبة لها . وليس هـذا بشيء نادر ، فالعلاقات العائلية هكذا دوماً .

ولم يلح هنري. لكن هذا كان يذهله دوماً : ان هاتين الامرأتين على استعداد لأن تموت احداهما في سبيل الأخرى ، ومع ذلك فان بينهما شيئاً ليس على مـــا يرام . ان نادين تزداد عدائية وعناداً حين تكون امها معها . وبذلت آن جهوداً في الايام التالية لتبدو مرحة ، وانفرجت اسارير نادين . لكن كان المرء يشعر ان من الممكن في كل لحظة ان تنفجر عاصفة .

في ذلك الصباح ، لمحهما هنري من غرفته وهما تخرجان من الحديقة ، اذرعهما متعانقـة ، ووجهاهما ضاحكان . وحين عبرتا الممر المعشب من جديـــد ، بعد ساعتين ، كانت آن تحمل تحت ذراعها قضيباً من الخبز ، ونادين تحمل صحفـاً ، وكان يبدو عليهما انهما متخاصمتان .

كانت ساعة الغداء . وصفّ هنري اوراقه ، وغسل يديه ونزل الى غرفـــة الجلوس . كانت آن جالسة على طرف كرسي ، غائبـة الروح . وكان دوبروي يقرأ « الأمل – المجلة » ؟ وكانت نادين ، واقفة الى جانبه ، ترقبه .

وقال هنري وهو يبتسم للجميع :

– مرحباً ! ماذا من جديد ؟

فقالت نادين وهي تومىء الى الصحيفة :

– هذا ! » واضافت بجفاء : « آمل انك ستحطم وجه لامبير » .

فقال هنري مبتسماً :

– آه ! ابداً ؟ أيمرغني لامبير في الخراء ؟

– لو كان لا يمرغ احداً غيرك !

فقال دوبروي وهو يناول هنري الصحيفة :

– خذ .

كان المقـــال بعنوان « صورهم بريشتهم » . وكان لامبير يبدأه بالشكوى مرة اخرى من التأثير الهدام لدوبروي : انها غلطته اذا كان هنري بعد بدايـة لامعة قـــد فقد موهبته كلها . ثم كان لامبير يلخص رواية هنري بمساعدة استشهادات مبتورة ، ومجموعة بشكل مضحك . وبحجة انه يقدم مفاتيح كتاب ليست له مفاتيح ، كان يقدم عن الحياة الخاصة لهنري ، ودوبروي ، وآن ، ونادين ، كمية من التفاصيل نصف الصحيحة ، نصف الكاذبـة ، مختارة بشكل تبدو معه كريهة بقدر ما هي سخيفة .

وقال هنري :

– يا للنذل ! انني اذكر ذلك الحديث عن علاقاتنا مع المال وهذا ما استنتجه منه . هذا المقطع المقرف عن « رياء أصحاب الامتيازات اليساريين » . وكرر : « يا للنذل ! » .

فقالت نادين :

– لن تتركه يمر هكذا ؟

فسأل هنري دوبروي بنظرته : « اود كثيراً لو احطم وجهه ، وهـذا لن يكون بالاصل صعباً . لكن ما الذي سأستفيده ؟ فضيحة ، صدى في الصحف ، مقال جديد ، اسوأ من هذا ... » .

فقالت نادين :

– اضرب بقوة كبيرة ، وسوف يطبق فمه .

فقال دوبروي :

– بالتأكيد لا . كل ما يطلبه ، هو أن يتحدث الناس عنه : سوف يقفز على الفرصة . » وختم كلامه : « انا اؤيد ان يتركه هنري يعوي » .

فقالت نادين :

– اذن ، في اليوم الذي سيحلو له ، مـــا الذي يمنعه من كتابة مقال جديد وان يذهب الى ابعد من ذلك ؟ اذا قال في نفسه انه ليس لديه مـا يخشاه ، فلن يتحرج .

فقال هنري :

– هكذا الحال حين يزج المرء بنفسه في الكتابة . وان لجميع الناس الحق في البصاق عليك : بل ان الكثيرين يعتبرون ذلك واجباً .

فقالت نادين :

– انا لا اكتب . ليس لأحد الحق في البصاق عليّ .

فقالت آن :

– اجل ، هذا يثير السخط في البدايـة . لكن سترين : انك ستتعودين . »

ونهضت : « لو نأكل ! » .

وجلسوا حول المائدة في صمت . وشكّت نادين من الصحفة قرصاً من المقانق وانفرج وجهها . وقالت في لهجة حائرة : « يغيظني ان افكر انـه سينتصر في هدوء » .

فقال هنري :

– انه لا ينتصر الى هذا الحد . كان حريصاً على كتابه قصص ، وروايات : وباستثناء مقالاته ، لم ينشر فولانج له شيئاً ، منذ تلك الاقصوصة المشهورة التي كانت رديئة للغاية .

فاستدارت نادين نحو آن : « أقيل لك مـــا جرؤ ان يكتبه في الاسبوع الماضي ؟ » .

– كلا .

– لقد أعلن ان انصار بيتان قد أحبوا فرنسا على طريقتهم وانهم أقرب الى الديغوليين من مقاوم انفصالي . » واضافت بلهجة راضية : « ما من أحد ذهب الى هذا الحد ! » . وقالت : « آه ! لقد عرفوا كيف يحولون الرفاق القدامى . أقرأت تقرير جوليان عن كتاب فولانج ؟ » .

فقالت آن :

– لقد اراني إياه روبير . جوليان ! من كان يصدق !

فقال دوبروي :

– ليس هذا بمدهش الى هذا الحد. ماذا تريدين ان يصبح الفوضوي ، اليوم؟ ان العاب الهدم الصغيرة ، يسارياً ، لا تلهي أحداً .

فقالت نادين :

– لا أرى لماذا يصبح الفوضوي حتمياً من « تجمع الشعب الفرنسي » .

كانت تعتبر التفسير عذراً ، وغالباً ما كانت ترفض ان تفهم كي لا تفسد على نفسها لذة الاستنكار . وساد صمت . لم تكن الاحاديث بين أربعة اشخاص سهلة قط : وكانت هذه المرة اقل سهولة من اي وقت مضى . وراح هنري يتكلم مع آن عن رواية جاءت بها من اميركا وقرأها . وكان دوبروي يفكر بشيء آخر ، وكذلك نادين . وتنهد الجميع ارتياحاً حين انتهى الطعام . وسألت نادين وهي تقوم عن المائدة :

– هل استطيع ان آخذ السيارة ؟ إذا كان احدكم يريد الاهتمام بماريا فسأقوم بجولة .

فقالت آن :

– سأهتم بماريا .

وقال هنري مبتسماً :

– ألا تأخذينني ؟

فقالت نادين :

– اولاً ليست بك أي رغبة » واضافت باسمة : « ثم انني افضل ان اكون بمفردي » .

فقال هنري :

– حسناً ، لن ألح ! » وقبّلها : « تنزهي جيداً ، وكوني حذرة » .

لم يكن راغباً في التنزه ، ولكن لا في العمل أيضاً . كان دوبروي يؤكد ان اقصوصته الاولى جيدة ، وكان مهتماً عظيم الاهتمام بالتي يريد ان يكتبها الآن ، لكنه كان يشعر ببعض الحيرة هذه الايام . فهو مـا عاد في فرنسا الآن ، ولا في ايطاليا بعد ، وكانت دعوى تاتاناريف قد انتهت دون أن تنتهي ما دام المتهمون

يرفضون الدفاع عن أنفسهم وما دام الحكم معروفاً سلفاً . وكان نشاط دوبروي يغيظه وكان يحسده مع ذلك بشكل غامض على الافراح التي يستخلصها منــه . وتناول كتاباً . بفضل السماء ، لم تعد الساعات والأيام محسوبة عليه ، ولم يكن مضطراً الى قسر نفسه . كان ينتظر ان يقيم في بورتو فينيري ليبدأ قصته الجديد.

ونادته آن ، حوالي الساعة السابعـــة ، لتناول شراب مقبل حسب طقس اقامته . وكان دوبروي يكتب حين دخل هنري الى المكتب ودفع اوراقه :

— هوذا شيء طيب قد تم .

فسأل هنري :

— ما هذا ؟

— مخطط ما سأقوله يوم الجمعة ، في ليون .

فابتسم هنري : « انك لشجاع حقاً . نانسي ، ليون : أي مدن كئيبة !» .

فقال دوبروي :

— اجل ، انها لكئيبــة نانسي ، الا انني احتفظ بذكرى طيبـــة من تلك السهرة .

فقال هنري :

— اشك في انك متهتك قليلاً .

فقال دوبروي :

— ربما ! . » وابتسم : « لا اعرف كيف اشرح لك . بعد المهرجان ذهبنا الى مطعم لنأكل كرنباً ونشرب جعة ، ولم يكن للمكان طابع نادر ، وكنت لا أكاد اعرف الاشخاص الذين كانوا معي ، وكنا لا نتحدث تقريباً . لكننا فعلنا شيئاً ما معاً ، شيئاً كنا مسرورين منه : كان ذلك حسناً » .

فقال هنري :

— انني اعلم ، لقد عرفت هذا . في الحرب ، اثناء المقاومة ، في الجريدة في السنة الاولى ، كانت هناك مثل تلك الاويقات . » واضاف : « لم يحدث لي هذا قط في « الاشتراكي الثوري الحر » .

فقال دوبروي :

– ولا لي ايضاً . » وتناول من يدي آن كأس مارتيني واحتسى منه جرعة: « لم نكن متواضعين بما فيه الكفاية . كي نحصل على هذه السعادات الصغيرة فلا بد ان نعمل فيما هو فوري .

فقال هنري :

– قل اذن ، لا يبدو لي انه شيء متواضع جداً ان نريد منع الحرب !

فقال دوبروي :

– انه لشيء متواضع ، لأننا لا نأتي مع افكار موضوعة مسبقاً نريد فرضها على العالم . لقد كان لـ « الاشتراكي الثوري الحر » برنامج بنّاء : كان طوبائياً حتماً . ان ما افعله الآن يشبه بالاحرى ما فعلته عام ١٩٣٦ . انني احاول ان أدافع عن نفسي ضد خطر معطى باستخدامي الوسائل التي بقدرتي . هذا اكثر واقعية بكثير .

فقال هنري :

– هذا واقعي إذا كان يخدم شيئاً ما .

فقال دوبروي :

– انه يمكن ان يخدم .

وساد صمت . وتساءل هنري : « ماذا في رأسه على الضبط ؟ » . كان قد قبل بسهولة اكثر مما ينبغي وجهة نظر نادين : انه يتحرك لأنه سئم . انها لموجزة هذه الكلبية . كان قد تعلم الا ينظر الى دوبروي بعين الجد بشكل اعمى: لكن هذا لا يسمح له بأن ينظر اليه على انه طائش . وقال هنري :

– ثمة شيء لا افهمه . كنت تقول في السنة الماضية انك شخصياً لا تستطيع ان تتقبل ما سميته « المذهب الانساني الجديد » ، وها انت ذا تمشي مع الشيوعيين الى النهاية . ألم يعد يحرجك ما كان يحرجك ؟ » .

فقال دوبروي :

– أتعرف ، ان هذا المذهب الانساني لهو بالضبط التعبير عن عالم اليوم . لم

نعد نستطيع ان نرفضه ما دمنا لا نستطيع ان نرفض العالم . اننا نستطيع ان نحرد ، هذا كل شيء .

فقال هنري في نفسه : « هذا ما يظنه بي . انني أحرد » . ان دوبروي سيتابع حتى موته ، التعالي على ماضيه وماضي الآخرين. وقال هنري في نفسه: « أخيراً ، إنما أنا الذي سعى اليـه » . كان يريد ان يفهم لا ان يدافع عن نفسه ضده ، فلا فائدة من الدفاع : كان يعرف انه في أمان . وابتسم :

– لمَ كففت عن الحرد ؟

فقال دوبروي :

– لأنني شعرت من جديد ذات يوم انني في الورطة . » وتابع :« اوه ! هذا بسيط جداً . في السنة الماضية كنت أقول لنفسي : « كل شيء شر ، وأبسط شر صعب جداً على الابتلاع كي انظر اليه على انه خير » . إلا ان الموقف تفاقم . لقد اصبح اسوأ الشر مهدداًبشكل ان تحفظاتي تجاه الاتحاد السوفياتي والشيوعية بدت لي ثانويـة جداً » . ونظر دوبروي الى هنري : « مـا يدهشني هو انك لا تشعر مثلي » .

فهز هنري كتفيه : « لقد رأيت عدداً لا بأس به من الشيوعيين ، هـذا الشهر ، واشتغلت مع لاشوم . انني أفهم جيداً وجهـة نظرهم : لكنني لا أتفاهم معهم ، لن أتفاهم ابداً . »

فقال دوبروي :

– ليس المقصود الدخول إلى الحزب ، لكن لا حاجة هناك لنكون متفقين على كل شيء للنضال معاً ضد اميركا وضد الحرب .

فقال هنري :

– انت اكثر تفانياً مني . فلن اضحي بالحياة التي ارغب في ان اعيشها من اجل قضية لا اؤمن إلا بنصفها .

فقال دوبروي :

– آه ! لا تخرج لي هذا النوع من الحجج ! انه يجعلني افكر بفولانج حين

يقول : « الانسان لا يستحق ان ينصبّ الاهتمام عليه » .

فقال هنري بحدة :

– ليس هذا متماثلاً البتة .

– اكثر مما تظن . » وسأل دوبروي هنري بنظرته : « انت مقتنع بأنه بين الاتحاد السوفياتي واميركا يجب ان نختار الاتحاد السوفياتي ؟ » .

– بديهي .

– حسناً ! هذا يكفي . « وقال بعنف : » ثمة شيء يجب ان نقنع انفسنا به ، وهو انه ليس هناك ارتضاء آخر غير الأختيار ، وليس هنـــاك حب آخر غير التفضيل . إذا كنـــا ننتظر كي نلتزم ان نلقى الكمال المطلق ، فلن نحب ابداً شخصاً ما ، ولن نفعل ابداً شيئاً ما » .

فقال هنري :

– دون ان نطالب بالكمال ، نستطيع ان نجد على كل حال ان الاشياء قبيحة بالاحرى ، فلا نرغب في التدخل فيها .

فقال دوبروي :

– قبيحة بالنسبة لماذا ؟

– بالنسبة لما يمكن ان تكونه .

فقال دوبروي :

– اي الافكار التي تتصورها عنها . » وهز كتفيه : « الاتحاد السوفياتي كما يجب ان يكون ، الثورة بـلا دموع ، هذا كله أفكار محض ، اي صفر . بديهي ، ان الواقع خاطىء دوماً إذا قورن بالفكرة . فما إن تتجسد الفكرة ، حتى تتشوه . كل ما هنالك ان تفوق الاتحاد السوفياتي على جميع الاشتراكيات الممكنة ، هو انه موجود » .

فنظر هنري الى دوبروي مستفهماً :

– ما هو موجود مصيب دوماً ، فلم يبق اذن الا ان نكتف ايدينا .

فقال دوبروي :

– على الاطلاق . ان الواقع ليس ثابتاً . ان له مستقبلاً ، امكانيات . ولكن كي نؤثر عليه بل وكي نعقله ، فلا بد ان نقيم فيه لا ان نتلهى بأحلام صغيرة .

فقال هنري :

– أتعرف ، انني لا أحلم تقريباً .

– حين نقول : « الاشياء قبيحة » او مثلي في السنة الماضية : « كل شيء شر ، فهذا يعني اننا نحلم خلسة بخير مطلق . » ونظر الى هنري في عينيه : « نحن لا ندرك ذلك ، لكن لا بد لنا من صلف غريب كي نضع هذه الأحلام فوق كل شيء . لو كنا متواضعين ، لفهمنا ان هناك من ناحية اولى الواقع ، ومن الناحية الأخرى لا شيء » . واضاف . : لا أعرف غلطة أسوأ من تفضيل الفراغ على الامتلاء » .

فالتفت هنري الى آن التي كانت تحتسي في صمت كأساً ثانية من المارتيني : « ما رأيك ؟ » .

فقالت :

– لقد وجدت دوماً مشقة ، شخصياً ، في اعتبار الشر الأصغر خيراً . لكن هذا لأنني آمنت طويلاً بالله . اعتقد ان روبير على حق .

فقال هنري :

– ربما .

فقال دوبروي :

– انني اتكلم عن معرفة للعلة . فأنا ايضاً حاولت ان ابرر استياءاتي بقبح العالم .

وملأ هنري كأسه من جديد. ألم يكن دوبروي على وجه الدقة يبرر استياءه بالنظريات ؟ وفكر : « لكن اذا انطلقنا من هذه النقطة ، فإنني احاول استياء مني أيضاً ان اقلل من قيمة ما يقوله » . وقرر ان يثق به ، على الأقل حتى نهاية الحديث . وقال :

– على كل ، هذا يبدو لي متشائماً بالأحرى، اعني اسلوبك في رؤية الاشياء :

فقال دوبروي :

– هذا أيضاً ليس متشائماً الا بالنسبة للأفكار التي كنت اتصورها في الماضي . أفكار باسمة اكثر بكثير . والتاريخ ليس باسماً . لكن لما لم تكن هناك اي وسيلة للإفلات منه ، فيجب ان نفتش عن أفضل طريقة لنعيشه : وهي ليست الاستنكاف برأيي .

كان هنري يود لو يطرح عليه اسئلة أخرى ، لكن سُمع في البهو وقع أقدام ودفعت نادين الباب . وقالت بمرح :

– السلام ، يا عصبة السكارى ! تستطيعون ان تشربوا نخب صحتي : انني استحق نخب شرف ! » ونظرت اليهم في انتصار : « خمنوا ما فعلت ؟ » .

فقال هنري :

– ماذا إذن ؟

– ذهبت الى باريس وانتقمت لنا : فقد صفعت لامبير .

وساد صمت وجيز . وسأل هنري :

– اين قابلته ؟ كيف حدث ذلك ؟

فقالت نادين بفخر :

– حسناً ! صعدت الى « الأمل » . ودخلت الى قاعة التحرير . كانوا جميعاً هناك ، سامازيل ، فولانج ، لامبير ، وعدد من الجدد ، لهم وجوه قذرة . ان رؤيتهم لتحدث تأثيراً غريباً ! » واخذت نادين تضحك : « وبدا لامبير مضطرباً ، وتمتم بأشياء لكني لم اتركه يتكلم . قلت له : « لك عليّ دين قديم : انني مسرورة من انك اتحت لي الفرصة لأسدده لك » . ووجهت كفي الى وجهه » .

فقال هنري :

– وماذا فعل ؟

فقالت نادين :

– اوه ! لقد اخذا القضية على مأخذ الكرامة ، وتظاهر بالصلف . واسرعت

بالانصراف .

فقال هنري :

ـ ألم يقل انني كنت استطيع ان أقوم بتبليغ رسالتي بنفسي ؟ هذا مـــا كنت قلته مكانه .

ما كان يريد ان يشتم نادين ، لكنه كان عظيم الاستياء . وقالت نادين :

ـ لم استمع الى ما قاله . » ونظرت الى ثلاثتهم بشيء من التحدي : « إذن؟ ألا تهنؤونني ؟ » .

فقال دوبروي :

ـ كلا . لا ارى ان ما فعلته ذكي جداً .

فقالت نادين :

ـ اما انا فأجده ذكياً جداً . » واضافت بلهجـة حقود : « رأيت فانسان وانا خارجة من هناك ، فقال لي انني سفيهة » .

فقال دوبروي :

ـ إذا كنت تريدين الشهرة ، فقد أصبت في عمليتك . سوف تتحدث عنها الصحف في فرحة عظيمة .

فقالت نادين :

ـ انني لا أبالي بالصحف .

ـ الدليل انك تبالين بها !

وحدج أحدهما الآخر في بغض . وقالت نادين في غضب :

ـ إذا كان يعجبك ان يغطوك بالخراء ، فترحى لك . أمـا انا فلا يعجبني هذا . » والتفتت نحو هنري ، وقالت على حين غرة : « هذا كله من غلطتك . لمَ رويت قصصنا لجميع الناس ؟ » .

فقال هنري :

ـ حسبك : انني لم اتكلم عنا . انت تعرفين جيـداً ان جميع الشخصيات مخترعة .

فقالت :

– هيا إذن ! هناك خمسون شيئاً في روايتك تنطبق عليك وعلى بابا ، ولقد تعرفت على ثلاث جمل لي .

فقال هنري :

– يقول اناس انهم ليست لهم اي علاقة بك . » وهز كتفيه : « بديهي انني اظهرت اشخاصاً معاصرين ، في وضع قريب من وضعنا نحن : لكن هنـــاك الالوف على هذه الحال ، وهذا لا ينطبق علي او على والدك بشكل خاص . بل على العكس ، ان ابطالي في معظم النقاط لا يشبهوننا مطلقاً » .

فقالت نادين بحدة :

– لم احتج لأنه يمكن ان يقال انني احدث قصصاً ، لكن هل تعتقد ان هذا لطيف ؟ اننا نتحدث معك ، باطمئنان ، ونعتبر انفسنا رفاقاً لك ، وفي الوقت نفسه تلاحظ ، وتسجل نقاطاً داخل نفسك ، وذات يوم جميل نجد ، مسطورة على الورق ، كلمات كنا قد قلناها كي تنسى ، حركات لم يكن لها أهمية . انني اسمي هذا استغلالاً للثقة !

فقال هنري :

– لا يمكن للمرء ان يكتب دون ان يلتقط اشياء مما حوله .

فقالت نادين بشراسة :

– ربما . لكن علينا إذن ألا نعاشر الكتّاب .

فابتسم لها هنري : « أنت سيئة الحظ ! » ..

فقالت وهي تحمرّ :

– اهزأ بي الآن .

فقال هنري :

– انني لا اهزأ بك . » وطوق بذراعه كتفي نادين : « لن نحول هذه القصة الى مأساة » .

فقالت نادين : « انتم الذين تحولونها الى مأساة ! آه ! يبـدو مظهركم سعيداً

حين تكونون ثلاثتكم هنا تنظرون إليّ وكأنكم قضاة ! ».

فقالت آن بصوت مصالح :

– هيا ، ما من احد يحكم عليك . » وبحثت عن نظرة دوبروي : « انه لمرض على كل حال التفكير بأن لامبير تلقّى صفعة طيبة » .

فلم يجب دوبروي . وحاول هنري ان يقطع حبل الصمت : « أرأيت فانسان ؟ إلامَ صار إليه ؟ » .

فقالت بلهجة مبحوحة :

– ماذا تريد ان يصير إليه ؟

– ألا يزال في الاذاعة ؟

– أجل . » وترددت نادين : « كان لدي قصة جميلة أرويها لكم ، لكن لم اعد ارغب » .

فقال هنري :

– هيا : اروي !

فقالت نادين :

– لقد وجد فانسان سيزوناك في فندق صغير من ناحية « باتينيول » . وما إن حصل على العنوان ، حتى ذهب يقرع باب سيزوناك ، ليقول له طريقته في التفكير . ورفض سيزوناك ان يفتح له . وتسمّر فانسان امام الفندق ، فهرب الآخر من سلم نجدة . ومنذ ثلاثة ايام لم يظهر ثانية : لا في الفندق ، ولا في مطعمه ، ولا في البارات التي يتزود منها بالمخدر ، ولا في اي مكان . » واضافت بصوت منتصر : « انه اعتراف ، أليس كذلك ؟ لو كان ضميره ناصعاً ، لما اختفى » .

فقال هنري :

– هذا يتعلق بما قاله له فانسان من خلال الباب . فحتى لو كان بريئاً ، فمن الممكن ان يكون قد خاف .

فقالت نادين :

– لكن لا . لو كان بريئاً لحاول ان يشرح موقفه . » والتفتت نحو امهـــا وقالت بلهجة عدائية : « لا يبدو ان هذا يهمك . مع انك قـــد عرفته ، سيزوناك » .

فقالت آن :

– أجل . لقد بدا لي مدمناً من الدرجة الاخيرة . وحين يصل المرء الى هذا الحد ، فإنه يقدر على اي شيء .

وساد صمت ثقيل . كان هنري يفكر في قلق : « فانسان وجـد سيزوناك . ثم ؟ » . إذا تكلم سيزوناك ، وإذا كان لامبير حانقاً بمـا فيه الكفاية على هنري ليؤكد قصته ، فماذا سيحدث ؟ ربمـــا كان دوبروي وآن يطرحان على نفسيهما السؤال ذاته . وقالت نادين بغضب :

– حسناً ! إذا كان هذا هو التأثير كله الذي احدثته عليكم ، فقد كان من الافضل لي ان احتفظ بقصتي لنفسي !

فقال هنري :

– لكن لا . انها قصة غريبة : لهذا نحلم حولها .

فقالت نادين :

– لا تتحمل مشقة ان تكون مهذباً ! انتم اشخاص كبار ولست انـــا إلا طفلة . وما يسليني لا يسليكم ، هـــذا طبيعي . » وسارت نحو الباب : « انني صاعدة لأرى ماريا » .

وحردت طوال السهرة . وفكر هنري : «ان هذه الحياة الرباعية لا توافقها . سوف تتحسن الحال في ايطاليا » . وفكر في شيء من القلق : « أكثر من عشرة ايام» . كان كل شيء معداً . نادين وماريا ستسافران في عربات النوم ، وسيسبقهما في السيارة ، بعد عشرة ايام . كان يشعر من الآن في بعض الأحيان بريح ساخنة فيها رائحة الملح والصمغ على وجهه ، فتتصاعد نفحة من السعادة إلى قلبه . وفي لحظات اخرى ، كان يشعر بأسف يشبه الضغينة : كأنه ُنفي رغم إرادته .

طوال نهار اليوم التالي، اعاد هنري التفكير في الحديث الذي كان بينه وبين دوبروي والذي امتد إلى ساعة متأخرة ليلاً. كان دوبروي يؤكد ان المشكلة الوحيدة هي ان يقرر الانسان مـــا هي الاشياء التي يفضلها من بـــين الاشياء الموجودة . وهذا لا يعني الرضوخ : فالانسان يرضخ حين يقبل من بـــين شيئين واقعين بالشيء الأقل قيمة . لكن خارج الانسانية كما هي عليه ، لا يوجد شيء. اجل ، كان هنري يوافق على بعض النقاط . فتفضيل الفراغ على الامتلاء هو ما لام عليه بول: كانت تتشبث بأساطير قديمة بدلاً من ان تأخذه كما هو وبالعكس، لم يفتش ابـــداً في نادين عن « المرأة المثالية » ، بـل اختار ان يعيش معها على معرفته بنواقصها . كان موقف دوبروي يبدو مبرراً حين يذهب فكر المرء إلى الكتب والأعمال الفنية على الأخص . فالمرء لا يكتب ابداً الكتب التي يريـد ، ويمكنه ان يتلهى بالنظر الى كل أثر كبير على انه فشل . ومع ذلك فنحن لا نحلم بفن لا أرضي : فالآثار التي نفضلها ، انما نحبها حباً مطلقاً . وكان هنري ، على الصعيد السياسي ، يشعر بقناعة أقل : لأن الشر يتدخل هنا . وهو ليس فقط خيراً أقل : انه مطلق الشقاء ، الموت . لكن إذا ما علّقنا اهميـة على الشقاء ، على الموت ، على البشر فرداً فرداً ، فلا يكفي ان نقول في انفسنا : «ان التاريخ تعيس على كل حال » ، ليكون لنا الحق في غسل أيدينا منه : فانه لشيء هـام ان يكون اكثر او أقل تعاسة . كان الليل يخيم . وكان هـنري يجتر افكاره في ظل شجرة الزيزفون حين ظهرت آن على أعلى الدرج :

— هنري ! » كانت تناديه بصوت هادىء لكنه ملح، وفكر بملل: « مأساة اخرى مع نادين » . وسار نحو البيت .

— نعم ؟

كان دوبروي جالساً بقرب المدفأة ونادين واقفة أمامه، داسّة يديها في جيبي بنطلونها ، مقطّبة . وقالت آن :

— لقد جاء سيزوناك .

— سيزوناك ؟

— انه يزعم انهم يسعون إلى قتله . انه يختبىء منذ خمسة ايام ، لكنه لم يعد يستطيع الاحتمال : خمسة ايام بدون مخدر ، انه على وشك الانهيار . » واومأت إلى باب غرفة الطعام : « انه هناك ، ممدداً على الأريكة ، مريضاً مثل كلب . سوف ازرقه » .

كانت تمسك في يـــدها بحقنة وكان صندوق الصيدلية على الطاولة . وقالت نادين بصوت قاس :

— سترزقينه بعد ان يتكلم . » واضافت : كان يأمل ان تكون ماما ساذجة بما فيه الكفاية لتساعده دون ان تطرح عليه اسئلة . الا انه بدون حظ ، فقد كنت هنا » .

فسأل هنري :

— هل تكلم ؟

فقالت نادين :

— سوف يتكلم . » وسارت بجدة نحو الباب وفتحته . وبصوت شبه ودي نادت : « سيزوناك ! » .

وتجمد هنري على العتبة بجانب آن بينما كانت نادين تقترب من الأريكة . ولم يتحرك سيزوناك ، كان راقداً على ظهره ، يئن ، ويداه تنفتحان وتنقبضان بحركة تشنجية . وقال : « بسرعة ! بسرعة ! » .

فقالت نادين :

— ستحصل على حقنتك . ماما آتية لك بالمورفين ، انظر .

فأدار سيزوناك رأسه ، وكان رأسه يرشح عرقاً . وقالت نادين :

— لكنك اولاً ستجيبني . في أي سنة بدأت تعمل مع الجستابو ؟

فقال سيزوناك :

— سوف اموت . » كانت الدموع تنساب على خديـــه وكان يرفس الفراغ بقدميه . كان مشهداً صعباً على التحمل ، وود هنري لو تضع له آن حداً فوراً . لكنها كانت تبدو مشلولة . واقتربت نادين من الأريكة وقالت :

– أجب وسنحققنك . » ومالت على سيزوناك : « أجب او ستسوء الحال . في اي سنة ؟ » .

فتمتم هامساً :

– ابداً . » ورفس رفسة اخرى ، وسقط على السرير ، بلا حراك . كان هناك بعض من زبد ابيض على طرف شفتيه .

وخطا هنري خطوة نحو نادين : « اتركيه ! » .

فقالت بعنف :

– كلا . اريد ان يتكلم . سيتكلم او سيموت . » وتابعت مخاطبة سيزوناك : « أتسمع ، إذا لم تتكلم ، فسنتركك تموت » .

كان دوبروي وآن جامدين مكانهما . والواقع انه إذا كانوا يريدون ان يعرفوا حقيقة سيزوناك ، فالآن هو وقت استجواب سيزوناك او ابداً . وكان من الأفضل ان يعرفوا .

وأمسكت نادين بسيزوناك من شعره : « نحن نعرف انك سلمت يهوداً ، عدداً من اليهود : متى بدأت ؟ قلها » . كانت تهز رأسه فأنّ :

– انت تؤلمينني !

فقالت نادين :

– اجب ، كم سلمت من اليهود ؟

فأطلق صرخة ألم صغيرة ، وقال : « كنت اساعدهم ، كنت اساعدهم على العبور » .

فتركته نادين : « ما كنت تساعدهم . كنت تسلمهم . كم سلمت ؟ » .

فأخذ سيزوناك ينتحب على الوسادة . وقالت نادين :

– كنت تسلمهم ، اعترف !

فقال سيزوناك :

– من حين لآخر ، لإنقاذ الآخرين ، كان يجب ذلك . » ونهض ونظر حوله تائه النظرة : « انتم ظالمون ! لقد انقذت منهم . انقذت الكثيرين » .

فقالت نادين :

– بل العكس . كنت تنقذ واحداً من عشرين ، كي يرسل اليـــك زبائن ، وكنت تسلّم آخرين . كم سلمت ؟

فقال سيزوناك :

– لست ادري . » وصرخ فجأة : « لا تتركوني اموت ! » .

فقالت آن وهي تتجه نحو الأريكة :

– اوه ! هذا يكفي . » ومالت على سيزوناك ورفعت كمه وعادت نادين نحو هنري : « هل اقتنعت ؟ » .

فقال :

– أجل . » واضاف : « ومع ذلك فانني لا اتوصل الى تصديق ذلك » .

كان غالباً ما شاهد سيزوناك زجاجي العين، مبلل اليدين ، وكان يراه مجندلاً على هذه الاريكة . لكن هذا كله لا يمحو صورة البطل الشاب المرتدي ربطة عنق حمراء الذي كان يذهب من متراس الى متراس وعلى كتفه بندقية كبيرة . وعادوا للجلوس في المكتب وسأل هنري :

– إذن ، ماذا سيفعل ؟

فقالت نادين بحدّة :

– لا مجال لسؤال ، انه يستحق رصاصة في رأسه .

فقال دوبروي :

– انت التي ستطلقينها ؟

فقالت نادين التي مدّت يدها الى الهاتف :

– كلا . لكن سأتلفن للبوليس .

فقال دوبروي :

– البوليس ! اتدركين ما تقولين !

وقال هنري :

– ستسلمين شخصاً للبوليس ؟

فقالت نادين :

– خراء إذن! شخص سلم عشرات اليهود الى الجستابو ، أتقول انني سأسبب لنفسي الحرج !

فقال دوبروي بنفاد صبر :

– اتركي هذا الهاتف ، واجلسي . لا مجال لدعوة الشرطة . لكن يجب نتخذ قراراً : نحن لا نستطيع ان نعالجه ، ونحميه ، ونعيده بهدوء الى مهنته الجميلة .

فقالت نادين :

– سيكون هذا منطقياً ! » كانت قد اسندت ظهرها إلى الحائط وراحت تنظر الى الآخرين بتهجم .

وساد صمت . لو حدث ذلك قبل اربعة أعوام لكان الامر بسيطاً جداً فحين يكون العمل واقعاً حياً ، وحين يؤمن الانسان بأهداف ، فان كلمة العدالة لها معنى . فالخائن ، يُصرع . لكن ما العمل بخائن قديم حين لا يعود الأنسان يأمل شيئاً ؟

وقالت آن :

– لنحتفظ به هنا يومين او ثلاثة ، اي الوقت الكافي ليستطيع المشي. فعلاً مريض جداً. ثم سنرسله الى مستعمرة ما بعيدة : افريقيا الغربية الفرنسية مثلاً ، فنحن نعرف اناساً هناك ولن يعود ابداً : انه خائف جداً من ان يُقتل

فقال دوبروي .

– وإلامَ سيصير ؟ لن نعطيه رسائل توصية .

فقالت نادين :

– ولمَ لا ؟ اجروا له إذن دخلاً ما دمتم تريدون مساعدته . كان صوتها يرتعد هوساً :

فقالت آن :

أتعرفين ، انه لن يرجع عن ادمانه ابداً ، انه خرقة حقيقية . على

حوال ، ان الحياة التي امامه اصبحت فظيعة جداً .

فضربت نادين بقدمها : — انه لن ينجو بجلده هكذا ! » .

فقال هنري :

— هناك كثيرون نجوا بجلدهم !

— ليس هذا سبباً . » ونظرت الى هنري في شك : « هل انت خائف منه

؟ » .

— انا ؟

— كان يبدو عليه انه يعرف اشياء عنك .

فقال دوبروي :

— انه يفترض ان هنري عضو في عصابة فانسان .

فقالت نادين :

— لكن لا . لقد سمعته . لقد قال لي : « اذا تكلمت ، فسيتعرض زوجك

اعب نفسها التي سأتعرض لها » .

فابتسم هنري : « هل تفكرين بأنني كنت عميلاً مزدوجاً ؟ » .

فقالت :

— لا ادري بمَ يجب ان افكر فأنتم لا تقولون لي شيئاً قط . » واضافت :

نا لا ابالي بذلك . تستطيعون ان تحتفظوا بأسراركم . لكن اريد ان يدفع

وناك ! اتدركون ما فعل ، كلا ؟ » .

فقالت آن :

— اننا ندرك . لكن ما يفيدك ان تجعليه يدفع ؟ ان الاموات لا يُبعثون .

— انت تتكلمين مثل لامبير ! انهم لا يبعثون ، لكن ليس هذا كافياً

ساهم . اننا لسنا امواتاً ، اننا لا نزال نستطيع ان نفكر فيهم والا نقبل

ام من اغتالوهم .

فقالت آن بصوت عنيف :

— لكننا نسيناهم . ربما لم تكن غلطتنا . بيد أن هذا يعني انه لم يعد لنا أي

حق على الماضي .

فقالت نادين :

– انني لم انسَ شيئاً . ليس انا .

– انت كغيرك . ان لك حياتك ، ولك فتاة صغيرة . لقد نسيت . وإذا كنت حريصة إلى هذا الحد على معاقبة سيزوناك ،فهذا كي تثبتي لنفسك العكس. لكن هذا سوء نية .

فقالت نادين :

- أسوء نية ان ارفض الدخول الى مطابخكم الصغيرة ! » وسارت نحو الباب – النافـــذة ، وصاحت بعنف : « حسناً ! انني لأسمي وساوسكم جبناً ! » . وصفقت الباب وراءها .

وقالت آن :

– انني افهمها . حين افكر في دييغو ، افهمها . » ونهضت : « سأعــــد له فراشاً في الجناح . انه نائم ، فليس عليكما إلا ان تنقلاه ... » . وخرجت فجأة وشعر هنري انها كانت على وشك البكاء .

وقال هنري :

– في الماضي ، كنت استطيع ان اصرعه بنفسي . اما اليوم فلن يكون لهذا أي معنى . » واضاف : «ومع ذلك فانها لفضيحة ان نساعد شخصاً كهذا على الحياة . »

فقال دوبروي :

– اجل ، ان كل حـل سيكون رديئاً حتماً ..» ونظر الى سيزوناك : « الوقت الوحيد الذي يكون فيه للمشاكل حل، هو عندما لا تكون مطروحة. لو كنا في العملية ، لما كانت هناك مشكلة . الا اننا الآن ، خارجاً عنها . اذن سيكون قرارنا تعسفياً حتماً » . ونهض : « لنمدِّده » .

كان سيزوناك نائماً ، وكان وجهـــه هادئاً . كان وعيناه مطبقتان ، يستعيد بعض جماله القديم . لم يكن وزنه ثقيلاً . ونقلاه حتى الجناح ومدداه بثيابه على

السرير . وبسطت آن غطاء على قدميه . وتمتمت :

– ان الشخص النائم ليبدو مسالماً جداً .

فقال هنري :

– ربما لم يكن مسالماً الى هذا الحد . انه يعرف حتماً كمية من الاشياء عن فانسان ورفاقه . وفي الساعة الراهنة ، يوجد كثيرون على استعداد لتبييض صفحة عميل سابق للجستابو ليتمكنوا من الايقاع بمقاومين سابقين .

فقالت آن :

– ألا تعتقد انه لو كان يعرف اشياء ، لكان حصلت لفانسان متاعب ؟

فقال دوبروي :

– اسمعي ، حاولي ، وانت تعالجينه ، ان تطبخيه : ان المدمنين يتكلمون بسهولة ، وربما عرفنا ما في رأسه . » وفكر : « اعتقد ان افضل حل ، على كل الاحوال ، ان نُركبه البحر » .

– لمَ وجب ان يأتي الى هنا ؟

كانت متضايقة جداً حتى أنه فكر ان من الواجب ان يتركها وحدها مع دوبروي . وصعد الى غرفته قائلاً ان شهيته مقطوعة وانه سيأكل قطعة فيما بعد مع نادين .

واستند الى النافذة . كان يلمح من بعيد الكتلة الداكنة لتل ، ومن قريب ، الجناح الذي يرقد فيه سيزوناك : هكذا كان يرقد في استديو بول ، ذات ليلة مرحة من ليالي الميلاد . كانا يضحكان احدهما على الآخر ، ويهنئان نفسيهما على النصر ، ويصيحان مع بريستون : « عاشت اميركا » ويشربان نخب الاتحاد السوفياتي . ولقد كان سيزوناك خائناً ، وكانت اميركا النصيرة تستعد لاستعباد اوروبا ، واما ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي فقد كان من الافضل الا ينظر اليه عن قرب كبير . ان الماضي ، وقد خوى من وعوده التي لم يحتوِ عليها قط ، لم يعد الا حيلة غليظة . كان مصباحا سيارة يحفران ، في التل الاسود ، فرجة واسعة لامعة . وظل هنري ساكناً ، مدة طويلة ، ينظر الى زحف طرق النور

هذه في الليل . كان سيزوناك نائماً ونائمة معه جرائمه . وكانت نادين تتسكع في الريف . ولم تكن به اي رغبة في شرح موقفه . ونام دون ان ينتظر عودتها .

من خلال حلم مضطرب ، حسب هنري انـه سمع فجأة صوتاً غير مألوف ، صوت بَرَدٍ . وفتح عينيه . كان شعاع من نور يسوح تحت الباب : كانت نادين قد عادت وكان غضبها لا يزال ساهراً، لكن الصوت لم يأتِ من غرفتها. وسقط مطر من الحصى الصغيرة على زجـاج النافذة . وفكر هنري واثبـاً من سريره : « سيزوناك » . وفتح النافذة وانحنى : فانسان . فضم ثيابـه بسرعة ونزل الى الحديقة .

- ماذا تفعل هنا ؟

كان فانسان جالساً على المقعد الخشبي الاخضر مسنداً ظهره الى جدار البيت. كان وجهه هادئاً ، لكن قدمـه اليسرى كانت تضرب الارض بحركة تشنجية ، وكانت ساق بنطلونه ترتجف .

– انني بحاجة اليك . أمعك سيارتك ؟

– نعم . لماذا ؟

– لقد قتلت سيزوناك : يجب ان نأخذه من هنا .

فنظر هنري الى فانسان في ذهول : « قتلته ؟ » .

فقال فانسان :

– لم تقع مشكلة ، كان نائماً ، فاستخدمت مسدسي الكاتم للصوت ، فـلم يحدث اي ضجة . » كان يتكلم بصوت واضح وسريع . واضاف : « كل مـا هنالك ان ذلك النذل لم يشأ ان يحترق » .

– يحترق ؟

– لقد سرقنا صفائح من الفوسفور من الالمان اثناء المقاومة . انها عادة تسير على افضل وجه . لكن ربما اصبحت الآن قديمـة جداً ، مع انني حرصت على الاحتفاظ بها في مكان جاف . لقد انتظرت ثلاث ساعات فـلم يتحلل الا البطن تقريباً . وقد اخذت الساعة تتأخر . سننقله الى السيارة .

فتمتم هنري :

— لمَ فعلت ذلك ! » وجلس على المقعد . كان يعرف أن فانسان قادر على القتل ، وانه قتل . لكنها كانت معرفة مجردة . فحتى الآن ، كان فانسان قاتلاً بلا ضحية . لم يكن هوسه ، مثل الشراب او المخدر ، يعرض احداً غيره للخطر . وها هو ذا قد دخل الى الجناح ، وفي يده مسدس ، ووضع الفوهة على الصدغ الحي ، ومات سيزوناك . لقد بقي فانسان ، طوال ثلاث ساعات ، منفرداً مع رفيق صرعه ولا يريد ان يحترق : « كنا سنرسله الى غابة ما لن يعود منها ابداً ! » .

فقال فانسان :

— ليس غالباً ! كانت قدمه قد سكنت ، لكن كلامه كان يبدو اقل ثقة : « سيزوناك ! جاسوس ! اتدرك ذلك ! كيف لعب بنا ! شانسيل الذي كان يقول : « انه اخي الصغير ! » وانا ، الفرج المسكين ! لو لم تأخذني الريبة ، بسبب المخدر ، لوقعت بين يديه . ولقد فعلت اشياء من اجله لم افعلها قط من اجل انسان. وحتى لو كنت واثقاً ان ذلك سيكلفني حياتي ، لافتديتها بحياته » .

— كيف عرفت انه هنا ؟

فقال فانسان بغموض :

— لقد اقتفيت اثره . » واضاف : « لقد جئت على الدراجة ، وكنت سأحشو البقايا في كيس ، واربط صخرة بالكيس وارمي بالكل في النهر . كنت تدبرت امري بنفسي . » وكرر بحيرة : « لا افهم لمَ لم يحترق ! » . وتأمل لحظة بصمت ثم نهض : « من المستحسن ان نستعجل » .

— ماذا تريد أن تفعل ؟

— سنحمله ليأخذ حماماً ، حمام أبدية صغيراً . لقد وجدت مكاناً مناسباً .

ولم يتحرك هنري . كان يخيل إليه انه يطلب إليه ان يقتل سيزوناك بيديه بالذات . وقال فانسان :

— ما بك ؟ لا نستطيع ان نتركه هنا ، كلا ؟ والآن اذا كنت لا تريد ان

تساعدني ، فحسناً ، أعرني فقط السيارة ، وسأحاول ان أتدبر امري بدونك

فقال هنري :

– سأساعدك . لكني اسألك شيئاً بالمقابل : عدني بترك هذه العصابة .

فقال فانسان :

– إن ما فعلته هنا ، لشغل فردي . اما عن عصابتي ، فإنني اكرر عل ما قلته لك سابقاً : ليس لديك شيء افضل تقدمه لي . جميع اولئك الاوغ الذين يعودون ، ماذا تفعلون ضدهم ؟ لا شيء . اذن دعونا ندافع عن انفسنا

– ليست هذه طريقة في الدفاع عن النفس .

– ليس لديك افضل منهـا لتقترحها عليّ . » واضاف فانسان : « جيء لا تجيء ، لكن قرّر » .

فقال هنري :

– حسناً ، انني آتٍ .

لم يكن الوقت وقت نقاش . وعلى كل لم يكن يعرف عما يتكلم ، اذ لم يـ اي شيء يبدو حقيقياً . كانت ريح خفيفة تعزف وتلعب مع اغصان الزيزفو وكانت رائحـة الورد المتذابل تصعد نحو البيت ذي المصاريع الزرق ، وك ليلة كسائر الليالي ، لا يحدث فيها شيء . وتبع فانسان الى داخل الجنـا وكان العالم اليومي هو الذي انداح في العدم : كانت الرائحة لا تحتمل : كثي منتصرة ، الرائحة التي تملأ المطابخ حـين يحرق زغب فروج . ونظر هنري السرير وتدارك صرخة : زنجي : كان وجـه الرجل الممدد على الغطاء الاب اسود كله .

وقال فانسان :

– انه الفوسفور . » ورمى بالغطاء : « انظر الى هذا ! » .

كان الثقب الصغير في الصدغ مسدوداً بالقطن ، ولا أثر لدم . كان فانسان دقيقـاً . كان لون الجسد ذي الاضلاع الناتئة بلون الخبز المحروق ، وقـد الفوسفور في وسط البطن شقاً عميقاً . لم تكن هناك اي علاقة بين سيزوناك

ا الراقد المسود . وقال هنري :
– والثياب ؟
– سآخذها في عدلي . انني اتكفل بها . » وامسك بالجثة تحت ذراعيه، وقال
جة بمرض كفوء : « حذار من ان ينقصف الى قسمين » . واخذ هنري الجثة
القدمين ونقلاها حتى المرآب . وقال فانسان : « انتظر ريثما آخذ عدتي » .
كان قد اخفى دراجته وراء كتلة اشجار . وعاد منها بحبل و كيس تثقـــله
ىرة . وقال :
– لن يسع في الكيس ، لكني سأتدبر أمري .
وربط بقوة الصخرة المغطاة بالكيس حول بطن سيزوناك ، ولف الكيس
ل الجسد وعقده . وقال برضى : « من المؤكد انــه سيذهب ، هكذا ، الى
ع » .
ومددا الشيء على المقعد الخلفي وغطياه بمعطف . كان البيت يبدو نائمـــاً .
نت نافذة نادين وحدها مضاءة : هل تشك في شيء ما ؟ ودفعا السيارة حتى
ِيق ، واجتهد هنري في تحريكها بصمت . كانت القرية ايضاً تبدو نائمـة ،
ن كان هناك حتماً مصابون بالأرق يرقبون الاصوات كافة .
وسأل هنري :
– هل سلـّم الكثير من اليهود؟ » لم يكن للعدالة دخل كبير في هذه القصة،
ه كان بحاجة لأن يقنع نفسه بجرائم سيزوناك .
وقال فانسان :
– المئات . كانوا يعبرون الخط بأعداد كبيرة . يا للوغد ! حين افكر بأنــه
يفلت مني ! انها غلطتي ، لقد كنت أخرق . فحين وجدت أثره ، تحامقت
كضت الى فندق ، وكنت على استعداد لقتله في غرفتـــه ، وهذا ليس بعمل
. لقد رفض ان يفتح لي وافلت من بين أصابعي . لقد نلته على كل حال !
كان يتكلم، بصوت يتلعثم قليلاً، بينما كانت السيارة تجري على الطريق النائم .
من الصعب التفكير ، تحت تلك السماء الصامتة ، بأن هناك بشراً ، في كل

مكان قليلاً ، يموتون الآن ، ويقتلون ، وبأن هذه القصة حقيقية . وقال هنري :

– لمَ كان يعمل مع الجستابو ؟

فقال فانسان :

– لحاجته الى المال . كنت أظن انه يدمن منذ موت شانسيل ، منذ ان بدأ كل شيء يصبح مقرفاً. لكن لا، فهذا يرجع الى عهد بعيد. يا للمسكين شانسيل! كان يقول ان سيزوناك يحب الحياة الخطرة وكان يعجب بذلك : لم يكن يشك ان هذا يعني المخدر والمال بأي ثمن .

– لكن لمَ كان يدمن ؟ كان بورجوازياً شاباً متلائماً مع نفسه .

فقال فانسان في سيماء من طهرانية :

– كان ضالاً ، ضالاً اصبح نـذلاً . » وسكت وبعـد لحظة أشار اشارة : « هوذا الجسر » .

كان الطريق مقفراً ، والنهر مقفراً . وفي ثانية واحدة القيا من فوق الافريز بالشيء الذي كان سيزوناك . وحدث صوت في المـاء ، وتلاطم موجة ، وبضعة تجعدات ، ومن جديد كان النهر ساذجاً ، والطريق مقفراً ، والسماء ، والصمت. وفكر هنري : « ابداً لن اعرف من غرق » . كانت هذه الفكرة تحرجه كما انه لو كان مديناً لسيزوناك على الأقل بتأبين صحيح .

وقال فانسان حين انعطفا راجعين :

– أشكرك .

فقال هنري :

– احتفظ بتشكراتك . لقـد ساعدتك لانه كان ينبغي ذلك : لكني معارض ، أكثر من اي وقت مضى .

فقال فانسان :

– ان نذلاً يختفي ، لهو نذل يختفي .

فقال هنري :

– انني أفهم ان تكون حرصت على تسويـة حسابه ، سيزوناك . لكن

اشخاصاً لا تعرفهم ، لا تقل لي ان لك اسباباً حقيقية لقتلهم : انه نوع من المخدر وجدته لنفسك ، انت ايضاً ، نوع من الهوس .

فقال فانسان بحدة :

– انت مخطىء . لا احب القتل . لست سادياً ، انني اكره الدم . لكن كان هناك اشخاص في المقاومة يجدون لذة في اغتيال رجال المليشيا : كانوا يمزقونهم إرباً ، برشاشاتهم . وكنت انا أشمئز من ذلك . انني شخص عادي ، أنت تعرف ذلك .

فقال هنري :

– لا بد ان هناك شيئاً ما . ليس شيئاً طبيعياً ان تقتل للقتل .

– انني لا اقتل للقتل ، بل كي يموت بعض الانذال .

– ولمَ انت حريص الى هذا الحد على ان يموتوا ؟

– ان شخصاً تكرهه حقاً ، فطبيعي ان تتمنى ان يموت . وإنما في الحالة المعاكسة يكون الانسان مجنوناً . » وهز كتفيه : « انها لشعوذات تلك القصص التي تقول ان القتلة مجانين جنسيون وسائر المسخرة . انا لا أقول انه ليس في العصابة مجذوب او مجذوبان . لكن اكثرهم حماسة ، هم آباء اسر صالحون يؤدون ما عليهم تأديته برضى ودون مشاكل » .

وسارت بهما السيارة في صمت . وقال فانسان :

– أتفهم . يجب ان نعرف من اي جانب نحن .

فقال هنري :

– لا حاجة للقتل من أجل ذلك .

– يجب أن نتبلل .

– جيرار باتورو ، حين يدافع عن المدغسقريين مجازفاً بسحله ، فهو يتبلل ، ولهذا معنى . تدبر امرك لتتبلل بفعلك شيئاً نافعاً .

– ماذا تريد أن تفعل من عمل نافع ما دمنا سنموت جميعاً في الحرب القادمة ! اننا نستطيع ان نسوي حسابات ، هذا كل شيء .

– ربما لن تقع حرب .
فقال فانسان :
– أتقول ! اننا كالجرذان !
ووصلا الى أمام الحديقة وأضاف فانسان :
– اسمع ، إذا ما حدثت مشكلة ، فأنت لا تعرف شيئاً ، ولم تر شيئاً ، تسمع شيئاً . لقد اختفى سيزوناك وحسبت انه سافر . إذا قيل لك تكلمت ، فكن واثقاً ومتأكداً من انها خدعة . انكر كل شيء .
فقال هنري :
– إذا حدثت مشكلة ، فلن أتركك تقع . والآن ، اغرب من هنا في صم
– انني غارب من هنا .
وأدخل هنري السيارة الى المرآب ، وحين خرج ، كان فانسان قد اختفى من الممكن الافتراض بالفعل ان سيزوناك طار . وفانسان لم يضع قدميه سان – مارتان . لم يحدث شيء .
كان قد حدث شيء ما . ففي شحوب الفجر ، كان ثلاثتهم جالسين و غرفة الجلوس ، وآن ودوبروي متلحفان بروب دي شامبر ، ونادين في كامـ ثيابها . كانت تبكي . ورفعت رأسها وقالت بصوت ضائع : من أين أ قادم ؟ » .
فجلس الى جانبها وطوق كتفيها بذراعه : لِمَ تبكين ؟ » .
فأنّت نادين :
– انها غلطتي !
– ما هي غلطتك ؟
– انا التي تلفنت لفانسان . تلفنت من المقهى . أرجو فقط ألا يكونوا ق سمعوا شيئاً ! » .
فقالت آن بحدة : « كانت تريد فقط ان يشي فانسان بسيزوناك البوليس » .

فقالت نادين :

— رجوته الا يأتي . لكن لا فائدة ، فانتظرت على الطريق ، كنت خائفة. سم لي انه يريد أن يتكلم مع سيزوناك ، وصرفني الى غرفتي . وبعد مــــدة يلة ، رمى بحصى على نافذتي ، وسألني اين نافذتك . وسألت بصوت مذعور : اذا حدث ؟ » .

فقال هنري :

— سيزوناك في قاع النهر مع حجر كبير في عنقه . لن يجدوه سريعاً .

— اوه ! يا الهي ! » كانت نادين تبكي وتنتحب نحيباً يهز جسدها المتين كله .

وقال دوبروي :

— كان سيزوناك يستحق رصاصة في رأسه ، لقد قلت ذلك بنفسك . أعتقد هذا كان أفضل ما يمكن ان يحدث له .

فقالت نادين :

— كان حياً ، وهو الآن ميت ! هذا فظيع جداً !

وتركوها تبكي فترة طويـــلة دون ان يقولوا شيئاً . ورفعت رأسها ثانية : اذا سيحدث الآن ؟ » .

— لا شيء البتة .

— اذا وجدوه ؟

فقال هنري ؟

— لن يجدوه .

— سيقلقون لاختفــائه . لكن من يدري إن لم يكن قد قـــال لصديقه أو اق انه قادم الى هنا ؟ ألم يلاحظ أحد في القرية ذهابك وايابك وكذلـــك سان ؟ واذا كان قرب فانسان شخص آخر يعرف كل شيء !

— لا تضطربي . اذا وقعت أسوأ الاحتمالات ، فسأدافع عن نفسي .

— انت شريك في جريمة قتل .

فقال هنري :

– انا واثق من انني سأبرأ مع محامٍ قدير .

فقالت نادين :

– كلا ، ليس هذا أكيداً !

– كانت تبكي في هوس من تأنيب الضمير كان يزعج هنري . ذلـــك لأنـ
تدخل غرفة الهاتف الا حقداً على أهلها وعليه بالذات . هل كان من المستحيـ
حقـــاً ان يستأصل منها الاحساس العنيد الذي كانت اولى ضحاياه ! لـكم كا
تجعل نفسها تعيسة !

وقالت :

– سيضعونك في السجن ، طوال سنين !

فقال هنري:

– لكن لا !

وأخذ نادين من ذراعها : « تعالي استريحي . لم تنامي هذه الليلة » .

– لن استطيع نوماً .

– ستحاولين . وانا كذلك .

وصعد الدرج ودخلا الى غرفة هنري . ومسحت نادين عينيها ونخطت بصو
عالٍ : « انت تكرهني ، أليس كذلك ؟ » .

فقال هنري :

– انت مجنونة ! » وأضاف : « أتعرفين ما أعتقد ؟ هو انك انت تكر
جميـع الناس قليلاً . أما الآخرون، فهذا عندي سيان . لكن يجب الا تكره
انا : لأنني ، انا ، احبك ، ضعي هذا في رأسك » .

فقالت نادين :

– لكن لا ، انت لا تحبني . وانت على حق : انني لست محببة .

فقال هنري :

– اجلسي هنا . » وجلس الى جانبها ووضع يده على يدها . كان كـ
الرغبة في ان ينفرد بنفسه ، لكنه ما كان يستطيـع ان يـترك نادين لتأ

رها . وكان يشعر هو نفسه بتأنيب الضمير لأنه لم ينجح في كسب ثقتهـــا .
ل : « انظري الي ! » .
فأدارت نحوه وجهاً مسكيناً ناعس الطرف وشعر باندفاع كبـير نحوها .
، ان المرء يحب ما يفضله على كل شيء آخر . وكان حريصاً عليها اكثر من
صه على اي شيء آخر : كان يحبها وعليه ان يقنعها بذلك .
– أتعتقدين حقاً انني لا احبك ؟ أهذا جدّي ؟
فهزت نادين كتفيها : « ولمَ ستحبني ؟ بمَ آتيك ؟
– انني لست حتى جميلة .
فقال هنري :
– آه ! تخلصي من هذه العقد البلهاء . انت تعجبينني كما انت . ومـا تأتيني
مو انت : هذا كل ما اطلبه منك ما دمت احبك .
فنظرت اليه نادين بحزن : « اود كثيراً لو اصدقك » .
– حاولي .
فقالت :
– كلّا . انني أعرف نفسي أكثر مما ينبغي .
– انني اعرفك ايضاً ، أتعلمين .
– بالضبط .
– اعرفك ولا افكر الا بخير عنك : اذن ؟
– اذن هذا معناه انك لا تعرفني جيداً .
فأخذ هنري يضحك : « هوذا منطق جميل ! » .
فقالت نادين :
– انني قبيحة ! طوال الوقت افعل اشياء قبيحة .
– لكن لا . هذا المساء كنت غاضبة وهذا مفهوم . لم تتوقعي ما سيحدث.
ـّي اذن عن هدم نفسك .
فقالت نادين :

– انت لطيف . لكني لا استحق ذلـــك . » وعادت الى البكاء : « لمَ انا هكذا ؟ اني اشمئز من نفسي » .

فقال هنري بحنان :

– انت جد مخطئة :

فرددت :

– انني اشمئز من نفسي !

فقال هنري :

– يجب الا تفعلي ذلـك ، يا حبيبتي . أترين ، ان كل شيء سيكون افضل بكثير لو لم تقرري انــه ليس ثمة من يحبك : أنت تحقدين على الناس للامبالاتهم المزعومة ، لهذا تكذبين عليهم من حين لآخر ، او تسببين لهم ورطة ، حبــاً بالثأر . لكن هذا لا يذهب بعيداً جداً قط ، وهــذا لا يصدر عن روح سوداء جــداً .

فهزت نادين رأسها : « انت لا تعرف ما انا قادرة عليه » .

فابتسم هنري : « انني اعرف ذلك كل المعرفة » .

فقالت بصوت يائس جداً حتى ان هنري اخذها بين ذراعيه : « كلا » .

فقال :

– اسمعي ، إذا كان ثمة شيء ما يثقل على قلبك ، تفعلين حسناً اذا اخبرتني به . سوف يبدو لك اقل فظاعة ، بعد ان تقوليه .

فقالت نادين :

– لا استطيع . هذا قبيح جداً .

فقال هنري :

– لا تقوليه اذا كنت لا تريدين . لكن اذا كان مـــا احسبه ، فهو ليس بخطير جداً .

فنظرت إليه نادين بقلق : « لكن ماذا تحسب ؟ » .

– أهو شيء يتعلق بنا نحن ، انت وانا ؟

فقالت دون ان تتركه عيناها : « أجل » . وكانت شفتاها ترتجفان .

– أتعمدت ان تحبلي ؟ أهذا ما يعذبك ؟

فحنت نادين رأسها : « كيف حزرت ؟ » .

– كان لا ريب في انك لجأت الى الغش : كان هذا هو التفسير الوحيد .

فقالت :

– لقد حزرت ! لا تقل لي انني لا ابعث اشمئزازك !

– لكن يا نادين ، ما كنت لتقبلي ابداً ان اتزوجك رغماً عني ، ما كنت لتهدديني ابداً ! انها بالضبط لعبة صغيرة لعبتها مع نفسك.

فرفعت إليه عينيها بوجه ضارع :

– كلا ، ما كنت لأهددك ابداً .

– اعرف ذلك جيداً . لا بد انه اخذتك نوبة كراهية نحوي ، لسبب او لآخر ، لذلك دبرت تلك القصة . كان يسليك ان تفرضي عليّ موقفاً لم اكن اريده . لكنك كنت تجازفين بأكثر مما اجازف لأنك لم تنوي قط جدياً ان تقسريني قسراً .

فقالت نادين :

– كان ذلك على كل حال قبيحاً !

– لكن لا . كان ذلك على الاخص لا مجدياً : كنا سنتزوج سواء أقبل مدة قصيرة ام بعد مدة قصيرة ، وكان سيولد لنا طفل .

فقالت نادين :

أصحيح هذا ؟

– بديهي . لقد تزوجنا لأن الزواج كان يعجبنا كلينا . وكنت اشعر تجاهك بواجبات اقل كلما شككت في انك اردت ما حصل لك .

فترددت نادين ، وقالت : « افترض انه لو لم تعجبك الحياة معي ، لما كنت فعلت ذلك » .

فقال هنري بمرح :

– ابذلي جهداً صغيراً آخر . افهمي انني لو لم اكن احبك لما اعجبني ذلك .

فقالت نادين : – هذا شيء آخر . اذ يمكن للانسان ان يعجب بالحياة مع انسان دون ان يحبه .

فقال هنري : – ليس انا . » وأضاف بشيء من نفاد الصبر: «اخيراً ! لمَ لا تريدين ان تصدقي انني احبك ؟ » .

فقالت نادين متنهدة : – انها ليست غلطتي . انني ريبية .

فقال هنري : – لم تكوني هكذا دوماً . لم تكوني هكذا مع دييغو .

فتصلبت نادين : « كان ذلك مختلفاً » .

– فيمَ ؟

– كان دييغو لي .

فقال هنري بحدة :

– ليس أكثر مما انا لك . والفرق انه كان طفلاً : لكنــه كان سيهرم . لو كنت لا تقررين قبلياً ان كل راشد قاضٍ ، وبالتالي عدو ، لما احرجك عمري .

فقالت نادين بحزم :

– لن تكون الحال ، معك ، ابداً كما كانت مع دييغو .

فقال هنري :

– ليس هناك حبان متماثلان . لكن لمَ المقارنة ! بديهي إذا كنت تبحثين في قصتنا عن شيء آخر غير ما هي فعلاً ، فلن تجديه .

فقالت نادين : – لن انسى دييغو أبداً .

– لا تنسيه . لكن لا تستخدمي ذكرياتك ضدي . » واضاف : « هذا ما تفعلينه . فلأسباب عدة ، تفسدين حياتك الراهنة . لهذا تلتجئين الى الماضي . وبأسم الماضي ، تنظرين نظرة عليا الى كل ما يقع لك .

فنظرت اليه في شيء من التردد ، وقــــالت : « اجل ، انني حريصة على ماضيّ » .

فقال هنري :

– انني أفهمك جيداً . لكن يجب ان تفهمي شيئاً : انت لا تتقــاعسين من

الحياة لأن لك ذكريات قوية جداً . بل العكس . انت تستخدمين ذكرياتك لتبرري نفسك .

فلزمت نادين الصمت لحظة . كانت تعض على شفتها السفلى ، في تفكير : « لمَ تتهمني بالنية السيئة ؟ » .

— بإحساسك المفرط ، بارتيابك . انها لدائرة مفرغة . انت تشكين في حبي ، لهذا تحقدين علي ولكي تعاقبيني ، ترتابين بي وتحردين . » وقال بصوت ملح : « لكن فكري : إذا كنت احبك، فإنني جدير بثقتك وانت ظالمة بعدم منحك لي إياها » .

فهزت نادين كتفيها في سيماء من أسف : « إذا كانت دائرة مفرغة ، لا نستطيع ان نخرج منها » .

فقال هنري :

— تستطيعين . إذا شئت ، استطعت . » وضمها اليه : « قرري ان تمنحيني ثقتك حتى دون ان تكوني اكيدة من انني استحقها . ان فكرة كونك مخدوعة ترعبك : لكن هذا أفضل ايضاً من ان تكوني ظالمة » . وأضاف : « وسترين : سأستحقها » .

فقالت نادين : — أتجدني ظالمة نحوك ؟

— اجل . انت ظالمة عندما تلومينني على انني لست دييغو . ظالمة عندما تنظرين إليَّ كقاضٍ في حين انني رجل يحبك .

فقالت نادين بصوت قلق :

— لا اريد ، لا اريد ان اكون ظالمة .

فابتسم هنري : « لا تكوني كذلك بعد الآن » . وقال وهو يعانقها : « لو بذلت شيئاً من الارادة الطيبة ، لأقنعتك في النهاية » .

فقالت وهي تطوق عنقه بذراعيها : « انني أسألك عفواً » .

— ليس لديّ ما أصفح به عنك . » واضاف : « تعالي . ستحاولين الآن ان تنامي . سنتحدث عن هذا كله ثانية غداً » .

وساعدها على الرقاد ودثرها في سريرها . وذهب الى غرفته . لم يكن قد

تكلم قط بهذه الصراحة مع نادين ، وكان يخيل اليه ان شيئاً مـــا فيها قد لان . عليه ان يثابر . وتنهد . ثم ؟ كي يجعلها سعيدة فـــلا بد ان يكون سعيداً هو نفسه . وفي ذلك الصباح ، لم يكن يعرف ما يمكن ان تعنيه هذه الكلمة .

لم تشر الصحف بعد يومين الى اختفـاء سيزوناك . وكان هنري لا يزال يظن انه يشم حول الجناح رائحة شيء محروق، ولم تكن صورة الوجه المنتفخ والبطن المبقور ، لتمحي . لكن هـذا الكابوس كان يحجبه قلق آخر : فقـــد تخاصم « الثلاثة الكبار » في موسكو ، وكان الموقف متوتراً جداً بين الشرق والغرب، حتى كان يبدو ان الحرب على الأبواب . وقاد هنري ونادين ودوبروي في السيارة الى محطة ليون بعد ظهر ذلك اليوم : كان متجهماً ، كسائر الناس . ونظر اليه هنري من بعيد يصافح الايدي في بهـو المحطة : لا بد انه كان يفكر بـــأن من السخرية ان يذهب اليـــوم بالذات ليدافع عن السلام بضربات خطابية . ومع ذلك ، حين توجه مع الأرصفة بصحبة ثـــلاثة اشخاص آخرين ، تبعهم هنري بعينيه في نوع من الأسف . كان يشعر انه مبعد .

وسألت نادين : — ماذا سنفعل ؟

— لنذهب أولاً لنأتي بتذكرتك .

— سنسافر على كل حال ؟

فقال هنري :

— نعم . اذا رأينا ان الموقف تفاقم ، أجلنا سفرنا . لكن ربمـــا حدث انفراج . لقد حددنا موعداً : نحن لا نزال عليه حالياً .

وذهبا الى السوق ، واشتريا اسطوانات ، ومرا بـ « الطـــواريء » ثم بـ « السندان » لرؤية لاشوم . كان الشيوعيون قـد قرروا ان يأخذوا القضية المدغسقرية رسمياً بيـــدهم ، ما إن يصدر الحكم . وسوف يدلي المكتب السياسي بتصريح ، وسوف توزع عرائض ، وتنظـم مهرجانات خطابية . وكان لاشوم يحاول ان يكون متفائلاً ظاهرياً ، لكنه كان يعلم جيداً انهـــم لن يحصلوا على شيء . امـا بخصوص الموقف الدولي ، فـــلم يكن مرحاً أيضاً . وأخذ هنري

نادين الى السينما . وعند العودة ، وبينما كانا يجريان على طريق السيارات ، عبر غسق ندي ، هاجمته بأسئلة لم يكن يستطيع الإجابة عليها . « ماذا سيحدث إذا احتل الروس باريس ؟ ماذا سيحدث اذا ربحت اميركا؟ اذا أرادوا ان يجندوك ، فماذا ستفعل ؟» وكان العشاء كئيباً وبعده فوراً صعدت آن الى غرفتها. وظل هنري في المكتب مع نادين . واخرجت من حقيبتها مغلفين منتفخين وبطاقة عربة النوم :

– اتريد ان ترى بريدك ؟

– اجل اعطينيه .

فناولته نادين احد المغلفين ، وفحصت تذكرتها : « أتدرك ، سوف أسافر في عربات النوم : سأشعر بالخجل » .

– ألست مسرورة؟في الماضي كان بكِ رغبة كبيرة في السفر في عربات النوم؟

– حين كنت اسافر في الدرجة الثالثة ، كنت احسد مسافري عربات النوم . لكني لا أحب ان أفكر انني انا التي سيحسدها الآخرون اليوم . »

وأعادت التذكرة الى حقيبتها : « منذ ان أصبحت هذه التذكرة بين يدي ، والسفر يبدو لي حقيقياً بشكل مرعب » .

– لِمَ تقولين : بشكل مرعب ؟

– انه لشيء مرعب قليلاً دوماً ، السفر ، اليس كذلك ؟

فقال هنري : – ان ما يضايقني، انا ، هو اللايقين. اود ان اكون واثقاً من اننا سنستطيع الرحيل .

فقالت نادين :

– على كل حال ، كان يمكننا ان نؤجل الموعد . ألا يضايقك ألا تشترك في ذلك المهرجان الذي تكلم عنه لاشوم ؟

فقال هنري :

– ما دام الشيوعيون سيدخلون المعركة بكل قواهم ، فانهم ما عادوا بحاجة الي . » وأضاف بحدة : « اذا بدأنا بتأجيل هذا السفر ، فلا يوجد سبب للكف عن ذلك . في ١٤ الجاري ، تبدأ دعوى جديدة . وحين سننتهي من مدغسقر ،

ستحدث اشياء أخرى . يجب ان نقرر بحزم » .

فقالت نادين : — اوه ! هذا يعنيك .

واخــــذت تقلب مجلة « آرغوس » ونشر رسالة : رسالة من شاب ، لطيفة جداً . كانت هناك رسائل لطيفة كثيرة . وكان هذا يسره عادة . لكن في تلك الليلة ، ودون ان يعرف السبب ، كان يغضبه ان يفكر بأنه في نظر بعض الناس نموذج بشري جميل . ودقت الساعة العاشرة . كان دوبروي يتكلم ضد الحرب. وفكر هنري فجأة انه يود لو كان محله. غالباً ما قال في نفسه : «الحرب كالموت، لا فائدة من الاستعداد لها » . لكن حين تنحرف طائرة وتهوي ، فمن الافضل ان تكون القائد الذي يحاول تقويمها على ان تكون مسافراً مذعوراً . ان يفعل شيئاً ما ، ولو كان كلاماً ، فهذا افضل من ان يظل جالساً في ركنه وعلى قلبه يرين هذا الثقل الغامض . وتخيل هنري القاعة الغاصة بالناس، والأوجه المشرئبة نحو دوبروي ، ودوبروي المشرئب نحوهم ، رامياً اياهم بالكلمات : لا مكان فيهم للخوف ، للقلق . انهم يأملون معاً . وعند الانتهاء ، سيذهب دوبروي ليأ كل مقانق ويشرب نبيذ بوجوليه : سيكون ذلك في حانـــة ما ، ولن يكون لأحـــدهم شيء مهم يقوله للآخرين ، لكنهم سيشعرون بغبطة . واشعل هنري سيجارة . اننا لا نوقظ الحرب بالكلمات. لكن الكلام لا يزعم انه يغير التاريخ حتماً : بل هو ايضاً طريقة معينة في عيشه . وكان هنري ، في سكون هـــذا المكتب ، متروكاً لكوابيسه الذاتية ، يشعر انه لا يعيشه كما يجب .

وقالت نادين :

— ان طباعة العدد الأخير جيدة . انهم يثنون كثيراً على اقصوصتك .

فقال هنري بلامبالاة :

— انها لسائرة ، هذه المجلة .

فقالت نادين :

— خطأها الوحيد انها مجلة . بديهي انه لو كان لنا صحيفة اسبوعية لكان الامر مختلفاً بالنسبة للاحداث اليومية .

فقال هنري :

– لِمَ لا يقر والدك قراره ؟ انه يتلظى رغبة . وسيسر افراد حركته بذلك والشيوعيون ينظرون الى المشروع بعين راضية . ما يوقفه ؟

فقالت نادين : – انت تعرف جيداً . انه لا يريد ان يتدخل بدونك .

فقال هنري : – هذا لا معقول . سوف يجد جميع المتعاونين الذين يريد .

فقالت نادين بحدة :

– ليس الأمر متشابهاً . انه سيحتاج الى شخص يستطيع ان يعتمد عليه وعيناه مغمضتان . » وأضافت : « لقد تغير ، أتعرف . لا بد انه العمر . انه لم يعد يرى نفسه قادراً على أي شيء » .

فقال هنري :

– اعتقد انه سيقرر مع ذلك في النهاية . ان الجميع يدفعونه الى ذلك .

فبحثت نادين عن نظرة هنري : « لو لم نرحل الى ايطاليا ، فهل يستهويك ان تهتم بذلك ؟ » .

فقال هنري : – اننا نرحل بالضبط كي نهرب من هذا النوع من الأشياء .

فقالت : – ليس انا . انني اسافر كي اعيش تحت الشمس في مكان جميل .

فقال هنري : – يقيناً ، يوجد هذا ايضاً .

فمدت نادين يدها نحو الرسائل : « أأستطيع ان اقرأ ؟ » .

– اذا كان هذا يسليك .

واخذ يقلب « آرغوس » لكن دونما قناعة . انه لن يهتم بعد الآن بـ « الطوارىء » ، ولن يعود هذا كله يعنيه . وقالت نادين :

– انها للطيفة رسالة الطالب الشاب .

فأخذ هنري يضحك : « الذي يقول انه يرى في حياتي مثالاً ؟ » .

فقالت نادين مبتسمة : – ان الانسان يحتذي الامثلة القادر عليها . » وتابعت : « جدياً ، لقد فهم اشياء » .

– أجل . لكنها بلهاء فكرة الانسان الشمولي تلك . في الحقيقة انني كاتب بورجوازي صغير يتدبر امره كيفما استطاع بين واجباته ومشاربه : لا أكثر من ذلك .

فغام وجه نادين : « وانا ، ما انا ؟ » .

فهز هنري كتفيه : « الحقيقة انه يجب الا نهتم بما نحن عليه. فعلى هذا الصعيد لا نستطيع ان ننجو بأنفسنا » .

فنظرت اليه نادين في تردد : «على أي مستوى آخر تريد ان اضع نفسي؟».

فلم يجب هنري . وهو : على اي مستوى سيضع نفسه ، حين يكون في ايطاليا . سيعاود التحمس لما سيكتبه ، وعندئذ لن يجد نفسه مدفوعاً ليضع نفسه موضع سؤال ككاتب . ليكن . ان يكون كاتباً ، فهذا لا ينقذ كل شيء . كان لا يرى كيف سيتجنب التفكير بنفسه . وقال بارتخاء :

– لك ماريا ، لك حياتك ، ولك أشياء تهمك .

فقالت نادين : – لدي ايضاً الكثير من الوقت . سيتاح لنا وقت واسع في بورتو فينيري .

فتفرس هنري في وجه نادين : « أيخيفك ذلك ؟ » .

فقالت : – لا ادري . انني أؤكد لك انني لم اؤمن قط بهذا السفر ، قبل ان تصبح هذه التذكرة في جيبي . أكنت تؤمن به ، انت ؟

– بديهي .

فقالت نادين بصوت عدائي قليلاً :

– ليس هذا بديهياً جداً . اننا نتكلم ، ونتبادل رسائل ، ونستعد : لكن ما دمنا لم نركب القطار ، فمن الممكن جداً الا يكون الامر الا لعبة . » واضافت : « هل انت واثق فقط انك راغب في السفر ؟ » .

فقال : – لمَ تسألين ذلك ؟

فقالت : – إنه شعور لدي .

– أتعتقدين انني خائف من ان أملّ معك ؟

فقالت بلهجة رصينة :

– كلا . لقد قلت لي عشرين مرة انني لا اسبب الملل لك ، وقد قررت ان اصدقك . انني افكر بمجموع ...

فقال هنري : « اي مجموع ؟ » .

كان مغضباً قليلاً . هذه هي عادة نادين : انها تريد اشياء ، بحـدة أكثر من اي انسان آخر ، وحين تحصل عليها ، يطيش صوابها . انها هي التي خطرت لها فكرة البيت ذاك، وكان يبدو عليها انها متمسكة بها بقوة حتى ان هنري لم يعد طرح هذا المشروع على بساط البحث ولا لحظة واحدة . وفجأة كانت تتركه وحيداً امام مستقبل لم يعد معطى . وقالت نادين :

– انت تقول انـك لن تقرأ الصحف : لكنك ستقرأها . سيكون شيئـاً ظريفاً حين نتلقى « الطوارىء » او تلك الصحيفة الاسبوعية ، اذا مـا صدرت ذات يوم .

فقال هنري :

– اسمعي ، اذا تصرفنا هكذا مدة طويلة فهناك دوماً لحظة سيئة يجب ان نمر بها . ليس هذا سبباً لتبدلي فجأة جميع مشاريعك .

فقالت نادين بهدوء :

– من الحماقة ان نسافر فقط كي لا نبدل مشاريعنا .

– أسمعت ما قاله أبوك في اليوم السابق ؟ اذا بقيت ، فسيعود كل شيء كما كان في الماضي ، حين كنت تلومينني على انني لا اترك لنفسي وقتاً لأعيش .

فقالت نادين :

– لقد قلت الكثير من الحماقات في الماضي .

فقال هنري :

– لقد اخذت هذه السنة وقتي وكنت سعيداً جداً . انني مسافر الى ايطاليا كي يستمر ذلك .

فنظرت اليه نادين في سيماء من تردد : « اذا كنت تفكر حقاً انك ستكون سعيداً هناك ...» .

ولم يجب هنري . سعيد : الحقيقة ان الكلمة لم يعد لها معنى . اننا لا نملـك العالم قط : لا مجال كذلك لحماية أنفسنا منه . اننـــا فيه ، هذا كل شيء . في بورتو فينيري كما في باريس ، ستكون الأرض كلها ماثلة حـوله ، بتعاساتها ، بجرائمها ، بمظالمها . انه يستطيع ان يستخدم بقية حياته في الهرب ، فلن يكون

في مأمن ابداً . سيقرأ الصحف ، ويستمع الى الراديو ، ويتلقى رسائل . وكل ما سيربحه انه سيقول في نفسه : « انني لا استطيع شيئاً » . وفجأة ، انفجر شيء ما في صدره . كلا . ان العزلة التي تخنقه هذا المساء ، إن هـذا العجز الصامت ، ليس هو ما كان يريده . كلا . لن يقبـل ان يقول في نفسه للأبد : « كل شيء يحدث بدوني » . لقد رأت نادين بوضوح : لم يختر ولا لحظة واحـدة هذا المنفى حقاً . كان يدرك فجأة انه كان يتحمل هذه الفكرة منـذ أيام بقرف . وسأل : « هل ستكونين مسرورة اذا بقينا هنا ؟ » .

فقالت باندفاع :

— سأكون مسرورة حيثما كنت انت مسروراً .

— كنت راغبة في الحياة تحت الشمس ، في مكان جميل ؟

— اجل . وترددت نادين وقالت : « أتعرف ، ان النـاس الذين يحلمون بالجنة ، عندما نضعهم امامها ، يكفـّون عن استعجال الذهاب اليها » .

— وبتعبير آخر ، ستندمين إذا سافرنا؟

فنظرت اليه نادين في سيماء من جد : « انني اطلب اليك شيئاً : افعل ما يحلو لك ، انت » . واضافت : « اعتقد انني لا زلت على انانيتي السابقـة ، لكني ازددت ذكاء . إذا اعتقدت انني قسرتك قسراً ، فسيسمم هذا وجودي » .

فقال هنري :

— لم أعد أعرف ما يحلو لي . » ونهض ووضع على الفونوغراف واحـدة من الاسطوانات التي اشتراها . اذا لم يسافر ، فلن يجد غالباً الوقت ليستمع اليهـا . ونظر حوله . إذا لم يسافر ، فهو يعلم ما ينتظره . انه على سابق علم، هذه المرة. وقال في نفسه « على الأقل سأتجنب بعض الفخاخ » . وفكر باستسلام : « سأقع في غيرها » .

وقال :

— هل تريدين ان نستمع الى القليل من الموسيقى ؟ لا حاجة بنا لنقرّر شيئاً هذا المساء .

لكنه كان يعلم انه اخذ قراره .

الفصل الثاني عشر

هل كنت أشعر مسبقاً بأنني سأصل الى هذا الحـد ؟ حين سرقت تلك الزجاجة من حقيبة بول ، كنت ازمع ان ارميها : وخبأتها في قاع علبة قفازي. يكفي ان أصعد الى غرفتي ، تكفي حركة واحدة ، وسأكون قد انتهيت . ان التفكير بذلك ليطمئنني . واسندت خدي الى العشب الدافىء ، وقلت بصوت خافت : « اريد ان أموت » . وانحلت عقدة انفاسي ، وشعرت فجأة بهدوء كبير .

ليس هذا بسبب ليويس ، فمنذ خمسة عشر يوماً ذبلت وردة الاوركيديا الكبيرة ، ورميتها ، ورُفعت القضية . لقد اخذت بالشفاء ، وانا في شيكاغو : سوف اشفى ، لن استطيع ان امنع نفسي من ذلك . ليس هـذا بسبب البشر الذين يُقتلون في كل مكان تقريباً ، ولا بسبب الحرب التي تهدد: ان يقتل الانسان او ان يموت ، فليس هناك كبير فرق ، وجميع النـاس يموتون ، في العمر نفسه تقريباً ، في حوالي الاربعين . كلا . لا شيء من هذا يؤثر عليّ . لو كانت الأشياء تؤثر علي ، لشعرت بنفسي حية ، ولما تمنيت ان اكف عن ان اكون كذلك من جديد . كان الموت يطاردني ، كما في ذلك اليوم الذي صرخت فيه رعباً ، وأنا في الخـامسة عشرة . انني لم اعد في الخـامسة عشرة . لم تعد لي القوة على الهرب . ان المحكوم بالموت يشنق نفسه في زنزانتـه ، كي لا ينتظر بضعة ايام ، ويريدون مني ان اصبر طوال سنين ! ما الفائدة ؟ انني متعبة . ان الموت ليبدو اقل رهبة ، حين يكون الانسان متعباً . اذا كنت استطيع ان اموت من رغبتي فيه ، فلنستفد من ذلك .

ها قد مضى خمسة عشر يومــاً على ذلك : منذ اللحظة التي وصلت فيهـا باريس . كان روبير ينتظرني في محطة الانفاليد . ولم يرني فوراً . كان يسير على طول الرصيف ، في خطى انسان مسنّ صغيرة ، وفكرت بمثل لمح البصر : « انه مسن ! » وابتسم لي ، وكانت نظرته لا تزال فتية : لكن وجهه كان قد اخذ ينحل ، وسينحل حتى اليوم الذي سيتفسخ فيــه . ومنذ ذلــك لم اكف عن التفكير : « امامه عشرة أو خمسة عشر عاماً ، وربما عشرون عاماً : إن عشرين عاماً لمدة قصيرة ! ثم سيموت . سيموت قبلي ». انني استيقظ ، ليلاً ، منتفضة، وأقول في نفسي : « سيموت قبلي » . كان يتكلم مع هنري هــذا الصباح ، كانا يقولان انه يجب البدء من جديد ، وان الانسان يبدأ من جديد أبداً ، وانــه لا يمكن التصرف بطريقة اخرى ، وكانا يعدّان خططاً ، ويتناقشان . اما انـــا فكنت انظر الى اسنانه . لا يوجد في الجسم شيء صادق غير هذا : الاسنان التي يتكشف منها الهيكل العظمي . ونظرت الى هيكل روبــير العظمي وقلت في نفسي : « انه ينتظر ساعته » . ستأتي الساعة سيتركوننا نذبل فترة ما ، طويلة او قصيرة ، لكن لا يوجد عفو قط . سأرى روبير ممــدداً على سرير ، شمعي اللون ، وعلى شفتيه ابتسامة كاذبة . سأكون وحيدة امــام جثته . اي كذبة ، اولئك الراقدون المتحجرون المطمئنون الذين ينامون جنباً الى جنب في السراديب، واولئك الازواج المتعانقون تحت توابيتهم ! من الممكن ان يخلط رمــادنا بعضه ببعض : لكن لن تمتزج ميتانا . لقد اعتقدت طوال عشرين عاماً اننا نعيش معاً. لكن لا . كل منا وحيد ، حبيس في جسده ، مـــع شرايينه التي تتصلب تحت الجلد الذي ييبس ، مع كبده، مع كليتيه اللتين تهترئان ودمه الذي يشحب ، مع موته الذي ينضج في صمت في داخله والذي يفصله عن سائر الآخرين .

انني أعرف ما سيقوله لي روبير ، فقد سبق وقــاله لي : « انني لست ميتــاً اوقف التنفيذ فيه . انني حي » . كان قد اقنعني . لكن ذلك لأنه كان يخاطب لحظتها امرأة حية ، والحياة هي حقيقة الاحياء . كنت العب مع فكرة الموت: مع الفكرة فقط . كنت لا أزال من هذا العالم . اما اليوم فالأمر يختلف . لم اعد

العبث. ان الموت هنا. انه يحجب زرقة السماء، وقد ابتلع الماضي والتهم المستقبل. ان الارض جليدية ، وقد استعادها العدم . ولا يزال حلم خبيث يطوف عبر الابدية : فقاعة سوف أفقأها .

استندت الى مرفقي . نظرت الى البيت ، الى شجرة الزيزفون ، الى المهد حيث تنام ماريا . انه يوم كسائر الايام ، والسماء في الظاهر زرقاء . لكن أي صحراء ! كل شيء صامت . لعل هذا الصمت هو صمت قلبي فقط . لم يعد فيّ حب ، لأحد ، لشيء . كنت افكر : « العالم واسع ، لا ينفد ، ولا تكفي حياة واحدة للانتشاء به ! » . ونظرت اليه بلامبالاة ، اذ لم يعد الا منفى لا محدوداً . ما تهمني دروب المجرة البعيدة وملايين البشر الذين سيجهلونني قط ! ليس لي الا حياتي ، ولا قيمة لغيرها ، الا انه لم يعد لها قيمة . لم أعد أرى ما افعله على الأرض . مهنتي ، يا للمزحة ! كيف سأجرؤ على منع امرأة من البكاء ، على ارغام رجل على النوم ؟ نادين تحب هنري ، ولم يعد لي حساب عندها . ولقد كان روبير سعيداً معي كما كان يمكنه ان يكون سعيداً مع غيري او بمفرده . « اعطه ورقاً ، وقتاً ، فلا ينقصه شيء » . سيأسف علي ، بالتأكيد . لكنه ليس موهوباً في التأسفات ، وعلى كلٍ سرعان ما سيكون تحت التراب ، هو بدوره . كان ليويس بحاجة إليّ وفكرت : « فات الأوان للبدء ، فات الاوان للبدء من جديد » ، وقدمت لنفسي اسباباً ، فهجرتني الاسباب كافة . لم يعد بحاجة إليّ . وارهفت اذني : لا نداء ، في اي مكان . لا شيء يحميني ضد تلك الزجاجة الصغيرة التي تنتظرني في قاع علبة قفازي .

نهضت ، ونظرت الى ماريا . على وجهها الصغير المغمض ، لمحت ايضاً موتي . ذات يوم ، ستبلغ عمري ولن اكون موجودة . انها نائمة ، تتنفس ، وهي حقيقية تماماً : إن لديها واقع المستقبل والنسيان . سيكون الخريف ، وستتنزه في هذه الحديقة ، او في مكان آخر . واذا لفظت من قبيل الصدفة اسمي ، فلن يجيبها احد وسيضيع صمتي في الصمت الكوني . لكنها لن تلفظه . سيكون غيابي تاماً للغاية حتى ان الجميع سيجهلونه . هذا الفراغ يصيبني بالدوار .

بيد اني اذكر ان الحياة كانت جميلة كمعرض ، احياناً ، والنوم حنوناً كابتسامة . في « غاو » ، كنا ننام على سطح الفندق ، وكان النسيم يتغلغل عند الفجر في الكلة فيهتز السرير كمركب . كان ذلك على ظهر مركب تفوح منه رائحة القطران ، وكان بدر كبير برتقالي يرتفع خلف « ايجين » . كانت السماء والارض تمتزجان في مياه المسيسيبي . وكانت الارجوحة تتأرجح في الباحة حيث كانت ضفادع تنق ، وكنت أرى مجموعات النجوم تتزاحم فوق رأسي . ونمت على رمال الكثبان ، على تبن الاهراء ، على العشب ، على إبر الصنوبر ، تحت الخيام ، في ملعب دلف وفي مسرح ابيدور ، وسقفي السماء ، على حضيض قاعات الانتظار ، على مقاعد خشبية ، على أسرّة قديمة ذات مظلات ، على أسرّة ريفية كبيرة محشوة بالزغب ، وعلى شرافات ، وعلى كراسٍ ، وعلى أسطحة . ونمت أيضاً في اذرع .

كفى ! كل ذكرى توقظ احتضاراً . كم من ميتات احمل فيّ ! ماتت الفتاة الصغيرة التي كانت تؤمن بالجنة ، ماتت الفتاة الصبية التي كانت تحسب الكتب خالدة ، والافكار والرجل الذي كانت تحبه ، ماتت المرأة الشابة التي كانت تتنزه طافحة النفس في عالم موعود بالسعادة ، ماتت المحبة التي كانت تستيقظ ضاحكة بين ذراعي ليويس . مت كما مات دييغو ومات ليويس . وهن ايضاً ، بلا قبور : لهذا يحرم عليهن سلام الجحيم . انهن لا يزلن يذكرن انفسهن ، بضعف وينادين النوم بآنات . الشفقة عليهن . لندفنهن جميعاً دفعة واحدة .

سرت نحو البيت ، ومررت دونما صوت أمام نافذة روبير . انه جالس الى طاولته ، يعمل . ما اقربه ! ما ابعده ! يكفي ان اناديه ، فيبتسم لي : ثم ؟ سيبتسم لي عن بعد : بعد لا يُتخطى . ليس ثمة من عمر ، من حياته الى موتي . صعدت الى غرفتي ، فتحت علبة القفاز : أخذت الزجاجة . انني أمسك بالموت الذي فيّ ، بيدي : مجرد زجاجة صغيرة داكنة اللون . وفجأة ، لم تعد تهددني ، فهي تتعلق بي . رقدت على السرير ، مطبقة على الزجاجة ، وأغمضت عيني .

كنت أشعر ببرد ، بيد انني كنت اسيل عرقاً . كنت خائفة . ثمة شخص

سيسمّمني . كنت انا ، ولم اعد انــا ، وكان ظلام اسود ، وكان كل شيء بعيداً قصياً. شددت على الزجاجة . كنت خائفة. لكني كنت اريد ، من كل روحي ، ان اقهر الخوف . سأقهره . سأشرب . والا عاد كل شيء من جديد . لا اريد . سيعود كل شيء من جديد . سأستعيد افكاري المنظمة ، في نظامها ذاته ابداً ، وكذلك الاشياء ، والنـــاس ، وماريا في مهدها ، وديبغو في لامكان ، وروبير يمضي بهدوء الى موته ، وليويس الى النسيان ، وأنا الى العقل، العقل الذي يحفظ النظام : الماضي في الخلف ، المستقبل في الامــام ، لامرئياً ، النور المفصول عن الظلمات ، هـــذا العالم المنبجس بانتصار من العدم ، وقلبي حيث يخفق ، لا في شيكاغو ، ولا قرب جثــة روبير ، لكن في قفصه ، تحت ضلوعي . سيعود كل شيء من جديد . سأقول في نفسي : « اصابتني نوبة انهيار عصبي » . البداهـــة التي تسمرني الى هذا السرير ، سأفسرها بالانهيار العصبي . كلا ! لقد أنكرت بما فيه الكفاية ، نسيت بما فيه الكفاية ، هربت بما فيه الكفاية ، كذبت بمــا فيه الكفاية . لمرة ، لمرة واحدة والى الابد ، اريد للحقيقة ان تنتصر . لقــد تغلب الموت : انه هو الحقيقي ، الآن . تكفي حركة ، فتصبح هذه الحقيقة ابدية.

فتحت عيني . كان النهار . لكن لم يعد ثمــة فرق بين الليل والنهار . كنت اطوف فوق الصمت : صمت ديني كبير كما في الزمن الذي كنت ارقـــد فيه على فراشي منتظرة ان يخطفني ملاك. كانت الحديقة والغرفة صامتتين . انا كذلك. لم اعد خائفة . كل شيء يقبل بموتي . انا اقبل بـــه . لم يعد قلبي يخفق لأحد : كأنه لم يعد يخفق قط ، كأن سائر البشر قد استحالوا غباراً .

تصاعدت ضوضاء من الحديقة : اقدام ، أصوات . لكنها لم تكن تزعـــج الصمت . كنت أرى ، وكنت عمياء ، كنت اسمع وكنت صماء . لقـــد قالت نادين بصوت مغضب عالٍ جداً: «ما كان يجب على ماما ان تترك ماريا بمفردها». ومرت الكلمات فوق رأسي دون ان تلامسني : لم تعد الكلمات تستطيع ان تصيبني . فجــأة ، ارتفع في صدى ضعيف ، صوت صغير مضنٍ . « هل حدث شيء ما ؟ » . ماريا بمفردها على الممر المعشوشب : يمكن لهر ان يخدشها ، لكلب

ان بعضها . كلا : انهم يضحكون في الحديقة . لكن الصمت لم يطبق من جديد. وردد الصدى : «ما كان يجب علي» . وتصورت صوت نادين ، قوياً مستنكراً: « ما كان يجب عليك ! لم يكن لـك الحق ! » . تصاعد الدم الى وجهي ولسع قلبي شيء ما حيّ : « ليس لي الحق ! » . أيقظتني اللسعة . انتصبت ، نظرت الى الجدران في ذهول . كنت امسك بالزجاجة في يدي، وكانت الغرفة فارغة، لكني لم اعد بمفردي . سيدخلون الى الغرفة . لن أرى شيئاً ، لكنهم سيرونني . كيف لم افكر في ذلك ؟ لا استطيع ان اخلّف لهم جثتي وكل مـا سيتبعها في قلوبهم هم: روبير محني على هذا السرير، ليويس في دار باركر مع كلمات تتراقص امـام ناظريه ، نحيب نادين الخانـق . لا استطيع . نهضت ، خطوت بضع خطوات ، سقطت جالسة على مقعد زينتي . هذا غريب . سأموت بمفردي .بيد ان الآخرين سيعيشون موتي .

لبثت ، ملياً ، امام المرآة انظر الى وجهي، وجه الناجية من الخطر .كانت الشفتان سترزقّان ، والأنف سيتقلص. لكن لا من اجلي : من اجلهم . انموتي لا يخصني . الزجاجة لا تزال هنا ، بمتناول يدي ، الموت لا يزال مـاثلاً : لكن الاحياء ماثلون اكثر منه ايضاً . لن استطيع ان افلت منهم ، ما دام روبير على الأقل حياً . وضعت الزجاجة مكانها . محكومة بالموت ، لكن محكومة بالحياة ايضاً . كم من الزمن ؟ عشر سنين ؟ عشرين سنة ؟ كنت اقول : عشرون سنةمدة قصيرة. اما الآن فان عشر سنوات تبدو لي لانهائية، تبدو لي نفقاً طويلاً اسود.

— ألا تنزلين ؟

قرعت نادين الباب ، دخلت ، انها واقفة بجانبي . شعرت بنفسي اشحب . كانت ستدخل ، وستراني على السرير ، متشنجة الجسد : يا للفظاعة !

سألت بصوت قلق : — ما بك ؟ أمريضة ؟

— كنت مصابة بصداع . فصعدت اتناول اسبرين .

صوتي يخرج بدون جهد من فمي ، انه يبدو لي طبيعياً . وقـالت نادين في لهجة موبخة :

— وتركت ماريا بمفردها .

– كنت سأنزل ثانية فوراً ، لكني سمعتك . فبقيت لأستريح قليلاً .

واضفت : « لقد تحسنت حالي » .

نظرت إلي نادين في تشكك : لكن كل ما كانت تشك فيه ، هو ان قلبي في متاعب .

– أصحيح ؟ أتشعرين بتحسن ؟

– لقد افادني الاسبرين . » ونهضت لأفلت من هذه النظرة المسجونة : « لنهبط » .

ناولني هنري كأس وسكي. كان ينظر الى اوراقه مع روبير الذي راح يشرح لي اشياء في سيماء من بهجة . تساءلت في ذهول : « كيف امكنني ان أكون بهذا الطيش ؟ كيف لم افكر بتوبيخ الضمير اللامتناهي الذي كنت اعدّه له ؟ » . كلا ، لم يكن طيشاً . فللحظة من الزمن ، انتقلت فعلاً الى الجانب الآخر ، حيث لا يعود لشيء حساب ، حيث كل شيء يساوي لا شيء .

قال روبير : –أتسمعيني ؟ » وابتسم لي : « اين انت ؟ » .

فقلت : – هنا .

انني هنا . انهم يحيون ، انهم يكلمونني ، انني حية . ومن جديد ، وثبت مضمونة القدمين في الحياة . الكلمات تدخل الى اذني ، ورويداً رويداً تأخذ معنى. هي ذي تصميات الصحيفة الاسبوعية والنماذج التي يقترحها هنري. أليس لدي فكرة للعنوان ؟ إن اي اسم من الاسماء التي اقترحت حتى الآن لا يناسب. بحثت عن عنوان . قلت في نفسي انهم ما داموا أظهروا قوة كافية لانتزاعي من الموت، فربما استطاعوا ان يساعدوني من جديد على الحياة . سيستطيعون حتماً. اما ان نغوص في اللامبالاة ،.واما إن تعمر الارض ثانية . لم اغص . ما دام قلبي يتابع وجيبه ، فلا بد انه يخفق لشيء ما ، لأحد ما . ما دمت لست صماء ، فسوف اسمع نفسي من جديد انادي . من يدري ؟ ربما عدت من جديد ذات يوم سعيدة . من يدري ؟

انتهت